أبو فهر
محمود محمد شاكر



رسالة في الطريق إلى ثقافتنا

"مفتاح كل كتاب فهرس جامع،
فاقرأ الفهرس قبل كل شيء"

الناشر

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة . ت : ٨٢٧٨٥١

دار المدني بجدة
شارع الصحافة حي مشرفة
تليفون : ٦٧٠٠٧٨٨ - فاكس : ٦٧١٣٤٢٤

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويرى

مكتبة الخانجى

ص . ب ١٣٧٥ القاهرة

١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م

رقم الإيداع : ٢٠٩٨ / ٨٧

مطبعة المدنى المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٨٢٧٨٥١

أبو فهر
محمود محمد شاكر

رسالة في الطريق إلى ثقافتنا

بسم الله الرحمن الرحيم

قال رسول الله ﷺ :

« ألَا لَا يَمْنَعَنَّ رجُلاً هَيْبَةُ الناس ، أن يقول بحقٍّ إذا عَلِمَهُ » (١)

الحمدُ لله حمداً يُبَلِّغنى رضاهُ ، وإن كانَ جَهْدُ الحمدِ لا يَفِى بشُكْرِ نِعْمة واحدةٍ من نِعَمِه . اللهمَّ تجاوزْ عن تقصيرى فى حَمْدك ومَرْضاتك . اللهمَّ إنِّى فقيرٌ فأغْنِنِى ، وضعِيفٌ فقوِّنى ، وحَائرٌ فسدِّدنى ، ومَريضٌ فآشفِنى ، وجاهلٌ فعَلِّمنى ، وعاصٍ مُذْنِبٌ فَتُبْ علىَّ إنك أنتَ التوَّاب الرحيم . اللهمَّ صَلِّ على محمَّدٍ صلاةً أزْدَلِف بها إلى مغفرتِك ، وسلِّم عليه تسليماً يَحْشُرنى فى زُمْرةِ أوليائه ، ويُدْخِلُنى فى شَفاعته يومَ لا شفيعَ إلاَّ بإذنك . وصلِّ اللهُمَّ على أَبوَيْهِ الرسولين الكريمين إبْرٰهِيم وإسْمٰعيلَ ، وعلى سائر المُخْلَصين من أنبيائك ورُسُلك . ربِّ آغفر لى وآرحمنى برحمتك التى وسعت كُلَّ شىءٍ .

* * *

كلمةٌ لابُدَّ منها ، إلى قارىء كتابى هذا : « المتنبِّى »

لكىْ تكونَ على بيِّنةٍ ....

---

(١) هو من حديث أبى سعيد الخدرى ، من خطبة خطبها رسول الله ﷺ ، رواهَا أحمد فى المسند بطولها ٣ : ١٩ ، والترمذى فى السنن ، « كتاب الفتن » ، « باب ما جاء ما أخبر به النبى ﷺ بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة » ، ورواه مختصراً كما أثبتُّهُ أحمد فى المسند ٣ : ٥ ، ٧١ ، وابن ماجه فى السنن ، « كتاب الفتن » ، « باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

١ – آعلم أنّى قَضيتُ عشرَ سنواتٍ من شبابى ، فى حَيْرَةٍ زائغة ، وضَلالةٍ مُضْنِيةٍ ، وشكوكٍ مُمَزِّقةٍ ، حتى خِفْتُ على نفسى الهلاكَ ، وأن أخسرَ دُنْيَاىَ وآخِرتى ، مُحْتَقِباً إثْماً يَقذفُ بى فى عَذَابِ الله بما جَنَيْتُ . فكانَ كُلّ همّى يومئذٍ أن ألتمِسَ بَصِيصاً أَهتدى به إلى مَخْرجٍ يُنْجِينى من قَبرْ هذه الظُّلُمات المُطْبِقةِ علىَّ من كُلّ جانبٍ . فمنذُ كنت فى السابعةَ عشرة من عمرى سنة ١٩٢٦ ، إلى أن بلغت السابعة والعشرين سنة ١٩٣٦ ، كنتُ منغمِساً فى غِمارِ حياةٍ أدبية بدأتُ أحسُّ إحساساً مُبْهماً متصاعداً أنّها حياةٌ فاسدةٌ من كُلِّ وجْهٍ . (١) فلم أجدْ لنفسى خلاصاً إلاّ أن أرفُضَ متخوِّفاً حَذِراً ، شيئاً فشيئاً ، أكثرَ المناهج الأدبيّة والسياسية والاجتماعية والدينية التى كانت يومئذٍ تَطْغَى كالسيل الجارِف ، يهدمُ السدودَ ، ويُقوِّض كُلّ قائمٍ فى نفسى وفى فِطْرتى .

ويومئذٍ طوَيْتُ كُلَّ نفسى على عزيمةٍ حذَّاء ماضيةٍ : أن أبدَأ ، وحيداً منفرداً ، رحلةً طويلةً جدًّا ، وبعيدةً جدًّا ، وشاقَّةً جدًّا ، ومُثِيرَةً جدًّا . بدأتُ بإعادة قراءة الشعر العربىّ كُلِّه ، أو ما وقَع تحتَ يدى منه يومئذٍ على الأصحّ ، قراءةً متأنِّية طويلةَ الأناةِ عند كُلِّ لفظٍ ومعنىً ، كأنّى أُقَلِّبُهما بعقلى ، وأَرُوزُهما (أى : أَزِنُهما مختبراً) بقلبى ، وأَجُسُّهما جَسًّا ببصرى وببصيرتى ، وكأنّى أريدُ أنْ أتحسَّسَهما بيدى ، وأَسْتَنْشِيَ (أى : أَشَمَّ) ما يَفُوحُ مِنْهما بأنفِى ، وأَسَّمَّعَ دَبيبَ الحياةِ الخفىِّ فيهما بأذنَىَّ = ثُمَّ أتذوَّقُهما تذوُّقاً بعقلى وقلبى وبَصيرتى وأَنَامِلِى وأنفى وسَمْعى ولسانِى ، كأنى أطلُبُ فيهما خَبيئاً قد أخفاهُ الشاعرُ الماكرُ بفنّه وبراعتِه ، وأتدسَّسُ إلى دَفِينٍ قد سقط من الشاعر عَفْواً أَوْ سَهْواً تحت نَظْم كلماتِه ومعانيه ، دون قَصْدٍ منه أو تَعَمُّدٍ أو إرادةٍ . (٢)

---

(١) انظر مقدمة كتابى « أباطيل وأسمار » ص : ١٠ ، ١١ ، ومواضعَ أُخَر مما كتبتُ .

(٢) قد حسمتُ قضية « التذوُّق » ، ولم سمَّيْتُ منهجى منهج « التذوُّق » ، فى كلمتين نشرتهما فى مجلة =

٢ – لا تقُلْ لنفسك : « هذا مَجازٌ لفظىٌّ » ! كلَّا ، بل هو أشبهُ بحقيقةٍ أيقنتُ بِها ، لأنّى سخَّرتُ كُلَّ ما فَطرنى اللهُ عليه ، وأيضاً ، كُلَّ معرفةٍ تُنَال بالسَّمْع أو البَصَر أو الإحساس أو القراءة ، وكُلَّ ما يدخُل فى طَوْقى من مراجعة واستقصاءٍ بلا تهاونٍ أو إغفالٍ = سخَّرتُ كُلَّ سَليقةٍ فُطِرتُ عليها ، وكُلَّ سَجيَّةٍ لانَتْ لى بالإدراكِ ، لكَىْ أنفُذَ إلى حقيقة « البَيَانِ » الذى كرَّم اللهُ به آدمَ عليه السلام وأبْنَاءَهُ من بعدِه . وهذا أمرٌ شاقٌ جدًّا ، كانَ ، ومُثِيرٌ جدًّا ، كان ، ولكن المطلبَ البعيدَ هوَّنَ عندى كُلَّ مشقَّةٍ وضَنًى .

٣ – اكتسبتُ يومئذٍ بعضَ الخبرةِ بلغة « الشعر » ، وبفنِّ الشُّعراءِ وبراعاتِهم . ثُمَّ ٱنفتحَ لى ، فى خلالِ ذلك ، بابٌ آخر من النَّظر . قلت لنفسى : « الشعر » كلامٌ صادرٌ عن قلبِ إنسانٍ مُبينٍ عن نفسه . فكُلّ « كلامٍ » صادرٍ عن إنسانٍ يريدُ الإبانة عن نفسه ، خليقٌ أنْ أُجْرِىَ عليهِ ما أَجريتُه على « الشعر » من هذا « التذوّق » الشامِل الذى وصفته آنفاً . فأخذتُ أُهْبَتى لتطبيق هذا « التذوّق » على كُلِّ كلامٍ ، ما كانَ هذا الكلامُ . فأقدمتُ إقدامَ الشبابِ الجرىء على قراءَة كُلِّ ما يقع تحتَ يَدِى من كُتُب أسلافنا : من تفسيرٍ لكتاب الله ، إلى علوم القرآن على اختلافها ، إلى دواوين حديث رسول الله ﷺ وشُروحها ، إلى ما تفرَّع عليه من كُتُب مصطلح الحديث وكتب الرجال والجرح والتعديل ، إلى كُتُب الفقهاءِ فى الفقه ، إلى كتب أصول الفقه وأصولِ الدين (أى : علم الكلام) ، وكُتُب الملل والنِّحَل ، ثم كتب الأدب وكتب البلاغة ، وكتب النَّحْو وكتب اللغة ، وكُتُب التاريخ ، وما شئت بعد ذلك من أبواب العلمِ . وعَمَدتُ فى

= الثقافة فى العددين : ٦١ (أكتوبر سنة ١٩٧٨) / ٦٣ (ديسمبر سنة ١٩٧٨) ، وأنّى لا أعنى به ما يجرى على ألسنة الكتاب : « يتذوّقُ الجمال » و « يتذوق الفن » ، فهذا كلامٌ غيرُ دَالٍّ على منهج . وليس هذا مكانَ بيانه مرةً أخرى . ولم أُتمَّ كتابة هذه المقالات ، وسأنشرها قريبًا بعنوانها : « المتنبى ليتنى ما عرفتُه » .

رحلتى هذه إلى الأقدمِ فالأقدمِ . كُلُّ إرْث آبائى وأجدادى ، كنت أقرؤه على أنّه إبانَةٌ منهم عن خَبايا أنفسهم بِلُغتِهم ، على اختلاف أنظَارهم وأفكارهم ومناهجهم . وشيئاً فشيئاً انفتح لى البابُ يومئذٍ على مِصْراعَيْه . فرأيتُ عجباً من العَجبِ ، وعَثرتُ يومئذٍ على فيضٍ غزيرٍ منْ مُسَاجَلَات صامتَةٍ خفيَّةٍ كالهمسِ ، ومساجلاتٍ ناطقةٍ جَهِيرة الصوت ، غيرَ أنَّ جميعَها إبانَةٌ صادقةٌ عن هذه الأنفس والعقول .

أمدَّتنى هذه التجربةُ الجديدة بخِبْراتٍ جَمَّةٍ متباينة متشعِّبةٍ ، أتاحت لى أنْ أجعل منهجى فى « تذوّق الكلام » منهجاً جامعاً شاملاً متشعِّبَ الأنحاءِ والأطْرافِ ، يزدَادُ مع تطاوُل الأيام رَحابةً وسَعَةً ، وحِدَّةً ومَضاءً ، ونَفَاذاً ودِقَّة ، وشُمولاً واستقصاءً .

٤ — ولا أزعُمُ ، مَعَاذ الله ، أنِّى آبتدعتُ هذا المنهج ابتداعاً بلا سابقةٍ ولا تمهيد ، فهذا خَطَلٌ وتَبجُّحٌ . بل كُلُّ ما أزعُمهُ أنِّى بالجُهْد والتَّعب ، وبمعاناة التفتيش فى هذا الرُّكَامِ من الكلام ، جمعتُ شَتَات هذا المنهج فى قلبى ، وأصَّلت لنفسى أصولَه ، مع طول التنقيب عنْه فى مَطاوِى العِبَارات التى سبق بها الأئمة الأعلام من أصحاب هذه اللغة ، وهذا العلم ، فى مباحثهم ومساجلاتهم ومُثَاقَفاتهم وما يتضمَّنه كلامهم من النقد والاحتجاج للرأى . وكلُّ ما وقفتُ عليه من ذلك ، كان خفيًّا فآسْتَشْفَفْتُه ، ودَفِيناً فآسْتَنْبطتُّه ، ومشتَّتاً فجمعتُه ، ومفكَّكاً فلاءَمْتُ بين أَوْصالِه ، حتى استطعتُ بعد لأْيٍ أن أمهِّد لفكرى طريقاً لاحباً مُسْتَتِبًّا يَسيرُ فيه ، أى صيَّرتُه « منهجاً » التزمتُ به فيما أقرأُ وما أكتب .

ومع ذلك ، فقد كنت أتوهَّم فى سنة ١٩٣٥ حين فرغتُ من إجراءِ منهجى فى « تذوّق الشعر » على كل كلامٍ غير الشِّعر ، أنِّى قد سَبَقْتُ إلى ذلك ، حتى كانت سنة ١٩٥٦ ، أى بعد أكثر من عشرين سنة ، حين طُبعتْ « الرسالة الشافية » للإمام

الجُرْجانىّ ، [١] (عبد القاهر بن عبد الرحمن الجُرْجانى ، المتوفى سنة ٤٧٤ تقريباً) ، فوقفْت على فصل نفيس جدًّا كتبه الإمام الجرجانى الكبير ، هو أوضحُ ما قرأتُه قطُّ ، فى إجراء « التذوُّق » على كُلِّ كلامٍ ، فى كُلِّ عِلْمٍ ، مَهما ظننتَ أنّه أبعدُ علمٍ من إجراء « التذوُّق » عليه . وكلامُ هذا الإمام الجليل ، وإن لم يكن صريحاً كُلَّ الصراحة فى الدلالة على منهجى ، إلاّ أنَّه أشبهُ شيءٍ به . و « الرسالة الشافية » رسالةٌ فى إعجاز القرآن ، من غير الوجه الذى بَنَى عليه كتابه « دلائل الإعجاز » . وهذا الفصْل من الرسالة ، [٢] بيانٌ لحالِ المعانى : « وأن الشاعرَ يسبقُ فى الكثير منها ، إلى عبارة يُعْلَم ضرورةً أنها لا يجيءُ فى ذلك المعنى إلاّ ما هو دونها ومنحطٌّ عنها ، حتّى يُقضَى له بأنَّه غَلَبَ عليه واستبدَّ به » ، وذكر أشعاراً قد بلغت الغايةَ فى معناها ، ولم يبق لطالبٍ بعدها مطلبٌ . ثم قال (ص : ٦٠٤ / الفقرة : ٢٩) :

« وكذلك السبيلُ فى المنثورِ من الكلام ، فإنَّك تجدُ متى شئتَ فصولاً تعلمُ أن لن يُسْتَطاعَ فى معانيها مِثْلُها . فمِمَّا لا يخفَى أنَّهُ كذلك قولُ أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضوان الله عليه : « قِيمةُ كُلِّ آمرىءٍ ما يُحْسِنُه » ، وقولُ الحسن (البصرى) رحمةُ الله عليه : « ما رأيتُ يقيناً لا شَكَّ فيه ، أشْبَهَ بشكٍّ لا يقينَ فيه ، من الموت » ، ولن تَعْدَم ذلك إذا تأمَّلتَ كلامَ البلغاءِ ونظرتَ فى الرسائل » .

ثم قال عبد القاهر بِعَقِبِ ذلك مباشرةً = وهنا موضع الاستدلال ، وفيه نظرٌ جيِّد ظاهرُ الجَوْدة والبراعة والتيقُّظ :

---

(١) نشرها الأستاذان محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام ، فى سلسلة « ذخائر العرب » (دار المعارف) . ثم نشرتها أنا ملحقةً بكتاب « دلائل الإعجاز » للجرجانى فى سنة ١٩٨٤ ، (مكتبة الخانجى بالقاهرة) .

(٢) يقع هذا الفصل فى طبعتى لكتاب « دلائل الإعجاز » من ص : ٦٠٢ إلى ص : ٦١٠ .

« ومن أخصِّ شيء يُطْلَبُ ذلك فيه ، الكتبُ المبتدأة الموضوعةُ فى العلوم المستخرجة ، فإنّا نجدُ أربابها قد سَبقُوا فى فصولٍ منها إلى ضَرْبٍ من النَّظْم واللفظ ، أعْيَا من بعدهُمْ أن يطلبُوا مثلَهُ ، أو يجيئُوا بشبيهٍ له ، فجعلوا لا يزيدون على أن يحفظُوا تلك الفصُولَ على وجوهها ، ويُؤَدُّوا ألفاظَهم فيها على نِظَامِها وكما هِىَ . وذلك مثلُ قول سيبويه فى أوّل الكتاب ، (١ : ٢) :

« وأمَّا الفعلُ فأمثلةٌ أُخِذَتْ من لفظ أحداثِ الأسماء ، وبُنِيَتْ لما مضَى ، وما يكونُ ولم يَقَعْ ، وما هو كائنٌ لا ينقطع » .

= « لا نعلمُ أحدًا أتى فى معنى هذا الكلامِ بما يوازنُه أو يُدَانيه ، ولا يقعُ فى الوهْمِ أيضاً أن ذَلك يُستَطاع . ألا ترى أنّه إنّما جاء فى معناه قولُهم : « والفعلُ ينقسم بأقسام الزمان ، ماضٍ وحاضرٌ ومستقبلٌ » ، وليس يخفَى ضَعْفُ هذا فى جَنْبِه وقصورُهُ عنه . ومثلُهُ قوله (أى قول سيبويه أيضاً فى الكتاب ١ : ١٥) : « كأنهم يُقَدّمون الذى بيانُه أهمُّ لهم ، وهم بشأنه أَعْنَى ، وإن كانَا جميعاً يُهِمَّانهم ويَعْنِيانهم » ، = وإذا كانَ الأمرُ كذلك ، لم يمتنع أن يكونَ سبيلُ لفظ القرآنِ ونَظْمه هذا السبيلَ ، وأن يكون عجزُهم عَنْ أن يأتوا بمثله فى طريق العَجْزِ ، كما ذكرنَا ومَثَّلنَا » ، انتهى كلام عبد القاهر .

° ° °

٥ — فهذا الإمامُ البارع اليقِظُ ، لَمْ يَجِدْ = وهو يعالجُ قضيّةَ إعجاز القرآن العظيم ، ويمارسُ تطبيق فكرته المبتدعة التى سبق بها الناسَ ، وهى قضية « اللفظ والنَّظْم » ، وهُمَا عَمودُ مذهبه فى إعجاز القرآن وفى البلاغة والكلام البليغ = لم يجد غَضَاضةً فى تطبيق فكرته فى الإعجاز ، على حدٍّ من حدود « الفعل » ، وهو الحدّ الذى كتبه إمامُ النحو سيبويه ، ولم يستنكِفْ أن يجعله قريناً للكلمات الجامعة الشريفة ، التى

يُهْدَى إليها شاعرٌ مبينٌ أو ناثرٌ بليغ ، ولم يتوقَّف فى الحُكم عليها بأنها من الكلمات الشريفة الجامعة ، ممّا لا يقع فى الوَهْم أنّ أحداً يستطيع أن يأتى فى هذا المعنى بكلامٍ يُوَازِنُها أو يدانِيها ، وأنها كلامٌ بيِّنٌ قد بلغ الغاية فى البيان ، « ولم يبق لطالبٍ بعدهُ مَطْلبٌ » .

وعبد القاهر حكَم حُكْماً لم يبيِّنْ لنا مَأْتَاهُ ولا تفصيلَه حين قال : إن المعنى الذى جاءَ فى معنى كلام سيبويه هو قولهم : « والفِعْلُ ينقسم بأقسام الزمان : ماضٍ وحاضرٌ ومستقبلٌ » ، ثم قال : « وليس يخفَى ضعفُ هذا فى جَنْبه وقُصُوره عنه » ، ولم يزد على هذا شيئاً . وقبل كُلّ شيءٍ ، فهذا الذى استضعفهُ إلى جَنْب كلام سيبويه ، إنما هو نصُّ كلام أُستاذه وإمامِه الذى يُغَالى فى أستاذيته ويقدِّمه تقديماً على سائر النحاةِ ، أبى علىّ الفارسىّ فى كتابه « الإيضاح » فى النحو ، والذى عُنِى هو نفسه بشرحه شَرْحين : أحدهما كتاب « المُغْنِى » ، وهو شرح مطوَّل فى ثلاثين مجلَّدةً ، والآخر هو « المقتصد » وهو مختصرٌ منه فى مجلَّدتين ، ولم أجد عبد القاهر فى « المقتصد » ، [1] تعرَّض لنقد حدِّ شيخِه الفارسىّ ، ولا بيَّن لنا عن وجه ضعفه أو قُصوره . ووجدتُه صعباً عسيراً أنْ يُدْرك القارىء مَأْتَى هذا الحكم ، وإن كان عبد القاهر قد قال إنه « ليس بخَفِىّ » ، مع أنه خَفِىٌّ بلا شكٍّ فى خفائه . فرأيتُه واجبًا أن أجتهد اجتهاداً فى بيان مَأْتَى هذا الحكم ، لكى يتَّضح لك معناهُ فى كلام عبد القاهر . [2]

---

(١) انظر كتاب « المقتصد » لعبد القاهر ١ : ٨٢ ، ٨٣ ، طبع فى العراق سنة ١٩٨٢ .

(٢) الآن ، وأنا أطبع الكتاب ، وافانى ولدى الكريم الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ، بالصفحات الأولى من شرح كتاب سيبويه للإمام أبى سعيد السيرافى القاضى النحوىّ (الحسن بن عبد الله بن المزربان / ٢٨٨ – ٣٦٨ هـ) فلم أرهُ صنع شيئاً فى شرح عبارة سيبويه ، وإنّما هو ما دَرَج عليه النحويُّون فى أقسام زمان الفعل : « ماض ، وحاضِرٌ ، ومستقبل » لا غير ، فيكون ما كتبتهُ لك بَعْدُ أوّلَ بيانٍ عن جميع عبارة سيبويه بلا إغفالٍ لشىءٍ منها كما أغفلوه .

فسيبويه حينَ حدّ « الفعل » فى أول كتابه ، لم يُرِدْ أمثلتَهُ التى هى عندنا : فعلٌ ماضٍ نحو « ذهبَ » ، ومضارعٌ نحو « يذهبُ » ، وأمرٌ نحو « آذهبْ » ، بل أراد بيانَ الأزمنةِ التى تقترن بهذه الأمثلة كيف هى فى لسان العرب ، فجعلها ثلاثة أزمنة :

فالزمن الأول ، هو المقترن بالفعل الماضى الذى يدلُّ على فِعْلٍ وَقَعَ قبل زمن الإخبار به كقولك : « ذهب الرجلُ » ، ولكن يخرجُ منه الفعل الذى هو على مِثَال الماضى أيضاً ، ولكنه لا يدلُّ على وقوع الحدث فى الزمن الماضى ، نحو قولك فى الدعاء : « غَفَر الله لك » ، فإنّه يدخل فى الزمن الثانى ، كما سأُبَيِّنهُ بَعْدُ .

وأمّا الزَمن الثانى ، فهو الذى عبَّر عنه سيبويه بقوله بعد ذلك : « ومَا يَكونُ ولم يَقَعْ » ، وذلك حين تقول آمراً : « آخرُجْ » ، فهو مقترنٌ بزَمنٍ مُبْهم مُطْلَقٍ مُعَلَّقٍ لا يدلُّ على حاضر ولا مستقبل ، لأنه لم يقع بعدُ خروجٌ ، ولكنه كائنٌ عند نفاذِ « الخروج » من المأمور به = ومثلُه النهيُ حين تقول ناهياً : « لا تَخْرُجْ » ، فهو أيضاً فى زمن مُبْهم مُطْلَقٍ معلّقٍ ، وإن كان على مِثَال الفعل المضارع ، فقد سُلبَ الدلالة على الحاضر والمستقبل لأنه لم يَقَعْ ، ولكنه كائنٌ بامتناع الذى نُهِيَ عن الخروج = ومثلُه أيضاً فى مثال المضارع فى قولنا : « قاتلُ النفس يُقْتَلُ ، والزّانى المُحصَنُ يُرْجَمُ » فهما مِثَالانِ مضارعان ، ولا يدلّان على حاضر ولا مستقبل ، وإنما هما خبران عن حُكْم ، ولم يقَعا عند الإخبار بهما ، فهما فى زمنٍ مُبْهمٍ مُطْلَقٍ مُعَلَّق ، وهما كائنان لحدُوث القتل من القاتِلِ عند القِصَاصِ ، وحدوثِ الزّنا من الزانى المُحْصَن عند إنفاذِ الرَّجْمِ = ويدخُلُ فى هذا الزمن أيضاً نحو قولك : « غَفَر الله لك » فى الدعاء ، وهو على مثال الماضى ، فإنك لا تريدُ إخباراً عن غُفْران مَضَى من الله سبحانه ، ولكن تريد غُفْراناً من الله يكون ، ولكنه لم يقع بعدُ ، وترجو بالدعاءِ أن يقع .

وأما الزمنُ الثالث ، فهو الذى عبَّر عنه سيبويه بقوله : « وما هو كائنٌ لم ينقطع » ، فإنه خبرٌ عَن حَدَثٍ كائِنٍ حينَ تخبرُ به ، كقولك : « محمد يَضْرِبُ وَلَدَه » ، فإنّه خبر عن ضَرْبٍ كائنٍ حين أخبرتَ فى الحال ولم ينقطع الضربُ بعد مُضِيِّ الحال إلى الاستقبال = ويُلْحقُ بهذا الزَّمنِ الثالثِ أيضاً مِثالُ الفعل الماضى كقوله تعالى : « وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحيماً » ، فهو خبرٌ عن مَغْفرةٍ كانت ولا أوَّلَ لها ، وهى كائنةٌ أبداً لا انقطاعَ لها ، لأنها من صِفَات الله سبحانُه هو الأوَّلُ والآخرُ .

وبهذا البيان المُوجَز الذى أرجو أن أكون قد وُفِّقت فى بيانه ، يتبيَّن لك صِدْقُ عبد القاهر = بلا إبانةٍ كانت منه = فى الحُكم على عبارة أبى علىٍّ الفارسىّ بالقُصور والضعْف إلى جانب عبارة سيبويه الجامعة المُبينة ، فإن أبا على الفارسىِّ ، مع نَصِّه فى عبارته على « أقسام الزمان » حيث قال : « والفعل ينقسِم بأقسام الزمان : ماضٍ ، وحاضرٌ ، ومستقبلٌ » ، فإنه أسقط الزمن الثانى كُلَّه ، وهو الزمن المبهم المُطْلق المُعلَّق الذى دلَّت عليه عبارة سيبويه ، وكذلك فعلَ سائرُ النحاةِ ، فقد أسقطوا هذا الزمن إسقاطاً كاملاً ، ولم يُعْنَوْا به أىَّ عناية فى حدّ « الفعل » ، فلم يذكروا بأىِّ زمنٍ يقترن فعلُ الأمر والنهى = ولم يذكروا اقترانَ هذا الزمن الثانى بالفعل المضارع = ولا اقترانَهُ بالفعل الماضى أيضاً فى الدعاء = ولم يذكروا فى حدّهم هذا دخولَ الفعل الماضى فى الزمن الثالث ، زمن الفعل المضارع فى الحالِ والاستقبال ، كما مثَّلْتُ .

* * *

فأنتَ تراهُ عِياناً الآن ، أنّ سيبويه قد استطاع فى جملةٍ واحدة قصيرةٍ لا تتجاوز سطراً واحداً ، استطاع أن يُلمَّ بجميع الأزمنة المقترنة بأمثلةِ الفعل ، دون أن يُخلَّ بشىء

منها . فهى جملةٌ محكمة شديدةُ الإحكام ، عجز النحاة من بعده أن يلمُّوا بها فى حدودهم التى كتبوها عن حدّ الفعل . فأىَّ رجُل مُبِينٍ كان سيبويه !

● وأقول أنا : كان سيبويه رحمه الله ، حين كتب هذه العبارة وأمثالَها فى كتابه ، فى قمَّة الصفاءِ ، وفى ذِرْوَة اليَقَظَة ، تَسْمُو به أنبلُ عاطفةٍ من الوفاءِ لشيخه الخليل بن أحمد الفراهيدى ، (المتوفى سنة ١٧٥ ، أو قبلها) والذى مات ولم يجْمَع علمَهُ المستفيضَ فى كتابٍ جامع . فبعد موت الخليل = كما حدَّثَنَا نصرُ بن علىّ بن نصر بن علىّ الجَهضَمىُّ روايةً عن أبيه = أن سيبويه لقى أَبَاهُ علىَّ بن نصر بن علِىّ الجَهْضَمىّ (المتوفى سنة ١٨٧) ، وهو قرِينُ سيبويهِ فى الأَخْذِ عن الخليل والاختصاص به ، فقال له سيبويه : « يا علىُّ ، تعالَ نتعاوَنُ على إحياء علم الخليل » = فتقاعس علىٌّ ، (أى تأخَّرَ ولم يتقدَّم) ، وخذلَ سيبويه فيما أرادهُ ، فَحَمِىَ قلبُ سيبويه ، وعزم على أن ينفردَ بإحياء علم الخليلِ ، فَانبَرَى بكُلّ ما فى قلبه من الدِّيانَةِ ، والأَمانةِ والحبِّ والإخلاص ، مُستقِلاًّ وحدَهُ بالعِبْءِ ، وحَلَّق وحدَهُ كالعُقَابِ فى جوِّ العربية ، يُجَلِّى بعينيه النافذتين كُلَّ علم الخليل وغير الخليلِ ، وكُلَّ أساليب العربية ، وينقضُّ على المعانى بضبطٍ وإحْكَامٍ كإحكام العُقَاب الصَّيُود ، بكُلّ ما فى قلبه من القُدْرة على الإبانة والقُدْرة على الاستبانة . وهذا ظاهرٌ جلىٌّ لمن يقرأُ كتابَ سيبويه بتذوُّقٍ وتأمُّلٍ وأناةٍ ، ولكن أينَ هذا القارىء ! فمن أجل ذلك كان كتاب سيبويه بحراً زخَّارًا ، لم يبلُغْ مبلغَهُ فى الجودةِ والبيان عن معانى النحو نحوىٌّ واحدٌ ممَّن جاء بعدهُ وعبَّ من عُبَابه . وحُقَّ لعبد القاهر الإمامِ أن يجرِىَ عليه مذهبه فى قضية « النظم واللفظ » ، وأن يختارَ مِن عباراته عبارةً مُبينةً جامعةً ، ويجعلها قرينةً لأشرف العبارات المبينة فى شِعْر الشعراء ، وفى كلام البُلَغاء ، كعلىٍّ رضى الله عنه ، والحسن البصرىِّ رحمه الله .

* * *

٦ – أَظُنُّنِى قد أثقلتُ عليك ، أيها القارىء لكتابى هذا : « المتنبىّ » ، وأَبْعدْتُ بك الرحلة ، ولكننى لم أَبْعُدْ بك ، فى الحقيقة ، لأنِّى أردتُ أن تقفَ بالدليلِ الواضح ، على أن المنهج الذى استطعتُ أن أمهِّده لفكرى ، كان نابعاً من صميم المَنَاهج الخفيّة التى سنَّ لنا آباؤنا وأسلافُنَا طُرُقَها = وأن كُلَّ جُهْدى فيه ، هو معاناةٌ كانتْ منِّى لتبيُّن دُرُوبها ومسالكها ، ثم إزالةُ الغبارِ الذى طَمَس معالمَها ، ثم أن أَجْمَعَ ما تشتَّت أو تفرَّق من أساليبها ، معتمداً على دلالاتِ اللسانِ العربىِّ ، لأنّ كُلَّ ذلك مخبوءٌ تحت ألفاظ هذا اللسان العربىّ ، ومستكِنٌّ فى نَظْم هذا اللسان العربىِّ ، وهذا يكادُ يكون أمراً مسلَّماً ببديهة النظر فى شأن كل لغة وتُرَاثها . والذى لا يملكُ القدرة على استيعابِ هذه الدِّلالات وعلى استشفافِ خفايَاها ، غيرُ قادرٍ البتَّةَ على أن يُنْشِىء منهجاً أدبيًّا لدراسةِ إرْثِ هذه اللغة ، فى أىّ فرعٍ من فروعِ هذا الإرْثِ ، إلاَّ أَن يكون الأمر كُلُّه تبجُّحًا وغَطْرسةً وزَهْواً وغروراً وتغريراً ، كما هو الحال فى حياتنا الأدبيةِ هذهِ الفاسدَةِ .

هذا هو جوهَرُ حديثى عن منهجى فى « تذوق الكلام » كُلِّه شعراً ونثْراً ، وأخباراً تُرْوَى ، وعلماً يُكتبُ أو يُستخرجُ ، لأنَّ ذلك كُلَّه إنَّما هو إبانةٌ عمَّا تموجُ به النفوسُ ، وتَنْبِضُ به العقول . ففى نَظْم كُلِّ كلام وفى ألفاظه ، ولابُدَّ ، أثرٌ ظاهرٌ أو وَسْمٌ خفىٌّ من نفس قائله وما تَنْطوى عليه من دَفِينِ العواطِفِ والنوازعِ والأهواء من خيرٍ وشرٍّ أو صدق وكذب = ومن عَقْل قائله ، وما يكمُن فيه من جَنِينِ الفِكْر ، (أى مستوره) ، من نظرٍ دقيقٍ ، ومعانٍ جليَّةٍ أو خفيَّةٍ ، وبراعة صادقةٍ ، ومَهارَةٍ مُموَّهةٍ ، ومقاصدَ مَرْضيّةٍ أو مُسْتَكرهةٍ . فمنهجى فى « تذوُّق الكلام » ، مَعْنِىٌّ كل العناية باستنباط هذه الدفائن ، وباستدراجها من مكامِنها ، ومعالجةِ نَظْم الكلامِ ولفظه معالجةً تُتيح لى أن أنْفُضَ الظَّلامَ عن مَصُونها ، وأُمِيطَ اللثامَ عن أخفَى أَسْرارِها وأغْمَضِ سرائرِها . وهذا أمرٌ

لا يُسْتَطاعُ ولا تكون له ثَمَرةٌ ، إلاّ بالأناةِ والصَّبْر ، وإلاّ باستقصاء الجُهْد فى التثبُّت من معانى ألفاظ اللغة ، ومن مَجَارِى دلالاتها الظاهرةِ والخفيّة ، بلا استكراهٍ ولا عَجَلةٍ ، وبلا ذهابٍ مع الخاطر الأوّل ، وبلا توَهُّمٍ مُسْتَبِدٍّ تُخْضِعُ له نَظْمَ الكلام ولَفْظَه .

* * *

٧ - وأمرٌ كريهٌ ، أيها القارئ ، وبَغِيضٌ إلىَّ كُلَّ البُغْضِ ، أنْ أحدّثك عن أعمالى ، ولكن لابُدَّ مما ليس مِنْه بُدٌّ ، لكى تكون على بيِّنةٍ .

قد مضى الشبابُ وطُوِى بِسَاطُه ، ومضت تلك الأيامُ الغوابر المضيئةُ فى حياتى ، حتى كانت سنة ١٩٣٥ ، وأنا فى السادسة والعشرين من عُمرُى ، حين آستوَىَ لِىَ المنهجُ واستبانَ . فكانَ أوّلَ عملٍ طبَّقتُ فيه منهجى فى « تذوُّق الكلام » ، شعراً ونثراً ، وأخباراً تُرْوَى ، وعلماً يُكْتب أو يُسْتَخرج ، هو كتابى « المتنبِّى » ، الذى تولت نشره مجلة « المقتطف » فى عدد يناير سنة ١٩٣٦ . كان كتابى خالياً من كُلِّ إبانةٍ عن هذا المنهج أو إشارةٍ إليه . فكانَ صدورُه يومئذ مفاجأةً وجَّهتْ أنظار الأدباء جميعاً فى كُلِّ بلدٍ ينطقُ اللسان العربىّ ، إلى آسمٍ مَجْهول وكاتبٍ مغمورٍ ، وأصبحتُ فى خَفْقَةٍ كخَفْقةِ البرقِ آسماً مشهوراً عندهم وكاتباً مذكوراً .

وأنتَ لم تشهد تلك الأيَّامَ كيف كانت ، ولا تجدُ اليومَ من يحدّثك عنها غَيْرى . وكُلُّ ما بقى منها أنَّك تعرفنى اليومَ معرفةً مبهمةً بلا دليلٍ يرشدُك ، إلاّ هذا الصيتُ الكاذبُ الذى لا أظنُّ أنَّ له عندك حقيقةً تعرِف بها صدقَهُ ، والذى أكْسَبَتْنيهِ تلك المفاجأة المثيرةُ المتقادمة المُوغِلَةُ فى البعد عنك .

كانَ السببُ فى هذه المفاجأةِ المثيرة ، أنّ جمهرة الأدباءِ والقارئين يومئذٍ ، وقعُوا على

كتابٍ فيه ترجمةٌ للمتنبيِّ ، مكتوبٍ على مَنْهَجٍ وجدُوهُ فريداً متميِّزاً ، مبايناً مَدَبُّه كلَّ المباينةِ ، لجميع المناهج الأدبية المختلفة المألوفة ، والتى كانت تغمرُ ساحة الأدب ، ولا تزالُ تغمُرُها مع الأسف . وهذا أمرٌ تستطيع أن تستوثقَ من صِحَّته بالنظر فى كُلِّ ما كَتبَ الكاتبون عن الشِّعر والشعراء وغير الشعراء قبلَ هذا الكتابِ . كانُوا يُحِسُّون إحساساً خفيًّا بهذه المباينةِ الظاهرةِ ، وقد عبَّر عن هذا الإحساس الخفىّ أقرانى وأساتذتى وشيوخى الكبار ، مُعَارِضِين أو مُثْنِينَ ، كُلٌّ عبَّر بطريقته وأسلوبه عن هذا الإحساسِ الخفىّ ، بكلامٍ مكتوبٍ ، أو حديثٍ جرَى بينى وبينهُم . [1] ولأنى أصدرتُ هذا الكتابَ خِلْواً من مقدّمة تتحدَّثُ عن منهجى الذى بَنَيْتُ عليه ترجمتى للمتنبيِّ ، فقد كان ما لا بُدَّ أن يكونُ . فالحياةُ الأدبيَّةُ الفاسدةُ الَّتى سنَّ للناس سُنَنها شيوخُنا الأدباءُ الكبارُ ، والتى نعيش فيها إلى هذا اليوم = وآفاتٌ أخرى كانوا يتعايشون بها ، وبثُّوها فى تلاميذهم وأشياعهم = كلُّ ذلك لم يَكُنْ يُتِيح لأحدٍ ، إلاّ مَنْ عَصَمَ اللهُ ، أن يجدَ من وقته ساعاتٍ للتأمُّل والأناةِ والصبْرِ ، للبحث عن هذا المنهج الغريب غير المألوف الذى وجده أمَامَهُ مطبّقاً فى كتاب كاملٍ ، وأحسَّ به كُلٌّ منهم إحساساً خفيًّا دعاهُ إلى المعارضة أو الثناءِ . وهذا خِذْلانٌ كبيرٌ ، غَفَر اللهُ لنا ولهم ، وتجاوَز عن سيِّئاتنا وسيِّئَاتهم .

كانَ ما لابُدَّ أن يكونَ ، فبقى منهجى مَنْهجاً غيرَ بيِّنٍ ، بل صارَ منهجاً مغموراً تطمِسُ مَعالمَهُ المناهجُ الفاشيةُ الغالبةُ على هذه الحياة الأدبية الفاسدة . ثم جاءَ من بَعْدِ

---

(١) ستجد طرفاً من ذلك فى « قصة هذا الكتاب » ، وما كتبه الرافعى ومصطفى عبد الرازق ، وأخوه على عبد الرازق ، ومحمد هاشم عطية ، وعبد الوهاب عزام ، وفؤاد صروف ، وقرينى وأخى سعيد الأفغانى ، وما فعله العقاد ، وما قاله طه حسين ، (انظر باب « الغمرات ثم ينجلين » ص : ٧٥ — ٧٩ = وما كان فى أوّل لقاء لى بالدكتور طه ص ٩٩ — ١٠٤ ، ٥٢٣ ، وأما سعيد الأفغانى ، فكلامه وكلامى مثبت فى ص : ٥٣٣ — ٥٧٤ ، وكلمة الرافعى مثبتة فى ص : ٥٧٧ — ٥٧٩ ، وفؤاد صروف فى تقديمه الكتاب ص : ١٢٩ — ١٣٤) .

الأساتذةِ الكبارِ أجيالٌ صَنَعَتْهُم السُّنَن التى سَنُّوها فى حياتنا الأدبية ، والأساتذةُ الكبار هُم القِمَمُ وهم القُدْوَة ، فاتَّسَع الخَرْقُ بفعل مُرُور الأيّام والسنين ، وفسد الأمْرُ فسَاداً وبيلاً . فكان لابُدَّ أن يبْقَى منهجى هذا مطموساً مغموراً ضَرْبَةَ لازبٍ . وضربةَ لازبٍ أن يكون كذلك ، لأنّى أنا أيضاً قد رضيتُ لكتابى « المتنبىّ » ولمنهجى فيه أن يبقَى مطموساً مغموراً مُدَّة أربعين سنة ، منذ خرج للناس لأوّل مرةٍ فى سنة ١٩٣٦ ، إلى كانت سنة ١٩٧٧ ، حين أعدتُ نشرهُ . ولكن ههنا حديثٌ آخرُ سأحدّثُك عنه بَعْدَ قليلٍ .

٨ — لا تَحْسَبْ أنّى قد فارقتُ منهجى وأغفلتُه مدّة أربعين سنة ونيّفٍ ، ولا تَقُل : أنت الملومُ ! فلِمَ توانَيْتَ ونَكَصْتَ وتَثَاقلتَ فلم تنصُرْ منهجك ولا بيَّنْتَهُ للناس ؟

فأقول لك = إن كنتَ مِمَّنْ يُريدُ أن يَعرفَ ، أمّا الذى لا يُريدُ أن يعرفَ فليس بينى وبينَه عَمَلٌ = : إن منهجى فى « تذوّق الكلام » شعراً ونثراً ، وأخباراً تُرْوَى ، وبياناً عن عِلْمٍ مُسْتَخْرجٍ ، وكلاماً قاله الناسُ فى الأمسِ البعيد ، وكلاماً يقوله الناسُ فى هذا اليوم القريب ، منهجٌ متراحبٌ متشعّبُ الأنْحاء كما حَدَّثْتُك آنفاً ، وهو مطبَّقٌ تطبيقاً بيِّناً فى كُلِّ ما كتبه هذا القلمَ الذى أكتب به الآن إليك . مطبَّقٌ هذا المنهجُ فى مقالاتى التى نشرتُها فى الصحف والمجلات قديماً وحديثاً ، سواءٌ كان ما كتبتُهُ بَحْثاً أو نَقْدًا أو تعبيراً عن ذاتِ نَفْسى فى كُلِّ مَنْحىً من مناحِى القولِ والبيان ، أو تعليقاً على أصولِ الكتب القديمة التى نَشرتُها وخرجَتْ للناس .

وإنْ شئتَ أن تعلَم ، فاعلم أنَّك واجدٌ منهجى فى « تذوُّق الكلام » فى مقالاتى القديمة والحديثة التى لم أنشُرْها بعدُ فى كتاب يقرأُ اليومَ ، وأنتَ واجدُه أيضاً فى كتابى « أباطيلُ وأسمارٌ » وكتابى « برنامجُ طبقات فحول الشعراء » ، وأنت واجدُه أيضاً ظاهراً

يلوحُ فى قراءتى وشرحى لكتاب « طبقات فحول الشعراء » لاَبْن سلّام الجمحى ، وفى قراءتى وتعليقى على كتاب « جَمْهرة نسب قُرَيْش » للزُّبَيْر بن بكّار ، وفى مواضع كثيرة جدًّا متفرقة فى قراءتى وتعليقى لكتاب أبى جعفر الطبرى فى تفسير القرآن ، وفى سائر ما كتب الله لى أن أنشرهُ من الكتب .

بَلْ .... بَلْ أنت واجدُه ساطعاً كُلَّ السُّطوع فى ديوانِ « القَوْسُ العَذْراءُ » ، حيثُ تجِدُ ثلاثةً وعشرين بيتاً قالها الشمّاخ الشاعرُ فى قصيدته الزائية ، التى وصَف فيها قَوْساً وقَوَّاسَها الذى صنعَها بيديه وسَوَّاها حتى استوتْ ، ففُتِن بحُبِّها قوَّاسُها هذا وانطوى قلبه على الضَّنِّ بها . ثم دعاه داعِى الحجّ فأسمعه ، فانطلق خارجاً من باديته ، فوافى بِهَا أَهْلَ المواسم ، فانبَرَى لقوسه هذه تاجرٌ غنىٌّ شديدُ المكر والدَّهاء ، فسَاوَمَه بها فأطالَ المساومة . قوَّاسٌ فقيرٌ بائسٌ ، وغنىٌّ مَلِىءٌ ماكِرٌ حُلو اللَّفظ واللسانِ ، فاَغْتَرَّهُ بالمال والغنى حتى ذَهَلِ بفقرهِ عن نفسه وهواهُ ، وفى غَمْرة ذُهوله أسلم له قوسَهُ وقبضَ المال ، ولم يكدْ حتى استفاقَ ، وتلفّت فلم يجدْ قوسَهُ وحُشاشةَ نفسه ، ولم تقع عينه على هذا التاجر الذى انقضّ على قوسه كالعقاب الكاسِرِ وطَار بها حيثُ لا يُرَى ، فأجهش البائس المسكينِ بالبكاء ، ونظر إلى المال الذى فى يديه ، وفاضتِ العينُ عبرةً ، وسقط فى هاوِيةِ الأحزانِ ، وتساقطت نَفْسُه بعد فراقها حَسَرَاتٍ ، « وفى الصَّدْر حَزَّازٌ من الوَجْدِ حَامزُ » .

كنت قديماً قد تذوّقتُ ، فيما أتذوّق من الشعر العربى ، بَيَاناً حافِلاً غزيراً فى أبيات الشمّاخ الثلاثة والعشرين . تذوّقتُها غائصاً فى أغوارِ دِلالة ألفاظها وتراكيبها ونظمها ، بل غُصْتُ تحت تَيَّار معانيها الظاهرةِ ، وفى أعماق أحرُفِها ، وفى أنغامِ جَرْسها ، وفى خَفَقَات نَبْضِها ، وفى دَفْقِها السَّاربِ المتغلغِلِ تحت أَطْباقها ، فأَثَرْتُ

بهذا التذوُّق دفائنَ نَظْمها ولفظها ، واستدرجتُ خَباياها المتحجِّبة من مَكامنها ، وأَمَطْتُ اللثامَ عن أخفَى أسرارها المكتَّمة ، وأغمضِ سرائرها المُغَيَّبة ، حتَّى صرتُ كأنى أقرأ قصةً طويلةً فى كتابٍ منشورٍ . ومضت السنون الطِّوال حتى كدتُ أنساهَا . ثم جاء يومٌ أذكرنى هذه القصة الطويلة ، فانبعثتْ فجأةً من مَرْقِدها ، وانبعثتُ أنا أَقُصُّ قصَّة القَوْسِ وقوَّاسِها ، كما كانت أفضَتْ إلىَّ به أَبيات الشمَّاخ ، وضَمَّنْتُها قصيدةً تزيدُ على ثلاثمئة بيتٍ ، كُلُّ ما فيها نَبيثةٌ مستخرجةٌ من بَيَان أبيات الشماخ ، ومن رِكَاز نَظْمها وكلماتها ، بلا استكراهٍ لِقصّةٍ أو معنىً أو صُورة . (الرِّكازُ : كنزٌ مدفونٌ فى باطن الثرى فى مَعْدِنِه = والمَعْدِن : هو الذى نسمّيه اليوم « المنجم » كمنجم الذهب والفضة وغيرهما من كنوز الأرض ، كريمِها وخَسيسِها) . (١) .

فهذا ، كما ترى ، منهجٌ متشعِّبٌ مطبَّقٌ على أصنافِ الكلامِ العربىِّ ، قراءَةً له ، أو بياناً عنه . وببديهة العقل لم يكُنْ من عَمَلِى ، ولا هو من عَمَلِ أىِّ كاتبٍ مُبينٍ عن نفسه ، أن يبدأ أَوَّلَ كُلِّ شئٍ فيُفيضَ فى شرح مَنْهجه فى القراءة والكتابة = وإلاَّ يَفْعَلْ ، كان مقصِّراً تقصيراً لا يُقْبَلُ منه بل يُرَدّ عليه = ثم يكتبُ بعد ذلك ما يكتُبُ ليقول للناس : هذا هو منهجى ، وها أنذا قد طبَّقْتُه . هذا سخْفٌ مريضٌ غير معقولٍ ، بل عكسُهُ هو الصحيح المعقول ، وهو أن يكتب الكاتب مطبِّقاً منهجَهُ ، وعلى القارئ

(١) نشرت « القوس العذراء » أول مرة فى مجلة الكتاب (دار المعارف) فى عدد أول فبراير سنة ١٩٥٢ ، وكتب الأستاذ عادل الغضبان كلمةً فى التنويه بها . ثم نشرتها فى كتابٍ سنة ١٩٦٤ ، فكتب عنها الدكتور زكى نجيب محمود كلمة نفيسة (ضاعت منى مع الأسف) ، وكتب كاتب فقال إنها « قصيدة لغوية » ، يعنى أنها متنٌ منظومٌ لحفظ غريب اللغة ! ، ثم بعد ثلاثين سنة ، (سنة ١٩٨٢) ، كتب عنها الدكتور إحسان عباس والدكتور مصطفى هدارة ، فى كتاب « دراسات عربية وإسلامية » ، الذى أهدى إلى بمناسبة بلوغى السبعين (ص : ٣ - ٤٥٧/١٥ - ٤٧٨) ، وكتب الدكتور محمد أبو موسى رسالة نشرها وسماها « القوس العذراء ، وقراءة التُّراث » .

والناقد أنْ يستشِفّ المنهجَ وَيتَبيَّنه ، محاولاً استقصاءَ وجوهه الظاهرة والخفيَّة ، ممّا يجدُه مطبّقاً فيما كتب الكاتب . ولكن فسادُ حياتنا الأدبية ، هو الذى يُحيلُ العقولَ أحياناً ، حتى تَغْفُل عن أبسط قواعد البديهة فى العقل الإنسانى . وكفى بهذا فسادًا وبيلاً .

فرغْتُ ، وأسألُ اللهَ المغفرة ، من هذا الكلام البغيض إلىّ ، متحدّثاً عن أعمالى ، والذى هو شئٌ أوجبَتْهُ الصورة ، كما يقول المتنبى فيما يُرْوَى عنه حين سُئِل عن خبر نبوّته !! والآن ....

° ° °

٩ — كان منهجى ، كما نشأ واستَتَبَّ فى نفسى ، كان منهجاً يَحْمِلُ بطبيعة نشأتِه رَفْضاً صريحاً واضحاً قاطعاً غير مُتَلَجْلج ، لأكثر المناهجِ الأدبيَّة التى كانت فاشيةً وغالبةً وصارَ لها السيادةُ على ساحة الأدبِ الخالص وغير الأدبِ الخالص إلى يومنا هذا ، كما حدثْتُك آنفاً (الفقرة : ١) .

فَلِكَىْ تكونَ علَى بيِّنةٍ مرَّةً أخرى ...

فَاْعلم ، قَبل كُلِّ شئٍ ، أنّ تسميتها « مناهج » ، تجاوُزٌ شديدُ البُعْد عن الحقيقة ، وفسادٌ غليظٌ وخَلْطٌ ، إذا كنتَ تريدُ أن تكونَ على ثِقَةٍ من معنى هذه الألفاظ التى تجرى الآنَ بيننا ، ولكن قد كان ما كانَ ، فهكذا اصطلحوا على تسميتها !

وقديماً تناولتُ لفظ « المنهج » ، وحاولتُ البيانَ عنه فقلت : (١)

---

(١) قلت ذلك فى كتابى « أباطيلٌ وأسمارٌ » ، ص ٢٣ — ٢٥ ، بل الفصل كُلّه ، بل الكتاب كُلُّه ، مشتمل على بيانٍ لما يسمَّى « منهجاً » ، ومُتَّصلٌ بما أقوله هنا اتِّصالاً لا انفكاك له . فإن كنت جادًّا فى طلبِ المعرفة فاقرأه ، لأنّى هنا موجزٌ أشدَّ الإيجاز .

« ولفظُ المنهج » ، يحتاج مِنّى هنا إلى بعض الإبانة ، وإن كنت لا أريد به الآن ما اصطلح عليه المتكلمون فى مثل هذا الشأن ، بل أريد به « ما قَبْلَ المنهج » ، أى الأساس الذى لا يقومُ « المنهجُ » إلاّ عليه .

« فهذا الذى يسمَّى « منهجاً » ينقسِم إلى شَطْرين : شطرٍ فى تناوُل المادَّة ، وشطرٍ فى معالجة التطبيق .

« فشطرُ المادة يَتطلَّب قبلَ كلِّ شىء ، جَمْعَها من مَظانِّها على وجْهِ الاستيعاب المتيسِّر ، ثمَّ تصنيفَ هذا المجموع ، ثُمَّ تمحيصَ مُفْرداته تمحيصاً دقيقاً ، وذلك بتحليل أجزائها بدقّةٍ متناهيةٍ ، وبمهارةٍ وحِذْقٍ وحَذَرٍ ، حتّى يتيسَّر للدارسِ أن يرى ما هو زَيْفٌ جليًّا واضحاً ، وما هو صحيحٌ مستبيناً ظاهراً ، بلا غَفْلةٍ ، وبلا هَوًى ، وبلا تسرُّع .

« أمّا شطرُ التطبيق ، فيقتضى ترتيبَ المادّةِ بعد نَفْى زيفِها وتمحيصِ جيِّدها ، باستيعابٍ أيضاً لكلِّ احتمالٍ للخطأ أو الهَوَى أو التسرُّع . ثُمّ على الدارس أن يتحرَّى لكلِّ حقيقةٍ من الحقائق موضعاً هو حقُّ موضعها ، لأنّ أَخْفَى إساءَةٍ فى وَضْع إحدى الحقائق فى غير موضعها ، خليقٌ أن يُشَوِّه عَمُودَ الصورة تشويهاً بالغَ القُبْح والشَّناعة » .

وأزيدُك الآنَ : أنّ « شطر التطبيق » هو الميدان الفسيح الذى تصطرع فيه العقُول ، وتتناصَى الحُجَج ، (أى أن تأخذ الحُجَّة بناصية الحجة كفِعلْ المتصارِعين) ، والذى تسمعُ فيه صليلَ الألسنة جَهْرةً أو خُفْيَةً ، وفى حَوْمته تتصادُم الأفكارُ بالرِّفق مرّةً وبالعنفِ أُخْرى ، وتختلفُ فيه الأنظارُ اختلافاً ساطعاً تارةً ، وخابياً تارةً أخرى ، وتفترق فيه الدُّرُوب والطرقُ أو تتشابكُ أو تلتقى . هذه طبيعة هذا الميدانِ ، وطبيعةُ النازليه من العلماءِ والأدباءِ والمفكرِّين . وعندَئِذٍ يمكنُ أن يَنشأَ ما يُسَمَّى « المناهج » و « المذاهب » .

ولكَىْ لا تقع فى الوَهْم والضلالِ ، ولكَىْ لا يُغَرِّرَ بك أحدٌ منَ المتشدِّقين من أهل زماننا هذا بالثرثرة ، فآعلمْ أنّ حديثى هنا هو عن الذى يسمَّى « المنهج الأدبىّ » على وَجْه التحديد = أى : عن المنهج الذى يتناول الشعر وَالأدبَ بجميع أنواعه ، والتاريخَ ، وعلمَ الدِّين بفروعه المختلفة ، والفلسفةَ بمذاهبها المتضاربة ، وكُلَّ مَا هو صادرٌ عن الإنسانِ إبانةً عن نفسِه وعن جماعته = أى يتناول ثقافتَهُ المتكاملةَ المتحدّرة إليه فى تيَّارِ القرون المتطاوِلة والأجيالِ المتعاقبة . ووِعاءُ ذلك كُلِّه ومستقرُّه هو اللغة واللسانُ لا غيرُ . فإيَّاكَ إيَّاكَ أن تنسَى ذلك ، واجعلْهُ منكَ على ذُكْرٍ أبدًا . وآذكُرْ أيضاً أن هذا الذى أقولُه لك ههنا عن « المنهج » ، إنَّما هو أصلٌ أصيلٌ فى كُلِّ أمَّةٍ ، وفى كُلِّ لسانٍ ، وفى كُلِّ ثقافةٍ حازها البشرُ على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ومِلَلِهم ومواطنهم .

١٠ — وإذنْ ، فكيف نشأ الخِلاف ، ولِمَ نشأ الخِلاف ، بينى وبين هذه « المناهج الأدبيّة » السائِدةِ ، كانت ولا تَزالُ ، فى حياتنا الأدبية ، حتى رفضتُها رَفْضاً صريحاً واضحاً قاطعاً غير مُتلجلجٍ ، مُنْذُ بدأت قديماً أحسُّ إحساساً مُبْهَماً أنّ حياتنا الأدبية حياةٌ فاسدةٌ من كُلِّ وجهٍ ، كما حدَّثتك آنفاً ؟ (اقرأ الفقرة : ١) .

فأنا الآن مُجيبُك عن هذا السؤالِ بإيجازٍ جامعٍ ، على طُولِه ، فإنَّ هذا الإحساسَ القديمَ المبهمَ المتصاعِدَ بفساد الحياة الأدبية ، قد أَفْضَى بِى ، كما حَدَّثتك فى الفقراتِ الثلاثِ الأُوَل : (١ — ٣) ، إلى إعادة قراءة الشعر العربىّ كُلِّه أوّلاً ، ثم قراءَةِ ما يقع تحت يدِى من هذا الإرْثِ العظيم الضّخم المتنوِّع من تفسيرٍ وحديثٍ وفقهٍ ، وأصول فقهٍ وأصول دين (هو علم الكلام) ، ومِلَلٍ ونِحَلٍ ، إلى بحر زاخرٍ من الأدب والنقد والبلاغة والنحو واللغة ، حتى قرأتُ الفلسفة القديمَةَ والحسابَ القديم والجغرافيةَ القديمة ، وكُتُبَ النجوم وصُوَر الكواكب ، والطبَّ القديم ومُفْرَدات الأدوية ، وحتى قرأتُ

البَيْزرة والبَيْطرة والفِراسةَ .... بل كلُّ ما استطعتُ أن أقف عليه بحمد الله سبحانه ، قرأتُ ما تيسَّر لى منه ، لا للتمكُّن من هذه العلوم المختلفة ، بل لكى ألاحظَ وأتبيَّن وأُزيحَ الثَّرى عن الخبىءِ والمدفونِ .

تبيَّن لى يومئذٍ تبيُّناً واضحاً أن شَطْرى المنهج : « المادة ، والتطبيق » ، كما وصفتُهما لك فى أوَّل هذه الفقرة ، مكتملانِ اكتمالاً مُذْهِلاً يحيِّر العقلَ ، منذ أُوَّلِيَّة هذه الأمّة العربيّة المسلمةِ صاحبةِ اللسان العربىّ ، ثم يزدادان اتِّساعاً واكتمالاً وتنوُّعاً على مرِّ السنين وتعاقُب العلماءِ والكتَّاب فى كُلِّ علمٍ وفنّ ، وأقول لك غير متردِّدٍ أنّ الذى كان عندهم من ذلك ، لم يكن قطُّ عند أمَّةٍ سابقةٍ من الأمم ، حتى اليونان = وأكادُ أقول لك غير متردِّدٍ أيضاً أنّهم بلغوا فى ذلك مَبْلغاً لم تُدْرِك ذِرْوتَه الثقافةُ الأوربيَّة الحاضرةُ اليومَ ، وهى فى قمَّة مجدِها وازدِهَارِها وسَطْوتِها على العلمِ والمعرفة .

• كنتُ أستشِفُّ « شطرى المنهج » ، كما وصفتُهما ، تلوحُ بَوادِرُهُ الأُوَلُ منذ عهد علماء صحابة رسول الله ﷺ ، ومَنْ حُفِظَت عنهم الفَتْوى منهم ، كعمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عُمَر = كانت كاللَّمحة الخاطفة والإشارةِ الدالَّة . ثم زادت وضوحاً عند علماء التابعين كالحسن البصرى ، وسعيد بن المُسَيّب ، وابن شِهاب الزهرىّ ، والشَّعْبىّ ، وقَتَادةَ السَّدُوسىّ ، وإبرهيم النَّخعِىّ . ثم اتَّسع الأمْرُ واستعلنَ عند جِلّة الفقهاءِ والمحدِّثين من بعدهم ، كمالك بن أَنَس ، وأبى حنيفة وصاحبيه أبى يوسف ومحمد بن الحسن الشيبانىّ ، والشَّافعىّ ، واللَّيْث بن سعد ، وسُفْيان الثَّوْرِىّ ، والأَوزاعىّ ، وأحمد بن حَنْبل ، ويحيى بن مَعِين ، والبخارىّ ، ومُسلم ، وأبى عَمْرو بن العلاء ، والخليل بن أحمد ، وأبى جعفر الطَّبَرى ، وأبى جعفر الطَّحاوىّ . ثم استقرَّ تدوينُ الكُتُب فصارَ نَهْجاً مستقيماً ،

وكالشمسِ المشرقة ، نُوراً مستفيضاً عند الكاتبين جميعاً ، منذ سيبويه ، والفَرَّاء ، وابن سَلَّام الجُمَحيّ ، والجاحظ ، وأبى العباس المبَرِّد ، وابن قُتَيْبة ، وأبى الحسن الأشعرىّ ، والقاضى عبد الجبار المعتزلىّ ، والآمدىّ ، وعبد القاهر الجُرْجانىّ ، وابن حَزْمٍ ، وابن عبد البَرِّ ، وابن رُشْد الفقيه وحفيده آبن رشدٍ الفقيه الفيلسوف ، وابن سينا ، والبَيْرونىّ ، وابن تَيْمِيَةَ ، وتلميذه ابن قَيِّم الجَوْزِيَّة ، وآلافٍ مؤلفةٍ لا تُحْصى حتى تنتهى إلى السَّيُوطىّ ، والشَّوكانىّ ، والزَّبيدىّ ، وعبد القادر البغدادىّ فى القرن الحادى عشر الهجرىّ .

سُنَّةٌ متّبعةٌ ودَرْبٌ مطروقٌ فى ثقافةٍ متكاملةٍ متماسَكةٍ راسخة الجذورِ ، ظلَّت تنمو وتتَّسع وتستولى على كُلِّ معرفةٍ مُتاحَةٍ أو مُسْتخرجةٍ بسلطانِ لسانها العربىّ ، لم تَفْقِد قطٌّ سَيْطرتَها على النَّهْج المستبين ، مع اختلاف العقول والأفكار والمناهج والمذاهب ، حَتّى اكتملت اكتمالاً مُذْهلاً فى كُلِّ علمٍ وفنٍّ ، وكان المرجُوُّ والمعقولُ أنْ يستَمرَّ نمُوُّها واكتمالُها وازدهارُها فى حياتنا الأدبية العَربية الحديثة رَاهِناً ، (ثابتاً) ، إلى هذا اليوم ، لولا .... ولكن صِرْنَا ، واحسرتاهُ ، إلى أن نقول مع العَرجْىّ الشاعر : « كانَ شيئاً كانَ ، ثم آنقضى » . (١)

* * *

١١ – وشيءٌ لو أنا أغفلتُه ههنا ، ولم أبيِّنه لكَ ، فكأنّى أغفلتُ جوهرَ القضيّة كُلِّها وطمستُه طمْساً ، أَعْنِى قضيّة « المنهج » ، ولدخلتُ بك دخولاً فى حَوْمة الفسادِ

(١) من بيتين تترقرقُ فيهما عَبَراتُ الأسَى كُلِّه ، وحَسَراتُ العُمْر كُلِّه ، يقول :

يا لَيْتَ شِعْرِى ، هَلْ يَعُودَنَّ لِى ... ذَا الوُدُّ من لَيْلَى كما قد مَضَى ؟
إذْ قَلْبُها لِى فارِغٌ كُلُّه ... أَمْ كانَ شيئاً كانَ ، ثم آنْقَضَى

المُطْبِق الذى عمَّ وسادَ حياتَنا الأدبية وَطمَّ وطغَى . وحسبُك بهذا مِنِّى ، لو فعلتُ ، غِشًّا لك ، وإهداراً لكرامة البيانِ ، وخيانةً للأمانة التى حُمِّلناهَا كما حُمِّلها أبُونا الشيخُ آدمُ عليه السلام . وبعدَ ذلك ، فكأنى ، لو فعلتُ ، قد آستهنتُ بك وبعقلك ، لأنّى كتمتُ عنك ما أنا حقيقٌ بإبانته ، وَمَا أنتَ صاحبُ الحَقِّ فى استبانته .

فالذى نبَّهتُك إليه فى أوَّل الفقرة التاسعة آنفاً ، (٩) ، وسمَّيتُه « ما قبل المنهج » بشطريه فى « المادة » وفى « التطبيق » وقلت لك : « إنه أَصْلٌ أصيلٌ فى كُلِّ أمةٍ ، وفى كُلِّ لغةٍ ، وفى كُلِّ لسانٍ ، وفى كل ثقافةٍ حازها البشرُ على اختلاف ألسنتهم وألْوانِهم ومِلَلِهم وأوطانِهم » = هو ، بلا ريبٍ ، أصلٌ أصيلٌ فى « العلوم البَحْتَة » ، كما نسمِّيها اليوم ، كالحساب والجبر والكيمياء ، كما هو أصلٌ أصيلٌ فى « آداب اللسان » ، كالأدب والتاريخ وعلوم الدين وعلم الفلسفة . والنَّاس لا يحتاجُون إلى ما سمَّيتُه « ما قبل المنهج » احتياجاً مُلْزِماً ، إلاّ بعدَ أن تستوفِى « العُلوم البَحْتة » ، مثلاً ، قَدْراً صالحاً من النموِّ والاتِّساع ، حتَّى يُحْتَاجَ إلى إعادةِ النظر للفصل بين تداخُلِ أجزائها بعضِها فى بعضٍ ، لتصحيح مَسِيرَة العلم ، وإعطاءِ كُلِّ علمٍ حقَّه من الوُضوح ، حتى يستقيم لكلِّ علمٍ نَهْجُهُ وطريقُه ونُموُّه بلا خَلْطٍ وبلا تزييف . و « ما قبل المنهج » هو فى « العلوم البحتة » ضربةُ لازبٍ ، وإلا آرْتكستْ فى ظُلُماتِ الجهالة والغموضِ . فمُمكِنٌ ، بل هو شرطٌ ملزمٌ ، أن يبرأَ « جمع المادَّة » و « التطبيق » جميعاً من الغَفْلة والإغفالِ والتسرُّع والهوَى .

أمّا « آدابُ اللِّسان » فإنّ الناسَ لا يحتاجون إلى ما سمَّيته « ما قبل المنهج » إلاّ بعد أن تستوفى « الآدابُ » نموَّها عن طريق « اللُّغة » التى هى وِعاءُ المعارف جميعاً ، وبعد أنْ تستوفىَ أيضاً نموَّها عن طريقِ « الثقافة » التى هى ثَمَرةُ المعارفِ جميعاً ، وبعد أن تستوفىَ حظًّا من القوّة والتماسُك والشمولِ والغَلَبَة على أصحابِ هذه « اللغة » وهذه

« الثقافة » = حتّى يُحْتَاجَ عندئذٍ إلى إعادة النظر للفصل بين تداخُل أطرافِها بَعْضِها فى بعضٍ ، طلباً لتصحيح المَسيرة ، وطلباً للوضوح ، وطلباً للنَّهْج السَوِيِّ والطريق المستقيم .

فهذا ، كما ترى ، مَيْدانٌ لا يُطيق النزول فى أرضه وبحقِّه ، إلاَّ من أُوتِى حظًّا وافراً من البَصر النافذ ، والإخلاص المتجرِّد لطلب الحقِّ وإدراكِه . وبطبيعة هذا المَيْدانِ ، تدخُل نَفْسُ النازِلِ فى أرضه عاملاً حاسِماً فى شَطْرى « ما قبل المنهج » : تدخُل أوّلاً من طريقِ معرفة « اللغة » التى نشأ فيها صَغيراً = وتدخل ثانياً من طريق « الثقافة » التى ارتضَعَ لِبانَها يافِعاً = وتدخُل ثالثاً من طريق أهوائِه ومَنازعِهِ التى يملكُ ضَبْطَهَا أَوْ لا يملكُه ، بعد أن آستوَى رجُلاً مُبيناً عن نَفْسه . فهذا الثالث هو موضع المخافَة ، الذى يستوجب الحذَر ، ويقتضِيك حُسْن التحرِّى .

١ ـ • فمن طريق « اللغة » التى نشأ فيها صغيراً ، فإنَّه يُسَدِّدُه أو يَتَهدّدُه ، الإحاطةُ بأسرارِ « اللغة » وأساليبِها الظَّاهرةِ والباطنةِ ، وعجائبِ تَصاريفها التى تجمَّعت وتشابكتْ على مرِّ القرون البعيدة ، فصارت ألفاظُها وتراكيبُها الموروثةُ والمُسْتَحْدَثةُ تحملُ من كُلِّ زمانٍ مضَى وكُلِّ جيلٍ سبقَ ، نَفْحَةً من نَفَحات البيان الإنسانىّ بخصائصه المعقَّدَة والمكتَّمة ، أو خصائصه السَّمْحة والمُسْتَعْلِنة . وبين تمام الإحاطة باللغة وقُصُورِ الإحاطةِ بها ، مزالِقُ تزلُّ عليها الأقدامُ ، ومَخاطِرُ يُخْشَى معها أن تنقلبَ وُجوه المعانى مُشوَّهة الخِلْقةِ مستنكَرةَ المَرْآةِ ، بقَدْرِ بُعْدِها عن الأسرار الخفيّة المُسْتَكِنَّة فى هذه الألفاظ والتراكيب ، وهذا بابٌ واسعٌ يحتاجُ إلى بيانٍ لا يُحاطُ به فى مثل هذا الموضع . ولكن كُنْ أبداً على حذرٍ ، فإنَّه ممكنٌ أيضاً كُلَّ الإمكان ، أن يدخُلَ عليك من هذا

الباب مَكْرُ الماكر ، وعَبَثُ العابث ، واحتيالُ المُحتالِ ، « حتّى ترىَ حَسَناً ما ليس بالحَسَنِ » ، كما قال الشاعر . (١)

٢ – ● ومن طريق « الثقافة » ، فإنّ « الثقافة » ، فآعلمْ ، تكادُ تكونُ سِرًّا من الأسرارِ الملثَّمةِ فى كُلِّ أمّةٍ من الأُمَم وفى كُلِّ جِيلٍ من البشر . وهى فى أصلها الراسخ البعيد الغَوْر ، معارفُ كثيرةٌ لا تُحْصَى ، متنوِّعةٌ أبلغَ التنوُّع لا يكادُ يحاطُ بها ، مطلوبةٌ فى كُلِّ مجتمعٍ إنسانىّ للإيمان بها أوّلاً عن طريقِ العَقْل والقلبِ = ثم للعمَلِ بها حتّى تذوبَ فى بُنْيانِ الإنسانِ وتَجْرى منه مَجْرَى الدَّمِ لا يكادُ يُحسُّ به = ثم للانتماءِ إليها بعقله وقَلْبه وخيالِه انتماءً يحفظُه ويحَفَظُها من التفكُّكِ والانهيار ، وتحوطُهُ ويحوطُها حتى لَا يُفْضِى إلى مَفَاوِزِ الضَّياع والهلاكِ . وبين تَمام الإدراكِ الواضح لأسرار « الثقافة » وقُصُور هذا الإدراكِ ، منازِلُ تلتبِسُ فيها الأمورُ وتختلط ، ومَسالِكُ تَضِلُّ فيها العقولُ والأوهامُ حتى ترتكِسَ فى حَمْأَة الحَيْرة ، بقَدرْ بُعْدها عن لُبَاب هذه « الثقافة » وحقائقِها العَمِيقةِ البعيدةِ المتشعِّبة . فهذا أيضاً بابٌ واسعٌ جدًّا يَحْتاج إلى تفصيلٍ لا يُحَاط به فى مثل هذا الموضع . وكُنْ أبداً على حَذرٍ ، فإنّه ممكنٌ كلَّ الإمكانِ أن يَدِبَّ إليكَ منه دبيباً خفيًّا ، مَكْرُ الماكر ، وعَبَثُ العابثِ ، واحتيالُ المُحْتالِ ، حتّى « تحسَبَ الشَّحْمَ فيمن شَحمهُ وَرَمٌ » ، كما يقول المتنبىّ . (٢)

٣ – ● ومن طريق « الأهواءِ » ، وهى التى تَسْرِى فى خَفَاءٍ وتَدِبُّ ، إلاَّ أنّها لا تَدِبُّ

---

(١) هو من قول الشاعر :

يُقْضَى على المَرْءِ فى أيّام مِحْنَتِهِ ... حتى يَرَى حَسَناً مَا لَيْس بالحَسَنِ

(٢) هو قوله معاتباً لسيف الدولة :

أُعِيذُهَا نَظَراتٍ مِنْكَ صَادِقَةً ... أن تَحْسَبَ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَحْمُه وَرَمُ

ولا تأتيك إلاَّ متبرِّجةً فى تَمامِ زِينتها من « اللغة » ومن « الثقافة » ، مُتَردِّيةً بِرداءِ بَراءة القَصْد وخُلُوصِ النيّة ، متحلّيةً بجواهر الدقّةِ والاستيعاب والتمحيص والمهارةِ والحِذْق ، حتَّى يُتَاح لصاحبها أن يقتنِصَ غَفْلَتَك ، ويتلعَّبَ عندئذٍ بك وبعقلك ما شاءَ له التلعُّب ، من حيثُ يُوهمك أنّه قد استوعبَ لك جمع « المادة » ، ويُهَوِّل عليك تهويلَ السَّحرةِ بما يحشُدُ تحت عينيك ويستكثر ، مُخْفِياً عنك بتمويهه من « المادةِ » ما قد يُبْطِل ما أراد به سِحْرَ عينيك واهتبالَ غَفْلتك ، ثم استلحاقَ عَقْلِك بعقْله ، إذْ أنتَ عندئذٍ مفتونٌ بالزِّينة المتبرِّجَة ، وبتحاسِين رِداءِ البراءة وخُلُوص النِّيّة ، وبالحُلِيِّ النفيسة المتلألئة التى يتطلَّبها « ما قبلَ المنهج » بشَطرَيْه : « المادة » و « التطبيق » ، إذْ أنت هائمٌ معه ، مُريدًا أوْ غير مريدٍ ، « فى إثْر كُلِّ قَبيحٍ وجْهُهُ حَسَنُ » ، كما يقول أبو الطيب . (٢)

* * *

١٢ — • قد بيَّنتُ لك ما آستطعْتُ طبيعةَ هذا المَيْدان ، مَيْدان « ما قبل المنهج » ، وطبيعةَ النازلين فيه من الكتاب والعلماءِ والمفكِّرين ، ثُمَّ المخاوفَ التى تَتَهدَّدُ « ما قبل المنهج » بالتدمير وبالفسادِ حتى يُصبحَ رُكَاماً من الأضاليل ، وحتى تفسُدَ الحياة الأدبيةُ فساداً يستعصى أحياناً على البُرْءِ . وأمرُ النَّازلين فيه أمرٌ شديدُ الخَطَر ، يحتاجُ إلى ضبطٍ وتَحَرٍّ وحذَرٍ . ولا يغرُرْك ما غَرِى به ، (أى أُولِع) ، بعضُ المتشدِّقين المُموِّهين : « أنّ القاعدةَ الأساسيّة فى منهج ديكارت ، هى أن يتجرَّدَ الباحثُ من كُلِّ

---

(١) هو من قوله يذكر أهلَ العشق :

مِمَّا أَضَرَّ بأَهْلِ العِشْقِ أَنَّهُمُ ... هَوُوا ، وما عَرَفُوا الدُّنيا وَمَا فَطَنُوا
تَفْنَى عُيُونُهُم دَمْعاً ، وَأَنْفُسُهُمْ ... فى إِثْرِ كُلِّ قَبِيحٍ وَجْهُهُ حَسَنُ

شئ كانَ يعلمُه من قبلُ ، وأنْ يستقبِلَ بحثَهُ خالِىَ الذِّهنِ خُلُوًّا تامًّا ممّا قيلَ » ، (فى الشعر الجاهلى : ١١) فإنّه شئٌ لا أصلَ له ، ويكادُ يَكونُ ، بهذه الصِّياغةِ ، كذِباً مُصفًّى لا يشُوبُه ذَرْوٌ من الصِّدْق ، (والذَّرْوُ : دقيق التراب) ، بل هو بهذه الصورة خارجٌ عن طَوْقِ البشر . هَبْهُ يستطيعُ أن يُخْلِى ذهنَه خُلوًّا تامًّا ممَّا قيل ، وأن يتجرَّدَ من كُلِّ شئٍ كانَ يعلمهُ من قبلُ ، أفَمُسْتطيعٌ هُوَ أيضاً أن يتجرَّدَ من سُلطان « اللغة » التى غُذِى بها صغيراً ، وبها صار إنساناً ناطقاً بعدَ أن كانَ فى المَهْد وليداً لا ينْطقُ ؟ أفمُسْتطيعٌ هو أن يتجرَّد من سَطْوةِ « الثقافة » التى جَرَتْ منه مَجْرَى لِبانِ الأمِّ من وَليدِها ؟ أفَمُسْتطيعٌ هو أن يتجرَّد كُلَّ التجرُّد من بَطْشةِ « الأهواء » التى تستكينُ ضارعةً فى أغوارِ النفس وفى كهوفِها ، حتى تَمْرُقَ من مَكْمَنها لتسْتَبِدَّ بالقَهْرِ وتتسَلَّطَ ؟ = كلامٌ يجرى على اللِّسان بلا زِمامٍ يضبطُهُ أو يكبَحُه ، مَحْصولُه أنَّهُ يتطلَّب إنساناً فارغاً خاوياً مكوَّناً من عِظامٍ كُسِيتْ جلداً ، لا أكثر !!

فإذا كانَ « ما قبل المنهج » مُهَدَّدًا بالغوائلِ كُلَّ هذا التهديد ، كما بيَّنتُه لك فى الفقرة السالفة ، (١١) ، غوائلِ قُصُورِ الإدراك من ناحيةٍ ، وغوائلِ الأهواءِ التى تبدأُ بالخاطر الأوّل الذى يستهوى الباحثَ ، وتنتهى إلى المكر والعَبَث والكَذِب وخيانةِ الأمانةِ = إذا كان هذا ، كما وصفتُ لك ، فما الذى يَعْصِم من هذا الوباءِ الحالِق الذى يَحْلِق المعرفة حَلْقاً من أصولها ؟

فالعاصمُ يأتى من قِبَلِ « الثقافة » التى تذوبُ فى بُنْيان الإنسان وتَجْرى منه مَجْرَى الدَّم لا يكادُ يُحِسُّ به = لا من حيثُ هى معارفُ متنوِّعةٌ تُدْرَكُ بالعقل وحسبُ ، بل من حيثُ هى معارفُ يُؤْمن بصحَّتها من طريق العقل والقلبِ ، ومن حيثُ هى معارف مطلوبةٌ للعمل بها ، والالتزام بما يوجبُه ذاك « الإيمان » ، ثُمّ من حيثُ هى بعد ذلك انتِماءٌ إلى هذه الثقافة انتِماءً يَنبغى أن يُدْرِكَ معه تمامَ الإدراك أنّه لو فرَّط فيه لأدّاهُ تفريطُه إلى الضياع والهلاكِ ، ضَياعِه هو ، وضَياعِ ما ينتمى إليه .

فرأْس الأمر ، كما ترى ، هو ما يتعلَّقُ بنفس النازل ميدانَ « ما قبل المنهج » . وهو بهذه المَثَابَةِ أصلٌ « أخلاقىٌّ » قبلَ كُلِّ شىء وبعدَ كُلِّ شىءٍ . وإغفالُ هذا « الأصل الأخلاقىّ » من قِبَلِ نازل هذا الميدان ، أَوْ من قِبَلِ المتلقِّى عنه ، يجعل قضية « المنهج » و « ما قبل المنهج » فَوْضَى مبعثرةً لا يتبيَّنُ فيها حقٌّ من باطلٍ ، ولا صِدْقٌ من كذبٍ ، ولا صحيحٌ من سقيمٍ ، ولا صوابٌ من خطإٍ . ولذلك قلتُ فى الفقرة الحادية عشرة إنّه موضع المَخافة الذى يستوجبُ الحَذَر ، ويَقْتَضِيك حُسْنَ التحرِّى ، أى دِقَّته ، ثم أَتْبَعْتُه بما قلت لك فى أوّل هذه الفقرة الثانية عشرة .

ورأسُ كُلِّ « ثقافةٍ » هو « الدين » بمعناه العامّ ، والذى هو فِطْرَةُ الإنسانِ ، أىَّ دينٍ كانَ = أو ما كان فى معنى « الدين » = وبقدرِ شُمول هذا « الدين » لجميع ما يكبَحُ جُموح النفس الإنسانية ويَحْجِزُها عن أنْ تَزِيغَ عن الفِطْرةِ السَّوِية العادلة = وبقَدْر تغلغُلِه إلى أغوارِ النفس تغلغُلاً يجعل صاحبَها قادراً على ضبطِ الأهواء الجائرةِ ، ومُرِيدًا لهذا الضَّبْط = بقَدْر هذا الشمول وهذا التغلغُلِ فى بُنْيان الإنسانِ ، تكونُ قوَّة العَواصِم التى تعصِمُ صاحبها من كُلِّ عيبٍ قادحٍ فى مَسِيرة « ما قبل المنهج » ، ثم فى مَسِيرة « المنهج » الذى ينشعبُ من شَطْرِهِ الثانى ، وهو « شَطر التطبيق » .

وهذا الذى حدَّثْتُك عنه ، ليس خاصًّا بأمَّةٍ ، بل هو شَأْن كلِّ جِيلٍ من الناس وكُلِّ أمَّةٍ من الأمم ، كان لها « لغة » وكان لها « ثقافة » ، وكان لها بعد تَمامِ ذلك « حضارةٌ » مؤسَّسةٌ على لُغتها وثقافتها . فهذا « الأصلُ الأخلاقىّ » هو العامِلُ الحاسمُ الذى يمكِّنُ لثقافة الأمَّة بمعناها الشامل ، أنْ تبقَى متماسكةً مترابطةً تزدادُ على الأيَّام تماسُكاً وترابُطاً ، بقدر ما يكونُ فى هذا « الأصل الأخلاقىّ » من الوضوح والشُّمول والتغلغُل والسيطرةِ على نفوس أهْلِهَا جميعاً ، سواءٌ فى ذلك النازلون فى مَيْدان « ما قبل المنهج » أو فى مَيْدان « المنهج » نَفْسِه ، وهم العلماء المفكِّرون والأدباء ، والمُتَلقُّون عنهم : تلامذةً كانوا ،

أو أشباهَ تلامذةٍ من قارىءٍ أو سامِعٍ أوْ كلّ متطلِّبٍ للمعرفة . وكُلُّ اختلالٍ يَعْرِضُ فيُضْعِف سَيْطرة هذا « الأصل الأخلاقىّ » ، أو يُؤَدِّى إلى غُموضه أو غِيابه أو تَناسِيه أو قِلَّةِ الاحتفالِ به ، فهو إيذانٌ بتفكُّك الثَّقافة وانهيار الحضارة إيذاناً صارخاً لا مَعْدَى عنه ، مَهْما بلغتْ هذه الثقافةُ وهذه الحضارةُ ، فى ظاهر الأمرِ أو فى العِيَانِ ، مبلغاً سامقاً من الغَلَبة والانتشار ، ومهما كانَ لها من الَّلأْلاءِ والتَّبَرُّج والزِّينة ما يَفْتِنُ العقولَ ويَسْبِى القلوبَ .

والحديثُ عن هذا « الأصلِ الأخلاقى » فى كُلِّ ثقافة يطولُ ويتشعّب ، ولكن من المهمِّ أن تَعلمَ أنّه ليس قواعدَ عقليّةً ينفردُ العقلُ بتقريرها ابتداءً من عند نفسِه ، لأن القواعد العقليّة مهما بلغت من القوةِ والسيطرةِ لا تستطيع أن تقوم بهذا العِبْءِ ، لسبب لا يمكن إغفالُهُ فى مثل هذه القضيَّة ، وهذا السبب هو أنّ الأمرَ كُلَّه متعلِّقٌ بالإنسان نفسه . وكُلُّ إنسانٍ صندوقٌ مُغْلَقٌ ، فيه من الطبائع والغرائز والأهواءِ المتنازعة بين الخير والشرِّ ، وفيه أيضاً من القوَّةِ والضعفِ ، مقاديرُ مختلفةٌ لا تكادُ تُضْبَطُ أحوالُها وآثارها ، وأيضاً لا يكادُ يُضْبَطُ تَقلُّبها تَقَلُّباً يُفْضِى إلى الحيرةِ فى شأن صاحِبها . وكما لا يتشابه اثنانِ من البشَر فى الخِلْقة والصُّورة والملامح ومَعارف الوجُوهِ ، فكذلك لا يتشابه اثنانِ فى الطبائع والغرائز والأهواءِ ، ولا فى مقادير القوةِ والضعف ، ولا فى مقادير الأحوالِ والآثار والتقلُّبات التى تَعْرِضُ لها وتنشأُ عَنْها . فالضابطُ لهذا الموجِ المتلاطِمِ المتصادِمِ فى الصندوق المُغْلَق ، لابُدَّ أن يكون كَامناً فى سَرِيرةِ الإنسانِ نفسه ، مُسَيْطِراً عليه سيطرةً مستمرَّةً لا ينالُها الوَهَنُ ، وفيه قوَّةٌ شاملةٌ قادِرةٌ على أن تُمسِك بهذا الموج المضطربِ إمساكاً لا يضطرب ، ويكون أيضاً رقيباً يَقِظاً ملازماً لا يغفُل ، يكبحُ المرءَ عند كُلِّ مُنْعَرَجٍ يَنْعرِجُ به إلى طريقِ الجَوْر فى كُلِّ خُطْوةٍ يَخطُوها ، وينبِّهُه ويُوقِظُه عند كُلّ التفاتةٍ تصرفُ وجهه عن سلوكِ الطريق المستقيم . فالقواعد العقلية المجرَّدة ، لا تكادُ تقومُ

بهذا العِبْءِ كُلِّه ، بل « العقائِدُ » وحدها هى صاحبة هذا السلطان على الإنسانِ ، لأنها إمّا أَنّ تكون مغروزةً فى فِطرته منذُ خُلِق إنساناً عاقِلاً مُبايناً لسائر الحيوانِ ، وإمّا أن تكون مكتسبَةً ، ولكنها مُنَزَّلةٌ مَنْزِلة العقائد المغروزة فيه ، ولأنّها جميعاً هى التى يرتضعها من أمّه وأبيه وجَماعته منذُ كان وليداً إلى أنْ يَشِبَّ ويَعْقِلَ . ولذلك قلتُ لك آنفاً إنّ هذا الضابط الرقيب يأتى من قِبَلِ « الثقافة » ، ورأسُ الثقافة هو « الدين » أو ما كانَ فى معنى « الدين » .

وأسلافُنا ، نحن العربَ والمسلمين ، قد مَنَحُوا هذا « الأصلَ الأخلاقىَّ » عنايةً فائقةً شاملةً ، لم يكنْ لها شبيهٌ عند أمةٍ سبقتْهُم ، ولم يُتَحْ لأُمَّة لحقَتْهُم وجاءتْ بعدهُم أن يكون لها عندهُم شبيهٌ أو مقاربٌ . وهذه العناية بالأصل الأخلاقىّ هى التى حَفِظَتْ على الثقافة الإسلاميّة تماسُكها وترابُطها مدّةَ أربعةَ عشَرَ قرناً ، مع كُلِّ ما مرَّ عليها من القَوَارِع والنكَبَات ووقائع الدهرِ على طولِ هذا المَدَى ، ومع كُلّ ما آنتابها من الضَّعف ، ومعَ كُلِّ ما آعتوَرَها أو دخلَ عليها من التقصير والخَلَل . وبقاءُ هذا التماسُك على طول القرونِ ، هو وَحْدَه إحدى عجائبِ الحضاراتِ والثقافاتِ التى عرفَها البَشَرُ . [1]

° ° °

(١) كان ينبغى هنا أن أتمّم القول فى نشأة « الأصل الأخلاق » الذى بُنِيَتْ عليه ثقافتنا ، منذُ حدث أوّل خلافٍ بعد وفاة رسول الله ﷺ ، بين أبى بكر وعمر وزيد بن ثابتٍ فى جمع القرآن العظيم وكتابته بين دَفّتين ، ثم ما تلا ذلك من طلب التوثّق فى رواية حديث رسول الله ﷺ ، ثم ما كان من أمر علماء الصحابة فى الفتوى ، ثم ما كان من أمر التابعين ثم مَنْ بعدهم حتى نشأ علم الجرح والتعديل ، وهو علمٌ فريدٌ لا مثيلَ له عند أمّةٍ من الأُمَم . ثم غلبة هذا « الأصل الأخلاق » على الثقافة العربية الإسلامية كُلِّها ، فى جميع علومها ، وعناية هذه الأمّة بإفراد هذا الأصل بالتأليف ، كالذى أَلّفوه فى آداب العالم والمتعلم ، والفقيه والمتفقّه ، وعلم النظر والمناظرة ، وعلم الجدل ، وعلم آداب الدرس ، إلى غير ذلك ممّا هو اليومَ مجهول أو كالمجهول لانصراف الناس عنه ، وتركهم جمعَ شتَاته وإعادةَ النظر فيه .

١٣ - لم أنتهِ بعدُ إلى جوابِ السؤال الذى بدأتُ به الفقرة العاشرة : كيف نشأ الخلافُ ، ولِمَ ، بينى وبين هذه « المناهج الأدبية » السائدة ؟ ولا يأتيك الجوابُ صريحاً بيِّناً أميناً ، إلاّ بَعْدَ أن أقُصَّ عليك قِصَّةَ تاريخٍ طويلٍ سوف أختصره لك اختصاراً مُوجَزاً أشدَّ الإيجاز ما استطعتُ . وذلكَ لأنّ هذا الفَسادَ لم يدخُلْ على ثقافتنا دخولاً يُوشِكُ أنْ يَطْمِسَ مَعَالمها ويُطْفِىءَ أنوارهَا ، إلاّ بعد التصادُم الصامتِ المخيفِ الذى حَدَث بيننا وبين الثقافة الأُوربيّة الحاضرةِ . وإذا نحنُ أغفلنا هذا التاريخ ولم نتبيَّنْه تبيُّناً واضحاً ، فكأننا أغفلنا القضيَّة كُلَّها ، وأسقطناهَا إسقَاطاً من عُقُولنا ، وخالفنا سُنَّة العُقَلاءِ المميِّزين فى التبصُّرِ والتَّبيُّنِ وتَرْكِ التساهُلِ عند مَوَاطنِ الخَطَر ، وصار كلامُنا فى « الثقافة » سُدًى كُلَّه وهَدَراً ، ثم عَبَثاً وثرثرةً وتَغْريراً ، كما هو حادثٌ الآن فى حياتِنا الأدبيةِ هذه الفاسدةِ ، وصارَ الأمرُ كُلُّه جُبْناً عن طَلَب الحقِّ ، واستنَامةً لِخِداع الباطِل وتَسْويله الخفِىِّ ، واستدراجِه إيَّانَا إلى سَرَابٍ مُهْلِكٍ .

• هُمْ ، أعنى الأوربيِّين ، يرونَ أنَّ أوربّة سقطت فى حمأة « القرون الوسطى » المظلمة ، منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية سنة ٤٧٦ ، أى قبل الهجرة بنحو مئة وخمسين سنة ، والحقيقة أنّ أوربة التى هى قلبُ القارّة ، كانت ساقطةً فيما هو أسوأ من « القرون الوسطى » قبل ذلك بقرون طويلة . كانوا فى جاهليةٍ جهلاءَ ، أهلُها هَمَجٌ هامجٌ ، لا دِينَ يجمعهُم ، حتى جاء « عصر النهضة » فى القرن السادسَ عشر الميلادى (١٦٠٠ م) ، أى بعد عشرةِ قرونٍ . وفى خِلال هذه الفترة حدث أمرانِ مُهمّانِ ، إغفالُ النظر إليهما من قِبَلِنا نحنُ ، يُضِرُّ بتصوُّرِنا للحقيقةِ التى ينبغى أن يعرفَها صغيرُنا وكبيرُنا ، ورجَالُنا ونساؤنا ، على وجهها الصحيح ، لا على الوجْه الذى عُلِّمنَاهُ فى المدارس صغاراً ، بل لا نزالُ نُعلِّمه أولادَنَا ، وكانَ من أهمِّ أسبابِ فسادِ حياتنا الأدبيّة إلى اليوم .

• الأمر الأوّل : « الحروبُ الصليبيَّةُ » التى بدأتْ سنة ١٠٩٦ م (٤٨٩ هـ) ، أى بعد ستة قرون من سقوط الإمبراطورية الرومانية ، فى خلالها كان الإسلام قد ظهر بدينه وثقافته وغلبَ على رُقْعة ممتدّةٍ من حدود الصين إلى الهند ، إلى أقصى الأندلس ، إلى قلب إفريقية ، وأنشأ حضارةً نبيلةً متماسكةً كاملةً ، بعد أنْ رَدَّ النصرانيَّة وأخرجها من الأرض ، وحصرَهَا فى الرقعة الشماليَّة التى فيها هذا الهمجُ الهامجُ الذى كان يعيش فيما يعرف اليوم باسم « أوربة » . وظلَّ الصِّراعُ مُشتعلاً مُدّة خمسة قرون ، بين النصرانية المحصورة فى الشمالِ وبين الإسلام الذى يتاخِمُها جنوباً . ولكنّ جيوشَ النصرانية لم تستطع أن تفعلَ شيئاً يُذْكَرُ ، مع تطاوُلِ الأمر . وتدبَّر الأمرَ قَادةُ النصرانيَّة ، وهم رجال الكنيسة وملوك الإقطاع ، وداخلتْهم الخشيةُ ، وخافوا أن يُفْضِىَ الأمْرُ إلى زَوال سلطان النصرانية عن جنوبِ أوربة ، كما زال بالأمس عن الأندَلُس . فرأوا أنْ يَتَّجِهُوا إلى الشمالِ ، ليدخلُوا فى النصرانية هذا الهمج الهامجَ الذى لا دين لَهُ يجمعُه ، ليكون بعد قليلٍ مددًا لجيوشٍ جرَّارة تطبقُ على ثغور الإسلامِ وعواصمه فى الشام ومصر ، (الثغور ، والعواصم ، هى البلاد المتاخمة لحدود العدوّ من النصارى وغيرهم) .

انطلق الرهبانُ يجوبونَ شمالَ أُوربة ليدخلُوا الهمجَ الهامجَ فى النصرانية ، ويُعِدُّوهُمْ إعداداً عظيماً لخوض المعركة العُظْمى بين الإسلامِ والنصرانية ، وكانَ جزءًا من هذا الإعدادِ : تبشيعُ « الإسلام » فى عيونهم ، وأن أهلَ الإسلام وثنيُّون ، وأن رسولَ الإسلامِ كانَ وكان ... فلم يتركوا باباً من الكذبِ والتمويهِ والبشاعة إلاّ دخلوهُ ، لِيُقِرُّوا معانِيَهُ فى قَرَارة نفوس أتباعهم من الهَمَج الهامج ، ليكون حقًّا مَحْضاً ، قد نطق به راهبٌ أو ناسكٌ أو قِسِّيس ، فهو مُنَزّهٌ لا ينطقُ إلا بالحقّ . فهذا الحقُّ إذَنْ ، هو عندهم قَسِيمُ الدِّين الذى آمنوا به واعتنقوهُ .

وجاءت سنة ١٠٩٦ م ، (٤٨٩ هـ) ، وجُيِّشتِ الجيوشُ من هذا الهَمَج الهامج

من التُّرمَنْديِّن والصقالبة والسكسون ، بقيادة الرهبانِ وملوكِ الإقطاع ، وبدأت « الحرب الصليبية » ، واكتسحت فى طريقها أهل النَّصرانية وسفحت دماءهُم بفَظَاظة ، وبدأت تكتسِحُ ثغور الإسلامِ وعواصمه الشمالية وتسفح الدماءَ المسلمة ، واستمرَّت قائمةً قرنين كاملينِ . كانت فرحةً رائعةً ، ولكنها انتهت بالإخفاقِ وباليأْس من حربِ السلاح فى سنة ١٢٩١ م ، (٦٩٠ هـ) ، بعد أن تركتْ فى أنفُس المقاتلين الهَمَج بصِيصاً من اليَقَظة والتنبُّه ، باحتكاكهم المستمرّ بحضارة راقيةٍ كانت تَفْتِنُهم ، وتبعثُ فى نفوسهم الشكَّ فيما كانوا قد سمعُوه من رُهْبانهم وملوكهم ، وتُثيرُ فى نفوس العائدين إلى مواطنهم ضروباً مختلفةً من القلَق ، هى على قِلّتها يُخْشَى أن تنتشر فى جماهير هذه الأمم الجاهلة ، فتُضْعِفَ حَمِيَّتهم ونَخْوتَهُم . وكانتْ حسرةً وغُصَّةً فى قلوب الرُّهْبان والملوك والمثقَّفين ، وحاولوا أن يستبقوا هذه الصورة المشوَّهة عن الإسلام والمسلمين قائمةً راسخةً فى أنفُس الجماهير المتحمّسةِ للدفاع عن نصرانيتها الجديدة . هذه واحدة .

● الأمر الثانى : بَطَل عمل السلاح بالإخفاق واليأس ، وخمدت الحرُوب تقريباً بين الإسلام والصليبيّة نحو قرنٍ ونصفِ قرنٍ ، ثم وقعت الواقعة . اكتُسِحَت الأرض المسيحيّة فى آسية ، فى شمال الشام ، ودخلت برُمّتِها فى حَوْزة الإسلام . وفى يوم الثلاثاء ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٨٥٧ هـ/ ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م ، سقطت القسطنطينيّة عاصمة المسيحية ، ودخلها « محمد الفاتح » بالتكبير والتهليل ، وارتفع الأذانُ فى طرف أوربة الشرقى . إذنْ ، فقد وقعت الواقعة !! واهتزَّ العالمِ الأوربيّ كُلّه هزّةً عنيفةً ممزوجةً بالخِزْى والخوفِ والرُّعب والغضب والحِقْد ، ولكن قارَنَ ذلكَ إصرارٌ مستميتٌ على دَفْع هذا الخِزْىِ ، وإمَاطة هذا الخوفِ والرُّعْب ، وإشْعالِ نيرانِ الغضب والحِقْد ، بحميَّةٍ تأنفُ من الاستكانة لذُلِّ القَهْر الذى أحدثهُ « محمد الفاتح » ورجالُه من المسلمين الظافرين .

ومنْ يومئذٍ ، بدأتْ أوربّة تتغيّر ، لتخرجَ من هذا المأزِق الضَّنْك . وبهمَّةٍ لا تَفْتُر ولاَ تعرفُ الكَلَلَ ، بدأ الرهبانُ وتلاميذهُم معركة أُخرى أقسَى من معارك الحرب ، معركة المعرفةِ والعلم الذى هيّأ للمسلمين ما هيّأ من أسباب الظَّفَر والغَلَبة . لقد علمُوا الآنَ أن معركة السلاح لن تُغْنِى عنهم شيئاً ، وهذه أمواجُ المسلمين تتدفَّقُ فى قلب أوربّة غرباً ، ويدخُلُ الإسلامَ سِلْماً بلا إكراهٍ جماهيرُ غفيرةٌ ، كانوا بالأمس نَصارَى متحمِّسين فى قتالِ المسلمين ، الوثنيِّين ، كما أوهمَهم الرهبان ، فلم يُغْنِ هذا الإيهامُ عنهم شيئاً .

* * *

١٤ — وهذا المأْزِقُ الضَّنْكُ فى حياةِ المسيحية ، له تاريخٌ قديمٌ سابقٌ لا يمكنُ إغفالُه ، بل ينبغى أن يكون واضحاً لنا كلَّ الوضوح ، لأنّ غموضَه سببٌ كبيرٌ من أسباب فَسَاد حياتنا الأدبيّة إلى هذا اليوم ، بل إلى هذه الساعة التى تقرأ فيها كلامى . فعند مجىءِ الإسلامِ ، كان سلطانُ الكنائس المسيحيةِ مبسوطًا على الشام ، ومصرَ ، وشمالِ إفريقية ، وأرض الأندلُس منذ قرون طويلة سبقتْ . وفى طَرْفة عينٍ ، فى أقلَّ من ثمانين سنةً ، تقوَّضَ فجأة سلطان المسيحية على هذه الرقعة الواسعة المتراحبة وزالَ زوَالاً سهلاً ، وتقوَّض أيضاً سُلطانُها على نفوس الجماهير الغفيرة من رعاياها ، ودخلوا دخولاً سهلاً يسيراً فى الإسلام طوعاً بلا إكراهٍ = بل أعجبُ من ذلك ، صاروا هُمْ جُنْدَ الإسلامِ وحُمَاةَ ثُغُوره وعواصمه ، وقارعُوا النصرانيَّة وحصروهَا فى الشمالِ الأوربىّ = بل أعجبُ من ذلك أيضاً ، أنْ دخلُوا فى العربيّة دخولاً غريباً وصارَ لسانُهم لسانَها = بل أعجبُ من ذلك أيضاً ، أنْ خرجَ من أَصْلاَبِهم كثرةٌ كاثرةٌ من العلماء الكبار الذين يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، وبالعِلْم وبالسيف . وصارت دارُ الإسلامِ كُلُّها ديارَ ثقافة وعِلْمٍ وخُلُقٍ وحضارةٍ تبهر الأنظارَ والعقول ، فى المشرقِ حيث مَقَرُّ الخلافة فى

دمشقَ وبغدادَ ، وفى المغربِ حيث ديارُ الأندلس . كيف حَدَث هذا ؟ سؤال جوابُه جوابٌ طويلٌ ليس هذا مكانَه ، ولكنّه كان سؤالاً يتردّد فى ضميرِ المسيحيّة كُلِّها .

كانَ جُزْءًا من جواب هذا السؤالِ أنْ جاهدت الدولة البيزنطيّة فى الشمال أن تستردّ ما ضاعَ ، وظَلَّتْ أربعةَ قرونٍ تحاول أن تعود فتخترقَ هذا العالم الإسلامى من طرفه الشمالىّ عند الشام ، وذهبَ جهدُها هدراً ، ولم يُغْنِ عنهم السلاحُ شيئاً . وكُلّ يوم يمرُّ ، يزدادُ رعايَا الرُّهبان والملوك انبهاراً بالإسلام وخُلُقه وثقافَته وحضارته ، ولم ينجُ من هذا الانبهار لا الملوك ولا الرهبانُ أنفُسُهم . وضاق الأمْرُ ، وكاد اليأسُ يُخَامِر قلبَ المسيحيّة ، لا تدرى ماذا تفعل فى تساقط رعايَاها فى الإسلام ، أو فى ثقافته وحضارته ، طوعاً بلا إكراهٍ . ما معنى هذا ؟ أيكونُ معناه أنّ المسيحية على ما هى عليه غير مُقْنِعةٍ لجماهير الرَّعايَا ؟ ولم يُحِيروا جواباً ، ولا وجدُوا لأنفُسهم مخرجاً ، وَالْتَقَتْ حَلْقَتا البِطَان ! (البِطانُ : حِزام الرحل على البعير ، وهو مَثَلٌ يضربُ للأمر إذا اشتدَّ وضاق) .

ثُمَّ جاءَ ما يبدِّد هذا اليأسَ . هذه هى الجيوش الجرَّارة من الهَمَج الهامِج تتدفّقُ من قلب أوربة ، تريد أيضاً مرة أخرى ، اختراقَ العالم الإسلامىّ من شماله فى الشام . ونَشِبَت الحروبُ الصليبيَّة التى ستستمرُّ قرنين كاملين (١٠٩٦ - ١٢٩١ م / ٤٨٩ - ٦٩٠ هـ) ، فى خلالها استولَوْا على جزءٍ من أرضِ الشام ، وأقام به بعضهم إقامةً دائمة ، وأنشأوا ممالكَ ، وخالطوا المسلمين مخالطةً طويلة ، وأحرَزوا من كنوز العالم الإسلامى ثروةً هائلةً يستمتعون بها ، وعَرَف الهمجُ الهامجُ ما لم يكنْ يعرفُ ، وامتلأت قلوبهم شهوةً ورغبةً فيما فَتَنَتْهم بِه ديارُ الإسلام وحضارته . ويعود العائدون بعد كل حملةٍ من الحملات السبع الصليبية إلى ديارهم وأهليهم ، يتحدَّثون بما رأوا ، ويَصِفون ما حازوا ، ويبالغون فى كُلّ ذلك ، وينبهر السامعون ويتوقون إلى الرحلة والانضمام إلى كتائب المجاهدين الصليبيين ، لتحقيق آمالهم فى الغنى والثروة والاستمتاع ، ولكن طول معاشرة هذه

الجماهير للمسلمين أحدث لكثير منهم قَلَقاً فى صدق ما كانوا يسمعونه من الرهبانِ المتحمِّسِين المحرِّضين على الحربِ ، وهُمْ يُبَشِّعون لهم أمرَ المسلمين ودينهم وأخلاقَهم ، وحمل العائدون أيضاً هذا القَلَق وتحدَّثوا به . هكذا كان شأنُ جماهير الهمج الهامج فى ديارهم ، فإذا طالَ هذا وتكاثر ، فإنه ممّا يهدِّدُ المسيحية فى عُقْر ديارها فى الشمال كُلِّه ، بلا شكٍّ .

وانتبه بعض الرهبانِ والملوك وعُقَلاء الرجالِ ، وبحثوا عن مخرجٍ قبلَ أن يتفاقم الأمر . فكانَ بيِّنا لعقلائهم أن سِرَّ قُوَّة الحضارة الإسلامية هو العلمُ ، علمُ الدُّنيا وعلم الآخرة . فعلم الآخرةِ ، وهو الدينُ ، مُقْنِعٌ لجماهير البَشَر ، فهم يدخلونه طوعاً واختياراً = وعلم الدُّنيا ، كما رأوا ، هو الذى مكَّنَ لهذه الحضارة الإسلامية أن تمتلك هذه القوةَ الهائلةَ المتماسكةَ التى شَعَروا أنها مستعصيةٌ على الاختراقِ ، وهذه الأُبَّهة الهائلة التى تعيش فيها دارُ الإسلامِ .

ومضى نحو قرنٍ ونصفٍ من الحملات الصليبيَّة ، وأصبح الأمْرُ أشدّ حَرَجاً ، وصارَ بيِّناً أن الحروبَ الصليبيَّةَ تُوشِكُ أن تَؤُوبَ بالإخفاقِ مرَّة أُخرى . فانبعثَ منهم رجالٌ يطلبونَ العلم والمعرفة فى أرض الإسلام ما استطاعوا ، فى المشرق وفى الأندلس ، وظهر رجالٌ من طَبَقة « روجر بيكُنْ » الإنجليزى ، (١٢١٤ — ١٢٩٤ / ٦١١ — ٦٩٣ هـ) ، ممَّن شامُّوا العربَ والعربيَّةَ ، وجاهدوا فى التعلُّم جهادَ المستميت بصبرٍ ودَأْبٍ ، ليزيحوا عن أنفسهم وأهليهم غوائلَ الجَهْل . وهبَّ رجالٌ من الرُّهْبان ذوى الحَمِيَّة أحسُّوا بالخَلَل الواقع فى الحياة المسيحية التى لم تَحْمِ رعاياهُم من التساقُط السَّهل فى الإسلام على طولِ القرون ، هبُّوا لإصلاح هذا الخَلَل . فكان من أكبرهم رجُلٌ ذكىٌّ متوقِّد ، جاهدَ جهاداً عظيماً فى سبيل دِينه ، أراد أن يزيلَ جهالة الرُّهْبان والملوكِ ، ويمكِّن لهم حُجَّة مُقْنِعةً تَحُول بينهم وبين هذا الانبهار بالإسلام وثقافته

وحضارته . ذلك الرجل هو « تُوما الإكوينىّ » الإيطالىّ الكاثوليكى ، (١٢٢٥ - ١٢٧٤ م / ٦٢٢ - ٦٧٣ هـ) ، وبذكائه وحميَّته وإخلاصه ، استطاع أن يحصِّل قَدْراً كبيراً من العلم والمعرفة ، مُتَّكئًا اتِّكاءً كاملاً على القَدْر الذى استطاعَ أن يَفْهمه ويَظْفر به من عند كتاب الإسلام وعلمائه وفلاسفته ومُتكلِّميه ، كابن رُشْدٍ وابن سينَا وغيرهم ، مريداً بكُلِّ ذلك إصلاحَ الخَلَل الواقع فى الحياة المسيحية ، والذى أضعفَ سُلطان الكنيسةِ والرُّهبانِ على نفوس رعاياهُم الذين لا سبيل لهُمْ إلى معرفة شئ من دينهم إلاّ عن طريق الكنيسة والقِسِّيسين والرُّهْبَان . ولكن كان العائقُ عن أن تُؤْتِى هذه النهضَةُ ثمارَها يومئذٍ أنَّ لُغَة الرهبانِ ثم العلماءِ كانت هى اللاتينيَّة القديمة ، وهى لُغَةٌ لا تعرفُها جماهيرُ رعايَا الكنيسة ، وكانت أوربّة كلها تتكلَّم لغاتٍ كثيرةً مختلفةً ، ولَهَجاتٍ شديدةَ التبايُن ولكنَّها لغاتٌ قَلِقةٌ فى دور التكوين . وكان أكثر هذه الجماهير أُمِّيًّا لا يقرأُ ولا يكتب ، فأصبح الرهبانُ والعلماء يسيرون فى طريقٍ ، ورعايَا الرُّهبان يسيرون فى طريقٍ آخَر ، فهُمْ قطيعٌ يَنْعِقُ فيه ناعقٌ بما لا يسمَعُ إلاّ دُعَاءً ونداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فهم لا يعقِلونَ .

وقَضَى الله قَضَاءَه فى السابعَ عشر من جمادى الآخرة سنة ٦٩٠ هـ (١٧ من يونيه سنة ١٢٩١ م) ، وسقَطَ آخرُ حِصْنٍ كان للصليبيِّين فى الشام ، ورجعت آخر فُلُولِ الحملات الصليبيَّة إلى مواطنها متهالكةً يائسةً مُسْتَخْذِيَةً صُفْرَ الوجوهِ من الخِزْى والعارِ ، وفى قلوبها حَسْرَةٌ قاتلةٌ على ما خرجَ من أيديها من متاع الدُّنْيا وبَهْجَتها وزُخْرُفها ، وفى سِرِّ أنفُسِها يأسٌ مُحيِّرٌ ويقينٌ مفزعٌ : أنَّ دارَ الإسلام دِيَارٌ ممتنعةٌ على الاختراقِ امتنَاعاً لا سبيلَ إلى تجربته مرَّة ثالثة .

وأيضاً ، قَضَى الله قضاءَهُ المستورَ الذى لم يَكْشِفْ عنهُ الحجابَ بعدُ : أنْ لا تكون الحربُ الصليبيَّة شرًّا محضاً على المسيحيّة المحصورة فى الشمالِ ، بلْ قَدَراً مقدوراً

يَحمِلُ لَهَا فى طِيَّاتِه خيراً محجوباً ، ليكونَ غداً ، بهذا الخيرِ الجنينِ ، عُقُوبةً لعبادِه فى دار الإسلامِ ، إذْ أعجبتهم كَثْرتُهمُ ، وغرَّتهم قوَّتهم ، وتاهُوا بما أُوتُوا من زُخْرف الحياةِ الدُّنيا ، وركبَ كثيرٌ من عامَّتهم محارمَ الله ، وخالطوا مَعَاصِيَ قد نُهُوا عنها ، ونَسُوا حظًّا منَ الحقِّ الذى فى أيديهم لا يأتيه الباطِلُ من بين يديه ولا من خَلْفه ، وتركُوا محجَّةً بيضاءَ لا يضِلُّ سالكُها ، واتَّبعوا السُّبُلِ فتفرَّقت بهم عن سبيله سُبحانه ، فأورَثَهم بذنوبهم غفلةً سوف تَطُول بهم حتّى يفتحُوا أَعيُنهم فجأةً على بلاءٍ ماحقٍ . فقضى ربُّك أن تعيشَ أوربة كُلُّها قرناً ونصفَ قرنٍ بعد إخفاق الحروب الصليبية ، (١٢٩١ - ١٤٥٣ م / ٦٩٠ - ٨٥٧ هـ) فى إصرارٍ لا يتزعزعُ ، وفى دأْبٍ لا يعوقه ملَلٌ ، على أن تُصْلح الخَلَل الواقعَ فى الحياة المسيحية ، وعلى تحصيل العلم والمعرفةِ من دار الإسلام بكُلِّ وسيلةٍ ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، رَجاءَ أن تجد مخرجاً من هذا المأزِق الضَّنكِ الذى حُصِرتْ فيه . وهو تاريخٌ طويلٌ حافلٌ يُعْجِزنى أنْ أقصَّه عليك الآنَ .

...

١٥ - وبغتةً ، وقعت الواقعةُ فى يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الآخرة سنة ٨٥٧/ ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ ، ودخَل « محمد الفاتح » حصنَ المسيحية الشمالية المنيع الشَّامخ ، مدينةَ القسطنطينية ، وقُضِيَ الأمر الذى فيه تَسْتَفْتِيان ، دخَلها قُبيلَ العصر على صَهْوة جوادِه المطهَّم ، (الضَّخم البارع الجمال) ، واتجهَ إلى « كنيسة أيا صوفيا » ، وجماهيرُ رعايا الكنيسة يصلُّون ويبتهلون ويسألون الله أن يَدْفَعَ عنهم بَلاءَ « التُّرك » ، (أى المسلمين) . فلمَّا علم الراهبُ بقدومه أمرَ بفتح باب الكنيسةِ على مِصْراعيه ، وارتاع المصلُّون وماجُوا واضطربوا ، ودخل « محمد الفاتح » ، فتقدَّم إليهم أنْ يُتِمُّوا صلاتَهم آمنين غير مروَّعين ، وأمَّنهم على أموالهم وأعراضِهم ، وأن يعودوا إلى بيوتهم سالمين . ودنت صلاة العَصْر ، وقامَ

أحد العلماءِ فأذّن للصلاة ، وصلّى المسلمُون العصر فى « كنيسة أيا صوفيا » ، ومن يومئذ حُوِّلت فصارت مسجداً . وانتشر الخبر كالبرقِ فى أرجاء أوربة ، ومادَت الدُّنيا بالخبر ، واهتزَّتْ دُنيا المسيحية الأوربية هِزَّة لم تعرف مثلَها قطُّ ، ولم يبق عليها راهبٌ ولا ملكٌ ولا أميرٌ ولا صعلوكٌ إلاّ انتفض انتفاضَة الغضَبِ لدينه . وما هو إلاّ قليلٌ حتى انطلقَ « محمد الفاتح » ، وانساحت كتائب الإسلام فى قلب أوربَّة ... يا لها من فجيعةٍ !! وكانَ ما كانَ ....

بيدَ أنّ هذه الواقعةَ الباطشةَ على عُنْفِها ، وعلى سُرعِة ما تلاها من تدفُّق كتائب الإسلام مُنْسَاحةً فى قلب أوربّة ، لم تَفُتَّ فى عضُد المسيحية الشمالية ، بل على العكس ، زادها الإحساس بالخِزْى والعار حماسةً وتصميماً وتَحرُّقاً وحقداً خالط كُلَّ نفسٍ من الخاصة والعامّة ، وصارَ هَمُّ « الترك » ، (أى المسلمين) ، همًّا مؤرِّقاً للعالم والجاهِل والصغير والكبير والذكر والأنثى ، وهام الرهبانُ وغير الرُّهْبَان فى جَنَبات أوربة غضاباً يحرّضون رعاياهُمْ على قتالِ هذه « التُرك » ، (أى المسلمين) ، بكُلِّ لسان قادرٍ على الإثارة وعلى التبشيع ، تَبشيع هذه « الترك » . وكلما ازدادَ « الترك » توغُّلاً فى أرض أوربة « المقدسة » ، ازداد الخوفُ ، وازداد التحريضُ على البغضاءِ والحِقْد ، ومع البغضاء المكتومةِ والتحريض ، زادَ التصميم على المقاومة . وتمضى الأيام والسنون وتتطاوُل ، وأوربَّةُ بأسْرِها لا تنامُ إلاّ على فراشٍ من الرَّمْضاءِ اللاذعة ، لا يدعُ لجنبٍ ساعةً من طُمَأْنِينةٍ ، يفزِّعُه شبح « التُّرك » ، وذكرى قرون طويلةٍ من الإخفاق والمَهَانَة والعار ، ولا قَرارَ على دَوِىّ أصواتٍ صارخةٍ تُهيب بهم إلى رَفْع هذا العارِ ودَفْعه عن دينهم وعن أنفُسهم وعن أوطانهم بكُلّ سبيلٍ . وكذلك رسَختْ فى العظامِ الحيّة ، لا فى النفوس وحدها ولا فى العقول ، بغضاءُ ساريةٌ مشتعلة للفظ « الترك » ، (أى المسلمين) ، لا تزدادُ على الأيّام إلا توهُّجاً وانتشاراً ، ونزلتْ من النفوس منزلةَ « الدِّينِ » الراسخ فى أعماقِ الفِطْرة .

وهذه البغضاءُ المشتعلةُ النافذة فى غَوْر العظامِ هى التى دفعت أوربّة دفعاً إلى طلبِ المخرج من المأزِق الضَّنْك ، وهى التى أيقظْت الهِمَم يَقَظَةً لا تعرف الإغماضَ . وباليقظة المتوهِّجة دارَ الصِّراع فى جَنَباتِ أوربة بين جميع القُوَى التى كانت تحكُمُ جماهير الهَمَج الهامِج . ومن قلب هذا الصراع خرجت طَبَقة إصلاح خَلَل المسيحية الشمالية مرةً أخرى ، فخرج الراهب الألمانىُّ « مَرْتِنْ لُوثَرْ » (١٤٨٣ - ١٥٤٦ م / ٨٩٤ - ٩٥٣ هـ) ، والراهبُ الفرنسىّ « جون كِلِفنْ » ، (١٥٠٩ - ١٥٦٤ م / ٩١٤ - ٩٧١ هـ) ، وخرج السياسى الإيطالىُّ الفاجر « نيكولو مَكْيافِلّى » ، (١٤٦٩ - ١٥٢٧ / ٨٧٠ - ٩٣٤ هـ) ، وخرج أيضاً صراعُ اللغات واللهجات المتباينة ، طلباً لاستقرارِ لغةٍ موحَّدة لكُلِّ إقليمٍ ، وإخراجِ سيطرة « اللاتينية » العتيقة من طريق الرهبان والعلماء والكتاب ، لكى يُمْكن نشر التعليم على أوسع نِطاق بين جماهير الهَمَج الهامج من رَعايَا الكنيسة .... وتاريخٌ طويلٌ حافلٌ متنوِّعٌ ، وجهادٌ مريرٌ قاسٍ ، فى سبيل اليَقَظة العامّة والتنبُّه والتجمُّع لإعدادِ أمّةٍ مسيحية قادرةٍ على دَفْع رُعْب « الترك » ، (أى المسلمين) ، عن أرض أوربة « المقدسة » . وبدأت اليَقَظَةُ ذاتُ الهَدَف الواحِد الذى لا يغفُل عنه راهبٌ ولا عالم ، ولَا صغير ولا كبير ، ولا عامىٌّ ولا مُتَعلِّم ، ولا رجُل ولا امرأة . ومَعَ اليَقَظَةِ تفجَّرَ أعظَمُ سَيْلٍ يكتسحُ أُمِّيَّة الهَمَج الهامِج ويخرجُه من أغلالِ الجهالة ، ويجعلُ هذا الهدف الواحدَ مستقرًّا فى جوفِ العظام ، مع البغضاء والحِقْد ، ومع التصميمِ والإرادة ، ومع اليقظة والتنبُّه ، وطالت الليالى والأيام ، فما هو إلّا قليلٌ حتى كانَ ما كان .....

وبغتَةً ، كما كان اقتحامُ المسلمين قلب أوربةً بغتةً ، تَهاوتِ الحواجز التى كانت تمنَعُ حركة اليقظة والتنبُّه فى أعقاب الحروب الصليبية لأن تُؤْتى ثِمارها ، (كما أشرت إليه آنفاً فى الفقرة الرابعة عشرة) ، وخرجت أوربّة من أصفادِ « القرون الوسطى » ، ودخلَتْ

بعد جهادٍ طويل مريرٍ فى « القرون الحديثة » كما يسمُّونَها . ومع تقوُّض هذه الحواجز ، ظَهَرت براعيمُ الثِّمار الشهية ، وبظهورها غضّةً ناضرةً ، زادت الحماسةُ ، وتعالت الهِمَمُ ، ومُهِّدَ الطريقُ الوَعْر ، ودَبَّت النَّشْوةُ فى جماهيرِ المجاهِدِين ، وتحدَّدت الأهدافُ والوسائلُ ، وتبيّن الطريقُ اللاحِب . ومن يومئذٍ بدأ الميزانُ يَشُول ، فارتفعتْ إحدى الكِفَّتَيْن شَيئًا مَا ، وانخفضتِ الأخرى شيئاً مَا . ارتفعت كِفَّةُ أورُبَّة بهذه اليقظةِ الهائلة الشاملة التى أحدثتها الهزائم القديمة والحديثة ، وانخفضت كِفَّةُ المسلمين بهذه الغفلةِ الهائلة الشاملة التى أحدثها الغرورُ بالنَّصر القديم وبالنصر الحديث وفتح القسطنطينية . وكذلك شال الميزان ، وكانت فرحةٌ محسوسةٌ فى جانب ، وكانت غفلةٌ لا تُحَسُّ فى جانب . تاريخٌ طويلٌ مضَى وغابَ ، وتاريخٌ طويلٌ سوف يأتى ، ثم لا يعلمُ إلّا اللهُ متى يكون غيابُه .

* * *

١٦ — والآنَ تستطيعُ أن تتبيَّن أربعَ مراحلَ واضحةً للصراع الذى دار بين المسيحية الشمالية والإسلام :

• المرحلةُ الأولى : صراعُ الغَضَب لهزيمة المسيحية فى أرض الشام ودخولِ أهلها فى الإسلام ، فبالغضب أمَّلت اختراقَ دارِ الإسلامِ لتَسْترِدَّ ما ضاعَ ، تدفَعُها بَغْضاءُ حَيَّةٌ متسامحةٌ ، لم تمنَعْ ملكاً ولا أميراً ولا راهباً أن يُمدَّ المسلمين بما يطلبونَهُ من كتُب « علوم الأوائل » ، (الإغريق) ، التى كانت تحت يد المسيحية يعلوها الترابُ . وظلَّ الصراع قائماً لم يفتُر ، أكثر من أربعة قرونٍ .

• المرحلة الثانية : صراعُ الغضَبِ المتفجِّر المتدفّق من قلب أوربة ، مشحوناً ببغضاء جاهلةٍ عاتية عنيفةٍ مكتسحةٍ مُدمِّرةٍ سفّاحةٍ للدماء ، سَفَحت أوّل مَا سفَحَت دماءَ أهل دينها من رعايا البيزنطية ، جاءت تريدُ هى الأُخْرَى ، اختراقَ دار الإسلام ،

وذلك عهد الحروب الصليبية الذى بَقى فى الشام قَرْنين ، ثم ارتدَّ خائباً إلى مواطنه فى قلب أوربّة .

• المرحلة الثالثة : صِراعُ الغَضَبِ المكظومِ الذى أورثه اندحارُ الكتائب الصليبيّة ، من تحتِه بغضاءُ متوهّجةٌ عنيفةٌ ، ولكنَّها متردِّدَةٌ يكبحُها اليأسُ من اختراق دار الإسلام مرَّةً ثالثة بالسلاح وبالحرب ، فارتدعَتْ لكى تبدأ فى إصلاح خَلَل الحياة المسيحية ، بالاتِّكاءِ الشديد الكامل على علومِ دار الإسلام ، ولكى تستعدَّ لإخراج المسيحيّة من مأزِقٍ ضنْكٍ مُوئِس ، وظلَّت على ذلك قرناً ونصف قرنٍ .

وهذه المراحلُ الثلاث ، كانت ترسُفُ فى أغلالِ « القرون الوسطى » ، أغلالِ الجَهْلِ والضَّياع . ولم تصنع هذه المراحل شيئاً ذا بالٍ .

• المرحلةُ الرابعة : صراعُ الغَضَبِ المشتعل بعد فتح القسطنطينيّة ، يزيدُه اشتعالاً وتوهُّجاً وَقودٌ من لَهيب البغضَاءِ والحِقْد الغائر فى العِظام على « التُّرك » ، (أى المسلمين) ، وهُمْ شبحٌ مُخيفٌ مندفعٌ فى قَلْبِ أوربّة ، يُلْقِى ظِلَّه على كُلِّ شيءٍ ، ويفزِّعُ كُلَّ كائنٍ حيّ أو غيرَ حَيّ بالليل وبالنَّهارِ . وإذا كانت المراحلُ الثلاثُ الأوَل لم تصنع للمسيحيّة شيئاً ذا بالٍ ، فصراع الغضب المشتعل بلهيبِ البغضاء والحقد هو وحدَهُ الذى صنَع لأوربَّة كُلَّ شيءٍ إلى يومنا هذا .

صنَع كُلَّ شيءٍ ، لأنه هو الذى أدَّى بهم إلى يَقَظةٍ شاملة قامتْ على الإصرارِ ، وعلى المجاهدة المُثَابِرَةِ على تحصيل العلم وعلى إصلاح خَلَل الحياة المسيحية ، ولكنْ لم يكن لها يومئذٍ من سبيلٍ ولا مَددٍ ، إلّا المَدَدُ الكائن فى دار الإسلام ، من العِلْم الحىّ عند علماء المسلمين ، أو العِلم المسطَّر فى كُتُب أهلِ الإسلام . فلم يتردّدُوا ، وبالجهاد الخارق ، وبالحماسة المتوقّدة ، وبالصبْر الطويل ، انفكّتْ أغلالُ « القرون الوسطى » بغتَةً عن قَلْب أوربّة ، وانبعثت نهضةُ « العصور الحديثة » مستمرَّةً إلى هذا اليوم .

من يومئذٍ ، عند أوّل بَدْءِ اليَقَظة ، تحدَّدَت أهدافُ المسيحيَّة الشمالية ، وتحدَّدَت وَسائلُها . لم يَغِبْ عن أَحدٍ منهم قطُّ أنهم فى سبيل إعدادِ أنفُسهم لحرب صليبيّةٍ رابعة ، لأنّهم كانوا يومئذٍ يعيشون فى ظِلِّ شَبحٍ مُخِيفٍ متوغِّل فى أرض أوربّة المقدسةِ ببأسٍ شديدٍ وقوّة لا تُرْدَع ، بل هو شَبَحٌ متجوِّل يطوف أنحاءَ القارة كُلِّها ، لا يَطْرِف فيها جَفنٌ حتّى يَراهُ مَاثِلاً فى عينه آناءَ الليل وأطراف النهار ، « التُّركَ التُّركَ » !! . وهذه « التُّرك » ، وهم المسلمون ، طلائعُ عالمٍ إسلاميّ زاخرٍ هائلٍ مُخيفٍ غيرِ معروفٍ لهم مَا فى جَوْفِه ، مسيطِرٍ على رقعةٍ متراحبةٍ ممتدَّةٍ من الأندلسِ إلى أطرافٍ تحيط بأرض روسيا ، إلى جوف قارَّة آسية ، إلى جوفِ قارّة إفريقية . وهُم يعلمون الآن علماً ليس بالظنّ ، أنَّ السلاحَ ، فى هذه المرحلة الرابعة ، (وهو يومئذٍ قريبٌ من قريبٍ) ، ليس يُغْنى غَنَاءً حاسماً ، فقد وعظتْهُم المراحِلُ الثلاثُ الأُوَل ، فنَحَّوْا أمرَهُ جانباً إلى أن يحينَ حينُه ويُصْبِح قادراً وحاسماً . لمْ يبق لهُمْ ، إذنْ ، إلا سلاحُ العَقْل والعلمِ والتفوُّق واليَقَظة والفَهْم وحُسْنِ التدبير ، ثم المَكْرُ والدهاءُ واللِّين والمداهنة وتَرْك الاستثارةِ ، استثارةِ عالَمٍ ضَخْمٍ مجهولٍ ما فى جوفِه ، ولا قِبلَ لهم بتدفُّق أمواجِه الزاخرة ، والتى كان « التركُ » الظَّافرونَ طلائعَها الظاهرة لهمْ عياناً فى قلب أوربة . وهذه رعايا المسيحيَّة أمامَ أعيُنهم تتساقَطُ فى الإسلام ، مرَّةً أخرى ، طائعةً مختارةً ، وتدخُل بحماسةٍ ويقينٍ ثابتٍ فى جحافِل الإسلام الطاغية ! يا لها من فَجيعة !! ويرتاعُ مع كُلِّ فَجْرٍ قلبُ المسيحية ، ويَغْلِى رهبانُها ورعاياهم بُغْضاً للإسلام ، وحماسةً وغضباً للمسيحية ، ويَرْسخُ الإصرارُ فى القلوبِ على دَفْع غائلةِ الإسلام ، وعلى التماس قهرِهِ بكُلِّ وسيلةٍ ومن كُلِّ سبيل ، وتَتَلَهَّبُ أمانىُّ الاستيلاء على كُنُوزه الباهرة التى لا تنفدُ ، والتى غالَى فى تصويرها لهم العائدونَ من الحرب الصليبيّة الثالثة ، (وهى الحملات السبع المعروفة باسم « الحروب الصليبية ») ، وصارتْ أحلاماً بهيجةً يحلُمُ بها كُلّ صغير وكبير ، وعالم وجاهلٍ ، وراهبٍ ورعيّةٍ ، بل

صارت شهوةً عارمةً تدبُّ دبيباً فى كُلّ نَفْسٍ ، بل صارت غريزةً مستحكمةً من غرائز النَّفْس الأوربية . هذا إيجازٌ شديدٌ لما كان ، وليكنْ منْك على ذُكْرٍ أبدًا لا تنساهُ .

كان كُلُّ مَدَد اليَقَظةِ ، كما قدّمتُ ، مُسْتجلَباً كُلُّه من علوم دار الإسلام ، من العِلْم الحيِّ فى علمائه ، ومن العلم المُسَطَّر فى كُتبه . والسبيلُ إلى ذلك فى الأمرين جميعاً كان معرفةَ لسانِ العربِ . ولن أقصَّ عليكَ التاريخَ الطويل ، ولكن آعلم أنّ لسانَ العربِ كان له السيادة المطلقَةُ على العالم ، قروناً قبل ذلك طِوالاً ، وكانت المسيحيّة الشماليةُ مجاورةً لهذا السُّلطان المطلق ، ومصارعةً لأهله صراعاً طويلاً تارةً ، ومخالطةً لهم بالتجارة والرحلة وغيرهما زمناً طويلاً تارة أخرى ، ولذلك كان هذا اللسان العربيّ معروفاً معرفةً جيدةً لطوائف من العامّة والخاصّة فى ديار بيزنطة من ناحية ، وفى قلبِ أوربة نفسها لمجاورتها الأندلس . ولن أشغل نفسى بالحديث عن هذا التاريخ ، وقد مَضتْ من قَبْلُ إشارةٌ إليه خاطفةٌ ، فالذى يعنينى هنا ما كان عند بَدْءِ اليقظة فى أوربّة . فبالهمَّة والإخلاصِ والعَقْل أيضاً ، كانَ لابُدَّ لهُمْ من أن يزدادَ عَدَدُ الذين يعرفون اللسانَ العربىّ ويجيدونه زيادةً وافرةً ، [1] لحاجتهم يومئذ إلى أنْ يعتمدُوا اعتماداً مباشِرًا على الاتِّصال بالعِلم الحيِّ فى علماء الإسلام ، لكى يتمكَّنُوا من حلِّ الرُّموز اللُّغَوية الكثيرة المسطَّرة فى الكتب العربية ، ولا سيَّما كتبُ الرياضة والجبر والكيمياء والطبِّ والفلك وسائرُ علوم الصناعة التى قلَّ من يعرفُها .

فكانَ من الأهدافِ والوسائل ، كما ذكرتُ قبلُ ، بِعْثَةُ أعدادٍ كبيرة ممَّنْ تعلَّموا العربيةَ وأجادوها إجادةً مَّا ، تخرجُ لتسيح فى أرض الإسلام ، وتجمع الكُتُب شراءً أو سَرِقةً ،

---

(١) لم يقتصر أمرهم على تعلم اللسان العربى ، بل انطلقوا يتعلمون كُلّ لسانٍ كان فى دار الإسلام ، كالتركى والفارسىّ وغيرهما من لغاتٍ كانت للمسلمين منطوقة ، أو فى القراطيس مكتوبة .

وتُلاَقى الخاصَّةَ من العلماءِ ، وتُخَالِطُ العامة من المثقَّفين والدَّهماء ، وتُدَوِّنُ فى العقول وفى القراطيسِ ما عَسَى أن ينفعهم فى فهم هذا العالم الذى استعصى على المسيحية واستعْلَى قرونًا طوالاً . يخرجون أفواجاً تتكاثر على الأيَّام ، ويجوبون أرجاء هذا العالم ، ويعودون لإتْمام عملين عظيمين : إمدادِ علماءِ اليقظة بهذه الكنوز النفيسة من الكتب الَّتى حازُوهَا أو سطَوْا عليها ، وإطلاعِهم على ما وقفوا عليه فيها ، باذلين كُلّ جُهْدٍ ومَعُونةٍ فى ترجمتها لهم ، وفى تفسير رُموزها بقدر ما استفادُوا من العلم بها = وأيضاً إطلاع رُهْبان الكنيسة وملوكها على كُلِّ ما علموا من أحْوال دار الإسلام ، وما رأوه عياناً فيها ، وما لاحظوهُ استبصاراً . وكانَ أهمَّ ما لاحظوه أو خَبَروه ، هذه الغَفْلة المُطْبقة على أرضِ الإسلامِ ، والَّتى أورَثَتْهم إياها الاستنامةُ إلى النَّصْر القديمِ على المسيحية ، والاغترار بالنصرِ الحادثِ بفتح القسطنطينية ، ثُمَّ سماحةُ أهلِ الإسلام عامَّتِهم وخاصَّتِهم مع مَنْ دينُه يخالفُ دينَهُمْ ، ولا سيَّما اليهود والنَّصارَى ، لأنهم أهلُ كتابٍ وأهلُ ذِمَّةٍ ، ولأنهم أتباعُ الرسولين الكريمين مُوسَى وعِيسَى آبنِ مَرْيَمَ عليهما السلام ، ولأنّ دينَ أحَدِهم لا يَسْلَم لهُ حتّى يؤمِن بالله وملائكته وكُتُبه ورُسُلِه لا يُفَرِّق بين أَحدٍ من رُسُله سبحانه = وأَعلموا رهبانهم وملوكهم أن هذا هو الذى يَسَّر لهم أن يجوبوا فى الأرض غير مروَّعين ، ويسَّر لهم خاصةً أنْ يُدَاهنوا العلماء والعامَّة وينافقوهُمْ ويوهموهُم بالمكر والمِحَالِ أنّهم طُلاَّبُ علم لا غيرُ ، خالصةٌ قُلُوبهم لحبّ العلم والمعرفة ، والله عليمٌ بالسَّرائِر .

ومن يومئذٍ نشأت هذه الطبقةُ من الأُوربيّين الذين عُرِفوا فيما بعدُ باسم « المستشرقين » ، وهُمْ أهمُّ وأعظَمُ طبقةٍ تمخَّضَت عنْها اليَقَظَةُ الأوربيّة ، لأنَّهم جُنْدُ المسيحية الشمالية ، الذين وَهَبُوا أنفُسهم للجهادِ الأكبر ، ورضُوا لأنفُسهم أن يظلُّوا مَغْمورين فى حياةٍ بدأت تموجُ بالحركة والغِنَى والصيتِ الذائع ، وحبَسُوا أنفُسهم بين الجُدْران المختفية وراءَ أكْداسٍ من الكُتُب ، مكتوبةٍ بلسانٍ غيرِ لسان أُمَمهم التى ينتمون

إليها ، وفى قلوبهم كُلُّ اللَّهيب المُمِضّ الذى فى قلب أوربَّة ، والذى أحدثته فجيعةُ سقوط القسطنطينية فى حوزة الإسلام ، ولكن لا همَّ لهُمْ ليلاً ولا نهارًا إلاّ حيازةُ كنوزِ علم دار الإسلام بكُلِّ سبيلٍ ، تتوهَّجُ أفئدتهم ناراً أعتَى من كُلّ ما فى قُلوب رُهبان الكنيسة ، ولكنَّهم كانوا يملكونَ من القدرة الخارقة أن يخالطوا أهل الإسلام فى ديارهم ، وعلى وجوههم سِيمِيَاءُ البراءة واللين والتواضع وسلامة الطويّة والبِشْر . وبفَضل هؤلاءِ المتبتِّلين المنقطعين عن زُخْرف الحياة الجديدة = وبفضلهم وحدهُم ، وبفَضْل ملاحظاتهم التى جمعوهَا من السياحة فى دار الإسلام ومن الكتب ، وبذَلوها لمُلوك المسيحية الشمالية ، نشأت طبقَةُ السَّاسة الذين يُعِدُّون ما استطاعوا من عُدَّةٍ لردّ غائلة الإسلام ثُمَّ قَهْرِهِ فى عُقر دياره ، ولتحقيق الأحلام والأشواق التى كانت تُخَامرُ قلبَ كُلِّ أوربى ، أن يظفَر بكنوزِ الدُّنيا المدفونة فى دار الإسلام وما وراء دار الإسلام ، وهم الذين عُرِفوا فيما بعدُ باسم رجال « الاستعمار » = وبفضلهم وحدهم أيضاً ، وبفضْل ملاحظاتهم التى زوَّدوا بها رُهْبانَ الكنيسة ، ثارت حميَّة الرهبانِ ، ونشأت الطائفة التى نَذَرت نَفْسها للجهادِ فى سبيل المسيحيّة ، وللدُّخول فى قلب العالم الإسلامىّ لكى تُحَوِّلَ مَنْ تستطيع تحويله عن دينه إلى الملّة المسيحية ، وأَنْ ينتهى الأمْرُ إلى قَهْر الإسلام فى عُقْر داره ، = هكذا ظنُّوا يومئذٍ = وهذه الطائفة هى التى عُرِفت فيما بعدُ باسمِ رجال « التبشير » .

فهذه ثلاثةٌ متعاونةٌ متآزرةٌ متظاهرةٌ ، وجميعُهم يدٌ واحدةٌ ، لأنهم إخوةٌ أعيانٌ ، أبوهم واحدٌ ، وأمُّهم واحدةٌ ، ودينُهم واحدٌ ، وأهدافُهُمْ واحِدَةٌ ، ووَسَائلهم واحدةٌ . ليس من هَمِّى هنا « التبشير » ، فقد فرغتُ من بعض شأنِه فى كتابى « أباطيلٌ وأسمارٌ » ، وليس من همّى هنا « الاستعمارُ » ، لأنّا ذُقْنا طرفاً من أفاعيله تجربةً ومعاشرةً ، وإن كان من خِذْلان الله لنا أنّا لم نفهمه فهماً نافذاً شاملاً على الوجه الصحيح ، ولكن هَمّى هنا مصروفٌ إلى « **الاستشراق** » لعلاقته الحميمة بفساد حياتنا الأدبية والاجتماعية = ولأن

حاجَة « التبشير » و « الاستعمار » إليه ، حاجةٌ كانت ملحّةٌ ، وهى إلى اليوم حاجةٌ دائمةٌ ، لا يستغنيان عنهُ ولا عن نصائحه وإرشاداته وملاحظاتِه طَرْفَةَ عينٍ . ومرةً أخرى ، لا تنسَ ما حييتَ أنّ هذه الثلاثة إخوةٌ أعيانٌ لأبٍ واحدٍ وأمّ واحدة ، لا تُفَرِّقْ قطُّ بين أحدٍ منهم .

* * *

١٧ — من العسيرِ ، إن لم يكن من المُحَالِ الممتنع ، أن أقصَّ عليكَ فى كتابٍ كبيرٍ ، قصَّةَ شعوبٍ مختلفة كثيرةِ العدد ، تطاولت عليها أيّامٌ وتتابعتْ سنون ، منذ ذَرَّتْ عليهم شمْسُ اليقظة ، ثم انبسطت عليهم أشعَّتها ، حتّى تحرَّكت أوصالُ كُلِّ حيٍّ من جماهيرها الغفيرة ، هذا محالٌ . أفتظنُّ ، إذنْ ، أنى قادرٌ على مثل ذلك فى ورقاتٍ قلائلَ ؟ كلاَّ ، فما هو إلا هذا الوصفُ السريعُ الخاطف .

تهاوَتْ فى أوربّة سُدود الجَهْل ، وانبثقت اليقظة ، وفُتِحت بعض مغاليقِ خزائن العلم ، وانقشعت ظُلمة « القرون الوسطى » ، ولاحت تَباشيرُ فجرٍ جديدٍ ، واصطفَّ الهَمَجُ الهامجُ كتائبَ تزحفُ فى أيديها مصابيح ينبعث منها بصيصٌ يُضِيءُ ليكشف غَيَاهِبَ الظُّلُمات ، واستنارت الطُّرُق ، وازدحَمَ على سُلُوكها كل مُطِيقٍ للزَّحْفِ . وبالصبْر وبالجُهْد وبالجرأة وبالعزيمة وبنَبْذِ التوانِى ، صارت أوربّة قوةً تُمدُّها فُتوح العلم الجديد بما يزيدُها بأسًا وصرامةً .... ولا أقولُ شال الميزانُ ، بل أقولُ بطَل عملُ الميزان ، وصارَ فى الأرض عالَمَانِ عالَمٌ فى دار الإسلام مُفَتَّحةٌ عيونُهُم نيامٌ ، يُتَاخم من أوربّةَ عالماً أيقاظاً عيونُهم لا تنامُ ، وقُضِيَ الأمر الذى فيه تستفتيان ! وبدأت « المرحلة الرابعة » فى الصراعِ بين المسيحية المحصورة فى الشمالِ ، وبين دارِ الإسلام التى تحجُبُ عنهم من ورائها عالمًا مُبْهماً مترامىَ الأطرافِ ، (انظر أول الفقرة السالفة : ١٦) .

وكان ما كانَ ... فمع اليقظة ازدادت « الأهداف » وُضوحاً وجَلاءً ، وازدادت « الوسائلُ » دقّةً وتحديداً وشمولاً ، بعد أن وَعَظت أوربّةَ المراحلُ الثلاثُ الأُوَل التى لم تصنع للمسيحية المحصورة فى الشمالِ شيئاً ذا بالٍ . « الأهدافُ » معروفةٌ لك الآن ، أكبرُها شأناً هو اختراقُ دار الإسلام ، ثم تمزيقُها من قلبِها ، ثُمَّ الظَّفر بالكنوز الغالية التى كانت ، ولم تَزَلْ ، تراوِدُ كُلَّ قلبٍ ينبضُ فى أوربة بأحلامٍ شَرِهةٍ مسعورةٍ إلى الغنى والثروةِ والمتاعِ ، غَرَستْ بذورَها فى أعماق النفوس أحاديثُ العائدين من حملات الحروب الصليبية القديمة . أمّا « الوسائل » ، فقد وُضِعتْ لها قواعدُ راسخةٌ تُجنِّبهم أخطاءَ المراحلِ الثلاثِ السابقة التى مُنِيَت بالإخفاق . كان على رأسِ هذه القواعد : تنحيَةُ السلاحِ جانباً ، بعد أن ثبت لهم إخفاقُه فى اختراق دار الإسلام ، لأنّه يستثير ما لا يعلمونَ مَغَبَّته من سوءِ العواقب ، وكفى بالتجارب الثلاثِ الغابرة وَاعظاً . فمن يومئذٍ صارتِ القاعدةُ الراسخةُ فى سياسة أُوربّة هى اجتنابَ استثارةِ هذا العالم الضَّخْم المُبْهَم الذى كان « التركُ » هم طلائعَهُ المظَفَّرةَ الناشبةَ أظافيرُها فى صميم المسيحية الشمالية فى قلب أوربة = ثمَّ العملَ الدائبَ البصيرَ الصامتَ الذى يُتيح لهم يوماً مّا تَقْليمَ هذه الأظافِرِ وخَلْعَها من جُذُورها = ثم استنفادَ قُوَّته بالمناوشةِ والمُطاولة والمثابرةِ ، بالدهاءِ والمَكْر والسياسة والصَّبْر المتمادِى ، حتَّى يأتىَ عليه يومٌ لا يَمْلكُ فيه إلَّا أن يستكينَ ويستسلمَ ، وليكُنْ كُلُّ ذلك من وراءِ الغَفْلة ، وبالدهاء والرِّفْق تارةً ، وبالتنمُّر والتكشير عن الأنيابِ تارة أخرى ... وكذلك كان ما كانَ ، وما هو كائنٌ إلى هذه الساعة ، ولله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ .

• وفَضَّت المسيحية الشمالية قيودَ الحصار عن نفسها ، وخرجتْ جحافِلُها مكتسحةً تجوبُ البحرَ والبرّ . انطلقت الأساطيل من شواطىء أوربة مُزَوّدةً بالعُدَّة والعَتَاد والرجال الأشدّاء والمغامرين ، والعلماءِ والرهبان ، وهدفُها أن تطوّق دار الإسلام

محيطةٌ بها من شواطىء المغربِ إلى شواطىء الهند ، تتحسَّس مواطنَ الضعف فى أقاليمها المتطرِّفة ، فانقضُّوا على الضعيف والعاجزِ والغافل ، وخادعوا ونافقوا ، وآستغفلُوا وأرهبُوا ، واستنزفُوا ونهبُوا ، وازدادوا شَهوةً وشَراهَةً وجُوعاً إلى الكنوز المخبوءةِ فى قلب دار الإسلامِ ، واستضعفوا وسيطروا ، ولهيبٌ فى القلوب لا تطفأُ نارُه . وفَجْأة ، وبمعونة البحّارين المسلمين العرب ، عَثَر كولمبس (١٤٥١ — ١٥٠٦ م / ٨٥٥ — ٩١٢ هـ) على أرض الهنود الحُمْر (أمريكا) . وما هو إلاّ قليلٌ حتى تدفَّق السيل الجارف من أوربة ، يجذبُه بريق الذَّهب والغِنَى ، وملأ المغامرون القُساةُ الغِلاظُ الأرضَ البِكْرَ ، وزحفوا فيها واستباحوها ، وسَفَحُوا دماءَ الملايين سفحاً مُبيراً ، غَدْراً وخِسَّةً ، لا يردَعُهم رَادعٌ عن استئصال شأفتهم بقسوةٍ وعُنْفٍ ، وشَفَى كُلُّ أوربىّ غليلاً كانَ فى قلبه مُعَدًّا لدار الإسلام ، واتَّجهت أساطيلهم إلى إفريقية تختطف آلافاً مؤلَّفةً من الآمنين السُّود مسلمين وغير مسلمين ، رجالاً ونساءً وصغاراً ، يحملونهم فى السفن إلى هذه الأرض الجديدة البعيدة ، أرضِ الهنود الحُمْر ، وتهلكُ فى هذه الرحلات آلافٌ كثيرة منهم تحت السِّياط ، وتبقى آلافٌ قليلةٌ تُلْقَى على البَرِّ لتكون تحتَ أيديهم بَهائمَ مُسخَّرةً بالذُّل لعمارة الأرض . وظهر الفسادُ فى البرّ والبحر ، وبلغت أوربة مبلغاً يزيدُها فجوراً وشراهةً وسفكاً للدماء ، وغطرسةً فوق ذلك تزدادُ على الأيام تعالياً فى نَشْوة عارمةٍ ، نشْوةُ السكرانِ الثَّمِلِ إلى جانبها إفاقَةٌ من سُكْرٍ ! وصارت أوربّة عالماً مخيفاً مرهوبَ الجانب ، وتزدادُ كُلَّ يومٍ ثقافةً وعلماً ، وفهماً ويقظةً ، وتجربةً وخبرةً فى كُلِّ خيرٍ وشرٍّ ، وتَزدادُ أيضاً نِفاقاً وخُبثاً ومكراً وغَدْراً بالآمنين حيثُ كانوا فى أرجاء عالمٍ كانت تحجُبُه عنهم دارُ الإسلام قُروناً طويلة . أما دار الإسلام ، فعَلى الأيّام وَهَنت قُوَّةُ طليعتِه المسلمةِ الناشبةِ فى قلب أوربّة ، وصارتْ داراً محصورةً فى الجنوبِ ، بعدَ أنْ كانت حاصِرَةً للمسيحية فى الشمال . وكذلك بدأت حضارةٌ عتيقةٌ تتضعضَعُ قُواها وتَرِثُّ حبالُها ، وقامت فى الأرض

حضارةٌ جديدة غُذِيت بالدَّمِ المسفوح ، ومُزِجَت ثقَافتها بالمكر والغَدْر والدهاء والخُبث ، تؤُزُّها نارُ أحقادٍ مُكَتَّمةٍ ، ثم صارتْ هيبأَيُوُجُ أَجًّا = حضارةٌ سوف تطبِّق وجه الأرض ، وهى بذلكَ كُلّه حضارةٌ إنسانيّةٌ عالميةٌ ، أليس كذلك ؟ ويزيدُها إنسانيةً وعالميةً أنها جاءت مبشِّرةً بدينٍ جديدٍ ، عقيدتُه مبنيَّةٌ على البغضاءِ والحِقْدِ والجَشع والغَدْرِ وسَفْكِ الدماءِ .

• ومَعَ هذه الأَساطيل الفاجرة ، خرجتْ من مَكامِنِها أعدادٌ وافرةٌ من رجالٍ يجيدون اللسان العربىّ وألسنةَ دار الإسلام الأُخَر ، ومنهم رُهبان وغير رُهبانٍ ، وركبُوا البَّر والبحرَ ، وزحفُوا زَرَافاتٍ ووُحداناً فى قلبِ دار الإسلام : على ديار الخلافة فى تركية ، وعلى الشام ، وعلى مصر ، وعلى جوفِ إفريقية وممالكها المسلمة = خرجُوا وفى القلوب حميَّة الحقد المكتَّم ، وفى النفوس العزيمة المصَمِّمة ، وفى العيون اليقظةُ ، وفى العقولِ التنبُّهُ والذكاءُ ، وعلى الوجوه البِشْرُ والطَّلاقةُ والبراءَةُ ، وفى الألسنة الحلاوةُ والخِلابَةُ والمُمَاذقة ، ولَبِسُوا لجمهرة المسلمين كُلَّ زِيٍّ : زِيَّ التاجر ، وزِيَّ السائح ، وزِيَّ الصَّديق الناصِحِ ، وزِيَّ العابد المُسْلم المتبتِّل = وتوغَّلُوا يستخرجون كُلّ مخبوءٍ كان عنهم من أحوالِ دار الإسلام ، أحوالِ عامَّتِه وخاصَّتِه ، وعلمائه وجُهَّاله . وحُلَمائه وسُفَهائه ، وملوكه وسُوقته ، وجيوشِهِ ورعيَّته ، وعِبَادته ولهوِهِ ، وقُوَّته وضعفه ، وذكائه وغَفْلته ، حتَّى تدسَّسُوا إلى أخبار النساءِ فى خدُورهنّ ، فلم يتركوا شيئاً إلاَّ خَبَرُوه وعَجَمُوه ، وفتَّشوهُ وسَبَرُوه ، وذاقُوه واستشفُّوه . ومن هؤلاءِ ، ومن خِبْرتهم وتجربتهم ، خرجت أهمُّ طبقةٍ تمخَّضَت عنها اليقظةُ الأوربية « طبقة المستشرقين » الكبار ، وعلى علمهم وخبرتهم وتجاربهم ، رَسَتْ دعائمُ « الاستعمار » ، ورسَخَتْ قواعد « التبشير » كما وصفتُ لك أمرَهم فى آخر الفقرة السادسة عشرة = وٱلْتَقَت حَلْقَتَا البِطَان ، هذه المرَّة ، على دار الإسلام ، واسترخَتْ حَلْقَتَاهُ عن المسيحية الشمالية ، (انظر أول الفقرة : ١٤ ، ص : ٣٨) .

• وما هو إلاّ قليلٌ حتى كان تحت يد « الاستشراق » آلافٌ مؤلَّفةٌ من مخطوطاتٍ من كُتُبِ دار الإسلام نفيسةٍ منتقاةٍ ، مُشْتراةً أو مسروقةً ، موزَّعة مفرَّقة فى جميع أرْجاء أوربّة وأدْيِرتها ومَكْتباتها وجَامعاتها ، وأكبَّ عليها « المستشرقون » المجاهدون الصابرون ، الذين هجروُا دُنْيا النَّاسِ المائجة بكُلِّ زُخْرُفٍ ومتاعٍ ، وعكفُوا بين جُدْرانٍ صامتةٍ مُغْلَقةٍ ، وأكداسٍ من الأوراقِ المكتوبة بلسان غير لسانِ أقوامِهم ، يَقْضُون سحابَة النَّهارِ وزُلَفاً من الليل يَفْرِزونها ورقة ورقةً ، وسطراً سطراً ، وكلمةً كلمةً ، بصبرٍ لا ينفَدُ وعزيمةٍ لا تكِلُّ ، ويَكابدون كُلَّ مشقةٍ فى الفَهْمِ والوقوف على أسرارِ المعانى المخبوءة تحت رموز الألفاظ العربيّة أو غير العربيّة فى كل عِلْمٍ ومَعْرفة وفنّ ، دِيناً كانَ أو أدباً أو لغةً أو شعراً أو تاريخاً أو علمَ بُلْدان ، (جغرافية) ، أو طِبّاً أو رياضةً أو فلكاً أو صناعاتٍ وآلاتٍ ، كُلَّ ذلك يدرسونه بدقّةٍ ونظامٍ وترتيبٍ ، ويتعاوُنٍ كامِلٍ بينهم مهما تباعدت بلادهم وأوطانهم . ثم لا تنقطِعُ لهم رحلةٌ فى قلب دار الإسلام وفى أطرافِها ، يَجُسُّون ويُجرِّبون ويختبرون ، ويتعلَّمون ويسألون ، ويجمعون كُلَّ خِبْرة وكُلَّ تجربةٍ وكُلَّ معرفةٍ ، وكُلّ صغيرٍ وكبيرٍ يُعينُهم على الدرْسِ والاستفادةِ ، وعلى فَهْم أسرارِ هذا العالَم الغَرِيب الذى كان بالأمسِ ممتنِعاً على الاختراق قروناً طِوالاً .

ولما كانت هذه المخطوطات التى يعكُفُ نَفَرٌ منهم على دراستها متفرقةً فى البلاد ، وحَبِيسةً تحت يد عَدَدٍ قليل جدًّا ، قد يكون رجلاً واحدًا فى قرية أو ديرٍ ، عَمَدوا إلى نشر بَعْضِها مطبوعةً ، لتكون تحت يد كُلِّ دارس مستشرقٍ فى أىِّ بلدٍ كانَ من بلاد أوربَّة ، [1] ولكى تكون الفائدةُ أكثر تماماً ، والجُهْدُ أكثَرَ جَدْوى ، أنشأوا أيضاً مجلاَّت

(١) لا تصدِّق من يقول لك إن « الاستشراق » قد خدمَ اللغة العربية وآدابها وتاريخها وعلومها ، لأنه نَشَر هذه الكتب التى اختارَها مطبوعة ، فهذا وهمٌ باطلٌ . كانوا لا يطبعون قطُّ من أى كتاب نشروه أكثر من خمسمئة =

بكُلِّ لسان من ألسنتهم ، ينشُر فيها كُلُّ مستشرقٍ نتائجَ بحثِه ودِراسَتِه ، ويعرضُ كُلَّ تَجارِبِه وخبرته وملاحظاته ، لتكون عَوْناً لكُلّ دارسٍ مستشرقٍ وغير مستشرق ، وهى مجلاَّت الدراسات الإسلامية أو الشرقية . بل سَمَتْ هِمَّتُهم فبدأوا صُنْعَ « جماهر الإسلامِ » التى يسمونها « دوائر المعارف الإسلامية » ، [1] وكذلك صار « الاستشراقُ » فى أوربة كُلِّها هيئةً واحدةً ، لها هدفٌ واحدٌ ، ونِظامٌ واحدٌ ، وهِمَّةٌ واحدةٌ ، وفَهْمٌ واحدٌ ، وأسلوبٌ واحدٌ ، ونَظَرٌ مُشْتَرَكٌ واحدٌ ، إلى حضارةِ دار الإسلام قديمها وحديثها .

• كان هذا « الاستشراق » فى نَأْنَأَتِه الأولى ، بعد سبعة قرون من الصِّدام الذى انتهى بإخفاق الحروب الصليبية قائماً على أفرادٍ قلائل : إمّا طالبِ معرفةٍ وعلم يتعلَّم من العربِ المسلمين ليَقْشَع الجهل عنْ نَفْسه وقومه ، كما فعل « بيكُنْ » وطبقتُه = وإمّا راهبٍ ذى حميَّةٍ ودفاعٍ عن دينه ، حينَ أحسَّ بالخَلَل الواقع فى الحياة المسيحية ، فكُلُّ همِّه أن يُصْلح خَلَل المسيحية ويمكِّنَها من حُجَّةٍ مُقْنِعةٍ تحولُ بين الناسِ وبين الانبهار بالإسلام وثقافته وحضارته والتساقُط فيه ، مُتَّكِئًا على ما عند دار الإسلام من العلم ، كما فعل « تُوما الإكْوِينىّ » ، (انظر ما سلف فقرة : ١٤ ص : ٣٩ ، ٤٠)

أمَّا فى أوّل نأنأتِه الثانية ، عند فجر اليقظَةِ الأوربيّة ، فكانت بِعْثاته فى دار الإسلامِ تعود من جَوْلتها إلى أوربّة لأداءِ عملين عظيمين هما : إمداد علماء اليقظةِ بمزيدِ

= نسخةٍ ، = ولم تزل هذه سُنّتهم إلى يومنا هذا = توزّعُ على مراكز الاستشراق فى أوربة وأمريكة ، وما فَضَل بعد ذلك وهو قليلٌ جدًّا ، كانت تسقُط منه إلى بلاد العرب المسلمين النسخةُ والنسختان والعشرة على الأكثر ، لم يسعَوْا قَطُّ إلى تسويقها بين ملايين العرب والمسلمين ، كما يسوِّقون بَضائعهم وتجاراتِهم وسائر مَا ينتجونَ ، بين هذه الملايين طلباً لربْح المالِ . هدفهم كان مَا قلتُ لك لا غيرُ .

(١) « دائرة المعارف » أو « الموسوعة » كما هو شائع ، اخترتُ أن أسمِّيها « جَمْهَرَة » ، كما سمّى أسلافنا كتبهم « جمهرة اللغة » و « جمهرة الأنساب » و « جمهرة الأمثال » ، وبينتُ ذلك فى كتابى « أباطيل وأسمار » ص : ٢٧٣ ، ٢٧٤ . وجمع « جَمْهَرَة » « جماهر » .

ممّا وقفوا عليه من كُنُوز العلم فى دار الإسلام ، يفسِّرون لهم رموزَها ، ويُترجمونَ لهم ما استطاعوا فهمَه منها ، ثم إطلاعِ رُهبان الكنيسة وملوكها على ما علموا ولاحظوا من أحوال المسلمين ، (انظر ما سلف الفقرة : ١٦ ، ص : ٤٨) .

= أمّا عند انبثاق اليَقَظة واستحكام أمرِها ، حين صارت ضوءًا شاملاً يَسْرى فى جماهيرَ غفيرةٍ مُتَنوِّعة الأهداف والأهواء والأغراض ، فقد هبَّت أفواجٌ منها زاحفةً زحفاً متتابعًا على دار الإسلام وغير دار الإسلام ، مُصْعِدةً فى طريقها إلى التفوُّق والغَلَبة والانتشار ، بلا قِرْنٍ ، (أى نظيرٍ) ، يكافئُها فى اليقظة والتنبُّه والتصميم ، يَصُدُّها ويُكَفْكِفُ من غُلَوائها ، ويعوقُ من زَحْفها = وعندئذٍ أيضاً كان « الاستشراق » قد كَسَب هو أيضاً يقظةً فائقةً ، وبصيرةً نافذَةً ، وتنبُّهاً لامعاً ، وتكوّنت الطبقة الأُولى من « المستشرقين » الجادِّين النابهين ، التى سوف تَرِثُها طبقةُ أساطين « الاستشراق » ودَهَاقِينِهِ الكبار ، (« الدِّهْقانُ » وجمعه « دهاقين » : الرجل الحديد الماضى القويُّ على التصُّرف) ، فهؤلاءِ جميعاً الذين وقع عليهم العبءُ الأكبر فى تيسير الأمرِ للزحوفِ الأوربية المتتابعة المستمرة التى اقتحمت دار الإسلام فاستعمرتها ، وغيَّرت وجه الحياةِ فيها تغييراً بعيدَ الغَوْرِ ، لم يزلْ سارياً إلى يومنا هذا كما سترى .

* * *

١٨ — ينبغى أن يكون بيِّناً لكَ أنّ أوربة عند استواءِ يَقَظتها ، أدركت إدراكاً واضحاً أن الذى بلغتْهُ قد ضمنَ لها التفوُّق الحاسمَ ، وأنَّها مُقْبلةٌ على زَحْفٍ شاملٍ يخترق قلبَ دار الإسلامِ ، لا بقعقعة السلاح ، بل بوسائل أُخَرَ أمضى من وقع السلاح ، أدرك ذلك ساستُها ورهبانُها وعلماؤها وعامَّةُ جماهيرها المثقَّفة . وهذا الزحفُ الصامتُ المصمِّمُ الخَفِيُّ الوَطْءِ ، سوف يضُمُّ ألوفاً مُؤَلَّفةً من أشتات الناس ، ما بين تاجر وصانِع

ومُغَامرٍ ومدرّسٍ وسائحٍ ومبشّرٍ وجنديّ وسياسيّ وراهبٍ وطالب معرفةٍ وأَفّاقٍ وصَفّاقٍ ومتكسّبٍ . والنِيَّة أن تتكوّن من هؤلاءِ الأشتاتِ جالياتٌ كبيرةٌ تُقِيم فى دار الإسلامِ ، تعاشر المسلمين فتطولُ عشرتهُم أو تَقْصُر ، ولكل امرىءٍ منهم اتجاهٌ أو هَوًى أو أسلوبٌ أو فهمٌ . فأمْرٌ مخوفٌ أن يخالطُوا عالَماً له دينٌ وحضارةٌ باقيةُ الآثار ، كان لهُ الغلبةُ والتفوُّق والسيادةُ من قبلُ قروناً طِوالاً ، كما جرَّبوا وعلمُوا = أمرٌ مخوفٌ أن يخالطوه دون أن يكون لهذا العالم عند أكثرهم صورةٌ مستقرَّةٌ فى أنفسهم ، تحميهم من التفرُّق والضياعِ فيه ، وتُحَصِّنُهم أيضاً من الانبهار بالإسلام وحضارته كما انبهرَ أسلافٌ لهم غَبَروا ، فصارَ حَتْماً أن يكونَ فى مُتنَاوَل هؤلاءِ صورةٌ للإسلام وحضارته ، مكتوبةٌ بدقّة ومهارةٍ ، ومُقْنِعةٌ أيضاً لكلِّ عقلٍ مُتطلّع ، يُصَوِّرها لهم خبيرٌ ثقةٌ مأمونٌ عندهم .

و « المستشرقون » المتبتِّلون ، بلا شكٍّ عندهم ، هم أهلُ الخبرةِ بكُلِّ ما فى دار الإسلامِ قديماً ، وما هو كائنٌ فيها حديثاً = من دَقيق العلوم عند خاصّة المسلمين ، إلى خفِيِّ أحوال المسلمين من عاداتِهم ومَعَايشهم وطرائق أفكارهم وخصائص حياتهم ، إلى علمٍ وثيقٍ بشأن دُوَلهم وأقاليمهم وبُلْدانهم التى تُغَطّى أكبر رُقْعةٍ من الأرضِ . وهُمْ قد جمعوا كُلّ ذلك وعكفُوا عليه وتأمَّلُوه ودرسوه ونظَّمُوه ورتَّبوه بعنايةٍ فائقةٍ ، وبهمَّةٍ وجَلَدٍ وتنبُّهٍ ونَفَاذ بَصَرٍ . فكُلُّ دارسٍ منهم مأمُونٌ عند كُلِّ أوربيّ ، من أوّل طبقة الرُّهبان والسَّاسة إلى آخر رجلٍ من جماهير الناس = مأمونٌ على ما يقولُه ، مصدَّقٌ فيما يقولُه ، فى أُمورٍ لا سبيلَ لأَحدٍ منهم إلى مَعْرفتها ، لأنها تتعلَّقُ بأَقوامٍ لِسانُهم غيرِ لِسَانِهم ، ولا يقومُ بها إلاَّ دارسٌ صابرٌ ذو معرفةٍ بهذا اللِّسان الغريبِ ، مُتَّصِفٌ بصفتين لابُدَّ منهما حتّى يكون مأمونًا مُصَدَّقًا :

الصِّفة الأُولى : أنّ فى قلبه كُلَّ الحميَّة التى أثارها الصراعُ بين المسيحية المحصورة فى الشمال ، وبين دار الإسلام الممتنعة على الاختراق على مدى عشرة قرونٍ على الأقلّ =

وأنّ فى صميم قلبه كُلَّ ما تُكِنُّه المسيحيَّة الشمالية من البغضاء النافذة فى غَوْرِ العِظام ، والتى أورثتها الحروب المتطاولة ، كما وصفتها لك آنفاً فى الفقرة الخامسةَ عشرة والسادسة عشرة ، (ص : ٤٢ - ٤٦) .

الصِّفة الثانية : أَنَّ فى صميم قلبه كُلَّ ما تحمله قلوبُ خاصَّةِ الأوربيِّين وعامَّتهم ، ومُلوكهم وسُوقَتِهم ، من الأحلامِ البهيجة والأشواق الملتهبة إلى حِيازة كُلّ ما فى دار الإسلام من كنوز العلم والثروةِ والرفاهية والحضارة . أحلامٌ وأشواق أورثَهم إياها الاحتكاكُ المستمرُّ قروناً بهذه الحضارة الزاهية الغنيَّة التى كانت يومئذٍ فى دار الإسلام .

وبهاتين الصِّفَتين يكون مؤهَّلا لحمل هُموم المسيحية الشمالية التى ظلَّت قروناً محصورة فى الشمال ، ودليلُ إخلاصه المُطْلَق لهذه الهموم ، هو تبتُّله الذى يقطَعُ ما بينه وبين زَهْرة الحياة الدُّنيا وزينتها من حوله ، حبيساً بين جُدْرانٍ تَضُمّ رُكاماً من أوراقٍ قديمةٍ مكتوبةٍ بلسانٍ غيرِ لسانِ قومه ، قد رَضِى لنفسه أن يبقَى اسمُه فى دنيا الناسِ مغموراً غير مشهورٍ (انظر ما سلف ص : ٤٨) .

وبديهىٌّ أن يكون « المستشرقون » ، كما عرفتَ صفتهم ، هُمْ أسبقَ النّاس إلى معرفة هذه الحاجةِ الملّحةِ التى تضمنُ للزّحْف الأكبر على دار الإسلام أن يسيرَ على هُدًى لا يختَلُّ ولا يضِلُّ ، ويَعصِمُ أكبر قَدْرٍ ممكِنٍ من أشتات الزاحفين ، حين يدخُلُ دار الإسلام ليطُولَ مُقَامُهم بها ، ويجرى بينهم وبين مَنْ يخالطونهم ما يجرى بين الناس من التفاوُض وتجاذُب الأحاديث = يَعْصِمُه أن يَنْبهر بما يَرَى أو يسمَع ، أو أن تضعفَ حَمِيَّته ، أو تلينَ قَنَاتُه ، أو يتردَّدَ ويتلجلجَ . لابُدَّ إذنْ من أساسٍ يرتكزُ عليه تفكيرُه ، ومن صُورةٍ سابقة شاملةٍ ثابتةٍ يثِقُ بها ويطمئنُّ إليها ، ويثِقُ أيضاً بصدقِها وأمانتها ، حتّى يتمكَّن من أن يرفُض أكثر ما يرىَ وما يسمع ، إذا هو خالفَ ما يعتقدُ أنَّه الصورة الوثيقة

المأمونة التى سوّغَهُ إيَّاها دارسٌ عارفٌ بأحوالِ هؤلاء الناس . واستقلَّ « المستشرقون » بحَمْل هذا العِبْءِ الجديد الثالث ، (انظر ما سلف ص : ٥٤) ، فكتبوا لجماهيرهم آلافاً من المقالات ، ومئاتٍ من الكُتُب ، تَناولتْ كُلَّ شيءٍ يخُصُّ أممَ دار الإسلام فى مَاضيها وحاضِرِها . كتبوا فى القَرآن ، وفى حديث رسول الله ﷺ وسيرته ، وفى تفسير القرآن ، وفى الفِقْه ، وفى تفاصيل شرائع الإسلام ، وفى تاريخ العرب والمسلمين ، وفى الأدب ، واللغة ، والشِّعْر ، وفى الفنون والآثار ، وفى علم البلدان ، (الجغرافية) ، وفى تراجم رجال الإسلام ، وفى الفرق الإسلامية ، وفى الفلسفة عند المسلمين ، وفى علم الكلامِ = فى كُلِّ ما ذكرتُ وما لم أذكُرْ ، كتبوا وألَّفُوا وصنَّفُوا ، لكن لهدفٍ واحدٍ لا غيرُ : هو تصويرُ الثقافة العربية الإسلامية وحضارة العرب والمسلمين ، بصورة مُقْنعةٍ للقارىء الأوربىِّ ، وبأسلوبٍ يدلُّه على أنّ كاتبها قد خبرَ ودرس وعرفَ وبذلَ كُلَّ جُهْد فى الاستقصاءِ ، وعلى منهجٍ علمىّ مألوفٍ لكُلّ مثقّفٍ أوربىٍّ ، وأنه وصَل إلى هذه النتيجة التى وضعها بين يديه ، بعد خبرةٍ طويلة وعَرَقٍ وجُهْدٍ وإخلاصٍ ، حتى لا يشُكَّ قارىءٌ فى صدق ما يقرؤه ، وأنّه هو اللبابُ المُصَفَّى من كُلِّ كَدَرٍ ، والمبّرأُ من كُلِّ زَيْفٍ ، وأنه الحقُّ المبينُ والصِّراطُ المستقيم .

• كان جوهرُ هذه الصُّورةِ ، المبثوثُ تحت المَبَاحثِ كلِّها ، هو أن هؤلاءِ العربَ المسلمين هم فى الأصل قومٌ بُدَاة جُهَّالٌ لا علمَ لهم كانَ ، جيَاعٌ فى صحراءَ مجدبَةٍ ، جاءَهم رجُلٍ من أنْفُسِهم فادَّعى أنّه نبىٌّ مرسلٌ ، ولَفَّق لهم ديناً من اليهوديّة والنصرانيَّة ، فصدَّقوه بجهلهم واتَّبعوه ، ولم يلبث هؤلاء الجياعُ أن عاثوا بدينهم هذا فى الأرضِ يفتحونها بسيوفهم ، حتى كان ما كان ، ودانَ لهم من غَوغاءِ الأمم مَنْ دان ، وقامت لهم فى الأرض بعد قليلٍ ثقافةٌ وحضارةٌ جُلُّها مسلوبٌ من ثقافات الأمم السالفة كالفُرس والهند واليونان وغيرهم ، حتَّى لُغَتُهم كُلُّها مسلوبةٌ وعَالَةٌ على العِبْرية والسُّريانية والآراميّة والفارسيّة

والحَبَشيّة . ثم كانَ من تصاريف الأقدار أن يكون علماءُ هذه الأمّة العربية من غير أبناءِ العرب ، (المَوَالى) ، وأنّ هؤلاءِ هم الذين جعلُوا لهذه الحضارة الإسلامية كُلِّها معنىً . هذا هو جوهرُ الصورة التى بثّها المستشرقون فى كُلِّ كُتُبهم عن دين الإسلامِ ، وعن عُلوم أهلِ الإسلام وفنونهم وآثارهم وحضارتِهم ، وأنّ هذه الحضارة إنّما هى إحدى حضاراتِ « القُرون الوسطى » المظلمة التى كان العالم يومئذٍ غارقاً فيها = يعنون عالمَهُم هم = يَجْرِى عليها حُكْمُ قرونهم الوسطى ! بَثُّوا تلك الصورة فى كُلّ كُتُبهم بمهارة وحِذْقٍ وخُبْثٍ مُعْرِقٍ ، وبأسلوبٍ يُقنِع القارىء الأوربىّ المثقّف الآن كُلَّ الإقناع ، وتنحطُّ فى نَظَرِه حضارة الإسلام وثقافته انحطاطَ « القرون الوسطى » ، ويزداد بذلك زَهْوًا بأنّ أسلافَهُ من اليونان والآرِيِّين كانوا هم رَكائز هذه الحضارة المزيَّفةِ الملفَّقةِ ديناً ولُغَةً وعلماً وثقافةً وأدباً وشعراً ، ويزداد بذلك الأوربىُّ ، أيًّا كانَ ، غَطْرسةً وتعالياً وجَبَرِيَّةً ، ولا يرَى فى الدُّنيا شيئاً لهُ قيمةٌ ، إلّا وهو مستمدٌّ من أَسلافِه اليونان والآريين والهَمَج الهامج !

ومن خِلالِ الصراحَة العارية التى طرحتْ كُلَّ حجابٍ ، أو الصراحةِ المتحجِّبة بالبراءة وخلوص النيَّة وحبِّ العلم ، أو بالصراحة الحييّة التى أمالَها الخَفَرُ ، (شدّة الحياء) ، إلى التبرُّج بحبِّ الإنصافِ ، استطاع « الاستشراق » أن يجعل هذه الصورة حيّةً متحركةً فى جميع كتبه ومقالاته ودراساته ومباحثه على اختلافها ، حتى الدراسات التى تستعصِى على قَبُول هذه الصورة واضحةً لم تخْلُ من غَمْزٍ خَبِىءٍ ولَمْزٍ خفىٍّ يستدعى حُضُور هذه الصورةِ بطريقةٍ مّا . وكذلك نجح « الاستشراق » فى تحقيق هدفه كلَّ النجاح ، واستطاعَ أنْ يُدْرِج الإسلامَ وشرائعه وثقافته وحضارته فى مُسْتَنقع « القرون الوسطى » الذى طَمَرته « النهضةُ الحديثة » ووَطِئَهُ « عصرُ الإحياء والتنوير » بأقدامِه وَطْأَةَ المُتَثاقل . وبذلك عَصَم العقلَ الأوربىَّ المثقّف من أن يزِلَّ زلّةً ، فيرى فى دين الإسلام أو فى ثقافته وحضارته ، ما يوجبُ انبهارَه كما انبهر أسلافٌ له من قَبْلُ تساقطوا فى

الإسلام وثقافته وحضارته طواعيةً ، ثم صاروا ، مع الأسف ، من بُنَاة مجده على مدى اثنى عشر قرناً على الأقلّ . واعلم أنى على عَمْدٍ هُنَا أتناسى عمل « الاستشراقِ » فى السَّطْو على الكنوز المخبوءَة كانتْ فى علم دار الإسلام ، ثم ما بذلوه فى نقله سِرًّا إلى علمائهم فى زمنِ النَّأْنأة وما بعدها ، ليَبْنُوا عليه حضارتهم العظيمة القائمة اليوم بيننا ، وكيف أغلقُوا الأبواب على ذِكْر ما سَطَوْا عليه بالضَّبَّة والمفتاح ، حتى لا يعلمَ خَبِيئته أحدٌ ، حتى ولو كان أوربِّياً قُحًّا = وأتناسَى على عَمْدٍ منِّى أيضاً حديث السفاهةِ والبذاءةِ التى جرت على ألسنة دَهَاقينهم من المطاعن فى القرآن العظيم ، وفى رسول الله ﷺ وصَحابته ، إمدَادًا لهيئات « التبشير » ، للقيام بعملها النبيل فى دار الإسلام وفى توابعه التى كانت محجوبة عنهم ، ثم انفسح لها الطريق مع الزحف الأكبر .

● وبيِّنٌ لك الآنَ بلا خفاءٍ أنّ كتب « الاستشراق » ومقالاتِه ودراساتِه كُلَّها ، مكتوبة أصلاً للمثقَّف الأوربىّ وحدَه لا لغيره = وأنَّها كُتبتْ لهُ لهدفٍ مُعيَّنٍ ، فى زَمانٍ معيّنٍ ، وبأسلوبٍ معيَّنٍ ، لا يرادُ به الوصول إلى الحقيقة المجرَّدة ، بل الوصولُ الموَفَّقُ إلى حمايةِ عَقْل هذا الأوربىّ المثقَّف من أن يتحرَّكَ فى جهةٍ مخالفةٍ للجهة التى يستقبلها زحفُ المسيحية الشمالية على دار الإسلام فى الجنوب = وأن تكون لهُ نظرةٌ ثابتةٌ هو مقتنعٌ كلَّ الاقتناع بصحَّتها ، ينظر بها إلى صُورةٍ واضحةِ المعالم لهذا العالِم العربىّ الإسلامى وثقافته وحضارته وأهله = وأن يكون قادراً أيضاً على خَوْضِ ما يخوضُ فيه من الحديث مع من سوف يلاقيهم أو يعاشرهُم من المسلمين ، وفى عقله وفى قلبه وفى لسانه وفى يقينه وعلى مدِّ يده ، معلوماتٌ وافرةٌ يثقُ بها ويطمئن إليها ويُجَادلُ عليها ، دون أن تضعفَ له حَمِيَّةٌ ، أو تلينَ لهُ قَناةٌ ، أو يتردَّد فى المنافَحة عنها أو يتلَجْلج ، أيًّا كان الموضوع الذى تدفعه المُفَاوضَةُ إلى الخوضِ فيه .

و « الاستشراق » لا يُذَمُّ لأنه فعَل كُلَّ ذلك ، لأنّه بلا شكٍّ قد أدَّى ما عليه لبنى جِلْدته أحسنَ أداءٍ وأتمَّه ، ونَصر أهل دينه وأخلصَ لهم كُلّ الإخلاصِ ، وكافحَ فى سبيلِ هَدَفه بكُلّ سلاحٍ أجادَ صَقْله وتقويمهُ = أمَّا الذى هو حقيقٌ بالذمِّ والمَعَابةِ ، فالعاقلُ الذى يظنُّ نفسه عاقلاً ، والبصيرُ الذى يظنُّ نفسه بصيراً ، ثم لا يكاد عقلُه يدركُ شيئاً هو أبين بياناً من البدائه المسلَّمة ، ولا يكادُ بَصَرُهُ يَرى ما هو أظهرُ ظهوراً من الشمس الساطعةِ .

فما كتبه « الاستشراق » ، من حيثُ هى كتُبٌ أو دراساتٌ مكتوبةٌ للمثقّف الأوربىّ خاصةً ، ولهدفٍ بعينه ، حقيقةٌ باحترام كُلِّ أوربىّ مثقَّف = أو من كان بمنزلة الأوربىّ المثقَّف فى الغُرْبة عن العربيّة والإسلام = لأنها يَسَّرت له ما لم يكن ليتيسَّر البتَّةَ : أنْ يَعرف أشياءَ كثيرةً متنوِّعةً هو عن عالَمها غريبٌ كُلّ الغُرْبة ، وأن يَرَى عالَمَها فى صورةٍ واضحةٍ مصوّرةٍ بمهارةٍ ، ومصنوعةٍ بأسلُوب مُقْنِع مقبولٍ لا يرفُضُه عَقْلُه ، بل لعله يرتضيه كُلّ الرضَى . ولأنّ هذا العالَم الذى يراهُ مصوّراً عالمٌ غريبٌ عنه ، ولا سبيلَ لهُ إلى معرفة الحقيقة فيه ، لولا الجُهْد العظيم الذى بذلهُ دهاقينُ المستشرقين الكبارُ فى تصويره ، فهو غيرُ حريصٍ بعد ذلك على التحقُّقِ من صحَّة التفاصِيل التى تكونت منها الصورة ، ولا هو قادرٌ على التشكُّك فى سلامَتها من الآفات ، ولا يخطُر بباله أن يسألَ نفسه : أهى صادقةٌ أم كاذبةٌ ؟ أهى مطابقةٌ للحقيقة أم غير مطابقةٍ للحقيقة ؟

أمّا من حيثُ هى كُتبٌ أو دراسَاتٌ علميّةٌ جديرةٌ باحترام مثقَّفٍ غير أُوربىّ ، أى من أبناءِ العربِ والمسلمين خاصةً ، أى أبناء لُغة العرب وأبناء دين الإسلام ، فهذا عندئذٍ موضعُ نَظَرٍ = لأن الأمْرَ ، ولا خيارَ لى أو لك فيه ، يختلفُ اختلافاً بيِّناً حينئذ ، ويتطَلَّب النظر فى أمرين : أمرِ الكاتبِ وأمرِ المكتوبِ معاً ، وهذا يردُّك لَا محالةَ إلى ما كتبتُه لك آنفًا فى شأن « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، (ما سلف ص : ٢١ – ٣٣) ، سواءٌ كان الكاتب عربياً

أو غير عَرَبِىّ ، (أى مستشرقاً أوربيًّا) . ولذلك يحسنُ بكَ هنا أن تُعِيد قراءته بتأنٍّ وحذرٍ ، لأنه غير لائق أنْ أعيد ذكرهُ فى هذا الموضع مفصَّلاً ، وإنما هى الإشارة إليه لا غيرُ . وٱعلمْ أنّى سأبيِّنُ لك الأمر هنا فى حالةٍ واحدةٍ ، هى حالة استحقاقِ الدراسة أن توصف بأنها « علميَّة » ، وهلْ هو أمرٌ ممكنٌ أن يكون ما كتبه « المستشرقون » دراسةً « علميَّة » بمعناها الصحيح ، الموجبِ للاحترام والتقدير . وكُنْ أبدًا على ذُكْرٍ بأن ما قلته عن « المنهج » و « ما قبل المنهج » هو : « أصلٌ أصيلٌ فى كُلِّ أمَّةٍ ، وفى كُلِّ لسانٍ ، وفى كُلِّ ثقافة حازها البشرُ على اختلافِ ألسنتهم وألوانهم ومللهم ونِحلَهم » (ص : ٢٣) ، فهو أمرٌ لا يختلف فيه اثنان من البَشَر مهما تبايَنَا لغةً وثقافةً وديناً ، ولا تقوم فى أمّةٍ ثقافة أو حضارةٌ إلاّ بالالتزام بهذا الأصلِ الأصيل فى ثقافتها أو حضارتها . (اقرأ بدقة ما كتبته آنفاً من ص : ٢١ - ٣٣) .

* * *

١٩ - « ما قبل المنهج » ، كما علمتَ ، مكوّن من شطرين : « شطر جمع المادة » و « شطر التطبيق » ، فلننظُر الآن أين يقع « المستشرق » منهما ليكون الأمر واضحاً لك كُلَّ الوضوح ، وأنا مُحدِّثك عنهما بإيجازٍ شديدٍ جدًّا ، وفيما مضَى قبلُ بلاغٌ يضىءُ لك الطريق .

• فالشطر الأوَّل ، « شطر جمع المادة » كما قلتُ : « يتطلَّبُ جَمْعَهَا من مَظانِّها على وجهِ الاستيعابِ ، ثم تصنيفَ هذا المجموع » ، (ص : ٢٢) ، وهذا ممكنٌ للمستشرق إمكاناً مّا ، مع ما فيه من العَوَائق الجليَّة ، بَلْهَ العوائقَ الخفيَّة التى تحتاجُ إلى بَسْط وإيضاح = « ثم تمحيصُ مفرداته تمحيصاً دقيقاً ، وذلك بتحليل أجزاء تراكيبه بدقّةٍ متناهيةٍ ، وبمهارةٍ وحِذْقٍ ، حتّى يتيسَّر للدارس أن يرى ما هو زَيْفٌ واضحاً جليًّا ،

وما هو صحيحٌ مستبيناً ظاهراً ، بلا غفلةٍ ، وبلا هَوًى ، وبلا تسرُّعٍ » ، (ص : ٢٢) . وهذا مبنىٌّ على ما سبقَه ، فهو ممكنٌ للمستشرقِ بعضُه بصورة مَّا ولِهدَفٍ مَّا ، ومستحيلٌ بعضُه أن يكون منْه عندهُ مثقَالُ ذرةٍ بصورة أُخْرَى ، لأنه يدخُل فى حديثٍ آخرَ سيأْتى بعد قليلٍ ، وهو حديث « اللغة » و « الثقافة » و « الأهواء » .

• وأمَّا الشطرُ الثانى ، « شطر التطبيق » ، فكما قلتُ لك : « فيقتضى ترتيب المادة ، بعد نَفْى زَيْفها وتمحيص جيّدها ، باستيعاب أيضاً لكلِّ احتمالٍ للخطأ أو الهوى أو التسرُّع » ، (ص : ٢٢) . وهذا ، بلا شكٍّ ، مترتِّب على الشطر الأوّل كُلِّه ، فما كان ممكناً فيه فهو ممكنٌ هنا ، وما كان غيرَ ممكنٍ فهو هنا أيضاً غيرُ ممكنٍ = « ثم على الدارس أن يتحرَّى لكلِّ حقيقةٍ من الحقائقِ موضعاً هو حقُّ موضعها ، لأن أخفى إساءَةٍ فى وضع إحدى الحقائق فى غير موضعها ، خليقٌ أن يشوِّهَ عمودَ الصورة تشويهاً بالغ القُبْح والشَّناعة » ، (ص : ٢٢) ، وهذا غيرُ ممكنٍ البتّةَ ، بل هو ممتنعٌ ، بل هو مستحِيلٌ ، لأن عمَل « الاستشراق » كُلَّهُ مبنىٌّ على رسم صورةٍ محدَّدةٍ قائمةٍ فى نفسه ، منصوبةٍ لعينيه ، يرسمُها لهدفٍ معيّنٍ مقصودٍ لذاته ، ومن أجلِ إحداثِ هذه الصورة المُقْنعة للمثقَّف الأوربى يُعَانِى مشقة « جمع المادة » ، ويَكِدُّ كدًّا فى ممارسةِ « التطبيق » . وقد بيَّنت لك آنفاً « أهداف الاستشراق » ، (فى الفقرتين : ١٦ ، ١٧) ، وكشفْت لك حقيقة « الصورة » ، (فى الفقرة : ١٨ ، ص : ٥٩ ، ٦٠) فهذا العملُ وحدَه ، أو هذا القصْد المتعمَّدُ وحدَه ، آفةٌ خبيثةٌ كافيةٌ وَحْدَها فى إسقاط عمل « الاستشراق » كُلِّه إلى حضيضِ الفسادِ والإفسادِ فى « ما قَبْل المنهج » ، ومُفْضِيةٌ بعد ذلك إلى قَذْفِ عمله كُلِّه منبوذاً خارجَ حدود كُلّ ما يمكنُ أن يُوصف بوجهٍ مَّا أنّه « عملٌ علمىٌّ » خالصٌ . ومُحَقِّرٌ لعقله مَنْ لا يُدْركُه ، فدَعْ عنك مَنْ يرتَضِيه ؟ ومُغَطِّى على بَصِره من لا يُبْصِرهُ ، فما ظنُّك بمن يُنافحُ عنه ؟ فإنه كما قلت آنفاً : « أبينُ بياناً من البدائه المسلَّمة ، وأظهرُ ظُهوراً من الشمس الساطعة » ، (فقرة : ١٨ ، ص : ٦٢) .

• والنازلون فى مَيْدانِ « المنهج » ومَيْدانِ « ما قبل المنهج » من الكتَّاب والعلماء ، فى كُلّ لغةٍ ، وفى كُلِّ أُمّةٍ ، وفى كُلِّ مِلَّةٍ ، وفى كُلّ ثقافة ، لهم شروطٌ مُحْكَمَةٌ لا يُمكِنُ إغفالُها البتّةَ ، فهى أركانٌ لا يقوم بناءٌ إلا عليها ، ولا يُمكنُ أن يسمَّى « كاتباً » أو « عالماً » أو « باحثاً » إلاّ من حاز أكبر قَدْرٍ من هذه الشروط ضربةَ لازبٍ . ولم تُوجَد على الأرضِ أمةٌ واحدةٌ سمحت لأحدٍ أن ينزلَ ميدان « ما قبل المنهج » وميدان « المنهج » فى أىِّ علم كانَ أو فنٍّ ، إلاَّ وهو مُطيقٌ للنزول فيه بحقِّه ، فإذا اجترأ مجترىءٌ عارٍ من الشروط وفَعل ، نُفِىَ وطُرِدَ طَرْداً ، وأبَوْا منْ أن يعدُّوه فى الكتَّاب كاتباً ، أو فى العلماء عالماً ، أو فى الباحثين باحثاً ، وأُلْقِى عملُه كلُّه فى سَلَّة المهملات ، كما يقولون . وجماعُ الشُّروط كُلِّها فى هذا الشأن مَنُوطٌ بثلاثةِ أمور : لُغَتِهِ التى نشأ فيها صغيراً ، وثقافةِ أمّته التى ينتمى إليها وآرتضَع لِبانها يافِعاً ، وأهوائِهِ التى يَملكُ ضَبْطها أوْ لا يمِلكُه بعد أن استوَى رجلاً مُبينًا عن نفسه ، (انظر ما سلف ص : ٢٧) .

• أمَّا « اللُّغة » التى نشأ فيها صغيراً ، فشرطُ نُزُوله الميدانَ : أن يكون محيطاً بأسرارها الظاهرةِ والباطنةِ ، وبين تَمام الإحاطة بها وقصورِ هذه الإحاطة ، يرتفع قدْرُ ما يكتُبه ، أو ينزِلُ إلى حَضِيض الإسقاط والإهمال ، مع مخاوفَ ذكرتها لك آنفاً ، (ما سلف ص : ٢٧) .

• وأمّا « الثقافةُ » ، وهى سرٌّ من الأسرار الملثّمة ، وحقائقها عميقةٌ بعيدة الغَوْر متشَعِّبةٌ ، وقِوامُها « الإيمانُ » بها عن طريق القلب والعقل = ثم « العملُ » بما تقتضيه حتّى تذوبَ فى بُنْيان الإنسان وتجرى منه مَجْرى الدَّمِ لا يكاد يحسُّ به = ثم « الانتماءُ » إليها انتماءً يحفظُه ويحفظُها من التفكُّك والانهيار ، وبين تمام الإدراكِ لأسرار « الثقافة » وقُصور هذا الإدراك ، يرتفع أيضاً قَدْرُ ما يكتبُه ، أو ينزِلُ إلى حضيض الإهمال ، (ما سلف ص : ٢٨) .

• وأمّا « الأهواءُ » فهى الداء المُبيرُ ، والشرُّ المستطيرُ ، والفسادُ الأكبر ، إنْ هو ألمَّ بأىِّ عملٍ إلمامَةً خفيَّةَ الدبيبِ بَلْهَ الوَطْءَ المتثاقل ، أحَالَهُ إلى عمل مُسْتَقْذَرٍ منبوذٍ كَريهٍ ، حتى ولو جاءكَ هذا العمل فى أحسن ثيابه وحُلِيِّه وعطوره وأتمِّها زينةً ، من دقّةٍ واستيعابٍ وتمحيص ومَهارةٍ وحِذْق وذكاءٍ ، ثم يزدادُ بشاعةً إذا كان الكاتب مُلمًّا تمام الإلمام بأسرار « اللغة » وأسرار « الثقافة » ، لأنه حينئذ منافِقٌ خبيثُ النِّفاقِ ، وخائنٌ لئيمُ الخيانة ، (ما سلف ص : ٢٨ ، ٢٩) .

• وهذه شروط لا يختلفُ فى شأنها أحدٌ قطُّ فى كلّ ثقافةٍ وفى كُلِّ أُمَّة . فإذا كانَ لا يُعَدُّ كاتباً أو باحثاً أو عالماً من أبناء اللغة وأبناءِ الثقافة أنفسِهم ، إلاَّ من اجتمعت له هذه الشروط ، فإذا عَرِىَ منها لم يكن أهلاً للنزول فى ميدان « المنهج » ، فإذا فعلَ فهو متكلِّمٌ لا أكثرُ ، ثم لا يُلْتَفتُ إلى قوله ولا يُعْتَدُّ به عند أهل البحثِ والعلم والكتابة = إذا كان هذا هكذا ، فينبغى قبلَ كُلِّ شىءٍ ، أن نعرفَ من هو « المستشرق » الذى ينزِلُ هذا الميدان ؟ وهل يمكنُ أن يكون داخلاً تحت هذه الشروط المحكمة المتَّفَق عليها فى كُلِّ لغة وثقافة ؟

• و « المستشرق » فتىً أعجمىٌّ ، ناشىءٌ فى لسان أُمَّته وتعليم بلاده ، ومغروسٌ فى آدابها وثقافتها ، (ألمانى ، أو إنجليزى ، أو فرنسىّ) ، حتى آستوى رَجُلاً فى العشرين من عُمُره أو الخامسة والعشرين ، فهو قادرٌ أو مُفْتَرَضٌ أنه قادرٌ تمامَ القُدْرة على التفكير والنظر ، ومؤهَّل أو مُفْترضٌ أيضاً أنّه مؤهَّل أن ينزلَ فى ثقافته ميدانَ « المنهج » و « ما قبل المنهج » بقدمٍ ثابتةٍ . نعم ، هذا ممكنٌ أن يكون كذلك = ولكن هذا الفتَى يتحوَّل فَجْأةً عن سلوك هذه الطريق ليبدأ فى تعلُّم لُغَةٍ أخرى ، (هى العربية هنا) ، مفارقةٍ كُلَّ المفارقة للِّسان الذى نشأ فيه صغيراً ، ولثقافته التى ارتضع لِبَانها يافعاً ، « يدخُل قِسْم « اللغات الشرقية » فى جامعة من جامعات الأعاجم ، فيبتدىء تعلُّم ألف باء تاء ثاء ، أو أبجد

هوّز ، فى العربية . ويتلقّى العربيةَ نحوَها وصَرْفَها وبلاغتَها وشِعْرَها وسائرَ آدابها وتواريخها ، عن أعجمّيٍ مثله ، وبلسانٍ غير عربيّ ، ثم يستمِعُ إلى مُحَاضِرٍ فى آدابِ العربِ أو أشعارها أو تاريخها أو دينها أو سياستها بلسانٍ غير عربّيٍ ، ويقضِى فى ذلك بضع سنواتٍ قلائل ، ثم يتخَرَّج لنا « مستشرقاً » يُفْتِى فى اللسان العربىّ ، والتاريخ العربىّ ، والدين العربى » !! [1] عَجَبٌ ، وفوق العَجَب !

كَيْفَ يجوزُ فى عَقْلِ عاقلٍ أن تكون بضعُ سنواتٍ قلائلَ كافيةً لطالب غريبٍ عن « اللُّغة » ، وهذه حالُه ، أن يُصْبح محيطاً بأسرار اللغة وأساليبها الظاهرةِ والباطنةِ ، وبعجائب تصاريفها التى تجمّعتْ وتداخلتْ على مرِّ القرون البعيدة فى آدابها ، (انظر ما سلف ص : ٢٧) = وأن يُصْبح بين عَشيّةٍ وضُحَاها مؤهَّلاً للنزول فى ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » ؟ كيفَ ؟ مع أنّ هذا الشرط صعبٌ عسيرٌ على الكثرة الكاثرة من أبناءِ هذه اللغة أنفُسهم ، ولا يبلُغ هذا المبلغ إلا القليلُ منهم ؟ كيف يجوز هذا فى عقل عاقلٍ ؟ هذا ، مع أنه أيضاً تعلَّمها تلقِّياً من أعجمّيٍ مثله ، ولم يخالط أهلَها مخالطةً طويلةً متماديةً تُتيح له التلقِّىَ عنهم تلَقِّياً يبصِّرُهُ ببعض هذه الأسرارِ . غَايةُ ما يمكنُ أنْ يحوزَهُ « مستشرق » فى عشرين أو ثلاثين سنة ، وهو مقيمٌ بين أهل لسانه الذى يَقْرَعُ سَمْعَه بالليل والنهار : أن يكون عارفاً معرفةً مّا بهذه « اللغة » ، وأحسنُ أحواله عندئذٍ أن يكون فى منزلة طالبٍ عربيٍّ فى الرابعة عشرة من عمره ، بل هو أقلّ منه على الأرجح ، أىْ هو فى طبقة العوامِّ الذين لا يَعْتدُّ بأقوالهم أحدٌ فى ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » . أليس

---

(١) ما بين القوسين منقولٌ من فصل كتبته فى كتابى « برنامج طبقات فحول الشعراء » (ص : ١١٥ — ١٢٧) ، وفيه تفصيلٌ وبيانٌ وأدلّةٌ على فساد عمل « الاستشراق » ، وعلى التهويل فى شأن علم « المستشرقين » بالعربية ، فاقرأه هناك .

كذلك ؟ هذا على أن « اللغة » نفسَها هى وِعاءُ « الثقافة » ، فهما متداخلان ، فمحالٌ أن يكونَ محيطاً بأسرارها ، دون أن يكون مُحيطاً أيضاً بثقافتها إحاطةً تؤهِّله للتمكُّن من « اللغة » ، فمن أين يكون « المستشرق » مؤهَّلاً لنزول هذا الميدان ؟

• وإذا كان أمر « اللغة » شديداً لا يسمحُ بدخول « المستشرق » تحت هذا الشرط اللازم للقِلَّة التى تنزل ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، فإن شرط « الثقافة » أشدُّ وأعتَى ، لأنَّ « الثقافةَ » ، كما قلتُ آنفاً : « سِرٌّ من الأسرارِ الملثَّمَة فى كُلِّ أمّة من الأمم وفى كُلّ جِيلٍ من البشر ، وهى فى أصلها الراسخ البعيدِ الغَوْرِ ، معارفُ كثيرةٌ لا تُحْصَى ، متنوِّعةٌ أبلغَ التنوُّع لا يكاد يُحاط بها ، مطلوبةٌ فى كُلِّ مجتمع إنسانيٍّ ، للإيمان بها أوَّلاً من طريق العقلِ والقلبِ = ثم للعمل بها حتى تذوبَ فى بُنْيان الإنسان وتجرى منه مَجْرى الدم لا يكادُ يحسُّ به = ثم للانتماء إليها بعقله وقلبه انتماءً يحفظُهُ ويحفظُها من التفكُّك والانهيار » ، (ص : ٢٨) وهذه القيود الثلاثة ، « الإيمان » و « العمل » و « الانتماءِ » ، هى أعمدةُ « الثَّقافة » وأركانُها التى لا يكون لها وجودٌ ظاهرٌ محقَّقٌ إلاّ بها ، وإلاّ انتقض بُنيان « الثقافة » ، وصارت مجرَّدَ معلوماتٍ ومعارفَ وأقوالٍ مطروحةٍ فى الطريق ، متفككةٍ لا يجمع بينها جامعٌ ، ولا يقوم لها تماسُكٌ ولا ترابطٌ ولا تشابكٌ .

• وبديهىٌّ ، بل هو فَوْقَ البديهىّ ، أنّ شرط « الثقافة » بقيوده الثلاثة ، ممتنعٌ على « المستشرق » كُلَّ الامتناع ، بل هو أدخلُ فى باب الاستحالة من اجتماع الماءِ والنار فى إناءٍ واحدٍ ، كما يقول أبو الحسن التِّهاميُّ الشاعرُ :

ومُكَلِّفُ الأيَّامِ ضِدَّ طِباعِهَا　　　مُتَطَلِّبٌ فى الماءِ جُذْوَةَ نَارِ

وذلك لأنّ « الثقافة » و « اللُّغَة » متداخلتان تداخُلاً لا انفكاكَ له ، ويترافَدانِ ويتلاقَحانِ بأسلوبٍ خفيٍّ غامضٍ كثير المداخل والمخارج والمسارب ، ويمتزجان امتزاجاً

واحداً غير قابلٍ للفَصْلِ ، فى كُلّ جِيل من البشر وفى كُلِّ أمّةٍ من الأمم . ويبدأ هذا التداخُل والترافُد والتلاقُح والتمازُج منذُ ساعة يولدُ الوليد صارخاً يتلمّس ثَدْى أمِّه تلمُّساً ، ويسمعُ رَجْع صوتِها وهى تُهَدْهِدُه وتُنَاغِيه ، ثم يظلُّ يرتضعُ لِبَان « اللغة » الأوّلَ ، ولِبانَ « الثقافة » الأوّل ، شيئاً فشيئاً ، عن أمِّه وأبيه حتى يَعْقِل ، فإذا عَقَل تولّاهُ معهُما المعلِّمون والمُؤَدِّبون حتى يستحصِدَ ، (أى يشتدَّ عودُه) ، فإذا استحصدَ وصارَ مُطيقاً إطاقةً مَّا للبصر بمواضع الصواب والخطأ ، قادراً قدرةً مَّا على فَحْص الأدلّة واستنباطِها فناظر وباحثَ وجادَلَ ، فعندئذٍ يكون قد وضعَ قَدَمَه على أوّلِ الطريقِ = لا طريقِ « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، فهذا بعيدٌ جدًّا كما رأيتَ = بل على الطريقِ المُفْضى إلى أن تكون له « ثقافة » يؤمن بها عن طريق العقل والقلب = ويَعْمَل بها حتى تذوبَ فى بنيانِه وتجرى منه مَجْرى الدم لا يحسُّ به = وينتمى إليها بعقله وقلبه وخياله انتماءً يحفظُه ويحفظُها من التفكُّك والانهيار ، كما أسلفتُ . وهذا ، كما تَرَى ، شرطٌ لازمٌ للبدءِ فى الإحاطة بأسرار « اللغة » ، ثم « اللغةُ » ، بعد ذلك ، هى التى تمهِّدُ له الطريق إلى الإحاطة بأسرار « الثقافة » ، لأنّ أمر « الإحاطة » عندئذٍ منوطٌ كُلُّه بالقدرةِ على تمحيص مفردات « اللغة » تمحيصاً دقيقاً ، وتحليل تراكيبها وأجزاءِ تراكيبها بدقَّة متناهية ، وبمهارة وحِذْق وحَذَرٍ ، حتى يَرَى ما هو زَيْفٌ جليًّا واضحاً ، وما هو صحيحٌ مستبيناً ظاهراً ، بلا غفلةٍ ولا هوًى ولا تسرُّع ، (انظر ص : ٢٢ ، ٦٤ ، ٦٥) = ثم منوطٌ أيضاً بالقدرة الفائقة على النظر فى «الثقافة » وعلى ترتيبِ مادَّتها بعد نَفْى زَيْفها وتمحيص جيِّدها ، باستيعابٍ لكلِّ احتمالٍ للخطأ أو الهوى أو التسرُّع ، متحرِّياً وَضْعَ كُلِّ حقيقة من الحقائق فى حقِّ موضعها ، لأنّ أخفى إساءةٍ فى وَضْع إحدى الحقائق فى غير موضعها ، خليقٌ أن يُشوِّه عَمُود الصورة تشويهاً بالِغَ القُبْح والشَّناعة ، (انظر ص : ٢٢ ، ٦٤ ، ٦٥)

فقَبْلَ كُلِّ شيء ، أنَّى للمستشرق أن يحوزَ ما لا يحوزُه إلاّ من وُلد فى بُحْبوحة اللغة وثقافتها منذُ كان فى المهد صَبِيًّا ، ثم نُشِّىء فيها وارتضَع وأُدِّب حتى عَقَل واستحصد ؟ غيرُ ممكنٍ . وهَبْهُ ممكناً أن يأتىَ « المستشرق » على الكِبَر فيعاشر أصحاب هذه اللغة وهذه الثقافة ويخالطَهُم دهراً طويلاً ، وهبهُ ممكناً أيضاً أن ينسىَ كل ما نَشأ هو فيه صغيراً وأُدِّب ، أفَممكنٌ هُو أن يحوزَ ذلك كُلّه ، وهو مقيمٌ فى بلاده بين أهلِ وعشيرته ، بأن يتعلم على الكِبَر من معلِّم يعلِّمه لغةً وثقافةً هما معاً أجنبيَّان عنه وعن معلِّمه جميعاً ؟ غيرُ ممكنٍ . أقْصَى ما يبلغُه هذا « المستشرق » بعد عشراتِ السنين من الدَّأْب والجهد ، وبعد أن تَشيبَ قُرونَه ، (والقرون ضفائر شعر الرأس) ، أن يكُون شادياً لا أكثر ، (و « الشادى » ، الذى تعلَّم شيئاً من العلم والأدب ، أى أخذَ طرَفاً منه) ، أى أنه إنَّما تعلَّم لغةً أجنبيَّةً عنه وبَسْ . [1] هذا صَريحُ العقل ، إذنْ فخبِّرْنى : أهو ممكنٌ أن يكونَ مجرَّدُ تعلُّم لُغَةٍ أنت فيها شادٍ ، كفيلاً بأن يجعلك كاتباً أو باحثاً فى أسرار هذه اللغة وفى ثقافتها ، مهما كانت منزلتُك أنت فى لُغَتك وثقافتِك ؟ أمُمكن هو ؟ مجرَّدُ خُطور إمكانِ هذا فى وَهْمك ، مُخْرِجٌ لك من حدِّ العقل . فأعجبُ العجبِ ، إذن ، أن يَعُدَّ أحدٌ شيئاً مما كتبه « المستشرقون » فى لغتنا وثقافتنا وتاريخنا وديننا ، داخِلاً فى حدِّ الممكِن ، وأنْ يراهُ مُتضمِّناً لرأى حقيقٍ بالاحترام والتقدير ، فضلاً عن أن يكون « عملاً علميًّا » أو « بحثاً منهجيًّا » نسترشدُ به نحنُ فى شؤون لُغتنَا وثقافتنا وتاريخنا وديننا ، كما هو السائد اليوم فى حياتنا هذه الأدبيّةِ الفاسدةِ . أليس هذا شيئاً لا يُطَاق سَمَاعُه ولا تصوُّرُهُ ؟ ومع ذلك فهو كائنٌ معمولٌ به بلا غَضَاضة ، أليس هذا غريباً ! أليس غريباً جدًّا أن لا يكون لمثلِ هذا شبيهٌ البَّتة فى أى لغةٍ وأىّ ثقافة كانت فى الأرضِ ، أو هى كائنةٌ اليوم ؟ وقلت

(١) « بَسّ » بمعنى « حَسْبُ » و « فقط » ، مستعملة فى العامية ، ولكنها قديمةٌ جدًّا ، ويقالُ إنّ أصلها فارسىٌّ .

يوماً : « أرأيتَ قطُّ رجُلاً من غير الإنجليز أو الألمان مَثلاً ، مهما بلغ من العلم والمعرفة ، كان مسموعَ الكلمة فى آداب اللغة الإنجليزية وخصائص لُغتها ، وفى تاريخ الأمّة الإنجليزية ، وفى حياة المجتمع الإنجليزى ، يدينُ له علماء الإنجليز بالطاعة والتسليم » ؟[١] أليس غريباً أن يكون غيرُ الممكنِ ممكناً فى ثقافتنا نحنُ وحدَها ، دون سائر ثقافاتَ البشر قدِيمِها وحديثها ؟ غريبٌ عجيبٌ لا محالةَ .

• وأشياءُ قليلةٌ ، ولكنّها عظيمة الخَطَر ، أحبُّ أنْ أنبِّهك إليها ، ونحنُ فى حديث « الثقافة » ، حتّى لا تختلط عليك الأُمور . يوجبُ ذلك علىَّ علمى بفساد حياتنا الأدبية الحديثةِ حَاضِرِها وغابرِها ، ولأنها تسيرُ بنا اليومَ فى طريق الغُموض ، لا فى طريق الوضوح . وقد استشرى خَطَرُ هذه السِّيرة بما شاع فى هذه الحياة من الثرثرة والادِّعاءِ والتحكُّم والعَجْرَفيَّة وقِلّة المبالاةِ والزَّهْوِ الفارغ ، فأدَّى بنا ذلك كلُّه إلى أن نَأْلَف استعمالَ ألفاظٍ مُوهِمةٍ غامضة الدلالة ، فضْفاضة المعانى ، بُجْرأة وبلا أناةٍ وبلا ضبطٍ وبلا تعمُّقٍ . فالأمر يحتاجُ منِّى ومنكَ إلى وقفةٍ متأنِّيَةٍ ، ومُراجعةٍ ضابطةٍ للفظ « الثقافة » ، لأنّ أَمرها أجلُّ وأخطَر ممّا توهمك به النَّظْرة الأولى . بيَد أنّى لا أستطيع هنا الإفاضةَ فى بيانها ، وما هو إلاّ الإشارة الخاطفة والتحديدُ لا غيرُ = وأَيضاً لأنَّ لفظ « الثقافة » لفظٌ مستحدثٌ فى زماننا هذا ، تَفشَّى استعمالُه على الألسنة بلا ضابطٍ وبلا دِقّة وبلا مبالاةٍ .

• « الثقافةُ » فى جوهرها لفظٌ جامعٌ يُقْصَدَ بها الدلالةُ على شيئين أحدهُما مَبْنىٌّ على الآخر ، أى هما طَوْران متكاملان :

---

(١) انظر كتابى « برنامج طبقات فحول الشعراء » ص : ١١٨ .

الطَّور الأوَّل : أُصولٌ ثابتة مكتسبةٌ تنغرسُ فى نفس « الإنسان » منذ مولده ونشأته الأولى حتى يُشارف حدَّ الإدراك البيِّن ، جِماعُها كُلُّ ما يتلقّاهُ عن أبويه وأهله وعشيرته ومعلِّميه ومؤدِّبيه حتى يصبحَ قادراً على أن يستقِلَّ بنفسه وبعقله ، وتفاصيل ما يتلقّاه الوليد حتى يترعرَعَ أو يُراهق ، تَفُوتُ كُلَّ حَصْرٍ بل تعجزُهُ . وهذه الأصولُ ضرورةٌ لاَزمةٌ لكل حيٍّ ناشيءٍ فى مجتمع مَّا ، لكى تكون له « لغةٌ » يُبينُ بها عن نفسه ، و « معرفةٌ » تُتيحُ له قِسْطاً من التفكير يُعينه على معاشرةِ من نشأ بينهم من أهله وعشيرته . وهذا على شدّة وضوحه عند النَّظرة الأولى لأنّك أَلِفتَهُ ، لا لأنّك فكرَّت فيه وعمَّقت التفكير ، هو فى حقيقته سِرٌّ مُلثَّمٌ يحيِّر العقُولَ إدراكُ دَفينِه ، لأنه مرتبطٌ أشدّ الارتباط ، بل مُتغلغِلٌ فى أعماق سِرَّين عظيمين غامضين هما : سِرُّ « النُّطقِ » وسرُّ « العقل » اللّذان تَميَّز بهما « الإنسانُ » من سائر ما حَوْلَهُ من الخَلْق كُلِّه ، وتحيَّرت عقول البشر فى كيف جاءَا ؟ وكيف يعملان ؟ لأنّ « الإنسان » لم يَشْهد خَلْق نفسِه حتّى يستطيع أن يستدلَّ بما شَهِد ، لكى يصلَ إلى خَبِيءِ هذين السرَّين الملثَّمين المُسْتَغلقين البعيدين ، وإنْ توهَّم أحياناً بالإلْفِ أَنهما قريبان واضحانِ .

ولأنّ « الإنسانَ » منذ مولِده قد استُودِع فِطْرةً باطنةً بعيدةَ الغَور فى أعماقه ، تُوزِعُه ، (أى تُلْهِمُه وتحرّكه) ، أن يتوجَّه إلى عبادةِ ربّ يُدرِك إدراكاً مبهماً أنّه خالقُهُ وحافظُهُ ومُعِينُه ، فهو لذلك سريعُ الاستجابة لكلِّ ما يُلَبِّى حاجةَ هذه الفِطرةِ الخفيَّة الكامنة فى أَغواره . وكُلُّ ما يلبِّى هذه الحاجة ، هو الذى هدَى الله عبادَه أن يسمُّوه « الدِّين » ، ولا سبيلَ البتَّةَ إلى أن يكونَ شيءٌ من ذلك واضحاً فى عقل الإنسانِ إلاّ عن طريق « اللُّغة » لا غيرُ ، لأن « العقل » لا يستطيع أن يعملَ شَيْئاً ، فيما نعلَمُ ، إلا عن طريق « اللغة » . فالدِّين واللُّغة ، منذ النشأةِ الأُولى ، متداخلانِ تداخُلاً غير قابل

للفَصْلِ ، [١] ومن أغفَل هذه الحقيقة ضلَّ الطريقَ وأوغل فى طريق الأوهامِ . هذا شأن كُلِّ البشر على اختلاف مِلَلهم وألوانهم ، لا تكاد تجدُ أُمَّةً من خلق الله ليس لها « دينٌ » بمعناهُ العامِّ ، كتابيًّا كانَ ، أو وثنِيًّا ، أو بِدْعًا ، (« البِدْعُ » ، الدِّينُ ليسَ له كتابٌ أو وَثَنٌ معبود) .

ولذلك ، فكلُّ ما يتلقّاهُ الوليدُ الناشىء فى مجتمعٍ مّا ، من طريق أبويه وأهله وعشيرته ومعلّميه ومؤدِّبيه ، من « لغةٍ » و « معرفةٍ » = يمتزجُ امتزاجاً واحدًا فى إناءٍ واحدٍ ، رَكيزتُه أو نَوَاتُه وخَمِيرتُه دِينُ أبويه ولُغتُهما ، وأبلغُهما أثراً هو « الدين » . فالوليد فى نَشْأته يَكونُ كُلُّ ما هو « لغةٌ » أو « معرفةٌ » أو « دِين » متقبلًا فى نفسه تقبُّل « الدِّين » ، أى يتلقّاهُ بالطاعةِ والتسليم والاعتقادِ الجازمِ بصحّته وسلامته ، وهذا بَيِّنٌ جدًّا إذا أنت دقّقتَ النظر فى الأسلوب الذى يتلَقّى به أطفالُك عَنْك ما يسمعونه منك ، أو من المعلّم فى المراحل الأُولى من التعليم . ويظلُّ حالُ الناشىء يتدرَّج على ذلك ، لا يكادُ يَتَفصَّى شيءٌ من مَعارفه من شيءٍ ، (« يتفصّى » : أى يتخلَّص من هذا المَضِيق) حتَّى يقاربَ حدَّ الإدراكِ والاستبانة ، ولكنه لَا يكادُ يبلغُ هذا الحدَّ حتى تكون لُغتُه ومَعارفُه جميعاً قد غُمِسْت فى « الدين » وصُبِغتْ به . وعلى قدْر شمولِ « الدين » لشؤون حياة الإنسان ، وعلى قدر ما يحصِّل منه الناشىء ، يكون أثرهُ بالغ العمق فى لغته التى يفكِّرُ بها . وفى معارفِه التى ينبنى عليها كُلُّ ما يوجبُه عملُ العقل من التفكير والنظر والاستدلال . فهذه هى الأُصول الثابتة المكتسبةُ فى زمن النشأةِ على وجه الاختصار .

---

(١) فى حياتنا الأدبية الفاسدة ، تروجُ دعوة خبيثةٌ جاهلةٌ لفصل « اللُّغة » عن « الدِّين » ، وهذا شيءٌ لا يتيسَّر إلا بمفارقة دينٍ ، والدخول فى دِينٍ آخر يصنعونه لأنفسهم . ولبيان معنى « الدين » ، أرجو أن تقرأ أولاً ما كتبته فى كتابى « أباطيل وأسمار » ص : ٥١٣ – ٥٥٢ ، فهو مهمٌّ هنا جدًّا ، وأن « الدين » عندنا يشتمل على الدلالة على الأصول الصحيحة المحكمة التى يسترشد بها العقل فى التفكير والنظر والاستدلال .

الطَّورُ الثانى : فروعٌ مُنْبثقةٌ عن هذه الأصول المكتسبة بالنشأةِ . وهى تنبثقُ حين يَخرج الناشيءُ من إسارِ التسخيرِ إلى طَلاقة التفكير . وإنما سمَّيتُ « الطور الأوّل » : « إسارَ التسخير » ، لأنه طورٌ لا آنفكاكَ لأحدٍ من البشر منه منذُ نشأته فى مجتمعه . فإذا بلغَ مبلغَ الرجالِ استوَتْ مداركُه ، وبدأت معارفُه يتفصَّى بعضُها من بعضٍ ، أو يتداخل بعضها فى بعضٍ ، ويبدأ العقلُ عملَهُ المُسْتَتِبَّ فى الاستقلال بنفسه ، ويستبدُّ بتقليب النظر والمباحثة وممارسة التفكير والتنقيب والفحص ، ومعالجةِ التعبير عن الرأىِ الذى هو نتاجُ مُزاولةِ العقل لعمله ، فعندئذ تتكوَّن النواةُ الجديدة لما يمكن أن يسمَّى « ثقافة » . وبيِّنٌ أن سبيله إلى تحقيق ذلك هو « اللغة » و « المعارف » الأُوَل التى كانتْ فى طورها الأوَّل مصبوغة بِصِبْغَة « الدين » لا محالة ، حتى لو استعملها فى الخروج على « الدينِ » الموروث ومناقشته رَفْضاً لهُ أو لبعضِ تفاصيله . هذه حالُ النَّشَأِ الصغار حتى يبلغوا منزلة الإدراك المستقلّ المفضِى إلى حَيِّز « الثقافة » .

• و « ثقافة » كل أمّةٍ وكل « لُغَة » هى حصيلةُ أبنائها المثقَّفين بقدْرٍ مشتركٍ من أصول وفروعٍ ، كُلّها مغموسٌ فى « الدين » المتلقَّى عند النشأةِ . فهو لذلك صاحبُ السلطانِ المُطْلَق الخَفِيِّ على اللُّغَة وعلى النفس وعلى العقل جميعاً ، سلطانٌ لا ينكره إلاّ من لا يُبالى بالتفكُّر فى المنابع الأُوَل التى تجعل الإنسانَ ناطقاً وعاقلاً ومبيناً عن نفسه ، ومستبيناً عن غيرِه . فثقافة كُلِّ أمّةٍ مِرْآةٌ جامعةٌ فى حيِّزها المحدود كُلَّ ما تشعَّثَ وتشتَّت وتباعَدَ من ثقافة كُلِّ فردٍ من أبنائها على اختلاف مَقاديرهم ومَشاربهم ومَذاهبهم ومداخلهم ومخارجهم فى الحياةِ . وجوهَرُ هذه المرآة هو « اللغة » ، و « اللغة » و « الدين » ، كما أسلفت ، متداخلان تداخُلاً غيرَ قابلٍ للفَصْلِ البتّةَ .

فباطِلٌ كلَّ البطلانِ أن يكون فى هذه الدنيا على ما هى عليه ، « ثقافَةٌ » يمكن أن

تكون « ثقافةً عالمية » ، أى ثقافة واحدة يشترك فيها البشر جميعاً ويمتزجون على اختلاف لغاتهم ومِلَلهم ونِحلَهم وأجناسهم وأوطانهم . فهذا تدليسٌ كبيرٌ ، وإنّما يُراد بشُيوع هذه المَقُولة بين الناسِ والأمم ، هدفٌ آخرُ يتعلَّق بفرضِ سيطرة أمّةٍ غالبة على أممٍ مغلوبَة ، لتبقَى تبعاً لهَا . فالثقافات متعدِّدة بتعدُّد المِلَل ، ومتميِّزة بتميُّز المِلَل ، ولكُلّ ثقافة أسلوبٌ فى التفكير والنظر والاستدلال مُنْتزِعٌ من « الدين » الذى تدينُ به لا محالةَ . فالثقافَات المتباينة تتحاور وتتناظر وتتناقش ، ولكن لا تتداخَلُ تداخُلاً يُفْضِى إلى الامتزاج البتَّةَ ، ولا يأخُذُ بعضُها عن بعضٍ شيئاً ، إلاّ بعد عَرْضه على أسلوبها فى التفكير والنظر والاستدلال ، فإن استجاب للأُسلوب أُخذَته وعدَّلته وخلَّصَته من الشوائب ، وإن آستعصَى نَبَذتْهُ واطَّرَحَتْهُ . وهذا بابٌ واسع جدًّا ليس هذا مكان بيانه ، ولكنّى لا أفارِقُه حتَّى أنبِّهك لشيءٍ مهمّ جدًّا ، هو أن تفصل فَصْلاً حاسماً بين ما يسمَّى « ثقافة » وبين ما يسمَّى اليومَ « علمًا » ، (أعنى العُلُوم البَحْتَةَ) ، لأنّ لكُلٍّ منهما طبيعةً مُباينةً للآخر ، فالثقافة مقصُورةٌ على أمّةٍ واحدةٍ تدينُ بدينٍ واحدٍ ، والعِلْم مُشاعٌ بين خَلْق الله جميعاً ، يشْتركون فيه اشتراكاً واحداً مهما اختلفت الملل والعقائد .

• فإذا عرفتَ هذا واستبصرت خَبيئَه ، وأنعمتَ النظرَ فيه ، فعندئذٍ يُفضى بك النَّظَر إلى أمر « المستشرق » . فهو حين ينظُر فى « ثقَافة » أمّةٍ أخرى غير أمّته ، إنما ينظر فيها لأحدِ أمرين : إمّا أن ينظر فيها لِيَكْسِب منها شيئاً لأمَّتِهِ وثقافته ، وإمّا أن ينظُر فيها ليناظِرَ ويناقش . وكلا الأمرين حقٌّ لا ينازعُه فيه منازعٌ . وفى كلا الأمرين هو واقعٌ فى مأزِقٍ ضيِّق : مأزِقِ « اللغة » ومأزِقِ « الثقافة » . لا يستطيعُ أن يأخذ إلاّ على قَدْر ما فهم من « لغةٍ » غريبة أصْلاً عن لُغَتِه ، ولا يستطيعُ أن يناقش إلاّ على قَدْر ما يتصوَّرُ أنه استبانهُ وأدركه من « ثقَافة » غريبة عن ثقافته . ولكن ليس هذا شأنَه وحدهُ ، بل هو شأنى وشأنك أيضاً فى ثقافة « المستشرق » وأمته التى ينتمى إليها ، وعلى نفس القاعدة التى ذكرتها لك قبل أسطرٍ .

• ولكن « المستشرق » ، وإن يكن قد فَعل الأمرين جميعاً خدمةً لأمته ، كما مضى ذِكْرُ ذلك فى ثنايَا كلامى ، فإنه قد جاء فدخل مَدْخلاً آخر من غير هذين البابين ، ودخوله من هذا الباب الثالث هو موضع النِّزاع بيننا وبينَه ، دخَل لا مستفيداً ولا مناقشاً ، بل دخَل باحثاً ودارساً عليه طَيْلَسَان العلم ، (أى الرِّداء المميِّز لأساتذة الجامعات) فى ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، وهو ميدانٌ له شروطٌ لازمةٌ لا تختلُّ . دخَل فى « لُغةٍ » هو فيها هجِينٌ كُلَّ الهُجْنَة ، (« الهجين » الذى فى نسبه عيب قادحٌ) ، وفى « ثقافة » هو غريبٌ عنها كُلَّ الغُرْبة . ودخوله هذا عمل مُسْتَشْنَعٌ فى ذاته ، لأنه اجتراءٌ على دخول هذا الميدان بغير حقِّه ، ولا يُسْمَح بمثله فى ثقافة أمَّته هو نفسه ، لأنه لا يملكُ شيئاً ذا بالٍ من مُسَوِّغاته ، ولا تسمحُ به طبيعةُ ما يمكنُ أن يسمَّى « بحثاً » أو « دراسة » ، كما بيَّنت ذلك آنفاً (ص : ٦٦ – ٧٠) . أمّا « اللغة » فغيرُ ممكن أن يكون فيها إلا طالباً شَادياً يعرفهما معرفة مَّا ، لا تسمح بدخوله تحت شرطها ، كما بيَّنْتُ آنفاً . (ما سلف : ٦٦ – ٧٠) = وأمَّا « الثقافة » ، وشرطها أشدُّ وأقسَى ، (انظر ص : ٢٨ ، ٦٨) فيحولُ بينَه وبينها أهْوَالٌ لا يجتازُها إلاّ من عرفَ « اللغة » معرفةَ أستاذٍ متمكّن ناشئ فى هذه « الثقافة » وفى لُغَتها . وفوق ذلك كلِّه ، « المستشرقُ » ناشئٌ فى لغةٍ وفى ثقافةٍ أخرى قد رسخَتْ فى نفسه وعقله ، وهى بطبيعتها ، كما بيَّنتُ آنفاً ، مصبوغة صِبْغَةً شديدة فى اليهودية والمسيحية ، وهما مِلَّتان تُباينُهما ملَّةُ الإسلام مُبَاينةً تبلُغ حدَّ الرَّفْضِ والمناقضة . وثقافتُه هذه تُنَازعُه حيث ذهبَ فى البحث والدرس ، فممكنٌ أن يناقش « ثقافة » الإسلام ، ممكنٌ ، لأن هذا حقُّه ، ولكنه مستحيلٌ كُلّ الاستحالة أن يكون فى ثقافتنا نحنُ « باحثًا » أو « دارسًا » يبدِى رأياً يستحقُّ النظر والاحترامَ ، فى قرآنها وحديثها وتفسيرها وفى تفسير شرائعها ، وفى تاريخها وفى آدابها ولغتها وشعرها إلى آخر ما ذكرته آنفاً ، (ص : ٥٩) ، مستحيلٌ ، لأنه ممتنِعٌ عليه امتناعاً لا يملك الفرارَ منه .

بيد أن دوافع « المستشرق » إلى هذا الدخول الجرىء المُسْتَبْشَع وركوب هذا المَرْكب الوَعْر ، كانت ضرورةً تحملُه على أن يخدم أبناء جلدته وعشيرته وأهلِ مِلّتِه ، بما أوجبَه الصراعُ المحتَدِمُ قروناً بين الإسلام والمسيحية المحصورة فى الشمال ، فانبعثَ يكتُب ما يكتُب حاملاً هُموم المسيحية الشمالية فى أعماق قلبه ، (انظر ما سلف ص : ٥٨) ، لأسبابٍ فصَّلتها آنفاً ، و « ليصوِّر الثقافة العربية الإسلامية وحضارة العرب والمسلمين ، بصُورةٍ مقنعة للقارىء الأوربىّ (المسيحى) ، وبأسلوب يدلُّ على أنّ كاتبها قد خَبرَ ودرس وعرفَ وبذلَ كلَّ جهدٍ فى الاستقصاءِ ، وعلى منهجٍ مألوفٍ لكلِّ مثقف أوربىّ ، وأنه وصل إلى هذه النتيجة التى وضَعها بين يديه ، بعد خِبْرَة طويلة وعَرَقٍ وجُهْد وإخلاصٍ ، حتَّى لا يَشُكّ قارىءٌ منهم فى صدق ما يقرؤُه ، وأنّه هو اللُّبَاب المصفَّى من كُلّ كدَرٍ ، والمبرَّأُ من كل زَيْفٍ ، وأنه هو الحقُّ المبينُ والصراط المستقيم » ، (اقرأ ص : ٥٩ وما قبلها وما بعدها) . وفَعَلَ « المستشرق » ذلك لأسباب تستطيع أن تُعيد قراءتها فيما سلف ، (ص : ٥٦ ، ٥٧) .

وهذا العملُ على ما فيه من المَعَابة ، هو بلا شكٍّ أيضاً ، حقٌّ خالصٌ للمستشرق لا ينازعه فيه منازعٌ ، لأنه كتب ما كتبه للمثقف الأوربى المسيحىّ وحدَهُ لا لغيرِهِ (انظر ما سلف : ٦١) ، حتّى ما كان من ذلك كُلّه سَفاهةً وبذاءةً لا غيرُ (ص : ٦١) ، كُلُّ ذلك حقُّه ، وما كان فيه من إثْمٍ فحسابُه على الله سبحانه لا علينا . وكُلّ ذلك أيضاً لا يوجِبُ عندى أن يوصف عملِ « المستشرق » هذا بأنّه مبنىٌّ على خُبْثِ الطويَّة ، لأن خُبْث الطوِيّة يقتضى أن تكون تَعرِفُ الحقَّ أبلجَ مستنيراً ، ثُم تَطْمسه مُريداً لإفسادِ الحقِّ على غيرك . و « المستشرق » بعيدٌ كُلَّ البعد عن أن يعرف الحقَّ مُعْتِماً دامساً ، فكيف يعرفه أبلجَ مستنيراً . و « المستشرق » ، كما علمتَ ، لم يَعْمِدْ إلى إفساد حقٍّ على المثقف الأوربىّ المسيحى ، بل عَمَد إلى حياطته حتى لا ينبَهر بدين عدوِّه المسلم انبهاراً مجرّبةً

عاقبتُه على مرِّ القرون الطوال بالتساقُطِ فى الإسلام . وفوق ذلك كُلِّه ، فإن هذا المسلَكَ ، مسلك « الغايةُ تسوِّغ الوسيلةَ » ، مَسْلَكٌ مألوفٌ مستحسنٌ محبَّبٌ إلى الحضارة الأوربية السائرةِ على هُدَى « مكيافِلِّى » الذى هداهُمْ إليه ، ونزل عندهم منزلة « الدين » ، وإنّ كان دينُنا ، نحنُ المسلمين ، يُنكِره ويأبَاه علينا كُلَّ الإباءِ . وإذا كان من حقِّنا أن نصف « المستشرق » بخُبْثِ الطويَّة ، فذلك جائزٌ لنا فى عمل آخر من أعماله ربَّما أشرتُ إليه فيما بعدُ .

• أما الأمر الثالث ، وهو أمر « الأهواء » ، (انظر ما سلف ص : ٦٦) ، فلن أضيع وقتى ووقتك فى الحديث فيه ، وإن كان شرطاً مهمًّا ، حَتْمٌ أن يبرأ منهُ كُلّ من ينزل ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، لأن بديهةَ الفطرة فى الإنسان تقضى بأنَّ « الأهواءَ » مرفوضةٌ فى كلِّ عملٍ يستحقُّ أن يوصف بأنه عملٌ شريف أو عملٌ علميّ . وظاهرٌ من كُلِّ ما كتبته لك آنفاً أن « الاستشراق » ، من فَرْع رأسه إلى أخْمَص قَدَميه ، غارقٌ فى « الأهواء » . والثقافة الأوربية والحضارة الأوربية تستقبل « الأهواءَ » بلا نكير ولا أَنَفَة ، بل هى تسوِّغ استعمالَ رذيلةِ « الأهواءِ » فى الدنيا وفى الناس بلا حَرَج ، لأنها حضارة قائمة على المنفعة والسَّلْب ونَهْب الأُمَم وإخضاعها بكُلِّ وسيلة لسلطانها المتحضّر !! والدلائل على ذلك لا تخفَى على بصيرٍ ذى عينين تُبْصِران ، فهى تسوّغ ذلك فى العلم وفى الثقافة وفى السياسة وفى الدين وفى كُلِّ شيءٍ ، ما دام جالباً للمنفعة أو دافعاً للمضرة ، بل تسوِّغها أيضاً فى الدعوَى الغريبة العجيبة التى لم يسبق لها مثيلٌ فى تاريخ الأمم ، دَعْوَى أنها « حضارة عالميةٌ » ، وفحواها أن العالم كُلَّه ينبغى أن يخضع لسلطانها وسيطرتها ، ويتقبَّل برضىً غَطْرَستها وفُجورها الغنىَّ الأخّاذ الفاتن !

وأخيراً ، هذا تمام خبر « الاستشراق » وحقيقةِ « المستشرق » الذى انتفض بهموم المسيحيّة الشمالية ، فكتب من الكتب ما كتب لأهل مِلّته وخاضَ فى مَعْمعانِ حياةِ

أمّته الثقافية والسياسية مدافعاً شديد الحميّة ، ومحامياً عن أقوامه أبلغَ المحاماة ، وهو شيءٌ لا يَعْنِينا ، أو كان ينبغى أن لا يعنينا هو ولا ما كتبه فى ثقافتنا قُلَامةَ ظُفْرٍ ، لما عرفتَ من استحالة قدرته على مَعْرفة العَرَبيَّة إلا مثلَ تَحِلَّة القَسَم ، (أى قليلاً ، بمقدار ما يُكَفِّر المرءُ قَسَمه ولا يُبَالغ) ، ومن عجزه المُطْلَق عن استبانة وَجه الحقِّ فى ديننا وثقافتنا ، لأنه مكفوفٌ عنهما بحجابٍ من ثقافته التى نشأ فيها وليداً واستمرَّ حتى شابت قرونُه . فما بالُه شَغَل نَاسَنَا بالحديثِ عنه ؟ أجلْ ، كيف كان ذلكَ ؟ ولِم كان ما كانَ ممّا أفضَى إلى انتدابِه إلى إلقاء محاضرات فى جامعاتنا العربية والإسلامية ؟ وأعجبُ من ذلك استلحَاقُه بهيئات المجامع اللغوية فى بلاد عربية إسلامية ، يا للعجب ! أىُّ ناسٍ نحنُ !

* * *

٢٠ – كيف كان ذلك ؟ ولِمَ كان ما كان ؟ قصَّةٌ طويلة عريضةٌ مِلْؤها الغرائبُ والعجائبُ ، والمضحكاتُ والمبكياتُ ، والحسراتُ والآهاتُ ، من مبدئها إلى منتهاها . ليتنى أستطيع على المكان ، (أى الآن) ، أن أقصَّها عليك كاملةً بتفاصيلها ، ولكن أنَّى يكون لى ذلك الآن ؟ فَاَقنَعْ منّى بالاختصار المُفْهِم ، والإيماءِ الخاطف ، واللَّمْحة الدالّة ، إبراءً للذِّمة ، ذِمَّتى أنا ، وأداءً للأمانة التى حُمِّلتُها لأستودِعها بين يديك . وأنتَ مخيَّرٌ بين خُطَّتين لا ثالثةَ لهما : إمّا أن تَتَقصَّى المكنُونَ الغائبَ من تفاصيلها المشتَّتة فى تاريخك وكُتُبك ، بعقْل وهمَّةٍ وجِدٍّ ويَقَظةٍ وبَصَرٍ وإدراكٍ ، وبأنَفةٍ من قَبُول الذُّلِّ والعار والمَهانةِ = وإمَّا أن تَمَلَّها فتطرحَها عن كاهِلك قابلاً لمَزِيدٍ من الذُّلِّ والعارِ والمهانةِ ، مُستحلياً خِدَاع النفس بأوْهامٍ سوَّلتها لك حياتُنا هذه الأدبيَّةُ الفاسدة ، والَّتى ألقت بكُلّ فسادها فى حياتنا اللُّغوية والثَّقافية والسياسية والاجتماعية والأَخلاقية ، بل فى صميم حياتنا الدينيّة أيضاً ، حتى أوشك أن يضيعَ كُلّ شىءٍ كان غيرَ قابلٍ

للضياع . فٱخترْ لنفسك منهما ما شئتَ . فإن ٱخترت الخُطَّة الأولى ، فاصبر على لَأْوائها ومَشقَّتها ولا تَجْزَعْ ، وكنْ رابطَ الجأشِ لا تستحوذْ عليك المخاوفُ والرَّهبةُ ، ولا تَهُولَنَّك أسماءُ الرجالِ المُحْدَثين الكبارِ ، والتى لها دويٌّ وضَخامةٌ ، فإنَّما هى طَبْلٌ فارغٌ ، وزِقٌّ منفوخٌ مِلْؤُه هَواءٌ . وٱعلم أنْ الأمرَ جِدٌّ كلُّه ، فإنْ داخلَه الهزلُ خرجتَ منه صِفْرَ اليدين . وَلا يَغْرُرْكَ زُخْرفُ الألفاظِ الوَسيمةِ المتلألئةِ ، مثل قولهم : « الجديدُ والقديم » و « الأصالةُ والمعاصرةُ » ، و « التجديد والتقدُّم » ، و « الثقافة العالمية » و « الحضارة العالمية » و « التخلُّف والتحضُّر » ، فإنما هى ألفاظٌ لها رَنينٌ وفِتْنةٌ ، ولكنها مليئةٌ بكُلّ وهْمٍ وإيهامٍ وزَهْوٍ فارغٍ مُميتٍ فاتكٍ ، تُوغِلِ بنا فى طريق المهالك ، وتستزلُّ العَقلَ حتى يرتطم فى رَدْغةِ الخبالِ ، (أى طينته اللَّزِجة) ، فإن استبان لك أوّل الطريق ولكن هِبْتَ وتردّدتَ ، فاستمعْ عندئذٍ لنَصيحةَ الحسن البصريّ رضى الله عنه : « إنَّ مَنْ يُخَوِّفُك حتَّى تَلْقَى الأَمْنَ ، أشفقُ عليك ممَّن يُؤَمِّنك حتى تلقَى الخوفَ » ، كان الله فى عونِى وعَوْنك .

• غَبَر ما غبَر على يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الآخرة ٨٥٧ هـ / ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م بسقوط القسطنطينية حصن المسيحية الشمالية الشامخ المنيع ، وعلى تدفُّق كتائب الإسلام فى قلب أوربة الغارقة فى حَمْأة قرونها الوسطى ... غبَر ما غبرَ على فَرْحةٍ أذْهلت دارَ الإسلام عن فجيعَتها بسقوط الأندلس كلِّه بعد أربعين سنة فى قبضة المسيحية الشمالية يوم سقطت غَرْنَاطَةُ آخرُ حصون الإسلام فى الأندلس ، (٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م) ... وغَبرَ ما غبَر على جَزع المسيحية الشمالية وشعورها بالإخفاق والمذَلَّة والعار ، (اقرأ ما سلف : ٤١ وما بعدها) ، وعلى ما كان من توغُّل محمد الفاتح فى قلب أوربة وتساقُط رعايا الرُّهبان فى الإسلام طواعِيَةً واختياراً ، ودخولهم بحماسة ويقين فى جحافل الإسلام الزاحفة ، (اقرأ ما سلف : ٤٦) ... غَبَر ما غبَر ، ودخلتْ دار الإسلام فى سِنَةٍ

لذيذةٍ أورثتها نشوةُ النَّصْر المؤزَّر ، ودخلت أوربة كُلُّها فى عزيمةٍ حاسمةٍ لتردَّ عن عِرْضِها العارَ ، وبلغَ السَّيْل الزُّبَى ، فكانت يقظَةٌ محسوسةٌ فى جانبٍ ، وغَفوَةٌ لا تُحَسُّ فى جانبٍ ، وشال الميزان ، (اقرأ ما سلف : ٤٤ ، ٥٠) ، وانطلقت الأساطيلُ الأوربية تطوِّقُ دار الإسلام من أطرافها البعيدة ، فإذا دارُ الإسلام محصورةٌ فى الجنوب ، بعد أن كانت حاصرةً للمسيحية فى الشمال ، وشيئاً فشيئاً فقدت دارُ الخِلافة فى القسطنطينية هَيْبَتها وسيطرتَها ، وصارت لأوربّة هَيْبةٌ مرهوبةٌ وسَيْطرةٌ ، (اقرأ ص : ٥٢) .

يومئذٍ كان قد مضى على فتح القسطنطينية قَرْنانِ ، مئتَا عامٍ .... ويومئذٍ آنَس قلبُ دار الإسلام رِكْزًا خفيًّا فأرهفَ لهُ سَمْعه . سَمع نَقِيضَ أركانِ دارِ الخلافة وهى تتقَوَّض ، فتوجَّس توجُّساً غامضًا لشرٍّ مستطير آتٍ لا يدرى من أَيْن ؟ فهبَّ من جوف الغَفْوةِ الغامرة أشتاتٌ من رجالٍ أيقظَتْهم هَدَّةُ هذا التقوُّض ، فانبعثُوا يحاولون إيقاظ الجماهير المستغرقة فى غَفْوتِها . رجالٌ عظامٌ أحسُّوا بالخَطر المُبْهَمِ المُحْدِق بأُمَّتِهم ، فهبُّوا بلا تَواطُؤٍ بينهم . كانوا رجالاً أيقاظاً مُفَرَّقِين فى جَنَبَاتِ أرضٍ متراميةِ الأَطراف ، متباعدةٌ أوطانُهم ، لا يجمعهم إلا هذا الذى توجَّسُوه فى قرارةِ أنفسهم مبهماً من خطرٍ مُحْدِقٍ . أحسُّوا الخطرَ فرامُوا إصلاح الخَلَل الواقع فى حياة دار الإسلام : خَلَلِ « اللُّغةِ » و « خلَلَ العقيدة » و « خَلَل علوم الدين » و « خَلل علوم الحضارة » . وبأَناةٍ وصَبْرٍ عَمِلوا وأَلَّفوا وعَلَّمَوا تلاميذهم ، وبهمةٍ وجدٍّ أرادوا أنْ يُدْخِلُوا الأمّة فى « عصرِ النهضة » ، نهضةِ دار الإسلام من الوَسَنِ والنومِ والجهالةِ والغفلة عن إرث أَسلافهم العِظام . من هؤلاء خمسةٌ من الأعلامِ أذكرهُم لكَ هنا مجرَّد ذِكْرٍ باختصار : [1]

---

(١) كتبت فى مجلة الهلال فى عددى مايو ويونيه سنة ١٩٨٢ ، فصْلاً عنهم ، وقطعتنى الشواغلُ عن إتمام القول فى شأنهم وشأن « النهضة » التى أحدثوها ، وأسأل الله أن يوفقنى لإتمامها بعونه سبحانه .

١ – « البغدادىّ » ، « عبد القادر بن عمر » ، صاحب « خزانة الأدب » (١٠٣٠ – ١٠٩٣ هـ / ١٦٢٠ – ١٦٨٣ م) فى مصر .

٢ – « الجَبَرْتىّ الكبير » ، « حسن بن إبرهيم الجبرتىّ العَقِيلىُّ » ، (١١١٠ – ١١٨٨ هـ / ١٦٩٨ – ١٧٧٤ م) فى مصر ، وسأحدِّثك عنه بعد قليل .

٣ – « ابن عبد الوهاب » ، « محمد بن عبد الوهاب التميمىُّ النجدىُّ » ، (١١١٥ – ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ – ١٧٩٢ م) فى جزيرة العرب .

٤ – « المُرتَضَى الزَّبِيدىُّ » ، « محمد بن عبد الرزاق الحسينىّ » ، صاحب « تاج العروس » (١١٤٥ – ١٢٠٥ هـ / ١٧٣٢ – ١٧٩٠ م) فى الهند وفى مصر .

٥ – « الشَّوْكانىُّ » ، « محمد بن على الخَوْلانىُّ الزَّيدىُّ » ، (١١٧٣ – ١٢٥٠ هـ / ١٧٦٠ – ١٨٣٤ م) فى اليمن .

وإذا أنعمت النظر فى هذه التواريخ ، علمت أنَّ « عصر النهضة » عندنَا واقعٌ بين منتصف القرن الحادى عشر الهجرى إلى منتصف القرن الثانى عشر ، ويقابله منتصف القرن السابع عشر الميلادى إلى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى ، تذكَّرْ هذا ولا تنسَهُ أبداً ، فهو الذى يكشف لك اللِّثامَ عن التغريرِ الفاضح الذى طَفَحتْ به حياتُنا الأدبيةُ الفاسدةُ المهلكةُ .

هبَّ « البغدادىُّ » فى منتصف القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) ، فألَّف ما ألَّف ليردّ على الأمّة قُدْرتها على « التذوُّق » ، تذوّقِ اللُّغة والشِّعر والأدبِ وعلومِ العربية [1] = وهبَّ « ابن عبد الوهّاب » يكافح البِدَع والعقائد التى تخالفُ

---

(١) اقرأ ما كتبته عن « التذوّق » فى كتابى « أباطيل وأسمار » ص : ١٣٤ ، وفى مواضع من هذا الكتاب الذى بين يديك .

ما كان عليه سَلَفُ الأمَّة من صفاءِ عقيدةِ التوحيد ، وهى ركن الإسلام الأكبر ، ولم يقنع بتأليف الكتب ، بل نزل إلى عامَّة الناس فى بلاد جزيرة العرب ، وأحدث رجَّةً هائلة فى قلب دار الإسلام = وهبَّ « المرتَضَى الزَّبيدىُّ » يبعثُ التُّراثَ اللُّغوىّ والدينىّ وعلوم العربيّةِ وعلوم الإسلام ، ويُحْيِى ما كادَ يَخفَى على الناس بمؤلَّفاته ومجالسِه = وهبَّ « الشوكانىُّ الزيدىّ الشيعىُّ » مُحْيِيًا عَقِيدة السلف ، وحَرَّم « التقليد » فى الدينِ ، وحَطَّم الفُرْقَةَ والتنابُذَ الذى أدَّى إليه آختلاف الفِرَق بالعَصَبيّة = أما خامسهُم ، وهو « الجبرتىُّ الكبير » ، فكان فقيهاً حَنفيًّا كبيراً نابهاً ، عالما باللُّغة ، وعلم الكلام ، وتصدَّرَ إماماً مُفْتياً وهو فى الرابعة والثلاثين من عُمْره ، ولكنه فى سنة ١١٤٤ هـ (١٧٣١ م) ، وَلَّى وجْهَهُ شَطْرَ « العلوم » التى كانت تُراثاً مستغلقاً على أهل زمانه ، فجمع كُتبها من كُلِّ مكانٍ ، وحَرَص على لِقاءِ من يعلمُ سِرّ ألفاظها ورُموزها ، وقضى فى ذلك عشر سنواتٍ (١١٤٤ - ١١٥٤ هـ) ، حتى ملك ناصية الرُّموز كُلِّها ، فى الهندسة والكيمياء والفلك والصنائع الحضارية كُلِّها ، حتى النِّجارة والخِراطة والحِدادة والسَّمْكرة والتجليد والنقش والموازين ، وصارَ بيتُه زاخِراً بكُلِّ أداة فى صناعةٍ وكُلِّ آلةٍ ، وصارَ إمَاماً عالماً أيضاً فى أكثر الصناعاتِ ، ولجأ إليه مَهَرة الصُّنَّاع فى كُلِّ صناعة يستفيدون من علمه ، ومارس كُلَّ ذلك بنفسه ، وعلَّم وأفادَ ، حتَّى علَّم خَدَمَهُ فى بيته ، ويقول ابنه عبد الرحمن الجبرتىّ المؤرِّخ ، (تاريخ الجبرتى ١ : ٣٩٧) :

« وحضَرَ إليه طُلاَّبٌ من الإفرنج ، وقرأوا عليه علم الهندسة ، وذلك فى سنة تسع وخمسين (١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م) وأهدوْا إليه من صنائعهم وآلاتهم أشياءَ نفيسةً ، وذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها العلم من ذلك الوقت وأخرجُوه من القُوَّة إلى الفعل ، وآستخرجوا به الصنائع البديعة مثل طواحين الهواءِ ، وجرِّ الأثقال ، واستنباط المياهِ ، وغير ذلك » .

وهؤلاء « الإفرنج » ، هم « المستشرقون » ، كما قصصتُ عليك من أخبارهم ، ومن اتّصالهم بالعلم الحىّ عند علماء دار الإسلام ، لحلّ رُموز الكتب العربيّة ، (اقرأ ما سلف : ٤٧ ، ٥٣ – ٥٥) . و « الجبرتىُّ الكبيرُ » رحمه الله ، كان على خُلُق أهل الإسلام ، فلم يضنَّ على أحدٍ من هؤلاءِ الإفرنج بشيءٍ من علمه ، ولا أساءَ بهم الظنَّ ، (اقرأ ما سلف : ٤٨) ، بل عمل بما أدّبه به نبيُّه ﷺ إذ يقول : « مَنْ سُئِل عَنْ علمٍ فكتمهُ ألجمَهُ اللهُ يوم القِيامة بلجامٍ من نارٍ » ، [1] ولو علم « الجبرتى » بخبيئة أنفسهم وهم يتملّقونه ويتخشَّعُون بين يديه ، فلا أدرى ماذا كان يفعلُ ، وهو الفقيه المُفْتى رحمه الله ؟

هذا طَرَفٌ لا يجزىءُ عن « النهضة » التى كانت فى دار الإسلام فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجرى ، (السابع عشر والثامن عشر الميلادىّ) ، قصصتُه عليك خَطْفاً ، لتعرفَ بعد ذلك ما كان كيفَ كان ؟

• دَوَّت أسماءُ هؤلاء الخمسة فى أرجاء دارِ الإسلام ، وأشتاتٍ غيرهُم ، مُؤْذِنةً بيقظةٍ جديدة ، وإحياءٍ لعلم الأمّة ولُغَتها وثقافتها ، واستعادَةٍ لسيطرةِ الأمّة على أسبابِ حضارتها الزاهرة القديمة ، وإرادةٍ لبعثِها بعثاً جديداً ، دون شعورٍ واضحٍ أوْ علم مستبينٍ ، بالذى كان يجرى فى ديار المسيحيّة الشمالية من يَقَظة ونهضةٍ وبَعْثٍ جديد . ونصيحةٌ وتنبيهٌ : لا تنظُر إلى الفرقِ الهائل الكائن اليومَ بين الشمالِ المسيحى والجنوبِ الإسلامىّ ، فإنَّك إنْ فعلتَ ضَلِلْتَ عن الحقيقة . والحقيقةُ يومئذٍ أنّ الفرقَ بيننا وبينهم كانَ خُطْوةً واحدةً تُستْدركُ بالهمَّة والصَّبر والدَّأبِ والتصميم لا أكثر ، بل أكبر من ذلك ، فإن اليَقَظة الأوربيَّة كانت بعدُ فى أوّل الطريقِ وتتّكىء اتكاءً شديداً على ما كانَ عندنا من

(١) هو حديث أبى هريرة ، رواه أبو داود فى السنن ، « كتاب العلم » والترمذى فى « كتاب العلم » ، ورواه أحمد فى مسنده فى مواضع مختلفة أهمها برقم : ٧٥٦١ (١٤ : ٥ من شرح أخى رحمه الله) ، وكتب أخى فصْلاً مهمًّا جدًّا فى حلّ مشكلة تحيط بهذا الخبر .

العلم المسطُور فى كتبنا برموزه التى تحتاج إلى استبانةٍ وفهمٍ ، وعلى العلم الحىِّ الذى عند أهل دار الإسلام ، كما حدَّثك الجبرتىُّ المؤرِّخ عن أبيه الفقيه الجليل الجبرتىّ الكبير ، (انظر ما سلف قريباً) ، وقراءةِ « المستشرقين » عليهِ ليهتَدوا به اهتداءً مَّا إلى حلِّ هذه الرموز واستبانتها وفهمها . وكُلُّ الفرق بين اليقظتين يومئذٍ هو أن يَقَظتنا كانت هادئةً سليمةَ الطويَّة منبعثةً من داخِلها ، ليس لها هدفٌ إلاّ استعادَة شبابها ونَضْرَتها فى حدود الإسلام ، وإن كانت يومئذ « يقظةً » متباعدة الدِّيار ، غير متماسكة الأوصال ، ولكنها كانت قريبة التواصُل ، وشيكة الالتئام = وأمَّا يَقظتُهم هم ، فكانت متفجِّرةً بحقد قديم مكظومٍ شِيمتُه السَّطوُ الخفىّ ، وشَمْلُها مجتمعٌ بالضغينة المتقادمة ، وهدفُها إعدادُ العُدّة لاختراق دار الإسلام بالدَّهاء والخِداع والمكر ، كما حدثتُك آنفاً فأطلتُ الحديث ... أىْ هُما يقظتنان كانتَا فى زمنٍ واحدٍ ، إحداهما من طبيعتها الرِّفقُ المُهَذَّب ، والأخرى من طبيعتها العدوانُ الفاجر ، فأنظر الآن ماذا كان بعد ذلك ، لأمرٍ أرادَ الله أن يكون . ودَعْ عنك ما تقوله اليوم حياتنا هذه الأدبية الفاسدة .

• كما قلت لك آنفاً ، كان « المستشرقون » منذ نأنأة « الاستشراق » = وإلى هذا اليوم = يَجُوبونُ دارَ الإسلام من أطرافها إلى قلبها ، يُلاقونَ الخاصةَ من العلماء ، ويخالطون عامَّة المثقَّفين والدَّهماء ، (اقرأ ص : ٤٨) ، وفى قلوبهم حَمِيَّة الحقد المكتَّم ، وفى النفوس العزيمةُ المصمِّمة ، وفى العيونِ اليقظةُ ، وفى العقولِ التنبُّه ، وفى الوجوهِ البِشْرُ والبراءةُ ، وفى الألسنة الحلاوةُ والتملُّق ، ولَبِسوا لجمهرة المسلمين كُلَّ زِىٍّ ، وتوغَّلُوا يستخرجون كُلَّ مخبوءٍ ، (اقرأ ص : ٥٣ وما بعدها) = وكانت بلادُهم يومئذٍ قريبة عهدٍ بعصرِ النهضة وعصر اليقظة وعصر الإحياءِ ، فهُم على أتمِّ معرفة بأسرارِ اليقظة كيف تبدأُ وإلى أينَ تنتهى ، فأدركوا إدراكاً واضحاً لا لَجاجةَ فيه أن ما كان يجرى فى دار الإسلام منذ منتصف القرن الحادى عشر الهجرىّ ، (السابع عشر الميلادى) ، إلى منتصف القرن الثانى عشر

الهجرى ، (الثامن عشر الميلادى) ، إنّما هو « يَقظةٌ » حقيقيّةٌ ، و « نهضةٌ » كاملةٌ ، و « إحياءٌ » صحيحٌ ، مُنْبثق كُلُّه من يُنْبُوعٍ صَافٍ عَتِيقٍ ، طَمستْ معالمه كرُّ الدُّهورِ والقرونِ ، هو جميعُه فى حوزةِ دارِ الإسلام ، وهم فى يَقظتهم هذه يومئذ عالةٌ عليه ، ولا يَسْتقون إلاَّ من ثِمادِه بعد جُهْدٍ جهيدٍ ، (« الثِّمادُ » ، حُفَرٌ فيها ماءٌ قليل) ، فوجَفتْ قلوبُهم ورَجَفتْ من هَوْلِ ما هم مقبلون عليه ، إذا تَمَّت لدار الإسلام « اليَقَظةُ » واستوت وبلغتْ أَشُدَّها ، واستقامت خُطُواتها على سَنَنِ الطريق .

• وعلى عادة « المستشرقين » التى حدَّثتُك عنها ، (اقرأ ص : ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٦) ، وهُمْ حَمَلةُ هُموم المسيحية الشمالية ، والذَّادةُ عنها وحُمَاتُها المستبسلون ، هبُّوا هَبَّةَ الفَزَعِ من هذه « اليقظة » ، فتسارعُوا ينقلون كُلَّ صغيرةٍ وكبيرة ممّا هو جارٍ تحت أعيُنهم فى دار الإسلام . ووضعوهُ بيِّناً جليًّا ، مشفوعاً بمخاوفهم ومُلاحظاتهم ونُصْحِهم وإرشادِهم ، تحت أبصار ملوك المسيحية الشمالية وأمَرائها ورؤسائها وقادَتها وسَاسَتها ورُهْبانها ، وبصَّرُوهم بالعواقب الوَخِيمة المَخُوفة من هذه « اليقظة » الوَليدة التى بدأت تَنْسَاحُ فى أرجاء دارِ الإسلام . وتناجَوْا بينهم نَجْوَى طويلةً ، يُقلِّبون النَّظر فى أهدافِهم ووسائلهم ، (اقرأ ما سلف ص : ٤٥ وما بعدها) ، وتبيَّنُوا الخطرَ الداهِمَ الذى جَاءَ يتهدّدهم ، إذا ما تمَّت هذه « اليقظةُ » ، واشتدَّ عُودُها ، واستقامتْ خُطُواتُها على الطريق اللاحب . وببديهة العقلِ ، لم يكن للمسيحية الشمالية يومئذٍ خيارٌ ، طريقٌ واحدٌ لا غيرُ ، هو العملُ السَّريع المحكَمُ ، واهتبالُ الغَفلة المحيطة بهذه « اليقظة » الوليدة ، كما حدثتك آنفاً ، ومعاجَلتُها فى مَهْدها قبل أن يتمَّ تمامُها ويستفحلَ أمرُها ، وتصبحَ قوَّةً قادرةً على الصِّراع والحركة والانتشار ، فإنْ تمَّ ذلك ، فما هو إلاَّ أن تعودَ الحربُ بين الشمالِ والجنوبِ جَذَعةً ، وعندئذٍ لا يضمنُ أحدٌ مغبَّة الصِّراع المشتعِل بين سِلاَحين متكافئين ، وثقافتين مُتَكاملتين . لا يضمنُ أحدٌ لأيِّ الفِئتين تكونُ الدُّولة والغَلَبة والسِّيادة = ومرةً أُخرى أقول

لك : لا تنظُر الآن إلى الفَرْق الهائل الكائن اليوم بين الشمال المسيحىّ والجنوب الإسلامىّ ، فإنَّك إن فعلت ضَلِلتَ عن الحقيقة ، والحقيقةُ يومئذٍ أنّ الفرقَ بيننا وبينهم كان خطوةً واحدةً تُستَدرَك باليقظة وبالهمة والصَّبر والدَّأْبِ والتصميم لا أكثر . ولِعِلْمِ « الاستشراق » يومئذ بهذه الحقيقة ، كان فَزَعُهم الأكبر . لا تنسَ هذا أبداً ، وكُنْ على حَذَرٍ من الضَّلالِ ، ومن التضليل والتغرير الذى تعِجُّ به اليومَ حياتنا هذه الأدبيةُ الفاسدة ، وألسنتُها الثرثارةُ المتشدِّقة بأوهام « الأَصَالة والمعاصرة » و « القديم والجديد » و « الثقافة العالمية » ، وبالقضية الهزليّة : « قضيَّةِ موقفنا من الغرب » ! ياَلَهُ من عارٍ فاضحٍ ، ويالهُ من عَبَثٍ رزينٍ مُتَعاقل ! ما عَلَينا ؟

• .... « الاستشراق » كما رأيت قبلُ هو عينُ « الاستعمار » التى بها يُبْصِرُ ويحدِّقُ ، ويدُه التى بها يُحِسُّ ويبطِش ، ورِجْله التى بها يَمشى ويتوغّل ، وعَقْله الذى به يفكِّر ويستبينُ ، ولولاهُ لظلَّ فى عميائه يتخبَّط . ومَنْ جَهِل هذا فهو ببدائه العقولِ ومُسَلَّمَاتها أجْهل . فلمّا فَزِع « الاستشراق » فزعَتْ معه كُلُّ المسيحية الشمالية ودُوَلُها التى كانت أساطيلُها تطوِّق دار الإسلام من أطرافها البعيدةِ ، وتتوغَّل بسيطرتها على سَوَاحلها ، متحسّسَةً طريقها إلى قلبِ هذه الدَّار المترامية الأطراف ، بالدَّهاءِ وبالمكر وبالخديعة ، وبالتنمُّر أحياناً حين يتطلَّب الأمرُ التنمُّر والتَّرْويع .

كانت دُوَل أوربة كُلُّها فى صِراع مستميتٍ فيما بينها على نَهْشِ أطراف دار الإسلام ، واستنزافِ ثَرْواتها وكنوزها وخيراتها بشراهةٍ لا تشبع . وكان أكبرَ الصّراع المتوحّش على الطَّرَف البعيد فى الهند ، حيث لا تستطيع طليعةُ الإسلام فى دار الخلافة (تركية) أن تصنَعَ لإنقاذها شيئاً ذا بالٍ ، بل هى يومئذ مشغولة أيضاً بالحفاظ على وُجودها وهَيْبتها لا أكثر . كان أكبر دولتين يومئذ : إنجلترا وفرنسا ، وكان السَّبْقُ لإنجلترا ،

فأنشأت ما يسمُّونه « شركة الهند الشرقية البريطانية » ، وهو أوَّل جهازٍ استعماريٍّ قوىّ وذلك فى سنة (١٦٠٠ – ١٨٥٨ م / ١٠٠٩ – ١٢٧٥ هـ) ، وتبعتها فرنسا فأنشأت جهازها الاستعمارى باسم « شركة الهند الشرقية الفرنسية » (١٦٦٤ – ١٧٦٩ م / ١٠٧٥ – ١١٨٣ هـ) ، ولا يغْررك لفظ « شركة » ، فإنه فى الحقيقة جَيْشٌ غازٍ مسلَّحٌ ، مهمته النهبُ والسَّلْب وقَطْعُ الطريقِ ، وتخويفُ الضُّعفَاء الذى لا يملكون عن أنفسهم دَفْعاً . بدأ الصراعُ بين « الشركتين » فى الهند = أى « اللصَّين » = صراعاً مستحرًّا مستميتاً ، وظَلَّ محتدماً حتى قضت « الشركة البريطانية » على « الشركة الفرنسية » قضاءً مبرماً ، على يد القائد البريطانى المحنَّك « روبرت كلايف » (١٧٢٥ – ١٧٧٤ م / ١١٣٨ – ١١٨٨ هـ) فى معركة فاصلة سنة ١٧٥٧ م / ١١٧١ هـ) وطردتها من الهند كلها سنة ١٧٦١ م / ١١٧٥ هـ ، فخرجت هى والأسبان وغيرهم من حَلْبَةِ الصَّراع فى الهند داميةً وجوههم وأكبادُهم ، واستأثرت إنجلترا وحدها بالصَّيدِ الغَزير .

ففى ذلك الوقت جاءَهم النذيرُ ، نذير « الاستشراق » للمسيحية الشمالية بالخطر المُدْلهمّ الذى تهدّدهم به « يَقظة » دار الإسلام بقيام محمد بن عبد الوهاب فى جزيرة العرب (١١١٥ – ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ – ١٧٩٢ م) ، وظهورِ الجبرتىّ الكبير (١١١٠ – ١١٨٨ هـ / ١٦٩٨ – ١٧٧٤ م) فى مصر هو والزَّبيدى ومن قبله البغدادىّ (انظر ص : ٨١ ، ٨٢) . كان نذِير « الاستشراق » مروِّعاً وحاسماً . أمَّا إنجلترا صاحبة « الشركة الهندية الشرقية البريطانية » فأسرعَ مُستْشرقوها إسراعاً حثيثاً إلى سواحل جزيرة العرب الشرقية ، وبالدَّهاء والمكر والدسائس جاءتْ فى زىِّ الناصر والمعين لتتدسَّس إلى يَقظة « ابن عبد الوهاب » = يقظةِ تنقيةِ « الدِّين » مما تراكم عليه من البِدَع المفسدة لعقيدة التوحيد = لتتخَّذ بذلك عندها يدًا ، وبهذه اليد تسيطرُ عليها وتَحتَويها ، وأبعدتْ إنجلترا الرحلة من ناحيةٍ أخرى ، تؤلِّبُ عليها من حولها لتطوِّقها تطويقاً يحول بينها وبين الانتشار . وهذا هو أُسلوب بريطانيا حيثُ حَلَّتْ من الأرضِ .

وأمَّا فرنسا التى عادتْ من الهند تلْعَقُ جراحَ هزائمها ، فكان وَقْعُ النذيرِ مختلفَ الأثَرَ ، مختلف الأسلوب ، فى قصةٍ طويلةٍ من تنبُّه « الاستشراق » لما يجرى فى دار الإسلام . فإذا كانت إنجلترا قد ظفرتْ بنصيب الأَسَد فى الهند ، فإن لفرنسا لَنَصيباً قريباً تُعِدُّ العُدّة للظَّفر به ، لا يفصِلُ بينها وبينه إلَّا بَحْرٌ ضيِّقٌ ، ممكنٌ أن يكونَ لَها عليه السلطانُ الأعظم . ومن قبلُ ظلّت تدبِّر الأمر زمناً طويلاً لتظفر بهذا النصيبِ فى مصر وفى الجَزائر ، ومعنى ذلك أنها عادتْ مرةً أخرى تفكِّر فى اختراق دار الإسلام ، الأمْرُ الذى كان مستعصياً نحو عشرة قرون أو أكثر . وكانَ نذيرُ « الاستشراق » يومئذٍ يحَذِّر المسيحية الشمالية من هذه « اليقظة » المَخُوفَة العواقب ، يقظةِ « اللُّغة » على يد الشيخين الكبيرين البغدادىّ والزبيدىّ وتلاميذهما ، ويقظة « علوم الحضارة » على يد الشيخ الجبرتىّ الكبير وتلاميذه . « يقظةٌ » فى ديارٍ تضمُّ أقدَم بيتين من بُيُوت العلم على ظهر الأرض ، عاشا جميعاً متواصِلَيْنِ اثنى عشر قرناً مَوْئلاً للعلم والعلماء ، هما « الجامع العتيق » بالفسطاط (جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه) و « الجامع الأزهر » بالقاهرة ، وهما اسمان يتردّدان فى أرجاءِ دار الإسلام من المشرق إلى المغرب ، ومن الشمالِ إلى الجنوب . فاليقظة التى تأتِى من قِبَلهما سوفَ تُؤدِّى إلى يقظة دارِ الإسلام كُلِّها ، بما فيها اليَقَظة المتفجِّرة المتحركة الجديدة فى جزيرة العرب . فإذا تم اندماجُ اليقظتينِ فلا يعلم إلاّ الله كيف يكونُ المصير ؟

وقيّض الله لفرنسا قائداً أوربيًّا محنّكاً مظفَّراً شديد البأس ، خوَّاضًا لغمراتِ الموتِ ، ضَرّسته الحروبُ فى أوربة حتى صار اسمُه مثيراً للرُّعب فى القلوبِ بأنه قائدٌ لا يُقْهر ، هو الصليبيُّ المكيافِلّيُّ المغامر المفتون الفاجر : « نابليون » ، (١٧٦٩ - ١٨٢١ م / ١١٨٣ - ١٢٣٧ هـ) ، فلمَّا فرغ من حروبه فى أوربَّة منصوراً نصراً مؤزّراً ، أصاخَ سمعَهُ لنذير « الاستشراق » ، ولنُصْحه وإرشاده ، فقدَّرَ أنّ الحِين قدحانَ

ليكونَ أوّلَ قائدٍ أوربيّ استطاعَ بقوّته التى لا تُقْهر ، أن يَخْترق قلبَ دار الإسلامِ من الشمال ، وأنْ يُدَاهم « اليَقَظَة » التى أَرَّقَت مَنَام « الاستشراق » ، وأن يبطشَ بها فى عُقْر دارها بَطْشة جبَّارٍ عاتٍ لا يُبْقى على شيءٍ ، وفوق ذلك كُلِّه : أن يرُدّ لفرنسَا هيبتَها التى ضاعت يوم طردتها بريطانيَا طرداً مخزياً من دار الإسلام فى الهند القصيَّة البعيدة ، وبذلك تتفردُ فرنسا وحدَها بالمجدِ السنيِّ كُلِّه ، وتكلِّلها المسيحية الشمالية عندَئذ بأكاليل الغار .

وفى أول يوليه سنة ١٧٩٨ م / ١٧ من المحرم سنة ١٢١٣ هـ هَوَى نابليون هُوِيَّ العُقَاب على مَهْد « اليقظة » فى الديار المصرية ، هَوَى على الإسكندرية فجأةً بجحافله وأساطيله مزوَّدةً بكُلِّ أداةٍ للحرب جديدةٍ مما تمخَّض عنه علم أوربة يومئذٍ ، مصطحباً معه عشرات من صغارِ « المستشرقين » وكبارهم ، وطائفةً من العلماء فى كُلِّ علمٍ وفنّ ، معهم كُلُّ غريبةٍ مما كشف عنه العلم المُسْتَحدث . فاستباح الإسكندرية ودمّر ما دمَّر ، ثم طوَى الأرض طيًّا مكتسحاً فى طريقه شمالَ مصر ، حتى دخل القاهرة فى العاشر من صفر سنة ١٢١٣ هـ (٢٤ يوليه ١٧٩٨ م) . وذُعِر الخَلْقُ ، فبدأ يُدَاهِنُ الناس ، وحاول أن يستميل « المشايخَ » فى رجال الأزهر ، كى يستجيبوا لِمحَالِه ومخاتلته ، فلمّا رأى امتناعَهُم على تطاوُل الأيام ، عَجل فأطلق جنوده الغُزَاةَ ، ليطفئوا ما استقرَّ فى قلوبهم من نار الأحقاد المتوارثة على دار الإسلام ، وأتركُ الجبرتى المؤرخ يصف لك ما حدثَ فى يوم السبتِ ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ هـ ، (٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨) ، قال الجبرتيّ ، (تاريخ الجبرتى ٣ : ٢٦) بلفظه :

« بعد هَجْعة من الليل ، دخل الإفرنجُ المدينة كالسَّيْل ، ومرُّوا فى الأزقَّة والشوارع ، لا يجدون لهم ممانع ، كأنهم الشياطين أو جُنْد إبليس ، وهدَّموا ما وجدُوه من المتاريس ... ثم دخلوا إلى « الجامع الأزهر » وهم راكبون الخُيول ، وبينهُم المُشَاة

كالوعول ، وتفوَّقوا (أى : قَاءُوا) بصَحْنه ومقصورته ، وربطوا خُيُولهم بقبلته ، وعاثُوا بالأَرْوِقة والحارات ، وكسرُوا القناديل والسهَّارات ، وهشَّموا خزائن الطَلَبة ، والمجاورين والكتَبَة ، ونهبوا ما وجدوهُ من المتاع ، والأوانى والقِصَاع ، والودائع والمخبَّآت ، بالدواليب والخزانات ، ودَشتُوا الكُتُب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها ، وأحدثُوا فيه وتغوَّطوا ، وبالُوا وتمخَّطُوا ، وشربُوا الشرابَ وكسروا أوانيهَ ، وألقوها بصَحْنه ونواحيه ، وكُلُّ مَنْ صادفوه به عرُّوهُ ، ومن ثيابه أخرجوهُ » . (١)

وكانَ ما كان بعد ذلك وقبل ذلك ، من تهديم القصور والمساجد وتخريب الديار وسرقتها ونهبها ، بحقدٍ وشراسة . وبالطبع ، وظاهرٌ جدًّا ، أن « الحملة الفرنسية » بقيادة نابليون ، ومعها مستشرقوها وعلماؤها ، لم يتكبّدوا المشقَّة فما فوقها بقطع البحار ، والبرارى والقِفار ، إلاّ ليخرجوا هذه الأمة من الظُّلمات إلى النور ، أى من عَصر الجهالة المظلمةِ إلى عصر العلم المضىء ، أى لنبدأ « عصر النَّهضة الحديثة » فى بلادنَا نحنُ ، أو كما يقالُ !! هكذا ينبغى أن نقول لأبنائنا فى المدارس والجامعات !! ألم أقلْ لك آنفاً إنها قصةٌ مليئة بالمضحكات والمبكيات ، والحَسرات والآهات ؟

* * *

• « قِصَّةٌ مقحمة » ، وأنا أصحِّح تجارب هذه الرسالة لطبعها ، وقفتُ على فَصل مهم جدًّا ، كتبه الدكتور زكى نجيب محمود فى الأهرام ، (الاثنين ٢٥ فبراير سنة ١٩٨٥) ، فرأيتُ أن أُقْحمها بين الكلامين ، لكى تصحّح بها الأخطاء التى وقعت أنا فيها فى سياق الحديث عن « الحملة الفرنسية » بتسرُّعى وَحِدّتى يقول الدكتور زكى :

---

(١) للأستاذ محمد جلال كشك كتاب سماه : « ودخلت الخيل الأزهر » ، فاقرأهُ لأنه مفيدٌ .

« جاءت الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون ، ووصلت إلى شواطىء الإسكندرية سنة ١٧٩٨ ، أى قُبَيْل فاتحة القرن التاسع عشر بسنتين ، وكان مع الحملة جماعةٌ من العلماء الفرنسيين فى تخصصاتٍ علمية مختلفة ، فكان ممّا صنعه أولئك العلماء ، أن استدعَوْا كبار علماء الأزهر الشريف ، جماعةً بعد جماعةٍ ، ليطلعوهم على عجائب العلوم الجديدة . من ذلك ، مثلاً ، أن يوقفوهم صَفًّا ، مشبّكى الأيدى جاراً مع جاره ، ثم يمسُّون الواقف بسلكٍ مكهربٍ ، فتسرى رعدة الكهرباءِ فى جميعهم ، وأما هُمْ فيأخذهم العجب ، وأما العلماء الفرنسيون فيأخذهم الضّحك . ولقد حدث يوماً أن اغتاظ من تلك الألاعيب الصبيانية أحد الشيوخ ، فقال لهم ما معناه : هل فى علمكم الجديد ، ما يجعلُ إنساناً موجوداً هنا موجوداً فى بلاد الغرب فى وقتٍ واحد ؟ فأجابوا بقولهم : إنه ليس فى علومهم ذلك، لأنه محالٌ ، فردّ هو قائلاً : لكن ذلك ممكنٌ فى علومنا الروحانية .

« وإنى لأنظرُ إلى تلك اللحظة التى قال فيها الشيخ ذلك الذى قالهُ للعلماء الفرنسيين على سبيل التحدِّى ، أنظر إليها على أنها لحظةُ البدءِ فى أحد طريقين اتخذناهما من ذلك الحين وإلى هذه الساعة التى أكتب فيها هذه الكلمات . فطريقٌ منها اختاره الرافضون للغرب ، أى الرّافضون للعصر وما أنتجه من علوم ترتَّب عليها ما تَرَتَّبَ من حضارة جديدة = وطريق آخر اختاره من أراد منّا ألاّ تُقْفل أمامَ العصر الجديد أبوابُنا ونوافذُنا ، وكانت نقطة البدء فى الطريق الثانى هى رفاعة رافع الطهطاوى » .

انتهى ما كتبه الدكتور زكى ، وأنا لا أستطيع أن أعلّق عليه إلاّ بالتسليم الخاشع لبراعته فى تأريخ الحملة الفرنسية والمشايخ المصرية وعلماء الأزهر الشريف ، وإنما أقحمتُه لك هنا متبرِّعاً ، لتستفيد عقلاً جديداً لا يَمْلك مِثْلى أن يُفيدَكَ إيَّاه . ونعودُ إلى ما كنَّا فيه

(ثم اقرأ ما سيأتى فى الفقرة رقم : ٢٢) .

° ° °

• فاقرأ الآن معى تاريخك بعين عربيَّة بَصيرةٍ لا تغفُل ، لا بعينٍ أوربية تخالطُها نَخْوةٌ وطنيةٌ ، كما فعل أستاذنا عبد الرحمن الرافعى ، غفر الله له ذنوبه ، فى كتابه « تاريخ الحركة القوميّة ، وتطوُّر نظام الحكم فى مصر » .

قضَى نابليون بحملته الصليبية التى غزت مصر ، على أكبر قوةٍ مقاتلةٍ فى دار الإسلام بعد قوّة دار الخلافة . قضى على بأس المماليك المصرية وشتَّتهم ومزّقهم كُلَّ ممزَّقٍ ، وتتبَّعهم ينْهبُ القُرى فى الأقاليم ويُبِيدُ من أهلها ما يُبيد . وبقى جمهورُ الأمّة فى القاهرة أعزلَ بلا سلاح يدفعُ به عن نفسه ، وبلا حكومةٍ تديرُ شؤونه . واضطرب أمر الناسِ ومَاجَ ، فأنشأ نابليون حكومةً جديدة سماها « الديوان » ، وهو مهزلةٌ من المهازل السخيفة ، ولكنّ حياتنا الأدبية الفاسدة تعدُّ « الديوان » نظاماً جديداً جاءَ يصلحُ فساد نظام المماليك المصرية !! تعدُّه كذلك ، لأنها تنظرُ بعينٍ أوربية تخالطها وطنيّةٌ غافلة . وكُلُّ ما فى الأمر أن نابليون وضع هذا النّظامَ الهازلَ الماكر ، لأنه كان قد قرّر فى نفسه أنّ فرنْسا ينبغى أن تبقى فى مصر إلى الأبد . ومعنَى هذا : أن يكون مَصِيرُ مِصر ، هو مصيرُ « الجزائر » التى اقتحمها الفرنسيون بعد ذلك سنة ١٨٣٠ م (١٢٤٦) ، وفعلوا بأهلها ما فعلوا ، ولا أظنُّك تجهل ما فعلوا بدار الإسلام فى الجزائر .

بقى هذا القائد المفتون نحو سبعة أشهرٍ فى القاهرة يخرِّبُ ويفعل الأفاعيل ، وفى فبراير سنة ١٧٩٩ م (رمضان ١٢١٣ هـ) خرج منها ليدوِّخ سورية بقوَّته التى لا تُقْهر ، وظلَّ يقاتل بها نحو ثلاثة أشهرٍ ، وحاصرَ « عَكّا » ، ولكنّ المقاومة التى لقيها هناك ، اضطرته إلى رفع الحصار عنها فى ٣٠ مايو سنة ١٧٩٩ م (ذى الحجة ١٢١٣ هـ) بعد أن فقد آلافاً من جيشهِ وعشراتٍ من قُوَّاده وعلمائه ومستشرقيه ، وعلى رأسهم المستشرق الداهية « فانتور » خليلُه ومستشارهُ فى شؤون دار الإسلام . كانت

هزيمتُه فى « عكّا » هزيمةً منكرةً ، فآبَ إلى القاهرة وفى قلبه الخوفُ من العواقب التى تَفْجَؤه بها دار الإسلام ، واستشفّ ببصيرته وذكائه أنّ أمر الحملةِ قد انتهى إلى غير رجعةٍ ، وأحسَّ بما تغلى به القاهرة غلياناً سوف يُفضِى إلى الانفجار ، فانتهز فرصةَ اضطراب الأمور فى بلاده فرنسا ، واتَّخذ الليل جَمَلاً ، وكَرَّ راجعاً إلى فرنسا فى ١٨ أغسطس ١٧٩٩ ، (١٨ ربيع الأول ١٢١٤ هـ) ، وتَرَكَ الأمر كُلَّه لخليفته « كليبر » ليعانى منه ما يُعَانِى ، وقد كَتَم عنه عزيمَتَهُ على السَّفر ، ثم راوغَه حتّى رحل قبل أن يلقاهُ .

• وما كاد « كليبر » يستقرُّ على عرش خلافة نابليون أشهراً قلائل ، حتى أفاقت القاهرة من ذُهولها واستعدَّت لمقاومة الغزاةِ ، وانفجرت الثورةُ فيها شهراً كاملاً ، (٢٠ مارس – ٢١ إبريل ١٨٠٠ م / ٢٣ شوال – ٢٤ ذى القعدة ١٢١٤ هـ) وارتكب « كليبر » فى سبيل إخمادها أفظع ما يرتكبه قاطع طريقٍ مجنونٌ من الفظائع والجرائم ، وضرب القاهرة بمدافعه فخرَّب الدُّور والقصورَ والمساجدَ والحمامات والزوايا والقباب والأسوار ، « حتى بقى ذلك كُلّه خراباً متصلاً » ، كما يقول الجبرتى ، مما لاَ تزالُ آثاره شاهدةً باقيةً إلى يوم الناس هذا ، لمن ينظر بعين عربية ، لا بعين أوربية تخالطها وطنيّةٌ ! وأُخْمدت الثورة ، وظنّ « كليبر » أن مصر كُلَّها قد دانت له بالطاعة ، ولكنه لم يهنأ بظنّه هذا شهرين حتى انقضَّ عليه عُقابٌ كاسِرٌ ، هو المجاهدُ « سليمان الحلبىّ » ، فعاجله بطعنة خِنْجرٍ فى قلبه فخرَّ وهو يصيحُ : « إلىَّ أيُّها الحراس » ، « وخَرَّ صريعاً لليَدَيْنِ وللفَمِ » ، وذلك فى يوم السبت (٢١ من المحرم ١٢١٥ هـ / ١٤ يونيه ١٨٠٠ م) . ما كان أذكى نابليون ! لقد توقَّع هذا المصيرَ ، فَنَجَا بجلده هارباً ، وهو يُنْشد ما قاله بشّار بن بُرْدٍ :

إذَا أَنْكَرَتْنى بَلْدَةٌ أو نَكِرْتُها خَرَجْتُ مَعَ البَازِى عَلَىَّ سَوَادُ [1]

---

(١) « أنكرته ، ونَكِرْتُه » ، كرهته وأوجست منه خيفة ، و « البازى » ، ضربٌ من الصقور الجارحة ، وهو يخرجُ من وكره بغَلَس قبيل الفجر . و « علىَّ سواد » يعنى خرج فجراً يلفُّه سواد الليل . وكذلك فعل نابليون .

• ثم خلف « كليبر » على عرش نابليون فى مصر ، « مينُو » القائد المكيافِلّى الشقىُّ الكذّابُ المنافقُ الأرعن فى يونيه ١٨٠٠ م (المحرم ١٢١٥ هـ) . كان حاكِماً لرشيد من قِبَلِ نابليون ، فأصاخ سمعَهُ لسخفاءِ « الاستشراق » ومخادعيهم الكبار ، فقرَّر ، أو قرَّروا له ، أن يتقرَّب إلى شعوب دار الإسلام ، بإعلان إسلامِه بشهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمّداً رسولُ الله ، وأنّه « أحبَّ الإسلامَ وأهلَهُ ورغب فيهما ، تاركاً لدين النصرانيَّة والأديان الرديئة » ، [١] ثم ظنّ أكذبَ الظنّ أنه من أسرة فرنسية عريقة ، فهو خليق بأن يصاهر أسرةً من أهل رشيد ، شريفَة النسب ، من بيتِ النبوَّة ، فأجمعَ أمره على محاولة التقدُّم إلى الشيخ الجارمِ العريقِ النَّسب ، أن يزوّجه إحدى ابنَتَيه ، فلم يكد الخبر يَنْمِى إلى الشيخ حتّى أسرعَ مُبادِراً فزوّجهما رَجُلين من المسلمين قبل أن يتقدَّم إليه هذا الخبيث العريقُ الخَباثةِ ، ولكن وقع فى حبائل « مينو » السيدُ محمد البوَّاب أحد أعيان رشيد ، ولا ندرى كيف كان ذلك ، [٢] فزوّجه ابنتَه المطلَّقة « زُبَيْدة » فى الخامس والعشرين من شهر رمضان ١٢١٣ هـ ، (٢ مارس ١٧٩٩ م) . وطيَّر « مينو » الخبر يومئذ إلى نابليون بعد رحيله إلى فرنسا ، فما أنكر ذلك عليه . ولكن انظر يا سيدى إلى رجل عربىّ مسلم ، فى حياتنا هذه الأدبية الفاسدة ، يكون كُلُّ تعليقه ، بعد أن روى خبر زواج هذا الخبيث بهدوءٍ وأناةٍ فقال : « وكانت حادثَة زواج مِينُو ، فريدةً فى بابها ، لم يسبقْهُ إليها أحدٌ من قوّاد الجيشِ الفرنسىّ ، فلا غَرْوَ أَنْ كان موضعَ تهكُّم زملائه » . يا سبحان الله ! بكل هذه البساطة والسَّماحة فى التعبير ، يعبِّر العربى المسلم ! ويقول : « تهكّمَ زملائه » ؟ . [٣] ألم أقل لك إنها قصةٌ مليئةٌ بالمضحكات والمبكيات ، والآهات والحسرات ؟

(١) ما بين القوسين هو نصُّ ما جاء فى وثيقة زواجه .

(٢) ولكن من الممكن أن ندرى ، بل نستيقن ، إذا نحن أحسنا معرفة ما فعله جهاز الاستشراق فيما قبل مجىء الحملة ، كما سأشير إليه فى قضية المشايخ والديوان فى الفقرة الآتية رقم : (٢٢) .

(٣) هو نص كلام الرافعى فى « تاريخ الحركة القومية » ٢ : ٢١٤ .

وبقى « مينو » فى إمارته ، يلاقى الأمَرَّين ، وينزل بالناسِ المصائبَ والبلايا ، ويعيثُ هو وبقايا الحملة الفرنسية فى الأرض فسادًا وتخريباً ، حتّى انتهى جلاءُ هذه الحملة الجاهلة التى جاء بها الفَتَى الصليبىّ المُحْترق « نابليون » ليخترق دار الإسلام فى أعظم معقل من معاقلها ، حيث « الجامعُ العتيق » بالفسطاط و « الأزهر الشريف » بالقاهرة ، وليدمّر « اليقظة » التى كانت فيها تدميراً لا يُبْقى ولا يذرُ ، ثُمَّ كان الجلاءُ الأخير من الإسكندرية ، يوم الاثنين ٢١ ربيع الآخر ١٢١٦ هـ / ٣١ أغسطس ١٨٠١ م ، وخرجت فرنسا من مصر على عَجَلٍ ، ولكن ...

* * *

٢١ - ولكن ، هل يليقُ بى أن أكُفَّ ، وأدعَكَ مُصْغِياً إلَىَّ تترقَّبُ بقيَّةَ الحكاية ؟

... رَحلت فلولُ جيش الفتَى السفَّاح المغرور « نابليون » ، وجَلَتْ عن بلادٍ واسعةٍ عريضةٍ تركتها بَلْقَعاً تَصْفِر فيه الرِّيح ، وآنكشَحَتْ عن عاصمةٍ عتيقةٍ تركتها خراباً .[1] كان خراباً شاملاً ، وتدميراً لمدينة زاهرةٍ من أجمل مُدُن العالم يومئذٍ ، بعمارتها وفنونها ، وبركها ومتنزَّهاتها ، أقدمَ على تدميرها تدميراً كاملاً بَرْبَرِىٌّ جاهلٌ مُسْتَخِفٍ فى زِىٍّ متحضرٍ ! ولكنْ صار هذا التدميرُ ، فى عَيْنِ حياتنا الأدبية الفاسدة ، هو رسولَ الحَضَارة الذى جاء ليخرجنا من ظُلُمات الجهل إلى عصر النُّور والتَّنوير !! لا تضحكْ ولا تَبْكِ ، ولكن أطْرِقْ إطْراقةَ الخِزْىِ والمهانَةِ والعار . وكيف لا تطرقُ إطراقة الخِزْى إذا انكشف لك الحجابُ عن نيَّة هذا المكيافلِّى الخبيث . كان

---

(١) لا تحسب أن « انكشح » عاميّة ، بل هى عربية صحيحة . « آنكشح القوم » ، ذهبوا وتفرقوا .

هدفُ هذا البربريّ المتحضِّر (!!) أن يخرِّب عاصمةً من أكبر عواصم دار الإسلام وأجملها ، ويتركَها تاريخاً يُرْوَى فى وثائق « علماء الحملة الفرنسية » ، [1] أى يتركها أثراً بعد عينٍ ، حتّى إذا تمكَّن فى الأرض هو وجِنْسُه ، أنشأ على أنقاضِها البائدة مدينة فرنسيَّةً جديدة ، تعبِّر تعبيراً فصيحاً عن العبقريّة الفرنسية ، والفنّ الفرنسى ، والجمال الفرنسىّ ، والرقّة الفرنسية !! يعمُرها يومئذٍ شعبٌ فرنسىٌّ أصيلٌ كريم المحتِد ، يخدُمُه شَعْبٌ عربىٌّ مستأنسٌ مروَّضٌ ترويضاً حسناً على إلْف العادات الفرنسية الشريفة ، والتقاليد الفرنسية النبيلة ، والفجور الفرنسىّ الخالد .... كما سأحدثك عنه فيما بعد ، وليس الذى حدث فى دار الإسلام فى « الجزائر » عنك ببعيد .

ولكنهم لم يرحلوا عن القاهرة المخرّبة ، وعن الشعب الذى استنزفوا ثروتَه بالضرائب والإتاوات مدة ثلاث سنوات ، حتى سرق « المستشرقون » المصاحبون للحملة الفرنسية ، و « مستشرقون » آخرون من كل جنسٍ ، سَرَقُوا كُلَّ نَفيسٍ من الكُتُب ، وكانت القاهرة يومئذٍ من أغنى بلاد العالم بالكتب . ودليل السرقة قائمٌ بين أعيُننا إلى هذا اليوم ، يصيحُ شاهداً على نفسه بالسَّطوِ على ذخائرنا التى يمنُّون علينا بعد ذلك ، فى حياتنا هذه الأدبية الفاسدة : أنهم حفظوها لنا ، ونشروا لنا نفائسها ، (اقرأ ما ذكرته عن هذا النشر فيما سلف ص : ٥٤ ، ٥٥ ، والتعليق عليه) . دليل السرقة قائم فى جميع مكتبات أوربة ، صغيرها وكبيرها ، فى فرنسا وإنجلترا وهولندة وروسية وغيرها من البلدان ، وفى الأديرة والكنائس ، وفى جميع أرجاء العالم المتحضِّر !! وكان همُّهم الأكبرُ يومئذٍ هو السطوَ على كتب « علوم الحضارة » أوّلاً ، ثم على كتب « التاريخ » ، ثم على كتب « الآداب » كُلِّها بلا تمييز . ورحم الله

---

(١) هو كتابُ « علماء الحملة الفرنسية » المعروف باسم « وصف مصر » وقد سجّلوا فيه كلّ صغيرة وكبيرة فى مصر ، لكى يصبح وثيقة تاريخيّة ، يتلذذون بها حين يقرأونها .

الشيخ الجبرتيّ المؤرخ ، فإنّه أرّخ لدمار القاهرة ، ولكنّه بغفلته لم يؤرخ لنا تاريخ هذا السطو على كُتُب المساجد والمدارس وبيوت العلماء والأمراء والمماليك المصرية إلاّ فى مواضع متفرِّقة قليلةٍ بلا بيانٍ واضح ، وإنّما هى الحسرةُ لا غيرُ . من ذلك أنه ذكر فى مقدمة كتابه (تاريخ الجبرتى ١ : ٦) بعد أنّ عدّد أسماء كتب التاريخ التى كانت فى القاهرة ، ثُمّ قال :

« قلتُ : وهذه أسماء من غير مسمَّيَات ، فإنا لم نَرَ من ذلك كُلِّه إلا بعضَ أجزاء مدشّتة بقيت فى بعض خزائن الأوقاف بالمدارس ، مما تداولته أيدى الصحَّافين ، وباعها القَوَمةُ والمباشرون ، ونقلت إلى بلاد المغرب والسودان ، ثم ذهبت بقايا البقايَا فى الفتن والحروب ، وأخذ الفرنسيس ما وجدُوه إلى بلادهم » ، انتبه لهذا النص فهو مهمٌّ .

ثم قال أيضاً (تاريخ الجبرتى ٣ : ١٨٣) ، وهو يذكر قصة شروط الصلح للجلاء عن القاهرة ، ومن الشروط : أن الفرنسيين : « يستصحبون معهم ما يحتاجونه من أوراقهم وكتبِهم ، ولو التى شَرَوْها من مصر » ، هكذا فى الشرط ، والصحيح : « ولو التى سَرَقوها من مصر » . ورحم الله الشيخ الجبرتى ما كان أشدّ غفلته عن أمورٍ كثيرة لم يذكرها واضحةً ، بما فيها مكتبة أبيه « الجبرتيِّ الكبير » ، ماذا فعلوا بها ؟ وذلك لأنه كان مشغولاً عنها بتدبير أمرِ نفسه فى مَعْمَعة هذا التدمير الشامل للقاهرة وبيوتها وقصورها ومساجدها وعمائرها . و « لعل له عُذْراً وأنت تلومُ » .

• لم يكن هذا السَّطوُ الجائحُ على كُتُب دار الإسلام فى القاهرة ، والذى تولَّى كِبْرَهُ « مستشرقو » الحملة الفرنسية وأعوانهم من اليهود ومستشرقى سائر بلاد المسيحية الشمالية = لم يكن هذا سطواً لمجرّد رغبة « الاستشراق » فى أداءِ عمله ، من استمدادٍ لثقافة أُمَمِه من علم دار الإسلام المسطور فى الكتب ، (اقرأ ما سلف : ٤٧ - ٤٩ ، ٥٤ -

٥٦) ، ولشدة حاجة يقظتهم ونهضتهم يومئذ إلى هذا العلم ، لا ، بل كانت الغايةُ الأُولى المقدَّمةُ على كُلّ غايةٍ ، هى تجريدَ دار الإسلام فى القاهرة من أسباب « اليقظة » التى جاءت الحملة الفرنسية لوَأْدِها فى مَهْدها ، وللقضاء عليها قبل أن تتفاقَم . ووَفْرةُ هذه الكتب النفيسة فى القاهرة يومئذ ، هى التى يَسَّرتْ الطريقَ إلى هذه « اليقظة » التى حمل عِبْءَ البَدْءِ بها « الجبرتىُّ الكبير » وتلامذته ، و « البغدادىُّ » و « الزَّبيدىُّ » وتلامذتُهما ، فكان لابُدَّ للاستشراق وفلولِ الحملة الفرنسية من إتمام ما جاءت الحملةُ من أجله ، فهو الهدفُ الأكبر : وَأْدُ « اليَقَظَة » فى عُقْر دارها . وبلا شكٍّ كانت سنوات الحملة الثلاث ، وما أصاب القاهرةَ فيها من التدمير الشنيع وسفح الدماءِ ، وما عمَّ أحيَاءَها من الثَّوْرات والفِتَن الكبارِ والصِّغار ، ثم قَمْعِها بفجورٍ وشراسةٍ ، وتحضُّرٍ أيضاً ، = كان ذلك كُلّه حَدَثاً متمادياً كافياً أدّى إلى تشتيت شَمْلِ تلامذة « الجبرتىّ » و « البغدادىّ » و « الزبيدىّ » وتفرُّقهم فى الأرضِ ، وضَياعِهم فى الهَرْج والمَرْج . بل أنا لا أستبعد عن هؤلاء السفّاحين العُتاة ، أن يكون دُهاةُ « الاستشراق » على علمٍ بأعيانهم وأسمائهم ، منذ كان « المستشرقون » يتردَّدون على البيت العامِر بالصَّنادقية ، (حارة قرب الجامع الأزهر) ليقرأوا على صاحبه « الجبرتىّ الكبير » ، كما حدثتُك آنفاً ، (اقرأ ص : ٨٣) = لا أستبعد أن يكون وَكْرُ « الاستشراق » قد أغرى سُفَهاء السفّاحين بتعمُّدِ قَتْلِ بعضهم غِيلةً أو جَهْرةً ، لا أستبعد ، والله أعلمُ أىُّ ذلك كانَ . فكانَ السببُ الأكبر الدافِع إلى هذا السطو الجائح ، هو أن يحولوا بين « بقايا البقايَا » من تلامذة أئمة « اليقظة » الثلاثة الكبار ، وبين أسباب « اليقظة » ، وهى الكُتُب النفيسة ، وأن يتركُوهم فى خَرِبة القاهرة حَسْرَى حيارَى حيرةَ « الجبرتىّ » الصغير المؤرخ ، حين شرع فى تأليف تاريخه ، فافتقد كتب « التاريخ » التى « ذهبت بقايا بقاياها فى الفتن والحروب ، وأخذ الفرنسيس ما وجدوه إلى بلادهم » ، أو كما قال . حسرةٌ قاتلةٌ ، ولكنّ حياتنا

الأدبية ، أو نهضتَنا الحديثة ، كما يسمُّونها ، لا تلقى بالاً إلى حسرةِ مسكين بائسٍ حائر كالجبرتيّ الصغير !

• وُئِدت « اليقظةُ » أو كادتْ ، وخُرِّبت ديارُها أو كادتْ ، واستُؤصِلت شأْفَةُ أبْنائها أو كادت ، واقتُلِعت أسبابُها بالسَّطو أو كادت ، والحمدُ لله على نَعْماءِ « الحملة الفرنسية » التى كان سفَّاحُها المُبيرُ « المتحضِّر ! » ينوى أن ينشىء لبقايا السَّيف والتدمير من أبناء القاهرة العتيقة المهدَّمة « قاهرةً جديدةً » ، يستمتعون فيها بجمالها وفنونها ، ومسارحها وملاهيها ، وقُصورِها ومتنزَّهاتها ، ويتبخترونَ فى شوارعها خَدَماً فارِهين للسَّادة الأَحرارِ أبناءِ « الحريَّة والإِخاءِ والمساواة » !

لقد شغلتنى قصَّة وَأْد « اليقظة » وقصّة الخرابِ والتدمير ، وقصة السَّطوِ الدنىء = شغلتنى عن نذالة هذا السفّاح الصليبيّ المُبير ، وما كانَ من بشاعة سفحه الدّماءَ فى القاهرة ، وأوامِره إلى قُوَّاده فى الأقاليم أن يُوغلوا فى سَفْك دماءِ « التُّرك » ، أى المُسلمين المصريين ، وأن يتشبَّهوا به ، إذ يقتل فى القاهرة وحدها كُلَّ يومٍ خمسة أو ستةً ، ويأمُر أن يُطَاف برؤوسهم فى شوارع القاهرة ، ويقول : « هذه هى الطريقة الوحيدةُ لإخضاع هؤلاء الناس ، وعليكم أن توجِّهُوا عنايتكم لتجريد البلاد قاطبةً من السلاح » ، [1] فى قصة طويلة فظيعةٍ ليس لها شبيهٌ ، هى أفظَعُ من بلايا « جنكيزخان » .

... وشغلتنى أيضاً عن « جهاز الاستشراق » ، وهو الجهازُ المستكنُّ فى أحشاء « جهاز الاستعمار » و « جهاز التبشير » ، يَرْبَأُ لهما ويهديهما الطريق ، (« يربأ » ، يَرْقُب من

---

(١) اقرأ أخبار ذلك كله فى كتاب الرافعى : « تاريخ الحركة القومية » ١ : ٢٨٣ وما بعدها . والذى قرأت هنا من نص بعض رسائل نابليون إلى قوّاده فى يوليه سنة ١٧٩٨ .

مكان عال ويتطَلّع) ، ولولاه لاستبهمت عليهما المسالك وهامَا فى أودية الضلالِ . كان هذا الجهازُ الخبيث المتخفّى فى عباءَةِ العلم والبحث ، قد اكتسب خبرةً واسعةً جدًّا بدار الإسلام وأهلِها وسكانها ، منذُ انساحَ فى قلب دار الإسلام فى تركية وهو يدبُّ مستخفياً فى أرجائها ، ثم فى الشام ومصر وجوف إفريقية وممالكها المسلمة ، (اقرأ ما سلف : ٥٣) = ومنذُ مُقَامه فى دار الإسلام فى الهند أكثرَ من مئة وخمسين سنة ، فى ظِلِّ الشركتين الكبيرتين : « شركة الهند الشرقية البريطانية » ، و « شركة الهند الشرقية الفرنسية » ، وغيرهما من « شركات » دول المسيحية الشمالية ، (اقرأ ما سلف : ٨٧ ، ٨٨) . كانت خبرةً متغلغِلَةً بجماهير الأمّةِ مجتمعةً ، ثم بطوائفها المختلفة ، ثم بأفرادِ رجالٍ بأعيانهم واحداً واحداً ، معروف الاسم والمكانِ والحركة . كانت خبرةً بمواطن الضعف والقوّة ، وبِمَكَامن الهوَى الميَّال الذى يستجيب ، والإرادة المصمِّمة التى تمتنع عن الاستجابة ، أى كانت خبرةً مدروسةً منظّمةً واضحةَ المعالم فى ذهن « الاستشراق » . ومع تطاوُل السنين عليه ، اكتسب لنفسه أعواناً من اليهودِ وشُذَّاذِ الآفاق من أهل دار الإسلام وغير دار الإسلام ، يستأجرهُم لتوسيع رُقْعة خبرته تارةً ، ولبثِّ أفكارٍ مدروسة بين جماهير دار الإسلام خاصّتها وعامّتها ، وللتحكّم فى تصريف أموره وبلوغ غاياته تارةً أُخرى = ثم للتمكّن من إشعالِ نارِ الفتنة حين يقتضى الأمرُ إحداثَ فِتنٍ تفرِّق شَمْل الناس وتمزِّقهم وتشغَلُهم عن الكيد الخفىّ الذى يُرَاد بهم . كُلُّ هذا كان يتمُّ فى هدوءٍ وصبْر وتسترٍ ، ومن وراءِ الغَفْلةِ ، غفلةِ أهل دار الإسلام عن جذور قَضيَّتهم ، وعن حقيقة هذه الأشباح الغريبة التى تتجوَّل فى الطرقاتِ والشوارع فى كُلِّ زىٍّ : زِىِّ التاجر ، وزىِّ السائح ، وزىِّ الباحثِ المنَقّبِ ، وزىِّ العالِم الذى لا يشغلُه شىءٌ غيرُ العلم ، وزىِّ المُسْلم الذى رضى بالله ربًّا وبالإسلام ديناً !! (اقرأ ما سلف ص : ٥٣) .

فالحملةُ الصليبيّة الفرنسية التى استجابتْ لنذير « الاستشراق » ، كان « الاستشراق » مستكنًّا فى أحشائها وأحشاء قائدها العظيم « نابليون » ، يُرشدُهُ « الاستشراقُ » ويهديه . وهى لم تُقْدِم على اختراق دار الإسلام فى مصر ، إلاّ وهى مُزَوّدة بأدقّ التفاصيل عن هذه الأرضِ وسُكّانها ، ومداخلها ومخارجها ، ومشايخها وعلمائها ، وعامّتها وسوقتها ، ونسائها ، ورجالها ، وجيشها وشعبها . جاءتْ ومعها الدَّجّالون العُتَاةُ « علماءُ الحملة الفرنسية » ومستشرقوها وخبراؤها وأعوانُها من اليهود وشذّاذ الآفاق ، وكُلُّهم يدٌ واحدةٌ على إحداثِ انبهارٍ مفاجىءٍ يصدِمُ وَعْىَ الشعب خاصّته وعامّته صَدْمةً تذهِلُه عن المكر المَسْتور المُفْضِى إلى تدمير رُوح المقاومة أو إضعافها إضعافاً يُتِيح للغُزَاة تثبيتَ أقدامهم فى الأرض والسَّيْطرةَ عليها سيطرةً كاملةً ، حتى لا تَدَعَ للمقاومةِ طريقاً إلا طريقَ الاستسلامِ العاجز للمصير المُظْلِم ، مَصِيرٍ مُعْتمٍ لا يستفيقُ الشعبُ إلا وهو مُرْتَكِسٌ فى ظلمائِه عاجزاً غير قادرٍ على طلبِ المخرج من ظُلُماتها المدلهمّة ، فى « قاهرة جديدة » زاهرةٍ زاهية الألوان ، قامت على أنقاض « قاهرة قديمةٍ » مدَمّرةٍ غابت فى قَتامِ الذكريات !!

• كانَ أوَّلَ الطريق إلى هذا المصيرِ المُظْلم إنشاءُ « الديوان » ، [1] وليس يعنينى هنا من أمرِهِ شىءٌ إلاّ خَبْؤُهُ المدفُونُ فيه ، والخُدْعة التى ينطوى عليها ، فيما تصوَّره « الاستشراق » . وهذا « الديوان » ، أمر بإنشائه نابليون منذ أول يوم دخل فيه القاهرة ، (الثلاثاء ١٠ صفر ١٢١٣ / ٢٤ يوليه ١٧٩٨) ، وذكر فى أمر إنشائه أسماءَ مشايخَ

(١) « الديوان » صورة هزلية « لحكومة دستورية ! » ، كما يتوهَّم الرافعى ! ، تحكمُ القاهرة ، وكان لكل مدينة أخرى ديوانُها الحاكم ، وتستطيع أن تقرأ هذه المهزلة فى « تاريخ الجبرتى » ، أو فى « تاريخ الحركة القومية » للرافعى ، ولكن اقرأها بعين عربيةٍ بصيرة ، لا بعين أوربية تخالطها وطنية قومية ، كما فعل الرافعى وغيرُه .

بأعيانهم يتكوّن منهم « الديوان » . وهذا الذكرُ المفاجىءُ وحدَهُ دليلٌ على أن الأمرَ كانَ مُعَدًّا إعدادًا كاملاً قبل أن تطأ قدمُه أرض مصر ، وأنّ الأسماء قد آختيرتْ بَعدَ تدبيرٍ مُحكَم ودراسةٍ قام بها « الاستشراق » وأعوانُه منذ فكر فى شَنِّ الحملة على مصر . وقاعدة اختيارهم : « أن يكونوا من أعيانِ البلادِ الذين امتازوا بمركزهم العلميّ وكفايتهم ، وطريقة استقبالهم للفرنسيين » . [1] ومعنى ذلك أنّه يريدُ أن يُودِع سُلطة الحكومة الظاهرة المموّهَة ، فى يد فئة ذات هَيْبَةٍ عند الناسِ ، وأن يكونوا جميعاً ممّن يُمكن أن يستجيبُوا بشكلٍ مّا استجابةً تدين بالوَلاءِ لجيشه الغازى ، ليروِّضَ بهم قُوَى المقاومة ويخدعَها ويفتَّ فى عَضُدها . وهذا شىءٌ لا يُقْدِم على مثله بهذه السرعة ، إلا بعد خِبرة سابقةٍ بأصحاب هذه الأسماءِ وبمواطن ضَعْفِهم التى تقعدُ بهم عن المقاومة ، وتُسوِّل لهم أن يُحْسِنوا «استقبال الفرنسيين » الذين انتهكوا حرمة ديارهم وأوطانهم . ولا سبيل إلى معرفة ذلك كُلِّه إلاّ عن طريق جهازٍ مدرّبٍ قد طال عَهْدُه باختبارِ النَّاس وتقصِّى أحوالهم من قريبٍ . وهذا الجهاز هو « جهاز الاستشراق » الذى كان يعرف لغة أهلِ البلاد ، والذى كان يتجوّل فى الأرضِ المصريّة من قبلُ ويلبسُ لأهلها كُلَّ زىّ ، كما حدثتك آنفاً . وكُلُّ المنشورات التى كان أصدرَها هذا المكيافلّىّ ، لِتُلْقَى وتذاعَ على المصريين مُنذ أوّل دخوله أرض مصر ، تدلُّ صياغتُها على أنّ صاحبها وصاحبَ مَضْمونها له خِبرةٌ طَويلةٌ بألفاظ أَهل الإسلام ، وبعقائدهم ومشاعرهم . فبيِّنٌ أنَّ صاحبَها هو « الاستشراقُ » لا غيرُ ، وهو يظنُّ أنه قادرٌ بتمويهه ومكره ومداهنته ، أنّه بهذه الصغائر السَّخيفة قادرٌ على أن يخدعَ أُمةً كاملةً عن قتال عَدُوِّها الغازِى ، فكان ردُّ الأمة على هذا الخداعِ السخيف والتمويه الساذج بألفاظ أهل الإسلام = ثم على خديعة « الديوان » الفاضحة ،

---

(١) « تاريخ الحركة القومية » ١ : ١٠٤ .

هو اندلاع الثورات فى أقاليم الوجه البحرىّ والصعيد ، وأكبرها ثورةُ القاهرة وأحيائها فى يوم السبت ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ ، (٢١ أكتوبر ١٧٩٨) ، أى بعد ثلاثة أشهر من تدنيس نابليون أرض دار الإسلام بجحافله وعُدَدِه ، فارتكب فى قَمْعها من القسوة والتدمير وذبْح الرجال والنساء أيضاً ، وسَفْح الدماء الغزيرة ما ارتكب ، ولكنّه نَذَر وأَوْفَى بنَذْرِهِ أن يَزيدَ ، فيُضَحِّىَ عند مَشْرِق كُل شمس بخمسة أو ستة ، تُقْطَع رؤوسهم ويُطاف بها فى أنحاءِ القاهرة ، كما أسلفت (ص : ١٠٠ تعليق : ١) . ولا شكَّ عندى أنّ هؤلاء الخمسة أو الستة هُمْ من طُلاّب العلم فى الأزهر ، ومن المحرِّضين على مقاومة هذا الغازى المنتهك لحرمة دار الإسلام = وأنّ « الاستشراق » هو الذى كان يقدِّمهم لهذا الجزّار المُشْمَعِلّ ، (أى السريع النشيط) ، وأنه كان يتخيَّرهم له ، لأنه كان على معرفة سابقة بهم ، وأنهم كانوا من الطلبة النابهين من ورثة « الجبرتىّ الكبير » و « الزَّبيدى » ، أى أنهم كانوا من طلائعِ « اليقظة » التى جاءت الحملة الفرنسية قبل كُلِّ شىء لوَأْدِها فى مهدها . وإلا فحدِّثنى ما كان معنى اختصاص خَمْسةٍ أو ستة بالذَّبح عند مَشْرِق كُلِّ شمس ، وهذا هو وجنودُه يعيثُون فى الأرض ويذبحون المئات من صَنَاديد المقاومة ومَغَاوير ثورة القاهرة ؟ ورحم الله « الجبرتىّ المؤرخ » ، فإنه سقط عَنْه فى كتابه أن يقيّد لنا أسماء القتلى ، وصِفَاتهم ، وأسماءَ هذه الذبائح الذى كان يُضَحِّى بها جزّار القاهرة . « لعلَّ لَهُ عُذْراً وأنتَ تلُومُ » !

• كان « الاستشراقُ » كامناً فى أحشاء نابليون . هو الذى يُوَجِّهه ويلقّنُه ويدرِّبُه على أساليب المداهنة التى يظنُّ أنها تروجُ على أهل دار الإسلام ، وكان رأس الاستشراق فى الحملة الفرنسية هو « فانتور » المستشرق الداهيةُ المحنَّك المتستِّر الخفِىُّ

الوطءِ ، [١] (انظر ما سلف ص : ٩٣) ، كان خليلَ نابليون ونَجِيَّهُ الذى لا يفارقُه فى الحَلِّ والتَّرْحَال ، فهو الذى أوحَى إليه ما أوحَى ، وأوهَمهُ أن « تدجين » المشايخ الكبارِ من رجال الأزْهر فى « الديوان » = (« التدجين » ، الاستئناس ، من قولهم « داجنٌ » لكل ما يألف البيوتَ من طائر أو بهيمة مستأنسة) = ضمانٌ كافٍ لكسب ثقة جماهير دار الإسلام فى مصر حتى تستكين له وتخضَعَ ، وظَلَّ هذا الوَحْى الجاهل الساذجُ كامناً فى أحشاء الجزّار ، ولم تعظْهُ ثورةُ القاهرة والأقاليم بعد ثلاثة أشهُر من مَجيئه ، ولا وَعَظته هزيمتهُ فى « عكّا » ، فإنّه بعد فراره بنفسِه من مصيرٍ محتومٍ ، كما أسلفت (انظر ص : ٩٤) كتب رسالته إلى « كليبر » كَبْشِ الفداء (!!) يقول له فيها :

« يجبُ أن تحذرَ رُوحَ التعصُّب وتُنَوِّمها إلى أن تتمكّنَ من استئصالها . إذا حُزْت ثقة كبار مشايخ القاهرة ، فإنّكَ تجمع حولكَ أفكارَ مصر بأجمعها ، وأفكار كُلِّ زعيمٍ من زعماء الشعبِ . لا شيءَ أقلُّ خَطَراً من المشايخ الذين يرهبونَ القتالَ ولا يعرفون طُرُقه ، ولكنهم مثل القسيسين ، يُوحون بالتعصُّب ، دون أن يكونُوا هم أنْفُسُهم متعصِّبين » . [٢]

ومسكينٌ هذا الجزَّار ، فإنَّ تدجِينَ المشايخ الكِبارِ فى « الديوان » ، لم يمنع الثَّورة أن تقوم ، وذلك لأن « المشايخ الكبار » لهم عند عَامَّة المسلمينِ ، هَيْبَةُ العلم ، وطاعتُهم

---

(١) قضى « فانتور » أربعين سنة يتجوّل فى دار الإسلام قبل أن يلتحق بالحملة الفرنسية ، قال عنه الجبرتىّ : « كان لبيباً متبحرًّاً يعرف اللغات التركية والعربية والرومية والطلياني والفرنساوى » ، تاريخ الجبرتى ٣ : ٦٨ ، وسماه « فنتوره » .

(٢) هذا من نص ترجمة الرسالة كاملةً فى كتاب أحمد حافظ عوض ، (فتح مصر الحديث : ٤٠٩ ، ٤١٠) ، أمّا الرافعى فى « تاريخ الحركة القومية » ، (٢ : ٩٧ – ١٠١) فإنه بعثر الرسالة بعثرةً مفسدةً ، لينزع منها سُمَّها ، غفر الله ذنوبه ، وسيأتى بعد قليل ما هو أشنع من هذا من فعل الرافعىّ .

واجبةٌ علينَا فيما هو طاعةٌ لله ولرسوله ، ولكن هيبةُ العلم ليست بمانعةٍ جماهيرَ الأمَّة من عِصْيانهم وتَرْكِ طاعتهم إذا هُمْ خالفوا صريحَ أوامِرِ الله وأوامر رسوله ﷺ بقتال الغُزَاة لدار الإسلام ، فإن قتَالَ الغزاةِ عند المسلمين واجبٌ وفرضُ عينٍ على كُلِّ قادرٍ على القتالِ ، إلاّ فى حالةٍ واحدة : إلاّ أن يخافُوا أن يَصْطَلِمَهم العدوُّ لقلَّة عددهم وكثرةِ عدَدِ العدوِّ ، (« اصطلمهم العدوّ » ، استأصل شأْفتهم وأبادهم) ، فجائزٌ عندئذٍ أن يُلْقُوا إليهم السَّلَمَ ، (« ألقى إليه السَّلَم » ، استسلم له وصالحه) ، بَيْدَ أنّ فى قتالهم الشهادة ، وهى إحدى الحُسْنَيين ، (« الحُسْنيان » ، النصر أو الشهادة) . وفى حالةِ هذا الجزَّار ، أنَّ جيشَهُ قِلَّة فاجرةٌ تغزو كثْرةً مسالمةً تَفرَّق عنها حُمَاتها من جَيش المماليك المصرية ، فصارَ واجباً على الكثرة أن تقاتل هذه القلَّة بكُلِّ سلاحٍ ما استطاعت إليه سبيلاً . ولذلك لم تستمع الأمَّةُ عامَّتُها وخاصَّتُها للمشايخ المُدَجَّنين فى « الديوان » لمهادنة الغازى ، واستمعت لصِغَار طلبة العلم فى الأزهر الذين رفضُوا نصيحةَ المشايخ الكبار بمهادنة الفرنسيين . رفضوها طاعةً لله ولرسوله ﷺ ، وقامت ثورةُ القاهرة والأقاليم . وموقف « المشايخ الكبار » له تفسيرٌ ليس هذا مكانه الآن ، ولكنهم ضَعُفُوا وجَبُنوا وأخطأوا على كُلِّ حالٍ (اقرأ الفقرة الآتية رقم : ٢٢) .

وأرجِّح أن هذا الجزَّار وشيطانَهُ المستشرِق « فانتور » ، لم تنفعهما عِظَةُ ثورة القاهرة وهزيمة « عكّا » ، لأن غباءَ « الاستشراق » وغَطْرسته وتعاليه لم تمكِّنْهما من فهم هذه الحقيقة التى دلَّت عليها الثورة الجائحة التى هدّدت مَصير الحملة الفرنسية وحدَّدته تحديداً ظاهراً أدّى إلى أن يلوذَ جَزَّارها بالفرار ، تاركًا مَصِير حملته وخليفتِه « كليبر » للمقادير تَقْضى فيهما قضاءَها . لم يفهم هذان العِلْجانِ ، (« العِلْجُ » الرجل الشديد من العجم) ، هذه الحقيقة على صورتها الصحيحة ، فسمَّياها « تعصُّباً » ، مع أنها إحدى

البدائه المسلَّمة ، لأن دفع عُدوان الغازى وكراهيتَه حقٌّ طبيعىٌّ لكُلِّ جماعةٍ من البشر يغزوها غازٍ فى عُقْرِ ديارها ، بديهةٌ مُسَلَّمة بلا رَيْبٍ = وأخطأ أيضاً فى تشبيه مشايخ دار الإسلام بالقِسّيسين فى ديار المسيحية الشمالية ، لأن المشايخ لا حُرِّيَّةَ لهم وَراءَ الكتاب والسُّنَّة ، والأمّة كُلُّها مطالبَةٌ أنْ تحاكِمهم بما يوجبُه الكتاب والسّنة . أما القسّيسون فإليهم وحدهُم الحكْم المطلقُ بآرائهم ، ليس لأحدٍ من رعاياهم أن يسائلهم ، وليس فى أيدى رعاياهم شىءٌ يحاكمونهم إليه ، وإنما هى الطاعةُ المُصْمَتَةُ لحُكمِ الرهبان والقسيسين . وهذا فرقٌ ظاهرٌ بين رعايا الإسلام ورعايا المسيحية ، لا يَعْمَى عنه إلا « مستشرقٌ » ، وجزّارٌ .

• أيقنَ الجزّارُ وشيطانُه « فانتورْ » أن تدجينَ المشايخ الكبار فى « الديوان » قليلةٌ جَدْواه فيما كانَا يُؤَمِّلان من طاعة الجماهير وخضوعها ومُهَادنتها للغُزَاةِ . أرّقتهما خَيْبَةُ الأمل فى تدجين المشايخ ، فلمّا خرجا إلى سورية لتَدْويخها وطال حصارُ « عكّا » ، وأيْقنا بأخَرَةٍ أنّ الدائرة ستدور عليهما وعلى جيشهما = أيْقنا أيضاً أنّ محاولة اختراقِ دار الإسلامِ بالسلاح كانت زلَّةً لا تُقالُ عَثْرتُها ، ولكن لا سبيل إلى التراجُع . وكُلُّ الدلائل كانت تدُلُّ على أن دار الإسلام فى مصر = بعد تمزُّق جيش المماليك المصرية ، وهم حُماةُ مصر = قد بدأت تُخْرِجُ من غِمَار الجماهير المصرية جيشاً جديداً قادراً على الفَتْك بالحملة القليلة العَدَد ، وإن كانَت مُزوّدةً بأحسَنِ العُدَد . ومع ذلك لم ييأس الجزَّارُ المغرورُ أنْ تجرى المقادير على وَفْقِ آماله ، وعَسَى ولعلَّ ، فربَّما كانت الغلبةُ لهذه القِلَّة المزوَّدة بما ليس فى أيدى الجماهير الكثيفة مِثْلُه من سلاحٍ متفوّق . عسَى ولعلَّ ، وبَيَّتَا النِيَّة على هذا الأملِ ، وبحثا عن وسيلةٍ أخرى يُقدِّرانِ أن تكون أبلغَ أثراً ، وأجدَى فى السيطرة على الجماهير الكثيفة . وانتهى حصارُ « عكَّا » بالهزيمة الفادحة ، (انظر ما سلف

ص : ٩٣ ، ٩٤) ، وتخلّى عن الجزار شيطانُه ، وهلك « فانتور » فيمن هلك من قُوّاده وعلمائه ومستشرقيه والآلاف من جُنده الغزاة ، وعاد إلى مصر كاسفَ البال ، ثم رحل عنها بعد قليلٍ إلى فرنسا ناجياً بحُشَاشَةِ نَفسِه من مَصيرٍ كان كأنّه يراهُ ماثلاً عياناً . ولم يكد يستقرُّ حتى أرسل إلى « كليبر » ، خليفته على مصر ، رِسالةً طويلةً مُتفاوتةً مضطربةً عجيبة الاضطراب ، ليسكِّن رَوْعَ « كليبر » ويسدِّدَ خُطاهُ فى سياسته فى مصر !! والذى يهمُّنى هنا من هذه الرسالة [1] = وقد اقتبستُ منها آنفاً ، (ص : ١٠٥ / تعليق : ٢) = ما جاء فى خواتيمها ، وهو قوله لكليبر ، (هذا النص من ترجمة حافظ عوض) :

« ستظهر السُّفُنُ الحربيّة الفرنسية بلا ريبٍ فى هذا الشتاء أمام الإسكندرية « أو البُرُلُّس أو دمياط . يجب أن تبنى برجاً فى البُرُلُّس .

« اجتهدْ فى جمع ٥٠٠ أو ٦٠٠ شخصٍ من المماليك ، حتّى متى لاحت السفنُ « الفرنسية تقبضُ عليهم فى القاهرة أو الأريافِ وتسفِّرهم إلى فرنسا . وإذا لم تجد عدداً « كافياً من المماليك ، فاستَعِضْ عنهم برهائن من العرب ومشايخ البُلْدَان ، فإذا ما وصلَ « هؤلاء إلى فرنسَا يُحْجزُون مدةَ سنة أو سنتين ، يشاهدون فى أثنائها عظمة الأمّة « (الفرنسية) ، ويعتادونَ على تقاليدنا ولُغَتنا ، ولمّا يعودون إلى مصر ، يكون لنا منهم « حزبٌ يُضَمُّ إليه غيرهم .

« كُنْتَ قد طلبتَ مراراً جوقة تمثيلية ، وسأهتمُّ اهتماماً خاصًّا بإرسالِها لك ، « لأنها ضرورية للجيش ، وللبَدْءِ فى تغييرِ تقاليد البلاد » .

* * *

(١) ينبغى دراسة هذه الرسالة بعنايةٍ ، وبنظر صحيح غير النظر الذى ذهب إليه الرافعىّ فى كتابه .

• وقبلَ كُلِّ شيءٍ ، ينبغى أن أقطع سِياق الكلام ، لأقف بك على ضرب شَنيع من ضروب فساد حياتنا الأدبية وتلوُّثها بالأهواءِ الغالبة التى تستخفى ، ثُمَّ تستهين بعقلى وعقلك . فأوّل من وقف على هذه الرسالة أحمد حافظ عوض فى كتابه « فتح مصر الحديث » (ص : ٤٠٧ – ٤١١) فقال :

« وهذا الكتاب (يعنى الرسالة) محفوظٌ بالنصّ الأصلىّ فى وزارة الحربية الفرنسية (وثيقة نمرة ٤٣٧٤) ، ولأهمية هذا الخطاب ، وعدم وجود أثرٍ له فى اللغة العربية ، رأينا أن نأتى على تعريبه بِدقَّةٍ وإتقان » ، ثم ساق نص الرسالة . وكتاب أحمد حافظ عوض منشور فى سنة ١٩٢٥ ، فجاء الرافعى ، غفر الله له ذنوبه فى ديسمبر سنة ١٩٢٩ ، فذكرها فى كتابه « تاريخ الحركة القومية » (٢ : ٩٧ – ١٠١) ، أى بعد أربع سنوات ، فقال :

« أما رسالته (نابليون) إلى الجنرال كليبر ، فهى وثيقة على جانبٍ عظيم من الأهمية ، كتبها بإمعانٍ وتفكير ... وهى رسالةٌ مطوّلة أشبهُ بتقرير وافٍ ، لذلك رأينا أن نعرِّبها مع شيءٍ من الشرح والبيان » .

وألغَى ذكر أحمد حافظ عوض وكتابِه وترجمته ، مع أنه يعرف الكتابَ وصاحبه بلا شكٍّ عندى أنا خاصَّةً ، [1] واستأنف للرسالة ترجمةً جديدةً ولم يَسُقْها متكاملةً ، بل بعثرها وقطَّعها وجزَّأهَا فى نحو خمس صفحاتٍ من كتابه ، استناداً إلى ما سماه شرحاً وبياناً . فلما جاء عند النص الذى نقلته لك آنفاً ، قال ما يأتى :

---

(١) بل أقول لك : إن كتاب الرافعى إنْ هو إلا تطبيق للبرنامج الذى وضعه أحمد حافظ عوض لتأليف كتابٍ فى تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر . اقرأ مقدمة كتاب « فتح مصر الحديث » تعلم أنه هو الذى سنَّ للرافعى الطريق بلا شكٍ ولا ريبة ، ومع ذلك فلم يذكره الرافعى بكلمة واحدةٍ فى مقدمته أو فى كتابه !

« وتعرَّضَ فى رسالته إلى مشروعات استعمارية ومسائل ثانوية لم يفُتْه التفكير فيها
« فى تلك الأوقات العصيبة ، فأوصاهُ باعتقال خمسمئة أو ستمئة من المماليك أو من
« رهائن العرب ومشايخ البلاد (العمد) ، وإرسالهم إلى فرنسا ، فى حالة استئناف
« المواصلات البحرية ، ليبقوا بها سنة أو سنتين ، وغايةُ نابليون من ذلك : [أن يروْا عظمةَ
« الأمة الفرنسية ، ويقتبسوا عاداتنا وأفكارنا وأخلاقنا ولُغَتَنا ، ويعودوا إلى مصر فينشروا
« هذه المقتبسات بين مواطنيهم] .

« ثم وعدَ الجنرال كليبر بأن يرسل له فرقةً من الممثّلين كان قد أوصى عليها من قبل [لتسدّ حاجة الجيش ، ولتألف البلادُ شيئاً جديداً من العادات الغربية] » .

والاختلاف بين النصَّين بيِّنٌ جدًّا ، ودِلالة أحدهما غير دِلالة الآخر ، ومعناهُ غير معناه . فرقٌ بين : « يعتادون على تقاليدنا ولغتنا ، ولمّا يعودون إلى مصر ، يكون لنا منهم حِزبٌ يُضَمُّ إليهم غيرهم » = وبين : « يقتبسوا عاداتنا وأفكارنا وأخلاقنا ، ويعودوا إلى مصر فينشروا هذه المقتبسات بين مواطنيهم » ، لأنّ الأوّل دالٌّ على أنه يريدُ أن يَسْتفسدهم ويَبْهرهم ويَعِدهم ويمنّيهم ، ويكوّن منهم فى مصرَ حزباً تحت سيطرته يكونُ نواةً لحزبٍ أكبر منه . فهذه سياسة متبعة مؤسسة على مكيافليّة نابليون = أمّا الثانى فإنه ينزعُ سَمَّ هذه العبارة ، ويجعل الأمر كُلَّه أمر « اقتباس » من عادات فرنسا وأفكارها وأخلاقها ولُغتها ، ونشر ما يقتبسونه بين المواطنين المصريين ، وهذه مجرّد أمنيَّة ساذجة تكون أو لا تكون .

وكذلك القول فى قوله فى شأن فرقة الممثلين . فَرْقٌ بين : « إنها ضرورية للجيش ، وللبدء فى تغيير تقاليد البلاد » ، وبين : « لتسدّ حاجة الجيش ، ولتألف البلادُ شيئاً جديداً من العادات الغربية » ، فالأوّل دالٌّ على غَرَضٍ مقصودٍ لذاته هو « تغيير تقاليد البلاد » ،

فهذه أيضاً سياسة مكيافلية = أمّا الثانى فإنه ينزعُ أيضاً سمَّ العبارة ، ويجعلُ الأمر كُلّه مجردّ عرض شيءٍ جديد على الناس حتى إذا استحسنوه أَلِفوه ، وهذه مجرّد أمنيَّة ساذجة تكون أو لا تكون . هذا كُلُّه فضْلاً عن مقدِّمة الرافعى التى تجعل هذه السياسة المكيافلية الخبيثة ، مجرد مسألة ثانوية لا خَطَر لهَا ، يا سبحان الله !!

فنصُّ ترجمة أحمد حافظ عوض أولى بالثقة من نصّ ترجمة الرافعى ، وأدَلُّ على سياسة جزَّار القاهرة ومدَمِّرها ومُفْسِدِ أخلاقِ الشذّاذِ من أبنائها مدةَ إقامة جيشه فيها . وليس النصُّ الفرنسيُّ بين يدىَّ الآن ، ولكنّى أرى فى أوَّلهما الأمانةَ وسلامةَ الطويَّة ، وفى ثانيهما تركَ الأمانة وتبييتَ النيَّة على نزع سمِّ العبارة إكراماً لنابليون العظيم !! مع أن كلا الرجلين فى كتابيهما كان كاتباً مُدَجَّناً ، وكان صَغْوُه ، (أى مَيْله) إلى نابليون العظيم !! وإلى فرنْسا مصدرِ النُّور والتنوير !! وكما يقول المثل العاميُّ : « ما أسخم من سِتّى إلا سِيدى » !

هذه بين يديك تقاليدُ حياتنا الأدبية الفاسدة فَساداً يستعصى على الإصلاح الشّامل السَّريع الأَمين . وقبيحٌ جدًّا أن تتغاضى حياةٌ أدبيّةٌ عن مثل هذا القُبْح ، فضْلاً عن أن ترضاهُ ، فَضْلاً عن أن تتواصَى به حتى يكونَ سُنَّةً مَألوفة ، لا يكادُ ينكرها قارىء أو أديبٌ أو أستاذٌ ، وإِلْفُ القبيح مَتْلَفَةٌ للإحساس والعقل جميعاً ، ولكن لهذا كُلِّه سببٌ واضِحٌ ، سوف أحدِّثك عنه فى الفقرة التالية :

* * *

٢٢ — لمّا مضى مئتا عامٍ على فتح القسطنطينية ، حصن المسيحية الشمالية الشامخ فى يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الآخرة سنة ٨٥٧ هـ / ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م ، غرقت دار الإسلام فى غفلة هائلة شاملة أحدثها الغرور بالنصر القديم على المسيحية الشمالية ، وبالنصر الحديث وفتح القسطنطينية وتدفُّق جيوش دار الإسلام فى قلب أوربة ، وعَمِيَتْ دار الإسلام يومئذ عن اليقظة الهائلة الشاملة التى أحدثتها الهزائم القديمة

والحديثة فى ديار المسيحية ، والتى قامت على الإصرارِ والمجاهدة والمثابرة وإصلاح خَلَل الحياة المسيحية الشمالية ، حتى آنفكَّت عنها أغلالُ « القرون الوسطى » بَغْتَةً ، وانبعثت نهضة « العصور الحديثة » ، فارتفعت كِفَّةُ المسيحية الشمالية ، وانخفضت كِفَّة دار الإسلام ، وبدأت « المرحلة الرابعة » للصراع بين المسيحية الشمالية ودار الإسلام ، (اقرأ ما سلف : ٤٣ – ٤٥) .

ويومئذ تحدَّدت أهداف المسيحية الشمالية ، وتحدَّدت وسائلها ، ولم يغِب عن أحدٍ منهم قطُّ أنهم فى سبيل إعداد أنفسهم لحرب صليبية رابعة ، لا بقعقة السلاح ، وما هو إلا سلاحُ العمل والعلم والتفوُّق واليقظة والفهم والتدبير ، ثم الصبرُ والمكرُ والدهاء واللينُ والمداهنةُ وتركُ الاستثارة ، استثارةِ عالم ضَخْمٍ مجهولٍ ما فى جوفه ، ولا قِبَل لهم بتدفُّق أمواجه الزاخرة ، والتى كان « الترك » الظافرون طلائِعَها الظاهرةَ لهم عِياناً فى قلب أوربة ، (اقرأ ما سلف : ٤٦ – ٥١) . وبدأ الزحف البطيء المتتابع الخفىّ الوَطْءِ يَخْترق دار الإسلام فى تركية والشام ومصر والجزائر لابساً كل زِيٍّ : زِيَّ التاجر ، وزيَّ السائح ، وزيَّ العالم الباحث ، وزيَّ المسلم طالب العلم ، وعلى الوجوه البشر والطلاقة والبراءة ، وفى الألسنة الحلاوة والخِلاَبة والمماذَقَة . وعلى مرّ الأيَّام والشهور والسنوات ، توغَّلوا زَرَافاتٍ ووُحْداناً فى قلبِ دارِ الإسلام يأخذون أهلَها من وراء الغَفْلة ، ويستخرجون كُلَّ مخبوءٍ كان عنهم من أحوال الخاصة والعامَّة ، والعلماء والجهلاء ، والحلماء والسفهاءِ ، والملوك والسوقة ، والجيوش والرعية ، ويرُوزون (أى يختبرون) القوّةَ والضعف ، والذكاء والغفلة ، وتدسَّسوا حتى إلى أخبار النساءِ فى خدورهن ، ولم يتركوا شَيْئاً إلا خبروه وعجمُوه ، وفتَّشوه وسَبَرُوه ، وذاقوه واستشفُّوه ، متعاونين متآزرين ، تحت رعاية « المستشرقين » حملةِ هموم المسيحية الشمالية ، وإرشادهم وتوجيههم ، (اقرأ ما سلف : ٥٣ – ٥٦ / ٨١ – ٨٦) .

***

مضت السُّنون و « الاستشراق » فى عَمَل دائب وتدبيرٍ متمادٍ ، وسياحةٍ فى دار الإسلام ، ولا يكفُّون عن إمداد ملوك المسيحية الشمالية بكُلِّ ما علموا من أحوال دار الإسلام ، وما رأوهُ عِياناً فيها ، وما خبروهُ من الغفلة المطبقة على دار الإسلام ، فنشأت بفضلهم طبقة « الساسة » الذين صاروا يُعِدُّون ما استطاعوا من عُدَّةٍ لردّ غائلة الإسلام ثم قَهْره فى عُقْر داره ، وتحقيقِ الأحلام والأشواق التى كانت تُخامِرُ قلب كُلِّ أوربىّ ، أن يظفر بكنوز الدنيا المدفونة فى دار الإسلام وما وراء دار الإسلام . وهذه الطبقة من الساسة هم الذين عُرفوا فيما بعد باسم رجال « الاستعمار » ، (اقرأ ما سلف : ص ٤٨ ، ٤٩) . فلما كاد القرن السابع عشر الميلادىُّ ينصرم ، كانت تركية لم تفقد بعدُ هيبتها فى قلوب ساسة المسيحية الشمالية ، ولم تنس ساسة فرنسا خاصةً الحربَ الصليبية السابعة المعروفة باسم « واقعة المنصورة » والتى انتهت بهزيمة الفرنسيين ، والتى هلك فيها ثلاثون ألفاً منهم ، وأُسِر فيها لويس التاسعُ ملكُ فرنسَا وطائفةٌ من ضباطه ، وجُعلوا فى « دارِ ابن لقمان » ، وتولَّى أمر حراستهم الطواشِى « صَبِيح » ، وذلك كان فى سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م .

وفى أواخر القرن السابع عشر الميلادىّ ، أى بعد أربعة قرون ، كان أوَّل من حرَّض فرنسا على اختراق دار الإسلام فى مصر ، هو الفيلسوف الرياضى الألمانى « ليبنتز » (جوتفريت فلهلم) (١٦٤٦ - ١٧١٦ م) ، وكان قد التحق بالسلك الدبلوماسى ، وقضى أربعة أعوام فى باريس (١٦٧٢ - ١٦٧٦ م) ، فى بلاط لويس الرابع عشر ، فقدم إليه فى سنة ١٦٧٢ م تقريراً يحرّضه فيه على اختراق دار الإسلام فى مصر ، ويقولُ له فيه : « إنَّكم تضمنون بذلك بسط سلطان فرنسا وسيادتها فى بلاد المشرق (أى فى دار الإسلام) ، إلى ما شاءَ الله ، وتكسبون عَطْف المسيحية وتستحقّون ثناءَها ، وهنالك لا تخسرون عطفَ أوربة ، بل تجدونها مجمعةً على الإعجاب بكم » ، فَأَعْجَبْ

لفيلسوفٍ رياضيٍّ ألمانيٍّ لم تشغله رياضته ولا فلسفته عن تحريض فرنسا على غزو مصر ، لتكسبَ عطف المسيحية الشمالية وتستحقَّ ثناءها ، وتضمنَ بسط سلطانها على دار الإسلام إلى ما شاءَ الله !! ، وذلك قبل حملة نابليون بأكثر من مئة سنة .

كان تقرير « ليبنتز » الفيلسوف الرياضىّ !! مَنْبَهةً لساسة فرنْسا على غَزْوِ دار الإسلام فى مصر ، وذلك بعد منتصف القرن السابع عشر الميلادى ، ولم يكن ذلك من « ليبنتز » عَفْو الخاطر ، بل كانَ عن مُتابعةٍ واعيةٍ لملاحظات « المستشرقين » الذين كانوا يجوبون دار الإسلام ، ويُمِدُّون مثقَّفِى المسيحية الشمالية بما خبروه وسَبَروه من دخائل دار الإسلام فى مصر وغيرِ مصر ، لأن « المستشرقين » كانوا هم حملةَ هموم المسيحية الشمالية ، والمجاهدين المتبتِّلين فى سبيلها ، كما حدَّثتُك آنفاً فى مواضع متفرِّقة .

وظَلَّ هذا التحريض كامناً فى قلب ساسة فرَنْسا منذ منتصف القرن السابعَ عشر ، وهو ينمو على الأيّام ، وينمو معه الإعدادُ لغزو دار الإسلام فى مصر . ومضت مئة عام حتى كان عهد لويس الخامس عشر ، وكبير وزرائه « الدوق دى شوازل » ، الذى طمع أن تحتلّ فرنسا مصر ، عن طريق المفاوضة مع تركية ، التى بدأت تضمحلّ قوّتها وهيبتُها ، والتى شَحِبَ سلطانُها على مصر وكادَ ينحلُّ ، ولكنه لم يفعل شيئاً حتى سقطت وزارته فى سنة ١٧٧٠ م . وجاء عهد لويس السادس عشر (سنة ١٧٧٤ م) ، وكان الكونت « سان بريست » سفير فرنسا فى الآستانة منذ سنة ١٧٦٨ م ، وأقام فيها ست عشرة سنةً يرقب اضمحلالَ تركية ، وكان شديد الاهتمام بدار الإسلام فى مصر ، فكتب غير مرةٍ إلى حكومته يحضُّها على احتلالِ مصر ، تحقيقاً لمطامع « دى شوازل » . فأوفدت الحكومة الفرنسية « البارون دى تُوت » ، المجرىّ الأصل الذى استوطن فرنسا ، أوفدته إلى تركية ، فلما عاد سنة ١٧٧٦ م ، قدّم تقريراً إلى الحكومة الفرنسية ، بأن تركية فى سبيل الانحلال لا مَحَالة ، ونصح الحكومة بالإقدام على احتلال مصر ، فأوفدته

الحكومة مرة أخرى إلى ثغور الدولة العثمانية ، وبدأ رحلته سنة ١٧٧٧ م ، فدرس سواحل مصر ومواقعها ، وقدّم تقريراً إلى الحكومة بيّن فيه مزايا احتلال مصر وسهولةَ تحقيقِ هذا الاحتلال . ثُم انتهت أيضاً سفارة « الكونت سان بريست » وعاد من الآستانة سنة ١٧٨٣ م ، فقدم إلى حكومته تقريراً ثانياً فى شأن احتلال مصر ، ونصح حكومته بأنّ ذلك يَكْسِبُ فرنسا مركزاً ممتازاً فى العالم . وفى هذا الوقت نفسه ، كان قنصل فرنسا فى الإسكندرية المسيو « مُور » ، فقدم إلى حكومته تقريراً يتضمّن رأيه فى قرب تفكُّك السلطنة العثمانية ، وينصحها بضرورة احتلال مصر ، فجاء تقريرُهُ مؤيّداً لتقارير « دى سان بريست » و « البارون دى تُوت » ، ولكن الحكومة الفرنسية تردّدت ، ولم تأخذ بنصائحهم . احتفاظاً بسياستها حيال تركية ، القائمِ ظاهرُها على الودّ والصداقة ، وتَحَسُّباً ، للبوادر التى ظهرت مقدِّمةً للثورة الفرنسية .

وبدأت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ م ، وانتهت بإعدام لويس السادس عشر فى يناير ١٧٩٣ م ، وتتابعت شكاوى التُجار الفرنسيين المقيمين بمصر إلى حكومة الثورة ، يشكون ما أصابهم من سوء معاملة المَماليك المصرية وما يَلْقَوْنه من العَنَتِ ، فعيَّنت الحكومة المسيو « شارل مَجالُّون » قنصلاً عامًّا لفرنسا فى مصر سنة ١٧٩٣ م ، وكان « مجالون » هذا تاجراً فرنسيًّا أقام بمصر أكثر من ثلاثين سنة مشتغلاً بالتجارة ، [١] فأخذ يرسل إلى حكومته التقارير والمذكرات ، مبيِّناً فيها عن عبث المماليك المصرية بمصالح التجار الفرنسيين فى مصر ، ومصرِّحاً بأنَّ هذا العبثَ لا يمكن أن يزول إلاّ إذا استخدمت الجمهورية الفرنسية القوةَ فى رَدْعهم ، وحرَّض حكومةَ الجمهورية على أن تتأهّب لاحتلال

---

(١) انظر أى خبرة يستفيدها هذا التاجر المثقف من مُقامه فى دار الإسلام بمصر أكثر من ثلاثين سنة !! وهو بلا شك قد أجاد العربية ، بل لعله لم يدخل مصر إلا وهو عارف بالعربية ، وهو الأرجح ، أى هو فى حَيِّز « الاستشراق » بلا شك ، كما سترى .

مصر . وفى سنة ١٧٩٧ م ، ارتحَلَ « مَجَالون » إلى فرنسا ، وأخذ يحضُّ رجال الدولة على احتلالِ مصر ، ويبيّن لهم المزايا التى تنالها حكومة الجمهورية بهذا الاحتلال . واقتنع المسيو « تاليران » وزير الخارجية الفرنسية بآراء « مجالون » ، هو ونابليون بونابرت ، فقدم تقريراً إلى حكومة الديركتوار ، ونصح الحكومة بإنفاذِ الحملة . فكان ما كان من حملة نابليون على مصر فى سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م ، أى بعد تحضيض « مجالون » بسنة واحدة .

لم يكن « الاستشراق » غائباً طرفةَ عينٍ عن مقدِّمى هذه التقارير والمذكّرات التى رُفعت إلى الحكومة الفرنسيّة ، بل كان حاضراً حضوراً كاملاً ببديهة العقل ، لأنَّه صاحبُ الفضل الأوّل فى نشأة طبقة الساسَة الذين هم رجالُ « الاستعمار » ، والذين توجَّهوا كُلّ التوجُّه لإعداد العُدّة لاختراقِ دار الإسلام ، (اقرأ ما سلف : ٤٩) ، و « الاستشراق » هو الذى كان يُمدُّهم بخبرته الواسعة المتمادية بأحوال دار الإسلام ، ولولاهُ ما عرفوا قَبيلاً من دَبِيرٍ = ولأنَّه أيضاً كان دائم الحضور فى دار الإسلام أبداً ، يلاقى الخاصة من العلماء ، ويخالط العامّة من المثقَّفين والدهماء ، ويستخرجُ خَبْءَ ما فى هذه الدار من أحوال خاصته وعامته ، وعلمائه وجهاله ، وملوكه وسوقته ، وجيوشه ورعيته ، وكُلَّ دقيق وجليلٍ يوماً بعد يوم ، فى ملاحظةٍ واعية لا تغفُل ولا تنام ، (اقرأ ما سلف : ٤٨ ، ٥٣) .

ولو تأملَّتَ قليلاً تواريخ تقديم هذه التقارير والمذكرات ، منذ عهد « ليبنتز » سنة ١٦٧٢ م ، ثمَّ ما جاءَ بعد مئة عامٍ ، من طَمَع الدوق « دى شوازل » فى مفاوضة تركية فى أمر التنازل عن مصر لفرنسا فى سنة ١٧٦٩ م ، وبعده الكونت « سان بريست » والكونت « دى تُوت » وتقاريرهم منذ سنة ١٧٣٦ م إلى سنة ١٧٨٣ ، وبعدهما المسيو « مجالون » من سنة ١٧٩٣ - ١٧٩٧ ، قبل حملة نابليون بعامٍ واحد ، بل قبل ذلك أيضاً حضورُ طُلاّب الإفرنج ، (وهم المستشرقون) ، إلى مصر وقراءَتهم علم

الهندسة على الشيخ الجَبَرْتِىّ الكبير فى سنة ١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م ، (ما سلف : ٨٣) =
لو تأملتَ هذه التواريخ لرأيتها جميعاً واقعةً وقوعاً تامًّا فى عَصر يقظة دار الإسلام ونهضتها الصحيحة التى تولَّى أمرها الخمسةُ الكبارُ من رجالنا ، وهم : « البغدادىّ » فى مصر ، (١٠٣٠ – ١٠٩٣ هـ / ١٦٢٠ – ١٦٨٣ م) ، ثم « الجبرتىّ » الكبير فى مصر ، (١١١٠ – ١١٨٨ هـ / ١٦٩٨ – ١٧٧٤ م) ، و « ابن عبد الوهاب » ، فى جزيرة العرب (١١١٥ – ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ – ١٧٩٢ م) ، و « المرتضى الزَّبيدىّ » فى مصر ، (١١٤٥ – ١٢٠٥ هـ / ١٧٣٢ – ١٧٩٠ م) ، و « الشوكانى » فى اليمن (١١٧٣ – ١٢٥٠ هـ / ١٧٦٠ – ١٨٣٤ م) ، (اقرأ ما سلف : ٨٢) . فهذه « النهضة » وهذه « اليقظة » ، لا يعرفُها على حقيقتها ، ولا يعرف مَغَبَّتها غير « الاستشراق » ، فيومئذ هَبَّ « المستشرقون » ، حَملةُ هموم المسيحية الشمالية ، هَبُّوا هبَّةَ الفزع ، وتسارعوا ينقلونَ كُلَّ صغيرة وكبيرة ، ووضعوه بيِّناً جليًّا تحت أبصار ملوك المسيحية الشمالية وأمرائها ورؤسائها وقادتها وساستها وعلمائها ورُهْبانها ، وبصَّروهم بالعواقب الوخيمة المخوفة من هذه « اليقظة » الوليدة ، وبيَّنوا لهم الخطر الداهمَ الذى جاءَ يتهدّدهم إذا ما تمّ تمام هذه « اليقظة » واشتدَّ عُودها ، واستقامت خُطُواتها على الطريق اللاحب = وأنَّهُ ليس للمسيحية الشمالية خِيارٌ سِوَى العمل السريع المُحْكَم ، واهتبالِ الغفلة المحيطة بهذه « اليقظة » الوليدة ، ومُعَاجَلَتها فى مَهْدها قبل أن يتمَّ تمامُها ويستفحلَ أمرُها ، وتُصبحَ قُوَّة قادرةً على الصراع والحركة والانتشار ، فإنه إن تَمَّ ذلك ، فما هو إلاّ أن تعودَ الحربُ بين الشمال والجنوب جَذَعةً ، وعندئذٍ لا يضمنُ أحدٌ مَغَبَّةَ الصراع المشتعل بين سلاحَينِ مُتكافئين ، وثقافتين مُتكاملتين . لا يضمنُ أحدٌ لأىٍّ الفئتين تكون الدُّولةُ والغلبة والسيادة . فَزِع « الاستشراق » لعلمه أنّ الفَرْقَ بيننا وبينهم كان يومئذ خُطْوةً واحدةً تُستَدْرَكُ باليقظة وبالهمَّة والصبر والدَّأْبِ لا أكثر ، (اقرأ ما سلف : ٨٦ ، ٨٧) . وكما ترَى عياناً ، فإن « الاستشراق » هو عينُ « الاستعمار » التى بها يُبْصِر

ويحدِّق ، ويدهُ التى بها يُحِسُّ ويبطش ، ورجْلُهُ التى بها يمشِى ويتوغَّل ، وعقلُه الذى به يفكِّرُ ويستبينُ ، ولولاهُ لظلَّ فى عَمْيائه يتخبَّط ، (ما سلف : ٨٧) .

وقد حدثْتُك من قبلُ ، (اقرأ ما سلف : ٨٨ ، ٨٩) أنَّ نذير « الاستشراق » للمسيحية الشمالية بالخطر المُدلَهِمّ الذى تهدّدهم به يقظة دار الإسلام كان نذيراً مروِّعاً حاسماً . أما إنجلترا فأسرع مستشرقوها إسراعاً حثيثاً إلى سواحل جزيرة العرب الشرقية ، حيث قامَ « محمد بن عبد الوهاب » ، وبالدهاءِ والمكر والدسائس جاءت فى زِىِّ الناصر والمعين ، لتتدسَّسَ إلى يقظة « ابن عبد الوهاب » ، لتتّخذ عندها يداً ، وبها تسيطر عليها وتحتويها ، ومن وراء ستار كانت تؤلِّب تركية وتؤلِّبُ جاراتها وتخوِّفهم ، لتطوِّق اليقظة تطويقاً يحول بينها وبين الانتشار . أما فرنسا التى طردتها إنجلترا من الهند كلها سنة ١٧٦١ م / ١١٧٥ هـ ، فآبت إلى ديارها تلعقُ جراحَها ، وجعلت تُعِدُّ العُدّة وتفكِّر فى اختراق دار الإسلام فى مصر ، لوأْد « اليقظة » المخوفة العواقب التى بعثها « البغدادىُّ » . و « الزَّبيدىُّ » و « الجبرتىُّ الكبير » فى مصر ، فهى « يقظة » يُخْشَى أن تؤدِّىَ إلى يقظة دار الإسلام كُلِّها ، بما فيها اليقظة المتفجِّرة المتحركة الجديدة فى جزيرة العرب ، فإذا تمّ اندماج اليقظتين فلا يعلم إلاَّ الله كيف يكون المصير ؟

أظنُّه بات الآن منكشفاً لك كلَّ الانكشاف ، خَبْءُ العلاقةِ بين تواريخ « اليقظة » و « النهضة » يومئذٍ فى دار الإسلام ، وتواريخ التقارير والمذكّرات التى كتبها رجال « الاستعمار » من ساسةِ المسيحية الشمالية = وبات منكشفاً لك أيضاً كلَّ الانكشاف ، أنّه لولاَ خبرةُ « المستشرقين » حملةِ هموم المسيحية ورهبانِها المتبتِّلين الذى كانوا يجوبون دار الإسلام ويُقيمون فيها فيُطِيلون الإقامة ، ثم يُمدُّون هؤلاءِ الساسة بالملاحظات والمخاوفِ ، لَمَا اتفقت هذه التواريخ هذا الاتِّفاق البيِّن الذى عَمِيْت عنه اليوم حياتُنا الأدبية الفاسدة كلَّ الفساد ، وألسنتُها الثرثارةُ المتشدّقة بأوهام « الأصالة

والمعاصرة » و « القديم والجديد » ، و « الثقافة العالمية » ، وبالقضية الهزليّة « قضيّة موقفنا من الغرب » ، على الصورة التى لا يزال يردّدها الدكتور زكى نجيب محمود فيما يكتب ، مستدلاً بحادثة لم تحدُث قطٌّ بين مشايخ الأزهر وعلماء الحملة الفرنسية ، ليس لها سندٌ تاريخىّ صحيح ولا باطل ، وإنما هى كَذِبٌ مُصْمَتٌ ، لا أدرى مَنْ تَكذَّبه ، ففُتِن به الدكتور زكى وحُبِّب إليه تَرْدادُه مرّاتٍ فيما يكتب ، (انظر ما سلف : ٩١ ، ٩٢) .

والذى لا شكّ فيه أن « جذورَ قضيَّتنا » كامنةٌ فى نذير « الاستشراق » للمسيحية الشمالية ، والذى أدّى إلى انقضاض الفتى الصليبىِّ المُحْترِقِ المُبيرِ « نابليون » بغتةً على دار الإسلام فى مصر ، لوأدِ « اليقظة » و « النهضة » ومعاجَلتها فى مَهْدها قبل أن يشتدَّ عودها وتستفحلَ ، فيسفح الدِّماءَ سفحاً لم يفعل مثله « جنكيزخان » ، فيضحِّى عند مشرق كلِّ شمسٍ بخمسةٍ أو ستَّة ، ويُطاف برؤوسهم فى شوارع القاهرة ويأمر قوّاده أن يتشبَّهوا به ، (ما سلف : ١٠٠ ، ١٠٤) ، ويهديه « الاستشراق » أن يختارهم من الطلبة النابهين من ورثة « الزبيدىّ » و « الجبرتىّ الكبير » ، (ما سلف : ١٠٤) ، ليستأصل بذلك « اليقظة » من جذورها ، ويشتِّت بالإرهاب مَنْ أفلت من براثنه الملوَّثة الدامية . ولكى يضمن هذا الجزّار بعد ذلك أن لا يشِبَّ الصراعُ المشتعِلُ بين سلاحين متكافئين ، وثقافتين مكتملتين . وضع هذا الفتى الأهوجُ المحترِق مشروعه الذى بيَّنه لخليفته « كليبر » : « أن يجمع ٥٠٠ ، أو ٦٠٠ شخص من المماليك ، فإن لم يجد عدداً كافياً من المماليك ، فليستعض عنهم برهائن من العرب ومشايخ البلدان ، ويسفِّرَهم إلى فرنسا ، فيحجزوا فيها مدةَ سنة أو سنتين ، ليشاهدوا فى أثنائها عظمة الأمّة الفرنسية ، ويعتادوا على لُغَتنا وتقاليدنا . فإذا عادوا إلى مصر كان لنا منهم حزبٌ يُضَمُّ إليه غيرهم » ، ووعده كليبر أن يرسل إليه جوقة تمثيلية «لأنها ضرورية للبدءِ فى تغيير تقاليد البلاد » ، (ما سلف : ١٠٨) = وأرادَ بذلك أن يضمنَ تمزيقَ « الثقافة المتكاملة » التى هى ثقافتنا ، وأن

يقتلعها من جذورها ، ويحفرَ لها قبراً تتألَّقُ أنوارُه الفرنسية الساطعةُ ، ويدفِن فيه « اليقظَة » و « النهضَة » إلى غير رجعةٍ .

ثم يكتب إلى الجنرال « زايو نشك » قومندان المنوفية ، فى ٣٠ يوليه ١٧٩٨ م : « يجب أن تعاملوا التُّرْك ، (أى المسلمين) ، بمنتهى القسوة ، وإنى هنا أقتُل كُلَّ يوم ثلاثة ، آمُرُ أن يُطافَ برؤوسهم فى شوارع القاهرة ، فهذه هى الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس ، وعليكُم أن توجِّهوا عنايتكُم لتجريد البلاد قاطبةً من السلاح » ، (ما سلف : ١٠٠) ، وكذلك فعل نابليون نفسه فى القاهرة بالإرهاب ، فسارع الناس إلى إخفاء الأسلحة ، وكانت أسلحة الأهالى والجند الفرنسيين متكافئة ، أما تفوّق الفرنسيين فكان فيما عندهم من المدافع التى استعملوها فى هَدم الدُّور والمساجد ودكِّ القاهرةِ دكّاً متواصلاً . فأراد نابليون « بتجريد البلاد قاطبة من السلاح » ، أن يضمن بهذا « التجريد » أن يُبْطل قدرة « السلاح المتكافىء » على مقاومة جُنْده وإبادَتِهم جَهْرةً واغتيالاً ، وأن يصل بسفحه الدماءَ إلى إخضاع الناس ، كما قال .

هذه هى « جذور القضيّة » التى غَفَل عنها الناس يومئذٍ ، ولا تزال حياتنا الأدبية الفاسدة اليومَ غافلةً عنها كُلَّ الغفلة ، فكتَّابنا ومؤرِّخونا اليومَ هم كما قال المتنبِّى فى ملوكِ زمانه :

أَرَانبُ ، غيرَ أنَّهُم مُلوكٌ ، مُفَتَّحةٌ عُيُونُهُمُ نِيامُ

والأرنبُ تنامُ مفتوحةَ العين ، فربما جاءها القنَّاصُ فوجدها كذلك ، فيظنُّها مستيقظة ، فإن كان على علم بحالها أخذها من قريبٍ أخذًا هيِّناً بلا مؤُونة ولا تعبٍ !!

* * *

ولكن ، لا أستطيع أن أتركك حتى تكون على بيِّنة واضحةٍ من عمل

« الاستشراق » فى دار الإسلام ، فإنه كان عملاً دائباً طويلَ الأمدِ ، متعدِّدَ وجوه النَّشاط ، منذ أخذ يَدِبُّ دبيباً مستخفياً فى تَأْنَاةٍ زحفه الخفِىّ الوطء على دار الخلافة فى تركية ، وعلى الشام ، وعلى مصر ، وعلى جوف إفريقية وممالكها المسلمة ، (ما سلف : ٥٣ ، ١٠١) . فعلى تطاوُل السنين ، ومع ازديادِ خبرته يوماً بعدَ يوم بكلِّ صغيرة وكبيرة فى دار الإسلام ، ومع شُعوره بالأمنِ وهو يجوبُ دار الإسلام غيرَ مُرَوَّع ، ولسماحةِ أهل الإسلام عامَّتهم وخاصّتهم مَع مَنْ دينُه يُخالف دينَهم من اليهود والنصارى ، لأنهم أهلُ كتابٍ وأهلُ ذِمّةٍ من أتباع الرسولين الكريمين موسى وعيسى ابن مريم عليهما السلام ، فيسَّر ذلك لهم خاصةً أن يُداهِنوا العلماء والعامّة وينافِقُوهم ويوهِموهم بالمكر والمِحَال أنّ صدورَهم بريئةٌ ، وقلوبَهم خالصةٌ لحُبِّ العلم والمعرفِة = وأيضاً لِمَا كانت دار الإسلام غارقةً فيه من الغَفْلة المُطْبِقة التى أورثتهم إيَّاهَا الاستِنَامة إلى النصر القديم على المسيحية الشمالية ، واغترارهم بالنصر الحادث القَريب بفتح القسطنطينية وتدفُّق جيوش الترك المظفّرين فى قلب ديار المسيحية الشمالية ، (انظر ما سلف : ٤٨) = كُلُّ ذلكَ زاد « الاستشراق » أماناً واطمئناناً ، وأغراه إغراءً شديداً بإعدادِ العُدَّة لتحقيق « الأهدافِ » و « الوسائل » التى طوَى عليها قَلْبَه ، بفهم وبَصِيرة وإخلاصٍ وعقْلٍ وصبرٍ ودهاءٍ ورِفقٍ وتستُّرٍ ، (اقرأ ما سلف من : ٤٧ - ٥١) .

ومن يومئذٍ بدأ « الاستشراق » تحقيقَ الزَّحف الشامل الذى يُعَدُّ لاختراق قلب دار الإسلام بلا قعقعة سلاح ، زحفٌ صامتٌ مصمِّمٌ خفيُّ الوَطءِ ، سوف يضمُّ ألوفاً مؤلّفَة من أشتاتِ الناس على اختلاف أجناسهم ، ما بين تاجر وصانع ومُغامرٍ وسائحٍ ومبشّر وسياسيٍّ وراهب وطالبِ معرفةٍ وأفَّاقٍ وصفَّاقٍ ومتكسِّبٍ ، والنيَّة أن تتكون على الزمن من هؤلاءِ الأشتاتِ جالياتٌ كبيرة تقيم فى دار الإسلام ، تعاشر المسلمين فتطول عِشْرتُهم أو تقصر ، (اقرأ ما سلف : ٥٦ ، ٥٧) . كانَ « الاستشراق » هو الذى يُعبِّئُ هذه الجيوشَ ويُحمِّل أفرادَها ما يحملُه هو من هموم المسيحية الشمالية ، ويغذِّيهم بكلِّ ما فى

قلبه من الأحقاد المكتَّمة ، ولهيب البغضاء الغائرة فى العِظَام ، ويدرِّبهم على الدهاءِ والمكر ، وعَلى اتخاذ أقنِعة البراءة والبِشْر والمداهنة والنِّفاق فى معاشرة أهلِ دار الإسلام ، ويُعينُهم بخبرته الواسعة على اليقظة والتنبُّه ، ومراقبة كُلِّ صغيرة وكبيرة من أحوالِ مَنْ يخالطونهم من العامّة والخاصة ، والملوك والسُّوقة ، والرجال والنساءِ .

وتطاولت السِّنُون حتى استطاعَ « الاستشراق » أن يكوِّن فى قلب دار الإسلام جالياتٍ صغيرة متخيَّرةً بفهمٍ ودقَّةٍ من شعوب المسيحية الشمالية ، عمادُها الرجالُ الذين يحترفونَ التجارة ، ويعرفون العربية وغيرها من لغات دار الإسلام ، ويقيمون فى دار الإسلام مُدَداً طويلةً ، حتى يألَفُوا الناسَ ويألَفَهم الناسُ ، ويتقَّوضَ جدارُ التوجُّس والتخوُّف والشَّك فى هذه الأشباح الغريبة التى تتجوَّل فى الطُّرُقات والشوارع آمنةً غيرَ مفزَّعةٍ ولا مروَّعةٍ . فلما كان زمان « اليقظة » و « النهضة » فى دار الإسلام فى مصر خاصة ، فى القرن الحادى عشر والثانى عشر الهجرى ، (القرن السابعَ عشر والثامنَ عشر الميلادىّ) ، (انظر ما سلف : ١١٦) ، هبّ « الاستشراق » هَبَّة الفزع الأكبر ، وكان نذيرُه الحاسمُ المروِّعُ للمسيحية الشمالية بالخطر المدلهمّ الذى تهدِّدها به « اليقظة » و « النهضة » التى انبعثت من مصر خاصة = يومئذ كانت الجاليات الصغيرة قد صارت جالياتٍ كبيرة من تُجَّار شعوب المسيحية الشمالية ، وتفاقم أمرها حتى أفزع المماليك المصرية ، وارتابوا فى هذه الكثرة التى أخذت تتوافد زَرافاتٍ ووُحداناً باسم التجارة ، وخامرهم الشك فى مقاصدهم وفى تحرُّكاتهم ، فأخذوا يفرضون الإتاوات الثقيلة المختلفة على متاجرهم ، ويسومونهم العَنَتَ والمشقّة حتَّى تَبُور تجارتهُم ، وحتى يضطروهم إلى الرحيل عن مصر . فأوعز « الاستشراق » الفرنسىُّ خاصة إلى التجار أن يَجأروا إلى حكومتهم بالشكوى من سوء ما يصيبهم من معاملة المماليك المصرية ، وعلى رأس هؤلاء التجار « مجالون » الذى كان تاجراً مقيماً فى مصر أكثر من ثلاثين سنة ، (انظر ما سلف : ١١٥) ، والذى ظل يقدِّم إلى حكومة فرَنسا التقارير والمذكرات عن عبث المماليك المصرية بمصالح التجار

الفرنسيين ، وأنه لا سبيل إلى إزالة هذا العبث إلاّ إذا استخدمت الجمهورية الفرنسية القوّة فى رَدْعهم ، وذلك (سنة ١٧٩٣ م) وما بعدها ، ثم رحل « مجالون » إلى فرنسا سنة ١٧٩٧ م ليحضَّ رجال الدولة على احتلال مصر . فاستجابَ له « تاليران » وزير الخارجية ، و « نابليون بونابرت » ، فكانت « الحملة الفرنسية » على مصر سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م ، أى بعد تحضيضه بسنة واحدة ، (ما سلف : ١١٦) .

وفى خلال هذه الفترة ، ما بين ما كان من تحريض الفيلسوف الألمانى « ليبنتز » لويسَ الرابعَ عشر الفرنسى على غزو مصر فى سنة ١٦٧٢ م ، (انظر ما سلف : ١١٣ ، ١١٤) ، وبين صَرْخة « مجالون » فى سنة ١٧٩٣ م وسنة ١٧٩٧ م = كان « الاستشراق » يتولى فى مصر عملاً خبيثاً آخر ، ويجنِّد فيها جُنْداً من الأرمن والأروام والمالطيين وغيرهم ، ويحمِّلهم ما فى قلبه من هموم المسيحية الشمالية ، ويغذِّيهم بالأحقاد المكتَّمة ، وبلهيب بغضائه الغائرة فى العظام ، ويدرِّبهم على الدهاء والمكر ، وعلى اتخاذ أقنعة البراءة والبشر والمداهنة والنفاق فى معاشرة أهل دار الإسلام ، ويعينهم بخبرته الواسعة على اليقظة والتنبُّه والمراقبة = ويحشُدُ معهم أيضاً طوائف من يَهود الشمال ومن اليهود المقيمين فى دار الإسلام فى مصر ، ويستزلُّ طوائف من شُذَّاذ الآفاق من أهل دار الإسلام وغير دار الإسلام ، كنصارى الشام وسِفْلة المغاربة ، يستأجرهم لتوسيع خبرته تارة ، وتارة أخرى لبثِّ أفكارٍ دَرَسها « المستشرقون » ، أو ظنوا أنهم درسوها وأتقنوها ، ويحاول « الاستشراق » أن يُشيعها بين جماهير دار الإسلام فى مصر خاصَّتِها وعامَّتها ، وللتحكُّم فى تصريف أموره وغاياته ، ثم للتمكُّن من إشعالِ نار الفتنة حين يقتضى الأمر إحداثَ فِتَنٍ تُفرِّق شَمْل الناس وتمزِّقُهم وتَشْغَلُهم عن الكيد الخفىّ الذى يُرَاد بهم . وكلُّ هذا كان يتمُّ فى هدوءٍ وصبرٍ وتستُّرٍ ، ومن وراءِ الغفلةِ ، غَفْلَةِ أهل دار الإسلام عن جذور قَضيّتهم ، (اقرأ ما سلف : ١٠١) . وقد ظهر أثر هذه الحشود جليًّا واضحاً فى زمان الحملة الفرنسية ، وفى البلايا التى حدثت منهم خلالَ ثورات القاهرة التى اشتعلت على جيش الغزاة الفرنسيين ، مما

كاد يفتُّ فى عَضُد الثوّار ويبعثر خطاهم ويشتّت شَمْلهم . وتستطيع أن تقف على جليَّة أمر هذا البلاء فيما أثبته الجبرتىُّ الصغير فى تأريخ الحملة الفرنسية من كتابه ، وفى الجزء الأول والثانى من تاريخ الحركة القومية للرافعىّ ، (١) لولا ما فى هذا الكتاب من الغفلة وسوء التأويل للأحداث والألفاظ ، فآحذره أشدّ الحذر .

* * *

وفى خلال هذه الفترة أيضاً ، تكاثر عدد « المستشرقين » حملةِ هموم المسيحية الشمالية ، وتوافدوا على مصر فى كلِّ زِيٍّ : زِيِّ طلبة العِلْم والمعرفة ، وزِيِّ السائح المتجوِّل فى ربوعها شمالاً وجنوباً ، وأخطرُهم شأناً مَنْ لبس منهم زىَّ أهلِ الإسلام ، وجاوَر فى الأزهر ، ولازَمَ حضورَ دروسِ المشايخ الكبار ، وصلَّى مع أهل الإسلام وصام بصيامهم ، وخالط جماهير طلبة الأزهر مسلماً لا يرتابُ فيه أحدٌ ، ولا يعرف أحدٌ حقيقتَه أو أصل بلاده التى جاءَ منها ، وإنّما هو مسلم كسائر المسلمين الذى يجاورون فى الأزهر من كل جنس ولونٍ . وكثيرٌ من هؤلاءِ من أقامَ فى دار الإسلام إقامةً طويلةً متمادِيةً ، كالمستشرق الداهية المحنَّك المتستّر الخفىّ الوَطْءِ « فانتور » ، الذى قضى أربعين سنة يتجوّل فى دار الإسلام ، والتحق بعدئذ بالحملة الفرنسية ، فكانَ شيطانَ نابليون ومستشاره وخليلَه ونجيَّه الذى لا يفارقُه فى الحلّ والتَّرْحَال ، (انظر ما سلف : ٩٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥) ، وكان ، كما قال الجبرتى : « لبيباً متبحرّاً يعرفُ اللغات التركية والعربية والرومية والطلياني والفرنسى » ، (تاريخ الجبرتى ٣ : ٦٨) . ومع أن الجبرتىّ الصغير لم يحدِّثنا عنهم قَطُّ فى تاريخه قبل الحملة الفرنسية ، لأنه كانَ غافلاً كُلّ الغفلة ، إلاّ أنه حدثنا عنهم زمن الحملة الفرنسية فقال :

---

(١) انظر ما كتبته عن الرافعى فيما سلف : ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١٠٩ – ١١١ .

« وكثيرٌ من الكتب الإسلامية مترجَمٌ بلغتهم ، ورأيت عندهم كتاب الشِّفاء للقاضى عياض ، ويُعَبِّرون عنه بقولهم : « شِفاءٌ شريفٌ » ، والبُرْدَةَ للبُوصِيرى ، ويحفظون جملةً من أبياتها وترجموها بلغتهم ، ورأيت بعضهم يحفظ سُوَراً من القرآن ، ولهم تطلُّع زائد للعلوم ، وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات ، واجتهادٌ كبيرٌ فى معرفة اللغة والمنطق ، ويَدْأَبون فى ذلك الليلَ والنهارَ . وعندهم كتبٌ مُفْرَدَة لأنواع اللغاتِ وتصاريفها واشتقاقاتها ، بحيث يسهُل عليهم نَقْلُ ما يريدون من أىِّ لغةٍ كانت إلى لغتهم فى أقرب وقت » ، (تاريخ الجبرتى ٣ : ٣٤ ، ٣٥) .

وهذا الذى حدثنا عنه الجبرتى بعد الحملة لا يتمُّ لأحدٍ إلاّ بعد أن يكون قد أطال الإقامة فى دارِ الإسلام ، وبعد التلقِّى الطويل عن المشايخ الكبار والصغار ، وبعد الاندماج الكاملِ بأهلِ الإسلام . وإغفالُ الجبرتىّ الحديثَ عن أحد منهم قبل الحملة ، دليلٌ بَيِّنٌ على أنّ ذلك كُلَّه قد تَمَّ فى خفاء وتستُّرٍ ، لم يُتِح لمثل الجبرتىّ أن يتنبّه لهم ، أو أن يعرفَ من أمرِ وجودهم فى مصر شيئاً يحمله على التنبُّه . و « فانتور » الذى أقام فى دار الإسلام فى مصر وغيرها أربعين سنة ، لم يعرف الجبرتى عنه شيئاً إلاّ بعد مجيئه مرافقاً للحملة الفرنسية ، فلقيَه عندئذ مكشوفَ القناع ، فوصَفه لنا بما وصفه ، كما مرَّ آنفاً .

ولم تكن إقامة « المستشرقين » فى دار الإسلام فى مصر ، لمجرَّد طَلَب العلم والمعرفة ، بل كانوا يتجوَّلون ويراقبون عمل الجاليات التى حشدُوها وتولَّوا تغذيتَها وتربيتَها على ما فى قلوبهم من حمل هموم المسيحية الشمالية ، وإعانتها بخبرتهم الواسعة على اليقظة والتنبُّه والمراقبة = وأيضاً كانت إقامتهم لمراقبة « يقظة » دار الإسلام التى أفزعتهم حتى أرسلوا نذيرهم الحاسم المروِّع للمسيحية الشمالية = وأيضاً لتكون خبرتُهم بجماهير الأمة مجتمعةً وبطوائفها المختلفة ، خبرةً متغلغلةً تفضِى إلى خبرةٍ بأفراد رجالٍ بأعيانهم واحدًا واحدًا ، معروفاً عندهم باسمه ومكانه وحركته ، وبمواطن ضعفه وقُوّته ، وبمكامِن

الهوى المَيَّالِ الذى يستجيب ، والإرادة المصمِّمة التى تمتنع عن الاستجابة . فهى خبرةٌ مدروسة منظَّمة واضحة المعالم فى ذهنِ « الاستشراق » ، (ما سلف : ١٠١) .

• وفى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى (سنة ١١٩٠ هـ / ١٧٧٦ م) ، لا يُدْرى كيف اختلَّت هيبة المشايخ الكبار فى قلوب بعض المماليك ، فأخذوا بالعَسْفِ القبيح أحد المشايخ ، (هو الشيخ عبد الباقى بن الشيخ عبد الوهاب العفيفى) ، أهانوه وقبضوا عليه ، ووضعوا الحديد فى رقبته ورجليه ، وأحضروه فى صورة منكَرةٍ ، وحبسه الأمير المملوك فى حاصل أرباب الجرائم من الفلاحين . فركب الشيخ على الصعيدىّ العدوىّ والشيخ الجدَّاوىّ وجماعةٌ كثيرة من المتعمِّمين . وقال الشيخ الصعيدىّ العدوىّ للأمير : ما هذه الأفعال وهذا التجارى (أى الجرأة) ؟ فقام الأمير على أقدامه وصَرَخ : والله أكسِرُ رأسك . فصرخ عليه الصعيدىّ وسبّه وقال له : « لعنك الله ولعن اليَسَرْجىّ (تاجر الرقيق) الذى جاء بك ، ومَنْ اشتراك ومن جعلك أميراً » . وتوسّط بينهما الحاضرون من الأمراء يسكِّنون حِدّته و حِدَّتهم ، وأحضروا الشيخ عبد الباقى من السجن ، فأخذوه (أى المشايخ) وخرجوا به وهم يسبُّونه وهو يسمعهم . (الجبرتى ٢ : ١٨) .

• واتّفق فى ذلك الوقت أيضاً أن امرأة ذهبت تشكو الشيخ عبد الرحمن العريشى (مفتى الحنفية) إلى المملوك يوسف بك ، فأحضره وحبسه عند الخازندار ، فركب إليه شيخ السادات ، وكلمه فى أمره وطلبه من مَحْبِسه . فلما رأى العريشىُّ شيخ الساداتِ رمَى عمامته وصرخ وخرج يعدو مسرعاً مكشوفَ الرأس وهو يقول : « بيتُك خرابٌ يا يوسف بك » ، وكان يوسف جالساً مع شيخ السادات فقام على أقدامه ، وصار يصرخُ على خدمِه : « أمسكوه ، اقتلوهُ » ، وشيخ السادات يقول له : « أى شىءٍ هذا الفعل ؟ اجلس يا مبارك » . ونزل الشيخ وأخذ العريشىّ فى صحبته إلى داره ، وتلافوا القضية وسكتوها . يقول الجبرتى : « ثم حصل ما حصل فى الدعوى المتقدمة وما ترتب عليها من الفتنة ، وقَفْل الجامع (الأزهر) ، وقتل الأنفس » (الجبرتى ٢ : ١٨) .

• وقد نقلتُ هاتين الحادثتين لأنهما بدءُ الانشقاق الذى حدث بين المماليك والمشايخ ، ولأنهما نبَّها المشايخ إلى عسف المماليك وجَوْرهم ، ثم تتابعت الحوادث بعد ذلك ، وكانت ثورة الجماهير على مظالم المماليك ، وذهابهم إلى الجامع الأزهر ، وشكواهم إلى المشايخ ، فيترك المشايخ دروسهم ، ويغلقون الجامع الأزهر ، ويخرجون على رأس الجماهير ، ويطالبون المماليك برفع الظُّلمِ عن الناس ، حتى كانت آخر حادثة وقعت بينهم فى سنة ١٢٠٩ هـ / ١٧٩٤ م ، (أى قبل الحملة الفرنسية بأربع سنوات) ، حين جاء أهل قرية بشرقية بلبيس يشكون الأمير محمد بك الألفى وأتباعه الذى ظلموهم وطلبوا منهم ما لا قدرة لهم عليه ، واستغاثوا بالشيخ الشرقاوى ، فاغتاظ حين سمع شكواهم ، فحضر إلى الأزهر وجمع المشايخ ، وقفلوا أبواب الجامع ، وأمروا الناس بإغلاق الأسواق والحوانيت . ثم ركبوا فى ثانى يوم ومعهم خلقٌ كثير من العامّة وذهبوا إلى بيت الشيخ السادات . فأرسل لهم المماليك أميرًا يسألهم عن مطالبهم ، فقال المشايخ : « نريد العدل ، ورَفْع الظلم والجور ، وإبطالَ الحوادثِ والمكوسات التى ابتدعتموها وأحدثتموها » . فقال لهم : « حتى أبلِّغ » ، وانصرف ولم يَعُدْ لهم بجواب ، وانفضّ المجلس . وركب المشايخ إلى الجامع الأزهر ، واجتمع أهل الأطراف من العامّة والرعية ، وباتوا بالمسجد . وفى اليوم الثالث اجتمع الأمراء وأرسلوا إلى المشايخ ، فحضر الشيخ السادات ، والسيد النقيب (نقيب الأشراف عمر مكرم) ، والشيخ الشرقاوى ، والشيخ البكرى ، والشيخ محمد الأمير ، ومنعوا العامة من السير خلفهم ، ودار الكلام بينهم وطال الحديث ، وانحطَّ الأمر على أنهم تابوا ورجعوا بما شرطه العلماء عليهم ، وانعقد الصلح بينهم على أن يرفعوا عن الناس المظالم المحدثة والكشوفيات والتفاريد والمكوس ، وأن يكفُّوا أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس ، ويسيروا فى الناس سيرة حَسَنَةً . وكان

القاضى حاضراً بالمجلس ، فكتب حُجَّةً عليهم بذلك . فوقع الأمراء عليها ، [١] ورجع المشايخ وحول كل واحدٍ منهم وأمامه وخَلفه جملةٌ عظيمة من العامة وهم ينادون : « حَسْبَ ما رسم ساداتُنا العلماء ، بأنّ جميع المظالم والحوادث والمكوس بَطَّالة من مملكة الديار المصرية » = ويعقّب الجبرتى على ذلك بقوله : « وفرح الناس وظنُّوا صحَّته ، وفتحت الأسواق ، وسكن الحال على ذلك نحو شهرٍ ، ثم عاد كُلّ ما كان مما ذُكِر وزيادة » (الجبرتى ٢ : ٢٥٨ ، ٢٥٩) .

• وأخفى الجبرتى عنّا كُلَّ ما كانَ فى سنة ١٢١٠ / ١٧٩٥ م ، وبدأها بقوله : « لم يقع فيها من الحوادث التى يُعْتَنى بتقييدها سوى مثل ما تقدم من جور الأمراء والمظالم » ، وبدأها بسطر واحدٍ فى غُرة ذى الحجة ، ثم شرع يذكر الوفيات ، (٢ : ٢٦٢ إلى ٢٦٧) . ثم جمع السنتين ١٢١١ ، ١٢١٢ هـ / ١٧٩٦ ، ١٧٩٧ م ، معاً وقال أيضاً : « لم يقع فيهما من الحوادث التى تقيَّد فى بطون الطروس سوى ما تقدمت الإشارة إليه ... وحضر طائفة الفرنسيس إثر ذلك فى أوائل السنة التالية ، كما سيأتى خبر ذلك مفصلاً » ، ثم شرع فى ذكر الوفيات (٢ : ٢٦٧ — ٢٧٥) ، ختامَ الجزء الثانى من تاريخه . وهذا أمر غريبٌ جدًّا ، كأنّ مظالم المماليك التى عادت جَذَعة ، ونَقْضَهم الحُجَّة التى وقَّعوها بعد شهرٍ واحدٍ من تحريرها ، لم يكنْ لها وقعٌ عند جماهير الناس ولا عند المشايخ . هذا أمرٌ مستبعدٌ بلا شك ، وإنما شُغِل الجبرتى عن سَرْد حوادثها بما نزل بالبلاد من البلاء الماحق بحضور الفرنسيس ، فاختصر السنوات الثلاث اختصارًا ليس له شبيه فى كتابه .

---

(١) أخطأ الجبرتى خطأ كبيراً حين لم يثبت فى كتابه نصَّ هذه الوثيقة كاملةً وعليها توقيع الأمراء ، ولكن مضمونها على كل حالٍ أفضل مئات المرات من وثيقة « الماجنا كارتا » (سنة ١٢١٥ م) ، التى حاول الإنجليز ، فيما بعد ذلك بقرون ، تفسيرها على أنها ضمانة للحريات . وقد ضاعت هذه الوثيقة فيما ضاع وأتلف فى زمان الحملة الفرنسية .

• كُلّ هذا كان يَقعَ بمرأًى ومَسْمعٍ من « المستشرقين » وأعوانهم ، وأدرك « المستشرقون » أن هذه الحوادث المتتابعة التى انتهت بإعلانِ المماليك تَوْبتَهم ورجوعهم عن مظالمهم ، حتى اضطرُّوا إلى توقيع وثيقةٍ يشهدون فيها على أنفسهم بالتوبة ، وتعهّدوا فيها برفع المظالم عن الناس ، إنما كان نتيجةً متوقّعَةً نابعةً من « اليقظة » و « النهضة » التى أخذت تَعُمُّ دار الإسلام فى مصر = وتبيَّنوا أيضاً أنّ مشايخ الأزهر قد صاروا طليعةَ هذه « اليقظةِ » وقادتَها ، وأن سُلْطانهم على العامّة والجماهير ، قد أرهب المماليكَ وأفزعهم . ولولا أن الجبرتىّ قد أخفَى عنا موقف المشايخ والجماهير فى ثلاث سنواتٍ بعد توبتهم ، ثم نقضهم العهدَ وعودتِهم إلى الجور والظُّلم ، لرأينا الصِرَاع واضحاً جليًّا بين المشايخ قادةِ الجماهير ، وبين المماليك الذين غرَّهم ما كانوا يتمتَّعون به من السلطان على الجماهير ، وما استمرأُوه من إيقاع الجور والمظالم ، وسكوت الجماهير واستكانتهم لهم زمناً طويلاً قبل ذلك = ولعرفنا أيضاً أسماء كثير من المشايخ الذين كانوا طليعةَ « اليقظة » وقادتَها فى هذه المُدَّة من تاريخ دار الإسلام فى مصر = ولربَّما عرفنا أيضاً أسماء مَنْ انحاز من أمراء المماليك يومئذ إلى المشايخ والجماهير ، وانشَقَّ عن جَمْهرة الأمراء المماليك الذين أصرُّوا على جورهم ومظالمهم وعِنادهم ، ورجعوا عن تَوْبتهم التى شهدوا بها على أنفسهم فى الوثيقة أنهم تابوا ورجعوا عن المظالم .

• ومع ذلك ، فقد أوقفنا الجبرتىُّ على أسماء ستة من المشايخ الكبار الذين شاركوا فى الثورة على المماليك وهم : « الشيخ العَرِيشى » مفتى الحنفية ، و « الشيخ السادات » ، والسيد نقيب الأشراف « عمر مكرم » ، و « الشيخ عبد الله الشرقاوى » شيخ الأزهر ، و « الشيخ البكرى » ، و « الشيخ محمد الأمير » . وهؤلاء الستة كانوا ضمن التسعة الذين سجَّل أسماءهم « نابليون » فى أمره الذى أصدره بتكوين « الديوان » فى أوّل ساعةٍ وَطِئت قدمُه فيها القاهرة ، (يوم الثلاثاء ١٠ صفر سنة ١٢١٣ هـ / ٤ يوليه سنة ١٧٩٨ م) ، وكان تمام التسعة : « الشيخ مصطفى الصاوى » ، و « الشيخ سليمان

الفيومى » و « الشيخ موسى السرسىّ » ، فرفض ثلاثة من الستة الأُوَل أن ينضمُّوا إلى الديوان ، وهم : « السادات » و « عمر مكرم » و « محمد الأمير » ، فأحلّ محلَّهم نابليون ثلاثةً آخرين هم : « الشيخ مصطفى الدمنهورى » و « الشيخ يوسف الشبراخيتى » و « الشيخ محمد الدواخلى » .

كيف استجابَ هؤلاء التسعة من المشايخ العُلماء الكبارِ لغازٍ مسيحىّ بهذه السُّرعة العجيبة ؟ كيف استجابوا وهم يعلمون صريحَ أوامر الله وأوامر رسوله بقِتال الغُزاة لدار الإسلام ؟ كيف استجابوا وهم كانوا بالأمس القريب قد ثاروا على الأمراء المماليك يطالبونهم بإقامةِ الشَّرْع ؟ كيف خافوا وضَعُفوا وأخطأوا الطريق ، وكان لهم مندوحة فى رفض الاستجابة ، كما فعل ثلاثة من إخوانهم العلماء الكبار ؟ ينبغى أن يكون لهذه السرعة فى الاستجابة بلا تردُّد تفسيرٌ يقبله العقل ، ويمهِّد لهم عُذْرًا يقبله العقل أيضاً على مَضَضٍ .

● لمّا أظلَّ زمانُ مجىء الحملة الفرنسية ، وكان معلوماً بلا شَكٍّ للمستشرقين المقيمين فى دار الإسلام فى مصر ، نَشِط « الاستشراق » وأعوانه وجالياته من شذَّاذ الآفاق الذين عبَّأهم وجنَّدهم ، كما أشرت إليه فيما سلف (ص : ١٢٣) = نَشِط « الاستشراق » نَشاطاً سريعاً خفِيَّ الوَطْء فى ميادين مختلفة ، لبثِّ أفكار درسوها وأحكموها ، وأرادوا أن يشيعوها بين جماهير دار الإسلام فى مصر ، للتحكُّم فى تصريف أموره وغاياته ، وللتمكُّن من إشعال نيران الفِتَن حين تنزل الحملة الفرنسيَّة أرض مصر ، ليفرِّقوا بهذه الفِتن شَمْلَ الناس ويمزِّقوهم ويَشْغَلوهم عن الكَيْد الخفىّ المكيافيلّى الذى يُرَادُ بهم ، (ما سلف : ١٠١ ، ١٢٣) .

كان أكبرُ نشاط « الاستشراق » موَجَّهاً إلى المشايخ الكبار الذين ثاروا بالأمس القريب على طائفة الأمراء من المماليك المصرية مرَّات ، حتَّى خضعوا ووقَّعُوا على وثيقةٍ

يشهدون فيها على أنفسهم بالتوبة ، ويتعهَّدون فيها برفع المظالم التى أوقعوها على جماهير الأمة ، وبالتزام أوامر الشَّرع ، ولكنهم لم يَفُوا بذلك ، فنقضوا الوثيقة ، وعادوا بعد شهر واحد إلى جَوْرهم ومظالمهم وزيادة ، كما قال الجبرتى فيما سلف قريباً . ولا شكَّ أن نقضَ هذه الوثيقة ، قد أورث قلوب المشايخ الكبار غضباً وكراهيةً لطائفة الأمراء المماليك الذين لا يَرْعَون لله إلاًّ ولا عهداً ولا ذِمَّةً ، ولا يُقيمون للشرع حُرْمةً ، ولا للمشايخ هيبَةً ولا كرامة . كان هذا كُلُّه معلوماً واضحاً عند « الاستشراق » وأعوانه وحواشيه .

فلما دنا نزولُ جُنْد الفرنسيس ثغر الإسكندرية ، كانت الأخبار قد وصلت إلى القاهرة غامضةً ، فلم يهتم أمراء المماليك بشىءٍ من ذلك ولم يكترثوا به اعتماداً على قُوَّتهم ، فقالوا وزعموا : أنه إذا جاءت جميع الإفرنج لا يقفُون فى مقابلتهم ، وأنهم يدوسونهم بخيولهم ، (الجبرتى ٣ : ٣) . وعندئذ خرج « الاستشراق » من مكامنه ، وخرج « المستشرقون » الذين كانوا يتزيَّون بزىِّ أهل الإسلام ، ويجاوِرُون فى الأزهر لطلب علم الدين والدُّنيا مسلمين ، ويخالطون المشايخ الكبار فى دروسهم وبيوتهم ، لا يميّزهم شىء عن سائر المسلمين المجاورين فى الأزهر من كلِّ جنسٍ ولونٍ = وطافُوا على المشايخ الكبارِ ، وبرفْق ودَهاءٍ ومكْرٍ فاتحوهم فى شأن الفرنسيس الذين شاع أنهم قد دَنا نزولهم أرضَ مصر ، فنصيحةً لله ولرسوله وللمسلمين بيَّنُوا لهم أنهم على علم بشأن هؤلاء الفرنسيس ، وأن الذى يحملهم على القدوم إلى الديار المصرية هو ما كان المماليك يعاملون به الجالية الفرنسية بإذلال واحتقار ، ويظلمون تجارهُم بأنواع الإيذاء والتعدِّى ، كما يظلمون جماهير أمة الإسلام فى مصر بألوانٍ من الجور والظلم والمهانة ، وإقدامهم على مخالفة الشرع ، وعلى نقض العهود والمواثيق ، وجُرأتهم على هيبة المشايخ الكبار بلا رعاية لكرامتهم = وأنَّ كُلَّ هدف الفرنسيس هو رفع الظلم الواقع على تُجَّارهم ، وتخليص حقِّ الأمة الإسلامية من يد الظالمين ، والقضاء على دولة المماليك الفاسدة الظالمة ، ووضع أمور البلاد فى يد العلماء والفضلاءِ من أهالى مصر .

وظلُّوا يَفْتِلُون لهم فى الذِّرْوةِ والغاربِ برفقٍ ودهاء ، حتى انتهوا إلى أن الفرنسيس لم يُقْدِموا على نِيَّة القضاء على دولة المماليك ، إلاَّ باتفاقٍ مع السلطان العثمانى ، لأنهم أحبَّاؤه المخلصون ، والمماليك كثيراً ما امتنعوا عن طاعة السلطان ولم يمتثلوا لأمره = وأنهم يحترِمون النبىّ ﷺ والقرآن العظيم ، وأنهم هم الذين نزلوا فى رومية وخرّبوا كرسىّ البابا الذى كان دائماً يَحُث النصارى على محاربة المسلمين . واستمع المشايخُ لهذا وأمثاله ، ولِقِلّة علمهم بما هو خارجٌ عن حدود القاهرة ، ألانَ مثل هذا الحديث قلوب أكثرهم وغرَّتهمُ الأمانىّ ، وعدُّوه نصيحةً لله ولرسوله وللمؤمنين .

وكان آخرون من « المستشرقين » لهم مودَّة بالمماليك ، يُفَاوضونهم ويهوِّنون عليهم شأن الفرنسيس ، ويُمَنُّونهم بالظفر عليهم إذا هم أقدمُوا على دخول القاهرة ، ويزيدونهم إصراراً على الغرور بقوّتهم ، وأنهم إذا جاءت الإفرنج ، فهم قادرون على أن يدوسوهم بخيولهم . أمّا الذين كانوا منهم يطوفون بالمشايخ ، فكانوا يخوِّفونهم من تهوُّر المماليك ، وأنهم لا علمَ لهم بقوَّة الفرنسيس ، وما فى حوزتهم من المدافع والأسلحة ، مما لا يملِك مثله المماليك ، وأنّه إذا وقعت الواقعة ، لم تُغن عن المماليك مدافعهم وأسلحتهم ، وأنهم سُرْعان ما يفرُّون من وجه الفرنسيس ، ثم يتفرَّقون شَذَرَ مَذَر ، ويتركون القاهرة مكشوفةً بلا حامٍ يحميها أو يدافع عنها .

وكان آخرون من « المستشرقين » يتأهَّبون لإحداثِ فتنةٍ كبيرة ، إذا ما دخلت جيوش الفرنسيس القاهرة ، فطافوا بالكنيسة القبطية المصرية ، وحاولوا أنْ يستثيروا حَمِيَّتها ، وأن يُغْروها بأنّ استجابتَهم للفرنسيس إنما هو نُصرةٌ لدين المسيح على دين الإسلام ، وأن واجبهم ديانةً أن يناصروا الفرنسيس ، ويناصبوا المسلمين العداءَ ، حتى تعلُوَ راية المسيحية ، ويصبح المسلمون أتباعاً لهم ورعيَّة لا سلطان لها ، لا يملكون إلا الطاعةَ المستكينةَ لدين المسيح . بيد أنّ الكنيسة القبطية أعرضتْ عنهم وعن إغرائهم ، لسبب بيَّنه لنا المستشرق الإنجليزى « إدوارد وليم لين » فى كتابه « المصريون

المحدثون ، شمائلهم وعاداتهم » ، بعد جلاء الفرنسيين عن مصر بأربع وثلاثين سنة (سنة ١٨٣٤) فقال :

« ومن أكثر الخاصيات اعتباراً فى خُلُق الأقباط تعصُّبهم الشديد ، وهم يكرهون المسيحيين الآخرين جميعاً كراهية شديدة ، (يعنى المسيحيين الشماليين) ، تَفُوق أيضاً كراهية المسلمين للكفار فى الإسلام . ويعتبرهم المسلمون مع ذلك أكثر المسيحيين مَيْلاً للإسلام » . [1]

لذلك لم يَستجب للمستشرقين أحدٌ من رجال الكنيسة القبطية ، وأخفقوا إخفاقاً كاملاً ؛ فولَّوا وجوهم شَطْر طائفة الأقباط الأغنياء الذى كان عملهم جباية الأموال ، وضبط ماليّة المماليك ، فاستعصى عليهم أكثرهم ، واستجاب لهم جابى المملوك « محمد بك الألفى » ، وهو المعروف باسم « المعلِّم يعقوب » ، وجمع لهم من سِفْلة القبط وعامتهم وغوغائهم عدداً كبيراً ، وانضمَّ جهرةً إلى الفرنسيس ، فكوَّن منهم « نابليون » فيما بعد جيشاً سماه « جيش الأقباط » ، على كراهية الكنيسة القبطية وعلى غير رضاها . وهذا الخسيس « المعلم يعقوب » ، كان هو وجيشهُ فتنةً كبيرةً ، وبَلاءً وبيلاً . [2]

---

(١) ترجمة كتاب لين « المصريون المحدثون » ص : ٤٦٣ ؛ الطبعة الثانية : فى باب « الأقباط » ، على ما فى هذه الترجمة من ضعف العبارة . ولأن الكنيسة القبطية ، لم تكن مطمئنة إلى هؤلاء المسيحيين الشماليين وترتاب فيهم ، هجاهم لين هجاءً شديداً (ص : ٤٦٣) ، وهجا بطرك الأقباط ، وزعم أنه كان مستبدًّا يُغْرى على شهادة الزور ، وأنّ القسس والرهبان جهلاء خادعون خائنون ، يسعون وراء المنفعة الدنيوية واللذات الجنسية ، وأنهم يتسَوَّلون ويستدينون نقوداً لا يردُّونها . وهذه شيمة المسيحية الشمالية فى الافتراء والطعن على من لا يستجيب لهم . وانظر إلى حقد « الاستشراق » الذى ظلَّ كامناً أربعةً وثلاثين سنة ، ثم استعلنَ .

(٢) تستطيع أن تقف على أخبار هذه الفتنة فى تاريخ الجبرتى ، وفى كتاب الرافعى ، وفى كتاب الأستاذ محمد جلال كشك ، الذى سمَّاه : « ودخلت الخيل الأزهر » .

* * *

• لما وقعت الواقعة ، ونزل جند الفرنسيس أرضَ الإسكندرية ، واجتاحوا بلاد الوجه البحرىّ يحرقون القُرَى ويسفكون الدماءَ ، سبقهم إلى القاهرة منشور نابليون المؤرخ آخر المحرم سنة ١٢١٣ هـ ، وكتبه المستشرقان « فانتور » و « مارسل » = رأى المشايخ فيه جُلَّ ما طرق أسماعهم من حديث المستشرقين الذين كانوا يتزيَّون بزىِّ الإسلام ، وجاءتهم أنباء حرائق القُرَى وسفك الدماءِ ، حين قاوم المصريون الجيش الغازى ، كما توعَّد نابليون فى منشوره كلَّ من يقاومه . ثم بعد أيام قلائل وصلَ نابليون مشارف القاهرة ، ولقى جيشه جيش المماليك المصرية ، ودارت الدائرة على المماليك ، وأخذهم الرُّعْب ، وتفرَّقوا شَذَر مَذَر ، وتركوا القاهرة عاريةً مكشوفةً ليس لها حامٍ يَحْميها ، فكان ذلك كُلُّه مِصْداقاً لما سمعه المشايخ من « المستشرقين » ، فوجَفَت قلوبُهم ، وخافُوا أن يَحِلّ بالقاهرة ما حلَّ بقُرى الوجه البحرىّ من الفظائع . فلمّا دخل نابليون القاهرة ، وأصدر أمره بتكوين « الديوان » من تسعةٍ من المشايخ الكبار ، استجاب ستة منهم لدعوة نابليون ، ثم استجاب أيضاً ثلاثة آخرون لتمام التسعة ، بعد رفض « السادات » و « عمر مكرم » و « محمد الأمير » أن يستجيبوا لدعوته . والذى دعا هؤلاء للاستجابة خوفُهم على مصير القاهرة التى تُرِكت بلا حامٍ يحميها ، بعد أن خَذَلها حُمَاتها من صناديد الحرب والقتال ، وهم المماليك المصرية . فلم ير المشايخ سبيلاً إلى حَقْن دماء العامّة رجالاً ونساءً إلاّ المهادنة ، وإلا الصبرَ والسكينة حتى يكشف الله هذه الغُمَّة بما شاءَ سبحانه .

فكانت استجابة هؤلاء المشايخ التسعة لتكوين « الديوان » منهم أوّل زَلَّة ، وكانت هذه الاستجابة أيضاً أوّل نجاحٍ حازه « الاستشراق » فى « تدجين » بعض المشايخ الكبار ، ولكن لم تلبث الأمّة خاصتها وعامتها أن رفضت الاستماعَ إلى هؤلاء المشايخ « المدجّنين » ، واستمعت إلى آخرين من المشايخ ، وإلى صِغار طلبة العلم بالأزهر الذين

رفضوا نصيحة المشايخ التسعة الكبار ، وقامت ثورة القاهرة وثورات الأقاليم ، بعد ثلاثة أشهر من « تدجين » التسعة الكبار ، ومن دخول جزَّار القاهرة أرضاً لم تطأها من قبلُ قدم غازٍ صليبىّ محترقٍ كالميكافلىّ « نابليون » ، الذى غرَّ هؤلاء التسعة ، وخدعهم حُسْن استقباله لهم وتوقيرهم خِداعاً لهم بمداهنته ومكره ودهائه ، (اقرأ ما سلف : ١٠٢ – ١٠٨) .

وكان بعد ذلك ما كان من سفح الدماءِ ليلاً ونهاراً ، جَهْرةً وخُفية ، لم يستثن الجزَّار ولا خلفاؤه شيخاً فانياً ، ولا طفلاً رضيعاً ، ولا امرأةً عاجزةً ، حتى انكشح هو وجُنوده من أرضِ مصر بعد ثلاث سنوات خَزَايَا مقهورين ، (ما سلف : ٩٢ – ٩٦) .

* * *

٢٣ – لم تذهبْ معاناةُ دار الإسلام فى مصر من بلايا السنوات الثلاث هَدَراً ، فإن ثوراتها على جُنْد الفرنسيس قد أخرجت من غِمارِ الناس ومن مشايخ الأزهر قادةً جُدُداً قد نجَّذهم الصِّراعُ والقتالُ وعلَّمهم ما لم يكونوا يعلمون ، وأصبحوا هم حُماةَ القاهرة والسَّاهرين على الذِّيادِ عنها ، على قُرْب عهدهم بمزاولةِ الحماية والدِّفاع . ومضت أربعُ سنوات بعد رحيل الفرنسيس ، واضطربت أمور إدارةِ البلاد ، ولكن ظلَّ المشايخ الكبار والقادةُ الجُدُد من جماهير الشعب فى مصر ، رُقَباءَ على كُلّ مَنْ يحاول أن يتصدّر لإدارة أمور البلاد ، وخاصةً المماليك الذين عادوا بعد غيابهم ثلاث سنوات كانوا فيها معزولين عن مباشرة ما كانوا يباشرون من قبل الحملة الفرنسية من الإدارة وحماية البلاد . وأخيراً استقرَّ رأىُ المشايخ والقادةِ على إسناد الأمر إلى رجل كانت تركية بعثته مع ثلاثمئة من الجُنْد فى أواخر أيام الحملة الفرنسية ، وكان اسمه « محمد على سِرْشِشْمَة » ، و « سرششمة » دَرَجةٌ بسيطةٌ يلقَّبُ بها قائد عددٍ من الجنود فى الدولة العثمانية ، كان ذلك فى سنة ١٨٠١ م (١٢١٦ هـ) .

كان « محمد على سرششمة » هذا ، الذى أسند إليه أمرُ ولاية مصر فى سنة

١٨٠٥ ، (١٢٢٠ هـ) ، فى الخامسة والثلاثين من عمره . وكان جاهلاً لم يتعلم قطُّ شيئاً من العلوم ، وكان لا يقرأُ ولا يكتب ، وقضى أكثر عمره تاجراً يتاجر فى « الدخان » ، ثم انضمَّ إلى الجند ، ولكنّه كان ذكيًّا داهيَةً عريقَ المكر ، يلبسُ لكل حالةٍ لَبُوسها ، وكان مُغامراً لا يتورّع عن كذِبٍ ولا نِفاقٍ ولا غَدْرٍ . وفى أثناء مُقامه فى مصر من سنة ١٨٠١ م إلى سنة ١٨٠٥ م ، يراقبُ اضطراب أمورها واختلال إدارتها ، وبنظره الثاقب وذكائه ، خالط المشايخ والقادة والمماليك الذين حاولوا العودةَ إلى ولاية الأمور فى مصر ، فنافقهم جميعاً ، وأظهر لجميعهم المودَّة والنُّصح وسلامَة الصدرِ ، حتّى انخدع به المشايخُ والقادةُ ، وآثروا وِلايته على ولاية المماليك ، فنصَّبوهُ والياً على مصر ، وعلى رأس من انخدع به « السيد عمر مكرم » ، أكبر قائد للمشايخ والجماهير ، فبذل كُلَّ جهده فى إسنادِ ولاية مصر إليه . وكان ما أرادَ اللهُ أن يكون .

● لم يكن « الاستشراق » ، وخاصة « الاستشراق » الفرنسيُّ ، غافلاً عن هذا المغامر الجديد وعن خلائقه ، بل كان مراقباً له كُلَّ المراقبة من أوّل يوم جاءَ فيه إلى القاهرة ، ومراقباً أيضاً لكلّ ما كان يجرى فى مصر منذ رَحِيل الحملة الفرنسية . فلما تمت ولاية « محمد على سرششمة » على الديار المصرية ، أحاطت به قناصل المسيحية الشمالية إحاطة كاملة = و « القناصلُ » هم « الاستشراقُ » نفسُه فى صورته السياسية = فبدأوا يَفْتِلون له فى الذِّرْوة والغارب ، ويُوغِرون صدره على المشايخ والقادةِ الذين نَصَّبوه والياً على مصر ، ويخوِّفونه عاقبة سُلطانهم على جماهير الأمَّة . وصادفَ ذلك استجابةً طبيعيةً ، لما فى قلب هذا المغامر الجرىء من الدَّهاءِ والخُبْث وتَرْك التورُّع عن الغَدْر وإنكار الجميل وحُبِّ التفرُّد بالسلطان الذى نَاله بغتةً ، ولم يكُنْ قطُّ فى حياتِه يتوهَّمُ أن ينالَهُ أو ينالَ ما هو دُونه بكثير .

فكانت أوَّلُ غدرةٍ غَدَرها « محمد على سرششمة » هذا بالذى نصبَّه والياً على مصر ، وبذل له فى ذلك كُلّ جُهْدٍ ، وهو قائد الأمَّة مشايخِها وجماهيرِها ، نقيبُ

الأشراف « السيد عمر مكرم » ، فإنه بمكره ودهائه أوقع بينه وبين بعض المشايخ ، ثم انتهى الأمر بأنْ نزعَ عنه نقابة الأشراف ، ثم نفاه إلى دمياط فى أول رجب ١٢٢٤ هـ (١٢ أغسطس ١٨٠٩ م) ، أى بعد ولاية هذا المغامر الغدّار بأربع سنوات فقط ، وبقى السيد عمر فى منفاهُ الأوّل هذا عشر سنوات ، حتى استدعاه إلى القاهرة فجاءها فى ١٢ ربيع الأول سنة ١٢٣٤ هـ (٩ يناير سنة ١٨١٩ م) ، ثم عاد ونفاه مرة أخرى إلى طنطا ٢٢ رجب سنة ١٢٣٧ هـ (١٥ إبريل سنة ١٨٢٢ م) ، فتوفِّى رحمه الله فى تلك السنة نفسها . ثُم استدار بعد ذلك على المشايخ يوقع بينهم ، ليُوهِى سلطانهم على جماهير الأمّة ، ويُفتِّت قُوّة الجماهير بعَسْفه وظلمه وإرهابه وجبروته ، بعد القضاء على قادتهم وتشتيتِ شَمْلهم ، وكذلك كان ، والأمر لله من قبلُ ومن بعدُ . وكذلك ظَفِر « الاستشراق » بالمشايخ الكبار ، ومَهَّدَ لعزل الأزهر ومشايخه عن قيادة الأمة ، وأوغر صدر هذا الجبَّار ، ومكَّن فى قَرارة قلبه بُغضَ الأزهر وشيوخه وطلبةِ العلم المجاورين فيه ، وانفردَ هو بأُذُنِ هذا الجاهلِ الجرىء المستبِدّ ، يُوحُون إليه بما يريدون وما يُبيِّتون ، ويُتِمُّون ما بدأوا به من وَأْدِ « اليقظة » التى تهدِّدهم بها دارُ الإسلام فى مصر ، على يد مسلمٍ جاهلٍ غِرٍّ أهوج ، لا يعرفُ كثيراً ولا قليلاً من « الثقافة المتكاملة » التى حَفِظتْ دار الإسلام قروناً طوَالاً ، وكانت لُبَّ « اليقظة » و « النهضة » الوليدة التى كان قريباً جدًّا أن تُؤْتِىَ ثمارَها .

* * *

● وثبّت هذا الطاغية « محمد على سرششمة » قواعد مُلْكه ، وازداد إطباقُ « القناصل » و « المستشرقين » على عقله وقلبه ، وخاصةً الفرنسيون منهم ، وكانت إنجلترا ومستشرقوها ما فَتِئت تخوِّف الدولة التركية وتؤلِّبها على مَهْد « اليقظة » فى جزيرة العرب ، والتى قامَ بها وأسّسها « محمد بن عبد الوهاب » (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ -

١٧٩٢ م) ، (انظر ما سلف : ٨٢ ، ٨٨ ، ١١٨) . واستجابت دار الخلافة بغفلتها إلى هذا التأليب ، حتى جرّدت حملات متتابعة لقمع « اليقظة » الوهابية ، وآبت فى جميعها بالإخفاق . ثم منذ ولى « محمد على سرششمة » جعلت تركية تدعوه إلى تجريد جيوشه لقتال الوهابيين ، وتتابع هذا الطلب من سنة ١٨٠٧ م إلى سنة ١٨١٠ م (١٢٢٢ — ١٢٢٥ هـ) ، فلم يستجب لنداء تركية ، ولكن « الاستشراق » بقناصله زيَّن أخيراً لمحمد على سرششمة أن يستجيبَ ، ليحقق مآربهُ فى وَأْد « اليقظة » التى كادت تعمُّ جزيرة العرب ، وأمدُّوه بالسلاح الذى يعينه على خوض الحرب ، وذلك فى سنة ١٢٢٦ هـ / ١٨١١ م ، (أى بعد ولايته مصر بست سنوات) ، وسارت الجيوش قاصدة جزيرة العرب ، ودارت الحربُ التى لم تنته إلا بعد ثمان سنوات ، فى سنة ١٢٣٥ هـ / ١٨١٩ م ، وفقدت الجيوش المصرية آلافاً من أبنائها ، ولقيت هزائم كادت تودى بها . وأخيراً تم النصر لمحمد على سرششمة ، بعد أن ارتكب من الفظائع ما لا يستحلُّه مسلم ، واستباح الديارَ والأموالَ والنساءَ ، وهدم المُدُن ، فكان هو وابنُه إبرهيم وسائر أولاده طُغَاةً من شرِّ الطُّغاة . وكانت حرباً طاحنة لا معنَى لها ، ولا ينتفع بها إلاّ مؤرِّثوها من دُهاة المسيحية الشمالية .

وكذلك أدرك « الاستشراق » ، وأدركت المسيحية الشمالية ، مأرباً من أكبر مآربِها فى وأْد « اليقظة » التى كانت تهدِّدهم بها دار الإسلام فى جزيرة العرب ، والتى كانت تخشى المسيحية الشمالية أن تنضم هذه « اليقظة » إلى « اليقظة » الكائنة فى دار الإسلام فى مصر ، فيومئذ لا يعلم غير الله ما تكون العواقب ، كما أسلفتُ (انظر : ١١٨) ، وتمَّ كُلّ ذلك على يَدِ مسلمين جَهَلة يُوجِّهُهم « الاستشراقُ » والمسيحيةُ الشمالية من حيث لا يُبْصرون ولا يعلمون ماذَا يُراد بهم ، ولا إلى أىِّ هُوَّةٍ من الهَلَكة يُساقون . والأمرُ لله من قبلُ ومن بعدُ .

* * *

• يقول الكاتب المؤرخ المُدَجَّن « عبد الرحمن الرافعى » فى كتابه : « تاريخ الحركة القومية ، الجزء الثالث ، عصر محمد على » ص : ٤٥٢ فى باب « البعثات العلمية » :

« لو تأمّلت مليًّا فى العصر الذى نشأت فيه هذه الفكرة ، واختلجت فى نفس محمد على ، لعجبتَ لعبقريته كيف أنبتت هذا المشروع . ففى ذلك العصر لم يفكّر حاكم « شرقىّ » ولا حكومة شرقية فى إيفاد مثل هذه البعثات . وهذه تركية = وسلطانُها كان يملك من الحَوْل والسلطة أكثر مما يملك محمد على = لم تفكّر حينذاك أصلاً فى إيفاد البعثات المدرسية إلى المعاهد الأوربية ، فصدور هذه الفكرةَ ، فى ذلك العصر ، وفى الوقت الذى كان محمد على مشغولاً فيه بمختلف الحروب والمشاريع والهواجس ، يدلُّ حقيقةً على عبقرية نادرةٍ وهمَّة عالية » ... تأمَّلْ ثم تأمّل ، ويَا للعجب لهؤلاء المؤرخين المُدَجَّنين !

والحقيقة أن فكرة « البعثات العلمية » لم تكن نابعة من عقل هذا الجندىّ الجاهل « محمد على » ، بل كانت نابعةً من عقولٍ تخطّط وتدبّر لأهدافٍ بعيدة المدَى ، استغلَّت ما فى نفسه من المطَامع ، وحُبِّه للسيطرة ، أحاطت به « القناصل » وهى تراقب أهواءَه ومَطامعه ، فجعلت تغذِّيها وتزيدها توهُّجاً ، لتجعله قُوَّةً فى قلب دار الإسلام ، تُنَازِع دارَ الخلافة فى تركية سلطانَها ، وتنشقُّ عنها انشقاقاً يزيدُ فى تفكُّك دار الإسلام ، ويُسْرِع فى انهيار دار الخلافة ، وفى تمزيقها وضَعْفها وارتخاء قَبْضَتها على أطراف دار الإسلام ، ويمهِّد للمسيحية الشمالية السبيلَ إلى تخطُّف أقاليم دار الإسلام بعد أن تصير أشلاءً ممزقةً عاجزةً عن الدفاع عن نفسها = على أن تكون هذه القوَّة الجديدة ، قُوَّة محمد على ، فى قبضة المسيحية الشمالية ، تصرِّفها كيف تشاء ، وتقضِى عليها قضاءً مُدمِّراً يومَ تحتاجُ إلى هذا التدمير . ولذلك كانت هذه البعثات الصغيرة كلها ، منذ سنة ١٨١٣ م ، تتعلق بالصنائع التى تتعلَّق ببناء الجيش المصرىّ لا أكثر ، وكانت هذه البعثات أيضاً قليلةَ العدد ، ينتفع بها محمد على فى حروبه فى جزيرة العرب (من سنة ١٨١١ –

١٨١٩ م) ، وفى تخطُّفِ أجزاءٍ أخرى كانت تحت سلطان الدولة العثمانية ودار الخلافة ، ليزيد هذا التخطُّف فى ضعفها وتفكُّكها . هذه كانت غاية « القناصل » الذين أحاطوا بمحمد على إحاطةً كاملةً ، وصارُوا عقله الذى يفكرُ به ، وصارَ هو دُمْيَةً فى أيديهم يحرِّكونها إلى غاياتهم ومقاصدهم .

ولما فرغ « محمد على » من تحطيم « اليقظة » التى كانت فى جزيرة العرب ، سنة ١٨١٩ م ، وعلا بذلك شأنُه ، وأرسى قواعد ملكه فى الديار المصرية = كان فى فرنسَا رجُل كبيرٌ ممَّن شاركوا فى الحملة الفرنسية ، كان مهندساً بارعاً ، وكانت له منزلة كبيرة عند « نابليون » والمستشرق « فانتور » خليلِ نابليون ونَجيِّه ، وانتُخِب بعد عودته إلى فرنسا عضواً بالمجمع العلمى الفرنسىّ ، وكان شديد الاهتمام بكل ما يخصُّ مصر ، هو المسيو جُومار (أدم فرنسوا جومار – ١٧٧٧ – ١٨٦٢ م) . فلما رأى نجاح « القناصل » فى إغراء « محمد على » بإرسال البعثات إلى أوربة ، ما بين سنة ١٨١١ إلى سنة ١٨١٩ م = أسرع جومار يحثُّ « الاستشراق » الفرنسىّ وقناصله فى مصر ، على إغراء محمد على بإرسال بعثات كبيرة إلى فرنسا ، ليجعلها تحت إشرافه ، ولينفِّذ مشروع « نابليون » الذى بيَّنه لخليفته « كليبر » فى رِسالته إليه ، (انظر ما سلف : ١٠٨ وما بعدها) .

وإذا كان « نابليون » = بتخطيط المستشرق « فانتور » = قد بنى مشروعه على أن يجتهد « كليبر » فى أن يجمع ٥٠٠ ، أو ٦٠٠ شخص من المماليك ، فإن لم يجد العدد كافياً ، فليستعض عنهم برهائن من العرب ومشايخ البلدان ، ويسفّرهم إلى فرنسَا ، فإذا ما وصلوا حُجِزوا مدَّة سنة أو سنتين ، يشاهدون فى أثنائها عظمة الأمّة الفرنسية ، ويعتادون على لغتها وتقاليدها ، فإذا عادوا إلى مصر ، كان لفرنسا منهم حزبٌ يُضَمُّ إليهم غيرهم = إذا كان مشروع نابليون ، الذى يرادُ به تكوين حزبٍ للفرنسيين فى مصر ، معتمداً على الوُلاة من المماليك ومشايخ البلدان الذين يتولَّون حُكْم البلادِ فى زمانه ، فإن

« جومار » قد طَوَّر هذا المشروع تطويراً كبيراً ، بعد خمسٍ وعشرين سنة من رحيل الفرنسيين عن مصر سنة ١٨٠١ م = ويكوِّن حزباً لفرنسا فى مصر أخطر من حزب نابليون .

لقد سنحت لجومار أعظمُ فرصةٍ باستجابة محمد على لإرسال بعثات إلى أوربة ، فبنى مشروعه ، لا على كبار السنّ من المماليك ومشايخ البلدان ، بل على شبابٍ غَضٍّ يَبْقَون فى فرنسا سنواتٍ تطول أو تقصُر ، يكونون أشد استجابة على اعتياد لغة فرنسَا وتقاليدها ، فإذا عادوا إلى مصر كانوا حزباً لفرنسا ، وعلى مرّ الأيام يكبرون ويتولَّوْن المناصبَ صغيرَها وكبيرَها ، ويكون أَثَرُهم أشدّ تأثيراً فى بناء جماهيرَ كثيرة تبثُّ الأفكار التى يتلقَّونها فى صميم شعب دار الإسلام فى مِصْر . هكذا طوّر جومار مشروع نابليون الذى لم يستطع « كليبر » أن يحققه وهلك دونه .

* * *

نجح جُومار ، ونجح « الاستشراق » وقناصله فى إغراء محمد على بإرسال بعثةٍ كبيرة من شباب مصر إلى فرنسا فى يوليه سنة ١٨٢٦ م (سنة ١٢٤٢ هـ) ، وتتابعت هذه البعثات إلى سنة ١٨٤٧ م (سنة ١٢٦٤ هـ) ، وكانت كلُّها تحت إشراف « جومار » يصنعُها على عينه . كانوا شبَّاناً صغاراً ، ليس فى عقولهم ولا قُلُوبهم إلا القليلُ الذى لا يُغنى من « الثقافة المتكاملة » التى عاشت فيها أمّتهم قروناً متطاولةً ، ووضعهم جومار تحت أيدى « المستشرقين » يوجِّهونهم من حيث لا يشعرون إلى الجهة التى يريدونها ، ويُعْطونهم القدرَ اليسيرَ المتَّفَق عليه بينهم من العلوم التى يدرسونها ، ثم يردُّونهم بعد سنوات قلائل إلى مصر ، وإلى دولة محمد على التى أسَّسها ، وهو ودولته فى قبضة « القناصل » و « الاستشراق » ومَشُورتهم ، لا يستطيع فكاكاً منها ، لأنه كان جاهلاً لم يتعلَّم علماً قطُّ ، حتى الخط والكتابة لم يتعلمهما إلاّ وهو فى الخامسة والأربعين من عمره (سنة ١٨١٥ م / ١٢٢٩ هـ) .

كانت أوّل بعثة فى سنة ١٨٢٦ م (سنة ١٢٤١ هـ) ، فيها ٤٤ تلميذاً ، أدخلهم مسيو جومار المدارس الفرنسية ، ليتلقَّوا اللُّغة والعلومَ والفنون ، ثم أعيدوا بعد سنوات قلائل إلى بلادهم يتولّون المناصب والأعمالَ . وهذا شىءٌ غريبٌ جدًّا أن يكون هؤلاء الشبان قد حازوا فى سنواتٍ قلائل من العلوم والفنون التى شابت نواصى العلماء فى سبيلها ، ما يؤهلهم للتدريس والصناعات والأعمالِ وجلائل الأمورِ . شىءٌ غريبٌ جدًّا !! وهم قبل سَفَرهم لم يحصّلوا من هذه العلومِ والفنون الجديدة شيئاً يذكر ، أليسَ هذه الدعوى غريبة كل الغرابة ؟

• وكانَ فى هذه البعثة الأُولى ، رجُلٌ قد خرج مع البعثة إمَاماً لها ، ليراقب أفرادَ البعثة ، ويصلّى بهم الصلوات الخمسَ ، هو « رفاعة رافع الطهطاوىّ » ، وُلِدَ بمدينة طهطا بمديرية جرجا سنة ١٢١٦ هـ ، (١٨٠١ م) فى أسرة رقيقة الحالِ ، فأتمَّ حفظ القرآن ، وقرأ شيئاً من مُتون العلم المتداولة على بعض العلماء فى بلده ، ثم تُوفِّى والده رحمه الله ، فرحل إلى القاهرة وهو فى السادسةَ عشرةَ من عمره ، (١٢٣٢ هـ / ١٨١٧ م) ، وانتظم فى سلك طلبة الأزهر ، يتلقّى العلم عن شيوخه ثمانى سنوات ، وكان محبًّا للأدب . وفى سنة ١٢٤٠ هـ / ١٨٢٤ م عُيِّن واعظاً وإماماً فى أحد ألايات جيش محمد على . فهذا إذن شابٌّ فى الثالثة والعشرين من عمره ، لا يمكن أن يكون قد بلغ مبلغاً له شأنٌ يذكر فى « الثقافة المتكاملة » التى عاشت فيها أمَّتُه ثلاثةَ عَشَر قرناً فى حضارة متكاملةٍ متراحبةٍ مترامية الأطرافِ ، متباينةِ الدّرجات ، متنوِّعة العلوم ، قد بلغت فى العَظَمةِ والجلالةِ مبلغاً لم تدركه قبلها أمةٌ من الأمم .

ثم يُخْتارُ هذا الشابّ فى سنة ١٢٤١ هـ / ١٨٢٦ م ليصحبَ بعثة إلى فرنسا ، يكون إماماً لأعضائها . كان ذكيًّا ، نعم . كان محبًّا للعلم والأدب (أدب عصره وشعر عصره) ، نعم . كان قوىَّ العزيمةِ ، نعم . كان نابهاً بين أقْرانه ، نعم ، ولكنَّه على ذلك كُلّه فى

الخامسة والعشرين من عمره ، غَرِيرٌ بَيِّنُ الغَرارة ، طَرِيُّ العُود ، قد جاء من أقصى الصَّعيد ، ومن ظُلُماته وبؤسه وفقره وخَصاصته ، وهو فى السادسة عشرةَ من عمره ، ثم أقام تسعَ سنواتٍ فى القاهرةِ ، فى حَوَارى الأزهر المهدَّمة المخرَّبةِ بيوتُها بفعل الفرنسيس ، الضيِّقة طُرُقاتها ، المظلمة أزِقَّتُها = ثم يركبُ سفينة فرنسية تتلالأ أنوارُها تَرْمِى به إلى قلب باريسَ (فى القرن التاسع عشر) ، بحدائقها وميادينها وأنوارِها ومبَاهجها ، وما لا رأته من قبل عينٌ كعينه ، وما لاَ خَطَر على قلبٍ كقلبه . أىُّ فِتْنةٍ تذهبُ بعقل هذا الفتى ، وترجُّه رجًّا لا قِبَل لمثله باحتماله ؟ وكذلك كان !

أىُّ صَيَدٍ سمينٍ تلقَّفه « المسيو جومار » بخبرته وحُنْكتِه وتجربته وبَصَره النافذ ؟ فتًى ناشئٌ فى قلب الأزهر ، ذكىٌّ ، محبٌّ للعلم والتحصيل ، قوىُّ العزيمة ، رآه مفتوناً بالأرض التى وطئتها قدمُه ، لم يَرَ مثلها من قبلُ ، ورآه مُقْبِلاً بأقصى عزيمته على تعلُّم لُغَته الفرنسيَّة ، معجباً بها وبأهلها كُلَّ الإعجابِ ، فأخذه « جومارُ » من قريب ، فكان له صيداً أىَّ صيدٍ ! يقول الرافعى المؤرخ المدجَّن فى كتابه (٣ : ٤٧٦) : « ولقد كان معه ثلاثة أئمة آخرون للبعثة ، فلم تتحرك نفس أحدٍ منهم إلى الاغتراف من مناهل العلم فى فرنسا (!!) ، ولم يتجاوزوا حدود الوظيفة ، أما الشيخ رفاعة ، فكان ذَا نفس طامحةٍ إلى العُلا ، فأخذ يدرسُ اللغة الفرنسية ، وعَكَفَ عليها من تِلقَاء نفسه ، رغبةً منه فى تحصيل علومها وآدابها » . ويقول رفاعة الطهطاوى نفسه أنه قضى فى تعلُّمها ثلاث سنوات .

ولم يكَدْ حتى أخذ « المسيو جومار » بناصيته ، وأسلمه لطائفة من « المستشرقين » ، يصاحبونه ويوجِّهونه ، وعلى رأسهم أحد دهاقين « الاستشراق » الكبار ودُهاته ، وهو المستشرق المشهور البارون « سلفستر دى ساسى » . لم يكن لهذا الفتى الأزهرى الصعيدى المفتون مَخْلَصٌ من أحابيلهم ودَهائهم ومَكْرهم ورقّة حاشيتهم ومداهنتهم ، فاستغلُّوه أبرعَ استغلالٍ ، وصبُّوا فى أُذُنيه ، وطَرَحوا فى قَرارةِ قلبه معانىَ

وأفكاراً قد بيَّتوها ودرسوها وعرفوا عواقبها وثمراتِها حين تَنْمو فى دَخِيلة نَفْسه ، [١] وهم يزيدونه فتنَةً بإشهاده روائع المحافِل التى تتألَّقُ أنوارها ، وتتألق تحت أنوارها أيضاً مفاتن النساء الكاسيات العاريات ، والرجال ذَوِى الأُبَّهة يختالون فى شمائل الرقَّة الفرنسية ، فزادوه فِتْنةً ، وزادوا غفلته غَفْلةً ، وانتزعوه انتزاعاً مما كان يعيش فيه من ظُلمات الصعيد وبُؤسه وفَقْره ، ومن حوارى الأزهر المخرَّبة وطرقاتها الضيقة وأزقَّتها المظلمة ، حتى نَسِى نفَسهُ التى صاحبَها خمساً وعشرين سنة ، وتنكَّر لماضِيه القريبِ وأعرضَ عنه ، وسارع ينجُو بحياته الجديدة من خطاطيفِه التى تلاحقه .

وقضى رفاعة رحمه الله ست سنوات فى باريس من سنة ١٢٤١ – ١٢٤٦ هـ ، (١٨٢٦ – ١٨٣١ م) ، قضى ثلاث سنوات منها فى تعلُّم اللغة الفرنسية كما قال هو بلسانه ، وفى الثلاث الأُخَر درس التاريخ ، والجغرافيا والفلسفة ، والآداب الفرنسية ، وقرأ مؤلَّفات فولتير وجان جاك روسُّو ، ومنتسكيو ، وقرأ بعض الكتب فى المعادن ، وفنّ العسكرية ، والرياضيات ، (انظر كتاب الرافعى ٣ : ٤٧٦ وما بعدها) = فحدِّثنى بربِّك كيف تكون دراسة هذه المتنوعات فى ثلاث سنواتٍ ، إلاّ أن يكون ذلك كُلُّه خطفاً كحَسْو الطائر ، وأن يكون ما ألَّفه رفاعة وكتبه سطواً مجرَّدا على كُتُبٍ كُتِبَتْ فى هذه العلوم المختلفة المتباينة ، والله أعلم بما فيها من الزلل والخطأ وسوء الفهم . ولكن رفاعة الطهطاوى على ذلك كُلِّه إمَامٌ جاء يُخرج مصر وأهلَها من الظُّلُمات إلى النُّور !! يا للعجب !

ولكنّ هذا الرجل الطيِّب يُحَمَّل من العبقرية فى إنشاءِ « مدرسة الألسن » ، ما حُمِّل محمد على ، الجاهل الذى لم يتعلم قطُّ ، من العبقرية فى الاهتداء إلى إرسال

---

(١) انظر مثال ذلك ، ما ضمنه كتابه : « أنوار الجليل ، فى أخبار مصر وتوفيق بن إسمعيل » من الدعوة إلى استعمال العامية « التى يقع بها التفاهم فى المعاملات السائرة ، ولا مانع أن تكون لها قواعد قريبة المأخذ تضبطها ، وأصولٌ على حسب الإمكان تربطها ، ليتعارفها أهل الإقليم ، حيث نفعها بالنسبة لهم عميم ، وتصنَّفُ فيها كتب المنافع العمومية ، والمصالح البلدية » ، أو كما قال رحمه الله !! انظر كتابى « أباطيل وأسمار » ص : ١٥٩ ، ١٦٠ .

« البعثات العلمية » إلى أوربة ، وفرنسًا خاصةً ! (انظر ما سلف : ١٣٩) ، وقصة إنشاء « مدرسة الألسن » ، فى سنة ١٨٣٦ م (أى بعد عودته بخمس سنوات) ليست من فكر رفاعة الطهطاوىّ ولا من بنات عبقريته ، ولكنها ثمرةٌ من ثمار « الاستشراق » ودُهاته الذي احتضنوهُ وربَّوْه وغذَّوْه ونشّأوه مدةَ إقامته فى باريز ، وكما يقول الرافعى : « كانت مدرسة الألسن عبارة عن كلِّية تدرس فيها آداب اللغة العربية واللغات الأجنبية ، وخاصة الفرنسية والتركية والفارسية ، ثم الإيطالية والإنجليزية ، وعلوم التاريخ والجغرافية ، والشريعة الإسلامية ، والشرائع الأجنبية ، فهى أشبه ما تكون بكلية الآداب والحقوق ، فلا غَرْوَ أن كانت أكبر معهد لنشر الثقافة فى مصر » ، ما أعجب أحكام هذا المؤرخ المدجَّن !

وبأقلِّ التأمُّل فى مناهج « مدرسة الألسن » تعلم يقيناً لا شكَّ فيه أنّ رفاعة الطهطاوى نفسَه لم يكنْ مؤهَّلاً لتدريس أكثر هذه العلوم ، ولا كان فى مصر يومئذ من المصريين مَنْ هو مؤهَّلٌ لتدريسها ، فلا مَنَاصَ من استقدام منْ يُظَنُّ فيه أنه مؤهَّل لتدريسها من الأجانب ومن « المستشرقين » خاصةً ، وكذلك كان ، فكان هؤلاء الدُّهاة من صنائع « الاستشراق » هم الذين تولّوا تثقيف ١٥٠ تلميذاً كان رفاعة الطهطاوى يختارهم صغاراً من مدارس الأرياف والأقاليم ، ومن طلبة الأزهر . وبذلك وضَع رفاعة الطهطاوى أساساً لمدرسةٍ مُلَفّقة ، (لا كلية ، كما يقول الرافعى) مبتورة الصِّلة كُلَّ البَتْر ، من مركز « الثقافة المتكاملة » التى كان الأزهر مَهْدها على قرون متطاولةٍ ، وكان هو وحده على طول هذه القرون ، مركز ثقافة دار الإسلام فى مِصر . وكذلك أحدث رفاعة الطهطاوى صَدْعاً مُبيناً فى ثقافة الأمَّة ، وقَسْمها إلى شطرين متباينين : « الأزهر » فى ناحية ، و « مدرسة الألسن » فى ناحية ، وكذلك حقّق رفاعة لدهاة « الاستشراق » أهمَّ ما يتوقون إليه ، من وَأْدِ « اليقظة » الواحدة المتماسكة التى كان الأزهر مركزها منذُ عهد « البغدادى » ، و « الزَّبيدى » و « الجبرتىّ الكبير » = وفى وقت كان فيه محمد على

الجاهل يحطِّم أجنحة الأزهر ، ويضعُه فى قفصٍ لا يستطيع الإفلاتَ مِنه ، ويدبِّر كل مكيدة لإسقاط هيبته وهيبة مشايخه ، ويعزلهم عن جمهور الأمَّة عَزلاً بين قُضْبان من الحديد وجُدْرانٍ من الصُّخور = ومرَّت الأيام والسنون ، وهذا الصَّدع يتفاقم ، حتى انتهينا إلى ما نحنُ عليه اليوم من الانقسام والتفريق ، وذهبت « الثقافة المتكاملة » فى دار الإسلام فى مصر أدراجَ الرياح .

* * *

٢٤ — وُئِدت « اليقظة » التى كان الخمسةُ الكبارُ أبطالَها وصناديدَها ، (ما سلف : ٨٢) ، وكانَ ذلك نصراً مؤزّرًا ناله « الاستشراق » بدهائه ومكْره وثاقبِ نظَرِه ، نالَهُ من وراءِ غَفْلةِ دارِ الإسلام فى مصر ، ومن وراء الجَهْل الذى أُسْنِدتْ إليه أمورُ البلاد ومصائرُها ، وأقام « الاستشراقُ » على قبر « اليقظة » بناءً جديداً راسخَ الأَساس ، ظَل يرعاهُ ويحوطُه ويزيدُه رُسوخاً ومتانةً واتِّساعاً وسُمُوقاً ، يضمن للمسيحية الشمالية الغلبةَ والسيطرةَ وتمامَ التمكُّن من إخضاعِ دار الإسلام لأهدافه وغاياته ، بلا قعقعة سلاحٍ ، وبلا مُواجهةٍ بين « ثقافتين متكاملتين » تتصارعان كِفاحاً ، فإمّا تتعايشان على هذا الصراع ، وإمَّا يحكِّمان السلاحَ حتى يُقْضَى لإحداهما على الأخرى بالغلبة ، ثم يصطلحان على حُسن المعايشة وإيثار السِّلمِ . أمّا الآن فقد انقلبت الموازين ، ومُزِّقت « الثقافة المتكاملةُ » فى دار الإسلام ، وانفردت « الثقافة المتكاملة » فى ديار المسيحية الشمالية ، بلا قِرْن يكافئُها وينازلُها ، وإنمّا هو الخضوعُ والاستكانةُ لا غيرُ . وقُضى الأمر الذى فيه تستفتيان !

وذهبَ محمد على سرششمّة ، وذهَبَ ملكُه وهلك ، وجاء من بعده أولاده وهم فى قبضة « القناصل » و « الاستشراق » ، والتصدُّع فى ثقافة دار الإسلام يتفاقم ، والبعثاتُ الخاضعةُ المستكينة تتوالى ويقعُ أعضاؤها فى قبضة « الاستشراق » يصنعُ أعضاءَها على

عينه ، والبليّة التى أحدثها رفاعة الطهطاوى تتعاظم ، وصارَ الأزهر الذى كان فى يديه تعليم الأمّة أسيراً يرسُفُ فى أصفادِه وأغلاله منتبذاً ناحيةً ولا يدخُلهُ إلاَّ أبناءُ الفقراء والمساكين = ونازعتْه تعليمَ الأمّة المدارسُ الجديدة التى وضع أساسها رفاعة الطهطاوى فى مدرسة الألسن ، وانشطر تعليم الأمة شَطْرين ، ونمت هذه المدارس وتكاثرت ، يدخلها أبناء الموسرين والمستورين ، وجعلت الهوَّة بين الأزهر والمدارس تتَّسع ، وأصبحت المناهج تتباينُ تبايُناً شديداً . أمّا مناهج الأزهر فى عُزْلته فجعلت تضعُف وتَذْوِى وهى على بنائها القديم ، وأما مناهج المدارس فجعلت تنمُو ولكنّ نموَّها قائم على القشور التى تغُرُّ ولا تُغْنِى فتيلاً ، على نفس الأساس الذى وضعه رفاعة الطهطاوى ، وجعلت تزدادُ تباعُدًا مقطوعَ الأواصِرِ من « الثقافة المتكاملة » التى عاشت بها الأمّة قروناً متطاولة . لم تكن هذه المدارس نابعةً من « الثقافة المتكاملة » التى تجدّد نفسها تجديداً يزيدها قوةً ووضوحاً ، بل كانت غِراساً غريباً يزيدها بُعْداً وانقطاعاً عن أصول « الثقافة المتكاملة » لدار الإسلام فى مصر ، ولا تَكسِبُها قوَّةً ووضوحاً ، بل تكسِبُ أبنَاءَها تنكُّراً وإعراضاً واحتقاراً أيضاً لتلك « الثقافة المتكاملة » التى عاشت بها أمّتهم = وكذلك صارَ أبناؤها حِزْباً جديداً ، مَيْلُه وحُبُّه وإكبارُه للمصدر الذى صَدَر عَنْه ما تعلَّموه ولم يتعلموا غيره ، كما أرادَ نابليون بمشروعه الذى عَهِد به إلى خليفته « كليبر » ، (انظر ما سلف : ١٠٨ وما بعدها) ، وطوّرهُ تطويراً كبيراً المسيو جومار (انظر ما سلف : ١٤٠ ، ١٤١) . وتمَّ بذلك البلاءُ الماحق ، والأمرُ لله من قبل ومن بعدُ .

ومضت الأيام والسنونُ ، حتى جاءَ الاحتلال الإنجليزى فى ثانى ذى القعدة سنة ١٢٩٩ هـ (١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م) ، ويظلُّ يرسِّخ قدميه فى البلاد ، وبعد قليل رأى « الحزبَ » الذى أنشأه « الاستشراقُ » الفرنسيُّ غالباً على جمهور طلبة المدارس ، فبدأ « الاستشراق » الإنجليزى يدمِّر كل ما أنشأه الفرنسيس من مدارس ويشتتها ، فلما استقرت أقدام الاحتلال الإنجليزى فى مصر ، رأى « الاستشراق » الإنجليزى أن يبدأ فى

تكوين « حزب » قوىّ يناصره عن طريق التحكُّم فى التعليم ، فأسند أمر التعليم إلى قِسّيس مُبَشِّرٍ عاتٍ خبيثٍ هو « دنلوب » ، فذُعر « الحزب الفرنسىّ » ، وَنشرت جريدة الأهرام التى كان صَغْوُها كلُّه إلى الفرنسيس ، خَبَرَ « دنلوب » بعبارة دالَّة كل الدلالة على هذا التحوُّل العظيم الذى أفزع حِزْب فرنسا ، فنشرت فى عددها المؤرخ ، يوم ١٧ مارس سنة ١٨٩٧ م ما يأتى :

« قُضِى الأمر ، وصدر الأمرُ العالى بتعيين المستر دنلوب سكرتيراً عامًّا لنظارة المعارف ، وقد شرعَ المستر دنلوب ، بعد الاتفاق مع اللورد كرومر ، فى هدم الدراسة الثانوية التى هى أعظمُ أركان المعارف » .

فانظر إلى قول الأهرام « قُضِى الأمرُ » ، وما تحمله هذه الجملة القصيرة من الرُّعب الدَّالّ على فزع « الاستشراق الفرنسىّ » من هذا الحَدَث المؤدِّى إلى القضاءِ على « حزب فرنسا » الذى أنشأته المدارس القديمة ، وتخوُّفِه من هذا « الحزب الإنكليزى » الجديد الذى يتولَّى « الاستشراق الإنجليزى » إنشاءَه عن طريق المدارس التى سوف يشرف عليها « دنلوب » القِسّيس المبشِّر الداهية .

ونقول نحنُ أيضاً : « قُضِى الأمر » ، وجاء « الاستشراق الإنجليزى » ليُحدِث فى ثقافة الأمة المصريّة صدعاً متفاقماً أخبثَ وأعتَى من الصَّدْع الذى أحدثه « الاستشراق الفرنسى » ، ووضع دنلوب أُسُس « التفريغ » الكامل لطلبة المدارس المصرية ، أى تفريغ الطلبة من ماضيها المتدفّق فى دمائها مرتبطاً بالعربية والإسلام ومَهَّدَ إلى ملئِه بماضٍ آخر بائدٍ فى القِدَم والغموض ، لم يبق من ثَقافته شيءٌ البتّة ، ليزاحم هذا الماضى الفارغُ بقايَا الماضى المتدفِّقِ الحىِّ الذى يوشك أن يتمزّق ويختنق بالتفريغ المتواصل ، ويجعل أجيال طلبة المدارس فى حيرةٍ مدمّرةٍ بين انتماءين ، بين الانتماء إلى الثقافة العربية الإسلامية الواضحة فى كتب أسلافهم ، وبين الانتماءِ إلى الفرعونية التى بادت وبادت ثقافتها ولم يبق

منها إلاّ أطلالٌ من الحجارة ، مهما بلغت فى العظَمة والجلال ، فهى فارغة من ثقافةٍ حيَّةٍ تتدفَّق فى القلوب والعقول والألسنة ، إنّما هى آثارٌ لا تُغْنِى شيئاً ولا تُؤْتِى ثَمرة .

وأيضاً فإن هذا « التفريغ » سوف ينشيءُ أجيالاً من « تلاميذ المدارس » تَتَهتَّك علائقُها التى تربطُها بثقافتها العربية الإسلامية اجتماعيًّا وثَقافيًّا ولُغويًّا ، حتى يتمَّ تفريغها تفريغاً كاملاً من ماضيهم كُلِّه ، ثم يملأُ هذا الفراغَ علومٌ وآدابٌ وفنونٌ لا علاقة لها بماضيهم ، وإنّما هى علوم الغُزاةِ ، وفنونُ الغُزاةِ ، وآداب الغُزاةِ ، وتاريخ الغُزاة ، ولغاتُ الغُزاةِ . ومع كُلّ ذلك ، فإن هذا القدرَ من العلومِ والفنون والآداب إنما هى قُشُورٌ ومقتطفاتٌ تُوهمُ النفوسَ الظامئة المُفَرَّغة بأنها نالت شيئاً يُذْكر ، والحقيقة أنّها نالتْ غذاءً تعيشُ به مَوْتى فى صورة أحياء لا غيرُ .

• وقد قصصتُ قصَّة هذا التفريغ فى مقدّمتى لكتابى « المتنبِّى » وسميتها « لمحة من فساد حياتنا الأدبية » ، (اقرأ المقدمة : ٢٠ - ٢٩) ، وقد قصصتُ عليك هنا قصة هذا الفساد العريق من حيث بدأ إلى حيثُ انتهى . فهذا كُلّه جوابُ السؤال الذى بدأتُ به الفقرة العاشرة (ص : ٢٣) :

« وإذن ، فكيف نشأ الخلاف ، ولِمَ نشأ الخلافُ ، بينى وبين هذه « المناهج الأدبية » السائدةِ ، كانت ولا تزالُ ، فى حياتنا الأدبية ، حتى رفضْتُها رفضاً صريحاً واضحاً قاطعاً غير متلجج ، منذ بدأتُ قديماً أحسُّ إحساساً مبهماً أنّ حياتَنا الأدبية فاسدةٌ من كُلِّ وجه ، كما حدَّثتك آنفاً ؟ (اقرأ الفقرة : ١) .

ومع طول حديثى هنا ، فإنى اختصرتُه اختصاراً أرجو أن يكون غير مُخِلٍّ ، وعسى أن أكون قد أدّيتُ بعضَ أمانةِ القلم وبعضَ أمانَةِ العلم ، وأدَّيتُ أيضاً ، أيها القارىء ، بعضَ حقِّك علىّ = وعَسَى أن أكون قد بلغتُ مبلغاً يُرْضى اللّهَ ورسولَه فى اتِّباع أمره إذ

قال ﷺ : « ألا لاَ يَمْنَعَنّ رجُلاً هَيْبةُ الناسِ ، أن يَقُولَ بحقّ إذا عَلِمه » ، وهو حديثه ﷺ الذى بدأتُ به هذه الرسالة ، (اقرأ ص : ٥) ، والحمدُ لله وحده ، وصلّى الله على محمد عبده ورسوله ، وعلى أصحابه وخِيرتِه من خلقه ، وعلى التابعين وتابعيهم ، حَفَظةِ العلمِ ، والناطقين بالحق والداعين إليه ، ولا حولَ ولا قوّة إلا بالله . اللهمَّ اغفرْ لى ما قدَّمتُ وما أخَّرْتُ ، ومَا أسررتُ وما أعلنتُ ، وما أسرفتُ ، وما أنت أعلم به منِّى ، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر ، لا إله إلاّ أنت .

* * *

ذَيْلُ الرسالة

والآن ، لم يبقَ إلا أن أضَع بين يديكَ قصَّةَ « التَّفريغ الثقافى » الذى ختمتُ به كلماتى آنفاً فى « رسالةٌ فى الطريق إلى ثقافتنا » ، أنقلها من كتاب « المتنبّى » ، [ص : ١٩ - ٣٤] ، فى التصدير الذى سمَّيتُه : « لمحةٌ من فساد حياتنا الأدبية » ، وفيها شهادتان :

شهادتى أنا من موقعى بين أفراد جيلى الذى أنتمى إليه ، وهو جيلُ المدارس المفرَّغ من كُلّ أصول ثقافة أمته ، وهو الجيلُ الذى تَلقَّى صَدْمة التدهوُرِ الأولى ، حيث نشأ فى دُوَّامةٍ من التحوّل الاجتماعى والثقافى والسياسى .

وشهادةُ الدكتور طه حسين من مَوْقع « الأستاذيّة » لهذا الجيل .

فاقرأهما بتدبُّرٍ وأناةٍ ، حتَّى تُلِمَّ بأطراف البلاءِ الذى حاق بى وبك وبأمتك العربية الإسلامية ، وحتى لا تدخُلَ تحتَ المعنى الذى قالَهُ أبو عُبادة البحترىّ:

ومِنَ العجائبِ ، أعيُنٌ مفتوحَةٌ   وعقولُهُنَّ تجُولُ فى الأحْلامِ

= أحلامِ « النهضة » و« التجديد » و « الأصالة والمعاصرة » و « الثقافة العالمية » ، وأحلامٍ أخرى كثيرة لا تنقضِى !! أحلامٌ جعلتْ صَدْمة التَّدهوُر مستمرّةً مُتَمادِيةً متفاقِمةً إلى هذه الساعة التى تقرأُ فيها هذه الرسالة ، ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ .

قلتُ : «ومرَّت الأيَّام والليالى والسنون ما بين سنة ١٩٢٨ ، وسنة ١٩٣٦ وهى السنة التى كتبت فيها هذا الكتاب «المتنبى» وهمّى مصروفٌ أكثرهُ إلى «قضية الشعر الجاهلىّ» ، وإلى طلب اليقين فيها لنفسى ، لا معارضةً لأحدٍ من الناس . ومشت بى هذه القضية فى رِحْلة طويلة شاقَّة ، ودخلت بى فى دُرُوبٍ وَعْرةٍ شائكةٍ ، وُكلَّما أوغلتُ

انكشفت عنى غِشَاوةٌ من العَمَى ، وأَحْسَسْتُ أنى أنا والجيلُ الذى أنا منه ، وهو جِيل المدارس المصرية ، قد تمَّ تفريغُنا تفريغاً يَكادُ يكون كاملاً من مَاضينا كُلِّه ، من علومه وآدابه وفُنُونه . وتَمَّ أيضاً هَتْك العلائق بيننا وبينه ، وصارَ ما كان فى الماضى متكاملاً متماسكاً ، مِزَقاً متفرِّقة مبعثرةً تكاد تكون خاليةً عندنا من المعنى ومن الدلالة . ولأنه غير ممكن أن يظلَّ الفارغُ فارغاً أبداً ، فقد تَمَّ مَلْءُ هذا الفراغ بجديدٍ من العلوم والآداب والفنون ، لا تمتُّ إلى هذا الماضى بسببٍ ، وإنَّنا لَنستقبلُه استقبالَ الظَّامىء المحترق قطراتٍ من الماء النَّمير المثلَّج .

فى خلال هذه الأعوام ، تبيّن لى أمرٌ كان فى غاية الوضوح عندى . وهو قصَّة طويلةٌ قد تعرَّضت لأطرافٍ منها فى بعض ما كتبتُ ، (١) ولكنى أذكرها هنا على وجه الاختصار . صار بيِّناً عندى أننا نعيش فى عالم منقسمٍ انقساماً سافراً : عالمُ القوَّة والغنى ، وعالمُ الضعفِ والفقر = أو عالم الغُزاةِ الناهبين ، وعالم المستضعفين المنهوبين . كانَ عالم الغزاةِ الممثَّل فى الحضارة الأوربية ، يريد أن يحدث فى عالم المستضعفين تحوُّلاً اجتماعيًّا وثقافيًّا وسياسيًّا ، فهو صَيْدٌ غزيرٌ يُمِدُّ حضارتهم بجميع أسباب القوة والعلوِّ والغنى والسلطان والغلبة . والطريق إلى هذا التحوُّل عملٌ سياسىٌّ محضٌ ، لا غايةَ لهُ إلاّ إخضاعُ هذا العالم « المتخلف » إخضاعاً تامًّا لحاجات العالم « المتحضر » التى لا تنفد ، ولسيطرته السياسية الكاملة أيضاً . ومع أنَّ هذا العمل السياسى المحض المتشعِّب ، قد بدأ تنفيذه منذ زمن فى أجزاء متفرقة من عالمنا ، إلا أنه بدأ عندنا فى مصر ، قلب العالم الإسلامى والعربى ، مع الطلائع الأُولى لعهد محمد على ، بسيطرة القناصل الأوربية عليه وعلى دولته ، وعلى بناء هذه الدولة كُلِّها بالمشورة والتوجيه . ثم ارتفع إلى ذروته فى عهد حفيده إسماعيل بن إبرهيم بن محمد على الخديوى ، حتى جاء الاحتلال الإنجليزى فى سنة ١٨٨٢ ، وبمجيئه سيطر الإنجليز سيطرةً مباشرةً على كُلِّ شيء ، وعلى التعليم

(١) بعض ذلك فى كتابى « أباطيل وأسمار » .

خاصة ، إلى آن جاء « دنلوب » فى (١٧ مارس ١٨٩٧) ، ليضع للأمة نظام التعليم المدمِّر الذى لا نزالُ نسيرُ عليه ، مع الأسف ، إلى يومنا هذا .

كان التمهيد لهذا العهد طويلاً متعدّد الجوانب ، وكان قوامُه إعدادَ أجيال من « المبعوثين » يعودون من أوربة ليكونوا قادةَ هذا التحوُّل الرفيق العميق ، ويرادُ منهم أن يؤسِّسوا قاعدة ثابتة لانطلاق التحوُّل إلى غايةٍ يُرَادُ لنا أن نبلُغَها على تمادى الأيام . وكان الغُزاةُ يقنعون يومئذ من هؤلاء المبعوثين ، بأن يعودوا إلى بلادهم ببضعة أفكارٍ يردّدونها ترديد الببغاوات ، تتضمّن الإعجاب المزهُوَّ ببعض مَظَاهر الحياة الأوربية ، مقروناً بنقد بعض مظاهر الحياة فى بلادهم = وبأن يكاشفوا أمَّتهم بأنّ ما أعجبوا به هو سرُّ قوة الغزاة وغلبتهم ، وأن الذى عندنا هو سِرّ ضعفنا وانهيارنا . وقد وجدتُ ذلك ظاهراً ممثلاً أحسن تمثيل عند رفاعة الطهطاوى وأشباهه . ولكن لما جاء عهد « دنلوب » ، كان أمر المبعوثين وحده لا يكفى ، وأصبح الأمر محتاجاً إلى ما هو أكبر وأوسعُ انتشاراً . فكان الرأىُ أن تنشأ أجيالٌ متعاقبةٌ من « تلاميذ المدارس » فى البلاد ، يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بهذا التحوّل ، عن طريق تفريغهم تفريغاً كاملاً من ماضيهم كُلِّه ، مع هَتْك أكثر العلائق التى تربطهم بهذا الماضى اجتماعيًّا وثقافيًّا ولغويًّا ، ومع ملء هذا الفراغ بالعلوم والآداب والفنون = ولكنها فنونهم هم ، وآدابهم هم ، وتاريخهم هم ، ولغاتهم هم ، أعنى الغزاة .

وقد تولى نظام « دنلوب » تأسيس ذلك فى المدارس المصرية ، مع مئاتٍ من مدارس الجاليات التى يتكاثر على الأيام عددُ من تضمُّ من أبناء المصريين وبناتهم . وقد كان ما أراد الغزاةُ ، ولم يزل الأمر إلى يومنا هذا مستمرًّا على ما أرادوا ! بل زادَ بشاعةً وعمقاً فى سائر أنحاء العالم العربىّ والإسلامىّ بظهور دعوات مختلفة ، كالدعوة إلى الفرعونية والفينيقية وأشباه ذلك ، فى الصحافة والكتب المؤلفة . لأن تفريغ الأجيال من ماضيها المتدفِّق فى دمائها مرتبطاً بالعربية والإسلام ، يحتاجُ إلى ملء بماضٍ آخر يغطِّى عليه ، فجاءوا بماضٍ بائدٍ مُعْرِقٍ فى القِدَمِ والغموض ، ليزاحم بقايا ذلك الماضى المتدفِّق الحىّ الذى يوشك أن يتمزّق ويختنق بالتفريغ المتواصِل .

فى ظلّ هذا التفريغ المتواصل ، وهذا التمزيق للعلائق ، وهذه الكثرة التى تخرجُ مفرَّغةً أو شِبْهَ مفرّغة إلى « البعثات » ، وهذا التحوُّل الاجتماعى والثقافى والسياسى المضطرب ، وهذا التغليب المتعمّد للثقافة الغازية واللغات الغازية ، بلا مقابل فى النفوس من ثقافة ماضية حيَّة حياة ما ، وباقيةٍ على تماسكها وتكاملها = فى ظل هذا كُلّه ، انتعشت الحركة الأدبية والثقافية انتعاشاً غير واضح المعالم ، ولكنه يقومُ على أصلٍ واحدٍ فى جوهره ، هو ملءُ الفراغ بما يناسبُ آداباً وفنوناً غازية كانت قد ملأت بعضَ هذا الفراغ ، فهى تحدثُ فى النفوس تطلُّعاً إلى زادٍ جديد منها .

فالمسرحُ مثلاً ، وكان له شأنٌ أىُّ شأنٍ ، يعتمد اعتمادًا واضحاً على المسرح الأوربىّ فى تكوينه كُلِّه . وأيسر سبيلٍ كانَ إلى إمدادِه بمادّته ، هو « السطو » على مؤلفات المسرح الأوربىّ ، مسلوخةً يعادُ تكوينُها بألفاظ عربيّة ، أو عامية على الأصحّ ، ودون إشارة إلى هذا « السطو » ، وكانوا يسمُّون هذا حياءً ومكراً : « التمصير » !! بيد أنه عبثٌ مجرّدٌ ، وسطوٌ لا رقيبَ عليه . أمَّا الكتَّاب الجادُّون ، فكان أكثرهُم يعتمد على تلخيص نتاج الفكر الأوربىّ فى الأدب والفلسفة والاجتماع والسياسة تلخيصاً مَّا ، وإن كان أكثره خطْفاً وسطواً ينسبُه الكاتب إلى نفسه بلا رقيبٍ ولا محاسب .

والقِصَّةُ أيضاً ، كانت ضرباً من « السطو » والتقليد ، تُحوَّر فيها الأسماء والأماكن والوقائع ، ثم تُرقَّع بأفكارٍ مسلوبة مختطفة ، ثم توزَّع توزيعاً ماهراً على فصولها المختلفة ، حتى تضمن لأصحابها إخفاء معالم السطو والانتهاب والتقليد . [وهذا أمرٌ لم يزل مستمرًّا بقوَّةٍ إلى يومنا هذا] .

وبالثرثرة واللجاجة فى الصحف والمجلات ، صارت هذه الظاهرة مألوفةً لا غُبار عليها . وزادها رسوخاً إثارة قضية كثيرة الضجيج ، محفوفة بألفاظ مبهمة مغريةٍ تقبلها النفوس بلا ممانعة ، وهى قضية « القديم » و « الجديد » و « التجديد » و « ثقافة العصر » ! [1] والنظر فى حقيقة هذه القضية يفضى إلى شيئين ظاهرين : ميلٍ ظاهرٍ إلى

---

(١) فى السنوات الأخيرة ، وُجِدت ألفاظٌ جديدة محفوفة بالغموض ، مؤسسة على الثرثرة ، من مثل قولهم : « المعاصرة » و « الحداثة » و « التحديث » .

رفض « القديم » والاستهانة به ، دون أن يكون الرافض مُلِمًّا إلماماً ما بحقيقة هذا « القديم » = وميلٍ سافرٍ إلى الغلوّ فى شأن « الجديد » ، دون أن يكون صاحبُه متميِّزاً فى نفسه تميُّزاً صحيحاً بأنه « جدّد » تجديداً نابعاً من نفسه ، وصادراً عن ثقافةٍ متكاملة متماسكة ، بل كل ما يميِّزهُ أن الله قد يسَّرَ له الاطلاع على آداب وفنونٍ وأفكارٍ تعب أصحابها فى الوصول إليها من خلال ثقافتهم المتماسكة المتكاملة !! وكفى الله المؤمنين القتال !

هذه خُطُوط من صُورةٍ ، لجانب من الحركة الأدبية والثقافية فى ذلك العهد ، وأكثرها باقٍ إلى يومنا هذا ، ومقبول أيضاً بلا استبشاعٍ له .

ولكن هذه الصورة لا تتمُّ وحدها . فى خلال التحوُّل الاجتماعى الثقافىّ المتصاعد المتكاثر ، كان هناك جانبٌ راكدٌ مختنقٌ ، لم يفرَّغ هذا التفريغ ، ولكن ضُرِبَ عليه حصارٌ مفزعٌ وبيلٌ مُهينٌ . هذا الجانب كان هو الوارث للماضى المتكامل المتماسك ، ولكنه كان يزدادُ على مَرِّ الأيَّامِ تخَلخُلاً وتفكُّكاً وحيرةً وانطواءً . يمثّل هذا الجانب جمهور المتعلمين المنتسبين إلى الأزهر ودار العلوم وأشباههما . كان أكبر همّ هذا الجانب ، فى هذا اليمّ المتلاطم من حوله ، هو محاولة المحافظة على الماضى محافظةً مَّا ، ولكنّ قبضَته كانت تسترخى شيئاً فشيئاً تحت الحِصار ، وتحت القذائف المدمِّرة التى يُرْمَى بهآ ، والتى تزلزِلُ نفوس أبنائه من قواعدها . وكان مطلوباً طلباً حثيثاً أن تُفْتَح أبواب هذا الحصن العتيق المنيع ، لتدخُلَ عليه نفس العوامل التى أدَّت إلى تفريغ « تلاميذ المدارس » من ماضيها ، وإلى تهتُّك علائق ثقافته وعلومه ، وإلى ربطه بالحركة الأدبيّة الغازية المتصاعدة تحت ألوية « الجديد » و « التجديد » و « ثقافة العصر » ، وسائر الألفاظ المبهمة المغرية !!

وقد كانَ ، واحتاج شقُّ الطريق إلى هذه الغاية إلى وسائل كثيرة متنوّعة ، والذى يهُمُّنى منها هنا هو ما يتعلَّق بأمر « السطو » لا غيرَ . كانَ الذى يحولُ بينهم وبين بلوغ

هذا الغرضِ ، هو أن جمهور المتعلمين المنتسبين إلى الأزهر ودار العلوم ، لم يكن لهُم لسانٌ غير العربية ، قلّما كان يعرف أحدهم غير هذا اللسان ، فعمدوا ، فى مصر خاصةً ، إلى إجافة بابٍ يتيحُ لهم أن يطَّلِعُوا = أو يُصدمُوا على الأقلّ ، بما عند الحضارة الغازية من نظر ورأيٍ فى آداب العربية وعلومها وفُنونِهَا وتاريخها ودينها أيضاً !! كان هذا موفُورًا فى مؤلفات « المستشرقين » عامَّةً ، لأنّه هو كلّ عملهم فى « الاستشراق » المرتبط كلّ الارتباط بالاستعمار والتبشير ، أى بتدمير الأمم المستضعفة وتحطيم ثقافتها وآثارها وماضيها كلِّه . [1] فكان لابُدَّ ، إذن ، من نشر هذه الأفكار على نِطاق واسعٍ ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

انبرى لذلك رجالٌ كثيرون فى مصر والشام وغيرهما ، لا يربطُهم فى أنفسهم بهذا الماضى إلا اللسانُ العربىُّ وحده ، أما ضمائرهم فمرتبطة بشىء آخر. فكتبوا مقالات ونشروا كتباً فى آداب العرب وعلومها وفنونها وتاريخها ودينها ، على قلّة معرفتهم بها معرفةً تتيح لهم الكتابة ، ولكنها كانت معبِّرة عن اتجاه « الاستشراق » لا غيرَ .

فكانت كُلُّها « سطوًا » مجرّداً على آراء المستشرقين ومناهجهم فى النظر ، مبثوثاً فى ثنايَا كُلِّ ما يكتبون . وكذلك تيسَّر لكل من لا يعرفُ غير العربية لساناً ، أن يجدَ ، على مدّ يده ، شيئاً « جديداً » يقالُ عن ماضيه ، وبمناهج لم يألفها أيضاً . ولكنْ حال بين هذا الضرب من « السطو » ، وبين أن يكون شيئاً عامًّا مؤثّراً تأثيراً نافذًا فى جمهور « المحافظين » الذين لا يعرفون غير العربية = أنهم رجال وفدوا إلى مصر مع استقرار الاحتلال الإنجليزى فيها (سنة ١٨٩٢) ، وكانت الشُّبْهةُ فيهم تُوجب الحذَر منهم ، فأضعف الحذَر أثر ما يكتبون فى أكثر القراء من هذا الجمهور ، وإن كان لهم فى جمهور « تلاميذ المدارس » المفرَّغين من ماضيهم أثر بليغٌ . ومع ذلك ، فإن الهدفَ لم يذهب هَدَراً ، فإنه على الأقل ، فتح الباب ويسَّر

(١) استوفيت بيان بعض هذا فى كتابى (أباطيل وأسمار) .

السبيلَ للساطين،وجعل « السطو » المباشرَ أمراً مألوفاً لا غبار عليه ، بل زاد فقرَّب إلى الأذهان سبيلَ الاقتناع بأنه ضربٌ من « التجديد » ، ومن متابعة « ثقافة العصر » ومناهج تفكيره فى الدراسات الأدبية والتاريخية الخاصة بلغة العرب وتاريخهم وعلومهم وفنونهم ودينهم أيضاً !!

ومعنى ذلك باختصار ، هو أنه صار الآن ممكناً أن يصبح من الممكن ومن السهل اليسير ، أن يكون معنى « الجديد » و « التجديد » فى دراسة آداب أمة ما وفى دراسة تاريخها : أن يعمد « المجدّد » إلى اقتباس آراء وأفكار قد تولَّى صياغتها مَنْ هو لَصِيقٌ دَخِيل عليها وعلى لسانها ، لم ينشأ فيه ، وإنما تعلَّمه على كِبَرٍ ، فهو لا يعلم منه إلا أقلّ القليل ، ومَنْ هو نابتٌ فى لسانٍ آخر بآدابه وعلومه وفنونه وعقائده ، ومَنْ هو محرومٌ بطبيعته من القدرة على تذوّقِ آدابها تذوّقاً شاملاً = والتذوّق وحدة عُقْدة العُقَد = ومَنْ هو مسلوبٌ كُلَّ إحساسٍ بتاريخها كُلِّه ، فضْلاً عمّا يكنُّه فى سريرته من العداوة المتوارثة والبغضاء المتأججة ، ومن المصلحة المتجدّدة فى تشويه صورتها تشويهاً متعمَّداً لأغراضٍ « حضارية » !! = يا للعجب !

أهذا ؟ أَمْ أن « الجديد » و « التجديد » ، لا يمكن أن يكون مفهوماً ذا معنىً ، إلاَّ أن ينشأ نشأةً طبيعيةً من داخل ثقافة متكاملة متماسكة حيّة فى أنفس أهلها = ثم لا يأتى التجديد إلاّ من متمكِّن النشأةِ فى ثقافته ، متمكّن فى لسانه ولغته ، متذوِّقٍ لما هو ناشىء فيه من آداب وفنون وتاريخ ، مغروسٍ تاريخُه فى تاريخها وفى عقائدها ، فى زمانِ قُوَّتِها وضعفها ، ومع المتحدّر إليه من خَيرها وشرِّها ، مُحِسًّا بذلك كُلِّه إحساساً خالياً من الشوائب = ثم لا يكون « التجديدُ » تجديداً إلاّ من حِوَارٍ ذكّيٍ بين التفاصيل الكثيرة المتشابكة المعقَّدة التى تنطوى عليها هذه الثقافة ، وبين رؤية جَدِيدةٍ نافذة ، حين يلوحُ للمجدِّد طريقٌ آخرُ يمكنُ سلوكُه ، من خلاله يستطيع أن يقطعَ تشابكاً من ناحية ، ليصَله من ناحية أخرَى وصلاً يجعله أكثر استقامةً ووضوحاً ، وأن يحلّ عُقْدةً من طَرَفٍ ، ليربطها من طرفٍ آخر ربطاً يزيدُها قوةً ومتانةً وسلاسة .

فالتجديد إذن حركةٌ دائبةٌ فى داخل ثقافة متكاملة ، يتولاّها الذين يتحركون فى داخلها كاملةً حركةً دائبةً ، عِمَادُها الخِبرَة والتذوُّق والإحساسُ المرهفُ بالخطر ، عند الإقدام على القَطْع والوَصْل ، وعند التهجُّم على الحلّ والرَّبط . فإذا فُقِد هذا كُلُّه ، كان القطع والحلُّ سِلاحاً قاتلاً مدمّراً للأمة ولثقافتها ، وينتهى الأمر بأجيالها إلى الحَيْرةِ والتفكُّك والضَّياع ، إذ يورِّث كُلُّ جيل منها جِيلاً بعده ، ما يكون به أشدَّ منه حَيْرَةً وتفكُّكاً وضياعاً .

هذه هى العاقبة التى تفرضُ نفسها فرضاً ، وما أبشَعَها من عاقبة .

فما ظَنُّك إذن بالعاقبة ، إذا كان القطع والحلُّ مُرادًا لذاته ، وكان مُرادًا أيضاً أن لا يكون معه أو بعده وصلٌ وربطٌ فى داخل التكامل والتماسُك الذى يجعل لهذه الثقافة معنىً وحياةً وحركة ؟ = وما ظنك بالعاقبة إذا كان هذا ، ولم تكن الأفكارُ « المجدِّدة » إلاّ ترديداً لصياغة غريبة ، صاغها غريبٌ عن الثقافة ، منتسبٌ إلى ثقافة غازيةٍ مُباينةٍ ، وهو مع ذلك ناقص الأداة ، لا خبرةَ له بتشابكها وعُقدها ، ثم هو فى نفسه لا يضمر لها إلاّ التدمير والاستهانة ، لغرضٍ راسخ فى قرارة النفس ؟ = ثم ما ظَنُّك أيضاً بالعاقبة ، إذا صار « التجديد » عند أصحاب الثقافة أنفسهم ، لا يزيدُ على أن يكون « سَطْواً » مجرَّداً على هذه الصيغ الغريبة ، ثم إقحامُها إقحاماً على ثقافتهم ، لا لحاجة أدّى إليها النظر والفكر والتدبُّر ، بل بالهوى وحبِّ الظهور من مُفَرَّغٍ ، أو من شبيهٍ بالمفرَّغ ، من ثقافته المتكاملة المتماسكة ؟ ما أبشع العواقبَ عندئذٍ ، وأبشعها التَّدهْوُرُ المستمرُّ !

وكذلك كان مقدَّراً لجيلنا نحنُ ، جيل المدارس المفرَّغ ، أن يتلَقّى صدمة التدهوُر الأولى ، لأنه نشأ فى دُوّامة دائرةٍ من التحوّل الاجتماعى والثقافى والسياسىّ . جئنا فى أعقاب حرب الاستعمار الكبرى ، وهى التى يسميها أصحابها « الحرب العالمية الأولى » . خرج منها « الحلفاء » منصورين ، وبدأوا من فَوْرهم فى تقسيم عالمنا وتبديده ، وأخذ كلُّ مستعمر منهم يشدّد قبضته على ما وقع فى يده من الغنائم . وبالدهاء والمكر والسطوة ، جعل يدفَع هذا التحوّل دفعاً شديداً ، لكى يتمَّ له أن يُخْضِع عالمنا « المتخلّف »

لحاجات عالمه « المتحضّر » !! وجئنا أيضاً ، فى مصر ، مع الرجّة العظمى التى أحدثتها ثورة سنة ١٩١٩ ، والتى انتهت بعدَ قليل بفجيعة مزَّقت الأمة تمزيقاً مفزعاً ، بفضل الدستور والانتخابات وتعدّد الأحزاب ، وتكالب كلِّ حزبٍ على الظفر بالحكم تحت علم السيادة البريطانية المتحضِّرة !! وتبدّدت نفوسُنا وتفتَّتت ، تحت ضغط هذا التحوّل السريع المُتَمادِى المُرِيب المروِّع .

وفى ظلِّ هذا كُلِّه ، كما قلتُ ، انتعشت الحركة الأدبيّة والثقافية انتعاشاً غير واضح المعالم ، [1] وأقول « غير واضح المعالم » ، لأنَّ الأساتذة الكبار الذين انتعشت على أيديهم هذه الحركة ، كانت علائقهم بثقافة أمتهم غيرَ ممزّقةٍ كُلَّ التمزيق = أما نحن ، جيل المدارس المفرَّغ ، فقد تمزقت علائقنا بها كُلّ التمزيق ، فصار ما يكتبه الأساتذةُ ، فيما له علاقة بهذه الثقافة ، باطِلاً أو كالباطل . فهو لا يقع منّا ومن أنفسنا بالموقع الذى ينبغى له من الفهم ، ومن الإثارة ، ومن الترغيب فى متابعته ، ومن إعادة النظر فى ارتباطنا بتلك الثقافة = بل كان عند كثير من أهل جيلنا غيرَ مفهومٍ البتة ، فهو يمرُّ عليه مروراً سريعاً لا أثر له . أمّا الذى أخذهُ جيلنا عنهم ، فهو الاتجاه الغامض إلى المعنى المبهم الذى تتضمَّنه كلمة « التجديد » = وإلى هذا الرفض الخفيِّ للثقافة التى كان ينبغى أن ننتمى إليها = وإلى الانحياز الكامل إلى قضايا الفكر والفلسفة والأدب والتاريخ التى أولع الأساتذة بتلخيصها لنا ، لكى نلحق بثقافة العصر الذى نعيش فيه ، وبمناهجه فى التفكير ، كما صوّروا لنا ذلك فى خلال ما يكتبونه !! وغابَ عن الأساتذة الكبار أن الزّمن الدوّار الذى يُشيبُ الصغير ويُفْنِى الكبير ، هو الذى سيتولىّ الفصلَ بينهم وبين أبنائهم الصغار الذين كانوا يتعلَّمُون اليومَ على أيديهم .

***

والقصةُ تطولُ ، ومع ذلك فليس هذا مكانُ قَصِّها على وَجْهها ، إذا أنا أردتُ أن أقيِّدَ ما كان كما شهدته فيما بين سنة ١٩٢٨ ، وسنة ١٩٣٦ ، بل إلى ما بعد ذلك

---

(١) انظر ما سلف ص : ١٥٣ ، ١٥٤ .

إلى يومنا هذا أيضاً . ويكفى أن أقول : إن جيلنا ، جيلَ المدارس المفرَّغ ، كان فى خلال ذلك قد كبِرَ ، وانفلقَ عن فريقين : فريقٍ قانعٍ بما تجود به عليه أقلامُ الأساتذة الكبار من « تلخيصٍ » و « تجديدٍ » ، فهو لا يزالُ إليهم متطلِّعاً ، وبهم متعلِّقاً ، ثم لا يزيدُ = وفريقٍ يسَّر الله له السبيلَ إلى معرفة المنبع ، فرأى نفسه قادراً على أن يغترف من حيث اغترف أساتذته . لقد اطَّلع على أصول ما كانوا يلخِّصُونه ، وما كانوا « يجدِّدون » به مكتوباً بلغته أو بلغاته على الأصحّ . وأحسَّ أيضاً أن « الأصل » الذى يقرؤه بلغته ، مضيءٌ حيٌّ ، مكثفٌ ، عميقُ الدلالة = وأن تلخيص الأساتذة وتجديدهم كابٍ لونُه خامدةٌ حياتُه ، متخلخِلٌ ، قريبُ المتناوَل .

ومع هذا الذى أَحَسَّ به ، فإنه من حيث لا يدرى يشعر بتفوُّق هؤلاء الأساتذة الملخِّصين المجدّدين عليه ، ولكنه لا يستطيع أن يجد تفسيراً لهذا التفوق ، مع أن تفسيره يسيرٌ هينٌ . وذلك أن علائق الأساتذة بثقافة أمتهم كانتْ علائقَ لم تمزق كلَّ التمزيق ، وبفضل هذه العلائق استطاعوا أن يُعْطوا تلخيصهم نفحةً من سرّ أنفسهم يمتازون بها ، وأن يكونوا أقدرَ منهم على « التجديد » ، لأن ما عندهم كان يمكِّنهم من الاختيار ، ثم من نَفْيِ ما هو غثٌّ أو ساقطٌ ، ومن إخفاءِ « السطو » إخفاءً فيه ذَرْوٌ من المعرفة . أمَّا هُمْ ، فقد فُرِّغُوا تفريغاً يكاد يكون تامًّا من أصول ثقافتهم التى ينتمون إليها (بالوراثة) ، ولذلك فهم يحسُّون فى أنفُسهم ما يشبه العجزَ ، إذا ما قارنوا بين أنفسهم وبين هؤلاء الأساتذة .

وهذا هو الموقف العصيبُ الذى كان فيه جيلُنا يومئذٍ ، ثم استمرَّت عليه الأَجيال بعدَنا ، وهى تشعُرُ شعوراً واضحاً بتفوُّق هذا الجيل من الأساتذة الكبار « الملخّصين » و« المجدّدين » مع أنّ الأمرَ ، كما قلتُ ، قائم فى الحقيقة على « السطو » البيِّن أو الخفىِّ ، على أعمالِ ناسٍ آخرين يكتبون فى لُغَاتِهم بألسنتهم ، ويعبِّرون عن أنفُسِهم وعن حضارتهم وعن ثقافتهم = لا عن أنفسنا أو عن حضارتنا أو عن ثقافتنا نحنُ ! ومع ذلكِ فإن جيلَنا والأجيالَ التى تتابعت بعده ، لم تُرِدْ

أن تكشف هذه الحقيقة ، لأنهم إذا فعلوا ذلك كشفوا أمر أنفُسهِم ، لأنهم لا يستطيعون شيئًا آخر سوى منهج « التلخيص » و« التجديد » ، على السُّنَّة التى سَنَّها لهم هؤلاء الأساتذة الكبار . ولو فعلوا ، لما بقى لهُم شىء يقولونه ، حين يَرِثون موقعَ الصدارة للتعليم والتثقيف بعد هؤلاء الأساتذة الكبار .

ولذلك ، فقد قنعوا بالوقوف تحت مظلَّة « التجديد » و « عالمية الثقافة » و « الثقافية العالمية » ، و « الحضارة الإنسانية » ، وسائر هذه المبهمات التى أشرت إليها آنفاً ، وتكاتموا هذه الحقيقة بينهم ، ثم كان الأمْرُ بعد ذلك كما قيل فى المثل : « خلا لكِ الجوُّ فبيضى واصفِرِى » !!

* * *

ومع ذلك ، فأنا أحبُّ أن أقرِّر هنا حقيقة أخرى تعين على توضيح هذه الصورة التى صوَّرتها ، وكنت أنا أحد شهودها فصوّرتها فيما سلف . فالدكتور طه حسين ، وهو أحد هؤلاء الأساتذة الكبار ، سوف يشهد فى سنة ١٩٣٥ شهادته هو ، من موقعه هو ، أى من موقع الأستاذية ، ومن وجهة نظره هو ، ومن دوافعه هو إلى الإدلاء بهذه الشهادة .

ومعلومٌ أن الدكتور طه فى سنة ١٩٢٦ ، حين ألقى محاضراته ، « فى الشعر الجاهلىّ » ، زعمَ أن له منهجاً يدرسُ به تُراث العرب كُلَّه ، وسمّى هذا المذهب « مذهب الشكّ » ، فكان فيما قاله عن مذهبه ، إن هذا المذهب سوف : « يقلب العلم القديم رأساً على عقبٍ . وأخشى إن لم يمْحُ أكثره ، أن يمحوَ منه شيئاً كثيراً » [فى الشعر الجاهلى ص : ٣] . ثم انطلق فى كتابه هذا مستخِفًّا بكُلِّ شىءٍ ، بلا حذر ، حتى قال : « والنتائج الملازمة لهذا المذهب الذى يذهبُه المجدّدون عظيمة جليلةُ الخطر ... وحسبُك أنَّهم يشكُّون فيما كان الناسُ يرونه يقيناً ، وقد يجحدون ما أجمع الناسُ على أنه حقٌّ لا شك فيه . وليس حظُّ هذا المذهب منتهياً إلى هذا الحدّ ، بل هو يجاوزهُ إلى حدود أُخرى أبعدَ منه مدىً وأعظم أثراً . فهم قد ينتهون إلى تغييرِ التاريخ ، أو ما اتفق الناس على أنه تاريخ ، وهم قد ينتهون إلى الشك فى أشياء لم يكن يباح الشك فيها » ، [فى الشعر الجاهلى : ٦] .

والاستخفافُ الذى بنى عليه الدكتور طه كتابه معروفٌ ، أمَّا الذى كان يقوله فى أحاديثه بين طلبته ، فكان استخفافُه عندئذ يتجاوز حدّه حتى يبلغ بنا إلى الاستهزاءِ المحضِ بأقوال السلف . وأمَّا الذى كان يدورُ بين طلبته الصغار « المفرَّغين » من ثقافتهم ، كما قلت ، فكانَ شيئاً لا يكادُ يُوصف ، لأنه كان استخفافَ جاهلٍ واستهزاءَ خَاوٍ ، يردّدُ ما يقوله الدكتور ، لا يعصمهُ ما كان يعصم الدكتور طه من بعض العلم المتصل بهذه الثقافة . وعلى مرّ الأيامِ ، كانت العاقبة وخيمةً جدًّا . كَبِرَ الصِّغارُ الذين تأثَّرُوا بما قاله فى سنة ١٩٢٦ ، فقد فَطَمتهم السنُّ ، وفَطَمتْهم معرفةٌ جديدة حازوها ، وتنكَّروا ، أو كادوا ، للثَّدْى الذى كان يُرْضعهم . وخرجت « الطلائع » تدفعها الحَمّية وطلبُ الصَّدارة فى ميدان « التثقيف » و « التجديد » ، وبدا كأنَّهم جاؤوا يزاحمون الأساتذة الكبارَ فى مواقع الأستاذية . وساروا على نفس النَّهج الذى مَهَّدوهُ لهم من « التلخيص » لفكر « الحضارة الحديثة » = أى الحضارة الأوربية = والذى هو فى حقيقته سطوٌ مجرَّدٌ ، ولكنَّهم لم يسيروا سيرةَ الأساتذةِ فى معالجة « القديم » حتَّى يُخَيِّل للناس أنه إحياءٌ للقديم وتجديدٌ له ، بل كانَ الغالبُ على أكثرهم هو « رفضَ القديم » والإعراضَ عنه والانتقاصَ له والاستخفافَ به . وعندئذ أحسَّ الدكتور طه نفسه بالخطر ، وهو هو الذى أضاء لهم الطريق بالضجَّة التى أحدثها كتابه « فى الشعر الجاهلى » !!

كان إحساس الدكتور بهذا الخطر الذى تولَّى هو كِبْرَ إحداثه ، ظاهراً جدًّا ، ففى يناير سنة ١٩٣٥ = بعد تسع سنوات من صدور كتابه : « فى الشعر الجاهلى » ، سنة ١٩٢٦ = بدأ ينشر فى جريدة الجهاد مقالات انتهى منها فى ٢٢ مايو سنة ١٩٣٥ ، وكانَ مُحَصَّلها رجوعاً صريحاً عن ادعائه الأوَّل فى سنة ١٩٢٦ ، الذى أعلنه فى أوَّل كتابه ، وهو قوله : « إن الكثرة المطلقة مما نُسَمّيه شعراً جاهليًّا ، ليست من الجاهلية فى شئ ، وإنما هى مُنتَحَلة مُخْتَلقة بعد ظهور الإسلام ، فهى إسلامية تمثِّل حياة المسلمين وميولَهم وأهواءَهم ، أكثر مما تمثّل حياة الجاهليين ، وأكاد لا أُشكّ فى أنَّ ما بقى من الشعر

الجاهلىّ الصحيح قليل جدًّا ، لا يمثّل شيئاً ولا يدلُّ على شىء » ، [فى الشعر الجاهلى ص : ٧] . (١)

بدأ الدكتور هذه المقالات بمقالة عنوانها : « أثناء قراءة الشعر القديم » ، (٢) وأدار الحديث بينه وبين صاحب له قال له وهو يحاوره : « إنكم لتشقُّون علينا حين تكلّفوننا قراءةَ شعركم القديم هذا ، وتلحُّون علينا فيه ، وتعيبوننا بالإعراض عنه ، والتقصير فى درسه وحفظه وتذوُّقه ، لأنكُم تنكرون الزمن إنكاراً وتُلْغونه إلغاءً ، وتحسبون أننا نعيش الآن فى القرن الأوّل قبل الهجرة أو بعدها .... » إلى آخر ما صوّر به الدكتور حقيقة إحساسه بآراء من يُحِيطون به من جيلنا الذى بلغ الفِطَام واستقلَّ .

ثم قال بعد ذلك (ص : ٩ من حديث الأربعاء ج : ١) : « وقد تحدَّث إلىّ المتحدثون بأن أمثال صاحبى هذا قد أخذوا يكثرون ، ويظهر أنهم سيكثرون كلما تقدّمت الأيام » ، وصدق ظن الدكتور ، فقد كان ذلك ، وكان ما هو أبشع منه !

وسأحاول هنا أن ألخص ما قاله الدكتور طه بألفاظه هو ، لا بألفاظى ، لأنها شهادة أستاذ كبير ، يقول :

« والذين يظنُّون أن الحضارة الحديثة حملت إلى عقولنا
« خيراً خالصاً يخطئون ، فقد حملت الحضارة الحديثة إلى عقولنا
« شرًّا غير قليل ... فكانت الحضارة الحديثة مصدر جمودٍ
« وجهلٍ ، كما كان التعصّب للقديم مصدر جمود وجهل أيضاً .

(١) قد بينت فى بعض مقالاتى أن الدكتور طه ، قد رجع عن أقواله التى قالها فى الشعر الجاهلى ، بهذا الذى كتبه ، وببعض ما صارحنى به بعد ذلك ، وصارح به آخرين ، من رجوعه عن هذه الأقوال . ولكنه لم يكتب شيئاً صريحاً يتبرأ به مما قال أو كتب . وهكذا كانت عادة « الأساتذة الكبار » ! يخطئون فى العلن ، ويتبرأون من خطئهم فى السر !!

(٢) انظر « حديث الأربعاء » الجزء الأول (من ص ٩ – ١٧) .

« هذا الشابّ ، أو هذا الشيخ ، الذى أقبل من أوربة
« يحمل الدرجات الجامعية ، ويحسنُ الرطانة بإحدى اللغات
« الأجنبية ... يجلسُ إليك وإلى غيرك منتفخاً متنفِّشًا ،
« مؤمناً بنفسه وبدرجاته وبعلمه الحديث ، أو أدبه الحديث ،
« ثم يتحدَّثُ إليك كأنه ينطق بوَحْى أَبُولُّون . فيعلن إليك
« فى حَزْم وجَزْم أن أمر « القديم » قد انقضى ، وأن الناس
« قد أَظَلَّهم عصر « التجديد » وأنَّ الأدب القديم يجبُ
« أن يُتْرَك للشيوخ الذين يتشدّقون بالألفاظ ، ويملأون
« أفواههم بالقاف والطاء وما أشبهها من الحروف الغلاظ ،
« وأن الاستمساك بالقديم جمود ، والاندفاع فى الحياة إلى
« أمامٍ هو التطوُّر ، وهو الحياةُ وهو الرقىُّ . هذا الشاب
« وأمثاله ضحيّةٌ من ضحايا الحضارة الحديثة ، لأنه لم يفهم
« هذه الحضارة على وجهها ، ولو قد فهمها لعلم أنها لا تنكر
« القديم ولا تنفِرُ منه ولا تنصرف عنه ، وإنّما تحبِّبُه وترغِّبُ
« فيه وتَحُثُّ عليه ، لأنها تقوم على أساسٍ منه متينٌ ....

« هذا الشابُّ ضحيّةٌ من ضحايا الحضارة الحديثة ،
« أو من ضحايا جهل الحضارة الحديثة ، وشرُّه ليس مقصوراً
« عليه ، وإنما يتجاوزه إلى غيره من الناس . فهو يتحدَّث ،
« وهو يعلِّمُ ، وهو يكتُبُ ، وهو فى هذا كُلِّه ينفُثُ السُّمَّ ،
« ويفسد العقول ، ويمسَخُ فى نفوس الناس المعنى الصحيح
« لكلمة « التجديد » . فليس التجديد فى إماتة القديم ،
« وإنما التجديد فى إحياء القديم ، وأخذ ما يصلُح منه للبقاء .

« وأكادُ أتَّخذ الميلَ إلى إماتة القديم أو إحيائه فى

« الأدب ، مقياساً للذين انتفعوا بالحضارة الحديثة أو لم
« ينتفعوا بها ، فالذين تُلْهيهم مظاهر الحضارة عن أنفسهم
« حين تلهيهم عن أدبهم القديم ، لم يفهموا الحضارة الحديثة ،
« ولم ينتفعوا بها ، ولم يفهموها على وجهها ، وإنّما اتخذوا
« منها صُوَراً وأشكالاً ، وقلّدوا أصحابها تقليد القردَةِ ،
« لا أكثر ولا أقلّ !!

« والذين تَلْفِتُهم الحضارة الحديثة إلى أنفُسِهم ، وتدفَعُهم
« إلى إحياء قديمهم ، وتملأُ نفوسهم إيماناً بأن لا حياةَ لمصر
« إلاّ إذا عُنِيتْ بتاريخها القديم وبتاريخها الإسلامىّ ،
« وبالأدب العربىّ قديمه وحديثه ، عِنَايتَها بما يمسُّ حياتها
« اليومية من ألوان الحضارة الحديثة = هم الذين انتفعوا ، وهم
« الذين فهموا ، وهم الذين ذاقوا ، وهم القادرون على أن
« ينفعوا فى إقامة الحياة الجديدة على أساس متين » .

وهذه الشهادة ، من أحد الأساتذة الكبار ، الذين سنُّوا لمن بعدهم السُّنَن فى الحياة الأدبية وفى مناهج تفكيرها ، شهادة مهمّةٌ جدًّا لتاريخ الحياة الثقافية التى امتدَّت بعدهم إلى يومنا هذا ، بَلْ هى تكشف عن جُذُور التدمير المفزع الذى يشمل اليوم المُجْتَمع العربىَّ كُلّه حيث تُنْطَق العربيّة ، [1] لا بَلْ حيثُ يَدِينُ غيرُ العرب بالإسلام ، ويُوجب عليهم إسلامُهم أن يضعُوا العربية فى المقامِ الأوَّلِ ، لأن إسلامَهم لا يكون إسلاماً

(١) لم ينتصب أحد لوصف هذا التدمير المفزع الذى يشترك فى جريمته مثقفون كثيرون ، فى الأدب ، وفى العلم ، وفى التاريخ ، وفى الفلسفة ، وفى الاجتماع ، وفى السياسة ، وفى الفن كله من مسرح وسينما وموسيقى وغيرها ، وكل منهم ، كما يقول الدكتور طه : « ينفث السم ويفسد العقول ويمسخ فى نفوس الناس المعنى الصحيح لكلمة التجديد » . وقد زاد الأمر ، فلم يبق مقتصراً على التعليم والكتابة والتأليف والصحافة ، بل دخل كل بيت دخولاً مفزعاً عن طريق الإذاعة والتليفزيون ، بلا رقيب ولا حسيب !

إلاّ بالقرآن ، وهو الذى نزل عليهم بلسان عربىّ مبين ، وإلاّ بسنَّة الرسول الأمىّ العربىّ ، ﷺ ، وهى أيضاً بلسان عربىّ مبين .

وليس من همّى هنا أن أفسر هذه الشهادة ، ولا أن أوضِّح مَدَى صِدْقها حيث صدق توقُّع الدكتور فى تكاثر عَدَد مَنْ وَصَفَهُم من « المثقفين » فى شهادته ، وأخشى أن أقول إن هذه الصفة ، على نقصها ، تشمل عامة المثقفين فى زماننا هذا إلى سنة ١٩٧٧ = ولكنْ الذى يجب علىَّ أن أقوله : إن شهادة الدكتور على اختصارها ، إنما هى وجهٌ آخر لشهادتى التى كتبتُها هُنا ، قالها هو من موقع « الأستاذية » ، وقُلْتها أنا من موقعى بين أفراد جيلى الذى أنتمى إليه ، وهو جيل المدارس المفرّغ من كل أصول ثقافة أمته ، وهو الجيل الذى تلقَّى صدمة التدهورِ الأولى ، حيث نشأ فى دُوَّامةٍ من التحوُّل الاجتماعى والثقافىّ والسياسىّ ، كما أشرت إليه آنفاً [ص : ١٦١] .

* * *

ثم قلت فى ختام ما سميته « لمحة من فساد حياتنا الآدبية » [كتاب المتنبى : ١٢٢ ، ١٢٣] .

أمّا الآن ، فإنى أتلفَّت إلى الأيام الغابرة البعيدة ، حين كنت أُشْفِق من مَغَبَّة السُّنن التى سَنَّها لنا الأساتذة الكبار ، كسنّة « تلخيص » أفكارِ عالَم آخر ، ويقضى أحدَهُم عمره كله فى هذا التلخيص ، دُونَ أن يشعُرَ بأنّه أمرٌ محفوفٌ بالأخطارِ ، ودون أن يستنكف أن ينسبَهُ إلى نَفْسه نسبةً تجعله عند الناسِ كاتباً ومؤلّفاً وصاحبَ فكرٍ ، هذا ضربٌ من التدليس كريهٌ . ومع ذلك فهو أُهوَنُ من « السطو » المجرَّد ، حين يعمد الساطى إلى ما سطا عليه ، فيأخذهُ فيمزّقه ثم يفرِّقَه ويُغرقه فى ثرثرةٍ طاغيةٍ ، ليخفى معالِمَ ما سطا عليه ، ولِيُصبح عند الناس صاحب فكر ورأى ومذهبٍ يُعرفُ به ، ويُنْسَبُ كُلُّ فضله إليه . ومع ذلك ، فهذا أيضاً أهونُ من « الاستخفاف » بتراثٍ متكامِلٍ بلا سببٍ ، وبلا بحثٍ ، وبلا نظر ، ثم دعوة من يَعْلمونَ عِلماً جازماً أنه غير

مطيقٍ لما أطاقوا ، إلى الاستخفافِ به كما استخفُّوا . ومع ذلك أيضاً ، فهذا أهون مما فعلوُه وسنُّوه من سُنّة « الإرهاب الثقافىّ » الذى جعل ألفاظ « القديم » و « الجديد » و « التقليد » و « التجديد » و « التخلُّف » و « التقدّم » و « الجمود » و « التحرُّر » ، و « ثقافة الماضى » و « ثقافة العصر » = سياطاً مُلْهِبةً ، بعضُها سياطُ حثٍّ وتخويفٍ لمن أطاعَ وأتَى ، وبعضها سِياطُ عذابٍ لمن خالف وأبَى .

أتلفَّتُ اليوم إلى ما أشفقْتُ منه قديماً من فعل الأساتذة الكبار ! لقد ذهبُوا بعْدَ أن تركُوا ، من حيث أرادوا أو لم يريدُوا ، حياةً أدبيَّة وثقافية قد فسدت فساداً وبيلاً على مَدَى نصفِ قرنٍ ، وتجدّدت الأساليب وتنوَّعت ، وصار « السطو » على أعمال الناس أمراً مألوفاً غير مستنكر ، يمشى فى الناس طليقاً عليه طَيلسانُ « البحث العلمى » و « عالميّة الثقافة » و « الثقافة الإنسانية » ، وإن لم يكن محصولُه إلا ترديداً لقضايا غريبة ، صاغها غُرباء صياغةً مطابقةً لمناهجهم ومنابتهم ونظراتهم فى كُلِّ قضيّة ، واختلط الحابل بالنابل ، قُلْ ذلك فى الأدب والفلسفَة والتاريخ والفنِّ أو ما شئت ، فإنّه صادقٌ صِدْقاً لا يتخلَّف . فالأديب منَّا مصوِّرٌ بقلم غيره ، والفيلسوف مِنَّا مفكِّر بعقل سواهُ ، والمؤرِّخ مِنَّا ناقد للأحداث بنظر غريب عن تاريخه ، والفنّان منَّا نابضٌ قلبُه بنبضٍ أَجْنبىّ عن تراثِ فنِّه .

وأما الثرثرةُ والاستخفافُ ، فحدِّث ولا حرج ، فالصبىُّ الكبير يهزأ مزهوًّا بالخليل وسيبويه وفلانٍ وفلانٍ ، ولو بُعِث أحدُهم من مَرْقَدِه ، ثم نظر إليه نظرةً دون أن يتكلّم ، لألجمه العرَقُ ، ولصارَ لسانُه مُضْغَةً لا تتلجلجُ بين فكَّيه ، من الهَيْبة وحدَها ، لا من علمه الذى يستخفُّ به ويهزأ .

واللهُ المستعانُ على كُلِّ بليَّة ، وهو المسئول أن يكشفَها ، وهو كاشفُها بمشيئته ، رَحمةً بأمَّةٍ مسكينة ، هؤلاء ذُنوبُها كانوا ، وأشباهٌ لهم سبقُوا ، وغفرانَك اللهمَّ .

الأحد ٢٥ من ذى القعدة سنة ١٣٩٧
٦ من نوفمبر سنة ١٩٧٧

أبوفهر
محمود محمد شاكر



الفهارس

صنعها

الأستاذ/ أحمد الشريف

رئيس المجلس المحلى بأسوان

١ – الحديث النبوى الشريف

° ° °

٢ – الأمثال العربية

° ° °

٣ – الأمثال العاميّة

° ° °

٤ – الشـــعر

° ° °

٥ - الـكتب

° ° °

٦ - الصحف والمجلات

° ° °

٧ - الأعلام

° ° °

٨ – المعالم والمؤسسات

* * *

٩ – المواضع والبلدان

فهـرس
رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا

* * *

مقدّمة هذه الطبعة

وفيها ذكر نصٍّ جديدٍ مُهِمٍّ جدًّا



• كان من قصة كتابى « المتنبىّ » أنى كتبتُه سنة ١٩٣٦ م ، وافترضتُ فيه فرضاً يُعِيننى على تفسير بعض ما فى شعره ، وعلى تفسير ما فى أخبار حياته وصِلاته بأهل عصره ، وكان هذا الفرض الذى افترضتُه أنّه علوىُّ النسب ، كان مجرّدَ فرضٍ جرىء . وكان ما كان من رضىً واستنكار ، وبعد اثنتين وعشرين سنة (سنة ١٩٥٨ م) أطرفنى أحمد راتب النفاخ صديقى وتلميذى وأستاذى بترجمةٍ كتبها ابن عساكر ، منقولةً عن تاريخه ، وفيها أنّ المتنبىّ أرضعته امرأةٌ علويةٌ من آلِ عبيد الله . فهو إذنْ أخو العلويين من الرضاعة ، وبعد أربع سنوات أيضاً سنة ١٩٦٢ م ، تلقَّيتُ من أخى أحمد ترجمةً للمتنبى كتبها ابن العديم فى كتابه « بغية الطلب » ، فكان فيها أيضاً ما فى ترجمة ابن عساكر أنّه أرْضعته امرأة علوية ، وكان فيها فوائد كثيرة عن المتنبى لم نعرفها من قبل ، (انظر كتاب المتنبى : ٥٤ – ٥٦) ، كان هذا كُلُّه مفاجأةً .

• ثم كانت مفاجأةٌ أخرى جاءتنى فى سنة ١٩٨٤ م ، فإن صديقى وولدى الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العُثَيْمين أهدانى نسخة مصوّرة من ديوان المتنبى ، بشرح الواحدى (أبو الحسن على بن أحمد المتوفى سنة ٤٦٨ هـ) ، وهى نسخةٌ عتيقة نفيسة كتبت فى سنة ٥٩٣ هـ فوجدت فى الورقات الأُخيرة منها ترجمة للمتنبىّ كتبها على بن عيسى الرَّبَعى النحوى ، (انظر باب التراجم ص : ٥٨٥) ، فكانت أيضاً مفاجأة أخرى ، فإذا الذى كان خبراً يذكُرُه المترجمونَ ، صار حديثاً يحدِّث به المتنبىٌّ عن نفسه بلسانه ، رجلاً هو الرَّبَعِىُّ الذى كان آخر من لقى المتنبى وودّعه وهو بشيراز ، ولقى المتنبى بعد ذلك بأيامٍ قليلةٍ مصرعَهُ مقتولاً ، كما تعرف ذلك فى ترجمته .

يقول على بن عيسى الربعىّ :

« وقال لى : مولدى بالكوفة ، ورَضَعتُ بِلِبَانِ عَلَوِيّةٍ من آل عبيد الله بن يحيى » ،

(انظر التراجم ص : ٥٨٩ ، وانظر التعليق عليه) .

وكانت فى هذه الترجمة غرائب ، منها خبرُ ابن عمٍّ للمتنبى بالكوفة ، رآه الربعىُّ ، وذكر له نسبه ، وأنه لا يعرف باقى نسبه ، لأنه منقطع ، وليس فى شىء من الكتب ، وهو مهمٌّ جدًّا ، (ص : ٥٩٠) = وخبرٌ مهم جدًّا فى الدَّخلة الأُولى التى دَخلها المتنبى بغداد مدينة السلام خارجاً إلى فارس ، وله علاقةٌ وثيقة جدًّا بحال المتنبىّ مع العلويين (ص : ٥٩٠ ، والتعليق عليه) = وذِكر راويةٍ للمتنبىّ ، لم نجد له ذكراً فى تراجمه (ص : ٥٩٢) = وذِكْرُ عامل رَامَهُرْمُزَ من قبل معزّ الدولة ، وخَدَم أبا الطيب وقت اجتيازه بها خارجاً إلى ابن العميد (ص : ٥٩٥) = وخبرُ رجلٍ رأى أبا الطيب ينشد شعرَه بعضَ أهل سُوق البزّ (ص : ٦٠١) = وخبرٌ عن المتنبىّ فى دخلته الثانية إلى بغداد ، فى دار أبى الحسن العروضىّ ، ودخل عليه هرون بن المنجمّ وأنشده بيتاً ، فأطرقَ أبو الطيب وألحق به بيتاً آخرَ قاله ، فأُعْجِب الناس بسرعة خاطره (ص : ٦٠٢) = وأخبارٌ عن المتنبىّ فى شأن كتمان نسبه ، ليست فى شىء من الكتب ، (ص : ٦٠٢ ، ٦٠٣) = وخبرٌ فى قراءة الربعىّ على المتنبى شعرَهُ ببغداد وشيراز ، وهو مُهِمٌّ ، (ص : ٦٠٣) = أمّا الزيادات على شعر المتنبىّ فى ديوانه ، وليست فى زيادات شعر المتنبىّ للراجكوتى ، فهى فى هذه الصفحات : ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٥ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، وعِدَّتها ثلاثة عشر بيتاً ، لم أرَ منها شيئاً فى الكتب التى بين يدىَّ .

والحمدُ لله أوّلاً وآخراً .

* * *

نص الكلمة التى ألقيت عند
تسلّم جائزة الملك فيصل العالمية
عن « كتاب المتنبى »

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله فاطر السموات والأرض ، المُسْبِغ نِعَمه على خلقه ظاهرةً وباطنةً ، لا تحيطُ بشكرها ألسنة الشاكرين والذاكرين والمسبِّحين ، والحمد لله الذى اصطفى من عباده النبىَّ الأمِّىَّ رسولاً إلى العالمين ، وأوحَى إليه هذا القرآن بلسانٍ عربىٍّ مبينٍ يكون ذِكْرًا له ولقومِه دَهْر الداهرين . الحمد لله وحده لا شريك له ، وصلّى الله على رسوله وسلَّم تسليماً كثيراً طيِّباً مبارَكاً فيه ، وصلّى الله على أبويه الرسولين الكريمين إبرهيم وإسمعيل وعلى المبلّغين رسالاتِ رَبِّهم من الأنبياء والمرسلين .

* * *

لستُ أدرى كيف أستطيع أن أحمِّل هذا اللسان العاجزَ عبئًا لم يتحمَّل مثله قطُّ ، إذ أقف أوّل مرةٍ فى حياتى بين مثل هذا الحفل المحفوف بهيبة المُلْك ، وجلالِ العلم ، وأُبَّهة الفضل ، ثم أطالبُه أن يبينَ عمّا يجيشُ فى صدرى من معانٍ ، وأنا فى خِلال ذلك نَهْبٌ مقسَّم لخوالجَ متناقضة ، تكبَحُنى رهبةٌ تُورثُ الخوفَ والتوجُّسَ والإشفاقَ ، وتستحثُّنى نشوةٌ تُثِير الشجاعة والجرأةَ والإقدامَ . وأىُّ إقدامٍ أغربُ من إقدامى على المثولِ بينكُم ! وأىُّ جراْةٍ أعجبُ من جَسَارتى على مخاطبتكم ! وأىُّ شجاعةٍ أعظمُ من اقتحامى إليكم سُدُود الرهبة والتوجُّس والخوف والإشفاق ، حتى وقفتُ مثل هذا الموقف باسطاً لسانى بالشكر ، مجاهراً بما يوجبه علىَّ عرفانُ الجميلِ وحسنِ الصنيع .

ومع ما يُخَامر نفسى من الرهبة ، وقلبى من الخوف ، ولسانى من العجز ، تجتاحُنى سَعادة غامِرَة ونشوةٌ بهيجة ، بأن أتاح الله لى فرصةَ عزيزةً نادرةً ، اهتبلتُها خَلْسَةً من دهرٍ شحيح ضنينٍ ، لكى أعبِّر بلسانٍ طليقٍ عن فرحة قديمة لم تزل مكتومةً فى سرِّ

قلبى ، منذ سمعتُ بخبر إنشاء « جائزة الملك فيصَلٍ العالمية » ، فى سنة تسع وتسعين وثلاثمئة بعد الألف ، وقد أوشك القرنُ الرابعَ عشر للهجرة أن ينصرم . فيومئذ تمثَّلت لى الأيَّام المقبلة من القرن الخامسَ عشر الذى نحنُ اليوم فى دَرَج مطالعه . رأيتُ يومئذٍ فيما رأيتُ عالماً عربيًّا إسلاميًّا قد انتفضَ ، وهبَّ يمسَحُ عن وَجْههُ غفوةً طويلةً ، وأفاقَ من سِنَةٍ كانت قد أخذته ورَبَضَت به . ثم رأَيْتُ عالماً يموجُ بالشوامخ من علمائه وأُدبائه وشعرائه ومفكّريه وكُلِّ السَّاكِنِيهِ على اختلاف ألسنتهم وألوانِهِمْ ، فإذا أظَلَّهم ميعادُ « جائزة فيصلٍ العالمية » ، لم يبق على الأرض منهم شابٌّ يافعٌ ، ولا فتىً ناضجٌ ، ولا كَهْلٌ سوىٌّ ، ولا كبيرٌ مُتَقادِمِ الميلادِ ، ولا شيخٌ فَانٍ بَرَى الدهرُ عظامَه ، إلاّ وذِكْرُ هذه الجائزة جارٍ على لسانه مع التسبيح ، مَاثِلٌ لعينيه كعمود الفَجْر ، مَقْروناً بصورة فَيْصلٍ الذى استطاع فى العاشر من رمضان أن ينزع القناعَ عن عالمٍ آخرَ كانَ يأخذُ منَّا « القوةَ » ، ليزداد بها قوةً على قُوَّته ، واستعلاءً على استعلائه ، وغَطْرسة على غَطْرسته ، ويعطينَا لقاءَ ذلك ما نتحاسد عليه ، وما يبدِّد البقية من قوتنا ، ويجعل بعضنَا يبغى على بعضٍ . فلما سقط القناعُ يومئذٍ ، تجلَّت كلَمْحِ البرقِ فضيحةُ ذاك العالم ، وتَعَرَّت حقيقته ، وبان لكُلِّ ذى عينين أنه كان يخدعنا بنفاقه ليسترقَ منَّا القوةَ التى هى ملكٌ لنا ، وحقٌّ لا ينازعنا فيه منازعٌ ، ثم يُزَيِّف لنا بغطرسته كُلَّ حقيقة ، ويَبْهَرُ أعيننَا بدهائه ومِحَالِه ومخاتلته ، لكى نَعْمَى عن بشاعة مَكْرِهِ بنا ، وقُبْح استعلائه علينَا .

ورأيت أيضاً ، فيما رأيت ، أهلَ القرنِ الخامسَ عشر ، إذا ذكروا القرن الرابعَ عشر ، يعدُّون فيصلاً رجُل هذه الأمّة وسَهْمَها حين طاشت السِّهام ، وركناً من أركانها الشداد وقد وَهَتِ الأركان ، فإذا ذكروا الجائزة المقرونة باسمه ، أثارتْ فى كُلِّ نفسٍ وقلبٍ ما تراه عياناً فى الوجوه وفى الأعينِ ، من بشَاشة الانتماء الحميمِ إلى عالم عربىٍّ إسلامىٍّ متراحبٍ فوَّار ، لا إلى عالمٍ آخر لا يجمعُنا وإيّاه انتماءٌ ولا وشيجةٌ ، وسمعتهم يومئذ يقولون : ذاكَ عالَمُهم هُمْ ، لا عالَمُنا نحنُ . ما أجلَّ ما رأيتُه يومئذٍ من عالَمٍ ، وما أروعَها من حياةٍ . وإذا أراد الله شيئاً ، فكُلّ بعيد قريبٌ .

أمّا الآن ، ونحنُ فى أول معارج القرن الخامسَ عشر ، فإنّه ليحزُنُنى ويكدِّرُ علىَّ سعادتى ونشوتى ، أنْ لم يُقَدَّرْ لى أن أجد لما تمثَّلتُه فى خاطرى تحقيقاً يَشْفى غُلّتَى ، وما هِىَ إلاَّ حَسْوَةٌ خاطفةٌ كحَسْوِ الطائر ، بيد أنى أُومن بأنّ ما هو كائنٌ سيكون ، بإذن الله وتوفيقه ونُصْرته لعباده الصادقين إذا صدقوا ما عاهدوا الله عليه بألسنتهم وقلوبهم ، ثم لم تفرِّقهم الأهواءُ والفتن ، وإلاّ فهو الخِذْلان الكبير ، نعوذ بالله رب العالمين من خذلانه ، ونستدفع به وبرحمته كُلَّ بلاءٍ .

هذه رؤية رأيتُها يومئذٍ لعالَمٍ مستكِنٍّ وراءَ حُجُب الغيبِ ، أوجزتها لكم فى كلماتٍ . ولم يبق عندى شيءٌ يمكنُ أن أقوله لكُمْ ، سوى أنى أجدُ حابسًا يحبسُنى عن مفارقة هذا المقام الكريم بينكم . وحابسى فى مكانى قصةٌ محيِّرة لا أملك إلاّ أن أقُصَّها عليكم . وذلك أنى تلقَّيت من الأمانة العامة للجائز تهنئة بحيازتى إيّاها هذا العام ، عن كتابى « المتنبى » والذى نشرتُه سنة ١٩٧٦ ، ولا كتاب لى عن « المتنبى » سواه . فلمَّا كان بعد حينٍ ، وقرأت نصّ قرار الأمانة العامة ، أذهلنى العجبُ . فقد تبيّن لى كُلَّ التبيُّن أن الجائزة ممنوحة لكاتبٍ آخر غيرى ، كان من تصاريف الأقدار أنّ اسمه يواطىء اسمى ، واسم كتابه يواطىء اسمَ كتابى ، وقد نشر هو كتابه هذا فى سنة ١٩٣٦ ، أى منذ ثمانٍ وأربعين سنة . ومبلغُ علمى أن هذا الكاتب القديم قد غابَ هو وكتابُه معاً منذ سنة ١٩٣٧ غَيْبةً منقطعةً مستمرَّةً إلى يوم الناس هذا . فإذا كانَ قرارُ الأمانة يشهد لِسَمِيِّى الغائب بأنّه مستحقُّ الجائزة ، فإن تهنئتها لى بالجائزة ، ودعوتها إيّاى إلى الرياض ، ووقوفى الآن بين أيديكم ، تشهدُ لى جميعاً أكبر شهادة بأنى مستحقٌّ لها ، ولكن أخوفُ ما أخافُه ، أن يؤوب الكاتب القديم من غَيْبَتِهِ ، ويخرجُ على الأمانة العامَّة من سِرْدابِهِ متأبِّطاً كتابه ، يطالبها بحقِّه فى الجائزة . وهذا أمرٌ مخوفٌ على كُلّ حال ، ولكن ليست هذه قضيَّتى ، إنما هى قضية الأمانة العامة تقضى فيها بما تشاء . أما أنا فهيهات أن يطالبنى أحدٌ بشيءٍ استحققته بما كان من تهنئتى ودعوتى لتسلُّم جائزة هذا العام علانيةً . وأكبُر من ذلك ، فمعى قرارٌ يُلْغِي كُلَّ قرارٍ ، هو تقديمى كتابِىَ « المتنبىّ »

إلى جلالة الملك فهد بن عبد العزيز ، فتقبَّله بأكبر الفضلَ علىّ وعلى كتابى الذى لا كتاب لى عن « المتنبى » سواه . وهذا حسبى وحسبُ كتابى من شرفٍ باذخٍ .

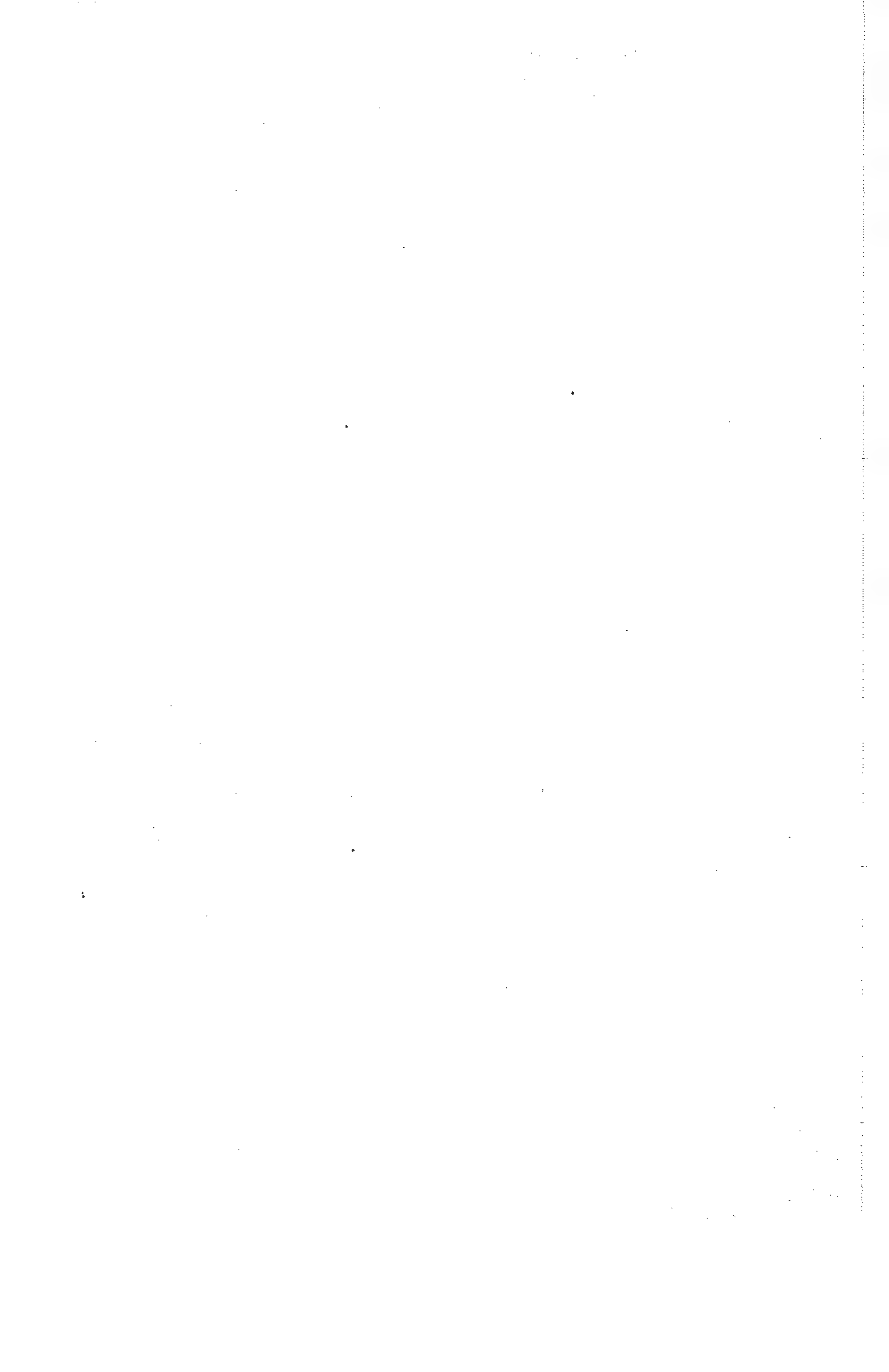
لم يبق للسانى شيء يبوح به ويجاهر ، سوى الشكر . ومن شكر فقد أدَّى حقَّ النعمة ، وأدّى حَقَّ المُنْعم ، ولم يشكر الله من لا يشكُرُ الناس . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فندق الخزامى ، الرياض : ٢٤ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٤

٢٥ من فبراير سنة ١٩٨٤

أبو فهر
محمود محمد شاكر

براءة جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي



بسم الله الرحمن الرحيم



براءة جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي

إن هيئة جائزة الملك فيصل العالمية، بعد الاطلاع على نظام جائزة الملك فيصل العالمية، المعدّل والمصادق عليه من مجلس أمناء مؤسسة الملك فيصل الخيرية بالقرار رقم ٢٣/١١١٧/٤٠٣ وتاريخ ١١/٩/١٤٠٣هـ، وعلى محضر لجنة الاختيار لجائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي في دورتها السابعة بتاريخ ٤ ربيع الأول ١٤٠٤هـ تقرر منح:

الأستاذ محمود محمّد شاكر

جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي هذا العام ١٤٠٤هـ، وذلك تقديرًا لإسهاماته القيّمة في مجال الدراسات التي تناولت الأدب العربي القديم والمتمثلة في:

١ ـ تأليفه كتاب «المتنبي» سنة ١٩٣٦م، والذي حمل كثيرًا من القيم العلميّة والأدبيّة العالية، منها: التعمق في الدراسة والجهد والاستقصاء، والقدرة على الاستنتاج والدقة في التذوّق، والربط المحكم بين الشعر وأحداث الحياة، والكشف عن ذلك في تطوّر أساليب المتنبي.

٢ ـ الآفاق العلميّة الجادّة التي ارتادها، وما كان من فضله على الدراسات الأدبية والفكرية، وعلى الحياة الثقافية والتراث الإسلامي.

٣ ـ مواقفه العامة، وتحقيقاته ومؤلّفاته الأخرى التي ترتفع به إلى مستوى عالٍ من التقدير.

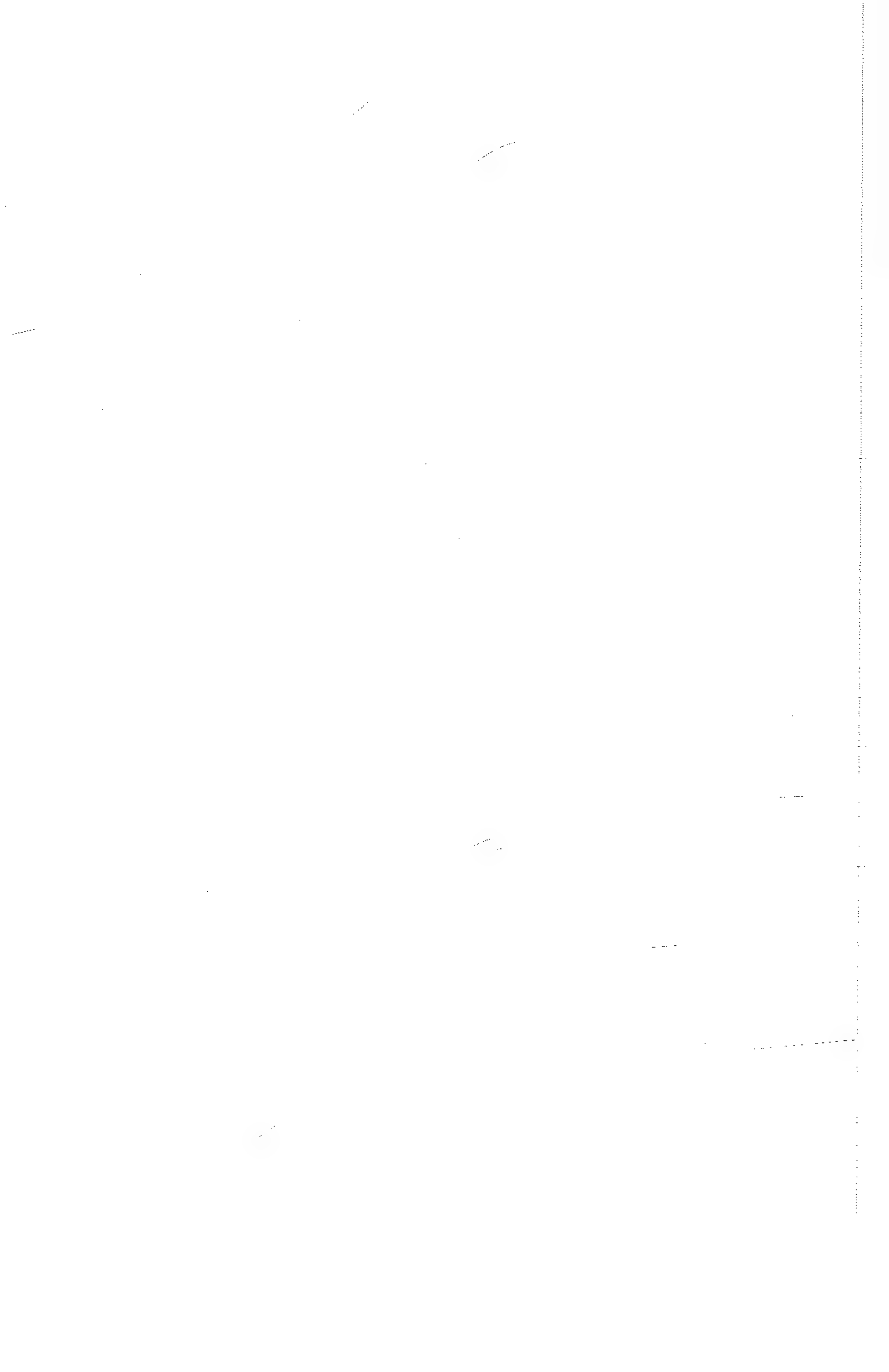
وإن هيئة الجائزة إذ ترى في ذلك كلّه تحقيقًا لأهداف جائزة الملك فيصل العالميّة وتمنحه الجائزة تقديرًا لهذه الأعمال فإنها ترجو الله أن يبارك في أعماله، وأن يمنحه التوفيق لمواصلة جهوده المثمرة في هذا المجال.

والله ولي التوفيق

صدرت في الرياض برقم ٢١ وتاريخ ٢٤ جمادى الأولى ١٤٠٤هـ
الموافق ٢٥ فبراير ١٩٨٤م

رئيس هيئة الجائزة

خالد الفيصل بن عبد العزيز



المتنبي

رسالة في الطريق إلى ثقافتنا

أبو فهر
محمود محمد شاكر



خطبة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهمّ لك الحمدُ كُلُّه ، ولكَ المُلْكُ كُلُّه ، وبيدِك الخيرُ كُلُّه ، وإليكَ يرجعُ الأمرُ كُلُّه ، اللهمَّ صلِّ على محمَّدٍ خاتَمِ أنبيائك ورُسلك ، وعلى أبويه إبرهيم وإسمعيل ، وعلى سائر النَّبِيِّين .

وبعدُ ، فهذا كتاب « المتنبِّى » الذى كنت كتبته فى سنة ١٩٣٦ ، وخرج يومئذ فى عددٍ كامل فى مجلة « المقتطف » ، أنشره اليوم على هيئته التى كان عليها يومَ صدر ، وجمعت إليه ما كنت كتبته فى صحيفة « البلاغ فى سنة ١٩٣٧ » فى قضية المتنبّى بعنوان : « بينى وبين طه » ، وضممتُ إليه أربع تراجم للمتنبّى أقدمهن جميعاً ترجمة على بن عيسى الربعىّ الذى قرأ على المتنبى شعره بشيراز سنة ٣٥٣ قبل مقتله ، وثلاث تراجم بعدها كتبها ابن العديم ، وابن عساكر ، والمقريزىُّ ، من كتبٍ لم تزل مخطوطة لم تنشر ، وكتبتُ له مقدمةً فيها « قصة هذا الكتاب » كما كانتْ ، بارئاً إلى الله من كُلِّ حولٍ وقوةٍ ، شاكراً له سبحانه ، شكر مقصِّرٍ لا يفى شكرهُ بأنْعُمِه وأياديه عنده . وأنَّى يبلُغ شُكْرى له سبحانه ، وقد لطفَ بى فرَدَّ علىَّ بَصرى بعد إظلامٍ ، ولولا لطفه سبحانه لبقى هذا الكتابُ فى المطبعة ناقصاً لِغير تمامٍ . فالحمد لله وحده .

أما الرَّجُل الذى أجْرَى الله على يديه لُطْفَهُ بِي ، واستنقذنى بمروءته من العَمَى ، وحاطنى حتّى عُدْتُ بصيراً ، فإنّى لا أملكُ له جزاءً إلا الإقرارَ بفضله ، وإلاّ الدعاءَ له كلما أَصبحت وأَمْسيتُ . صديقٌ لا تنامُ صداقتُه عن أصحابه ، ورجُلٌ لا تَغفُل مُرُوءتُهُ عن غير أصحابه . ثم هو بعدُ غنِىٌّ عن اللّقب بمكارم أخلاقه ، وفوق كُلِّ لقبٍ بسماحةِ شِيَمِه : « نايف بن عبد العزيز آل سعود » ، لم يزل منذ عرفته قديماً ، يزدادُ جوهرهُ على تقادُم الأيَّام سناً وسناءً . صرّحتُ بذكر آسْمه مطيعاً لما يُرْضِينى ، عاصياً لما يرضيه .

الأحد ٢٥ من ذى القعدة سنة ١٣٩٧

٦ من نوفمبر سنة ١٩٧٧

القاهرة : مصر الجديدة

٣ شارع الشيخ حسين المرصفى

أبو فهر

محمود محمد شاكر

قِصَّة هذا الكتاب

****

إِنَّمَا أَنْفُسُ الأَنِيسِ سِبَاعٌ
يَتَفارَسْنَ جَهْرَةً وَٱغْتِيَالاَ
مَنْ أَطَاقَ ٱلْتِمَاسَ شَيْءٍ غِلاَباً
وٱغْتِصَاباً لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالاَ
كُلُّ غَادٍ لِحَاجَةٍ يَتَمَنَّى
أَنْ يَكُونَ الغَضَنْفَرَ الرِّئْبَالاَ

****

/ لمحة من فساد حياتنا الأدبية ٩م

« المتنبّى » ، كتابٌ كتبتُهُ منذ آثنتين وأربعين سنة ، ونُشر فى عدد مستقلٍّ من مجلة « المقتطف » (يناير سنة ١٩٣٦) . ثم كانت أحداثٌ ، ترتبط آرتباطاً وثيقاً بأحداثٍ كانت قبلها بسنوات طوالٍ ، كان لها أثرٌ بالغُ القسوة والسُّوءِ فى نفسى ، فلم أملِكْ يومئذٍ أن أكبح جِماحها ، فانطويتُ على ما بى انطواءً شديداً أدَّى إلى تغيير منهج حياتى كلِّه . ويومئذٍ رفضتُ رفضاً قاطعاً ، بينى وبين نفسى ، أن أؤلّف كتاباً ، وانصرفتُ / إلى كتابة المقالاتِ ١٠م وبعض الشعر ، وأصررتُ أيضاً على أن لا أعيد نشر هذا الكتاب « المتنبى » مرةً أخرى ، وأعرضت إعراضاً تامًّا عمّا كنتُ وعدت به فى هوامش الكتابِ ، [(١)] من تأليف أربعة كتب مختلفة عن « المتنبى » . وقُضِيَ الأمرُ ، ودخلت منذ ذلك الوقت فى عُزْلةٍ غريبة جدًّا ، أشرتُ إليها مراراً فيما أكتب ولم أفسِّرها ، وتعدّدت صُوَر هذه العُزْلة على مرّ الأيام ، وأصبحت هى طابَعَ حياتى إلى هذا اليوم .

فلما استجبتُ أخيراً لإلحاح جمهرة أصحابى على إعادة طبع كتاب « المتنبِّى » كما كتبتُه يومئذٍ ، وعلى طبع المقالات التى كتبتها سنة ١٩٣٧ فى جريدة « البلاغ » فى نقد

---

(١) انظر هذه الطبعة ، الهوامش فى ص : ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٦٤ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٣٥٠ وما ذكره أخى الأستاذ فؤاد صروف فى تقدمة الكتاب ص : ١٣١

الفصولِ الأُولى من كتاب « مع المتنبى » لأستاذنا الدكتور طه حسين ، بعنوان : « بينى وبين طه » = رأيتُه أمراً لا مَعْدَى عنه أن أقصَّ طرفاً من تاريخ حياتِى يومئذٍ ، لكى أفسِّر السبب الذى من أجله تركتُ تأليف الكتب ، والذى من أجله أبيتُ إعادة طبع كتاب « المتنبى » على مرّ أربعين سنة ، والذى من أجله كتبتُ ما كتبتُ فى نقد كتاب الدكتور طه .

والحديث عن النفس عملٌ أكرهُه ، ولكنه يكون أحياناً ضرورةً لا غنى عنها . فالجيل الذى يستقبل اليوم هذا الكتاب ، لم يشهد تلك الأيام الغابرة ، ولا يعلم عنها علماً يُغْنِى أو يفيدُ ، بل لعله يعلم عن هذا الغابر أشياء / قليلة ، على غير الوجه الصحيح ، الذى كانت عليه ، وإنما اكتَسَبها الجيل الحاضر من الثرثرة التى تنشر أحياناً فى بعض الصحف والمجلات . وقد التزمتُ فى هذا الحديث أن أقصَّ ما لا مناصَ منه ، على الوجه الذى كانَ ، بلا إخفاءٍ للحقائق التى وقفت عليها يومئذٍ ، لأنها هى التى أثَّرتْ فيما أكتب ، وهى التى كوَّنت رأيى فى الجيل الذى عاصرته ، وفى آثار هذا الجيل فى الأجيال التى جاءت معه أو بعده ، متأثِّرةً به أو وارثة له .

١١ م

* * *

بين الثالثة عشرة من عمرى والسابعة عشرة ، كنت مُولَعاً أشدَّ الوَلوع بالرياضيّات ، فدخلت القسم العلمىّ فى « المدرسة الخديوية الثانوية » بالقاهرة ، ولكنى مع ذلك كنتُ مَشْغُوفاً بالشعر ، منهوماً بالأدب ، كَلِفاً بالتاريخ . فلما أُنشئت الجامعة المصرية لأول إنشائها ، لم يستطع وَلَعى بالرِّياضيات أن يقوم لشغفى بالأدب والتاريخ ، فتحوَّلت مخالفاً سيرةَ زملائى فى القسم العلمى ، والتحقت بكليّة الآدابِ ، فكان هذا التحوُّل هو أيضاً بدءَ تحوُّل حياتى تحولاً تامًّا . هجرتُ الرياضيَّاتِ هجراً مُصْمَتاً ، وأقبلتُ على الشعر والأدب والتاريخ بقلبى كُلِّه . ويوم دخلت كلية الآداب ، كنت قد فرَغْتُ منذ قليلٍ من قراءة كتابين جليلين على شيخى ، وشيخ الدكتور طه حسين أيضاً ، وهو سيد بن على المرصفّى ، رحمه الله . أوّل الكتابين :

كتابُ « رغبة الآمل » ، وهو شرح الشيخ على كتاب « الكامل » لأبى العباس المبرِّد = وثانيهما : كتابُ « أسرار الحماسة » ، وهو شرح الشيخ أيضاً على كتاب « الحماسة » لأبى تمام الطائى الشاعر . وفى زمان هذه القراءة كانَ أثر الشيخ / علىّ أثراً شديداً ، فقد ١٢ م أثار اهتمامى وصرفَ قلبى كله إلى الشعر الجاهلىّ وبعضِ الشعر الأموىّ ، وأخذنى ما يأخذُ الشبابَ فى رَيْعان طلبِ المعرفة . فارت بى هذه النَّشوة الجديدة بالشعر الجاهلى ، فجعلت تثبِّط همتى عن الشعر العباسىّ بعض التثبيط . وكان ممّا ثُبِّطت عنه همَّتِى أشدَّ التثبيط ديوانُ أبى الطيب المتنبى ، مع أنّه كان أوّل ديوان من الشّعر قرأتُه كلَّه ، وحفظتُه كلَّه ، وفُتِنتُ به كُلِّه ، فأغفلتُه من يومئذٍ كُلَّه . لم يكن هذا التثبيطُ استخفافاً بالشعر العباسى وما بعده ، بل لأن إيغالِى فى الحفاوة بالشعر الجاهلىّ وقراءته وتتبُّعه فى دواوين شعرائه ، وفى كتب الأدب ، كان قد أوقفنى على شىء مهمّ جدًّا ، شغلنى واستولَى على نفسى ، حتى صار من دَيْدنى يومئذٍ أن أحدِّث عنه أكثر من لقيتُ من الأساتذة الكبار الذين عرفتهم وخالطتهُم وكنتُ آوِى إليهم مستطلِعاً ومستثيراً وملتمساً للإرشاد . فكنتُ أظفَرُ أحياناً بالتشجيع ، وأحياناً أخرى بالاستغراب وببعض الإعراض عما أقول .

كنتُ قبل ذلك أعرفُ « المعلقات العشر الجاهلية » وأحفظُها ، كما هو شأن أكثر من انصرف بهمته إلى الأدب . وهذه المعلَّقات ، كما هو معروف ، لعشرة شعراء مختلفين أوّلهم امرؤ القيس ، ولكن حفظى إيّاها ، ومعرفتى بها وبتاريخها وبتاريخ أصحابها ، وبمعانيها وبمعانى غريب ألفاظها ، لم يزد قطُّ على أن يكون زيادةً فى ثروَة معرفتى بالعربية ، وبشعرائها ، وبشعرها قديمِهِ وحديثِهِ . أمّا حين أخذنى النَّهَمُ بالشعر الجاهلىّ ، وبدأت أقرأ ما بقى لدينا من دواوين شعر الجاهلية شاعراً شاعراً ، ثم أشعارَ مئات من أهل / الجاهلية ممن لا دواوين لهم ، أو كانت لهم دواوين ولم تقع لى بعدُ دواوينُهم = فعندئذٍ ١٣ م اختلف علىّ الأمر ، ولم يعُدْ مجرَّد ثروة أستزيدها فى المعرفة بالعربيَّة وبالشعر . بدأتُ أجدُ فى هذا الشعر الجاهلىّ شيئاً مبايناً مُبَاينةً سافرةً لما فى الشعر العباسىّ كُلِّه ، بل أكبرُ من ذلك : أنّى افتقدت هذا الشىء أيضاً فى أكثر ما قرأت من الشعر الأموىِّ ، الذى

لا يفصِلُ بينه وبين الجاهلية إلاّ المئة الأولى من التاريخ الهجرىّ ، وهو زمنٌ قليلٌ لا يُعْتدُّ به . ثم لم يكن الأمرُ راجعاً إلى ألفاظ الشعر من حيث غرابتُها عندى أو أُلْفَتُها ، ولا إلى تغايُرٍ فى أوزان الشعر وقوافيه ، ولا إلى اختلافٍ فى المعانى والأغراض أيضاً ، فكلُّ ذلك بلا شكٍّ قريبٌ من قريب . ثم هو بلا ريبٍ ، غيرُ راجع إلى الحَدَاثة والقِدَم ، كما تُوهِم لجاجةُ عَصْرنا فى شأن « القديم » و « الحديث » = لأنّ الذى بينى وبين الجاهلية خمسة عشر قرناً تقريباً ، والذى بينى وبين الشعر الأموىّ والعباسى جميعاً ثلاثة عشر قرناً تقريباً . والبعدُ بينى وبين جملة هذا الشعر ، فى الثلاثة عشر قرناً والخمسة عشر قرناً ، بُعْدٌ واحدٌ أو شبيهٌ بالواحد ، فكلُّ هذا عندى قديم مُعرِق فى القِدَمِ . وكان غيرَ معقول عندى أن يكون هذا الفرقُ الساطعُ الذى وجدتُه فى نفسي بين الشعر الجاهلى والشعر الأموى ، مردوداً إلى فِطْرَتى اللغوية أو إلى قريحتى ، لأننا فى زماننا هذا لا نحتكم إلى سليقةٍ فى العربية فاشية فى مجتمعنا اللغوىّ ، بل كل واحد منا يكتسبُ طرفاً مّا من هذه السليقة بالتعلّم والقراءة وطول الدُّربة والشقاءِ فى المعاناةِ ، معاناةِ كُلِّ فردٍ مِنّا على حِياله وفى خَلْوَتِه .

وإذنْ ، فأنا لا أستطيع أن أجد هذا الفَرْق يلوحُ جَهْرةً فى نفسى = / وأنا يومئذ على رأس السابعة عشرة من عمرى ، وعلى حداثة عهدى بطلب الأدب = إلاّ إذا كان الشعر الجاهلىُّ نفسُه يتلَفَّع على هذا الفرق المتوهّج كامناً فى ثناياه ، وإن كنت لا أستطيعُ عجزاً أن أضع يدى عليه وأقول : ههنا يكمنُ الفرق ! وكانَ أكبرُ ما مَهَّد لظهور هذا الفرقِ ، فيما أرجّح ، هو أنى بدأتُ أقرأ دواوين شعراء الجاهلية شاعراً شاعراً ، كلما فرغتُ من ديوان شاعرٍ بدأتُ صُحْبة شاعرٍ آخر = وكُلَّما وجدت لشاعر جاهلّيٍ علاقة ما بشاعرٍ جاهلىّ آخر ، صحبتُ ديوانه بعده أو معه ، أو بحثتُ عما بقى من شعره فى دواوين الأدب ، إذا لم يكن من أصحاب الدواوين . فلما أوغلتُ فى القراءة وأكثرتُ ، ملتزماً بهذا النظام الذى هدانى إليه وَلُوعى بالرياضيّات فيما أظنُّ = وجدتُ فى الشعر الجاهلىّ شيئاً لم أكن أجده من قبلُ وأنا أقرأ الشعر الجاهلىّ متفرِّقاً لشعراء

١٤ م

مختلفين ، أو وأنا أحفظُ لعشرة شعراء مختلفين هذه « المعلقات العشر الجاهلية » ، وأدارسُها وأتتبع معانى ألفاظها ، مع اختلاف معانيها وأغراضها .

وجدت يومئذ فى الشعر الجاهلى ترجيعاً خفيًّا غامضاً ، كأنّه حفيفُ نسيمٍ تسمعُ حِسَّه وهو يتخلَّل أعوادَ نباتٍ عَمِيمٍ متكاثف = أو رنين صوتٍ شجىّ ينتهى إليك من بعيدٍ فى سكون ليلٍ داجٍ ، وأنت محفوفٌ بفضاء متباعد الأطرافِ . وكان هذا الترجيع الذى آنستُه مشتركاً بين شعراء الجاهلية الذين قرأتُ شعرهم ، ثم يمتازُ شاعرٌ من شاعرٍ بِجَرْسٍ ونغمة وشَمائل تتهادى فيها ألفاظُه ، ثم يختلف شعر كلُّ شاعر منهم فى قصيدةٍ قصيدةٍ من شعره ، وبدندنةٍ تعلو وتخفُتُ تبعاً لحركة وجدانه مع كلِّ غرضٍ من أغراضه فى هذا / الشعر . ولا تظنَّنَّ أنى أزعمُ أن الشعرَ الأمويَّ والشعر العباسى كليهما خالٍ خلوًّا تامًّا من مثل هذه الظاهرة ، كلاَّ . ولكنّى بالمقارنة وجدتُ ترجيعَ الشعر الجاهلىّ ورنينه ودندنته ، مباينةً كُلَّها مباينة ظاهرة لما أجده فى أكثر الشعر الأموى والشعر العباسى من الترجيع والرنين والدندنة . وهذا ليس مردوداً بلا ريب إلى ألفاظ اللغة من حيث هى ألفاظ ، ولا إلى أوزان الشعر من حيث هى أوزان . وكان بلوغى ، يومئذٍ ، إلى إدراك هذه الفروق أو تبيُّنِها تبيُّناً يُتيح لى التعبير عنها ، أمراً متعذّراً ، فما هو إلا التذوُّق المحض والإحساس المجرّد . وبهذا التذوُّق المتتابع الذى أَلفتُه ، صارَ لكُلِّ شعرٍ عندى مَذاقٌ وطعْمٌ وشَذًا ورائحة ، وصارَ مَذاق الشعر الجاهلىّ وطعمُه وشَذاه ورائحته بيّناً عندى ، بل صَار تميُّزُ بعضٍ من بعضٍ دالاًّ يدُلُّنى على أصحابه .

١٥ م

بمثل هذا الحديث كنتُ أفاوض الشيوخ الكبارَ ممَّن عرفتهم ولقيتُهم ، وكان هذا الحديثُ هِجِّيرَاى (أى دأبى وعادتى من فرط النشوة) ، فكان يُعْرِضُ عنّى مَنْ أعرضَ ، ويربِّتُ على خُيَلاَءِ شبابى مَنْ ربَّتَ بيدٍ لطيفة حانية . كان من هؤلاءِ شيخٌ ساكنُ الهيبَة ، رقيقُ الحاشية ، ساحرُ الابتسامة ، رفيقُ اليَدِ واللسان ، حُلْو المنطق ، خفيضُ الصوتِ ، ذكىُّ العينين ، هو أستاذنا أحمد تيمور باشا رحمه الله ، فأستمع إلى نَشْوتى بالشعر الجاهلىّ استماعَ من طَبَّ لمن حَبَّ ، كما يقال فى المثل .

١٦ م حدّثته مرارًا ، ثم جاء يوم فالتقينا ، على عادتنا يومئذٍ (سنة ١٩٢٥) ، / فى المكتبة السلفية عند أستاذنا محبّ الدين الخطيب ، فلم يكد يجلسُ حتّى مدّ يده إلىَّ بعددٍ من مجلة إنجليزية ، (عدد يوليه ١٩٢٥ من مجلة الجمعية الملكية الآسيوية) ، وقال لى وهو يبتسم : اقرأ هذه ! فإذا فيها مقالة للأعجمىّ المستشرق مرجليوث ، تستغرق نحو اثنتين وثلاثين صفحة من هذه المجلة ، بعنوان : « نشأة الشعر العربىّ » . كنت خبيراً بهذا الأعجمى التكوين ، التكوينِ البدنىّ والعقلىّ ، منذ قرأتُ كتابه عن محمد رسول الله ﷺ . أخذتُ المجلة وانصرفتُ ، وقرأت المقالة ، وزاد الأعجمى سُقوطاً على سقوطه . كان كُلُّ ما أراد أن يقوله : إنه يشك فى صحة الشعر الجاهلى ، لا ، بل إن هذا الشعر الجاهلىّ الذى نعرفه ، إنما هو فى الحقيقة شعر إسلامىٌّ وضعه الرواةُ المسلمون فى الإسلام ، ونسبوه إلى أهل الجاهلية ، وسُخْفاً فى خلال ذلك كثيراً . ولأنّى عرفتُ حقيقة الاستشراق ، لم ألق بالاً إلى هذا الذى قرأتُ ، وعندى الذى عندى من هذا الفرق الواضح بين الشعر الجاهلى والشعر الإسلامىّ .

ثم بعد أيامٍ لقيت أحمد تيمور باشا ، وأعدت إليه المجلة ، فسألنى : ماذا رأيتَ ؟ قلتُ : رأيتُ أعجميًّا بارداً شديد البرودة ، لا يستحى كعادته ! فابتسم وتلألأت عيناهُ ، فقلت له : أنا بلا شكٍّ أعرفُ من الإنجليزية فوق ما يعرفُهُ هذا الأعجمُ من العربية أضعافاً مضاعفة ، بل فوق ما يمكن أن يعرفَه منها إلى أن يبلغَ أرذلَ العُمُر ، وأستطيع أن أتلَعَّب بنشأة الشعر الإنجليزى منذ شوسر إلى يومنا هذا تلعُّباً هو أفضل فى العقل من كُلّ / ما ١٧ م يدخُلُ فى طاقته أن يكتبه عن الشعر العربى ، ولكن ليسَ عندى من وقاحة التهجُّم وصفاقة الوَجْه ، ما يسوِّل لى أن أخطَّ حرفاً واحداً عن نشأة الشعر الإنجليزى . ولكن صروف الدهر التى ترفَعُ قوماً وتخفضُ آخرين ، قد أنزلت بنا وبلغتنا وبأدبنا ، ما يُبيح لمثل هذا المسكين وأشباهه من المستشرقين أن يتكلَّموا فى شعرنا وأدبنا وتاريخنا وديننا ، وأن يجدوا فينا من يستمع إليهم ، وأن يجدوا أيضاً من يختارهم أعضاءً فى بعض مجامع اللغة العربية !! وأغضى أحمد تيمور وهو يبتسم .

* * *

ومرّت الأيّام ، وغاصَ كلامُ هذا الأعجمِىّ فى لُجَج النسيانِ ، لأنّ هذا الأعجم وأشباهه يدرسون آدابنا وشعرنا وتاريخنا كأنّه نقْشٌ على مقبرةٍ عاديّة قديمة ، [١] مكتوبٌ بلغة ماتت وماتَ أهلُها وطَمَرَها تُرَابُ القرون !! والأسبابُ الداعية لهم إلى ركوب هذا المنهج كثيرةٌ ، أهونُها شأناً الأهواءُ والضغائن المتوارثة ، ولكن أوغَلُها أثراً أنَّ تَوَجُّهَهُم إلى هذا المسلكِ ، مسلكِ الاستشراق ، هو أنّ جمهرتهم غيرُ قادرة أصلاً على تذوُّق الآداب تذوُّقاً يجعلها حيةً فى نفوسهم قبل أن يكتبوا ، وهُمْ أيضاً مسلوبو القدرة على أن يبلُغوا فى لسانهم الذى ارتضعوهُ مع لِبَان أُمهاتهم مبلغاً من التذوُّق ، يُعينهم على التعبير عنه تعبيراً يتيحُ لأحدهم أن يكون له شأنٌ يذكَرُ فى آداب لسانه . / ولهذا العجز آثروا أن يكون لَهُمْ ذكْرٌ بالكتابة فى شأن لغاتٍ أخرى يَجْهلُها أقوامُهم ، وهذا الجهلُ يستُر عوراتِهم عند من يقرأ ما يكتبون من بنى جلدتهم . ولأنّى خَبَرْتُ ذلك فيما يكتبون ، وفيما يقولونه بألسنتهم ، لم يكن لمثل هذه الآراء فى الشعر الجاهلىّ وغيره وَقْعٌ فى نفسى يثيرنى ، اللهُمّ إلاّ ما يُثير تقَزُّزى ، فما أسرعَ ما أُسقط ما أقرأ من كلامهم جملةً واحدةً فى يَمِّ النسيانِ . ١٨ م

كان ما كان ، ودخلنا الجامعة ، وبدأ الدكتور طه يلقى محاضراته التى عُرِفت بكتاب « فى الشعر الجاهلىّ » . ومحاضرة بعد محاضرةٍ ، ومع كُلِّ واحدةٍ يرتَدُّ إلىَّ رَجْعٌ من هذا الكلام الأعجمىِّ الذى غاصَ فى يَمّ النسيان ! وثارَتْ نَفْسى ، وعندى الذى عندى من المعرفة بخبيئة هذا الذى يقوله الدكتور طه = وعندى الذى عندى من هذا الإحساس المتوهِّج بمذاق الشعر الجاهلىّ ، كما وصفته آنفاً ، والذى استخرجْتُه بالتذوُّق ، وبالمقارنة بينه وبين الشعر الأمويّ والعباسى . وأخذنى ما أخذنى من الغيظ ، وما هو أكبر وأشنع من الغيظ ، ولكنى بَقِيتُ زمناً لا أستطيع أن أتكلَّم .

تتابعت المحاضرات ، والغيظُ يفورُ بى ، والأدب الذى أدّبنا به آباؤنا وأساتذتنا يمسكنى ، فكان أحدُنا يهابُ أن يكلِّم الأستاذ ، والهيبة مَعْجَزَةٌ ، وضاقت علىّ المذاهب ،

---

(١) « عادية » منسوبة إلى « عاد » قوم هود عليه السلام ، الذين أبادهم الله وطمس آثارهم .

ولكن لم تَخْلُ أيامى يومئذ فى الجامعة من إثارة بعض ما أجدُ فى نفسى ، فى خفوت وتردُّد . وعرفت فيمن عرفت من زملائنا شابًّا قليلَ الكلام ، هادىءَ الطباع ، جَمَّ التواضع ، وعلى أنه من / أَترابنا ، فقد جاء من الثانوية عارفاً بلغات كثيرةٍ ، وكانَ واسع الاطّلاع ، كثير القراءة ، حَسَن الاستماع ، جيِّد الفهم ، ولكنه كان طالباً فى قسم الفلسفة ، لا فى قسم اللغة العربية . كان يحضُر معنا محاضرات الدكتور ، وكان صَغْوُه وميلُه وهوَاهُ مع الدكتور طه ، ذلك هو الأستاذ الجليل محمود محمد الخضيرى . نشأت بينى وبينه مودّة ، فصرت أحدِّثه بما عندى ، فكان يدافع بلينٍ ورفقٍ وفهمٍ ، ولكنّ حِدَّتى وتوهُّجى وقسوتى كانت تجعلُه أحياناً يستمع ويصمتُ فلا يتكلّم . كنّا نقرأ معاً ، وفى خلال ذلك كنت أقرأ له من دواوين شعراءِ الجاهلية ، وأكشف له عما أجدُ فيها ، وعن الفروق التى تميِّز هذا الشعرَ الجاهلىَّ من الشعر الأمويّ والعباسيّ . وجاءَ يوم ففاجأنى الخضيرىُّ بأنه يحبُّ أن يصارحنى بشىء . وعلى عادته من الهدوء والأناة فى الحديث ، ومن توضيح رأيه مقسَّماً مفصَّلاً ، قال لى : إنّه أصبح يوافقنى على أربعة أشياء :

الأوّل : أنّ اتّكاءَ الدكتور على « ديكارت » فى محاضراته ، اتّكاءٌ فيه كثير من المغالطة ، بل فيه إرادة التهويل بذكر ديكارت الفيلسوف ، وبما كتبه فى كتابه « مقال عن المنهج » = وأن تطبيق الدكتور لهذا المنهج فى محاضراته ، ليس من منهج ديكارت فى شىء .[١]

الثانى : أنّ كُلَّ ما قاله الدكتور فى محاضراته ، كما كنت أقول له / يومئذ ، ليس إلاّ سَطْوًا مجرّداً على مقالة مرجليوث ، بعد حذف الحجج السخيفة ، والأمثلة الدالة على الجهل بالعربية ، التى كانت تتخلَّلُ كلامَ ذاك الأعجمىّ = وأن ما يقوله الدكتور لا يزيدُ على أنْ يكون « حاشيةً » وتعليقاً على هذه المقالة .[٢]

١٩ م

٢٠ م

---

(١) كان من أثر هذه الأحاديث بيننا ، أن بدأ الخضيرى ، من يومئذ فى ترجمة كتاب ديكارت « مقال عن المنهج » ، ونشره بعد ذلك سنة ١٩٣٠ (المطبعة السلفية) .

(٢) كان من أثرها أيضاً : أن لخص الخضيرى مقالة مرجليوث ، ونشرها فى مجلة « الزهراء » التى يصدرها صاحب المطبعة السلفية ، فى عدد ذى الحجة سنة ١٣٤٦ (إبريل ١٩٢٨) .

الثالث : أنّه ، على حداثة عهده بالشعرِ وقلَّة معرفته به ، قد كادَ يتبيَّن أن رأيى فى الفروق الظاهرة بين شعر الجاهلية وشعر الإسلامِ ، أصبح واضحاً له بعض الوضوح = وأنّه يكادُ يحسُّ بما أحسُّ به وأنا أقرأ له الشعر وأفاوضه فيه .

الرابع : أنه أصبح مقتنعاً معى أن الحديث عن صحة الشعر الجاهلى ، قبل قراءة نصوصه قراءةً متذوِّقَةً مستوعبةً ، لَغْوٌ باطلٌ = وأن دراستَه كما تُدْرسُ نقوش الأمم البائدة واللغات الميتة ، إنّما هو عبثٌ محضٌ .

واتَّفَقَ أن جاء حديثه هذا فى يومٍ من أيَّامى العصيبة . فالدكتور طه أستاذى ، وله علىَّ حقُّ الهيبة ، هذا أدبُنَا . وللدكتور طه علىَّ يدٌ لا أنساها ، كان مدير الجامعة يومئذ ، « أحمد لطفى السيد » ، يرى أن لا حقّ لحامل « بكالوريا » القسم العلمىّ فى الالتحاق بالكليات الأدبية ، ملتزماً فى ذلك بظاهر الألفاظ !! فاستطاع الدكتور طه أن يحطّم هذا العائق بشهادته لى ، / وبإصراره أيضاً . فدخلتُ يومئذ بفضله كلية الآداب ، قسم اللغة العربية ، وحفظُ الجميلِ أَدبٌ لا ينبغى التهاون فيه . وأيضاً ، فقد كنتُ فى السابعةَ عشرةَ من عمرى ، والدكتور طه فى السابعة والثلاثين ، فهو بمنزلة أخى الأكبر ، وتوقير السنّ أدب ارتضعناهُ مع لِبان الطفولة . كانت هذه الآداب تفعل بى فعلَ هَوَى المتنبىِّ بالمتنبى حيث يقول :

٢١ م

رَمَى ، واتَّقَى رَمْيِى ، ومِنْ دُونِ ما اتَّقَى هَوًى كاسِرٌ كَفِّى ، وقَوْسِى ، وأَسْهُمِى

فلذلك ظللْتُ أتجرَّع الغيْظ بَحْتاً ، وأنا أصغى إلى الدكتور طه فى محاضراته ، ولكنى لا أستطيعُ أن أتكلَّم . لا أستطيعُ أن أناظره كِفاحاً ، وجهاً لوجهٍ ، وكُلُّ ما أقولُه ، فإنَّما أقوله فى غَيْبَتِه لا فى مَشْهَده . تتابعت المحاضرات ، وكُلَّ يومٍ يزدادُ وضوحُ هذا السَّطْو العُرْيان على مقالة مرجليوث ، ويزدادُ فى نفسى وضوح الفرق بين طريقتى فى الإحساس بالشعر الجاهلىّ ، وبين هذه الطريقة التى يسلكها الدكتور طه فى تزييف هذا الشعر . وكان هذا « السطو » خاصةً مِمَّا يهزُّ قواعد الآداب التى نشأتُ عليها هزًّا عنيفاً .

بدأت الهيبة مع الأيّام تسقُط شيئاً فشيئاً ، وكدتُ أُلْقِى حفظَ الجميل ورائى غير مُبالٍ ، ولم يبق لتوقير السنِّ عندى معنًى ، فجاء حديث الخضيرىّ ، من حيث لا يريدُ أو يتوقَّع ، لينسفَ فى نفسى كُلَّ ما التزمتُ به من هذه الآداب . وعجبَ الخضيرىّ يومئذ ، لأنى استمعت لحديثه ، ولم أَلْقَهُ لا بالبشاشة ولا بالحفاوة التى يتوقَّعها ، وبقيت ساكتاً ، وانصرفت معه إلى حديثٍ غيرِه .

م ٢٢ / وفى اليوم التالى جاءت اللحظة الفاصلةُ فى حياتى . فبعد المحاضرة ، طلبتُ من الدكتور طه أن يأذنَ لى فى الحديث ، فأذنَ لى مبتهجاً ، أو هكذا ظننتُ . وبدأتُ حديثى عن هذا الأسلوبِ الذى سمّاهُ « منهجاً » ، وعن تطبيقه لهذا « المنهج » فى محاضراته ، وعن هذا « الشكِّ » الذى اصطنعه ، ما هو ، وكيف هو ؟ وبدأتُ أدلّل على أن الذى يقولُه عن « المنهج » وعن « الشك » غامضٌ ، وأنه مخالفٌ لما يقوله ديكارت ، وأنّ تطبيقَ منهجه هذا قائمٌ على التسليم تسليماً لم يداخله الشَّك ، بروايات فى الكتب هى فى ذاتها محفوفةٌ بالشكّ ! [1] وفوجىء طلبة قسم اللغة العربية ، وفوجىء الخضيرىُّ خاصةً . ولمَّا كِدتُ أفرُغُ من كلامِى ، انتهرنى الدكتور طه وأسكتنى ، وقام وقمنا لنخرج . وانصرف عنّى كُلُّ زملائى الذين استنكروا غِضَاباً ، ما واجهتُ به الدكتور طه ، ولم يبق معى إلا محمود محمد الخضيرى ، (من قسم الفلسفة كما قلت) . وبعد قليلٍ أرسل الدكتور طه ينادِينى ، فدخلتُ عليه ، وجعل يعاتبنى ، يقسُو حيناً ويرفُقُ أحياناً ، وأنا صامتٌ لا أستطيعُ أن أردَّ . لم أستطع أن أكاشفه بأن محاضراته التى نسمَعها كلَّها مسلوخةٌ من مقالة مرجليوث ، لأنها مكاشفةٌ جارحَةٌ من صغير إلى كبير ، ولكننى كنتُ على يقينٍ من أنّه يعلم أنّى أعلمُ ، من خلالِ ما أَسْمع من حديثه ، ومن صَوْته ، ومن كلماته ، ومن حركاته أيضاً !! وكتمانُ هذه الحقيقة فى نفسى كان يزيدنى عجزاً عن الردّ ، وعن الاعتذار إليه أيضاً ، وهو / ما كانَ يرمى إليه . ولم أزلْ صامتاً مُطْرِقاً حتى وجدت فى م ٢٣

(١) انظر ما كتبته سنة ١٩٦٥ فى كتابى « أباطيل وأسمار » ، عن « المنهج » ، وعن الصراع بينى وبين الدكتور طه ، ص : ٢٣ — ٢٥ .

نفسى كأنى أبكى من ذُلِّ العجز ، فقمتُ فجأةً ، وخرجتُ غيرَ مودِّع ولا مُبالٍ بشيء . وقُضِى الأمرُ ! ويَبِس الثَّرى بينى وبين الدكتور طه إلى غير رَجْعة !

ومن يومئذ لم أكُفَّ عن مناقشة الدكتور فى المحاضرات أحياناً بغير هَيْبةٍ ، ولم يكفَّ هو عن استدعائى بعد المحاضرات ، فيأخذنى يميناً وشمالاً فى المحاورة ، وأنا ملتزمٌ فى كُلّ ذلك بالإعراض عن ذكر سَطْوِه على مقالة مرجليوث ، صارفاً همّى كُلَّه إلى موضوع « المنهج » و « الشكّ » ، وإلى ضرورة قراءة الشعر الجاهلىّ والأموىّ والعباسىّ قراءةً متذوِّقة مستوعبة ، ليستبين الفرق بين الشعر الجاهلىّ والإسلامى = قبلَ الحديث عن صحة نِسْبة هذا الشعر إلى الجاهلية ، أو التماس الشُّبَه لتقرير أنه باطل النسبة ، وأنه موضوع فى الإسلام ، من خلال رواياتٍ فى الكتب هى فى ذاتها محتاجةٌ إلى النَّظر والتفسير . ولكنّى من يومئذ أيضاً لم أكُفَّ عن إذاعة هذه الحقيقة التى أكتُمها فى حديثى مع الدكتور طه ، وهى أنّه سطَا سَطْوًا كريهاً على مقالة المستشرق الأعجمىّ ، فكان ، بلا شك ، يبلُغه ما أذيعه بين زملائى . وكَثُر كلامى عن الدكتور طه نفسه ، وعن القَدْر الذى يعرفُه من الشعر الجاهلىّ ، وعن أسلوبه الدالِّ على ما أقول . واشتدَّ الأمر ، حتَّى تدخَّل فى ذلك ، وفى مناقشَتِى ، بعضُ الأساتذة ، كالأستاذ نلِّينو ، والأستاذ جُويدى من المستشرقين ، [1] وكنت أصارحهما بالسطو ، وكان يعرفان ، ولكنهما / يداوران . وطالَ الصراعُ غير المتكافىء بينى وبين الدكتور طه زَماناً ، إلى أن جاء اليوم الذى عزمتُ فيه على أن أفارق مصر كُلَّها ، لا الجامعة وحدها ، غير مبالٍ بإتمام دراستى الجامعية ، طالباً للعزلة ، حتى أستبين لنفسى وجه الحقّ فى « قضية الشعر الجاهلىّ » ، بعد أن صارت عندى قضية متشعِّبةً كُلَّ التشعُّب . [2]

٢٤ م

***

(١) سيأتى ذكرهما بعد قليل .

(٢) انظر كتابى « مداخل إعجاز القرآن » ، وكتابى « قضية الشعر الجاهلى ، فى كتاب ابن سلام الجمحى » ، ففيهما بيان عن هذا التشعب .

هذا مطلعُ قصَّتى مع « قضية الشعر الجاهلى » ، ومع الدكتور طه خاصة ، على وجه الإيجاز . عزمتُ يومئذ على مفارقة مصر ، ثم الجامعة ومعى ذُلُّ العجز عن مواجهة الدكتور طه برأيى فى تفاصيل هذا « السطو » جهاراً نهاراً بلا قِناعٍ ، وبالذى أجدُه فى نفسى من البَشَاعة ، بشَاعةِ ادِّعاء المرء امتلاك ما يسطو عليه ، كأنّه مما اهتدى إليه ، واستحقّ نسبته إلى نفسه بعد طول معاناةٍ فى البحث وشقاءٍ فى الدَّرس ! ومع أن كُلَّ من كتب بعد ذلك فى نقد كتاب « فى الشعر الجاهلى » ، قد واجه الدكتور بهذا « السطو » مواجهة مكشوفة علانيةً ، إلاَّ أنّ عجزى أنا عن مواجهته بلسانى ، غير متهيِّب ولا متأدِّب ، كان يهدم نَفْسى هدماً ، وينسف آدابى نسفاً ، ويترك فى ضميرى غُصَّة تأبَى أن تَزُول . كانَ شيئاً بَشِعاً لا أطيقُه ، ثم زاد الأمْرُ عندى بشاعةً فَظِعْتُ بها ، حين نشر كتابه « فى الأدب الجاهلىّ » سنة / ١٩٢٧ ، وهو نفس كتاب « فى الشعر الجاهلى » : « حُذِفَ منذ فصْلٌ ، وأضيفَ إليه فُصُولٌ ، وغُيِّر عنوانه بعض التغيير » !! كما وصفه الدكتور فى مقدمته . كان أبشعَ ما فى هذا الكتاب ، الفصلُ الأوّل الذى زادهُ بعنوان : « الكتاب الأول = الأدب وتاريخُه » ، لأنه جاءَ تسويغاً لهذا « السطو » ، وزيادةً فى الادّعاءِ بأنه قد امتلك ما سطا عليه امتلاكاً لا ريبة فيه !! واستعلاءً أيضاً = ودلالةً صريحةً على أنه لا يُبالى أقلَّ مبالاةٍ بكُلِّ ما سمعه من أنه « سطا » على مقالة مرجليوث ، بين أسوار الجامعة = ولا بجميع الكتب التى ألفت وطبعت فى نقد كتابه ، والتى كشفت هذا « السطو » بالدليل والبرهان ، مع أن الأمر لا يحتاج إلى برهان أو دليل ! وجميعُها كتبٌ يقرؤها الناس ! كيف يكون هذا ؟ وبأىِّ جراءة يستطيع الدكتور طه أن يلقى الناسَ ! أىُّ احتقار هذا للناسِ ! وأىُّ استهزاء بهم وبعقولهم هو أبشع من هذا ! لا أدرى .

ثم كان معى ما هو أفحش من هذا أيضاً . كنتُ يومئذ غِرًّا فى الثامنةَ عشرةَ من عمرى أو أشفَّ ، وكان من أساتذتنا مستشرقان أتى بهما الدكتور طه من إيطالية ، أولهما « الأستاذ نَلِّينو » ، وهو شيخٌ مهيب الطَّلعة ، كثُّ اللحية ، واسع العلم ، فصيح اللسان بالعربية ، ثم « الأستاذ جُويدى الصغير » ، وكان شاباً وسيماً متوقداً ، لعلَّ مكانة

أبيه الشيخ المستشرق الكبير جويدى ، هى التى رشَّحته للأستاذية فى مصر !! فقد دخلا بينى وبين الدكتور طه ، أو على الأصحّ : بينى وبين ما أقولُهُ فى غَيْبة الدكتور طه . / كانَ ٢٦ م أمرهما معى عجباً من العجب ! فهما يعلمان علماً يقيناً لا شكَّ فيه أن مُحَصَّل ما يقوله الدكتور طه ، إنما هو « سطوٌ » عُرْيان على ما كتبه مرجليوث ، ولكنهما كانا معى شديدى المراوغة : لا يملكان مصارحتى بأنّ هذا ليس « سطوًا » ، ويمتنعان أن يقولا صراحةً أنه « سَطْوٌ » ! وكُلُّ ما كنت أظفرُ به منهما هو مطالبتى بتعظيم الدكتور طه وتوقيره بحق الأستاذية ، ثم استدراجى إلى تِيه الألفاظ الغامضة : « البحث العلمى والأدبى » و « عالمية الثقافة » وما شابه هذين من ألفاظ التغرير . فكنتُ أمتنع عن التسليم لهما بما يقولان عن « البحث العلمىّ والأدبىّ وعالمية الثقافة » ، حتى يطالبا الدكتور طه بالإقرار ، وبأن يُقِرَّا هما أيضاً ، بأن ما يقوله مسلوخٌ كُلُّه مما قاله مرجليوث ، أو هو على الأقل متابعة لمرجليوث فى رأيه الذى كتبه ونشره وقرأناه جميعاً . فلمّا لم يفعلاَ ، ولم يفعل الدكتور طه أيضاً ، زاد الأمر بشاعةً فى نفسى ، وسقطت هيبة الأستاذية وهيبةُ الجامعة أيضاً سُقوطاً منكراً ، وأطبقَ علىَّ الارتيابُ والشكُّ فى هذه الأمور كُلِّها حتى ضاقَ صدرى ، ولم أملك إلاَّ أن أمنَحَهُم جميعاً ظهرى غير متلَفِّتٍ ، وغير مُبالٍ أيضاً بما أنا مُقْدِمٌ عليه من مفارقة بلادى وأهلى ، ومن هَجْر الدراسة الجامعية أيضاً غير باكٍ ولا آسِفٍ . وانطلقتُ ، ومعى صاحبان يؤرِّقان ليلى ويُلْهِبان نهارى : بشاعة « السطو » ، وبشاعة التستُّر عليه من عارفٍ خبير ، لا يكتفى بالتستُّر ، بل يطالبُ بالتغاضى عنه ، وبتوقير الساطى وتعظيمه بحقِّ الأستاذية لا غيرَ !!

* * *

/ ومرَّت الأيَّام والليالى والسنون ما بين سنة ١٩٢٨ ، وسنة ١٩٣٦ وهى السنة ٢٧ م التى كتبت فيها هذا الكتاب « المتنبى » ، وهمّى مصروفٌ أكثرُه إلى « قضية الشعر الجاهلىّ » ، وإلى طلب اليقين فيها لنفسى ، لا معارضةً لأحدٍ من الناس . ومشت بى هذه القضية فى رِحْلة طويلة شاقَّة ، ودخلت بى فى دُرُوبٍ وَعْرةٍ شائكةٍ ، وكُلَّما أوغلتُ

انكشفت عنى غِشَاوةٌ من العَمَى ، وأَحْسَسْتُ أنى أنا والجيلُ الذى أنا منه ، وهو جِيل المدارس المصرية ، قد تمّ تفريغُنا تفريغاً يَكادُ يكون كاملاً من مَاضينا كُلِّه ، من علومه وآدابه وفُنُونه . وتَمَّ أيضاً هَتْك العلائق بيننا وبينه ، وصارَ ما كان فى الماضى متكاملاً متماسكاً ، مِزَقاً متفرِّقة مبعثرةً تكاد تكون خاليةً عندنا من المعنى ومن الدلالة . ولأنه غير ممكن أن يظلَّ الفارغُ فارغاً أبداً ، فقد تَمَّ مَلْءُ هذا الفراغ بجديدٍ من العلوم والآداب والفنون ، لا تمتُّ إلى هذا الماضى بسببٍ ، وإنَّنا لَنستقبلُه استقبالَ الظَّامىءِ المحترق قطراتٍ من الماء النَّمير المثلَّج .

فى خلال هذه الأعوام ، تبيّن لى أمرٌ كان فى غاية الوضوح عندى . وهو قصَّة طويلةٌ قد تعرَّضت لأطرافٍ منها فى بعض ما كتبتُ ، [1] ولكنى أذكرها هنا على وجه الاختصار . صار بيِّناً عندى أننا نعيش فى عالم منقسمٍ انقساماً سافراً : عالمُ القوَّة والغنى ، وعالمُ الضعفِ والفقر = أو عالم الغُزاةِ الناهبين ، وعالم المستضعفين المنهوبين . كانَ عالم الغزاةِ الممثَّل فى الحضارة الأوربية ، يريد أن يحدث فى عالم المستضعفين تحوُّلاً اجتماعيًّا وثقافيًّا وسياسيًّا ، / فهو صَيْدٌ غزيرٌ يُمِدُّ حضارتهم بجميع أسباب القوة والعلوّ والغنى والسلطان والغلبة . والطريق إلى هذا التحوُّل عملٌ سياسىٌّ محضٌ ، لا غايةَ لهُ إلاّ إخضاعُ هذا العالم « المتخلف » إخضاعاً تامًّا لحاجات العالم « المتحضر » التى لا تنفدُ ، ولسيطرته السياسية الكاملة أيضاً . ومع أنّ هذا العمل السياسى المحض المتشعِّب ، قد بدأ تنفيذه منذ زمن فى أجزاء متفرقة من عالمنا ، إلا أنه بدأ عندنا فى مصر ، قلب العالم الإسلامى والعربى ، مع الطلائع الأُولى لعهد محمد على ، بسيطرة القناصل الأوربية عليه وعلى دولته ، وعلى بناء هذه الدولة كُلِّها بالمشورة والتوجيه . ثم ارتفع إلى ذروته فى عهد حفيده إسماعيل بن إبرهيم بن محمد على الخديوى ، حتى جاء الاحتلال الإنجليزى فى سنة ١٨٨٢ ، وبمجيئه سيطر الإنجليز سيطرة مباشرةً على كُلِّ شئ ، وعلى التعليم

٢٨ م

---

(١) بعض ذلك فى كتابى « أباطيل وأسمار » .

خاصة ، إلى أن جاء « دنلوب » فى (١٧ مارس ١٨٩٧) ، ليضع للأمة نظام التعليم المدمِّر الذى لا نزالُ نسيرُ عليه ، مع الأسف ، إلى يومنا هذا . فأىُّ جَهْلٍ هذا !

كان التمهيد لهذا العهد طويلاً متعدّد الجوانب ، وكان قوامُه إعدادَ أجيال من « المبعوثين » يعودون من أوربة ليكونوا قادةَ هذا التحوُّل الرفيق العميق ، ويرادُ منهم أن يؤسِّسوا قاعدة ثابتة لانطلاق التحوُّل إلى غايةٍ يُرَادُ لنا أن نبلُغَها على تمادى الأيام . وكان الغُزاةُ يقنعون يومئذ من هؤلاء المبعوثين ، بأن يعودوا إلى بلادهم ببضعة أفكارٍ يردّدونها ترديد الببغاوات ، تتضمّن الإعجاب المزهُوَّ ببعض مَظَاهر الحياة الأوربية ، مقروناً بنقد بعض مظاهر الحياة فى بلادهم = وبأن يكاشفوا أمّتهم بأنّ ما أعجبوا / به هو سرُّ قوة الغزاة وغلبتهم ، وأن الذى عندنا هو سِرّ ضعفنا وانهيارنا . وقد وجدتُ ذلك ظاهراً ممثلاً أحسن تمثيل عند رفاعة الطهطاوى وأشباهه . ولكن لما جاء عهد « دنلوب » ، كان أمر المبعوثين وحده لا يكفى ، وأصبح الأمر محتاجاً إلى ما هو أكبر وأوسعُ انتشاراً . فكان الرأىُ أن تنشأ أجيالٌ متعاقبةٌ من « تلاميذ المدارس » فى البلاد ، يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بهذا التحوّل ، عن طريق تفريغهم تفريغاً كاملاً من ماضيهم كُلِّه ، مع هَتْك أكثر العلائق التى تربطهم بهذا الماضى اجتماعيًّا وثقافيًّا ولغويًّا ، ومع ملء هذا الفراغ بالعلوم والآداب والفنون = ولكنها فنونهم هم ، وآدابهم هم ، وتاريخهم هم ، ولغاتهم هم ، أعنى الغزاة .

٢٩ م

وقد تولى نظام « دنلوب » تأسيس ذلك فى المدارس المصرية ، مع مئاتٍ من مدارس الجاليات التى يتكاثر على الأيام عددُ من تضمُّ من أبناء المصريين وبناتهم . وقد كان ما أراد الغزاةُ ، ولم يزل الأمر إلى يومنا هذا مستمرًّا على ما أرادوا ! بل زادَ بشاعةً وعمقاً فى سائر أنحاء العالم العربىّ والإسلامىّ بظهور دعوات مختلفة ، كالدعوة إلى الفرعونية والفينيقية وأشباه ذلك ، فى الصحافة والكتب المؤلفة . لأن تفريغ الأجيال من ماضيها المتدفِّق فى دمائها مرتبطاً بالعربية والإسلام ، يحتاجُ إلى ملء بماضٍ آخر يغطِّى عليه ، فجاءوا بماضٍ بائدٍ مُعْرِقٍ فى القِدَمِ والغموض ، ليزاحم بقايا ذلك الماضى المتدفِّق الحىّ الذى يوشك أن يتمزّق ويختنق بالتفريغ المتواصِل .

م ٣٠ فى ظلّ هذا التفريغ المتواصل ، وهذا التمزيق للعلائق ، وهذه الكثرة / التى تخرجُ مفرَّغةً أو شِبْهَ مفرّغة إلى « البعثات » ، وهذا التحوُّل الاجتماعى والثقافى والسياسى المضطرب ، وهذا التغليب المتعمّد للثقافة الغازية واللغات الغازية ، بلا مقابل فى النفوس من ثقافة ماضية حيَّة حياة ما ، وباقيةٍ على تماسكها وتكاملها = فى ظل هذا كُلّه ، انتعشت الحركة الأدبية والثقافية انتعاشاً غير واضح المعالم ، ولكنه يقومُ على أصلٍ واحدٍ فى جوهره ، هو ملءُ الفراغ بما يناسبُ آداباً وفنوناً غازية كانت قد ملأت بعضَ هذا الفراغ ، فهى تحدثُ فى النفوس تطلُّعاً إلى زادٍ جديد منها .

فالمسرحُ مثلاً ، وكان له شأنٌ أىُّ شأنٍ ، يعتمد اعتمادًا واضحاً على المسرح الأوربىّ فى تكوينه كُلِّه . وأيسر سبيلٍ كانَ إلى إمدادِه بمادّته ، هو « السطو » على مؤلفات المسرح الأوربىّ ، مسلوخةً يعادُ تكوينُها بألفاظ عربيّة ، أو عامية على الأصحّ ، ودون إشارة إلى هذا « السطو » ، وكانوا يسمُّون هذا حياءً ومكراً : « التمصير » !! بيد أنه عبثٌ مجرّدٌ ، وسطوٌ لا رقيبَ عليه . أمَّا الكتَّاب الجادُّون ، فكان أكثرهُم يعتمد على تلخيص نتاج الفكر الأوربىّ فى الأدب والفلسفة والاجتماع والسياسة تلخيصاً مَّا ، وإن كان أكثره خطْفاً وسطواً ينسبُه الكاتب إلى نفسه بلا رقيبٍ ولا محاسب .

والقِصَّةُ أيضاً ، كانت ضرباً من « السطو » والتقليد ، تُحوَّر فيها الأسماء والأماكن والوقائع ، ثم تُرقَّع بأفكارٍ مسلوبة مختطفة ، ثم توزَّع توزيعاً ماهراً على فصولها المختلفة ، م ٣١ حتى تضمن لأصحابها إخفاء معالم السطو / والانتهاب والتقليد . [وهذا أمرٌ لم يزل مستمرًّا بقوَّةٍ إلى يومنا هذا] .

وبالثرثرة واللجاجة فى الصحف والمجلات ، صارت هذه الظاهرة مألوفةً لا غُبار عليها . وزادها رسوخاً إثارة قضية كثيرة الضجيج ، محفوفة بألفاظ مبهمة مغريةٍ تقبلها النفوس بلا ممانعة ، وهى قضية « القديم » و « الجديد » و « التجديد » و « ثقافة العصر » ! [1] والنظر فى حقيقة هذه القضية يفضى إلى شيئين ظاهرين : ميلٍ ظاهرٍ إلى

---

(١) فى السنوات الأخيرة ، وُجدت ألفاظٌ جديدة محفوفة بالغموض ، مؤسسة على الثرثرة ، من مثل قولهم : « المعاصرة » و « الحداثة » و « التحديث » .

رفض « القديم » والاستهانة به ، دون أن يكون الرافض مُلِمًّا إلماماً ما بحقيقة هذا « القديم » = وميلٍ سافرٍ إلى الغلوّ فى شأن « الجديد » ، دون أن يكون صاحبُه متميِّزاً فى نفسه تميُّزاً صحيحاً بأنه « جدّد » تجديداً نابعاً من نفسه ، وصادراً عن ثقافةٍ متكاملة متماسكة ، بل كل ما يميِّزهُ أن الله قد يسَّرَ له الاطلاع على آداب وفنونٍ وأفكارٍ تعب أصحابها فى الوصول إليها من خلال ثقافتهم المتماسكة المتكاملة !! وكفى الله المؤمنين القتال !

هذه خُطُوط من صُورةٍ ، لجانب من الحركة الأدبية والثقافية فى ذلك العهد ، وأكثرها باق إلى يومنا هذا ، ومقبول أيضاً بلا استبشاعٍ له ، مع أنَّه أبشَعُ شيء ، وأوهاهُ أساساً ، وأسواُهُ مَغَبَّة .

ولكن هذه الصورة لا تتمّ وحدها . فى خلال التحوُّل الاجتماعى الثقافىّ المتصاعد المتكاثر ، كان هناك جانبٌ راكدٌ مختنقٌ ، لم يفرَّغ هذا التفريغ ، ولكن ضُرِبَ عليه حصارٌ مفزعٌ وبيلٌ مُهينٌ . هذا الجانب كان هو الوارث للماضى المتكامل المتماسك ، ولكنه كان يزدادُ على مَرِّ الأيَّامِ تخلخُلاً وتفكُّكاً وحيرةً وانطواءً . يمثّل هذا الجانب جمهور المتعلمين / المنتسبين إلى الأزهر ودار العلوم وأشباههما . كان أكبر همّ هذا الجانب ، فى هذا اليمّ المتلاطم من حوله ، هو محاولة المحافظة على الماضى محافظةً مَّا ، ولكنّ قبضَته كانت تسترخى شيئاً فشيئاً تحت الحِصار ، وتحت القذائف المدمِّرة التى يُرْمَى بها ، والتى تزلزِلُ نفوس أبنائه من قواعدها . وكان مطلوباً طلباً حثيثاً أن تُفْتَح أبواب هذا الحصن العتيق المنيع ، لتدخُلَ عليه نفس العوامل التى أدَّت إلى تفريغ « تلاميذ المدارس » من ماضيها ، وإلى تهتُّك علائق ثقافته وعلومه ، وإلى ربطه بالحركة الأدبيّة الغازية المتصاعدة تحت ألوية « الجديد » و « التجديد » و « ثقافة العصر » ، وسائر الألفاظ المبهمة المغرية !!

٣٢ م

وقد كانَ ، واحتاج شقُّ الطريق إلى هذه الغاية إلى وسائل كثيرة متنوّعة ، والذى يهُمُّنى منها هنا هو ما يتعلَّق بأمر « السطو » لا غيرَ . كانَ الذى يحولُ بينهم وبين بلوغ

هذا الغرضِ ، هو أن جمهور المتعلمين المنتسبين إلى الأزهر ودار العلوم ، لم يكن لهُم لسانٌ غير العربية ، قلّما كان يعرف أحدهم غير هذا اللسان ، فعمدوا ، فى مصر خاصةً ، إلى إجافة بابٍ يتيحُ لهم أن يطَّلِعُوا = أو يُصدمُوا على الأقلّ ، بما عند الحضارة الغازية من نظر ورأيٍ فى آداب العربية وعلومها وفُنونِهَا وتاريخها ودينها أيضاً !! وكان هذا موفُورًا فى مؤلفات « المستشرقين » عامَّةً ، لأنّه هو كلّ عملهم فى « الاستشراق » المرتبط كلّ الارتباط بالاستعمار والتبشير ، أى بتدمير الأمم المستضعفة وتحطيم ثقافتها وآثارها وماضيها كلِّه .[1] فكان لابُدَّ ، إذن ، من / نشر هذه الأفكار على نِطاق واسعٍ ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . ٣٣م

انبرى لذلك رجالٌ كثيرون فى مصر والشام وغيرهما ، ولكن جاء إلى مصر رجلٌ وافِدٌ ، مع رجال آخرين كُثْرٍ ، لا يربطُهم فى أنفسهم بهذا الماضى إلا اللسانُ العربىُّ وحده ، أما ضمائرهم فمرتبطة بشىء آخر !! أنشأ هذا الرجل مجلةً ، ثم بدأ يكتب مقالاتٍ ، وينشر كتباً فى آداب العرب وعلومها وفنونها وتاريخهَا ودينها ، على قلّة معرفته بها معرفةً تتيح له الكتابة ، ولكنه جاءَ معبِّراً عن اتجاه « الاستشراق » لا غيرَ .

ذلك هو « جُرجى زيدان » ، الذى أنشأ مجلة « الهلال » وألّف كتباً وقصصاً كثيرة منها : « تاريخ التمدُّن الإسلامى » ، و « تاريخ العرب قبل الإسلام » و « تاريخ آداب اللغة العربية » ، فكانت كُلُّها « سطوًا » مجرّداً على آراء المستشرقين ومناهجهم فى النظر ، مبثوثاً فى ثنايَا كُلِّ ما كتب . وكذلك تيسَّر لكل من لا يعرفُ غير العربية لساناً ، أن يجدَ ، على مدّ يده ، شيئاً « جديداً » يقالُ عن ماضيه ، وبمناهج لم يألفها أيضاً . ولكنْ حال بين هذا الضرب من « السطو » ، وبين أن يكون شيئاً عامًّا مؤثّراً تأثيراً نافذًا فى جمهور « المحافظين » الذين لا يعرفون غير العربية = أن الرجل كان وافداً مع استقرار الاحتلال الإنجليزى فى مصر (سنة ١٨٩٢) ، وكانت الشُّبْهةُ فيه تُوجب الحذَر منه ،

---

(١) استوفيت بيان بعض هذا فى كتابى (أباطيل وأسمار) .

فأضعف الحذَرُ منه ، أثَرَ ما يكتب فى أكثر قرائه يومئذٍ من هذا الجمهور ، وإن كان له فى جمهور « تلاميذ المدارس » المفرَّغين من ماضيهم أثر بليغٌ . ومع ذلك ، فإن الهدفَ من تآليفه لم يذهب / هَدَراً ، فإنه على الأقل ، فتح الباب ويسَّر السبيلَ للساطين من بعده ، ٣٤ م وجعل « السطو » المباشرَ أمرًا مألوفاً لا غبار عليه ، بل زاد فقرَّب إلى الأذهان سبيلَ الاقتناع بأنه ضربٌ من « التجديد » ، ومن متابعة « ثقافة العصر » ومناهج تفكيره فى الدراسات الأدبية والتاريخية الخاصة بلغة العرب وتاريخهم وعلومهم وفنونهم ودينهم أيضاً !!

ومعنى ذلك باختصار ، هو أنه صار الآن ممكناً أن يصبح من الممكن ومن السهل اليسير ، أن يكون معنى « الجديد » و « التجديد » فى دراسة آداب أمةٍ ما وفى دراسة تاريخها : أن يعمد « المجدّد » إلى اقتباس آراء وأفكار قد تولّى صياغتها مَنْ هو لَصِيقٌ دَخِيل عليها وعلى لسانها ، لم ينشأ فيه ، وإنما تعلَّمه على كِبَرٍ ، فهو لا يعلم منه إلا أقلّ القليل ، ومَنْ هو نابتٌ فى لسانٍ آخر بآدابه وعلومه وفنونه وعقائده ، ومَنْ هو محرومٌ بطبيعته من القدرة على تذوّقِ آدابها تذوّقاً شاملاً = والتذوّق وحدة عُقْدة العُقَد = ومَنْ هوَ مسلوبٌ كُلَّ إحساسٍ بتاريخها كُلِّه ، فضْلاً عمّا يكنُّه فى سريرته من العداوة المتوارثة والبغضاء المتأججة ، ومن المصلحة المتجدّدة فى تشويه صورتها تشويهاً متعمَّداً لأغراضٍ « حضارية » !! = يا للعجب !

أهذا ؟ أمْ أن « الجديد » و « التجديد » ، لا يمكن أن يكون مفهوماً ذا معنىً ، إلاّ أن ينشأ نشأةً طبيعيةً من داخل ثقافة متكاملة متماسكة حيّة فى أنفس أهلها = ثم لا يأتى التجديد إلاّ من متمكِّن النشأةِ فى ثقافته ، متمكّن فى لسانه ولغته ، متذوِّقٍ لما هو ناشىء فيه من آداب وفنون وتاريخ ، مغروسٍ / تاريخُه فى تاريخها وفى عقائدها ، فى ٣٥ م زمانِ قُوَّتها وضعفها ، ومع المتحدّر إليه من خَيرها وشرِّها ، مُحِسًّا بذلك كُلِّه إحساساً خالياً من الشوائب = ثم لا يكون « التجديدُ » تجديداً إلاّ من حِوَارٍ ذكّيٍ بين التفاصيل الكثيرة المتشابكة المعقَّدة التى تنطوى عليها هذه الثقافة ، وبين رؤية جَدِيدةٍ نافذة ، حين يلوحُ للمجدِّد طريقٌ آخرُ يمكنُ سلوكه ، من خلاله يستطيع أن يقطعَ تشابكاً من

ناحية ، ليصَله من ناحية أخرَى وصلاً يجعله أكثر استقامةً ووضوحاً ، وأن يحلّ عُقْدةً من طَرَفٍ ، ليربطها من طرفٍ آخر ربطاً يزيدُها قوةً ومتانةً وسلاسة .

فالتجديد إذن حركةٌ دائبةٌ فى داخل ثقافة متكاملة ، يتولاّها الذين يتحركون فى داخلها كاملةً حركةً دائبةً ، عِمَادُها الخِبرَة والتذوُّق والإحساسُ المرهفُ بالخطر ، عند الإقدام على القَطْع والوَصْل ، وعند التهجُّم على الحلّ والرَّبْط . فإذا فُقِد هذا كُلُّه ، كان القطع والحلُّ سِلاحاً قاتلاً مدمّراً للأمة ولثقافتها ، وينتهى الأمر بأجيالها إلى الحَيْرةِ والتفكُّك والضَّياعِ ، إذ يورِّث كُلُّ جيل منها جِيلاً بعده ، ما يكون به أشدَّ منه حَيْرَةً وتفكُّكاً وضياعاً .

هذه هى العاقبة التى تفرضُ نفسها فرضاً ، وما أبشَعَها من عاقبة .

فما ظَنُّك إذن بالعاقبة ، إذا كان القطع والحلُّ مُرادًا لذاته ، وكان مُرَادًا أيضاً أن لا يكون معه أو بعده وصلٌ وربطٌ فى داخل التكامل والتماسُك الذى يجعل لهذه الثقافة معنىً وحياةً وحركة ؟ = وما ظنك بالعاقبة إذا كان هذا ، ولم تكن الأفكارُ « المجدِّدة » إلاّ ترديداً لصياغة غريبة ، / صاغها غريبٌ عن الثقافة ، متنسبٌ إلى ثقافة غازيةٍ مُباينةٍ ، وهو مع ذلك ناقص الأَداة ، لا خبرةَ له بتشابكها وعُقدها ، ثم هو فى نفسه لا يضمر لها إلاّ التدمير والاستهانة ، لغرضٍ راسخ فى قرارة النفس ؟ = ثم ما ظَنُّك أيضاً بالعاقبة ، إذا صار « التجديد » عند أصحاب الثقافة أنفسهم ، لا يزيدُ على أن يكون « سَطْواً » مجرَّداً على هذه الصيغ الغريبة ، ثم إقحامُها إقحاماً على ثقافتهم ، لا لحاجة أدَّى إليها النظر والفكر والتدبُّر ، بل بالهوى وحبِّ الظهور من مُفَرَّغٍ ، أو من شبيهٍ بالمفرَّغ ، من ثقافته المتكاملة المتماسكة ؟ ما أَبشع العواقبَ عندئذٍ ، وأبشعها التَّدهْوُرُ المستمرُّ !

وكذلك كان مقدَّراً لجيلنا نحنُ ، جيل المدارس المفرَّغ ، أن يتلَقَّى صدمة التدهوُر الأولى ، لأنه نشأ فى دُوّامة دائرةٍ من التحوّل الاجتماعى والثقافى والسياسىّ . جئنا فى أعقاب حرب الاستعمار الكبرى ، وهى التى يسميها أصحابها « الحرب العالمية الأولى » . خرج منها « الحلفاء » منصورين ، وبدأوا من فَوْرهم فى تقسيم عالمنا وتبديده ، وأخذ كلُّ

٣٦ م

مستعمر منهم يشدّد قبضته على ما وقع فى يده من الغنائم . وبالدهاء والمكر والسطوة ، جعل يدفَع هذا التحوّل دفعاً شديداً ، لكى يتمَّ له أن يُخْضِع عالمنا « المتخلّف » لحاجات عالمه « المتحضّر » !! وجئنا أيضاً ، فى مصر ، مع الرجّة العظمى التى أحدثتها ثورة سنة ١٩١٩ ، والتى انتهت بعدَ قليل بفجيعة مزَّقت الأمة تمزيقاً مفزعاً ، بفضل الدستور والانتخابات وتعدّد الأحزاب ، وتكالب كلِّ حزبٍ على الظفر بالحكم تحت علم السيادة البريطانية المتحضِّرة !! وتبدّدت / نفوسُنا وتفتَّتت ، تحت ضغط هذا ٣٧ م التحوّل السريع المُتَمادِى المُرِيب المروِّع .

وفى ظلِّ هذا كُلِّه ، كما قلتُ ، انتعشت الحركة الأدبيّة والثقافية انتعاشاً غير واضح المعالم ، [1] وأقول « غير واضح المعالم » ، لأنَّ الأساتذة الكبار الذين انتعشت على أيديهم هذه الحركة ، كانت علائقهم بثقافة أمتهم غيرَ ممزّقةٍ كُلّ التمزيق = أما نحن ، جيل المدارس المفرَّغ ، فقد تمزقت علائقنا بها كُلّ التمزيق ، فصار ما يكتبه الأساتذةُ ، فيما له علاقة بهذه الثقافة ، باطِلاً أو كالباطل . فهو لا يقع منّا ومن أنفسنا بالموقع الذى ينبغى له من الفهم ، ومن الإثارة ، ومن الترغيب فى متابعته ، ومن إعادة النظر فى ارتباطنا بتلك الثقافة = بل كان عند كثير من أهل جيلنا غيرَ مفهومٍ البتة ، فهو يمرُّ عليه مروراً سريعاً لا أثر له . أمّا الذى أخذهُ جيلنا عنهم ، فهو الاتجاه الغامض إلى المعنى المبهم الذى تتضمَّنه كلمة « التجديد » = وإلى هذا الرفض الخفىِّ للثقافة التى كان ينبغى أن ننتمى إليها = وإلى الانحياز الكامل إلى قضايا الفكر والفلسفة والأدب والتاريخ التى أولع الأساتذة بتلخيصها لنا ، لكى نلحق بثقافة العصر الذى نعيش فيه ، وبمناهجه فى التفكير ، كما صوّروا لنا ذلك فى خلال ما يكتبونه !! وغابَ عن الأساتذة الكبار أن الزَّمن الدوّار الذى يُشيبُ الصغير ويُفْنِى الكبير ، هو الذى سيتولىّ الفصلَ بينهم وبين أبنائهم الصغار الذين كانوا يتعلَّمُون اليومَ على أيديهم .

* * *

---

(١) انظر ما سلف ص : ٢١ ، ٢٢ .

٣٨ م / والقصةُ تطولُ ، ومع ذلك فليس هذا مكانُ قَصِّها على وَجْهها ، إذا أنا أردتُ أن أقيِّدَ ما كان كما شهدته فيما بين سنة ١٩٢٨ ، وسنة ١٩٣٦ ، بل إلى ما بعد ذلك إلى يومنا هذا أيضاً . ويكفى أن أقول : إن جيلنا ، جيلَ المدارس المفرَّغ ، كان فى خلال ذلك قد كبرَ ، وانفلقَ عن فريقين : فريقٍ قانعٍ بما تجود به عليه أقلامُ الأساتذة الكبار من « تلخيصٍ » و « تجديدٍ » ، فهو لا يزالُ إليهم متطلِّعاً ، وبهم متعلِّقاً ، ثم لا يزيدُ = وفريقٍ يسَّر الله له السبيلَ إلى معرفة المنبع ، فرأى نفسه قادراً على أن يغترف من حيث اغترف أساتذته . لقد اطَّلع على أصول ما كانوا يلخّصُونه ، وما كانوا « يجدّدون » به مكتوباً بلغته أو بلغاته على الأصحّ . وأحسَّ أيضاً أن « الأصل » الذى يقرؤه بلغته ، مضىءٌ حىٌّ ، مكثفٌ ، عميقُ الدلالة = وأن تلخيص الأساتذة وتجديدهم كابٍ لونُه خامدةٌ حياتُه ، متخلخِلٌ ، قريبُ المتناوَل . ومع هذا الذى أَحَسَّ به ، فإنه من حيث لا يدرى يشعر بتفوُّق هؤلاء الأساتذة الملخِّصين المجدّدين عليه ، ولكنه لا يستطيع أن يجد تفسيراً لهذا التفوق ، مع أن تفسيره يسيرٌ هينٌ . وذلك أن علائق الأساتذة بثقافة أمتهم كانتْ علائقَ لم تمزق كلَّ التمزيق ، وبفضل هذه العلائق استطاعوا أن يُعْطوا تلخيصهم نفحةً من سرّ أنفسهم يمتازون بها ، وأن يكونوا أقدرَ منهم على « التجديد » ، لأن ما عندهم كان يمكِّنهم من الاختيار ، ثم من نَفْيِ ما هو غثٌّ أو ساقطٌ ، ومن إخفاءِ « السطو » إخفاءً فيه ذَرْوٌ من المعرفة . أمَّا هُمْ ، فقد فُرِّغُوا تفريغاً يكاد يكون تامًّا من أصول ثقافتهم التى ينتمون إليها (بالوراثة) ، ولذلك فهم يحسُّون فى أنفُسهم ما يشبه العجزَ ، إذا ما قارنوا بين ٣٩ م / أنفسهم وبين هؤلاء الأساتذة . وهذا هو الموقف العصيبُ الذى كان فيه جيلُنا يومئذٍ ، ثم استمرَّت عليه الأجيال بعدَنا ، وهى تشعُرُ شعوراً واضحاً بتفوُّق هذا الجيل من الأساتذة الكبار « الملخّصين » و « المجدّدين » ، مع أنّ الأمرَ ، كما قلتُ ، قائم فى الحقيقة على « السطو » البيِّن أو الخفِىِّ ، على أعمالِ ناسٍ آخرين يكتبون فى لُغَاتِهم بألسنتهم ، ويعبِّرون عن أنفُسِهم وعن حضارتهم وعن ثقافتهم = لا عن أنفسنا أو عن حضارتنا أو عن ثقافتنا نحنُ ! ومع ذلك فإن جيلَنا والأجيالَ التى تتابعت بعده ، لم تُرِدْ أن تكشف هذه

الحقيقة ، لأنهم إذا فعلوا ذلك كشفوا أمر أنفُسهم ، لأنهم لا يستطيعون شيئًا آخر سوى منهج « التلخيص » و « التجديد » ، على السُّنَّة التى سَنَّها لهم هؤلاء الأساتذة الكبار . ولو فعلوا ، لما بقى لهُم شىء يقولونه ، حين يَرِثون موقعَ الصدارة للتعليم والتثقيف بعد هؤلاء الأساتذة الكبار .

ولذلك ، فقد قنعوا بالوقوف تحت مظلَّة « التجديد » و « عالمية الثقافة » و « الثقافية العالمية » ، و « الحضارة الإنسانية » ، وسائر هذه المبهمات التى أشرت إليها آنفاً ، [ص : ٢٢ ، والتعليق هناك] وتكاتموا هذه الحقيقة بينهم ، ثم كان الأمْرُ بعد ذلك كما قيل فى المثل : « خلا لكِ الجوُّ فبيضى وآصفِرِى » !!

***

ومع ذلك ، فأنا أحبُّ أن أقرِّر هنا حقيقة أخرى تعين على توضيح هذه الصورة التى صوَّرتها ، وكنت أنا أحد شهودها فصوّرتها فيما سلف . فالدكتور طه حسين ، وهو أحد هؤلاء الأساتذة الكبار ، سوف يشهد فى سنة ١٩٣٥ شهادته هو ، من موقعه هو ، أى من موقع الأستاذية ، ومن وجهة نظره هو ، ومن دوافعه هو إلى الإدلاء بهذه الشهادة .

/ ومعلومٌ أن الدكتور طه فى سنة ١٩٢٦ ، حين ألقى محاضراته ، « فى الشعر الجاهلىّ » ، زعمَ أن له منهجاً يدرسُ به تُراث العرب كُلَّه ، وسمّى هذا المذهب « مذهب الشكّ » ، فكان فيما قاله عن مذهبه ، إن هذا المذهب سوف : « يقلب العلم القديم رأساً على عقبٍ . وأخشى إن لم يمْحُ أكثره ، أن يمحوَ منه شيئاً كثيراً » [فى الشعر الجاهلى ص : ٣] . ثم انطلق فى كتابه هذا مستخِفًّا بكُلِّ شىءٍ ، بلا حذر ، حتى قال : « والنتائج الملازمة لهذا المذهب الذى يذهبُه المجدّدون عظيمة جليلةُ الخطر ... وحسبُك أنَّهم يشكُّون فيما كان الناسُ يرونه يقيناً ، وقد يجحدون ما أجمع الناسُ على أنه حقٌّ لا شك فيه . وليس حظُّ هذا المذهب منتهياً إلى هذا الحدّ ، بل هو يجاوزهُ إلى حدود أخرى أبعدَ منه مدىً وأعظم أثراً . فهم قد ينتهون إلى تغييرِ التاريخ ، أو ما اتفق الناس على أنه تاريخ ، وهم قد ينتهون إلى الشك فى أشياء لم يكن يباح الشك فيها » ، [فى الشعر الجاهلى : ٦] .

٤٠ م

والاستخفافُ الذى بنى عليه الدكتور طه كتابه معروفٌ ، أمّا الذى كان يقوله فى أحاديثه بين طلبته ، فكان استخفافُه عندئذ يتجاوز حدّه حتى يبلغ بنا إلى الاستهزاءِ المحضِ بأقوال السلف . وأمّا الذى كان يدورُ بين طلبته الصغار « المفرَّغين » من ثقافتهم ، كما قلت ، فكانَ شيئاً لا يكادُ يُوصف ، لأنه كان استخفافَ جاهلٍ واستهزاءَ خَاوٍ ، يردّدُ ما يقوله الدكتور ، لا يعصمهُ ما كان يعصم الدكتور طه من بعض العلم المتصل بهذه الثقافة . وعلى مرّ الأيامِ ، كانت العاقبة وخيمةً جدًّا . كَبِرَ الصِّغارُ الذين تأثَّرُوا بما قاله / فى سنة ١٩٢٦ ، فقد فَطَمتهم السنُّ ، وفَطَمتْهم معرفةٌ جديدة حازوها ، وتنكَّروا ، أو كادوا ، للثَّدْى الذى كان يُرْضِعهم . وخرجت « الطلائِع » تدفعها الحمّية وطلبُ الصَّدارة فى ميدان « التثقيف » و « التجديد » ، وبدا كأنَّهم جاؤوا يزاحمون الأساتذة الكبارَ فى مواقع الأستاذية . وساروا على نفس النَّهج الذى مَهَّدوهُ لهم من « التلخيص » لفكر « الحضارة الحديثة » = أى الحضارة الأوربية = والذى هو فى حقيقته سطوٌ مجرَّدٌ ، ولكنَّهم لم يسيروا سيرةِ الأساتذةِ فى معالجة « القديم » حتَّى يُخَيِّل للناس أنه إحياءٌ للقديم وتجديدٌ له ، بل كانَ الغالبُ على أكثرهم هو « رفضَ القديم » والإعراضَ عنه والانتقاصَ له والاستخفافَ به . وعندئذ أحسَّ الدكتور طه نفسه بالخطر ، وهو هو الذى أضاء لهم الطريق بالضجَّة التى أحدثها كتابه « فى الشعر الجاهلى » !!

٤١ م

كان إحساس الدكتور بهذا الخطر الذى تولّى هو كِبْرَ إحداثه ، ظاهراً جدًّا ، ففى يناير سنة ١٩٣٥ = بعد تسع سنوات من صدور كتابه : « فى الشعر الجاهلى » ، سنة ١٩٢٦ = بدأ ينشر فى جريدة الجهاد مقالات انتهى منها فى ٢٢ مايو سنة ١٩٣٥ ، وكانَ مُحَصَّلها رجوعاً صريحاً عن ادعائه الأوَّل فى سنة ١٩٢٦ ، الذى أعلنه فى أوَّل كتابه ، وهو قوله : « إن الكثرة المطلقة مما نُسَمّيه شعراً جاهليًّا ، ليست من الجاهلية فى شئ ، وإنما هى مُنتحَلة مُختَلقة بعد ظهور الإسلام ، فهى إسلامية تمثِّل حياة المسلمين وميولَهم وأهواءَهم ، أكثر مما تمثّل حياة الجاهليين ، وأكاد لا أشكّ فى أنَّ ما بقى من الشعر

/ الجاهلىّ الصحيح قليل جدًّا ، لا يمثّل شيئاً ولا يدلُّ على شىء » ، [فى الشعر الجاهلى ص : ٧] . (١) ٤٢ م

بدأ الدكتور هذه المقالات بمقالة عنوانها : « أثناء قراءة الشعر القديم » ، (٢) وأدار الحديث بينه وبين صاحب له قال له وهو يحاوره : « إنكم لتشقُّون علينا حين تكلّفوننا قراءةَ شعركم القديم هذا ، وتلحُّون علينا فيه ، وتعيبوننا بالإعراض عنه ، والتقصير فى درسه وحفظه وتذوُّقه ، لأنكُم تنكرون الزمن إنكاراً وتُلْغونه إلغاءً ، وتحسبون أننا نعيش الآن فى القرن الأوّل قبل الهجرة أو بعدها .... » إلى آخر ما صوّر به الدكتور حقيقة إحساسه بآراء من يُحِيطون به من جيلنا الذى بلغ الفِطَام واستقلَّ .

ثم قال بعد ذلك (ص : ٩ من حديث الأربعاء ج : ١) : « وقد تحدَّث إلىّ المتحدثون بأن أمثال صاحبى هذا قد أخذوا يكثرون ، ويظهر أنهم سيكثرون كلما تقدّمت الأيام » ، وصدق ظن الدكتور ، فقد كان ذلك ، وكان ما هو أبشع منه !

وسأحاول هنا أن ألخص ما قاله الدكتور طه بألفاظه هو ، لا بألفاظى ، لأنها شهادة أستاذ كبير ، يقول :

/ « والذين يظنُّون أن الحضارة الحديثة حملت إلى عقولنا ٤٣ م
« خيراً خالصاً يخطئون ، فقد حملت الحضارة الحديثة إلى عقولنا
« شرًّا غير قليل ... فكانت الحضارة الحديثة مصدر جمودٍ
« وجهلٍ ، كما كان التعصّب للقديم مصدر جمود وجهل أيضاً .

---

(١) قد بينت فى بعض مقالاتى أن الدكتور طه ، قد رجع عن أقواله التى قالها فى الشعر الجاهلى ، بهذا الذى كتبه ، وببعض ما صارحنى به بعد ذلك ، وصارح به آخرين ، من رجوعه عن هذه الأقوال . ولكنه لم يكتب شيئاً صريحاً يتبرأ به مما قال أو كتب . وهكذا كانت عادة « الأساتذة الكبار » ! يخطئون فى العلن ، ويتبرأون من خطئهم فى السر !!

(٢) انظر « حديث الأربعاء » الجزء الأول (من ص ٩ — ١٧) .

« هذا الشابّ ، أو هذا الشيخ ، الذى أقبل من أوربة
« يحمل الدرجات الجامعية ، ويحسنُ الرطانة بإحدى اللغات
« الأجنبية ... يجلسُ إليك وإلى غيرك منتفخاً متنفِّشًا ،
« مؤمناً بنفسه وبدرجاته وبعلمه الحديث ، أو أدبه الحديث ،
« ثم يتحدَّثُ إليك كأنه ينطق بوَحْى أبُولُّون . فيعلن إليك
« فى حَزْم وجَزْم أن أمر « القديم » قد انقضى ، وأن الناس
« قد أَظَلَّهم عصر « التجديد » وأنَّ الأدب القديم يجبُ
« أن يُتْرَك للشيوخ الذين يتشدّقون بالألفاظ ، ويملأون
« أفواههم بالقاف والطاء وما أشبهها من الحروف الغلاظ ،
« وأن الاستمساك بالقديم جمود ، والاندفاع فى الحياة إلى
« أمامٍ هو التطوُّر ، وهو الحياةُ وهو الرقىُّ . هذا الشاب
« وأمثاله ضحيّةٌ من ضحايا الحضارة الحديثة ، لأنه لم يفهم
« هذه الحضارة على وجهها ، ولو قد فهمها لعلم أنها لا تنكر
« القديم ولا تنفِرُ منه ولا تنصرف عنه ، وإنّما تحبِّبُه وترغِّبُ
« فيه وتَحُثُّ عليه ، لأنها تقوم على أساسٍ منه متينٌ ....
« هذا الشابُّ ضحيّةٌ من ضحايا الحضارة الحديثة ،
/ « أو من ضحايا جهل الحضارة الحديثة ، وشرُّه ليس مقصوراً ٤٤ م
« عليه ، وإنما يتجاوزه إلى غيره من الناس . فهو يتحدَّث ،
« وهو يعلِّمُ ، وهو يكتُبُ ، وهو فى هذا كُلِّه ينفُثُ السُّمَّ ،
« ويفسد العقول ، ويمسَخُ فى نفوس الناس المعنى الصحيح
« لكلمة « التجديد » . فليس التجديد فى إماتة القديم ،
« وإنما التجديد فى إحياء القديم ، وأخذ ما يصلُح منه للبقاء .
« وأكادُ أتَّخذ الميلَ إلى إماتة القديم أو إحيائه فى

« الأدب ، مقياساً للذين انتفعوا بالحضارة الحديثة أو لم
« ينتفعوا بها ، فالذين تُلْهيهم مظاهر الحضارة عن أنفسهم
« حين تلهيهم عن أدبهم القديم ، لم يفهموا الحضارة الحديثة ،
« ولم ينتفعوا بها ، ولم يفهموها على وجهها ، وإنّما اتخذوا
« منها صُوَراً وأشكالاً ، وقلّدوا أصحابها تقليد القِردَةِ ،
« لا أكثر ولا أقلَّ !!

« والذين تَلْفِتُهم الحضارة الحديثة إلى أنفُسِهم ، وتدفَعُهم
« إلى إحياء قديمهم ، وتملأ نفوسهم إيماناً بأن لا حياةَ لمصر
« إلاّ إذا عُنِيتْ بتاريخها القديم وبتاريخها الإسلاميّ ،
« وبالأدب العربيّ قديمه وحديثه ، عِنَايتَها بما يمسُّ حياتها
« اليومية من ألوان الحضارة الحديثة = هم الذين انتفعوا ، وهم
« الذين فهموا ، وهم الذين ذاقوا ، وهم القادرون على أن
« ينفعوا فى إقامة الحياة الجديدة على أساس متين » .

/ وهذه الشهادة ، من أحد الأساتذة الكبار ، الذين سنُّوا لمن بعدهم السُّنَن فى الحياة الأدبية وفى مناهج تفكيرها ، شهادة مهمّةٌ جدًّا لتاريخ الحياة الثقافية التى امتدَّت بعدهم إلى يومنا هذا ، بَلْ هى تكشف عن جُذُور التدمير المفزع الذى يشمل اليوم المُجْتَمع العربىَّ كُلّه حيث تُنْطَق العربيّة ، [1] لا بَلْ حيثُ يَدِينُ غيرُ العرب بالإسلام ، ويُوجب عليهم إسلامُهم أن يضعُوا العربية فى المقامِ الأوَّلِ ، لأن إسلامَهم لا يكون إسلاماً ٤٥ م

(١) لم ينتصب أحد لوصف هذا التدمير المفزع الذى يشترك فى جريته مثقفون كثيرون ، فى الأدب ، وفى العلم ، وفى التاريخ ، وفى الفلسفة ، وفى الاجتماع ، وفى السياسة ، وفى الفن كله من مسرح وسينما وموسيقى وغيرها ، وكل منهم ، كما يقول الدكتور طه : « ينفث السم ويفسد العقول ويمسخ فى نفوس الناس المعنى الصحيح لكلمة التجديد » . وقد زاد الأمر ، فلم يبق مقتصراً على التعليم والكتابة والتأليف والصحافة ، بل دخل كل بيت دخولاً مفزعاً عن طريق الإذاعة والتليفزيون ، بلا رقيب ولا حسيب !

إلاّ بالقرآن ، وهو الذى نزل عليهم بلسان عربىّ مبين ، وإلاّ بسنَّة الرسول الأمىّ العربىّ ، ﷺ ، وهى أيضاً بلسان عربىّ مبين .

وليس من همّى هنا أن أفسر هذه الشهادة ، ولا أن أوضِّح مَدَى صِدْقها حيث صدق توقُّع الدكتور فى تكاثر عَدَد مَنْ وَصَفَهُم من « المثقفين » فى شهادته ، وأخشى أن أقول إن هذه الصفة ، على نقصها ، تشمل عامة المثقفين فى زماننا هذا إلى سنة ١٩٧٧ = ولكنْ الذى يجب علىَّ أن أقوله : إن شهادة الدكتور على اختصارها ، إنما هى وجهٌ آخر لشهادتى التى كتبتُها هُنا ، قالها هو من موقع « الأستاذية » ، وقُلْتها أنا من موقعى بين أفراد جيلى الذى أنتمى إليه ، وهو جيل المدارس المفرّغ من كل أصول ثقافة أمته ، وهو الجيل / الذى تلقَّى صدمة التدهورِ الأولى ، حيث نشأ فى دُوَّامةٍ من التحوُّل الاجتماعى والثقافىّ والسياسىّ ، كما أشرت إليه آنفاً [ص : ٢٦ ، ٢٧] . ٤٦ م

* * *

المتنبى

وأنا حين قرأتُ هذه الشهادةَ يومئذ (٣٠ يناير ١٩٣٥) ، توهَّمتُ بحُسْن الظنّ أن الدكتور طه سوف يبدأ عهداً جديداً فى تفكيره وفيما سيكتُبه للناس ، وأنه سيفارِقُ السنّة التى سنّها هو والأساتذةُ الكبارُ ، وإن كان قد رابنى ما ختم به شهادته ، لأن هذه الخاتمة توشك أن تكون دفاعاً عن نفسه وتمجيداً للسيرة التى سارها هو فى « التجديد » = التجديد كما يراه هو ، لا التجديد كما يراهُ الجيلُ الذين وصفهم بأنهم « ضحايا الحضارة الحديثة ، أو ضحايا جهلِ الحضارة الحديثة » . وليس هذا بمستبعدٍ ، لأن الدكتور طه يومئذ (سنة ١٩٣٥) ، كان فى قمَّة مجده الذى أحرزه بالضجة التى ثارت حول كتابه « فى الشعر الجاهلى » ، وهو يروح ويغدو على ذُراها يملؤه الزَّهْو ، وتستخفُّه الخُيَلاء ، ويَميدُ به العُجْب . ثم جاءَت بعد ذلك مقالاته فى جريدة الجهاد متتابعة من (٦ فبراير ١٩٣٥) إلى (٢٢ مايو سنة ١٩٣٥) ، وهى عن جماعة من

شعراء الجاهلية ، فكان يخلط فيها بين ما يدلُّ دلالة صريحة على رجوعه عن رأيه فى الشعر الجاهلى ، وبين الالتزام بالإشارة فى خلال ذلك إلى شكِّه القديم الذى جعلَهُ مذهباً فى دراسة هذا الشعر ، ولذلك كثر فيها التناقض !! . ولستُ هنا بصدَد الحديث عن هذه المقالات الأربعة عشر التى / كتبها ، ولكنى أقول إنى وجدت يومئذ أن الدكتور طه قد دلَّ فيها على أنه يحاولُ أنْ يسلُكَ طريق « تذوُّقِ الشعر » ، الذى أشرت إليه آنفاً ، ولكنّه تذوُّق بلا منهجٍ ، وبلا هَدَفٍ ، وعلى غير أصل . ٤٧ م

فى هذا الوقت نَفْسه أو قبله بقليل (سنة ١٩٣٥) ، كان أخى الأستاذ فؤاد صرُّوف ، قد عَهد إلىَّ أن نُصدر عددًا من « المقتطف » إحياءً لذكرى أبى الطيب المتنبّى ، فى مرور ألف سنة على وفاته ، وأن أكتب أنا فيه كلمة مسهبة بعض الإسهاب ، ما بين عشرين إلى ثلاثين من صفحات المقتطف . [1] تلقَّيتُ هذا التكليف متحمِّساً له ، ولكن لم أكدْ أتناول ديوان المتنبّى ، بعد هَجْره هجراً طويلاً ، كما قلت آنفاً [ص : ٩] ، حتى وقعت فى الحيرة ! كنت فى السادسة والعشرين ، وكنتُ قد قضيتُ ما بين سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٥ ، غارقاً فى « قضيّة الشعر الجاهلى » ، وفيما قذفتنى إليه من تِيهٍ متشعِّب المسالك والمناهج = لا ، بل فى تِيهٍ أعتَى منه ، يَخطِفُ نفسى خطْفاً ويبعثرهَا شَعَاعاً ، فى برقٍ متتابع يتركنى ممزَّقاً بين النُّور والظُّلْمة ، بين الضلالة والهدى . وذلك أنّ أصحاب هذا « الشعر الجاهلىّ » ، هم الَّذين نُزِّل عليهم القرآن العظيم ، وهم الذين طولبوا بأنّ يتبيّنُوا ، عند سماعه يُتلى عليهم ، أنّه آيةُ هذا النبى ، ﷺ ، الدالَّةُ على صدقِ نُبوَّته ، وإن خالفت المعهودَ عند البشر من آيات الأنبياء والمرسلين . ولا سبيلَ إلى ذلك ، إلاّ بأن يشهَدَ الشاهدُ منهم أنه كلام الله المفارقُ لكلام عباده من البشر على اختلاف / ألسنتهم = أىْ أنّه كلامٌ عربىٌّ خارجٌ عن طوق البشر جميعاً ، وخارجٌ قبل كُلِّ شىءٍ عن طوق هذا النّبى الذى يتلوهُ عليهم ، فكذلك يصير آيةً كسائر آيات ٤٨ م

[1] انظر مقدمة الأستاذ فؤاد صروف ص : ١٣١ من هذا الكتاب .

الأنبياء من قبله ، كإحياء الميِّت ، وقلب العصا حيةً . فكيف ، إذنْ ، تسنّى لأصحاب هذا الشعر الجاهلى أن يحكموا لهذا القرآن بأنه آيةٌ دالّةٌ على صدق التّاليهِ عليهم ؟

وطلب الجواب عن هذا السؤال ، هو الذى قادنى إلى أن أنغمس فى قراءة تُرَاث هذه الأمّة ، من تفسير لهذا القرآن ، ومن علوم كثيرة تتعلّقُ به وبلغته ، من النحو والصرف والبلاغة والأصول والفقه ، والحديث النبوى وما يتصل به من علم رجاله ورواته ، ثم علم التاريخ ، تاريخ الأمة ، وتاريخ رجالها ، وما وقع من الاختلاف بينهم فى ذلك كُلّه . هذا سوى الشعر والأدب على تنوعه . وفى خلال ذلك لم يكن لى مطلبٌ سوى مطلب واحد ! أن أجدَ بَرْدَ اليقين فى نفسى ، فى شأن « الشعر الجاهلىّ » ، وفى شأن ما نُسمّيه « إعجاز القرآن » . لم يكن يدور بخَلَدى أن أكون عالماً فى كُلِّ هذه العلوم أو فى بعضها ! ولا دار بخلدى قطُّ ، فى خلال هذه الرحلة الطويلة الشاقة ، أن أؤلِّف كتاباً ، أو أن أكتب بحثاً فى شىء مما أقرأ ، أو فى بعض ما اهتديت إليه وأنا أقرأ ،[1] لا همَّ لى ، ولا شىءَ يزعجنى ، سِوى طلب اليقين وإبطالِ الشكِّ ، والخروج من الحيرة . فلذلك ، ومع طول الممارسة لهذه الفنون والعلوم المختلفة المتباينة ، بدأت أجِدُنى شيئاً فشيئاً مصروفاً عن تحصيل ما فى هذه / العلوم من المعارف ، إلى سيرة أُخْرى فى القراءة ، سيرةٍ غريبةٍ ، ولكنّها كانت ألصَقَ بطبيعتى ، وأعمقَ نفاذاً فى نفسى . ٤٩ م

كانت سيرتى فى كُلِّ هذا الذى أقرؤه ، هى سيرتى التى آخترتها آنفاً فى شأن « الشعر الجاهلىّ » ، وهى تَذَوُّق الكلام[2] : تذوّق الألفاظ والجُمَل ، وتذوّق دِلالتها على معانى أصحابها ، وكيف يصوغُ كُلُّ صاحب فكرٍ فكرَهُ فى كلمات ؟ وكيف

---

(١) إلا بحثا واحداً فيما أظن ، جعله الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد ، مقدمة للجزء الأول من شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ، بعنوان : « مقدمة فى نشأة اللغة العربية ، وعلم النحو ، والطبقات الأولى من النحاة » ، ونشرته المطبعة المصرية فى سنة ١٣٥٢ هـ ، سنة ١٩٣٣ م .

(٢) انظر ما سلف ص : ١١ ، ١٧

يخطىء وكيف يصيب ؟ وكيف يستقيم على المعنى طلباً للحقّ ، وكيف يلتوى طلباً للمغالطة أو الزَّهْوِ أو الظهور على الخصم ؟

ومعنى ذلك ، على وجه الاختصار ، أنى كنت أتذوّق البيان الإنسانىّ الصادر عن أصحابه فيما يريدُ أن يقوله كُلٌّ منهم ، على اختلافهم فى المنازع والمشارب التى تتكوّن منها آداب البشر وعلومُهم . وبيانُ الإنسان عن نفسه ، لو تأمَّلته ، شئٌ مذهلٌ !! فكانت لذَّتِى فى الوقوفِ على ما يَرُوعُنى من هذا البيان ، تفُوق لذَّتى فى الإبانة عن نفسى أنا أيضاً كما أبانوا ، أو فى الإبانة عمَّا أجدُه فى نفسى وأنا أقرأ بيان هؤلاء الكاتبين الأمناء فى بيانهم عما فى أنفسهم . ولذلك لم يدُرْ بخلدى أن أكتب ، على مرِّ هذه الأيَّام الطوال ، إلاّ قليلاً جدًّا من الكلام المنثور ، وبعضَ الشعر . فلمَّا وجدت نفسى مكلَّفاً بالكتابة عن المتنبّى ، أوقعنى هذا التكليف فى الحَيْرةِ ، لأنّى سوف أقرأُ لأكتبَ ، لاَ لأتلذَّذَ بما أقرأ . ويا بُعْدَ ما بين المذهبين !

ومع ذلك ، فقد جاء هذا التكليف على ساعةٍ موافقةٍ لاستثارتى ، لأنه يردّنى إلى أوّل ديوان كنت حفظتُه كلَّه ، وفُتنتُ به قديماً كُلُّه ، ثم أغفلتُه / كلَّه ، ثم ثَبَّطنى عنه كلِّه بدءُ حفاوتى بالشعر الجاهلىّ ، [انظر ما سلف ص : ٩]فرأيتُنى الآن ملزماً أن أقرأه قراءةً جديدة ، متذوّقاً لبيانٍ هجرته هجراً طويلاً . فلم أُكَذِّبْ ، وأخذت ديوان أبى الطيِّب ، بشرح الواحدى من القُدَماء (.... – ٤٦٨ هـ) ، ثم بشرح الشيخ ناصيف اليازجىّ من المُحْدَثين (– ١٢٨٧ هـ / ١٨٧١ م) . ولم أكد أتجاوز نصف الديوان فى هذه القراءة ، حتى استوقفنى أن النصف الثانى منه ، مؤرّخةٌ قصائده كلها أو أكثرها باليوم والشهر والسنة التى قِيلت فيها هذه القصائد ، من شهر جمادى الأولى سنة ٣٣٧ ، إلى أول شعبان سنة ٣٥٤ ، وقد قتل المتنبّى بعد ذلك بقليل فى أواخر شهر رمضان سنة ٣٥٤ هـ . أمّا النصف الأوّل فهو غُفْل كُلُّه من التاريخ ، إلا حيث يُذْكر أنه قاله فى صباهُ ، أو قالَه فى المكتب ، وأشباه ذلك ، وهو قليل جدًّا ، لا يكاد يتجاوز بضع مقطوعات منه ، مع أنّه يشتمل على شعره الذى قاله منذ سنة ٣١٤ ، إلى سنة ٣٣٦ تقريباً .

٥٠ م

ولما كنتُ أعلمُ ، مما قرأتُه حديثاً فى مقدمة أستاذنا عبد العزيز الميمنى الراجكوتى لما جمعه من « زيادات ديوان شِعر المتنبى » ، [1] وما قرأتُه قديماً فى تراجم متفرِّقة للمتنبِّى ولمن صحبه أو رآه من العلماء الذى رَوَوا عنه شعره كُلَّه أو أكثره = أنّ المتنبِّى قرأ على الناس شعره مرَّاتٍ فى بلاد مختلفة ، وأنّه رتَّب ديوانه بنفسه ، وأنه أملى على من قرأوا عليه مقدمات قصائده / بتواريخها ، وأن نسخاً كثيرة من الديوان ، قد صُحِّحت أو قُرِئت على أصولٍ مقروءةٍ على أبى الطيب نفسه ، وأنها تكادُ تتفق جميعاً على الترتيب الموجود فى شرح الواحدىّ خاصةً = لَمَّا كنتُ أعلم ذلك تيقَّنْتُ أن أبا الطيب كان شديد الإحساس بالتاريخ حين جمع شعره ورتبه . وتبيَّنَ ذلك تبيُّناً واضحاً فى النصف الثانى منه ، وهو المؤرَّخة قصائده كُلُّها باليوم والشهر والسنة . وإذا كانَ حين جمع شعره ورتَّبه شديدَ الإحساس بالتاريخ ، من سنة ٣٣٧ إلى سنة ٣٥٤ ، إذاً ، فهو فى القسم الأوّل أيضاً من سنة ٣١٤ إلى سنة ٣٣٦ ، خليقٌ أن يكون شديد الإحساس بالتاريخ ، إلا أنَّ عَهْدَه بهذا الشعر كان قد تقادم ، فنسِىَ الأيَّام والشهور والسنوات على وجه التحديد ، فرتَّبَ هذا القسم الأوّل على ما بقى فى نفسه من الإحساس الخابى بهذه التواريخ القديمة .

٥١ م

ولكن لا يُسْتبعدُ أن يكون أبو الطيب قدَّم شعراً على شعر ، وتاريخاً على تاريخ ، بيد أنِّى أعتقد أن هذا التقديم والتأخير لا يكاد يتجاوز سنة أو بَعْض سنة على الأرجح . ومع ذلك ، ففى بعض هذا الترتيب خَلَلٌ آخر ، وهو أن المتنبّى ، كما استظهرتُ ذلك ، كان رُبَّما مدح رجلاً فى سنة ، ثم بعد سنوات مدحه مرةً أخرى ، فكان يلحق الشعر الثانى بالشِّعْر الأوّل القديم التاريخ ، فيقدِّمه بلا مبالاةٍ . وهذا أيضاً شبيه بما فعله فى القسم الثانى من سنة ٣٣٧ — ٣٤٥ ، حين ألحق به شعراً قيل فى سنة ٣٢١ . [2]

---

(١) نشرته المكتبة السلفية فى سنة ١٣٤٥ هـ — ١٩٢٦ م .

(٢) فإن المتنبى ألحق بشعره الذى قاله فى سيف الدولة (من سنة ٣٣٧) إلى (سنة ٣٤٥) قصيدته الميمية التى أولها :

* ذِكْرُ الصِّبَى و مَرَاتِعِ الآرام *

التى قالها فيه سنة ٣٢١ ، [انظر ما سيأتى ص : ٦٦] ثم انظر أيضا ص : ٢٩٥ ، والتعليق عليه .

/ وعلى كل حال ، فلابُدَّ أن نكون على ذُكْرٍ دائم بهذا ، وبأن المتنبى نفسَهُ حين جمع شعره وقرأه على الناس ، أسقط كثيراً من شعر صباه ، أو من الشعر الذى تضمَّنَهُ القسم الأول الذى لم يؤرَّخ من ديوانه . وعلى ذلك فهذا القسم الأول محتاج إلى الاجتهاد فى ترتيبه على السنوات ، استظهاراً من الشعر نفسه ، ومن تراجم الرجال الذين قال فيهم هذا الشعر . ٥٢ م

والإحساسُ بالتاريخ ظاهرةٌ فريدة ، مُعْرِقةُ القدم فى تاريخ عرب الجاهلية ، وقد ترك أثرَهُ البيّنَ فى حياتهم ، ثم فى لغتهم ، ثم فى شعرهم . فلما جاء الإسلامُ زاد هذا الإحساس نفاذاً ووضوحاً ، لحاجتهم إليه فى تاريخ تنزيل القرآن منجَّماً على مدى ثلاث وعشرين سنة ، وما يترتَّب على ذلك من معرفة الناسخ والمنسوخ من القرآن والحديث ، وما ارتبط بذلك من مغازى رسول الله ﷺ سنة بعد سنةٍ بعد الهجرة . فلما جاء عَهْد التدوين ، اتَّسع هذا الإحساسُ ، وصارَ واضحاً ظاهراً فى الكتب المخطوطة ، ثم فى أسانيد هذه الكتب . وكان أشدَّ وضوحاً عند علماء التفسير والحديث وعلم الجرح والتعديل . ولا أشُكُّ فى أن المتنبى قد أدرك هذا ، لأنه كان مستفيضاً على زمانه ، فكان ديوانُه الذى جمعه بنفسه وقرأه على الناس ، أوَّلَ ديوانٍ من الشعر جاءنا ، فيما أعلم ، وفيه أثر هذه الظاهرة واضحاً كُلَّ الوضوح ، شهراً بشهر وسنة بعد سنة ، فى القسم الثانى من ديوانه .

وقد كنتُ ، وأنا أتذوَّق شعر الجاهلية وبعضَ الشعر الأمويّ ، أُحاوِلُ / محاولة صَعْبَةً فى الاهتداءِ إلى ترتيب قصائد الشعراء على مُدَد من الزمن الذى عاشوه وقالوا فيه شعرهم ، كامرئ القيس والنابغة وزهير والأعشى ، وحاولته أيضاً فى شعر عمر بن أبى ربيعة وشعر ذى الرمَّة . ومع أنِّى لم أظفر ، أو لم أحقّق كُلَّ بغيتى ، إلاَّ أننى انتفعت بذلك انتفاعاً لا بأس به فى تذوُّق الشعر . فلما استوقفنى القسم الثانى من شعر أبى الطيب ، ومضيتُ فى تذوُّقه مرتَّباً على التاريخ ، كان نَفْعُ هذا الترتيب التاريخىّ عظيماً ، فقد كشف لى حركة وِجْدان أبى الطيب فى شعره ، فى زمن طويل يمتد من سنة ٣٣٧ إلى وفاته فى سنة ٣٥٤ . فلذلك عُدتُ أقرأ الديوان كُلَّه قراءةً ثانية ، محاولاً أن أعرف حركة ٥٣ م

وجدانه فى الشعر الذى قاله منذ صباهُ فى سنة ٣١٤ تقريباً إلى سنة ٣٣٦ = ومحاولاً بتذوّقى أن أرتِّب قصائد هذا القسم ترتيباً تاريخيًّا ما استطعت . وقد فعلتُ ، وتبيّن لى أنَّ أبا الطيب كان بلا شكٍّ ملتزماً بالترتيب التاريخى فى هذا القسم ، إلا فى قليلٍ من الشعر ، كما قلتُ آنفاً .

فرغتُ من هذه القراءة الثانية ، ومن ترتيب قصائد القسم الأوّل كما بدا لى عندئذ ، واجتمع لدىَّ قدرٌ لا بأسَ به من الملاحظاتِ عن أبى الطَّيب الشاعر ، وعن حركة وِجدانه فى شعره على اختلاف الأحوال والبلدان والناسِ الذين لقيهم ، والرجالِ الذين مَدَحَهم . وبدا لى أن أقنع بهذا ، وأن أبدأ فى الكتابة عن شعر المتنبّى ، لا عن حياته .

ولكنّ قَلقى القديم لم يفارقنى وأنا أستجمع نفسى للكتابة . لم أستطع أن أتخلَّص من الإحساس الملحّ بالنقص فى عملى هذا . فوجدتُه أمراً / لا مفرَّ مِنْه ، أن أفعلَ ما لم يكن فى نِيّتى أن أفعله يومئذٍ . جمعتُ كُلَّ ما أمكنَ أن يقع فى يَدِى من تراجم أبى الطيب التى كتبها الأوّلون ، وما أتيح لى أن أعلمَهُ مما كتبه المُحْدثون عن أبى الطيب . ونحَّيْتُ الديوان جانباً وشَرعتُ أقرأ تراجمه القصارَ والطوالَ ، وأردُّ الأخبار التى فيها إلى أُصُولها التى نُقِلَتْ عنها ، فكان لزاماً علىَّ أن أرتِّبَ هذه التراجم ترتيباً تاريخيًّا حتَّى لا أضِلَّ عن مَوَاضع التغيير والتبديل التى لحقتْ هذه الأخبار ، فى نقل كُلِّ مؤلّف عمن سَبَقه . وكان عملاً شاقًّا طويلاً ، متعدِّد الجوانب ، متَّسِع الرقعة ، لكنه كان عظيمَ الفائدة . قيَّدت كُلَّ ما عنَّ لى وأنا أقرأ هذه التراجم والكُتُبَ . كنت أصطدمُ دائماً فيها بما يَهُزُّنى وما يحيِّرنى ، من الاختلاف الواضح بين صورة أبى الطيِّب التى تصوِّرها هذه التراجم والكتب ، وبين صورته التى يصوِّرها لى تذوُّق شعرِهِ مجرَّداً من تأثير هذه الأخبار التى رُوِيتْ عنه .

م ٥٤

وظهر لى يومئذٍ ظهوراً واضحاً فرقُ ما بَيْنَ تذوُّق شعر الشاعر تذوُّقاً يعتمد على الشعر نَفْسه أوَّلاً ، ثم على ما يكونُ فى نفس المتذوّق من إدراكٍ مُجْملٍ لعصْر الشاعر

والعصور التى قبله ، وللرِّجال الذين عاش بينهم وخالطهم ، وللأحداث التى تمرُّ به أو بالناس ويكون لها أثر فى شعره وفى حركة وجدانه = وبين بحث الدارس المتأنى الذى يجمع أخبار الشاعر وتراجمه وآراءَ الناس فيه وفى شعره ، ويقارنُ ، ويستنبطُ ، ويأخذُ خبراً ويردُّ آخر ، ويكشف عن مواضع الخلل فى الأخبار إن اختلت ، وعن استقامتها إن استقامتْ ، ويستغرق فى التفاصيل الدقيقةِ التى تدلُّ عليها أخباره وأخبار زمانه وأخبار / أهل عصره الذين لقيهم أو لم يَلْقَهُم . فرأيتُ يومئذ أنهما طريقان مختلفان ، وعملان متباينان ، ولكن لا غِنَى بأحدهما عن الآخر . وتبيَّن لى أيضاً ، مما قرأتُه للمحدثين خاصةً ، أن طريق الأخبار وبحثها والاعتماد عليها أو على بعضها ، ربَّما ضلَّل الكاتب ، فجعله يَرَى فى بعض شعر الشاعر معنىً ، هو بعيد كُلَّ البُعْد عن المعانى التى يَدُلُّ عليها تذوُّق شعره جملةً واحدةً = وأنّه أيضاً ، يُشَوِّهُ صورة الشاعر التى يصوِّرها تذوُّق شعره تصويراً أصدقَ وأوضحَ وأعمقَ . ٥٥ م

فلما وقَرَ هذا فى نفسى وفَرَغْتُ من تمحيصه وتقليبه حتَّى وجدتُهُ صادقاً كُلَّ الصدقِ ، ظننتُ ، والظنُّ يَكْذِبُ صاحبَهُ ، أنِّى قد بلغتُ مبلغاً يَفْتَحُ لى أبواب الكتابة عن أبى الطيِّب ، بلا عائقٍ ، وأنى إذا أَخذتُ القَلَم والورقَ وجلستُ إلى مكتبى ، فقد فرغت ، فى طرفة عين ، مما كلفنى به أخى الأستاذ فؤاد صرُّوف . وكذلك سوَّلتْ لى نفسى !! لم أكدْ أفعلُ حتى طَارَ من رأسِى كُلُّ ما قرأتُه من شعر أبى الطيب أو من تراجمه ، ومن الكتُب أو المقالات التى كتبت عنه ، وإذا أنا عاجزٌ كُلَّ العجْز عن أن أستجمع فكرى ، وعن أن أعْرِفَ طريقى . وشيئاً فشيئاً أدركتُ حقيقة نفسى ، وأنى حين قَضيت ما بين سنة ١٩٢٦ ، إلى سنة ١٩٣٥ فى القراءة ، كما وصفت ذلك آنفاً ، لم يكنْ يدورُ بخلدى قطُّ أن أكتب بحثاً مطوّلاً ، أو أن أؤلِّفَ كتاباً . وكذلك رأيتنى قد كرهت الأمْرَ كُلَّه ، فوضعتُ القلم ، ونحَّيْت الوَرَق ، وفارقتُ مكتبى ، وذهبتُ إلى أخى فُؤادٍ أبثُّه عُجَرى وبُجَرى ، كما يقال فى / المثل ، أى ما تركتُه من ورائى ، وما أنا مقبل عليه من أمامى ، والذى أمامى هو العجْزُ لا غيرَ . وسدّد الله خُطَى فؤادٍ وأكرمَه ، فإنّه ٥٦ م

أخذنى أخْذَ رَفيقٍ شفيق ، وجعل يُحاوِرُنى ويُدَاورنى ، ويقبضُنى ويَبْسُطنى ، حتى فارقتُه على عزيمة غير التى أتيتُه بها ، وكانت التى أتيتُه بها هو أن يُعْفينى من الكتابة . واسترحتُ أيَّاماً ، ثم فكَّرت فى الأمر تفكيراً جديداً ، يرجعُ فضلُه كُلُّه إلى فؤاد صروف . وعدتُ أقرأ الديوان وحده مرَّة ثالثة حتى فَرغتُ منه ، ورأيتُ أشياءَ جديدة ، لم أكن ألقيتُ لها بالاً فى القراءَتين الأُوليين ، وظننتُ أنى قادرٌ ، وأن الطريق قد استقام وبانت لى معالمُه . وفى هذه المرة أيضاً أعدتُ ترتيب قصائد القسم الأوّل من الديوان ، ترتيباً يختلف بعض الاختلاف عن ترتيبى الأوّل ، على هَدْىِ ما استفدتُه من قراءة تراجم أبى الطيب فى الكتب المختلفة ، وعلى هَدْى ما بَدَا لى من الرأى فى هذه القراءة الثالثة فى شعره .

وأجْمَعْتُ أمرى على الكتابة . وما كدتُ ، حتى اختلط علىَّ الأمرُ مرةً أُخرى ، وحِرْتُ حيرةً طويلة كادت تُودى بعزيمتى ، حتى جاوز الحزامُ الطُّبْيَين ، كما يقالُ فى المثل ، [1] وسوَّلت لى نفسى أن أدع الكتابة بمرّةٍ . وبعد لأْيٍ ما ارتجعت أنفاسى المبهورة ، وعُذْتُ بالسكينة ، وأصررتُ على أن أفعل ، لا حُبًّا فى كتابة ما وقفتُ عليه من الآراءِ ، بل حياءً من فؤاد صرُّوف لا غير .

/ ظللْتُ أيَّاماً أميِّل الرأى بين أساليب الكتابة ، أَيَّها أختارُ وأيَّها أَدعُ . لم يَكُنْ لى أسلوب خاصٌ ، أو طريقٌ ألفتُه وعهدتُه ، فإنى كما قلتُ ، لم أفكِّر قطُّ فى تأليف كتاب أو كتابة بحث مطوّل . ورأيت المؤلفين قبلى فى تراجم الشعراء وغيرهم يكتبون على نهج الدراسة والبحث ، فيذكرون الرجل ومولده ونسبه وأسرته ، وعصره وأخباره ، وشخصيته وآراءه ، إلى آخر هذه السلسلة المعهودة فى كتب المحدثين من الكتاب = أو عن حياة الرجل جملةً ، ثم تفصيل خصائص شعره ، مثلاً ، وبيان أصول المعانى التى امتاز بها فى شعره مفصَّلَة مجموعةً من جملة قصائده كُلِّها — وطرُقٌ أخرى مختلفة ، أَلِفتُ قراءتها ،

٥٧ م

(١) « الطبى » بضم فسكون ، حلمة الثدى من ذوات الخف والحافر وغيرها ، فإذا انتهى الحزام إلى الثديين ، فقد بلغ أقصى غاياته ، فكيف إذا جاوزه ؟

دون أن أتخذ لنفسى رأياً فى تفضيل بعضها على بعض . وخفتُ أنْ يأكُلَ مَرُّ الزمن عزيمتى مرَّةً أخرى ، وأنا واقفٌ أميِّل وأوازنُ بين هذه الأساليب ، فعزمت على البدء فى الكتابة والفراغ منها . إنها عشرون صفحة أو ثلاثون من المقتطف ، فلأكتبها كما يتَّفِقُ لى ، وسَيْلُ المعانى والآراء التى وقفتُ عليها فى شعر أبى الطيب ، كفيلٌ وحده بشقِّ الطريق ! وبدأتُ .

كتبتُ ما يزيدُ على ثلاثين صفحة على ما خيَّلَتْ ، أى على غَرَرٍ وبلا يقينٍ من طريقى ، وقرأتُها أنا وأخى فؤادٌ ، فكاد يأخذها للنشر لأول وهلة . ولكنّى استأنيتُه حتى أعيد النظر فيها مرةً أخرى ، لأنى كنتُ أدَّخر فى نفسى أشياءَ بدت لى فى شعر الرجل ، لم أثبتها فى هذه الورقات هيبة وخوفاً من الزلَلِ ، ومن استنكار الناس لها إن أنَا كتبتُها مجرَّدةً بلا دليلٍ إلاّ / دليل التذوّق . فأخذتُ الأوراق فقرأتها فى خلوتى مرةً وأخرى ، فكرهتها أشدَّ الكراهة ، ومزَّقتُها من فَوْرى . ولما أنبأت فؤاداً بما فعلتُ ، تجهَّم وجْههُ وتبيّنتُ فى تجهُّمه أنه يقول لى : إنى خذلتُه خِذْلاناً جارحاً . وبكى قلبى بكاءً ، فقد أحرجْته إحراجاً غليظاً ، لأنه كانَ قد أُعلنَ فى المقتطف عن قرب ظهور العدد الخاص بأبى الطيب ، فلم أفارقه حتى وعدته بأنى عمَّا قليلٍ مُنجزٌ مِيعادِى غيرَ مُخْلِفٍ ظنَّه . وبدأتُ مرةً أخرى على عجلٍ ، وضمَّنت الأوراق التى كتبتها بعض ما كنت آدَّخرتُه وطويتُه فى المرة السالفة ، وذلك بعد قراءةٍ رابعة للديوان ، ولمواضع متفرقةٍ من تراجم أبى الطيب فى الكتب ، وفرغتُ ، وعرضتُ على فؤادٍ ما كتبتُ ، وكادَ يأخذُه كما فعل أوّل مرّة ، ولكننى عدت فاستمهلته أياماً ، وبعد أخذ وردّ ، أعطانى الأوراق على مضضٍ .

٥٨ م

ودخل علينَا رجُلٌ عظيم القَدْر ، كنت أحبُّه ويحبُّنى . كان يومئذ شيخاً فوق الستين ، كما يقول هو ، وكنت أتوهَّمه فوق السبعين . كان ذكىَّ العينين ، باسم الثغر ، وربَّما غشَّتْ على بَسْمته كآبةٌ دفينةٌ لا تبوحُ إلاّ بهذه الغِشاوة على بَسَمَاتِه . كان فَتِىَّ النَّفْس يشغَلُه دائماً ما يشغَلُه من مَعَارك النقد التى أثارها حول كتابه « معجم الحيوان » ، لا يملُّ ذكرَ ما وقع بينه وبين الدكتور محمد بك شرف الطبيب ، صاحب المعجم الطبى ، وأنستاس الكرملىّ القسّ ، وغيرهما ، ويسرُدُ حججه فى تفنيد أقوالهم كأنه يتلوها عن

ظهر قلب ، وهو الدكتور الطبيب الفريق أمين باشا فهد المعلوف ، من رجالات أسرة المعلوف اللبنانية . وجلسنا طويلاً ، ثم خرجنا معاً ، وكان مسكنه مصر الجديدة / حيث ٥٩ م أَسْكُن . وتجاذبنا الحديث ، فغلبتُه أنا عليه ، وحدثتُه عمَّا أكتبه عن المتنبّى ، وعن حيرتى فيما أكتب ، وعن الجُرح الذى أحدثْتُهُ فى قلب فؤادٍ بتردُّدى مرةً بعد مرةٍ فى تسليم ما كتبتُه إليه لينشره ، ويَفِىَ للقراء بالميعاد الذى حدّده لعدد المقتطف الخاص بأبى الطيب . وفى خلال الحديث ، ذكرت له رأياً لم أكتبه فى هذه الورقات ، وهو أمرٌ كنت أستشفُّه من تذوّق شعر أبى الطيب ، حتى بلغ بى حدَّ اليقين القاطع ، وهو أن المتنبِّى كان يحبُّ « خولة » أخت سيف الدولة ، وفاجأنى الرجل مفاجأة غريبة جدًّا ، فقد أخذَ برأسى وقبّلنى ، ثم أخذ بيدى ، وأبَى أن يُفْلِتها على طول الطريق ، حتى أذْهبَ معه إلى بيته ، وكنّا قد بلغنا مصر الجديدة .

كان يقيم فى شُقَّةٍ بسيطة لطيفة ، واستقبلتنا قَهْرَمانةُ بيته التى تقوم على تدبيره : سيدةٌ لطيفةٌ رقيقةٌ ، أصغر منه سنًّا ، وهى أخته التى ترعاهُ ويرعاها ، وتركنى معها ، وذهب وأتى وفى يده نسخة من ديوان أبى الطيب (بشرح اليازجىّ) ، وفتح الكتابَ ، وإذا على هوامش الجزء الثانى منه فوائد جليلةٌ علّقها على هوامشه ، أكثرها من كتاب « زبدة الحَلَب ، من تاريخ حلَب » ، لابن العديم ، [وكان لم يطبع بعدُ] ، ثم قلَّب الصفحات حتى انتهى إلى قصيدة أبى الطيب فى كافور الإخشيدى (فى ربيع الآخر سنة ٣٤٧) والتى أولها :

فِرَاقٌ ، ومن فارقتُ غَيْرُ مُذَمَّمِ وأَمٌّ ، ومن يَمَّمتُ خيرُ مُيَمَّمِ

وقرأ البيت الأوّل ، ثم قال لى : هذا دليلى على أنّ أبا الطيب كان يحبُّ / « خولة » ٦٠ م أخت سيف الدولة ، فأنا أسبقُ منك فى الوقوف على هذه الحقيقة . ثم قال لى وهو ماضٍ فى قراءة الأبيات الثلاثة الأولى : خُذْ ، يا محمود ، هذا هو الدليل القاطع ! اسمع : [١]

(١) سترى الحديث عن هذه القصيدة فى ص : ٣٥٠ ، ٣٥١ ، فراجعه .

رحلتُ ، فكَمْ باكٍ بأجفان شادِنٍ علىَّ ، وكَم باكٍ بأجفانِ ضَيْغَمِ
وما رَبَّةُ القُرْطِ المَلِيح مَكَانُـه بأجْزَعَ من ربِّ الحُسَام المُصَمِّمِ
فلو كانَ مَابِى مِنْ حبيبٍ مُقَنَّعٍ عَذَرْتُ ، ولكن من حبيب مُعَمَّمِ
رَمَى ، واتَّقَى رَمْيِى ، ومن دُون مَا اتَّقَى هَوًى كاسِرٌ كَفِّى ، وقوْسِى ، وأسْهُمى

واستفاض هذا الرجلُ الكريم فى حديثه عن أبى الطيب وخولة ، وهو يهتزُّ اهتزازَ الأريحيّة ، معيداً إنشاد الأبيات مرة بعد مرَّة . ثم أغلق الديوان وقال لى : خُذْهُ ، وانتفع بما فيه من الهوامش المعلقة ، وامض على بركة الله ! جزاهُ اللهُ خيراً ، فليس بيدى أنا جزاؤُه ، إلاَّ هذا الذكْرَ ، وهو لا شئ فى جانب ما استفدتُه من تعليقاته ، وما أحدث فى نفسى التغييرَ بعد ذلك فى كتابة ما كتبتُ عن أبى الطيِّب . وأَىُّ شىءٍ أعظَمُ أثراً فى النَّفْس ، منْ أن تَجِدَ فجأةً رأياً يؤيِّدك فى رأْيٍ كنت تخافُ إبداءَه والبَوْحَ به ، وإن اختلف طريقُهما فى الاستدلال والاستنباط !!

واستقرَّتْ نَفْسِى استقراراً كاذباً ، فحدثتُ أمين باشا عن الشعر / الجاهلىّ ، وعن طريقى فى تذوُّقه ، وعَرَض ذكرُ امرىء القيس ، فقام من فوره عجلاً ، وجاءنى بكتاب قديم (أُنسيتُ اسمه واسم مؤلفه) ، على الصفحة اليسرى منه نصُّ الكتاب باليونانية ، وعلى اليمنى التى تقابلها ترجمةُ ما فيها بالإنجليزية ، وأخرجَ لى الموضعَ الذى جاء فيه ذكر امرىء القيس وذكر ذهابه إلى قيصر ، وأن هذا يؤيِّد الرواية العربية فى كتبنا . فقلت له : يا سيِّدى الدكتور ، إنى بما فى يدى من الكتب العربية أشدُّ ثقةً ، حتى لا أحتاج إلى مثل هذا الدليل الذى أثبته هذا اليونانىّ ! فأصرَّ على أن يعطينى الكتاب لأقرأهُ ثم أردّه إليه . وقد فعلتُ ، وخرجتُ منه بأنّ الذى عندنا من الرواية العربية ، لا يحتاج فى توثيقه إلى مثل هذا النصّ ، ولكن .... ، ثم رددت إليه عارِيَتَهُ فيما بعد ، جزاه الله ، خيراً ، فقد كان مُحِبًّا للعَرَب والعربية ، ومحبًّا لعشيرته وللسانِ أسلافه ، لم يغيِّر حُبَّه شئٌ مما يغيِّر الناس . أما نُسْختُه من ديوان أبى الطيِّب ، فهى لم تزلْ باقية عندى إلى اليوم ، وعليها تعليقاته ، وزدت أنا عليها تعليقات بخَطِّى ، مما قرأته فيما بعد .

٦١

* * *

عُدْت إلى بيتى بعد هذا اللقاء الذى فجَّرته المفاجأة ، وبين جنبىّ نفسٌ تموجُ كمَوْج البَحر تلاطمتْ أثباجُه . كنا فى العشر الأوائل من شهر رمضان سنة ١٣٥٤ (أوائل ديسمبر سنة ١٩٣٥) ، وجَهَدتْنى الهزَّاتُ المتتابعةُ التى أخذتنى أَخذاً عنيفاً فلم تُفْلِتْنى أَيَّاماً متعاقبة ، والذى لقيتُه / منها = معَ جَهْد الصَّوْم ، وقلق النَّوم ، وقلة الرَّاحة ، وغوائل الحيرة = كانَ غَرَاماً وعذاباً ، والعجبُ أن عزيمتى على الكتابة كانت تزدادُ قوَّةً وشراسةً ومضاءً ، وأنا أُردِّدُ فى خَلْوتى بصَوت مرتفعٍ مرةً بعد مرة ، قَوْل سعد بن ناشبٍ المازنىّ يصف نفسَهُ ، وهى نفس « أخِى غَمَرَاتٍ » لا يبالى بما هو مقدمٌ عليه :

٦٢ م

إذا هَمَّ لم تُرْدَعْ عزيمةُ هَمِّهِ ، ولم يأْتِ ما يأتِى من الأَمْرِ هائبَا
إذا هَمَّ ألقَى بين عينيه عَزْمَهُ ، ونَكَّبَ عن ذِكْرِ العواقبِ جانبَا

ومرَّ نحو أسبوعٍ وأنا لا أجد إلى هُدُوءِ نَفْسِى مَنْفَذًا ، وأخذتُ ديوان أبى الطَّيِّب مرة خامسة ، أقرؤه لا أتوقَّفُ ولا أملُّ ولا أهدأ ، وأنا فى خلال ذلك أراجعُ كُلَّ ما فى تراجم أبى الطيب وبعض كتب التاريخ والرجال وغيرها ، تبعاً للخواطر التى تنشأ وأنا أقرأ الأبيات أو القصائد . وفى فجر الثانى عشر من شهر رمضان صلَّيتُ ، فلما جئت آوِى إلى فراشى ، طار النومُ من عينىَّ ، ومع طيرانه تبدّد القتامُ الذى كان يَلُفُّنى ، وذهب التَّعَبُ وما لقيتُ من النَّصَب ، وتجلّى لى طريقٌ بانَ لى كأنى سلكتُه من قبل مرَّاتٍ فأنَا به خبير ، وأخذتُ الأوراق التى كنتُ كتبتُها واستمهلْتُ فؤاداً فى مراجعتها ، فمزَّقْتُها وأنا على عجلةٍ من أمرى ، ونبذتُها فى صندوق القمامة ، وأَعددت أوراقِى ، وجَلست على مكتبى ، وأخذْت قلمى ، وسميتُ بذكر الله ، وكتبتُ فى جانب من الصحيفة الأبياتَ الثلاثةَ التى تراها فى أوَّل هذا السفر [ص : ١٣٧] ، والتى أوَّلُها :

/ أَنَا آبنُ مَنْ بَعْضُه يَفُوقُ أَبَا الباحثِ ، والنَّجْلُ بعضُ مَنْ نَجلَهْ

٦٣ م

ومضيتُ أكتب ، كأنّى أسطِّر ما يُمْلَى علَّى ..... لا حيرةَ ، ولا بَحْثَ عن أُسْلُوب وطريق ، ولا تردُّدَ ، ولا هيبةَ لشىءٍ ، ولا تحرُّجَ من غَرَابةِ ما أقولُ وما أكتب . وفرغتُ من الفَصْلِ الأوَّل الذى تراهُ هنا [ص : ١٣٧ - ١٦١] ، وأصبح صباح الثالث عشر من

شهر رمضان ، وأخذتُ أُهْبَتى ، وفارقتُ بيتى ، وقطعتُ الطريقَ إلى دَار « المقتطف » ، ودخلتُ على فؤادٍ ، فلقينى كالمتجهِّم ، فسلّمت ولم أُكَلِّمه إلا قليلاً . فنظر فى هذه الأوراق القلائل التى لا تزيدُ على عشر ورقاتٍ !! ثم رفع إلىّ بَصَرَهُ وازدادَ تجهُّمه ، وقال : ما هذا ؟ فقلت : ادْفع بها إلى المَطْبعة ! فازداد تجهُّمه ، ولكنَّه رجُل حليمٌ جمُّ الأناةِ ، فسكت ، وبدأ يقرأ ما كتبتُ ، وظللتُ أراقبُه ، وهو مستغرقٌ ، وجَهامته تنقشع شيئاً فشيئاً ، ولم يكد يفرغُ حتى أشرقَ مُحَيَّاه إشراقاً ، وتهلّلتْ أساريرهُ ، واستنار الذى كان بينى وبينَه مُظلماً ، وأخذنى فشدَّ على يدِى . ثم التفتَ وطلب مجيء عم « عبد الرزّاق » رئيس المطبعة ، وجُمعت الصفحة الأُولى ، واخترنا لها صورتها التى هى عليها ، كما تراها فى أوّل فصلٍ . وبقيت فى دار المقتطف إلى قبيل المغرب ، أصحِّح ما يُجْمع من الصفحات ، ودارت المطبعة ، وهكذا دواليك يوماً بعد يوم ، حتى كان اليوم الأخير من شهر رمضان . تمَّ كُلُّ شىء ، وظهر عدد المقتطف فى السادس من شوال سنة ١٣٥٤ ، (أول يناير سنة ١٩٣٦) ، ولم يكنْ من نَصيبى أن أُمسك بيدِى أوَّل نسخةٍ منه ، لأن أبا الطيّب أراد أن يكافئنى ، / فعجَّل مكافأتى على أثر الفراغ من الكتاب بالحُمَّى التى ٦٤ م ركبته فى أواخر أيامه بمصر ، فكانت تغشاه إذا أقبل الليل ، وتنصرف عنه إذا أقبل النهار بعرقٍ ، وتركنى أقول لها يوماً بعد يوم كما قال هو لحمّاه :

أَبِنْتَ الدهر عندى كُلُّ بِنتٍ ، فكيفَ وصلتِ أنتِ من الزِّحام !!

* * *

حين تبدّد القتامُ الذى كانَ يلُفُّنى ، تجلَّتْ لعينىَّ صُورةٌ واضحة كُلَّ الوضوح ، كأنى أخذتُ كتاباً مسطوراً ، فقرأتُه كُلَّه بنظرة واحدةٍ قبل أن يرتدَّ إلى طَرْفى . وهذه ليست مُبَالغةً ، ولكنها حقيقة مجرّدة ، أَلِفتُها بعد ذلك وعرفتُها مرَّاتٍ ، وأظنُّ أنّ كثيراً من الكُتَّابِ غيرى قد ألفها مرَّاتٍ كما ألفتُها . وقبلَ كُلِّ شىء ، فاعلم أنى إنما أَقُصُّ هنا قصَّة هذا الكتاب كما كانت ، وأسجِّل تجربتى الأولى فى تأليف كتاب ، ملتزماً بالصدقِ ، متجنِّباً للمبالغة رغبةً فى حُسْنِ التصوير .

حين قرأتُ ديوان أبى الطيب مَرّات ، وحين قرأت تراجمه التى بين يدىّ ، وما تجمّع عندى من أخباره وأخبار عصره وأخبار من لقيهم أو مدحهم من الناس = كانت خُلاصةُ ما انتهيتُ إليه أمران :

الأول : أنّى إذا قرأت تراجمه وأخباره وما كُتب عنه ، رأيتُ رجُلاً عاش حياةً غامضةً مضطربة متناقضةً لا استواءَ فيها ، يعسر فهمُها على وجهٍ صحيحٍ .

/ والثانى : ثم إنِّى إذا قرأتُ شعرهُ جملةً واحدة ، متذوِّقاً لكَىْ أرى صُورةَ حياته التى يدلُّ عليها شعره ، رأيت صورةً أخرى لرجل آخرَ ، حَرَكةُ وجدانه فيها واضحةٌ كُلَّ الوضوح ، ولكن صورة حياته هو غامضةٌ كُلَّ الغموض . ٦٥ م

ولذلك ، فقد كنتُ ملفوفاً فى قَتَامٍ مغبَرٍّ ، لا أسيرُ خُطوةً حتى أدخُل فى قتامٍ أشَدَّ غُبْرةً . فلما تبدّد عنّى فجأةً هذا القتام ، كان عَمُودُ الصُّورَة واضحاً كُلَّ الوضوح . إلاَّ أَنّ عمودَ هذه الصورة لم ترسُمْه تراجم المتنبّى وأخبارُه الكثيرة ، بل رَسَمها وحدَّدها تذوُّق شعره ، واستنباطُ معانيه ، ودلالته على شخصيَّة أبى الطيب ، فكانت هى المهيمنةَ على أخباره الكثيرة ، تزيِّف منها ما تزيَّف ، وتصحِّحّ منها ما يصحّ ، وتجلُوها جِلاءً جديداً يجعلها قادرة على أن تجعل حياته واضحةً جليَّة مستويةً . وبذلك صار ما صحَّ من هذه الأخبار بعدئذٍ ، قادراً هو أيضاً على أن يجعل حَركة وِجْدانه فى شعره أشدَّ ظهوراً ، ويجْعَل صورةَ حياتِه التى يدلُّ عليها تذوُّق شعره أدنى إلى الوضوح وأبعدَ من الغموض ، وأقْدَر على الالتحام بصورة الحياة التى يدلُّ عليها ما صحَّ من هذه الأخبار . فكذلك كان هذا الكتاب الذى بين يديك ، هو الصُّورةَ الحيّةَ لأبى الطيب ، كما رأيتُها وعاشرتها ، وشَقِيت أنا بها ، وشقيتْ هى بى أيضاً ، فيما أظنُّ !

* * *

/ عمود صورة المتنبى

٦٦ م

وإذا كانَ ذلك كذلك ، فينبغى إذنْ أن أبيِّن « عمود الصورة » الذى بُنِى عليه هذا الكتاب ، كيف جاءَ وكيف تمَّ . فهذا هو « عمود الصورة » التى يتخلَّق من حوله تخطيطُها ومعارفها وقَسِمَاتها ، والذى تكمُن فيه شخصيّةُ أبى الطيب منذ مولده بالكوفة ، ثم تنمو سنةً بعد سنةٍ على مرِّ الأيّام والأحداثِ ، فتُفْصِح هى عنه ويفصح هو عنها ، بعد أن صار شاعراً تراهُ يغدُو بها ويروحُ حتى يفارق الحياة .

١ — غلامٌ « عَلَوىٌّ » النسب ، يولدُ بالكوفة سنة ٣٠٣ ، ويقيم بها حتى يصير فتى ، إلى أواخر سنة ٣٢٠ . [انظر من ص ١٣٧ — ١٩٨] .

٢ — خرج إلى الشام ، وفى باديتها أظهر أنه « علوىُّ النسب » ، فقُبِضَ عليه وسُجِن ، وأقام بالسجن فى أواخر سنة ٣٢١ ، إلى سنة ٣٢٣ ، وهذا معناه : إبطال « النبوّة » التى زعموها فى الأخبار . [انظر من ص ١٩٩ — ٢٣٦]

٣ — خروجه من السجن ورحلته بعد ذلك فى الشام منذ سنة ٣٢٣ ، وعودته إلى الكوفة سنة ٣٢٥ ، ورجوعه إلى الشام مرةً أخرى فى سنة ٣٢٦ ، حتى سنة ٣٣٦ . (١) [انظر من ص ٢٣٧ — ٢٩٤]

٤ — / أول لقائه بأبى العشائر الحمدانى ، ثم لقاءُ سيف الدولة ، من سنة ٣٣٦ إلى سنة ٣٤٦ . [انظر من ص ٢٩٥ — ٣٣١]

٦٧ م

٥ — حبُّ « خولة » أخت سيف الدولة ، ثم فراقه سيف الدولة إلى مصر من سنة ٣٤٦ إلى سنة ٣٥٤ ، وكانت فيها وفاته . [انظر من ص ٣٣٣ — ٣٥٦]

---

(١) لم نكن نعرف يومئذ أن أبا الطيب رحل من الشام إلى مصر فى سنة ٣٣٥ ، فهذا خبر جديد جدا ، أوقفنا عليه ابن العديم فى ترجمته رقم : ٤ ، ورقم : ٦٦ . والمقريزى رقم : ١٧ .

٦ – مجيئُه إلى مصر ، وبقاؤه عند كافور الإخشيدى ، ثم فراره من مصر ، ورجعتُه إلى الكوفة ، ثم إلى فارس عند ابن العميد وعضد الدولة ، ثم مقتله = من جمادى الآخرة سنة ٣٤٦ ، وخروجه من مصر يوم عرَفة (٩ من ذى الحجة) سنة ٣٥٠ ، ثم دخول الكوفة سنة ٣٥١ ، ثم سائر رحلته إلى يوم مقتله بالعراق عائداً من فارس فى ٢٧ من شهر رمضان سنة ٣٥٤ . [انظر من ص ٣٥٧ – ٣٩٢]

٧ – شخصيَّة أبى الطيّب : منذ كان بالكوفة طفلاً ، ثم صبيًّا ، ثم فتىً يعرفُ طرفاً من أنه علوىُّ النَّسب ، ولكنه مرغمٌ على كتمان هذا النسب . ثم ثورةُ نفسه واضطرامها فى هذه المدة ، ثم يفارق الكوفة إلى الشَّام ، فينفِّس عن ثورته بإظهار علويته ، فيقبض عليه العلويون ويحبسونه ، فييأسُ من أمر علويته ، فتنقلب هذه الثورة إلى ثورةِ عربىٍّ ثائرٍ لعربيته على حكم الأعاجم الذين يسيطرون على دولة الخلافة كُلِّها ، فيظل بقية حياته إلى أن يموت ، تحرِّكه هذه الثورة لعربيّته ، فأفصحت هذه الثورة / عن نفسها ، وأفصحَ هو عَنْها فى أبيَاتٍ كثيرةٍ من شعره ، وأَفصحتْ هى عن نَفْسها بأساليب مختلفةً : فى تركه مدح كثيرٍ من رجالات زمانه ، ممَّن التفَّ حولهم غيرهُ من الشعراء ، كالخلفاء فى زمانه [انظر هذا ص : ٧٣] = أو فى حركة وِجدانه التى يحدِّدها تذوُّق شعره على مَدَى أربعين سنة ، من سنة ٣١٤ ، إلى مقتله سنة ٣٥٤ : تخبو حيناً إذا لم يكن له فى الذى يمدحه رجَاءٌ يرضى هذه الثورة العربية الكامنة فى نفسه ، وتتألَّق حيناً آخر تألُّقاً ظاهراً حين يكون له فى ممدوحه رَجاءٌ يحرِّك هذه الثورة أو يُدْنى

٦٨ م

من بلوغ آماله فيها . هذا جانبٌ من شخصيّة أبى الطيب الذى أظهره تذوُّق الشِّعر وبعض الأخبار .

٨ – أمَّا الجانب الآخر من هذه الشخصية ، وهى العواطف التى لا يخلو منها بشر ، كحبِّ الأب والأمّ والجدّة ، وحبِّ الزوجة ، وحبِّ الوَلَد والعيال ، وحُبِّ امرأة بعينها يغلبُ حبَّ هؤلاء جميعاً وينفردُ بسلطانه على النَّفس = فقد استعلن حب الوالدين فى حبِّه لجدَّته كما استظهرته بتذوّق الشعر وبعض الأخبار فى مواضع متفرقة من الكتاب = واستعلن حب الزوجة والولد والعيال ، كما تذوَّقته من شعره [انظر ص : ٣١٨ ، ٣١٩] = واستعلن حب المرأة فى حديثى عن « خولة » أخت سيف الدولة ، كما تذوَّقته فى مواضع متفرقة من شعره ، وإن لم يكن فى أيدينا عنه خبرٌ البتة .

* * *

/ الفقرة الأُولى والثانية

م ٦٩

أما الفِقْرة الأُولى من « عمود الصورة » ، والتى تتضمَّنُ القول بأن أبا الطيب « علويٌّ » النسب ، والفقرة الثانية التى تتضمَّن القول بإبطال دعوى « النبوّة » وأن « المتنبِّى » لقبٌ لا غير ، [1] فهما متداخلتان . والقول بأن « المتنبى » علويُّ النسب ، قولٌ لم يسبقنى إليه أحدٌ من القدماءِ ولا المحدثين ، ولا جاء به خبرٌ يدلُّ عليه ، أو يعينُ على افتراض هذا الفرض من قريبٍ أو بعيد . فكيف جاءَ إذن ، وكيف صارَ جزءًا من « عمود الصورة » ، لا بل هو الصورة كُلُّها ، فإذا فُقِد بطلت فِقَار « عمود الصورة » جميعاً بُطلانًا كاملاً ؟

فى خلال تذوُّقى شعرَ أبى الطيب ، فى القراءة الأُولى والثانية والثالثة ، استرعَى انتباهى أمرٌ غريبٌ جدًّا ، لم أجدْ لهُ تفسيراً قطُّ فى أخبار أبى الطيب . وأبو الطيِّب كُوفىٌّ ،

---

(١) انظر ما سيأتى فى ترجمته للربعى رقم : ١ ، ولابن العديم ، رقم : ٩ ، حيث روى خبراً عن المتنبى نفسه ، فى سبب تلقيبه بالمتنبى ، وهو خبر جديد لم يقع فى أيدى الناس من قبل .

والكوفة يومئذ دارٌ من ديار العلويين يكثرون بها ، فلم يكن غريباً ولا عجيباً أن تكون القصيدة الأولى فى الديوان (وعدد أَبياتها : ٤٣ بيتاً) = هى الأولى ، لأن قبلها مقطوعتان ، أُولاَهما ثلاثةُ أبيات ، والأُخرى بيتان . وقد نصَّ الديوان على أنها مما قال فى صباهُ = قالها يمدحُ بها رجلاً « علويًّا » هو « محمد بن عبيد الله العلويُّ » ، قالها فيما استظهرت سنة ٣١٨ : قبل خروجه من الكوفة ، [انظر هذا ص : ١٥١ ، ١٥٢ والتعليق فيهما] ، ٧٠ م وبتذوُّقها رأيتُ أنّه من لِدَات أبى الطيب ، وأنه كان يحبُّه ويجلُّه ويحفظُ له ما أسدَى إليه من معروف أو صنيعةٍ . لم يشغلنى ذلك كثيراً ، فلما انتهَيْتُ فى تذوّق إلى ما قاله فى سنة ٣٣٦ ، حين قَدِمَ على ابن طُغْجٍ بالرملة ، فقال له : إنى لفظتُ الناس لما بلغتُك ، لَفْظَ المسافرِ حُثالةَ زادِه ، إذا نَزَل أرضاً كثيرةَ الخَير موفورتَهُ :

وفارقتُ شرَّ الأرضِ أهلاً وتُربةً   بها « عَلوىٌّ » جدُّه غير هاشمِ

أى أن الرجل الذى فارقه دعيٌّ من الأدعياء لا علوىّ ، فاستوقفنى ذمُّ هذا « العلوىّ » ذمًّا صادراً من نفسٍ جريحةٍ ، ثم لم أكد أمضى فى قراءة المقطوعات بعد هذه القصيدة ، حتى رأيت شراح ديوانه يذكرون أن آبن طُغجٍ ظَلَّ يحاور أبا الطيب ويداوره ويرجوه مرة بعدَ مرةٍ أن يقول قصيدة يمدح بها صاحبه : « أبا القاسم طاهر بن الحسن العلوىّ » ، فبعد لأْيٍ ما استجابَ له أبو الطيب ، وقال يمدح هذا « العلوىّ » ، ولكنه يذْكُر فى هذا المدح ذمًّا قبيحاً ذمّ به ذاك « العلوىّ » ويفسِّر سببَ ذمِّه ، فيقول قبل أن يدخل فى المدح :

أَتَانِى وعيـدُ الأَدْعِيـاءِ وأنهم   أعدُّوا لى السُّودانَ فى كفر عاقبِ
ولو صدقوا فى جَدِّهم لَحَذِرْتُهم   فَهل فىَّ وحدِى قولُهم غَيْرُ كاذبِ ؟

فليس إذن ، « علويًّا » واحداً ، بل « علويّون » ، أَرصدوا له فتياناً شداداً سُوداً ليقتلوه عند مروره بكفر عاقب ، فى طريقه إلى آبن طُغْج ، ثم أبيات أخرى كثيرة [انظر هذا ص : ١٥٣ – ١٥٨] ، فوجدتُ ههنا شيئاً مناقضاً للذى وَقَرَ فى نفسى منذ أوّل الديوان . ثم

انطلقتُ حتى فرغتُ / من تذوق الديوان ، ولم أر للعلويين بعد ذلك ذكراً صريحاً فى شِعره . ٧١ م

فلما عزمت على جمع أخبار أبى الطيب وقراءتها كما قلت آنفاً ، [ص : ٤٠ ، ٤١] ، وأخذتُ رسالة أستاذنا عبد العزيز الميمنى الراجَكوتى ، [انظر ما سلف ص : ٣٨ ، تعليق ١] وهى « زيادات ديوان شعر المتنبّى » دلَّنى على ترجمة لأبى الطيب فى خزانة الأدب للبغدادى [١ : ٣٨٢ وما بعدها] ، فاستوقفنى قول الأصفهانىّ الذى قال فى ترجمة أبى الطيب : « إن مولد المتنبى كان بالكوفة ، فى مَحِلّة تعرف بكندةَ .... واختلف إلى كُتَّابٍ فيه أولاد أشراف الكوفة ، فكان يتعلَّم دروس العلويّة لغة وشعراً وإعراباً » ، [(1)] فأيقظ هذا الخبر ما كان خافياً فى نفسى من أمر الملاحظتين السابقتين وتناقضهما . ووجدتُه أمراً ملحًّا أن أطْلُب فى تراجم أبى الطيب ، وفيما قدَّم به لبعض قصائده ، ما يكونُ من ذكرٍ للعلويين ، أو للكوفةِ . وفى هذا الطلب وجدتُ بعض الروايات التى تحدّثنا عن أبى الطيب ، وعن نشأته ، وعن أبيه « عِيدَان السَّقَّاء » ، وعن « نبوّته » يُرْوى عن رجال من العلويين والهاشميين . ووجدت أيضاً أنّ الذى قبض عليه وسجنه علوىٌّ أو هاشمىّ ، وأشياء أخرى متنوِّعة . فساورتنى الرِّيَب ، والتمست تفسيراً لهذا كُلِّه . ثم وجدتُ فوق ذلك أن بعضَ الذى يروى هذه الأخبار عن العلويين ، كان علوىَّ الهوى أيضاً ، ومضيتُ أستقْصِى وأُفَلِّى ، وأتذوق الأخبار ، وأتذوّق الشعر مرةً بعد مرةٍ ، لعلّى أجد شيئاً يهدينى إلى علاقة هذا الكوفىّ الشاعر ، بالعلويين الذين كانت ديارهم هى الكوفة مسقط رأسه ، وفيها منشئوه إلى أن جاوز السابعة عشرة .

/ وبعد تردُّدٍ طويل وحيرةٍ ، بين دلالة تذوّق الأخبار ، ودلالة تذوُّق الشعر ، لم أجد مناصاً من أن أفرضَ فرضاً يزولُ به هذا الغموض الذى يكتنف حياة هذا الشاعر ، ويرفع اللثامَ عن مكنون شعره الذى دلَّنى عليه التذوق . وأخذتُ هذا الفرض ، وعرضتُ عليه شعر أبى الطيّب كُلَّه متذوّقاً متأنّياً ، فَلاَن لى عصيُّه واستقام مُعْوَجُّه ، وأسفَر ٧٢ م

---

(١) انظر تصحيح نص هذا الخبر فيما يلى ص : ١٦٧ ، تعليق : ١ .

كُلُّ ما كان عليه نقاب وحجابٌ ، وتحرَّك كلُّ ما تذوَّقته من شعره ، وتحرَّكت معه أخباره . فعندئذ بلغتُ حدَّ القَطْع بأن أبا الطيب « علوىّ » النسب فرضاً يشبه الحقيقة !! والفضلُ فى ذلك كُلِّه لخبر الأصفهانى الذى ذكر فيه « أولاد أشراف الكوفة » . وقد قامَ « عمود الصورة » كلها ، كما رأيت ، على هذا الذى ادَّعَيتُه ، وليسَ فى يدى شىءٌ غير لفظ الأصفهانىّ ، ثم دلالات شعر أبى الطيب . وكذلك أعملتُ هذا الفرضَ الجرىءَ الذى لا سابقَ لَهُ عند أحدٍ ممن كتب عن أبى الطيب ، وجعلتُه محورَ حياته كُلِّها إلى أنْ قُتِل ، فكنتُ أوّل من شكَّ فى نسب أبى الطيب الذى رواه الرّوَاة ، ولكنّى لم أقف عند الشكِّ المجرَّد ، كما ذهب إليه من قلَّدنى ، [1] بل أبنتُ عن علّة الشكّ ، لأُثبت مكانَهُ حقيقةً أخرى ، دلَّنى عليها شعرُه ومواقفه فى حياته كُلِّها ، مما كان له ارتباطٌ وثيق بعلَّة الشكِّ .

وظهر كتابى بعد ذلكِ ، واستنكر علىّ كثيرٌ من الناس ما قلتُ ، حتى أستاذى الرافعىّ ، فإنه تردَّد فى قَبولِه ، ولكنّه لم يستطع أن يجدَ حُجَّةً تردُّ قولى ، كما أخبرنى بذلك ، بعد أن كتب كلمته عنه فى الرسالة [هذا ص : ٥٧٧] ، وقال لى : إنّى لم أستطع أن أذكر « علوية » أبى الطيّب صراحةً ، وقنعتُ بأن أقول إن روح أبى الطيب كانت تلازم الكاتب : « تدلُّه فى تفكيره ، وتوحى إليه فى استنباطه .... وتبصِّرُه أشياءَ كانت خافيةً وكان الصدقُ فيها ، ليردّ بها على أشياء كانت معروفة وكان فيها الكذب » ، وقال : أليس هذا كافياً ؟ هذه موافقةٌ على رأيك ، وفيها توثيقٌ متلفِّعٌ بالحذَر ! وليت الرافعىَّ لم يحذَرْ !

٧٣ م

فقد مضت الأعوام من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٥٨ ، وقد نسيت المتنبّى وأهملتُ كُلَّ ما كتبته عنه ، وذات يومٍ دخَل علىَّ يتهلَّل وجْهُه ، وتنيرُ أساريرُهُ ، صديقى وتلميذى ، وأستاذى فيما بعد ، الأستاذ أحمد راتب النفاخ ، وهو اليوم عضو مجمع اللغة العربية بدمشق ، ومدَّ إلىّ يده بورقات مكتوبة بخطّه (١٢ ورقة) ، نقلها عن ظهر نسخة

---

(١) هو الدكتور طه حسين ، كما سترى فى هذا الكتاب ، وانظر ص : ١١٣ ، س : ٥ – ٩ .

مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية من كتاب « الإبانة عن سرقات المتنبى » ، لأبى سعد محمد بن أحمد العَمِيدىّ (توفى سنة ٤٣٣ هـ) ، ونقلها ناسخ النسخة من تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٩٩ – ٥٧١ هـ) وقال فى أولها : « هذه نبذةٌ من أخبار أبى الطيب المتنبّى رحمه الله تعالى ، مما أورده ابن عساكر فى ترجمته » ، ومجرّد وجود ترجمة للمتنبى منقولة عن تاريخ دمشق لابن عساكر ، كنزٌ لا يقدّر ، لأن تراجم الأحمدين (أى من يسمَّى أحمد) ، مفقودة من جميع مخطوطات تاريخ دمشق ، وقد نشرتُها فى آخر كتابى هذا بعنوان « أربع تراجم للمتنبى » .

/ أمَّا المفأجاة التى ملأت نفس أخى بشراً ، وأنارتْ أساريرَهُ بشاشةً ، والتى هزّتنى فأيقظَتْ ما مات بالإهمالِ من أمر المتنبى ، فهو ما نقله ابن عساكر عن أبى الحسن الرَّبَعِىِّ صاحب أبى الطيب فقال : ٧٤ م

« الذى أعرفُه من نسب المتنبّى أنه : أحمد بن الحسين بن « مرة بن عبد الجبار الجُعْفِىّ ، وكان مولده بالكوفة سنة ثلاث وثلثمئة ، وأرضعتْه امرأة علويةٌ من آل عبيد الله »

[ترجمة ابن العديم رقم : ٣]

وكانت مفاجأة مذهلة ! [(١)] ومضت أعوام بعد ذلك ، وفى سنة ١٩٦٢ ، فيما أذكر ، تلقيت أيضاً من أخى الكريم أحمد أوراقاً مصورة من كتاب ابن العديم (٥٥٨ – ٦٦٠ هـ) « بغية الطلب » من نسخة بخط ابن العديم نفسه ، محفوظة بمكتبة أحمد الثالث بالقسطنطينية ، وهى من الجزء الأول ، وفيها ترجمة أبى الطيب (من الورقة ٢٥ إلى الورقة ٥٢ ، إلا الورقة رقم ٤٤ ، فهى بياض بالأصل ، أى اثنتان وخمسون صفحة) ، وهى أطول ما عندنا من تراجم أبى الطيب ، وقد نشرتها فى آخر هذا الكتاب فى « أربع تراجم للمتنبى » .

فكانت لى فى هذه الورقات مفاجأة أخرى ، بل مفاجآت أخرى كثيرة ، لأنها تتضمَّن ، قبل كُلِّ شئ ، توثيق ما جاء فى ترجمة ابن عساكر المسطورة على ظهر كتابٍ ، توثيقاً يرفعُ كُل ريبة ! قال ابن العديم :

(١) بل ستأتى مفاجأة أعظم ، وهو نص كلام المتنبى عن نفسه فى الترجمة الأولى المنقولة من نسخة من شرح الواحدى على ديوان المتنبى .

« أخبرنى صديقنا أبو الدُّر ياقوت بن عبد الله الرومى ، مولى
« الحمويّ البغدادى قال : رأيت ديوان أبى الطيب المتنبّى / ٧٥ م
« بخط أبى الحسن علىّ بن عيسى الربَعِىّ ، قال فى أوّله :
« الذى أعرفه عن أبى الطيِّب أنه : أحمد بن الحسين بن
« مُرّة بن عبد الجبار الجُعْفِىّ ، وكان يكتُم نَسبه ، وسألته عن
« سبب طَيِّه فقال .... وهذا الذى صحَّ عندى من نسبه ،
« قال : واجتزتُ أنا وأبو الحسن محمد بن عبيد الله
« السَّلامىّ الشاعر ، على الجسر ببغداد ، وعليه من جُملة
« السُّؤَّال رجلٌ مكفوفٌ. فقال لى السَّلامى : هذا المكفوف
« أخو المتنبِّى ! [1] فدنوتُ منه فسألته عن ذلك فصدَّقه ،
« وانتسب هذا النسب وقال : « ومن هنا انقطع نسبُنا » .
« وكان مولده بالكوفة سنة ثلاثٍ وثلاثمئة ، وأرضعتْه
« امرأة « علويةٌ » من آل عبيد الله » . [سيأتى فى ترجمة ابن العديم رقم : ٨]

وإذَنْ فالفرض الذى افترضتُه ، والذى استثارهُ خبرٌ لا يعينُ ظاهرُ لفظِه ، إذا انفرد ، على مثل هذا الفرض ولا يوجِّه إليه ، وهو قول الأصفهانى : « واختلف [يعنى أبا الطيب] إلى كُتَّابٍ فيه أولادُ أشراف الكوفة » ، = لم يكنْ جُزافاً محضاً ، كما قال لى يومئذ مواجهاً ، أحد الأساتذة الذى / كتب بعدى كتاباً عن المتنبِّى صدر بعد كتابى بأشْهُرٍ ، وعارضنى فى كتابه متجاهلاً لما كتبتُ ، فلم يذكرنى إلا مرَّةً واحدةً فقال ٧٦ م

(١) أخو المتنبى لم يذكره أحد من مترجمى المتنبى ، لا قديماً ولا حديثاً بلا شك ، فهذه مفاجأة أخرى . ثم وجدته مذكوراً فيما بعد فى تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى الأول : ١٩٥ من خبر مروى عن أبى الحسن محمد بن يحيى الزيدى العلوى .

عَنِّى : « كاتب المقتطف » . (١) لم يكنْ جُزَافاً ، بل كان دليلاً على أنّ منهجى الذى انتهجته منذ قضيّة الشعر الجاهلىّ ، فى قراءة الشعر وتذوُّقه ، وجَعْلِه مهيمناً على الأخبارِ ، كما قلت آنفاً = كان منهجاً مستقيماً ، لا فى دراسة الشعر فحسب ، بل فى نقد الأخبار أيضاً ، وإدراك دلالتها على فساد نيّة رُواتها أو سلامة هذه النية ، كما تراه مفصَّلاً فى كتابى هذا !

أمّا هذا النصُّ المفاجىء ، فهو صريحُ الدلالة على عُمْق علائق أبى الطيب بالعلويين منذ كان رضيعاً بين حرائر نسائهم اللواتى أرضعنه ، أو أرضعته إحداهنّ ، إلى أن نشأ وتعلم فى كتّاب فيه أولادُ العلويين الأشراف ، إلى أن صار فتًى فى الخامسة عشرة ، يمدحُ علويًّا ، من آل عبيد الله أيضاً ، كما رأيت . هذا النصُّ هو الذى نصَر فرضى نصراً مؤزَّراً ، وألحقه بالحقيقة المقررة ، كما توقع الأستاذ فؤاد صروف فى مقدمته .

وإذنْ ، فالمتنبِّى ، الذى وُلِد بالكوفة ، دار العلويين ، واختلفَ إلى كُتَّابٍ فيه أولاد أشرافها العلويين = إلاّ يكن « علوىَّ » النسب من أنفسهم صَلِيبةً ، فهو « عَلَوىٌّ » ، رَضاعاً ، (٢) أى هو أخوهم من الرضاع ، والرِّضاع لُحْمةٌ كلحمةِ النسب ، ولذلك حرَّم الله به ما يحرِّم النسبُ . وكذلك يكونُ / بعد ذلك عجباً من العجب : أن يكون أوَّلُ شعره ، وهو فى الخامسة عشرة من عمره منبئاً عن حُبٍّ ظاهر لِتِربِه « محمد بن عبيد الله العلوىّ » وللعلويين جميعاً ، فهو : ٧٧ م

خيرُ قريش أباً وأمجدُها ، أكثرُها نائلاً وأجْوَدُها
تاجُ لؤىٍّ بن غالبٍ ، وبه سما لَهُ فرعُه ومَحْتِدُها
قد أجمعتْ هذه الخليقةُ لى ، أنَّك ، يا آبن النبىِّ ، أوحَدُها

(١) هو الأستاذ عبد الوهاب عزام ، صاحب كتاب : « ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام » .

(٢) قد فوجئت ، كما قلت ، بنص المتنبى نفسه على المرأة التى أرضعته ، انظر التعليق السالف ص : ٥٥ .

وأَنَّكَ ، بالأمسِ كنتَ محتلِماً ! ، شَيْخُ معدٍّ وأنتَ أمْرَدُها [(١)]

= ثم تدلُّنا الأخبارُ بعد ذلك عن تمنُّعه وتحرُّجه من مدح علويٍّ آخر فى سنة ٣٣٦ !! لا ، بل فى إصراره على أن يعرِّض ببعض العلويين الذين أرادوا قَتْله بكفر عاقب ، ويسمِّيهم « الأدعياء » ، ثم يرمى بهذا كُلِّه فى وجه العلوىّ الذى اضطرّه ابن طغج إلى مدحه ، كما أسلفت . لا ، ليس هذا فحسبُ ، فإن المتنبى يومئذ لم يبلُغ من الشهرة مبلغاً (سنة ٣٣٦) ، ومع ذلك فإن هذا الشريف العلوىَّ يتلقّاه بعد تمنُّعه ، فيقوم له عن مجلسه أمام الناس ، ويُجلِسُه ويجلِسُ هو بين يديه يسْمع هذا الشعرَ ، حتى عجب الناسُ مما فعل من فعلٍ / غير معهودٍ ، ثم يجزِلُ له العطاءَ ، ويقولُ أحد شهود هذا المجلس : « ما رأيتُ ولا سمعتُ أن شاعراً جلس الممدوح بين يديه مستمعاً لمدحه غير أبى الطيب » ! هذا كُلَّه عجبٌ يستخرجُ دهشة المتأمّل .

٧٨ م

= لا ، بل إن ابن العديم نفسَهُ ، أيّدَنى فى نقد الخبر رقم : ٦٧ [انظر ص : ٦٧٥] ، فقال : « وسنذكر فى ترجمة طاهر بن الحسن بن طاهر ، حكايةً عن الخالديين ، (قلت أنا : كانا صاحبين للمتنبى ، وهو مع سيف الدولة) ، تدل على أن المتنبى كان مخالفاً للشيعة » ، فهذا تأييدٌ أكبرُ لما استظهرته من عدواته لهم .

= لا ، بل إنه يروى أيضاً فى الخبر رقم : ٥٠ ، [فى ترجمته للمتنبى] ، حديثاً جَرَى بين المتنبى ، وبين بعض أشراف الكوفة » ، رواه الإمام أبو الحسن على بن محمد الفصيحىّ (٠٠٠ – ٥١٦ هـ) فقال : « قدم بعض الأشراف من الكوفة ، فدخل إلى مجلسٍ فيه المتنبى ، فنهض الناس كلُّهم سوى المتنبى ، فجعل كُلُّ واحدٍ من الحاضرين يسأله عن الأحوال بالكوفة وما تجدّد هناك ، فقال المتنبّى : يا شريف ، كيف خَلّفْتَ

(١) هو اختيار من أبيات القصيدة جعلته متتابعاً . وقوله « وأنك » مخففة النون من « أنك » المشددة . وضبطت أنا « شيخ » بالضم ، على خلاف ما هو مضبوط فى جميع دواوينه ، على أنه خبر « أن » كأنه قال : قد أجمعت هذه الخليقة أنك أوحدُ قريش ، وأنك شيخ معد وأنت أمردها ، وبالأمس كنت محتلماً ! = على التعجب المعترض بين « أن » وخبرها . وانظر ما قالوه فى إعراب « شيخ » على أنه خبر « كنت » ، وأن « محتلماً » حال من كنت ، وما فى ذلك من التوجيه فى شروح الديوان .

الأسعارَ بالكوفة ؟ فقال : كُلَّ روايةٍ برطلين خُبْزٍ ! فأخجله ، وقصد الشريف أنْ يعرِّض بأنّ أباه كان سقّاءً »

فهو ، كما ترى ، لم يقم للشريف الكوفيّ وقد قام أهل المجلس ، على غير ما يوجبهُ أدب المجالس ، وهذا دليلٌ على ازدراءٍ طافحٍ ، وشنَآنٍ مضطرمٍ / فى أغوار النفس . ولو سكت المتنبى فلم يسأله كما سأله سائر أهل المجلس ، لكان تركُ القيام كافياً فى إظهارِ ما فى نَفْسه لهذا الشريف الكوفىّ ، وفى إيذائه علانيةً ، ولكنه أرادَ أن يشفى غليل ازدرائه وشَنَآنه ، بالهُزْءِ به والسخرية مواجهةً وكِفاحاً ، فابتدر مع ذلك أيضاً يسأله كما سأله أهل المجلس ، وتَرَكَ السؤال عن أخبار مسقط رأسِه التى تجدّدت منذ فارقها قديماً ، وسأله عن أسواقِ الكوفة وأسعار البيع والشراء فيها ، استهزاءً به ، وإنزالاً له من منزلة « الأشراف العلويين » إلى منزلة سماسرة الأسواق وتجارها !! وكان فى هذا الخبر أيضاً الدليلُ البيِّنُ على أن مصدَرَ القول بأن أبا المتنبى كانَ « سقاءً » يبيع الماء بالكوفة ، هُمْ هؤلاء العلويون أيضاً ، كما بيَّنتُ ذلك فى كتابى هذا [١٣٧ – ١٥٠] ، وذلك بيِّنٌ فى جواب الشريف العلوىّ الذى أجابَهُ به .

م ٧٩

وهذه كُلُّها أدلةٌ متظاهرةٌ جاءت من وراء الغَيب ، لكى تدلّنى على أن منهجى فى « التذوُّق » يفضى إلى كشف الحُجُب عما طَمَرهِ غُبَار السِّنين ، وما يسترُهُ تكذُّبُ الرواةِ ذوى الأهواء = وأنّى كنتُ ، بتوفيق الله ، مُصيباً فى فَرْضِى « علويّة » أبى الطيّب ، مستهدياً بهذا التذوُّق = وأنّى حين أعملتُ هذا الفرضَ وحكّمتُه فى نقد أخبار نبوّته [هذا السفر ص : ١٩٩ – ٢١٢] ، وانتهيت إلى رفض « النُّبوّة » رفضاً باتًّا بلا مَثْنوِيّة (أى بلا استثناءٍ) ، كنتُ موفّقاً بحول الله وقوته ، ولم أكنْ جائراً عن الحقِّ ، حين عددتُها ممّا افْتُعِل افتعالاً ، وأُقحِمَ فى خلال الأخبار التى ذُكِر فيها أنه ادّعى « العلوية » / إقحاماً خبيثاً ، لستر الحقيقة التى تضمنتها هذه الأخبارُ ، وذلك كالخبر الذى يقولُ إن المتنبى :

م ٨٠

« ادعى أنّه علوىّ ، ثم ادّعى النبوّة ، ثم عاد يدَّعِى أنه علوىٌّ » ، [1] وسياقُه يدلُّ على أنه أَدْخَلُ فى باب « المُحالِ الكَذِب » ، من المثل الذى ضربه سيبويه حيث قال : « وأمّا المحالُ الكذبُ فأن تقول : سوف أشربُ ماءَ البحرِ أمسِ » [انظر نقده فى هذا السفر : ١٩٩ – ٢٠٨]

ولما صارَ الأمرُ بيِّناً يومئذ عندى ، أتممتُ القول فى الفقرة الثانية من « عمود الصورة » [هذا ص : ٢١٥ – ٢٣٥] ، وهو سياقٌ مهمٌّ جدًّا ، لأنّى ضمّنتُه أظهر عُنْصر فى شخصية أبى الطيب ، كما وصفتها فى الفقرة السابعة [انظر ما سلف ص : ٥٠ ، ٥١] ، حين تحوَّلَ من « علوىٍّ مطالبٍ بنسبه » إلى « عربىٍّ ثائر لأمّته » .

وأختم قولى هنا بشئٍ لا يسوءُنى ، ولكنى أعيبُه على كثير ممن يكتب عن المتنبى ، حين يذكر أمر « العلوية » فيما يكتب ، كأنها مسألة مقرَّرَة متّفقٌ عليها فى الذى تلَقَّيناهُ عن رواة أخبار المتنبى من القدماء ! فإذا بدا لأحدهم أن يذكر مرجعاً ، لم يذكر إلاّ مرجعاً نقل عنّى هذا الرأى واستخدمه فيما يكتب !! وأنا لا أبالى بهذا الإغفال ، لأنّ الإغفال لا يقدحُ فى عملى ، / وإنّما يقدحُ فيهم هم أنفسهم ! ولكن ، هكذا زمانُنا وأهله ، كما وصفته ، ووصفتُهم فى أوائل هذه القصة . ٨١ م

* * *

(١) ناقش الأستاذ عبد الوهاب عزام فى كتابه عن المتنبى أخبار هذه النبوة ، فصار يتابعنى خطوة خطوة ، دون أن يشير إلى كتابى ! ولم يستنكف ، حين ناقش هذا الخبر ، أن يأخذ عنى لفظ « الإقحام » حيث قال : « فدعوى النبوة فيه مسبوقة وملحوقة بدعوى العلوية ، وكأنها مقحمة فى الرواية » ، وعلى أنها عبارة سيئة ، فهى فعل سيء أيضاً !! وانظر هذا السفر ص : ٢٠٨ ، س : ٢٠ ، ثم ص : ٢١٣ ، س : ٧ .

(٣ ، ٤ ، ٧) الفقرة الثالثة والرابعة والسابعة

كانت « علوية » أبى الطيّب فرضاً فرضتُه ، واستدللتُ عليه بأدلّةٍ بيّنتُها فى كتابى ، ثم أصبحت الآن ، بحمد الله ، أشبه بالحقيقة كما رأيتَ آنفاً . وكان التناقُضُ ظاهراً بين شخصيته التى يُكوِّنها تذوّق شعره ، وبين شخصيته التى يَدلُّ عليها تذوّق أخباره ، فصار الفرض الذى فرضته قادراً على إزالة هذا التناقض ، وعلى كشف بعض الغُموضِ الذى يحيط ببعض شعره وببعض أخباره . وكان من أخباره التى حيَّرتنى أن أبا الطيب كان « يكتُمُ نَسَبه ويَطويه عن الناس » ، وكانت هذه حقيقةً يدلُّ عليها تذوُّق شعره دلالةً بيِّنة ، بل أكثرُ من ذلك : أن الشعر والأخبار جميعاً يدلاَّن على أنه كان يُسْأَل عن نسبه . أما شعره ، فيجيب سائِلَهُ بالازدراءِ والازورار والتعالى والثقة ، وأن فخره بنفسه لا بجدوده ، وإن كانوا هم فخرَ العرب جميعاً ، وأشباه ذلك فى مواضع متفرقة من شعره صغيراً وكبيراً . وأما أخباره ، فالسائلون عن نسبه يزعم كُلٌّ منهم أنه أجابه بجواب عن علّة كتمان نسبه ، وهى أجوبة متباينة غير مقنعة ، كما تراه فى أخباره ، ولكنها تحمل أيضاً معنى الذلّ / والاستخذاءِ والحيرة ، وهو تناقض مُريب . هذا على أن « كتمان النسب » ، هو فى ذاته أمرٌ محيِّرٌ ، فإنى لم أجدْ له مثيلاً أو شبيهاً فى تراجم الشعراء ، ولا فى تراجم الرجال ، لا فى عصره ، ولا فيما قبل عصره . وإذا كان الكتمان مما يجوزُ أن يفعلَهُ الرجل مرّةً أو مراتٍ ، وهو يجوب البوادى ويطويها ، فإنّه غير جائزٍ ولا مفهومٍ أن يفعله رجُلٌ وُلِدَ بمدينة كالكوفة ، ونشأ بها ، وبقى فيها حتى بلغ السابعة عشرة من عمره ، فأهلها يعرفون من هو = فإذا ما نزل مدينة أخرى كالمدن التى أقام بها فى الشام أو فى العراق أو فى مصر ، كتمَ هذا النسب ، ولعل آلافاً من أهلها ينتسبون إلى نفس القبيلة التى ينتسبُ إليها ، ولكنَّهم لا يكتمونَ أنسابهم كما يكتم هو نسبه ، ولا يتخوَّف أحدُهم ثأرًا ولا طائلةً من أحدٍ ، فأَىُّ شيءٍ يلجىء إلى الكتمان ؟ ٨٢ م

كان هذا « الكتمان » غريبة من الغرائب ، ولم يصبح جائزاً أو مفهوماً إلاَّ مع الفرض الذى فرضتُه . فكذلك صار كتمانُ أبى الطيب نسبته « العلوية » ، وصارت أسبابه

وعلله ، جزءًا لا يتجزَّأ من شخصية أبى الطيب ، لأن النسب « العلوىّ » ليس عارضاً يزول بزوال أسبابه ، بل هو لاحقٌ لمن وُلِد « علويًّا » ، وهو قائمٌ أبداً فى نفس صاحبه لا يزايلُه ، سواءٌ عَادَى « العلويين » وكرههم ، أو صادقهم وأحبَّهم . فإذا كان صاحبُه مرغماً على إخفائه وكتمانه ، ولكنه مُصِرٌّ إصراراً على محاولةِ إظهاره ، كما فعل أبو الطيب ، ثم طوَّقته أغلالٌ تَؤُودُهُ ، فلا شكَّ عندئذ فى ظهور أثر هذه المعاناة فى حياته وفى شعره خاصةً .

٨٣ م / وعلى ذلك ، فقد صار لزاماً علىَّ أن أَعود فأرتِّب شعره كُلَّه منذ سنة ٣١٤ إلى سنة ٣٣٦ ، وهو القسم الأول من الديوان ، ترتيباً جديداً يجعلُ حركة وِجْدانه فى شعره متَّسِقةً مفهومة ، على اختلاف أحواله ورحلاته فى مدة تزيدُ على عشرين سنةً من حياته . فلمّا فعلتُ ذلك ، تبيّن لى ، فى إعادة قراءة الديوان ، أنّ أكثر الغوامض المبهمة فى ديوانه قد تبدَّدت وزالتْ ، وتجلَّت لى شخصية أبى الطيب واضحةً ، وصارت حركةُ وِجْدانه فى شعره ظاهرة متسقةً فى تردّدها بينَ الثَّورة والخُمود حيناً ، وبين الأَمل واليأس حيناً آخر ، تبعاً للأحداثِ التى مَرَّ بها فى خلال عشرين سنة ، وهى أحدَاثٌ لا نكاد نجد فى تراجمه خبراً يدلُّ عليها ، وإنّما يستنبطُها تذوُّق شعره لا غيرَ . وعندئذٍ تبيَّن لى سياقُ هذا « الكتمان » الذى لا أجدُ له شبيهاً أو مثيلاً فى عصره ، فإنّ أبا الطيب وُلِدَ بالكوفة فى ديار العلويين ، وبقى بها حتى كَبِرَ ، وفى سنة ٣١٧ تقريباً مَدَح علويًّا مدحاً يدلُّ على شدة التعلُّقِ والحبّ وحفظ جميلِ أياديه عليه ، [انظر ما سلف قريباً ص : ٥٧ ، ٥٨] . ثم علم بعد زَمانٍ من جدّته أمر « علويَّته » ، فقلق وأنِفَ أن يبقَى أمرُها مكتوماً ، ولكنَّهُ لم يستطعْ إلاّ أن يفارق الكوفة إلى الشام فى أواخر سنة ٣٢٠ ، وحاول أن يظهر أمر « علويَّته » ، فجمع جموعاً من المقاتلة تَنْصُره على إظهار نسبته العلوية ، فأُخِذ وسُجِنَ .

وهو حين دخل السجنَ فى سنة ٣٢١ ، إنما دخله « علويًّا » مُطَالِباً بإظهار نسبته ٨٤ م إلى « العلويين » ، وكان الذين أدخلُوه السجن وقيَّدوه وآذَوْه / وسامُوه الخَسْفَ جماعةٌ من « العلويين » . والذى لقيه من السَّجْن وفى السِّجْن على أيديهم ، كانت قسوته وشراستُه

كافيةً فى تذكيره بقوّةِ هؤلاء « العلويين » . فلما أُطْلق سراحه وخرج فى سنة ٣٢٣ ، خرج من السجن « علويًّا » كارهاً للعلويين مُزْوَرًّا عنهم ، أو كما يقول ابنُ العديم : خرج « مخالفاً للشيعة » ، وأضمر هذه الكراهة وانطوَى عليها .

ولكنّ جدته استدعتْهُ بعد ذلك إلى الكوفة ، فترك الشام ، سنة ٣٢٥ تقريباً ، وبقى بالكوفة زمناً ، ولكنه أُكره على الخروج منها ، فعاد إلى الشام فى سنة ٣٢٦ ، ثائراً يائساً ، يملأ شعرهُ تهديداً ووعيداً ، ولكنه لا يملكُ إلا « الكتمان » ، وما هو إلا التلويحُ دون التصريح ، فلم يأتِ فى شعره الذى قاله منذ سنة ٣٢٣ إلى سنة ٣٣٥ لا للكوفة ولا للعلويين ذِكْرٌ ، ولا لمطالبته بإظهار نسبه بيانٌ .

ثم إذا بنا نفاجأ فى سنة ٣٣٥ ، بشعر فيه تهديدٌ ووعيدٌ ومطالبة ظاهرة ، وذلك حيث خالف سنّة الشعراء ، فافتتح مديح على بن سيَّار بن مكرم التميمىّ ، بمديح نفسه أوَّلاً ، فى قصيدته التى أولها :

أقلُّ فَعَالِى ، بَلْهَ أكثرُهُ ، مَجْدُ ... وذا الجِدُّ فيه ، نلتُ أو لم أنَلْ ، جَدُّ

سأطلبُ « حقّى » بالقنا ومشايخٍ ... كأنَّهُمُ من طُولِ ما آلتثموا مُرْدُ (١)

/ وهذا سَعْىٌ وعملٌ وتهديد ووعيدٌ ، وأنه سوف يطلب حقه بالسيف . ثم نفاجأ مرة أخرى بذكر « العلويين » فى سنة ٣٣٦ ، بعد مضىِّ ثلاث عشرة سنة ، منذ خرج من السجن سنة ٣٢٣ ، وأنَّ العلويين كانوا قد أعدُّوا له السُّودان بكفر عاقب ليقتلوه ، وهو فى طريقه إلى ابن طغج ، [انظر ما سلف قريباً ص : ٥٢] . ولا نكادُ نعلم لذلك سبباً البتة فى أخباره ، لم فعلوا ذلك ؟ بيد أن قصيدته التى قالها فى رثاء جدَّته ، تكشف النِّقاب عن هذه الحادثة وتدلُّ عليها وتفسِّرها .

٨٥ م

وذلك أن جدَّته أرسلت إليه قبل ذلك بسنة تقريباً ، سنة ٣٣٥ ، تَستَجْفِيهِ وتشكو شوقها إليه وطول غيبته عنها (من عشر سنوات ، سنة ٣٢٥) ، فتوجه إلى

---

(١) راجع القصيدة فى ديوانه ، فهى كثيرة الدلالات على ما نقول .

العراق ، فمنعه « العلويون » من دخول الكوفة ، فأرسل لها كتاباً يسألها المسير إليه ، حيث مُنِع وحُبِس عن دخول الكوفة ، فقبَّلت الكتاب وفرحت فرحاً غامراً ، فلما أرادت أن تفعل ، أبلغها العلويون أنه قد ماتَ ، فحمَّتْ وماتت غمًّا . وملأ أبو الطيب مرثيته لجدته بمعانٍ كثيرة ، يُفَسِّرها ويكشف غموضها الفرضُ الذى كنت افترضته ، والذى صار الآن أشبه بالحقيقه كما قلت .

وتمرُّ الأحدَاثُ بعد ذلك ، والنسب المكتوم يحرِّك وِجدانَ أبى الطيب ، وتتحوَّل شخصيته تحوُّلاً ظاهراً غريباً بعد ذلك ، كما سأفسِّره ، ويبقى منعه من دخول الكوفة ، الذى أدّى إلى وفاة جدته ، كامناً يحرِّك وجدانَهُ ، حتى إذا كانت سنة ٣٥١ ، أى بعد ست عشرة سنة ، حين خرج من مصر ، / وقطع الفيافى والفلواتِ حتّى بلغ الكوفة ، فدخلها ظافراً مُرَاغماً للعلويين الذين سَامُوه الخسف من قديم ، فلم يكد يدخلها حتى قال : ٨٦ م

فلمَّا أَنَخْنَـا رَكَزنـا الرِّمـا	حَ بينَ مكارِمِنا والعُلَـى
وبِتْنـا نُقَبِّـل أسيافنَـا ،	ونمسَحُها من دماءِ العِدَى
لِتَعْلَم مصرُ ، ومَنْ بالعراق ،	ومَنْ بالعواصِم ، أنِّى الفَتَى
وأنِّى وَفَيْتُ ، وأنّى أبَيْتُ ،	وأنِّى عَتَوْتُ على مَن عَتا
ومَا كُلُّ من قال قولاً وَفَى ،	ولا كُلُّ من سِيمَ خسْفًا أَبَى

وهذا بيِّنٌ جدًّا ، كما ترى . ولكن ..... ولكن لم يكنْ « كتمان العلوِّية » هو وحده سرَّ الفقرة الثالثة من عمود صورة أبى الطيب ، بَلْ كان له قرينٌ آخرُ لا يقلُّ عنه قُوَّةً وتحريكاً لوجدانه فى شعره كُلِّه ، بل لعلَّه كان أَقوى منه وأعمق أثراً فى حياته .

فالمتنبِّى ، قد وُلِدَ بالكوفة سنة ٣٠٣ وبقى بها إلى أَن جاوز السابعة عشرة من عمره سنة ٣٢٠ تقريباً ، وقال الشعر صغيراً ، من سنة ٣١٤ إلى سنة ٣٢٠ . ومع ذلك ، فالذى أثبته فى ديوانه من شعرٍ قاله فى مدة مُقامه بالكوفة صبياً لا يزيد على ٩٤ بيتاً : سبع مقطوعات عدد أبياتها ٣١ بيتاً ، وقصيدةٌ تفكَّه بإثباتها فى شعره متندِّراً برجل

كوفيّ يدّعى الفلسفة وأبياتها ٢٠ بيتاً ، وقصيدتُه التى مدح بها العلوىَّ الكوفىّ ، وهى ٤٣ بيتاً . وهذه القصيدة والمقطوعات السبعُ ، تدلُّ جميعاً على همَّة متميِّزة فى إتقان الشعر / منذ هذا الزمن المبكِّر ، وتدلُّ أيضاً على همةٍ عاليةٍ موفورة الجدِّ ، وعلى ثقةٍ شامخةٍ بالنفس ، وعلى طموحٍ بَعيدٍ لا يتردّد . ومع ذلك ، فهذا الشاعر المتقن العالى الهمة الطموح والواثق بقدرته ، لم يحرّكه ما حرَّك مئات من أقرانه الشعراء وغير الشعراء ، إلى فراق الكوفة الصغيرة الفقيرة تطلُّعاً إلى المجد والشهرة والصيت فى بغداد عاصمةِ العواصِم ، ومقرِّ الخلافة ، ومجتمعِ أصحاب السُّلطان والثروةِ والجاه .

٨٧ م

لاَ ، بل قد دخل بغداد ، حدثنا هو بذلك فى خبر رُوِى عنه ، ذكرته فى هذا السِّفْر [١٩٢ – ١٩٤] ، وحدثنا به ابن جنّى أيضاً فقال : أخبرنى بعضُ أصحابنا قال : جِئ بالمتنبى = يعنى شاعرنا = إلى أبى بكر محمد بن الحسن بن دريدٍ ، فقيل : إنّه شاعرٌ . فقال : أنشدنا ، يا فتَى ، شيئاً من شعرك . فأنشده المتنبِّى :

مِتُّ إن لم تَأْخُذوا بِدَمِى ، يا لَقَحْطَانِى ويَعْرُبِيَهْ

قال : فمسح ابن دريد يَدَه على رأسه وقال : لا ، بل نأخذ بدمك . (١)

وابن دريدٍ كان ببغداد سنة ٣٢١ ، وكان دخول المتنبى بغداد ، كما استظهرتُه فى كتابى ، سنة ٣١٩ ، أو ٣٢٠ . [انظر هذا السفر ص : ١٩٧] . / ومع أنه دخل بغداد وهو شاعرٌ طموحٌ يريدُ أن يتألّق ، فإن عظمتَها وفتنتها لم تأخذ بلُبِّه ، ولم يفكّر ساعةً فى المقام بها يزاحمُ شعراءها الكبارَ الذين حازوا مجدهُم ببغداد ، وفارقها إلى الشام ، لا « علويًّا » يطالبُ بإظهار نسبه فحسبُ ، بل فتىً « عربيًّا ثائراً » منكراً للذى رآهُ فى بغداد من استيلاء الأعاجم على سلطان الخليفة العربىّ وتَخوُّنِهم له حتى تركوه بلا سلطان ، وكأنه

٨٨ م

(١) هذا الخبر نقلته من مجموع أوراق لابن جنى ، محفوظ بالأسكوريال تحت رقم : ٧٧٨ باسم « كتاب مجموع فى علم البلاغة » . وهذا البيت ليس فى ديوانه ، ولا فى زوائد الراجكوتى ، وهو من شعر صباه الذى أسقطه المتنبى من ديوانه أو نسيه .

بعدئذ جعل إظهار علويته وَسِيلةً يتذرَّعُ بها لجمع الجموع ، ويشاركُ فى هذا الصِّراع على السلطان ، فلعلَّه يصيبُ نجاحاً . وهو ، لعروبته وعلويته ، أخلقُ من هؤلاء بالسلطان .

وأنت إذا قرأت القصيدة الثانية عشرة فى ديوانه ، بعد التسع التى ذكرناها آنفاً [ص : ٦٤ ، ٦٥] ، تراها دالَّةً على هذه المعانى ، وقالها قبل أنْ يقبضَ عليه ويسجن ، فهو يذكر فيها رِحْلته من الكوفة إلى بغداد إلى الشام ، وإقامته بأرض نَخْلةَ « كمقام المسيح بين اليهود » ، ويذكر إعداد نفسه للقتال ، وأنَّ فَضْله الذى يفضِّله على الناس لا يقنع « بعيش معجَّل التنكيد » ، ويحدِّث نفسه بالعزّ والغَلبة ، ويحدِّث عن شرفها المُغْنِيهِ عن الفخر بالجدود ، وهم فخر الناس جميعاً ، ويقول :

عِشْ عَزِيزاً ، أو مُتْ وأنت كريمٌ   بين طَعْنِ القنا وخَفْقِ البُنُود
فاطلُبِ العِزَّ فى لَظًى ، ودَعِ الذُّلَّ   وَلو كانَ فى جِنَانِ الخُلُودِ

إلى أن يقول :

إنْ أكنْ مُعْجَبًا ، فَعُجْبُ عجيبٍ   لم يَجِدْ فوقَ نَفْسِه من مَزِيدِ

٨٩ م / ثم لا يزال الأمرُ به حتى يدخل السِّجن ، ويعلم علمَ يقينٍ أن أمرَ إظهارِ علويتّه مرة أخرَى ، دونه متالفُ وسدودٌ ، فلا يزال يتردّدُ بين الرجاء واليأْسِ من ظهور علويته منذ خرجَ من سجنه ، ولكنّه لم ييأسْ من أن يجد فى أصحابِ السطوة والشوكة عربيًّا يَشْفِى ما فى نفسه من الغيظ على الأعاجم الذين استفحل سلطانهم على الخلافة ، وخاصة منذ رأى الفتى العربيَّ الثائر الذى أوقع بعمرو بن حابس من بنى أسد ، وببنى ضَبَّة وبنى رياحٍ من تميم ، والذى أثارَ إعجابَه ، فقال فيه قصيدة لم ينشدها بين يديه ، وإنما بقيت محفوظة عنده ، حتى أثبتها فى القسم الثانى من ديوانه . [انظر ما سلف ص : ٣٨ ، والتعليق هناك] كان ذلك فى سنة ٣٢١ قبل سجنه ، وكان الفتى هو سيف الدولة فى أوّل نشأته ، فقال له :

وتعذُّرُ الأحرارِ صَيَّر ظَهْرَها ،   إلا إليكَ ، علىَّ ظَهْرَ حرامِ
(أنت الغَرِيبةُ) فى زمانٍ أهلُه   وُلِدَتْ مكارمُهمْ لغيرِ تَمامِ

وتمضى الأيّام منذ خرجَ من السِّجن ، « والعلوية » و « العربية » معاً تحرِّكان وجدانه اشتعالاً وخُموداً ، فلا تكاد تخطىء فى شىءٍ منها حديثاً عن نفسه ، وعن بَغْضائه للأعاجم ، وعن حُبِّه للعرب . فما يلقى من أحدٍ إلاّ وهو يفتِّش فيه عن هذا المأمولِ الذى يثيرُ وجدانه ، ثم يبلغُ أقْصى توهُّجه ، فى سنة ٣٢٦ ، حين يجدهُ فى العربىِّ « بدر ابن عمار بن إسمعيل الأسدىّ » وَالِى طبريّة ، فيحملُ شعرهُ فى بدر ، نفس ثورة الوِجدان التى تلْقاها عند لقائه سيف الدولة العدوىّ العربىّ سنة ٣٣٦ ، بعد أن حنَّكَتْهُ التجارب .

٩٠م / وكانت سَوْرَةُ نفسه فى العهدين ، سورة رجلٍ سياسىٍّ عربىٍ يرقُبُ ما يحيطُ به ، ويطرحُ على الرجل العربىِّ الذى يؤمِّله ، ويؤمِّل بلوغَ أُمله فى سطوته وشوكته = كُلَّ ما فى نفسِه من أهدافٍ تحدِّدها له عُروبتُه واعتزازه بها . إلاّ أن الفرق بين العهدين واضحٌ جدًّا ، لأنّ شعره فى سيف الدولة ، لم يكن قاصراً على هذا وحده ، بل كان يتجاوز حدود هذا الإحساس الكامن فيه ، إلى الإحساس بالملحمة القديمة التى بدأت منذ عهد رسول الله ﷺ ، بين النصرانية الرومية ، والإسلام ، والتى ظلَّت تتصاعد على ثغور الشامِ شيئاً فشيئاً ، حتى كان زمن سيف الدولة ، فظهرت ظهوراً بيِّناً ، خَلَّد المتنبى ملحمته العظيمة فى شعره الذى قاله فى عشر سنوات ، (من سنة ٣٣٦ إلى سنة ٣٤٦) عند سيف الدولة .[(١)]

ومعنى ذلك أنّ أبا الطيب ، قبل أن يلقى سيفَ الدولة فى سنة ٣٣٦ ، كانت همومُه تتنازعه ، بين « علويته » التى يكتُمها مُرْغماً ، والتى كانت تُؤَهِّله ، لو أطاقَ ، أنْ يدفَع عن دولة العرب سلطان الأعاجم = وبين آمالِه فى أن يجد عربيًّا ذا سُلطانٍ وشوكةٍ وطموحٍ ، يحقِّق له ولأمّته ما لا يطيقُهُ هُو من القضاء على سلطان الأعاجم .

---

(١) حروب سيف الدولة فى ثغور الشام ، هى طلائع « الحروب الصليبية » التى بلغت مداها فى أول حملة صليبية سنة ٤٨٩ هجرية ، أى بعد قرن ونصف تقريباً .

فلما لقى سيف الدولة ، ونزل من نفسه المنزلة التى نعرفها ، وأقامَ معه عشر سنوات من سنة ٣٣٦ إلى سنة ٣٤٦ ، اندمجَ الأمران فصارا هَمًّا / واحداً وأملاً واحداً ، وأصبح أبو الطيِّب شخصية « سياسية » ذات آمالٍ كبيرة تحركه ، وقد بيّنت ذلك فى الفصل الثانى عشر من كتابى ، [هذا السفر ص : ٣٠١ - ٣٣٢] ، ومواضع أخرى كثيرة من الكتاب من أوله إلى آخره ، تدلُّ على هذا أو تَتَّصل به . ٩١ م

* * *

(٥ ، ٨) الفقرة الخامسة والثامنة

وأما هاتان الفقرتان من « عمود الصورة » وهُمَا تتضمنان البيان عما يحرِّكُه من عواطف الحبِّ التى لا يخلو من جميعها بَشَرٌ ، فإنّى وقفتُ على جميعها بتذوّق شعره لا غير ، ومراقبة حركة وجدانه تبعاً لحركتها حِدَّةً أو فتوراً . أما الأخبارُ عن ذلك ، فليس فى أيدينَا شئٌ يؤيِّدُها ، أو يَهدى إليها .

ومن أوّل ذلك ، ما استخرجته استخراجاً من أن أبا الطيب كان يحبّ خولةَ أخت سيف الدولة ، وقد ذكرتُ بعض حُجَّتى فيه فى الباب الثالث عشر [هذا السفر : ٣٣٣ - ٣٥٥] ، منذ كان أبو الطيب فى جوار سيف الدولة ، ثم بقاءَ هذا الحبِّ عاملاً ظاهراً فى شعره بعد فراقه فى سنة ٣٤٦ ، ثم ما بعد ذلك مُدَّةَ إقامته عند كافورٍ ، ثم فراقه كافوراً إلى العراق ، ثُم إلى فارس ، إلى أن قتل .

٩٢ م / وهذا الذى استنبطته بالتذوُّق ، كانَ كثيراً جدًّا ، ولكنى اختصرتُه اختصاراً فى كتابى ، ومع ذلك فإنّه قد يَسَّر لى أنْ أقرأ شعر أبى الطيب كُلَّه منذ نشأته قراءةً تكشف عمّا كانت تكنُّه نفْسُه من هذه العواطف الإنسانية ، فى مطالع قصائده منذ شبابه ، وفى ثنايا حكمته التى يضمّنها شعره ، ولا يبدو لأوّل وهلة أنَّها من أثر هذه العواطف التى تحرك وجدانه . وقد لخّص الرافعى ، رحمه الله ، رأيه فيما كتبتُ فى كلمته فى الرسالة حيث يقول : « والأدلة التى جاء بها المؤلّف ، تقف الباحث المدقق بين الإثبات والنفى .

ومتى لم يستطع المرءُ نفياً ولا إثباتاً فى خبر جديد يكشفه الباحث ، ولم يهتد إليه غيرهُ ، فهذا حسبك إعجاباً يذكر ، وهذا حسبه فوزاً يُعَدّ » . [هذا السفر : ٥٧٩] .

ومضت سنواتٌ طوالٌ منذ صدر كتابى عن أبى الطيب ، وكاد هذا الفرض المستنبط أن يفوزَ بما يؤيده من الأخبار المرويَّة ، كما فاز فرض « العلوية » بما يؤيده كما عرفت قبل [انظر ما سلف ص : ٥٥ ، ٥٦] . فقد دَخَل علينا فى المجلس ليلاً صديقى الكريم الدكتور محمد سامى الدهان ، وذلك قبل مرضه الذى لم يُفْلِتْه حتى قَضى نحبه فى يوليو سنة ١٩٧١ ، وكان عائداً من إحدى سفراته فى البلاد التى تحوى المخطوطات العربية التى وقعت فى أسرِ الأعاجم ، ولم يكد يجلس حتى قال : بُشْرى ! بُشْرى عظيمة ! وبدأ يتحدّث عن سَفْرته ، وأنه كانَ قد نَوى العودة إلى دمشق = ، ولكنّ شيئاً جديداً قد ثَنَى عزمَه وأرغمه على أن يقطع هذه النية ويعرِّجَ على مصر . وذلك أنه قد ظفر بنصٍّ يؤيِّدنى كُلَّ التأييد فى مسألة حبِّ أبى الطيب خَوْلَة أخت سيف الدولة ، وأنّه / سوف يعود إلى دمشق ، فيرسلَ النصَّ كُله مصوَّراً . وتشعَّب الحديث بين أهل المجلس وطالَ ، وحانَ وقت انفضاضه ، وودّعْتُه دونَ أن أعرفَ منه شيئاً يُفيدنى اليوم . وعند وَداعه كرَّر أنه سيرسلُ النص مصوَّراً ، ورحلَ إلى دمشق فى اليوم التالى . ومضت الأيام . ومرضَ ، وجاء بعد ذلك نعيُّه ، وفقد أهل العلم رجُلاً كبيراً من العلماءِ ، وفقدته أنا معهم ضعفين من الفَقْد ، وقدّرَ الله أن يبقى هذا الاستنباط فرضاً مبنيًّا على تذوّق الشعر ، حتّى يكشف اللثامَ عن سرِّه خبرٌ من الأخبار ، وندعُه حتى يكون ، وهو كائنٌ إن شاء الله .

٩٣ م

أمّا عاطفة الحُبّ التى تتمثل فى عواطف الناس على اختلافهم فطرةً فُطِروا عليها ، فإنّ أظهرها ظهوراً حُبُّه لجدته التى كفلتْه يتيماً ونشَّأته وسدّدت خُطاهُ ، وكشفت له عن سرِّ مولده « علويًّا » ، يوم أطاقَ أن يحمل السرَّ . وكان من عمق هذا الحبِّ فى نفسه : أَنْ تركَ آثارَهُ مكظومةً فى ألفاظ شعره ، يتبيَّنها المتذوِّق من وراء هذه الحجب . فلمّا ماتت ورثاها بقصيدته الميمية ، مَهَّد لى تذوُّقها أن أعرفَ مقدار الصِّدقِ فى عواطف أبى

الطيب ، وأن أقف على أسلوبه فى الكشف الملثَّم عن هذه العواطف ، [1] وعندئذ تمكنتُ من استخراج الدلالة من شعره على زواجه [الباب السابع ص : ٢٣٩ ، وما بعدها] ، وعلى تاريخ ولادة ولده « محسَّد » سنة ٣٢٦ [ص : ٢٤٠] ، / ثم ما كان من مرض زوجته وموتها فى سنة ٣٣٧ [ص : ٣١٨ - ٣٢٢] ، وأشياء أخرى كثيرةٌ تراها مفرقةً فى الكتاب . ٩٤ م

***

(٦) الفقرة السادسة

كان أبو الطيب قد أتمَّ الثالثة والأربعين من عُمُره ، حين عزم على فراق سيف الدولة = لم يفارقه مختاراً لفراقه ، فإن سيف الدولة كان مثالاً حيًّا لكُلِّ ما كانَ مكتوماً فى نفسه من الآمال والأحلام . وفى السنوات العشر التى لازمهُ فيها كان يزدادُ له محبّةً وتوقيراً ، وأفضَى كُلٌّ واحد منهما لأخيه بأسراره وغاياته فى الحياة السياسية التى قامت على « دولة الخَدَم » من الأعاجم . ولم يكن مُقامُه للمالِ ، كما يقول ذلك من يقوله ، وقد دلَّتنا سيرته كُلُّها على أنه إذا لَقِىَ العربىَّ الرجُلَ الذى يتوهَّم فيه آماله وأحلامه ، لم يبالِ بالمال أو (طلب المعاش) ، بل ببلوغ الآمال أو (طلب المعالى) ، كما بينتُ ذلك فى مواضعَ من كتابى [هذا السفر : ٣٠٤-٣٠٥] ، بيد أن « الوشاة » و « الحسّاد » ، قد أكثروا السعاية فى حقِّه ، حتى ظنَّ ظنًّا بلغ اليقينَ أن قلب سيف الدولة قد تغيّر عليه ، وكان هو بطبيعته شديد التوجُّس ، وكان حبُّ « خولَةَ » قد بلغ به شَفَا الهاوِيةِ بسعاية الساعين والكائدين ، وبلغ منه هواها ذِرْوَةً شامخة محلِّقةً يضيقُ بها صدرهُ كأنَّما يصَّعَّدُ فى السماء ، / [هذا السفر : ٣٥٧ وما بعدها] ، فاتخذ الليل مركباً وطار إلى دمشق ، وكأنه يقول لنفسه ، ما قاله بعد ذلك بسنواتٍ : ٩٥ م

ضَرَبْتُ بها التِّيهَ ضَرْبَ القِمَارِ : إمَّا لهٰذا ، وإمَّا لِذَا

---

[1] انظر الباب الثانى ص : ١٦٣ ، والرابع : ص ١٨١ ، والباب العاشر ص : ٢٧٣ ، ومواضع أخرى متفرقة .

إمّا راحةُ النّسيان ، وإمَّا راحة الهلاك ! أصيبَ الرجل فى هَوَى قلبه ، وفى آماله السياسية ، وفى الرَّجُل الذى لا يجدُ له شبيهاً أنَّى تلفَّتت خِبْرتُه بالرجالِ والأعمالِ ، وداخله اليأس ، وتمنَّى الهلاك ، ومات اللهيبُ فى نَفْسِه ، ورمتْهُ البوادى والفلوات إلى أرض مصر ، وإلى كافورٍ ، فلم يملك إلاّ أن يستقبلهُ بما فى نفسه ، فابتدأ قوله حين لقيه :

كَفَى بكَ داءً أن تَرَى الموتَ شافيَا وحَسْبُ المنايَا أنْ يَكُنَّ أمانيَـا
تَمنَّيْتَهـا لمَّـا تمنَّـيتَ أن تَرَى صديقاً فأعْيَى ، أو عدوًّا مُدَاجِيَا

ومنذ ذلك اليوم وآمالُ أبو الطيب كُلُّها تتقلَّصُ ، وكُلّ يوم يَمْضى بقطعةٍ من نفسه ومن آماله تقع فى حوزة الأَمسِ الذى لا هو يَرُدُّ ولا هو يُسْتَرَدُّ . ذهبَ أبو الطيِّب الأول ، وجاء أبو الطيِّب الثانى ، فكان يرَى ذلك رأىَ العينِ وهو يكظِم فى نفسه كَظْماً يذيبُ القلوب ، « فأينَ الشبابُ ، وأيْنَ الزّمانُ ! » . وبقى على ذلك فى مصر حبيسًا فى قبضة كافور من جمادى الأولى سنة ٣٤٦ إلى أواخر سنة ٣٥٠ . وفى هذه المدَّة صار شعر أبى الطيِّب نمطاً آخر غير النَّمط الذى كان أوَّلاً مع بدر بن عمارٍ الأسدى ، ثم تمَّ تمامُهُ مع سيف الدولة . ولكنَّه كان قد صار شاعراً محنَّكاً معقَّد / المهارة فى صياغةِ معانيه وألفاظِه ، يحتاجُ تذوُّقها إلى خبرةٍ بأساليب صياغته كُلِّها ، منذ بدأ الشعر فتًى جادًّا قليلَ الإغضاءِ عن التجويد ، ثم شابًّا كَتُومًا يُزلزلُه ما يكتمه ، ثم مكتهلاً يتفجَّر الشعر منه مَغْموساً فى صِبْغ الحوادث التى تمرُّ به ، فلا هى تحُولُ ألوانُها ، ولا هو ينساها أو يغفُل عن آثارها فى نفسه . ٩٦ م

والآنَ سقط وحيداً فى تِيه الغُرْبة ، عاد غريباً كما بدأ ، ولكن شتَّان !!! فهو يقول فى غربة الصِّبى البعيد ، واثقاً مُدِلاً متحدِّياً :

أنَا فى أُمَّةٍ ، تَدَارَكَهَا اللهُ ، (غريبٌ) كصالحٍ فى ثَمُودِ

وهو اليومَ فى غُرْبَة الكِبَر ، أَواخرَ عهده بمصر وكافورها ، يقول متحيِّراً ضائعاً مستسلماً :

بِمَ التعَلُّلُ ؟ لا أَهْلٌ ، ولاَ وَطَنُ ولا نَدِيمٌ ، ولا كأسٌ ، ولا سَكَنُ
أُرِيدُ من زَمَنِى ذَا أَنْ يُبَلِّغنِى ما ليْسَ يبلُغُهُ فى نفسِهِ الزَّمنُ

وإذا كان ، وهو فى صباهُ قادراً على أن يخرج من بَغْداد ممتلِئَ النفْسِ قوةً وتحدِّياً ، حين سمع وسمع الناسُ أحدَ المماليك قادة الأعاجم ، قد وضع التاج على رأسه مكلّلاً بالدُّرِّ والياقوت ، وجلس على سرير من فضةٍ حواليه الذهب مرصّعاً بالجوهر ، ويقول للناس متكبِّراً متجبِّراً : « أنا أَرُدّ (دولَةَ العجم) وأُبطِل (دولة العرب) » ، [1] وإذا كان يومئذ قادراً على أن يردَّ على كلمته / هذه فى شعره ثائراً مهدِّدًا متوعِّدًا هازئًا : ٩٧ م

سَيَصْحَبُ النَّصْلُ منِّى مِثْلَ مَضْرِبِه ويَنْجَلِى خَبَرِى عَنْ صِمَّة الصِّمَمِ
بِكُلِّ مُنْصَلِتٍ ما زالَ مُنْتَظِرِى حتَّى أَدَلْتُ لهُ من (دَوْلَة الخَدَمِ)

.... فالآنَ ، مريداً أو غير مُرِيدٍ ، يجد نفسه لساناً ناطقاً فى « دولة الخَدَم » ، ويتورَّطُ فى المحنة تورُّطًا مؤيساً ، فى طريق طويل من أوّل مقدمه على كافورٍ سنة ٣٤٦ ، إلى أن ينتهى عند عضد الدولة الدَّيْلمى فى سنة ٣٥٤ ، ويختم شعر هذه السنوات المذلّة ، باليأس والضَّياع بهذه النَّفْثة ، [وهى آخر ما قاله أبو الطيب] :

إذا آستَشْفَيْتَ مِنْ دَاءٍ بِدَاءٍ فأَقْتَلُ ما أَعَلَّكَ ما شَفَاكَا
وأَنَّى شِئْتِ ، يا طُرُقِى ، فكُونى ، أَذَاةً ، أو نَجَاةً ، أوْ هَلاَكَا

كان داؤُه فراقَ (دولة العرب) تحت ظلِّ سيف الدولة ، فطلبَ البُرْءَ والشفاءَ فى (دولة الخَدَم) ، فإذا هو داءٌ لا شفاءٌ ، وكان أقتلَ الداءين ! وألقى يومئِذٍ السَّلَم ، مُذعناً ضارعاً منقاداً لما تأتى به المقاديرُ .

لذلك ، فقد كان شعرهُ فى هذه السنوات التِّسع الأخيرة من عُمُره مختلفاً كل

(١) هو « بجكم التركى » ، قال ذلك فى حوالى سنة ٣٢١ أيام كان المتنبى ببغداد . انظر كتاب الأوراق للصولى ، فى أخبار الراضى ص : ٦٢ .

الاختلاف من جميع شِعْره ، مبايناً له فى الصِّياغة ، حافلاً بمهاراتٍ لا يطيقُها إلا قلَّة من الشُّعراءِ الكبارِ ، ثم لا تتأتَّى لهُم إلاّ حينَ يقعون فى المحنة المحرِقة ، بين وجُوب الكتمان وضرورة الإفصاح = بين ما يُبْطنونه فى أغوار أنفسهم ، وما يظهرونه فيما يجرى على ألسنتهم . وشعرُ هذه السنوات / التسع ، لم يقرأهُ أَحدٌ بعناية كافية ، وكُلُّ ما خرج به قارئو شعر المتنبّى هو هذه القضيّة الرَّثَّةُ السخيفة : أن المتنبى مدح كافوراً ثم هجاهُ ! وأشباه ذلك من القضايا المُسْتَبْرَدةِ الهالكة ، يتعالَمُ بالحديث فيها دفاعاً عنه أو قدحاً فيه مَنْ يتعالمُ . وشعر أبى الطيِّب فى هذه السنوات ، كانَ خُلاَصةَ تجاربه فى حياته ، وجِمَاعَ معرفته بالرِّجال والأُمَم ، وثمرةً ناضجةً قد استمدَّتْ إِنَاءَها ونُضْجَها ومَذَاقَها من حياته كُلِّها ، منذ كان صبيًّا إلى أن بلغَ ما بلغَ ، حيث وقعَ التناقضُ بين آماله التى عاش بها وفيها أكثر من ثلاثين سنة (٣١٤ - ٣٤٦ هـ) ، وبين الواقع الذى يصبحُ فيه ويُمْسِى ، وهو فى قَبْضة (دولة الخدم) أنّى ذهب .

٩٨ م

كانت ألفاظ شعره هذا تحمِلُ كُلَّ ما يتكتّمه من الكراهة والازدراء والاستنكافِ ممّا هو فيه ، وإن كان ظاهرها يخدعُ سامعه عن حقيقة ما يكتمه . وقد استوقف هذا الشعرُ ، فى حياة أبى الطيب نفسه ، بعضَ سامعيه أو قارئيه ، كابن جنى وغيره . فإنَّ ابن جنى كان يقرأ على المتنبى شعره فى كافور ، فربما وقف على البيت من المدح قد انطوى على معنىً من الهجاء ، فيضحك ابن جنى ، ويضحكُ المتنبّى لأنَّه كان يقصدُ به الهجاءَ . والمتنبى قد أغنانا عن هذا بقوله فى كافور ولقّبه « الكركدنّ » ، [وهو حيوان عظيم الجثة ، قصير القوائم ، غليظُ الجلد أسودُه ، له قَرْن واحدٌ ، وهو الخرتيت ، وحيد القرن ، شَبَّهَ الأسودَ كافوراً به] :

وشِعْرٍ مَدَحْتُ به الكرْكَدَنَّ بين القَرِيض وبين الرُّقَى
وما كانَ ذلكَ مدْحاً لَهُ ، ولكنّه كان هَجْوَ الوَرَى

/ وقد بلغ أحد المتأخّرين الغاية فى ذلك ، وهو عبد الرحمن بن حسام زاده الرُّومىّ (أى التركّى) (١٠٠٣ - ١٠٨١ هـ) ، فقد ألف كتاباً سماه : « رسالةٌ فى قلب

٩٩ م

كافوريّات المتنبىّ ، من المديح إلى الهجاء » ، ونشره الدكتور محمد يوسف نجم . ومؤلف الكتاب تركىٌّ أجاد العربية وخالط أهلها طويلاً ، وقد كان حيث نزل فى حلب والقدس ودمشق والقسطنطينية مَأْلَفاً للأدباء ، وله أَلَّفَ يوسف البديعى كتابيه : « ذكرى حبيب » و « الصبح المنبى ، عن حيثية المتنبِّى » . وقد استقصى المؤلف مدائح كافور قصيدة قصيدة ، فبيَّنَ ما يضمرُه المتنبِّى من الذم لكافور ، وإن كان ظاهرُ اللفظ يوهم المدحَ . وهو كتابٌ غريبٌ فريدٌ . أجاد المؤلف فيه مع سوء عبارته ، وأصَابَ الصوابَ من وَجْهٍ ، وأخطأ من وجْهٍ آخر . وقد أشرت قديماً إلى المعنى الذى قصده المؤلف فى كتابى هذا ، [١٩٥ ، ٣٤٨ ، ٣٦٢ - ٣٦٦] .

ولكن القضيّة ليست محصورة فى ألفاظٍ قصدها أبو الطيب قصداً ، وجعلها رموزاً لها ظاهر مكشوف ، وباطنٌ مضمر ، بل القضيّة فى صياغة شعره فى حقبتين متباينتين : تَرَكَتْ كُلُّ حقبة منهما أثرَها الواضحَ على صياغته وألفاظه بلا قصدٍ متعمَّدٍ ، يستطيع المتذوِّق أن يميّزه تمييزاً واضحاً ، لأنّ كُلاًّ منهما خرج من نفسٍ واحدةٍ جميعةٍ ، مصبوغاً بصِبْغة الحقبة التى انغمست فيها انغماساً إلى الأعماق . كان شعراً يَفْصِمُ كُلُّه عن نفسٍ متطلقّة متهلّلة واثقة ، تستخفُّها الآمال والآلام والأحزانُ ، ماضيةً إلى فضاءٍ فسيحٍ تبسطُهُ البهجة المنيرةُ من شمس مُشرِقة = فإذا به يَفْصِمُ عن نفسٍ متقبِّضةٍ كئيبة يائسة ، تَؤُودُها الآمال والآلام والأحزان ، دالفةً إلى أفقٍ ضيِّقٍ يقبضُه / الكمدُ المظلمُ من شمس غاربة . ومن لم يُعْطِ هذه القضيّة حقها من الأناةِ والتأمُّل عند تذوُّق شعر أبى الطيب فى هذه السنوات التسع الأخيرة من حياته ، لم يظفر بطائل ، ووقع فى غثاثة الدراسات التى لا تفرِّق بين تذوّق الشعر ، وبين التلمُّظ بالكلام ومضغِه ، تعالُمًا بحتاً !! و « المتشبِّع بما لم يُعْطَ كلابِسِ ثَوْبَىْ زُورٍ » ، كما جاء فى الحديث .

وفى كتابى هذا لم أستطع أن أوفِّى هذه القضيَّة حقَّها كتابةً ، لأنى قطعتُ هذه

١٠٠ م

السنوات التسع فى نحو ثمان وثلاثين صفحة من الكتاب ، (١) فإنىّ كنت فى عجلة من أمرى حتى أفرغ من الكتاب فى ميقاتٍ محدّدٍ ، كما قلت آنفاً ، وكنتُ قد نويتُ أن أعودَ فأكتب عن المتنبّى كتاباً كبيراً آخر ، على هذا السياق الذى التزمته فى كتابى هذا ، ولم أَفِ بما عقدت عليه نِيَّتى ! إلاّ أنّ الذى كنتُ قد استفدتُه من تذوُّق شعره فى هذه السنواتِ التسع ، كان هو فى الحقيقة أقوى مُعينٍ لى على تصفية تذوُّقى لشعره الذى قاله قبل ذلك ، وعلى التعبير عن التذوّق تعبيراً سَهلاً متساوِياً يفضى إلى انسياب حركة تخطيط صورة المتنبّى ومعارفها وقَسِمَاتها ، وهى تتخلّق حَول « عمود الصورة » . فمن أجل ذلك ، لم تكن هذه الفقرة السادسة ظاهرةً كُلَّ الظهور فى الذى كتبته ، وإن كانت آثارها فى الكتاب ، وفى الأبواب الثلاثة الأخيرة ، دالةً على الأصل بعض الدلالة .

* * *

هذه هى الفِقَر الثمان التى آسْتَوَتْ لى منها شخصيّة أبى الطيب ، عن / منهج محدّدٍ فى تذوُّق الشِّعر ، كُلُّ فِقْرةٍ منها لا تقوم وحدَها معزولةً عن الأُخريات ، بل كانت كُلُّ فقرة منها متأثرةً بأخواتها ومؤثِّرةً فى سائرها تأثيراً بالغَ التعقيد ، فقرّبتُ الأمرَ ويَسَّرتُه بالحديث عن كُلِّ فقرةٍ على حِدَة ، ليكون قارىءُ كتابِى بعد ذلك متخفِّفاً من كُل مَؤُونةٍ تَعُوقُه أو تثقُل عليه . ١٠١ م

* * *

الغَمَراتُ ، ثم يَنْجَلِينَ !

حين خرج عدد المقتطف [يناير سنة ١٩٣٦] ، متضمِّناً كتابى عن « المتنبّى » ، كنت مطيَّةً لحُمَّى عنيفةٍ هوْجاءَ ، فلما أقلعت عنى وبدأتُ أفيقُ من بُرَحائها ، كان أوّل ما قرأته عن كتابى هو كلمة الرافعىّ رحمة الله عليه ، منشورة فى مجلة « الرسالة » ، [ص : ٥٧٧ - ٥٧٩] . هزّتنى هذه الكلمة هزًّا شديداً عند أوّل قراءةٍ ،

---

(١) من الباب الرابع عشر إلى السابع عشر من ص : ٣٥٧ إلى ص : ٣٩٢ ، آخر الكتاب .

ففرغتُ منها وأنا لا أدرى على الحقيقة ماذا قال الرافعي . كنت فى مَيْدِ الإفاقةِ من الحمَّى ، [المَيْدُ : دوارٌ يميد بالرأسِ مصحوبٌ بالحيرة ، كالذى يجده السكران أو راكب البحر من الاضطراب] ، فجاءَ معه فرحٌ غامرٌ فمادَ هو بى أيضاً حتى أعمانى عن معانيها . كنتُ فى السابعة والعشرين من عمرِى ، وكنت كاتباً مغموراً فى الكتّاب ، لا أتوهَّم أنّ أحداً من القراء يعرفنى أو يبالى بأن يعرفنى ، ولم يكن مما يخطُر ببالى يومئذٍ أن أكون معروفاً ، وإذا بى أفَاجأُ بَغْتَةً بثناءِ أستاذٍ بعيد الصِّيت فى العربِ والعربية ، وفى مجلة بعيدة الصِّيتِ فى كُلّ بُقْعةٍ تعرف العربية . فعلت بى هذه المفاجأة فعلَ الخمر بشاربٍ لم / يذُقْها قطُّ . وبقيتُ أياماً فى نشوة مُذْهِلَة ، وكنت أعيش يومئذٍ وَحدى ، فلم أجدْ من أحدِّثُه عن نشوتِى ! فلما تَمَلَّصْتُ من عَقَابيل الحمّى بارئاً بحمد الله ، وذهبَ المَيْدُ وسكنت النشوة ، راجعتُ قراءة كلمة الرافعىّ مرَّاتٍ ، فكنت أتوقّف فى كُلِّ مرةٍ عند قول الرافعى فى « المتنبى » : ١٠٢م

« كان الرجلُ مَطْوِيًّا على سِرٍّ أُلقِىَ الغموضُ فيه من أوّل تاريخه ،
« (يعنى علوية المتنبى) ، وهو سرُّ نفسه ، وسرُّ شعره ، وسرُّ قوته . وبهذا
« السرّ كان المتنبى كالملك المغصوب ، الذى يرى التاجَ والسيفَ ينتظران
« رأسَهُ جميعاً ، فهو يتّقى السيفَ بالحذر والتلَفُّفِ والغموض ، ويطلُب التاجَ
« بالكتمان والحيلةِ والأَمَل » .

« ومن هذا السرِّ بدأ كاتب المقتطف ، فجاءَ بحثُه يتَحَدَّرُ فى نَسَقٍ
« عجيبٍ ، متسلسلاً بالتاريخ كأنه ولادةٌ ونموٌّ وشبابٌ . وعَرَضَ بين ذلك
« شعر المتنبى عَرْضاً خُيِّل إلىَّ أن هذا الشعرَ قد قيلَ مرةً أخرى من فم
« شاعرِهِ ، على حوادث نفسه وأحوالها » .

وسببُ توقُّفى ، هو أنّى يومَ فرغتُ من الكتاب ومن تصحيحه عند الطبع وقُضِى الأمرُ ، تقاذفنى طَوالَ الليل رعبٌ شديد من مخافة ما يقولُه الناس فيه إذا هم قرأوهُ ، وأمسيتُ على غير بيّنة من أمرى . فهذا أوّلُ كتابٍ كتبتُه مجترئاً على التأليف ، وأقدمت

إقداماً على كتابته على غير مثالٍ سابقٍ ممّا عهده الناس فى كتابة التراجم ، وقد اجترأتُ أيضاً على الإتيان فيه بما لم يسبقنى إليه أحدٌ ! وفارَ بى الرُّعبُ والشكُّ فيما اجترحتُ فَوَرَاناً أذهب من قلبى كُلَّ يقينٍ فيما كتبتُ ، وكُلَّ ثقةٍ بما بذلت من جُهْدٍ / وتثبُّتٍ ، ١٠٣م واغتال الرُّعب سلطانى على عقلى ، وسرَى سَمُّ الشكِّ فى قلبى طولَ ليلتى ... وركبتنى الحُمَّى ، فلما أفقت منها أفقتُ وأنا فى قبضة رُعْب حيّ وشَكٍّ مميتٍ ، ثم جاءتْ كلماتُ الرافعىّ تِرْياقاً ، كلَّما أعَدْتُ قراءتها دبَّت كلماتُها إلى صميم هذا الرُّعْب دبيباً حتى قتلته ، وجعلتْ تَسْرِى حيث سَرَى سَمُّ الشَّكِّ حتى أذهبَته من قلبى فأَحيتْهُ . وعندئذٍ عرفتُ شيئاً فشيئاً حقيقة طريقى الذى سرتُ فيه حين كتبتُ الكتاب ، وكأنّه طريقٌ لم أسلكْهُ من قبلُ قطُّ ! وكذلك ثبت عندى أن منهجى فى « التذوّق » الذى ألفتُه منذ أن دارست الشعر الجاهلىّ قديماً ، منهجٌ سَليمٌ كُلَّ السلامة ، لأنّى حقَّقتُ به الوصولَ إلى « سرّ » كان مطويًّا فى شعر أبى الطيِّب وفى تاريخه ، واستطعتُ به أيضاً أن أكتب بحثاً « يتحدّر فى نسقٍ عجيب ، متسلسلاً بالتاريخ كأنه ولادة ونموٌّ وشباب » ، كما يقول الرافعىّ ، أى أنَّ « عَمُود صورة المتنبِّى » الذى بنيتُ أكثره على هذا « التذوّق » ، كان صالحاً لجعل شعر المتنبىّ ناطقاً نُطْقاً مبيناً عن شخصيته منذ وُلد إلى أن مات . وكان هذا حَسْبى ، بحمد الله .

وقد حدثت بعد ذلك بقليل حادثةٌ أُخرى غريبة ، زادتنى ثِقَةً بنفسى وبمنهجى . كنت ألقى الأستاذ العقاد رحمه الله ، مراراً فى « المترو » ، عند نزولى إلى القاهرة أو عند عودتى ، فقد كنَّا جميعاً نسكن مصر الجديدة . وكنتُ له مُحِبًّا لطولِ قراءتى ما يكتب ، فكنتُ أسلِّم عليه فيردُّ السلامَ على عادته من الأدب المحتشم ، ولكنى كنتُ أرَى ظلالاً من الجَفْوةِ فى أسارير وَجْهه ، وينقبضُ عنى حَديثهُ إذا حدَّثته ، ولا ريبَ فى أنَّ ذلك كان لما / يعرفه من علاقتى بالرافعىّ ، وقد كان بينهما ما كان . وكنت غيرَ راضٍ فى نفسى بالذى ١٠٤م كان قد جرى بينهما ، وأرَى أن كليْهما كان ظالماً لأخيه ظُلْماً مبرِّحاً . وإذا كانت المودّة بينى وبين الرافعى قد أُتاحت لى أن أحدِّثه فى هذا الظلم مراراً ، فإن جَفوة العقاد لم تترُك

لى مَسَاغاً حتى أُحدِّثه بمثل ما حدّثت به الرافعىّ ، بيد أنى كنت مُصِرًّا على أن أُبلغَ ما أريدُ مع العقاد . فلمّا ظهر كتابى هذا فى المقتطف ، سَوَّلت لى نفسى أن أهديَهُ نسخة من المقتطف ، مع عِلْمى أنّه يرسلُ إليه بالبريد فى كُلِّ شهرٍ ، ومع أنّى كنتُ قد عقدت العزمَ على أن لا أهدىَ كتابى إلى أحدٍ من الأساتذة الكبار . فاستأذنته بالهاتف أن أزورَهُ فى بيته ، فأذنَ لى ، وكانت كلمة الرافعىّ فى « الرسالة » قد نشرت فى ١٣ يناير ١٩٣٦ ، بعد أيام من صدور عدد المقتطف ، وكانت زيارتى للعقاد بعد ذلك بقليل . ولم أجدْ بين لقائه فى « المترو » ولقائه فى بيته كبيرَ فَرْقٍ . فلما جلستُ واطمأننتُ ، أخرجتُ عدد المقتطف ، هديةً منى إليه ، فأخذه ووضعه إلى جانبه ، ولم يكلِّمنى بكلمة واحدةٍ فى شأنه ، وكنت أتوقع أن يكون قد قرأ العدد الذى وَصَله بالبريد . فكان صمتُه جارحاً لى أىَّ جَرْحٍ . فخرجتُ من عنده غَضْبانَ أسِفاً .

وبعدَ أيَّامٍ قلائلَ ، كنتُ عائداً إلى بيتى ، فلما ركبت « المترو » ، فوجئتُ بالأستاذ العقَّاد يُنَادينى ويدعونى إلى مجلسٍ كان خالياً أمامَ مجلسه ، ووجدت فى وجهه البشاشة مكانَ الجَفْوة ، وفى حديثه التطلُّق مكان الانقباض . والعقَّادُ متحدِّثٌ قليل الأَشباهِ إذا تبسَّط وقال ما قال غير محتشمٍ . وقطعنا المسافة من أوّل محطة المترو إلى أن بلغنا المحطة التى عندها بيته فى أول مصر الجديدة ، وهو فى حديثٍ لا ينقطع ، مِلْؤه النَّوادرُ والفكاهات التى يحبُّها / ويحسنُ سَرْدَها . ثم نزل ، ولم يذكر كتابى بحرفٍ واحدٍ ، ولكنى أيقنتُ أنه قرأ الكتابَ ، وأن هذه الحفاوة أو البشاشة التى لم آلَفْها ، كانت أثراً من آثار قراءته كتابى . فلمّا صرتُ وحيداً حتى بلغتُ بيتى ، كانت نشوتى بتغيُّر العقّاد ، تفوق نشوتى بما كتبه الرافعىّ ، وكانتْ يداً للعقاد عندى ، إذْ زادتنى ، يومئذ ثقةً بنفسى واطمئناناً إلى ما كتبتُ . وعلى الأيَّام ، لم أَرَ تلك الجفوة مرَّةً أخرى . وتوثَّقت الصداقة بينى وبينه ، ومع ذلك لم أسمع منه مرةً كلمةً واحدةً عن كتابى إلى أن مات رحمة الله عليه ! ولكنها كانتْ صَنِيعةً لا أنساهَا .

١٠٥ م

وبعد قليلٍ بدأت الرسائلُ تأتى بآسمى على إدارة المقتطف وعلى بيتى ، وفيها

ما فيها ، وقرأت يومئذٍ ثناءً كثيراً من رجالٍ لا أعرفهم ، كشاعرنا الكبير الأستاذ أحمد محرّم وآخرين ، فذهب عنى كُلُّ خوفٍ ومهابة ، وفى خلال ذلك أيضاً كتب أستاذٌ كبيرٌ كان قد علمنى فى التعليم الابتدائى ، ثم الثانوىّ ، هو الأستاذ محمد هاشم عطية رحمه الله ، فنقدنى وسَخِر منّى ، فرددتُ عليه فى صحيفة الأهرام ردًّا عنيفاً ، ونقدنى أيضاً الأستاذ على عبد الرازق فى جريدة « السياسة الأسبوعية » ، فكِلْتُ له كيلاً كما كال فى نفس الجريدة . وتتابعت الأيّام ورأيتُ اسمى مذكوراً بعد خُمول ذِكْرٍ ، والفضلُ فى الذى بلغتُه مردودٌ كُلُّه إلى أخى وصديقى الذى لا أنساهُ الأستاذُ فؤاد صرّوف ، أطال الله بقاءه .

* * *

/ كتابان فى علم « السَّطْو » !!

١٠٦م

الكتاب الأوّل

ثم جاءت بعد ذلك أمورٌ مستنكرةٌ بَشِعْتُ بها وضِقْت بِها ذَرْعاً ، لأنها رَدَّتنى إلى حَوْمة الفَسَادِ الذى اعتزَلْتُ من أجلِه الجامعةَ والحياةَ الأدبيّة كلها ، لكى أصَحِّح طَرِيقى ما استطعتُ إلى الغاية التى أتمَنّى أن أبلُغها . وأهمُّ ذلك حادثتان : أُولاهما ، جاءَتنى رسالةٌ من العراقِ بعد ظهور كتابى بثمانية أشهر (سبتمبر ١٩٣٦) ، من رجل لم أكن أعرفُهُ من قبلُ . كان تاجرَ كتبٍ ناشئًا ، لم يبلغ ما بلغ من الشهرة فيما بعد ، وهو الكتبىّ المشهور « قاسم الرجب » ، رحمه الله ، دلَّتنى رسالته على أنّه قرأ كتابى حرفاً حرفاً ، فإنه ضمَّنه مقابلة بين ما فى كتابى صفحة صفحة ، وبين ما جاء فى صفحات كتاب آخر طبع فى العراق سنة ١٩٣٦ ، أرسلَهُ إلىَّ بالبريد ، كما قال . ووصل الكتاب بعد أيام ، وهو كتاب « ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام » ، وكاتبه هو الأستاذ عبد الوهاب عزّام ، وفى آخره أنه فرغ من تأليفه « لتسع بقين من شهر ربيع الآخر سنة

١٣٥٥ ، عاشر تمُّوز (يوليه) سنة ١٩٣٦ » ، أى بعد كتابى بسبعة أشهر ، وختم مقدِّمته القصيرة بهذه العبارة :

« ومهما يكن فقد بذلتُ الجهدَ ، وأودعت الكتابَ من تفصيل سيرة الشاعر ، والكشف عن جوانب مجهولة من سيرته وأدبه ، ما يطوِّع له أن أقدِّمه للقراءِ ، راجياً أن يجدوهُ أهلاً لذكرى أبى الطيب ، ويَروْهُ أوسع وأعمقَ وأجدى ما كُتِبَ عن الشاعر منذ عاش إلى عامنا هذا ، عام الاحتفال / بمضىِّ ألف سنة على وفاته ، والله ولىُّ الهدى والتيسير » . ١٠٧ م

وكنتُ أعرف عزّاماً ، رحمه الله ، ويعرفنى ، فقد كنت طالباً بالجامعة ، وكان أستاذاً بها . كان غايةً فى دَماثَة الخُلُق ، ليِّنَ الجانب ، رقيق الحاشية ، سَمْحاً سَهْلاً طويل الأَناةِ ، متواضعاً عند اللقاء ، خَفيض الصَّوت ، فإذا حدّثته أَجابَك والحياءُ يكادُ يقطعُه عن الإجابة . وكان حافظاً للشعر ، يُسْمعك منه ما تشاءُ إذا نَفَّس عنه حياؤه . وكنت لذلك أحبُّه وأُجلُّه لواسع معرفته . فلما قرأت ما ختم به مقدمة كتابه ، رابنى منه ما قال ، لأنّه أمر غير معهودٍ فيه أن يتبجَّح بذكر نفسه أو أعماله . وقد نشر فى سنة ١٩٣٢ ، ترجمة الشاهنامه ، وبذلَ فيها جهداً كبيراً ، فكان خيرَ ما نشر ، ومع ذلك لم يُثنِ على نفسه ، بل كان جَمَّ التواضع هاضماً لنفسه ، فكيفَ قال هنا عن كتابه إنه « أوسع ، وأعمق ، وأجدَى ما كتب عن الشاعر منذ عاش إلى عامنا هذا » !! غريبة !! ولكى تعلم أنها غريبة الغرائب ، فاعلم أنه حين أعاد طبع كتابه هذا فى مصر سنة ١٩٥٤ ، أثبت مقدمة الطبعة الأُولى ، ثم ختم مقدمة الطبعة الثانية بما يلى :

« وأَصْدُقُ القارئ أنّى أردتُ أن أحذف من مقدمة الطبعة الأُولى دعوى أنَّ هذا الكتاب أجمع وأدق ما كتب عن الشاعر . واتفق أنْ جاء إلى كراجى (بلدة بالهند) ، وأنا أُعِدّ الكتاب للطبعة الثانية ، صديقُنا العلامة الشيخُ عبدُ العزيز الميمنى الراجكوتى ، وهو من أوسع الناس معرفة بالشاعر ، وكان يحفظ ديوانه كُلَّه ، فأخذ الكتاب وقرأه ، ثم نهانى عن حذف الجملة / التى همَمْتُ بحذفها وقال : دَعْوَى صدْقٍ ، فلماذا تمحوها » !! غريبة ١٠٨ م

أخرى هنديَّة الميلاد !! وستعلم السَّبَب فى إرادة حذفها ، ثم فى الشَّهادة التى أَتى بها مُخْرِجَةً له من إرادته ، فاستسلم للنهى وأثبتَها راضياً عنها كُلَّ الرضى ، ولا غَرْوَ !! ولم يقنع بذلك ، بل زادَ فى مدح كتابه ، فوصفه مرة أخرى بأنه : « أَجمع وأدقُّ ما كتب عن الشاعر » !! غريبة أيضاً !!

ما علينَا ! تجاوزتُ المقدّمة ، وأخذت الكتابَ أقرؤه . فإذا به ، منذ أوّله ، يتعقَّبنى تعقُّباً متستّراً متلفِّعاً بعَبَاءة الأخبار التى رواها الرواة ، فهو يقف عند ما وقفتُ عندَه منها ، ويخالفنى معرِّضاً غير مصرِّح ، أو يُعارِضُنى موافقاً لبعض رأْيى مُغفِلاً سائرَهُ ، وأَثَرُ ألفاظى فى ألفاظه واضحٌ كلَّ الوضوح !! ويقف أيضاً على كُلِّ شعرٍ من شعر أَبى الطيب ، لم يتنبّه للوقوف عنده أحدٌ قبلى ، ويعلِّقُ عليه بنفس ألفاظى التى علّقتُ بها عليه !! وظلَّ يسلَخُ من كتابى سلخاً مرّةً بعد مرَّةٍ ، مقتفياً آثارى ، ويقول ، وكأنّ ما يقولُه ممّا يظهر لكل قارئٍ شعرَ أبى الطيب ، بلا معاناة وبلا سببٍ ، ويعرضه عرضاً كأنه اجتهادٌ منه لم يُسْبَق إليه من قبل !! وأعمالٌ أخرَى قبيحةٌ ، مع الأسف ، وضنَّ ضنًّا شديداً بأن يكرّمنى ويشرّفنى بذكر آسمى ، وما هو إلاّ أن يقول فى ثنايا سُطور كتابه : « قال بعض الأدباء » و « رأى بعض الكتاب » و « قال كاتب المقتطف » !! يا للعجب ! فلما فرغتُ من الكتاب ، ساورَنى أن أكتب ، وأن أبيِّنَ قَباحةَ هذا الأسلوب ، ولكنى تأنَّيتُ به ، لأنى كنت لم أزل أحبُّه وأجلُّه ، ولأنى رَحمتُه وأشفقتُ عليه من حَيائِه ، إذَا أَنَا هتكتُ عِرْض كتابه .

/ ويشاءُ الله أن لا يطُول علىَّ التأنِّى ، فبعد أيام قلائل كنتُ جالساً فى مجلس ١٠٩م أستاذنا أحمد حسن الزيّات فى مكتبه بمجلة « الرسالة » ، وفجأةً قطع الأُستاذُ حديثه وقامَ وأشرقَ وجهُه ، ورحَّبَ وأهَّل وسَهَّل ، وإذا القادمُ هو الأُستاذ عبد الوهاب عزام . فقمتُ وسلّمتُ ، وجلسنَا . فلما بَرَدَ المجلسُ ، وانقضتْ لَحَظاتُ الحفاوة بمَقْدمه ، التفتُّ إلى أستاذنا عزّامٍ ، وأعلمتُه أنّى قرأتُ كتابَه ، وبدأتُ أعاتبهُ على استنكافه أن يذكرنى باسمى ، فغلبه الحياءُ ، وجعل يحاوِلُ أن يجاملَ ، وأنْ يجعله أمراً غيرَ مقصودٍ البتة ، وأنه

عرضَ لآخرين غيرى ، فلم يذكر أسماءَهُم . فغاظتنى مجاملته ، وغاظنى حياؤه أيضاً !؟ فقلت له : ليس هذا بصحيح ، فإنك ذكرت الأعجمى المستشرق « بلاشير » باسمه مراتٍ ! فعَجِل قائلاً : لأنى كنت أردّ على أقواله التى كتبها فى « دائرة المعارف » ! فزادنى تقزُّزًا ، فقلت له : يا سيدى الأستاذ ، إنَّك أيضاً كنت تردُّ على أقوالى ، منذ أوّل كتابك ، فعلت كذا وكذا ، وكان أسلوبك فى مناقشة الأعجمى واضحاً ، وقد تعرَّضت لنَقْد القضايا التى كتبها ، مؤيِّداً بالنقل عنه والإشارة إلى كلامه ، أفلست أنا جديراً بأن أعامَل معاملته على الأقلّ ! ومع ذلك ، فإن أقوال هذا الأعجمى المستشرق لا قيمة لها فى الحقيقة ، وهو لو انخلع من أبّهة الاستشراق ، ومن روعة الاسم الأعجمىّ ، ثم جاءك فى زىِّ طالبٍ تمتحنه ، لاستكثرت أن تزيدَه درجةً على درجة الصِّفر . فأىُّ شئٍ هذا ؟ وَهَبْ أنّه جاء برأى غريبٍ ، كرأيه فى أن المتنبِّى « قرمطىٌّ » الرأى والهوى ، فاستحقّ أن تردّ عليه ، أفلا يستحقُّ رأيى فى « علوية أبى الطيب » مثلاً ، أن تذكره / وتردّ عليه ردًّا مباشراً ، كما فعلت مع الأعجمىّ ، دون أن تلجأ إلى التضمين الملفَّف ، وإلى الإغفال المتعمّد ؟ ثُمّ تزيد الأمرَ سُوءًا حين تتعقَّبُ ترتيبى لشعرِ القسم الأوّل من ديوان أبى الطيب ، وتوقيتى لرحلته فى الشَّام منذ خرج من الكوفة سنة ٣٢١ ، إلى أن لقى أبا العشائر سنة ٣٣٦ ، مع أنّى كنت أوّل من نبَّه إلى هذا الترتيب ، وأوّل من حاول هذا التوقيت ! أيليق هذا ؟ ثم أيليقُ بك أنْ تعارضنى فى كل توقيتٍ لقصائده ورحلته ، بلا جديدٍ وقفتَ عليه بجهدك ، وإنما أنت معتمدٌ فيه على تخاليط « بلاشير » ؟ هذا من عجيب السَّجايا ، وأعجبُ أنّك فى كتابك قد أقررتَ ، غير مُرِيدٍ !! أنك كنت تعتقد أن هذا القسم من الديوان مرتب على التاريخ ، ثم جاء ما أَزالك عن اعتقادك ، فمن الذى فتح لك الطريق حتَّى توقَّفْت فى الأمر وبحثت ؟ (١) وطال الكلامُ ، ولم أَدَعْ شيئاً مما كنتُ أحبُّ أنْ أقوله له كتابةً ، إلا قلتُه له بلسانى . وختمت حديثى فقلت له : خيرٌ لك أن تعيد النظر فى كتابك هذا ، ففيه آفاتٌ كثيرة أرجو أن يبرأ منها إذا أعدتَ طبعه مرة

١١٠ م

(١) انظر ما يلى ص : ٨٨ ، ٨٩ .

أخرى ، فهذا أليق بك ، وأكرم بك عند الناس . (١) وكان هذا حَسْبى ، وطرحتُ فكرة الكتابة عن كتابه جانباً ، ولم أذكره بسُوءٍ حين تعرَّضت لنَقْد الكتاب الآخر ، كتاب كبيرهم الذى علّمهم « السطو » ، وبَعَجَ لهم أساليبَه ، ومدَّ لهم قِياسَه وعلَله !! كما قال ابن سلامٍ فى إمام علم النحو « عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى » !!

* * *

١١١ م / وليس سَبيلى هنا أن أفصِّل القول فى نقد كتاب الأستاذ عزّام ، والوقوفَ بالقارئ على موضع موضعٍ من أفعاله بكتابى فى كتابه ، فهو أمرٌ لا يعنينى الآن ولا غداً ، بحمد الله ، ولكنّ عنايتى هى إظهارُ فسادِ الحياة الأدبية ، فى زمنٍ مَضَى . (٢) نَعَمْ ، ولكنَّه ألقى بذور الفسادِ التى أيْنَعتْ من بعده إلى زماننا هذا .

ذكرتُ قبل ما عانيتُه فى ترتيب تاريخ قصائد القسم الأوّل من ديوان أبى الطيب [انظر ما سلف ص : ٣٧ - ٤٠] ، وكان عملاً شاقاً وَعْرَ المسالك ، لأنّ اعتمادى فيه كان على « تذوُّق الشعر » ، وأما الأخبار وتراجم الرجال الذين قال فيهم هذا الشعر ومتى قاله ، فكان يحتاج ضبطُ تواريخها إلى حذر شديد . وقد استطعتُ ، بحمد الله ، أن أوَفّقَ إلى توقيتها توقيتاً مقارباً للحقيقة ، ولم يسبقنى إلى التفكير فيه ، أو إلى عمله ، أحدٌ أنتفع بعلمه . ولكنّى لم أُعقد فى كتابى باباً بعنوان « ترتيب قصائد المتنبى » ، بل فرغتُ من الترتيب ، ثم بثثْتُهُ فى مواضعه من الكتاب منذ أوَّله إلى نهاية الفصل العاشر [من ص : ١٣٧ -

---

(١) انظر ما سيأتى ص : ٨٥ ، ٨٦ .

(٢) كُلُّ ما فى هذه المقدمة ، وما نشرتُه من مقالاتى بعنوان « بينى وبين طه » ، ليس إلاّ برهاناً على فساد الحياة الأدبية كَيف فسدت ؟ ومَنْ أفسدها ؟ ولا أريد بها قَدْحاً فى أحدٍ ، ولا مَدْحاً لأحد ، ولا ثَناءً على نفسى أو عملى ، فمن فهم غير ذلك ، فهو وما فَهِم ، ولا حيلةَ لى فى إصلاح الفسادِ . ولكن ليعلم أنى إذْ عزمتُ على صفة فساد حياتنا الأدبية ، فإنِّى أقولها ناصحاً لأمّتى ، ومن تعرَّض للنصيحة ، فعليه أن يكون صادقاً واضحاً مُبيناً ، لا يُدَارى ولا يجامِلُ ، ولا يُمارِى ولا يجادل .

٢٩٤] . وقد كنت انتهيتُ ، فى تذوّق لشعر أبى الطيب ، إلى أن الترتيب الذى وضعه أبو الطيب نفسه ، فى القسم الأول الذى لم يؤرخ قصائده كما أرّخ القسم الثانى من ديوانه ، كان ترتيباً مقارباً للصواب . وذلك لأنه كان واضحاً أن أبا الطيب كان ، عند جمع شعره فى ديوانه ، شديد الإحساس بالتاريخ فى القسم الثانى ، فهو خليقٌ أن يكون شديد الإحساس به أيضاً فى القسم الأوّل ، ولكنه كان قد نسى الأيام والشهور والسنوات ، ١١٢م / فرتب هذا القسم على ما بقى فى نفسه من الإحساس الخابى بهذه التواريخ التى قَدُم عهدُه بها ، [انظر ما قلته آنفاً من ص : ٣٨ – ٤٠] .

والأستاذ عزّام قد قرأ كتابى بلا شكٍّ !! ورأى هذه الفصول العشرة الأولى « مرَصَّعةً » !! بالتواريخ التى تؤرِّخ شعر أبى الطيب الذى لم يؤرخه هو باليوم والشهر والسنة ، وأدرك كما أدرك الدكتور طه حسين : « أنّ أحداً لم يسبقنى إلى توقيب قصائد المتنبّى هذه » [انظر ما سيأتى ص : ٥٢٣] ، بل هو قرأ التعليق الذى كتبتُه فى كتابى ، [انظر هذا السفر ص : ١٥٢ ، تعليق : ١] ، حيث قلت : « واعلم أننا نجتهد فى تاريخ ما لم يؤرخ من قصائد المتنّبى ، وقد وجدنا فى ذلك المشقة فما فوقها ، لنترجم للرجل على بيِّنةٍ وهدًى ، وستجد فائدة ذلك فيما يمرُّ بك إن شاء الله » ، فانظر الآن ماذا فعل الأستاذ عزّام ؟

عقد فصلاً فى كتابه بعنوان « ترتيب ديوان المتنبى » ، لا يتجاوز ثلاث صفحات من الطبعة الأولى العراقية ، وهو فى صفحتين فقط من الطبعة الثانية المصرية !! وختم هذا الفصل المهمّ بقوله :

« كنت أعتقد كما اعتقد غيرى ، (مَنْ غيرُهُ هذا ! لا أدرى) ، أنّ القسم الأوّل من كتاب ديوان المتنبِّى ، مرتَّبٌ على التاريخ ، حتى عرفتُ بعد بحثٍ طويل أنّ القصيدتين اللتين مدح بهما « مساور بن محمد الرومىّ » نظمتا سنة ٣٢٩ ، يُعْرَفُ ذلك من ولاية هذا الأمير على حلب فى هذه السنة ، ومن ذكر هزيمة ابن يزداد فى إحدى القصيدتين ، وكانت هزيمته فى ذلك الوقت أيضاً . وهاتان القصيدتان فى الديوان مقدمتان على قصائد ١١٣م « بدر بن عمار » / التى نظمت منذ أواخر سنة ٣٢٨ وأوائل سنة ٣٢٩ ، وأظنُّ مَدْحَ

مساور كان بعد مدح بدرٍ . ثم بين قصيدتى مساور ومدائح ابن عمار ، قصائد كثيرة لا أظنُّ أن المتنبى نظمها بين مدحَىْ هذين الأميرين . فهذا أضعف ثقتى بالترتيب فى الديوان ، قسمِه الأوّل = ومنعنى أن أعتمد عليه فى تاريخ الشاعر ، وإن ظننتُ أن الأصل فى ترتيب الديوان كُلّه الترتيب التاريخىّ . فأدَعُ الاعتماد على ترتيب الديوان فى القسم الأوّل ، إلى أن أجد من الأدلة التاريخية ، ما يكفى للثقة بترتيب قصائده كُلّها على التاريخ » . (١)
انتهى الكلام والحمد لله ... ثم إنّ الله تعالى لم يخلق لنا الألسنة إلا للكلام ، فإبطالُ عملها إبطالٌ لنعمةٍ من أجلّ نِعَم الله على الناس ، وهذا قبيحٌ بنا معشرَ البشر !! أليس كذلك ؟

كان يعتقد أن القسم الأوّل مرتب على التاريخ ، ثم جاءَ ما أزال اعتقاده ، فأضعف ثِقتهُ بهذا الترتيب ومنعه أن يعتمد عليه فى تاريخ الشاعر = كلام مستقيم ، ولكن ما معنىَ الجملة التالية له : « وإن ظننتُ أن الأصْل فى ترتيب الديوان كله الترتيبُ التاريخى » !! تأمّلْ هذا الكلام ، وما يدلُّ عليه من الحيرةِ المفضية إلى التناقض ! ألم يقُل قبل إنّ هذا الظنَّ أو الاعتقاد ، قد جاء ما يبطُله بعد « بحث طويل » ؟ هذا على كُلِّ حال نصُّ كلامه فى الطبعة الأولى سنة ١٩٣٦ . فانظر الآن ماذا كانَ من أمره فى الطبعة الثانية سنة ١٩٥٦ ، بعد أن انقضى على حديثنا عشرون سنة ، قال فى مقدمة الطبعة الثانية :

/ « وقد نفدت نسخ الطبعة الأولى بعد قليل ... ثم يسَّر الله نشرهُ ... فأعدت النظر فيه ، وغيَّرتُ قليلاً ، حاشا الفصل الأخير ، فقد أعدتُ كتابته . ووجدت الكتاب ، بعد هذه المدة الطويلة ، كما وصفته فى مقدمة الطبعة الأولى ، ولم يتغيّر رأيى فى شىء فيه ، فهو جديرٌ بعناية كُلِّ معنىٍّ بسيرة أبى الطيب ، حقيق بثقة كُلِّ قارئ » . ١١٤م

وظاهر بعد الحديث الذى حَدَّثتك عمّا كان بينى وبين الأستاذ عزّام ، أنّه يعرِّض بى ، على استحياءٍ !! من وراء بُرْقُعٍ لا يراهُ غيرى ! وانظر إلى ثنائه على كتابه ، وقد

---

(١) انظر كيف كان يتكلم الأساتذة الكبار : « يعتقدون » و « يعرفون » ، و « تضعفُ ثقتهم » ، و « يظنون » ، و « يطلبون الأدلة » ، ويطلبون فوق ذلك أن يصدّقهم الناس !!

وصفت لك من قبلُ حياءَهُ ، وأنه أمرٌ غير معهودٍ فيه أن يتبجّح بذكر نفسه والثناء على أعماله [انظر ص : ٨٠ س : ١٣] ، فليت شعرى ما الذى غيَّر الرجُل ! وقد ذكَر أنّه أعاد النظر فى الكتاب ، و « غيَّر قليلاً حاشا الفصل الأخير .... » ! وسأضرب لك مثلاً على ما غَيَّر فى فصل ترتيب الديوان الذى نقلته آنفاً [ص : ٨٤ س : ١٨ وما بعده] ، فإنه قال هناك :

« كنت أعتقد كما اعتقد غيرى ... حتى عرفت بعد بحثٍ طويلٍ أن القصيدتين ...» ، فكان التغيير هو هذا : «حتى عرفت بعد بحث طويل مُتْعبٍ أن القصيدتين .... » فزيادة « متعب » ، تغييرٌ كان لابُدَّ منه ، لأنه أمرٌ شديد الخطر ، ولا يستقيم الكلام إلا بهذا التغيير ! وهو يستحى أن يرانى قلتُ : « وآعلم أننا نجتهد فى تأريخ ما لم يؤرخ من قصائد المتنبّى ، وقد وجدنا فى ذلك المشقّة فما فوقها » [انظر ما سلف ص : ١٤ ، ص : ١٢ ، ١٣] ثم يقتصر / هو على وصف بحثه بأنه « طويل » ، والاقتصار على صفته بالطول مفسدةٌ وإخلالٌ وزلّةٌ لا تُغتفر !! فصار لِزاماً أن يغيّر فيقول : « بحث طويل متعب » لتستوى كِفَّتَا الميزان ! وإذا لم يَكنْ هذا القدر من الدّقّة والحرص والأمانة هَزْلاً محضاً ، فماذا يكون ؟

١١٥ م

* * *

وينبغى أن تستيقن ، إكراماً لى على الأقلّ ، أن الرجُل لم يبحثْ بحثاً لا طويلاً ولا قصيراً ، ولا متعباً ولا هيِّناً « حتى عرف أن القصيدتين اللتين مدح المتنبى بهما مُساورَ ابن محمد الرومىّ ، نظمتا سنة ٣٢٩ .... » إلى آخر ما قال . وتفسير هذا بسيطٌ جدًّا عندى ، لأنى أعرف ما كتبتُ ، وأعرف ما يكتب الآخرون . أمّا كشف الستار عن حِيَلِ هؤلاء المؤلفين الذين يتستّرون تحت عباءة « البحث العلمىّ المتعب » ، ويتلعّبُون بعقول القراء ، ويفسدُون الحياة الأدبية بتعبِهم فى اختطاف ما يختطفون ، ثم بتعبهم فى إخفاء ذلك بأساليبهم المبتذلة المتنوِّعة ، فيحتاج إلى بَسْطٍ وإطالة . ولكنى سأقنع هنا بما لا بُدَّ منه .

كنتُ قد قسَّمت ديوان أبى الطيِّب أقساماً . لم أذكر ذلك فى كتابى ، ولا أجد ما يدعونى إلى تفصيل كلِّ هذه الأقسام هنا ، والذى يهمنا هما القسم الأوّل والثانى .

القسم الأول : يبدأ من أول الديوان ، إلى آخر القصيدة ٤٨ (من شرح الواحدىّ واليازجىّ أيضاً) ، ويتضمّن ٢٧ مقطوعة ، و ٢١ قصيدة من قصارِ / القصائد . وتاريخها ١١٦ م يبدأ من أوّل سنة ٣١٤ إلى سنة ٣٢٥ تقريباً . وهى ممّا قاله فى الكوفة صبيًّا فى الحادية عشرة ، ثم فى الشام سنة ٣٢١ ، ثم فى السجن سنة ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ثم فى بغداد والكوفة سنة ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ثم فى الشام مرةً أخرى فى أوائل سنة ٣٢٦ .

والقسم الثانى : يبدأ بالقصيدة ٤٩ وما بعدها ، عند نزوله بالتنوخيين باللاذقية سنة ٣٢٦ وما بعدها .

...

أما القسم الأول ، فهو يقع فى كتابى هذا من أوله ص : ١٣٧ إلى آخره ص : ٢٣٦ من هذه الطبعة . وقد استشهدت بأكثر مقطوعات هذا القسم ، أمَّا قصائده ، فلم أستشهد فيه إلاّ بأربع قصائد من قصائده لا غير . وكان فيه توقيت رحلته والحديث عنها ، منذ خرج من الكوفة سنة ٣٢١ إلى الشام ، ثم سجنه ، ثم عودته إلى الكوفة وبغداد ، ثم عودته إلى الشام مرة أخرى سنة ٣٢٦ . ولما بلغتُ فى كتابى ص : ٢٣٢ ، قلت فى تعليق لى هناك : « اعلم أننا تركنا فى هذا الحديث عن رحلته وحبسه ، ما قال من شعر فى مدح رجالٍ لقيهم فى طريقه بالبلاد التى نزل بها ، إذ ليس يضرُّ إغفالُ ذلك .... » فكان مما أغفلته آخرُ قَصِيدتين فى هذا القسم (٤٧ ، ٤٨) ، فى مدح « مساور بن محمد الرومىّ » الذى ذكره الأستاذ عزام .

ثم شرعتُ بعدَ ذلك منذ ص : ٢٣٧ فى القسم الثانى ، الذى يبدأ عند نزوله على التنوخيين باللاذقية سنة ٣٢٦ — ٣٢٨ ، ومضيت فى تاريخ هذه الحقبة إلى أن لقى بدر ابن عمار الأسدى ، من أواخر سنة ٣٢٨ ، إلى سنة ٣٣٣ على / وجه التقريب [ص : ٢٥٩ ١١٧ م — ٢٧٢] ، وتابعت التاريخ والتوقيت بعد ذلك ، إلى أن انتهى المتنبّى إلى أبى العشائر الحمدانى فى أواخر سنة ٣٣٦ ، ثم جاء القسم المؤرخ من الديوان ، منذ نزل المتنبّى على سيف الدولة فى جمادى الأولى سنة ٣٣٧ .

فماذا حدث ؟ حدثَ أن الأستاذ عزامًا ، قد تعب تعباً شديداً حقاً ، ولكن تعبه هذا كان وهو يحاوِل أن يتبيَّن فى كلامى هذا التقسيم الذى فصّلتُه هنا بعض التفصيل ، وما فيه من التأريخ الذى لم يسبقنى إليه أحدٌ ، وقد ظَلَّ يتعقّبنى فى هذا القسم الأوّل [ص : ١٣٧ - ٢٣٦ كما قلت] ، يأخذُ من كلامى ، ويفرِّقُه على أبواب كتابه « المدرسىّ » ، ثم يحاوِل أن يعارضنى مرة بعد مرةٍ ، بلا ذكْرٍ ولا بيانٍ ، وبأسلوبٍ غير مرضىّ ولا مستساغ ، لأنّه توقَّف ، هكذا تظاهر ، على كُلِّ شعرٍ من شعر أبى الطيب أو خبر من أخباره ، كنت أنا أوّل من توقّفَ عنده وكشف معانِيَهُ . فمن ذلك أنَّه حين انتهى إلى مسألة نبوته وسجنه فى كتابى هذا [ص : ٢٢٦] ، وجدنى قد توقفت عند شعر أبى الطيب الذى قاله وهو فى السجن ، وكتب به إلى « الأمير ؟ » وذلك قوله ، [انظر ما سيأتى ص : ٢٢٧ وما بعدها] :

رَمَى (حلباً) بنَوَاصِى الخيولِ ، وسُمْرٍ يُرِقْنَ دماً فى الصعيد

....

فوَلَّى بأشياعه (الخَرْشَنِىُّ) ، كشاءٍ أحسّ بزأْرِ الأسودِ

وهو من القصيدة ٣٦ من القسم الأول ، فقلت فى توقُّفى على هذين البيتين اللذين لم يتوقف عندهما أحد قبلى : « والذى تنبَّهنَا له هنا ، أنه ذكر فى هذه / القصيدة (حلباً) و (الخرشنى) ، وقد عَيِينَا (أى تعبنا !!) بالبحث عن الحادثة التاريخية التى نستطيع بها أن نعيّن السنة التى قيلتْ فيها ، ثم وفّقنا الله لتفسير ذلك بالاستنباط » ، وذكرت الحادثة وتاريخها ثم قلت : « والخرشنى هو ملك الرُّومِ ، لأنهم ينسبون ملوك الروم إلى جبل ببلادهم ، يقال له (خَرْشَنَةَ) ، وتكون هذه القصيدة لذلك ، مما كتب أبو الطيب إلى محمد بن طغجٍ الإخشيد التركىُّ (الأمير) ، فى أواخر سنة ٣٢٢ ، وأوائل سنة ٣٢٣ » .

١١٨ م

فتوقف الأستاذ أيضاً ، دون أن يذكرنى أو يذكر ما قلت فى ذلك ، وجاء يعارضنى ويتعقّبنى ويزعُم أن (الخرشنىّ) ، هو « بدر الخرشنىُّ » ، وأنَّه ولى حلب سنة ٣٢٤ ، وكتب ذلك فى فصل لطيف كلُّه خَلْطٌ عنوانه : « متى سجن أبو الطيب ؟ »

وكان سبيلُه إلى هذا الكشف أن يلتمس كتاباً فيه « تاريخ حلب » ، فوقع على كتاب الأستاذ محمد راغب الطباخ ، فذكره ، وأخذ منه ما أخذ . وفيما هو يقلِّب الكتاب وقع عَرَضاً على اسم « مساور بن محمد الروميّ » الذى مدحه المتنبىّ بالقصيدتين (٤٧ ، ٤٨) ، وهما فى آخر القسم الأوّل عندى . فمن هنا قال : « كنت أعتقد كما يعتقد غيرى ... حتى عرفت بعد بحثٍ (متعبٍ) أن القصيدتين اللتين مدح بهما مساور بن محمد الرومى نظمتا سنة ٣٢٩ ، يعرف هذا من ولاية هذا الأمير على حلب فى هذه السنة ، وفى ذكر هزيمة آبن يزداد فى إحدى القصيدتين .... » إلى آخر ما قاله [انظر ما سلف : ٨٤ ص] ، ولم يشر إلى كتاب الأستاذ الطباخ هنا البتة !! مع أن خبر « مساور » وهزيمته ابنَ يزداد ، وهو الذى ساقه هنا كأنه شىء معروف مشهور = وهو أسلوبٌ مُبْتَذَل من أساليب التَّعالُم = / لا يوجدُ له ذكر فى كتب التاريخ المعروفة ، ولم يَجْرِ له ذكرٌ إلاّ فى كتاب الأستاذ الطباخ ، وهو نقله من مخطوطة كتاب « زبدة الحلب » لابن العديم ، الذى طبع بعد ذلك بزمان طويل ! (سنة ١٩٥١) . فالأمرُ كُلّه غير « متعبٍ » كما ترى ، وهو شىء جاء اتفاقاً ، ولكنه فرح به أيَّما فرحٍ ، لأنه يتيحُ لَهُ أن ينقُضَ علىَّ « الترتيب التاريخى » الذى سرتُ عليه فى كتابِى ، فيقول بعد ذلك مباشرةً : « وهاتان القصيدتان فى الديوان ، مقدمتان على قصائد بدر بن عمار التى نظمت منذ أواخر سنة ٣٢٨ وأوائل ٣٢٩ ، وأظنّ أن مدح مساور كان بعد مدح بدر ، ثم بين قصيدتى مساور ومدائح ابن عمار قصائد كثيرة لا يُظَنّ أن المتنبّى نظمها بين مدائح الأميرين . فهذا أضعف ثقتى بالترتيب فى الديوان .... » ، إلى آخر ما قال [انظر ما سلف ص : ٨٤ ، ٨٥] .

١١٩ م

والخلاصة ، أنه لولا توقفى عند (حلب) و (الخرشنى) ثم وقوفه عرضاً على ذكر « مساور » فى كتاب الطباخ ، لَظَلّ الأستاذ على اعتقاده (كما اعتقد غيره !) : أن الديوان مرتَّب ترتيباً تاريخياً !! فهذا هو الذى أحدث له الإشكالَ فى هاتين القصيدتين !! ولكن الصحيح هو أن القصيدة الأولى (٤٧) ، قالها المتنبّى بعد خروجه من السجن سنة ٣٢٣ ، وبعد عودته إلى الشام سنة ٣٢٦ ، ثم فارق مساوراً ، وذهب إلى التنوخيين ،

على سياق ما فى كتابى . أما القصيدة الثانية (٤٨) ، فقد قالها حقًّا ، سنة ٣٢٩ ، وهو عند بدر بن عمَّار فى طبرية ، بدليل ذكر هزيمة ابن يزداد فيها ، وأرجَحُ الظنّ عندى أنه كتبها بطبرية ، وأرسلها إلى « مساور » ، وهو بحلبٍ . ثم لما جمع المتنبّى شعرَه ، على ما بقى فى نفسه من تواريخ قصائد القسم الأول ، ضمَّ القصيدة / الثانية التى قالها سنة ٣٢٩ ، إلى القصيدة الأُولى التى قالها سنة ٣٢٦ ، وقد فعل المتنبى ذلك مراراً ، حتى فى القسم المؤرَّخ ، فإنّه ضمَّ قصائد أو أبياتاً فى تاريخ متأخر ، إلى قصائد فى تاريخ متقدّم ، وقصائد فى تاريخ متقدّم ، إلى قصائد فى تاريخ متأخر ، ليكون شعره فى الرجل الواحد ، مجموعاً فى مكان واحدٍ . وقد أشرت إلى ذلك من فعله فيما سلف [انظر ص : ٣٨] .

١٢٠ م

* * *

ولست هُنا مريداً للوقوف على جميع ما أستهجنه من أفعال الأستاذ عزام ، وهى كثيرة جدًّا ، ولكننى سأقفك على هذه الأشياء الغريبة التى تحرّك هؤلاء الكتاب ، ملفّفة فى الغموضِ والإبهام . فالأستاذ عزام ، لم يلق بالاً إلى شعر أبى الطيب عن الرجل الذى ذكره آنفاً فى عُرْض كلامه ، وذكر تاريخ قصائد أبى الطيب فيه ، « وهو بدر بن عمار الأسدّى » ، ثم أغفله فى كتابه إغفالاً يكادُ يكون تاماً ، ولا أدرى لم ؟ إلا ما كان من قوله آنفاً : إن قصائد أبى الطيب فيه كانت سنة ٣٢٩ ، ثم لم يذكر عنه شيئاً ذا بالٍ سوى هذا التاريخ « المحدّد » !! أما أنا فقد عقدتُ له فصلاً كاملاً مفرداً ، هو الفصل التاسع كلُّه [هذا السفر : ٢٥٩ - ٢٧٢] ، وردّدت ذكره قبل ذلك وبعد ذلك [اطلبه فى الفهرس] ، وحدّدت شعر أبى الطيِّب فيه من أواخر سنة ٣٢٨ إلى أوائل سنة ٣٣٣ . وجعلتُ لقاءَ أبى الطيب ببدر أوّلَ إسفارةٍ واضحة عنْ طبيعة أبى الطيِّب وأهدافه بعد أن خرج من السجن ، وعن تأمُّلاته وآلامه وحوافزه ، حيث استعلنت « عصبية أبى الطيّب للعرب والعربية ، وهيأت شاعريته لما يستقبله لدى سيف الدولة العربىّ العدوىّ ، هازم الروم ، / وقامع الدسائس الفاطمية بالشام وبعض العراق » ، كما قلت [ص : ٢٦١] .

١٢١ م

وقد أحدث هذا الفصل للأستاذ عزام غماً شديداً ، وارتياكاً متعباً ، ولم يستطع أن يقول فيه شيئاً فى كتابه البتة ، ولم يستطع أن يتعقّبنى كعادته ، فوقف بحثه « المتعب » كُلّه عند مسألة التاريخ التى يذكرها عرضاً بلا دليل البتة !! لأنّ الدليل لم يكن عنده فى كتب التاريخ المعروفة !! ولا وجد ذكره واضحاً فيها ، فأخذه تسليماً = ثم اجتهاداً من عند نفسه ! = من رجُل آخر ، أخفى ذكره فى هذا الموضع إخفاءً تامًّا ، مع أنه ذكره فى مواضع أخرى كثيرة من كتابه ، إلاّ هذا الموضع !! (١)

فالأعجمى المستشرق « بلاشير » ، كتب ترجمة لأبى الطيب فى دائرة المعارف الإسلامية ، وقد ذكره الأستاذ عزام وذكرها مراراً كثيرة جدًّا فى كتابه ، وبأدبٍ جَمّ حتى عند أشد المخالفة . فكان ممّا قاله « بلاشير » أن المتنبى بعد « ثورته » : « رجع إلى احتراف المديح !! واستئناف حياة التجول بداية عام ٣٢٥ .... وقنع بمدح أهل أنطاكية ودمشق وحلب وغيرها وبعض صغار العمال فى هذه المدن ، الذين كانوا يقتِّرون عليه فى العطاء كلّ التقتير (يا سلام !!) . وذاع صيتُه شيئاً فشيئاً حتى أصبح فى أوائل عام ٣٢٨ هـ شاعر الأمير بدر الخرشانى (هكذا ، والصواب : الخرشنى) الذى ذكره فى ديوانه باسم « بدر بن عمار » ، وكان والياً على دمشق ، من قبل أمير الأمراء السابق ابن رائق ، الذى كان قد احتل الشام وشيكاً . ولما كان بدرٌ من / أصلٍ عربيٍّ ، فقد اعتبره المتنبِّى مولاه الذى كان ينتظرهُ من أمدٍ بعيد » . ثم يقول : « ولم تدُمْ صداقة المتنبى لبدرٍ إلاّ حوالى عام ونصف عام » . ١٢٢ م

ثم يقول هذا الأعجمى أيضاً مادة « بدر الخرشنى » من دائرة المعارف الإسلامية : « بدر الخَرْشَنّى » ، أميرٌ يرجَّح (يا سلام !!) أنه من أهل خَرْشَنة .... ويعرف أحياناً (لا ياشيخ) بنسبة ربما كانت أُسطورية (يا لطيف) ! وهى « بدر بن عمار الأسدىّ » ، حاجب الخليفة القاهر .... ووُلِّى على جند الأردنّ ، وجعل مقرّه فى طبرية سنة ٣٢٨ هـ ،

---

(١) هذا من صميم فساد حياتنا الأدبية .

وحوالى هذا الوقت مدحه المتنبِّى . وفى أثناء الصراع بين ابن رائق وأمير الموصل الحمدانى ناصر الدولة ، عاد بدرٌ هو أيضاً إلى العراق ، ونال الحظوة مدة قصيرة لدى الخليفة المتقى ، ولكنه اضطر إلى الالتجاء إلى الفسطاط فى مصر عند محمد الإخشيدى . وتوفى بدر هناك فى نهاية سنة ٣٣٠ » .

اللهم اغسِلْ حَوْبتى (أى إثمى) ، وتقبَّل توبتى ، فإن الأستاذ عزامًا قد أوقعنى فى إثم كبير بنقل هذا الخلط الخبيث إلى كتابى هذا . وأنا لا أشكُّ لحظةً أنّ الأستاذ عزّامًا قد استقذر هذا الكلام كما استقذرته ، ولذلك لم يذكره فى كتابه ، لا ناقلاً ولا مُعلِّقاً ولا ناقداً ولا مصحِّحاً ! وعلة ذلك معروفة ، وهو أن هذا الجيل من الأساتذة كان لا يملك إلاّ أن يقف خاشعاً مُخْبِتاً بين يدى « العلماء المستشرقين » !! فما وجدُوا من « جديدٍ » أخذُوه فأذاعوا به وتقلَّدوه ، أو انتَحَلُوه وتأبَّطوه ، وأمَّا ما وجدوا من « خَبِيث » فقد أجْرَوا عليه السنة فى كُلِّ خبيثٍ ، أن يُغْضُوا عنه أو أن يدسُّوه فى الترابِ ! / وكذلك فعل الأستاذ عزام . وأنا لا أستحلُّ نقل هذا الخَبَث دون أن أبيِّن فساده ، وإن كانَ عملى هنا لا يتناول مثل هذه الخبائث .

١٢٣م

« بدرٌ الخرشنّى » ، غلامٌ روميّ من « خرشنة » فى بلاد الروم ، ظلّ يعلو شأنه حتى صار من كبار رجال الدولة . وحين ولى الخليفة المتقى فى ربيع الآخر سنة ٣٢٩ ، كان بدرٌ ببَغداد ، فخلع عليه المتقى ، وقلّده الحجابة ، وجعله حاجب الحجاب . ثم جرت له أمور ببغداد ، فصرف عن الحجابة سنة ٣٣٠ ، وقلّده المتقى طريق الفرات ، فسار إلى الإخشيد محمد بن طغج ، أمير مصر ، مستأمناً ، فأمنه الإخشيد وولاه إمرة دمشق ، فوليها شهرين ، ومات فى ذى القعدة سنة ٣٣١ . وكذبٌ بحتٌ أن يقال إنه جعل مقرّه فى طبرية سنة ٣٢٨ = أو أن يقال : إنّه من أصل عربيّ = أو أن يقال إن المتنبى مدحه ، إلى آخر هذا الإفك .

وأما « بدر بن عمار بن إسماعيل الأسدىّ الطبرستانى » ، فهو عربيٌّ صليبةً من بنى أسد ، يقول المتنبِّى ، وهو أعلم ببدرٍ مَنْ يكون ، يذكر اسمه كاملاً فى شعره ، حيث يقول :

حَذَقٌ يُذِمُّ من القواتِلِ غيرَها بدرُ بنُ عَمَّارِ بنِ إسماعيلاَ

ويذكر نسبه فى العرب فيقول :

إلى البدر ابن عَمَّارِ الذى لم يكُنْ فى غُرَّة الشَّهر الهلالاَ

/ سِنانٌ فى قَناةِ بنى مَعَدٍّ ، بنى أَسَدٍ ، إذا دَعَوُا النِّزالا ١٢٤ م

وبنو أسد ، من معدّ بن عدنان . وهو ليس أسطوريًّا ، وليس عند العرب ما يقال له شخص « أسطورىّ » كالذى عند الأعاجم ، فقد ذكره محمد بن عبد الملك الفرضىّ الهمذانى (– ٥٢١ هـ) ، صاحب تكملة تاريخ الطبرى فقال : « وكان بدر بن عمار الأسدى الطبرستانى ، يتقلّد حرب طبرية لابن رائق ، وهو الذى مدحه المتنبى بقصائد عدة » ، وليس له ذكرٌ فى كتب التاريخ المطبوعة التى بين أيدينا ، سوى هذا الكتاب ، وما جاء فى ديوان أبى الطيب . ولم يكن والياً على دمشق قطُّ ، وزال بحمد الله الخَبَثُ والخَلْطُ . فهما إذن رجلان مختلفان لا رجل واحد ، أحد شِقَّيه حقيقة والآخر أسطورة !! هذا مجرّد عَبثٍ مُسْتَشْرِقٍ بارد .

ثمّ إنّ الأستاذ عزامًا الذى اجتنب هذا الخبث فلم يذكرهُ فى كتابه عن المتنبى ، واقتصر ، وهو فى حيرةٍ من أمر ما قرأه فى كتابى ، على أنْ ذَكَرَ « بدر بن عمار الأسدىّ » فى مواضع قليلة ، ولم يؤرخ له إلاّ فى أول الكتاب (سنة ٣٢٩) ، واستخرج هذا التاريخ استخراجاً من بين التواريخ التى ذكرها بلاشير فى تخاليطه السالفة بين « بدر الخرشنى » و « بدر بن عمار » ، وكأن الأستاذ كان فى ريبة من أمره .

وقد كنت فى حديثى معه فى دار مجلة « الرسالة » ، قد أشرتُ إلى هذا الذى كان منه فى شأن « بدر بن عمار » وإغفاله ، ومضت سنوات منذ / سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٤٤ ، حين نشر الأستاذ ديوان المتنبِّى ، وبذل جهداً كبيراً فى الجمع بين النسخ المختلفة للديوان ، وكتب له مقدمةً طويلة ، وعقد فيها باباً بعنوان « ترتيب الديوان » ، وذكر القسم الأوّل الذى لم يؤرخ ، وكان كلامه مُوهماً أن بعض هذا القسم قد عُرف تاريخه فى ١٢٥ م

بعض النسخ المخطوطة ، وليس هذا صحيحاً ، والتواريخ المذكورة فيه هى مما أودعه هو كتابَهُ عن أبى الطيب ، ولكنه انتهى أخيراً إلى غلبة الظنّ بأن ترتيب هذا القسم موضوع على الترتيب التاريخى ، ولم يزد على أن قال متواضعاً فى هذه المرة : « ولم أعرف فى ترتيب هذا القسم ما يخالف الترتيب التاريخى ، إلا القصيدتين اللتين مدح بهما مساور بن محمد . فقد قدَّرتُ أنهما نظمتا سنة ٣٢٩ » ، إلى آخر ما قاله فى كتابه عن أبى الطيب . وقد أزلنا نحنُ إشكالهما آنفاً بحمد الله ، وبقى ترتيب المتنبى للقسم الأوّل من ديوانه سليماً مطابقاً للترتيب التاريخى .

ولما بدأ الديوان ، لم يتدخل الأستاذ عزام فى حواشى الكتاب بشىء ، فإنّه لما بلغ قصيدته التى قالها فى سجنه ، وزعَم فى كتابه وفى مقدمته أنّ (الخرشنى) هو « بدر الخرشنى » ، وأن تاريخها هو سنة ٣٢٤ أو ٣٢٥ ، لم يعلّق بشىء فى داخل حواشى الديوان = ولما بلغ القصيدتين اللَّتين قالهما فى « مساور بن محمد الرومى » ، والتى أرخهما فى كتابه وفى مقدمته بسنة ٣٢٨ وأوائل سنة ٣٢٩ ، لم يعلق أيضاً بشىء فى داخل حواشى الديوان . وقد أحسن إذ لم يفعل ، وليته استمرَّ على ذلك ! غير أنّهُ لما بلغ مدائح / أبى الطيّب فى « بدر بن عمار » ، لم يملك نفسه ، فقد كان حديثى يؤرقهُ منذ سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٤٤ ، فأحدث هذا التعليق ، وهو التعليق الفردُ اليتيمُ الذى جاء به من عند نفسه ، فى هذا القسم الأول ، لا بل فى سائر الكتاب قال : ١٢٦ م

« قصائد بدر بن عمار » يسهل تأريخها ، فبدرٌ كانَ يلى طبرية من قبل ابن رائق . وكان استيلاء ابن رائق على الشام سنة ٣٢٨ ، وقتل فى رجب سنة ٣٣٠ ، فقصائد بدر نظمت بين هذين التاريخين . ثم أبو الطيب فى القصيدة الآتية التى مطلعها : « بقائى شاءَ ، ليسَ هُمُ ، ارتحالاَ » ، يمدح بدراً بقوله :

حسامٌ لِابنِ رائقِ المُرَجَّى ، حُسَامُ المُتّقِى أيامَ صالاَ

وكانت خلافة المتقى فى ٢٠ ربيع الأول سنة ٣٢٩ ، فقد نظمت هذه القصيدة

بين ربيع الآخر سنة ٣٢٩ ، ورجب من السنة التالية . والظاهر أن القصائد الأخرى توالت قبل هذه القصيدة . فشعر المتنبى فى « بدر » ينبغى أن يؤرخ بسنة تسع وعشرين وثلثمئة » .

وهذا كلامٌ فى غاية الغموض والإبهام والاضطراب ، سقيمُ التركيب لا يتركَّبُ على هذا الوجه إلاّ فى نفسٍ تركتها الرِّعدةُ تدورُ فى مكانٍ ضَنْكٍ ، أشلاءً متطايرة ، وألفاظاً فى ظلمة تتصادَم . ليس هذا خيالاً ، بل / هو تصوير للحقيقة . إمَّا لا ، فانظر إلى سياق منطقه ! ولكن ينبغى أن تعرف ، أوَّل كل شئٍ أن عدد القصائد التى قالها المتنبى فى بدر ابن عمار (٥) خمس قصائد لا غير ، و ٢٣ مقطوعة . وهو كلام يتركَّب من ثلاث مقدمات ونتيجة ، وهذا تشقيقُه وتحليلُه : ١٢٧ م

المقدمة الأولى : « قصائد المتنبى فى بدرٍ قد نظمت بين سنة ٣٢٨ ، ورجب سنة ٣٣٠ » .

المقدمة الثانية : « القصيدة الثالثة ، نظمت بين ربيع الآخر سنة ٣٢٩ ورجب سنة ٣٣٠ » ، (بينهما ستة عشر شهراً) .

المقدمة الثالثة : « الظاهر أنّ القصائد الأخرى (الأربعة) توالت قبل هذه القصيدة = أى قبل القصيدة (الثالثة) .

النتيجة : « فشعر بدرٍ ينبغى أن يؤرخ بسنة ٣٢٩ » .

وأنا أرجِّح أن (المقدمة الأولى) لم تذكر إلاّ تمهيداً وحصراً لما يأتى بعدها ، وإلاّ صار الكلام سُقْماً خالصاً كلُّه ، لأنه يناقض (النتيجة) ، ولكنه أساء التعبير .

وأما (المقدمة الثانية) : فهى تجعل (القصيدة الثالثة) متردِّدة بين طرفين فى زمن مقداره ستة عشر شهراً = ممكن أن تكون فى الشهر الأول ، / أو الذى يليه ، إلى الشهر السادس عشر ، (٩) تسعة أشهر فى سنة ٣٢٩ و (٧) أشهر فى سنة ٣٣٠ . كلُّ ذلك جائز . ١٢٨ م

وأما (المقدمة الثالثة) : فتجعل ظاهرَ الأمر أن القصيدتين الأُولى والثانية ، والقصيدتين الرابعة والخامسة ، قالها المتنبى متوالية قبل (القصيدة الثالثة) ، أى هى تابعة لقصيدة متردّدة بين طرفين فى زمن مقادرهُ (٩) تسعة أشهر فى سنة ٣٢٩ ، و (٧) أشهر فى سنة ٣٣٠ .

ومعنى ذلك أننا إذا فرضنا أن (القصيدة الثالثة) قيلت فى رجب سنة ٣٣٠ ، فالقصائد الأربع الأخرى التى توالت قبلها ، ممكنٌ أن تقع جميعاً فى الأشهر الستة الأولى من سنة ٣٣٠ فقد خرجت (سنة ٣٢٩) خروجاً كاملاً سهلاً من تاريخ هذه القصائد !! أليس كذلك ؟

فكيف يمكن إذن أن تكون (النتيجة) الحاسمة : « فشعر المتنبّى ينبغى أن يؤرخ بسنة ٣٢٩ » ؟ « ينبغى » يا للعجب ! هذا هو السهل الممتنع !! وهذا السهل الممتنع ، هو الذى يجعله سهلاً عليكَ أن تقبَل منِّى ما وصفت به هذا الكلام ، وأنه حقيقة واقعةٌ ، لا خيالَ فيها !

لا ، بَلْ إذا فرضنا فرضاً آخر ، وهو أن (القصيدة الثالثة) قيلت فى أول ربيع الآخر سنة ٣٢٩ ، كان ممكناً أن تتزحزحَ معها القصائد الأربع الأخرى ، راجعة القَهْقَرَى ، حتى تدخُلَ جميعاً فى سنة ٣٢٨ دخولاً صريحاً ربما آنتهى إلى أوائل هذه السنة . فكيف يمكن ، إذن ، أن تكون النتيجة ا لحاسمة : « فشعر المتنبِّى ينبغى أن يؤرخ بسنة ٣٢٩ هـ ؟ يا للعجب !

/ جائزٌ جدًّا أن يكون الأستاذ لم يتعلّم الحساب قط ، ولكن ليتَ شعرى هل يجوز أن يكون ضعيف الذاكرة أيضاً ضعفاً يجعله ينسَى ما قاله فى كتابه الذى هو « أجمع وأدق ما كتب عن الشاعر » ، والذى هو « جديرٌ بعناية كلِّ معنِىٍّ بسيرة أبى الطيب وشعره ، وحقيق بثقة كل قارئ » ، فإنّه قال هناك على وجه القطع : « قصائد بدر التى نظمت فى أواخر سنة ٣٢٨ ، وأوائل سنة ٣٢٩ » ، بهذا التحديد الحاسم

١٢٩ م

والمبهم أيضاً ، وأيضاً بغير دليل ؟ وإذا صح أنه قد نسى ما قاله فى كتابه سنة ١٩٣٦ ، فكيف تذكر فى سنة ١٩٤٤ أن ينقله بنصه فى مقدمة الديوان الذى فيه تحديد التاريخ بسنة ٣٢٩ ، على وجه القطع بقوله « ينبغى » ؟ يا للعجب ! إنه ، كما قلتُ آنفاً ، كلامٌ ، والله تعالى لم يخلق لنا الألسنة إلاّ للكلام ، فإذا فعلنا ، فذلك إقرارٌ منا له سبحانه بعظيم نعمته ، والحمد لله رب العالمين .

وفى هذا الكلام آفاتٌ أخرى كثيرة ، أنا أعلمُ من أين أتتْ ، ولكنِّى أتركُها جانباً ، وأحمِّل إثْمها الرجُلَ الذى أخذ الأستاذُ عنه ، وإن لم يصرّح بذكره . قلت آنفاً فى (المقدمة الأولى) التى قال فيها : « قصائد المتنبّى فى بدرٍ قد نظمت بين سنة ٣٢٨ ، ورجب سنة ٣٣٠ » ، قلت : « إنى أرجح أنّه لم يذكرها إلا تمهيداً وحصراً لما يأتى بعدها » ، إفراطاً فى حسن الظنّ ، وتبرئة لكلامه من التناقض الفاحش . وهذا التاريخ المحدّد فى (المقدمة الأولى) إنما هو تاريخ ابن رائق منذ ولايته على الشام سنة ٣٢٨ إلى أن قتل فى رجب ٣٣٠ ، وليسَ تاريخاً لبدر بن عمار ، حتى يصحّ أن تكون مقدمة حاصرة لما يأتى بعدها من التواريخ .

/ كلُّ ما فى الأمر أن بدر بن عمّار الأسدى « كان يلى حرب طبريّة من قبل ابن رائق » ، كما قال المتنبى نفسه ، أى أن ولايته تبدأ سنة ٣٢٨ حين ولاّه ابن رائق . فإذا قُتل ابن رائق فى رجب سنة ٣٣٠ ، أفمعنى ذلك أن يكون ابن عمار قُتِل هو الآخر (أتوماتيكياً) فى هذه السنة ؟ أو معناهُ أن يكون صُرِف عن ولاية حرب طبريّة (أتوماتيكيًّا أيضاً) ساعة قتل ابن رائق ؟ من أين للأستاذ أن يكون العمل الجارى فى الولايات أى يُصْرَفَ كُلُّ العمال عن ولاياتهم ، إذا مات أو قُتل الذى ولاّهم ؟ أليس ممكناً أن يكون ابن عمار بقى على حرب طبرية بعد قتل ابن رائق ، سنة أو سنتين أو ثلاثاً أو أربعاً ، أو فوق ذلك ؟ ممكن بلا شكٍّ ، وإذا كان هذا ممكناً ، فما قيمة هذا التاريخ ، « سنة ٣٢٨ إلى رجب سنة ٣٣٠ » فى الحَصْر المؤدِّى إلى حصر تاريخ شعر المتنبى فى بدرٍ بين هذين التاريخين ؟ الأمرُ كُلُّه فسادٌ وخَلْطٌ ودَعْوَى ، ورغبةٌ فى مخالفتى ، لا أكثر

١٣٠ م

ولا أقل ، لأنى قلت فى كتابى : إن المتنبى بقى فى جوار بدر بن عمار : « من أواخر سنة ٣٢٨ إلى أوائل سنة ٣٣٣ على وجه التقريب ، لا على وجه التحقيق » [انظر هذا السفر ص : ٢٦٠] ، هذا كُلُّ ما فى الأمر « والسلامُ » . وكُلُّ ما فى الأمر أيضاً أن الأستاذ عزاماً ظل ثمانى سنوات (من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٤٤) ينتفض فى قبضة كلماتى التى قلتها له ونحن فى دار مجلة « الرسالة » ، فحاول هذه المحاولة « اليتيمة » البائسة ، فى الردِّ عليَّ من وراء حجابٍ ! أمَّا عقول القرَّاء ، وأمّا التحقيق التاريخى ، وأما أمانة العلم ، فأمور لا قيمة لها ، مادام قد بَلَغَ منِّى بِظَنِّه مبلغاً حتى سُقِط فى يَدِى ، وأطرقتُ أنظر إلى الأرض ، أقرع السنَّ من ندم على ما قلتُ !!

١٣١ م / هكذا كانت تجرِى الأمور ، ولا تزال تجرى ، على المثل الجارى : « مِنْ دَقْنُه وٱفتل لُّه » ، يأخذُ مِنِّى ويردُّ عليَّ ! ويظنُّونَ أنه باب خفِيٌّ من أبواب علم « السطو » ، فسبحان ربِّنا الأكرم ، الذى علَّم بالقَلم ، علَّم الإنسانَ ما لم يعلم !

إنما عرضت مثلاً مما فى الكتاب لا أكثر ، أمّا سائر ما أُخذه الأستاذ عزّام اجتراءًا مجرَّدًا ، أو سطواً عرياناً ، فلم أتعرض له هنا ، وقارئ كتابى وكتابه قادرٌ على أن يراهُ ، كما رأى بعضَه ذلك الشاب العِراقىُّ الذى لم يدخُلْ « جامعةً » ولكنه ثقَّف نفسه بالقراءة ، وهو جالِسٌ فى دكانٍ صغير يبيعُ فيه الكتب ، فكتب إلىَّ رسالة يذكر فيها أكثر من ثلاثين موضعاً فى كتابى ، أخذها الأستاذ فوزّعها بالعَدْل والقسطاس على أبواب كتابه ، ورحم الله الشابَّ قاسمَ الرَّجب الكُتُبِىَّ ، فقد كانَ مِثالاً لليَقظةِ فى شبابٍ وشيوخٍ كثيرٍ ، قد نامت عقولهم واسترخَتْ « تحت التخدير الثقافىّ » !

***

الكتاب الثانى

أمَّا الكتابُ الثَّانى ... أمَّا الكتاب الثَّانى ... أمّا الكتابُ الثانى ، وأمرنا جميعاً إلى الله ، فهو كتابُ الدكتور طه حسين « مع المتنبىّ » الذى نشرهُ بعد صدور كتابى بسنة وَاحدة أو أقلّ .

قلتُ آنفاً [انظر ما سلف ص : ٣٤ ، ٣٥] : إنى حين قرأت شهادة الدكتور / طه على جِيلنا المفرَّغ من ثقافة أمته فى سنة ١٩٣٥ ، توهمتُ ، بحسْنِ الظنّ ، أنه سوف يبدأ عَهْداً جديداً فى تفكيره ، وأنه سيفارق السُّنَّة التى سنَّها هو والأساتذة الكبار ، أعنى سُنَّة « السطو » وسُنَّة التلخيص . ولما فرغت من من قراءة آخر مقالاته فى مايو سنة ١٩٣٥ ، وجدتُ أيضاً أنّه يُحاوِل محاولةً أن يسلُك طريق « تذوّق الشعر » [انظر ما سلف : ٣٥] ، وهو الطريقُ الذى حاولتُ قديماً ، وأنا طالبٌ فى الجامعة ، أن أقنعَه به فيأبَى ويُعْرِضُ ، وذلك الطريق هو كما قلت : « ضرورة قراءة الشعر الجاهلىّ والأموى والعباسىّ قراءة متذوِّقة مستوعِبةً ، ليستبين الفرقُ بين الشعر الجاهلىّ والإسلامىّ ، قبل الحديث عن صحّة نسبة هذا الشعر إلى الجاهلية ، والتماس الشُّبَه لتقرير أنه باطلُ النسبة ، وأنه موضوع فى الإسلام ، من خلال رواياتٍ فى الكتب ، هى فى ذاتها محتاجةٌ إلى النّظر والتفسير » [انظر ما سلف : ١٧] .

١٣٢ م

ثم قلت : [ص : ٣٥] واصفاً تذوُّقه للشعر فى مقالاته : « ولكنّه تذوُّق بلا منهج ، وبلا هَدَفٍ ، وعلى غير أصلٍ » . وإذا أنا مخطىءٌ فى الأمرين جميعاً خطأً فادحاً .

وجاءَ أسبوع الاحتفال بمرور ألف سنة على وفاة أبى الطيب ، بدار الجمعية الجغرافية سنة ١٩٣٦ . وقبيل ذلك بأيامٍ كان قارىءُ الدكتور طه المصاحِبُهُ قد لقينى فى الطريق ، فأخبرنى أنّ صاحبه يرى أن المتنبّى « لَقيطٌ لِغَيَّةٍ » ، فاستكبرت ذلك واستنكرته مستعيذاً بالله من سوء ما أسمع . كنتُ لم ألقَ الدكتور طه منذ فارقتُ الجامعة فى سنة ١٩٢٨ ، حتى كان أسبوع هذا / الاحتفال . وفى أوّلِ يوم من الأسبوع بدأ الدكتور طه

١٣٣ م

محاضرته ، واستفتحها قائلاً : « لقد شكَّ بعضُ الناس فى نسب المتنبِّى ، وأنا أوافقه على هذا الشكِّ » ، فكدتُ أَقوم من فوْرى لأَرُدّ عليه ، ولأُعْلِمه أنِّى حاضرٌ غير غائب ! فقد غَاظنى زَهوُهُ وخيلاؤُه ، وعُنْجُهيَّته وهو يرتِّل ألفاظَه ترتيلاً ، ليجمع أنظارَ الناس إلى مَخْرَج كلماته ، كعادته فى الزَّهوِ . وكانَ إلى جوارى أَحدُ الأساتذة المقرَّبين إليه ، فأحسَّ بما هممتُ به فأمسكَنى وقال : لا تَعْجَلْ ! فقلتُ له : إذن ، فأبلغ الدكتور طه أنّ موافقته أو مخالفته لا تساوى عندى « قرشاً ماسحاً » تتلافظُه الأيدى فى الأسواق ، لأنه لُفَاظةٌ لا تَصلحُ للتداوُل ! وانتهت المحاضرة .

وعند انصرافى رآنى أستاذنا عبد الحميد العبادىّ رحمه الله ، فأقبل وأخذ بيدى وخرجنا من القاعة ، وإذا نحن فجأة عند البابِ خلفَ الدكتور طه حين انصرافه ، فعزمَ علىَّ أستاذنا العبّادىّ أن أسلِّم على الدكتور ، فاستعلنَ غضَبى وَأبيتُ ، ولكن لم أَكَدْ حتى سمعتُه يقول للدكتور : هذا محمود شاكر ، يادكتور ! فوقَف ، والتفت التفاتةً يسيرةً ، ومددت يدى فسلَّمتُ ، وغلبنى الحياءُ والخجلُ ممّا لقينى به من فَرْط البشاشة والحَفاوةِ ، ثم أخبرنى أنَّه قد قرأ كتابى كلَّه ، وجاءَ بثناءٍ لم أكنْ أَتوقَّعُه ، وأطالَ وأفاضَ ، وغَمَرنى ثناؤُه حتى ساخت بى الأرض [انظر خبر ذلك فيما سيأتى : ٥٢٣] . فماتَ لسانى فى فَمِى ، فلم أستطِعْ أن أَنْبس بحرفٍ حتى فرَغ ، وهو آخذٌ بيدى لا يُرْسلها ، إلى أن ركب ، وافترقنا . غير أن صاحبنا الذى كان إلى جوارى ، لم يكذِّبْ خبراً ، فأبلغ الدكتور طه رسالتى إليه ، لأنى لم أكد / أبلغ باب دار الجمعية الجغرافية فى اليوم التالى ، حتى وجدتُ صاحبنا على الباب ينتظرنى ، ويأخذنى إلى الدكتور طه ، فإذا هو جالسٌ ومعه الدكتور منصور فهمى وأستاذُنا الشيخ مصطفى عبد الرازق وآخرون ، فاستقبلنى الدكتور مهلِّلاً ضاحكاً أشدَّ ضحكٍ وهو يقول : لا تبرحُ أن تكونَ صَعِيديًّا ، كما كُنْت قديماً !! واستمرَّ الحديث بينى وبينه وبين الجماعة ساعةً ، حتى دَنا ميعادُ محاضرة اليوم ، فقمنا إليها ، [انظر طرفاً من الحديث فيما سيأتى ص : ٤٢٧] .

١٣٤ م

تصرَّم الأسبوع كُلُّه ، فلا أنا سَعيْت إلى لقائه مرَّة أُخرى ، ولا هو ذكرنى فنادانى ، ولكنِّى ، فى الحقيقة ، قضيتُ بقية الأسبوع أقلِّبُ أمرَ الدكتور طه فى نفسى ظهراً لبطنٍ ! لم أرتحْ إلى هذه الحفاوة المُفْرِطة ، ولا إلى حديثه المُسْهَبِ الذى يَرْشحُ ثناءً وإطراءً ، ورابَنى ما رابَنى من أَمره ، لأنِّى أعرفُه معرفةً !! فلما لقيتُ الشيخ مصطفى عبد الرازق فى داره بعد أيّامٍ ، وكانَ قد ذكرَنى فى كلمته التى ألقاها فى أسبوع المتنبِّى ، بَثَثْتُ الشيخَ ما فى نفسى من الارتيابِ فى أمر الدكتور ، وأنِّى مُقْبِلٌ غداً على تجرُّعِ إحدَى فَعَلاته ! فاستنكر الشيخُ حديثِى استنكاراً شديداً ، وغضبَ مُزْوَرًّا عن كلامى ، وقال لى : لا تكُنْ سِّيءَ الظّنِّ بأُستاذك ! وأمسِكْ عليكَ لسانَك وأوهامَك ! ورحم الله الشيخ ، فقد كانت صداقتُه للدكتور طه وحبُّه إيَّاهُ يزيدان فى سلامة طَوِيَّته !! ويقعُدان بها على شَفَا حُفْرةٍ هاويةٍ لا يراهَا ويأبَى أن يراها ، « وعيْنُ الرِّضَا عن كُلِّ عيبٍ كليلةٌ » ! ولا أَدرِى بعد ذلك ما كانَ ؟ وهلْ أحسَّ ساعةً أن الدكتور طه قد خَذَلهُ وخذَل ثقتَهُ / خِذْلاناً كبيراً ، أَوْ لا ؟ فإن كُلَّ ما سمعه الشيخ منّى من شكوكٍ ورِيَبٍ ، سُرْعانَ ما تحقَّقَ ، على الوجهِ الذى فصَّلتُه له تفصيلاً صريحاً . وكان ما كانَ ، و « رَجَعتْ رِيمَةُ ، إلى عادتها القديمة » ، كما يقال فى المثل ، بل هى لم تفارِقْ عادتها قط ، ولا تملكُ أن تفارقَها ضَرْبَةَ لازب . ١٣٥م

* * *

ففى يناير سنة ١٩٣٧ ، أى بعد أقلَّ من عامٍ منذ ظهر كتابى ، كان ما توقَّعته ، كالذى حدَّثْتُ به الشيخَ حَذْوَك القُذَّة بالقُذَّة ، كما يقالُ فى هذا المثل وإخوته . نشرت « لجنة التأليف والترجمة والنشر » كتاب الدكتور طه « مع المتنبِّى » فى جزءين كبيرين ! وقد حدَّثتك قبل ، [ص : ٣٤] ، أنّ الدكتور طه فى سنة ١٩٣٥ ، وما قبلها وما بعدها ، « كانَ فى قمة مجده الذى حازه بالضجة التى ثارت حول كتابه « فى الشعر الجاهلىّ » ، وأنّه كان يومئذ يروحُ ويغدو على ذُرَاها ، يملؤه الزَّهْو ، وتستخِفُّه الخُيَلاءُ ، ويميدُ به العُجْبُ » .

اشتريتُ الكتابَ ، وكان خسارةً ! ولكنْ أين المفرُّ ؟ فكل محبٍّ للقراءة مثلى يُوقعه حبّه مراراً وتكراراً فى الخسارة بعد الخسارة ، ثم لا يتوبُ ! هكذا كُتُب زماننا ! لقد جلبتُ على نفسِى شرًّا كبيراً ! شرعت أقرؤه ، وأجارك الله وعَصَمك من كُلِّ تَلف . وقعتُ فى مهلكةٍ من غمّ مطبقٍ تُؤْيِس من كلِّ نجاةٍ . ست صفحات فى صدر الكتاب [من ص : ٣ إلى ص : ٨] / وأنا تحت أقدامٍ مَزْهُوَّة ، وخُطوات تَتَبختر ، وتحت مواطىءِ عُجْب غليظٍ يدوسنى جَيْئَةً وذُهوباً ، منذ أول سطرٍ : ١٣٦ م

« لا أريد أن أدرس المتنبِّى ... لم أترك القاهرة إلى فرنسا للبحث والدرس ... كتبٌ لا أستجيبُ لها إلاّ حين أدَعُ مصر وأعتزلُ المصريين ... لا أريدُ إذن أن أدرس المتنبِّى ... فررت بنفسى وأهلى من الدرس والتحصيل ... أكره لنفسى أن أمضى فى درس المتنبِّى .... أكتفى بأيسر طبعة من ديوان المتنبى لأنى لا أريد درساً ولا بحثاً ... ليس المتنّبى من أحب الشعراءِ إلىّ ... هو بعيدٌ كل البعد أن يبلُغ من نفسى منزلة الحب والإيثار .... أحبُّ أن أعاند نفسى وآخذها من حين إلى حينٍ ببعض ما تكرهُ من الأمر .... لم أجد بأساً أن أثقل على نفسى .... بالتحدث إلى المتنبّى إذن .... إنما هى قراءة المتنبى ..... لا أريد أن أدرس المتنبى إذن ... إنما هى قراءة المتنبى فى غير نظامٍ ولا مواظبة .... قراءة إن صورت شيئاً ، فإنما تصور طغيان المرءِ على نفسه ، ولعبه بوقته وعَبَثَهُ بعقله ، وعصيانه لهواه ... قل ما تشاء فى هذا الكلام الذى تقرؤه . قل إنه كلامٌ يُمليه رجلٌ يفكر فيما يقول ، وقل إنه كلامٌ يهذى به صاحبه هذياناً ، قل إنه كلامٌ يصدر عن رأى وأناة ، وقل إنه كلامٌ يصدرُ عن شذوذٍ وجُموحٍ ، فأنت محقٌّ فى هذا كُلِّه .... ما أظنُّنى أعرفُ أدباً مقيَّداً مسرفاً فى التحرُّج ، غالياً فى الاحتياط ، كأدبنا العربىّ الذى ينشئه أصحابُه وهم يفكِّرُون فى الناس أكثر مما يفكِّرون فى أنفسهم ، حتى أطمعوا الناس فيهم ، وأصبحوا عبيداً للجماعة ، وخدماً للقراء .

١٣٧ م / « فلنتمرّد على الجماعة ، ولنثُر بالقراءِ ، ولننبُذ الاحتياط ، إلاّ هذا الذى يُثير الشرّ ويؤذى الأخلاق » ، انتهى تلخيصه ، من [ص : ٣ إلى ص : ٨] .

« لا أريد أن أدرس المتنبّى » ، « ولا أريد بحثاً ولا درساً » !! زهوٌ بغيض ، وخُيلاءُ نابية ، وعُجْبٌ لا يرحم بائساً رماه حُبُّ القراءة فى تَنُّورٍ وَقودُه من زَمْهريرٍ ثرثرةٍ قارسة . و « شِنشنةٌ أَعرفُها من أخزم » ، فهو دائماً يحبُّ أن « يغيظ » القراء ، وأن يثير « سخطهم » ، وأن يعاند نفسه و « يعاند » الناس . سلسلةٌ طويلةٌ مكررةٌ من الاستعلاء والاستخفاف . ومضيتُ أقرأ محتملاً ما حُمِّلتُ ، فرأيتُ الدكتور قد صدَقَ وعيدَه حيث لا خيرَ فى الصِّدق ، فما هو إلاّ « الذى يثير الشرَّ ويُؤْذِى الأخلاق » . كُلَّ ذلك فَعَل ، وجاوزهُ إلى أكبر مما قال وأفحش ، حتى فرغ من الكتاب . ولكنى فوجئت بفصل فى ثمانى صفحاتٍ [ص : ٧٠٤ – ٧١١] ختم به كتابه ، بعنوان « بعد الفراغ » ، لا يقلُّ عن الفصل الأوّل إغراقاً فى الزَّهو والعُجْبِ والخُيلاء ، ولكنه جاءَنى أنا وحدى بأعجب العجب ، فعرَّفنى بشأن من شئون الدكتور لم أكن أعرفُه أو أعهدُه ، من ذلك أنّه رجل نسَّاءٌ ، ينسَى كُلَّ ما يهضِبُ به لسانُه نِسياناً كاملاً فى أقلّ من نصف سنة ، ثم يعودُ فيذكره ، فينقضُ على نفسه ما قاله آنفاً نقضاً مبرماً !

وبَيَانُ ذلك : أنه كان مما قال لى يومَ دار الجمعية الجغرافية ، على مشهدٍ / من الأساتذةِ وقوفاً حوله (١) : « يا فلان ؟ اعلم أنى قرأتُ كتابك مرَّتين ، بل ثلاثاً ، ولا أظنُّ إلاّ أَنى عائدٌ إلى قراءته مرَّات ، وأنا أُشْهِدكم (هكذا قال) ، أنّى لم أقرأ منذ سنوات كتاباً ١٣٨ م

(١) قلت فى نقدى لكتاب الدكتور ، المنشور فى هذا السفر ص : ٥٢٣ ، ما نصه :

« إنّ الدكتور طه نفسه ، فى أول لقاءٍ لى معه فى يوم من أيام أسبوع المتنبىّ بالجمعية الجغرافية ، وَقَف يثنى على كتابى بما أستحيى أن أردّده فى هذا المكان من كلامى . ثم آعترف بأن أحداً لم يسبقنى إلى توقيت قصائد المتنبى هذه ، وأنه قد رضى كل الرضا .... إلى آخر كلامه الذى أذكره ولا أنساه » . قلت هذا فى مايو سنة ١٩٣٧ ، والذى أذكره هنا هو بعض ثنائه يومئذ ، ولا بأس إن شاء الله ، لأنىّ أقصُّ قصّةً ، ولا حَيَاء فى القَصص ، فيما أظن !!

مثل هذا الكتاب ، ولا أستثنى ، لا فى العربية ولا فى غير العربية ، لا عن الشعراء ولا عن غير الشعراءِ . وأشهد أنّى ما قرأتُه مرّةً ثم عُدت إليه أقرؤه ، إلاّ وجدتُ لذةً أخرى فوق التى وجدتها فى المرّة السالفة . وأشهدُ أنّك مثّلت لى المتنبِّى تمثيلاً ، وأنك أحييتَهُ إحياءً كأنى أراه وأسمعُه . وأشهد أنك درستَ المتنبّى كما كان ينبغى أن يُدرس ، وأشهد أنّك صوّرت المتنبّى كما كانَ يعيش ، أو كما كان ينبغى أن يعيش . وأشهد .... » ، وثناءً آخر طويلاً ، فقد وجد لسانه لذّة (أشهد) ، فراح يكرّرها على عادته .

١٣٩ م و (من نفسى) ، أحبُّ أنا أيضاً أن (أشهدَ) شهادةً واحدةً على نفسى : / أنى لم أجد لإسهابِه يومئذ فى الثناء ، ولا لإغراقِه فى الإطراء ، بعضَ الذى وجدتُه لثناء الرافعى حين ذكر كتابى ، ولا بعض الذى وجدتُه من الراحة والبهجة فى صمت العقّاد عن كتابى ، [انظر ما سلف ص : ٧٦ - ٧٨] ، بل الذى وجدتُه جاثماً فى نفسى بعد فراقه ، هو ما أفضيتُ به إلى الشيخ مصطفى عبد الرازق ، لأنّى كنت خبيراً بالرجل أعرفهُ معرفةً ، و « خَمْرُ أَبِى الرَّوقاءِ لَيْسَتْ تُسْكِرُ » ، أو هى ليست تسكرنى أنا على الأقل ؟

قال ما قال ثم نسيه ، هكذا ينبغى أن أظنّ ! وبعد أن فرغَ من كتابه تذكّر ما قاله ، فأخذه ، فأكله ، فمضغه فأجاد مضغة ، ثم ابتلعه ، ثم عاد فاستخرجه ، فأنشأه خلقاً آخر ، فقال : « الأمر الثانى أنى أبعدُ الناس عن حسنِ الرأى فيما أمليتُ ، ولا تظنَّ أنى أريد التواضع = أو أن أُغضَّ من هذا الجهد الذى أنفقتُه .... إنما أريد أن ألاحظ أن هذا الكتاب إن صوّرَ شيئاً ، فهو خليقٌ أن يصوّرنى أنا فى بعض لحظات الحياة أثناء الصيف الماضى (!!) ، أكثر ممّا يصوّر المتنبى » ، (وهذه حقيقة كتابه هذا ، لكن من غير الوجه الذى أرادهُ هو !!) . ثم قال بعقب ذلك مباشرةً : « وإنّه لمن الغرور أن يقرأ أحدنا شعر الشاعر أو نثر الناثر ، حتى إذا امتلأت نفسه بما قرأ ، أو بالعواطف والخواطر التى يثيرها فيها ما قرأ ، فأملى هذا أو سجَّلهُ فى كتاب ، ظنَّ أنه صوَّر الشاعر كما كان ، أو درسه كما ينبغى أن يُدْرَس ، على حين أنه لم يصوِّر إلاّ نفسَه ، ولم يعرضْ على الناس إلاّ ما اضطربَ فيها من الخواطر والآراء » ، وفهمت أنا تعريضَه الخفىَّ ، وفهمت أيضاً

(نظرية / اللحظات !) التى أتى بها بعد ذلك ، حين استمر يتكلم .... حتى ١٤٠ م
سكتَ .... ووضعتُ الكتاب جانباً ، وعزمتُ أنا على أن أتكلّم .

وفى ١٣ فبراير سنة ١٩٣٧ ، كتبتُ المقالة الأولى ، من المقالات التى جعلتُ عنوانها : « بينى وبين طه » . وحين بدأتُ أكتب ، كنت قد حدّدت طريقى تحديداً كاملاً ، وهو أن أواجه الدكتور طه بثلاث حقائق :

الحقيقة الأولى ، أنه ، فى أكثرَ أعماله ، « يسطُو » على أعمال الناسِ سطواً عُرْياناً أحياناً ، أو سطواً متلَفِّعاً بالتَّذاكى والاستعلاء والعجُبْ أحياناً أخرى .

والحقيقةُ الثانية ، أنه لا بَصَر له بالشِّعر ، ولا يحسن تذوُّقه على الوجه الذى يُتيحُ للكاتب أن يستخرجَ دَفَائنه وبواطنَه ، دونَ أَّن يَقع فى التدليس والتلفيق .

والحقيقة الثالثة ، أنّ منطقَهُ فى كلامه كُلِّه مُخْتَلٌّ ، وأنه يستُرُهُ بالتكرار والتردادِ والثرثرة .

ولم أجد بُدًّا من هذه المواجهة ، لأنى يوم فارقت الجامعة ، سنة ١٩٢٨ فارقتها « ومعى ذُلُّ العجز ، يومئذٍ ، على مواجهته برأيى فى تفاصيل « سُنَّة السطو » التى سنَّها لتلاميذه من بعده = ومعى أيضاً ما أجده فى نفسى من البشاعة ، بشاعةِ ادّعاء المرءِ امتلاكَ ما يسطو عليه ، كأنّه مما اهتدى إليه ، واستحقَّ نسبته إلى نفسه بعد طول معاناةٍ فى البحث وشقاء فى الدرس = وأن عجزى ، كان ، عن مواجهته بلسانى ، غير متهيِّب ولا متأدِّب ، كان يهدمُ نفسى هدماً ، وينسفُ آدابى نسْفاً ، ويتركُ فى ضميرى غُصَّةً تأبَى أن تزولَ . كان شيئاً بشعاً لا أطيقه » ، [انظر ما سلف ص : ١٨] . كانَ ذلك كلُّه مما أَجد ، لا لأنه كان أمراً يمَسُّنى ، لا ، بل لأنّه كان يسُنُّ سُنَّة مُتْلفةً مفسدةً للحياة الأدبيةِ والحياة / العقلية والحياة النفسيّة فى الجيل البائس الذى أنا منه ، بسَطوه سطْواً ١٤١ م
عرياناً على مقالةِ الأعجمىّ المستشرق « مرجليوث » ، ثم بسطوه على آخرين لم أذكرهُمْ ، سطواً متلِّفعاً بالتذاكى والاستعلاء والعجب . ذلك عجزٌ كان ، ثم انقضى .

أمّا الآنَ ، فلا ! وإذا كان غيرى قد قبل راضياً بما يفعلُه الدكتور بجهده ونَصَبه ومعاناته ، أو قَبِلَ ذلك صامتاً على مضَضٍ ، اتقاءً لمَعرَّة لسانِه ، أو هيبةً لما حازهُ من المجد والذكر والصِّيت ، أو مخافةً من سوءِ ظنّ الناس به ، أو رجاءً لِخيرٍ يتوقّعه على يديه ، فإنىّ أَبَيْتُ . أبيتُ فى سنة ١٩٣٧ أن أستخذى لهذا السطو والإرهاب (الثقافىّ) !! وأخذتُ هذه المقالة الأولى ، وذهبتُ إلى دار صحيفة « البلاغ » ، إلى أستاذنا إبراهيم عبد القادر المازنىّ ، وسألتُه أن يقدِّمنى إلى صاحب « البلاغ » عبد القادر حمزة باشا ، ولم أذكُرْ له شيئاً مما أريده ، فقدَّمنى إليه وانصرف . وبعد حديثٍ قصير عرّفته فيه بنفسى ، أخرجت المقالةَ ومددتُ يدى بها إليه ، وقرأ العنوان : « بينى وبين طه » والأسطرَ الأولى ، ثم نظر إلىَّ ، وقال بهدوئه الركين : قد قرأتُ عدد المقتطف ، ولكنى لم أر كتاب الدكتور طه . ثم عاد يقرأ حتى فرغَ . ثم وضع المقالة أمامه على مكتبه ، وقال لى : لماذا كُلُّ هذا العُنْف ؟ فبدأت أحدّثه عن أوَّليَّة أمرى مع الدكتور طه فى الجامعة ، حَتّى بلغتُ ما كان منهُ يوم دار الجمعية الجغرافية ، وما أفضيتُ به من شكوكى إلى الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وما تحقَّق من هذه الشكوك بتأليفه كتاب / « مع المتنبّى » . وكان حُسْن استماعه لى وإصغائه ، يزيدُنى عُنْفاً فى الحديث ، فلما بلغت الغاية وسكتُّ ، قال لى : ألا تخافُ لدَدَ الدكتور طه ؟ فقلتُ : إنى لا أُهابُه ، بل أنَا أَعرفهُ ، وأعرف أنه إذا ما قرأ المقالة الأولى وما بعدها سوف يعرف ما عندى . والذى عندِى من أدِلَّةِ سطوه على كتابى ، مادّةً وأسلوباً وطريقةً فى تذوّق الشعر ، وما عندى من أدلة سَطوه على آخرين ، سوف يمنعه أن يتكلَّم ، ولو تكلَّم ، « فما كلُّ بيضاء شَحْمَة ، ولا كُلُّ سوداءَ تَمْرة » ! فضَحِك وقال : يا لك من مخاصم عنيد ! ثم قال : سأنشر كُلَّ ما تكتبه ، ولكنى أحبُّ أن تفعل كذا وكذا ..... نصيحةٌ ضمَّنتُ بعضَها أوّل المقالة الثانية ، [انظر هذا السفر : ص ٤١١ وما بعدها] .

١٤٢ م

ومضيتُ أكتب أسبوعاً بعد أسبوعٍ فى البلاغ بعنوان واحد هو « بينى وبين طه » من بلاغ يوم السبت ٢ من ذى الحجة سنة ١٣٥٥ (٣ فبراير سنة ١٩٣٧) ، إلى أن

كان اليومُ الأخير من صفر الخير سنة ١٣٥٦ (١٠ مايو سنة ١٩٣٧) . لم أكد أفرغُ من كتابة المقالة الثانية عشرة ، حتى جاءنى نعيُّ أستاذى وصديقى مصطفى صادق الرافعىّ رحمه الله ، فانْهدمَ فى نَفْسى كلُّ ما كان قائماً ، وذهبَ الدكتور طه وكتابُه جميعاً من نَفْسِى تحت الهدمِ ، فزدت كلمة فى آخر المقالة هى : « ولكن ..... وننتهى من هذه الكلمة حيث انتهى بنا هذا الفصل من كتابه فى ص : ٩٨ ، فإنّ فى الذى يستقبل من كتاب الدكتور طه طولاً قد امتدَّ وسمَقَ وتسامى !! وإن فى حاجة النفس لمَا يشغلنا عن الدكتور طه ، وما يأتى به ، أو يقع فيه ، أو يعرض دونه :

ليتَ الحوادِثَ باعَتْنِى الذى أَخَذَتْ مِنِّى ، بِحِلْمِى الذى أَعْطَتْ وتَجْرِيبى !»

/ وانقطعتُ عن البلاغ أيّاماً طِوالاً ، فلما زرت الأستاذ عبد القادر حمزة ، حاول ١٤٣ م أن يجعلنى أعاود الكتابة ، فأصررتُ على تركها . وحاول آخرون ، فلم أُستجبْ ، وكرهت كتابى وكتاب الدكتور طه جميعاً ، وعدتُ إلى عُزْلتى لا أُبالى .

***

وكذلك لم يكن مقدَّراً لى أن أتمِّم هذه المقالات على الوجه الجامع ، لأنّى لم أتجاوز فى نقدى كتاب الدكتور طه الصفحةَ الثامنة والتسعين من ٧١١ صفحة . ونعم ، كنتُ حريصاً ، منذ أوَّل ما كتبت ، أن أكشف فى مقالاتى الأولى عن أساليبه المتنوِّعة الماهرة فى « السطو » العُرْيان ، وعن أساليبه أيضاً فى « السطو » الخفىّ الذى يحاولُ بالثرثرةِ البارعة ، أن يجعل ما سطا عليه ، يبدُو كأنه رأى ارتآه هو بعد بحث ودرسٍ وتنقيبٍ وتحقيق ، إلى آخر ألفاظِه التى يغرُّ الناسَ بها عن الحقيقة . ومع ذلك فأنا أستطيع أن أقول إن الذى ذكرته منها بلا تفْصيلٍ فى مقالاتى ، هو جِماعُ أساليبه التى دَرِب عليها من قبل فى كتابيه : كتاب « فى الشعر الجاهلىّ » ، وهو الحاشية الصُّغْرى على مقالة مرجليوث ، وفى تَوْأمِه المعدَّل بعد أن عَلَت به السنُّ ! وهو كتابُ « فى الأدب الجاهلىّ » ، وهو الحاشيةُ الكبرى على هذه المقالة [انظر ما سلف ص : ١٤] . بيد أنّى فى الحقيقة لم أبلغ فى الذى كتبتُه

يومئذٍ ، كُلّ الذى كان ماثلاً فى نفسى بعد الفراغ من قراءة كتابه « مع المتنبى » ، وحين بدأتُ أكتب ، لأنى كنتُ أدَّخِر شيئاً كثيراً لأبواب الكتاب الأخرى ، من ص : ٩٩ إلى ص : ١١٧ .

١٤٤ م / وكتاب « مع المتنبى » هو فى الحقيقة حاشيةٌ كُبْرى على ثلاثة كُتُب : أولها كتابى ، ثم كتاب الأستاذ عزام ، ثم كتاب بلاشير عن المتنبِّى ، وكان الدكتور طه قد اكتسب خبرة فائقةً ، بعد عشر سنوات من (سنة ١٩٢٦ ، إلى ١٩٣٦) ، فى كتابة الحواشى (الحديثة) . ففى هذه الحاشية الكبرى جمع كُلّ ما استطاعَ أن يحتجنَهُ من هذه الكتب الثلاثة ، ولكنه لم يفعلْ ذلك إلاّ بعد أن تجاوز هذه الصفحات الثمانية والتسعين التى وقفتُ عندها . وقد أقرَّ هو نفسهُ على ذلك بلسانه ، وذلك أنه قال فى خاتمته التى سمَّاها « بعد الفراغ » ، بهذا الزَّهْو الغريبِ الذى كان يستخفُّه مُدِلاً على القراء :

« .... لم أكن جادًّا ولا صاحبَ بحثٍ وتحقيق ، وإنما كنتُ عابثاً أريدُ أن أداعب المتنبِّى ، أو أداعب خصومه وأصدقاءه جميعاً ، وليس أدَلّ على ذلك من هذه الصفحات التى تقرؤها فى صدر هذا الكتاب . فهى لا تصوِّرُ بحثاً ولا جدًّا ، وإنما تصوِّر عبثاً ولهوًا ، ولكنِّى لم أكد ألْقَى المتنبِّى وآخذ فى الحديث معه أو الحديث عنه ، حتى صرفنى عن اللهو والعبث ، [الكتابة عملٌ ظريفٌ ، أليس كذلك ؟] ، واضطرّنى إلى محاولة البحث والتحقيق ، وأىّ غرابة فى ذلك ؟ [لا ، لا غرابة !] ، ولم يكن المتنبّى صاحبَ راحة ولا ميَّالاً إلى اللهو ، وإنَّما كانت حياتُه كُلُّها جدًّا ، وجدًّا ثقيلاً ، ينتهى به وبقرَّائه إلى الملل أحياناً » ، (ص : ٧٠٤) .

١٤٥ م لا ريب عندى فى أن هذا الزَّهو كُلَّه بعبَثه وجدّه ، عبثٌ محضٌ ، / وخيلاءُ بغيضة . ومع ذلك ، فإن صحّ عند أحدٍ أنّه جِدٌّ ، إذا هو تورَّط فى الخضوع لمنطق الثرثرة ، فإنّ هذا الجدَّ ليسَ من جدّه هو ، بل من جِدّ كتاب الأستاذ عزام ، وكتاب الأستاذ بلاشير ، فهما الكتابان اللذان أخرجاهُ من العبث الجادِّ إلى الجدّ العابث ! ولذلك صار فيما بعد ص ٩٨ ، يذكر أسماء بعض مَنْ كتب عن المتنبِّى وخاصة

بلاشير ، ويرصِّع بعض الصفحات القليلة بحواشٍ قليلة ، يذكر فيها المراجع بالجزء والصفحة ، ويذكر أيضاً ديوان المتنبى بشرح الواحدى ، كأن هذه المراجع مراجعُه هو ، وعنها أخذ ما أخذ ، ولكنها فى الحقيقة مأخوذةٌ من كتابَىْ عزّام وبلاشير ، والحمد لله الذى عافانى ، فليس فى كتابى ذكرٌ للمراجع . ونسى الدكتور طه أنه حدثنا فى أوّل كتابه أنه كان معتزلاً فى « قرية من قرى الألب بفرنسا » ، وأنه لم يحمل معه من مصر من الكتب ، إلاّ « أيسَر طبعة من طبعات ديوان المتنبّى » ، وشرح الواحدى لديوان المتنبى لا يدخل فى باب « أيسر طبعة » ! فمن أين له المراجع ؟ أليستْ هذه عجيبة من رجُل كالدكتور طه ، ذَكُورٍ لا ينسَى .

لم ينْسَ ، ولكنه مُسْتَخِفٌّ بالقرَّاء وبعقولهم ، ولكن الكتابة عملٌ ظريفٌ ، وتأليف الكُتب عملٌ أظرف ! فإن الدكتور طه لم يخرج فى كتابه هذا عن أن يكون عابثاً بلا جدٍّ ، فقد جمع الكتب الثلاثة وعجنها عَجْناً حتى كانت صَلصَالاً من حمإٍ مسنونٍ ، يستجيبُ أحسن استجابة لأنامله الماهرة ، فهو يشكِّل منها أشكالاً كما يشاءُ أو يشاءُ هواهُ !

وإذا كنتَ محبًّا للوقوف على قدرة هذا المثّال المقتدر فى العبثِ ، فإنى / أَدُلُّكَ على المقالات الثلاث الأخيرة من مقالاتى [هذا السفر : ٤٨٧ – ٥٣٠] حين اهتَبَل من بلاشير فكرة « القرامطة » اهتبال الصائد ، وجعل يردّد لفظ « القرمطة » و « قرمطية المتنبى » ترديداً غليظاً ، تلذّذًا وتشدُّقاً وتشبُّهاً بالذين « يملأون أفواههم بالقاف والطاءِ وما أشبهها من الحروف الغلاظ » أو كما قال : [انظر ما سلف : ٣٢] . وهذا من فعله سَطْوٌ مجرَّدٌ على بلاشير . وفكرة « قرمطية المتنبّى » ، على سخافتها وتَفاهتِها ، فكرة واهيةٌ دالَّةٌ على خلوِّ عقل القائل بها من فَهْم « القرمطية » ما هى ؟ ولكن الدكتور ظنَّ أنه قادرٌ بالثرثرةِ ، وبعجن ما فى الكتب الثلاثة ، على أن يجعَلَ شعر المتنبِّى مُبيناً عنها ، مع أنّ شعره دالٌّ على خلافها تمام الدلالة ، وكَلامِى الذى افْترصَهُ من كتابى ، وعجنه فى صَلْصاله ، مناقِضٌ لها كلَّ المناقضة . فكيف أطاقَ أَن يفعل ما فعل ! هذا عبثٌ مجرّدٌ لا خير فيه . فاقرأ ، غيرَ

١٤٦ م

مأمورٍ ، ما كتبتُه فى المقالات الثلاثِ ، فستعلم علم اليقين أن حياتنا الأدبية والثقافية والفكرية عامةً ، قد بُذرت فيها بذورٌ من الفساد والعَبث والاستخفاف ، والتعالم البغيض ، والسَّفَه المؤدِّى إلى انتقاض عُرَى العقل عروةً عروةً ، حتى أثمرت هذه الثمرة اليانعة النضيرةَ التى تتحلَّى بها حياتنا الأدبية اليوم ، (سنة ١٩٧٧) ، وتتميَّز تميُّزاً ظاهراً ، فى كتابة الكُتَّاب وبَحْث الباحثين ! لا يكاد أحدنا يستثنى نفسه ، فهو كجليس صاحب الكِير (الحدَّاد) ، إن لم تحرقه ناره ، ناله من شَرَره ! ما علينا ، والأمر لله وحده ، لا مَلْجأَ ولا مَنْجى إلاّ إليه .

١٤٧ م

وكتاب « مع المتنبى » ، بُنى على طرازٍ غيرِ معهودٍ فى كتب الدكتور / طه أو كتب غيره ممَّن كتب عن الشعراء ، فلذلك قلت مراراً فى مقالاتى ، وفى الذى تقرؤه من قصة كتابى : إن الدكتور طه لم يكن إلاّ مقلِّداً لى ، وقد وصفت نفسى آنفاً [ص : ٤٢ ، ٤٣] ، وأنا أميِّل الرأى حائراً بين أساليب الكتابة ، وذكرت طرفاً من مناهج المحدثين من كتابنا فى تأليف الكتب فى تراجم الشعراء وغيرهم ، وبيَّنتُ متى استقمتُ على الطريق وكيف ؟ [ص : ٤٦] ، وهو طريق مخالفٌ كُلَّ المخالفة للمعهودِ من كُتُب التراجم ، وقد انفردتُ بهذا النهج على غير مثالٍ سابق [ص : ٧٧] ، فإذا جاء بعدى رجلٌ يقصُّ على آثارى قَصَصاً ، خُطْوةً خُطْوة ، فهو بلا ريبٍ مقلِّد لا أكثر ولا أقلَّ . وقد بيّنْتُ ذلك فى مقالاتى بياناً صريحاً ، ثم قلت : « ونحن هنا لا نفخر بأننا أوَّل من كتب تاريخ المتنبّى على هذا الوضع الذى تراه فى كتابنا ، ولكنا نقرِّرُ ذلك إقراراً للحق ، وبياناً للذى فعله معنا الدكتور طه ، حين أخذ آراءنا فأفسدها ، ووضعها فى غير موضعها ، واستعملها بغير حقِّها ، وأخرج كتابه على غِرار كتابنا غير متهيِّب ولا متورِّع من مذمّةٍ أو إثم . وأغراه بذلك ما يعلمُ من عظيم شهرته وبعيد صيته ، وما يعلم مما نحنُ فيه من الخفَاءِ والصَّمْتِ وقلة الاكتراث بالدعاية الملفَّقَةِ لأنفسنا .... » [هذا السفر : ٥٢٩] .

ومع ذلك فإن بناءَ كتابه قائمٌ على جُدُرٍ تُريدُ أن تنقضَّ ، لأنّ بَنَّاءَه كان فاعلاً بغيره ، لا بنفسه ! وبِنَاءُ كتابى كان بَنَّاؤُه « متذوِّقاً للشعر » بنفسه وعلى طريقته .

١٤٨ م / وقد ذكرتُ آنفاً ، [ص : ١٧] أن أول صرَاعِى مع الدكتور طه فى الجامعة ، كان صراعاً على ضرورة قراءة الشعر الجاهلى « قراءة متذوِّقة مستوعبة » ، وأنى كنت أحاولُ يومئذ أن أقنعه به فيأبَى ويعرضُ ، [ص : ٩٩] ، كان ذلك سنة ١٩٢٧ وما بعده = ثم لما جاء هو فى سنة ١٩٣٥ ، وتذكر ما كنت أصارعه عليه ، حاول محاولة مّا أن يسلُك طريق « تذوُّق الشعر » . فَعَل ذلك ، ولكنه « تذوّق بلا منهج ، وبلا هدفٍ ، وعلى غير أصل » ، [ص : ٣٥ ، ٩٩] . فلما كانت سنة ١٩٣٦ ، وقرأ الدكتور طه كتابى ، كما قال هو : « مرتين ، بل ثلاثاً ، وما أظن إلاّ أنى عائدٌ إلى قراءته مراتٍ » ، [ص : ١٠٣] ، ظنَّ ، وأكذبُ الحديثِ الظنّ ، أنّه قد قتل « تذوُّق الشعر » علماً حتّى طاعَتْ له عواصيه ، بعدَ أنْ رأى تفسير هذه القضيّة ، قضيّةِ « تذوُّق الشعر » التى كان أَباها علَىَّ ورفضها منِّى رفضاً = رآها مطبّقَة تطبيقاً شاملاً لكتابى كُلِّه .

وسوَّلت له نَفْسُه أن يغتالَ « تذوُّق الشعر » ، ووجدهُ أمراً لا غُبَار عليه أن يفعلهُ معى ، جزاءً وفاقاً = ولم ؟ لأنّه ظنَّ أنّى اغتلتُ « منهجَ الشكِّ » وسَرقتُه منه وغلبتُه عليه « سطوًا » فاجراً ، حين شككتُ فى نسب المتنبِّى الذى رواهُ الرواة !! فواحدة بواحدةٍ ، والبادى أظلم .

* * *

١٤٩ م وههنا نكتة لطيفة أحبُّ أن تقف عليها ، لتعرفَ أساليب المكر / اللطيف فى الكتابة ، وفى صناعةِ « السطو » خاصة ، لأنها نافعة مُجَرَّبة ! فالدكتور طه حين قرأ كتابى ، وقام قائماً فى الجمعية الجغرافية يلقى كلمته ، كان أوّل ما افتتح به كلامه أن قال [انظر ما سلف : ١٠٠] : « لقد شَكَّ بعضُ الناس فى نسب المتنبى ، وأنا أوافقُه على هذا الشكِّ » وانطلقَ يردّدها مرارًا مالئاً بها فَمَهُ . فلما حمَّلتُ صاحبى الذى كان إلى جوارى مَأْلُكَةً (أى رسالة) يبلِّغها الدكتور وهى : « أبلغ الدكتور أن موافقته أو مخالفته لا تساوى عندى قرشاً ماسحاً ، تتلاقفُه الأيدى فى الأسواق ، لأنه لُفَاظَةٌ لا تصلح للتداول » ،

لم يكذِّب صاحبى فبلغه إيَّاها . فلما استدعانى فى اليوم التالى ، استقبلنى ، كما قلت ، مهلِّلاً ضاحكاً أشدَّ ضحك وهو يقول : « لا تبرح أن تكون صعيديًّا ، كما كنتَ قديماً » ، يعنى أيام جدالى إياه فى الجامعة ، فى « المنهج » و « الشك » و « تذوّق الشعر » ، [انظر ص : ١٧] . ولا شكَّ عِندى البتَّة فى أمر الدكتور طه ، أنه حين بلغته الرسالة ، علم علماً ليس بالظنّ ، أنّى أعنى « الشكّ » الذى اصطنعه ، كما يقول هو ، منهجاً ، وذكَر كُلَّ ما كنتُ أقوله له من القوادح المهلكة لهذا المنهج ، « منهج الشكّ » ، وعادت إليه ذكرى استخفافى به ، وأنّه ليس شيئاً يعتدُّ به ، وأن أمر العلم عندنا ، نحن أهلَ العربية والإسلام ، قائمٌ أبداً فى كُلِّ خبرٍ من الأخبارِ على « التبيُّن » ، وهذا « التبيُّن » هو الذى أنشأ علم « الجرح والتعديل » فى الحديث ، وأن منهجه هذا لا يساوى شيئاً ، إذا ما قُورن بالذى عندنا فى ذلك مبذولاً لكل طالب علمٍ هو حقُّ الطالب للعلم ، لا الطالب للثرثرة = وأن هذا مبذولٌ عندنا فى كُلِّ كتابٍ = وأن / أصلَهُ كلَّه راجعٌ إلى هداية الله تعالى لعباده المؤمنين ، حيث قال لهم فى سورة الحجرات : (يا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا إنْ جَاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى ما فَعَلْتمْ نَادِمِينَ) ، [وقد بينتُ ذلك فى كتابى : « كتاب الشعر »] .

م ١٥٠

فانظر ماذا فعل بعد ذلك ؟ أَلَّف كتابه « المتنبى » ، وتجاهَلَ كُلَّ التجاهل كلمته التى افتتح بها محاضرتَه ، والتى جَهَّل فيها اسمى تجهيلاً ، فقال : « لقد شكّ بعضُ الناس فى نسبِ المتنبِّى ، وأنا أوافقه على هذا الشكِّ » وألغاها إلغاءً = مع أن « الشكَّ » منهجُهُ ! = وافتتح كتابَهُ بهذه العبارة :

« قد تعوَّد الناسُ أن يؤمنوا بأن المتنبّى عربيٌّ خالص النسب ..... » ، وظلَّ يأكُلُ الكلام أكلاً ليثبت « أن المتنبّى « لقيطٌ لِغَيَّة » ، لا يعرف لنفسه أُمًّا ولا أباً » ، واجتنب لفظ « الشكّ » اجتناباً يقظاً جداً ، وَحَشَا هذا الفصل والذى بعده بألفاظ « والشىء الذى ليس فيه شكٌّ » و « أنا لا أشك .... » و « لا نكاد نشُكّ » ، و « أنا لا أفهم الشكّ فى عربية المتنبّى » = أى هى ألفاظٌ تدلُّ على نفى « الشك » جميعاً ، ثم يأتى بها

بعد كلامٍ طويل فى معرض شئ آخر ، فى قوله : « ومن حقك أن تسألنى لماذا أطيل الحديث عن نسب المتنبى ، وأظهر الشك فى معرفته لأبيه وأمّه ، ما دمت لا أُميل إلى الجدال فى عنصره العربىّ الصريح » ، [ص : ٢٥] . ومع ذلك فقد كان فى هذا « الشكّ الملفَّف » مقلِّداً مُسيئاً .

/ وقد قلتُ آنفاً [ص : ٥٤] : « كنت أوّل من شكَ فى نسب أبى الطيِّب الذى رواه الرواة ، ولكنّى لم أقف عند الشكِّ المجرّد ، كما ذهب إليه من قلَّدنى (وهو الدكتور طه) = بل أبنتُ عن علّة الشكِّ ، لأثبت مكانه حقيقةً أُخرى ، دلّنى عليها شعرهُ ومواقفُه فى حياته كُلِّها ، مما كان له ارتباط وثيق بعلّة الشكّ » . وقد فسَّرت أسباب الشك فى بيان « الفقرة الأولى والثانية » من عمود صورة المتنبى بياناً كافياً [ما سلف ص : ٥١ – ٦٠] . ١٥١ م

وهذا الأسلوب فى تجاهل الألفاظ ، ثم الالتفافُ حولها بألفاظ أُخرى ، وإخراجُها مُخْرَجَ الأمر غير المتعمَّد ، وإخفاءُ « المحرِّك » وراءَ نِقاب مُمَوَّه = هو من الأساليب الناجحة أيضاً فى « علم السطو » ، والذى يقتدر عليه يبلغُ مبلغاً عظيماً فى باب « السطو الخفىّ » ، فاحفظهُ ، فإنه نافعٌ جدًّا ، وإذا خُلِط بمسحوق حَبِّ « الثرثرة » ، طَيَّبَ نفسَ القارئ ، وأطفأ حرارةَ الفهم ، وسَهَّل عَمَل الغَفلة !! هذه فائدة طبيّة منقولة عن ابن البيطار ، العشّاب الطبيب !! وانتهت النكتة اللطيفة !

* * *

قلت آنفاً إن الدكتور طه ، غرَّتْهُ نفسُه أن يغتال مِنّى « منهج تذوُّق الشعر » ، كما اغتلتُ أنا منه « منهج الشك » جزاءًا وفاقاً ، وقد رآه سائغاً له = مطبّقاً فى كتابى من فاتحته إلى خاتمته . رآه مطبَّقاً ، ولم يعرفْهُ مفصَّلاً ولا مشروحاً ، لا فى كتابى ، ولا فى كتاب غير كتابى ، / فاجتهد اجتهاداً مبروراً ، (أى لا شبهة فيه ولاَ كذب ولا خيانَة ، ولا يخالطه شئٌ من المآثم) . ١٥٢ م

ولمّا كانَ « موضوع » التذوُّق بينى وبينه واحداً ، وهو شعر المتنبِّى ، رآه على نفسه سهلاً يسيراً ، وهيّناً ليِّنَ المعاطف ، أن يتذوَّقه كما تذوّقتُه ، وأن يستخرج منه حياةَ أَبى الطيب ، وطبائعه وعواطفه وآماله وآلامه وأحزانَه ، وأَثَرَ ذلك على بناء قصائده ، ودِلالةَ هذا الأثر على أَحداثِ حياته . وقد لاقى الأمَرَّين فى هذا التذوُّق ! لأنه كُلَّما جاءَ إلى شعر يتذوّقه ، فوجد لسانى عندهُ يتذوَّقُ ، زاحمنى عليه ، والتقى اللسانان ، ثم رفع لسانَه ليكتب عن أثر تذوّقه !! وإذا هو من حيثُ لا يدرى قد تذوَّقَ بلسانِى ، فتطابق ذوقُ اللسانين ، والحمدُ لله ! وقد ضَربتُ لذلك مثلاً أو مثلين أو ثلاثة ! وتستطيع أن تجد شيئاً من ذلكَ مثلاً ، فى المقالة التاسعة [هذا السفر : ٤٨٧ - ٤٩٧] . وتستطيع أن تجد مثلاً آخر فى المقالة الحادية عشرة حين تفرَّدَ لسانه بالتذوُّق ، فى قصيدةٍ لم أُكتب شيئاً مفصَّلاً فى تذوُّقى لها ، فأشرتُ إليها إشارةً ، فأخذها فاجتهد فيها اجتهاداً مبروراً فتذوَّقها وحدهُ !! وأثبت فى كتابه تذوُّقه هو ، فخرج منها بكُلِّ استنباط جديد يخالف ما كتبتُه فى كتابى . فكانت العاقبة أن أتى بضروب مختلفة المذاقِ من الأخطاء ، ومن قلَّة البَصَرِ بالشِّعر ، ومن إهدار ألفاظ الشعر نفسه إهداراً لا يكون مثلُه أبداً من متذوِّق قد عرف معنى « تذوُّق الشعر » ، وإنما هو تذوُّقُ عابثٍ مُفْتَعِلٍ ، يحكِّم فى الشِّعر والشاعر تخاليط بلاشير وأضرابه ، مع أن أوَّل شرط فى / « تذوُّق الشعر » أن نجعلَهُ محكَّماً لا فى شأنِ هذه التخاليط الأعجمية ، بل فى تعديل أخبار الرواة القدماء أنفسهم أو تجريحها ، أو استخلاص الصِّدق من نصوصها ونَفْيِ ما زيَّفَهُ التذوُّق ، [انظر هذا السفر : ٥١١ - ٥٢٠] .

١٥٣ م

فلما تخطَّى الدكتور مرحلة العَبَث واللَّهو ، و « الشقاوة » فى مداعبة المتنبِّى ومداعبة خصومه وأصدقائه جميعاً ، كما قال [انظر ما سلف ص : ١٠٨ س : ١١ ، ١٢] ، و « شبَّ عمروٌ عن الطَّوْقِ » ، عند ص ٩٩ من كتابه أو قبلها بقليل = جاء ما صرفه عن اللهو والعبث ، واضطَرَّهُ إلى محاولة البحث والتحقيق ، (بحكم السِّنِّ على الأقل) . جاءَ هذا الجائى ومعه كتاب عزام بمراجعه ، وكتابُ بلاشير بمراجعه ، وكتب اثنين آخرين ذكرهما بعد دَهرٍ فى ص ٤٢٥ من كتابه ، وزعم أن كتبهم « ليست فى أيدى قراء العربية » ، لأنها

كتبت فى الفرنسية والإيطالية ، (وليس هذا صحيحاً على إطلاقه !) ، فعندئذ فكَّر وقدر ، ثم نظر ، ثم عَبَس وبَسَر ، ثم استبان له النَّهجُ ، واستتبَّ له الطريق : أن يكون باحثاً محقّقاً ، وناقداً متذوِّقاً ، فى قَرَنٍ واحدٍ !! [والقَرَنُ : الحبل ، أى مجتمعين فيه معاً] ، وهذا مَركَبٌ وَعْرٌ شاقٌّ ، لا تصلُح معه السجَايا المتناقضة فى النفس الواحدة ، حين يكون : « مِنْ سَجِيَّتِها الأناةُ ، ومن سجيَّتها العَجَلة ، ومن سَجِيَّتها الجدّ ، ومن سجيتها اللهو ، ومن سجيَّتها التفكيرُ ، ومن سجيتها الهذيان » ، [كتابه ص : ٧] ، ويرضى أن تطغى عليه بعض سجاياه هذه طغياناً « يصوِّرُ لعبهُ بوقته ، وعبثه بعقله ، وعصيانه لهواه ، وطاعته لهذا الهوى أحياناً] [أيضاً ص : ٧] . / والذى هذه سجاياهُ ، ثم يكونُ لا يملكُ أمرَ نفسه ، ولا يفرِّق فى أمرها بين القبيح والحسن ، ثم يبلُغ به إرسالُ النفس على سجيتها ، أن لا يفرِّق بين مواضع الجدّ ومواضع العبث ، حتى يرضى أن يأمرَ قارئه غير مبالٍ : « قل إنه كلام يمليه رجل يفكِّر فيما يقول ، وقل إنه كلامٌ يهذى به صاحبُه هذياناً ... » [ما سلف : ١٠٢] ، فهذا بلا ريب لا يُؤْمَنُ على ركوب طريقٍ لا يصلُح معه إلاّ الجدّ والصبرُ والحزامةُ ومخافةُ العِثار = إلاّ أن يكون غير صادقٍ فيما يقول عن سجاياهُ = أو إلاّ أن يكون مترجماً سيّء الترجمة لشعر العُجَيْر السلوليّ :

إذا جَدَّ عِنْدَ الجِدّ ، أرضاكَ جِدُّهُ ، وذُو باطلٍ ، إن شئتَ أَرْضَاك بَاطِلُه

= أو إلاّ أن يكون قال ما قال ، من فَرْط الزَّهو بنفسه ، والإدلال على سامعيه أو قارئيه ، وهم مِنْ تحت سَمائه ، قيامٌ شواخصُ الأبصار إلى أُبَّهته فى عليائه ! ولكن ما لى أنا ولهذا ؟ فإن الله لم ينصِّبنى محامياً أدفع عن كرامة عقول البائسين من السامعين والقراء !

أمّا الذى يعنينى ، فهو منهج « تذوّق الشعر » ، فإنه قد وقع فى محنةٍ عظيمة منذ ص ٩٩ ، إلى آخر الكتاب ، لا ، بل كانَ ذلك منذ أوّله أيضاً ، فقد صار مفروضاً عليه فرضاً لازباً ، أن يكون خادماً سامعاً مطيعاً للمعارضات الخفية الماكرة التى جاء بها الأستاذ عزام فى كتابه تحت عباءَة « البحث الطويل المتعب » ، وللتخاليط التى تتخلَّل

١٥٤م

كتاب بلاشير وغيره عن المتنبّى ، وصارت هذه الكتب محكَّمةً فى تذوّق الشعر ، وفى
١٥٥ م حياة أبى الطيب ، ولم / تعُدْ للشّعر نفسه ولا لتذوُّقه هيمنَةٌ على شئ ، لا على حياته ،
ولا على تمحيص الحوادث والأخبار التى تتصل بحياته ، [انظر ما سلف : ٤٠ ، ٤١] . وهذه المحنة
القاسية الغليظة = مع إصرار الدكتور طه على تقليدى فى « تذوّق الشعر » على الوجه
الذى توهَّم أنّه فهمه من كتابى = أدَّت بالدكتور طه نفسه إلى بذل جُهْدٍ كبير فى التقليد
حين يتعرَّضُ لشعرٍ لم أتعرَّض لهُ مكتوباً بالحبر والقلم . وأما الذى رآنى قد تعرّضْتُ له ،
فقد اضطرَّهُ أن يبذلَ جُهْداً مضاعفاً أضعافاً كثيرة فى تمويهه حتى يُخْفى آثار سَطوه
عليه ، وقلَّما نجح = وأن يبذلَ أيْضاً جُهْداً أكبر فى تطويعِه للعَجْن فى خَليط من أخلاطٍ
مجلوبَةٍ من أرضٍ بعيدة غير أرضه ،

ومُكَلِّفُ الأَشياءِ ضِدَّ طِباعِها ، مُتَطلِّبٌ فى الماء جُذْوَة نَارِ

« وحِلْمُ القِطط كلُّه فيران » ، كما يقال فى المثل العامىّ . فالدكتور طه بدأ كتابَهُ
مشغولاً بِكتابى ، وبتطبيقِى فيه منهجى فى « تذوق الشعر » ، وكلمة « التذوّق » لا تزالُ
أصداؤها البعيدةُ فى نفسه منذ كنت طالباً فى الجامعة ، [انظر ما سلف قريباً : ١١٠ ، ١١١] . فلما
بدأ يكتبُ ، اجتنب لفظ « التذوّق » اجتناباً كاملاً متعمَّداً ، فكان يستعمل مكانها
« التبيُّن » و « الاستنباط » و « الاستخراج » و « التدبُّر » و « التأمُّل » ، وهى كلمات
دائرة أيضاً فى كتابى ، وخاصة حيث أختصر الكلام اختصاراً ، مجتنباً الإطالة ، فأحيل
١٥٦ م القارئ فى هوامشى على شعر أبى الطيب ، لينظر فيه على الأُصول / التى درجتُ عليها فى
الكشف عن حياة المتنبّى وعن شخصيته .[1] ولكنّه حين بلغ ص ١٠٦ ، وأراد هو
أيضاً الاختصار !! لم يملك إلا أن يستعمل كلمة « التذوّق » ، التى تؤرِّقه ، لأوّل مرة
حيث قال كما أقول : « وخُذ أنت هذا الشعر ، وقف عليه من وَقتك أيَّاماً ، فما أشكُّ فى

---

(١) انظر هذا السفر ص : ٢٤٧ ، ٢٥٢ ، ٢٦٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٦ ، ٣١٥ ، ٣٥٠ ، ٣٨١ ، وتعليق الهوامش فيها . ومواضع أخرى فى الكتاب نفسه .

أنَّك ستصلُ إلى ما لا أريدُ أنا أن أطيل فيه ، ولكنّى واقفٌ معك عند بعض هذا الشعر ، فاجتهد أن تتذوّقَه ، لعلنا نتعرَّفُ على أصول فنّ المتنبِّى فى شئ من التفصيل والوضوح » . هذه أوَّل مرّة ، ثم انطلق يستعملها مراراً بعد ذلك غير متحرّج . ولكن ظهر ظهوراً بيناً بعد ذلك فى سائر كتابه : أنه لم يخرجْ قط عن أن يكون تذوُّقه هو التذوُّق الساذَج الذى أَلِفه فيما كتبه عن بعض شعراء الجاهلية ، وعن شعر الغَزِلين ، وشعر أبى نواسٍ وأضرابه ، فى كتابه « حديث الأربعاء » = إلا ما شذَّ قليلاً حين تذوَّقَ بلسانى بعض شعر المتنبى ، كما أشرت إليه منذ قليلٍ .

وهو معذورٌ فى ذلك ، لأن القَدْر الذى عرفه من تطبيقِ منهجى فى « تذوق الشعر » ، وفى تذوّق الأخبار أيضاً ، كان قَدْراً لا يكفى . فهو لم يستطع أن يدرك « تذوُّق الشعر » بمنجاة من تأثير الأخبار المرويَّة ، كيف يكون . ولم يستطع أيضاً أن يعرف « تذوّق الأخبار » أيضاً معروضةً على الشعر ، ولا كيف تكون هَيمنةُ الشعر على الأخبار ، حتى يُزيِّف « تذوّق الشعر » منها ما يزيِّف ، ويصحِّح منها ما يصحّ ، لكى يجلوها جلاءً جديداً يجعلُها قادرةً على أن تجعل حياةَ أبى الطيب ، واضحةً جليَّةً مستوية . ولا كيف يكون ذلك / الصحيح من الأخبار قادراً على أن يجعل حركة وجدان أبى الطيب فى شعره أشدَّ ظهوراً ووضوحاً = ويجعل صورة حياته التى دلَّ عليها تذوّق شعره أدنى إلى الوضوح ، وأقدر على الالتحام بصورة الحياة التى يدلُّ عليها ، ما صحَّ من الأخبار ، [انظر ما سلف : ٤٨] . وهذه هى بعض الأُصول التى يمكنُ أنْ تجعل « تذوُّق الشعر » قادراً على استخراج صورة صحيحة مستوية غير متناقضة لحياة الشاعر ، وتعصم الكاتب أيضاً من أن تضلّله الأخبارُ ، فيرى فى شعر الشاعر معانىَ بعيدةً كُلَّ البعد عن المعانى التى يدلُّ عليها تذوُّق شعره جملةً واحدة ، وإلا خرجت الصورة كلُّها مشوهةً تشويهاً ، [انظر ما سلف : ٤١] .

١٥٧ م

فلمَّا كان الدكتور طه لم يدرك قَدْراً كافياً من هذا المنهج ، وكان فى عَجَلةٍ من أمره ، وكانت العجلة إحدى سجاياهُ ، لأنه قد طوى نِيَّتَهُ على تأليف كتاب عن المتنبى فى صيف

سنة ١٩٣٦ بفرنسا ،[1] ليطمس به ذكرَ كتاب كتبه كاتب مغمور خامل الذكر فى يناير سنة ١٩٣٦ ، كما قلت للشيخ مصطفى عبد الرازق ، [انظر ما سلف : ١٠١ ، ١٠٦] = فإنّه بدأ كتابه وانتهَى منه على الصورة التى وصفها فى فصل « بعد الفراغ » : « ولكن لم آخذ فى الإملاءِ حتى دُفِعتُ إليه دفْعاً عنيفاً ، لم أستطع له مقاومةً ولا عليه امتناعاً ، وإذا أنا أجرى فى الإملاء أو أَعْدُو فيه أشدَّ العَدْو ، حتى لا يتابعنى صاحبى إلا بجهد كُلّ الجهد ، ومشقة كلّ المشقة ، وإذا أنا أملى إذا أصبحتُ ، / وأملى إذا أمسيت ، وأملى بين ذلك ، وأبغضُ الراحة أشدَّ البغض » ، إلى آخر ما قال ، وصدق ! [كتابه ص : ٧٠٥] . لما كان ذلك وفرغَ من الكتاب ، مكدوداً قد انتهى به الإعياءُ إلى أقصاهُ ، وجد نفسه لم يقل للمتنبى ولم يقل عن المتنبِّى كُلَّ ما كان يريدُ أن يقوله [ص : ٧٠٥] . ولكن حقيقة هذا الكلام أنه وجد « صورة المتنبّى » التى كتبها ، صورة لا تمثّل شيئاً له قيمة ، فعبَّر عن ذلك بقوله : « إنّى أبعد الناس عن حسن الرأى فيما أمليتُ ، ولا تظنّ أنى أريد التواضع .... وإنما أريد أن ألاحظ أن هذا الكتاب إن صوَّر شيئاً ، فهو خليقٌ أن يصوِّرنى أنا فى بعض لحظات الحياة أثناء الصيف الماضى ، أكثر ممّا يصوِّر المتنبِّى » [كتابه ص : ٧٠٦] . وهذا صحيح جدًّا مع الأسف ، لأنه يصوِّر حقيقة أعماله ، ودوافِعه دائماً ، منذُ كتب حاشيته الصغرى على مقالة مرجليوث المسماة « فى الشعر الجاهلى » ! فى سنة ١٩٢٦ ، منذ عشر سنوات ، ولم يتغيَّر لا كثيراً ولا قليلاً ، وأعجزتْه دوافعه ، « فلم يستطع لها مقاومةً ولا عليها امتناعاً » .

١٥٨ م

---

(١) تبين من رسالة للدكتور طه إلى توفيق الحكيم فى ٢٥ أغسطس سنة ١٩٣٦ ، أنه قد فرغ من كتاب المتنبى قبل ذلك بأسبوع ، أى فى ١٨ أغسطس سنة ١٩٣٦ تقريباً ، فإذا كان قد غادر مصر فى أواخر مايو ، فقد استغرق تأليفه ثلاثة أشهر أو أقل . وانظر كتاب توفيق الحكيم « وثائق من كواليس الأدباء » ، وفيه عجيبة من العجائب تخصُّ ما كنت أريد أن أكتبه عن المتنبِّى ، فلا أدرى كيف صار عند توفيق الحكيم منسوباً إلى نيّةٍ سمع عنها ، من شاعرنا مطرانَ ، والحقيقة أن هذه النية كانت نيَّتى أنا أخبرت بها شاعرنا مطران ، فلا أدرى كيف انقلبت فصارت نيةً للدكتور !

ولما كان كتابه ، كما قال ، خَلِيقاً أن يصوّره هو أكثر مما يصور المتنبى ! وأدرك ذلك إدراكاً يقيناً ، فإنه نظر إلى صورة المتنبى عنده ، وصورتها عندى ، فأنكر ما عنده إنكاراً شديداً ، فقد وجدها خَلْقاً مُشَيَّأً تضيق به نفسُه ، [والمشيَّأ : المختلِفُ الخَلْق ، المُخَبَّلُه ، القبيحُ الصورة] . ولكى تعلم أن هذا كما أقول ، فإنى موجزٌ لك صورة المتنبِّى التى اختلطت فى كتابه حتى خرجتْ ، فأنكرها هو أشد الانكار :

/ لقيطٌ لغيّة ، لا يعرف لنفسه أمًّا ولا أباً ، شاذٌّ لأمرٍ ليس له فى يد ، لا يستطيع أن يفاخر بأسرته ، فهو يشعر بالضَّعَة والضعف ، (من عنده) ، [1] نباتٌ شعبىٌّ خالص !! (من عنده) ، شابٌّ مستعدّ لسانه للسخرية (من عندى ، والتصوير من عنده) ، صبىٌّ شيعىٌّ متشيّع للعلويين ، وقرمطىٌّ لحبه سفك الدماء (خليطٌ من عنده ومن عندى) ، حانقٌ على النظام الاجتماعى والسياسى (خليط) ، قوىّ الحسّ عنيف النفس (من عندى) ، يمتحن ممدوحيه ليتبيّن استعدادهم للخروج على السلطان (خليطٌ) ، صاحبُ مذهب سياسىّ أشمل من القرمطية والتشيع ، وهو أن تجتمع كلمة العرب وأن يعود إليهم ملكهم وسلطانهم ، وأن يردّ غير العرب من الخدم إلى طورهم الذى كانوا فيه (الأصل من عندى مع خلط) ، يَنْشُدُ أميراً عربيًّا يحيى آماله ، مثل بدر بن عمار (من عندى) ، كان يسأل جدته عن خبر أبيه وأمّه ، (من عندى مع خلط) ، نشأته علّمته الحيطة والحذر (من عندى مع خلط) ، سجنه جريمة من جرائم الرأى (من عندى مع خلط) ، ما ينسب إليه من النبوة مرفوض (من عندى مع خلط) ، كفكف السجن من غلوائه (من عندى) ، شقىٌّ بالأمل فى أول أمره ، شقى باليأس بعد سجنه ، فأنضج ذلك نفسه (من عندى) ، ظهور شخصيته فى أوقات العنف ، وفى أوقات الحزن (من عندى) ، يشعر بالغربة ، لولا جَدَّته (من عندى) ، لقاءُ بدر بن عمّار وثب بفنّه ، فبلغ من الرقىّ ما لم يبلغه فى الأيام السالفة (من عندى) ، وثب فنّه الوثبة الأولى عند

١٥٩ م

---

(١) هذا موجزٌ لبعض مواضع الاختلاف والاتفاق ، فيما كتبتهُ فى كتابى ، وما كتبه الدكتور طه فى كتابه .

التنوخيين ، والثانية عند بدرٍ ، وكانت نواةً ستنبت وتنمو وتعطى شيئاً كثيراً مختلفاً ألوانه
١٦٠ م فى الوثبة الثالثة عند سيف الدولة ، حين وثب / وثبته الأخيرة التى رفعته إلى الأوج (كله من عندى) ، يمتلىء قلبه بالبهجة عند لقاء بدرٍ وأمثاله حتى يعجز عن إخفائها (من عندى مع خلطٍ كثير) ، يثورُ آبياً للضيم على من أرادوا أن يضيموهُ (من عندى) ، جبانٌ (من عنده) ، طبيعته التى يصوِّرها شعره : جوع وأحاديث ، وفلسفة فى الهواء (من عنده) ، امتناعه عن مدح العلوىّ طاهر من زَهْو وغرور (من عنده) ، يلتزم برأيه حين يستغنى ، ويضحِّى حين يخاف أو يطمع أو يحتاجُ (من عنده) ، اتخذ لنفسه مذهباً سياسيًّا وفلسفيًّا ، (من عندى مع خلط) ، يتخذ الشعر وسيلةً لا غاية ، وكان عبداً للطمع والمال ، لا للجمال والفن (من عنده) ، يمثل فكرة الجهاد بين الروم والمسلمين عند سيف الدولة ، وتجد فيها فنًّا وجمالاً (من عندى) ، ينتقل انتقالاً مفاجئاً فى شعره (من عندى ، ولكن بغير دلالتها على شئ !) ، ذليلٌ ضعيفٌ مَهينٌ بين يدى السلطان ، لم يكن صاحب مذهب ولا رأى ، إنما هو رجل متهالك على المنافع العاجلة (من عنده) ، رجلٌ مضطربٌ متلوِّن (من عنده) ، نفسٌ غير متحضِّرة ولا رقيقة الحسّ (من عنده) ، لا يقول الشعر إلا حين تدفعه دوافع كامنة أو ظاهرة (من عندى ، مع خلط) .... و « حسبك من شرٍّ سماعُه » .

هذه بعض ملامح الصُّورة ، لم أستوعبها لأنى فى مقامٍ غير مقام نقد هذا الكتاب ، ولكنها كافية فى الدلالة على شيئين : على « السطو » المجرّد ، وعلى الخلطِ المحكم الذى وصفته آنفاً ! [انظر ص : ١٠٨ ، ١٠٩] . فلمّا أفاق الدكتور من إملاء كتابه وهدأ ، أنكرها ،
١٦١ م لا إنكار مقرٍّ ببشاعة / الصورة ، ولكن ببَراعةٍ وفلسفة وتذوُّق ، فقال فى فصل « بعد الفراغ » ، [ص : ٧٠٧ ، ٧٠٨] :

« وأكثر من ذلك أنى أخذت أرى رأياً ، ما أظنُّ إلاّ أن كثيراً من الناس سيضيقون به ، ولعلهم أن ينكروه علىَّ ، وقد ضقتُ به أنا وأنكرتُه على نفسى ، ولكنّى لم أزدَد

إلاّ إمعاناً فيه ، واطمئناناً إليه ، وتعجُّباً من أنّى قد انتظرتُ هذه السنَّ ، وهذا الطورَ من أطوار الحياةِ ، قبل أن أفطُنَ إليه وأطيل التفكير فيه ، وهو : أن شعر المتنبىّ لا يصوِّر المتنبى ، وأن شعر الشعراءِ لا يصوّر الشعراء تصويراً كاملاً صادقاً ، يمكِّننا من أن نأخذهم منه أخذاً ، مهما نبحث ، ومهما نجدَّ فى التحقيق . وما أريد أن أطيل الاستدلال على ذلك ، ولا أن أسلك إلى هذا الاستدلال هذه الطرق الملتوية التى يسلكها الفلاسفة والعلماء والأدباء أيضاً ، وإنما أريد أن أَلْفِتَك إلى شئٍ يسير ، وهو أن ديوانَ المتنبى إن صوّر شيئاً ، فإنما يصوِّر لحظات من حياة المتنبّى ، لا أكثر ولا أقلّ » .... وطفق يتفلسفُ !

وبالطبْع ، كما نقول نحن المصريين فى دَرَج الحديث ، لا يوجد شئ كهذا الذى يُوهِم الدكتور بكلامه أنه كائن . ولا يوجدُ شئٌ كهذا يقال فيه إن شعر الشعراء ، أو كلام غير الشعراء ، يصوّرهُمْ تصويراً كاملا صادقاً ، « يطابِق الأصل ويوافقه » . لا توجد « نظريّة » كما سمّاها ، تبلُغُ هذا الحدَّ من السُّخف والتفاهَةِ والإسفاف ، ويحتاج المرءُ معها « أن ينتظر هذه السنّ ، وهذا الطور من أطوار الحياة » ، ويَحْطِمَ الثامنة والأربعين من عُمُره ، / وينطحَ بقرون رأسِه جدارَ الخمسين ، حتى يفطُنَ ويجيدَ الفطنة ، وحتى يفكر ويطيل التفكير ، حتى يتبيَّن أنها باطلةٌ ! ثم يحتاج بعد ذلك أن ييسِّر على قارئه المسكين فهمَ وجه بطلانها بضرب الأمثال ، فيقول : « فكما أنك لا تستطيع أن تزعُم أنك تستخلص من هذا الكتاب صورة صادقة لى تطابق الأصل وتوافقه ، بل لا تستطيع أن تزعُم أنك قادرٌ على أن تستخرج من كتبى كلِّها صورة صادقةٍ لى تطابق الأصل وتوافقه ، فكذلك أنت عاجزٌ عن أن تخرج من ديوان المتنبى صورة صادقةً ، تلائم حياة المتنبِّى ، كما كانت فى النصف الأوّل من القرن الرابع من الهجرة » .

١٦٢ م

هذه ثرثرةٌ حائرة ، ومجرّدُ عبث محض بالألفاظ ، ولهوٌ فارغ يلهو به من يكوِّن جُمَلاً مفيدة ، من ألفاظ مسطورة : « صورة » و « أصل » و « تصوير » و « قادر » و « عاجز » و « صادق » و « تطابق » و « توافق » !! والناسُ حين يقولون : « صوّر

الكاتب صورةً صادقة لشاعرٍ » ، لا يعنون بداهَةً ما حاول الدكتور أن يُوهِم به قارئه ، ويستزِلَّ عقله بتأكيده المتواصِلِ : « تصويراً صادقاً كاملاً !! » = عن المعنى الذى يدركه عامة الناس بالبَداهة ، وهو أن الذى استخرجه الكاتب من شِعْر الشاعر ، يجعلُ شعرهُ أكثر وُضوحاً ، وأظهر دلالة على فنّه ، وأقْوَى بياناً عن طبيعته وعَوَاطفه ، ويجعلهم أكثر قدرةً على تمثُّل ما تخبؤُه ألفاظُ شعره من موقِفه تجاه أحداثِ حياته التى عاشها ، فصاغَها صياغةً مبينة عمّا كان يعتلجُ فى نفسه حين صاغها . وهذا موضع المثل : « زىّ الطَّبْل منفوخ عَ الفارغ » ، وصدق من قاله .

١٦٣ م / وكل ما فى الأمر أن الرجُل حين فرغ من كتابه ، رأى صورة أبى الطيب فى كتابه ، وقد رآها من قبل فى كتابى ، وأدرك أن بين الصورتين بَوْناً بعيداً ، كالبعد بين المستقيم والمعوَجّ ، وبين الوليد الذى وُلِد لتمامِه ، والسِّقْط الذى وُلِد لغير تَمام ، فاعتذر ، فأساء الاعتذار ، ولم يدر كيف يقول !

* * *

أما الآن ، وقد فرغتُ من لَمْحة خاطفة فى القسم الذى يبدأ من ص ٩٩ إلى ١١٧ ، من كتاب « مع المتنبى » ، وهو الذى لم يكن مقدَّراً لى أن أتمم كلامى فيه فى مقالاتى : « بينى وبين طه » التى كتبتُها سنة ١٩٣٧ ، ونشرتها اليوم ملحقة بهذا الكتاب = أمّا الآن ، فإنى أتلفَّت إلى الأيام الغابرة البعيدة ، حين كنت أُشْفِق من مَغَبَّة السُّنن التى سنَّها لنا الأساتذة الكبار ، كسنّة « تلخيص » أفكارِ عالَم آخر ، ويقضى أحدَهُم عمره كله فى هذا التلخيص ، دُونَ أن يشعُرَ بأنّه أمرٌ محفوفٌ بالأخطارِ ، ودون أن يستنكف أن ينسبَهُ إلى نَفْسه نسبةً تجعله عند الناسِ كاتباً ومؤلّفاً وصاحبَ فكرٍ ، هذا ضربٌ من التدليس كريهٌ . ومع ذلك فهو أهوَنُ من « السطو » المجرَّد ، حين يعمد الساطى إلى ما سطا عليه ، فيأخذهُ فيمزّقه ثم يفرِّقَه ويُغرقه فى ثرثرةٍ طاغيةٍ ، ليخفى معالِمَ ما سطا عليه ، ولِيُصبح عند الناس صاحب فكر ورأى ومذهبٍ يُعرفُ به ،

ويُنْسَبُ كُلُّ فضله إليه . ومع ذلك ، فهذا أيضاً أَهونُ من « الاستخفاف » بتراثٍ متكامِلٍ بلا سببٍ ، وبلا بحثٍ ، وبلا نظر ، ثم دعوة من يَعْلمونَ عِلماً جازماً أنه غير مطيقٍ لما أطاقوا ، إلى الاستخفافِ به / كما استخفَّ هو . ومع ذلك أيضاً ، فهذا أهونُ مما فعلوُه وسنُّوه من سُنّة « الإرهاب الثقافىّ » الذى جعل ألفاظ « القديم » و « الجديد » و « التقليد » و « التجديد » و « التخلُّف » و « التقدّم » و « الجمود » و « التحرُّر » ، و « ثقافة الماضى » و « ثقافة العصر » = سياطاً مُلْهِبَةً ، بعضُها سياطُ حثٍّ وتخويفٍ لمن أطاعَ وأتى ، وبعضها سِياطُ عذابٍ لمن خالف وأبى .

١٦٤ م

أتلَّفتُ اليوم إلى ما أشفقْتُ منه قديماً من فعل الأساتذة الكبار ! لقد ذهبُوا بعْدَ أن تركُوا ، من حيث أرادوا أو لم يريدُوا ، حياةً أدبيَّة وثقافية قد فسدت فساداً وبيلاً على مَدَى نصفِ قرنٍ ، وتجدّدت الأساليب وتنوَّعَت ، وصار « السطو » على أعمال الناس أمراً مألوفاً غير مستنكر ، يمشى فى الناس طليقاً عليه طَيلسانُ « البحث العلمى » و « عالميّة الثقافة » و « الثقافة الإنسانية » ، وإن لم يكن محصولُه إلا ترديداً لقضايا غريبة ، صاغها غُرباء صياغةً مطابقةً لمناهجهم ومنابتهم ونظراتهم فى كُلِّ قضيّة ، واختلط الحابل بالنابل ، قُلْ ذلك فى الأدب والفلسفَة والتاريخ والفنِّ أو ما شئت ، فإنّه صادقٌ صِدْقاً لا يتخلَّف . فالأديب منَّا مصوِّرٌ بقلم غيره ، والفيلسوف مِنَّا مفكِّر بعقل سواهُ ، والمؤرخُ مِنَّا ناقد للأحداث بنظر غريب عن تاريخه ، والفنّان منَّا نابضٌ قلبُه بنبضٍ أَجْنبىّ عن تراثِ فنِّه .

وأما الثرثرةُ والاستخفافُ ، فحدِّث ولا حرج ، فالصبىُّ الكبير يهزأ مزهوًّا بالخليل وسيبويه وفلانٍ وفلانٍ ، ولو بُعِث أحدُهم من مَرْقَدِه ، ثم نظر / إليه نظرةً دون أن يتكلَّم ، لألجمه العرَقُ ، ولصارَ لسانُه مُضْغَةً لا تتلجلجُ بين فكَّيه ، من الهَيْبة وحدَها ، لا من علمه الذى يستخفُّ به ويهزأ .

١٦٥ م

واللهُ المستعانُ على كُلِّ بليَّة ، وهو المسئول أن يكشفَها ، وهو كاشفُها بمشيئته ، رَحمةً بأمَّةٍ مسكينة ، هؤلاء ذُنوبُها كانوا ، وأشباهٌ لهم سبقُوا ، وغفرانَك اللهمَّ .

الأحد ٢٥ من ذى القعدة سنة ١٣٩٧
٦ من نوفمبر سنة ١٩٧٧

محمُود محمد شاكر



كتاب المُتَنَبِّى

* على هيئته التى نُشر عليها فى عدد المقتطف ، يناير ١٩٣٦
* الشعر الذى فى رأس كل فصلٍ ، من شعر المتنبِّى

كتب فؤاد صروف قال :

« هذا العدد من المقتطف يختلف عن كل عدد صدر منذ ستين سنة إلى يومنا هذا ، فهو فى موضوع واحدٍ ، ولكاتب واحدٍ .

أمَّا الموضوع فأبو الطيب المتنبى .

وأمَّا الكاتب فالأستاذ محمود محمد شاكر .

وقد رأى محرر « المقتطف » فى العناية بالاحتفال بانقضاء ألف سنة على وفاة المتنبى ، وفى طرافة المباحث التى انطوت عليها رسالة الأستاذ شاكر ، ما يُسَوِّغ له أن يجعل هذا العدد بمثابة كتاب يرفعه :

إلى أبى الطيب المتنبى »

****

/ أَنَا الَّذِى نَظَرَ الأَعْمَى إلى أَدَبِى ٣
وأَسْمَعَتْ كَلِماتِى مَنْ بِهِ صَمَمُ
أَنَام مِلْءَ جُفُونِى عَنْ شَوَارِدِهَا
وَيَسْهَرُ الخَلْقُ جَرَّاهَا ويَخْتَصِمُ

****

كنتُ فى غُلَواء الشباب حين وقعت لى ، فيما كنا نتعلم من « المحفوظات العربية » ، أبياتٌ للمتنبى حفظتها فى غير عناء ، وجعلت أردِّدُها بكثير من اللذة والحماسة ، لأنها كانت تنطوى ، فيما أظن الآن ، على ذكر سجايا يتيه بها الشاب وتهتزُّ مَعَاطفه ، إذ لا يزال فى مستهل الحياة ، يراها ، أو يتصورها ممتدة أمامه ، ميداناً رحباً ليس له فيه إلاّ الاقتحام والغزو والظفر . فكذلك كان مما حفظته ، وكأنما طبعت فى ذاكرتى بأحرف من نار :

رِدِى حِياضَ الرَّدَى ، يَا نَفْسُ ، وَاتْرُكِى حِيَاضَ خَوْفِ الرَّدَى للشَّاءِ والنَّعَمِ
إنْ لَم أذَرْكِ على الأَرْمَاحِ سَائلةً فَلاَ دُعِيتُ ٱبنَ أُمِّ المَجْدِ والكَرَمِ

* * *

أَيْنَ فَضْلِى ، إذا قَنِعْتُ مِنَ الدَّهْـ ـرِ بِعَيْشٍ مُعَجَّلِ التَّنْكِيدِ ؟
أبَداً أَقطَعُ البلادَ ، ونَجْمِى فى نحوس ، وهِمَّتِى فى سُعُودِ

* * *

/ لا يَسْلَم الشَّرَفُ الرَّفِيعُ من الأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوانِبِهِ الدَّمُ ٤

* * *

ولا تَحْسَبَنَّ المَجْدَ زِقًّا وقَيْنَةً فَما المجدُ إلاَّ السَّيفُ والفَتْكةُ البِكْرُ
وتَضريبُ أعْنَاقِ المُلوكِ ، وأَنْ تُرَى لَكَ الهَبَواتُ السُّودُ والعَسْكَرُ المَجْرُ
وتَرْكُكَ فى الدُّنيا دَوِيًّا كأنَّما تَدَاوَلُ سَمْعَ المرءِ أَنْمُلُهُ العَشْرُ

* * *

وعندما أراجع ديوان المتنبى الآن تمرُّ بى أبيات من الشعر كأن رنينها إذ أقرؤها محمول إلىّ من مَغَاور متغلغلة فى جوف الماضى . وأكثر هذه الأبيات من شعر الغزل والنسيب الذى كان المتنبى يستهلّ به بعض قصائده . ولست أحفظ الآن من ذلك إلاَّ نزراً يسيراً ، لأن رجولة المتنبى كانت هى التى فتنتنى فى صباى دون رِقَّته ونسيبه ، وقد كنت أظن أن رجولته هذه يكون مردُّها ، فى الغالب ، إلى خياله المتوثّب وحده — إلى أن قرأت أصول هذا الجزء من المقتطف وتجاربه ، فإذا هى ، بحسب رأى الكاتب ، متصلة أوثق اتصال بأصله ونشأته وتربيته التى قامت عليها جدته ، « أُمُّ أُمِّه » وحوادث عصره وحياته ، وإذا أقوى شعره إعراب بليغ ، وبيان واضح عن ذلك كله .

وكنت أطلب العلم فى جامعة بيروت الأمريكية فكان أستاذنا فى الأدب العربى « جبر ضومط » رحمة الله عليه ، مولعاً بدراسة المتنبى وتدريسه ، فقضينا معه سنتين نحفظ من قصائد المتنبى ما يتخيَّره لنا منها ، ونمعن فى حَلّ أبياتها وإعراب ألفاظها ، ويمعن هو فى تفسير معانيها وبيان ما تحمل فى ثناياها / من حكمة وفلسفة . وكان لا يفوته أن يلمِّح أحياناً إلى أن حياة المتنبى على صلة وثيقة بعصره . وكان معظمنا لا يعى من تاريخ الشرق العربى فى ذلك العهد إلاَّ اليسير ، فمرَّ بهذا التلميح غير آبِهٍ .

وأكبر الظن عندى الآن — وقد اطلعت على رسالة صديقى الأستاذ محمود محمد شاكر ، وما جلاه فيها من دقائق هذه الصلة — أن أستاذنا كان قد حاول أن يجتلى بعض هذا الغامض ، فتبينت له أشياء لم ينشرها ، إمَّا التزاماً بالحذر العلمى قبل القطع برأى ، وإمَّا مراعاة للأحوال السياسية .

وعلى ذلك ظَلّ المتنبى – على علوٍّ مقامه فى الأدب العربى ، ونصوع معانيه ، وسموّ حكمته ، وكمال رجولته – تكتنفه فى ذهنى غمامات من الغموض ، على كثرة شراح ديوانه ومفسريه .

ولكن مشاغل الحياة ، وانصراف أساتذتنا ، عند طلبنا العلم ، عن ترسيخنا فى معرفة أصول تاريخنا الشرقى العربى ، صرفتنى عن دراسة المتنبى ، فكنت فيما تلا من عهد الدراسة ، لا أذكره إلا عندما أسكن إلى ساعة من الراحة ، فأخرج شرح اليازجى ، وأقرأ بعض قصائده المشهورة ، صادفاً عما قد تنطوى عليه أحياناً من مُغْلَق المعنى ، أو مهجور اللفظ ، أو معقَّد التركيب ، مكتفياً بما فيها من قوة ورجولة ، تكاد تحسُّهما ، بعد انقضاء عشرة قرون ، تتفجران من معاطف هذا العربى كالينبوع ، وتتطايران من عينيه كالشرر .

فلما ذكّر المذكّرون بانقضاء ألف سنة على مصرع المتنبى فى ٢٧ رمضان سنة ١٣٥٤ (وقد كان مصرعه فى ٢٧ رمضان سنة ٣٥٤) قلت : هى فرصة فذة تتيح للمقتطف أن يشارك فى إحياء ذِكْرِ عظيم من عظماء العرب ، ونابغة / من نوابغ اللسان العربى ، كسُنَّته فى الاشتراك فى إحياء ذكرى العظماء من علماء الفرنجة ، وفلاسفتهم ، وكتابهم ، وزعمائهم . ولكن الفرق فيما يجب على المقتطف فى الحالين واضح . ٦

فنحن حين نحتفل بذكر عظيم من عظماء الفرنجة نجتزئ بمجمل من سيرته وأثره ، لأن الغرض إنما هو التعريف بآثاره من الناحية الذهنية ، والإشادة بخلقه أو مِثاله من الناحية الأدبية . ولكننا – إذ كان المتنبى من عباقرة شعرائنا – لا ينبغى لنا أن نجتزئ بمجمل أقوال الرواة والنقاد فى حياته وشعره .

فتحدثت فى ذلك مع صديقى المحقق الأستاذ محمود محمد شاكر ورغبت إليه أن يكتب كلمة مسهبة بعض الإسهاب عن المتنبى . وأُقِرُّ أننى كنت مقتنعاً – عندما ألقيت إليه هذا الاقتراح – أن الكلمة لن تزيد عن عشرين ، أو ثلاثين من صفحات

المقتطف ، فوعدنى أن يبذل ما لديه . ولكن البحث تشعب أمامه ، ومواطن الاستنباط والمقابلة تعددت ، فلم يرض ، وقد وجد مجال القول ذا سعة ، بالنهج المطروق . فبعد أن كتب عشرات من الصفحات مزَّقها ونَبَذها ، وعاد إلى الكتابة على نهج آخر . فأصبح المقال عدداً كاملا من المقتطف ، أو يزيد . وليس هذا العدد الكامل إلا موجز سِفْرٍ فى المتنبى ينوى أن يجعله فى أربعة مجلدات أو أكثر .

ولا أخفى عن القارىء أننى مغتبط بهذا كل الاغتباط . ففى هذه الرسالة ، على إيجازها بالقياس إلى ما كان يجب أن تكون ، دلائلُ على تبحُّر الكاتب فى تاريخ هذا العصر من حياة شرقنا العربى ، ومقدرته على تبين الإشارات الخفية فى شعر المتنبى إلى حوادث ذلك العصر ، وبراعة عجيبة فى استنباط / حالات الشاعر النفسية من أبيات ٧ شعره وربطها بحياته الخاصة ، والأحداث التى كانت فى الأمة العربية بوجه عام . وفى الغالب أن يكون عملٌ كهذا متعذراً إذا لم يوفق الكاتب إلى دليل يهديه سواء السبيل ، فى تيه الحوادث ومجاهل الآراء ، فضلاً عما يقتضيه من سعة نادرة فى العلم ، وبراعة فذة فى الاستنباط . وهذا الدليل الذى هداه هو رأى جديد فى أصل المتنبى ونشأته ، أشبه ما يكون بالنظرية العلمية فى ميدان العلوم الطبيعية .

فالحقائق فى علوم الطبيعة هى خصوم النظريات ، والبحث عن الحقائق بالمجهر والمطياف وغيرها من أدوات العلم ، عمل لا ينقطع ولن ينقطع ما بقى الإنسان على فِطْرته فى حب الاستطلاع . ولا يخفى أن النظريات توضع لتفسير طائفة معروفة من الحقائق ، فإذا انقضت عقود من السنين أو سنوات قلائل ، فالغالب أن تجىء هذه الحقائق الجديدة التى يُكْشَف عنها بعد وضع النظرية مخالفة للنظرية فى مجملها أو لنواحٍ منها ، فتعدَّل النظرية القديمة ، أو تُطْوَى وتوضع نظرية جديدة . ويشترط فى النظرية الجديدة أن تكون تفسيراً عامًّا مُنَسَّقاً للحقائق الجديدة والقديمة معاً ، وأن يكون فيها من المرونة ما يجعلها تحتمل تفسير الحقائق التى تستجدُّ ، والتمهيد للكشف عن أمور مجهولة .

فالأستاذ شاكر وضع هذا الرأى أوَّلاً فيما قيل عن أصل المتنبى ووالده وذهابه إلى الكوفة لزيارةِ جدته ، وامتناع ذلك عليه ، فاستقامت الحوادث المتناقضة فى الروايات المنقولة على أساس هذا الرأى الجديد . ثم لما طبَّقه على نفسية المتنبى فى شعره ، وحوادث حياته الأخرى ، وخاصة حديث نبوَّته إلى أن اتصل بسيف الدولة ، تساوقت واتصل الأول منها بالآخر . واستقام كذلك فهمها على منوال يرتضيه العقل ، ويؤيِّده ما كان من حوادث العصر . ولا يبعد / أن تكون هذه النظرية تمهيداً للكشف عن أشياء فى حياة ٨ المتنبى وتاريخ عصره على منوال ما تولِّده النظريات فى العلوم الطبيعية ، كما قدمنا . ولعلَّ الأستاذ محمود يحقق كل هذا تحقيقاً مفصلاً فى سفره المرتقب ، إن شاء الله .

ولا يسعنى فى هذه السطور أن أفصِّل القواعد التى بنى عليها الأستاذ شاكر رأيَهُ ، فهى كثيرة مفرقة فى جميع الفصول ، وهذا البحث الظريف فى حياة المتنبى وأدبه ليس إلا وليد تطبيقها .

فقد استطاع أن يكشف من شعر المتنبى عن دقائق حياته ، وينقض الروايات المنقولة إلينا عن أصله ونشأته وتنبؤه وحبه ومصرعه ، ويصل بين حياة الرجل وأحداث عصره . وبذلك اتسقت حياة المتنبى ، واتصل أولها بآخرها ، وقَلَّت الفجوات فى تسلسلها ، واستقام فهمها على أساس معقول من الأدب والتاريخ .

فالذى يقرأ هذا البحث ويعود إلى مطالعة ديوان المتنبى ، متدبّراً ، تنكشف أمامه معانى شعره ، وصلتها بنفس صاحبها من ناحية ، وبتاريخ عصره من ناحية أخرى .

فقد نقض الأستاذ شاكر الرواية المتداولة عن أن والد المتنبى كان سَقَّاءً بالكوفة ، ورسم صورة لحداثته فى مدارس الأشراف العلويين فيها ، وبيَّنَ صلة المتنبى بالعلويين من نشأته إلى وقت مصرعه ، وتأثير ذلك فى حياته وشعره وآرائه السياسية ، ونَفَى ما اتُّهِم به المتنبى من النبوة مستدلاًّ على صحة ما يذهب إليه بما استنبطه من شعره ، وما استخرجه من دفائن الحوادث التاريخية المتصلة بمسألة النبوة ، واستطاع أن يصل إلى السبب المعقول فى تسمية أبى الطيب بالمتنبى .

٩ / وقد درس حياته وهو فى جوار سيف الدولة دراسة وافية من شعره وحوادث عصره ، فكشف عن الصلة بين سيف الدولة والمتنبى ، وأنهما كانا يعملان معاً على تحقيق الأمل السياسى لردّ الحكومة إلى العرب ، ونزعها من يد الأعاجم الذين كانوا قد استولوا على مقاليدها ، وبيَّن أثر هذه الصلة السياسية فى شعر أبى الطيب الذى قاله لسيف الدولة .

وأثبت فيما أثبته من تاريخ هذه الفترة أن أبا الطيب كان يحب « خولة » أخت سيف الدولة ، وما كان لهذا الحب من الأثر فى سمُوِّ شعره ، وروعةِ بيانه .

فؤاد صرُّوف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله

« لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا ، لَهَا ما كسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ ، رَبَّنا لاَ تُؤَاخِذْنَا إنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِين مِنْ قَبْلِنا ، رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَآعْفُ عَنَّا وَآغْفِرْ لَنَا وَآرْحَمْنَا »

« رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ »

وبعدُ .... فهذه كلمة مِنِّى عن شاعر العربية ولسانِها الحكيم :

أبى الطيب المتنبى

وأنا أشكر لكل من أعاننى – بعلمه أو قلبه أو عطفه – عونَه ، وأخصّ بالشكر الفريق أمين فهد المعلوف ، والأستاذ محمد فريد نامق ، والأستاذ فؤاد صرُّوف .

مصر الجديدة : شارع المنصورة ٢٢
أول شوال سنة ١٣٥٤
٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٥

محمود محمد شاكر

****

ذَكَرْتُكِ بَيْن ثَنَايا السُّطورِ ،
وأَضْمَرْت قَلْبِىَ بَيْن الكَلِمْ
وَلَسْتُ أَبُوحُ بِما قَد كَتَمْتُ ،
وَلَوْ حَزَّ فى النَّفْسِ حَدُّ الأَلَمْ
تُمَزِّقُنى – مَا حَييتُ – المُنى ،
فَأَرْقَــعُ ما مَزَّقَتْ بالظُّلَــمْ
فَكَمْ كَتَمَ اللَّيْلُ مِنْ سِرِّنَا ،
وفِى اللَّيْلِ أَسْرَارُ مَنْ قَدْ كَتَمْ
تَشَابَهَ – فِى كَتْمِ ما نَسْتَسِرُّ –
سَوَادُ الدُّجى ، وسَوَادُ القَلَمْ

محمود محمد شاكر

****

– ١ –

****

/ أنا آبنُ مَنْ بَعْضُه يفوقُ أبا الـ ١٣
ـبَاحِثِ ، والنَّجْلُ بعضُ من نَجَلَهْ
وإنما يذكُرُ (الجُدُودَ) لَهُمْ
مَنْ نَفَرُوهُ وأَنْفَـدُوا حِيَلَـهْ
إنّ الكِذابَ الّذى أُكَادُ بِهِ
أَهْوَنُ عِنْدِى مِنَ الذى نَقَلَهْ

****

« أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصَّمد الجُعْفِىُّ
« أحمد بن الحسين بن مرّة بن عبد الجبّار الجُعْفىّ
« أحمد بن محمد بن الحسين بن عبد الصَّمد الجُعْفىّ

هو أبو الطيب المَلَقَّبُ بالمتنبِّى . ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ ، بمحلة كانت بها تسمى « كِندة » ، وكان أبوه الحسين سَقَّاءً يسقى الناس على جملٍ له بالكوفة ، وكان لَقبُه الذى يُلَقَّب به هو : « عِيدَان السَّقَّاء » . (١)

● / حدَّث علىّ بن المحسِّن التنوخىّ ، عن أبيه (المحَسِّن بن على التنوخى) قال : ١٤

---

(١) ضبطه ابن العديم فى « بغية الطلب » فى ترجمة المتنبى ، نقلا عن الخطيب البغدادى أنه قال : « عِيدَان ، بكسر العين ، وبالياء المعجمة باثنتين من تحتها » ، وكذلك ضبطه صاحب القاموس ، وذكره الزبيدى فى تاج العروس فقال « هكذا ضبطه الصاغانى » ، وهكذا ضبطه الأمير ابن ماكولا فى الإكمال (٦ : ٩٩) . ونقل الحافظ الذهبى فى مشتبه النسبة : ٤٣٣ عن أبى القاسم بن برهان النحوى (عبد الواحد بن على) : « إن المتنبى : ابن عَيْدان » ، جمع عَيْدانة (بفتح فسكون) ، وهى النخلة الطويلة ، وأخطأ من قال بالكسر ، يريد عِيدَان » ، ونقله أيضاً الحافظ ابن حجر فى تبصير المنتبه : ٩٠٥ . و « السقاء » ، هو الذى يسقى الماء ، بتشديد القاف ، مضبوطاً فى جميع المواضع من بغية الطلب . وجاء فى تكملة تاريخ الطبرى [بيروت ١٩٦١] الجزء الأول : ١٩٥ ، عن أبى الحسن محمد بن يحيى الزيدى العلوى (انظر الصفحة التالية) : « وأبوه يسمّى عبدون السقاء » ، ولم أجد أحداً قال هذا ، مع اختلافه عن نصّ التنوخى ، فكأنه من عمل ناسخ أو من عمل الناشر ، فلا يعتد بمثل ذلك .

« اجتمعت بعد موت المتنبى بسنين مع القاضى أبى الحسن بن أمّ شَيْبان الهاشمى ، [١] وجرى ذكر المتنبى فقال : كنت أعرفُ أباهُ بالكوفة شيخاً يسمَّى « عِيدَان » ، يستقى على بعير له ، وكان جُعْفيًّا صحيح النسب » .

• وحدّث التنوخى أيضاً ، عن أبيه قال :

« حدّثنى أبو الحسن محمد بن يحيى العلوىُّ الزيدىُّ ، [٢] قال : كان المتنبى وهو صبىٌّ ينزل فى جوارى بالكوفة ، وكان يُعْرَف أبوه ، بِعِيدَان السَّقَّاء - يَسْتَقِى لنا ولأهل المحلة .... » .

---

(١) نقلته فى الطبعة الأولى مصحفاً : « القاضى أبو الحسين بن أم شيبان » ، وترجمت له عن الخطيب البغدادى فى التاريخ ١٢ : ٩٩ « على بن محمد بن صالح » . وهذا خطأ محض . ثم تبين لى أن الصحيح هو ما ضبطه ابن العديم وغيره « أبو الحسن بن أم شيبان » ، وهو والد المذكور آنفاً ، وهو : « القاضى أبو الحسن محمد بن صالح ابن على بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن عبيد الله بن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمى ، ابن أم شيبان » . و « أم شيبان » هى والدة يحيى بن عبد الله جد أبيه ، واسمها كنيتها ، وهى والدة يحيى بن عبد الله بن محمد ، جد أبيه ، ويعرف هو وأهله ببنى أم شيبان . وهذا القاضى أبو الحسن بن أم شيبان ولد سنة ٢٩٤ ، وتوفى سنة ٣٦٩ هـ ، وهو من الكوفة ، بها ولد ونشأ ، وفارقها إلى بغداد سنة ٣٠١ هـ مع أبيه ، ثم تكرر دخوله إليها . ثم دخلها سنة ٣٠٧ ، فقرأ على أبى بكر بن مجاهد ولقى الشيوخ ، ثم استوطن بغداد فى سنة ٣١٦ هـ (تاريخ بغداد ٥ : ٣٦٣ - ٣٦٥/ المنتظم ٧ : ٥٦ ، ١٠٢) .

(٢) كنت ظننت فى الطبعة الأولى أنه هو « محمد بن عمر بن يحيى » ينتهى نسبه إلى زيد بن على بن الحسين رضى الله عنهم . كان من أهل الكوفة ثم سكن بغداد ، وكان المتقدم على الطالبيين فى وقته ، والمنفرد فى علو محله مع المال واليسار ، وكثرة الضياع والعقار . ولد سنة ٣١٥ ، وتوفى ببغداد فى ١٠ ربيع الأول سنة ٣٩٠ ، ثم حمل بعد ذلك لسنة أو أقل إلى الكوفة فدفن بها . ولكنى أرجح الآن أن هذا خطأ ، ولعل هذا المذكور « محمد بن يحيى » هو عم « محمد بن عمر بن يحيى » ، ولكن أعيانى أن أجد ذكره فيما بين يدى من الكتب .

★ ثم عقب على كلامى هذا عالمنا الجليل الدكتور محمود مكى ، بعد سنوات من طبع هذا الكتاب فقال :

« أبو الحسن محمد بن يحيى الزيْدىّ العلوى ، المذكور ، هو فيما أرجِّح عمّ الشريف الثرىّ محمد بن عمر بن يحيى المشار إليه فى هذه الحاشية . وقد عثرتُ على خبر متعلّق به ، جاء فيه ما يلى : =

• وقال أبو الحسن العلوىّ الزيدىّ أيضاً من حديث التنوخى عنه : « كان عِيدَان ، والد المتنبى ، يذكر أنه جُعْفِىٌّ ، وكانت جدة المتنبى همدانيةً صحيحةَ النسب / لا أشكُّ فيها ، وكانت جارتنا ، وكانت من صلحاء النساء الكوفيات .... » .

١٥

• ثم قال التنوخى (على بن المحسِّن) ، قال أبى :

« فاتفق مجىء المتنبى بعد سنين إلى الأهواز منصرفاً من فارس ، فذكرته بأبى الحسن (يعنى محمد بن يحيى العلوىَّ الذى مرَّ آنفاً) فقال : تِرْبِى وصديقى وجارى بالكوفة ، وأطراهُ ووصفه ...

« وسألتُ المتنبى عن نسبه فما اعترف لى به ، وقال : أنا رجلٌ أَخْبِط القبائل ، وأطوِى البوادى وحدى ، ومتى انتسبتُ لم آمنْ أن يأخذنى بعضُ العرب بطائلةٍ بينها وبين

= « لما دخل معز الدولة بن بويه بغداد فى سنة ٣٣٤ عزم على أن يبايع أبا الحسن محمد بن يحيى الزيدى العلوىّ ، فمنعه الصَّيْمَرىّ من ذاك وقال : « إذا بايعته استنفر عليك أهل خراسان وعوامّ البلدان ، وأطاعه الديلمُ ورفضوك وقبلوا أمره فيك . وبنو العباس قومٌ منصورون ، تعتَلُّ دولتهم مرةً وتَصِحّ مراراً ، وتمرضُ تارةً وتستقِلُّ أطواراً ، لأن أصلها ثابتٌ وبُنْيانها راسخٌ » . فعدل معزّ الدولة عن تعويله ، وأحدر أبا القاسم الفضل بن المقتدر بالله من دار ابن طاهر إلى دار الخلافة » (الفضل بن المقتدر ، وَلِى الخلافة بعدُ ، وتلقّب بالمطيع لله) [تكملةُ تاريخ الطبرى ، للهمدانى ١ : ١٤٩ (ط . بيروت ١٩٦١)] .

وقد أشار ابن الأثير إلى هذا الواقعة ولم يذكر اسم « محمد بن يحيى العلوى » صريحاً ، فقال فى دخول معز الدولة بغداد ، فى ١١ جمادى الأولى : ٣٣٤

« وكان أعظم الأسباب فى ذلك [أى فى إدبار أمر الخلافة ، وذهاب ريح الخلفاء] ، أنّ الديلم كانوا يتشيَّعون ويغالون فى التشيُّع ، ويعتقدون أن العباسيين قد غَصَبُوا الخلافة وأخذُوها من مستحقيها ، فلم يكن عندهم باعثٌ دينىٌّ يحثُّهم على الطاعة ، حتى لقد بلغنى أن معزّ الدولة استشار جماعةً من خواصّ أصحابه فى إخراج الخلافة من العباسيِّين ، والبيعة للمعزّ لدين الله العلوىّ ، أو لغيره من العلويين ، فكلهم أشار عليه بذلك ، ما عدا بعض خواصه فإنه قال : « ليس هذا برأى ، فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحِلِّين دمه ، ومتى أجلستَ بعض العلويين خليفة ، وكان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه » ، فأعرضَ عن ذلك » [ابن الأثير ، الكامل ٨ : ١٦٢] .

القبيلة التى أنتسبُ إليها . وما دمت غير منتسبٍ إلى أحدٍ ، فأنا أسلم على جميعهم ويخافونى لسانى » .

هذا ما ذهب إليه رواتنا ممن وقع إلينا كلامُهم فى نسب المتنبىّ ، يزيد بعضهم وينقُصُ بعضٌ ... وقبل أن نبدأ كلامنا عن نسبه ، نذكر لك طرفاً من أمر « الكوفة » التى ولد بها أبو الطيب وفيها نشأ ، عسى أن تكون منه فائدةٌ فيما يستقبل من كلامنا .

* * *

كان تمصير الكوفة وأوَّل أمرها ، على ما ذهب إليه أكثر العلماء ، فى زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما بين سنة ١٧ إلى سنة ١٩ من الهجرة ، وذلك أن المسلمين لمَّا فرغوا من وقعة رستم بالقادسيّة وعصفوا بالفرس ثم انحدروا ، كان مما أنزلهم فيه سعدُ بن أبى وقاص رضى الله عنه ، مكانٌ من سواد العراق يقال له : « سُوق حَكَمَة » ، فنُفِض المسلمون وجَهَدهم المرض ، فكتب سعدٌ إلى عمر بذلك ، فكتب إليه :

« إن العرب لا يصلحها من البلدان إلاَّ ما أصلحَ الشاةَ والبعير ، فعليك بالرِّيف ، ولا تجعل بينى وبين المسلمين بحراً » .

١٦ / فلما ورد كتابُ عمر ، دَلّ آبْنُ بُقَيْلة (رجُلٌ من سواد العراق) سعداً على موضع الكوفة ، وكان يقال له « سُورَسْتان » ، فلما أَقرَّ سعدٌ الرأىَ على اختيار الموضع أسهم بين المسلمين ، فأسهم لنزارٍ وأهل اليمن سهمين ، فمن خرج سَهْمُه أوّلاً ، فله الجانب الشرقى ، وهو خيرهُما ، فخرج سهمُ أَهل اليمن أوّلاً ، فصارت خططُهم فى الجانب الشرقى من الكوفة .

ومما وردَ فى صفتها وحُسْنها ما يروى عن مالك بن دينار قال : كان علىٌّ رضى الله عنه إذا أشرف على الكوفة قال :

يا حَبَّـذا مُقَامُنَـا بالكُوفَـهْ أرضٌ سَوَاءٌ سهلـةٌ معروفَـهْ
تَعْرِفُها جِمَالُنا العَلُوفَهْ

وما قاله محمد بن عُمَيْرٍ العُطَارِدِىُّ فى مجلس عبد الملك بن مروان :

« الكوفة سَفُلت عن الشام ووبائها ، وارتفعت عن البَصْرة وحَرِّها ، فهى مَرِيئةٌ مَرِيعةٌ . إذا أتتنا الشَّمال ذهبتَ مسيرة شهر على مثل رَضْراضِ الكافور ، وإذا هبَّت الجَنُوب جاءَتنا رِيحُ السَّواد ووردِه وياسمينه وأُتْرنجه . [1] ماءُنا عذبٌ ، وعيشُنا خِصْبٌ » .

فهى كما ترى أرضٌ ذات طبيعة جميلةٍ ، حبِّبت إلى كثير من المسلمين البقاء بها فآثروها على غيرها ، حتى كانت الفتنة الكبرى بين عَلىّ ومعاوية رضى الله عنهما ، فاتخذها أمير المؤمنين علىٌّ قاعدة أمره ، واجتمع فيها أشياعُه وغلبوا عليها ، فمن يومئذٍ والكوفة معقل من معاقلِ الشيعة والعلوية والزيدية إلى يوم الناس هذا . يقول السيد محسن الأمين الحسينى العاملى صاحبُ كتاب (أعيان الشيعة) : [2] « ثم إن الكوفة ضعفت بعد انتقال الخلافة منها إلى بغداد ، ثم خربت . واليوم فيها كثير من العمرانِ ، وجميعُ أهلها شيعة » .

/ أمَّا أمر تخطيطها وعمرانها فى القرن الأول والثانى أو القرن الرابع الذى عاش فيه ١٧ أبو الطيب ، فلا نكاد نجد بين أيدينا شيئاً مما رُوِى يدلُّنا عليه ، ويقفُنا عنده ، إلاَّ ما رُوِى عن بشر بن عبد الوهاب القرشى من أنَّه ذكر قَدْرَ الكوفة فكانت ستةَ عشر ميلاً وثلثى ميل ، وذكر أن فيها خمسين ألف دارٍ للعرب من ربيعة ومُضر ، وأربعة وعشرين ألف دارٍ لسائر العرب ، (وستةَ آلاف دارٍ لليمن) ، وذلك فى سنة ٣١٤ وما قبلها .

وقد رَمى إلينا المتنبى طرفاً آخر من تخطيط الكوفة لعهد صباهُ ، إذ يقولُ وهو بالشام فيما مدح به (على بن إبراهيم التنوخى) :

أَمُنْسِىَّ السَّكُونَ وحَضْرَ مَوْتاً (ووالدتى) وكِنْدَةَ والسَّبِيعَا

---

(١) السواد : الريف .

(٢) هو كتاب جليل على ما فيه .

يقولُ الواحدى : « هذه أماكُن بالكوفة سميت بأسماء قبائل كانوا ينزلون هذه المحال » . ولا شك أن « محلة كندة » التى ولد بها صاحبنا أبو الطيب كانت خطة من خطط الكوفة ، نزلها فى الصَّدرِ الأول من نزَل من بطونِ كندة فسُميت بهمْ ، وأن سائر الكوفة - أو الجانب الشرقى منها على التحقيق - كان مقسَّمًا مخططاً إلى أحياء كثيرة غير هذه التى ذكرها أبو الطيب فى شعره . ولكن مما نعجبُ له أن بشر بن عبد الوهاب يقولُ : إن دور أهل اليمن (جميعاً فى كل أحياء الجانب الشرقى) بالكوفة كانت فى سنة ٣١٤ وما قبلها وعدتها (ستة آلاف دار) ، ويقول صاحبُ (إيضاح المشكل فى شعر المتنبى) أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهانى أن (ابن النجار) حدثه ببغداد : [١]

/ « أن مولد المتنبى كان بالكوفة فى محلة تعرف (بكندة) بها ثلاثة آلاف بيت من بين رَوَّاءٍ ونسَّاج » ، وذلك سنة ٣٠٣ . فليت شعرى أكان جُلُّ أهل اليمن النازلين بالجانب الشرقى من الكوفة ، وهو خير جوانبها ، ما بين سقاءٍ ونساج ؟ هذا عجبٌ أن يكون ذلك كذلك ، إذا كان النساجون والسقاؤون وحدهم قد شغلوا من دور أهل اليمن بالكوفة ، ثم بمحلة كندة وحدها ، ثلاثة آلاف دار ، فكم شَغل من بقى من أهل اليمن من أصحاب الصناعات ومن لفَّ لفّهم من التجار وأصحاب الأرضين . ثم ما يبقى من حَىِّ أهل اليمن لرجالات اليمن وأشرافها وفرسانها وعلمائها وشعرائها وأدبائها ، وهمْ كُثُرٌ .

١٨

---

(١) كنت نقلت هذا فى الطبعة الأولى من خزانة الأدب للبغدادى (١ : ٣٨٢) ، حيث نقل القسم الأول من كتاب « إيضاح المشكل فى شعر المتنبى » ، ثم طبع هذا الكتاب فى تونس سنة ١٩٦٨ . باسم « الواضح فى مشكلات شعر المتنبى » ، والخبرُ فيه ص : ٦

و « ابن النجار » . هو « محمد بن جعفر بن محمد بن هرون بن فروة ، أبو الحسن التميمى النحوى » ، ولد سنة ٣٠٣ بالكوفة ، ورحل إلى بغداد ، ثم مات بالكوفة سنة ٤٠٢ . (تاريخ بغداد ٢ : ١٥٨ / ومعجم الأدباء ٦ : ٤٦٧ / وبغية الوعاة) . ولابن النجار « كتاب تاريخ الكوفة » ، قال ياقوت : « وقد رأيته » .

فهذه المبالغة وجهٌ من وجوه إسقاط قول (ابن النجار) ، وسترى أن المتنبى قد مُنِىَ فى حياته وبعد موته بضروب من العداوات قد جعلت تاريخ الرجل مزَلَّة لا تثبت عليها قدم ، ولا يهتدى فيها إلا بصيرٌ متثبتٌ . ولو نظرتَ إلى أقوال الأصفهانى صاحب (إيضاح المشكل) ، وما رواه فى مقدمة كتابه ، رأيته ممن كان يتحامل على أبى الطيب ، ويذكره بالسوءِ فى كل قوله ، وما أتى له بمحمدة إلاّ وأتبعها بمذمةٍ بالِغة قارصة . وهو قد ألف كتابه هذا لأصغر أبناءِ « عضد الدولة » = الذى مدحه المتنبى ، وكان آخرَ من مدح = بَهَاءِ الدولة ، وهو أبو نصر خُرَّهْ فيروز ، [ويقال اسمه خَاشاذ] بن عضد الدولة بُوَيْه بن ركن الدولة بن بُوَيه بن فَنَّاخِسْرُو الديلمىّ ، وكان التحاسد واقعاً بين أبناء عضد الدولة ، حتى إن المتنبى حين ذكر أخويه ، وهما أكبر من بهاء الدولة ، فى مدح أبيهما دعا لهما فقال :

فَعَاشَا عِيشَةَ القَمَرَيْن يُحْيَا بِضَوْئِهِمَا وَلاَ يَتَحَاسَدَانِ

فكأنى بالمتنبى قد أدرك ذلك منهما ، وألَمَّ بطرفٍ من تحاسُدِهما . وقد خابت دعوة صاحبنا ، فإن شرفَ الدولة شَيْرزيل بن عضد الدولة حاربَ / أخاه صمصام الدولة وظفر به بعد حروبٍ وحبسه . ولا أظنُّ أن بهاءَ الدولة كان بِمَنْجَاةٍ من ميراث أُسْرته من التباغض والتحاسد وسوء الظن والحقد ، بل لقد وصفه المؤرخون بأبشع الصفات ، فقالوا إنه كان « ظلوماً غَشُوماً سفَّاكاً للدماء ، حتى إنّه كان خواصُّه يهربون من قُرْبه .... ولم يكن فى ملوك بنى بُوَيْهٍ أظلم منه ولا أقبح سيرةً .... وكان به مرض الصَّرْع ، يُصْرَع فى دَسْت المُلْك ، وَرِث ذلك عن أبيه » ، فليس عندى بمُسْتَغْربٍ ولا مستبْعَد ، أن يضطغن مثل هذا السقيم المريض القلبِ ، على المتنبّى ، لأنه مدح أباهُ وأخويه ورفع من ذكرهم ، ولم يجد هو من شعراء زمانه من يقول فيه ما قاله أبو الطيب فى أبيه وأخويه ، فكتب الأصفهانى كتابه تقرباً وزُلفى إليه . (١) ومما يؤيد ذلك أن كتابَ الأصفهانى فى نقد

١٩

(١) كنت قد وقعتُ فى خطأ غريب فظيع ، ومرَّ فى كتابى هذا وظلَّ قائماً فيه مدة سِتٍّ وأربعين سنة ، =

كلام آبن جنى ، وهو صاحبُ المتنبى ومريده ومن الضَّالعين معه . وسيأتى طرف من غرائب ما ذكره الأصفهانى فى ثنايا القولِ ، يؤيد رأينا فى أن الرجل كان يلفق بالهوى الجائر ، وما كان يؤلف بالتاريخ .(١) هذا على أنى أخشى أن يكون الأصفهانى فى نفسه علوىّ الهَوَى ، كبنى بويه الديلمين ، وكانوا شيعةً غلاةً فى التشيع .

***

= لم أتنبَّه له ، ولا وجدتُ من تنبَّه له ونبّهنى إليه ، حتى جاء عالمنا الجليل الدكتور محمود مكى ، فوضعنى على طريق الصواب . كنت قد كتبت بعد قولى : « وظفر به بعد حروبٍ وحبسه » ، ما نصه فى الطبعتين السالفتين : « فلعل بهاء الدولة كان ممّن يحقد على المتنبى ، إذ لم يمدحه أو يذكره فى شعره (مع صغره إذ ذاك) » ، وهذا خطأً فادحٌ ، فكتب لى أخى محمود مكىّ معلّقاً على هذه الجملة ما يأتى :

« هذا أمر بيّن الاستحالة ، فبهاء الدولة لم يكن قد وُلدَ بعدُ . الكلام هنا عن بهاء الدولة أبى نصر خُره فيروز أصغر أبناء عضد الدولة ، تُوفِّى من داء الصرع فى الرابع أو الخامس من جمادى الآخرة سنة ٤٠٣ (ابن الأثير ٩ : ٩٠ / ابن تغرى بردى ٤ : ٢٣٣ ينصان على تاريخ ٥ جمادى الآخرة ٤٠٣ / الشريف الرضى ، ديوانه : ٥٩١ له مرثية فيه سُجّل بين يديها أن وفاته كانت فى آخر نهار الأحد ، لأربع خلون من جمادى الآخرة ٤٠٣ / ابن الجوزى ، المنتظم ٧ : ٢٦٤ يذكر وفاته فى جمادى الآخرة من هذه السنة بغير تحديد لليوم) .

وكان عمر بهاء الدولة ، على ما يذكر ابن الأثير ومعه سائر المؤرخين ، على خلاف يسير بينهم فى ذلك ، كان عمره ٤٢ سنة و ٩ أشهر و ١٥ يوماً . فكأن مولده كان فى ١٩ شعبان سنة ٣٦٠ (وهو ما جاء نصًّا فى ديوان الشريف) . وأمّا أبو الطيب ، فكان مقتلهُ قبل ذلك بنحو ست سنوات (قتل فى ٢٧ رمضان سنة ٣٥٤) ، وأما سيف الدولة ، فمات يوم الجمعة لخمس بَقين من صفر سنة ٣٥٦ ، أى قبل مولد بهاء الدولة بنحو أربع سنوات » .

يقول أبو فهر : إشارة الدكتور مكى إلى سيف الدولة ، لأنى كنت كتبت فى التعليق التالى : « وقد اشتدت المنافسة أخيراً بين بهاء الدولة وسيف الدولة » ، وهو أيضاً خطأً فادح لا شك فيه . وإشارته إلى شعر الشريف الرضى ، إلى قصيدته التى أوّلها :

دَعِ الذَّمِيلَ إلى الغاياتِ والرَّتَكَا ماذا الطِّلابُ أتَرْجُو بعدَهُ دَرَكَا

(١) هذا طرف من القول ، وبقيت أطراف ترجع إلى العداوة بين بنى بويه وسيف دولة وبنى حمدان [انظر ما سيأتى ص : ١٥٩] ، وما جرَّت هذه الخصومة بين أهل العصر ، والأدباء خاصة . وقد اشتدت المنافسة أخيرا بين =

والآن ، وقد فرغنا من القول فى محلة كندة التى ولد بها المتنبى ، وما وقع فى أمرها من المبالغة ، ننظر فى نسب الرَّجل ، لترى كيف بالغوا أيضاً فى الإساءة إليه ، وتحقير مولِدِه ، والحطِّ من أصله ونشأته ، لأغراض خافيةٍ قد أحاطت بصاحبنا ، أضرَّتْ به فى حياته ، وأفسدت تاريخه بعد وفاته .

رأيتَ قبلُ فى أوَّل ما رَوينا لَك من أقوال الرُّواة ، أنهم أرادوا أن يثبتوا بما روَوْا أنّ الحسين والد المتنبى هو عِيدَان السَّقَّاءُ ، كان يسقى الماءَ على بعير له بالكوفة . ورَاوِى القصة كلها هو علىُّ بن المحسن التنوخى ، عن أبيه المحسن التنوخىِّ ، ونحن نقدّم فنشكُّ فى رواية المحسن التنوخىِّ لأسبابٍ نذكر طرفاً منها هنا ، ثم تأتى بعدُ أسبابٌ أُخرى تثبت ما نقوله إن شاءَ الله . [انظر ما سيأتى : ١٤٩] .

* * *

/ القاضى أبو على المحسِّن بن على التنوخى ولد سنة ٣٢٧ ، وتقلد القضاءَ سنة ٣٤٩ ، فكان من أصحاب الوزير أبى محمد المهلبى ، وكان المتنبى حين دخل بغداد فى طريقه إلى عضُد الدولة بشيراز ، قد ترفع عن أن يمدح الوزير المهلبى ، فأغرى المهلبى به الشعراءَ وغيرهم ، كأبى على الحاتمىّ صاحب الرسالة العجيبة المعروفة بالحاتمية ، ذكر فيها سرقات المتنبى ، وزعم أنها قد وقعت كما قيَّدها بينه وبين المتنبى ، [1] فلا عجب أن يكون ٢٠

= بنى بويه الديلمين وبنى حمدان العربِ التغلبيِّن ، وتورط الأدباء فيها فكتبوا وألفوا يريدون بما ألفوا التقرب إلى واحد من الخصمين . وأيضا فإن بنى بويه كانوا يعرفون يقينا أن المتنبى لم يكن خالص المدح لهم ، فقد شاب مدحَهُ بالحسرة على لقائهم فى بعض قصائده ، وما كان ذلك ليخفى عليهم .... وهناك كثير من القول أغفلناه هنا ، وربما أتى بعضه عرضاً فى آخر ما نكتبه عن مدح المتنبى بنى بويه إن شاء الله .

(١) الرسالة الحاتمية ، مطبوعة ، وقد طبع صديقنا الدكتور محمد يوسف نجم كتاباً آخر للحاتمى فى الحط على أبى الطيب ، سماه : « جبهة الأدب » ، ونشره الدكتور نجم باسم « الرسالة الموضحة » (سنة ١٩٦٥ بيروت) . والكلام هنا أكثر انطباقاً على الكتاب الثانى .

محسِّن التنوخى من أعداء أبى الطيب لصلته القريبة بالوزير ، فقد بلغ به أن كان من ندمائه . ولا عجب أيضاً أن يسند التنوخى روايته (أو كذبه) إلى بعض شيوخه لئلاَّ يفتضح . ولذلك زعم ، كما قدمنا لك ، أن القاضى ابن أم شيبان حدَّثه فقال : « كنت أعرف أباه بالكوفة شيخاً يقال له عِيدان .... إلخ » ، والقاضى ابن أم شيبان ، يحتاج أمره إلى بعض النظر ، إذا حدث عن المتنبى ، لأنى أخشى أن تكون صلته قريبة جداً ، بحياة المتنبى وما لقيه من العلويين ، كما سأبينه فيما بعد .

وهذا الشيخ التنوخى يقول : إنه سأل المتنبى عن نسبه فما (اعترف له به) ، وكان إذ ذاك شابًّا فى السابعة والعشرين ، وكان المتنبى قد نيَّف على الخمسين ، [1] فما نَظنُّ أن القاضى التنوخى كان يجرؤ أن يسأل المتنبى عن ذلك ، لبُعْدِ ما بينهما ، ولتعالى المتنبى وترفُّعه حتى على الخلفاء والوزراء ، وأيضاً لما يعلم من صلة القاضى بالوزير المهلَّبى وتحققه بخدمته (كما قال عن نفسه) . فمن يترفع عن الوزير أبى محمد المهلبىّ ، وهو من هوَ فى سياسة عصره ودسائسه ، لا يتبذَّل مع صاحبنا القاضى / التنوخى . هذا ، فإن كان قد سأل المتنبى حقًّا كما يقول ، فما يكون جواب المتنبى عن ذلك هذا الكلامَ الملَفَّقَ الضعيفَ الذى يَضَعُ من رأى صاحبه ويَسْتَفْسِدُ من عقْله : « أنا رجل أطوى البوادى وحدى وأَخْبِط القبائل .... » ، [2] فلم يكن المتنبى ممن يطوى البوادى وحده إذ ذاك ، بعد أن سار آسمه مسير الشمس ما بين مشرقها ومغربها . والمتنبى الذى لم يَخفْ أن يخرج غير محروسٍ يوم قُتل وقد أوْعدُوه ، وأرصدُوا له ، وتحقق هو ذلك ، لا يقول : « ومتى انتسبتُ لم آمن أن يأخذنى بعض العرب بطائلة بينها وبين القبيلة التى أنتسب إليها » . وهل أذَلُّ من قوله : « وما دمتُ غير مُنْتَسِبٍ إلى أحدٍ ، فأنا أسلم على جميعهم ويخافون لسانى » ؟ أهذا يقوله من أوعد الملوك وجاهرهم بالعداوة فى عصر كانت تذهب فيه الأرواح مع كلمات الوشاية والدسيس والمكر السيئ ؟! كلاَّ يا أبا على ....

٢١

(١) لقيه التنوخى بالأهواز منصرفاً من فارس من عند عضد الدولة قبيل وفاته سنة ٣٥٤ .

(٢) انظر ص : ٢٧٩ ، ومن أين استخرج الوضاعون هذا الخبر .

وقد بالغ صاحبنا التنوخيُّ فى روايته عن المتنبى حين سأله عن أبى الحسن محمد ابن يحيى العلوىّ الزيدى ، ومبالغته تدلُّ على أنه كان يريد أن يولِّد كلاماً ، فأطال فيما روى ليوهم السامع بطول قوله ، أن المتنبى حرَّكته الذكرى ، فأفاض فقال عن أبى الحسن العلوى : « ترْبِى .... وصديقى .... وجارى بالكوفة .... وأطراه ووصفه » .

وأُخرى .... فمن جهل هذا التنوخى بأساليب الوضع المتقنة – التى جرى عليها شيوخ الوضّاعين وأحكموا أمرها حتى خفيتْ على الجفِىّ البصير من العلماء والأدباء – أنه جمع بين النقائض فى الكلام الواحد الذى يراد به إثبات ما لا يكون ، أو كَوْن ما لم يثبُتْ . فمن ذلك أنه روى أنّ أبا الرجل كانَ سَقاءً يسقى على بعير له ، ثم حدّث عن الرجل نفسه أنه قال : « متى انتسبت لم آمَنْ / أن يأخذنى بعض العرب بطائلةٍ بينها وبين القبيلة التى أنتسبُ إليها » . وهذا أمرٌ من الأمر ، فإن العرب لذلك العهد كانت قد نسيت التِّراتِ القديمةَ ، وألْقت بالسخائم المتوارثة ، وانصرفت إلى ما جدّ من الأحداث فى دولتهم وفرّق شملهم وجعل بأسهم بينهم ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى ، حتى لعبت بهم الأعاجم فحطّمتهم الأيام . فإذا كات العرب قد نسيت ما قَدُم أو ذكرته قليلاً قليلاً ، فما خوف المتنبى مما لا يُخَاف منهُ ؟ وما خوفُه وهو آمنٌ فى المدن بين الكوفة وحلب وأنطاكية ودمشق والفسطاط ؟ أو كان المتنبى وحده من أهل عصره هو الذى يخشى ذاك ؟ ألم يكن فى عصره مثْله ممن يطوى البوادى وحده ؟ كلاّ ، وإن رجُلاً قد سقط بآبائه السواقطُ إلى السِّقَايَة وغيرها من حقيرة المهن ، لا تُبْغَى عنده طائلةٌ ، وإن بُغِيت فما يكون لمدركها عنده فخرٌ . و (آبن السقاء هذا) ما عَرض فى شعره كُلِّهِ إلى قبيلة فهجاها أو عرَّض بها أو لمزها بشيءٍ ، حتى يخشى ظهور كيدٍ يُكاد به ، ولئن فعل لقالوا له كما قال الأول :

وكنْ كيف شئتَ ، وقل مَا تشا ءُ ، وأرعِدْ يميناً وأبرقْ شمالاَ
نَجا بِكَ عِرْضُكَ مَنْجَى الذُّبا بِ حَمَتْه مقاذيرُهُ أن يُنَالاَ

وما عِرْضٌ كعرض سقاءٍ وابن سقاء ينجو به ناجٍ من طالب ثأرٍ أو مدركٍ تِرَة !

وهلاّ أدرك هذا المترفّع المتعالى على الملوك والأمراء ، عنيتُ المتنبى ، بنسبه رجلاً آخر غير هذا السقاء ، الذى هو أبوه ، فوقَفَ عليه بنسبته !! ما كان يضير هذا الرجل ، لو أنه كان قد سئل عن نَسبه ، كما يوهم التنوخىّ ، أن يرتفع بنسبه شيئاً إلى رجل من الناس معلوم غير منكور ولا محقَّر ؟! إن الرواة قد / اختلفوا ، كما رأيتَ فى صدر مقالنا ، فى اسم جدّهِ (أبى أبيه) ولم يجمعوا على شئ ، وأخطأ بعضهم فى اسم أبيه فسماهُ (محمداً) ، واقتصر جُلّ شراح ديوانه من الأوائل ، ثم أكثر النُّسخ المخطوطة — على اسم أبيه وحسب ولم يزيدوا . فهذا دليل على أن الكتمان إنما كتماناً للنسبة كلها لا كتماناً إلى قبيلة بعينها يخشى من الانتساب إليه أنْ يلحقه من جرائها أذًى فى تِرَة ، أو مكروهاً فى ضغينة قديمة أو مُحْدَثَةٍ، وأىُّ ثأرٍ يكون للعرب والقبائل عند من كان سقاءً بالكوفة !

ثم إن التنوخى يروى هذا الخبر ، ويروى أيضاً أنه كان جُعْفِيًّا صحيح النسب ، وما تصحُّ نسبة سقَّاء إلى جُعْفىّ بن سعد العشيرة إلاّ أن يذكر نسبه متّصلاً إلى جُعْفِىّ ، لأن سقاءً يدعى الانتساب إلى جُعْفِىّ ، لابدَّ له من أن يقيم دعواه بالدليل والبرهان : وهما النسب المتصل المعروف غير المنكر ، ما من ذلك بُدٌّ . ولو كان ذلك ، لوقع إلينا نصٌّ واحدٌ يُذْكَرُ فيه نسب المتنبى إلى رجل من جُعْفِىّ لا يُخْتَلَفُ فى أمر نسبته . فما ظنُّك بمَنْ آخْتُلِف فى جدّه الأدنى والذى بعده ، ولم يتجاوزوا ذلك إلى متفق عليه من عمود النسب ؟

أو لم يكن الذى حفز التنوخىّ أن يسأل المتنبى عن نسبه فأخفاه عنه ، ليحفزهُ أن يسأل ابن أم شيبان الهاشمى ، أو أبا الحسن العلوىّ ، كيف صحّت نسبةُ الرجل إلى جُعْفِىّ ، وخاصة بعد أن جَحَده المتنبى وكتم عنه ما عرفه غيره ؟ ولو كان فعل ، لكان نَسَبُ الرجل مشهوراً عندنا ، كما صارت مهنة أبيه مشهورة منقولة .

وبعدُ ، ألم يكن بين العرب جميعاً مَنْ يعرف أن الرجل جُعْفىّ القبيلة غير / « ابن أم شيبان الهاشمى » و « أبى الحسن العلوى » و « أبى علىّ التنوخىّ » ؟ أوَ قَدْ حرصوا ثلاثُتهم على أن لا يَذِيع نسبُ الرجل إلى جعفىّ ؟ ولو كان ذلك ، فما الذى حملهم على

هذا الحرْص ؟ والتنوخى نفسه لم يكن يعرف سبب حرص المتنبى على كتمان نسبه إلاّ فى السنة التى مات فيها (سنة ٣٥٤) ! أكانوا ثلاثتهم لا يأمنون « أن يأخذ المتنبى بعض العرب بطائلة بينها وبين القبيلة التى ينتسب إليها » ؟ وكذلك شهد الرجل (التنوخى) على نفسه فى حديثه بالتخليط أو الوضع .

ولا يفوتنّك أن المتنبّى فى أول أمره كان بأنطاكية واللاذقية ، وكان التّنوخيون ينزلونهما من قديم ، وقد نبتت بين صاحبنا وبين رجال من تنوخ هناك نابتةٌ من المودة ، ثم نمت وربَتْ واهتزَّت ، فمدحهم ورثاهم ، ودفع عنهم ، ورمى دونَهم ، وأقامَ طويلاً بينهم مكرَّماً ، وقد كان بين أصحاب أبى الطيب من التنوخيين وأبناءِ أعمامهم عداوةٌ ، فلما مات محمد بن إسحق التنوخى ورثاهُ المتنبى ، جرى فى أنطاكية الخبرُ بأن أبناء عمه قد شمتوا بموته ، فلجأ هؤلاء الشامتون إلى أبى الطيب يسألونه أن ينفى الشماتة عنهم ، فكان مما قال فى ذلك :

(أبناءُ عَمٍّ) كُلُّ ذَنْبٍ لامْرِئٍ   إلاَّ (السِّعايَة) بَيْنَهُم مَغْفُورُ
طَارَ الوُشَاةُ على صَفاءِ وِدَادِهم   وكذا الذُّبَابُ على الطَّعامِ يَطِيرُ

ثم عادوا فسألوه أن يزيد ، فكان مما قاله على لسانهم :

رَثَى ٱبنَ أبينا غيرُ ذِى رَحِمٍ لَهُ   فَبَاعَدَنا عَنْـهُ ، ونحن الأقـاربُ
وعُـرِّضَ أنّـا شامِتُـونَ بمَوْتـِهِ ،   وَإلاَّ فَزَارَتْ عَارِضَيْهِ القـواضبُ
/ أليسَ عَجِيباً أنَّ بَيْنَ بَنى أبٍ   (لِنَجْلِ يَهُودِيٍّ) تَدِبُّ العقاربُ [١]   ٢٥

وهذه العداوة التى كانت بين التنوخيين مما يحجزنا عن الثقة بأقوال أحدٍ من تنوخ (كأبى على التنوخى) ممن يذكرُ من أمر أبى الطيب شيئاً ، وعلينا أن لا نطمئن إلى قوله

---

(١) انظر ما سيأتى ص : ٢٢٨ ، فإنه مهم ، حيث ذكرت هذا البيت ، وما وقع بين التنوخيين من الفرقة بسبب العلوية والتشيُّع .

حتى تقطعَنا الحجة بأنه كان ممن لا يميلون إلى هوًى ، ولا يُصغون أفئدتهم إلى بِغْضةٍ ، فما ظنك بأبى علىّ التنوخى ، وهو قد اجتمعت الدلائل – كما رأيتَ – على وهن روايته ، واختلاط حديثه ، وبيان هواه ؟

وليس عجيباً أن يكون التنوخى ممن يحمل لأبى الطيب فى صدره شحناءَ لصلته المعروفة بأبناء عمومته ، فتحمله هذه الشحناء على وصف الرجل بكل نقيصة ، أو النيْل منه بكل سبيل . واعلم أن عليًّا التنوخى (والد المحسّن هذا) كان ممن وُلِدَ بأنطاكية وشبّ بها ثم رحل عنها ، فلعلّه رحل عن أنطاكية لِحَدَثٍ وقع بين أهله وبين أقاربهم ، (١) وبقيتْ فى صدره وصدر أبنائه حزازاتٌ موروثة وأحقاد لبنى عَمه هناك . ولا عجبَ ، فقد كانت هذه الفترةُ من العصرِ العباسى مِرْجَلاً يغلى بالأحقاد بين الأخوة وبنى الأعمام ، حتى قتل الرجل منهم أباه وعمه وأخاه ، وهتك عرضه ، واستباح حُرُماته ، وخاصة مَنْ رَقِىَ درجات الإمارة ، أو أدرك سبباً من السلطان كأصحابنا التنوخيين ، (وهم نسلُ ملوك تنوخ الأقدمين) .

* * *

هذا ، ولو سلمنا للتنوخى رحمه الله بصحة روايته عن أبى الحسن العلوى ، وأن الذى قالهُ عن المتنبى هو من لفظ أبى الحسن جملةً ليس بموضوع ولا مبتدع من عند نفسه – فعندنا فى أقوال العلويين المعاصرين عن أبى الطيب سببٌ / للتوقف دون التسليم لهم هكذا ، لا نجادل .... (٢) ٢٦

---

(١) أعنى فتنة التشيُّع التى فرقت الناس .

(٢) وقبلُ فلا تنس ما كتبنا لك : أن العصر الذى كان أبو الطيب أحد رجاله ، كان من بين العصور العربية عصراً خبيث النفس ، فاسد الطوية ، قد طغت فيه الدسائس ولعبت به الأهواء واستحرت الأحقاد بين الرجل وأخيه ، والوالد وبنيه ، والوحيد وعشيرته التى تؤويه . وفصل هذا المعنى ، وخذ به واعرضه فى أثناء كلامنا ، فما فى كل موضع يمكن الإشارة ، ولا عند كل مفرق من القول يجب التعليق والتفصيل ، وما يفوز القارئ حين يفوز إلا بما يفطن إليه مما يغفل عنه غيره ويتجاوزه سواه .

ففى ديوان أبى الطيب معنىً من المعانى ، وإخالهُ سرًّا من الأسرار ، لعلهُ أن يكون يوماً ما مفتاحاً تتسنَّى له الأبواب المغلقة فى نسب الرجل ، ومعرفة أصله الذى يصله بنسب غير مجهول ولا موضوع ، فعلينا أن نستوفَى هنا بعض الرأى الذى نذهب إليه ونُقيِّدهُ على مُكْثٍ .

نشأ صاحبنا بالكوفة ، وهى إذ ذاك دارُ العلويين ، [١] ومعقل الأئمة منهم والنابهين من رجالهم وشجعانهم ، فكان حقيقاً بمثلِه ممن ينالُ بالشعر ويؤمّلُ منه ، أن يمدح مَنْ تُرْجى عنده الفواضل من كبار العلويين وأجوادهم ، وهم أهل بلده الذين فى ظلهم نشأ ، وبين ربوعهم نما ، ومن علومهم نَهلَ واغترف ، [٢] واستقى وأفاض (على الناس من غيرهم) مما استقى وما اغترف .

فعجباً لأبى الطيب ، أيُّما عجب ، أن لا يكون مدح من العلويين إلا رجلين ما امتدَّ به العمر ، وقد بيَّن أبو الطيب فى إحدى قصيدتيه ، وبيَّنت الرواية فى الأخرى ، سببَ ذلك المدح ....

٢٧ / قال العكبرى : « وكان محمد بن عبيد الله العلوىُّ المعروف بالمشطّب ، [٣] هذا الممدوح قد واقع قوماً من العرب بظاهر الكوفة ، وهو شابٌّ دون العشرين سنة ، فقتل منهم جماعة ، وجُرِح فى وجهه فكسته الضربة حُسناً .... فهذا ما سمعته من جماعة من مشيخة بلدنا » — :

---

(١) من العلويين الزيدية ، والعلويين الاثنى عشرية الإمامية ، وكان بينهما فى الكوفة من الخلاف والشحناء ما بينهما .

(٢) « اعلم كما سترى بعدُ أن المتنبى تعلم فى كتاب للعلويين » ، هكذا قلت قديماً بل الأمر الآن أكبر من التعلم كما ستعلم بعد .

(٣) قال الأمير ابن ماكولا فى الإكمال ١ : ٨١ « الأشتر النقيب أبو الحسين محمد بن عبيد الله بن على بن عبيد الله بن على بن عبيد الله بن الحسين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، مدحه المتنبى ، وكان يلقب « المصهرج » ، قاله لنا الشريف النسابة » ، وانظر جمهرة ابن حزم ص : ٥٦ (ثانية) ففى سياق النسب اختلاف .

فمدحه المتنبى بقصيدته التى أولها : (١)

أهلاً بدارٍ سباكَ أغيدُها ‏ ‏ ‏ أبعدُ ما بَانَ عنكَ خُرَّدُها

فذكر فيها أن ناقته حملته إلى (ابن عبيد الله) هذا الممدوح :

إلى فتىً يُصْدِرُ الرِّماحَ وقد ‏ ‏ ‏ أنْهلهَا فى القُلوبِ مُوردُها
لهُ أيادٍ إلىَّ (سَالِفةٌ) ‏ ‏ ‏ أعُدُّ مِنْهَا وَلاَ أُعَدِّدُها

ثم طفق يمدحه إلى أن قال :

وَكَمْ ، وَكَمْ نِعْمَةٍ مُجلِّلَةٍ ‏ ‏ ‏ ربَّيْتَها كان منك مولدُها
وكَمْ ، وكَمْ حاجةٍ سَمَحْتَ بها ‏ ‏ ‏ أقربُ مِنِّى إلىَّ موعدُها
ومَكْرُمَاتٍ مَشَتْ عَلَى قَدَم الـ ‏ ‏ ‏ ـبِرِّ ، إلى مَنْزِلى تَردُّدُها
أقَرَّ جِلْدِى بها علىَّ فلا ‏ ‏ ‏ أقدِرُ حتَّى المَمَاتِ أجْحَدُها
فعُدْ بها لا عَدِمْتُها أبداً ، ‏ ‏ ‏ خَيْرُ صِلاَتِ الكريم أعْوَدُها

٢٨ / والمتنبى ، كما ستعلم بعدُ ، كان أوَّلَ أمره وهو صبىٌّ : « يختلفُ إلى كتَّاب فيه أولاد أشراف الكوفة » من العلويين ، فكأنَّ (محمد بن عبيد الله العلوى) هذا كان من لِدَاتِ أبى الطيب أو أسنانه الذين كانوا معه فى المكتب ، (٢) وأخذت بينهما المودَّة ثَمَّ ، ولعلهُ كان يُفْضِل على المتنبى ويتعهدهُ ويكرمه فلذلك قال : « لهُ أيادٍ إلىَّ سالفةٌ » .

---

(١) الرأى عندنا أن المتنبى قال هذه القصيدة بعد مرجعه إلى الكوفة من مقامه بالبادية سنة أو أقل ، وقبل خروجه إلى بادية كلب واللاذقية حيث سجن فى دعوى النبوة ، كما يزعمون ، وقد كانت سنه حين قالها على الأرجح عندنا خمس عشرة سنة أى سنة ٣١٨ هـ . واعلم أننا إنما نجتهد فى تأريخ ما لم يؤرخ من قصائد المتنبى ، وقد وجدنا فى ذلك المشقة وما فوقها ، لنترجم للرجل على بينة وهدى . وستجد فائدة ذلك فى كثير مما يمر بك إن شاء الله .

(٢) تقول : « فلان سن فلان » ، أى مثله فى سنه ، والجمع أسنان .

فأكدت هذه المودة القديمة سببَ المدح حين عاد من رحلته فى البادية يتسقَّطُ اللغةَ وينتجع الرزق . (١) وأرجح الظن أن المتنبى حين عادَ إلى الكوفة : عاد إليه صاحبُه العلوىُّ بالإفضال والتعهُّد ، فلمَّا أصيب بالجراحة فى حربه ، مدحه المتنبى لصداقته ومودَّته ، ولما أَسْدَى إليه من معروفٍ ، وما اتَّخذ عنده من صنائع .

* * *

أما آخر الرجلين العلويين ممن مدح ، فهو أبو القاسم طَاهر بن الحَسَن بن طاهر العلوىُّ لم يمدحه المتنبى ابتداءً كما مدح غيرَهُ . وفى ما نرويه لك من خبره عجب ! [انظر ما سيأتى أيضاً ص : ٢٩٢ ، ٢٩٣] .

٢٩ / كان الأمير أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن طُغْج وهو بالرملة لم يزل يراسل أبا الطيب بطبرية سنة ٣٣٦ ، ويعزم عليه فى القدوم عليه ، فلما كثر ذلك منه أجابه ومدحه وأقام عنده مُدَيْدةً ، فلم يزل أبو محمد (الحسن بن عبيد الله بن طغج) ، يسأُل أبا الطيب أن يخصَّ أبا القاسم (طاهراً العلوىَّ) بقصيدة من شعره (وأنه قد اشتهى ذلك) !! وأبو الطيب يقول : « ما قصدتُ إلاّ الأمير (ولا أمدح سواه) !! » فقال له أبو محمد : « عزمت عليكَ أن أسألكَ قصيدةً تنظِمها فىّ فأجعلها فيه » ، [تأملْ هذا !!] ، وضَمِنَ له عنده مئات من الدنانير ، فأجاب .

---

(١) هذا ما قلته منذ أربعين سنة ، أما الآن فقد صار ما قلته هنا لا يعبر عن الحقيقة . فإن علاقة المتنبى بالعلويين لم تقتصر على تعلمه فى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة ، بل ارتفعت علاقته إلى أخوَّة من الرضاع . فقد ذكر ابن العديم (٥٨٨ - ٦٦٠ هـ) فى ترجمته التى سننشرها مع سائر التراجم الجديدة فى آخر الكتاب ، أن المتنبى : « أرضعته امرأة علوية من آل عبيد الله » وأسنده فقال : « أخبرنى صديقنا أبو الدر ياقوت بن عبد الله الرومى مولى الحموى البغدادى ، قال : رأيت ديوان أبى الطيب المتنبى بخط أبى الحسن على بن عيسى الربعى قال فى أوله » ، وذكر ما نقلته وغيره كثير . و « على بن عيسى الربعى » ، ممن روى عن المتنبى وأخذ عنه شعره . فالأمر إذن أجل من التعلم فى كتاب أولاد أشراف الكوفة من العلويين . و « آل عبيد الله » ، هم بنو « عبيد الله بن على بن عبيد الله بن الحسين بن على ابن الحسين بن على بن أبى طالب » ، ومنهم « المشطب » الذى مدحه ، كما ترى فى نسبه ص : ١٥١ ، تعليق : ٣ ، والأرجح الآن أنه أخو المشطب من الرضاع على الأقل ! بل قد تبيّن بعد هذا ، أن المتنبى نفسه قال : « رضعت بلبان علويَّة من بنات عبيد الله بن يحيى » ، كما سترى فى ترجمة الربعى فى (سنة ١٩٨٤ هذه) = التراجم الأربع .

قال محمد بن القاسم الصوفىّ : « فسرتُ أنا والمطلبىّ برسالة طاهر إلى أبى الطيب ، فركب معنا حتى دخلنا عليه ، وعنده جماعةٌ من الأشراف ، فلما أقبل أبو الطيب ، نزل طاهرٌ عن سريره ، والتقاه مُسَلِّماً عليه ، ثم أخذ بيده فأجلسه فى المرتبة التى كان فيها ، وجلس هو بين يديه . فتحدّث معه طويلاً ، ثم أنشده أبو الطيب ، فخلع عليه للوقت خلعاً نفيسة » .

قال على بن القاسم الكاتب : « كنت حاضراً هذا المجلس ، فما رأيتُ ولا سمعتُ أن شاعراً جلس الممدوحُ بين يديه مستمعاً لمديحه غيرَ أبى الطيب ، فإنى رأيت هذا الأمير قد أجلسه فى مجلسه ، وجلس بين يديه ، فأنشده :

أعِيدُوا صَبَاحِى فَهْوَ عِنْدَ الكَواعِبِ ... ورُدُّوا رُقَادِى فَهْوَ لَحْظُ الحَبَائبِ [1]

٣٠ / وفى هذه القصيدة التى يمدح بها رجلاً علويًّا سامِىَ القدر يقولُ :

كثيرُ حَياةِ المرءِ مِثْلُ قَلِيلها ... يَزُولَ ، وَبَاقِى عُمْرِهِ مِثْلُ ذَاهبِ
إليْكَ ، ... فإنى لستُ ممن إذَا اتَّقى ... عِضَاضَ الأَفاعِى نَامَ فوْقَ العَقَارِبِ
أتانِى وَعِيدُ (الأدْعياءِ) ، وأنَّهُم ... أعَدُّوا لِىَ السُّودَانَ فى كَفْرِ عاقبِ
وَلَوْ صَدَقُوا فِى جَدِّهم لَحذِرْتُهمْ ، ... فَهَلْ فِىَّ وَحْدِى قَوْلُهم غيْرُ كاذِبِ
إلىَّ لَعَمْرِى قَصْدُ كُلِّ عجيبةٍ ... كأنِّى عجيبٌ فى عُيونِ العَجَائبِ
بأىِّ بلادٍ لم أجُرَّ ذُؤَابَتى ؟! ... وأىُّ مكانٍ لَمْ تَطَأْهُ رَكائبى ؟!

---

(١) لا بد لنا هنا من التنبيه إلى خطأ بليغ وقع فيه أحد كبار أدبائنا فى كتابه عن المتنبى ، إذ زعم أن المتنبى قال هاتين القصيدتين (فى ابن طغج والعلوى) بعد فراق سيف الدولة وقبل اتصاله بكافور ، والصحيح أنهما قيلتا سنة ٣٣٦ وهو بالرملة ، ومن ثَمَّ فى تلك السنة رحل إلى أنطاكية قاصداً أبا العشائر الحمدانى الذى وصل أسبابه بسيف الدولة سنة ٣٣٧ . وسترى ذلك فى موضعه من كتابنا هذا . هذا على أن أسلوب الرجل فى هاتين القصيدتين ونَفَسَهُ فى الشعر ، غيره فيما قاله بعد فراقه لسيف الدولة ، وذلك بين لمن تدبر أدنى تدبر .

ونَفَسُ الرجل فى القصيدة يدلُّ على أنه كان قد لقى كيداً فى سنته تلك من هؤلاء القومِ الأَدعياء (وهم الذين يدعون الشرف بنسبتهم إلى علىّ رضى الله عنه) . وبيِّنٌ مما ورد فى شعر أبى الطيب أنه حين أزمع الرحيل من طَبَريَّةَ سنة ٣٣٦ ، أَرْصَد له هؤلاء العلويون (الأدعياء) قوماً من السودانِ عَبيدِهم فى طريقه بكفْر عاقب ليقتلوهُ ، [١] فلم

---

(١) كفر عاقب : قرية على بحيرة طبرية من أعمال الأردن ، وانظر ما سيأتى ص : ٢٥٤ .

الحمد لله وحده ، فهذه قرينة واضحة تُؤكد صدق ما ذهبتُ إليه فى تفسير شعر أبى الطيب ، فى هذه المسألة ، وفى علاقته بمحمد بن طُغج حين كان محبوساً بكيد العلويين فى أول شبابه ، [انظر ما سيأتى ص ٢٢٤ - ٢٣٤] ، فإن ابن طغج كان يصانع العلويين ، ولكنه لا يأمنهم ، وكان عَدُوًّا للقرامطة . فقد ثبت عندى أنّ هؤلاء الذين أغروا بقتله ، هم قومٌ من ولد « العباس بن على بن أبى طالب » ، فقد جاء فى نسخة ابن جنّى من ديوان المتنبى (ص : ١٩١ ، طبعة الدكتور عزام) أنّ المتنبى قال : « يهجُو عَلَويًّا عباسيًّا :

أَمَاتكُمُ مِنْ قَبْلِ مَوْتِكُمُ الجَهْلُ ... وجَرَّكُمُ من خِفَّةٍ بِكُمُ النَّمْلُ
وَكَيْدَ أُبَىِّ الطَّيِّبِ الكَلْبِ ، ما لكُمْ ... فَطَنْتُمْ إلى الدَّعْوَى وما لكُمُ عَقْلُ
ولو ضَرَبتْكُم مَنْجَنِيقى وأَصْلُكُمْ ... قوىٌّ لهَدَّتْكُمْ ، فكَيْفَ ولا أَصْلُ
ولو كُنْتُمُ مِمَّن يُدَبِّرُ أَمْرهُ ... لَمَا كُنْتُمُ نَسْلَ الذى مَا لَهُ نَسْلُ

وجاء فى نسخة أخرى : « وتوعَّده قوم من ولد العباس بن على بن أبى طالب بطبريّة بشرّ ، فقال لهم أبو الطيب فى ذلك .... » .

فهذا نصٌّ قاطعٌ ، أنهم هم الذين توعدوه بطبرية ، وأرصدوا له بكفر عاقب . و « وَلَدُ أبى الطيب » ، الذين ذكرهم فى البيت الثانى ، أبوهم : « أبو الطيب ، محمد بن حمزة بن عبيد الله بن العباس بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن على بن أبى طالب » ، وهو الذى قتله محمد بن طُغج الإخشيد قبل سنة ٣٣٤ ، وكان أبو الطيب جليل الحال فى الأردنّ ، وكثُر ماله وضياعه ، وكان يسكن مدينة طبرية ، فكبسَه رجالُ محمد بن طُغج فى بستانٍ له فقطعوهُ بالسكاكين ، وذلك فى أيّام القرامطة ، وكان مُتَّهماً بالميل إلى القرمطىّ لعنه الله ، (جمهرة النسب لابن حزم : ٦٧ ، ومقاتل الطالبيين : ٧٠٠) . وقول المتنبىّ فى البيت الأخير : « لما كنتم نسل الذى ما له نسْلُ » ، فإن ابن حزم قال فى الجمهرة : ٦٧ ، « لا عَقِب للعباسِ بن على بن أبى طالب ، إلاّ من ولده عبيد الله بن العباس فقط » ، فالظاهر أن هؤلاء العلويين العباسيين كانوا قلّة فى العدد ، أو كانوا يتهمون بأن أباهم « العباس » لا عقبَ له البتة ، ولذلك قال فى شعره بعدُ « بها عَلوِىٌّ جدّه غير هاشم » ، أى أنه دَعِىٌّ من الأدعياء . وليس ببعيد أن يكون أبو الطيب العلوى هذا ضالعًا فى أمر سجن أبى الطيب المتنبى .

يظفروا بما أمّلوا ، وأحْفَظ ذلك أبا الطيب ، فلما دخل الرَّملة كان ، على عادته كما سترى ذلك ، ثائراً لا يفتأُ يذكر ما يختلج فى ضميره ، لا يُرَاعِى ولا يُحابى ولا يتهيَّب ، ومن آثار هذه الحفيظة قوله فى هذه القصيدة أيضاً :

إذا (عَلَوِىٌّ) لم يكنْ مِثْلَ طَاهِرٍ فمَا هُوَ إلاّ حُجَّةٌ للنّواصِبِ [٢]

ثم أجْرى هذا الأَمر مجرى المَثَل كعادته فقال :

٣١ / إذَا لم تكن نَفْسُ النَّسِيبِ كأَصْلِهِ فمَاذَا الَّذِى تُغْنِى كِرَام المَنَاصِبِ ![١]

وَمَـا قَرُبَت أشْبـاهُ قومٍ أباعِـدٍ ولا بَعُدَتْ أشْباهُ قَوْمٍ أقـارِبِ

والبيت الأخير هو حجتُه فى نفى العلوية عنهم ، وإثبات أنهم أدعياء لا يمتُّون إلى الشرف بسببٍ ولاَ صلة . فلو كانوا علويين ، لا جرم ، لتشابهت الأخلاق فى الكرم والسموّ ، ولكانوا كهذا العلوىّ الذى يمدحه (طاهر بن الحسن) .

ليس هذا فحسب ، فإن أبا الطيب ، قبل هذا بأيّام قلائلَ ، يقول للأمير أبى محمد بن طُغْج فى مديحه :

كريمٌ نَفضْتُ الناسَ لَمَّا بَلغتُهُ كَأَنَّهُمُ ما جَفَّ من زاد قادِمِ

وكادَ سُرُورى لا يَفِى بندامَتِى عَلَى تَرْكِهِ فى عُمرِىَ المُتَقَادِمِ

وَفارقتُ شرَّ الأَرْضِ أهلاً وتُرْبَةً بِها (عَلَوِىٌّ) جَدُّهُ غيْرُ هَاشِمِ

(وشرُّ الأَرض) ، هى طَبريّة التى كان بها قبل مقدمه إلى الرَّملة .

***

أو ما ترى بعد أن فى تجنُّب المتنبى مدح العلويين ورجالهم وأئمتهم فى أوّل أمره وهو بالكوفة ، إلا واحداً كان رفيقَ صباهُ وأحدَ أسنانه ، [وأخاه فى الرضاع كما استظهرتُ فى

---

(١) « النواصب » ، هم الخوارج الذين نصبوا العداوة لأمير المؤمنين على بن أبى طالب ، واحدها « ناصبىّ » .

(٢) « المناصب » جمع « مَنْصِبٌ » ، وهو الأصل الذى ينتمى إليه وينتسبُ .

ص : ١٥٣ ، تعليق : ١] ومن خير المُفْضِلين عليه والمُتَعهِّدِيهِ فى مِحْنَته وفَقْره – ثم فى طلب الأمير منه أن يمدح طاهراً العلوىّ فيمتنع ويستعصى عليه ، حتى يكثّر عليه الأمير ويقول : « أنا أشتهى ذلك » ، فيقول أبو الطيب : « ما قصدت إلاّ الأمير ولا أمدح سواه » ، فلا يزال به يحتال عليه حتى يستخرج منه وَعْدَهُ ، ثم فى إكرام العلوىّ له هذا الإكرام البالغ بنزوله له وإجلاسه فى مرتبته وعلى سريره ، وهو بين جلّة الأشراف العلويين ، ولا يتورَّع المتنبىّ إذ ذاك / أن يذكر بعض العلويين بالمذمة والتعريض ونفى النسبة الكريمة عنهم – ألا ترى أن هناك سرًّا من الحفيظة بينَهُ وبين العلويين الذين نشأ بينهم وفى ديارهم ، ودرس فى مكتبهم ، بين أولادهم ؟ (١)

٣٢

هذا ، وسيأتى طرف من ذلك بعدُ ، (٢) فترى أن أبا الطيب حين خرج فى أوّل أمره باللاذقية ، كان الذى عذّبه وسجنه رجلٌ هاشمىٌّ أو علوىٌّ هو (ابن علىّ الهاشمى) ، (٣) وكان بكوتكين ، فجعل فى عنق صاحبنا ورجليه خشبتين من الصفصاف فقال له :

زَعَم المُقِيم بكُوتَكِينَ بأنّـه ... من آلِ هَاشِمِ بنِ عَبْد مَنافِ
فأَجَبْتُه : مُذْ صِرْتَ من أبنائهم ... صَارَتْ قُيودُهُمُ من الصَّفْصافِ

يسخَر منه ، ومما أخذه به .

أفلو شككنا ، من أجل هذا ، فى صحة ما يقوله العلويون عن أبى الطيب ،

(١) بل زاد الأمر على التعلم والنشأة وزاد العجب ! انظر ما سلف ص : ١٥٣ ، تعليق : ١ ، وانظر توثيق مقالتى هذه فى ترجمة ابن العديم رقم : ٦٨ ، من أن المتنبى كان مخالفاً للشيعة .

(٢) سيأتيك فى خبر نبوته أيضاً بعدُ أنهم زعموا أن أبا الطيب ادعى أنه علوى حسنى ، ثم ادعى النبوة ، ثم عاد يدعى أنه علوى . وسترى بطلان ذلك إن شاء الله ، وتأويله عندنا على الرأى والنظر لا الرواية . [وقد وجدت فى تكملة تاريخ الطبرى ، الأول : ١٩٥ (بيروت ١٩٦١) أن المتنبىّ ادّعى أنه حُسَيْنىٌّ ، وذلك فى رواية حديث أبى الحسن محمد بن يحيى الزيدى العلوى] ، وكأن هذا هو الصواب المحض .

(٣) انظر ص : ١٥٥ ، والتعليق : ١ .

وتوقَّفنا دون الأخذ بأقوالهم فى ترجمة الرجل ، نكون قد أتينا أمراً كبيراً لا يقرُّنا أحد عليه ؟ لا أدرى !

***

رأيتَ قبلُ أنَّ الذى قال : إنّ والد المتنبى هو « عِيدَانُ السَّقَّاء » ، إنما هو أبو على المحسّن التنوخىّ ، وهو من شيوخ العراق وأصحاب الوزير المهلبىّ ، فزِدْ على هذا أيضاً أن المتنبى حين دخل العراق بعد فراق كَافور ، أعرض عن المهلَّبى ، ولم يمدحه ، ولم يبال به ، فأغرى به الشعراء وغيرهم من الكتاب / والأدباء . وكان شعراء العراق خاصة يخافون أن ينالَ أبو الطيب فى العراق ما نال فى الشام ، فيذهبَ بأرزاقهم من المدح ، ويَعْصِفَ بذكرهم عند الملوك والأمراء ، كما فعل بمن هم أعلى منهم طبقة من شعراء الشام كأبى فراس الحمدانى ، والسرى الرفاء ، وأبى العباس النامى ، وأبى الفرج الببّغاء ، وخلقٍ كثير من الشعراء . وقد هجم على أبى الطيب ووقع فى عرضه شُعَراء العراق حين أغراهم الوزير المهلبىُّ به حتى قالوا فيه : ٣٣

أىُّ فضلٍ لشاعرٍ يطلُبُ الفضْـ ـلَ من الناس بُكْرَةً وعَشِيًّا
عَاشَ حيناً يَبِيعُ بالكُوفَةِ المَا ءَ ، وحِيناً يَبيعُ مَاءَ المُحَيَّا

فزعموا أنه هو الذى كان سَقَّاءً لا أبوه ، وهاج هذا القول الحسن بن لَنْكَك شاعر البصرة ، وكان ، كما كان الخالديان ، (حاسداً له طاعناً عليه هاجياً إيّاه ، زاعماً أن أباه كان يسقى الماء بالكوفة) ، فقال ابن لَنْكَك شماتةً حين رأى وقيعة شعراء بغداد فى الرجل :

قُولوا لأهْلِ زَمانٍ لا خَلاقَ لَهُمْ ضَلُّوا عن الرُّشْدِ مِنْ جَهْلٍ به وعَمُوا
أعْطيتُمُ المُتَنَبِّى فَوق مُنْيَتِهِ فزَوِّجُوه برَغْمٍ أُمَّهاتِكُمُ
لكنّ (بغداد) ، جَادَ الغَيْثُ سَاكنَها ، نِعَالُهُمْ فى قَفَا السَّقَّاءِ تَزْدَحِمُ

وقال أيضاً :

« مُتَنَبِّيكُمُ آبن سقَّـاءِ كُوفـانَ ....

ونضحَ – بعد ذلك – إناءُ ابن لنكك بما فيه .

فذِكْرُ المتنبى بالسوءِ وزَعْمهم أن أباه كان سقاءً ، من « مصنوعات » / العراق ٣٤ وتجارته التى كان المهلبى (وزيراً) لها إذ ذاك على ما نرجح ، فكم اتّجر صاحبنا المهلبىّ بالأكاذيب فى أيام وزارته ، كما روت التواريخ عنه وعن أيام أصحابه . وإلاّ فكيف (يصحّ فى الأذهان) أن يقف ابن السقّاء ، هذا المتنبىء كما زعموا ، فى كل المواطن موقف المتعالى المتكبّر الذى لا يرى أحداً فوقه ولا أحدًا مثله ، حتى سيفَ الدولة آبن حمدان ولىَّ نعمته ، وصاحبه ، ومُكْرِمَهُ على حين مَساءةٍ من الزمن ؟! يا عجباً !! ألَمْ يكن فى مجلس سيف الدولة من يعرف ذلك يوم غضب عليه ، وترك الشعراء يقعون فيه ، ويتصدَّى له أبو فراس وهو ينشد ، فيجبهه ويقطعه عن الإنشاد ؟ يقول المتنبّى فى هذا المجلس :

سَيَعْلمُ الجمعُ ممَّن ضَمَّ مجلِسُنَا ... بأنَّنى خَيْرُ من تَسْعَى به قَدَمُ

أَنَا الَّذِى نَظَرَ الأَعْمَى إلى أَدَبِى ... وأسمعتْ كَلِماتى مَنْ بِهِ صَمَمُ

فانظر كيف فضَّل نفسه على من ضمّ مجلس سيف الدولة وفيهم سيف الدولة نفسه ، ولم يزد أبو فراس – وهو قريع المتنبى فى الشعر وعدوُّهُ لمنزلته عند سيف الدولة – على أن قال له فيما قال : « ومن أنت يا دَعِيَّ كندة » !! وفى قوله : « دعيُّ كندة » نَظَرٌ . فما نظنُّ الرجل ادّعى لكندة ، وأصحابنا يزعمون أنه كان يخفى نسبه ! وكان أولى بأبى فراس ، وأوقعَ فى المتنبى ، وأوضح له فى تِيهِه وتَعاليه على الأمراء والملوك وكبار الشعراء كأبى فراس نفسه – أن يقول له إذ ذاك : « مَن أنت يا ابن سقاءِ كُوفَانَ » ... لو أنه كان علم ما علمه التنوخىّ وأصحابه ، وشعراء العراق ، وشاعر البصرة الحسن بن لنكك ، الذين كانوا بالعراق على صلة (ببلاط) الوزير المهلّبى وزير معز الدولة أحمد بن بويه (الديلمىِّ) عَدُوِّ بنى حمدان ، وفى رأسهم سيف الدولة (العدوىُّ العربىُّ) .

٣٥ / أتُرى شعراء الشام الذين ذهب برزقهم وذِكْرهم ، ولم يُعْفِهم من ذمّه لهم فى شعره ، كانوا لا يَتَقَصَّوْن خبر الرجل وقد استفْحل أمره بينهم ، فيعلموا أنه كان (ابن سقَّاء) ، فيلمزوه بذلك ، ويستخفُّوا به ، أو يعبثوا به ويتنادروا عليه ؟! وهذا ابن السقّاء يتحدَّاهم ويتحدَّى سيفَ الدولة نفسَه ، وأبو فراس قريعه وعدوُّه فى ذاك المجلس إذ يقول :

كَمْ تَطْلُبون لنا عَيْباً فيُعْجِزُكُمْ   ويكْرَهُ اللهُ ما تأتون والكَـرَمُ
مَا أبْعَدَ العَيْبَ والنقْصانَ من شَرَفى   أنا الثُّريَّا ، وذَانِ الشيبُ والهَرَمُ

أئِنَّهم ليطلبون له عيباً فيعجزهم الطلب ، ويكون متعالَماً فى العراقِ بعدُ أن الرجلَ ابنُ سقاءٍ كان يسقى الناسَ على بعير له بالكوفة !!

اقرأ ديوان الرجل كله ، تجده تيّاهاً يتسامى بنفسه على كلّ ممدوح ، ويتعالى على كلّ أهل عصره ، ولا يفتأ يوسع الشعراءَ من سُخْريته وهو قد قطع أرزاقهم ، وألْوَى بهم وبذكرهم ، وكلامُه كلامُ الواثق الذى لا يُدَاخِلُه الشكّ ، ولا يروِّعه الكذب ، ولا يردُّه الافتراء ، فلو كان فى نسب الرجل ، إذ ذاك مطعنٌ لطاعن ، أو فى أصله تُهَمَةٌ لمتّهم ، لَتردَّد فى قوله تردُّد الحيران ، ولاجتنب الفخر حيث يكثر الحسد والهمهمة والتلفيق والدسُّ عند الأمراءِ ومن إليهم من رجال الدولة . ولو كان فى نسب الرجل شئٌ ، لسمعتَ عند كل موضعٍ من فخره فى شعره نادرة يتناقلها الأدباءُ ، وغمزةً قد غمزه بها أنداده وأعداؤه من الشعراء . ألم يسمع هؤلاء إلى قوله فى فخره :

لا بقومى شَرُفْتُ بل شَرُفُوا بى   وبِنَفْسِى فَخَرْتُ لا بِجدُودِى
وبِهِمْ فَخْرُ كُلِّ من نَطَق الضّا   دَ وعَوْذُ الجانى وغَوْثُ الطريدِ

٣٦ / فهذا من أكبر الفخر ، فما من قوم يفخر بهم « كلّ من نطق الضاد » غير أبناء على رضى الله عنه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ . ويقول يرثى جدته وقد ماتت بالكوفة ، وكان صاحبنا إذ ذاك قريباً من الكوفة حيث نشأ وعُرِف :

وإنّى لَمِنْ قَومٍ كَأَنَّ نفوسَهُمْ   بِها أَنَفٌ أن تَسْكُنَ اللَّحْمَ والعَظْمَا

والعجب أن لا يصلنا عن هذا وغيره خبرٌ واحدٌ يُطْعَن فيه الرجل بأنه ابن سقاءٍ ! وما يكون لابن سقاءٍ أن يقول مثل هذا ، ويكون كل ما وصلنا من خبر أبيه إنما وصل فى خبر دُخوله بغداد فى آخر عمره ، ومن رجالٍ بينهم وبين الوزير المهلبى آصِرَةُ مودّةٍ وتنادُمٍ ، أو شعراء آسَدَهم هذا الوزير المهلبى وأغراهم بالرجل ، حتى وقعوا فى عرضه ، ووَلغوا فى شرفِ نسبه ، وجودة قريضه وبيانه !! إنّه العجَبُ وما فوق العجب !

هٰذا ، إذا أغفلنا كُلَّ الإغْفال أمر « العلوية » و « العلويين » و « الشيعة » وأتباعهم من « المتشيعين » وما كان بينهم وبين أبى الطيب من عداوة بلغت حدّ الإرصاد له ابتغاء قتله والفتك به ، [انظر ما سلف : ١٥٣ – ١٥٦] .

* * *

****

– ٢ –

فَوَا أَسَفا أَلاَّ أُكِبَّ مُقَبِّلاً
لرأسِكِ والصَّدْرِ اللَّذَىْ مُلِئَا حَزْمَا
وأَلاَّ أُلاَقِى رُوحَكِ الطَّيِّبَ الذى
كأَنَّ ذَكِيَّ المِسْكِ كان له جِسْمَا
ولو لم تَكُونِى بِنْت أكرَمِ والِدٍ
لَكان أبَاكِ الضَّخْمَ كونُكِ لِى أُمَّا

****

/ هما ، ولا غيرُهما ، .... أبوه الذى كان سقَّاءً ، زَعَمُوا ، يسقى على بعير له بالكوفة ، « وكان جعفيًّا صحيح النسب ... » ، وجَدَّته ، « وكانت همدانية صحيحة النسب لا يُشكُّ فيها ، وكانت من صلحاءِ النساء الكوفيات » . هما ولا غيرهما ، أصلهُ وفَرْعُهُ ، وقديمُهُ وحديثُه وعشيرَتُه وأهلُه ، وعَصَبَته وقومُه ، والقائمون بأمره فى أوَّل حَدَاثَتِه ، لا عمٌّ ولا خالٌ !! ٣٧

أمَّا أُمُّهُ فقد جهدتُ أن أَجدَ لها خبراً واحداً ، أو ذكراً فى كلام ، فما وصلتُ . أمَّا ما يزعم بعض الكتاب والأدباء من أنه أراد أمَّهُ بقوله وهو فى السجن ، وقد كتب به إلى الوالى :

بِيَـدِى أيُّهـا الأَميـرُ الأَرِيبُ ... لاَ لِشَىْءٍ إِلاَّ لأَنِّى غَرِيبُ
أَوْ (لأُمٍّ) ، لَها إذا ذَكَرَتْنِى ، ... دَمُ قَلْبٍ بِدَمْعِ عَيْنٍ يَذُوبُ

فليس عندنا بشىءٍ ، فإنه كانَ يسمى جدَّته (أُمّه) ، وقد جاء ذلك فى قصيدته التى رثاها بها فقال :

/ وَلَوْ لم تكونى بِنْتَ أكرَمِ وَالِدٍ ... لَكَانَ أَباكِ الضَّخْمَ كَوْنُكِ لى (أُمَّا) ٣٨

ومن قرأ قصيدته هذه وتدبَّرها ، وقع فى قلبه اليقينُ أنه لم تعطفه عاطفةٌ إلى أحدٍ من أهله ، (ولا نستثنى أباه السقاء !!) ، إلاّ أن تكون هذه الجدَّةَ الكريمةَ التى حملته

صغيراً وثكلته شابًّا بفراقه لها ، ثم ماتت به سروراً حين جاءها كتابُه وهو متوجِّهٌ إلى العراق (ولم يمكنه دخولُ الكوفة على حالته تلك !!) أو كما قالوا .... وفى قصيدته هذه إشارة دقيقة بليغةٌ مقدَّرةٌ ، يشير بها إلى أن أُمَّه قد ماتتْ وهو صغيرٌ ، فكفلته جدَّته العجوز رحمها الله ، [1] وذلك فى قوله :

طَلَبْتُ لها حَظًّا ففَاتَت وفَاتَنِى (وقد رَضِيَتْ بى ، لَوْ رَضِيتُ بها ، قِسْماَ) [2]

فتدبَّر الشطر الأخير فَضْلَ تدبُّرٍ ، تجد المعنى الذى أردناه من أن أمه ماتت وهو صغير ، فكان مما (قُسِمَ) لجدته أن تحضنه ، فرضيت بذلك رضىً خالصاً ، وأحبته حبًّا عظيماً ، يقول فى الدلالة عليه :

لَكِ اللهُ مِن مَفْجوعَةٍ بحبيبِها قَتِيلةِ شَوْقٍ غيرِ مُلْحِقِها وَصْمَا

وفى تسميته جدته (أمًّا) بعضُ الغنى فى الحجة المرَجِّحة لقولنا هذا .

شهد التنوخى ، أو أبو الحسن العلوى الزَّيْدى ، أو من تشاء ، لجدّة المتنبى أنها كانت من « صلحاء النساء الكوفيات » ، ولعلَّ هذا أمرٌ لا ريب فيه ، وإن / لم يكن قد وقع لنا الخبر بذلك ، فإنها هى التى تولَّت تنشئة المتنبى من صغره ، حتى كَبِر ، وقد شهد له أكثر أهل عصره حتى أعداؤه : أنه كان كما قال على بن حمزة البصرىّ (راوية المتنبى : كما سماه أهل المغرب) : [3]

٣٩

---

(١) كان هذا الذى قلته ظناً ظننته ، ثم جاء النص على ذلك فيما حدثنا به ابن العديم ، عن الربعى ، أن المتنبى أرضعته امرأة علوية من آل عبيد الله ، فدل هذا على أن أمه ماتت قبل أن يتم رضاعه ، أو لعلها ولدته ثم ماتت فى ولادها ، ولم ترضعه قط .

(٢) القسم بالكسر النصيب ، وقد مضى الشراح من أصحابنا ولم ينظروا فى قوله (لو رضيت) . فاعلم أن (لو) فى هذا البيت إنما تفيد الأسف والحسرة ، وهما وجه من وجوه التمنى ، وللبيت موضع آخر من كتابنا هذا نتولى فيه شرحه ، فقد أفسده الشراح . [انظر هذا ص : ١٧٣ ، ١٧٤] .

(٣) كان من أئمة العربية ، مات فى رمضان سنة ٣٧٥ بصقلية ، ولما دخل المتنبى بغداد كان بها على بن حمزة ، فنزل المتنبى فى داره ، وقرأ عليه شعره ، وقد تركنا بقية قوله فى المتنبى لموضعه من الكلام إن شاء الله .

« بلوتُ من أبى الطيب ثلاثَ خِلالٍ محمودةٍ ، وتلك أنه ما كَذَب ولا زنى ولا لاط » ، وقال ابن فُورَجَه : « لم يكن فيه ما يشينه ويسقطه إلاّ بخله وشرهُه على المال » .

وقد كان أثر جدَّته بيِّناً فى أوَّل شعره كما سترى ، وقد ذكر المتنبى خُلُقه فى أبيات لهُ ، منها قوله :

وترى المُـرُوَّةَ والفُتـوَّةَ والأُبُو ... ةَ فىَّ كلُّ مَلِيحةٍ ضَرَّاتِهـــا

هُنَّ الثلاثُ المَانِعاتِى لَذَّتى ... فى خَلْوَتى ، لاَ الخوفُ من تَبِعَاتِها

فلا شكَّ أن أكثر ذلك من أثر جدَّته ، وزكاءِ نفسها ، وصلاحِ قلبها . وقد وصفها المتنبى فجمع ما شاء ودلَّ عليها ، وأبلغ ، صادقاً فيما قال :

فَوَا أسفَـا أَلاَّ أُكِبَّ مُقَبِّلاً ... لرأسِكِ والصَّدرِ اللَّذَىْ مُلِئَا حَزْمَا

وَألا ألاقِى رُوحَكِ الطَّيِّبَ الذِى ... كأنَّ ذَكِىَّ المِسْكِ كان له جِسْمَا

ويبدو لنا أن هذه العجوز الحازمة التى بيَّنت للمتنبى أمره ، ومهَّدت له طريقَه ، كانت مع حزمها وهَدْيِها ، وبصيرتِها ، رقيقةَ القلب تكاد تنخلع من نفسها إذا أعطت عواطفها قِيادها . ومع ذلك ، فقد كانت تَحْزِمُ أمرَها ، وتقسو / على نفسها ، حتى يخيَّل ٤٠ لمن لم يَخْبُرْهَا أنها لا تعطى المَقَادة لشيءٍ إلاّ للعقل والتدبير المُحكم . وفى الذى رووْا من خبر وَفاتها ، دليلٌ بيِّنٌ على ذلك ، فإنها كتبت تشكو إلى ولدها وحَفِيدها شَوْقَها ولَوْعتَها وطولَ غيبته عنها ، فلما توجَّه إلى العراق (من الشام) « ولم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك !! » ، انحدر إلى بغداد ، وكتب إليها كتاباً يسألها موافاته ببغداد ، فلما أخذت كتابه « قبَّلته وحُمَّت لوقتها ، وغلبها الفرح فقتلها » ، رحمة الله عليها . وقد وَرِث المتنبى عنها هذا ، فقد كان مع ما يبدو من شِدّته وصَوْلَته ورجُولته ، مُتهالكاً لا يستمسك فيما يمس عاطفته ويلمُّ بقلبه . وفى رثاء جدته بلاغٌ لك ، إن تدبرته . وسترى ذلك أيضاً فى آخر ما نكتبه عن أمره مع سيف الدولة ، وعَنْ أمره مع النساء ، أو مع المرأة التى أحبَّها فهلكتْ ، ثم أهلكهُ على إثْرها جَوًى داخلٌ وأسًى دَفينٌ .

* * *

– ٣ –

****

لاَ بِقَوْمِى شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِى
وَبِنفْسِى فَخَرْتُ لاَ بِجُدُودِى ..
وَبِهِمْ فَخْرُ كُلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّا
دَ وَعَوْذُ الجانِى ، وغَوْثُ الطَّرِيدِ

* * *

وَإِنِّى لِمَنْ قَوْمٍ كأَنَّ نُفُوسَهُمْ
بِهَا أَنَفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ والعَظْمَا

****

/ ندعُ الآن أمرَ جدَّته إلى حِينه ، إن شاء الله ، فى كتابنا عن المتنبىّ ، ونبدأ برأى لم نجد له ما يؤيده من نصوص التاريخ ، ولكن ... ٤١

رَوى الأصفهانىُّ أن المتنبى ، وهو ابن السقاء !! ، « اختلف إلى كتّاب فيه أولاد أشراف الكوفة ، فكان يتعلم دروس (العَلويَّة) شعراً ولغةً وإعراباً ، فنشأ فى خير حاضرة » . (١)

وتأويل هذا ، أن العلويين ، وهم « الأشراف » ، كما يتضح من هذا النص ، كانت لهم مكاتب خاصة يتلقَّى فيها أولادهم مبادىء العلوم . ولا شك أن العلويين كانت ، ولا تزال ، لهم مدارس خاصة بهم ، تقوم أصولها فى التعليم / على أصل اعتقادهم . وقد مرّ بى فى قراءتى كثير من ذلك لا أذكر موضعه الآن ، وإنما أذكر أن الشريف الرضىّ كانت له مدرسة سماها (دار العلم) . ونحن وإن لم نك نعلم نظام هذه المدارس العلوية ، إلا أنه ٤٢

---

(١) الواضح فى مشكل المتنبى : ٦ / والخزانة ١ : ٣٨٢ ، ويخيل إلى أن صواب هذه العبارة : « وكان يتعلم دروس العلوية ، وحذق العربية شعراً ولغة وإعراباً » .

يتبادر إلى الفهم أن هذه الكتاتيب والمدارس كان لا يدخُلها إلا أبناء العلويين . ونصُّ الأصفهانى يقول بذلك . فدخول « أحمد بن عِيدَان السَّقَّاء » ، الذى هو المتنبى ، بين أبناء العلويين فى كتّاب لهم ، غريب عجيب ! فيجب هنا أن نفهم من هذا الشاهد أنَّ بين جدة المتنبى وبين العلويين سبباً موصولاً قويًّا ، هو الذى شرح صدورهم وأرضاهم أن يُدْخِلُوا بين أبنائهم غلاماً كان أبوه سَقَّاءً فى بلدهم . [1]

هذه واحدة من علاقة أبى الطيب وجدَّته بالعلويين . ثم إنّ أبا الطيب فارق جدته ورحَل لغير سبب معلوم إلى البادية ، ثم عاد إلى الكوفة شاعراً قوَّالاً ذا لسان ، فلم يمدح إلاَّ « محمد بن عبيد الله المشطّب العلوى » ، [2] الذى قدمنا ذكره وذكر السبب فى مدحه ، [3] ولم يمدح أحداً من العلويين قاطبة على كثرتهم ، وثرائهم وعلوّ مرتبتهم ، وخلوص عربيتهم ، [4] فى عصر اختلطت فيه الأمور ، وصارت الشوكة إلى الأعاجم .

---

(١) قد برح الخفاء الآن ، فلا عجب . فالمتنبى إلَّا يكن علوى النسب ، فإنه أخو العلويين من الرضاعة ، لأن امرأة علوية من آل عبيد الله ، هى التى أرضعته . انظر ما سلف ص : ١٥٣ ، تعليق : ١ ، ثم ص : ١٦٤ ، تعليق : ١

(٢) لا يَغُرَّنْك ما يقوله الدكتور طه حسين فى كتابه « مع المتنبى » ١ : ٧٤ ، أن المتنبىّ قال قصيدته فى « محمد بن عبيد الله العلوى » تِرْبِهِ وصديقه ، فى بغداد (لا فى الكوفة) ، وأن « محمد بن عبيد الله العلوى » كان رجلاً رسمياً !! فإنه إنمّا اختطف هذا الكلام من بلاشير فى كتابه « أبو الطيب المتنبىّ : ٦٢ ، ٦٣ » ، وأشار بلاشير فى هامش كتابه إلى مرجعه ، وهو كتاب الوزراء للصابى : ٢١٠ ، وهذه الإشارة تدلُّ وحدها على تدليس المستشرقين وقلة علمهم ، لأن الذى فى كتاب الصابى المذكور ، هو فى ذكر دور ابن الفرات (قتل يوم الاثنين حادى عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٣١٢) وأنها كانت وقفاً ، وابتاعها جماعةٌ « وتنقل الملك من واحدٍ إلى آخر ، فمن ذلك الدار التى فى الطرف وتوازى سكة الحوض ، فإنها حصلت لأبى الحسين محمد بن عبيد الله العلوى الكوفى ، ثم انتقلت إلى ورثته » (الوزراء : ٢١٠) . والكلام فى دار تنقَّل المِلكِ فيها من واحد إلى آخر بعد سنة ٣١٢ ، فهل عند أحدٍ منهما علمٌ بأمر « محمد بن عبيد الله العلوى الكوفى » ومتى فارق الكوفة ودخل بغداد ، وحصلت له دار ابن الفرات ؟ وظاهر الخبر يدل على طول المدى فى تنقل ملكها من واحد إلى آخر ، حتى انتهت إلى العلوى الكوفىّ الذى مدحه المتنبى بهذه القصيدة فى سنة ٣١٦ – ٣١٩ على الأكثر ، وكان العلوى الكوفى كان يوم مدحه فتى قد بلغ الحلم ، أمردَ ، أو نبتت لحيته ولم تتم ، كما جاء فى قصيدة المتنبى [انظر ما سلف ص : ٥٧ / ثم ص : ١٥١ ، ١٥٢] ثم ما سيأتى ص : ٥١١ – ٥١٣ .

(٣) انظر ص : ١٥١ ، تعليق : ٣ ، ففيه نسبه إلى « آل عبيد الله » .

(٤) والمتنبى كما تعلم ، كان من أكثر أهل عصره تمجيداً للعربية وتعصباً لها .

فلما خرج صاحبنا إلى الشام ، ذكروا فيما ذكروا من (أمر الفضول الذى نُبِزَ به ، يَعْنُونَ النبوَّة) : أنّه ادّعى العلويةَ مرّتين ، أى ادّعى أنه علوىٌّ صَلِيبةً ، وكان الذى قبض عليه هناك وعذبه وسجنه (ابن علىّ الهاشمى) أو : / العلوى ، لا أدرى . وكان إذ ذاك باللاذقية سنة نَيِّفٍ وعشرين وثلاثمئة ، واللاذقية يومئذٍ دارٌ من ديار العلويين ، يربض فيها رؤوس من الدُّعاة العلويين . ٤٣

ولما كان أبو الطيب بطبرية سنة ٣٣٦ ، وأراد الخروج إلى الرملة ، أرصد لهُ العلويون قوماً من عبيدهم السُّودان ليقتلُوهُ ، ولكنه فَاتهم بحيلته ودهائه ، ودخل الرَّملة يمدحُ الأَميرَ أَبا محمد الحسن بن عبد الله بن طُغْج ، فكان مما قال فى قصيدته : [انظر ما سلف ص : ١٥٤ – ١٥٦] .

وَفارقتُ شَرَّ الأَرض أهلاً وتُربةً بها (عَلَوِىٌّ) جَدُّهُ غيرُ هاشمِ

ثم كان ما روينا لك من امتناعه عن مدح العلوىّ (أبى القاسم طاهر بن الحسن ابن طاهر) ، ولم يمدحه إلاّ بعد إلحاح الأمير وتدنّيه فى السؤال منه ، وكان مما قاله أبو الطيب فى هذا المدح ، [انظر ما سلف : ص ١٥٤] :

أَتَانِى وَعِيدُ (الأدعياء) ، وأَنّهم أعدُّوا لِىَ السُّودَان فى كَفْر عَاقِبِ
وَلَوْ صَدَقُوا فِى جَدِّهِمْ لَحَذِرْتُهُم فَهَلْ فِىَّ وَحْدِى قَوْلُهُمْ غَيْرُ كاذِبِ

ثم انتزع من ذلك أمثالاً فى النِّسْبة إلى العلوية المكرمة فقال :

إِذَا لم تكُنْ نَفْسُ النَّسِيب كَأَصْلِهِ فَمَاذا الَّذِى تُغْنِى كرامُ المَنَاصِبِ ؟
وَمَا قَرُبَت أشباهُ قَوْمٍ أباعِدٍ ولاَ بَعُدَت أَشْباهُ قومٍ أقارِبِ
إذا (عَلَوِىٌّ) لَمْ يكن مِثْلَ طَاهِرٍ فمَا هُو إلاَّ حُجَّةٌ للنَّوَاصِبِ

فلما دعتْهُ جدَّتُه إلى العراقِ أن يزورها ، قصدَها ، والنصُّ الذى ورد فى ذلك هو هذا : « فتوجه نحو العراق وَلَمْ يُمْكِنْهُ دُخولُ الكوفة (على حَالَتِه / تلك) ، فانحدر إلى بغداد ، وكانت جدَّته (قَدْ يَئِسَتْ منه) ، فكتب إليها كتاباً يسأَلُها المسيرَ إليه .... » ، ٤٤

هذا نصٌّ فى أصول ديوانه ، فكأنّه من لفظ أبى الطيب نَفْسِه . وهو نص غريب كما ترى !! وليت شعرى وشِعْرَك ما الذى أرادَ بقولِهِ : « لم يمكنه دخول الكوفة على حالَتِهِ تلك » ، وهو قد أتاها قاصداً دُخُولها ، ورؤية جدَّته التى تحبه ويحبُّها ، ويقطع صاحبنا الأَرض من أقصى الشَّام إلى أسْفَلِ العراق ودخولُ الكوفة همُّه ، ثم يمتنع من دخولها لغير سببٍ مذكور أو معقول !! إذن فلا مَناصَ من القول بأنه قد مُنع من دخول الكوفة ، وهذا هو الوجه الآخر لتأويل هذا النص الغريب .

فإن صَحّ أيضاً ما أسنده التنوخى ، (وذلك ما أوردناه فى أول كلامنا ص : ١٣٨ ، ١٣٩) ، إلى أبى الحسن العلوىّ وابن أمِّ شيبان الهاشمى ، وهما كوفيان ، وأن ذلك من كلامهما ، كثرت الأدلة التى تُوَجِّه الحَدْسَ والظنَّ إلى وجهٍ بعَيْنِه ، وذلك أن بين المتنبى والعلويين سبباً مجهولاً حملهم أوَّلَ أوّلَ إلى إكرامه بدخوله بين أبنائهم فى كتَّابهم بالكوفة ، ثم حملهم بعدُ على النية المعقودة للفتك به فى الشام ، ثم حملهم على منعهِ من دخول الكوفة ليرى جدَّته العجوز التى أرسلت إليه تشكو شوقَها وطولَ غيبته عنها . ويزيدك فى هذا يقيناً وعليه اعتماداً ، رثاءُ المتنبى لجدّته ، ففيه لطائف من الإشارة نكتفى بذكر البيّن منها هنا ، ثم نعود إليها بعد قليل . يقول المتنبى :

هَبِينِى (أَخَذْتُ الثَّأْرَ فيكِ من العِدَى) فكيفَ بأَخْذِ الثَّأْرِ فيكِ من الحمَّى

ثم يقول :

لئن لَذَّ يَوْمُ (الشَّامِتين) بيَوْمِها لَقَدْ وَلَدَتْ مِنِّى لِآنُفِهِمْ رَغْمَا

٤٥ فقد أثبت أبو الطيب أن لجدته ثُمَّ له أعداءً ، كان همُّهُ كلُّهُ أو أكثرُهُ أن / يأخذ منهم (ثأرها) وثأره ، وأن هؤلاءِ الأَعداءَ قد شمتوا بموتها يوم ماتت . فهذه الجدّة الصالحةُ العجوزُ قد اتخذت لنفسها أعداءً يُرْضُون أَنفسَهُم بالشماتة ، وهؤلاء الأعداء ، ولابُدَّ كانوا من الكوفة ، والأُرجح أنهم كانوا من العلويين ، والهاشميين ، لما رأيت قبلُ من الصلة أو العداوة القائمة بينهم وبين أبى الطيب المتنبى .

* * *

وأنا لا أرى بأساً من ترجيح الظن بأن المتنبى كان من أبناءِ العلويين ، فإن هذا يفسِّر كل غموض فى حياة الرجل وشعره ، وفيما روى عن نسبه من الملفَّقات . وحسبى هنا أن أمُرّ بك مرًّا على مواضع بعينها ، لترى رأيك ، وفقك الله ، فيما أردنا من القول به ، فإن رأيت حجتنا ساقطةً فأسقطها ولا تؤاخذنا بما ظلمنا ، فإن رجَّحتَ ما نقول به .... فأنْ نَدْعُوَ النَّاسَ لآبائِهم أقْسَطُ عِنْدَ الله .

* * *

ووضع القضية عندنا هو هذا :

تزوَّج رجلٌ من العلويين ، ولاَ جَرَمَ أن يكون من كِبارهم ، بنت جدة المتنبى ، فحملت منه ووضعت أحمد بن الحسين (وهذا الحسين غير عِيدَان ، السَّقَّاء) ، (١) ولأمرٍ ما أريد هذا الرجل العلوىُّ على طلاق امرأته وفراقها ، وحمله العلويُّون على ذلك ، ففارقها وطلقها ، فرجعت إلى أمِّها بجنينها أو طفلها ، وحزنت حزناً أهلكها ، فاستلَّها الموت وذهب بها ، وبقى الطفل فكفلتُه جدَّتُه وتعهدته وقامت بأمره ، حتى بلغ مبلغ الفتيان ، ودلَّته على الطريق بعد / أنْ صرَّحت لهُ بحقيقة أمره ، وصحيح نسبته ، وكان من حزمها أن حذّرت الفتى عواقب التصريح بأمر نسبه ، وأخذت عليه المواثيق والعهودَ ، بحبها له وحبِّه لها ، وأنه إن فعلَ كان فى ذلك هلاكُها وهلاكُه ، فبقى على ذلك متململاً حتى كان من أمره ما كان من ادِّعائه العلوية بالشأم ، فقبض عليه ، فاضطرَّ إلى الإخلاد والتسليم ، وحرص على أن يطيع أمر جَدّته ، بعد أن علم حزْمَها وصوابَ رأيها ، وإخلاصَها له المشورةَ ، ومَحْضَها له النصيحةَ . (٢)

٤٦

* * *

---

(١) ممكن أن يكون « عيدان السقاء » هذا جده لأمه .

(٢) سأذكر فى آخر هذا الفصل (ص : ١٧٧) قصة تشبه قصة هذه القضية ، وهى زيادة ، لم أذكرها فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب .

وهذا الوضعُ لقضية المتنبى هو الذى يفسِّر لك طولَ تكتُّم المتنبى على نَسَبه ، وإخفائه جُهْدَه من أصحاب الألسنة المتنقلة بين الرجال ، ويفسِّر أيضاً مخرج قِصَّة (أبيه السَّقَّاء) ، وحرصَهُمْ على حبكها ، والتقديم لها بلطيف القول ، وحَسَن العبارة ، كما رأيت فى أول كلامنا (ارجع إلى نقدنا لكلام التنوخى) – ويأتيك بالدَّليل البيِّنِ فى أمر دُخُوله كتَّاب أشرافِ العلويين بالكوفة وتعلمه دروس العلوية – ويُبين أيْضاً عن السبب الذى من أجله سكت المتنبى عن مدح العلويين وعظمائهم وأصحاب الجاهِ والسلطان منهم وهو بالكوفة ، ثم تأبِّيه على مدح أبى القاسم العلوىِّ صاحب الأمير ابن طغج حين كان بالرملة ، ثم ما كان قبلُ من إرصَادِ العلويين له عبيدَهم لقتله بكفر عاقب . وكفاك هذا ، فإنا سَنَبْنى بقية كلامِنا عن المتنبى مِن أوّل أمره على هذا الأُسِّ أو ما يقرُبُ منه . وبحسبك هنا أن نفسِّر لكَ بعض المعانى فى رثاء جدته على هذَا الأصل . ونص مقدِّمة رثاء جدّته هو هذا :

٤٧ / « ورد على أبى الطيب كتابٌ من جدّته لأمه تشكُو شوقَها إليه ، وطولَ غيبته عنها ، فتوجَّهَ نحو العراق ولم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك ، فانحدر إلى بغداد ، وكانت جدَّته قد يَئِست منه ، فكتب إليها كتاباً يسأَلُها المسيرَ إليه ، فقبَّلت كتابَهُ وحُمّت لوقتها سُروراً به ، وغَلب الفَرحُ على قَلْبها فقتلها » . [انظر ص : ١٦٩ ، ١٧٠] .

وتأويل هذه العبارة كلِّها : أنه حين ورد عليه كتاب جدَّته أزمع الرحيل من الشأم إلى الكوفة ليلقى بها جدته ، فبلغ الخبرُ مَشْيَخَةَ العلويين ، فذهب بعضهم إلى جدته ، وأبانوا لها سُوءَ رأيها ، ونَهَوْهَا أن يكون لقاءُ ولِدها من همّها ، وأخبروها أنهم قد أجمعوا رأيهم على منعه من دخول الكوفة بعد ما كان من أمره وهو بالشام ، من إظهاره العلويَّة ، ورغبتِهِ فى تحقيق نسبته إلى العلويين . فلما فَجَئَهم الخبرُ بورُود صاحبهم « المتنبى » على طرَف الكوفة ، خرجوا إليه وأنذروه أن يكون ذلك من إرادته بعد فُضُولِه فى الشام ، وأمروه بالانحدار إلى بغداد ، ورجعُوا إلى جدّته فأيأسوها من لقائه بتًّا . فلما استقرّت بالمتنبى بغدادُ ، وزاد شوقُه إلى جدته ، وبكى من خِيفته عليها ، حمله ذلك على الكتابة إليها ، بعدَ أن لم يجد عن ذلك محيصاً فى نفسه ، فكتب إليها كتاباً يسألها المسير إليه ببغداد ،

ففرحتْ العَجُوز فَرَح اليائس من أمرٍ ، ثم أتته البُشرى بالظَّفر من وجْهٍ آخر ، فاشتَدَّ ذلك عليها ، واستبدّت العواطف المعتلجة المتنازعة المتضادة بذلك البُنْيان المهدّم الضعيف ، فآنقضَّ بعضه على بعضٍ ، فماتت رحمةُ الله عليها ، وأثابها بما صبرت .

فلما ماتت المسكينة ثارت نفسُ الرجل ثورة اليأس ، وخاف أن يستعلن للعلويين بالعداوة وهو ببغداد : أنْ يقتلوه من أجل ذلك ، فأضمر ما فى نفسه ، / وأشار إلى هذه المعانى من طَرْفٍ خفىّ . ويحسن أن نذكرَ هُنا أن المتنبى خرج آخرَ مرةٍ من الكوفة مُرْغَماً على ذلك الخروج . وهذا أمرٌ طبيعىٌّ إذا صَحّ القولُ الذى نقول به . ٤٨

فانظر الآن ماذا يقول الرجل فى رثاء جدّته :

بَكَيْتُ عليهاَ خِيفةً فى حَيَاتِها وَذَاقَ كِلاَنا ثُكْلَ صَاحِبِهِ قِدْمَا

وقد شرح الشرّاح هذا البيت ، وأداروا معانيه ، ولكنه بقى فى شرحهم لا معنى له ، كقولهم : « وكنت أبكى عليها فى حياتها خوف فَقْدها ، وفرّقت الأيام بينى وبينها ، فذاق كلانا ثُكْلَ (فقدَ) صاحبه قبل الموت » ، فالعطف فى الذى قالوا به « وفرقت الأيام » لا معنى له هنا ولا فائدة منه . وتفسير البيت هذا :

لما أيأسوها من لقائى ، وقد منعونى من دخول الكوفة ، علمتُ يقيناً أنّها ستحمل ثِقْلاً يهدُّها ، فبكيتُ خِيفةً عليها من أثر الحزن فيها ، وما يبكينى أن لا ألقاها ، وكيف أبكى لذلك (وقد ذاق كلانا ثُكْلَ صاحبه قديماً) ، بالفراق الذى حُمِلنا عليه ! ولو كنت باكياً لبكيتُ للفراقِ الذى كان بينَنَا بمنزلة الموت ، فعدَّتْنى هى قد مِتُّ ، وعدَدْتُها قد ماتت (وهذا تأويل قوله : وذاق كلانا ....) ، أى ثكلتنى وثكلتُها .

ثم يقول بعدَ أبياتٍ :

طَلَبْتُ لها حَظًّا ، ففاتَتْ وفَاتنى ، وقَدْ رضيتْ بى ، لو رَضِيتُ بها ، قِسْمَا (١)

---

(١) تفسير البيت عند الشراح هو هذا : فارقتها لأطلب لها حظاً من الرزق ففاتتنى هى وفاتنى هذا الحظ ، =

٤٩ / فَأَصْبَحتُ أَسْتَسْقى الغَمَامِ لَقْبرِها وَقَد كُنْتُ أَسْتَسْقى الوَغَى والقَنَا الصُّمَّا

ومعنى البيتين عندنا : كانت العجوز رضى الله عنها قد رغبت إلىَّ أن أكتمَ أمر نسبتى العلوية إلى أن يشاءَ الله ، ولكنى خالفتها ، وآثرت فراقها لعلّى أصيب بعيداً عن الكوفة ما لم أدركه بها ، فخرجت أطلب لها (حظًّا) ، أى فضلاً وخيراً فى ردّ شَرَف انتمائنا إلى العلويين ، ولكن شاء ربُّكَ أن تفوتنى بها الأَحْدَاثُ فتموت ، ويفوتُنى أيضاً بعد موتها ذلك الحظُّ ، لما أَعْلَمُ من أنها كانت هى السببَ فى امتناعهم عن الفتك بى إن حاولتُ أمراً ، فواحسرتاه ! لِمَ خالفتها ، وخرجت أطلب لها هذا الحظّ ، وقد رضيتْ بى قِسْماً وحظًّا ونصيباً ، وجعلتْ ظفرها بى عِدْلاً لما فاتها من الحظ الذى كنت أطلبه لها ؟ فيا ليتنى رضيت بها كما رضيت بى ، [1] وجعلتها عِدْلاً لما فاتنى من هذا الحظ . وعلى هذا الأصل يكون معنى البيت الثانى واضحاً بيناً فهو يقول : كنت أريد القتال والحرب لأشفى بالدم المهراق غليلَها ، وأردَّ عليها حياتَها فى شرف نسبتنا إلى العلوية ، فالآنَ وقد ماتت وفاتت ، لا حيلة لى إلاَّ أن أسال الله أن يبرِّدَ قبرها بما يُدِرُّ عليها من ماء الغمام . ثم قوله :

هَبِينى أخذت الثأرَ فيكِ من العِدَى فكَيْف بأَخْذِ الثأرِ فيك من الحُمَّى
لَئِنْ لَذَّ يومُ الشَّامتين بِيَوْمِها لَقَد وَلَدَتْ مِنِّى لِآنْفِهِمْ رَغْمَا [2]

وقد مضى بعض القول فى هذين البيتين ، (ص : ١٧٠) ، ولكن بقى أن نقول : إن هؤلاءِ الأَعْداء والشامتين كانوا من أشراف الكوفة ، لما رأيتَ أوَّلاً ، إذ لا يعقل أن يكون

= وقد كانت راضية أن أكون قسما لها من الدنيا ، لو رضيتها قسما لى (والقسم النصيب) ، وقد كنت أطلب من الرماح أن تسقينى دم الأعداء ، فلما ماتت تركت الحرب وجداً عليها ، وصرت أطلب من السحاب أن يسقى قبرها - أو كما قالوا !! فانظر هذا التفسير ، واقرأ تفسيرنا .

(١) اعلم أن (لو) فى بيت المتنبى معناها التمنى والأسف والحسرة .

(٢) الآنف ، والآناف ، بالمد والأنوف جمع « أنف » .

غير ذلك . لا يُعْقَل مثلاً أن يكون أولئك الأعداءُ والشامتُون من طبقة السَّقائين والنسَّاجين ومن إليهم ! ولو كان ذلك كذلك ، لما / حَفَلَ المتنبّى بذكرهم ولا التعريض بهم ، وأن يجعل نفسه رَغماً لأنُوفهم ، وهو مَنْ هُوَ فى الكبرياء والتسامى والغلوّ فى الترفُّع والعظمة . ٥٠

وعلى عادته أتى فى القصيدة بإشارة عجيبة ، هى من باب التفاتِ القلب إلى ما يَلِجُ فيه من الرأى المُضْمَر .... يقول : (١)

فوَا أسَفَــا ألاَّ أُكِبَّ مُقَبِّــلاً لرَأْسِكِ والصَّدْرَ اللَّذَىْ مُلِئَا حَزْمَا
وألاَّ ألاَقِى رُوحَكِ الطَّيِّبَ الّذِى كأنَّ ذَكِيَّ المِسْكِ كَان لَهُ جِسْمَا

ثم استيقظت فى قلبه تلك الثورة العجيبة التى أصبحت طابع شعر الرجل كلِّهُ ، فَانفتَلَ من معانى الحنان والرقة إلى معانى القسوة والعتوّ ، فقال :

وَلَوْ لَمْ تَكُونى بِنْتَ أَكْرَم وَالِدٍ لَكان أبَاكِ الضَّخْمَ كَوْنُكِ لى أُمَّا
لَئِن لَذَّ يَوْمُ الشَّامِتين بِيَوْمِها لَقَدْ وَلَدَتْ مِنّى لِآنُفِهِمْ رَغْمَا

ذكرته روح جدته بالثأر القديم الذى نسيه فى قوله قبل ذلك : « هبينى أخذت الثأر فيك من العدى » فصرخ صرخته هذه ، فكأنى به يقولُ : أبعدوك ونَفَوْكِ ، فما يضير نفيهم روحاً طيباً ، ونفساً زكية !! ولا تأسَىْ ولا تحزنى ، فإنك قد ولدتنى ، وكفاك شرفاً أن تكونى لى أمًّا ، فإنى مُرْغِمٌ أُنوفهم ، وحاملُهم على خُطَّة الخَسْفِ حتَّى يُعْطوا المَقَادة وهم صاغرون . فعلى هذا فَسِّرْ قولَه :

وَإنِى لَمِنْ قَوْمٍ كَأَنَّ نُفُوسَهُـمْ بِها أَنَفٌ أنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ والعَظْمَا
كَذَا أَنا يَا دُنْيا ، إذَا شِئْتِ فَاذْهَبى ، وَيَا نَفْسُ زِيدِى فى كَرَائِهها قُدْمَا
فَلاَ عَبرَتْ بى سَاعةٌ لا تُعِزُّنِى ولا صَحِبَتْنى مُهْجَةٌ تَقْبَلُ الظُّلْمَا

---

(١) انظر ما سلف ص : ١٦٣ — ١٦٥ ، ثم ما سيأتى : ٢٤١ — ٢٤٣ ، ثم ص : ٢٧٧ ، والتعليق رقم : ١ ، و ص : ٢٨٠ — ٢٨٣ ، ثم ص : ٣٧٢ — ٣٧٥ .

وقوله :

مَا بِقَوْمِى شَرُفْتُ ، بَلْ شَرُفُوا بِى ، وبِنَفْسِى فَخَرْتُ لاَ بِجُدُودِى
/ وَبِهِم فَخرُ كُلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّا دَ ، وعَوْذُ الجانِى ، وغَوْثُ الطَّرِيدِ ٥١

وفخر من نطق الضاد ، هم أبناء رسول الله ﷺ ، وقوله أيضاً :

ولَكِنَّنِى مُسْتَنْصِرٌ بِذُبابِــه وَمُرْتَكِبٌ فى كلِّ حَالٍ به الغَشْمَا[1]
وَجَاعِلُـهُ يَوْمَ اللقَـاءِ تَحِيَّتِى وَإِلاَّ فَلسْتُ (السَّيِّدَ البَطَلَ القَرْمَا)[2]

ثم فَسَّرَ على هذا الأصل قولَه أيضاً ، وقد جعل قوم يستعظمون ما أتَى به فى رِثَاء جدَّته :

يَسْتَعظِمون أُبَيَّاتاً نَأَمْتُ بها ، لا تَحْسُدُنَّ ، عَلى أَن يَنْأَمَ ، الأَسَدَا[3]
لَوْ أَنَّ ثَمَّ قُلوبـاً يَعْقِلُـون بها أَنْسَاهُمُ الذُّعْرُ مِمَّا تَحْتَها الحَسَدَا

وتدبر قوله : (لا تحسُدُنَّ) ولو كان غيرُ المتنبى – هذا الموتورُ صاحبُ الثأر عند هؤلاء القوم – لقال : (لا تعجبنَّ) أو مَا يقرُب من ذلك .

ونحنُ لو شئنا أن ننقل لك هُنَا ونُفسِّر كل شئ يدُلُّ من قريبٍ أو بعيدٍ على ما نذهبُ إليه ، لكلَّفنا ذلك أن نشرح لَكَ أكثر ديوان المتنبى ، ولكن بقيتْ أشياءُ ننبِّه إليها . لو أنت قرأتَ ديوانَ الرجل لوقعتَ على كثيراتٍ من أمثالها . وذلك كقوله بعد وَفاة جدَّته ومَرْجِعِه إلى الشام :

سَأَطْلُب (حَقِّى) بالقَنَا ومَشَايخٍ كأَنَّهُمُ مِنْ طُولِ مَا الْتَثَمُوا مُرْدُ

---

(١) يعنى سيفه و « ذبابه » ، حده .

(٢) « القرم » بفتح وسكون ، السيد المعظم المكرم الذى لا يذل لشئ .

(٣) النئيم : زئير الأسد .

فقوله : (حقّى) ، لا يقع هذا الموقع من شعر إلاَّ من أَحَدِ رجلين : رجلٍ دَعِيٍّ طويل الباع واللِّسان فى الدعوى والكذب ، أو رجلٍ صادقٍ / لا يكذبُ عَلى نفسه ولا على الناس ، وليس المتنبى بأوَّلهما . إذن فقد كان لهُ حقٌّ يطلُبه بالحرب وهو الذى سَمَّاهُ « حظًّا » فى رثاء جدّته ، وإنما خفَّف « الحق » فى الرثاء وجعله « حظًّا » لما أشرنا إليه من قبلُ . ومثل هذا قوله لكافور : ٥٢

فَآرْمِ بى حَيْثُ شِئْتَ مِنّى فإنّى أَسَدُ القَلْبِ آدَمِىُّ الـرُّوَاءِ
وَفُؤَادِى مِنَ (المُلوكِ) ، وإن كا نَ لِسَانى يُرَى من الشُّعَـراءِ

فلا عَجَب بَعْدُ فى فخر المتنبى وتعاليه وتعاظُمه ، فكلٌّ مفسَّرٌ بيِّنٌ واضحُ العِلّةِ والمعنى على هذا الأصل ، وكان عجَباً عاجباً عند الناس أن تبلغ الحماقة بآبْن سقاءٍ ، أن يفخَر مثل هذا الفخر ، ويتعاظم على الملوك مثل هذا التعاظُم ، وذَهَبُوا فى تأويل ذلك مذاهبَهم . ولعلّ هذا ، إن شاء الله ، هو المذهبُ الحقُّ .

* * *

أحبُّ أن أختم هذا الفَصْل ، بقصّة اخترتُها من بين أشباهٍ لها ، وهى قصة أبى جعفر المنصور ، ووَلِدٍ كان له من إحدى بنات دهاقين الأهواز ، حيث كان مستتراً قبل توليه الخلافة . وقد زدتُها على أصل الكتاب ، لأنى آثرتُ أن لاَ أُغيِّر شيئاً من سِياق الكتاب ، كما كُتِبَ منذ أربعين سنة . وهذه القصة ، شبيهةٌ بالقصة التى افترضْتها آنفاً فى مولد « المتنبى » ، وأنّ أباه كان رجلاً علويًّا ، فتزَوّج امرأةً ، ثم حيل بينَهُ وبين إظهار نسب ولِدِه إليه ، لسببٍ من الأسباب التى توجب الكتمان إلى حين . ونقلتها من كتاب « الوزراء والكتاب » للجَهْشَيارىّ ، [توفى سنة ٣٣١ من الهجرة] ، وهى فى كتابه ص : ١٢١ – ١٢٣ ، قال الجشهيارى :

« لما كان [أبو جعفر] المنصور ، [وهو ثانى الخلفاء العباسيين] ، مُستتراً / بالأهواز [قبل توليه الخلافة] نزل على بعض الدَّهَاقين ، فاستتَر عنده ، فأكرمه ٥٣

الدّهقان بِجَميع ما يَقْدِرُ عليه ، حتّى أَخْدمه آبنَته ، وكانت فى غَاية الجَمال ؛ فقال له أبو جعفر : لَسْتُ أَسْتَحِلُّ آستخدامَها والخَلْوَةَ بها وهى جارية حُرَّة ، فزوِّجنيها . فزوَّجه إياها ، فَعَلِقت منه [أى حملت] . وأراد أبو جعفر الخروجَ إلى البَصْرة ، فودّعهم ، ودَفع إلى الجارية قميصَهُ وخاتَمَهُ ، وقال : إن وَلَدْتِ فاحتفِظى بولَدك ، فمَتَى سمعتِ أنَّه قد قامَ فى الناس رَجُلٌ يقال لهُ : عبدُ الله بن محمَّد ، ويكنى أبَا جعفر ، فَصِيرِى إليه بولَدِك ، وبهذا القَميص والخاتَم ، فإنه يَعْرِف حَقَّك ، ويُحْسِن الصُّنْع إليكِ ، وفارقَهم . فولدت آبناً ، وَنَشأَ الغُلام وتَرَعْرع ، فكانَ يَلْعَب مع أَتْرابه . وملك أَبُو جعفر ، فعَيَّر الغلامَ أترابُه بأنه لا يُعرفُ له أبٌ ، فدخَل إلى أمّه حَزيناً كئيباً ، فسأَلَتْهُ عن حالِه ، فذكَرَ لها ما قال أتْرابُه ، فقالت : بَلَى ، والله إن لك أباً فَوْق النَّاس ! قال لها : ومَنْ هُوَ ؟ قالت : القَائِمُ بالمُلْكِ . قال : فهذا أبى وأنَا على هذه الحال ! هل مِنْ شَىء يَعْرفُنِى به ؟ فأخرجت القميصَ والخاتَم ، وشخَص الفتَى فَصَار إلى الرَّبيع [مولى أبى جعفر المنصور ، وأحد رجال دولته] ، فقال له : نصيحة ! قال : هاتِها . قال : لا أقولها إلا لأمير المؤمنين . فَأَعْلَم المنصورَ الخَبَر ، فأدخله إليه ؛ فقال : هاتِ نصيحتك . فقال : أَخْلِنى ! فنحَّى مَنْ عنده ، وبقى الربيعُ ؛ فقال : هاتِ . قال : لا ، إلاّ أنْ يتنحَّى . فنَحّاه ، وقال : هات . قال : أنا آبنُك . قال : مَا علامةُ ذلك ؟ فأخرجَ القميصَ والخاتَم ، فعَرَفَهما المنصور ، وقال له : مَا مَنعك أن تقول هذا ظَاهِراً ؟ قال : خِفْت أن تَجْحَد ، فتكون سُبَّةً آخِرَ الدَّهر . فضمّه إليه وقبّله ، وقال : أنت الآن آبنى حقًّا . ودعَا المُورِيَانىَّ ، [هو أبو أيوب سليمان بن أبى سليمان المُورِيَانىُّ ، أحدُ / رجال الدولة] ، فقال : يكون هذا عندك ، وما كنتَ تفعلُه بوِلَدى لو كان لى عندك فَآفعلْه بِهِ . وتقدَّم إلى الربيع فى أن يُسْقط الإذن عنه ، وأمرَه بالبُكور إليه فى كلّ يوم والرَّواح ، إلى أن يُظْهِرَ أمْرَه ، فإنَّ له فيه تدبيراً . فضَمَّه المُورِيانىُّ إليه ، وأخلَى له منزلاً ، وأوسَع له من كلّ شىء ، فكان يَغْدو وَيَرُوح إلى المنصور ، وخُصّ به جدًّا ، وكان الفَتَى فى غايةٍ من العقل والكمال ، وكان المنصور يخلو

٥٤

معه ، فيسأله المُورِيانىُّ عمّا يَجْرِى بَيْنهما ، فلا يُخْبِره ، فيقول له : إن أمير المؤمنين لا يكتُمُنى شيئاً ! فيقول له [الفتى] : فما حاجتك إلى مَا عِنْدى إذَنْ ! فحسَده المُورِيانىُّ ، واستَوْحَش منه ، وثَقُل عليه مكانُهُ ، فأطعمه سُمًّا فمات ، وصارَ إلى المنصور ، فأعْلَمه أنه مَاتَ فَجْأة ، ثم وَلَّى ، فقال المنصور : قَتَلْتَهُ ! قَتَلنى اللهُ إن لم أقْتُلْك بِهِ ! فلم يلبث بَعْدُ أن فَعَل به ما فَعَل » .

° ° °



– ٤ –

****

أَذَاقَنِى زَمَنِى بَلْوَى شَرِقْتُ بِهـا
لَوْ ذَاقَهَا لَبَكَى ، مَا عاش ، وَانتحَبا
وَإِنْ عَمَرْتُ جَعَلْتُ الحَرْبَ وَالدةً
وَالسَّمْهَرِيَّ أخاً والمَشْرَفيَّ أَبَـا
بِكُلِّ أَشْعَثَ يَلْقَى المَوْتَ مُبْتَسِماً
حَتَّى كَأَنَّ لَهُ فِى قَتْلِهِ أَرَبَـا
فَالَموْتُ أَعْذَرُ لى ، والصَّبْرُ أجملُ بى ،
والبَرُّ أوسَعُ ، والدُّنيا لِمَنْ غَلَبَا

****

/ ماتت أمّ (أحمد بن الحسين) أبى الطيب المتنبى وهو وليدٌ بعدُ ، فيما زعمنا ، ٥٥
فوقع إلى جَدَّته واختارته وآثرته على حظها من الدنيا ، فكفَلَتْه ، وألقت كلَّ ذاتِ قلبها وكبدِها فى تعهُّدِه ورعايته ، ثم فى تربيته وتنشئته ، ثم فى النصيحة له وتَطْرِيقِ وَعْرِ الدنيا عند قَدَميه ، ومنحته فى ذلك حنان الأمِّ الفاقد على ولدها اليتيم الملطَّم بلا أب ولا أمّ . وكانت العجوز ، كما وصفوها ، « من صلحاءِ النساء الكُوفيَّات » ، وكما وصفها حبيبها وولدها ثم حفيدها ، « حازمة ، طيبة الروح ، زكية النفس » ، غَيْرَ أُنْثى العَقْل .

وكانت امرأةً موتورةً ، كما ذهبنا إليه فيما مضى بك ، لا تزال تجِدُ فى قلبها الأَمرَ الذى يقول لها : « ها أنا ذا .... فلا يَلْفِتَنَّكِ حنانُكِ عن الجِدّ فى تدبير العزم وإدارة الرأى على وجوهه ، فى طلب الثأر الذى لكِ فى أعدائك / المُنْزِلِيكِ بشر منزلةٍ ما ترضاها ٥٦
نفسٌ كنفسكِ فى الطيب والزكاة » . وأطاعت العجوز آمِرَها بالانتصاف لنفسها ولحفيدها ، ولا حيلَة لها إلاَّ تنشئة الصغير على غِرارٍ فذٍّ يَكْفُل لها إدراكَ ما تروم ، وكذلك فعلت . فكان المتنبي فى الزمن ، ثُمَّ فى الشعراءِ خاصةً ، شخصيةً عجيبة ، إذا أخذتها من

يَمينٍ ٱلتَوَتْ بك إلى شِمال ، وإن ذهبت تطلبها من وجه ، راغت من وجوه ، وٱستبهم أمرهُ على الناس باستبهام الغرض الذى رَمَى إليه هذا الإنسان ، وكان كما قال ابن رشيق : « ملأ الدنيا وشغل االناس » ....

لا ندرى كيف تمَّ الرأى بينها وبين العلويين أن « يختلف - الفتى أحمد - إلى كتَّابٍ فيه أولاد أشراف الكوفة » ، كما نقل الأصفهانى ، [1] ولعلهم أرادوا بذلك أن يُرْضوا العجوز ، ويخفّفوا عنها ثِقْل همومها ، ويحملوها على المطاوعة لهم خشيةَ أن تفجأهم بما لا يحبون من إظهار ما أرادوا كتمانَه وإخفاءَه . دخل الفتى الكتّابَ ، وقد قال التنوخى فى حديثه الذى أسنده إلى أبى الحسن العلوى ، وهو يعنى المتنبى : « ونشأ وهو محبٌّ للعلم والأدب فطلبه » . ولا شك أن جدَّته الحازمة الصالحة كانت من ورائهم تستحثُّهُ على طلب العلم ، وتستفزُّهُ إلى ذلك ، ليتمَّ لها ، إن شاء الله ، ما تؤمل من الفرح بنبوغه وتَفَوُّقِه على لِدَاته وأسنانه من العلويين ، ويستطيعُ بعد أن يدْرِك لها « حظاً » ويطلب لنفسه « حقًّا » هُضِم ومُنِع من دونه حتى أُلقى فى أسوأ مَجْهَلةٍ وبشرِّ منزلةٍ ، فى خَفاءٍ من النسب ، وقلّةٍ من المال ، وبُعْدٍ عن مَسَاعى المجْد . وقد وجدت / العجوزُ أرضاً صالحة بطبيعتها لما تُريد من أمريْها ، فتأدَّب الفتى بالعِلم الذى كان يتلقّاه فى كتّابِ أولاد أشراف الكوفة ، واجتهد فى ذلك ، وبرع وفَاق أصحابه ، وأخذته جدَّته بأخلاقٍ صالحةٍ طيّبةٍ ، وحاسبتْه وحَرَصتْ على استطلاع خبره كلّه ، وألقت فى قلبه وفكره وخيالِه طَلَبَ المجد بالعلم ، ثم زيَّنت له الفُتُوَّةَ وعُلُوَّ النفس وبُعْدَ الهمّة وعِظَم المطلب ، وأدَّبته بالصدق والأمانة وكتمانِ السِرّ ، وعلَّمته من حِيلتها ودهائها وحذَرها ، سَعَةَ الحيلة ، وخَفاءَ الدَّهاء ، وتقديمَ الحَذَر . وبعد أن أدرك الفتى من الفِكْر ما يسَّر لها ما تريد أن تبوح له به ، طَفِقت تُدِير له السّر من هنا ومن هنا ، وتأخذ نفسها بالحذر والتكتم ، والاحتراس من ثورة الفتى إذا هى فجِئَتْه بما تريد ، حتى بلغتْ ما أرادت .

٥٧

---

(١) أعود فأكرر أن الأمر قد تجاوز هذا القول ، بظهور الخبر الذى رواه ابن العديم عن الربعى : أن المتنبى قد أرضعته امرأة علوية من آل عبيد الله ، فكان أخاهم من الرضاعة ، على الأقل ! انظر (ص : ١٥٣ ، تعليق : ١) .

وهذه المعانى كلّها دَائرة فى حياة المتنبى وشعره دَوَران الدَّم فى عروقه ، فإذا أنت قرأت ديوانه من أوله إلى آخره ، فلن يفوتَك أن تراها جميعاً ، أو ترى بعضها ، ماثلاً غيرَ خفيٍّ فى كلّ موضعٍ من شعره .

ويؤيِّدُ قولَنا هذا : أنّ الغلام ، وهو صغيرٌ بالمكتب ، كانت له وَفْرَةٌ من الشَّعَر تسيل على أذنيه ، وكانت حسنةً جميلةً فقال له بعضُ أصحابه من الفتيان (العلويين) : يا أحمد ، « ما أحسنَ هذه الوَفْرَةَ » ؟ فكان جوابُه أعجبَ جوابٍ من صبيّ فى مكتب :

لا تَحْسُنُ الوَفْـرَة حَتَّـى تُرَى مَنْشُورَةَ الضَّفْرَيـن يَوْمَ القِتَـالْ

عَلَى فَتـىً مُعْتَقِـلٍ صَعْـدةً يَعُلُّهـا مِنْ كلِّ وَافِـى السِّبَالْ[١]

/ فَظُنّ ما شئت بغلامٍ فى مثل سنّه لا يزال فى أوَّلِ طَلَبه للعلم يقول مثل هذا القول . ويحسُن أن نطيل القول قليلاً فى هذين البيتين ، ففيهما أصول كثيرة من حياة الرجل ونفسيته فيما بعد . ٥٨

فالأصل الأوّل : هو هذا الالتفات الشِعْرىُّ الجميلُ من المعنى المحدود بغرضِ قائلِه ، إلى المعنى المترامى بخيال سامعِه ، فإن أصحابه كانوا يُعجِّبونه من حسن وَفْرتِه واسترسالِها ولينها ، فتجاوز صاحبُنا هذا بخيالِه من الصُّورة الحاضرة إلى الصورة التى يريد أن يراها ، شَعْثاءَ غَبْرَاءَ يومَ يَنْشُر مضْفُورَها يوم القتال بين الغبار الثائر والدم المهراق . وهذا إثباتٌ للأصل الشعرى القائم فى نفسه .

والأصل الثانى : هو الرجولة والفتوَّة ، وبُعد الهمَّةِ ، وعِظَم المطلب ، وانصرافُه عن سَفْساف الأمور إلى معاليها ، لا يعبأُ بلَذَّةٍ لا تُجْدِى خيراً ، ولا تؤتى ثَمَراً ، وإنما يَجد لَذَّته فيما يأتيه بما يريد ، ولو كان فيه شقاؤه وجهده . وقد شرح صاحبنا هذا المعنى النفسىّ فى شعره بعدُ فقال :

---

(١) « الضفر » ، الخصلة المضفورة من الشعر كالغديرة . وقوله : « معتقل صعدة » أى حامل رمحه إلى الحرب . « ويعلها » ، يسقيها من الدم مرة بعد مرة . و « الوافى السبال » ، هو الطويل اللحية .

سُبْحَانَ خالِقِ نَفْسى ، كَيْف لذَّتُها فيمَـا النُّفُـوسُ تَراه غَايـةَ الأَلَمِ
الدَّهْرُ يَعْجَبُ من حَمْلى نَوَائِبَهُ وصَبْرِ نَفْسى على أَحْداثِهِ الحُطُمِ

وهذا أصل رُجُولته وفتوَّتِه النفسية التى ظهرت واستعلنتْ فى كل شعره حتى صار بها فذًّا أوْحَدَ .

والأصل الثالث : هو الثورة الدائمة ، فأنت تراه من صِغَره هكذا ، لا يريد إلا القتالَ والدّم .

٥٩ / والأصل الرابع : أن هذين البيتين من صغير كقائلهما ، يُضْمِران وراءَهما معنًى آخرَ غير هذه المعانى ، وهو أنه مُنَشَّأٌ على طلب الثأر من عدُوّ ، فهو لا يزال ينقلُ الصورة من وضع إلى وضع آخر يُرْضى ما يدور فى نفسه من المعانى المحدّدة بطفولته ، وما غُذِيَتْ به من الآراء والأخلاق . وإن شئتَ فتدبَّرْ السرَّ العجيب فى قوله « يَعُلُّها » ، أى يسقيها الدم مرّة بعد مرّة ، لا يكتفى بواحدةٍ . وتعجّب من قوة الأصل الشعرىّ فى هذا الغلام ، ومن طغيان الحقْدِ والثأر على قلبه الصغير .

والأصل الخامس : هو بيانُه الخفىُّ عن عدوِّه الذى يريدُ أن يحاربَهُ ، وقد صرّح بذلك فى قوله « كُلِّ وافى السِّبَالِ » ، فانظر من أرَاد هذا الصغير بهذه الصيغة ؟ أتُراه عَنَى كلَّ كبير السن ذى لحية طويلة ؟ أترى ذلك !! كَلاّ ، فالبيِّن البيِّنُ أنه أراد قوماً بأعيانهم كَنَى عنهم بهذه الصيغة ؟ ومن هؤلاءِ الذين يريدُهم بهذه الصفة ؟ أليس المعقول أن هذا الصغير إنّما يتجه خياله إلى أقرب الناس إليه فى بلده ، ثم إلى الذين أوْحَتْ إليه جَدَّته بأنَّ بينها وبينهم سَخِيمةً من العداوة ؟ ومن يكون هؤلاءِ من أهل بلده إلاّ مَشْيَخة العلويين الذين أنزلوا الهوان به وبجدته ، [١] فيما ذهبنا إليه من الرأى فيما مضى .

والأصل السادس : أن هذه الثورة التى تلبَّستْ به وأخذتْ عليه مذاهبَه فى حياته ، إنما هى من أَثَرِ جَدَّته ، إذْ باحتْ له بسرِّها ، وأَلقَتْ إليه بمكنون / صدرها . ٦٠

(١) وهذان البيتان من الأدلة على ما ذهبنا إليه فى قضيته مع العلويين فى الذى مر بك ، ولم نذكرهما هناك لتفادى الإطالة .

وذلك لأنّ الفتى الصغير لا يكادُ يُدْرِكُ هذه المعانيَ كلَّها ويُسيغها حتى تظهر هكذا مُسَهَّلةً على لسانه ، إلاَّ أن يكون قد أُخِذَ بها ، وهُيِّئَ لها ، وأُعْطِيَ من نَفْسِ غَيْرِهِ قوةً تخرجُه من طبيعة الطفولة ، إلى عادةِ الرُّجولة والفُتُوَّة .

ولولا أن صاحبنا أبا الطيب قد « أسقط من شعره الكثير ، وبقى ما تداوله الناس » ، [١] كما حدثنا بذلك أبو القاسم الأصفهانى ، عن أبى الفتح بن جنى ، لوجدنا فيما أسقطه كثيراً من أمثال هذا القول الذى يدلُّ على نفسيّة الصبى التى كبرت معه ، وكانت هى (المتنبِّى) الشاعرَ الفردَ الذى لا يكادُ يَخْفَى شعرُه على أقل النَّاس بَصَراً بالشعر .

* * *

وأبياتٌ أخرى قالها وهو بالمكتب أيضاً :

إلى أيِّ حينٍ أنت فى زِيِّ مُحْرِمٍ ... وَحَتَّى مَتَى فى شِقْوَةٍ ؟ وإلى كَمِ !![٢]

وإلاَّ تَمُتْ تحتَ السيُّوف مُكرَّماً ... تَمُتْ وتُقَاسِ الذُّلَّ غَيْرَ مُكَرَّمِ

فَثِبْ وَاثِقاً بِاللهِ وَثْبةَ ماجِدٍ ... يَرَى الموتَ فى الهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فى الفَمِ

وهى وإن كانت مما قال فى صغره ، إلاّ أنها أَمثل من الأبيات الأولى / فى الدلالة على المعانى التى ذكرناها ، والأصول الستّة التى استنبطناها . فتدبرها على ما قدَّمنا لك ، تجد الشاعر الكبير فى الشاعر الصّغير ، إلاّ فى موضعٍ واحدٍ قلَّ فى شعره بعدَ الكِبَر ، وذلك هو تقديم الثِّقة بالله ، على الثقة بسيفه ونفسه ، وهذا الموضع ولا شك من أَثَر جَدتِّه التى كانت « من صلحاء النساء الكوفيات » . وهو يؤيد رأينا فى أن العجُوز كانت

٦١

(١) هذا القول يغلب على شعر صباه ولا شك ، ولا شكَّ أيضاً أن بعض شعره فى فتوته وكهولته قد سقط ، أو أسقط ، ولكنه قليل جداً لا يكاد ينفع شيئاً .

(٢) « زى محرم » كناية عن فقره ، لقلة ثيابه التى تستره . والمحرم من الحاج لا يلبس إلا إزارين غير مخيطين .

تمنَحُه نَفسَها ، وتَمْحَضه نُصْحَها ، وتربِّيه على ما أرادت ، لم تَكْتَفِ أن تَرْكَنَ فى تأديبه وتثقيفه إلى المكتب ، أو إلى الزمن وأَحْداثه ، وهو المعلِّم الأكبر والأُسْتاذُ البارع .

هذا وما نشكُّ فى أن الفَتى كان وهو بالمكتب أَكثرَ أصحابه تحصيلاً للعلم وإقبالاً عليه ، وانصرافاً إليه ، وذلك لما ذكرُوا من قُوَّةِ ذاكرته التى كادت تكون إحْدَى الخوارق = ثم لِمَا أخذته به جدَّته من الأدب والرأى ، وما زيَّنت له من طلب المجد ، ثم ما تهيَّأَ فى نفس الصغير من أصل طبيعته التى تسرع به إلى السموّ ، ولهذا كان الفتى محسَّداً بين أترابه ، منظوراً إليه بعين . فالحَسَدُ الصَّغير الذى مُنِىَ به وهو فى المكتب ، وما يَمُوج فى صدره من حِقْدٍ وثورةٍ وبُغْضٍ لمن أريد لَهُ أنْ يَشْنَأَهم ويبْغِضَهم = كل ذلك كان هو الأصلَ فيما تعجَّب منه المتعجِّبون من كثرة ذكر هذا الشاعر للحَسَد والحُسَّاد والوشاية والوُشَاة ، وما إلى ذلك مما يُلِمُّ به . وقد ألَمَّ صاحبنا بهذا الذى أردناه فى قوله وهو بأنطاكية فيما بعد :

أَبْدُو فَيَسْجُدُ مَنْ بالسُّوءِ يَذْكُرُنى   فَلاَ أُعَاتِبُهُ صَفْحاً وإهْوَانَا
(وَهَكذا كُنْتُ فى أَهْلِى وَفِى وَطَنى)   إنَّ النَّفِيس غَرِيبٌ حَيْثُما كَانَا
(مُحسَّدُ الفَضْلِ مَكْذُوبٌ على أثَرِى)   أَلْقَى الكَمِىَّ ويَلْقَانِى إذَا حَانَا

٦٢ / فهو من يوم كان فى وطنه الكوفةَ إلى سنة ٣٢١ حين رحل إلى الشام ، كان يلقى العَنَتَ من الحسد والحسّاد ، وما تكذّبوا به من أباطيلهم ، وما ألقوا عليه من عيوبهم . فلما آستَمرّ مَرِيرُه وبَرَع وفاقَ الشعراء ، وأكل أرزاقهم إلى رِزْقه ، أجْلَبَ عليه الحُسَّاد والوشاة ، فدَسُّوا له وأذاقوه من بَأْسِهم ، فبقى إلى آخر عمره يذكر ذلك فى شعره ، ويتخيَّله فى صغير أمرِه وكبيره .

* * *

قلنا : إن الفتى كان أحذق أَسْنَانه وأسرعَهم إلى التحصيل ، وأحفظَهم للعلم ، وظاهرُ شعره الذى قاله فى أول أمره وصباه ، يدلُّ على أنه لم يَقْصِر دَرْسَهُ على « دروس

العلوية وحذق العربية شعراً ولغة وإعراباً » ، بل كان كما كان إلى يوم وفاته ، متتبعاً للكتب يقرَؤُها ويحقِّقها ويحفظها ، من كتب الشعر والأدبِ والدِّين والفلسفة والكلام وغيرها من علوم عصره ، وسنأتى على طرفٍ من شعره فى سياق الدَّليل على ذلك . وقد روى بعض الرواة ، هو صاحبنا الأصفهانى ، أنّ المتنبى « وقع فى صغره إلى واحدٍ يُكْنى أبا الفضل بالكُوفة ، فهوّسه وأضلَّه كما ضلَّ » ، هكذا قالوا !

ولا شكَّ أن أبا الطيب قد لقى هذا الرجل وهو بالمكتب لم يبرحه بعدُ ، والقصيدةُ الَّتى فى ديوانه ، والتى قدَّموا لها بقولهم (١) : « وقال وهو بالمكتب يمدح إنساناً ، وأرادَ أن يستكشفه عن مذهبه » ، هى فى ذكر هذا الرجل الذى ذكره الرواة ، وأولها :

/ كُفِّى ، أَراني ، وَيْلَكِ ، لَوْمَكِ ، أَلْوَمَا ... هَمٌّ أقامَ عَلى فُؤَادٍ أَنْجَمَا (٢) ٦٣

ويقول فيها ، وقد ذكر اسم الرجل :

كَصِفات أَوْحَدِنا (أبى الفَضْل) الذى ... بَهَرَتْ ، فأنطقَ وَاصِفيهِ وأَفْحَمَا

ومن قرأ القصيدةَ كُلَّها ألقاهَا كُلَّها ، فما فيها بيتٌ واحدٌ من الشعر ، ولفظها وكلامها ومعانيها غثٌّ كله ، وما ندرى ما الذى جعل أبا الطيب يحرص على إبقائها فى ديوانه ، وقد أسقط الكثير من شعر صباه ، على ما ذكر تلميذه ابن جنّى ؟ (٣) وقد أَعْجَمَ صاحبُنا القصيدةَ كلَّها ، وأتى فيها بكل ساقطةٍ من ألفاظ الفلسفة وما إليها ، وبالغ حين مدح الرجل بما ينقل الكلام من معنى المدح إلى معنى الهجاء ، حتى أخَلّ ذلك بعربيتها إخلالاً

---

(١) الأرجح أنّ مقدمات القصائد الموجودة فى نسخ ديوان أبى الطيب القديمة ، هى من لفظه هو لا من لفظ شراح الديوان . فلذلك يجب التوثُّق منها ومن لفظها ، لأنها وثيقة تاريخية وأدبيَّةٌ تحدّد مقاصد الرجل فى شعره .

(٢) ترتيب ألفاظ صدر البيت : « كُفِّى لومَك ، وَيْلَكِ [أى ويلكِ] أُرانى أَلْوَمَا » .

(٣) انتبه إلى قول المتنبى فى مقدمة القصيدة : « وأراد أن يستكشفه عن مذهبه » ، فإن هذه العبارة تنفى ثرثرةً وكلاماً غَثًّا قاله من قاله فى شأن هذه الأبيات .

بيّناً لم يقع مثله فى ساقط شعره وسفسافه . والظنّ عندنا أنّه لقى أبا الفضل هذا ، وكان يدّعى الفلسفة ، ويتبجّحُ بذكرها ، ويظنُّ بنفسه العلم بها ، ويُعَرِّضُ نفسَه لقراءة دَرْس فيها ، وكان فى ذلك أضحوكة يَعْجَبُ منها وَيَتفَكَّهُ بها ، وكانت صورته فى ذلك كلّهِ تستقصى الضّحك وتستخرجُه ، فقال له أبو الطيب هذه القصيدة تندُّراً به وعبثاً وسخريةً . ولا حاجة بنا إلى تَفْصيل ذلك بذكر الأبيات التى تدلُّ على ما أردناه ، فإن قليلاً من التدبُّر ، فيما جمع فيها أبو الطيب من السُّخف والمضحكات والمناقَضات والمبالَغات ، فيه دليلٌ كافٍ وافٍ .وبيِّنٌ إذن أن المتنبى ما أثبت هذه القصيدة فى دِيوانِه ، إلاّ لأَنّهُ كان يذكُرُ بها شخصيةً كانت تستخرج من قلبه الحزين أقصى الضحك ، وغايَةَ الاستغراب .

٦٤ / والعجب للأصفهانىِّ ، صاحب « إيضاح المشكل » ، الذى مرّ فى أول كلامنا ذكره ، أن يزعم أن معتوهاً كأبى الفضل هذا النكرة ، قد هوّس أبا الطيب وأضلّهُ كما ضلَّ ! فمن كان فى بديهة المتنبى وذكائه وتوقُّده ، لا يلعب به رجلٌ مغمورٌ غيرُ مذكورٍ كهذا الذى ذكروه . وظاهرُ أمْرِ الأصفهانى ، أو منْ قال له ذلك ، أنه وقع إليه خبرُ أبى الطيِّب وتندُّرُه بأبى الفضل ، هذا الدعىّ على الفلسفة ، فقلب الخبر من معنى الهزل إلى معنى الجدِّ ، ونسب إلى المتنبى الأخذ عنه ، والاقتداء بسُخْفِه وهَذَيانه . فلولا جاءوا بشَيْخٍ مذكورٍ من شيوخ الفلسفة ، وادَّعوْا ذلك فيما ادَّعوْا على الرجل !!

ونحن لا نَنْفى عن أبى الطيب التأثُّر بالفلسفة وغيرها مما يداخلها أو تداخِله على مذهب الأَوائل ، وكيف يكون ذلك ؟ والدنيا يومئذٍ موجٌ متلاطمٌ بالجدَل والخصام ، والعلماء يومئذٍ كثيرون ، وأصحاب المذاهب الغريبة متوافرون ، وأصحاب الجَدَل مغرمون بإقامة الشبهة وردِّها بالحجة والبرهان العقلى ، والكتب المخلَّفة كثيرة لم تذهبْ بَعْدُ ، وهى كتبٌ نشأ منها بعدُ علم الكلام الذى اختلطت به الفلسفة وصارت أصلاً من أصوله ، والمساجد لذلك العهد كانت عامرة بالصَّخَب الذى لا يُجْدِى ولا ينفع فى أصولِ الدين وعقائده ، فلسنا نشكُّ بعدُ أن هذا الفتى المتوقِّد = الذى قال عنه كثير ممن رأوه إنه كان

واسعَ العلم والمعرفة = قد اختلط وسمع وبحث ونظر وجادل ، وأخذ بأطرافٍ مما سمع وقرأ وحَفِظ ، حتى بان ذلك فى شعره الأوّل بياناً لا خفاءَ فيه ، ثمَّ قلَّ بعدَ أن استحكَمت قُوَّته وغلب عليه الأَصل الشعرى الذى آستولَى على أكثر موهبته وقدرته .

ونسوق إليك هنا طَرَفاً من ذلك فيه غنى إن شاء الله ، يقول :

/ وضَاقت الأَرْضُ حَتَّى كَانَ هارِبُهُمْ إذَا رَأَى (غَيْرَ شَىْءٍ) ظَنَّهُ رَجُلاَ ٦٥

يريد « لا شئ » فأبدل ، وهذه من ألفاظ المتكلمة ، والخيال خَيالُهم ، وقال :

يَتَرَشَّفْـنَ مِنْ فَمِـى رَشَفَـاتٍ هُنَّ فِيهِ (حَلاَوَةُ التَّوحِيدِ)

وهذا من ألفاظ المتصوفة ، وقال :

كتَمْتُ حُبَّكِ حَتَّى مِنْكِ تَكْرِمَةً ثُمَّ استوَىٰ فيهِ إسْرَارِى وإعلانى

كَأَنَّه زادَ حَتَّى فَاضَ عن جَسَدِى فَصارَ سُقْمِى به فِى (جسم كتمانى)

والبيت الثانى ، واللفظ الأخير خاصة ، دليلٌ على تأثره بالمعانى الفلسفية والصوفية ، وهذه هى التى أخرجت له هذا الخيال السخيف ، وقوله :

فَتىً أَلْفُ جُزْءٍ رأْيُه فى زَمَانِهِ أَقَلُّ جُزَىْءٍ بَعْضُه الرَّأْىُ أَجْمَعُ

فهذه قسمة حسابية !! و « الجُزْء » و « الجُزَىْءُ » من ألفاظ المتكلمين والفلاسفة ، وقلما يأتى أحدهما فى الشعر مستحسناً ، وقوله :

فَصِيحٌ مَتَى يَنْطِقْ تَجِدْ كُلَّ لَفْظَةٍ (أُصُولَ البَراعَاتِ الَّتى تَتفرَّعُ)

وهذا مدحٌ فلسفى ليس بشعر ، وانظر إلى جمعه « البراعة » وهى من الغرائب التى تلدها الفلسفة ، وقوله :

لَمَّا وَجَدْتُ دَواءَ دَائِى عِنْدَهَا هانَتْ عَلَىَّ (صِفَاتُ جَالِينُوسَا)

بَشَرٌ (تَصَوَّرَ غَايَةً) فِى آيةٍ تَنْفِى الظُّنُونَ (وتُفْسِدُ التَّقْيِيسَا)

٦٦ / فقوله : (صفات جالينوسا) ، يريد ما يصفه جالينوس للأمراض من الدواء ، وهو دليل على نظره فى كتب الطب ، ثم قوله : (تصور غاية) ، من أساليب المتفلسفة ، وقوله : « تُفْسد التقييسا » يريد « تفسد القياس » ، وهو مما يردفى كتب الكلام . ومن تتبع سائر شعره فى صباه ، وجد فيه آثاراً كثيرة تدل على ما قرأ أبو الطيب وما سمع من كتب الفقه والحديث والتفسير والجدل والمنطق والملل والنحل والتاريخ وسير الأوائل والأنبياء الماضين ، وغير ذلك مما كان من علوم أهل عصره ، وقد أحاط بكثير من ذلك واستوعبه ونظر فيه نَظَرَ المتفكِّر المتدَبِّر ، ولولا ذَلك لما وَلِعَ بذكره فى شعره ، ولَمَا دار على غير إرادة منه فيما نظن .

وقد كان فى هذا القسم من شعره يلجأ إلى الأساليب الفلسفية فى آستخراج المعانى وتوليدها ، وكان يكثر من التقسيم الفلسفى ، والتَّوجيه المنطقى وغيرِه من ألوان كلام المتفلسفة والمتكلمة والمتصوفة والمتزندقة أيضاً ، حتى فسدت معانى شعره ، فلذلك كان أكثرُ ما تجد من ساقطه ومرذوله = مما عابه عليه النقاد ، وخاصَمَه به المتعصِّبون عليه = هو من هذا القسم الذى قاله فى صباه إلى أطراف سنة ٣٢٨ على وجه التقريب لا التحقيق .[١]

* * *

وهذا العهدُ من حياة المتنبى لم تردْ عنه روايةٌ مُوَثَّقة مستفيضة ، وإنما عملُنا فيه الاستنباطُ من قليل شعره الذى قيل فى صباه ، واستخراجُ الأصول النَّفسية منه ، ثم مَسِيرُها بعدُ وتدرُّجُها معه حتى بلغت مبلغها فى كبير شعرِه الذى « ملأ الدنيا وشغل الناس » .

---

(١) تتبُّع هذا اللونِ من الألفاظ والأساليب فى شعر أبى الطيب ، محدّداً بالوقت الذى قيل فيه ، وحَصْرُه فى زمانه ، وقَصْرُه على زمن القول ، مع الانتباه إلى معرفة شيءٍ صحيح عن الرجل الذى خُوطب بهذا الشعر = كُلُّ ذلك واجبُ الناقد والأديب والكاتب ، قبل أن يقول شيئا فى شعر أبى الطيب ، فإن لم يفعل ، وكتب بلا حذر ، فالذى فعل هو الثرثرة لا غير .

/ عندنَا أنّ المتنبى بقى فى المكتب إلى سنة ٣١٧ تقريباً ، وكانت سنُّه أربعة عشر ، ولكنه كان بتوقُّده وذكائه فى درجة مَنْ أناف على العشرين ، وقد ذكر التنوخىّ أنه قال الشعر صبيًّا ، وذكر غيرُه أنه كان آيةً فى الذكاء والفطنة ، وقال غيرهما إنه من دُهاة عَصْره ، أى كان كذلك فيما بَعْدُ . وكان مما وَرِثه عن جدته ، هذا الإحساسُ المُرْهَفُ الدقيقُ الذى يهتزُّ فى قوته وكبريائِه ، لا فى ضعفه وذُلّه . واجتماع الذكاء والحسِّ المُرهَف هما آلةُ كُلِّ شاعرٍ ، وقد ظَفِر المتنبى من كليهما بنصيب الأسد الهصور ، ولذلك كان شعْرُهُ أرْوَعَ شعر فى العربية وكثير غيرها ، وكان مُحَبَّباً إلى أهلِ عصره متداولاً سائراً بينهم ، لأنه كان يأخذ بنفسه المُرهفةِ من شعور الناس وآلامهم وأحداثهم ، ويبنى بما يأخذ بُيوتَ شعره ، وروائع بلاغاته . ٦٧

وهَبَ الله هذا الذكىَّ المرهف الحسّ جَدَّةً حازمةً كانت ، فيما ذهبنا إليه ، تُوقِد فى قلبه نيرانَ الثورة ، وتُوَرِّثها بالحقد على قوم بأعيانهم ، وتدرِّبه على كرائم الخُلُق كالصدق والأمانة والوفاء وحبِّ المجدِ ، والتطلّع إلى العَلياءِ ، والجرأةِ المُسْتَنْفَرةِ التى لا تتهيَّبُ ، يَحُدُّ منها الحذرُ الذى لا يتهاونُ ، والدَّهاءُ الذى لا يتورَّطُ فى موارد التَّلَف . وشرع الفتى يطلبُ العلم ويستزيد منه ، ويشتدّ فى الطَّلَب مُصَمِّماً معتزماً أمراً فى نفسه أن يبلغَهُ أو يَهْلِكَ دونَه . ثم انفتحت لعينيه الدنيا برذائلها وفضائلها وحكمتها وتُرّهاتها ، وجِدِّها وهزلها ، فاضطربت نفسه وطفقت تتلمَّسُ الأشياءَ هنا وثَمَّ ، لتستقرّ على ما ترضى به وتأنَسُ إليه .

وكانت الكوفة ، التى نشأ بها وشبّ وترعرع وتَفَتَّى ، لذلك العهد ، / بلداً من بلاد الإسلام ، قد رَمَتْها القرامطة بجيوشها مرَّاتٍ وفعلت بأهلها الأفاعيل ، وكانت الدولة العربية فى شُغُلٍ عن الكوفة بانقسامها شِيَعاً يأكل بعضهم بعضاً ، وظهرت شوكةُ الأعاجم ، وكانوا أصحاب حيلة ودهاءٍ ، فأوقعوا بين المسلمين وبين عرب البادية ، حتى صارت الدولة العربية المترامية الأطراف فى ثورةٍ دائمة لا تفتر ، ولا تنقطع الحروب فى ناحية إلاّ اتَّقدت نيرانُها فى أخرى . وانقسمت دويلاتٍ ، ولم يبق للخليفة إلاّ الاسْمُ الكريمُ يحمله مُرْغَماً ويضَعُهُ مُرْغَمَاً لا إرادة له . ولا شكَّ أن إحساس أبى الطيب قد ألمّ ٦٨

بذلك كلّه وفصَّلَه ونَقَده ، وعرف الداءَ الذى كمن فى بدن العربيّة واستلَّ قُوّتها وقتَل روحها ، فٱزْدَادَ إلى ثورته ثورةً وإلى حقده حِقْداً .

وكانت أخلاق الأمة قد اتّضعتْ وفَشِلت بما تداخلها من أخلاط الأمم الذين لا أصل لهم يرجعون إليه ، ولا خُلُقَ عندهم يَسْتَذِمُّون به ، وفسدت العامة من أهل المُدُن فساداً كبيراً ، وٱضطربت فى أيدى الناسِ حِبالُ الأخلاق ، وصارُوا لا يقيسون الناس إلاّ بمقياس الظّاهر ، ولا يَزِنُونهم إلاّ بميزان المال . فبطلت موازينُ الرجال التى يوزنون بها من العقل والحكمة والعلم والرُّجُولة وكرم العنصر . (١) فكان نظر الفتى إلى هذا ، مما ألقى الحطب على النار التى فى صدره ، فبُغِّضت إليه سَفْسَافُ الأخلاق وتعلّق بمعاليها ، وزُيِّن فى قلبه أن يكون هو الثائرَ الذى يردُّ هؤلاءِ الأَهْمالَ والهمجَ إلى مردٍّ ، ويأوى بهم إلى مأوًى ، ويقوم عليهم قيام الراعى حتى يخلصُوا من الشرِّ ، ويستمسكوا بالعروة الوثقى ، ويفيئوا إلى الخلق الكريم الذى لا يبخس الناس حَقَّهم ، ولا يظلمهم ، ولا يُدَنِّيهم ، بل يعدل بينهم بالقسط ويرفعهم عن الدنيَّة ، ويجعلهم قوة مستحكمة تردُّ عدوان العادى وبغى الباغى ، ليصلوا بذلك إلى المجد والسلطان .

٦٩ / اصطدم هذا الخيال الذى أَرَاد أن يحققه بحقيقة ما هو فيه من الفقر والخفاء ، والبعد عن مساعى المجد ، وامتناع نفسه عن إعطاء الطاعة للأخلاق التى كان يصلُ بها أهلُ ذلك العصر إلى ما يريدون من المكر السيىء والدسيس وما إليهما من حيل الخبيثين . وقد روى الرواة أن أبا الطيب قال :

« أذكرُ وقد وردت فى صِباى من الكوفة إلى بغداد ، (٢) فأخذت بجانب منديلى

---

(١) لا تحمل ، أيها القارىء ، كلامى هذا على التعميم المطلق ، فإن ذلك لا يصحُّ البتة ، ولكن أهل زماننا من الكتاب والقراء حين يسمعون مثل هذا ، مما قيل قديماً أو حديثاً ، يحملونه على التعميم المطلق ، ويلذُّ لهم أن يصفوا أسلافهم بكل قبيحة من القبائح ، بغياً وعدواناً على الحق وعلى التاريخ .

(٢) انظر دخول المتنبى بغداد فيما سلف [ص : ٦٥] ، وما سيأتى ، انظر الفهرست .

خمسة دراهم ، وخرجت أَمْشِى فى أسواق بغداد ، فمررت بصاحب دُكّان يَبيع الفاكهةَ ، فاستحسنتها ، ونويْتُ أن أشترِيَها بالدراهم الَّتى معى ، فتقدمت إليه وقلت :

– بكم تبيع هذه الخمسةبَطاطيخ ؟

فقال بغير اكتراث : آذهب فليس هذا من أكلك ، ..

فتماسكت معه وقلت :

يا هذا ، دع ما يَغيظ ، واقصدِ الثمن .

فقال : ثمنها عشرة دراهم .

فلِشدَّة ما جَبَهَنِى به ، ما استطعت أن أخاطبه فى المساومة ، فوقفت حائراً ، ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل ... وإذا بشيخ من التجار قد خرج من الخان ذاهباً إلى داره ، فوثب إليه صاحب البطيخ من الدكان ، ودعا له وقال :

– يا مولاى ! هذا بطيخ باكُور ، بإجازتك أحمله إلى البيت ؟

فقال الشيخ : ويحك ! بكم هذا ؟

/ قال : بخمسة دراهم .. ٧٠

قال : بل بدرهمين ...

فباعه الخمسة بدرهمين وحملها إلى داره ، وعاد إلى دكانه مسروراً بما فعل .

فقلت له : يا هذا ! ما رأيتُ أعجب من جهلك ؟ آستَمْتَ علىَّ فى هذا البطيخ ، وفعلت فعلتَك التى فعلت ، وكنتُ قد أعطيتك فى ثمنه خمسة دراهم ، فبعته بدرهمين محمولاً !!

فقال : اسكت ، هذا يملك مئة ألف دينار !

قال المتنبى : فعلمت أن الناس لا يُكْرِمون أحداً إكرامَهُمْ مَن يعتقدون أنَّه يملك

مئة ألف دينار ، وأنا لا أزال على ما تراه حتى أسمع الناس يقولون : إن أبا الطيب قد ملك مئة ألف دينارٍ » .

فبهذا وأمثالِه من أعمال الحياة لذلك العهدِ اصطدم قلبُ الفتى ، فاستقرَّ على أن يجد لما يريده مخرجاً ، غير العلم والعقل والنصيحة والأخذ باللين والملاطفة ، وازداد بذلك للناس احتقاراً ، ولأعمالهم بُغْضاً ، وحَقَرَ العظماءَ الذين لا يَعْظُمون فى أعين الناس إلاّ بالمال ، وجعل يديرُ الرأى حتى خلَصَ إلى العَزْم : أن يطلُبَ المال ، لا ليجمعه ويفرَحَ به ، ولكن لينال به ما يريدُ مما ينطوى عليه قلبه من حقدٍ على قومٍ ، وما يدور فيه من معانى الإصلاح ، وما يبغى من إيقاظ الهمّة العربيّة للاستيلاء على السلطان المضيّع ، والمجد المفقود .

* * *

٧١ / ومع هذا ... ، كان الذكاءُ ، والثورةُ ، والنَّظرُ ، والتجربةُ والاختلاطُ بالناس واختبار أخلاقهم ، وتعجُّبُه من فساد أقيستهم وبطلانِ مذاهبهم ، ثم اعتماده فى نفسه على الثقة بها ، واعتداده بمقدرته ، واستسقاطه لمن يحيط به من رجال الدولة الذين لم يصلوا إلى الحكم أو السلطان أو القضاءِ إلاّ بالسُّوء والقبيح ، ثم طبيعتُه الشَّاعرةُ المرهفة التى (تلتقط صُوَر) الأشياء ثم تنتزع منها الأخيلة الشعرية ، والحِكم البليغة ... كلُّ ذلك أَسرعَ بالفتى إلى ضرب من القول السَّاخِر الذى لم ترَ العربيّة مثْلَه فى شعر شاعرٍ ، إلاّ أن سخريته التى انفرد بها لم تكن بَعْدُ فى كبرِه إلاّ ضرباً من الحكمة والعبرة التى لا يفطن إليها إلاّ أفذاذُ العقول ، ثم يَدُلُّون عليها بالإيجاز العجيب ، فلا يبالغون فى تصويرها ، بل يضعون لها اللَّفظ الذى يُخْرِجها مُخْرَجَ الحكمة ، ويزيدها روعةً فى السَّحْر ، وسنتعرَّض لتفصيل ذلك بَعدُ . وقد حفظ لنا المتنبى ضرباً من سخريته فى صغره تدلُّ على ما استحكم فى شعره بعدُ ، وصار فى شاعريته طبيعةً متأصّلة مستحكمة .

مرَّ المتنبى برجُلَين قد قَتَلا جُرَذاً ، وأبرزاهُ يعجِّبان الناس من كِبَره ، فقال :

لَقَدْ أصْبحَ الجُرَذُ المُسْتَغِيرُ أَسيرَ المنايَا صَرِيعَ العَطَبْ
رَماهُ الكِنانِىُّ والعامرىُّ ، وتَلاَّهُ للوَجْهِ فِعْلَ العَرَبْ
كِلا الرَّجُلَيْن آتَّلَى قَتْلَهُ ، ... فأَيُّكما غَلَّ حُرَّ السَّلَبْ
وَأَيُّكما كان من خَلْفِه ؟ فإنَّ به عَضَّةً فى الذّنَبْ

قتل الرَّجلان ، الكنانىُّ والعامرىُّ ، هذا الفأر الكبير ، فأخرجاه ليعجِّبا الناس من كبره ، وهذا سُخْفٌ منْهُمَا ، إذ شغلا نفسيهما بعبَثٍ لا معنى لمثله / عند المتنبى الذى ٧٢ يريد فى نفسه قتل الملوك ، فمن هنا قال : « الجُرَذُ المُسْتَغِير » ، الذى قد أغار عليهما كما تغير الجيوش . ثم لما فرغ من جعله كذلك ، ذكر أن هذا الفأر قد وقع فى (أسْر المنايا) كما يقع العدو فى الأسر ، حين رماه الكنانىُّ والعامرىُّ بالسهم كما يُرْمى العَدُوّ ، وبذلك يسخر من رجلين يجمعان قلبيهما على قتل ، ثم لا يكون المقتول إلاّ فأراً !! ثم لا يكتفى صاحبنا بهذا ، بل يقول إنهما أخذا يصارعانه كما يصارع العربى خصمه مستعيناً عليه بالقوة حتى يَكُبَّه على وجهه مقتولاً ، وذلك قوله : « تلاَّه للوجه فعل العرب » ، ثم يقول بعدُ : كِلاَكُما تولَّى قتله ، وذلك لِكِبَر الفأر وشدته ، ولكن مَنْ منكما الذى سَرَق حُرَّ ثيابه وجَيِّدَ سلاحه ، كما يسرق السارق فى الحرب من أسلاب القتلى ويخفيها عن أصحابه من المقاتلة ؟ ثم يعود فيقول : إنكما كنتما تصارعانه بعد أن رميْتُماه بسهميكما ، وكان أحدكما من خلفه ، فمن منكما الذى كان من ورائه ليحتال على صرعه ؟ وقد عرفت حيلته فى صَرْع هذا الفأر العظيم ، فإنه عَضَّهُ فى ذنبه ، وهذه العَضَّةُ بيِّنةٌ ثَمَّ !

وأنت إذا عُدْت فقرأت الأبيات على ما تكلّفنا شرحه ، رأيت بلاغةَ الرَّجل فى السخرية ودِقَّته فى اختيار اللفظ وإيجاز الصورة التى يريد أن يتفكَّه لك بها . وهذا الضرب من الكلام من أكثر ضروب الكلام دَوَراناً فى شعر المتنبى ، حتى بلغ من دِقَّته فى وضعه ، ونُفوذِه فى معرفته وإتقانه ، أنه كان يقول القولَ فى المدح وهو أبلغُ الهجاء ، كما فعل بكثير من ممدوحيه ، حاشا سيف الدولة ، وفِى أوَّلهم كافورٌ الأَسْودُ الخَصِىُّ .

وكانت هذه السخرية هى المنفذَ لآلام أبى الطيب ، وما يضيق به صدره من الأحقاد والآراء ، ولعله كان فى أصل طبيعته قريبَ المَيْل إلى المَرَح / والطَّرَب فى وَقارٍ ، ولولا ما كلّف نَفْسه من المشَقَّة للسيادة والمجد ، لكان من أبرع الناس نكتةً بليغة وأكثرهم نادرةً عالية . يدلُّك على هذا أنّ أبا الطيب كان قد نادم فى حياته كثيراً من الأُمَراءِ ، وكانُوا يحبُّونه ، ولا يصلح للمنادمة رجل متزمِّتٌ باردُ الطبع ثقيلُ الظل ، طويلُ الصمتِ جَهْمُ الوجه ، مُقطِّبٌ . ومما قاله « مُعَاذ اللاذقى » لأبى الطيب سنة ٣٢١ : « والله إنك لشابٌّ خطير ، تصلح لمنادمة ملكٍ كبير » ، ومعنى هذا أن أبا الطيب كان ظريفاً خفيف الرُّوحِ ، محبَّبًا إلى النّفس ، مع وقارٍ وتُؤَدة . ومن تدبَّر سخريته فى شعره كُلِّه ، وجد فيه هذا المعنى ، إلا أنه لم يكن يَهْزِلُ هَزْلَ السخفاء .

٧٣

* * *

كان هذا الفتى يمشى فى نواحى الكوفة بآلامه وأحقاده وفقره ، ويتنقل فى حوانيت الورَّاقين يقرأُ ما يقع بين يديه من الكتب ، ويختلف إلى مجالس الأئمة يستمع العربية والفقه والجدل ، وينظر متعجباً إلى الحوادث التى تقع بين ظَهْرَانَىْ قومه ، ويَتسمَّع لما تَرِدُ به الأَنباءُ من أخبار الدولة المترامية الأطراف ، يُضحكه ما يقع من الأَحداث العجيبة التى ترفعُ وتَضَعُ ما بين عشية وضحاها ، ويكون فيما يرتفع إلى الذروة أقوامٌ ، من العجب أن يصلوا إلى كسب الرزق ، ثم هم يرتفعون فيما يرتفع بهم إلى إمرة الأُمراء ، ومَشْيخَة الكتابة ، وسياسة الدولة ، والقضاء بين الناس . فلا عجب بعدُ أن يكونَ هذا الفتى الثائر الذى يشهد آثارَ الأحداث فى أمته ، كثيرَ العَجَبِ مِمَّا يرى وما يسمع ، قليلَ الحَفْلِ بهذه الأَصنام التى ترفَعُها الحوادث وتَضَعُها ، عَظيمَ العُجْبِ بنفسه وما أُوتى من فطنةٍ وذكاءٍ وعلم ولسان قَوَّال ، لم ينل بها إلاّ الفقر والمَسْكَنة والحِرْمان :

٧٤

/ لُمِ اللَّيالِى الَّتى أَخْنَتْ على جِدَتى ... بِرِقَّةِ الحَالِ ، وَٱعْذِرْنِى وَلاَ تَلُمِ

أَرَىَ أُناساً ، ومَحصُولى على غَنَمٍ ، ... وذِكْرَ جُودٍ ، ومحصولى على الكَلِمِ

وقد بقى فى الكوفة على ذلك – فيما نرى – إلى أطراف سنة ٣١٧ ثم خرج إلى البادية القريبة ، بادية الجزيرة المفضية إلى نَجْدٍ ، وفيها قبائل من كَلْبٍ ، فالتقى بهم وأخذ يتنقل بينهم ، ليسْمع ما بقى من العربية المبَرَّأة على ألسنة هؤلاءِ القوم الذين قلَّت بينهم الأَعاجم ، ولم يظفر هناك بطائل إلاّ ما مَرَن عليه من مشقَّة السَّفر ، واكتسابِ الصديق ، واختبارِ الخُلُق . ثم عاد إلى جدَّته بالكوفة يشاركها آلامها وشقاءَها ، يَنَال من فضل بعض أصحابه متعففاً ، كمحمد بن عبيد الله العلوى المشطَّب الذى مرَّ آنفاً ، [١٥١– ١٥٣ ، ١٦٨] . ولعلَّ العلويين الذين نكبوا جدَّته كانوا يُفْضِلون عليها ليتَّقوا بذلك شَرَّ أحداثِها لو حَدَّثتها نفسها بشيءٍ . وبقى المُتنبى هناك بالكوفة منقطعاً عن مدح أحدٍ من العلويين أو غيرهم من رجال الكوفة وعظمائها ، وقد جاءَ فى حديث المتنبى الذى ذكرناه آنفاً أنه انحدر مَرّة من الكوفة إلى بغداد ، وما نشك أن مخرجه هذا إلى بغداد كان فيما بين سنة ٣١٩ إلى أوائل سنة ٣٢٠ . (١) ودخل صاحبنا بغداد يرى العجبَ العاجبَ من الأحداث التى كانت تقع بها ، وشَغَبِ الجند على الخلفاء ، وظهورِ الموالى من العجم والديلم والترك على مواليهم من الأمراء والخُلفَاء ، وقَضَائِهِم فى شؤون الدولة ، وتصريفهم سياسةَ الأُمة على الشهوات المتنازعة والأهواء المتصارعة ، لا يرتدعون ولا يَرْعَوُون . فعفَّ كذلك عن مدح أحد من هؤلاءِ الأمراءِ والخلفاءِ ، وأَنِفَ أن يتكَسَّب بشعره من هؤلاءِ المحقَّرين لديه ، ورَضِى بالفقر واستمسك به ، وبدأت تندفع الدوافع فى صدره المملوء أحقاداً مؤرَّثة ، وتِراتٍ لَم تَرْوَ بعدُ من الدم ، فَعَجَّ صدرُه / بالنار المضطرمة التى لا تهدأ ، ٧٥ تُؤَرِّثها أفكاره ونظراته التى لا تَفْتُرُ ولا تكِلُّ . ففى سنة ٣٢٠ اعتزم الخروج من الكوفة ، وإن أبت جَدَّته عليه ذلك ، لما كانت تخشى من تَدَفُّعه إلى موارد التَّلَف بما يحمل فى صدره ، وعَقَدَ قَلْبه على إحداث حَدَثٍ لعلّه أن يصيبَ من ورائه ما يبتغى وما يؤمِّل ، ويُدْركَ به فى قوم ثأراً ، ويَشْفِىَ به صَدْرَ جدَّته وصَدْرَه . ولعلّ هذه الأبيات التى نرويها لك كانت آخِرَ ما قاله بالكوفة مما وصل إلينا وما لم يصل من شعره ، ولَعله عنى بالخطاب فيها جَدَّته ، قال :

---

(١) انظر ما سلف : ١٩٢ ، تعليق : ٢ .

مُحِبِّى قِيَامِى ، مَا لِذَٰلِكُمُ النَّصْلِ بَرِيئاً من الجَرْحَى ، سَلِيماً من القَتْلِ
أُرَى مِنْ فِرِنْدِى قطعةً من فِرِنْده وَجَوْدَةُ ضَرْبِ الهَامِ فى جَوْدَةِ الصَّقْلِ
وخُضْرَةُ ثَوْبِ العَيْشِ فى الخُضْرَةِ التى أَرَتْكَ ٱحْمِرارَ المَوْتِ فى مَدْرَجِ النَّمْلِ
أَمِطْ عَنْك تَشْبِيهِى بِمَا وَكَأَنَّهُ (فَمَا أَحَدٌ فَوْقِى ولا أَحَدٌ مِثْلِى)
وذَرْنِى وإِيَّاهُ وطِرْفِى وذَابِلِى ، نَكُنْ وَاحداً يَلْقَى الوَرَى وَٱنْظُرَنْ فِعْلى

وقوله : « محبى قيامى » ، يعنى ثورته وظهوره وخروجه ، وما نظن أحداً كان يحبُّ ذلك منه غير جَدَّته ، مع خوفها عليه وخشيتها أن يصيبَه مكروه ممن يتربّص من العلويين ، فيما ذهبنا إليه . وفى الأبيات أَثَرٌ بيِّنٌ من ثورة الصبا وغروره ، ولكنها تدلُّ دِلالةً بَيِّنة على عزيمة هذا الفتى الأبِيِّ الذى يريد أن يدركَ ثأراً ، ويُحْدِثَ أمراً .

ولم يمض إلاّ قليلٌ بعدَ ذلك حتى خرج الفتى من الكوفة واتَّخذ طريقَهُ ، على ما وقعَ عندنا من الرأى ، من الكوفة إلى بغداد ، ثم خرج لوقته متخذاً / طريقَهُ فى ديار رَبِيعة بين النهرين إلى نَصِيبين ورأسِ عَيْنٍ وحَرَّانَ وَمَنْبِج ، وطفِق يتنقَّل بين القبائل فى جوف البوادى حتى انقضى به المسيرُ إلى الشام فى سنة ٣٢١ ، فنزل بدمشق وأعمالها وما يُدَانيها ، (أعنى بعلبك ، وطرابلس وحِمْصَ) ، ثم كَرِهِ الأرضَ التى نَزَلها ، ثم صعَّد سَنَتَهُ إلى مَنْبِج وحلب واللاَّذقية وأنطاكية ، ومدح بها مَنْ مدح ، ثم اعْتُقِل بحمص ، لما قَالوا به من ادِّعائه العلويَّةَ ، ثم النبوةَ ، ثم العلويَّةَ ، ثم استُتِيبَ وأُشهِد عليه بالكذب فيما ادَّعَى ، ثم تَابَ وأُطلِق . هذا موجز رحلته الأُولى بالشأم ، وتفصيلها غير ميسَّرٍ بعدُ لغموضها ونقصها . ولهذه الرحلة عندنا تفسير آخر سنعرضه بعدُ . ٧٦

***

– ٥ –

****

سَيَصْحَبُ النَّصْلُ مِنِّى مثلُ مَضْرِبِهِ
وَيَنْجَلِى خَبَرِى عَنْ صِمَّةِ الصِّمَمِ
لَقَدْ تَصَبَّرْتُ حَتَّى لاتَ مُصْطَبَرٍ
فَالآنَ أُقْحَمُ حَتَّى لاتَ مُقْتَحَمِ
مِيعادُ كُلِّ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ غَداً
وَمَنْ عَصَى من مُلُوكِ العُرْبِ والعَجَمِ
فَإِنْ أَجَابُوا ، فَمَا قَصْدِى بِهَا لَهُمُ ،
وَإِنْ تَوَلَّوْا ، فَمَا أَرْضَى لَهَا بِهِمِ

****

/ النُّبوَّة فى حياة المتنبى هى أبرز الحوادث التى عُرِف بها الرجل ، ثم نُبِزَ بها بَعْدُ . ٧٧
وقد اختلف النّاس فى أمرها اختلافاً كبيراً ، فعلينا هُنا أن نَذْكر لكَ أَوَّل ذِى بدءٍ رِوايةَ الرُّواة فى أمر نبوته ، تامة كما رَوَوْها ، ثم نعقبها برأينا الذى ارتضيناه ، وقَضَينا به . وقد جاءت الرواية بها عن التَّنوخى الذى مرَّ ذكره فى أوّل كلامنا عن نسب المتنبى ، وجاءَت أُخْرى عن أبى عبد الله مُعَاذ بن إسماعيل اللاَّذقى الذى قال : إنَّه لَقِىَ المتنبى باللاّذقية ، وبايَعه بالنبوَّة ، وأخذ بيعَتَهُ لأَهْله أيْضاً !! كما سترى .

* * *

١ – رَوَى التنوخىّ (عَلِىّ بن المحسّن) ، عن أبيه المحسّن التنوخىّ ، عن القاضى أبى الحسن بن أمِّ شيبان الهاشمى الكوفىّ ، قال :

/ « وقد كَانَ المتنبِّى لمَّا خرج إلى كلبٍ وأقام فيهم ادَّعى أنه عَلَوِىٌّ حسنىٌّ ، ثم ادَّعى بعد ذلك النبوَّةَ ، ثم عادَ يَدَّعى أنه علوىٌّ ، إلى أن أُشهد عليه بالشأم بالكذب فى ٧٨

الدعويين ، وحُبِس دهراً طويلاً ، وأشرف على القتل ، ثم استتيب ، وأُشْهِد عليه بالتوبة وأُطْلِق » .

٢ — وحدّث التنوخيّ أيضاً ، عن أبيهِ المحسن قال ، حدثنى أبو على بن أبى حامد قال :

« سمعت خلقاً بحلَبَ يحكون ، وأبو الطيِّب المتنبى بها إذ ذاك ، أنه تنبأ ببادية السَّمَاوةِ ونواحيها إلى أن خرج إليه لؤلؤٌ ، أميرُ حمص من قِبَل الإخشيدية ، فقاتله وأَنْفَره ، وشَرَّد مَنْ كان اجتمع إليه من كلبٍ وكلابٍ وغيرهما من قبائل العرب ، وحَبَسَه فى السِّجن حبساً طويلاً ، فٱعتَلَّ وكاد أن يَتْلَفَ ، حتى سُئل فى أمره فاستتابه ، وكَتَب عليه وثيقةً أُشْهَدَ عليه فيها ببطلان ما ادَّعاه ورجوعه إلى الإسلام ، وأنه تائب منه ولا يُعاوِدُ مثله ، وأطلَقهُ » (١) ... ...

* * *

ثم هذا حديث مُعَاذٍ اللاَّذقىّ ننقله على طوله :

٣ — « قَدِم أبو الطيب اللاَّذقية فى سنة نَيِّف وعشرين وثلاثمئة ، وهو لا عِذَار له ، وله وَفْرَةٌ إلى شَحْمَتَىْ أُذُنيه ، فأكرمته وعظَّمته لما رأيت من فصاحته وحسن سَمْتِه . فلما تمكن الأُنْس بينى وبينه وخَلَوْت معه فى المنزل اغتناماً لمشاهدته ، واقتباساً من أدبه قلت :

٧٩ / – والله إنك لشابٌّ خَطِيرٌ ، تصلحُ لمنادمة ملكٍ كبير .

– فقال : ويحك !! أتدرى ما تقول ؟ أنا نبيٌّ مرسل !

فظننتُ أنه يهزِلُ ، ثم تذكّرت أنى لم أسمع منه كلمة هَزْلٍ قطُّ منذ عرفته .

---

(١) لهذا الحديث تتمة فيها ذكر قرآن أبى الطيب وغير ذلك سنعرض له فيما بعد .

– فقلت له : ما تقول ؟

– فقال : أنا نبى مرْسَلٌ .

– فقلت : إلى مَنْ مرسلٌ ؟

– فقال : إلى هذه الأُمّة الضالة المُضِلّة .

– قلت : تفعلُ ماذا ؟

– قال : أملأُ الدنيا عَدْلاً كما مُلِئَتْ جَوْراً .

– قلت : بماذا ؟

– قال : بإدرارِ الأرزاق ، والثوابِ العاجل لمن أطاع وأتَى ، وضرب الرقاب لمن عَصَا وأَبَى .

– فقلت له : إن هذا أمرٌ عظيمٌ أخاف عليك منه ! وعَذَلْتُه على ذلك .

– فقال : بديهةً :

أَبَا عَبْدِ الإله مُعَاذُ ، إنِّى ... خَفِىٌّ عَنْكَ فِى الهَيْجَا مَقَامِى
ذَكَرْتَ جَسِيمَ مُطَّلَبِى ، وأَنِّى ... أُخَاطِرُ فيه بالمُهَجِ الجِسَامِ
أمِثْلِى تأخُذُ النَّكَبَاتُ مِنه ، ... ويجزَعُ من مُلاقاةِ الحِمَامِ ؟
وَلَوْ بَرَزَ الزمانُ إلَىَّ شَخْصاً ... لخضَّبَ شَعْرَ مَفْرِقِه حُسَامى
وَمَا بلغتْ مَشِيئَتَها اللّيالِى ... ولاَ سَارتْ وفِى يَدِها زِمَامى
إذَا امتلأَتْ عُيُون الخيلِ مِنّى ... فوَيْلٌ فى التيقُّظِ والمنَـــامِ

– فقلت : ذكرت أنّك نبى مُرْسلٌ إلى هذه الأُمة ، أَفَيُوحَى إليك ؟

– قال : نعم !

– قلت : فاَتْلُ علىَّ شيئاً مما أُوحى إليك !

– فأتانى بكلام / مَا مَرّ بِمِسْمَعَىَّ أحسنُ منه . ٨٠

– فقلت : وكم أوحى إليك من هذا ؟

– فقال : مئة عِبْرةٍ وأربعَ عشرة عِبْرة .

– قلت : وكم العبرة ؟ فأتانى بمقدار أكبر من الآى فى كتاب الله تعالى .

– قلت : فى كم مدة أُوحى إليك ؟

– قال : جُمْلةً واحدةً .

– قلت : أَسْمَعُ فى هذه العبرَات أن لك طَاعة فى السماء ، فما هى ؟

– قال : أَحبس المِدْرَار ، لقطع أرزاق العُصاة والفُجَّار .

– قلت : أتحبس فى السماء مطرَها ؟

– قال : إى والذى فطرها ! أمَا هِىَ مُعْجِزة ؟

– قلت : بلى والله .

– قال : فإن حبست المطر عن مكان تنظُر إليه ، ولا تشك فيه ، هل تؤمن بى ، وتصدِّقنى على ما أُوتيتُ من ربّى ؟

– قلت : إى والله .

– قال : سأفعل ، ولا تسألنى عن شئ بعدها ، حتى آتيك بهذه المعجزة ، ولا تُظْهِرْ شيئاً من هذا الأمر حتى يَظْهَر ، وانتظرْ ما وُعِدْتَه من غير أن تسأله .

– ثم قَال لى ، بعد أيام : أَتحبُّ أن تنظُر المعجزةَ التى جرى ذكرها ؟

– قلت : إى والله .

– فقال لى : إذا أرسلتُ إليك هَذا العبد فاركب معه إلىّ ولا تتأخر ولا تُخْرِج معك أحداً .

– قلت : نعم .

« فلما كان بعد أيامٍ تغيّمت السماء فى يوم من أيام الشتاء ، وإذا عَبْدُه قد أقبل فقال : يقول لك مولاى : آركب للموعد . فبادرتُ إلى الركوب معه ، وقلت : أين رَكِب مولاك ؟

– قال : إلى الصحراء . واشتدَّ وقع المَطَرِ فقال : بادر بنا حتى نستتر من هذا المطر مع مولاى ، فإنه ينتظرنا بأعلى تَلٍّ لا يصيبه فيه مَطَرٌ .

– قلتُ : وكيف عمل ؟

– قال : أقبل إلى السماءِ أوّل ما بدا السحاب الأسود ، وهو يتكلم بما لا أفهم ، ثم أَخذ السوط فدار به فى موضع ستنظر إليه ....

« وإذا هو على تَلٍّ بعيد عن البلد نصف فرسخ ، فأتيت إليه ، فإذا هو على التلِّ لم يصبه من ذلك المطر شيء ، وقد / خُضْتُ فى الماء إلى رُكْبة الفرس ، والمطر فى أشدّ ما يكون . ونظرتُ إلى نحو مئتى ذراعٍ فى مثلها من ذلك التل ما فيه قطرة مطر . فسلَّمتُ عليه ، فردّ علىّ السلام . فقلت : ابسط يدك ، أشهد أنّك رسول الله . فبسط يده فبايعته بَيْعَة الإقرار بنبوته ، ثم قال :

٨١

أَىَّ مَحلٍّ أَرْتقى … أَىَّ عَظيـمٍ أَتَّقـى
وكُلّ مَا خلق اللـ … ـهُ ومَا لم يَخْلُقِ
مُحْتَقَرٌ فِى هِمَّتى … كَشعْرَةٍ فِى مَفْرِقِى

« وأخذتُ بيعتَهُ لأَهلى ، ثم صحَّ بعد ذلك أن البيعة عَمَّتْ كلّ مدينة بالشامِ ، وذلك بأصغر حيلةٍ تعلّمها من بعض العرب ، وهى « صَدْحَةُ المطر » يصرفه بها عن أىِّ مكانٍ أحبّ ، بعد أن يَحْوِىَ بعصاً ويَنْفُثَ فى الصَّدْحةِ التى لهم .

« قال أبو عبد الله : وقد رأَيت كثيراً منهم بالسَّكُون وحَضْرَموت والسَّكاسك من اليمن يفعلون هذا ولا يتعاظمونه ، حتى إنّ أَحَدهم يَصْدَح عن غنمه وإبله وعن القرية فلاَ يصيبها شيء من المطر ، وهو ضَرْبٌ من السّحْر . وسألت المتنبى بعد ذلك : هل دَخلت السَّكون ؟ قال : نعم ! أَمَا سَمِعتَ قولى :

مُلِثَّ القَطْرِ أعطِشْهَا رُبُوعاَ وَإلاَّ فَآسْقِهَا السَّمَّ النَّقِيعَا
أَمُنْسِيَّ السَّكُون وحَضْرَمَوْتاً ووَالِدَتى وكِنْدَةَ والسَّبِيعَا

« فقلت : مِنْ ثَمَّ آستفادَ ما جَوَّزه على طَغامِ أهل الشام .... (وأنت منهم يا أبا عبد الله إذن ، فقد آمنت بنبوَّته) ؟؟

٨٢ / ثم قال أبو عبد الله هذا : « ومما كان يُمَخرق به فى البادية ، أنه كان مشّاءً قويًّا على السير ، يسير سيراً لا غاية بعده ، وكان عارفاً بالفلوات ومواقِع المياه ومحالِّ العرب بها . وكان يسير من حِلّةٍ إلى حِلّةٍ بالبادية ، وبينهما مَسيرة أربعة أيام ، فيأتى ماءً فيغسل وجهه ويديه ورجليه ، ثم يأتى أهل هذه الحِلّة فيخبرهم ما حدث فى تلك الحلَّة التى فارقها ، ويوهم أنَّ الأَرض تُطْوَى له . وسئل فى تلك الأيام عن النبى ﷺ : فقال : أَخْبَر بنبوَّتى حيث قال : « لا نَبِيَّ بعدى » ، وأَنا آسمى فى السماء « لا » .

« ولما آشْتُهِر أمرُه ، وشَاعَ ذكرُه ، وخرج بأرض (سَلَمْيَةَ) من عمل حمص فى بنى عدِىّ (وظهر منه ما خِيف عاقبته) ، [1] قَبَض عليه آبن على الهاشمى فى قرية يقالُ لها (كُوتَكِين) ، وأَمر النجَّارَ أن يجعل فى رجليه وعنقه قُرْمَتين من خشب الصفصاف ، فقال المتنبى :

زَعَم المُقِيمُ بكُوتَكِين بأنَّهُ مِن آل هَاشِمِ بنِ عبدِ مَنافِ
فأجَبتُه : مُذْ صِرْتَ من أَبنَائهمْ صَارتْ قُيُودُهُم من الصَّفْصَافِ »

* * *

انتهى حديث مُعاذ بن إسماعيل اللاَّذقى (أبى عبد الله الصَّدِّيق !!) الذى كان أوَّل من صدَّق بنبوة أبى الطيب وآمن به وأخذَ بَيْعَته لأهله !!

* * *

---

(١) فى بعض الكتب هذه الزيادة .

وما دمنا قد أطلنا بذكر هذا الحديث فلا بأس عليك ، إن شاء الله ، لو نقلنا لك ما رواه أبو العلاء المعرى أيضاً قال :

٨٣ ٤ — / « وحدثنى الثقة عنه حديثاً معناه ، أنه لما حصل فى بنى عَدِىّ وحاول أن يخرج فيهم قالوا ، وقد تبيَّنوا دَعْواه : هٰهُنَا ناقةٌ صعبةٌ ، فإن قَدَرتَ على رُكوبها أقررنا أنَّك مرسل = وأنه مضى إلى تلك الناقة وهى رائحة فى الإبل ، فتحيَّل حتى وثب على ظهرها ، فنَفَرت ساعةً وتنكَّرَتْ بُرْهةً ، ثم سكن نِفارُها ومَشَت مَشْىَ المُسْمِحَة ، وأنه وَرَد بها الحِلَّة وهو راكبٌ عليها ، فعجبوا له كلَّ العجب ، وصار ذلك من دلائله عندهم .

« وحَدث أيضاً أنه كان فى ديوان اللاَّذقيّة ، وأنَّ بعضَ الكتّاب انقلبتْ على يده سِكِّين الأقلام فجرحته جرحاً مُفْرِطاً ، وأن أبا الطيب تَفَل عليها من رِيقه وشَدَّ عليها غير منتظر لوقته . وقال للمجروح : لا تحلَّها فى يومك ! وعَدَّ له أياماً وليالى ، وأنَّ ذلك الكاتبَ قَبِل منه ، فَبَرِئ الجرحُ ، فصاروا يعتقدون فى أبى الطَّيب أعظم اعتقاد ويقولون : هو كمحيى الأموات .

« وحَدَّث رجلٌ كان أبو الطيب قد استخفى عنده فى اللاَّذقية أو فى غيرها من السواحل : أنه أراد الانتقالَ من موضع إلى موضع ، فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ، ولقيهما كلبٌ ألحَّ عليهما فى النُّباح ، ثم انصرف . فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد : إنك ستجدُ ذلك الكلب قد مات . فلما عاد الرّجل أَلْفَى الأمرَ على ما ذكر .... ولا يمتنع أن يكون أعدَّ له شيئاً من المطاعم مسموماً ، وألقاه ، وهو يخفى عن صاحبه ما فعل ..... و « الخَرْبَق » سَمُّ الكلاب » .

* * *

٨٤ / هذا حديث نبوته ونبوءاته ومعجزاته عند أكثر الرواة ، أمَّا قرآنه فقد أجمعوا أنه لم يبق إلاَّ ما نرويه لك . قال أبو على بن أبى حامدٍ ، الذى مرّ آنفاً :

٥ – وكان (يعنى أبَا الطيب) قد تلا على البوادى كلاماً ذكر أنه قرآنٌ أُنزل عليه ، وكانوا يحكُون له سوراً كثيرةً ، نَسَخْتُ منها سورة ضاعت ، وبَقِى أوَّلُها فى حفظى ، وهى :

« وَالنَّجْمِ السَّيَّارِ ، والفَلَكِ الدوَّار ، والليل والنَّهار ، إنّ الكافر لَفِى أخطار ، آمْضِ على سَنَنِك ، وَآقْفُ أَثَر من كان قَبْلك من المرسلين ، فإنَّ الله قامِعٌ زَيْغَ من أَلحدَ فى دينه (الدين) وضلَّ عن سبيله (السبيل) » .

قال : وهى طويلةٌ ، لم يبق منها فى حفظى غير هذا » .

* * *

وأنا لا أحبُّ أن أتجاوز هذه النصوص إلى ما سواها ، إلاّ وقد نظرت فيها وبصَّرْت القارئ بالتوائها وضعفها وَوَهَنِها ، ويأتيه ما استنبطناهُ وقد وَقَر فى نفسه ردُّ هذه المقالة التى نُبِز بها أبو الطيب ، وبذلك يقوم ردّنا مقام البيّنة على ما أردناه ، أصبنا أو أخطأنا .

لن نعودَ تارة أخرى إلى ما قدّمنا من ذكر التنوخىّ ، ثم روايته عن أبى الحسن العلوى وابن أم شيبان الهاشمىّ ، ففى أول كلامنا تجدُ بعض الأدِلَّة على وَهَن رواية التنوخى ، واستسقاطِنا إياها ، ولا غِنَى لك عن العودْةِ إلى تذكُّره عند هذا الحديث عن نبوّة المتنبى . [انظر القول فى التنوخى فيما سلف : ١٤٥ – ١٤٩] .

٨٥ / بَيَّنّا لك فيما مرَّ ما بين أبى الطيب وبين العَلويين ، وأن صاحبنا كان له عندهم ثأرٌ قديمٌ هو الذى أراد أن يدركه فيهم ، وينال « حقّه » منهم ، ورجح عندنا الاستنباط أن يكون أبو الطيب « علويًّا » منكوباً فى نسبه وشرفِه وجاهِه ، وأنه كان يريد أن يظهر نسبته إلى العلويين ، ولكن عارضته دون ما أراد أهوالٌ وأحداثٌ ، فإذا جَمَعْتَ هذا الرأى هنا ونظرتَ فى النص الذى وقع إلينا من التنوخى عن ابن أم شيبان الهاشمى ، [رقم : ١] ، وهو علوىٌّ كبير ، ملككَ الشكُّ وغلب عليك فيما رَوَى ، فإنه لم ينس أن يذكر لنا فيما قال – لو صدق التنوخىّ فى روايته عنه – أن أبا الطيب آدَّعَى العلوية مرتين .

* * *

أما حديث معاذ بن إسماعيل اللاذقى [رقم : ٣] ، فنقد سَنَدِهِ لا يتيسر لنا ، لأن صاحبنا هذا اللاذقى مجهولٌ لم نقع له على ذكر ، ولكن مما لا شك فيه أن اللاذقية التى نُسِبَ إليها كانت لوقت أبى الطيب موطناً لفئة من العلويين ، ومحطًّا لكثير من كبار الدُّعاة العلويين الذين أحدثوا أحداثاً عظيمة فى التاريخ العربى كله . فلا بأس من أن تجعل هذا ذِكْراً مذكوراً وأنت تتبصَّر فى أصل الرواية ، على وَهَنِها وتضارُبِها وتهالك معانيها التى يُفْسد بعضها بعضاً ، كما سترى بعد .

* * *

فالحديث الأول ، وهو حديث ابن أمّ شيبان الهاشمى ، [رقم : ١] ، عجيبٌ لا يَفْرَغ العجب من اختصاره وتداخُله . فهو رتَّب أمر ظُهور المتنبى على درجاتٍ ثلاثٍ :

الأَوْلَى : ادّعاؤه العلوية = والثانية : ادّعاؤه النبوَّة = والثالثة : ادّعاؤه العلوية مرة أخرى .

فأما أن يدَّعى العَلوية ، ثم يعود فيدَّعى النبوة ، فهو قولٌ لا بأس به ، ولكنَّ العجبَ أنه بعد هذا عقَّب على « النبوة » بلفظ التعقيب (ثم) ، فقال « ثم عاد يدّعى أنه علوىّ » . فالذى يدّعى النبوة ويُبايَع بها ، كما يقول / اللاذقى الصدِّيق !! ، لا يُعقِّب على هذه الدعوى بالعَلوية . فادعاءُ الرجل النبوَّة ، ثم انحطاطه منها إلى العلوية ، إكْذابٌ لنفسه ، وإقرارٌ منه بالمَخْرَقة على الناس والعبثِ بهم ، ولا يكون ادَّعى النبوة ثم ينحطُّ منها إلاّ بعد قتالٍ يُرْغَم فيه على التسليم ، ولا شَكَّ أنه لو كان فُعِل بصاحبنا ذلك ، لحُبس لوقته قبل أن يتمكن من القيام بالدعوة إلى نفسه مرَّة أخرى بين بنى كلب فيدَّعى العلوية . ثم لَوْ أنه كان مُطْلَقاً ، ورجع عَن النبوة إلى ادّعاء العلوية ، لكان ذلك كافياً فى تكذيبه وتحقيره عند من سَلَّموا له بما ادعى من عَلَوِيَّته بَدْءًا ، ونُبُوَّته بعدُ . فهذا وجه فى إبطال هذا النص .

٨٦

* * *

أمّا حديث أبي على بن أبي حامد ، [رقم : ٢] ، ولم نعرف الرجل ، فهو حديث محكم لا يقع فيه هذا الاعتراض الذى قدمناه ، إذ اقتصر صاحِبه على ذكره النبوة وحدها ، وما يأتيه التوهين إلاّ من قِبَل غَرَابته عما جرت عليه الأحكام فى شأن مَنْ يدَّعون النبوة .

فيقول أبو على : إن لؤلؤاً أميرَ حمص : « استتابه ، وكتب عليه وثيقة أشْهَدَ عليه فيها ببُطلان ما ادعاه ورجوعه إلى الإسلام » .

أمّا أن يستتيبه ويُشْهِدَ عليه أنه تائب ، فهذا لا بأس به ، وهو الحكم مع المتنبئين .

وأمّا أن يكتب وثيقةً عليه ببُطلان نُبُوَّته ، فهذا أَمْرٌ لا معنى له ، لأن الوثيقة إنما تُكْتَب فيما يُخَاف من قِبلَه مُعاودةُ الدَّعوى ، فتكون إقراراً مكتوباً مشهوداً عليه بالبُطْلان من المدَّعى نفسه ، كدعوى الملكية فى العُرُوض ، ودَعْوَى العلوية « مثلاً » فى النسب ، فتكون الوثيقةُ حُجّةً عليه إذا عادَ ليُحَاجَّ الناس فيما ادّعاه ، بعد الإقرار على نفسه بالكذب فى الدعوى الأولى . أمّا النبوَّة ، فالأمر فيها على غير ذلك ، فإنّ الرجل إذا ادَّعَى النبوةَ ثم / استُتيبَ وأَشْهد على نفسه بالكذب فيما ادَّعى ، ثم رجع بعد ذلك يدَّعيها مرة أخرى ، لم يكن يُنْظَرُ حتى يحاجَّ الناس فيما يدَّعى ، ويقول لهم : إنكم لم تأخذوا علىَّ وثيقةً مكتوبة مشهوداً علىَّ فيها بالكذب ، وإنما يكون جزاؤُه القتل من غير إنظار ولا استتابة .

٨٧

فهذه الوثيقة التى ذكرها أبو على ، إذا صح أمرها ، إنّما تكون قد أخذت عليه فى دعوى العلوية لا دعوى النبوة . فأنت ترى أن نَصّ ابن أم شيبان فيه ذكر العلوية مرتين ، وأن ذكر النبوة يكاد يكون مُقْحَماً فيه = وترى أن نصَّ أبى على بن أبى حامد يرجِّحُ دعوى العلويَّة لا دعوى النبوة ، فإذا قَرَنْتَ هذا إلى ما تمادَيْنا فى ذكره عن نَسب المتنبى ، وما أتينا به من الحجَّة فى ترجيح نسبته إلى العلويين ، لم تَبْعُدْ عن الحكم بأن هذه الروايات إنما يراد بها « دعوى العلوية » لا « دعوى النبوة » .

* * *

أما ثالث الأحاديث ، وهو حديث أبى عبد الله الصدِّيق !! معاذ بن إسماعيل اللاذقى ، [رقم : ٣] فعجبٌ كله ، وبطلانه بيِّن للمتدبِّر أدنى التدبُّر ، ولولا أن كثيراً ممن كتبَ عن المتنبى مرَّ به ولم يَعْرِض له لتركناك تحكم بوضعه من سياقه ومَدْرَجِه ، دون أن نأخذ أنفسنا بنقده . وأنت إذا تدبرت الحوارَ الذى زعمه أبو عبد الله هذا بينه وبين أبى الطيب ، لم تشكَّ ساعةً فى أن الرجل كان يَضَع هذا الكلام وَضْعاً ولا يروِيه روايةً . والعجب له !! قد آتهم نفسَه فى مواضع من كلامه بقلة العقل وعَمَى البصيرة ، وسُرعة التهوُّرِ فى التسليم .

فهذا المسمَّى مُعَاذاً كان ولا شكَّ رجلاً مسلماً مُدْرِكاً يملك من العقل مقداراً يكفى ، على الأقل ، فى الإنصات له إذا حدَّث ، وإلا بَطَل حديثُه هذا / من غير محاولة منا فى إبطاله ... فإن كان كذلك ، أو أقلَّ من ذلك قليلاً ، فما نَظنُّه كان يَصْبر على الرَّجُل حين آدعى النبوة كل هذا الصبر ، فيتمادى فى الحوار معه ، ثم يصف كلامَ فتىً فى السابعة عشر أنه « ما مرَّ بسمعه أحسنُ منه » . فهذه إمَّا أن تكون كلمةَ جاهلٍ ، وإمَّا كلمةَ وضَّاعٍ يريد أن ينتقِصَ من الرجل ، فهو يهيِّىء لانتقاصه بامتداحه وتعظيمه . ٨٨

ثم كيف يُعْقَل أن رجلاً مُسلماً كان فى عصر المتنبِّى ، ثم فى مدينة كاللاذقية ، ويدلُّ كلامُه على بَعْض العلم ، يُصدِّق دعوى حَبْس المطر ويَعُدُّها معجزة ، فضلاً عن تصديقه النبوةَ بعد موت محمدٍ ﷺ !

وأعجب من ذلك فى الوضع البَيِّن أنْ يدَّعى هذا المسمَّى معاذاً أنه أقرَّ بنبوَّة المتنبى ، ثم بايعه لما رأى معجزة حَبْس المطر ، وأنه أخذ البيعةَ لأهله أيضاً على الإيمان به ، فأىُّ رجلٍ مسلمٍ غير جاهلٍ ولا مفتون فى ذلك العصر ، يتهوَّر فى الكفر بغير معجزة ولا بينة ؟

ومن عجيبِ سَهْو هذا اللاذقى فى الوضع أنه قال بعد ذلك تَوًّا : « يريد معجزة حبس المطر » ، « وذلك بأصغَر حيلةٍ تعلمها من بعض العرب » . فلو أنّه كان قد أتقن

وضعه ، لزعم أنه بقى على بيعة المتنبى والإقرار له بالرسالة ، إلى أن رأى ، بعد زمانٍ ، أو سمع وآستيقن ، أن الذى فعله المتنبى وَزعَمُه معجزةً له ، أمرٌ مشهورٌ عند بعض العرب يتعاطَونه إذا كَرَبَهمُ المطرُ ، ثم يصف كما وصف أنه « صَدْحَةُ المطر ، يصرفونَهُ بها عن أى مكان يحبون ، بعد أن يحُوا بعصاً وينفُثوا فى الصَّدحة التى لهم .... الخ » ، فكفر بنبوة المتنبى لذلك ، وتاب ورجع إلى الإسلام .

ثم من ضعف وَضْع هذا اللاذقى أنه زعم أنَّه كان قد رأى كثيراً من أهل السَّكُون وحَضْرَموت يفعلون صَدْحَةَ المطر ولا يتعاظمونها ، فسأل المتنبى : هل دخلتَ السَّكون ؟ قال : نعم ! وما دام / اللاذقيُّ هذا كان قد عَرَف هذه الصدحة ، فكيف آمن بنبوة صاحبه ، ولا دليلَ له على نبوته غيرها ، وهى مشهورة فى اليمن معروفة معمول بها ، كما يقول !!

٨٩

وأعجب من هذا أنه يدعى أنّ دعوةَ المتنبى قد عمَّت كل مدينة بالشأمِ وبويع له بها .

كيف يكون هذا ؟ والشام إذ ذاك منزل من منازل أئمة الدين والعلم ، وكان أكثرُ أهلها لا يتخلفون عن صلاةٍ ، ولا يزال بين ظَهْرَانَيْهِم عالمٌ يقرأ فى مجلسه ، أو واعظ يَعظُ فى حَلْقته ، أو خطيبٌ يخطب من منبره ، ثم يؤمنون بدعوى رجلٍ لا تؤيده مُعْجِزة بيانِيَّةٌ ، ولا خارقَةٌ كونية . وإن زعمنا أن اللاذقى قد آمن بالمتنبى لصَدْحة المطر ، أفتؤمن له كل مدينة بالشأم وتبايعه لهذه الضلالة ، أو هذه الأُكذوبة التى لا تعقل ؟ ليكن اللاذقى رجلاً لا عقلَ لهُ ، أفيكون أهل الشأم كلُّهم هذا الرجل ؟!

ويقول اللاذقى للمتنبى يخوّفه مما يقول به من النبوة : « إنّ هذا أَمرٌ عظيم أخاف عليك منه » ، فيجيبه المتنبى بشعر لا ذكر للنبوة فيه ، وإنما هو شعرُ رجل مُقاتل يريد الحرب ، لا مقالةُ نبيٍ يريدُ أن يؤمنَ الناس به . ثم إنَّ الذى قاله فى الشعر يدل على غير ذلك ، فإنه قال :

ذَكَرْتَ جَسِيمَ مُطَّلبى ، وَأَنِّى أُخَاطِرُ فيه بالمُهجَ الجِسَامِ

وليست النبوة مطلباً يُطْلَبُ ويُخَاطَرُ فيه بالنفس والنفيس ، وإنما النبوة أمرٌ من الله لمن أوحى إليه أن يَصْدَعَ بما يؤمر به ، فيكون عمله هدايةَ الناس باللين أو بالشدة كما يشاء الله ، فلا يكون ذلك مطلباً للنبي يريد أن يناله ، بل / يكون أمراً يجب أن يطيعه ويعمل به ، وكذلك الأبيات التي أنشدها : ٩٠

أَيَّ مَحَلٍّ أَرْتَقِي   أَيَّ عَظِيمٍ أَتَّقِي

فالقول فيها قريب من هذا .

أمّا البيتان الأخيران ، فهما الدليلُ على تلفيق الرجل ، فالبيت الأول هذا : « مُلِثَّ القَطْرِ » ، أول قصيدة للمتنبي ، والبيتُ الثاني في آخر القصيدة ، ولا رابط بين البيتين حتى ينشدهما المتنبي معاً في الاستدلال على دخول السَّكون أو حضرموت ، وكان يكفيه البيتُ الثاني في الاستدلال لما أراد . ثم إنَّ المتنبي ، بغير شكٍّ ، لم يدخل اليمن في حياته كلها من يوم وُلد إلى يوم مَات . أما الَّذي ذكر في الأبيات فهو ، كما قدمنا لك ، أسماء خطط لأَهْلِ اليمن بالكُوفة التي ولد بها أبو الطيب ، [انظر ص : ١٤١] .

وأيضاً ، فإنّ هذه القصيدةَ التي منها هذان البيتان ، في مدح علي بن إبراهيم التنوخي ، وكان مدحه سنة ٣٢٣ بعد خروجه من السجن ، أو بعدَ رجوعه عن الكوفة إلى الشام سنة ٣٢٦ ، على ما حققناه .[1] وهذا الذي ذكره اللاذقيُّ في حديثه كان سنة ٣٢١ ، قبل أن يُقْبَض عليه . فهذه كلُّها أدلة بينة على وضْع القصة وتلفيقها ، وأنها وضعت على الأرجح بعد وفاة المتنبي بزمان .

ومن أكاذيب هذه الرواية أيضاً ، دعواهم أن المتنبي كان عارفاً بالفلوات ومواقع المياه ، ومحالِّ العرب بها ، فذلك لا يتيسر إلاّ لمن وُلِدَ بهذه البلاد / ونشأ بها ، والمتنبي دخل البلاد في السنة التي يَرْوي فيها اللاذقي هذا الحديث ، وحُبس في السَّنة نفسِها ، فما ٩١

---

(١) الرأى هو هذا الأخير كما سترى بعد في موضعه ، ولا يصح عندنا غيره .

كان له أن يعرف مَجاهِلَ البادية ومواقعَ مياهها ومحالَّ أهلها ، كما زعم ، فى قلةٍ من الوقت . فانظر الآن ما تقول فى هؤلاء الوضاعين ؟

***

أمّا معجزات المتنبى التى ذكرها أبو العلاء المعرى ، [رقم : ٤] فلا نتكلم فيها لأنَّ بطلانها بيِّن وفسادَها مكشوفٌ ، ولقد علمت بهذه الأحاديث التى رويناها لك ، أنهم كانوا يريدون أن يتّهموا الرجل بما هو منه براءٌ ، فأَوْلَى أن تكون المعجزات التى رَوَاها أبو العلاء ضرباً من الكيدِ له ، وتأييداً لاتهامهم الرجل بدعوى النبوة . (١)

***

أما قرآنه ، الذى رواه أبو على بن أبى حامد ، [رقم : ٥] فهو كما ترى ليس بقرآن ، وإنما هو « ضربٌ من الهذيان » ، والعجبُ أن يبايع له اللاَّذقى ولا يحفظ من قرآنه شيئاً ثم يصفه فيقول : « ما مرَّ بمسْمَعى أحسن منه » ! [انظر ص : ٢٠١] ثم الأعجب أن تَعُمَّ بيعتهُ كل مدينة بالشام كما قال ، ولا يبقى من قرآنه إلا هذه الحماقة الصغيرة التى رَوَوْها ، يزعم أبو على بن أبى حامد أنها بقيت فى حفظه !!

***

ولا ندرى لماذا أصيب المتنبى بهذا العَجَب !! ففى مسألة نسبه ، كانت نسبته إلى جُعْفِىّ بن سعد العشيرة ، التى كان يخفيها خوفاً ، لا يعرفها إلاّ التنوخىّ وابن أم شيبان ، وأبو الحسن العلوى = وقرآنه لا يحفظه إلا أبو على بن أبى حامد واللاذقىُّ ، = على فرض أن اللاذقى حفظ ما حفظه أبو على = ثم لا يحفظان معاً منه إلاّ قطعة بعَيْنها ، معَ أن

---

(١) انظر تتمة القول فى الصفحة التالية ، والتعليق رقم : ١

اللاذقىّ قد ذكر تَعْدادَها مئةَ عبرة وأربع عشرة عبرة ، [انظر ص : ٢٠٢] واتفقا معاً على حفظ هذه القطعة ونسيان ما بقى من هذا العدد !!

* * *

/ وبعدُ ، فإنّ أحداً لا يشك فى أن الرجل (أبا الطيب) كان قد سجن لأمرٍ مّا ، ولكن حرص هؤلاءِ الذين رَوَينا أقوالهم على أن يجعلوا حبسه من أجْل النُّبوة ، يجعلنا نرى أنهم جعلوا مسألة « النبوة » غِطاءً يسترون به حقيقة ما قام من أجله أبو الطيب فقبض عليه .[1] وبيّنٌ على مذهبنا فى نسب المتنبى أن الرجل حُبس من أجل « دعوى العلوية » التى ذكرها الرّجل الطيب آبنُ أم شيبان ، وأقحم عليها « النبوة » ، ليجعلَ دعواه فى علويته كذباً ، فإن الذى يدَّعى النبوةَ لا يتورَّع عن ادّعاء العلوية . ثم إن هذا الرأىَ من آبن أمّ شيبان ، لو صَحَّ عنه ، يزيدنا يقيناً بأن الرجل كان يعرف من أمر نَسَب المتنبى شيئاً ، ويريد أن يخفيه ، وأن لا يُظْهِرَ عليه أحداً من الناس . ٩٢

ومسألة القبضِ على المتنبى وحَبْسه ، لها عندنا سياقٌ تاريخىٌّ آخر استنبطناه ، ولكن يحسن بك أن تهيِّىء فى نفسك مرة أخرى ما قلنا به من نسبة المتنبى إلى العلويين ، وما أفضنا فيه من القول فى عدة مواضع ، ليسهل عليك أن تعيننا على تحقيق ترجمة الرجل . هَذا ، ونحن والقارىء فى هذا الموضوع سواء ، فمن تبيَّن له وجه أو توَجَّه له رأى ، فليكتب لنا به مشكوراً .

* * *

---

(١) فكأنه من المقطوع به أن كُلّ هؤلاء الرواة لخبر نبوة أبى الطيب ، شيعة علويُّون ، حاشا أبى العلاءِ المعرىّ ، فإنّه نفى عن المتنبىّ دعوى النبوة ، التى ذكرها ابن القارح الشيعى فى رسالته ص : ٢٥ [رسالة الغفران ، بنت الشاطىء ، الطبعة الثانية] . فقال أبو العلاء : « وحُدِّثت أنه كان إذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال : هو من النَّبْوة ، أى المرتفع من الأرض . وكان قد طمع فى شىء قد طمع فيه من هو دونه (يعنى ثورة المتنبى وحبسه) ، ثم قال أبو العلاء : « وقد دلّتْ أشياء فى ديوانه على أنه كان متألّهاً ، ومِثْل غيره من الناس مُتَدَلِّهًا ، [رسالة الغفران ، طبعة ثانية ص : ٤١٠ ، ٤١١] . فأبو العلاء لم يذكر ما ذكره [انظر رقم : ٤] دلالة على نبوة أبى الطيب ، بل دلالة على قلة عقل من روى هذه الأخبار ، مع ظهور بطلانها .

– ٦ –

****

دَعَوْتُكَ لَمَّـا بَرَانِـى البَـلاءُ
وَأَوْهَنَ رِجْلَىَّ ثِقْلُ الحَدِيـدِ
وَقَدْ كَانَ مَشْيُهمَا فِى النِّعالِ
فَقَدْ صَارَ مَشْيُهُمَا فِى القُيودِ
وَكُنْتُ مِنَ النَّاسِ فى مَحْفِلٍ
فَهَا أنا في مَحْفِلٍ من قُرُودِ
فلاَ تَسْمَعَنَّ مِنَ الكَاشِحِين
وَلاَ تَعْبَأَنَّ (بِعِجْلِ اليَهُودِ)
وكُنْ فَارِقاً بين دَعْوَى (أَرَدْتَ)
ودَعْوَى (فَعَلْتَ) بِشَأْوٍ بَعِيدِ

****

/ قلنا إن المتنبى فى أواخر سنة ٣٢٠ ، اعتزم الخروج من الكوفة ، وأنه عقد قلبه على إحداثِ حَدَثٍ لعله يُصيب من ورائه ما يبتغي وما يؤمل ، ويدرك به ثأراً فى قومٍ ، ليشفىَ به صدرَ جدَّته وصدرَه ، ثم أنفذ عَزْمه فى الرحلة عن الكوفة إلى بغداد ، ومن ثَمَّ اتخذ طريقه مُصْعِداً إلى ديار ربيعة بين النهرين ، إلى الموصل ونصيبين ورأس العين ، وانحدرَ بعدُ إلى الشام ، فقُبض عليه هناك . ٩٣

وكان مُرُور المتنبى برأس عين فى أوائل سنة ٣٢١ على الأرجح ، وفى تلك السنة حدثَ حادثٌ كان من جرَّائه أنْ قُتِل أبو الأغَرِّ بن سَعيد بن حَمْدان / (ابن عم سيف الدولة) . وذلك أنْ بنى تَغْلَبة اجتمعوا إلى بنى أسَدٍ القاصدين إلى أرض الموصل ومن معهم من طيىء ، فصارُوا يداً واحدة على بنى مالك ومَنْ معهم من تَغْلِب (وهم قوم بنى حَمدان) ، وقَرُب بعضهم من بعض للحرب . فركب ناصر الدَّولة الحسن بن عبد الله بن ٩٤

حمدان ، (أخو سيف الدولة على بن عبد الله بن حمدان) ، فى أهله ورجاله ومعه أبو الأغرِّ بن سعيد بن حمدان للصلح بينهم ، فتكلم أبو الأَغَرِّ فطعنه رجل من حزب بنى ثعلبة فقتله ، فحمل عليهم نَاصر الدولة ومن معه فانهزموا ، وقَتَل منهم ، ومُلِّكت بيوتهم ، وأخذُوا حريمَهم وأموالَهم ، ونَجَوْا على ظهُور خيلهم ، وتبعهم ناصرُ الدولة إلى الحديثة (بقرب الموصل) . فلما وصلوا إليها ، لقيهم يأنَسُ غلامُ مُؤْنِس ، وقد وَلِى الموصلَ وهو مُصْعِد إليها ، فانضمّ إليه بنو ثعلبة وبنو أسد وعادوا إلى ديار ربيعة . وانقطع عند هذا التاريخ الذى بين أيدينا فى كتب التاريخ ، ولكن بعضَ رُواة ديوان المتنبى أو شرّاحه يقولون : [١] إن المتنبّى مَرّ برأس عين فى سنة إحدى وعشرين وثلاثمئة ، وقد أوقع سيف الدولة بعَمْرو بن حابِس من بنى أسد ، وبنى ضَبَّة وبنى رِياح من بنى تميم ، فمدحه بقصيدته التى أوَّلها :

ذِكْـرُ الصِّبـا ومَراتِـعِ الآرَامِ جَلَبَتْ حِمامى قَبْل يَوْمِ حِمامى

وذكر ما كان من أمر سيف الدولة مع هؤلاء الذين ذكرناهم من قبائل العرب النازلين فى أرض الموصل وما جاورها . فبيِّنٌ أنّ لقاءَ سيف الدولة لهؤلاء الخارجين من بنى أسد وبنى ضَبَّة وبنى رِياح ، كان على إثْر قتلهم ابنَ عمه (أبا الأغر بن سعيد بن حمدان) = وأنّ مدحَ المتنبى سيف الدولة قد أحفظ / عليه بنى أسَدٍ وبنى ضبَّة حتى كان من أمرهم بَعْدُ معه ما كان – على ما نذهب إليه – من أنهم قتلوه بالعراق ، كما سيأتى بعد . ٩٥

ويقول رواة الديوان : [٢] إن أبا الطيِّب لم ينشد سَيْفَ الدولة هذه القصيدة ، ولا نَظُنُّ أن ذلك يكون دليلاً على أنّه لم يلقَ سيف الدولة فى سنته تلك ، بل الأرجح عندنا أنه لقيه وحدّثه ، واتّصل بينهما الودُّ قليلاً قليلاً ، وفى القصيدة أبيات تدلُّ على أن

---

(١) ، (٢) أسلفت فى ص : ١٨٧ ، والتعليق رقم : ١ ، أن مقدِّمات القصائد المثبتة فى مخطوطات ديوانه العتيقة ، هى لفظ أبى الطيب نفسه .

سيف الدولة (وكان صغيراً فى مثل سن المتنبى) أفْضَلَ عليه بعض الإفضال وأكرمه وأحبَّه . والعجب أن تكون هذه القصيدة ، وهى من أول قصائده فى حياته ، (١) تدلُّ على حبٍّ بليغ لسيف الدولة ، يَقْرُب من حبه له بعدُ ، والذى تدل عليه مدائحه التى استفاضت بعد اتصاله به فى سنة ٣٣٧ ، كقوله مثلاً :

وتعذُّرُ الأحْرَارِ صَيَّر ظَهْرَها ... إلاّ إليكَ عَلَىَّ ظَهْرَ حَرامِ (٢)
(أنْتَ الغَرِيبةُ) فى زمانٍ أهْلُهُ ... وُلِدَتْ مَكارِمُهُم لِغَيْرِ تِمَامِ
أكثرتَ من بَذْلِ النَّوالِ ، ولم تَزَل ... علَماً عَلى الإفضالِ وَالإنعامِ
صَغَّرتَ كُلَّ كبيرةٍ ، وكَبُرْتَ عنْ ... لَكأنَّه ، وعَدَدْتَ سِنَّ غلاَمِ
ورَفَلْتَ فِى حُلَلِ الثناءِ ، وَإنما ... عَدَمُ الثَّناءِ نِهايةُ الإعْدامِ
عَيْبٌ عليك تُرَى بسَيْفٍ فى الوغى ، ... مَا يَصْنَعُ الصَّمْصامُ بالصَّمْصَامِ ؟
إنْ كانَ مِثْلُك كانَ أوْ هُوَ كائنٌ ... فَبَرِئْتُ حينَئِذٍ مِنَ الإسْلامِ

وهذا غلوٌّ عجيبٌ .... وأنت إذا رجعت إلى مدائح المتنبى إلى أن اتَّصَل / بسيف الدولة فى سنة ٣٣٧ ، لم تجدْ دلالة الحب والتعظيم باديةً فى مثل هذه المعانى ، وغيرها مما لم نذكره من القصيدة . ولعل المتنبى كان قد رأى مِن سيف الدولة فى ذلك العهد مثلاً من أمثلة المروءة والفتوَّة التى كان يفتقدها فى رجال عصره . وأنت ترى أن المتنبى فى صِغَره ، كما بيَّنا لك أوَّلَ كلامنا ، كان يرى الرُّجولة والفتوَّة المثَلَ الأعلى الذى يعلِّق به طَرْفَه ، وذلك لما انطوى عليه قلبه من حب المجد وطلب الثأر ، ولما فى نفسه من الثورة على زمنه وأهله ، وعلى من ظلموه وأرادوا به شرًّا وذلاً ومَهَانةً .

٩٦

وعجيبٌ أيضاً أن لا يمدح المتنبى واحداً من الخلفاء وأبنائهم وهم بالعراق ، ولا أحَداً من كبار العراقيين من الأمراء ، ثم يَعْمِدُ إلى مدح بنى حَمدان وَحْدَهم ، ولم تكن

---

(١) كانت سن المتنبى إذ ذاك ١٨ سنة .

(٢) « ظهرها » ، يعنى ظهر ناقته .

شوكتُهم بَعْدُ قد بلغتْ مبلغ غيرهم من الأمراء ، فذلك دليل على أنه لم يمدحهم للعطاء وحدَه ، بل مدحهم لأمرٍ آخر لا نكادُ نتبيَّن إلاّ أطرافاً منهُ . ولعلّ بنى حمدان كانوا يعرفون من أمر المتنبى شيئاً ، وكانوا يَصِلُون جدَّته فى حال نَكْبَتها ، فلذلك ذكر المتنبى أَبَوَىْ سيف الدولة فى القصيدة ، وطلب لقبريهما السُّقْيا ، وقد كان له مَندوحةٌ عن ذكرهما ، وذلك قوله :

صلَّى الإلهُ عليكَ غيرَ مُوَدَّعٍ وَسَقَى ثَرَى أبَوَيْكَ صَوْبُ غمَامِ

وفى مدحه لبنى حمدان أو سيف الدولة وإخوته وأبويه على التحقيق ما يرجّح ذلك :

قومٌ تفرَّسَتِ المَنَايا فيكُمُ فرَأَتْ لكم فى الحَرْبِ صَبْرَ كِرامِ
تَاللهِ مَا عَلِمَ آمرُؤٌ لَوْلاَكُمُ كَيْفَ السَّخاءُ ، وكَيْف ضَرْبُ الهَامِ

٩٧ / وعندنا أن هذه القصيدة قد أنبتتْ فى صدر سيف الدولة محبّةَ هذا الفتى العربىّ الطموح الثائر الذى لا يستقرُّ ، وكأنَّ توافقهما فى السِّنّ والفتوّة قد جمع بين قلبيهما . [1] ولولا ما كان فى صدر المتنبى من الأمانى التى لا تهدأُ ولا تَفْتُر ، لبقى معه ، ولولا ما كان فيه سيف الدولة من مثل ذلك ، ومن أُهْبَتِه إلى حرب بنى أسد وبنى ضَبّة ، لعزم على صاحبه فى الرُّفقة فى الحِلّ والترحال ، ولكن أراد الله شيئاً فكان ...

* * *

وخرج المتنبى من أرض بنى حمدان ، ومن جوار سيف الدولة خاصةً ، إلى عزيمته بالشام . وبدأت الحوادثُ تأخذُه أخذاً حتى رَمَتْ به فى سجنه ، ولم يكن المتنبى لذلك العهد مغموراً مجهولاً ، كما يذهبُ إليه أكثر الكتاب ، بل كانت قصائدُهُ قبل مدخله إلى الشام قد أثبتت عليه عُيُون الدولة العباسية وجواسيسها ، وأطرافَ العلويّين الذين هَضَموهُ

(١) ولد المتنبى سنة ٣٠٣ ، وولد سيف الدولة فى تلك السنة .

وظلموهُ ، ونظرات العلويين الفاطميين أيضاً ، وكانت دَعْوةُ الفاطمية قد نَفَذتْ فى بلدان العربيّة فى تكتُّمها واستتارها ، مع قوّتها وحصافة القائمين بالدعوة إليها ، وما كان لهم من المذاهب فى التدخُّلِ فى شؤون السياسة تدخُّلاً حكيماً خفيًّا مكتوماً يترفَّقون لهُ ليصلوا إلى ضربِ الخلافة العباسية والقضاءِ عليها ، وإقامة الخلافة العلوية الفاطمية .

وكان الذى أمسك العيونَ على المتنبىّ ، فيما نذهب إليه ، أنه قبل أن يَلْقى سيفَ الدَّوْلة فى المرة الأولى سنة ٣٢١ ، وكان فى طريقه بأرضِ العراق ، / قال من الشعر ما وقع إلى هؤلاءِ ، فلَفَتهمْ إليه . فمن ذلك ما رُوِىَ من أن أبا سعيد المُجَيْمِرِىّ عَذَله على تركه لِقَاءَ الملوك وامتداحَهم ، فقال له :

٩٨

أَبَا سَعِيـدٍ جنِّبِ العِتَابَا ... فَرُبَّ رَأىٍ أَخْطَأَ الصَّوَابَا
فَإِنَّهُم قَد أَكْثَرُوا الحُجَّابَا ... وَآستَوْقَفُـوا لرَدِّنَـا البَوَّابَـا
وَإِنَّ حَدَّ الصَّارِمِ القِرْضَابَا ... والذّابلاتِ السُّمْرَ والعِرابَـا
تَرْفَعُ فِيمَا بَيْنَنَا الحِجَابَا

فمثل هذا القول لا يذهبُ باطلاً عند أصحاب الأمر فى الدولة ، ومن يضعون عيونهم على سياسة العصر ودَسَائسه ، وقد كان عصراً مملوءًا بكل عجيب من الدعوات الخفية ، والثورات السرّية التى لا يخطئها مُطَّلع على تاريخ تلك الفترة من العصر العباسى . وَبيِّنٌ من شعر المتنبى الذى وقع فى تَرْتيبنا لديوانه فى هذه الفترة ، أنه حين دخل العراق لَقِىَ بعضَ الكيد على أثر ما عُرِف عنه من الثورةِ القائمة فى صدره ، ودليلُ ذلك قوله :

رَمَانِى خِسَاسُ الناسِ من صَائِبِ آسْتِهِ ... وآخَرُ قُطْنٌ من يَدَيْـهِ الجَنـادِلُ
ومِنْ جَاهِلٍ بِى ، وَهْوَ يجهَلُ جَهْلَهُ ، ... ويَجْهَلُ عِلْمِـى أَنَّـه بِىَ جَاهِـلُ
ويَجْهَلُ أَنّى ، مَالِكَ الأرض ، مُعْسِرٌ ... وأَنّى ، عَلَى ظَهر السِّماكَيْن ، رَاجِلُ

ولم يكتف صاحبنا بذلك ، بل خرج إلى ذكر نفسه وصفتها ، وعرَّض بما يُضْمر من الخروج ابتغاءً لما يؤمِّلُ من الثأر أوّلاً ، وما سمَّاهُ « المجد والعلى » ثانياً ، فقال :

تُحَقِّرُ عندى همَّتى كُلَّ مَطْلَبٍ ويَقْصُرُ فى عينى المَدَى المُتَطاوِلُ
/ وَمَازِلتُ طَوْداً لا تَزُولُ مَنَاكِبِى إلى أن بَدَت (لِلضَّيْمِ) فِيَّ زَلاَزِلُ ٩٩

....

يُخَيَّلُ لى أَنَّ البِلادَ مَسَامِعى وأَنِّى فِيهَا ما تَقُولُ العَواذِلُ
ومَنْ يَبْغِ مَا أَبْغِى مِنَ المَجْدِ والعُلَى تَساوَ المَحَايَى عِنْدَهُ والمَقَاتِلُ
(ألاَ لَيستِ الحَاجَاتُ إلاّ نُفوسَكُمْ ولَيس لَنَا إلاَّ السُّيُوفَ وَسَائِلُ)
(غَثَاثَةُ عَيْشِى أن تَغَثَّ كَرَامَتِى وَلَيْسَ بِغَثٍّ أنَ تَغَثَّ المآكِلُ)

ولا يَلفتنَّكَ ما نحن فيه عن أن تعود إلى ما ذهبنا إليه فى أمر نَسَبِه ونكبتِه الأُولى وهو صغيرٌ ، لِتَعْلَم سرَّ القولِ فى قوله : « إلى أنَ بَدَت للضَّيْم فِيَّ زلاَزِلُ » ، فهو يردُّك إلى ذكر المشكلة القائمة فى نفسه ، والتى وصفناها لك على ما وُفِّقنا إليه ، إذ أنه بهذا الشطر قد ضَمَّن لك معنى ما نريد من أنه كان مغلوباً على أمره ، محكوماً عليه بأمرٍ كُلُّه ظلمٌ وضَيْمٌ . فلمّا بلغ مبلغاً ، زلزله هذا الضَّيْمُ وقد حاول من صدره مخرجاً ، على أنه كان – كما وصف نفسه – رابطَ الجأش ، ثابِتَ النفس ، ثبوتَ الجبل على ما يعمل تحته من العوامل البركانية التى تبتغى مخرجاً بانفجارٍ .

* * *

دَعْ ذا – ونعود إلى شعره فى الفترة التى نحن فيها من تاريخه ، فكانَ مما قاله فى العراق أيضاً قصيدته التى أوّلها : « ضَيْفٌ ألَمَّ برأسى غيرَ مُحْتَشِمِ » ، وننقل إليك طرفاً منها لتتدبّره على ما رسمنا ، يقول :

لَيْسَ التعلُّلُ بالآمالِ مِنْ أَرَبِى ولاَ القَنَاعةُ بالإقلال مِنْ شِيَمِى
وَلاَ أَظُنُّ بَنَاتِ الدَّهْرِ تَتْرُكُنِى حَتَّى تسُدَّ عَلَيها طُرْقَهَا هِمَمِى

/ ١٠٠

سَيَصْحَبُ النَّصْلَ مِنِّى مِثْلُ مَضْرِبِهِ وَيَنْجَلِي خَبَرِى عَنْ صِمَّةِ الصِّمَمِ[١]
لقد تَصَبَّرْتُ حَتَّى لاتَ مُصْطَبَرٍ ، (فَالآن أُقْحَمُ حَتَّى لاتَ مُقْتَحَمِ)
لأَتْرُكَنَّ وُجُوهَ الخَيْلِ سَاهِمَةً ، والحربُ أَقْوَمُ من سَاقٍ عَلَى قَدَمِ
بِكُلِّ مُنْصلِتٍ ما زَالَ مُنْتَظِرِى (حَتَّى أَدَلْتُ لهُ مِنْ دَوْلَة الخَدَمِ)[١]
تُنْسِى البلادَ بُرُوقَ الجوّ بَارِقَتِى ، وتَكْتفِى بالدَّم الجارِى عَنِ الدِّيَمِ
رِدِى حِيَاضَ الرَّدَى يا نَفْسُ وَاتْرُكِى حِيَاضَ خَوْفِ الرَّدَى للشَّاءِ والنَّعَمِ
(إن لَمْ أَذَرْكِ عَلَى الأَرْمَاحِ سَائِلَةً فَلاَ دُعِيتُ ابنَ أُمِّ المجدِ والكَرَمِ)
(أَيملِكُ المُلْكَ – والأَسيافُ ظَامِئَةٌ والطَّيرُ جائعَةٌ – لَحْمٌ على وضَمِ)[٢]
مَنْ لَو رآنِىَ مَاءً ماتَ من ظَمَإٍ ولَوْ عَرَضْتُ لَهُ فى النَّومِ لم يَنَمِ
مِيعادُ كُلِّ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ غداً (وَمَنْ عَصَى مِنْ مُلوكِ العُرْبِ والعَجَمِ)
فإن أجابوا ، فَما قَصْدِى بِهَا لهُمُ ، وإنْ تَوَلَّوْا ، فَمَا أَرْضَى لَها بِهِمِ

* * *

فهذا الذى أثبتنا لك من شعره فى القصيدتين ، وما صرَّح به فيهما عَن آماله وآرابه ، وعن رأيه فى الدولة العباسيَّة التى ملك زمامَها العجمُ والديلمُ والتُّرك من خَدَم الخلفاء ، [٣] وعن رأيه فى الخليفةِ الضعيف الذى لا يَمْلِك من أمر نفسه شيئاً ، ثم يُعَدُّ فى نَظر شَعْبه ملكاً مملَّكاً تعطى له المقادة ، وتُصْرَفُ إليه الطاعة بالإذعان والتسليم = وما يتجلّى فى كلماتِه من إرادة التغلُّبِ والثورة على الدولة عَرَبها وعَجَمها = كُلُّ ذلك ولا شكَّ ، جَلَب على صاحبنا ، علَى / صِغره ، اهتمامَ القائمين بأمر الدولة من الولاة والدُّعاة من ١٠١

(١) انظر التعليق الآتى رقم : ٣

(٢) (لحم على وضم) جملة يكنى بها عن الضعيف الذى لا ناصر له ، كالمرأة التى لا حامى لها ، وهذه الكناية فاعل قوله (أيملك الملك) ، والبيت الثانى بدل من قوله : « لحم على وضم » .

(٣) انظر هذا السفر (ص : ٧٢ ، تعليق : ١) ، ... بُجْكمُ التركىّ وما فعله .. وما قاله .

العرب والعجم والترك والدَّيلم ، واهتمامَ أصحابِ الدعوة العلوية والدعوة الفاطمية ، على التخصيص .

فلما كان اتصالُه ببنى حمدان فى سنة ٣٢١ ومدحُه لهم ، دونَ غيرهم من الولاة والأمراء أمثالهم والمنافسين لهم والحاقدين عليهم ، والمريدين الإيقاعَ بهم لما عرفوا به من الصَّرَاحة فى الحكم ، والدهاء فى السياسة ، والعصبيّة للعربيّة الصريحة ، وبُغْضِهم لحكام الأعاجم الذين كانوا هُم أصحابَ الأمر والنَّهْى فى الدولة كلها = ازداد اهتمامُ هؤلاءِ بالفتى العربى (المتنبى) ، وردوا أنظارهم إليه ، وأدركوا أن هذا الثائرَ الشاعرَ البليغَ سيكون لهُ شأنٌ أىُّ شأنٍ ، لو تُرِك غيرَ مُرَاقَبٍ ولا مأخوذٍ عليه السبيلُ التى يبغى ، والأمْرُ الذى يهدّدُ به ، فأجمعوا على الإيقاع به حتى لا يَستفحِلَ أمرُهُ ، ويتَّسع عليهم الخَرْقُ من قِبَلهِ ، فلا يملِك له الراقِعُ مَرْقَعةً .

ورحل صاحبنا من (رأس عَيْن) حيث مدح سيفَ الدولة ، متخذاً طريقه إلى الشام مارًّا بحرَّانَ ثم مَنْبج ، ثُمَّ أنطاكية واللاذقية وحماة وحمص وبعلَبكّ ، وتردّد بين هذه المدُن حتى قُبض عليه . وكانت هذه البلاد نفسُها منازِلَ من منازل الدُّعاة العلويين الذين كانوا أصحاب سياسةٍ ودهاءٍ فى دعوتهم إلى قَلْب الخلافة العباسية ، وإقامة الخلافة العلوية الخالصة ، وكانت الأعاجمُ فى الشرقِ ، والموالى الذين بلغوا غاية السلطان فى خدمة الخلافة العباسية ، يداً مع العَلويِّين على الدولة العباسية . وكانت هذه البلادُ أيضاً مجالاً للدُّعاة الفاطميين أصحابِ الجيوش والسلطان بالمغرب ، وكان هؤلاء الدعاة يسعَوْن جَهْد السَّعْى لضمّ العلويين إليهم ، واستمالةِ الولاةِ على اختلافهم / إلى مناصرتهم ، ليتمَّ لهم دخولُ الشأم دون معارضةٍ بعد فتح مصر — وكانوا يُعِدُّون له العدَّة — ثم يقفوا وجهاً لوجهٍ حِيالَ الدولة العباسية بالعراق ، وكان قد تَمَّ لهم أمرٌ عظيم فى ما وَراء دجلة والفرات ، وبذلك تسقط الدولة العباسية ، وتقوم على أنقاضها الدولة العلوية الفاطمية . ١٠٢

وكأنى بالمتنبى فى طريقه يُظْهر فى القبائل والمدن أمر نسبه ، ويذيع بينهم أنه علوىُّ الأَصل شريف النّسب ، محتالاً لذلك بالدهاء ، مجتهداً فى اتخاذ العَضُد قبل أن يعلن أمره

إعلاناً صريحاً ، لئلاّ يواقعه العلويُّون وينزلوا به كيدَهم الذى يكيدون لهُ . دار دَوْرته فى البلادِ التى ذكرناها وأمرُهُ إلى عُلُوّ ، لما عُرِف من فصاحته وبلاغته ، وحُسْن سَمْته ، وجَمَال هَدْيه ، وتوقّد ذكائه ، وما يمتاز به من حُسْن المعاشرة ولطيف المنادمة ، مع سعة العلم ، ودقة الفهم لَه . وكان فى القبائل البادية أظهرَ أمراً ، وأشدَّ عضُدًا ، حتى كان آخرُ أمره ببنى عدىّ وبنى كلب ، ففشَا ذكره بينهم ، وبايعوه على العونِ له ، فى الدعوة إلى ردِّ الحكومة إلى العرب دون الأعاجم . وكان ظهوره فى بنى عدىٍّ هو الذى جلب عليه السَّجْن والشقاء .

ذلك أنّ بنى عَدِىٍّ هم قوم بنى حمدان ، [1] فكان ظهوره هناك ، ولقاؤه قبل ذلك سيف الدولة ، ومدحُه بنى حَمْدانَ عامة = سبباً فى تيقُّظ وُلاَة (مُحمّد بن طُغج الإخشيد) ، وكان على دمشق ، ولم يكن ظهر أمرُه بمصر بَعْدُ . وكانت بين بنى حمدان والإخشيديين الأتراك المتعصبين للدولة العباسية / عداوةٌ جلبتها المنافسة ، وكان سيف الدولة مخصوصاً بهذه العداوة وحدَه دون بنى حمدان ، لِمَا ظهر من قوّته ، على صِغر سنه ، وحبِّه فى توسيع سلطان بنى حمدان حتى يَضُمَّ الشأمَ وما يتبعها إلى ولايته وولاية إخوته . فلابدَّ إذن للإخشيديين من مراقبة هذا الذى مَدَحَ بنى حمدان ، وأحدث حَدَثاً فى القبائل التى كانت لهم موالية ، خَشْية أن يكون مُوفَداً من قبل سيف الدولة للقضاء على مطامع الإخشيديين فى الاستيلاء على الشام ومصر . ١٠٣

وأيضاً ، فإن دعاة الفاطميين الذين كانوا بالشّام نظروا إلى ذلك ، وخافوا أن يكون موفداً من قبل سيف الدولة وبنى حمدان ، وكان بنو حمدان قد استعصوا على الدعوة الفاطمية ، مع أنهم كانوا من شيعة العلويِّين . وامتناعُ بنى حمدان على الدعوة الفاطمية ، كان هو السببَ فى مناصرَتهم للخليفة العباسى وتحقُّقهم بخدمته ، لما يعرفون من أنّ دَعوة

---

(١) هم بنو عدى بن أسامة بن مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب ، وينتهى إلى « عدى » هذا ، نسب بنى حمدان .

الفاطميين كانت قد ضمَّت إليها أكثر وُلاة الأعاجم الذين كانوا يحكمون بلاد الخلافةِ ما وراءَ الفرات وفى العراق نفسه . كان هذا هو السببَ أيضاً فى العداوة المتَّقِدة بين بنى بويه وبنى حمدان فيما بعد ، وبينهم وبين سيف الدولة خاصةً ، فإن بنى بويه كانوا علويين فاطميين ، أو نظروا إلى دعوة الفاطميين نظرة الرِّضا .

فاجتمعت على المتنبى عيونُ الفاطميين ، وعيونُ العلويين ، [1] وعيونُ الدولة القائمة فى الشام . فلما ظهر فى بنى عديّ أرسلوا فى القبض عليه ، فطاردُوه من بلد إلى بلد ، وكان يستخفى منهم ، حتى وقع أخيراً فى يد (ابن على الهاشمى العلوى) ، فى قرية يُقال لها كوتكين ، [2] فقُبض عليه وأُمِر النجارُ بأن / يجعل فى رجليه وعُنقه قُرْمَتين من خَشَبْ الصَّفصاف ، فقال له المتنبى بيتين قد ذكرناهما آنفاً ، [3] وبقى المتنبى فى السجن من أواخر سنة ٣٢١ أو أوائل سنة ٣٢٢ إلى سنة ٣٢٣ ، ثم أُطْلِق . ١٠٤

* * *

وكان المتنبى فى أوّل أمره مستخِفًّا بالسجن ، لما يأمل من بلوغ خبره إلى سيف الدولة ، فإنّ بنى عَدِيّ قومَ سيف الدولة – كما يتوهَّم – لن يتركوه فى أيدى هؤلاء ، إلاّ أن يحملوا خبره إلى بنى حمدان ، فَيَخِفَّ بنُو حمدان إليه ، لِنِيَّتِهم فى دخول الشام ، ولكن نِيّةَ بنى حمدان تأخَّرَتْ طويلاً ، فإن سيف الدولة لم يهدِّد أطراف الشام بعساكره إلاّ بعدَ ذلك بزمن طويل .

وممَّا يدُلُّ على استخفافه بالسجن فى أوّل أمره ، ما رَوَوْا من أن أبا دُلَف بن

---

(١) فى ص : ١٥٥ ، التعليق : ١ ، ما يوشك أن يجعلنى أرى أن لأبى الطيب العلوى العباسى يداً فى حبس المتنبى ، وكان أبو الطيب العلوى متهماً بالميل إلى القرامطة ، كما بينت ذلك آنفاً .

(٢) لعلها كانت قريبة من (سلمية) وهى قرية من أعمال حمص .

(٣) ص : ١٥٧ ، ٢٠٤ ، قوله : « زعم المقيم بكوتكين بأنه » إلى آخر البيتين .

كُنْدَاج ، سجّانَ المتنبىّ ، أهدى إليه هديةً وهو معتقل بحمص ، وكان قد بلغه أنه ثَلَبَهُ عند الوالى الذى اعتقله ، فكتب إليه :

أَهْوِنْ بِطُولِ الثَّوَاءِ وَالتَّلَفِ وَالسِّجْنِ وَالقَيْدِ يَا أَبَا دُلَفِ
(غَيْرَ ٱخْتِيارٍ قَبِلْتُ بِرَّكَ بِى) ، والجُوعُ يُرْضِى الأُسُودَ بالجِيَفِ
كُنْ أَيُّها السِّجْنُ كَيْفَ شِئْتَ ، فَقَدْ وَطَّنْتُ لِلمَوْتِ نَفْسَ مُعْتَرِفِ[1]
لَوْ كَانَ سُكْنَاىَ فِيكَ مَنْقَصةً لَمْ يكُنِ الدُّرُّ سَاكِنَ الصَّدَفِ

/ وفى هذه الأبيات تقف كبرياؤه كما هى ، لم يأخذ منها عذابُ السجن وشقاؤه شيئاً ، حتى إنه ليقول للذى يَبَرُّه فى سجنه : « غَيْرَ ٱخْتِيارٍ قبلتُ بِرَّك » ، ولولا ما أنا فيه من العذاب لرددت عليك هديتك غير حافل بك ولا بها . ثم ينتزعُ المثل على عادته : « والجوعُ يُرْضِى الأُسُودَ بالجِيَفِ » ، وهى سخرية حديدة مؤلمة . ١٠٥

فلما طالَ عليه الأَمَدُ فى السجن ، لجأ إلى الحيلة فى الخروج منه ، فكتب إلى ٱبن طغج يَسْتعطفه ، ويفنِّدُ ما رُمِى به مِن إرادة الخروج على السلطان ، فكان مما كتب :

بِيَدِى أَيُّهَا الأَمِيرُ الأَرِيبُ لاَ لِشَىْءٍ إلاَّ لِأَنِّى غَرِيبُ
أَوْ لِأُمٍّ لَهَا ، إذَا ذَكَرتْنِى ، دمُ قَلْبٍ بِدَمْعِ عَيْنٍ يَذُوبُ[2]
(إنْ أَكُنْ قَبْلَ أَنْ رأيتُك أَخْطأْ تُ ، فإنِى عَلَى يَدَيْكَ أَتُوبُ
عَائِبٌ عَابَنِى لَدَيْكَ، ومِنْهُ خُلِقَتْ فى ذَوِى العُيُوبِ العُيُوبُ)

إلاّ أن سَعْى الفاطميين والعلويين فى إبقائه فى السجن ، وما أشرنا إليه من خوف والى الشام من الحدَثِ الذى أحدثه أن يكون من قِبَلِ بنى حَمْدان = لم يُصْغِ إليه سمْعَ الأَمير ، فبقى فى سجنه إلى سنة ٣٢٣ .

* * *

(١) « معترف » ، صابر لا يجزع .

(٢) لم يكتب هذه الأبيات ، إلا بعد رسالة وصلته من جدته ، انظر ص : ٢٣٠ ، فيما يلى .

وقد رُوِيتْ له القصيدة التى كانت السببَ فى إطلاقه ، وفيها إشارة إلى كل هذا الذى ذكرنَا لك . ويحسُنُ هنا أن نُلِمَّ ببعضها ، لتتبيَّن ما أرَّخنا لك من التاريخ .

١٠٦ / يقول المتنبى يصف الأمير :

وَلَوْ لَم أخَفْ غَيْرَ أَعدائه عَلَيْهِ لَبشَّرتُهُ بالخُلُودِ
رَمَى (حَلَباً) بنواصى الخُيُول ، وسُمْرٍ يُرِقْنَ دماً فى الصَّعيدِ
وبِيضٍ مُسَافِرةٍ مَا يُقِمْنَ لاَ فى الرِّقَابِ ولا فى الغُمُودِ
يَقُدْنَ الفَناءَ غَدَاةَ اللِّقاءِ إلى كُلِّ جيش كثيرِ العَديدِ
فَوَلَّى بأشيَاعه (الخَرْشَنِىُّ) ، كَشَاءٍ أحَسَّ بزَأْرِ الأُسُودِ
فَمَنْ كالأَمِير آبنِ بِنْتِ الأَمِير أو مَنْ كَآبائِهِ فى الجُدُودِ

والذى تنبهنا له هنا أنه ذكر فى هذه القصيدة (حلباً) ، و (الخرشنىّ) ، [١] وقد عَيينَا بالبحث عن الحادثة التاريخية التى نستطيع بها أن نعيِّن السَّنة التى قيلت فيها ، ثم وفقنا الله إلى تفسير ذلك بالاستنباط .

ففى جمادى الآخرة سنة ٣٢٢ ، سار الدُّمسْتق « قرقاش » فى خمسين ألفاً من الروم فنازل مَلَطْيَة ، [٢] وحصرها مدة طويلة حتى هلك أكثر أهلها بالجوع ، ثم فتحها وهدم سُورَهَا وقصورها ، وضرَب خَيمتين على إحداهما صليبٌ ، وقال : « من أراد النصرانية انحاز إلى خيمةِ الصليبِ لنَرُدَّ عليه أهله وماله ، ومَنْ أراد الإسلام انحاز إلى الخيمة الأخرى وله الأمان على نفسه ، ونُبْلِغه مأمنَه » ! فانحاز أكثر المسلمين إلى الخيمة التى عليها الصليب طمعاً فى أهليهم وأموالهم ، وسيَّر مع الباقين بِطْرِيقاً يُبْلِغُهم مَأْمَنَهم ، وفتحها

(١) انظر قضية « الخرشنى » فى ص : ٨٨ — ٩٠ ، وما فعله الدكتور عزام رحمه الله ، وما أدخل فِعْلُهُ هذا على معنى القصيدة بذلك من الفساد .

(٢) بلدة مذكورة مشهورة فى ديار ربيعة على حدود بلاد الروم فى ذلك العهد .

بالأمان . ثم ملكوا « سُمَيْسَاط » وخرَّبوا الأعمالَ ، وأكثروا القتلَ وفعلوا الأفاعيلَ الشَّنيعة ، (وصار / أكثر البلاد فى أيديهم) ، وسكتَ المؤرِّخون ١٠٧

وظاهرٌ أن وَالى الشام ، وهُو إذ ذاك مُحمّد بن طُغْج الإخشيد ، لم يكن لِيَصْبرَ على ذلك ، فلما امتدَّ الدمستق بجيوشه وقصد حلب ، خرج إليه هو ، أو بعض مَنْ أنفذه لقتاله ، فردَّه عن التوغُّل ، وانقلب الدمستق هارباً ولم يدخلها . [1] وقد جعلنا هذه الحادثة تاريخَ القصيدة ، لأنها توافق ما أثبتنا من تاريخ المتنبى ، ثم لما ذَكَر من أمر حَلَب ، ثم لِذكْرِ هذا « الخرشنى » = و « الخَرشَنِىُّ » ، هو ملك الروم ، لأنهم ينسبون ملوك الرُّوم إلى جبل ببلادهم يقال له (خَرْشَنة) [2] = وتكون هذه القصيدة لذلك مما كتبه أبو الطيب إلى محمد بن طغج الإخشيد التركى ، فى أواخر سنة ٣٢٢ أو أوائل ٣٢٣ سنة .

وأمّا قولُ المتنبى فى هذه القصيدة يخاطب آبن طُغْج :

١ - وَقِيلَ : عَدَوْتُ على العالَمِين	بَيْنَ وِلاَدِى وبَيْـــنَ القُعُـــودِ
٢ - فما لكَ تَقْبَلُ زُورَ الكلامِ	وَقـدْرُ الشهـادة قَدْرُ الشُّهـودِ
٣ - فَلاَ تَسْمَعنَّ من الكَاشِحين ،	ولاَ تَعْبأَنَّ (بِعِجْلِ اليَهُودِ)
٤ - وكُنْ فارقاً بين دَعْوَى (أرَدْتَ)	وَدَعْوَى (فَعَلْتَ) بشَأْوٍ بَعِيدِ

فقد ذكر فى البيت الأول أنه وهو رضيع لم تَتِمَّ لهُ القوّة على الاستمساك فى قِعْدته ، كان قد آتُّهِم بالخروج على السلطان !! وهذا لم يحدثْ ولا شكَّ ، وإنما هو إشارة لما كتبنا عنه فى نسبه من النكبَة التى حلَّت به وبجدّته من نَفْى النسب العلوىّ الشريف عنه ، ومراقبة العلويين لجدته ، خوف أن يَبْدُرَ منها ما لا يحبون ، فجعل صاحبنا تلك المراقبةَ لنفسه ، إذْ لم يفعلوا بها ذلك / إلاّ من أجل نسبته هو إلى العلويين . ١٠٨

---

(١) انظر ص : ١٥٥ ، والتعليق رقم : ١

(٢) انظر ما سلف : ٨٨ ، ٩١ ، وما بعدها .

والبيت الثانى استثارةٌ لابن طغج ، إذْ كان من أعداءِ العلويين فى غير علانيةٍ ، وكان من أنصار العباسية ، فهو يقول لهُ : مالى أراك تقبلُ فِيَّ قولَ أعدائك وأعداء مواليك العباسيين ، وكان أولى بك أن تزنَ أقوالهم بما تزنهم به (فقَدْرُ الشهادة قدر الشهودِ) ، فلا تسمع لهؤلاء الذين يُضْمرون العداوة (الكاشحين) .

ثم جاء البيت الثالث فوَصَل كلامهُ عن العلويين بذكر العلويين الفاطميين فقال : (ولا تعبأنّ بعجْل اليهود) ، [1] و « عجل اليهودِ » ، كنايةٌ عن أحد دُعاة الفاطميين الذين كانوا هناك بالشام . وتأويل ذلك أن العباسيين ، وكثيراً غيرهم حتى من العلويين أَنفسهم (كبنى حمدان) ، كانوا لا يعترفون بنسبة الفاطميين ويزعمُون أن جدَّهم كان يهوديًّا ، وأسلم ليدخل على الإسلام فاسد العقائد نكايةً . وآسَدَهم على ذلك أن الدعوة الفاطمية كانت دعوةً سِرّية لها أصولٌ خاصةٌ ، ودرجاتٌ مرَتَّبة ، من درجة التلمذة إلى درجة داعى الدُّعاة ، ولكل درجةٍ من الدرجات تعليمٌ خاصٌّ ، ومرتبةٌ معروفة مقيّدة . فقول المتنبّى : « عِجْلِ اليهود » إشارة إلى ذلك .

ولا أنسَى هنا أن أعودَ بالقارىء إلى بيت من أبياتٍ مَضَت فى ذكر التَّنوخى [ص : ١٤٩] ، وهو قول المتنبى يذكر التنوخيين :

أليس عجيباً أنَّ بَيْن بَنِى أبٍ   لِنَجْلِ يَهُودِيٍّ تَدِبُّ العَقَارِبُ

وقد تبيَّن لنا بعد البحثِ فى تواريخ العلويين أن بعض الدُّعاة الفاطميين كان قد دخل اللاذقية (وهى من منازل تنوخ) ، وأدخل قسماً من التنوخيين / فى الدعوة الفاطمية ، وبذلك افترق التنوخيون فرقتين : فرقة العلويين أو الشيعة ، وفرقة الفاطميين ، وهذه الأخيرة هى التى خرج منها الدُّرُوز وهم تنوخيون . وفريق الدُّروز يُتَّهمون من قديم بعبادة (العجل) ، وقد نفى ذلك كثير من الباحثين ، والله أعلم بحقيقة أمرهم . ولعل

١٠٩

---

(١) قد حار الشراح فى تفسير قوله « عجل اليهود » ، وقلبوها على وجوه كثيرة لا تصح ، وهذا هو الوجه عندنا ، وهو الصواب إن شاء الله .

هذا هو السرُّ فى قول أبى الطيب « عجل اليهود » ، يشير إلى الفاطميين ، وفى قوله : « نجل يهودى » ، يريد داعى الفاطميين الذى قَسَم التنوخيين ، وضرب بعضهم ببعض .

وأمّا قوله فى البيت الرابع :

وكُنْ فَارِقاً بَيْنَ دَعْوى (أَرَدْتَ) وَدَعْوى (فَعَلْتَ) بشَأْوٍ بعيدِ

فهو عندنا من الأدلة فى أن الأمر الذى قبض على المتنبى من أجله لم يكن « النبوة » ، وإنما هو الخروجُ على السلطان ، وأنت إذا قلَّبْت الدعويين : « دعوى (أردتَ) ، ودعوى (فعلتَ) » على معنى « النبوة » ، لم يتمّ لك تَساوُق المعانى على ذلك ، وتَمَّ لك فى معنى الخروج على السلطان هذا التساوُق ، إذ أن إرادة الخروج شئٌ ، والفِعْلُ الذى يُسَمَّى به الرجل (خارجاً) شئٌ آخر ..

والظاهر عندنا أنّ السبب فى إطلاق المتنبى من السجن لم يكن هذه القصيدةُ وحدها ، بل السببُ البليغ فى هذا الرضى عَنْه ، فيما نرجّح ، أَنَّ بعض التنوخيين العلويِّين (غير الفاطميين) ، كانوا قد سَعَوْا عند آبن طغج لإطلاق المتنبى ، وذلك لصلتهم ببنى حمدان ، واتفاقهم معهم فى المذهب (العلوية) ، وأظهروا لابن طغج مُوَالاتهم ، فرضى منهم بهذا وأكرَمَهُم بإطلاقه ، [1] / ولكن العلويين الكوفيين سعَوْا من ناحية أخرى لدى الوالى أنْ لا يُطْلقه ، فأرضاهم بأن يأخذ عليه وثيقةً تُثْبِت بطلان دَعْواه فى النسبة إلى الشجرة العلوية الشريفة المكرمة . ١١٠

وَالّذِى حملنَا على أن نظن ذلك من أَمر التنوخيين ، أن المتنبى بعد خُروجه من السجن مَدَح التنوخيين ، وأخلص لهم ، ونَزَل عندهم ، ثم رجع إلى الكوفة وبقى بها مدة ، فلما عاد فى سنة ٣٢٦ ، رجع إليهم وبقى عندهم ومَدَحهم أيضاً ، وأجاد فى مدحه لهم

(١) ولا بأس أيضاً أن نذكر أن (بنى عدى) ، وهم قوم سيف الدولة ، النازلين بأرض الشام ، كان لهم شأن فى ذلك ، وأرضاهم ابن طغج لما يخشى من انتقاضهم عليه إذا لم يبذل لهم الرضى فى رجل قبض عليه عامله فى أرضهم ، وكان فى جوارهم .

إجادةً بينةً ظاهرة . وقد كان هذا الفتى وَفيًّا أَلُوفاً كما وصف نفسه ، وكان يأسره الإحسان ويغلبه على أمره كثيراً ، وقد ظهر هذا الخُلق فى رَوْعة المَثل الذى ضربه يوماً ما فيما بعدُ ، وهو قوله : « وَمَنْ وَجَد الإحسَانَ قَيْداً تَقَيَّدَا » .

* * *

وقد أكثر الكتاب من الاستشهاد بحادثِ حبس المتنبى ومَا كان منه فيه ، وزعموا أنه كان متكبراً أحمقَ الرأى ضعيف الإرادة ، فدعته كبرياؤه أَوّلَ أَوّلَ إلى الاستخفاف بالسجن ، ثم رَجَع فذلَّ وانقادَ وَاستَخْذَى فى قصيدته الأخيرة . وليس هذا لنا برأى ، فإن الأبيات البائية التى ذكرناها لا تَدُلُّ على ضعف ، [1] وإنما كان المتنبى ، كما روينا لك ، مرهفَ الحسِّ ، شاعر النّفس ، فلما بَلَغ جدَّته خبرُ حبسه كتبتْ إليه ، وذكَّرته بما فعل وهو بدار غُرْبة ، وعذلته على ما كان منه وشكتْ إليه أَلَمها ، وكشفت له عن ذِى قلبها ، فرقَّ وبَكَى ، وكتب الأبيات الأربعة على إثر ذلك ، وطبع عليها قلبَه وحَنَانه ورقَّته ، لا ضعفَه واستخذاءَهُ . ويكفى فى الدلالة على بطلان رأيهم ، أنه جعل البيت الرابع مهاجمةً لجميع من ادَّعى عليه وأراد حبسه ، وهجاءً بليغاً لهم ، / ولَيْس هذا من الحكمة ، إنْ كان الرجلُ ممن يستخذِى ويضعف ، وذلك حيث يقول : (انظر ما سلف ص : ٢٢٥) .

١١١

عَائِبٌ عابَنِى لَدَيْك ، وَمِنْه   خُلِقَتْ فى ذَوِى العُيُوب العُيُوبُ

* * *

ثم لما كتب قصيدتَه الأخرى الدالية ، ذكر أبياتاً يزعمون أنها تدلُّ على مذهبهم فى ثَلْب الرجل ، وهى قوله :

---

(١) انظر ما سلف ص : ٢٢٥

أَمَالِكَ رِقِّى وَمَنْ شَأْنُهُ هِبَاتُ اللُّجَيْنِ وعِتْقُ العَبيدِ
دَعَوْتُكَ عندَ انقطاعِ الرَّجاء ، وَالمَوْتُ مِنّى كَحَبْلِ الوَرِيدِ
دَعَوْتُك لَمَا بَرَانى البلاءُ ، وأوْهَن رِجْلىَّ ثِقْلُ الحديدِ
وقَدْ كَان مَشْيُهمَا فى النِّعال ، فقد صار مَشْيُهما فى القُيُود

ونحن لا نرى فى هذه الأبيات شيئاً يُزْرِى به ، لأنه إنما أراد ، كما قلنا ، أن يترفّق لغرضه بالحيلة ، حتى يخلص من السجن ، إذ وَجَد أنْ لا جدوى عليه من الصبر على السجن الذى يُضِيع الأمَلَ فى تحقيق ما يريد من الانتقام من هؤلاء الذين فعلوا به ما فعلوا . والذى يَدِلُّ لا يَقْسُو فى الصفات هذه القسوة التى أبرزها المتنبى فى أبياته بعدُ ، إذْ وَصف مَنْ كانوا معه فى السجن متهكماً ساخراً على عادته ، فقال :

وَكُنْتُ مِنَ النَّاسِ فى مَحْفِلٍ فَهَا أنا فى مَحْفِلٍ من قُرُودِ

ثم يخاطب آبنَ طغج مخاطبة النِّد ، فيسأله على وجه التقريع واللوم ، فيقول : « فمَا لكَ تَقْبل زُورَ الكَلام ؟ » ، ثم ينهاه ناصحاً ومحذراً فيقول : « فَلاَ تَسْمَعنَّ من الكاشحين » ، ثم يأمرهُ على وجه التعليم والتنبيه بقوله : « وَكُن / فَارِقاً » ، فهذا مذهب تعليميٌّ فى الأمر ، ينطوى على تبصير الأمير ، الذى يزعمون أن المتنبى يذلُّ له ، بوجه الصواب من الرأى فى التفريق بين الدعويين ، وتذكيرٌ له بأنه أخطأ خطأً كبيراً بتركه التحقُّق من أصل الدعوى التى أقيمت عليه وتطبيقها على ما كان منه حقيقةً ، ولو كان الأميرُ فعل ذلك ، لبَطَل عندهُ ما يدَّعون عليه ، وهذا كما ترى فيه معنى التجهيل للأمير . ولا نَظُنُّ آبنَ طُغْجٍ كان يخطئُ إدراك هذا البيان البيِّن فى شعر المتنبّى ، ومع ذلك فقد أعفاهُ من هَفْوة اللسان ، وأطلقه إكراماً للتنوخيين فيما ذهبنا إليه ، وما كان من مدحه له فى القصيدة مدحاً لم يظفر بمثله من شاعرٍ مثل المتنبِّى الشاعر البليغ العربى الشريف .

١١٢

* * *

فهذا كما ترى سياقٌ تاريخىٌّ لا بأس به ، إن رأيتَ ذلك ، فى أمر القبض على أبى الطيِّب ولا ذكر فيه للنبوّة ، ولا يمكنُ أن يكون قُبِضَ عليه لهذا الهُراء الذى يزعمون . وستعلم بعدُ أن الخالِعَ حدثنا عن أبى الحسين الناشئ الشاعر أنه قال : « كُنْت بالكوفة فى سنة ٣٢٥ ، وأنا أُملى شِعرى فى المسجد الجامع بها ، والنَّاس يكتبونه عنِّى ، وكان المتنبى إذ ذاك يحضر معهم ، وهو بعدُ لم يعرف ولم يُلَقَّب بالمتنبى .... » . فهذا دليلٌ على أن القبضَ عليه فى سنة ٣٢١ لم يكن للنبوة ، إذ لو كان ذلك كذلك ، لَتَعَالَمَهُ الناس بالكوفة التى نشأ بها ، ولأشار إلى ذلك الناشئ ، وكلامُ النَّاشئ يدلُّ على أن ذلك لقبٌ نُبِزَ به الرجل ، ولم يكن بسبب هذه النكبة التى أصيب بها فى سنة ٣٢١ ، أو الحدَثِ الذى أحدثه فى تلك السنة [انظر القول فى تلقيبه بالمتنبىّ فى التراجم المنشورة فى آخر الكتاب وما سيأتى ص : ٢٣٣ تعليق : ١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ثم ص : ٢٧٠] .

* * *

وهناك سياقٌ آخر للتدليل على بُطْلان هذا الافتراء الذى رُمِى به الرجل ، نستنبطه من الأسلوب الشعرىِّ أوَّلاً ، ومن الحالات النفسية القائمة فى شعره / ثانياً ، ومن الأُصول التاريخية فى أمر المتنبئين فى ذلك العهد أخيراً ، ورأينا أن نُضْمِر ذلك ولا نطيل به ، حتى نظهره فى كتابنا ، إن شاء الله ، عن المتنبى ، بالله التوفيق . (١)

١١٣

أمَّا هذا النبزُ الذى نُبِز به أبو الطيب وعرف به إلى اليوم : « المُتَنبِّى » ، فليس مرجعُهُ إلى هذا الخروج الذى كان منهُ فى بنى عَدِىّ ، فقبض عليه ، وألقى فى السجن من جرائه ، بل له عندنا مساقٌ آخر هو أقرب إلى الصدق وأولى بالاعتبار .

* * *

(١) اعلم أننا تركنا أيضا فى هذا الحديث عن رحلته وحبسه ما قال من شعر فى مدح رجال لقيهم فى طريقه بالبلاد التى نزلها ، إذ ليس يضر هنا إغفال ذلك حتى حين ، ولو فعلنا لم يكن هذا العدد من المقتطف يتسع لما نريد وما نؤمل من استيفاء ترجمة الرجل على الوجه الذى نرتضيه ونقر عيناً به .

كان أبو الطيب من أوَّل أمره متورِّعاً فى خُلُقه ، لا يخرج من حُدود الوقار ، مترزِّمتاً لا يلين للشهوات ولا يلقى إليها مَقاده ، مترفعاً عن سَفْسَافِ الأخلاق ، متمسكاً بمعاليها ، آخذاً نفسه بالجِدِّ الذى لا يفتر ، وكان لا يَقْرَب التُّهَم ولا يدانيها ، « فما كذب ولا زنَى ولا لاط » ، ولا أتى أمراً منكراً يؤخذ عليه أو يُزَنُّ به ، واستمرَّ على ذلك حياتَهُ كُلَّها ، وخالَف الأدباء والشعراءَ من أهل عصره ، فما شرب الخمر ولا حَملَ وِزْرَها ، ولولاَ اضطِرَاره فيما نَرَى لما حضر مجلسَها ، وكان منصرفاً إلى العلم قارئاً له ، محقّقاً لدقائقه ، طويلَ النظر والتدبُّر فيما يمرُّ به من أحداث الزمان ، كثير الاهتمام بأمر الأمَّة التى هو منها ، لا يفوته مغْمَزٌ ينتقده أو خُلُقٌ يستسقطه . وكان أهل العصر / على خلافٍ له فى ذلك ، وخاصةً من انتسب إلى الأدب ، واعتزى إلى الشعر . فكان الأدباء والشعراءُ أهلَ شرابٍ ومُعاقرةٍ ولهوٍ وهَزْل وباطل ، لا يَفْرُغون إلى الجد إلاَّ بمقدار ، ولا يتورَّعون عن دَنِيَّة إلاّ مُكْرَهِين على الوَرَع . فلا عجب إذًا عدَّهُ أهل صناعته من الأدباء والشعراء غريباً بينهم . ١١٤

وكان المتنبى فى أوّل شعره يُكثر من ذكر « الأنبياء » ، ويردّد أسماءهم فى شعره ، ويشبّه نفسه بهم ، ويقيس أخلاق ممدوحيه إلى أخلاقهم ، فمن ذلك قوله فى نفسه :

ما مُقَامِى بأرْض نَخْلَة إلاّ (كمُقَام المَسِيحِ بَيْن اليَهُودِ)

وقوله فى القصيدة نفسها :

إن أكن مُعْجَباً فعُجْبُ عَجِيبٍ (لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نفسِه من مَزِيدِ)
أنا تِرْبُ النَّدَى ، وربُّ القَوافى وسِمَامُ العِدَى ، وغَيْظُ الحَسُودِ
أَنَا فِى أُمَّةٍ ، تَدارَكَها اللهُ ، (غريبٌ كصالحٍ فى ثَمُودِ)[1]

وقوله :

« أَنَا الَّذى بَيَّن الإلٰهُ بِه الْ أقدارَ والمرءُ حَيْثُمَا جَعَلَه »

---

(١) يروى ابن جنى أن المتنبى قال : « لُقِّبت بالمتنبى بهذا البيت » .

فشبه نفسه بالأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله ليكونوا شهداء على الناس .

وقوله فى رثاء التنوخى « محمد بن إسحق » :

وكأنَّما (عِيسَى بنُ مَرْيم) ذِكْرُه وَكأَنَّ (عَازِرَ) شَخْصُه المَقْبُورُ

١١٥ / وكانَ أيضاً كثير الإنذار للملوك والأمراء بعذاب بَئِيسٍ سيأتيهم من قِبَله ، كقوله :

مِيعَادُ كُلِّ رَقِيقِ الشَّفْرَتَين غداً وَمَنْ عصَى من ملُوك العُرْبِ والعَجَمِ
فإن أجابوا ، فما قَصْدى بِها لَهُمُ ، وإن تَولَّوْا ، فما أرضَى لها بِهِمِ

فهذه أمثلةٌ مما تناثر فى شعره من هذه المعانى ، وأَنْتَ إذا نَفَضْتَ ديوانه وجدت فى معانيه المعانى التى تنبىءُ بالغيب ، كقوله فى بَدْر بن عمار :

لَوْ كان عِلْمُكَ بِالإِلَه مُقَسَّماً فى الناس ، مَا بَعث الإِلَهُ رَسُولاَ
لَوكانَ لفظُك فيهمُ ، ما أنزلَ الفُرْقَـان والتَّـورَاةَ والإنجيـلاَ

ولا نطيل بذكر الشَّواهد فى ذلك ، فهذا أمرٌ مُتَعالَمٌ مشهور .

* * *

وعندنا أن أبا الطيب لما عاد من الكوفة سنة ٣٢٦ ، واتّصل سببه ببدر بن عمار ولزمه ، [1] وعلاَ عنده ، وأصاب كرامةً لم يُصِبْ مِثلَها من قبلُ ، تناوشه الشعراءُ إذ خَافُوهُ على أرزاقهم ، وطَفِقُوا ينتقصون الرجل ويطلبون له العيوبَ ، وأغراهم بذلك ما وَجَدُوا من ترفُّعه عن مجالس لهوهم ، وانصرافِه عن الهزل الذى يكونون فيه ، وظَنُّوا به الكِبْرَ ، فأخذوا يذكرون شعره ويتنادرون به . فلمّا وقعوا على كثرة دَوَران أسماء الأنبياء فى هذا الشعر ، وتشبيهِه نَفْسَه بهم ، وما هو فيه من التعفُّف والتورُّع ، أرادوا له لَقَباً يَنْبِزُونه به ، فلَقَّبوه (المتنبى) ، يريدون المتشبِّهَ بالأنبياء ، وأخذوا يذكرونه بهذا الاسم ، ويتداولونه بينهم . ثم

(١) انظر ما سيأتى فى آخر الباب التاسع (٩) ، ص : ٢٧٠

استفاضت شهرته به لمَّا اتَّصل بأبى العشائر سنة ٣٣٦ ، وصار لا يُذْكَرُ إلاَّ به ، بل لعلّه سَرَّهُ هذا اللَّقب فلم يُنْكِره .

١١٦ / وقد رأيت قَبْلُ أن القبض عَلَيه كان سنة ٣٢٢ ، وأن الناشئ قال : إن أَبا الطيب كان يحضر مجلسه سنة ٣٢٥ بالكوفة ، [1] « وهو بعدُ لم يُعْرَف ، ولم يُلَقَّب بالمتنبى » ، [انظر ما سلف ص : ٢٣٢ ثم ص : ٢٧٠] ، فتلقيبه بالمتنبى كان بعد سنة ٣٢٥ ولا شك كما رأيت ، وبذلك ينتفى أن يكون قد حُبس من أجل دعوى النبوَّة . فلما علا أمر المتنبى وظهر ، وخشِى من خَشى من العلويين ومن إليهم ، أحدثوا من هذا النَّبز (المتنبى) = الذى قُصِد به التشبُّه بالأنبياء فى الخُلُق ، والوَعِيد والإنذار ، وتشبيه نفسه به فى شعره = أحدثوا قصةً مخترعةً عن نُبُوَّةٍ زعموا أن الرجُل ادَّعاها ، وأعانهم على صَوْغِها ما كان من أمر حبسه حين أراد إظهار نسبته إلى الشجرة العلوية المكرمة . فكانت هذه القصص التى نفضناها وأظهرنا بُطْلانها ، والحمد لله .

* * *

● ثم بعد سنين طويلة من كتابة هذا الرأْى الذى استخرجتُه وقطعتُ به ، جاءتنى ترجمة أبى الطيب فى كتاب ابن العديم « بُغْيَة الطلب » ، ونقل فيها ابن العديم عن إمام من أئمة العربية = صحب المتنبّى بشيراز ، وكتب عنه ديوانه بخطّه ، ورآه بخطّه أبو الدرّ ياقوت بن عبد الله مولى الحموى البغدادى = وهو الإمام أبو الحسن على بن عيسى ابن الفرج الرَّبَعّى ، (ولد سنة ٣٢٨ ، ومات فى ليلة السبت لعشر بقين من المحرّم سنة ٤٢٠) . وقال الربعى : « ما أظنّ أحداً صدقَ فى رواية هذا الديوان صِدْقى (يعنى ديوان المتنبى) ، فإنى كنت أكاثره (يعنى يكاثر المتنبى) ونحنُ بشيراز ، وربّما أخذَ عنى من

(١) انظر ما سيأتى [ص : ٢٣٩ ، ٢٤٠] فى دخول المتنبى الكوفة ، وزواجه فى نحو سنة ٣٢٥ ، أيضاً .

كلام أبى على النحوى (يعنى الفارسى) [انظر تراجم المتنبى فى آخر الكتاب ، ترجمة ابن العديم رقم : ١١] .

فقد روى ابن العديم فى ترجمة المتنبى [التراجم فى آخر الكتاب ، رقم : ٩] عن أبى الحسن الربعى قال : « قال لى المتنبىّ : كنتُ أحبُّ البَطَالة وصُحْبةَ البادية = وكان (يعنى المتنبىّ) يذمُّ أهل الكوفة ، لأنَّهم يُضَيِّقون على أنفسهم فى كُلّ شئٍ ، حتى فى الأسماء فيتداعونَ بالألقابِ = ولما لُقِّبتُ بالمتنبىّ ثَقُل ذلك علىَّ زماناً ، ثم أَلِفْتُه » [وانظر ابن العديم أيضاً رقم : ٢٢ ، ٢٩ بل انظر ، فهو أوْلى ، ترجمةَ الربعىّ ، فهى أقدمهن] .

وهذا عينُ ما قلته منذ أكثر من أربعين سنة ، وعين ما قاله الناشئ الشاعر ، وإن كان القول فى تلقيبه بالمتنبىّ فى كتابى هذا ، يحتاج إلى بعض التعديل ، وعلى كل حال ، فقد بَطلت حماقة النبوَّة بحمد الله .

* * *

— ٧ —

****

أَبَنِى أَبِينَا ، نَحْنُ أَهْلُ مَنازِلٍ
أَبَداً غُرابُ البَيْنِ فيها يَنْعَقُ
نَبْكى عَلَى الدُّنيا ، وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ
جَمَعَتْهُمُ الدُّنيَا فَلَمْ يَتفرَّقُوا
والمَرْءُ يَأْمُلُ ، وَالحياةُ شَهِيَّةٌ ،
والشَّيْبُ أَوْقَرُ ، والشَّبِيبَةُ أَنْزَقُ
وَلَقَدْ بَكَيْتُ عَلَى الشَّباب ، ولِمَّتى
مُسْوَدَّةٌ ، ولِماءِ وَجْهِى رَوْنَقُ

****

/ خرج أبو الطيب رحمه الله من سجنه وشقائه وعذابه مُسْتَمِرَّ النفس ، مُكْتَهِلَ ١١٧ القلب ، فقد جرَّب أحداث الزمان ، وما ابْتُلِى به من النكباتِ التى عَرَقَتْهُ فى سجنه ، وما كِيدَ به من أعدائه ، فانطَوى على ما به غيرَ جازع ولا شاكٍ ولا مستسلم ، وابتَسم للدنيا وهو يُضْمِر الغَيظ عليها ، « ولكنه غَيْظُ الأسير على القِدِّ » ، (١) وكان يعمل فى نفسه بما قال بَعْدُ :

هَوِّنْ عَلَى بَصَرٍ مَا شَقَّ مَنْظَرُهُ ... فَإِنّما يَقَظاتُ العَيْنِ كالحُلُـمِ
وَلاَ تَشَكَّ إلى خَلْقٍ فَتُشْمِتَهُ ... شَكْوَى الجريح إِلَى الغِرْبانِ والرَّخَمِ
وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ للناسِ تَسْتُرُهُ ... ولا يَغُرَّكَ مِنهُم ثَغْرُ مُبْتَسِمِ

/ فإن صحَّ ما رأيناه فى ترتيب شعره ، وما قلنا به من أن التَّنُوخِيِّين كانوا قد سَعَوا ١١٨ لدى ابن طُغْج فى إطلاقه من سجنه ، فقد خَرَج صاحبنا من السجن ولحق بالتنوخيين

---

(١) هو للمتنبى وأوله « وغَيْظٌ على الأيام كالنَّارِ فى الحَشَا » . والقِدُّ : القيد من الجلد .

باللاذقيَّة وأقام عندهم وفى جوارهم . وكانت صِلَته وثيقةً بأبناء إسْحق التنوخى (محمد والحسين) ، فلما مات محمد رثاه ، وقد قدَّمنا طرفاً من ذكر ما ورد فى رثائه لهذا الرجل . [1] وبيَّنَّ فى شعره الذى رثاه به ما كان يُضْمِر له من الحب ، وما يَفى له به من حُسْن صنيعه عنده . وأخلَص بعد موت (محمد) الوفاءَ والمودةَ لأخيه (الحسين بن إسحق) ، ولكن صاحبنا لم يسلم هناك من الأعداءِ ، أعدائِه من العلويين والفاطميين والعباسيين ، فقد قَصَّد بعضُ شعرائهم قصيدةً فى هجاء الحسين بن إسحق ونَحَلَها أبا الطيب ، فكتب الحسين إلى أبى الطيب يُعاتبه ، فرَدَّ جَوَاب كتابه بأبيات يقول فيها ، يعاتبه على تصديقه ما بلغه :

تُطِيـعِ الحَاسِدِيـــنَ وأنْتَ مَرْءٌ   جُعِـلْـتُ فِداءَهُ وَهُـــمُ فِدَائى
وهَاجِى نَفْسِهِ من لاَ يُمَيِّـــزْ   كَلاَمِى مِنْ كَلاَمِهِـمِ الهُـــرَاءِ
وإنَّ من العَجَائِبِ أنْ تَرَانِى ،   فَتَعْـدِلَ بى أَقَـلَّ من الهَبَـــاءِ
وتُنكِـرَ مَوْتَهُـم ، وَأنـا سُهيـلٌ   طَلَعتُ بمَـوْتِ أولاَدِ الزِّنَـــاءِ

ونحن نرى أن المتنبى أقام قليلاً فى جوار الحسين ، ثم وافاه كتابٌ من جَدَّته = وقد كان بَلَغها خبرُ آنطلاقه من السجن = تَبُثُّه شوقَها ، وتشكو له بثَّها وحُزْنها ، وتعزم عليه فى الرحلة إليها ، وتذكُرُ لَهُ ما كان من أمرها مع العلويين بالكوفة ، وأنها أرضَتْهم ، وأخذت على نفسها العهد أن يُقْلِع / وَلَدُها عما تهوَّر فيه من إرَادته إظهار نسبه ، وبيَّنت له مَغَبَّة ما ينوى من ذلك ، ووعظته بما أصابه من قبلُ فى سجنه ، وأحرجته فى الحضور إليها ، فلم يجد قلبُ أبى الطيب بُدًّا من الطاعة ، وكتم عَزْمَهُ عن الحسين بن إسحق التنوخىّ ، ولكنَّ عزمه لم يَخْفَ على صاحبه ، فأراده على المُكْث ، فأبدَى أبو الطيب رأيه بالموافقة ، وأضمر الخلافَ والرِّحلة عن اللاذقية إلى الكوفة . وقد أشار إلى ذلك فى مدحه إذ يقول ، معرِّضاً بعزيمة البقاء ، لِيَصْرِفَ التنوخى عن أن يعوقَه :

١١٩

---

(١) انظر ص : ١٤٩ ، ١٥٠ ، ٢٢٨ – ٢٣٠ .

لَكَ الخيرُ ، غَيْرِى رَامَ من غَيْرِكَ الغنى ، وغَيْرِى بِغَيْرِ (اللاَّذِقِيَّةِ) لاَحِقُ
هِيَ الغَرَضُ الأَقْصَى ، ورُؤْيَتُكَ المُنَى ، ومَنْزِلُك الدُّنيا ، وأَنْتَ الخَلائِقُ

واتَّخذ صاحبنا الليل جَمَلاً ، كما قالوا ، وانحدرَ إلى الكوفة ، وقد امتلأت نفسه بأحقاده وآلامه وآماله ، وسار من بادية إلى مدينة ، ومن مدينة إلى بادية ، يَنْظر إلى الفتن التى مزَّقت أمَّته وَأبْلَتْ جِدَّتها ، وما دَاخلها من الانحلال والتفكك ، وما أصاب أخلاقَها من السقوط والتسفُّل ، وما فَعَلت الدَّعوات السِّرية فى نَقْض مجدها ، وتفريق كلمتها ، حتى فَشِلوا وذَهَبَتْ رِيحهمْ .

وكانت هذه الفترة من حياة الرجل ، فترةَ نَظَر وبَصَرٍ وتجربَةٍ ، وأوانَ تردُّدٍ لا يدرى ما هو فاعلٌ ولا ما الله فاعلٌ به . فقد رمى بنفسه إلى الكوفة على غَرَرٍ ، مَرْضاةً لجدّته ، لا رغبةً منه فى دخولها ، وأخذته الوساوس فيما يُرَاد به هناك ، بعد الذى كان منه بالشَّام من إرادته إظهار نسبته العلوية . وكان الثأر يغالبه على ترك النيَّةِ والعودة إلى الشام ، لولا ما يخاف على جَدَّته من سُوء فعله . فدَخل الكوفة بهَمّه وأحقاده وآلامه سنة ٣٢٣ ، أو فى أواخرها على / الأرجح ، فلما استقرَّ بها ، رَأى ورأتْ جَدَّته أنَّ ثورتَه ليست مما يجدى عليه شيئاً ثَمَّ ، فانصرفَ إلى مَجَالس الكوفة ومساجدها ، يَشْغَلُ بطلبِ العلم نَفْسَه عما يُساورها ويهزُّ منها ، وكانَ لانصرافه هذا وإقبالِه على شيوخ الأدب والدين والفلسفة وغيرها من علوم العصر ، أثرٌ كبير فى تهذيب نَهْجه الشعرىّ ، واستجَمَّ بهَدْأَةِ العلم ، واستجدَّ بها قوةً أخرى على الثورةِ والتقلقل ، بدت فى شعره بعد مَخرجه من الكوفة رائعةً مدوّيةً ، كأنما انفجرت فى لسانه انفجار البركان فى زلازل الأَرض .

١٢٠

* * *

وكان المتنبى لسنته تلك ، سنة ٣٢٣ ، عَزَباً لا يأوى إلى سكَنٍ من النساء ، ولَعلَّ جدَّته رأت أن تهدِّىءَ منه قليلاً بالزَّواج ، فزوّجته على غير رغبةٍ منه قريباً من سنة ٣٢٥

قبل خروجه من الكوفة ، [١] وذلك لأن المتنبى بعد مرجعه إلى الشام سنة ٣٢٦ ، ذكر لأوّل مرّة فى شعره « الأبوّة » . فمِمّا عرفناه من خلق أبى الطيّب أنه كان إذا نزل بِه أمرٌ أو جَدَّ فى حياته جديد ، فسُرْعَانَ ما يتلجْلَج ذلك فى صَدْره وَلاَ يستقِرُّ حتى يشير إليه فى شعره ، لكثرة ما تلِدُ الحوادث فى شاعريّةِ هذا الرجل من المعانى والآراء .... قال أبو الطيب فى قصيدة يمدح بها أبا أيوب أحمد بن عمران قريباً من سنة ٣٣٢ ، يذكر المرأة :

وترى المروّةَ والفُتُوَّةَ والأبُوَّ ةَ فِىَّ ، كُلُّ مَلِيحةٍ ، ضَرَّاتِهَا

هُنَّ الثلاثُ المَانِعَاتِى لَذَّتى فى خَلْوَتى ، لا الخوفُ مِن تَبِعَاتِها

١٢١ ولعلّ وَلَدهُ هذا الذى ذكره فى قوله : « الأبوة » هو « محسَّدٌ » الذى / ورد ذكره فى خبرٍ مرويٍّ وهو بواسط سنة ٣٥٤ [انظر ما سيأتى ص : ٣١٧ - ٣٢٠ فى ذكر امرأته وموتها] ، وفيه أنه أجاز شِعراً أُنشِد ، وورَد ذكره أيضاً فى مقتل المتنبى ، وأنه قتل معه . فلو فرضنا أنه قُتِل وهو فى الثلاثين من عمره أو أقلّ ، لكان هذا التاريخُ الذى حدَّدناهِ لزواج المتنبى ، هو أقربَ إلى الصواب إن شاء الله .

* * *

وقد كان قُرْبُ المتنبى من جدَّته الحازمة فى الكوفة ، وتزوُّدُه من العلم هناك ، مما ملأَه حكمة جديدةً بدأت تستعلن فى شعره الذى قاله بعدُ . هذا على أنه ، مُقامَه بالكوفة ، لم يمدح أحداً ، ولم يتعرَّض بشعره لمعروف ولا لمنكر ، على كثرة الأَحداث التى كانت فى تلك السنوات ، وعلى شدة ما لَقِى من العنت وهو بين أظهُرِ أعدائه أو أصحاب ثأره ، ولكنه كان متململاً من مُقَامه ، مضطرباً فى عيشه . وكان أثرُ هذا التململ والاضطراب فى نفسه المُسْتَحْصِدَةِ القادرة على الكتمان والاتّزان فى بعض الأحايين ، أَنْ طَفِق يُوَلِّد هذا الشاعر مَعَانى نفسِه ، ويختار لها ألفاظها ، وينتقى

---

(١) انظر ما سلف ص : ٢٣٥ ، والتعليق هناك .

عباراتها ، مدقّقاً ممحصاً مفتّشاً عن الكلام الموجَز الذى يستطيع أن يضمر فيه ما يجيش فى صدره ، ويعتلج فى نفسه ، حتى استوَى على طريقةٍ ممتدَّةٍ من الأُصول الشعرية التى بيناها فى أوَّل كلامنا ، [١] إلى الغاية التى كان يرمى إليها ، ولذلك اختلف نَهْجُه فى الشعر الذى قاله بعد مَخْرجِه من الكوفة فى سنة ٣٢٦ ، اختلف عن نهجه الأوّل اختلافاً بيّناً ، ولكنه لم ينقطع من الاستمداد من الأصل الأوّل الذى هو الطبيعة القائمة فى النفس ، والتى لا تتغيَّر فى أصلها ، وإن تغيَّرت فى الصورة والصَّوغ ومذهب البلاغة والإفصاح .

هذا ، وما من شكٍّ فى أن الروايةَ عن هذه الفترة من حياة الرجل ، / لم تأتنا بحديثٍ يُعْلَم به من أمر أبى الطيب كثيرٌ ولا قليلٌ ، إلا ما حدَّثناك به من أنه كان يحضر مجلس الناشئ بالمسجد الجامع بالكوفة سنة ٣٢٥ ، ليسمع منه شعره ويكتبه مع الكاتبين ، وكان لم يعرف بَعْدُ ولم يلقب بالمتنبى ، [٢] إلاَّ أن صاحبنا فى رثاءِ جدته سنة ٣٣٥ ، قد أفصح عن السَّبب فى فراقه الكوفةَ فى هذه المرة بعض الإفصاح ، وعرَّض بأشياءَ كانت وقعت له يومئذٍ هناك . يقول : [٣] ١٢٢

وَلَوْ لَمْ تكُونى بِنْتَ أكْرَمِ وَالِدٍ — لَكانَ أَبَاكِ الضَّخْمَ كونُكِ لى أُمّا

لَئِن لَذَّ يَوْمُ الشَّامتين بيَوْمِها — لَقَدْ وَلَدتْ مِنِّى لِآنُفِهِمْ رَغْمَا

(تَغرَّبَ لاَ مُسْتَعْظماً غيرَ نَفْسِه — وَلاَ قَابِلاً إلاَّ لِخالِقِهِ حُكْمَا)

(وَلاَ سَالِكاً إلاَّ فُؤَادَ عَجَاجَةٍ — ولاَ وَاجداً إلاَّ لمَكْرُمَةٍ طَعْمَا)

(يَقُولُون لِى : ما أنتَ فى كل بلدة !! — وَما تَبْتَغى ؟ مَا أَبْتَغِى جَلَّ أنْ يُسْمَى)

---

(١) انظر ما سلف ص : ١٨٣ - ١٨٥ .

(٢) انظر ما سلف ص : ٢٣٢ ، ٢٣٦ .

(٣) قد آثرنا أن ننقل لك الأبيات جميعها فى نظمها لتقرأها متدبراً ، فإن فى نفس الشاعر وشعره ، الذى استنبطناه منه ما أردناه هنا ، وفى نسبه هناك ، ما يتخذ دليلاً على صحة ما نقول به ، وانظر ما سيأتى ص : ٢٧٧ ، تعليق : ١ .

(كَأَنَّ بَنِيهِمْ عَالِمُون بأنَّنى   جَلُوبٌ إليهِمْ من مَعَادِنِه اليُتْمَا[1]
وَمَا الجَمْعُ بينَ الماءِ والنَّارِ فى يَدِى   بأَصْعَبَ مِن أَنْ أجمعَ الجَدَّ والفَهْمَا
(وَلٰكِنَّنِى مُسْتَنْصِرٌ بِذُبَابِهِ   وَمُرْتَكِبٌ فى كُلِّ حَالٍ بِه الغَشْما)
(وَجَاعِلُه يَوْمَ اللقاءِ تَحِيَّتى   وَإلاَّ فَلَسْتُ السيِّدَ البَطَلَ القَرْمَا)
إذا فَلَّ عَزْمِى عن مَدًى خَوْفُ بُعْدِه ،   فأَبْعَدُ شيْءٍ مُمْكِنٌ لم يجِدْ عَزْمَا
/ (وإنِّى لَمِنْ قَوْمٍ كأَنَّ نُفوسَهمُ   بها أَنَفٌ أن تَسْكُنَ اللَّحْمَ والعَظْمَا ١٢٣
(كَذا أنا يا دنيا ، إذا شِئْتِ فَاْذهَبِى ،   وَيا نفسُ زِيدى فى كِرائِهِهَا قُدْمَا)
(فَلاَ عَبَرتْ بِى ساعةٌ لا تُعِزُّنى   وَلاَ صَحِبَتْنى مُهْجَةٌ تَقْبَلُ الظُّلْمَا)

قد بينا لك أوَّلاً أن أبا الطيب بقوله لجدَّته فى القصيدة : « هبينى أخذت الثأر فيك من العِدَى » وقوله : « لئن لَذَّ يوم الشامتين بيومها » - إنما أراد « بالعدى » و « الشامتين » جمَاعةَ العلويين الذين أخْفَوْا عنه نسبه ، فيما ذهبنا إليه ، ومنعوُه الانتماءَ للدَّوحة العلوية المباركة [ص : ١٧٠ ، ١٧٤] ، فإذا تقرر عندك هذا وارتضيته ، وجدت أنَّ قولَه بعدَ ذلك :

تَغَرَّب لاَ مُسْتَعْظِماً غيرَ نَفْسِه   ولاَ قابلاً إلاّ لِخَالِقِه حُكْمَا

يدلُّ على أن هؤلاءِ العدى والشامتين بجدَّته ، والذين منعوه من دخول الكوفة حين قصدها قبل وفاة جدته سنة ٣٣٥ = كانوا فى تلك السنة التى فارق فيها الكوفة (٣٢٥) ، أو أوائل سنة ٣٢٦ ، قد أرادوهُ على خُطَّة خَسْفٍ ، فأَبى أبو الطيب أن يركبها ، وشَمَخ بنفسه أن يذلَّ لأحدٍ من الناس ، أو يقبلَ له حكماً يريد أن يُجْرِيَه عليه

---

(١) قوله : « كأن بنيهم » ، دليل على أنه أراد قوماً بأعيانهم ؛ ولولا ذلك لقال : « كأن بنيها » ، يرجع الضمير إلى الدنيا ، يعنى الناس جميعاً كما قال بعد : « كذا أنا يا دنيا » . وهذا أسلوب من أساليب أبى الطيب فى الإشارة إلى أغراضه التى فى نفسه ، والتى لا يريد التصريح بها ، وإنما يجعلها إشارة لمن يريد إفهامهم غرضه .

وفيه المذلّةُ والهوانُ وإهدارُ الكرامة ، وإسقاطُ الفتوَّةِ والمروءَة ، وآثر أن يخرج عن الكوفة مُرَاغماً لهم ، مفضلاً آلامَ الغربة على الهوان فى الوطن .

وبَيِّنٌ من الشعر أنّهم كانوا يستضعفونه ، ويسفِّهون رأيه فى ركوب الفلوات ، وتنقُّلِه بين البلدان : بقوله : « ما أنت فى كل بلدة ؟ » وقولهم : « ما تبتغى ؟ » ومَا تريد من فراق الكوفة ، تَذْرَع الأرض من بلد إلى بلد ؟ فكان جوابه أن ما يَبْتغيه أجَلُّ من أن يُسَمِّيَه لهم . ثم استدرك على ذلك / فزعم أنهم إنما يسألونه ويُلِحُّون عليه فى استخراج ذات نفسه ومُضْمَرِها لخوفهم منه ، وأنّهم يعلمون أنه سيأتيهم بالذّبْح الذى يترك صغارَهم أيتاماً ونساءَهم ثَكالَى . وقد أبلغ فى إنذاره لهم بعدُ كما ترى فى الأبيات ، ورَهَّبهم بما يكون منه ، وذكّرهم بقومه ومَحْتدهم وحُرِّيتهم وقلةِ مُبالاتهم بالمهالك ، طبيعةً قائمةً فيهم ، حتى إن نفوسهم لتكاد تَكْرَهُ البقاءَ فى أبدانهم ، لما فيهم من الحُرِّية والشرف . ١٢٤

ثم أفصح المتنبى عن الذى أرادوه به فى قوله :

فلا عَبَرَتْ بِى سَاعَةٌ لا تُعِزُّنِى وَلاَ صَحِبَتْنِى مُهْجةٌ تَقْبَلُ الظُّلْمَا

فكأنّ الذى كان منهم ، كان وَضْعاً من عزة نفسه ومَهانةً لها ، وأنهم كانوا يريدون أن يُنْزِلوا به ظلماً بيّناً لا يَقِرُّ عليه حرٌّ . وعندنا أنهم أرادوا أن يُرْضُوه بِرَضِيخةٍ من المال تكون عليهم كالجزية له ، يأخذها منهم كلَّما حَالَ الحَوْلِ ، على أن يبقى بالكوفة ، ويرضى بما يريدون منه ، غيرَ مخالف لهم ، ولا مُظْهِرٍ لهم عدواة ، وإن شاءَ أن يمدحهم بشعره فعَلَ ، وله عليهم أن يعطوه فى مديحه لهم مثل الذى يُحْبَى به من غيرهم إذا مدحه ، وكَبُر على أبى الطيب أنْ يُرْشَى بالمال حتى يسكُت عنهم ، ويَقِرَّ على ظلمهم له وضَيْمِهم إيَّاه ، وفى الأرض سَعَة ومَرَادٌ لمن شاءَ أن يكون عزيزاً مكرّماً .

وخرج صاحبنَا من الكوفة قاصداً الشام مرّة أخرى ، ونزل على « عليّ بن إبراهيم التَّنوخِيّ » .

* * *

– ٨ –

****

وَٱحتِمَالُ الأَذَى – وَرُؤْيَةُ جَانِبِـ

ـهِ – غِذَاءٌ تَضْوَى بِهِ الأَجْسَامُ

ذَلَّ مَنْ يَغْبِطُ الذَّلِيلَ بِعَيْشٍ

رُبَّ عَيْشٍ أَخَفُّ مِنْهُ الحِمَامُ

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوَانُ عَلَيْهِ

مَا لِجُرْحٍ بِمَـيِّتٍ إِيـلَامُ

أَقَرَاراً أَلَـذُّ فَوْقَ شَرَارٍ ؟!

وَمَراماً أَبْغِي وَظُلْمِـي يُرَامُ !

****

/ كان شعر أبى الطيب فى أوّل أمره ، كما حدّثناك ، قد اختلط بألفاظ لا تَسْتَقِرُّ فى الشعر ، وقَعَت إليه من ألفاظ المتكلمين والمتفلسفة وأصحاب المنطق وأهل الجدل فى الملل والنِّحَل وغير ذلك ، وكان أسلوبه يَجْرِى على طريقة هؤلاء فى التَّوجيه والتقسيم ، ثم فى توليد المعانى الشعرية على طريقة أهل العصر فى توليد معانى الجدل واللَّجاج ، لإرادة الفَلج فى الخصومةِ ، لا لتقرير الحق فى القضاء والحكومة . وأتاه ذلك من قُوَّةِ حافظته وكثرة دَوران هذه العلوم فى فكره ، واشتغاله بالنّظر فيها نظر المحقِّق المفكِّر ، إلاّ أن تفكيره لم يكن محضاً لهذه العلوم ، بل كان فى عَقْله الذى يفكِّر به ، فكْرُ الشاعر الذى يتَّسع بالعلوم ويَمُدُّ بينها وبين طبيعته الشعرية أسباباً من الشِّعْر والخَيال . ولما عادَ إلى الكوفة سنة ٣٢٣ ، وهى مقرٌّ كثير من أئمة العلم والأدب والشعر ، ولزم مجالسهم سَنَتين أو أَشفَّ قليلاً ، عَمِلت هذه المجالس فى تهذيب علمه الذى وقع عليه فى / الصِّغَر ، وعَمِلت طبيعته الشعرية فى هذه العلوم عملها ، وكان له من الفراغ ما يكفيه للتفكير والاتّساع فى النظر ، وللترجيح والتعديل بين علمه وبين طبيعته . ثم كان له من توقُّد ١٢٥ ١٢٦

ذِهْنه ، واشتعال قُوَى نفسه الملتهبة بأحقادها وآلامها ، ما يحمله على آستخراج روائع المعانى التى تُوَافق همَّه وألمه ، وعلى توليد الآيات البيانية التى تَتَّصل بما فى قلبه وفكره ، وعلى اجتباء العبارة التى تكون فى إيجازها بمنزلة الرَّمز لما يدور فى نفسه من المعانى المطَوَّلة .

* * *

والآنَ ، وقد رجع صاحبنا إلى الشام فى جوارِ على بن إبراهيم التنوخى سنة ٣٢٦ ، كان أوَّل ما قال ، هذا الشعرَ الذى أوجزنا لك فى صفته ، دَالاًّ على مذهبه الجديد ، وعلى تدرُّج حالته النفسية تدرُّجاً متوالياً متفاسحاً ... يقول :

أُفكِّـر فى مُعاقَـرَةِ المَنايَـا ... وقَوْدِ الخَيْلِ مُشْرِفَةَ الهَـوادِى

(زَعِيمٌ للقنا الخَطِّىِّ عَزْمى ... بسَفْكِ دَم الحواضِرِ والبَوَادِى)

(إلىَ كَمْ ذَا التَّخَلُّفُ والتَّوانِى ! ... وكَمْ هَذا التَّمادِى فى التَّمادِى !!

وشُغْلُ النَّفْسِ عَنْ طَلَبِ المَعالى ... ببَيْعِ الشِّعْرِ فى سُوق الكَسَادِ !!

وَمَا مَاضِى الشَّبـابِ بمُسْتَرَدٍّ ... ولاَ يومٌ يَمُـرُّ بمُسْتَعَـادِ

مَتى لَحَظَتْ بَياضَ الشَّيْبِ عَيْنِى ، ... فقـد وَجَدَتْـهُ منها فى السَّوَادِ

مَتى مَا آزْدَدْتُ مِنْ بَعْدِ التناهِى ، ... فقد وَقَع آنتِقاصِى فِى ازْدِيادِى

ثم يقول .... بعدُ :

(وَمَا الغَضَبُ الطَّرِيفُ وَإنْ تَقَوَّى ... بمُنْتَصِفٍ من الكَرَمِ التِّلاَدِ) (١)

(فَلاَ تَغْـرُرْكَ ألسِنَـةٌ مَوَالٍ ... تُقَلِّبُهُـنَّ أفئِـدَةٌ أعَـادِى)

/ (وكُنْ كالموتِ ، لا يَرْثِى لِباكٍ ... بَكى منهُ ، ويَرْوَى وهْو صَادِى) ١٢٧

فَإنَّ الجُرْحَ يَنْغَرُ بعدَ حِينٍ ، ... إذا كَانَ البنَـاءُ على فَسَادِ (٢)

---

(١) « الطريف » القريب العهد ، و « التلاد » الموروث المتقادم .

(٢) نغر الجرح بالغين (كفتح) ، إذا انفجر وسال منه الدم . ويقال : جرح نغَّار ، على المبالغة . وفى رواية (ينفر) بالفاء يراد بها يتورم . والذى أثبتناه أجود معنى .

وإنَّ الماءَ يَجْرِى مِنْ جَمَادٍ ... وَإنّ النارَ تَخْرُجُ مِن زِنَادِ
(أَشَرْتَ أبَا الحسين بمَدْح قَوْمٍ ... نَزَلْتُ بهم ، فسِرْتُ بِغَيْر زَادِ)
وظَنُّونى مَدَحْتُهُمُ قَدِيماً ، ... وأنت بما مَدَحْتُهُمُ مُرَادِى
وَإنِّى عنكَ بَعْدَ غدٍ لَغَادٍ ، ... وَقَلْبى عَنْ فِنَائِك غيرُ غَادِ)
مُحِبُّكَ حَيْثُما ٱتَّجَهَتْ رِكابى ، ... وَضَيْفُكَ حَيْثُ كُنْتُ من البلادِ

وكان شعر صاحبنا فى هذا الباب من القول = إلى ما قبل هذه القصيدة = شعراً قريباً لم تستخرجه فكرةٌ عَلِيمةٌ مستوعبة لأحداث الزّمن ، ولا نظرةٌ مجرّبة نافذةٌ فى ضمير أخلاق الناس ، ولم يكن يزيدُ على الدلالة على ما فى نفس الفتى من السموّ ، وما فى قلبه من كرم العُنْصُر ، وما تُبْدِى طبيعتُه الفَتِيَّةُ من أصول الرُّجولة المستحكمة فى طبعه وغريزته ، وما يملأ صدرَه من أسباب الحقد وطلب الثأر ، وما يكشف عن نِيَّته فى إحداثِ حَدَثٍ عظيم يُجْلِبُ فيه على أعدائه بخيله وسُيوفه حتى يُدِيل لها من « دَوْلَة الخَدَمِ » الذين مَلكوا على الناس أمرَهم ، وصرَّفوهم فى أهوائهم .

فانظر الآن فَرْقَ ما بين الشعرين : هذا الشعر ، وهذا النبْذ الذى أَذْكره لكَ من شعره فى صباه : (١)

عِشْ عَزِيزاً أَوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ ... بَيْن طَعْنِ القَنَا وخَفْقِ البُنُودِ
/ (فَرُؤُوسُ الرِّماحِ أَذْهَبُ لِلغَيْظِ ، ... وأَشْفَى لِغِلِّ صَدْرِ الحَقُودِ
فَٱطْلُبِ العِزَّ فى لَظًى ، ودَعِ ... الذُّلَّ ولو كان فى جِنَانِ الخُلودِ
يُقْتَلُ العاجزُ الجبانُ ، وقد يَعْجِـ ... ـزُ عَن قَطْعِ بُخْنُقِ المَوْلُودِ (٢)
ويُوَقَّى الفَتَى المِخَشُّ وَقَدْ ... خَوَّضَ فِى ماءِ لَبَّةِ الصِّنْدِيدِ

١٢٨

(١) قصدنا بجمع هذا الشعر هنا أن تنظر فيه بما يغنينا عن الإطالة فى تفصيل الفروق بين شعر صباه ، وبين شعره الذى قاله بعد خروجه من الكوفة سنة ٣٢٦ .

(٢) « البُخْنُق » بُرْقعٌ صغير يُغَشِّى العنق والصدر ، أو كالبُرْنُس الصغير يكون للأطفال يقى ملبس الطفل من سائل اللبن والريق ، ويسمونه فى مصر « المَرْيَلة » .

وقوله :

وَمَنْ يَبْغِ مَا أَبْغِى من المَجْدِ والعُلَى تَسَاوَ المَحَايِى عِنْدَهُ والمَقاتِلُ
أَلاَ ليست الحاجاتُ إلاّ نُفوسَكُمْ وليسَ لنا إلاّ السُّيوفَ وَسَائلُ
فما وردَتْ رُوحَ آمرِئٍ رُوحُه لَهُ ، ولاَ صَدَرتْ عن بَاخِلٍ وَهْوَ بَاخِلُ
غَثَاثَةُ عَيْشِى أن تَغَثَّ كَرَامتى وليْس بِغَثٍّ أنْ تَغَثَّ المَآكِلُ

وقوله :

لَيْسَ التَّعَلُّلُ بالآمَالِ مِنْ أَرَبِى ولاَ القَناعَةُ بالإقْلالِ مِنْ شِيَمِى
ولاَ أَظُنُّ بَنَاتِ الدَّهْرِ تَتْرُكُنِى حَتَّى تَسُدَّ عليها طُرْقَها هِمَمِى
لُمِ الليالِى الَّتِى أَخْنَتْ عَلَى جِدَتِى بِرِقَّةِ الحالِ ، وَآعْذِرْنِى ، ولاَ تَلُمِ
أَرَى أناساً ، ومَحْصُولى عَلَى غَنَمٍ ، وذِكْرَ جُودٍ ، ومَحْصُولِى عَلَى الكَلِمِ
وَرَبَّ مَالٍ فقيراً مِنْ مُرُوءَته ، لَمْ يُثْرِ منها كَما أَثْرَى مِن العَدَمِ

إلى آخر القصيدة . وقد مضت منها أبياتٌ ، [ص : ٢٢٠ ، ٢٢١] .

* * *

فتدبر النَّهجين فى هذين الضَّرْبين من الشعر فَضْلَ تدبُّر ، تَجِدْ ما رسمنا لك واضحاً بيِّناً ، وتَرَ أثَر هذه الرحلة إلى الكُوفة ، على ما بيَّنا لك آنفاً ، مستعلناً غيرَ خافٍ .
١٢٩ / فقد بدأ صاحبنا يفكّر بما اكتسب من تَجْرِبَةٍ ، وما أفاد من علم ، ويَدُسُّ ما ألَمَّ به من الأحداث فى شعره منتزعاً للمثَل ، وضارباً ببلاغته فى مَفْصِل الحكمة ، ونافذاً بألفاظه فى مُضْمَر أخلاق الناس حتى يكشف لك عنها الغطاءَ . فآنظر أين قوله أوّلاً : « أرَى أُناساً ومحصُولى على غنم ... » ، من قوله بعد :

فلاَ تَغْرُرْكَ أَلْسِنَةٌ موالٍ تُقَلِّبُهنَّ أَفْئِدَةٌ أَعَادِى

فإنَّ الموضعَ الذى أَخَذ منه المعنيين واحدٌ ، ولكنه كان فى الأوَّل غَسِيلاً محصوراً غير شامل ، وكانَ فى الآخِر منهما حكيماً شاملاً مترامياً نافذاً إلى أصل طبيعة الكذب فى هؤلاء الناس ، مُمْتَدَّةً من ضمائرهم إلى ألسنتهم . والسرُّ كلُّ السرِّ فى نسبة تحريك اللسان الذى يظهر المودة والولاء ، إلى الفؤاد الذى يُضْمِر البَغْىَ والعدوانَ والكذبَ والنفاقَ . (١)

* * *

هذا ، وقدْ بدأ أيضاً يَصِف فى شعره ما وصلت إليه الأمّة العربية ، إذْ ملكتها الموالى من الترك والديلم وغيرهم ممن كانوا أوَّلَ أمرهم بمنزلة العبيد ، وذلك مما استفاده فى رحلته إلى الكوفة ، وما رآه فى بلاد العربية . ولم يُخْلِ هذا مما يدور فى نفسه ، وما وقع له من المصائب والمكايد والحسد .... يقول وهو يمدح علىّ بن إبراهيم التنوخى أيضاً حِين نزل به سنة ٣٢٦ ، أو كان ذلك فى أول سنة ٣٢٧ :

/ (وَإنَّمَا الناسُ بِالمُلوكِ ، وَمَا تُفْلِحُ عُرْبٌ مُلوكُها عَجَمُ) ١٣٠

(بكُلِّ أَرْضٍ وَطِئْتُهَا أُمَمٌ تُرْعَى بِعَبْدٍ كأنَّهَا غَنَمُ)

يَسْتَخْشِنُ الخَزَّ حِينَ يَلْمُسُهُ وَكانَ يُبْرَى بِظُفْرِهِ القَلَمُ

إنى وَإنْ لُمْتُ حاسِدىَّ ، فَما أُنْكِرُ أَنِّى عُقُوبَةٌ لَهُمُ

وكيف لاَ يُحْسَدُ آمرُؤٌ عَلَمٌ لَهُ على كُلِّ هَامَةٍ قَدَمُ

يَهابُهُ أَبْسَأُ الرِّجَالِ به ، وتَتَّقِى حَدَّ سَيْفِهِ البُهَمُ (٢)

(كفانِىَ الذمَّ أنّنى رجُلٌ أكْرَمُ مَالٍ مَلَكْتُهُ الكَرَمُ)

---

(١) سيكون تفسير هذه الأسرار البيانية واستخلاص حالته النفسية منها فى كتابنا عن المتنبى إن شاء الله ووفق . (هكذا قلت منذ أربعين سنة ، ولم أف بما قلت حتى اليوم ، وأرجو أن أفى بما وعدت إن شاء الله) .

(٢) « أبسأُ الرجال به » ، آنسهم به ، وأقربهم منه مجلساً ومودةً .

يَجْنِى الغِنَى لِلِّئَامِ ، لو عَقَلوا ، ما لَيْس يَجني عَلَيْهِمُ العُدُمُ
(هُمُ لِأَمْوَالِهِمْ وَلَسْنَ لهم ، والعَارُ يَبْقَى ، والجُرْحُ يَلْتَئِمُ)

ثم قولُهُ فى سنة ٣٢٧ فى مدح المُغِيث بن علىّ بن بشر العِجْلّى :

أذَاقَنِى زَمَنِى بَلْوَى شَرِقْتُ بها لَو ذَاقَها لَبَكَى ، ما عاشَ ، وَٱنْتَحبَا

الأبيات [انظر ص : ١٨١] ، وقولُهُ لهُ أيضاً :

فُؤَادٌ مَا تُسَلِّيهِ المُدَامُ (وعُمْرٌ مِثْلُ مَا تَهَبُ اللِّئَامُ)
(وَدَهْرٌ نَاسُهُ نَاسٌ صِغَارٌ ، وإنْ كانَتْ لَهُم جُثَثٌ ضِخَامُ)
وَمَا أنا مِنْهُمُ بِالْعَيْشِ فِيهِمْ وَلٰكن مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ [(١)]
(أَرَانِبُ ، غيرَ أَنَّهُمُ مُلوكٌ ، مُفَتَّحَةٌ عُيُونُهُمُ ، نِيَامُ)
(بأجْسامٍ يَحَرُّ القَتْلُ فِيهَا ، وَمَا أَقْرَانُهَا إلاَّ الطَّعَامُ) [(٢)]

وأبياتاً أخرى ....

/ وكانت حكمةُ المتنبى وبلاغتهُ فى هذه الفترة آتيةً من قبل نَظَرِه فى أمر نفسه ودَخِيلتها وخاصَّتها ، وما يُحيطُ بها وما يؤثِّر فيها ، ويُثير من كوامنها وعواطِفها ، وثَبَتتْ فكرتُه على ذلك . وطَفِق يقلِّب الأمورَ والأحداثَ فى الدنيا كلها على امتدادِ نفسِه واتساعِ قلبه وهمَّته ، فانفجر بين جنبيه يَنْبُوع الكلام المتدفق ، وفيه من قوته ورُجولته ، ومن بيانه وفصاحته ، ومن ثأره وعَدَاوته ، ومن تهكُّمه وسُخْرِيته . وخَرَج مديحُهُ أيضاً عن نَهْجِه الأوّل ، فصارَ أدقَّ وأبلغَ فى أداء المعانى ، وفى تصوير الفكرة باللفظ المُقَارِب ، وانقلب من مَدِيحٍ معروفٍ مقلِّدٍ ضعيفٍ ، إلى مديح لا يُراد به الممدوح خاصةً ، وإنما يريد به المتنبِّى أفكارَه هُوَ فيمن يحق له أن يمدحهم ، فوقع فى كلامه المبالغة . و « المبالغة »

(١) « المَعْدِن » ، المكان من الأرض تستخرج منه الجواهر ، وهو الذى يسمونه اليوم « المنجم » . و « الرَّغامُ » ، التراب .

(٢) « يحرّ القتل فيها » ، أى يشتدُّ ويستحرُّ . و « الأقران » جمع « قِرْن » ، وهو كُفْءُ الرجل فى الحرب والقتال .

١٣١

فى شعر أبى الطيب ليست كالمبالغة فى شعر غيره من الشعراءِ ، فهو إذا ذكر الممدوح وبالغ فى صفته ، فإنما يعطى الشعرَ حقَّ نَفْسِهِ من أفكاره فى عظمة الرجال الذين عَدِمَهم فى زمنه ، وكان يَوَدُّ أن يمدحهم بهذا الشعر ، ويحفظَ لهم فيه صورةً حيَّةً باللفظ الناطق البليغ ، [انظر ما سيأتى ص : ٢٦٣ ، ٢٦٤] .

فأنت ترى أنَّ نبوغ المتنبى إنما بدأ يتجلى ويتكشَّف حين أرغمتْهُ هَماهِمُ نفسه على استيعاب ما يحسُّ به من العواطف المتباعدة والمتقاربة ، فكانت دراسة قلبه ، ومعرفة دقائق ما يَحُزُّ فيه من الآلام ، ثم المعانى التى تتولّد من هذه الآلام ، أصْلاً من الأصولِ العظيمة فى نبوغه ، ثم فى طبع شعره بطابع لا يخفى على ناظرٍ أو متأمِّلٍ ، ثم فى هَدْيه إلى أنَّ الشعر لا يكون شعراً إلاّ حين يَرْوَى من معانى القلب ويستقى منها . ولهذا كانت إجادة المتنبى بالغة أقصَى غاياتها فى شعره الذى قاله فى تصوير رجال الحرب ، أو فى رسم صُوَر الحرب ، أو فيما كشف به عن ضميره الذى كان كحَوْمَة الوغى بغُبارها ودمائها / وقتلاها ، وقعقعة سلاحها ، وتَدَاوِى أصواتها ، وٱلتماع أسنّتها وحِرَابها . واستمرَّ نبوغه ١٣٢ أو أكثره على هذا الباب ، حتى كانَ ٱتِّصاله بسيف الدولة ، فبدأت هناك فى قلبه معانٍ أخَرُ ، [1] تفاسحت بها نفسه ورَحُبَت ، فٱمتَدَّت بلاغته ، وانبسط نبوغه على الحياة كلها ، فأخذ منها ، ثم أعطى حكمةً باقيةً وبياناً خالداً ، .... على أن هذه الحكمة وهذا البيان لم ينقطع استمدادُهُما من نفسه ، وما رُزِئ به فى حياته ، وما أصابهُ من أحداثٍ وأهوال .

ولو تدبرتَ لوجدتَ لكل حكمةٍ فى شعره أصْلاً تاريخيًّا فى قلب هذا الشاعر الذى لم يكن قلبه ينسىَ شيئاً أو يُفْلته . وكأنى به ، وهو يقول البيت السائر والمثل الشَّرود ، كانت تتراءى تحت عينيه ، ويدُوِّى فى مِسْمَعَيْه ، كلُّ ما مرَّ به مما أثَّر فيه ، فيقول البيت وفى كل لفظة منه سَبَبٌ ممدود إلى ذِكْرَى يذكُرها أو فِكْرةٍ يتخيلها ...

---

(١) هى معانى المرأة التى أحبها !!

ولنضرب مثلاً قريباً نُوجزه ، وعليك بَسْطُه ، ففى الأبيات التى وضعناها على رأس هذه الكلمة يقول ...

« وَٱحتمالُ الأَذَى – وَرُؤيةُ جَانِبِهِ – غِذَاءٌ تَضْوَى به الأَجسامُ »

فأين تجد الأصل التاريخى فى هذا البيت ؟ أصل المعنى الذى أراده الشاعر هو فى قوله : « واحتمال الأذى غذاءٌ تَضْوَى به الأجسام » ، ولو كان غيرُ المتنبى ، لوقف عند هذا ، فهو تمامٌ وكفاية ، ولكن المتنبى = الذى (لم يكن قلبه ينسى شيئاً أو يفلته) ، والذى (كانت تتراءَى تحت عينيه ، ويدوّى فى مِسْمَعَيْه كل ما مرّ به مما أثر فيه) ، والذى كان قد احتمل أذًى كثيراً من وَطَنه بالكوفة كما مرَّ بك ، والذى كان رجع إلى الكوفة ، وحمل نفسه على / معاشرة من آذوه وهَضَموه حقَّه ، وأقام بينهم مُرْغَماً يراهم فى كل خَطْرة بعينه وبخياله = زاد فى المعنى وتمَّمه ، وأثبت فيه قلبه وعواطفه بقوله : « ورؤية جانبِهِ » ، فهذه الجملة المعطوفة المعترضة هى توقيع المتنبى على البيت . [١] وهناك سرٌّ آخر فى تسميته « احتمال الأذى » غذاءً ، ليس هذا موضع تفصيله ، [٢] وعلى هذا فَقِسْ بقية شعره وحكمته .

١٣٣

* * *

وبعد . فقد شَغَلَنا هذا عن تحرير القول فى رحلته ومَدْخَله الشام .... وقد روينا لك فى أول هذا الباب أن المتنبى نزل الشام على علىٍّ بن إبراهيم التنوخى ، وأنشدناك أبياتاً من قصيدته التى مدحه بها وفيها يقول : [٣]

---

(١) انظر ما سيأتى ص : ٢٥٦ .

(٢) إذا قرأت المتنبى على هذا الأصل ، لم تجد الشاعر الذى يذكره الناس ملء الأفواه ، بل تجد شاعراً فذاً لم يرزق الشعر ولا الحكمة مثله ذا لسان وبيان . وسنفرد فى كتابنا باباً كبيراً لبيان هذا الأصل فى شعر المتنبى ، وتفسير أكثر شعره على هذا المذهب .

(٣) انظر ص : ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

أَشَرْتَ أَبا الحُسَيْنِ بِمَدْحِ قَوْمٍ نزلتُ بِهِمْ فَسِرْتُ بغَيْرِ زَادِ

وقد اختلفوا فى قوله : « أَشَرْتَ » ، أهى من الإشارة عليه بمدحهم فتكون « أَشَرْتَ » بفتح الشين – أو من « الأَشَرَ » وهو الفرح والطرب فتكون « أَشِرْتُ » بكسر الشين ، وإسناد الفرح إلى نفسه . والرواية الأولى عندنا أرجح . والظاهر أنّ المتنبى لما قَدِم على عليّ هذا باللاذقية ، أشار عليه بأن يَنْحدر إلى (طبرية) ليمدح رجلاً – لعله من العلويين أو أشياعهم – فمدحه / مُرْغماً ولم يظفر منه بطائل ، فعاد إلى عليّ من فَوْرِهِ ١٣٤ وأنشدهُ هذه القصيدةَ ، ثم قصيدةً أخرى صرّح فيها بذكر بحيرةِ طَبَرِيَّة ، وما لقى هناك من الأدعياء (وهم الذين يدّعون النسب إلى عليّ رضوان الله عليه) .... فيقول لعلِيّ .. (والبحيرة التى يذكرها هى بحيرة طبرية المشهورة) :

لَوْلَاكَ لَمْ أَتْرُكِ البُحيرةَ ، والـ غَوْرُ دَفِىءٌ ، وماؤُها شَبِمُ[1]
والمَوْجُ مِثْلُ الفُحُولِ مُزْبِدَةً تَهْدِرُ فيها ، ومَا بِها قَطَمُ[2]
كأنَّها والرِّيَاحُ تَضْرِبُها جَيْشَا وَغًى ، هَازِمٌ ومُنْهَزِمُ
كأنَّها فى نَهارِهَا قَمَرٌ حَفَّ بِهِ من جِنَانِهَا ظُلَمُ
تَغَنَّتِ الطَّيْرُ فى جَوَانِبِها وَجَادَتِ الأَرْضَ حَوْلَها الدِّيَمُ[3]
فَهْىَ كَماوِيَّةٍ مُطَوَّقَةٍ جُرِّدَ عَنْها غِشَاؤُها الأَدَمُ[4]
يَشِينُها جَرْيُها عَلَى بَلَدٍ تَشِينُه (الأَدْعِياءُ) و (القَزَمُ)[5]
أبا الحُسَين آستمع ، فمدحُكُمُ بالفِعْلِ ، قَبْلَ الكلام ، مُنْتَظِمُ

---

(١) « الغورُ » غَوْر الأردنّ . و « شَبِم » بارد .

(٢) « القطم » ، هياجُ فحل الإبل لضِراب الناقة .

(٣) « جادت الأرض » أحيتها بالمطر . و « الديَمُ » جمع « دِيمَة » ، وهو مطر ليس فيه رعْدٌ ولا برقٌ يدوم أياماً متتابعة .

(٤) « الماوية » المرآة ، و « الأدم » الجلدُ ، يصنع على قياسها لتدخل فيه المرآة صيانةٌ لمائها ورونقها .

(٥) « القَزَم » ، الدنئُ اللئيم الصغير الجُثّة .

وصف البحيرة وصفاً رائعاً لم يدَعْ لها عيباً إلاَّ عَيْبَها أنها تجرى على أرضٍ تطؤها أقدام هؤلاء الأدعياء من العلويين واللئام ممن ذكرهم فى قوله « القزَمْ » . ولو رجعت قليلاً إلى ما كنا حدثناك من إرصاد العلويين له بكفر عَاقب (وهى بقرب طبرية) فى سنة ٣٣٦ بعد ذلك ، [1] وجدت أن الذين قصدهم بقوله : « أشرتَ أبا الحسين بمدح قوم » ، هم من العلويين أيضاً ، ولعلهم هم الذين انتهبوا الفرصةَ حين نزل عندهم ليقتلوه ، ففاتهم برحلته إلى الرملة فى جوار أبى محمد بن طُغْج .

١٣٥ وهذا الكيد الذى لقيه ببحيرة طبرية فى سنة ٣٢٦ ، وما قاساه من مَدْح / الذين أشار عليه بمدحهم علىُّ بن إبراهيم ، زلزلَ نفسَ الشاعر وهزّه هزّةً رابيةً قذفت بحُمَمِه الشِّعرية البركانية التى رويناها لك أوّلاً ، وتجد فيه أثر ذلك بيِّناً كقوله :

إنِّى وَإنْ لُمْتُ حَاسِدِىَّ ، فمَا أُنْكِــرُ أَنِّــى عُقُوبَــةٌ لهمُ
وكَيْفَ لاَ يُحْسَدُ امرؤٌ عَلَمٌ (لَهُ عَلَى كُلِّ هَامَةٍ قَدَمُ)

وبَيِّنٌ أن علىَّ بن إبراهيم لم يكن ليقبل من شاعرٍ أن يمدحه ويقول فى مدحه له يصف نفسه بأن له « على كل هَامَةٍ قدَمُ » ، إلاّ أن يعلم ما دفع الشاعر إلى إخراج هذا القول . وقد تحمَّل هذا علىٌّ لأبى الطيب ، إذ كان هو الذى أشار عليه بمدح عدوٍّ من أعدائه ، وزيَّن له الرحلةَ إليه ، وهو يعلم ما فى نفس أبى الطيب لقوم هذا الممدوح أو هؤلاء الممدوحين .

وبقى أبو الطيب قليلاً فى جوار علىّ التنوخى ومدحه ، ثم قال له فى مدحه يُوَدِّعُه ، ويذكر نِيَّته فى الفراق :

وَإنّىَ عنْكَ (بَعْدَ غَدٍ لَغَادٍ) وَقَلْبِى عَنْ فِنَائِكَ غَيْـرُ غَادِى
مُحِبُّكَ حَيْثما اتَّجهتْ رِكَـابِى وَضَيْفُكَ حَيْث كُنْتُ (مِنَ البِلاَدِ)[2]

* * *

(١) انظر ص : ١٥٥ .

(٢) تأمل ما فى هذين البيتين من نبرة الحزنِ ، وغمغمة البكاء . هما عَبْرتَان من الدمع لا بيتان من الشعر .

وخَرج المتنبّى من اللاذقية قاصداً حَلَبَ ، ولكنه لم يبق بها طويلاً ، بل قصد قَصْدَ أنطاكية حين نزلها المُغِيث بن على بن بِشْر العِجْلىّ ، فمدحه ، وذلك حيث يقول له :

لَمَّا أقَمْتَ (بأَنطَاكِيَّة) آختلَفتْ إلَىَّ بالخَبَرِ الرُّكْبَانُ فِى حَلَبَا

/ فَسِرْتُ نَحْوَكَ لاَ أَلْوِى عَلَى أحَدٍ أحُثُّ رَاحلَتىَّ : الفَقْرَ والأَدَبَا

١٣٦

أَذَاقنِى زَمَنِى بَلْوَى شَرِقْتُ بِهَا لوْ ذَاقَهَا لَبَكَى ، ما عَاش ، وَانتحَبَا

وكان ما لقيه أبو الطيب بطبريّة لا يزال يَهُدُّ منه ، ويعتلج فى قلبه وصدره ، فكان شعره فى هذه الفترة شعرَ الثّائر المفكِّر المتأمِّل ، وقد كشف عن ذلك فى قوله مثلاً :

فَالموتُ أَعْذَرُ لى ، والصَّبْرُ أَجْمَل بى ، وَالبَرُّ أَوْسَعُ ، وَالدُّنْيَا لِمَنْ غَلَبَا

وفى قوله « والبرُّ أوْسَع لى » ، سرُّ تَقَلْقُلِه بين بلاد كثيرةٍ فى فترة وجيزة ، فإنه كان يريد أن ينال نيلاً عظيماً بكثرة التجوال ، حتى إذا ما جمع ما يريد استطاع أن يفعل ما قال وما أنذر بقوله : « والدنيا لمن غلبَا » .

***

وكانت قصيدته الثانية فى مدح المُغيث بن بشر أرْوَع من الأولى ، وأكثر إفصاحاً عن نفسية الشاعر فى تلك الفترة ، فإنه كان قد هدأ واستجمّ من وَعْثاء السفر ، ووجَد الوقتَ كافياً ، والقولَ ذا سعةٍ ، فقال كاشفاً عن ضميره ، ومصرِّحاً بِآرائه فى الأبيات التى ذكرناها ، وأوّلها ، [ص : ٢٥٠] :

فُؤَادٌ مَا تُسَلِّيهِ المُدَامُ (وعُمْرٌ مِثْلُ مَا تَهَبُ اللِّئَامُ)

وفى هذه القصيدة (غير الأبيات التى مرّت آنفاً) ، إشاراتٌ عجيبةٌ إلى ما فى نفسه ، كقوله فى المغيث :

تَلَذُّ لَهُ المُرُوءَةُ ، وَهْى تُؤْذِى وَمَنْ يَعْشَقْ يَلَذَّ لَهُ الغَرَامُ

١٣٧ فقوله : « وهى تؤذى » ، هو توقيع المتنبى على البيت كما ذكرنا ، [1] / إذ كان الرجل لا يرى فى عصره مروءةً إلاّ وقد احتوَشَتْها اللئام بالسوءِ من القول والفعل ، ويخصُّ نفسه بذلك ، إذْ كان هو صاحبَ المروءَة التى لقى بها وبفعلها أذًى كثيراً من أعدائه والحاسديهِ والناظرين إليه ، وكقوله أيضاً :

وقَبْضُ نَوَالِـهِ شَرَفٌ وعِــزٌّ (وَقَبْضُ نَوَالِ بَعْضِ القَوْمِ ذَامُ)

فهو يُغْرِق بهذا الشطر الأخير من أرادوا أن يُنِيلوه نيلاً فعفَّ وأبَى ، وآثر الفقرَ على أن يقبل من نوالهم شيئاً ، كما مرَّ بك فيما فرضناه فى مسألة دخوله الكوفة فى الباب السابق ، [ص : ٢٤٢ ، ٢٤٣] .

* * *

ثم رَحل المغيثُ عن أنطاكية مِنْ فَوْره ، فإنه لم يكن من أهلها ، كما قال المتنبى :

وَلَيْسَتْ مِنْ مِوَاطِنه ، ولكِنْ يَمُرُّ بِهَا كَما مَرَّ الغَمامُ

فالتفت أبو الطيب فلم يجد من يمدحه إلاّ القاضى أبا الفرج أحمد بن الحسين المالكى ، ثم علىّ بن منصور الحاجب ، وعمر بن سليمان الشرابىّ ، وهو يومئذ يتولَّى الفداء بين الرومِ والعرب ، وليس فى مدحه هؤلاء الثلاثة شيءٌ يذكر ، فدلّ ذلك على أن الرجل كان قد مَلَّ ، فهو يقول ليكتسب ما يقوته ويقوت أهلَه ، ثم ضاقَ بهم ذرعاً ، وضاق ذرعاً بما يُكَادُ به ، فعزم على الرحلة إلى حِمْص ولُبْنان ، فمرَّ فى طريقه بالفَراديس من أرض قِنَّسرين ، وهى الّتى فيها (حمص) ، فسمع زئيرَ الأُسْدِ فقال :

أجَارُكِ يا أُسْدَ الفَرادِيس ، مُكْرَمٌ ؟ فتَسْكُنَ نَفْسى ، أم مُهَانٌ فمُسْلَمُ

وَرَائِــى وقُدّامــى عُدَاةٌ كثيرةٌ أُحاذِرُ مِنْ لِصٍّ ، وَمِنْكِ ومِنْهُمُ

---

(١) انظر ص : ٢٥٢ .

١٣٨ / فَهَل لَّكِ فى حِلْفى علَى مَا أُريده ... فإنى بأسْبَابِ المَعِيشَةِ أعلَمُ
إذاً لأتاكِ الرِّزْقُ مِنْ كُلِّ وِجْهَةٍ ... وَأَثْرَيْتِ مِمَّا تَغْنَمِينَ وأغْنَمُ

وفى خطاب أبى الطيب للأُسْدِ فى هذه الأبيات ، يتجلّى كلّ ضميره وما فيه من آثار العداوة ، وما فيه من المَطالب والأمانىّ ، وهى تدلُّ دِلالةً بَيِّنة على أن الرجل كان قد ملَّ من مدحهم ، وأراد أن يجد مَنْفَذاً ينفُذُ منه إلى تحقيق آماله وآرابه فى إدراك ثأره من عُداته ، وإصلاح ما أفسد الحكم القائم فى البلاد العربية ، وكان يَودُّ أن يَلْقى الرَّجلَ الذى يُعِينه ويستعين به على أغراضه ، ويكشفَ له عن ضمير نفسه . فكان مدحُه ، هو المقدِّمة للاتصال والاختبار : أن يجد عند أحدٍ ما يؤمِّل ، فمدح فى طريقه « الأنطاكى عبد الرحمن بن المبارك » ، ولكنه لم يجد لديه شيئاً ، فقصد إلى لبنان فى جوار الكاتب « أبى على هرون بن عبد العزيز الأَوْرَاجِىّ » ، وبقى عنده ومدحه مدحاً عظيماً ، ولكن الرَّجل لم يكن عند ظنِّ أبى الطيِّب ، فأقام عندهُ يستجمُّ من مشقّة السفر فى رُبَى لُبْنان ، يصطاد ويَطْرُد ، ويغترفُ من ينبوع الجمال الذى أنْبطَه الله فى تلك البلاد .

* * *



– ٩ –

****

وَمَهْمَهٍ جُبْتُهُ علَى قَدَمِى
تَعْجِزُ عَنْهُ العَرَامِسُ الذُّلُلُ
بِصَارِمِى مُرْتَدٍ ، بِمَخْبُرَتِى
مُجْتَزِئٌ ، بالظَّلامِ مُشْتَمِلُ
إذَا صَدِيقٌ نَكِرْتُ جَانِبَهُ
لَم تُعْيِنِى فِي فِرَاقِهِ الحِيَلُ
فِى سَعَة الخَافِقَيْنِ مُضْطَرَبٌ ،
وَفِى بلاَدٍ مِنْ أُخْتِها بَدَلُ

****

١٣٩ / كانَ لهذا الاضطراب والملل الذى استشعره أبو الطيب فى رحلاته فى البلاد التى أوجزنا لك رَسْمها ، أثرٌ كبير فى قلبه المُوجَع المتأمل . وكانت أيام الهدوء والراحة التى آهْتبلها من غفلة الزمن قَدْ جدَّدت معانِىَ قلبه ، ورَمَت فى فؤاده بالحطب الذى يُوقِد به ناره . فلما ملّ الأوراجىّ ولَم يَجِد مِنه شيئاً ولا عزماً ، عزم على فراقه ، وجعل يتلَفّت فرأى أبا الحسين بَدْرَ بن عمّار بن إسماعيل الأسدىّ قد صَعَّد إلى طبريَّةَ من قِبَل أبى بكر محمد بن رائق ليتولّى حربَها ، أى قيادة جيشها وحمايتها فى سنة ٣٢٨ . كان أبو الحسين ، فيما نظنّ ، عَربيًّا ماضياً كالسيف ، حُلْوَ الشمائل سَمْحاً ، قريبَ المذهب من أبى الطيب فى بَغْضاء العجم ، لما أنْزلوه بالدولة من التفرقة والتمزيق ، وعرف أبو الطيب بعض أخباره ، فقصده فَرِحاً ، كأنما وجد فيه ما أراد من الفكرة والسَّطوة / والسُّلطان والقُوة ، والرجولة ١٤٠ الفذَّة التى أبدع أبو الطيب فى صفتها بعدُ حين أُعْجِبَ بها وفُتِن . وكانت أوَّل قصيدة مدحه بها تدلّ على ما أدرك أبا الطيب من الفَرَح والنشوة وانتظار الفَرَج على يديه :

أَحُلْماً نَرَى ، أَمْ زَماناً جَديداً أَمِ الخَلْقَ فِى شَخْصٍ حَىٍّ أُعِيدَا ؟!
تَجَلَّــى لَنَـــا فَأَضَأْنَـــا به كأَنَّا نجُومٌ لَقِيــنَ سُعُــودَا

فقد جمع أبو الطيب فى هذين البيتين كلَّ عاطفة يَنْبِض بها قلبه ، وكُلَّ ما هزَّها واستثارها من الفرح بهذا العربيّ الذى :

تَعْرِفُ فِى عَيْنِهِ حَقَائِقَهُ كَأَنَّهُ بِالذَّكَاءِ مُكْتَحِلُ
(أُشْفِقُ ، عِنْد اتِّقَادِ فِكْرَتِه ، عَلَيْهِ منها ، أَخَافُ يَشْتَعِلُ)

وبقى المتنبى فى جوار بَدر وفى مجالسه (وفى عربيته) من أواخر سنة ٣٢٨ إلى أوائل سنة ٣٣٣ على وجه التقريب لاَ على التحقيق ، (١) أطال المُقام فى جواره ، وكأنه كان قد أحبَّ الرجل حبًّا عظيماً لما يرى من مروءته وفُتُوَّته ورجولته . والظاهر أن بدراً قد وجد فى نفسه لأبى الطيب مثل ما وَجَدَ له ، فأعان ذلك الشاعرَ على أن يتفتَّح ويُجيد ويبدع ، فإن مدائحه لبدرٍ تكاد تكون فى الطبقة الثانية من جَيِّد شعره ، وفيها أبيات فى الطبقة الأولى من الشعر العربيِّ كُلِّه . وقد بدأ نهجه أيضاً يتغير ويتميز بألوان وآيات . ولا عجب ، فقد مارس الرجُل الحياةَ بشاعريته ، وتَلَقَّف من الدنيا عِبَرها وحِكْمتها ، وسمع منها وحَفِظ عنها ، وأعمل فيها ذهنه المتوقّد ، وأرسلها إلى قلبه لِيَفْتنَهَا بناره ، ويصوغها فى بيانه الذى وصفناه أوّلاً ، ثم زيَّن بها كلامه .

١٤١ / ولم يكن أبو الطيب ، طَوَال هذه السنين ، يَدَعُ استيعابَ الكتب والآراء ونَقْدَها ، والتبصُّرَ فى أعقابها وأطرافها . وأيضاً فإنه كان قد بدأ يستحكم بفعل طبيعة الحياة البشرية ، فقد شارف الثلاثين ، وامتلأ شبابُه بقوته وفتوّته ورجولته ، وعبَّ قلبه بآلامه وأحقاده وآماله التى كان يجاهد فيها ويسعى لها ليحققها . وأيضاً فإن الأَملَ فى إدراك الطلب ، وبلوغ الأمنية والظفر بها ، وقُرْبِ تحقُّق الفَلَج على الخصوم ، مما يُشْعِل القلبَ ويَزِيد النفسَ مَضاءً ونَفاذاً . وقد كان له ذلك كُلُّه فى جوار صاحبه وحبيبه بَدْرِ بن عمارٍ الأسديِّ العربى الذكيِّ الفؤاد ، فاتخذ أبو الطيب سبيله فى الشعر عجباً ، واستقام

(١) فيما سلف ص : ٩٢ – ٩٨ ، حديث عن هذا التاريخ ، وكيف فعل أستاذنا الدكتور عزام رحمه الله ، لأننا نعيش فى زمن الأعاجيب !! وزمن بلاشير الأعجميّ الذى ألف كتاباً عن المتنبى ، يعتمد عليه هؤلاء الأساتذة الكبار ، مع ما فى الذى يعتمدون عليه من فاحش الخطأ والفهم .

على طريقته ، ومَضَى على غُلَوائه ، ورمى الدنيا بعينَىْ عُقاب كاسرٍ يتلو فريسته أن تفرَّ منه ، وزاده علوًّا ما وَجَد من حماية بدر له فى طبريَّة موطن أعدائه كما حدثناك ، وأَوْرَى زِنادَه ما لقى من عداوة بعض الشعراء له ، وما سعى به الوشاة المفسدون لَدَى بدر بن عمار ليَقْلِبُوا عليه قَلْبه . ومثلُ أبى الطيب إذا أريد به الشرُّ آنتفض انتفاضة الأسد إذا رامَهُ عدوّ ، وفى انتفاضته تتقذَّف قُوَّته كلُّها على لسانه البليغ المبين ، وذلك لقوةِ أعصابه ، وشدةِ توتُّرها ، وسرعةِ تأثُّرها مع ذلك .

* * *

وفى جوار بدر بن عمار الأسدى بدأت عصبيَّة أبى الطيب للعرب والعربية تُسْفِر عن وجهٍ ، وتجلو عن نفس الشاعر ظلماتٍ قد ضربت عليها حجابَها ، وهيَّأت شاعريّته لما يستقبله لدى سيف الدولة العَدَوِىّ العربىّ هازمِ الروم ، وقامع الدسائس الفاطمية بالشام وبعض العراق . وبذلك كُلّه كانت هذه / الفترة ، من ترتيب الزمن فى تكوين ١٤٢ الشاعر الأكبر ، تطريقاً وتمهيداً للنبوغ الفذِّ الذى استودعه الله فى قلب هذا الشاعر وفكره وأدبه وقوته وحقده وثأره والعصر الذى عاش بين أهله مُبْتَلًى بمعاشرتهم .... أو كما قال فى آخر عمره يعنى نفسه :

وَقْتٌ يَضِيعُ ، وَعُمْرٌ ... لَيْتَ مُدَّتَهُ فِي غَيْرِ أُمَّتِه مِنْ سَالِفِ الأُمَمِ !!
أَتَى الزَّمَانَ بَنُوهُ فِي شَبِيبَتِهِ فَسَرَّهُمْ ... وَأَتَيْنَاهُ علَى الهَرَمِ !!

وقولَه فى صدر شبابه ، يعنى أهل عَصْره :

وَمَا أَنَا مِنْهُم بِالعَيْش فِيهِمْ وَلٰكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ
ودَهْرٌ نَاسُهُ نَاسٌ صِغَارٌ وَإِنْ كانَتْ لَهُمْ جُثَثٌ ضِخَامُ

* * *

أحبّ أبو الطيب بدرَ بن عمار ، وأحبَّه بدرٌ وأكرمه ورفعه إليه وعزَّزَه ونَصره على أعدائه من العلويين أو أشياعهم بطبرية وما جاورها ، ووجَد كلاهما فى صاحبه ملجأً يَأْوِى إليه . فقد كان أبو الطيب مهضومًا مُطارَداً ، وكان قلبه ممتلئاً من آثار الظلم التى أوقعهَا جبابرة العَصْرِ بالعرب ، وكان فكره متتبعاً لدهاء دُهاة السياسة الذين كانوا يعملون على قلب الدولة أو تمزيق شملها بالشعوبية العجمية البغيضة المبغَّضة إليه ، وكان يرمى ببصره فلا يجدُ العربىَّ الذى يَأْوِى إليه ، فإن وجده فبينَه وبينَهُ أهوالٌ . فلما وجَد بدراً ، ووجد فى قلبه وفكره مثل الذى فى قلبه وفكره ، توقّد الرجل الشاعر توقُّد النار المستعرة قد وجَدت طعامها من الحطب .

١٤٣ وبدأ يصف بدراً العربىَّ الشجاعَ المحاربَ ، ويصف الحربَ ، ويصف / كلّ قوة أو مَثَلاً من قوةٍ ، ويُبْدع فى ذلك كُلِّه مستمدًّا من قلبه الجرئ ، وخياله المتسامى إلى أشراف السُّلطان والغَلبة ، حتى خرجت مدائحه فى بدرٍ آيةً فى دقّة التصوير ، وسموِّ المعنى ، وشَرَف الغاية ... يقول فى صفة بدرٍ :

(هَانَ عَلَى قَلْبِهِ الزَّمانُ ، فَمَا يَبِينُ فيـــهِ غمٌّ ولاَ جَذَلُ)
يَكَادُ ، مِنْ طاعةِ الحِمام لَهُ ، يَقْتُـل مَنْ مَا دنَـا له الأَجَلُ
يَكَادُ ، مِنْ صِحَّةِ العزيمةِ ، مَا يَفْعَلُ قَبْلَ الفَعَـالِ يَنْفَعِـلُ
(تَعْرِفُ فِى عَيْنِه حَقائِقَهُ ، كأَنَّـهُ بالــذَّكاءِ مُكْتَحِـلُ)
(أُشْفِقُ – عِنْد اتِّقادِ فِكْرَتِه – عَليهِ مِنْها ، أَخَاف يَشْتَعِلُ)
(أَغَرُّ ... أَعْدَاؤُه إذا سَلِموا بالهَرَبِ ، استكبَرُوا الّذِى فَعَلوا)
يُقْبِلُهُـــمْ وَجْـــهَ كُلّ سابحةٍ أَرْبَعُهَا ، قَبْلَ طَرْفِها ، تَصِلُ[1]

(١) يقال : « أقبلتُهُ الشئَ » ، إذا قابلتَهُ به . و « السابحة » ، من الخيل تسبَحُ فى عدوها ، صفة غالبة . و « السوابح » هى الخيل .

جَرْداءَ مِلْءِ الحِزَامِ مُجْفَــرَةٍ تكوُنُ مِثْلَى عَسِيبِهَا الخُصَلُ(١)
إن أدْبَرتْ قُلْتَ : لا تَلِيلَ لها أو أَقْبَلَتْ قُلتَ : مَا لهَا كَفَلُ(٢)
وَالطَّعْنُ شَزْرٌ ، والأَرْضُ واجِفةٌ ، كأَنَّمَــا فِى فُؤَادِهــا وَهَــلُ(٣)
قَدْ صَبَغَتْ خَدَّهَا الدِّماءُ كما يَصْبِغُ خَدَّ الخرِيدَةِ الخَجَلُ
والخَيْلُ تَبْكِى جُلُودُهَا عَرَقاً بأدْمُــعٍ مَا تَسُحُّهَــا مُقَــلُ
سارٍ ، ولا قَفْرَ مِنْ مَواكِبِهِ كأنَّمــا كُلُّ سَبْسَبٍ جَبَــلُ(٤)
يَمْنَعُها أن يُصيبَهــا مَطَــرٌ شِدَّةُ ما قد تَضَايَــقَ الأَسَلُ(٥)
(يا بَدرُ ، يا بحُر ، يا غمامةُ ، يا لَيْثَ الشَّرَى ، يا حِمَامُ ، يا رَجلُ)
(إن البَنَانَ الّــذِى تُقَلِّبُــهُ عِنْدَكَ ، فِى كُلِّ موضعٍ مَثَلُ)
(إنّكَ من مَعْشَرٍ إذا وَهَبُوا ما دُون أعْمَارهم ، فَقَد بَخِلُوا)
(قُلُوبُهم فى مَضَاءِ ما آمْتَشَقُوا ، قاماتُهُم فى تَمام مَا اعْتَقَلُوا)
(مِثْلُك يا بَدْرُ لاَ يَكُونُ ، ولا تَصْلُحُ إلاَّ لِمِثْلِكَ الدُّوَلُ)

***

/ ومن تدبَّر هذا النَّهج فى المديح ، ورجع إلى مدائحه الأُوَلِ ، ولم يُخْلِ فكره مما ١٤٤

---

(١) « الفرس الجرداءُ » ، القليلة الشعر و « مُجْفَرةٌ » ، عظيمةُ الجُفْرة ، وهى الوسط ، مدح فى الخيل . و « العَسيب » ، عظم ذنب الفرس ، و « الخُصَل » ، جمع « خُصْلَة » ، وهو شعر الذنب ، ويستحبُّ طول شعر الذيل .

(٢) « التليل » ، العنق ، و « الكفل » عَجُزُ الفرس . فهى مشرفة الكفل ، عريضة الصدر . إذا رأيتها مدبرة لم تر عنقها من إشراف كفلها ، وإذا رأيتها مقبلة رأيت تليلها وسعة صدرها ، وغابَ عنك كفلُها .

(٣) « الوهلُ » ، الفَزَع والرُّعب .

(٤) يسرى بخيله فى الفلواتِ فلذلك امتنع أن تكون قفراً . و « السَّبْسَبُ » المطمئن من الفلاة الواسعة ، يصير بخيله كأنه فى الفلاة جبلٌ .

(٥) « الأسل » ، الرماح ، تشتجرُ رماحه من كثرتها ، فإذا جاء مطر لم يُصِبْ الفلاةَ منه شئ لتضايقه واشتباكه .

ذكرناه فى أوّل هذا الباب ، وجد فى هذا الشعر عاطفة الشاعر التى عطَفَتْه على بدر ، وعَرَف أن هذا الشعر ليس مديحاً كالذى تلوكه الألسنة ، وينقُدُه نقَّاد عصرنا هذا ، بل هو تصويرُ الرجولة وإبرازُها فى ألفاظها الحية ، وتفصيلُ مميِّزاتها عند الشاعر ، ووجَد أيضاً صِدْقاً فى ذلك كله ليس لِشِعْرٍ ، ولا لِشعر أبى الطيب نفسه فيما سبق من مدائحه . وهذا موضعٌ للتدبُّر والتأمُّل ، فتدبّره وتأمله ، [1] ... وتأمل قوله : « يا بدر ، يا بحر .... » ، فقد ناداه باسمه ، ثم بصفة صفةٍ من بعض صفاته ، فلما امتدَّ فى الصفات إلى كلِّ غاية ، ووجد أنها مما لا يُفْرَغ منه ، ضَمَّن كلَّ المعانى التى فى نفسه من صفة بدر فى لفظ واحد هو قوله : « يَا رَجُلُ » ، فقد كانت الصفةُ الجامعةُ لكلّ صفات صاحبه هى « الرُّجُولة » ، تحتها كل كريمة من معانى النفس : من مروءة وهمة وشجاعة وسماحة وسناءٍ .

* * *

وكان المتنبى ، فى عشرته لابن عمار ، قد بدأ يُفْسِحُ فى شعره مجالاً لإحساسه القوىّ بالجمال القوىِّ المشبوبِ ، معبِّراً عنه بالعبارة المُرْسلة من قلبه القوى المشبوب ، فكانت قصيدَتُه فى وصف الأسد ، والمقابلة بينه وبين بدرٍ وأسديَّتِهِ وقوته ، رائعةً قليلةَ المِثْل ، مُفردةً من بين الشعر العالى ، اجتمعت له فيها الحكمة / السَّهلة ، والبيانُ المشرقُ النديُّ ، والخيالُ الجامعُ المقدَّر المبدع ، والاختيارُ الصافى للصفات المميزة التى تجعلك تقرأُ صفةَ ما يصف ، وكأنك تراه ماثلاً بين عينيك . ولا بأس من أن نُورد لك بعض ذلك على سبيل المثال هنا ، إذ كانت هذه الطريقة الشعرية قد بدأت عند الرجل ، ثم استحكمت فيه حتى بلغت أقصى غاياتها من شعره الذى قالَه فى سيف الدولة بعدُ . ١٤٥

قالوا : .... (خرج بدرُ بن عمار إلى أَسدٍ فهرب الأسد منه ، وكان قد خرج

---

(١) ليس فيما بقى لدينا من (المقتطف) سعة حتى نشرح هذا ، فنسأل القارئ أن يعيننا بذكائه وفطنته وأدبه ، فإن غمض عليه شئ ، فليراسلنا بعنواننا ، ليتسنى لنا أن نوفى أبا الطيب حقه فى كتابنا إن شاء الله ، ثم انظر ص : ٢٥٠ — ٢٥١ .

قبْله إلى أسدٍ آخرَ كان يقطع طريقَ السابلة ، ويُلْحِق بهم أذًى كثيراً — فهاجه عن بقرة آفترسها بعد أن شَبع وثَقُل ، فوثب إلى كَفَل فرسه فأعجله عن استلال سيفه ، فبادره بالسوط يضربُه حتى مرَّغه فى التراب ....) ، فقال :

أمُعَفِّرَ اللَّيْثِ الهِزَبْرِ بِسَوْطِهِ ! لِمَنِ آدَّخَرْتَ الصَّارِمَ المصقُولاَ ؟

وَقَعَتْ على الأُرْدُنِّ مِنْهُ بَلِيَّة ، نُضِدتْ بها هَامُ الرِّفَاقِ تُلُولاَ

وَرْدٌ ، إذا وَرَد البُحَيْرَة شَارِباً ، وَرَدَ الفُـراتَ زَئِيـرُهُ والنِّيـلاَ

(مُتَخَضِّبٌ بِدَمِ الفَوَارِسِ ، لاَبِسٌ فِى غِيلِهِ مِنْ لِبْدَتَيْهِ غِيلاَ)

(مَا قُوبِلَتْ عَيْنَاهُ إلاَّ ظُنَّتا ، تَحتَ الدُّجَى ، نَارَ الفَرِيقِ حُلُولاَ)

(فِى وَحْدَةِ الرُّهْبَانِ ، إلاَّ أنَّهُ لاَ يَعْرِفُ التَّحْرِيمَ والتَّحليلاَ)

(يَطَأُ الثَّرَى مُتَرفِّقاً مِن تِيهِهِ ، فَكَأنَّـهُ آسٍ يَجُسُّ عَلِيـلاَ)

(وَيَـرُدُّ عُفْرَتَـهُ إلَـى يَافوخِـهِ حَتَّـى تَصِيـرَ لِرَأْسِهِ إكْلِيـلاَ) (١)

(وَتَظُنُّهُ مِمَّا يُزَمْجِرُ ، نَفْسُه عنها ، لِشدّة غَيْظِهِ ، مَشْغولاَ)

(قَصَرَتْ مَخَافَتَهُ الخُطَى ، فكأنَّمَا رَكِبَ الكَمِيُّ جَوَادَهُ مَشْكُولاَ) (٢)

(أَلْقَى فَرِيسَتَهُ ، وَبَرْبَرَ دُونَها ، وَقَـرُبْتَ قُرْبـاً خَالَـهُ تَطْفِيـلاَ) (٣)

/ فَتَشَابَهَ الخُلُقَانِ فى إقْدامِهِ ، وتخالَفـا فِي بَذْلِكَ المأْكُـولاَ ١٤٦

(أَسَدٌ يَرَى عُضْوَيه فِيكَ كِلَيْهما : مَتْناً أَزَلَّ ، وسَاعداً مَفْتُولاَ) (٤)

....

(مَا زَالَ يَجْمَعُ نَفْسَه فى زَوْرِهِ حَتّى حَسِبْتُ العَرْضَ مِنْهُ الطُّولاَ)

(ويَدُقُّ بالصَّدْرِ الحِجَارَ كأنَّه يَبْغِى إلى مَا فِى الحضِيضِ سَبِيلاَ)

---

(١) « العفرة » ، لبدة الأسد ، وهو الشعر الثابت على قفاه .

(٢) « الكمى » الفارسى فى سلاحه . و « المشكول » المقيّد .

(٣) « بربر » ، زمجر وزأر ، و « البربرة » ، كلام الغضبان .

(٤) « المتن » ، متنُ الظهر ، و « أزلُّ » ، قليل اللحم .

وَكأَنَّهُ غَرَّتْهُ عينٌ ، فَادَّنَى ، لاَ يُبْصِر الخَطْب الجَلِيلَ جَليلاَ
(أَنَفُ الكريمِ من الدَّنِيَّة ، تاركٌ فى عَيْنِه العَددَ الكثيرَ قَليلاَ)
(والعارُ مَضَّاضٌ ، وَلَيْس بخائِفٍ مِنْ حَتْفِه ، مَنْ خافَ مِمّا قِيلاَ)
(سَبَقَ التقاءَكَهُ بَوَثْبَةِ هَاجمٍ لَوْ لَمْ تُصَادِمْهُ لَجازَكَ مِيلاَ)
خَذَلَتْهُ قُوَّتُه وقَدْ كافَحْتَهُ ، فَاستَنْصَرَ التَّسْلِيمَ والتَّجْدِيلا [1]
قَبَضَتْ مَنِيَّتُه يَدَيْهِ وعُنْقَهُ فَكَأَنَّما صَادَفْتَهُ مَغْلُولاَ
سَمِعَ ابنُ عَمَّتِهِ به وبحالِه ، فَنَجا يُهَرْوِلُ أَمْسِ مِنْكَ مَهُولاَ
(وأَمَرُّ مِمَّا فَرَّ منه فِرَارُهُ ، وكَقَتْلِهِ أن لاَ يَمُوتَ قَتِيلاَ)
(تَلَفُ الَّذى اتَّخَذَ الجَرَاءَةَ خُلَّةً ، وَعَظَ الَّذِى اتَّخَذَ الفِرَارَ خَلِيلاَ)

فهذا شعر لو ذهبت أبيِّنه وأفصِّله وأجلُوه ، لما أعانتنى هذه الورقات ولا وسعتنى ، وفيما رسمته فى طريق كلامى عن شاعرية الرجل كفايةٌ لو تدبرت . وقد أثبتنا لك كثيراً من القصيدة اللاَّمية السالفة ، ثم من هذه فى وصف الأسد ، لأن هاتين القصيدتين هما (نقطة الانقلاب) ، كما يقولون ، فى شاعرية أبى الطيب من النهج الأوّل إلى النهج الثانى الذى لزمه وسار فى دَرْبه ، وتميَّز به . ففى هاتين تجد أبا الطيب فتىً وكهلاً وشيخاً . ولو قِسْتَهما إلى ما يأتى بعدُ من / شعره ، لوجَدْتَ أن الرَّجل قد بدأ يستمرُّ ١٤٧ مَرِيرُه بَدْءًا من هذه السنوات التى أقامها عند بدر بن عمار منذ سنة ٣٢٨ ، وفيهما أيضاً الأُصولُ النفسيةُ والشعريةُ والبيانيةُ التى مددنا لك أطرافاً منها فى ثنيَّات القول .

***

ولابدَّ هنا من الإشارة إلى موضعٍ يكثُر مَوْرِده فى شعر أبى الطيب : ذلك أن الرجلَ = لاستحكام أصْل الرجولة والمروءة والفتوة فى نفسه غيرَ مُدَّعٍ ولا متمثل = كان إذا رأى ما يخالف الرُّجولة ويحطُّ منها ، اهتزّت نفسه واشمأزّ ، وأبدى ازدراءَه واحتقاره ، فهو يحبُّ

(١) « التجديل » ، الوقوع على الأرض ، وهى « الجَدَالة » .

من عدوِّه أن يستمسك بعروة الرجولة فى اللقاء والهزيمة والنصر ، كما يحبُّ ذلك من نفسه .... فحين فرّ الأسد الثانى الذى ذكره ، من بدر بن عمار بعد هزيمة (ابن عمته) ، استدعى ذلك احتقارَ أبى الطيب له ، فثارت رجولته كُلُّها لهذا الفرار القبيح من أسدٍ هو الأَسَدُ ، فضمَّن شعره هذا المعنى من الازدراءِ والسخرية به حيث يقول :

« سَمِعَ (آبنُ عَمَّته) به وبحاله ، فَنَجا يُهَرْوِلُ أَمْسِ منك مَهُولاَ »
« وأَمَرُّ مِمَّا فَرَّ منه فرارُه ، وكَقَتْلِه أَنْ لاَ يَمُوتَ قتيلاَ »

فمن ألوان السخرية والتهكم والازدراء لهذا الأسد الجبان ، أنه حين وصف فراره جعله (هَرْوَلَةً) ، والهرولةُ حالةٌ بين المشى والعدو ، فهو من خوفه واضطرابه ترك المشى وأراد العدو ، ولكن منعه الهلَعُ أن يعدو ، فاصْطكَّ ، فصار عدوُه للفرار بنفسه لا هو من العدو ولا هو من المشى . ثم أبدى فى البيت الثانى كُلَّ احتقاره له بقوله : « وكقَتله أن لا يموت قتيلاَ » ، / فما يحسن بأسدٍ أن يفرّ ، وإنّما هما خُطتّان : إمَّا صبرٌ وظفرٌ ، وإمَّا إقدامٌ وحتفٌ ، فبذلك يُثْبت الأَسد أنه أسدٌ لا خروفٌ ولا نعامةٌ . ١٤٨

ولنضرب لك مثلاً آخر فى ذلك . ففى سنة ٣٤٢ أُوقع سيفُ الدولة بالرُّوم فى موقعة (بطن هِنْرِيطَ) ، وكان الدُّمُسْتُق وولدُه يحاربان ، فجُرِح الدُّمُسْتُق ، وأصيب ولده فى مقتل أشْفَى به على الموت ، وفَرّ الدُّمستق تاركاً ولده فى يد الموت ، فلم يَفُتْ أبا الطيب ، حين ذكر هذه المَوْقعة ، أن يشير إلى هذه الحادثة ، وأن يدلَّ على ازدرائه واحتقاره لهذا الدمستق الذليل الجبان الذى خلّف مُهْجته وولده للموت ، فكان مما قال :

لَعَلَّكَ يَوْمًا يا دُمُسْتُقُ عَائِدٌ فَكَمْ هَارِبٍ مِمَّا إِلَيْه يَؤُولُ
(نَجَوْتَ بِإِحْدَى مُهْجَتَيْكَ جريحةً ، وخَلَّفتَ إِحدى مُهْجَتَيْكَ تَسِيلُ)
(أَتُسْلِمُ للخَطِّيَّةِ آبنَكَ هارباً ؟! وَيَسْكُنُ فِى الدُّنيا إِلَيكَ خَلِيلُ)
(بِوَجْهِكَ مَا أَنْساكَهُ من مُرِشَّةٍ نَصِيرُكَ مِنْهَا رَنَّةٌ وعَوِيلُ) (١)

(١) « المُرشة » طعنة رمح تفجر الدم فترشه رشاً .

وهذه الأبياتُ غايةٌ فى الدلالة على استحكام الرجولة فى طبع أبى الطيب ، وأنه كان يؤذيه ويُثيره أن لا يجد فى الرجل صفة الرجولة : من إقدام وصبر ومروءة وشهامة ، وما إلى ذلك من كريم الصفات ، ولو كان أولئك الرجال من أعدائه . وأعِدْ قراءَة البيت الثالث ، فكأنك بأبى الطيب ينشده متعجباً مزدرياً ، ثم يبصق على صورة هذا الجبان الدمستق .

* * *

١٤٩ / ثم رَجَعنا إلى ما كنَّا فيه ... وجد أبو الطيب فى بدرِ بن عمار (الرَّجُلَ) ، فاستقرّ وهَدأ حيناً ، وملأَ نفسه من خِلال القوة والفتوة والمروءَة التى تحقَّق بها بدرٌ . ولكن وقع فى هدوئه واستقراره واقع هزَّه ونفضه ، وذلك أنه وهو بطَبَرِيَّةَ ، التى كان بها العلويون من أعدائه ، والذين ذكرهم فيما قدمناه لك فى قوله فى صفة البحيرة ، بحيرة طبرية : (١)

« يَشِينُهَا جَرْيُهَا عَلَى بَلَـدٍ   تَشِينُهُ (الأَدْعِياءُ) و (القَزَمُ) »

لم يَفْتأ يجدُ من عداوتهم له كيداً كثيراً ، حتى سَعَوا به لَدى بدر بن عمار ، وأغْرَوْا به الشعراءَ ليَغيظوه بألسنتهم ، وكان هنالك رجل ممتَّعٌ بإحدى عينيه (أعور) ، يُدْعى ابن كَرَوَّس ، وكان قد اتصل ببدر ، وكانَ من أشد أعدائِه عليه ، ولذلك قصده بالذِّكر من بينهم . ونحن وإن لم نكن نعرف شيئاً عن هذا (الممتَّع) ابنِ كروَّس ، إلاَّ أنه يخيَّل إلينا أنه كان من صنائع العلويين أوْ الفاطميين ، (٢) صحبَ بدراً كالعين عَلَيْه ، ثم ليجعله ينحاز إليهم إن استطاع إلى ذلك سبيلاً ، على عادتهم معَ الأمراء وغيرهم ، تمهيداً لقلب الخلافة من العباسية إلى العلوية أو الفاطميّة .

فلما كان ذلك ، دخلَ على فرح أبى الطيب ما ردَّه إلى قلقه وآضطرابه وغمومه

---

(١) انظر ص : ٢٥٣ .

(٢) انظر ما سيأتى أول الفصل العاشر ص : ٢٧٣ .

وهمومه ، فعاد يذكر أحزانه ، ويُقلِّب الرأى فى الفراق ، إذ لم يجد عند بدر عَضُداً ينصرهُ نُصْرَةَ المحبّ لحبيبه ، فيقول :

كَأَنَّ الحُـزْنَ مَشْغُـوفٌ بِقَلْبِـى ‏ ‏ ‏ فَسَاعَةَ هَجْرِهـا يَجِـدُ الـوِصَالاَ

/ كذا الدنيا عَلَى مَنْ كان قَبْلِى ، ‏ ‏ ‏ صُرُوفٌ لم يُدِمْـنَ عَلَيْـهِ حَالاَ

١٥٠

(أَشَدُّ الغَمِّ عِنْدِى فى سُرُورٍ ‏ ‏ ‏ تَيَقَّنَ عَنْـهُ صاحِبُـهُ آنْتِقـالاَ)

(أَلِفْتُ ترحُّلِى ، وجَعَلْتُ أَرْضِى ‏ ‏ ‏ قُتُـودى والغُرَيْـرِىَّ الجُـــلاَلاَ) (١)

(فَمَا حاولتُ فى أَرْضٍ مُقَاماً ، ‏ ‏ ‏ ولا أَزْمَعْتُ عن أَرْضٍ زَوَالاَ)

(عَلَى قَلَقٍ ، كأَنَّ الريحَ تحتِى ‏ ‏ ‏ أُوجِّهُهَـا جَنُوبـاً أو شَمـالاَ)

ثم يقول لبدرٍ ، بعد أبياتٍ يذكر ما لَقِى من أعدائه من الشعراء :

فَيَا آبـنَ الطَّاعـنين بكُـلِّ لَدْنٍ ‏ ‏ ‏ مَوَاضِعَ يَشْتَكِى البَطَلُ السُّعَالاَ

وَيَا آبن الضَّاربين بكلِّ عَضْبٍ ‏ ‏ ‏ من العُرْبِ ، الأَسَافِلَ والقِلاَلاَ (٢)

أَرَى المُتَشَاعِرِين غَرُوا بذَمِّى ، ‏ ‏ ‏ وَمَنْ ذَا يَحْمَدُ الدَّاءَ العُضَالاَ ؟!

وَمَـــن يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ ‏ ‏ ‏ يَجِـــدْ مُرًّا بِهِ الماءَ الـــزُّلاَلاَ

وقَالُوا : هل يُبَلِّغُكَ الثُّرَيّـا ؟ ‏ ‏ ‏ فَقُلْتُ : نَعَمْ ، إذا شِئْتُ آسْتِفالاَ

فهو بهذه الأبيات يعرض على بدرٍ ما يلاقى من الكيد ، ويَسْتَعْدِيه بالبيت الأخير على نصرته على أعدائه . ولا ندرى ما الذى كان يكادُ به أبو الطيب ؟ ولكن نظنّ أنهم كانوا يتغامزون به وبشعره وما فيه من الغلوّ والطموح ، وما يَرِدُ فى أثنائه من الوعيد للطغاة والملوك والأعداءِ ، والإنذار لهم أن يصيبهم من قِبَلِه كلُّ مكروهٍ . والحَقيقة أنَّ هذه المعانى

---

(١) القتود ، خشب الرحل الذى يوضع على البعير . « الغريرى الجلال » ، نسبة إلى « الغُرَير » وهو فحل كريم من الإبل عظيم البنيان . و « الجُلال » مبالغة فى « الجليل » .

(٢) « القلال » ، جمع « قُلّة » ، وهى رأس كل شئ يقال : « قُلّة الجبل » ، أى رأسه ، يعنى أحسّاءَ العرب وأشرافهم .

فى شعر أبى الطيب مما يستجلب التنبُّهَ لها ، والوقوفَ عندها ، فليس فى العربية كلِّها شاعرٌ قد كثُرت فى شعره المعاريضُ كما كثر ذلك فى شعر أبى الطيب ، بل أنت تقلّب دَوَاوين / الشعراءِ جميعاً فلا تكاد تجد فيها هذه المعانى فى الإنذار والوعيد والتربُّص ، ١٥١ وخاصَّة فى المديح الذى يُرَاد به عطفُ القُلوب لاستخراج مكنونها ، وإلانةُ الأيدى لقبض نَوَالِها . وهذه المعانى مما يَعْكِس على الشعراء مُرَادهم إن رامُوهُ وتعاطَوْهُ فى أشعارهم . أمَّا أبو الطيب فقدْ جَعَلها عَمُود شِعْره غيرَ مُبالٍ ولا حافلٍ . فمن هذه الظاهرة فى شعره = أَعْنى اعتماده فى كثير منه على الإنذار والوعيد = بدأ أعداؤه فى جوار بدرٍ يُسَمُّونه « المُتَنَبّى » ويغيظونه بذلك ، ويعنون أنه يتشبَّه بالأنبياء ، إذ كان عَمُودَ نبوَّتِهم الإنذارُ والوَعيد أيضاً ، وهو قد جَعَل بنيان شعره على هذين . [1] ولعلّ هذا هُو المراد بقوله : « أرَى المُتشَاعِرين غَرُوا (بذَمِّى) » . فهذا ذمُّه عندهم كما ترى .

وَاشتدَّ هذا الكيْدُ على أبى الطيب حَتَّى حمله على فِراقِ بدرٍ ، إذ (نَكِر جَانِبَهُ) حين لم يجد عنده كلَّ ما أراد ، ووجَدَه يسمع للوشاة ويُصْغيهم أُذنه . وكان آخر ما لقى أبو الطيب من ذلك : حين سار بدرٌ إلى الساحل = ساحِل طَبَرِيَّة = حين أُضِيف عمله إلى عَمله بطبرِيَّة ، وكان أبو الطيب قد تخلّف عن المسيرِ معه ، فانتهز ذَلك الأَعور ابنُ كروَّس ، فكتب إلى بدرٍ يقول له : « إن أبا الطيب إنما تخلَّف عنك رَغْبةً بنفسه عن المسير معك » . [2] وبَلَغَ ذلك أبَا الطيب ، فثارت نفسه وعزَم الرحيل والفراق ، ولكنه أجَّل ذلك حتى يعودَ بدرٌ ليعرف ما عنده ، والظاهر أن / بدراً كانَ قد حمل فى نفسه شيئاً ١٥٢ من آثار سِعَايات الأعور ابن كَرَوّس ، فلما عاد إلى طبرية ولقيَهُ أبو الطيب ، فطن لما يدور فى نفس بدرٍ ، وخاف أن يخذُلَهُ ، فاعتمد الرِّحْلَة وطىَّ الأرض ، ولذلك كانت آخرُ

---

(١) انظر ما سلف فى آخر الباب السادس ، ص : ٢٣٢ ، ٢٣٥ .

(٢) هذا من نص كلام أبى الطيب ، فى تقديمه لقصيدته التى منها الأبيات التالية .

قصيدة مقصَّدةٍ مَدَح بها بدْراً بينةَ الدلالة على آضطراب نفسه وقلقه وعزمه هذا ، فهو يقول فيها :

(أنكَرْتُ طَارِقَةَ الحَوادِثِ مَرَّةً ، ثُمَّ اعْتَرَفْتُ لَهَا فَصَارتْ دَيْدَنَا)
وَقَطَعْتُ فى الدُّنْيَا الفَلاَ ، ورَكائِبِى فيها ، ووَقْتِىَ الضُّحَى والمَوْهِنا

وظهر فِيها أيضاً خوفُه أن يُسْلِمه بدر إلى أعدائه ، فيُرْصِدوا لَهُ ويفتكُوا به على غِرَّة ، فصرَّح لبدر بذلك حيث يقول ، يذكر أمْرَ تخلُّفه عنه ، ثم مَخَاوِفَه ، ثم يُنْذِره :

فَطِنَ الفُؤادُ لِمَا أَتَيْتُ إِلَى النَّوَى ولِمَا تَرَكْتُ مَخَافَةً أَن تَفْطُنَا
أَضْحَى فِرَاقُكَ لِى عَلَيْهِ عُقُوبَةً لَيْس الذِى قاسَيْتُ مِنْهُ هَيِّناَ
فَٱغفِرْ ، فِدًى لك ، وَٱحْبُنِى مِن بَعْدِها لِتَخُصَّنى بعَطِيَّةٍ منها (أنَا)
(وَٱنْهَ المُشِيرَ عَلَيْكَ فِىَّ بِضِلَّةٍ فالحُرُّ مُمْتَحَنٌ بأَوْلادِ الزِّنَا) (١)
(وَإذا الفَتَى طَرَح الكلامَ مُعَرِّضاً فى مَجْلسٍ أَخَذَ الكَلامَ اللَّذْعَنَى)
(وَمَكَايِدُ السُّفَهاءِ وَاقعةٌ بِهِمْ ، وعَداوَةُ الشُّعَراء بِئْسَ المُقْتَنَى)
لُعِنَتْ مُقَارَنَةُ اللَّئِيم ، فإِنَّهَا ضَيْفٌ يَجُرُّ من المَلامِة ضَيْفَنَا (٢)
(غَضَبُ الحسودِ ، إذَا لقيتُك رَاضِياً ، رُزْءٌ أَخَفُّ علىَّ مِنْ أن يُوزَنَا)

ثم بقى مع بدر وهو يُضْمر فى نفسه فراقَه ، فكان يتتبع مرضاته فى كثير / مما لا يرضى به ، حتى شرب الخمرَ فى منادمته ، ليصرف بدراً عمَّا كان فى نفسه قليلاً ، حتى تعرضَ له الساعة المُواتيةُ للفراق . فلما أتت الساعة ، بادَرَ واحتملَ أهله ونفسه وخرج إلى دمشق ، وقَصَد عملاً من أعمالها يقال له : (حِمَى جَرَش) ، كان به أبو ١٥٣

(١) « المشير » ، هو الأعور آبن كَرَوَّس .

(٢) « اللئيم » تعريض أيضاً بابن كروّس . و « الضيفن » ، الذى يأتى مع الضيف ولم يُدْعَ .

الحسين على بن أحمدَ المِرِّىُّ الخُراسانىُّ ، وكانت بينهما مودة وهما بطبريَّة ، فلجأ إليه ، واحتمى بحماه ، وذلك فى سنة ٣٣٣ على وجه التقريب لا التحقيق .

* * *

– ١٠ –

****
لا أَقْتَرِى بَلَداً إلاَّ عَلَى غَرَرٍ
وَلاَ أَمُرُّ بِخَلْقٍ غَيْرِ مُضْطَغِنِ
وَلاَ أُعَاشِرُ مِنْ أَمْلاكِهِمْ مَلِكاً
إلاَّ أَحَقَّ بِضَرْبِ الرَّأْسِ مِنْ وَثَنِ
مَدَحْتُ قوماً... وإنْ عِشْنا نَظَمْت لَهُمْ
قَصَائِداً منْ إناثِ الخَيْلِ والحُصُنِ
فَلاَ أُحارِبُ مدفوعاً إلى جُدُرٍ ،
ولاَ أُصَالِح مَغْرُوراً عَلَى دَخَنِ
****

/ ظَفِر « ابن كروَّس » الأعور بأبى الطيب ، وأفسدَ عليه بَدْرَ بنَ عمار . وبيِّنٌ ١٥٥ أنّ دهاءَ أبى الطيب وحِيلتَهُ أعانتهُ على اجتناب الخطر الذى كان لهُ رَصَداً فى طبريَّة ، والذى كاد يُدركه مرة أخرى بعدُ فى سنة ٣٣٦ ، حين أرصد له العلويُّون ليقتلوه ففاتهم إلى الرملة ، وهذا مما يرجِّحُ عندنا أن « ابن كروّس » كان من شِيعة العلويين ، أو من أنْفُسهم ، أو من دعاة الفاطمية .[1]

وكان أبو الطيب ، كما قدمنا لك ، وهو عند بدر قد بدأ يطمئنُّ ثم هاجهُ هذا الأعور ابنُ كروّس ، فانطلق إلى غايَةٍ فى نفسه من الحقد والثورة والاقتحام ، ولكنه كتم ذلك . فلما نزل بعليٍّ بن أحمد المُرِّىّ كانت قصيدته إعلاناً / للحرب مرَّة أخرى ، ١٥٦ وزَلْزَلةً وَقعت فى قلبه فأخرجت قديمَهُ من الأحقاد والتِراتِ والآمال والآراءِ ، واستمر ينتفض ويقذفُ بركانُه بحُمَمِهِ ، إلى أن كان اتصاله بأبى العشائر فى أواخر سنة

---

(١) انظر ما سلف ص : ٢٧٠ ، وما سيأتى ص : ٢٩٠ – ٢٩٤ .

٣٣٦ . [١] وكان شعرُه فى هذه الأغراض ، ثم فى هذه الفترة ، نظراتٍ متطايرةً كالشَّرر تحتَ ظلام الليل ، وهى مع ذلك حكيمة تقع فى المَفْصِل ولا تُخْطىء ، إذْ كان الرجل قد تحنَّك واستحكم واستمرَّ فى الشعر على طريقته ، مِمّا وَجَدَ من الهَذْأَةِ فى جوار بدر ، ثم ما وجد من الكيد بَعْدُ . ولم يَتَّصل بعدَ بَدْرٍ بأمير يُنادمه ، بل كان يتنقّل من مكان إلى مكان ثائراً مُغْضَباً مُوعِداً مُنْذِراً مُرْعداً ، يُريد ويَبْغِى ، ويُؤمل وينتظر ، وَيَملُّ ويَسْأم ، ويَخْنَق ثم ينفجر ، حتى كان ما كان من لقائه أبا العشائر ، ثم سيف الدولة . [١]

* * *

فانظر الآن إلى هذا الشعر الذى تلَقَّى به علىَّ بنَ أحمدَ المُرِّىَّ ، بعد أن تَرُدَّ النظرَ مرةً أخرى إلى ما كتبناه فى الفصل الثامن .... يقول :

(لاَ آفتِخارٌ إلاَّ لِمَنْ لاَ يُضَامُ   مُدْرِكٌ أَوْ مُحَارِبٌ لاَ يَنَامُ)
(لَيْسَ عَزْماً ما مَرَّضَ المرءُ فِيهِ ،   لَيْس همًّا مَا عَاق عَنْهُ الظَّلامُ)
وَاحْتِمَالُ الأَذَى ، ورُؤْيَةُ جانيه ،   غِذاءٌ تَضْوَى بِهِ الأَجْسَامُ [٢]
ذَلَّ من يَغْبِطُ الذليلَ بعَيشٍ   رُبَّ عَيْشٍ أَخَفُّ منه الحِمَامُ
كُلُّ حِلْمٍ أَتَى بِغَيْرِ آقتِدارٍ   حُجَّةٌ لاَجِئٌ إليها اللِّئَامُ
مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهوانُ عليهِ ،   مَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيلاَمُ
١٥٧ / (ضَاقَ ذَرْعاً بأن أَضِيقَ به ذَرْ   عاً زَمانى ، وَآسْتكرَمَتْنى الكرامُ
(وَاقِفاً تحتَ أَخْمَصَىْ قَدْرِ نَفْسِى ،   واقفاً تَحْتَ أَخْمَصَىَّ الأَنَامُ)
(أَقَرَاراً أَلَــذُّ فَوْقَ شَرارٍ !!   ومَراماً أبْغِى وظُلْمِى يُرامُ !!)
(دُونَ أَنْ يَشْرَقَ الحِجَازُ ونَجْدٌ   وَالعِرَاقَان ، بالقَنَا ، والشَّامُ !)

---

(١) انظر ما سيأتى فى أول الباب الحادى عشر ، والثانى عشر ، ثم ما يأتى ص : ٢٨٠ .

(٢) انظر ما قلته فى هذا البيت ص : ٢٥٢ ، و « توقيع المتنبى » ، ص : ٢٥٢ ، ٢٥٦ .

فهذه أبياتٌ قد اجتمعت فيها نفس المتنبى كلُّها ، بحكمتها وتجربتها وعلومها وقوتها ورُجولتها وثَورتها وانتقاضها وزَلازلها ، وبآمالها وأحقادها ووعيدها وإنذارها ، وبصدقها وعواطفها المتسعِّرة التى يأكل بعضها بعضاً ، وفيها (توقيع المتنبى) على كلّ بيتٍ . [١] فلا تحسبنَّ شاعراً يستطيع أن يأتِىَ بمثلها أو يسرقَ معانِيَهَا ، إلاّ أن يستطيع أن يسرق نفسَ أبى الطيب وقلبَه جملةً من بين جنبيه ، أوْ إلاّ أن يكون قد مُهِّد له فى نفسه وفى صدقه وفى آلامه وغير ذلك ما تَيَسَّر لأبى الطيب .

وألقى أبو الطيب هٰذه (القنابل) الحكيمة فى « حِمى جَرَشٍ » ، ثم أدركته مكايدُ الأعور ابن كروَّس ، أو العلويِّين إنْ شئت ، فعجَّل بالرحيل غير مختارٍ له ، فقال يودِّع صاحبَه المرِّىَّ وَيعتذر له ، وقد أبان فى هذه الأبيات كلَّ الإبانة ، فهو راحل « فى عجل » ، وهو راحل عنه غير مُخْتارٍ :

(لاَ تُنْكِرَنَّ رَحِيلِى عَنْكَ فى عَجَلٍ فإنَّنى لِرَحِيلى غيرُ مُخْتَارِ)
(وَرُبَّما فارق الإنْسانُ مُهْجَتَهُ يَوْمَ الوَغَى – غَيرَ قَالٍ – خَشْيَةَ العارِ)
(وَقَد مُنِيتُ بحُسَّادٍ أُحارِبُهمْ ، فَاْجْعَل نَداكَ عَلَيْهِم بعضَ أنصارِى) [٢]

/ ثم آنطلق أبو الطيب من « حِمى جَرَش » يتقحَّم البوادى عَجِلاً يَفُور فَوَرانَ القِدْر على نارِها المتضرِّمة ، وتسعَّرت الدنيا فى عينيه ، وتلذَّعت الأفكار الناريّة بين جنبيه ، فخرج شعره كمعمعةِ الحريق ونَقِيضِه وزفيرِه وفَرْقعتِه ، كما سترى . ومن شدَّة ما لَقِى أبو الطيب من كَيْد هذا الأعور ابن كروَّس ، كان – على عادته – يتخيَّله كلما تلَفَّت فى مسيره واقتِحامه ظُلُمات البادية . وقد حَفِظ لنا أبو الطيب فى شعره – على عادته أيضاً – صورةً ناطقةً من إحساسِهِ وعَواطفه وهو يطوى البَادِية طيًّا عَجِلاً فقال : [٣] ١٥٨

---

(١) انظر ما قلته فى هذا البيت ص : ٢٥٢ ، و « توقيع المتنبى » ، ص : ٢٥٢ ، ٢٥٦ .

(٢) أى : فاجعل نداك بعض أنصارى عليهم .

(٣) لقد أكثرنا من نقل شعر أبى الطيب ، إذ كان السياق الآن يقتضى ذلك ، ولئلا نقطع القارئ بالرجوع =

رَكِبْتُ مُشَمِّراً قَدَمِى إِلَيْها ، وَكُلَّ عُذَافِرٍ قَلِقِ الضُّفُورِ
(أوَاناً فى بُيُوت البَدْوِ رَحْلى وآونةً علَى قَتَدِ البعيرِ)
(أُعَرِّضُ للرِّماحِ الصُّمِّ نَحْرِى ، وَأَنْصِبُ حُرَّ وَجْهى للهَجِيرِ)
(وَأَسْرِى فى ظَلامِ اللَّيل وَحْدِى ، كأنِّى منه فى قَمرٍ مُنيرِ)

وهذا البيتان الأخيران فيهما من رجولة أبى الطيب وتقحُّمه ومَضائه وتدفُّعه واستهانته بالشقاءِ فى سبيل آرابه وآماله ما فيهما ، ففسِّرهما لنفسك ، وآعلم أن هذا الرجلَ شاعرٌ مبينٌ ، قلبُه فى لسانه ، وعواطفه فى بيانه :

(فَقُلْ فِى حاجةٍ لَمْ أَقْضِ مِنْها ، علَى شَغَفِى بها ، شَرْوَى نَقِيرِ
(وَنَفسٍ لاَ تُجِيبُ إلى خَسيسٍ وعيْـنٍ لا تُدَارُ على نَظِير)
(وَكَفٍّ لا تُنَازِعُ مَنْ أتَـانى يُنَازِعُنى ، سِوى شَرَفى وخِيرِى) [1]
/ (وَقِلَّةِ نَاصِرٍ .. جُوزِيتَ عَنِّى بشَرٍّ منكَ ، يا شَرَّ الدُّهُورِ !)
(عَدُوِّى كُلُّ شَىْءٍ فِيكَ حَتَّى لَخِلْتُ الأُكْمَ مُوغَرَةَ الصُّدورِ) [2]
(فَلَوْ أنّى حُسِدْتُ على نَفِيسٍ لَجُدْتُ به لِذِى الجَدِّ العَثُورِ)
(ولٰكِنِّى حُسِدْتُ على حَيَاتى ، ومَا خَيْرُ الحياةِ بِلاَ سُرُورِ ؟)
فَيا آبنَ كَروَّسٍ ، يَا نِصْفَ أعْمَى ، وَإنْ تَفْخَر فَيَا نِصْفَ البَصِيرِ
(تُعَادِينَا لِأَنَّا غيْرُ لُكْنٍ ، وتُبْغِضُنَا لأنَّا غيْـرُ عُورِ) [3]
فَلَوْ كُنْتَ آمرءًا يُهْجَى هَجَوْنَا ، ولكن ... ضَاقَ فِتْرٌ عَنْ مَسِيرِ

١٥٩

= إلى الديوان ، ثم لنختصر القول من ناحية أخرى . فعلى القارئ أن يستنبط ويستخرج المعانى على الأصول التى درجنا عليها فى كتابنا هذا . والتدبر والتأمل هما الأصول فى العلم والاستنباط ، وهما عمادُ « التذوّق » الذى أشرتُ إليه فى المقدمة .

(١) « الخِير » ، بكسر الخاء ، الكرم والنّبل .

(٢) « الأُكم » ، جمع « أكمة » ، وهى التل المرتفع . و « موغرة الصدور » ، متوقّدة بالغيظ .

(٣) « لُكْن » جمع « ألكن » ، وهو الذى لا يُبين بالعربيّة من عُجْمة لسانه .

وإمَّا تدبرت الأبيات ، فستجدنَّ أن نفسه الكريمة الأبيّة الأنوفة المستنكفة ، قد أُريد بها الشرُّ والأذى فاهتزَّت ، وتدافعت هِزَّاتها فى أعصابه كلِّها ، فأثبتها على لسانه المبين فى هذه الألفاظ المتقصِّفة بأصواتها ومعانيها ، وألوانها البيانية ، فى التدفُّع والالتفات والانتقال ، ثم فى البغض للدنيا وازدرائها ، ثم فى السخرية والتهكُّم والاحتقار لهذا الأعور الذى هاجه عن عُشِّه فى جِوار ابن عمار .

* * *

وأرادَ الله خيراً بشاعرية هذا اللسان القوَّال العربيِّ المبين ، إذ رَماه بابن كروّس بعد هَذْأةٍ واستجمام . فلمَّا طَوَى البادية ، على ما وصفنا ، يقصِدُ قَصْدَ أنطاكية ، دخلها سنة ٣٣٤ ، وكان بها « أبو عبد الله ، محمد بن عبد الله بن محمد الخَصيبى » ، وكان ينُوب عن أبيه فى مجلس القضاء بأنطاكية . وكان أبو عبد الله الخَصِيبى داهيةً من دُهاة عصره ، فيما نرى ، فقصده أبو الطيب / يمدحه ، وجَعَل أوَّل القصيدة يدلُّ على ما وصفنا لك من تسعُّر الدنيا فى عينيه ، وبين جنبيه ، وكانتْ معانى مَدْحه من هذا الباب أيضاً . وقد تضمنت الأبيات التى سننقلها لك آراءَه فى الجِيل الذى كان يتقلّب بين رجاله ، وازدراءَه للرجال الذين قَصَدهم فلم يُلْفِ عندهم خيراً يُعينه على حاجته التى قال فيها فيما مضى من الأبيات : (فَقُلْ فى حَاجةٍ لم أقض منها ....) [ص : ٢٧٦] ، ثم وصفَ رحلتَه بين أهل البادية ، وما كان يحذَرُه فى أرضهم خَوْفَ الطَّلَبِ أن يهتدىَ إليه فيدركَه فيفتكَ به ، ثم يثورُ ويتمزَّعُ فى أعنَّة نفسه فيُنْذرُ ويُوعِدُ .... وبذلك تعرف أن نفسه كانت على غايتها مُتوتِّرةً مُسْتَوْفِزةً ثائرةً . ثم يأتيه كتاب جَدَّته فيَقْصِدُ العِرَاق ، فيمنعه أعداؤه من العلويين الّذين أرادوا به السوء مِنْ دخولِ الكوفة التى بها جدته ، فيجْلِبُ ذلك عليه الهَمَّ والألم ، فتموتُ جَدَّته ، فيهيجُ ويتلذّعُ ويئنُّ ويبكى ، ثم تدركه رُجولته فتردُّ عليه قوةً مضاعفةً ، فيُبْدِعُ وينْفَرِدُ بقصيدة من أجزل الشعر وأرْصَنه ، [1] ومن

(١) قد استشهدنا بأبيات كثيرة من قصيدته فى رثاء جدته فيما مضى فى نسبه وغيره ، وذلك لما ترى من أنها كانت تحمل نفس أبى الطيب كلها : صريحها ورغوتها ، [انظر ما سلف ص : ١٦٠ — ١٧٧ ، ثم ص : ٢٤١ — ٢٤٣ ، ثم ما سيأتى ص : ٣٧٢ — ٣٧٥] .

أكثر شعره خاصَّة دِلالةً على ما فى نفسه ، وعلى ما أصابه فى حياته من مولده إلى يومه هذا سنة ٣٣٥ .

* * *

يقول أبو الطيب لأبى عبد الله الخَصِيبىّ القاضى :

أَفَاضِلُ النَّاسِ أغرَاضٌ لِذَا الزَّمَن (يَخْلُو مِنَ الهَمِّ أخْلاَهُم مِنَ الفِطَنِ)
(وَإِنَّما نَحنُ فِى جِيلٍ سَوَاسِيَةٍ شَرٍّ على الحرِّ مِنْ سُقْمٍ على بَدَنِ)
(حَوْلى بكُلِّ مَكَانٍ مِنْهُمُ (خِلَقٌ) تُخْطِى إذا جِئْتَ فِى آستفهامها بِمَنِ؟)

١٦١ / وهذا بيتٌ يهجو بألفاظه قبل أن يَهْجوَ بمعانيه ، ويدلُّ على ما فى نفس الرجل من الآلام ، وما لَقى من أهل عصره من الكيد والمكر ، وما كانوا عليه من الخسة واللؤم ، والشطر الثانى من البيت الثانى صِفَة صادقةٌ لعصره كما تجدها فى التاريخ ، وقد أشرنا إلى صِفة هذا العصر فيما مر بك :

(لاَ أقْترِى بَلَداً إلاَّ على غَرَرٍ ، وَلاَ أمُرُّ بخَلْقٍ غيْرِ مُضْطَغِنِ) (١)
(وَلاَ أُعاشِرُ مِنْ أمْلاَكِهم مَلِكاً إلاّ أَحَقَّ بِضَرْبِ الرَّأسِ منْ وَثَنِ)
إنّى لأَعْذِرُهُمْ مِمَّا أُعنِّفُهـمْ ، حَتَّى أعنِّفَ نَفْسِى فِيهِمُ ، وَأَنِى (٢)
(فَقْرُ الجَهُولِ بلاَ عقْلٍ إلى أدَبٍ ، فَقْرُ الحِمار بلاَ رَأسٍ إلى رَسَنِ) (٣)
(وَمُدْقِعِينَ بسُبْرُوتٍ صَحِبْتُهُمُ عَارِينَ من حُلَلٍ ، كَاسِينَ من دَرَنِ) (٤)

---

(١) « قرا الأرض واقتراها » ، تتبعها أرضاً أرضاً وسار فيها ينظر حالها وأمرها .

(٢) « ونى ينى فى الأمر » ، ضعف وقصَّر وتوانَى .

(٣) « الرسن » ، الحبل الذى يقاد به الحمار .

(٤) « المدقع » ، اللاصق بالدقعاء ، وهى الأرض ، من فقره وذُلّه . و « السبروت » ، الأرض القفر الصفصف . و « الدرن » ، الوسخ .

خُرَّابِ بَادِيةٍ غَرْثَى بُطُونهُمُ ، مَكْنُ الضِّبابِ لَهُمْ زَادٌ بَلا ثَمنِ (١)

(يَسْتَخبِرُون فَلاَ أُعْطِيهِمُ خَبَرِى وَمَا يَطِيشُ لَهُمْ سَهْمٌ مِنَ الظِّنَنِ) (٢)

وخَلَّةٍ فى جَلِيس أَتَّقِيهِ بها كَيْما يَرَى أَنَّنَا مِثْلاَنِ فى الوَهَنِ

وهذا البيت مما يدلُّ على دَهاء أبى الطيب وسعة حيلته ، ودقته فى الحذَرِ إذا أُحيط به ، وخاف أن يظفر به عدوُّه :

وكِلْمةٍ فى طَرِيقٍ خِفْت أُعْرِبُها فيُهْتَدَى لِى ، فَلَمْ أَقْدِر علَى اللَّحَنِ (٢)

(قَدْ هَوَّنَ الصَّبْرُ عِنْدِى كُلَّ نَازِلَةٍ وَلَيَّنَ العَزْمُ حَدَّ المَرْكَبِ الخَشِنِ)

/ (كَمْ مَخْلَصٍ وعُلًى فى خَوْضِ مَهْلَكَةٍ ، وقَتْلةٍ قُرِنت بالذَّمِّ فى الجُبُنِ) ١٦٢

(لاَ يُعْجِبَنَّ مَضِيماً حُسْنُ بِزَّتِهِ ، وَهَلْ تَروقُ دَفيناً جَوْدَةُ الكَفَنِ) (٣)

(لله حَالٌ أُرَجِّيها وتُخْلِفُنِى ، وأَقْتَضِى كَوْنَها دَهْرِى وَيَمْطُلُنى)

ولا يفوتنَّك هنا أنَّ أبا الطيب فى هذه الفترة قد أشار إلى مَطْلَب له بهذا البيت فى هذه القصيدة ، ومن قَبْلُ ما أشار إليه فى القصيدة التى قبلها بقوله : « فَقُل فى حاجةٍ لم أَقْضِ منها ..... » [ص : ٢٧٦ ، ٢٧٧] ونحن نَقِفك عند هذا البيت لتجعله منك على ذُكْرٍ حتى يأتى تأويله فيما يستقبل :

(مَدَحْتُ قَوْماً ، وإن عِشْنا نَظَمْتُ لهم قَصَائداً من إناثِ الخَيْلِ والحُصُنِ)

تَحت العَجاج ، قَوَافِيها مُضَمَّرةٌ ، إذا تُنُوشِدْنَ لم يَدْخُلْن فى أُذُنِ

---

(١) « الخراب » ، اللصوص الذين يسرقون الإبل . « غرثى » جمع « غرثان » وهو الجائع الشديد الجوع . « مكن الضباب » ، بيضها ، والبداة يأكلون بيض الضب .

(٢) من هذا البيت وما بعده ، أخذ التنوخى وأشباهه من أعداء أبى الطيب ، ما زعموه من أنهم سألوه عن نسبه ، فكان يقول : « إنى رجل أطوى البوادى وحدى ، وأخبط القبائل . ومتى انتسبت لم آمن أن يأخذنى بعض العرب بطائلة بينها وبين القبيلة التى أنتسب إليها » . انظر : ١٣٩ ، ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٣) « المضيم » ، الذى نزل به الضيم ظلماً فقهره وأذله . و « البِزَّة » ، هيئة اللابس الثياب وشارتهُ .

(فَلاَ أُحَارِبُ مَدْفوعاً إلى جُدُر ، وَلاَ أُصَالِحُ مَغْروراً على دَخَنِ) [١]
(مُخيِّمُ الجَمْعِ بِالبَيْدَاءِ ، يَصْهَرُهُ حَرُّ الهَوَاجِرِ فى صُمٍّ مِنَ الفِتَنِ) [٢]

وبيِّنٌ من نَفَس أبى الطيب فى هذا الشعر أنه قد تطلَّق وآستنَّ فى عدوه إلى غايته ماضياً لا يَلْوِى على شئ ، وأنَّ لسانه قد انذلق بمعانى قلبه ، فهو مبينٌ فى شعره وإشارته ، غيرُ حافلٍ بما سوف يلقاه من الكيد فيما بعدُ . ولولا أنّ الرجل كان بركانيَّ الطبع = يخمد ثم يفور ، ويقرُّ ثم يتقلَّع = لما كان من أثر كيدِ آبن كروّسٍ له ، ما ترى فى كلامه من التدفُّق والتدافع الذى تراه فيما روينا لك من الشعر . ويحسن بك وأنت تقرأ هذا أن تَتَبَّع ما رسمنا لَكَ فى التيقُّظ لإشارة الرجل ، وأن يكون منك على ذُكْرٍ أنَّ الرجل كان حين يفور ويقول ، تتراءَى لعينيه ، ويدوّى فى مِسْمَعَيْه ، كلُّ ما سمعه أو مرّ به ، فهو يُوجز لك ما فى نفسه ضميراً فى أبياته وكلماته .

* * *

١٦٣ / وقد استمرّ أبو الطيب على حالته التى نَصِفُ ، حتى اتصل بأبى العشائر ، [٣] فكل شعره فى هذه الفترة آراءٌ ونظراتٌ كلها مستنبطٌ من ينابيع نفسه ، وذلك لما قلنا به من أن الأصل فى نبوغ المتنبى هو (استيعابه ما يحسُّ به من العواطف ، ودراسة قلبه ومعرفة ما يَحُزُّ فيه من الآلام والمعانى التى تتولّد من هذه الآلام ، ثم اهتداؤه إلى أن الشعر لا يكون شعراً إلاّ حين يَرْوَى من معانى القلب ويستقى منها) . [٤]

وبَيْنَا الرَّجُل كذلك ، إذْ جاءَه كتاب جَدَّته تسأله المسيرَ إليها وتَشْكو شوقها

---

(١) « على دَخَنٍ » ، الغش والفساد المستور بمثل الدخانِ .

(٢) « الصمّ » جمع « صماء » ، و « الفتنة الصماء » ، الشديدة ، لا يُسْمَع فيها صوت ناصح .

(٣) انظر ما سلف ص : ٢٧٤ ، والتعليق هناك .

(٤) انظر ما سلف ص : ٢٥١ .

إليه ، وطول غيبته عنها ، فلمَّا قَصَد الكوفة التى هى بها وشارفَها ، حيل بينه وبين دخولها ، ورؤية جدَّته المسكينة ، على ما مضى فى تأويل هذه الواقعة . [١] فلما ماتت رحمها الله ثارت نفسه ، وقذفت بكل مكنونها من الآلام التى لقيها ، والحوادث التى فعلت فيه فعلها ، وكاد يصرِّح بما لقى من كيد العلويّين له فى مسألة نسبه على ما فسرناه ، وما قُصِد به من الحسد والوشاية . ويكفى أن نشير هنا إلى بيتٍ واحدٍ من قصيدته فى رثاءِ جدته لتعلم أيْنَ بلغ الألَم من قلب أبى الطيب حتى مزَّقه ، والبيت لا يحتاج إلى شرحٍ أو تفصيل ، وفى تدبُّره أو تأمُّل لفظه غِنًى ، إذ كان حسرةً مَحْبُوسةً فى ألفاظ ، وكمداً مكفوفاً وراءَ كلماتٍ ، يقول :

(عَرَفْتُ اللَّيالِى قَبْلَ مَا صَنَعَتْ بِنَا ... فَلمَّا دَهَتْنِى لَمْ تَزِدْنِى بِها عِلْمَا)
/ مَنَافِعُها : مَا ضَرَّ فى نَفْعِ غَيْرِها ، ... تَغَذَّى وتَرْوَى : أَنْ تَجُوعَ وَأَن تَظْمَا ١٦٤

* * *

واجتمع على أبى الطيب ما فى قلبه من الألم ، وما فَجَأَه من مَوْت جدّته ، فتنزَّت نفسُه بقوتها حيناً ، واستسلمتْ بحكمتها وفلسفتها أحياناً ، وهو فيهما جميعاً حكيم بليغ ، فهو بعد أن ثار مَا ثار بمثل قوله فى رثاء جدته :

كَذَا أنَا يَا دُنْيَا ، إذا شِئْتِ فَاْذْهَبِى ، ... وَيَا نَفْسُ زِيدى فى كَرَائِهِها قُدْمَا
فَلاَ عَبَرَتْ بِى سَاعَةٌ لا تُعِزُّنِى ... وَلاَ صَحِبَتْنِى مُهْجَةٌ تَقْبَلُ الظُّلْمَا

وانطلق من بغدادَ = حيث كان حين ماتت جدته = قاصداً أنطاكية بالشأم ، يقول فى القاضى « أبى الفضل أحمد بن عبد الله بن الحسن الأنطَاكى » :

أَنَعَمْ وَلَذَّ فَلِلأُمُورِ أواخرٌ ... أَبداً ، إِذَا كَانَتْ لَهُنّ أوائلُ

---

(١) انظر ما سلف ص : ١٧٢ – ١٧٥ ، والتعليق هناك رقم : ١ .

مَا دُمْتَ مِنْ أَرَبِ الحِسَانِ ، فَإِنَّمَا ... رَوْقُ الشَّبابِ عَلَيْكَ ظِلٌّ زَائِلُ [1]
لِلَّهْوِ آوِنَــةٌ تَمُــرُّ كأَنَّهــا ... قُبَلٌ يُزَوَّدُهَا حَبِيبٌ رَاحِــلُ
جَمَحَ الزمانُ ، فَلاَ لَذِيذٌ خالِصٌ ... مما يَشُوبُ ، ولاَ سُرُورٌ كامِلُ

ومثل هذا الرأى قليل عند أبى الطيب ، بل هو ليس من عادته ، ولا مما يواتيه طبعه على معاطاته والعمل به ، وإنّما أتاه من أنه كان قد اشتدَّ فى فَوْرته إلى الغاية حتى بلغ أقصى ما تحتمله نَفْسُه من العَنَت والمشقّة ، ثم أصابته فَتْرَةٌ تعقُب ذلك لابُدَّ منها ، فاستخرجت حكمتُه هذا المعنى ، وهو يحمل من اليأس والتَّعب والنَّصَب ما ترَى فى مثل قوله : « رَوْقُ الشباب عليك ظلٌّ زائلُ » ، وقوله : « جَمَح الزمان .... » ، فهذا كلام اليائس المستسلم ، إذا قاله / مَنْ كان مِثْل أبى الطيب فى تدفُّعِهِ وتَقَحُّمه وثورته ، فهو أشبه بالاستجمام من التعب والشِقْوة والنَّصَب . هذا على أن الحالة التي كانت متلبِّسةً به ، لم تفارقه كلَّ المفارقة ، بل كانت فيه أعقابٌ منها ، فلما قصدَ المعانى التى يقصدها على طبعه وغريزته ، والتى تكون بألفاظها كالقنبلة فى حديدها ، خرجت منه ألطفَ تعبيراً ، وأقلَّ تفجُّراً منها فى غيرها .... فيقول لهذا القاضى :

١٦٥

لاَ تَجْسُرُ الفُصَحاءُ تُنْشِدُ هٰهنَا ... بيتاً ، ولَكِنِّى الهِزَبْرُ البـاسِلُ
مَا نَالَ أَهْـلُ الجاهلِّيـةِ كُلُّهُـمْ ... شِعْرِى ، ولا سَمِعَتْ بِسِحْرِىَ بَابِلُ
(وَإِذَا أَتَتْكَ مَذَمَّتِى من ناقِصٍ ... فَهِىَ الشهادةُ لي بأَنِّىَ كامِلُ)
مَنْ لِى بِفَهْمِ أُهَيْلِ عَصْرٍ يَدَّعِى ... أن يَحْسُبَ الهِنْدِىَّ ، فيهم بَاقِلُ [2]

.... وكذلك ، ولكنه أقوى قليلاً ، مَا أَتى به بعدُ فى قصيدته لأخِي هٰذا القاضى ، وهو « أبو سهل سَعيد بن عبد الله بن الحسن الأنطاكى » ، إذ يقول فى صِفة نفسه :

---

(١) « روق الشباب » ، صفاؤه وغَضارته ونَضْرته .

(٢) « الهندىّ » ، حساب الهند المشهورون به . و « باقل » رجل يضربُ به المثل فى العِيّ والفَدَامة والجهل .

إِذَا قَدِمْتُ عَلَى الأَهْوالِ شَيَّعَنى قَلْبٌ ، إذا شِئْتُ أن أَسْلاَكُمُ خانَا)
(أَبْدُو فَيَسْجُدُ مَنْ بالسُّوءِ يَذْكُرُنى ، فَلاَ أعاتِبُهُ صَفْحاً وإهْوانَا)
(وَهٰكذا كُنْتُ فى أهلى وَفِى وطَنِى ، إنَّ النَّفيسَ غَرِيبٌ حَيْثُما كانَا)
(مُحَسَّدُ الفَضْلِ مَكْذُوبٌ عَلَى أثَرى ، أَلْقَى الكَمِىَّ ، وَيَلْقانِى إذَا حانَا) [1]
(لاَ أَشْرَئِبُّ إلى مَا لَمْ يَفُتْ طَمعاً ، ولاَ أَبيتُ عَلَى مَا فَاتَ حَسْرَانَا)
وَلاَ أُسَرُّ بِما غَيْرِى الحَمِيدُ به ، وَلَوْ حَمَلَتَ إلَىَّ الدَّهْـرَ مَلْآنَا

وفى هذه الأبيات يلتفت ، على عادته ، إلى الأيام التى مضت له بالكوفة وطَنِه ، وما لقى هناك فى خَبر موت جَدَّته ، فيذكرُها فيثبتها فى شعره ، / والالتفَاتُ فى شعر المتنبى من معنى إلى معنًى ، هو الذى تَسْتطِيع أن تستخرج به أسرارَ الرَّجُل كُلَّها ، إذْ كان على ما وصفنا لك يستوعب ما يَدورُ بقلبه من الخواطر والإحساس والآلام ، ويستخرج منها معانى شعره . فالتفاتُه هنا بعد رجوعه من وطنه الكوفة ، دليلٌ على ما كان قد لقى هناك من الكَيْد ، وهذه الصفات التى وصف بها نفسه هى أيضاً من أثَرِ ما لقى هناك .

١٦٦

* * *

ولم يلبث صاحبنا أن ثابت إليه قُوَّتُه ، فنفضت عن نفسه أسبابَ اليأس والخشوع ، وألجأته إلى طريقتِه الشعرية التى تميَّز بها وانفرد ، وهى طَريقةُ طبيعته الثائرة المستوفزة المتأهّبة للقتال والنِّضال . ولكنه حين بدأ يعود إلى المذهب الذى جرى عليه ، كما رأيت فيما مضى ، كان لا يزالُ متثائباً كالمستيقظ من سُبَاتٍ عميق قد فَتَّره ... فذلك قوله بعد ذلك وهو بأنطاكية أيضاً حين مدح « أبا أيوب أحمد بن عمران » :

وَمَطالِبٍ فيها الهلاكُ ، أَتَيْتُها ثَبْتَ الجَنَانِ كأَنَّنى لَمْ آتِها

---

(١) « حان » ، قرب حَيْنُه ، أى هلاكه .

ومَقَانبٍ بمقَانِبٍ غَادَرْتُهَا   أَقْوَاتَ وَحْشٍ كُنَّ مِنْ أَقْواتِها (١)
أَقْبَلْتُها غُرَرَ الجِيَادِ ، كأَنَّمَا   أَيْدِى بَنِى عِمْرَان فِى جَبَهَاتِهَا (٢)

فذِكْرُه الماضى وما كان فيه من المغامرة والتقحُّم والقتال والكفاح ، أشبهُ بقصةِ مَنْ يَقُصُّ عليك حُلماً كان رآه فى نومه ، فهُوَ لا ينظر إلى / المستقبل كعادته ، ولا يُنْذِر ، ولا يُوعد ، ولا يَصِف ما سيكون منه بعدُ ، كما رأيتَ فى شعره الذى سبق هذه الفترة التى أصابته . ويؤيِّد هذا أنّ حكمته كانت تجرى هذا المجرى من كلام الأَحلام = وكذلك كان مَدْحُه = فهو يقول فى حكمته فى هذه القصيدة :

١٦٧

فِى النَّاسِ أَمْثِلةٌ تَدُورُ ، حَياتُهَا   كَمَمَاتِها ومَمَاتُهَا كَحَياتِهَا

فالمتنبى لو كان فى غير حالته تلك ، لأخذ هذا المعنى ورَماه إليك متفجراً مدوِّياً ، ولوجدت كلَّ كلمةٍ منه مَلْأَى بما فى نفسه من الازدراءِ للناس ، والاستهانة بهم ، ولأَبْدَعَ فى السخرية والتهكم على عادته حين يتناول أمثال هذه المعانى ، كقوله فيما مرّ بك :

حَوْلِى بكُلِّ مَكانٍ منهمُ (خِلَقٌ)   تُخْطِى إذا جِئْتَ فِى استفهامها ، بِمَنِ ؟

* * *

وكانت أيامه تلك هى آخِرةُ الفتور الذى حَدَّ من طماحِه وجِماحه ، ثم آنْبَرى كأشدِّ ما كان ، وقد آجتمعت نفسُه وتَضَامَّ شتاتُها ، وعادت إليه أفكاره كُلُّهَا ، فهو ينقل منها فى شعره نقلاً بيِّناً ، ولا يُضْمِر إلاّ ما كان لابُدَّ له من إضماره ، وهو الآنَ مُنْطلقٌ فى الحديث عن نفسه وعمَّا يجول فى صدره . فلما قدم على « عليِّ بن أحمد الأنطاكىّ » يمدحه ، قذف فى وجهه بهذه الأبيات :

(١) « المقانب » ، طائفة من الخيل يركبها أصحابها للغارة .

(٢) « أقبلتها » ، وجَّهتها إلى غرر الجياد تقابلها وجهاً لوجهٍ .

أُطَاعِنُ خَيْلاً مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهرُ وَحِيداً ، وَمَا قَوْلِى كَذا وَمَعِى الصَّبْرُ ؟

فهذه صورة مما كانت عليه نفسه قبلَ ما ذكرناه ، ثم انتقاله بعد إلى طبيعته القوية كما سترى . فهو حين ذكر أنه يقاتل « الدَّهر » ، ذكر أنه يقاتله وحيداً / لا ناصرَ له ولا عَضُد . فلما جرى ذلك فى ضميره ، أَبَتْ عليه كبرياؤه أن يَضْعُف فى القتال لتوحُّده وانفراده وقلة ناصره ، فاستدرك على هذا المعنى الذى خطر له ، فلام نفسه أن يخطرَ لها هذا الخاطر ، وهو نَذِير الضعف والاستسلام والخضوع ، فقال : « وما قولى هذا القول المستضعف الذليل ، وَمَعِى أقوى ناصر ، وأشدُّ عَضُدٍ ، وهو هذا الصبر الذى أقاتل به ، وهو عندى مُغْنٍ عن الأنصار والأشياع » ، ثم تَفَجَّر بعد ذلك : ١٦٨

وأَشْجَعُ مِنِّى كُلَّ يَوْمٍ سَلاَمَتى ، وما ثَبَتَتْ إلاّ وفى نَفْسِهَا أَمْرُ
تَمرَّستُ بالآفات حَتَّى تَركتُها تَقُول : أَمَاتَ المَوْتُ ، أم ذُعِرَ الذُّعْرُ ؟
وَأَقْدمتُ إقدامَ الأَتِيِّ ، كأَنّ لى سِوَى مُهْجَتِى ، أو كان لى عِنْدَها وِتْرُ (١)
ذَرِ النفسَ تأْخُذْ وُسْعَها قبل بَيْنِها ، فمُفْتَرِقٌ جاران دَارُهُما العُمْرُ

وهذا كله تعليقٌ على الشطر الأول من البيت الأول ، وجدالٌ قائمٌ بين الفترة التى كانت قد أصابته وما عَلِقَ به من آثارها ، وما أنبطت فى نفسه من المعانى والآراء = وبَيْن الطبيعة التى تقوم عليها شخصيَّته وتتميَّز بها نفسه ، وهى طبيعةُ القُوّة والتقحُّم ، وما تُفَجِّر هذه الطبيعة فى نفسه من معانى الإقدام ، وما تُولِّد له من الآراء والأحكام . فلذلك كانت الأبياتُ التى تَليها هى انتصارَ طبيعته القوية المشبوبة الفتيَّة ، وكانت الآراءُ التى تضمنتها هى الآراءَ التى كَثُر ورودها فى شعره ، آجتمعت فيها آراؤه فى المجد الذى يصبو إليه ، وفيما يجب أن يأخذ نفسه به لإدراكه ، وأحكامه على أهل عصره ، وفى استسقاطِهِ لهم ، وخاصّةً ملوكَهم وأمراءَهم الذين قاربهم فلم يجد فيهم خيراً ، بل وجدَهم / خِذْلاناً لمن استنصرهم ، وخِبًّا وخِداعاً لمن استنصحهم ، فقال فى أعقاب الأبيات التى رَوَيناها : ١٦٩

(١) « الأتى » : السيل المتحدر الآتى من مكان بعيد .

وَلاَ تَحْسَبَنَّ المَجْدَ زِقًّا وَقَيْنَةً ، فَما المَجْدُ إلاَّ السيفُ والفَتْكةُ البِكْرُ[1]
(وتَضْرِيبُ أعناقِ المُلوك ، وأَنْ تُرَى لَكَ الهَبَوَاتُ السُّودُ والعَسْكَرُ المَجْرُ)[2]
(وَتَرْكُكَ فِى الدُّنيا دَوِيًّا ، كأَنَّما تَدَاوِلُ سَمْعَ المرءِ أَنْمُلُهُ العَشْرُ)
(إذا الفَضْلُ لَم يرفعك عَنْ شُكر ناقصٍ على هِبةٍ ، فالفَضْلُ فِيمن لَهُ الشُّكْرُ)
(وَمَنْ يُنْفِقِ السَّاعَاتِ فى جَمْع مالِه مَخَافةَ فَقْرٍ ، فَالَّذى فعلَ الفَقْرُ)
(عَلَيَّ لأَهْلِ الجَوْرِ كُلُّ طِمِرَّةٍ عَلَيها غُلامٌ مِلْءُ حَيْزُومِه غِمْرُ)[3]
يُدِيرُ بأطرافِ الرِّماحِ عَلَيْهِمُ كُؤُوسَ المَنايَا حَيْثُ لاَ تُشْتَهى الخَمْرُ
وكَم مِنْ جِبالٍ جُبْتُ تَشْهَدُ أَنَّنى الجِبـالُ ، وبَحْرٍ شاهِدٍ أَنَّنى البحرُ

....

(وَجنَّبَنى قُرْبَ السَّلاطِينِ مَقْتُها وَمَا يَقْتَضِينى من جَمَاجِمها النَّسْرُ)
(وَأَنِّى رأيت الضُّرَّ أَحْسَنَ منظراً وأَهْوَنَ من مَرْأَى صَغِيرٍ به كِبْرُ)[4]

* * *

وأخذ المتنبى بعد ذلك يشتدُّ فى نفسه ويَقْوَى على أثر ما أصابه من الفتور ، وأخذ يستعرض حياته كُلَّها ويستخرج ما فيها ، ويبسط آراءه ويختار منها ، / ويصوغها فى شعره ، وكل ذلك مما يَبْنِيه على ما مرَّ به من أَحْداث الزمن = فإنه حين رَحَل عن أنطاكية قاصداً دمشق ، نزل فى طريقه على « علىّ بن محمد بن سَيّار بن مُكْرَم التميمى » ، فكان مما ورد فى شعره له قوله :

١٧٠

(١) « الزقّ » إناء الخمر ، و « القينة » ، الحسناء المغنّية .

(٢) « الهبوات » جمع « هبوة » ، وهو الغبار الذى تثيره الخيل . و « المجر » ، الكثير العدد .

(٣) « طمرة » ، فرس سريعة الوثبة . و « الحيزوم » ، الصدر . و « الغمر » ، الغِلّ والحقد والغيظ .

(٤) أظن أن القارئ ليس فى حاجة بعدُ إلى الوقوف به عند كل مفصل للقول ، ففى ما قدمناه من المنهج كفاية له ، وحسبه أن يطمئن عند كل بيت اطمئنان المستغرق فى التدبر ، فتنفجر فى نفسه المعانى ، وبذلك يرى حقيقة الرجل ممثلة مجسمة فى ألفاظه وأبياته . ولن تعرف المتنبى إلا أن تفعل ما نريك من الرأى .

وَمَا سَكَنِى سِوَى قَتْلِ الأعَادى ، فَهَلْ من زَوْرَةٍ تَشْفِى القلوبَا !!
تَظَلُّ الطَّيْرُ مِنْهـا فى حَدِيثٍ تَرُدُّ به الصَّراصِرَ والنَّعِيبَـا (١)

ثم يستذكر ما لقى من الحسّاد ، كآبن كَرَوَّس وغيره ممن آذَوْه وهو بطبريّة وأنطاكية وغيرهما ، فيقول حين ذكر الليل :

أقلِّبُ فِيه أَجْفَانِى كَأنِّى أَعُدُّ به عَلَى الدَّهْرِ الذُّنُوبَا
(وَمَا لَيْلٌ بأطْوَلَ من نَهارٍ يَظَلُّ بلَحْظِ حُسَّادى مَشُوبَا)
(وَمَا مَوْتٌ بأبْغضَ من حَياةٍ أَرَى لَهُمْ مَعِى فِيهَا نَصِيبَا)
(عَرَفْتُ نَوَائِبَ الحَدَثَانِ حَتَّى لَوِ آنْتَسَبَتْ لَكُنْتُ لَها نَقِيبا)

ثم يزيد على ذلك إذْ يذكر آرابه فى الحياة وما كان منه فى مسعاهُ للمجد وطَلَبه ، وما كان خرج فى إدراكه من الثأر والمطالبة (بحقّه) المهضوم فى انتسابه للعلوية كما مرَّ بك ، ثم ما مرَّ به من الأحداث ، ومَنْ لقى من الناس الذين استَدْعَوا آحتقارَه لهم وازدراءَه إياهم ، وهو مع ذلك مضطرٌّ إلى مُعاناة عشرتهم ومصادقتهم ، ثم يذكر موت جدَّته بالكوفة ، وأثر ذلك فى نفسه ، وهى التى يحبُّها حبَّ الوفاءِ والإخلاص والبنوّة ، وذلك إذ يقول :

١٧١ / أَقَلُّ فَعَالِى ، بَلْهَ أَكْثَرَهُ ، مَجْدُ وذَا الجِدُّ فِيه ، نِلْتُ أَوْ لم أَنَلْ ، جَدُّ (٢)
(سَأَطْلُبُ حَقِّى بالقَنَا وَمَشايِخٍ كَأَنَّهُم من طُولِ ما الْتَثَمُوا مُرْدُ)

....

(أُذُمُّ إلى هٰذا الزَّمانِ أُهَيْلَهُ ، فأَعْلَمُهُمْ فَدْمٌ ، وأَحْزَمُهم وَغْدُ)
(وأكْرمُهُمْ كَلْبٌ وأبْصَرُهُمْ عَمٍ ، وأَسْهَدُهُمْ فَهْدٌ ، وأشْجعهُمْ قِرْدُ)

---

(١) « الطير » هنا هى النسور تقع على جيف القتلى . و « الصرصرة » ، صوت البازى . و « النعيب » صوت الغراب .

(٢) « الجد » ، الأولى بكسر الجيم ، الاجتهاد . و « الجد » الثانية بفتح الجيم ، وهو الحظ والنصيب .

ومِنْ نَكَدِ الدُّنيا على الحرِّ ، أن يرى عَدُوًّا له ، مَا مِن صداقَتِهِ بُدُّ
بِقَلْبِى ، وإن لم أرْوَ منها ، مَلاَلةٌ ، وبِى عَن غَوَانِيها ، وإنْ وَصَلَتْ ، صَدُّ

فهذه كما ترى كلماتٌ كلها منتزعٌ مما كان فى حياته لذلك العهد ، وما أصابه من الرزايا ، وما أدركه من الإخفاق فى المطلب ، وما أوْرَثَهُ ذلك من الحسرة والمرارة وألم الحرمان . ولما كان ذلك كله مما أصابه إنما أصابه ، على ما ذهبنا إليه أوَّلاً ، فى طريقه وهو يسعى لإدراك ثأره عند العلويين الذين ظلموه وظلموا جدَّته وأنزلوهما بشرّ منزلةٍ ، وكانت جَدَّته قد ماتت قبيل ذلك الوقت بقليلٍ ، وكان أثرُ موتها لا يزال يَحُزُّ فى نفسه = التفتَ قلبه إلى تلك الحبيبة التى فارقته ، وآنتقل من هذه المعانى التى تراها فى الأبيات السابقة إلى ذكرى جَدَّته ، فقال :

خَلِيلاَىَ دُون النَّاسِ حُزْنٌ وَعَبْرَةٌ عَلَى فَقْدِ مَنْ أحْبَبتُ ، ما لَهُمَا فَقْدُ
تَلِجُّ دُمُوعى بالجُفونِ ، كأنَّما جُفُونى ، لِعَيْنَىْ كلِّ باكيةٍ ، خَدُّ

١٧٢ / ثم تلبَّث صاحبنا بعد هذين البيتين وهو يكتبهما ، وتأمَّل أحزانه وآلامه ، ورأى أن البكاءَ والنَّحيب مما لا يجمُل به . وكيف يبكى ويُعْول وهو مَنْ هو فى الصبر والجلَد وتحمُّلِ النكباتِ غير جازعٍ ولا متململ ؟ وقد لقى بصَبْره ، فى سبيل جدَّته وفى سبيل نفسه ، كُلَّ نائبة ، وطوى الأرض موكَّلاً بذَرْعِها غيرَ حافلٍ ، وقاسى من الحَسَد ما قاسى ، وأصابَه من عداوة النَّاس له ما أصابه ، فآغتابوه وآذَوْه ، فاستدرَكَ صاحبُنا على بكاء جدَّته بقوله بعدُ يَصِف نفسَهُ وما كان منه وما كان من أعدائه :

وَإنِّى لَتُغْنِينى مِنَ الماء نُغْبَةٌ وأَصْبِرُ عَنْهُ مِثْلَما تَصْبِرُ الرُّبْدُ [1]
وأَمْضِى كما يَمْضِى السِّنانُ لِطِيَّتى وأَطْوَى كَما تَطْوَى المُجَلِّحَةُ العُقْدُ [2]
وأُكْبِرُ نَفْسى عَن جَزاءٍ بِغِيبَةٍ ، وكُلُّ آغتيابٍ جُهْدُ مَنْ لاَ لَهُ جُهْدُ
وَأَرْحَمُ أقواماً من العِىِّ والغَبَى وأُعْذِرُ فى بُغْضِى لأَنَّهُمُ ضِدُّ

***

---

(١) « النُّغْبة » ، الجُرْعةُ من الماء ، « الربد » جمع « ربداء » ، وهى النعام ، وهى أصبر حىٍّ عن الماء .

(٢) « أطوى » ، أى أجوع . و « المجلحة العقد » ، الذئاب الجريئة ، فى أذنابها التواء كأنه عقدة .

وعلى ما وصفنا لك من حالته ، وممَّا يَلِجُّ فى صدره ويعتلج فى نفسه ، انحدر إلى دمشق ولم يقم بها إلاّ قليلاً ، وقصد طَبَرِيَّة ، وذلك فى سنة ٣٣٦ ، ولَعلَّ آبن كَرَوَّس كان قَد غادرها إذ ذاك . والظاهر أن أبا الطيب إنما دَخَلها فى جِوَار بعض أصحابه ، ومَنْ كانوا يُكْرمونه من أهل الفضل والنبل ، وآطمأن قليلاً بها ، ثم هاجت العلويَّة عليه مرة أخرى ، وأثبتوا عليه عَدَاوتهم ، / وأرادوا أن يكيدوا له كيداً ليخلصوا منه ومن أفعاله . ١٧٣ ونحسب أنّ أبا الطيب كانت له فى البلاد التى دخلها شِيعةٌ تشاركه الرأىَ وتتعصَّب لمذهبه فى السياسة ، وتَزِيد فى تعصُّبها لشعره وأدبه ، فكان ذلك سبباً فى إثارة الفتن فى كثير من البلاد التى دخلها .

وأنتَ ، فلا تظنَّنَّ أنّ مثلَ أبى الطيب كان إذا دخل بلداً دخله صامتاً مَخِيطَ الشفتين ، لا يفتحهما إلاّ حين ينشد قصيدته فى « المديح » فى مجلس من يمدحه ، ثم ينصرف إلى داره مُنْزَوياً فى ركن من أركانها ، حتى يأذن له شيطانُ شعره بقصيدة أخرى ، وهكذا وهلم جرًّا . كلاّ ، فإنا لا نشك فى أنّ أبا الطيب = ذلك الظريفَ المجلس ، الحاضرَ البديهة ، الحلوَ النادرة ، الأَديبَ النفسِ ، صاحبَ الرأى فى السياسة ، وطالبَ الحكمة أنَّى كانت ، والثائرَ على حُكَّام عصره ، والمُزدَرِىَ لأهل زمانه = والذى تَتَبيَّن فى شعره مواضع التجربة الطويلةِ ، والخبرةِ النافذة ، والتمرُّس بالأخلاق عالِيها وسَفْسَافها ، والذى كان شعرُه قطعةً من إحساسه وطبيعته ، وممَّا يمسُّها ممّا يدور حولهما أو يدانيهما من إحساس الناس وطبائعهم = والذى كان شعره ينمُّ على تلك الطبيعة البركانية المتفجرة التى لا تهدأ إلا ريثما ترتدُّ إليها قوتها القاصفة العاصفة الناسفة = والذى لم تكن هذه الظاهرة فى شعره دَعْوَى أو باطلاً أو ظاهراً لا باطنَ له ، إذْ لو كان ذلك كذلك ، لوقع فيها التخالف على تطاوُل السنين ، ولَنَقصت وضعفت بضَعْف الأسباب الجالبةِ لها = والذى كان أيضاً ذَا لسان وبيان ، وكانَ جَدِلاً طَلْقَ اللسان أبِيَّ النفس ، لا يهابُ أن يصارحَ وأن يكشف عن ضميره على شِدَّة ما لقى من الكيد والمكر والتربُّص والرَّصَد ، ثم كان (الرَّجُلَ) الشاعرَ الفردَ من أهل عصره الذى كشف عن / سَيِّئات العصر ، ١٧٤

وصوَّر رَذَائله كُلَّها فى كثير من شعره = والذى كان قريباً من الأمَراء ، أثيراً عند كثير ممن لقيهم = أقولُ : أنا لا أشك ، ولا تشكَّنَّ أنتَ ، فى أن أبا الطيب ، قد أثار كثيراً من الجدل فى الأدب والسِّياسة ، وتمرَّس بالناس وتمرّسوا به ، وأخذ وأعطى ، وناقش وجادل ، وذهب مذهباً فى تَناوُل الآراء والأفعال والأحداثِ التى وقعت فى الدولة العربية ، وبَيَّن رأيه فيها فى مجالس أصحابه ، وتناقلتِ الألسنةُ ما كان يقولُ ، ووَجَد حُسَّادُه مِنْ تكشفُّه وَصَرَاحته مَطْعناً ومَقْتَلاً يطعنونه فيه ، وظفِر الوشاة بغِذاء قلوبهم وزاد ألسنتهم مما كان الرجل يكاشف به من الرأى ، وما يُبْديه من النظرات والأفكار ، فَسَعَوْا به إلى أعدائه ، وإلى الذين كانوا يُضْمِرون له السوء من أصحاب السلطان ، أو مَنْ كانوا يعادُون أبا الطيب لأسباب خفيت عن السُّعاة والوُشاة ، وإن لم يَخْفَ عنهم أنّ هؤلاءِ كانوا ممن لا يميلون إلى بقائه بينهم ، أو ممن يتربَّصون أن يظفروا به قبلَ أن يفوتَهُم بحذره ودهائه .

* * *

فبيِّنٌ أنَّ أبا الطيب دَخَل « طبريَّة » ، على حالته تلك التى نَصِف ، مراغماً للعلويين ، ثم لمن كانوا يكيدون له قبلُ على عهد « بدرِ بن عمار » ، والذى كان يَتولَّى كِبْر ما يأتونَ به هو الأعورُ ابن كروس كما مرّ بك . وكان أبو الطيب فى هذه الأيام التى بقيَها بطبريَّة حَذِراً متوجِّساً يترقَّب ، وكان بالرملة إذ ذاك (سنة ٣٣٦) الأمير « أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن طُغْج » ، فلما أتاه الخبرُ بأن أبا الطيب نازلٌ بطبريةَ ، طَمِع فى مديح أبى الطيب ، ووَدَّ / لو نزل عليه وأقام عنده مكرماً ، فلم يزل يُراسله أَنْ يتحمَّل إليه وينزل عنده ، فأضمر أبو الطيب الرِّحْلَة إليه ، وكان الخبرُ قد بلغ العلويين أن « أبا محمد ابن طغج » راسله وعزم عليه فى الرحلة إليه ، فألْفَوْها نُهْزَةً مُعْتَرِضة أن يفتكوا به ، وتوهَّمُوا الطريقَ التى سَيركَبُها أبو الطيب ، ولابُدَّ ، فى رحلته ، فأرْصَدُوا له جماعةً من عبيدهم السُّودان بقرية بالقرب من طبرية يقال لها « كَفْرُ عاقِب » ، وأمروهم أن لا يُفْتِلوا الرجلَ إلاّ جُثَّة دامية . والظَّاهر أن أبا الطيب كَانَ قد جرى فى خاطره أنهم فاعلو مِثْل ذلك ، فخالفَ الطريق التى دَرَجَ السابلةُ على ركوبها ما بين طبرية والرَّمْلة ، فلمَّا فات الرَّصَدَ ،

١٧٥

وبلغه ما كانوا قد عَزَموا عليه ، وما كانوا قد أرْصَدوا له ، رَبَتْ نفسُه ، وَزَفر زَفْرَتَه من هذا الكيدِ المُلاَحِقِهِ بكلِّ طريق ، وثارت فى صَدْره الزّوبعة التى كانت تثور فيه كلما ٱبتُلِىَ ببلاءٍ من العداوة ، أو أُصِيب بمصيبة من الكيد والمكرِ السيىء . فلمَّا دخل الرَّملة ليمدح الأمير أبا محمد ابن طُغْج ، كان يفورُ ويغْلى ويَتَقَلْقَل ويتفجَّرُ ، فلم يأخذ نفسه بآداب المديح والزيارةِ المبتدَأَةِ ، وَرَمَى فى وجه ممدوحه بقنابِله قبل أن يَلِج إلى مديحه فقال :

فَما لِى وَللدُّنْيَا ، طِلابى نُجُومُها ، وَمَسْعَاىَ منها فى شُدُوقِ الأَرَاقِمِ [1]
مِنَ الحِلْمِ أنْ تَسْتَعْمِلَ الجهلَ دُونه ، إذا ٱتَّسَعَتْ فى الحلم طُرْقُ المَظالِمِ
وَأَنْ تَرِدَ الماءَ الَّذِى شَطْرُهُ دَمٌ فتُسْقَى ، إذَا لَم يُسْقَ مَنْ لم يُزَاحِمِ
وَمن عَرَفَ الأَيَّامَ ، مَعْرِفَتِى بها وبالناسِ ، رَوَّى رُمْحَه غَيْرَ راحِمِ
فَلَيْسَ بمَرْحُومٍ إذَا ظَفِرُوا به ، ولاَ فِى الرَّدَى الجَارِى علَيْهِمْ بآثِمِ

ثم التفت إلى نفسه (يمدحها) ، قبل أن يمدحَ ٱبن طُغْج ، فقال :

/ إذَا صُلْتُ لَمْ أَتْرُكْ مَصَالاً لِفاتِكٍ ، وإن قُلْتُ لَمْ أَتْرُكْ مَقَالاً لِعَالِمِ [2] ١٧٦

وقد قدمنا لك فى أثناءِ القولِ أن أبا الطيب كان إذا نزل به نازلٌ مما يَكْرُبه من الغمّ والهمّ ، اشتدَّ به ذلك وأخذَ عليه نَفْسَه ، فينصرف فكرُه كله إلى التدبر فيما مضى عليه من الرزايا ، وما أجْلَب عليه من العُدَاة وعَداواتهم . ولا يزال يحدِّق ببصره فى هذه الحالة ، مُستوعباً كلَّ إحساس فى نفسه ، وكُلَّ ما مرَّ به وأصابَ منه ، حتى تتفجّر فى قلبه ونفسه ينابيع البيان ، فينتزع الحكمة من قلبه ولها أصولٌ تاريخية ضاربةٌ فيه . فإذا تدبرت الأبيات السالفة وجدْتَ فيها تاريخ قلبه وتاريخ مصائبه كُلِّها ، على ما سُقْناه فى حديثنا .

ثم إن أبا الطيب لَما كَرَبه أمرُ العلويين الذين أرصدوا له بكفر عاقبٍ ، ارتدَّ إلى

---

(١) « الأراقم » ، جمع « أرقم » ، وهو الحية الخبيثة المخوفة .

(٢) « صال يصُول صَوْلاً ومَصَالاً » ، سطا على عدوّه سطوة جبار .

الحالة التى وصفنا ، فلم يزل يدورُ ذلك فى فكره بين قلبه ولسانه ، فلم يَقْدِر أن يمْتَنِع عن ذكره فى شعره الذى قاله فى مديح أبى محمد خاصةً ، ثم فى شعره الذى قاله بعدُ لطَاهِرٍ العلوىّ كما سترى . فمما قالَ لأبى محمد يذكرُ هذا الكيدَ الذى كِيد به فى طبريَّة :

كَرِيمٌ لَفَظْتُ النَّاسَ لمَّا بلغتهُ كَأَنَّهُمُ ما جَفَّ مِنْ زَادِ قَادِمِ
وَكَادَ سُرورِى لاَ يَفِى بِنَدَامتى على تَرْكِه فِى عُمْرِىَ المُتَقَادِمِ
(وَفَارَقْتُ شَرَّ الأَرْضِ أهلاً وتُرْبةً بِهَا (عَلَوِىٌّ) جَدُّه غَيْرُ هَاشِمِ)

والظاهر أنه كانت بين الأمير آبن طُغْج وهذا العلوىّ الذى كاد هو وشيعته لأبى الطيب فى مخرجه من طبرية ، عداوةٌ قائمة ، وأنَّ هذا الكيد / كان لسببين : الأول ، ما كان بين العلويين وبين أبى الطيب كما قدمنا ، والآخر ، هذه العداوة بين رأس العلويين بطبريّة ، وهذا الأمير الذى خرجَ أبو الطيب من طبريَّة قاصداً له مادحاً إيَّاه ، فلذلك قال أبو الطيب فيما يلى ما أنشدناه :

١٧٧

بَلاَ اللهُ (حُسَّادَ) الأَمير بِحِلْمِه ، وأَجْلَسَه مِنْهُم مَكَانَ العَمَائم
فإنَّ لهم فى سُرْعَةِ المَوْتِ راحةً ، وإنَّ لَهُم فى العَيش حَزَّ الغَلاَصِمِ [١]

* * *

هٰذا ، وقد بَقِى أبو الطيب فى جوار الأمير أبى محمد بالرملة مكرَّماً ، يصحبه الأمير فى رحلاته ، ويُحْضِره مجلسَه ، ويرافقه فى زياراته ، ويُفْضِل عليه كلَّ الإفضال ، حتى أرْضى ذلك القلب الذى كان بُغْضُ الأعاجم فيه طبيعةً ثانيةً قائمةً لاَ تَفْتُر . وكان من أصحاب هذا الأمير رَجُل من شيوخ العلويين بالرَّملة ، وأبناء شيوخهم ، وكانت له ولأهله أيادٍ كثيرة عِنْد بنى طُغْج ، فلم يَفُت الأميرَ أبا محمّدٍ ما فى مدح أبى الطيب له ، وقد ترك أنْ يمدح رجلاً جليلاً كصاحبه هذا « أبى القاسم طاهر بن الحسن بن طاهر العلوىّ » ، [٢]

---

(١) « حز الغلاصم » ، قطع الأعناق . و « الغلصمة » لحمة ناتئة عند رأس الحلقوم .

(٢) نسبَ أبى القاسم ، مستوفًى فى جمهرة ابن حزم : ٥٥ ، ٥٦ .

فرغب إلى أبى الطيب أن يمدحه ، وكان من أبى الطيب ما كان فى امتناعه على ما مرَّ بك ، [١] فلما أجاب أبو الطيب الأميرَ إلى مَدْحه مُرْغماً ، حاملاً على نفسه = إذ كان قلبُه لا يرضى أبداً عن هؤلاء العلويّين الذين آذَوْهُ ، والَّذِين لَقِى من كيدهم بالأمسِ القريب ما لَقِىَ ، من إرصادهم لقتله = قال قصيدتهُ يمدح أبا القاسم / طاهر بن الحسن ابن طاهر ، ولكنه قدَّم قبلَ مديحه هذه الأبياتَ ، وفيها ما فيها من لَمْزِ قَوْمٍ من (العلويين) ، لعلّهم أن تكون بينهم وبين طاهر قرابةٌ دانية . والخطاب فى الأبيات لامرأة ذكرها فى تشبيب القصيدة : ١٧٨

تُخَوِّفُنى دُونَ الَّذِى أَمَرَتْ بِهِ ... وَلَم تَدْرِ أَنَّ العَارَ شَرُّ العَوَاقِبِ

(ولاَبُدَّ مِنْ يَوْمٍ أغَرَّ مُحَجَّلٍ ... يَطُول آسْتِمَاعى بَعْدَهُ للنَّوادِبِ)

يَهُونُ عَلَى مِثْلى إذَا رَامَ حاجةً ... وُقُوعُ العَوالِى دُونَهَا والقَوَاضِبِ

كَثِيرُ حَياةِ المرءِ مِثْلُ قَليلها ... يَزُولُ ، وبَاقِى عَيْشِهِ مِثْلُ ذَاهِبِ

إلَيْكِ ، فَإِنِّى لَسْتُ مِمَّن إذا اتَّقى ... عِضَاضَ الأفَاعِى نَام فَوْق العَقَارِبِ

(أتانى وَعِيدُ الأَدْعِياء وأَنَّهُم ... أَعَدُّوا لِىَ السُّودانَ فى كَفْرِ عَاقِبِ)

وَلَوْ صَدَقُوا فِى جَدِّهِمْ لَحذِرْتُهم ... فهل فِىَّ وَحْدِى قَوْلُهُمْ غَيْرُ كاذبِ ؟

ثم التفت إلى نفسه (يمدحها) قبل مدح الشريف العلوىّ ، كما مرَّ بك فى قصيدة الأمير ابن طُغْج ، [٢] فقال فيما يلى ذلك :

إلَىَّ ، لعَمْرِى ، قَصْدُ كُلِّ عَجيبةٍ ... كأنّى عَجِيبٌ فى عُيُون العَجَائبِ

بأىِّ بِلاَدٍ لَم أجُرَّ ذُؤَابتى ؟! ... وأىُّ مكانٍ لم تَطَأْهُ رَكائِبى ؟!

وقد مضى ذكرُ هذه القصيدة وذكر أبياتٍ أخرى منها ، فاكتفينا بما مضى منها

---

(١) انظر ص : ١٥٣ – ١٥٧ .

(٢) انظر ما سلف ص : ٢٩١ .

عن الإعادة . [١] على أن هناك أشياء أخرى ، كان أولى بنا التوسع فى تفصيلها ، ولكننا أجّلناها إلى موضعها من كتابنا وبالله التوفيق .

* * *

١٧٩ / ثم عزم أبو الطيب الرِّحلةَ من الرملة إلى جِوار « أبى العشائر الحسن بن على بن الحسن بن الحسين بن حَمْدان العَدَوِىّ » ، فخرج من الرمْلة فى سنة ٣٣٦ يريد أنطاكية ، ولم يحدث له حادث إلاّ ما كان من أمر إسحق بن إبرهيم بن كَيْغَلَغَ فى طلبه منه أن يمدحه ، فهجاه بقصيدته المشهورة التّى أوَّلُها :

لِهَوَى النُّفُوسِ سَرِيرَةٌ لاَ تُعْلَمُ   عَرَضاً نَظَرْتُ ، وخِلْتُ أَنِّى أَسْلَمُ

فلما بلغت ابنَ كيغلغ ، أراد قتل أبى الطيب ، وكان إذ ذاك بطرابلس ، فخرج منها ، فأتبعه آبنُ كَيْغلَغ خيلاً ورَجْلاً فأعجزهم صاحبنا بالهرب إلى بعلبك ، ثم إلى دمشق ، ثم خرج من هناك إلى أنطاكية ، فلقى أبا العشائر . وكان مما قال لهذا الأعور آبن كيغلغ :

أَرْسَلْتَ تسأَلُنى المَدِيحَ سَفَاهةً !!   صَفْرَاءُ أضيقُ مِنْكَ ، مَاذَا أَزْعمُ ؟ [٢]
وأَرَغْتَ مَا لأَبِى العشائرِ خَالِصاً ،   إنّ الثَّناءَ لِمَنْ يُزَارُ فَيُنْعِمُ
وَلِمنْ أقمْتَ عَلَى الهَوانِ ببابِه   تَدْنُو فَيُوجَأُ أَخْدَعَاك وتُنْهَمُ [٣]

ثم طفق يمدح أبا العشائر إلى أن قال :

والوَجْهُ أزْهَرُ ، والفُؤَاد مُشَيَّعٌ ،   والرُّمح أَسْمَرُ ، والحُسَامُ مُصَمِّمُ
(أَفْعَالُ مَنْ تَلِدُ الكِرَامُ كَرِيمةٌ ،   وفَعَالُ مَنْ تَلِدُ الأَعَاجِمُ أَعْجَمُ)

فكأنَّ أبا الطيب ، كان قد ملّ الأعاجم واستنقصهم ، وفيهم الأمير أبو محمد بن طغج الذى كان قد نزل عنده آنفاً بالرملة ومدحه ، ونال من فواضله .

---

(١) انظر ما سلف ص : ١٥٤ - ١٥٦ .

(٢) « صفراء » ، اسم أمّ آبن كيغلغ ، وفى البيت إشارة سيئة .

(٣) « وجأ عنقه » ، لزّه وضربه من عند قفاه . و « نهمه » ، زجره واشتد فى زجره وطرده .

— ١١ —

****
أَأَصْبِرُ عَنْكَ ، لَمْ تَبْخَلْ بِشَىْءٍ ؟
وَلَم تَقْبَلْ عَلَىَّ كَلاَمَ وَاشٍ ؟
وَما وُجِدَ ٱشْتِياقٌ كَٱشْتِياقِى ،
ولاَ عُرِفَ ٱنكماشٌ كَٱنكماشِى
فَسِرْتُ إليكَ فى طَلَبِ المَعَالِى ،
وَسَارَ سِوَاىَ فى طَلَبِ المَعَاشِ
****

/ أردنا فى الباب السَّالف أن ندُلَّك على نَفْس أبى الطيب ، وما تميَّزت به من شعراء العربية جميعاً ، وما ٱنطوت عليه من القوة والرُّجولة ، وما كان يزلزلُها من الثورة التى لا تزال تهزُّه من قرارة قلبه ، فتنطلق زلازلها من قلبه إلى لسانه ، فيُثْبِت لسانُه فى شعره عدَدَ هزَّات الزلزلة وقوتها ، فلذلك نقلنا إليك طائفةً من شعره على التوالى فى ترتيبها الزَّمَنِىِّ حتى هذا العهد الذى بدأ حين اتصل بأبى العشائر ، فدخل مدخلاً غيرَ الأوَّل ، وذهب فى الشعر مذهباً عجباً ، وتحولت معانى نفسه من غَرَضٍ بعينه ، إلى غرضٍ آخرَ غيرِ مفارقٍ للأوَّل ، بل منه استمدَّ ، وعليه بَنَى . (١) ١٨١

* * *

/ خرج أبو الطيب من الرَّملة بقلبه وبنفسه وبآرائه قاصداً أنطاكية التى كانت فى ١٨٢

---

(١) انظر ما سلف فى أول الفصل العاشر ، وكانت قصائد أبى الطيب غير مؤرخة فى ديوانه ، ولكن منذ اتصَلَ بأبى العشائر وسيف الدولة جاءت قصائده كلها مؤرخة بالسنة والشهر واليوم ، وانظر ما قلته آنفاً ص : ٣٧ — ٤٠ ، ثم ص : ٨٣ — ٩٠ ، وهو مهم جدًّا .

يدِ بنى حَمْدَان التّغلبيّين . وكان يَلِى أمرَها ، من قبل سيف الدولة ، أبو العشائر الحَمْدَانىّ الشاعر المبدع ، والمحاربُ الباسلُ ، والعربىُّ الخالصُ الحبِّ للعرَب والعربية ، الشديدُ العداوةِ للروم والترك والدَّيلم الذين توالت غاراتهم على الدولة العربية بالجيوش تارة ، وبالدسائس والمكايد والتمزيق تارةً أخرى . وكان المتنبى قد عرف بنى حَمْدَان من قبلُ ، وعرف منهم خاصّةً سيفَ الدولة ، (١) الذى صَارَ الآن سنة ٣٣٦ صاحبَ الشام ، والمستولِىَ على أمرها ، والمُنْتزِعَها من يدَ بنى طُغْج الإخشيديين الأتراك .

دَخل أبو الطيب أنطاكية ليلقى العربَ والعربيةَ فى مجلس بنى حَمْدَان ، وقد رمى دَبْرَ أذنه وتحت قدمه ، الأَعاجمَ وما مدحهم به . وأراد أن ينقل شِعْره من تكلُّف المديح إلى التطلُّق والاسترسال فى مدح مَنْ هُمْ من رأيه ، ومَنْ يجد فيهم مَرْضاةَ نفسِه وآماله . ولئن كان قَبْلُ قد مدح القَوْمَ العلوجَ ليستخرج منهم بَعْضَ أموالهم التى غلبوا الأُمة العربية عليها ، وليكون على مَقْربةٍ من مَكرهم ودَسِّهم ، وعلى علمٍ بما يضمرون لأُمته من الشّرّ الغالب على قلوبهم وعقولهم = فهو الآن قد وجَد قُوَّته وأهله وعشيرته ، فليأْتِهم بكل غريبة من القول ، وليمجِّدْ ذكرَهم فى شعره ، وليهدأ قليلاً مما كان فيه من الثورة ، ليستطيع أن يَحْزِمَ رأيه وتدبيره مع هؤلاءِ القوم ، عَلَى أن يعيدوا مجدَ العربية ، (ويُدِيلوا من دوَلة الخدم) الذين غلبوا على سياسة الأُمة ، ورَمَوْا / بها فى موارد الهلاك والفشل ، فهذا سرُّ قولِه لأَبى العشائر فى قصيدةٍ مدحه بها ، والتى نقلنا أبياتاً منها فى رأس هذا الباب : ١٨٣

فَسِرْتُ إليكَ فِى (طَلَبِ المعالِى) وسَارَ سِوَاى فِى (طَلَب المَعَاشِ)

فهو إنما قَدِم على بنى حَمْدَان لما ذكرنا لك ، لا للتكسُّب بالشعر ، وأكلِ الخبز من قوافيه ومعانيه .

* * *

(١) قد مضى ذلك فى سنة ٣٢١ ، وقد تكلمنا هناك بما فيه الكفاية إن شاء الله – انظر من ص : ٦٩ – ٧٣ .

رأيت قبلُ أن المتنبى كان إذا مدح بدأ بنفسه فذكرها ومجّدَها وعظّمها ، ثم يبدى آراءَهُ فى الدنيا ، ويكشف عن الثورة القائمة فى ضميره وقلبه ، ثم يُنْذِر ويوعد ويهدِّد . فلما بدأ آتّصاله ببنى حَمْدان ، ترك هذا المنهج ، وَآدَّخر قوته كلَّها لأمرٍ غير هذا الأمر ، وأسْبغ على بنى حَمْدان ما كان يُسْبِغ من قبلُ على نفسه من ثياب المجد ، فهو يَصِفهم كما كان يصف نفسَه ، ويعلو بهم إلى غاية السموّ فى القوَّة والسلطان والسماحة والمروءَة وعِظَم المطلب ، ولم يذكر نَفْسَهُ إلاَّ حين يُخرجه الوُشاةُ والساعون بالشرّ بينه وبينهم .

فلما آتّصل أبو الطيب بأبى العشائر ، ونال منه مكانَهُ ، وأدرك عندَهُ طَلِباته ، بدأت وشاية الوشاة بأنطاكية تفعل أفاعيلها مرَّةً أخرى ، ومَدَّت الفتن أعْنَاقها من قِبَل شيعة العلوييّن والفاطميين والإخشيديين والعباسيين ، على ما نذهب إليه ، وشَعر أبو الطيب بما هنالك ، فدلَّ أبا العشائر عليه بلطيف القول غير مُصرِّح فقال :

فَيَا بَحْرَ البُحورِ ، وَلاَ أُوَرِّى ، وَيَا مَلِكَ المُلوكِ ، وَلاَ أُحَاشِى

كَأَنَّك ناظرٌ فِى كُلِّ قَلْبٍ فما يَخْفَى عَليك مَحَلُّ غاشٍ ؟

أَأَصْبِرُ عَنْكَ ؟ لَمْ تَبْخَل بشيءٍ ، وَلَم تَقْبَلْ علىَّ كَلامَ واشٍ ؟

....

فَما خَاشِيك للتكذيبِ رَاجٍ ، ولا رَاجِيكَ لِلتَّخْيِيبِ خَاشٍ

أَرَى النَّاسَ الظَّلاَمَ ، وأَنْت نُورٌ ، وَإِنِّى مِنْهُمُ لأَلَيْكَ عَاشٍ (١)

(بُلِيتُ بهم بَلاءَ الوَرْدِ يَلْقَى أُنوفاً ، هُنَّ أَوْلَى بالخِشَاشِ) (٢)

١٨٤

(١) « عشا إلى النار يعشو ، فهو عاشٍ » ، إذا أبصَر فى الليل المظلم فقصد قصدها .

(٢) و « الخِشَاش » عودٌ صغير يُجْعلُ فى عظم أنف البعير ، ويُشَدُّ به الزمام ، ليكون أسرع لانقياده . وعندى فى هذا البيت نظر ليس هذا موضعه .

والظَّاهر أن أبا العشائر كان قد أصمّ أذنيه عن سعاية السعاة والوشاة والحسّاد ، وما كانوا يريدُون من تقليب قلبه عليه ، كما فعلوا بقلب « بدر بن عمارٍ » من قبلُ ، فلمّا لم يَأْذَنْ لهم أبو العشائر أَوَّلَ أَوَّلَ ، زادُوا فى التشهير بالرَّجل ، وفى اجتلاب الأكاذيب فى ذمِّه ونَقِيصته ، وفى التعريض به وبأدبه ، وجعلوا يذكرون ما كان فى شعره من الثَّورة والإنذار والوعيد وذمِّ الناس ، ويُعَدِّدُون مواضع فخره على مَنْ مدحه ، ويَدُلُّون على سوءِ أدبه فى مديحه إذ يقدّم مدحَ نفسه ، ثم يزيد فيمدحها بما لم يمدح ممدوحه بمثله أو بما يقاربه ، ووَقَع إليهم ما كان يُنْبَز به لدى « بدر بن عمار » من تسميته بالمتنبى ، [1] فزادوا عليه ، ووضعوا من عند أنفسهم القِصَص فى تطويل الحكاية ، وتعظيم أمرِهَا . وبدأ العلويُّون أيضاً يُعَرِّضون بمسألة نَسَبه ليُخْرِجوه أن يصرِّح بنسبته العلوية ، فعندئذٍ لا يجدون حَرَجاً من أن يأخذوه كما أخذوه أوَّل مرة ، ثم يُلْقُوا به فى غَيَابة السِّجن بضْعَ سنين . فلما بلغوا هذا المبلغَ وضاق بهم / أبو الطيب ، لم يجد بُدًّا من العودة إلى طريقته الأُولى حين يُحْرَج ، فكان مما قال فى ذلك كله قبل أن يَلِجَ إلى مديح أبى العشائر : ١٨٥

(أَنَا ٱبنُ مَنْ بَعْضُهُ يَفُوقُ أَبَا البَـ ـاحِثِ ، والنَّجْلُ بَعْضُ مَن نَجَلَهْ)
(وَإِنَّما يَذْكُرُ الجُدُودَ لَهُـمْ مَنْ نَفَرُوه ، وَأَنْفَـدُوا حِيلَـهْ) [2]
فَخْراً لِعَضْبٍ أَرُوحُ مُشْتَمِلَهْ وسَمْهَرِيٍّ أَرُوحُ مُعْتَقِلَهْ [3]
وَلْيَفْخَرِ الفَخْرُ إذْ غَدَوْتُ به مُرْتَدِياً خَيْرَه وَمُنْتَعِلَهْ
أَنَا الَّذى بَيَّنَ الإلٰهُ بِهِ الْـ أَقْدَارَ ، وَالمَرْءُ حَيْثُمَا جَعَلَهْ
جَوْهَرَةٌ تَفْرَحُ الشَّرَافُ بها ، وغُصَّةٌ لاَ تُسِيغُهَا السَّفِلَهْ

---

(١) قد مضى رأينا فى هذه التسمية ، وأنها كانت لما كثر فى شعره من الإنذار والوعيد ، انظر ما سلف ص ٢٣٢ – ٢٣٦ ، والتعليق هناك .

(٢) يقال : « نافره فنفَره » ، أى فاخره فغلبه فى الفخر وألزمه الاستخذاءَ .

(٣) « العضب » ، السيف الماضى . و « اشتمل » ، تقلّد حَمائله على منكبه . و « السمهرى » ، الرمح . و « اعتقل الراكب الرمح » ، جعله تحت فخذه ، ويجرّ آخره على الأرض وراءه .

(إنَّ الكِذَابَ الَّذِى أُكَادُ بِهِ أَهْوَنُ عِنْدِى مِنَ الّذِى نَقَلَهْ)
فَلاَ مُبالٍ ، ولاَ مُدَاجٍ ، ولاَ وَا نٍ ، وَلاَ عاجِزٌ ، ولاَ تُكَلَهْ (١)
ودَارِعٍ سِفْتُهُ فَخَرَّ لَقىً فى المُلْتَقَى والعَجَاجِ والعَجَلَهْ
وسَامِعٍ رُعْتُهُ بقَافِيَةٍ يَحَارُ فِيها المُنَقِّحُ القُوَلَهْ
(وَرُبَّمَا أُشْهِدُ الطَّعَامَ مَعِى مَنْ لاَ يُسَاوِى الخُبْزَ الّذِى أَكَلَهْ)
(وَيُظْهِرُ الجَهْلَ بِى وأَعْرِفُه ، والدُّرُّ دُرٌّ بِرَغْمِ مَنْ جَهِلَهْ)

ومن صدق الرجل فى محبته لأبى العشائر خاصة ، وبنى حَمْدان كافةً ، فَعَل ما لم يفعله من قبلُ ، فاستدرك عَلَى ما ذكر به نفسه من التعظيم والتبجيل فقال :

مُسْتَحْيِياً مِنْ أبى العَشائِرِ أَنْ أَسْحَبَ فى غَيْرِ أَرْضِهِ حُلَلَهْ

وقد أشار أبو الطيب فى هذه القصيدة إلى أنّهم زادوا على ما ذكرنا من الكيد ، أنهم كانوا قد أكثروا القول لدى أبى العشائر ، وزعموا أنه / إنما كان يمدحُه للتكسُّب والنيل من فواضِلِ ماله ، وتكذَّبوا عليه بكل نَقِيصة تُفْسد عليهِ قلبَ أبى العشائر .... فقال : ١٨٦

مَالِىَ لاَ أمدحُ الحسَيْنَ ، ولاَ أَبْذُل مِثْلَ الوُدِّ الَّذِى بَذَلَهْ ؟
أَأَخْفَتِ العَيْنُ عندهُ أثَراً ! أَم بَلَغَ الكَيْذُبَانُ مَا أَمَلَهْ ؟

ولكنّ أبا العشائر كان قد عرف ، فيما نظنُّ ، سِرَّ الكيد الذى يكاد به أبو الطيب ، ولعلَّ سيف الدولة أيضاً قد بلغه مَقْدمُ أبى الطيب على أبى العشائر ، فكتب إليه أن يحرِصَ علَى الرجل ، ولا يَسْمعَ فيه لمنتقص ولا ذامّ ، ولا متكذِّب ، لما يعلم من سرّ الرجل الذى انطوى عليه فى أمر نسبته العلوية ، كما قدّمنا . فلذلك لم يجد الوُشاة أُذُناً

---

(١) « التُكَلَةُ » و « الوُكلة » ، الذى يكل أمره إلى غيره عجزاً عن القيام به .

صاغيةً ولا سَمِيعة ، فآنصرفوا برغمهم . ونال أبُو الطيب الكَرامةَ والعِزَّةَ فى جوار أبى العشائر ، وهدأ واستقرَّ قرارُهُ ، وآطمأن قَلْبه ، مُنْتَظِراً مَقْدَم سيف الدولة إلى أنطاكيةَ فى مسيره فى نواحى البلاد التى استولى عَليها بالشأم . وفى هذه الفترة من الطمأنينة والسكينة والكرامة لدى أبى العشائر ، استجمَّ الرجل لقُوَّته ، وادَّخر لسيف الدولة ذخائرَ قلبه وكرائمَ فُؤادِه .

***

— ١٢ —

****

وَعِنْدِى لَكَ الشُّرُدُ السَّائِرا
تُ ، لاَ يَخْتَصِصْنَ مِنَ الأَرْضِ دَارَا
قَوافٍ ، إذَا سِرْنَ عَنْ مِقْوَلى ،
وَثَبْنَ الجِبالَ ، وخُضْنَ البِحَارَا
وَلِى فِيكَ مَا لَمْ يَقُلْ قائلٌ ،
وَما لَمْ يَسِرْ قَمَرٌ حَيْثُ سَارَا
سَمَا بِكَ هَمِّىَ فَوْقَ الهُمُومِ ،
فَلَسْتُ أُعُـــدُّ يَساراً يَسَارَا
ومَنْ كُنْتَ بَحْراً لَهُ ، يا علىُّ ،
لَمْ يَقْبَلِ الـدُّرَّ إلاَّ كِبـارَا

****

/ فى سنة ٣٣٧ كان سيفُ الدولة « أبو الحَسن عَلىُّ بنُ أبى الهيجاء عبد الله بنِ حَمْدان العَدَوىُّ التغلبىُّ » ، قد استولى على أكثر الشام ، ووقف للرُّوم يردُّ غاراتهم على أطراف بلاده ، ويُوقِع بهم إيقاعاً شديداً ، وغَلَبت مقدرتُه الحربيةُ كلَّ مَن كان فى عصره من القوَّاد ورؤوس الفتن التى عملت فى انتكاس الدولة العربية وهلاكِها . وكان يُؤَمَّل له أن يَتَّسع ملكه آتساعاً عظيماً ، لولا ما كان من الأحداث العظيمة ، ثم ما كان فى الدولة من دسائس الأعاجم التى فرَّقت القلوب ، فلم تَدَعْ أُمَّةً من الناس إلاّ دخلت بينهم فمزقتهم شرَّ ممزَّق ، وجعلت بعضهم على بعض حرباً وفساداً . وأيضاً ما كان من دعوة / العَلَويين لقلب الخلافة التى بالعراق من عباسيةٍ سُنِّية إلى علوية شيعية . وأيضاً ما كان من الدَّعْوَة السرية الجارفة التى كان يقوم بها دعاة الفاطميين ، وكانت هذه أشدَّ البلايَا التى ابتُلِى بها العالم العربىُّ كله ، إذ أدخلت فيه ما ليس من طبيعته ، وقذفت به فى ظلماءَ نهارُها

١٨٧

١٨٨

من ليلها ، وكان دعاتها قد تفرَّقوا فى كل مكانٍ من سلطان الدولة العباسية ، ليوقعوا بين الأمراء ، وليحوزوا إلى دعوتهم فئةً غالبةً تُعينهم على ما يريدون وما يؤملون من إقامة الخلافة الفاطمية ممتدّة من المغرب الأقصى إلى ما وراء خراسان .

وكان بنو حَمْدَان من شيعة العلويين ، ومن المتحققِّين بخدمة الدَّعوة العلويَّة ، إلاَّ أنهم كانوا عَرَباً يَدْعون إلى العلوية للعربيَّة ، لما وجدُوا من غلبة الأعاجم على الدولة العباسية ، ولكنهم حين رأوا ما دخل بين العلويين من فساد الأعَاجم ، ومن الدعوة الفاطمية الجارفة ، وكانوا لا يقرُّون هذه الدعوة ولا يسلمون لأصحابها بالنسبة الفاطمية المكرمة = رجعوا فانحازوا إلى الدولة العباسية ينصرُونها وينصرون الخليفةَ (النَّائم) على كرسىِّ الخلافة . هذا ، مع إكرامهم للعلويين وتعظيمهم لهم . وقد أبدَى بنو حَمْدان من الدهاءِ ، وسَعَة الحيلة ، وحُسْن السياسة والتدبير فى التوفيق بين عقائدهم العلوية وسياستهم العباسية ، ما لاَ قِبَل لأَحدٍ من أهل ذلك العصر فى الإتيانِ بمثله ، أو القيام على أقلّ منه . وقد أثْبَتَ بنو حَمْدان بسياستهم تلك أنهم كانوا يريدون إنقاذ العرب والإسلام من الفتن الباغية التى فعلت أفاعيلها لعهدهم فى تضييع السلطان العربى ، وانتقالِ الشوكة والعزّة إلى الحكم العجمى الشعوبى الفاسدِ الطَّويّة ، الباغى بكيده الإيقاعَ بالعرب ودينهم ولسانهم . (١)

١٨٩ وكان سيفُ الدولة خاصة من بين بنى حمدان أكثَرهم دهاءً وأوسعَهم / حيلة ، وأشدَّهم حبًّا للعرب ودينهم ، وأكثَرهم سعياً فى ردّ الحكومة والسلطان إلى العرب ، وأعظمَهُم همةً فى مساعى المجد لنفسه ولقومه ، وأكرمَهُم خلقاً آسراً ، وكان من بينهم محبًّا للأدب قائماً على خدمته ، وكان بطبيعته شاعراً حُلْوَ اللسان ، خفيفَ الروح ، بيانىَّ الفكر . وكان مبغضاً للأعاجم ولسانهم الذى أرادوا أن يغلبوا به على فارس وغيرها كما فعل بنُو بُوَيْه .

---

(١) انظر لهذا الفصل من الكلام ، ما سيأتى ص : ٣٢٧ - ٣٣١ ، وما قبلها أيضاً .

والظاهر أن سيف الدولة كان قد عَزَم فى نفسه أن ينال بهمّته غاية الغايات فى ضمّ أشتات البلاد العربية تحت سلطانه وفى ظل حكومته ، وكان أوّل ما أنفذ من ذلك أنْ زَاحم بمناكبه الإخشيديين فى الشام حتى أزاحهم عن أكثرها وردَّهم إلى الرَّملة ، واستأثر دونهم بأكثر البلاد الشامية ، حتى هَلِعَ منه الإخشيد ، فتزلَّف إليه بأن زوَّجه ابنةَ أخيه ، ولم يُجْدِ ذلك كثيراً ولا قليلاً فى إطفاء نار العداوة المستعرَةِ بين الدم العربى والدم الأعجمى الغريب . واستمرَّ سيفُ الدولة فى طلب التوسُّع والغلبة ، ولولا ما لقى من حروب الروم ، وما أجلبوا عليه بخيلهم ورجلهم ، لكان تَمَّ له ما أراد . فإن حروب الروم ، قد استهلكت كلَّ قوته ، فلم يجد متسعاً لنيته فى توطيد حكمه فى الشام ، حتى إذا استجمع أداته واستوفَزَ بقوته ، مال على العراق فَرَدَّ أمر الحكم إلى نِصَابه فى يدٍ واحدة لا تضطرب ولا ترتجف . وذلك لما كان يرى من تقَسُّم الأمر فى بلاد الخلافة ، وضَياع السلطان بين الموالى ، وما جرَّ ذلك من المذابح المتوالية فى كل مدينة من المدن العظيمة ، ومن الفتن المتتابعة فى كل ناحية من النواحى . ونحن نظن أن السببَ فى كثرة غزوات الروم ، فى عهد سيف الدولة ، لبلاد الشام وأطرافها ، أن الذين كانوا يفتِنُون الناس ببغداد من الأعاجم والروم والترك والديلم لينالوا ما يريدون ، علموا بأمر سيف الدولة / وما اعتزم من الميل عليهم مَيْلةً رابيةً ، فأوعزوا إلى ملك الروم أن يقاتله ، وأوقعوا فى قلبه أن سيف الدولة إنما يريد أن يُزيل الملك من بين يديه ويغلبه على بلاده ، فتمَّ لهم بذلك ما أرادوا من صَرْف سيف الدولة عن غزوهم وتمزيقهم ، واحتلال أرضهم ، وانتزاع السلطان من أيديهم . [انظر ما سيأتى ص : ٣٢٧ - ٣٣٠] وكان سيف الدولة على علم بما يُبَيِّتون له من المكر ، فكان ينازل الروم ويواقعهم ، ويَعُدُّ انتصارَه وهزيمةَ الروم ، انتصاراً لدعوته العربية وهزيمةً للأعاجم أصحاب هذا المكر ، وهزيمةً لمن وقع فى حبائلهم من العرب الذين لهم سلطان فى سلطان هؤلاءِ . ولذلك كان وقع انتصاره فى العراق وما وراء دجلة كوقع الصاعقة على رؤوس الفتنة ، وعلى الذين تولَّوْا كِبْرَ هذا المكر السيىء والكيد الخفىّ . وأَجَدَّت هذه الوقائع - التى انتصر فيها سيف الدولة على جيوش الروم - عداوةَ أصحاب السلطان من

١٩٠

الأعاجم لدولة بنى حَمْدان ، فطفقوا يعملون على تفريق شمل من اجتمع إلى سيف الدولة وآزره ونصره ممن كان بالموصل والشام وغيرهما ، وبذلوا فى مَسْعاتهم أموالاً وذخائرَ . ولولا ما كان عليه سيف الدولة من الكَرَم والسخاء وبَسْط اليدِ للعافين والمريدين ، طبيعةً مركَّبةً فى أَصْلِ خُلُقه ، لأَعيَوْه ، ولأَخرجوا من سلطانه أكثر من دَان له ورَضِى به وبحُكمه ، ولأَعانهم على ذلك ما يرون من المظالم التى ارتكبهَا سيف الدولة مُدَّة حكمه وسُلْطانِه .

* * *

هذا .... ، وقد كان أبو الطيب ، حين دخل أنطاكية قاصِداً أبا العشائر فى سنة ٣٣٦ ، عليماً بأمر سيف الدولة ، مُدْركاً للمكايد السياسية التى أحاطت بالرجل ، خبيراً بحقيقة ما اضطلع سيفُ الدولة بأعبائه من إيقاظ الهمم العربية ، / مستيقناً من أن ١٩١ غَرَضَ سيف الدولة فيما فعل ، إنما هو ضربُ الضربة القاضية على الفِتن التى أَوْهَتْ قوة الدولة العربية وفَتَّت فى عَضُدها ، وأن الرجل كان قد اتخذ لأمره أحكم سياسة وأَبرعَها وأحسنَها وأدقَّها وأبلَغها فى الوصول إلى الغرض المطلوب . وكان أبو الطيب نفسه ، يَرْمِى بكل نفسه إلى هذا الغرض الذى يسدِّدُ إليه سَيف الدولة ، فكان اتفاقهما فى الغرض سبباً لاتصالهما وتوافقهما وتفاهمهما ، ولما تمَّ بينهما من المودة والحب والكرامة .

وأُخرى ، أن أبا الطيب ، كما وصفناه لك أَوَّلاً ، كان يرمى ببصره إلى (الرَّجُل) ، الرجل الذى تجتمع فى رجولته صفات الخير كلها ، وصِفات الكمال بأَسْرِها ، كما كان يراها قلبُه ويحلمُ بها فؤاده وأوهامه . و « الرجل » فى أحلام أبى الطيب هو صورةٌ مثَّلها له ضميره ، من أحقاده وآلامه وثورته . فهو الرجل الضَّرْبُ الشجاع المستبسل الذى لا يهاب ولا يفتُر ، بل يتقحَّم ولا يزداد على البلاء إلاّ مضاءً وعزيمة = وهو الرجل النافذ ببصره وبصيرته إلى أعقاب الأمور لا يَغْبَى ولا يَغْفُل ولا ينام = وهو الرجل المحارِب الذى لا تغمضُ له عينٌ ، ولا يصبر على ضيمٍ ، ولا يَقَرُّ على ظلم = وهو الرجل الفَتَى العربىُّ الذى داخل سياسة عصره فعرف أسرارها ، واتخذ لنفسه فيها مدخلاً ومخرجاً ، وأعمل فكره

فى إنقاذ أُمته ، وجاهد فى سبيل ذلك بقلبه وفكره ولسانه ويده . وكانت هذه الصُّورة فى دم أبى الطيب تدُور فيه دَوَران الدم ، فإذا وَجَد (الرَّجُل) حنَّ إليه كأَشدّ ما تجد من حنين الدم إلى الدم ، وأخلص له ، وبَذَل له ذاتَ نفسه وضميرَ قلبه ، فتراه لا يمجِّد نفسه فى شعره الذى يمدح به (الرَّجُل) ، بل يَبْذُل كل كريمةٍ من الصفات لهذا الممدوح مُضْرِباً عن ذكر ثورته ، تاركاً وعيدَه وإنذارَه وتهديدَه ، إلاَّ أَن يُحْرَج كما حدثناك قبلُ . / وقد رأيت فيما مَضَى أن هذا قد وقع من أبى الطيب حين لقى « بدر بن عمار الأسدىّ » ، وهو الفتى العربى (الرَّجُل) ، [ص : ٢٥٩ – ٢٧٢ ، وانظره فى الفهرس] . ١٩٢

وهذه الظاهرة الغريبة فى شعر أبى الطيب تدل على أنه ما كان يبغى بقوله اكتساب المال وادِّخاره للعيش ومَرَافق الحياة ، بل كان يريد أن يحقِّق آماله التى يسعى إليها فى ردِّ السلطان لقومه العرب الأماجد . ولهذا تجِدُه لم يَقَرَّ سَنواتٍ فى جِوار أحدٍ ، إلاّ فى جِوَار هذين العربيين : « بدر بن عمار » ، و « سيف الدولة » . وذلك لما كان يَرَى منهما من الجهاد فى سبيل الغرض الذى انطوت عليه جوانحه . وكان أبو الطيب سريعَ الفراق لمن مدح حاشاهما ، إمّا لأنَّه لم يجد عندهم عَزْماً إذا كانوا من العرب ، وإما لأنه إنما مدح بشعره للإجازة والمال الذى هو مِلاَك كلِّ عمل ، إذا كان ممدوحه من غير العرب . فهذا موضع تَوله فى شعره لأبى العشائر الحمدانى :

فَسِرْتُ إليكَ فى (طَلَبِ المعالى) وَسَارَ سِوَاىَ فِى (طَلَبِ المَعَاشِ)

* * *

قالوا .... : « كان أبو العشائر وَالِىَ أنطاكية من قبل سيف الدولة ، فلما قدم سيف الدولة إلى أنطاكية ، قَدِم المتنبى إليه ، وأثنى عنده عليه ، وعرَّفه منزلته من الشعر والأدب ، وذلك فى سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ، فاشترط المتنبى على سيف الدولة ، أوَّلَ اتصاله به ، أنه إذا أنشده مديحه ، لا ينشده إلاّ وهو قاعدٌ ، وأنه لا يُكَلَّف تَقْبيل الأَرض بين يديه ، فنُسب إلى الجنون . ودَخَل سيف الدولة تحت هذه الشروط ، وتطلّع إلى ما يَرِد

١٩٣ منه ، فلمّا أنشده قصيدته الأولى التى أوّلها : « وفاؤكما كالرَّبع أشجاهُ طاسمه » ، / حَسُن موقعه عنده فقرَّبهُ ، وأجازه الجوائز السنيَّة ، ومالت نفسُه إليه وأحبَّه ، فسلَّمه إلى الرُّوَّاض فَعَلَّموه الفُروسيَّة والطِراد والمثاقفة » .

ونحن لا نسلم بكل ما ورد فى هذا النص ولا نَثِق به ، إذ كان مرويًّا عن غير ثقة مأمون معروفٍ ، وإنما هو مما يتداوله الأدباء على علاَّته دون نقد أو تجريح ، ويحسن بنا أن نحدِّثك عن نقده قليلاً ، فإن فى النَّقد بركةً وخيراً ليست لشىء من الكلام .

فأوّل ذلك ، أنَّ هذا اللقاء فى سنة ٣٣٧ بين سيف الدولة وأبى الطيب لم يكن أوَّل لقاء ، ولم يكن أوَّل تعارُفٍ بينهما ، فقد حدثناك قَبْلُ أنه لقى سيف الدولة وأحبَّه ، وأحبَّه سيف الدولة فى سنة ٣٢١ حين مدحه المتنبى بعد مخرجه من الكوفة متوجِّهاً إلى الشام ، وكان لقاؤُهما برأسِ عينٍ من أرض الموصل الذى كان يدين لبنى حمدان بالطاعة إذ ذاك ، [ص : ٢١٥ – ٢١٨ ، ٢٢٢] . ولا شك أنَّ سيف الدولة ، وكان إذ ذاك صَغيراً لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، قد فَرِح بمدح أبى الطيب له ، وأبقى ذَلك أثراً فى نفسه يجعله يتتبع شعر هذا الفتى العربى ومصيره . فهو كما ترى كان على معرفة به وبأدبه وشعره ومنزلته من الشعر والأدب ، هذا فضلاً عما استنبَطْناهُ هناك من العلاقة بين بنى حمدان وأبى الطيب وجَدَّته ، وأنهم كانوا يفضلون عليها ويكرمونها ، وأنهم كانوا على علمٍ بما أصابها من نكبتها فى ابنتها وحفيدها .

وأخرى ، ... أنَّ النص يقول إنَّ أبا العشائر قدَّم المتنبى إلى سيف الدولة « وعرَّفه منزلته من الشعر والأدب » . وهذا عجيبٌ من أمر سيف الدولة الأديبِ الشاعر السياسيِّ ١٩٤ المطلع على كل ما كان فى البلاد العربية ، المتتبع لكل / حَدَثٍ فى السياسة والأدب ، عجيبٌ أن لا يكون قد وصل إليه طَرَفٌ من شعر أبى الطيب يَعْرِف منه منزلته فى الشعر والأدب ، فيأتى أبو العشائر فيعرِّفه تلك المنزلة !!

وثالثة : أنَّ النص يقول إن سيف الدولة قد دخل تحت شروط المتنبى حين اشترط عليه أن لا يُنْشده إلاّ وهو قاعد ، وأنه لا يُكلَّف تقبيل الأرض بين يديه . ونحن لا ندرى

لماذا يَدْخُل سيفُ الدولة تحت هذه الشروط ؟ ولا نعرف لماذا اشترط أبو الطيب هذه الشروط .... إذا كان قد جاءه على غير معرفة مُتَّصلة بينهما ، وكان قد جاءه مُسْتَمِيحاً طالباً رِفْدَه ومَالَهُ وفواضله ؟ وهلاَّ أَجَّل ذلك إلى أَجَله ، فيمدحه وينشده ، حتى إذا حَسُن موقعه عنده ، اشترط عليه ما يريد ، فيتَّقِىَ بذلك سُوء الردّ ، وينال بالإذن لَهُ بما يشترط رِفْعةً تَكْبِتُ حُسّادَه ، وتَغِيظُ عُداته ، ويكونَ فِعْلُه هذا أَدلَّ على حُسن سياسته ، وسَعة حيلته ، ويكونَ أشبه بتدبير أبى الطيِّب ، كما مرَّ بك فى مواضع من كلامنا !!

والرابعة : أن فى النَّص كلمةً يُرَاد بها الغضُّ من أبى الطيب وتحقيره ونسبته إلى الجفاء والغلظة والجَلاَفة ، إذْ زَعَمَ واضعها أنَّ سيف الدولة سلم أبا الطيب « إلى الروَّاض فعلَّموه الفروسية والطراد والمثاقفة » . فقد كان أبو الطيب قبل اتصاله بسيف الدولة فارساً محارباً ولا شك ، وكان قد اتَّصَل بكثير من أصحاب السلطان وأصحاب الفروسية والطراد والمثاقفة ، وقد مر بك أنه كان قد دخل لُبْنان وشارك فى الطراد والصيد ، وكذلك حين كان فى جوار « بدر بن عمارٍ » وغيره ممَّن مدح . وكيف نظنُّ أنَّ أبا الطيب كان قد طَوَى هذه السنين كلها / بالشام ، مع ما كان فيه من العُجْبِ بقوته وفروسيته ، وذكر ذلك فى شعره ، ثم لم يأخذ نفسه بتعلُّم ذلك أو المشاركة فيه ، مع أنها كانت من الانتشارِ والذيوع بمكان لا يجهل ؟ ١٩٥

فهذه الرواية ، كما ترى ، لا تصلحُ أن تكون سياقاً للقاء أبى الطيبِ سيفَ الدولة .

واعلم أنّ أكثر ما يروى فى ترجمة هذا الرجل وغيره من الرجال ، إنما كان من الأحاديث التى تتناقلها مجالس الأدباء ، ولا يرادُ بها التحقيق ، ولا ينظر فيها إلى صدق الرواية وسياق التاريخ وما إلى ذلك ، بل إن كثيراً مما يُرْوَى فى تراجم رجالنا كان مما يراد به مَضْغُ الكلام فى مجالس الأُمراء أو فى سامر الأدباء . = هذا على أنها رُبَّما حملت فيما تحمل أشياء لولا ورودها فى هذه النصوص ، لافتقدنا من حلقات التَّاريخ حلقاتٍ لا ينتظم أمره إلاَّ بها ، ولا يستمر إلاَّ عليها . فلمِثْلِ هذا كان لابدَّ لنا من النظر فى النصوص وتمييزها ، وردِّ بعضها

والأخذ ببعض ، حتى لا تتقطَّع بنا السبل فى الترجمة لهؤلاءِ الأعلام . فلا يفوتَنَّك هذا إذا قرأت ما نكتب ، أو أردت أنت أن تقرأ أو تكتب .

* * *

والسياق التاريخىّ عندنا للقاءِ أبى الطيب سيفَ الدولة هو ما ترى :

نَزَل أبو الطيب ضَيفاً على أبى العشائر ، يمدحه ويَخْبُره ويَرُوزُ ما عنده من الهمة ، وما فى هذه الهمَّة من المطالب ، وما فى مَطالبه من الموافقة لِما فى ضميره من الآراء والأحكام . وكان يريد بذلك أن يكون على كَثَب ومَقْرَبة من بنى حَمْدان (الذين منهم أبو العشائر) ، ليحقّق فى نفسه ما عَرَف عنهم / من خَبرٍ ، وليرى رأيه فى البقاء معهم أو مفارقتِهم ضارباً فى الأرض على ما كان عليه من قبلُ حتى يأذن الله له ، ويأتيه بالمُواتى الموافِق الذى يستطيع أن يهبَ له قلبه وحبه ، ورأيه وحكمتَه ، وتجربتِه وخبرته ، وآراءَه فى السياسة التى كان جاهداً فى معرفة خَفِيَّاتها ومُضْمراتها طول حياته . وكان يخصُّ بإرادته هذه سيفَ الدولة ، وهو عَلَمُ بنى حَمْدان إذ ذاك ، والمستولى على الأمَد من رجال عصره ، والذى عَهد فيه أبو الطيب حين رآه فى سنة ٣٢١ رجولَةً متحفِّزة للوثبة ، وسمع من أخباره ما يكادُ يحقق تَوسُّمَه فى ظفره وفلَجه على خصومه وخصوم أبى الطيب نفسه .

١٩٦

وبقى أبو الطيب سنَةً فى ظِلّ أبى العشائر ، وكان فتىً من فتيان بنى حَمْدان ، قد جمع أداة الفتوَّة ولم يستكملها ، وكان أديباً مقتدرًا مُولَعاً بالأدب ، مبجِّلاً للأدباء عاطفاً عليهم معيناً لهم ، وكان شاعراً تَقَع له الدرَّة الجميلة فى شعره ، والنادرة البديعة ، غير متعمِّد ولا جاهد . وأحبَّ أبو الطيب صاحبَه أبا العشائر ، وأحبَّه أبو العشائر وأكرَمه وأضْفَى عليه من كرمه ولينه وحَنانه ، وقد حفظ له أبو الطيب هذه اليَدَ التى له عنده ، حتى إنه لما غضب عليه بعدُ – لأمر سيأتى ذكره فيما يستقبل من كلامنا – وأرسل إلى أبى الطيب بعض غِلْمانه ليُوقعوا به وهو بظاهر حَلَبَ ، ورماهُ أحدهم بسهم أخطأه ، وقال له وهو يرميه : « خذه ، وأنا غلام أبى العشائر » = لم يُحْفِظ ذلك أبا الطيب على أبى

العشائر ، ولم يَسْتَدْعِ هذا العزمُ على قتله هِجاءَه أبا العشائر ، بل قال .... : [ثم انظر ما سيأتى ص : ٣٤٤ - ٣٤٧] .

وَمُنْتَسِبٍ عِنْدِى إلى مَنْ أُحِبُّه ... وَلِلنَّبْلِ حَوْلى مِنْ يَدَيْهِ حَفِيفُ

(فهيَّج مِنْ شوقى ، ومَا من مَذَلَّةٍ ... حَنَنْتُ ، ولكنَّ الكريمَ أَلوفُ)

/ وكُلُّ وِدَادٍ لا يَدُومُ عَلَى الأذَى ... دَوامَ ودادِى للحسين ضَعِيفُ

١٩٧

(فَإنْ يَكُنِ الفِعْلُ الذى ساءَ واحداً ، ... فأفعالُهُ اللائى سَرَرْنَ أُلوفُ)

وَنَفْسِى لَهُ ، نَفْسِى الفداءُ لنفسه ، ... ولكــنَّ بعضَ المالِكيــنَ عَنِيفُ

(فإن كان يَبْغِى قَتْلَها - يَكُ قَاتِلاً ... بكفِّيه . فالقَتْلُ الشَّرِيفُ شَرِيفُ) (١)

وهذه الحادثة وما كان من أبى الطيب فيها ، وما قال من الأبيات السالفة ، دليلٌ قاطع على أن الرجل كان إذا أحبَّ وأخلص الحبَّ لم يحوِّله شئٌ عن حبّه = وأنَّ هجاءَهُ الذى كان منه لبعض من مدَحهم ، إنما كان منه لأنَّه لم يكن يُضْمِر لهم حُبًّا أَلبتَّةَ ، بل كثيراً ما كان يخفى بين جنبيه احتقارهم وازدراءَهم ، ولولا الضرورة لما مدحهم ولا قصدهم ولا وَقف بأبوابهم . وهى أيضاً دليلٌ على ما قطَعنا به ، فى موضعٍ من كلامنا ، من أنَّ أبا الطيب كان وَدُوداً أَلوفاً ، كَرِيم الخلق ، وفيًّا لمن وَفَى له وأحبَّه وباذَلَهُ الوُدَّ . وقد صَدق صاحبنا ولم يكذبْ إذ وصف لنا نفسه يوماً ما فقال :

خُلِقْتُ أَلوفاً ، لَوْ رَجَعْتُ إلى الصِّبَا ... لَفَارَقْتُ شَيْبِى مُوجَع القَلْبِ بَاكيا

وهذا موضعٌ من أخلاق أبى الطيب ونفسيته ينبغى الوقُوف عنده وتدبُّره ، إذ كان كثيراً ما يعترض به المعترضُون حين يذكرون أخلاقه ، حتى إنّهم من اضطرابهم فى فهم أَخلاقِ الرجل ونفسيته ، رَموهُ هو بالاضطراب والملل فى الصداقة والوُدّ . وليس الأمر على ما ظنُّوا ، بل هو كما ترى فى كلامنا هذا . ورحم الله أبا الطيب ، فقد حَمَل من نَكَد الدُّنيا فى حياته وبعد موته ما لَقِى من أرزاءٍ .

* * *

(١) أى فليقتلنى بكفَّيْه لا بكفَّى غيره ، ولكن أبا الطيب أخرج المعنى فى أسلوب غاية فى البراعة .

١٩٨ / هذا .... ، وقد لقى أبو الطيب وهو فى جوار أبى العشائر ، كما حدثناك فى الباب السابق ، كيداً كثيراً ، وتقوَّل عليه المتقوّلون ما شاءُوا ، وآذَوْهُ وكثَّروا عليه الوشاية والسعاية ، وغَرُوا بذمِّه وثَلْبه ، وكان ما زعمناهُ من تشهيرهم به إذ نَبَزوه باللقب الذى عُرِف به بعد وهو (المتنبى) . [1] ولم يكن كل ذلك مما يردُّ أبا الطيب عن غايته التى قصد من أجلها أبا العشائر ، فبقى صابراً حتى كانت سنة ٣٣٧ .

ففى جُمَادى الأُولى من هذه السنة قدم سيف الدولة – مِنْ حربه مع الرُّوم وظفرِهِ بحِصْنِ بَرْزَوَيْهِ – إلى أنطاكية التى كان بها أبو العشائر وأبو الطيّب ، فاستقبله أبو العشائر ، وأبلغه ما كان من مَقْدَم أبى الطيب عليه ، وإكرامه له ، ووصف له ما حَسُن عنده من خُلق أبى الطيب ، وما وجَد فيه من الفتوّة والمروءة ، وما أعجب به من حُسْن عشرته ، وجميل أدبه فى المنادمة والمسامرة ، وما عليه أبو الطيب من الطَّبيعة الثائرة الجبّارة ، وما انطوى عليه قلبه من محبَّة العرب وبُغْض الأَعاجم ، وما سمعه من آرائه فى سياسة الأمة ، وما ابتُليت به من البلاءِ الأعجمى والفتن الآكلةِ رَطْبَ الحياة العربية ويابسها ، وذكر له شعرَهُ الذى مدحه به .... فذكر سيفُ الدولةِ ذلك الفتى العربيَّ الصَّبُوحَ الوجهِ ، الحسنَ السَّمْتِ ، صاحبَ الوَفْرة المسترسلة التى تسيل إلى شَحمتَىْ أُذنيه = ذكَر ذلك الذى أنشده مديحه فى سنة ٣٢١ وهو يَتدفَّق بفصاحته وبيانه ، ويتقلَّع بقوته وشدَّته وحماسته وحِدَّة شبابه = ذكر سيفُ الدولة تلك الشخصيةَ الطاغيةَ بسحرها وجمالها وجَلالها ، والتى لا تدع للنسيان فى الذاكرة يداً ماحيةً / أو مفسدةً ... وقد كان أبو الطيب كما ١٩٩ وصفوه « رَجُلاً مِلْءَ العين .... قويًّا بديناً خليقاً شَخِيصاً ، عاديَّ الخَلْقِ ، قويَّ الأساطين ، وثيقَ الأركان ، جَيِّد الفصُوص ، فيه جَفاءٌ وخشونة » . ذكرهُ سيفُ الدولة واستيقظت فى قلبه المحبة النائمة فى غَوْرِه ، وتجمعت له أخباره التى كان قد سمعها عنه من سنة ٣٢١ إلى هذه السنة ، فتقدَّم إلى أبى العشائر أن يستدعِيَهُ لساعته ، شاكراً له حسن وِفادَة الرجل وإكرامَه له .

---

(١) انظر ما سلف ص ٢٣٢ – ٢٣٦ ، ثم ص : ٢٩٨ .

وكذلك لاقى العربىُّ الثائرُ الشاعر الفذُّ ، العربىَّ الفاتح الغازىَ المجاهدَ الفَذَّ ، على شوقٍ وحنين ، وحنَّ الدم إلى الدم ، وعَلِقَت النفسُ بالنفس ، وتعانقت القلوب فى ساعة من غَفَلات الدهر ، أخرجت كِلا الرجلين عن طوره . وكان هذا اللقاء الثانى فاتحةَ مَجْدِ أبى الطيب ، وخلودِ ذكر سيف الدولة فى شعره وَبيانه .

وفى هذا اللقاء التاريخى الذى انتفضت فيه القلوب ، ورمت بأسرارها وأشواقها ، ثارت نفسُ الرجل البليغ ، واجتمعت لها كلُّ حَوادِثها وما مرَّ بها من الأهوال ، فى مجلس أمير العرب الفاتح المجاهد الظافر ، وتقاذفت المعانى من قلبه إلى لسانه ، ووقفت محبوسةً فى هذه الأبيات التى ضَمَّها الشاعر إلى قصيدته بعدُ فى مدح أميره وأمير قومه : [١]

سَلَكْتُ صُرُوفَ الدَّهْرِ حَتَّى لَقِيتُهُ ... عَلَى ظَهْرِ عَزْمٍ مُؤْيَدَاتٍ قَوَائِمُهْ[٢]
مَهالِكُ لَمْ تَصْحَبْ بها الذِّئْبَ نَفْسُهُ ، ... وَلاَ حَمَلَتْ فِيها الغُرَابَ قَوَادِمُهْ
/ (فأَبْصَرْتُ بَدْراً لا يَرَى البَدْرُ مِثْله ، ... وخَاطَبْتُ بَحْراً لاَ يَرَى العِبْرَ عَائِمُهْ) ٢٠٠

ثم قال البيت الذى تنازعته كل عواطِف قَلْبه ، ونوازِع فؤاده ، وآراءِ فكره ، وفُصَح بيانه :

(غَضِبْتُ لَهُ لَمَّا رَأَيْتُ صِفَاتِهِ ... بِلاَ وَاصِفٍ ، وَالشِّعْرُ تَهْذِى طَمَاطِمُهْ)[٣]

وكان ذلك بدءِ المجد الخالد الذى بقى للعرب فى صفة أمير فذٍّ من أمرائهم ، ردَّ به القدر عاديةَ الروم عن بلد من بلادهم ، لا يزال مَعْقِلاً للعرب والعربية إلى يوم الناس هذا ... ألا وهو الشأم الذى يضم فِلْذة أكباد الفاتحين من المهاجرين والأنصار ، ومن سَبَقهم

---

(١) أنشد أبو الطيب هذه القصيدة فى مجلس آخر غير هذا المجلس الذى وصفناه لك ، ثم انظر مثل ذلك من فعل أبى الطيب ، فى أبيات يقولها ابتداءً ، ثم يضمنها شعره ، ص : ٣٤٠ ، والتعليق رقم : ٢ ، وما سيأتى ص : ٣١٢ – ٣١٥ .

(٢) « مؤيدات » ، شديدات الأيْد ، وهو القوة .

(٣) « الطماطم » جمع « طِمْطم » ، وهو العيى الذى لا يُفْصح ، يعرض بشعراء زمانه .

إليها فى الجاهلية من الغَرَانيق الصِّبَاح من بنى غَسَّان . وكان ذلك أيضاً بدءَ المجد الخالد للسان العربى ، والفكر العربى الصريح فى ديوان شاعر فَذٍّ من شعراء العربية ، لم يُرْزَق الشِّعرُ ولا الحكمةُ مثلَه ذا لسان وبيان .... ألا وهو أبو الطيب المتنبى ، واحد الشُّعراء الذى جاء (فملأ الدُّنيا وشغل الناس) .

* * *

ولا بدَّ لنا من الوقوف قليلاً عند هذا الموضع من الكلام ، وندع صِفَة ما نحن فيه من لقاء الأَسَدَين العربيَّين الفاتحين . زعمنا لك فِيما مضى أن تلكَ الأبيات الأربعة المذكورة آنفاً ، كانت مما ثارَ فى قلب أبى الطيب فى هذا المجلس الأول ، قبل أن يحتفل بيانُه لقصيدته الأُولى التى أنشدها سيفَ الدولة فى تلك السنة . [1] وهذا موضع تدبُّرٍ وبَصَرٍ ، لا نحبُّ أن ندعه قبل أن نسوق إليك من أخباره طَرفاً ، حتى تَنْهَج لنفسك نهجاً مقارباً يعينك على استخراج / أسرار أبى الطيب ، واستنباط ما كان يلجُّ فى نفسه من العواطف ... بلى ، وهو عندنا قانونٌ من قوانين شِعْرِ أبى الطيب ونَفْسه ، تستطيع به أن تعرف خَفِيَّات ما فى شعره من ضمائره ومبهماته . هذا ، وسنكشف لك عنه فيما يَسْتَقْبِلُ كَشْفاً مبيناً إن شاء الله . [2]

٢٠١

كان أبو الطيب = على ما وصفنا لك من قُوّة النفس وحِدّة الطبيعة = مُرْهَفَ الحسِّ ، سريعَ التأثر ، تنطلق عَواطِفُه كلُّها فى ساعة من ساعات حياته ، فلا تلبث أن تستثير كل قوّة فيه ، وتجتمع كلُّ قواهُ حين ذلك ماضيةً من قلبه إلى لسانه ، لتثبت عليه عَدَدَ هزَّاتِ الزلزلة التى وقعت فى قلبه ونفسه ، ويفزع لسانه إلى بيانه ليُبين عنه ما يبغى من الإبانة ، فيحتفل بيانه كله فى أبياتٍ قليلةٍ تكون هى أول القصيدة عِند أبى الطيب ، ثم يَدَّخرها صاحبنا لأَجَلِها وموضعها ، فيثبتها فى مكانٍ من شعره . وكثيراً ما تقع هذه

---

(١) انظر ما سلف ص : ٣١١ ، تعليق : ١ .

(٢) انظر لذلك الباب الثالث عشر من حديثنا عن المرأة التى صنعت لأبى الطيب حكمته ، وأيدت بيانه ببيانها النسوى البليغ .

الأبيات فى موضع لاَ تَتَساوَقُ فيه معانى الكلام على قاعدة مطَّردةٍ من حَقِّ المعنى وتتابُعه ، فلذلك تبقى هذه الأبيات التى تحمل فى ألفاظها هزَّات نفسه واقعةً بين كلامين ، ولا تكون هى صلةً بينهما ، بل تكون كالفارِق الفاصلِ . وهذا هو ما نسميه فى شعر أبى الطيب موضع (الانتقال) . ومن مواضع الانتقال هذه تستطيع أن تستنبط الحالة النفسيّة التى كان عليها الرَّجل . فإذا تبصَّرْت فيها ، واستخرجت معانيهَا ، وفصَّلت كلامَها وألفاظَها ، وفسَّرته على الأصول الشعرية والنفسيّة القائمة فى شعر أبى الطيب ونفسِه كما قدَّمناها لك = استطعتَ أن / تتلمّس فى ظلامِ التاريخ الحلقاتِ التى ينبغى أن تصل بعضها ببعض ، فيَسْرِى التَّيار بينها فتضىءُ لك ، فتنكشف المعانى فى شعر الرجل ، وتَتَبيَّن المواضعُ الغامضة المظلمة من حياته .... وهذه هى الطريقة التى اتبعناها فيما كتبنا مما مضى بك ، وقد تحقَّقنا صِدْقَها ، ووَجَدنا إِسعادَها لنا فى المشكلات التى وُفِّقنا إلى تفسيرها أو نقدها أو تمييزها . ٢٠٢

ويَجْمُل بنا هنا أن نعود بك إلى الأبيات التى ذكرناها ، ونبيِّن ذَلك فيها .... ونسألك أن تَعذرنا إذا قصَّرنا ، وأن تسدّدنا إذا أخطأنا ، وأن تصبر على ما نستطرد فيه من الكلام بصبْرٍ لا يَفُتُّ منه المَلَل ، فلا حكم لمَلُولٍ ولا مُتَرِّع .

يقول أبو الطيب قبل الأبيات التى رويناها لك يصف سيف الدولة :

لَهُ عَسكرَا خَيْلٍ وطَيْرٍ ، إذا رَمى ... بِها عَسْكَراً لَمْ يَبْقَ إلاَّ جَماجُمه
أَجِلَّتُها ، من كُلِّ طاغٍ ، ثِيابُهُ ، ... ومَوْطِئُها ، من كلِّ باغٍ ، مَلاغِمه [1]

....

سَحَابٌ من العِقْبَان يَزْحَفُ تَحْتَها ... سحَابٌ إذا اسْتَسْقَتْ سَقَتْهَا صَوارِمُهْ

(١) « الأجلة » جمع « جلال » ، وهو جمع « جُلّ » ، وهو كساء تلبَسَه الخيل لتصون ظهورها . « الملاغِمُ » ، ما حول الفم .

ثم (ينتقل) أبو الطيب من ذكر الحرب ، ومن صفته جُيوشَ سيف الدولة وما كانت تأتى به منْ أهوال الحرب ، وما يكون منها فى ساحات الوَغَى ، فيقولُ غير متخلص إلى غرضه = على ما يريد علماء البلاغة !! من حسن التخلص = فيقول يَصِف نفسه وما لاقى هو من الأهوال والمهالك :

سَلَكْتُ صُرُوفَ الدَّهْرِ حَتَّى لقيتهُ ... عَلَى ظَهْرِ عَزْمٍ مُؤْيَدَاتٍ قَوائِمُهْ

٢٠٣ / الأبيات الأربعة التى آخِرُها :

غَضِبْتُ لَهُ لمَّا رأيتُ صِفَاتِهِ ... بِلاَ واصِفٍ ، والشِّعْرُ تَهْذِى طَمَاطِمُهْ

ثم (ينتقل) بعد هذا البيت انتقالاً آخر ، فيقول يذكر نفسَه ورحلتَه :

وكُنْتُ إذا يَمَّمْتُ أَرْضاً بَعيدةً ... سَرَيْتُ ، فكُنْتُ السِّرَّ واللَّيْلُ كاتِمُهْ

ثم (ينتقل) أيضاً بعدَه فيذكر سيف الدولة .... فيقول :

لَقَدْ سَلَّ سيفَ الدَّولَةِ المَجْدُ مُعْلَماً ، ... فَلاَ المَجْدُ مُخْفِيه ، وَلاَ الضَّرْبُ ثَالِمُهْ

فلهذه الانتقالات المتتالية وَقفنا عند الأبيات الأربعة التى قدمناها ، وتبصَّرنا فيها وفى معانيها ، وفى دلالات ألفاظها واحدةً واحدةً ، ورددنا البَصر إلى مَقْدَم أبى الطيب إلى أنطاكية فى جوار أبى العشائر سنة ٣٣٦ ، ثم مَقْدم سيف الدولة إليها فى سنة ٣٣٧ ، ثُمَّ فى اللقاء الذى رَوَوْا خبره على عِلاَّته ، ونفضنا الأبيات ومعانيها ، وتَلَمَّسنا الحلقاتِ فى ظلام التاريخ والترجمة ، فوصفنا لك اللقاء الذى كان فى تلك السنة بين أبى الطيب وسيف الدولة ، ونحن ننظر بعينٍ لا تَحْسر إلى ما قدَّمنا من التاريخ فى صدر هذا الباب ، وما عرفنا من خُلُق أبى الطيب وآرائه وأغراضه وآماله ، وما وقفنا عليه من خُلُق سيف الدولة وآرائه وأغراضه وآماله ، ثم حكمنا كما رأيت أنها كانت أَوَّلَ ما قال أبو الطيب من

قصيدته تلك ، وأتممنا الرأى على ذلك ، واعتمدناه ، وسِرنا على بركة الله . فانظر ماذا نرى : (١)

* * *

/ ثم نعودُ إلى ما كنَّا فيه .... لقى أبو الطيب سيفَ الدولة ، وخرج من مجلس أمير العرب ، وهو يقول كما قال أوّلاً فى بعض مَنْ مدح بأنطاكية : ٢٠٤

هُو الكَرَمُ المَدُّ الذى مَا لَهُ جَزْرُ ... مُفَدًّى بآباء الرِّجال ، سَمَيْدَعاً

يُسَايِرُنى فى كُلِّ رَكْبٍ لَهُ ذِكْرُ ... وَمَازِلْتُ حَتَّى قَادَنِى الشَّوْقُ نَحْوَهُ

فَلمَّا التَقَيْنَا ، صَغَّرَ الخَبَرَ الخُبْرُ ... وَأَستَكبِرُ الأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِـه

واحتفلت نفس الشاعرِ الثائرِ البليغ لهذا اللقاءِ ، ونَسى نفسَهُ وما كان يذكُرُها به من القوة والفتوة ، وما كان طُولَ عمره يصفها به من صفات الرُّجولةِ والكمال ، ووجد آمالَهُ فى آمال سيفِ الدولة ، وآراءَه فى آرائه ، وعواطفَه فى عواطِفه ، فألقى فى مديح (الرَّجُل) كل نفسه وآرائه وأفكاره وعواطفه ، وألْغَى ذكر نفسه ، ورمى بين يدى سيف الدولة الدُّرَّة الأُولى فى تاج بنى حَمْدانَ مشرقةً متلألئة تَسْطَع وتَتَضوَّأ .

وفى هذه القصيدة الأولى التى أولها : « وَفَاؤكما كالرَّبع أَشجاهُ طاسِمُه » ، رجَعت إلى أبى الطيّب قُوَّة التصوير والتمثيل ، فرسم صُورة سيف الدولة كأحسن ما تأتى من بنانِ مُصَوِّر صَنَعٍ لَبِقٍ حاذقٍ مُبْدِع ، ووصف المجلسَ الذى كان فيه سيف الدولة كأَنَّك تراه . وذلك أنه دخل عليه وَقَد جَلس فى فَازَة مِنَ الديباج عليها صُورة ملك الروم ، (٢)

---

(١) اعلم أننا لو أردنا أن نقفك عند لفظٍ لفظٍ من الأبيات ، ونكتب لك الرأى كله مقيداً لطوينا بذلك ورقات من هذا الحديث ، ولكان ذلك قاطعاً لنا عن إتمام هذا العدد من المقتطف . فلا بد لك إذن من النظر ثم النظر ، ولعلك بالغ بقوتك ما لم نبلغه بضعفنا ، وفقنا الله وإياك .

(٢) الفازة : المظلة تقوم على عمود فى وسطها . وهى أشبه بما يتخذه الناس فى يومنا هذا على شواطىء البحار .

وصُوَرُ رياضٍ بِدَوْحِها وطَيْرِها ووَحْشِها وحَيوانها . فكان مما قال فى صفةِ تلك الفازة ، والأسد المُقْعِى فى ذَراها :

٢٠٥ / وَأَحْسَنُ مِن مَاءِ الشَّبِيبَةِ كُلِّهِ ... حَيَا بَارِقٍ فى (فَازَةٍ) أَنَا شَائِمُهْ

عَلَيها رِيَاضٌ لَم تَحُكْها سَحَابَةٌ ... وأَغْصَانُ دَوْحٍ لم تُغَنِّ حَمائِمُهْ

وفَوْقَ حَواشِى كُلِّ ثَوْبٍ مُوَجَّهٍ ... من الدُّرِّ ، سِمْطٌ لم يُثَقِّبْهُ ناظِمُهْ (١)

تَرَى حَيَوانَ البَرِّ مصطلحاً به ... يُحارِبُ ضِدٌّ ضِدَّه ويُسَالِمُهْ

إذَا ضَرَبته الرِّيحُ مَاجَ ، كأَنَّه ... تَجُول مَذَاكيه ، وتَدْأَى ضَراغِمُه (٢)

وفى صُورة الروميِّ ذى التاج ذِلَّةٌ ... لأَبْلَجَ ، لاَ تِيجَانَ إلاَّ عَمَائِمُهْ

تُقَبِّلُ أفْوَاهُ المُلُوك بِسَاطَهُ ، ... وَيَكْبُرُ عَنْها كُمُّه وبَرَاجِمُهْ (٣)

قِياماً لِمَنْ يشْفِى من الدَّاءِ كَيُّهُ ... ومَنْ بَيْنَ أُذْنَىْ كُلِّ قَرْمٍ مَواسِمُهُ

قَبَائِعُها تحت المَرَافِقِ هَيْبَةً ، ... وأَنْفَذُ مِمَّا فِى الجُفُونِ عَزَائِمُهْ (٤)

له عَسْكَرا خَيْلٍ ورَجْلٍ ، إذا رَمَى ... بها عسكراً لَمْ يبقَ إلاَّ جَماجِمُهْ

أَجِلَّتُها ، من كُلِّ طاغٍ ، ثيابُه ، ... ومَوْطِئُها ، من كلِّ باغٍ ، مَلاَغِمُهْ

(فَقَدْ مَلَّ ضَوْءُ الصُّبحِ ممَّا تُغِيرُه ، ... وَمَلَّ سَوادُ اللَّيل مِمَّا تُزاحِمُهْ)

(وَمَلَّ القَنَا مِمَّا تَدُقُّ صُدُورَهُ ، ... ومَلَّ حَدِيدُ الهِنْدِ مِمَّا تُلاَطِمُهْ) (٥)

لَقَدْ سَلَّ سيفَ الدَّولة المجدُ مُعْلَماً ... فَلا المَجْدُ مُخْفِيهِ ، ولا الضَّرْبُ ثَالِمُهْ

عَلَى عَاتِقِ المَلْكِ الأَغَرِّ نِجَادُه ... وفى يَدِ جَبَّارِ السَّمٰواتِ قَائِمُهْ

---

(١) « الموجّه » ، ذو الوجهين .

(٢) يصف الخيل (وهى المذاكى) ، والأسود وهى تختل صيدها من الظباء النافرة . « دأى الصيدَ » ، ختله ليصيده .

(٣) البراجم : مفاصل الأصابع .

(٤) القبائع : ما يكون على قوائم السيوف من الحلى ، يعنى السيوف المحلاة بالذهب والفضة .

(٥) تأمل تكرار « مل » فى البيتين الأخيرين ، وتكرار « مما » ، وهى تدل على الكثرة .

تُحَارِبُه الأعداءُ ، وهى عَبيدُه ، وتَدَّخِرُ الأَموالَ ، وهى غَنَائِمُهْ

/ ويَسْتكْبِرُون الدهرَ ، والدَّهرُ دُونَهُ ، ويَسْتعظمون الموتَ ، والموتُ خادِمُهْ ٢٠٦

وَإنَّ الذى سَمَّى عَليًّا لَمُنْصِفٌ ، وَإن الَّذى سَمَّاهُ سَيْفاً لَظَالِمُهْ

وَمَا كُلُّ سَيفٍ يَقْطَعُ الهامَ حَدُّه ، وتَقْطَع لَزَبَاتِ الزَّمَانِ مَكَارِمُهْ (١)

فاقرأ ، ثم اقرأ ، ثم تدبر ، ثم عُدْ إلى النهج الذى أشرنا إليه فى الحديث عن « بدر بن عمّار » ، ووَصْفِه الأَسد هناك ، وقارِن بين ما ترى هنا وما ترى ثَمَّ ، تَجِد التقارُب بيِّناً واضحاً ، والنَّفَسَ الشعرى البليغَ العظيم ممتدًّا من زَمانِ بَدْرٍ إلى هذا الزَّمان غيرَ منقطع . وتدبّر هذه الأبيات الأخيرة وما وَسَمها به أبو الطيب من مِيسَمِه الذى يتلّذع بنارِ قلبه ، والذى صار علامةً بَيِّنةً فى كل شعره الذى قاله فى سيف الدولة بعد هذا . وفى الذى قدّمنا ذِكْرَه وما أشرنا إليه كفايةٌ للبصير المتدبِّر .

* * *

وبقى سيف الدولة بأنطاكية أشهراً مِن سنته تلك ، وأبو الطيب إلى جواره وفى مجلسه ، وبين أصحابه وفى رِكابه . واستصفاه سيف الدولة ومنحه بِشْره ، وقُرْبَه ، وامتدَّ الحديث بينهما فى بعض الخلوات عن شؤون الدولة وما وقع فيها ، وما أَدركها من الضعف والوَهَنِ ، وما كان لوقته من أسباب ذلك . ورأى سيف الدولة أن محدِّثَهُ رجلٌ داهيةٌ بصيرٌ مُحَنَّك قد نَجَّذته الحوادث ، وله رأىٌ ومعرفةٌ وأسرارٌ قد استجدَّها بعد اللقاءِ الأَول فى سنة ٣٢١ ، فضلاً عما كان يعرفه ، فيما زعمنا ، من نكبته الأُولى فى نسبه / من قِبَلِ العلويين أصحاب الأَمير بالكوفة ، فزادهُ قرباً وكرامةً ومحبّة ، لم ينل مثلها شاعرٌ من أمير ، وكان ذلك عجباً فى أنطاكية وغيرها ، لِمَا عُرِف من صَرامة سيف الدولة وتحرُّزِه وتشدُّده حتى على الكثير من أهله . فانظر إذا أردتَ إلى ما كان بين سيف الدولة وأبى فراس ٢٠٧

---

(١) « اللزبات » جمع « لَزْبة » ، شدائد الدهر التى تفقر الناس .

الحمدانىّ ، فإنَّ القَرابَة والرَّحِمَ لم تنفع أبا فراس فى القرب من سيف الدولة ، مع أنه كان متحققاً بخدمته ، ذاهباً فى طاعته ومَرْضَاتِه ، حامياً لحقيقته ، مفدِّياً له فى حروبه وغزواته بنفسِه ودمه ، ممجّداً له فى شعره ، مخلّداً ذكرَ غزواته وحروبه . كلُّ هذا لم يقرِّب أبا فراس من سيف الدولة قُرْبَ أبى الطيب منه ، مع تقدُّمهما فى الشعر والأدب ، ومع أن أبا فراس كان أولى بالتقديم والتكريم من أبى الطيِّب لِحُسْنِ بَلاَئه فى الحرب ، وقِدَم عِشْرَته لسيف الدولة ، وسبْقه فى تمجيده وتخليد ذكره وذكر حروبه . فلذلك نقول لك إن تقديم سيف الدولة أبَا الطيب على سائر شُعرائه المستظلين بظِّله ، والمبتدرين فى طاعته وخدمته ، لم يكن من أجل الشعر وحده وحسب ، بل لِلذى بلاَه سيف الدولة من آراءِ أبى الطيب وأفكاره وعواطفه فى الأمور السياسية التى كان يسعى فى تحقيقها وإتمامها والقيام عليها بسيفه وخيله ورجلِه ورجاله المحنكين من ذوى الدَّهاء والخبرة والمعرفة والعلم . وقد قدمنا مطالب سيف الدولة فى أول هذا الباب . (١)

* * *

ثم عزم سيف الدولة الرحيلَ عن أنطاكية إلى حلبَ مقرِّ حكمه ، ولكن أبَا الطيب لم يصحبه فى رحيله هذا ، فعزَم عليه سيف الدولة أن يلحقه بحلب . / وعندنا أنّ الذى ٢٠٨ عاق أبا الطيب عن صُحْبة سيف الدولة فى هذا الرحيل ، أمرٌ يخصُّهُ هو ، وليست له فيه إرادة . وقد قلَّبنا الرأى فى شعر المتنبى فى تلك الفترة وما بعدَها بقليل ، وتدبَّرنا كلامَ الرجل على الأصول التى قدمنا لك منها أطرافاً فى كلامنا ، وظفرنَا بأشياءَ دلَّتنا على أن هذا الأمر الذى عاقه كان مما يقطع فى قلبه ويُوجِعه فى عواطفه ، وتبيَّن لنا أن هذا الأمر هو مَرض زَوْجَته ، والظاهر أنها كانَتْ حاملاً ، ثم جاءَها المخاض فأعْضَلت وعَسُرت ولادتها ، ثم رمَتْ ذَا بَطْنِها وماتت [انظر ما سلف ص : ٢٣٩ ، ٢٤٠] ، وكان مرضُها ذلك فى حَمْلِها ، ثمَّ ما تركت له وراء ظهرها = ولعلّ الوليد مات بعد أشهر قبل أن يستمسك = هو الذى منع أبا الطيب أن يَصْحبَ سيف الدولة يوم رَحيله من أنطاكية .

---

(١) تلبث تجد بقية الحديث بعد قليل فى هذا الباب ، فاجعله منك على ذكر .

وتأويل ذلك : أن أبا الطيب كان ولا شَكَّ عازماً على رُفْقة سيف الدولة ، ولولا ما فَجِئهُ مما لا حيلة له فى ردّه لَفَعَلَ ، فإنه حين أزْمَعَ سيف الدولة الرحيلَ عن أنطاكية قال له أبو الطيب :

نَحْنُ مَنْ ضَايَقَ الزمانُ لَهُ فِيكَ ، وخَانَتْهُ قُرْبَكَ الأيَّامُ

وقال أيضاً فى يوم رحيلِ سيف الدولة ، وقد كثُرَ المطر وكاد يعوقُه عن عزيمته :

رُوَيدك ، أيُّها المَلِكُ الجليلُ   تَأَنَّ ، وَعُدَّه مِمَّا تُنِيلُ
وَجُودَكَ بالمُقَامِ ولَوْ قليلاً ،   فما فِيمَا تجُودُ بِه قَلِيلُ
لِأُكْبِتَ حاسداً وَأُرَى عدوًّا ،   كأَنَّهما وَدَاعُكَ والرَّحِيلُ

فهو فى البيت الأول يذكر ما يبتليه به الدهر من العوائق ، وما يُضايقه / به من الأرزاءِ التى تَحُول بينه وبين ما يروم من صحبة سيف الدولة والقرب منه ، وقد خَصَّ نفسه بذلك إذ يقول : « نَحْنُ من ضايقَ الزمانُ لَهُ فيك » ، ولا نظنُّ أنْ قد كان إذ ذاك ما يمنع أبا الطيب من الرُّفقة ، إلا ما يخرج عن إرادته ، ويقع بينه وبين عزمه . فلما كادَ المطر يَعُوق سيفَ دولة ، بان الفرحُ فى كلام أبى الطيب مقروناً بالحسرة ، لما يعلم من أنَّ ذلك لن يَقْطَع فيما أبرم من عزمه ، فسأله أن يبقى قليلاً بأنطاكية ، وتعلّل له بعلّته التى ذكرها . وكان أبو الطيب إذ ذاك متأثراً بالحالة التى عليها امرأته ، فوقع فى بيتٍ من قصيدته الأخيرة التى ذكرنا أوَّلها ، ما يَدُلّ على ما فى نفس الرجل من آثار ما كان فيه من الكَرْب ، على عادته التى أسلفنا بَيانها فى مواضع . فقال لسيف الدولة :

٢٠٩

فلو جَازَ الخُلودُ خَلدْتَ فَرْداً   (وَلَكِنْ لَيْس لِلدُّنْيَا خَلِيلُ)

فهذا الحزْنُ الغالب على الشطر الأخير ، والمتمثِّل فى كلماتِه ، وفى عبارته عن المعنى الذى أرادهُ حين استدرك بقوله : « ولكن » بَعْدَ الذى كان من فرحِهِ وطربه وتدفق نفسه بالآمال ، واستبشاره بلقاءِ سيف الدولة ، والذى كشفتْ عنه قصيدته الأولى : « وفاؤكما كالربع أشجاهُ طاسمه » ، على ما مضى فى كلامنا = كلُّ ذلك يدُلّ على أن

الرجل كان قد أدركه ما أحزنه وغمّ قلبه ، وردَّ عليه فرح نفسه غمًّا وحسرة وتشاؤماً من الدنيا ، وما يكون فيها من بلايا الدَّهر بالفراقِ والموت . وهذا بيِّنٌ كما ترى .

وانتقل أبو الطيب – بعد موت امرأته بقليلٍ – من أنطاكية إلى حلبَ ، ثم ماتت والدة سيف الدولة ، فقال له فى عَزائه قصيدتَهُ المشهورة ، وأوَّلها من دموع أبى الطيب التى كان يبكى بها ، وقد جاء فيها :

٢١٠ / نَصِيبُكَ فِى حَياتِكَ مِنْ حَبِيبٍ ، نَصِيبُكَ فى مَنَامِكَ من خَيالِ

رَمَانِى الدَّهْرُ بالأَرْزاءِ حَتَّى فُؤادى فى غِشاءٍ من نِبالِ

فَصِرْتُ إذَا أَصَابَتْنِى سِهامٌ تَكسَّرتِ النِّصالُ على النِّصالِ

وَهَانَ ، فَمَا أُبَالِى بالرَّزَايَا (لِأَنِّى مَا ٱنْتَفَعْتُ بأَنْ أُبالى)

....

(يُدَفِّنُ بَعْضُنَا بَعْضاً ، وتَمْشى أَواخِرُنا عَلَى هامِ الأَوالِى)

وهذا الحديث عن نفسه ومصائبها ورَزاياها ، وما فيه من الحزْنِ الغالب على عقله وعواطفه ، بعد الذى كان من أفراحِهِ ، دليلٌ على ما قدمنا من أن الرجل كان قد أصيب وٱبْتُلِىَ ببلاءٍ آلمه وحزَّ فى قلبه ، لا يزال يدفعهُ إلى القولِ الباكى الحزين . ثم يستمرُّ على ذلك فى شعره مدّةً ، فإنَّه فى هذه السنة نفسها (سنة ٣٣٧) قال وهو يمدح سيف الدولة ويذكر استنقاذَه أبا وائل تَغْلِب بن داود بن حَمْدان من أَسْرِ الخارجىّ :

تَفُكُّ العُناةَ ، وتُغْنِى العُفَاةَ ، وتَغْفِرُ لِلْمُذْنِبِ الجاهِلِ

فَهنَّأَك النَّصْرَ مُعْطِيكَهُ وَأَرْضَاهُ سَعْيُكَ فى الآجِلِ

يعنى سيف الدولة ، وهذان البيتان فى ختام القصيدة ، فكان حقُّ الشعر أن يقف به أبو الطيب عند هذه الدعوة الصالحة بالظفر الذى كان ، والعمل الصالح فيما يستقبل ، ولكن نفسَ الرجل كانت مضطربة متأثرة ، قد غلبها الحزن ، وغَمَّتها الدنيا (التى ليس لها خليل) بما جلبت عليها من أرزاء ومصائب ، فانتقل على عادته غير

متخلص ولا حافل (بالمناسبة ومقتضى الحال) ، فقال فى عَقِب هذين البيتين ، بيتين آخرين غريبين عن معنى الدعاء وعن معنى المدح ، / اجتمعت فيهما مرارة الحياة كلّها ، ثم جعلهما ختام القصيدة ، قال : ٢١١

(فَذِى الدَّارُ أَخْوَنُ من مُومِسٍ ، وأَخْدَعُ مِنْ كِفَّةِ الحَابِلِ)
تفانَى الرِّجَالُ عَلى حُبِّهـا وَمَا يَحْصُلُونَ عَلَى طَائِـلِ

إنهما نفثة مكروبٍ حزينٍ ، قد أَدْمَتْ قلبه غدَرات الدَّهْر ، قال له الدهرُ : « خُذْ » ، ففرح وابتهج ، ولم يكدْ حتى قالَ له : « هاتِ » ، فطارت البهجةُ ، وأطبقَ عليه الكَرْبُ الخانق المظلم .

فأنت ترى الآن أن هذه المعانى التى قيَّدناها لك ، آخذٌ بعضها ببعضٍ ، على طِرَازٍ لا يختلف من الحزن والكرب . هذا ، وقَدْ كان سيف الدولة سأل أبا الطيب بعد ذلك أن يسير معه إلى الموصل ، لمَّا أزمع هو المسير إلى نُصْرة أخيه ناصر الدولة ، فاعتذر له أبو الطيب عن المسير معه بقوله :

كُنْ حَيْثُ شِئتَ ، فمَا تَحُول تَنُوفةٌ دُونَ اللِّقـاءِ ، ولاَ يَشِطُّ مَزارُ
(إنَّ الذى خَلَّفتُ خَلْفِىَ ضَائعٌ ، مَا لِى عَلَى قَلَقِى إليه خِيَارُ)
(وَإذَا صُحِبْتَ فكُلُّ ماءٍ مَشْرَبٌ (لولاَ العِيَالُ) ، وكُلُّ أرْضٍ دَارُ)
إذْنُ الأَمِيـرِ بأنْ أَعُـودَ إليهمُ صِلَـةٌ تَسِيرُ بِذكْرِهـا الأَخْبـارُ

فلو أنّ امرأته كانت إذ ذَاك باقيةً لم تَمُتْ ، لَمَا عزّ على أبى الطيب أن يفارِق (عياله) فى رفقته وصحبته . وبيِّنٌ من قوله : « إنَّ الّذِى خَلَّفْتُ خَلْفِىَ ضَائِعٌ » ، أنّه يعنى صغيراً من ولده لا يطمئن قلبُه إذا فارقَهُ مُضَيَّعاً ليس له من يَعُوله أويكلؤُهُ ويرعاه ، وأتمَّ ذلك المعنى بقوله : « مَا لِى على قَلَقِى إلَيْهِ خِيارُ » . وفى الأبيات جميعها حَنان الأُبوة ماثلٌ بيّن لا خَفاء فيه .... وحَسْبُك هذا من كلامنا ، فإذا رَجَعتَ إلى الديوان ، فتدبَّر قصائده بعد ذلك ، / ففيها من مِثْل هذا كثير . ولا يفوتَنَّك أن تذكر ما قدمناه من دقة ٢١٢

إحساس هذا الرجل ، وسُرعِة تأثره ، وظهور هذا التأثر فى شعره إذا كَرَبه أمرٌ يغُمُّه أو يثيرُه أو يَهيجُ كبرياءه ، وما يكون من جَرَّاء ذلك فى شعره من الانتقال من معنًى إلى معنًى غيرَ عابىءٍ (بحسنِ التخلصِ ومقتضى الحال) .

وقد قال أبو الطيب هذه الأبيات الرائية فى آخر سنة ٣٣٧ ، وفى شهر صفر من سنة ٣٣٨ ، مات أبو الهيجاءِ عبدُ الله بن سيف الدولة بحلب ، فرثاه أبو الطيب ، وختم رثاءه بثلاثة أبياتٍ ، فاقرأها متبصِّراً متدبِّراً ، قال :

أَنْبْكى لِموتَانَا ، عَلَى غَيْرِ رَغْبَةٍ تَفُوتُ من الدُّنيا ، ولاَ مَوْهِبٍ جَزْلِ
إذَا مَا تأمَّلْتَ الزَّمانَ وَصَرْفَهُ ، تَيَقَّنْتَ أنَّ المَوْتَ ضَرْبٌ مِن القَتْلِ
(وَمَا الدهر أهْلٌ أنْ تُؤَمَّلَ عِنْدَه حَياةٌ ، وأَنْ يُشْتَاقَ فِيهِ إلى النَّسْلِ)

فقال : « أنبكى لموتانا » ، مقالَة رجُل قريب عَهْدٍ بنكبة الموت ، يخاطب رجُلاً مثله قريبَ عهدٍ به . ثم ذكر الاشتياق إلى « النسْلِ » ، مع ما فى البيت من المرارة الظاهرة التى لم يَذْهب طعمها من قلبه بعدُ . إنه بيتٌ فَاضَ عن قَلْبٍ مفجُوع يتفطَّر حُزْناً ، ويقطُر يأساً . كُلُّ ذلك دليل صريحٌ على أن أبا الطيب كان يخاطب نفسه كما يخاطب سيف الدولة ، لأن بَلْوَاهما واحدة .

* * *

اجتمع على أبى الطيب ، كما ترى فى أول صحبته لسيف الدولة ، أفراحُ قلبه بلقاء أمير العرب الذى أحبه وأمَّل فيه الخير والبركة والنصر لآرائه وأفكاره وسياسته ، وأحزانُ قلبه بفقد امرأته ، ثم صَغِيرِهِ الّذى جدَّد له ما بقلبه من أحداث الزَّمن ومصائبه من الآلام . فكان تنازُعُ الفرح والحُزن فى تلك / النفس المُرْهفة الشاعرة الثائرة ، سبباً فى استخراج كوامنها ومُضْمَراتها وذخائرها . وأخذ أبو الطيب يَرُوزُ ما عنده من العواطف والأفكار ، ويتأمّل ما تجدَّد فى قلبه من المعانى التى وَلَّدتها الأفراح والآلام ، ويستوعب ما فى ضميره من الأحداث القديمة التى تركت وَسْمَها فيه ، ويرمى ببصره إلى ما يستقبله فى ظلِ سيف

٢١٣

الدولة . وينظر فيما وجد عند الأمير من العطف عليه والإكرام له ، ومن تقديمه على القدماء مِن أصحابه وشعرائه ورجاله . وشَغَلته الأيام بما يتجدَّد فيها ممّا يخصه وممّا لا يخصه ، وحَوَته المجالسُ ، مجالسُ العلم والأدب والشعر والسياسة ، وأحاطت به الدنيا كلُّها مهيأةً كأنما أُعِدَّت له ، ليأخذ منها ما شاءَ ويدَع ما شاء ، ... فكان هذا كُلُّه ترفُّقاً من القَدَر لصنع هذه الشاعرية الفذّة ، وتربيتها وتغذيتها وتَنْشِئَتها على غِرارٍ فذٍّ ، يكون به أبو الطيب شاعرَ العرب والعربيَّة الذى (مَلأَ الدُّنيا وشغل الناس) .

وكان تنازُعُ الفرح والحزن فى تلك النفس المرهفة الشاعرة الثائرة حدًّا لها من غُلَوَائها ، وصَرْفاً لها عن الفكر فى الكبرياء ، إلى الكبرياء فى الفكر ، فأصبح أبو الطيب ينظر فى الحياة نظرة التدبُّر والتمحيص ، يقلِّب الرأىَ ، ويَعبُرُ الفكرة ،ويَقيس الأشباه والنظائر ، ويرُدُّ الأمور إلى أصولها ومنازعها ، وينتزع جوهر المعانى من بين أعراضها ، لا يأتَلى فى ذلك جهداً ولا يقصِّر . فمن هنا تواردت عليه المعانى ، واتخذت لها بين قلبه وفكره منزلاً ومَقَرًّا ، فإذا قَصَد إلى الشعر واحتفل له بيانه وروافدُ هذا البيان من الحوافز والدوافع والعواطف ، ابتدرت هذه المعانى من منازلها بين قلبه وفكره ، إلى منازلها بين أبياته وقصائده . وهذا هو أحد الأسرار العظيمة فى بيان هذا الشاعر العظيم .

* * *

/ وتلألأ مجدُ سيف الدولة فى شعر أبى الطيب ، فقرَّبه وزاده عطاءً وإقطاعاً ، ٢١٤
وأسبغ عليه نعمةً لم يكن أبو الطيب ينتظر مثلها أو يُؤَمِّله ، فوقع ذلك من نفْسه موقع الأمنية التى تحققت من نفس اليائس الذى ضَجِر بأمانيه ، وقد استيقنتْ نفسُه أنها لن تتحقَّق . وكان هذا أيضاً – مع الحزن والفرح اللذين يتنازعان فى نفسه – عَوناً على صُنْع شاعرية الرجل وصَقْلها وجِلائها ، لتكون المرآةَ التى تتراءى فيها حقائقُ الحياة وفلسفتها وحكمتها وبيانها وما لها وما عليها .

ولم يَكن سيفُ الدولة يجهلُ ما سيكون من هذا الرجل أوّلَ ما لقيه ، بل يقينُنا أنه

كان قد انكشفت له نفسية أبى الطيب فأخذها من حيث ينبغى أن تؤخذ ، وعرف أنّ هذا الذى مدحه بأنطاكية سيكون مخلِّدَ ذِكْرِه ، وحافظَ أخباره وصفاته فى شعره . وليس مثلُ سيف الدولة يغفل عن ذلك أو يتجاوزه بَصَرُه . فقد كان سيف الدولة أديبًا شاعراً قد اجتمعت له من أداة الأدب والشعر أداة كاملةٌ متقنة ، وكان بَصيراً بنقد الشعر ، نافذاً فى إدراك أسرار البيان . وأيضاً ... ، فقد كان ما عليه سيفُ الدولة مما ذكرنا ، من أكبر العوامل فى شعر أبى الطيب ، فإنه كان يعرف يقيناً بَصَرَ صاحبه سيفِ الدولة بالأدب والشعر ، فحمله ذلك على الإجادة والتبصُّر ، وتقليبِ المعانى واختيارها ، واصطفاءِ أثوابها من الألفاظ واجتبائها ، وكان ذلك من أبى الطيب لِمَا فى نفسه من الكبرياءِ والعظمة ، إذ لو لم يفعل ذلك لعلاَ عليه فى نَظَر سيف الدولة رجلٌ غيرِه من الشعراءِ أو لَسَوَّاه به ، وصاحبنا هذا لا يرضى بأن يسبقه إلى سيف الدولة غيرُهُ من الشعراء ، فهل يرضى بالمساواة ؟ ... كلاّ ، وكذلك فاقَ أبو الطيب كل من سبقه أو جاءَ بعدَهُ من شعراءِ العربية ، / فقد اجتمع لَهُ من الدوافع وغيرها ما لم يجتمع لأحدٍ منهم . ٢١٥

وبعدُ أيضاً ، فقد كان من العواملِ فى هذا النبوغ الفذّ الذى استعلن فى أبى الطيب ، ما أصاب من الاستقرار والاطمئنان فى جوار سيف الدولة ، وما تيسَّر له من الرّزق الذى لم يكلّفه همًّا ولا كَرْباً ، بعد أن كان لا يمضُغُ لقمةً من عيشه إلاّ ومعها نَكَدُها وهمُّها وشقاؤها . وأيضاً .... فقد علمتَ قبلُ أن هذا الرجل كان من صِغَره محبًّا للعلم والأدب ، لا يدع استيعاب ما يقع إليه من الكتب فى كل فنّ وعلم ، ففى جوار سيف الدولة ، تيسَّر له من ذلك ما لم يكن يتيسَّر ، فقد كان مليئاً بمالِه الذى أفادهُ ، يشترى ما يشاء ويستنسخ ما يرغب فيه ، وما كان سيف الدولة ليمنعه أن يستفيد مما اجتمع عنده من نوادر الكتب والمؤلفات قديمها وحديثها ، فأخذ أبو الطيب يقطعُ أيامه بالتزوُّد من كل علمٍ ، والاستزادة فى كل فنّ ، وقد وهبَه الله ذاكرةً واعية ، وفهماً نافذاً ، وقُدْرةً على النقد والتمييز ، ونفساً شاعرةً تأخذ من ذخائرها ما تشاءُ ، وتنضُو عنه ما يَعْلَق به ، وتَجْلُوه جَلْوَةَ العروس فى ثياب عُرسها . وكذلك اتّفق لأبى الطيب فى هذا العهد كلُّ ما يعينه على النُّبوغ والسَّبق .

* * *

قلنا قبل إن سيفَ الدولة قد قرَّب أبا الطيب وزاده كرامةً ومحبّةً لم ينل مثلها شاعرٌ من أمير ، مع ما عُرِف عن سيف الدولة من تحرّزه وتشدُّده حتى على الكثيرين من أهله ، وضربنا المثل بأبى فراسٍ الحمدانى وهو من هو فى قربه من سيف الدولة لقرابته ورَحِمِه ، وتحقُّقه بخدمته ، والذهاب فى طاعته ومَرْضَاتِه ، وتمجيده فى شعره ، وتخليد ذكر وقائعه وحروبه ببلاغته وبيانه / = وأشرنا إلى أن السياسة كانت أيضاً مما قرَّب أبا الطيب وأدناه من مجلس سيف الدولة وسامرِهِ وخَلْوَته . ولعلّ هذا الأَمرَ الأخير = مع ما قدمنا ذكرَهُ من أحوال سيف الدولة وأبى الطيب ، وما فيه من النبوغ والدهاء ، = هو الذى جعل لأبى الطيب عند سيف الدولة منزلةً لا تدانيها منزلة أحدٍ من أقاربه أو أهله أو شعرائه الذين كانوا ببابه ، وقد قالوا إنه لم يجتمع بباب أحدٍ من الأمراء مثل ما اجتمع بباب سيف الدولة من الشعراءِ والأدباءِ . ٢١٦

وقد تتبعنا ديوان أبى الطيب كلَّه لنظفر بالدَّليل على أن سيف الدولة كان قد آسْتَصْفَى أبا الطَّيب واتَّخذ منه أخاً يمنحه وُدَّه ويكشف له عن سرّه ، ويحدِّثه بآماله فى السياسة والحكم ، فوقعنا على أشياءَ من ذلك لا بأسَ من ذكرها والتدليل عليها ، على ما درجنا عليه فى كلامنا من استنباط المعانى وردّ بعضها إلى بعض . هذا ، على كثرة ما يَتَّصل بهذا من أحوال أبى الطيب وسيف الدولة ، مما لا نستطيع أن نجمعه لك فى فصل واحد ، ولذلك سنكتب ما نكتب ، وعلى القارىء أن لا ينسى ما مضى من القول فيضعه فى موضعه ليزيد ما أمامه قوةً وبياناً ، وأن يستأنِيَ لما يستقبل فيُحِلَّه محلَّه ليرتبط الأوَّل بالآخر ، وينكشف له ما يَغْمُض عليه أو يستبهم مما نحنُ فيه .

* * *

كان أبو الطيب ، كما رأيت أوّلاً ، رجلاً ثائراً بما فى نفسه غير راضٍ عن الحكم القائم فى البلاد العربية ، وقد ذكر ذلك فى كثير من شعره الذى مضى بك ، وهدّد الأمراء والملوك والسلاطين بما سوف يفعله بهم ، وما يأتيهم به من القتل والفتك ، وخصَّ بالذكر

٢١٧ والحِقْد والوعيدِ الأَعاجمَ الذين كانوا / قد استولوا على مقاليد السلطان والحكم ، ولم يفتأ يذكر ذلك من أوّل أمره إلى أن اتصل ببدر بن عمارٍ . وكان ، كما قلنا قبل ، يؤمِّل أن يجد فى بدر بن عمار (الرجلَ) الذى يستعين به على آماله وآرابه ، ويحقّق بعونه له ، ما كان يدور فى نفسه من المطامع السياسية : من ردِّ الحكومة إلى العرب دون الأعاجم ، وكذلك هدأ حين اتصاله ببدر ، ولم يكثر من ذكر وعيده وإنذاره وآرائه ، وفسَّرنا هذا هناك ، [ما سلف ص : ٢٥٩ – ٢٧٢] فلما كان اتصاله بسيف الدولة على ما وصفنا فى هذا الفصل ، من توافق الرجلين فى المذهب السياسى ، والرأى الذى يريانه لإنقاذ العربِ من عادية الأعاجم وغيرهم ممن يكيدون بالفتنة لأمتهما ، هدأ أبو الطيب هَدْأَتُهُ تلك ، وانصرف بيانه إلى تمجيد صاحبه ، كما فعل حين كان فى جوار بدرٍ . وقد ألممنا بحالة أبى الطيب النفسية وفسَّرناها ، وبيّنا أنّ ذلك عادةٌ له إذا لاقى العربىَّ المحارب الفاتح الذى يؤمل فى وجهه النصر والظفر وتحقيق الآمال التى تسمُو بهمته إلى غزو الأُمة ، وإنقاذها من البلاء الذى حلّ بها وأوهاها وفرَّق شَمْلها . وجمعنا إلى ذلك ما كان من تقريب سيف الدولة أبا الطيب إليه ، واصطفائه بمودته دون سائر الشعراء ، وجميع أهله وقرابته ، والمتصلين به من أصحاب الفكر والرأى والدهاء . وقد مضَى بك أيضاً أنّ أبا الطيب كان قد ذكَر ، حين قدم إلى أنطاكية على أبى العشائر ، أنه لم يأت مستميحاً ولا طالب رِفْد وعطاءٍ ، بل أشار إلى مُراده ومبتغاه الذى من أجله قصد أنطاكية ، [ما سلف : ٢٩٦] ، فقال :

فَسِرْتُ إليك فى (طلب المعالى) وسَار سِوَاى فى (طَلَب المعاشِ)

٢١٨ = وتبينا من شعر أبى الطيب فى المدة التى سلخَها فى ظلِّ سيف الدولة / من سنة ٣٣٧ إلى سنة ٣٤٦ ، أنه كان يقول الشعر فى سيف الدولة ممجِّداً له ورافعاً من ذكره وذِكْر غزواته وحروبه ، وقد تآزرت عوامل نفسه كلِّها على مَنْحه التجويدَ والإبداع فى ذلك . وتفسير ذلك عندَنا أن هذا الرَّجل الثائر حين لاقى سيف الدولة الفاتح ، وجَّه كل ما كان فى قلبه من القوة التى دفعته إلى مدح نفسه وذكرها والإفصاح عن آرائها وآمالها ، إلى مَدْح هذا الرَّجُل (سيفِ الدولة) ، ووصفه ووصف حروبه وغزواته ، فصارت القوة

التى كانت بيِّنة فى شعره الأول إلى هذا الشعر ، فكان وَحْده هو أبدع ما أتى به وما أخرجه من البيان . وكان صورةً أُخرى من شعره الأوّل ، إلاّ أنها أقوى وأتمُّ وأمثلُ فى التجويد والتصوير .

ثم فارق أبو الطيب سيف الدولة ، وهو لا يزال ثابتاً على محبته والإخلاص له ، وكان سيف الدولة لا يزال مُسْتقصياً لأخباره فى كل بَلدٍ ينزله ، متتبعاً لشعره الّذِى يقولُه لكلّ من مدحه من بعده . وكان أيضاً لا يزال يُهْدى إليه من هداياه ، مع أنه فارقه ومدح غيرَه ، بعد إكرامه له إكراماً لم يَلْق مِثله أبو الطيب قبل اتصاله به . وكان أيضاً يُكَاتبه وَيَتَلَقَّى منه بعض كتبه = وكلُّ هذا دليلٌ على أن المحبة التى كانت بين الرجلين لم تكن محبة أمير لشاعره وحسب ، بل كانت صداقةً لا يقطع فيها حَدَثٌ من أحداث الزمان ، أَوْ سَعْىُ الوشاة والمُتَقوِّلين .

* * *

هذا .... وقد رَوَوْا أن سيفَ الدولة أنفذ إلى أبى الطيب ، وهو بالكوفة سنة ٣٥٢ بعد خُروجه من مِصْر ، وبعد أَنْ فارقه بسِتّ سنواتٍ ، / هَدِيَّةً مع أحد أقاربه ، فكتب إليه قصيدة أهداها إليه كما أهدى ، فكان مما ورَد فى هذه القصيدة ، يخاطب سيف الدولة :

٢١٩

أَنْتَ طُولَ الحَياةِ لِلرُّومِ غَازٍ ، فَمتَى (الوَعْدُ) أَن يكُونَ القُفُولُ ؟
وَسِوَى الرُّومِ خَلْفَ ظَهْرِكَ رُومٌ ، فعلَى أىِّ جَانِبَيْك تَمِيلُ ؟
قَعَدَ النَّاسُ كُلُّهُمْ عَنْ مَسَاعِيـ ـكَ ، وَقَامتْ بها القَنَا والنُّصُولُ
مَا الَّذِى عِنْدَه تُدارُ المَنايَا ، كالَّـذِى عِنْـدهُ تُدَارُ الشَّمُـولُ [1]
لَسْتُ أَرْضَى بأَنْ تكونَ جَواداً ، وزَمَـانى بأَنْ أَراكَ بَخِيـلُ

---

(١) « الشمول » هى الخمر .

نَغَّصَ البُعْدُ عَنْكَ قُرْبَ العَطَايا ، مُرْتَعِى مُخْصِبٌ وَجِسْمِى هَزِيلُ

....

مَا أُبَالى ، إذا اتَّقَتْكَ اللَّيالى ، مَنْ دَهَتْهُ حُبُولُها والخُبُولُ

وقد ذكرنا قبل أن سيف الدولة كان قد عزم فى نفسه أن ينال بهمته غاية الغايات فى ضمّ أشتات البلاد العربية تحت سلطانه وفى ظلّ حكومته ، وكان أوّل ما أتم من ذلك أن زَحَم الإخشيديين بمناكبه حتى أزاحهم عن أكثر البلاد الشامية وردَّهم إلى الرملة ، وأراد أن يوطِّد سياسته وحكمه بالشّام ، حتى إذا أعدّ العدّة ، واستجمع الأداة ، تحفَّزَ بقوته كلها على العراق فمال عليه مَيْلَةً رابيةً ، ليزيلَ عنه سلطان الموالى الذين استولوا على سلطة الخلافة . وكان هؤلاءِ الموالى ، أو أكثرهم ، ممن استقل بالدُّوَيلات ، مِنْ شيعة العلويّين الذين أطاعوا داعية الفاطميين ، وكان سيفُ الدولة لا يُقِرّ بحكم الفاطميين ولا يرضى عنهم ، ولذلك نصر الخلافة العباسية ، مع أنه / علويُّ المذهب . كانت هذه هى سياسة سيف الدولة ، وكانت هذه هى إرادته ، ليجمع شمل العرب ويردَّ الحكم إلى اليد التى لا تضطرب ، وإلى الفكر الذى لا يحلحله من مكانه كيدُ الكائدين للعربية من أصحاب الفتن والدسائس .... [انظر ما سلف ص : ٣٠١ – ٣٠٤] فجاء أبو الطيب يقول فى هذه الأبيات :

٢٢٠

أنْتَ طُولَ الحياةِ للرُّومِ غازٍ ، فمَتَى (الوَعْدُ) أن يكون القُفُولُ ؟

وسِوَى الرُّومِ خَلْفَ ظَهْرِكَ رُومٌ ، فعَلَى أىِّ جانِبَيْكَ تَمِيلُ ؟

ففى البيت الأول يصرح بأن سيف الدولة كان قد وَعده أن يَقْفُل من غَزْو الروم الذين يهدّدون أطراف الشام ، ويُعِدّ العدّة لغزوٍ غيره ، فإن قوله (الوعد) معرَّفاً ، دليلٌ على تخصيص وَعْدٍ بعينه ، ولا يكون كذلك إلاّ أن يكون وعداً وعده سيفُ الدولة أبا الطيب لتحقيق ما يريدان من ردِّ الحكومة إلى العرب ، وذلك بأن يغزو سيف الدولة العراق و (يميل عليه) ، ويزيل عنه سلطان الموالى والأعاجم ، ولذلك سأل أبو الطيب سَيْفَ الدولة فى البيت الثانى فقال : (فعَلَى أىِّ جانبيك تميلُ ؟) . وقد جعل القائمين

بالحكم ، والمستولين على السلطان فى العراق ، « رُوماً » ، لما أشرنا إليه قبل ، من أن هؤلاء لمّا وقفوا على عزيمة سيف الدولة فى إزالتهم عن العراق ، أو عزوا إلى ملك الروم أن يقاتلهُ ، إذ أوقعوا فى قلبه وفكره بمكرهم ودهائهم أنّ سَيفَ الدولة الذى كان يمدُّ سلطانه على الشام يوماً بعد يوم ، إنما يريد بذلك أن يُزِيل المُلْك من بين يديه ويغلبه على بلاده ، وبذلك يتمُّ لهم ما يريدون من صَرف سيف الدولة عن حربهم ، وانصرافه إلى حرب الروم ، ويكون ذلك استهلاكاً لقوته ، حَتَّى إذا / ما أراد أن يميلَ عليهم ، يكون قد فقد صفوة المحاربين معه فى قتال الرُّوم ، فلا يصيب إذ ذاك فى حربهم وقتالهم ظفراً ولا نصراً ، [انظر ما سلف ص : ٣٠٢ - ٣٠٤] ، وهذا التعبير من أبى الطيب دليلٌ على أنّه كان يعرف سِرّ هذا الأمر كما يعرفه سيف الدولة ، ثُمَّ إن أبا الطيب أخذ يهوِّن على سَيف الدولة أمرَ غَزْو العراقِ ، ويُغْرِيه بالإقدام على ما وَعَده من الفتح ، إذ وصفه ووصف أهلَ العراق فقال :

٢٢١

مَا الَّذِى عِنْدَهُ تُدَارُ المَنَايا ، كالَّذِى عِنْدَهُ تُدَارُ الشَّمُولُ

فهو بهذا يُغْرِيه بهم ، إذ كانوا قوماً أهل سكرٍ وعَرْبدةٍ ، لا أهل حرب وقتال كسيف الدولة الذى لم يكن يفرُغُ من غَزْوَة ويَقْفُل منها حتى يبادر إلى أُخرى يصيب فيها النَّصر والظَّفر ، أو التجربةَ فى القتال والمِرَانَ على مكر الحرب وخُدَعِها . وهذا الذى كان من (الوعد) بين سيف الدولة وأبى الطيب ، كان هو السببَ فى أنّ أبا الطيب حين دخل العراق فى تلك السنة ، لم يعبأ بأحد من السلاطين والحكَّام وأولى الأمر من الوزراءِ ، واستكبرَ عن جميعهم ، فلم يمدح منهم أحداً ، حتى الخليفة لم يفكر فى مَدْحه ، بل رَاغَمهم جميعاً حتى كان ما كان من أمرِ الوزير المهلبى وغيره ، وعداوتهم له ، وإغرائهم الشعراءَ بالوقوع فى عرضه وشرفه ونسبه ، وتحريضهم الأدباءَ على معاندته ومُجادلته للغضّ منه والإزراء عليه ، كما مرَّ بك فى أوائل كلامنا ، [انظر ما سلف ص : ١٥٨ - ١٦٠] .

وأيضاً ... ، ففى ذى الحجة من سنة ٣٥٣ كتب سيفُ الدولة إلى أبى الطيّب كتاباً (بِخَطِّه) يسأله المسير إليه ، فأجابه أبو الطيب بقصيدة أنفذها إليه ، أوَّلها :

٢٢٢ / فَهِمْتُ الكِتابَ ، أبرَّ الكُتُبْ فَسَمْعاً لِأَمْرِ أَمِيرِ العَرَبْ
وَطَوْعاً لهُ ، وَٱبتِهَاجاً به ، وإن قَصَّرَ الفِعْلُ عَمَّا وَجَبْ

فإذا كان هذا الكتابُ ، كما وردت الرواية ، قاصراً على رغبة سيف الدولة إلى أبى الطيب فى أن يلحَق به ، ويكون فى جواره ، فيكون قولُ أبى الطيب (فهمتُ الكتاب) من أسخف القول وأرْذَلِه وأحطِّه وأسْقَطِه ، ويكون سقوطاً قد أصاب عَقْل هذا النابغة . أيقول أبو الطيب إنه فهم كتاب سيفِ الدولة (الذى كتبه له بخطه) ، يَسأله أن يسير إلى الشام ؟ وما فى هٰذا الطّلب مما يحتاج إلى « الفهم » ؟ وما فيه مما تقتضى الإجابةُ عنه أن يخبرهُ بأنه قد فَهِمه ؟ أيكون هذا أو يُعقل !! والبيِّنُ أن سيفَ الدولةِ كتب إلى أبى الطيب – بَعْد القصيدة التى مرَّ ذكرها ، والتى أغراه فيها بغزو العراق وفتحه – كتاباً يشرح له فيه الأَمر ، غير مصرِّح بشئ ، ويذكر العوائق التى تعوقُهُ دُونَ غَرَضهما ، وبيَّن له ما هو فيه من الكرب والضِّيق ، وأنه لولا ذلك لما تأخَّر عن عزيمته ، ولوَفَى لأبى الطيب بالذى وعدَه من فتح العراق . ولهذا لم يأتمن سيفُ الدولة أحداً على هذا الكتاب الذى كتبه إلى أبى الطيب ، فكتبه إليه (بخَطِّه) حَيْطةً وحذراً أن يشيع ما ورد فيه . وقد أراد سيفُ الدولة فى كتابه هذا أن يزيد أبا الطيب بياناً ، ولكنه لم يستطع خشْيَةَ الأحداث التى لا يملك صَرْفَها ، من وقوع هذا الكتاب فى يَدِ عدوٍّ من أعدائه ، ولذلك طلب من أبى الطيب أن يَقْدَم عليه بالشَّام فيخلُوَ به ، ويشرحَ له الأمر فى غير كناية ولا تعريض ، ولكن أبا الطيب كان قد فهم ما وراء كنايات سيف الدولة وإشاراته الخفية ، فكتب إليه :

٢٢٣ / فهمتُ الكتابَ ، أبرَّ الكتبْ فَسَمْعاً لأمْرِ أمير العربْ

فهذا الذى أفضنا فيه دليلٌ كله على أنه كانت بين سيف الدولة وأبى الطيب أسرارٌ سياسيةٌ تخُصُّ أغراضهما وآمالهما فى إعادة المجد العربى ، وإزالةِ الحكام الطاغين من الموالى ، وقمع الفِتَن التى قام بها العلويون والفاطميُّون فى البلاد ، وهم لا يقدِّرون مَغَبَّاتها وعواقبها ، ولا يَزِنون أمرها ، إذ يتَّخِذُها أعداء العرب والإسلام ذرائعَ لقضاء مآربهم فى تمزيق

الأمة ، وتفريق شملها ، وإضاعة مجدها وسلطانها ، ليُقيموا على أنقاضها ما تسوِّلُهُ لهم أحقادهم وضغائنهم من الأوهام والأحلام . وحَسْبُك دِلالة على صواب ما قلناهُ ، أنه قاله له : « فسَمْعاً لأمْرِ أميرِ العَربْ » ، فتسميته سيف الدولة « أميرَ العرب » ، تعريضٌ ظاهرُ الدلالة على ما فى نفس أبى الطيب من صفة هذا الشجاع المحارب ، صفةً تَجُبُّ كُلَّ صفة .

***

– ١٣ –

****

لِعَيْنَيْكِ ، مَا يَلْقَى الفُؤادُ ، ومَا لَقِى
ولِلحُبِّ ، ما لَمْ يَبْقَ مِنِّى ، وَ مَا بَقِى
وَأَحْلَى الهَوَى ، مَا شَكَّ فى الوَصْلِ رَبُّهُ
وَفِى الهَجْرِ ، فَهْوَ الدَّهرَ يَرْجُو وَيَتَّقِى
سَقَى اللهُ أَيَّامَ الصِّبَا مَا يَسُرُّهَا
وَيَفْعَلُ فِعْلَ البَابِلِىِّ المُعَتَّقِ
إذَا مَا لَبِسْتَ الدَّهرَ مُسْتَمْتِعاً بِهِ
تَخَرَّقْتَ ، وَالمَلْبُوسُ لَمْ يَتَخَرَّقِ

****

/ .... (١) قد رأيتَ قبلُ أن الحوافز التى اجتمعت على أبى الطيب من أوّل أمره ٢٢٥ إلى عهد اتصاله بسيف الدولة ، إنما كانت ترفُّقاً من القدر وتطريقاً وتمهيداً للنبوغ الفذّ الذى صار به صاحبنا شاعرَ العرب ولسان العربية الذى آستحكم فى عصره ، وضَرَبَ بحِكْمته على من كان قبله ، ومن أتى بعده . وقد ذكرنا من أَداةِ نبوغه وأسبابه ما تَيَسر لنا جَمْعه فى هذه الكلمة ، إذ كانت الأشياءُ مرهونةً بأوقاتها من المعانى ومنازِلها من الكلام .

ورأَيتَ أنّ اتصاله بسيف الدولة نقل قَلْبَ الرجل من منزلة إلى أخرى ، نَقَله من منزلة الإحساس الشخصى الموحِّد ، إلى منزلة الإحساس الشخصى / المُتولِّج فى الاجتماع ٢٢٦ المُزاحِمِ فى سياسته ، المؤمِّلِ فى سيف الدولة ردَّ السلطان إلى العرب والعربية ، بعد الغلبة

---

(١) كان حق هذا الباب أن يسبقه فى ترتيبنا باب آخر ، نذكر فيه ما تميز به شعر أبى الطيب ، ونفصل فيه أسلوبه كله على تدريج لا يتفاوت ، ولكن منعنا من ذلك ضيق الوقت ، وانظر ما سلف ص : ٢٣٤ ، وما قبلها .

والظفر وتحقيق الأَمَانِيِّ . وكان هذا سبباً فى انتفَاض قلب (الرَّجُل الشاعر) بالفرح المستولى عليه ، الغالبِ على عواطفه . ثم كان أيضاً ما استنبطناه ممَّا سَبَّبَ فى هذا القلب أسباباً للألم والحزن والأنين والبكاء والحسرة ، فصار التنازع فى هذا القلب بين الفَرْحة الغالبة والحسرة المتمكنة ، سبباً فى استخراج مكنوناته ، وتوليدِ المعانى الجديدة من الصراع الهائل الذى كان فيه . وبذلك خرج أبو الطيب عن طَوْره الأوّل المحدود بحدِّه ، إلى الطور الثانى المتفاسح المترامى إلى كلِّ غايات الحياة وأسبابها وما يكون فيها وما يكون منها .

وَكان هذا الرجل الشّاعر إنما يعتمد فى توليد معانى شعره على استيعاب ما بنفسه من الأفراح والآلام ، ما تقادم منها وما جَدَّ ، ثم الاستغراقِ فى تأمل هذه الذخائر التى فى نفسه وردِّ بعضها إلى بعض ، ورَبْطِ الغائب منها بالشاهد ، وعَطْفِ الأوّل منها على الآخر ، وكأنما كانت تتراءَى لعينيه حوادثُ قلبه وحوادثُ دهره ، وتتردّد فى سمعه أصوات قلبه موصولةً بأصوات الناس وكلامهم ما قلَّ منه وما عَظُم . وكان هذا الاستغراقُ فى تأمُّل ما بنفسه ، هو أحدَ الأسرار العظيمة فى تصوير شاعريته ، وتسويتها وتنشئتها وتغذيتها وتنميتها إلى الغاية التى هى عليها فى شعره .

وقد بيَّنّا قبلُ أن من أداة هذا الشاعر العظيم ما أودعه الله فيه من الحس المرهِف ، وما وهبَه من العاطفة الملتهبة المتوقدة التى لا يخبُو لها ضِرام ، وِراثةً كانَ ذلك من جَدّته ، أو فِطْرةً فَطرَهُ الله عليها غير موروثةٍ . وكان / هذا الرجل فى أوّل أمره مُطالباً بثأْرٍ قد نُشِّيء عليه ، وأُخِذ به من صغره ، حَتَّى شغل فكره وعقله ، وتدَفَّق فى بنيانه كله تدفُّق الدَّم ، وصَار أصلاً من الأُصول التى قامت عليها كل حالته النفسية = على ما ذكرناه أوَّلاً ، وتدرَّجنا فى بيانه إلى عهد اتصاله بسيف الدولة = وكان قد بلغ من العمر أربعاً وثلاثين سنة ، وهى السنُّ التى تستحكم فيها الأصول ، وتستقرُّ المذاهبُ ، ويقف الرجل عندها لا يملك فى تبديل أمرِهِ حَوْلاً ولا قوَّةً إلاّ أن يشاء الله ، وخاصَّةً مَنْ كان مثل المتنبى قد عركته الأيام من صِغَره ، وتحاملتْ عليه ورَمَتْ به فى تَنُّورها حتى آستوى على صُورة بعينها ، واستمرَّ

٢٢٧

مريرةُ على ما فيه من القوّة المستحصدة والمُنّة الدائبةِ الفَوْرةِ والنّزاعِ ، لا تستقرُّ ولا تهدأ ولا تطمئنُّ .

هذا ، .... وقد استوقفنا ، ونحن نتتبّع شِعْرَ الرجل على طريقتنا ومذهبِنا ، الفرقُ الكبيرُ الكائن بين شعره الأوّل ، وشعره الذى قاله فى حضرة سيف الدولة ، وتدبَّرنا الأسبابَ على ما بيّناه قبل ، فلم يَسْتوِ عندنا أن يكون ذلك من أجل ما ذكرناه قبل وحَسْبُ ، فعُدْنا نجدّد الرأى لذلك ، ونقرأ ما بين كلمات الرجل من المعانى ، ونستنبط من روائع حكمه وبلاغته ما يهدينا إلى السبب الأكبر فى هذا التجويد الفذّ الذى غلب به الرجل على شعراءِ العربية ، فاسترْوَحْنا فى شعر الرجل نَفْحَةً من نَفَحات « المرأة » التى تكون من وراءِ القَلْب تَصْنَع للشاعر المُبْدِع بيانَهُ ، وتتَّخذ من فنّها النِسْوِىّ مادّةً تُهَيِّئها لفنّ صاحبها وعبقريته ونبوغه . فأتممنا الأمر على ذلك ، ورَجَعنا إلى شعر أبى الطيب وما وقفنا عليه من أسرار نفسه ، وتمثّلنا « المرأةَ » بينهما وهى دائبة تصنع له بيانه وتهيِّئُ له فنّه ، فاستوى الأمر على ذلك . وطلبنا الدليلَ ، فدلّنا على المرأة التى / سكنتْ قلب أبى الطيب ٢٢٨ = وهو فى ظلِّ سيف الدولة = وجعلته حكيم الشعراء وشاعر الحكماءِ .

كان صاحبُ الحكمة أبو الطيب يَصْنع حكمته بالتدبُّر فى معرفة نفسه ، واستبطان أسرارِها وإدراكِها ، فلما جاءَته « المرأة » ، وأرادت كبرياءَه على الخضوع لها والتصرُّف بأمرها ، وقعت نفسُ هذا المرأة بأسرارها وأحداثِها بين نَظَرات أبى الطيب النافذة المتولّجة إلى مَا وراءِ الواقع والحسّ الملموس ، وبَيْن نَفْسه بأحداثها وأسرارها وما آنطوتْ عليه وما تجلَّلتْ به . ولما كانت نفسُ المرأة المحبوبةِ هى تمامَ نَفْس الرجل المحبّ وتَكملتَها ، كانت دراسةُ الحكيم المحبِّ لنفسه المكمَّلَة التامة بالمرأة المحبوبة ، إنما هى دراسة للكون كله ، فإنّ العاشق لا يرى الدنيا بأسرارها إلاّ بعينى مَنْ يَعْشَق ، وهى على ذلك الدنيا المترامية ، بعد أن كانت قبل عشقه مَحصورةً فى دائرتها من نفسه الناقصة غير التامة . والحبُّ القوىُّ النافذ الذى يتملّك حواس المحبِّ ويغلب عليها ، هو بطبيعته امتدادٌ بهذه الحواسّ إلى غايات بعيدة لم تكن تصل إليها قبل غَلَبَتِه على القلب والنفس

والفكر . فلهذا حين أَحَبَّ أبو الطيبِ = الرجلُ الثائرُ المتكبرُ الشاعرُ الحكيمُ البيانيُّ الفكرِ واللسان = كان آمتدادُ نفسه وترامِيها إلى غايات بعينها من الرجولة والثورة والكبرياء والحكمة والفكر ، ولم يستطع أن يكون ، بَعد أنْ غلب الحبُّ قلبَهُ وتفاسَح به ، شاعراً غَزِلاً رقيقَ البيان . وهذا هُو السرُّ عندنا فى ضَعْف مادة الغَزَل عند أبى الطيب ، وقُوَّة مادة الحكمة وما إليها ، مما هو من طبيعته المتأصِّلة فيه على ما فصلناه فى أثناء كلامنا . وليس يَصِحُّ عندنا أن لا يكون أبو الطيب عَاشقاً صبًّا متدِّلهاً ، / ما لم نجدْ فى شعره غَزَلاً ولاَ أنيناً وحَنِيناً وبكاءً . ٢٢٩

* * *

والآن ، وبعدَ هذه المقدِّمة ، نحاوِل أن نعيِّنَ لك « المرأة » التى أحبَّها أبو الطيب على ما يتفق لنا ، [١] إذ كان ترتيبُ هذا الموضع من الكلام ممّا يستدعي النظر فى أكثر شعر أبى الطيب وتقليبه على المذهب الذى اتخذناه ، فيخرج الأمر من حَدّه ولا تتسع له هذه الورقات .

لما ماتت أختُ سيف الدولة الصُّغرى ، وقف أبو الطيب يُعزِّيه وَيَرْثِيها ، ويسلِّيه ببقاء أُخْتِه الكُبرى ، وذلك فى يوم الأربعاء للنصفِ من شهر رمضان سنة ٣٤٤ ، وبعد سبع سنواتٍ من مُقامه فى حضرة سيف الدولة ، فأنشده قصيدته التى أوّلها :

إنْ يَكُن صَبْرُ ذِى الرَّزِيئَةِ فَضْلاَ تَكُـنِ الأَفْضَلَ الأَعَزَّ الأَجَـلاَّ

وطفِق يمدح سيف الدَّولة بمناقبه مما يصلُح لهذا الموضع من العزاء ، إلى أن قال :

أَيْنَ ذِى الرِّقَّةُ الّتى لَكَ فِى الحَرْ بِ إذا آستُكْرِهَ الحديدُ وصَلاَّ ؟
أَيْنَ خَلَّفْتَهـا غَدَاة لَقِيت الـ ـرُّومَ ، وَالهامُ بالصَّوارِمِ تُفْلَـى
(قَاسَمتْكَ المَنُونُ شَخْصَين جَوْراً جَعَل القِسْمُ نَفْسَه فِيه عَدْلاَ)

---

(١) اعلم أنا كنا نؤمل أن نبسط القول فى هذا الباب ، ولكن حالت دون ذلك أحوال .

(فَإِذا قِسْتَ مَا أَخَذْنَ بِمَا غَا دَرْنَ ، سَرَّى عَنِ الفُؤَادِ وَسَلَّى)
(وَتَيَقَّنْتَ أَنَّ حَظَّكَ أَوْفَى ، وتبيَّنْتَ أَنَّ جَدَّك أَعْلَى)

٢٣٠ / فأبو الطيب يطلب من سيف الدولة أن يقيس أُخْتَهُ الصغرى التى ماتت ، إلى أُخته الكبرى الّتى بقيتْ له ، فإذا فعل ذلك كان سَلْوَى لهُ وتسريةً للهمِّ عن قلبه . ولا ندرى كيف يتَّفق أن يَخْطُرَ لشاعر يرثى امرأةً محجَّبةً ماتت ، أن يذكرَ أُخْرَى = وتكونُ أختها = ويعزِّىَ أخاها بهذا العزاء الغريب ؟ ثم يزيدُ فيقوله له : إنك إذا فَعلتَ ذلك الذى دللتك عليه ، « تَيَقَّنت » أن حظَّك فى بقاء هذه الكبرى أَوْفَى من حظِّ الموت فى أَخْذِ الصغرى ؟ وكيف يُيقِّن أبو الطيب سَيفَ الدولة من حُسْن حظّه ببقاء الكبرى ، إلاّ إذا كان هو على يَقينٍ من ذلك ؟ وكيف يكون على يقين من ذلك ، إلاّ وهو يعرفها معرفة تُفْضِى به إلى هذا اليقين ؟

ثم مضى أبو الطيب فى القصيدة كُلِّها يمدح سيف الدولة ، ولم يتعرَّض لهذه الفتاة أُخْتِه الصغرى إلاّ فى موضعٍ آخَر ، إذ يقول :

خِطْبَةٌ للحِمَامِ لَيْسَ لَها رَدٌّ ، وَإِنْ كانَتْ المُسَمَّاةَ ثُكْلاَ
وَإِذا لَم تَجِدْ مِنَ النَّاسِ كُفْئاً ذَاتُ خِدْرٍ ، أَرَادَتِ المَوْتَ بَعْلاَ

فالعجب أن يكون ذلك عزاءً .... ، فإن أبا الطيب قد قدَّم الكبرى فى المنزلة ، فكان أَوْلَى إذن أن تموت الكبرى ، إذ هى ولا شك عند أبى الطيب أفضلُ من هذه الصغرى التى لم تجد من الناس كفئاً يكون لها زوجاً ، فاختارت الموت بعلاً لها !! وهذا التناقض يدلُّنا على أن الرجل كانت قد آقترنت فى عينه صورة الكُبْرى بصورة الصغرى ، فاضطرب قولُه ولم يمض على سَنَنٍ ونَهْجٍ ، وذلك لاضطراب نفسه الذى أظهر ما فى قلبه وكشف عنه فى تدفقه حين ذكر هذه الكبرى فقال فيها البيتين : « فإذَا قست .... إلخ » .

٢٣١ / فلما ماتت الكُبْرى هذه التى ذكرها هنا = وهى خَوْلَةُ أخت سيف الدولة ، فى سنة ٣٥٢ ، أى بعد ذلك بسنوات ثمانٍ ، وكان أبو الطيب يومئذٍ بالكوفة ، فورد عليه

خبرها ، فكتب إلى سيف الدولة قصيدة فيها (٤٤) بيتاً ، منها واحد وثلاثون فى ذِكْر خَوْلة هذه ، وستة أبياتٍ فى ذكر الدنيا ونَكدها ، ولم يذكر سيف الدولة إلاّ فى سبعة أبيات منها . هذا مع أن القصيدة التى رثى بها الصُّغرى ، لم يذكر فيها الصغرى مُفْرَدةً ، إلاّ فى بيتين هما : « خطبة للحمام .... » ، وذكر الكبرى ومعها الصغرى فى ثلاثة أبيات هى « قاسمتك المنون .... » ، وجعل بقية القصيدة ، وعِدَّتها (٤٢) بيتاً ، فى مدح سيف الدولة ، إلاّ قليلاً فى الحكمة والحياة . أليس هذا عجيباً !

كان الفرقُ بين القصيدتين بيناً واضحاً لا خَفاء فيه ، وكانت الثانيةُ فى رثاء « خَوْلَة » عاطفة قد أخذها الحزن وغلبها البكاء ... يقول أبو الطيب ، وافتتحها بخطاب خولة :

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ ، يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبِ ... كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أَشرفِ النَّسَبِ
أُجِلُّ قَدْرَكِ أَنْ تُسْمَىْ مُؤَبَّنَةً ، ... وَمَنْ يَصِفْكِ فَقَدْ سَمَّاكِ للعَرَبِ
(لاَ يَمْلِكُ الطَّرِبُ المَحْزُونُ مَنْطِقَهُ ... وَدَمْعَهُ ، وهما فى قَبْضَةِ الطَّرَبِ)[1]
غَدَرْتَ ياموتُ ، كَمْ أَفْنَيْتَ مِنْ عَدَدٍ ... بِمَنْ أَصَبْتَ ! وَكَم أَسكَتَّ من لَجَبِ ![2]
وكَم صَحِبتَ أَخَاها فى مُنَازَلةٍ ! ... وكَم سألتَ فَلَمْ يَبْخَلْ ولم تَخِبِ !
(طَوَى الجزيرةَ حَتَّى جاءَنى خَبَرٌ ، ... فَزِعتُ فيه بآمالِى إلى الكَذِبِ)
(حَتَّى إذَا لم يَدَعْ لى صِدْقُهُ أملاً ، ... شَرِقْتُ بالدَّمْعِ حتَّى كادَ يَشْرَقُ بى)
تَعَثَّرتْ بِكَ فِى الأَفْوَاهِ أَلْسُنُها ، ... وَالبُرْدُ فى الطُّرْقِ والأَقْلاَمُ فى الكُتُبِ)[3]
/ كأَنَّ « خَوْلَة » لم تَمْلأْ مَواكِبُها ... دِيارَ بَكْرٍ ، وَلَمْ تَخْلَعْ ، ولم تَهَبِ
(وَلَم تُرَدَّ حَياةً بعد تَوْلِيةٍ ، ... وَلَم تُغِثْ داعياً بالوَيْلِ والحَرَبِ)[4]

٢٣٢

(١) « الطربُ » ، خفة ودهشة غالبة تأخذ المرء عند الحزن أو عند السرور .

(٢) « اللجب » ، الضجيج واختلاط الأصوات .

(٣) « البرد » ، جمع « بريد » ، وهو الرسول الذى يخرج على فرس من بلد إلى بلد .

(٤) « الحرب » ، ذهاب المال وهلاكه ، يقول الملهوف « يا ويلاه ، واحَرَباه » .

(أَرَى العِراقَ طَوِيلَ اللَّيْلِ مُذْ نُعِيَتْ ، فكَيْفَ لَيْلُ فتى الفِتْيَان فى حَلَبِ ؟)
(يَظُنُّ أَنَّ فُؤَادِى غَيْرُ مُلْتَهِبٍ ! وَأَنَّ دَمْعَ جُفونى غَيْرُ مُنْسَكِبِ !)
(بَلَى ، وَحُرْمَةِ مَنْ كانت مُراعِيَةً لِحُرْمَةِ المَجْد والقُصَّاد والأَدَبِ)
(وَمَنْ مَضَت غيرَ مَوْرُوثٍ خَلائقُها ، وإن مَضَتْ يَدُها مَوْرُوثَةَ النَّشَبِ) (١)
(وَهَمُّها فى العُلَى والمَجْدِ ناشِئَةً ، وهمُّ أَتْرَابِها فِى اللَّهْو واللَّعِبِ)
(يَعْلَمْنَ حين تُحَيَّا حُسْنَ مَبْسِمِهَا ، وَلَيْسَ يَعْلَمُ إلاَّ اللهُ بالشَّنَبِ) (٢)

....

(وَإِنْ تَكُنْ خُلِقَتْ أُنْثَى فَقَدْ خُلِقَتْ كَرِيمَةً ، غيْرَ أُنْثَى العَقْلِ والحَسَبِ)

....

(فَلَيْتَ طَالِعَةَ الشَّمْسَين غَائِبَةٌ ، ولَيْتَ غَائِبَةَ الشَّمْسَيْنِ لَمْ تَغِبِ)
(وَلَيْتَ عَيْنَ الّتى آبَ النَّهارُ بِهَا فِدَاءُ عَيْنِ الَّتِى زالتْ وَلَمْ تَؤُبِ) (٣)

....

(وَلاَ ذَكَرْتُ جميلاً مِنْ صَنائِعها إلاَّ بَكَيْتُ ، ولا وُدٌّ بِلاَ سَبَبِ)
(قَدْ كانَ كُلُّ حِجابٍ دُون رُؤْيَتِها ، فمَا قَنِعْتِ لَها يَا أَرْضُ بالحُجُبِ !)
(ولاَ رَأَيْتِ عُيونَ الإنْسِ تُدْرِكُهَا ، فَهَلْ حَسَدْتِ عَليها أَعْيُنَ الشُّهُبِ ؟)
(وَهَلْ سَمِعْتِ سَلاماً لِى أَلَمَّ بها ؟ فَقَدْ أَطَلْتُ ، وما سَلَّمْتُ من كَثَبِ) (٤)
(وَكَيْفَ يَبلُغُ مَوتانا الّتى دُفِنَتْ ، و يُقَصِّرُ عَنْ أحيائِنَا الغُيُبِ ؟)

....

(قَدْ كانَ قَاسَمكَ الشَّخصَينِ دَهْرُهما ، وَعَاش دُرُّهما المَفْدِىُّ بالذَّهَبِ)

---

(١) « النَّشَب » ، ما يملكه الإنسان من مالٍ وعقارٍ وغيرهما .

(٢) « الشنب » ، رقة فى أطراف الأسنان ، وصفاؤها ونقاؤها وبريقها .

(٣) « آبَ يؤوب » ، رجع .

(٤) « من كثب » ، من قرب .

٢٣٣ / (وَعَادَ فى طَلَبِ المَتْرُوكِ تَارِكُهُ ، إنّا لَنَغْفُلُ ، والأيامُ فى الطَّلَبِ)
مَا كان أَقْصَرَ وقتاً كانَ بَيْنَهُمَا ! كأنَّهُ الوَقْتُ بَيْنَ الْوِرْدِ والقَرَبِ [1]

ولست تخطىءُ فيما نرى ، ما تضمَّنته هذه الأبيات من القصيدة من العاطفة التى عطفته على هذه التى يرثيها ، وما يتوهَّج فى ألفاظها من نيران قلبه . ولستَ تخطىءُ أنين الرجل وحنينه وبكاءَه . ولا بدَّ لنا هنا من بعض القول فى أبيات منها نشرح به أمر أبى الطيب على وجهه .

***

قد ذكرنا قبلُ أن الانتقال من معنى إلى معنى فى شعر أبى الطيب ، هو الموضع الذى ينبغى لنَا الوقوف عنده وتمييزُه والتبصُّر فى أَوائله وأواخِره ، إذ كان الانتقال فى شعره هو الذى يُعينك على الكشف عن أسرار قلبه ونفسه وحياته . [2] فإذا شئت الآن فانظر إلى انتقاله من قوله فى مخاطبة الموت : « وكم صَحِبْتَ أخاها فى منازلةٍ ! » إلى ذكر ما أفزعه وكربه ، وهزَّ نفسه وحزَّ فيها إذ يقول :

« طَوَى الجزيرةَ حَتَّى جَاءَنى خَبَرٌ فَزِعْتُ فِيهِ بِآمَالِى إِلَى الكَذِبِ »
« حَتَّى إذَا لَم يَدَعْ لِى صِدْقُهُ أَمَلاً شرِقْتُ بالدَّمْعِ حَتَّى كادَ يَشْرَقُ بى »

والرأى عندنا أن هذين البيتين هما أول ما قاله أبو الطيب من القصيدة حين بلغه خبرُ موت خولة وهو بالكوفة ، [2] ففزع قلبه ، واضطرب أمره ، وانتشرت عليه عواطفه ، ففى البيتين أَثَرُ قلبه الفزع المضطرب ، وعليها وَسْمٌ من لَوْعته وحُرْقته .

---

(١) « الورد » غشيان الإبل الماء للشرب ، و « القرب » سيرها ليلاً لورد الماء .

(٢) انظر مثل هذا ، فى شأن الأبيات التى يقولها الشاعر حين يفاجئه شئٌ ، ثم يضمّنها بعدُ فى خلال قصيدته ، ص : ٣١١ ، والتعليق رقم : ١ ، ثم ص : ٣١٢ – ٣١٥ ، ثم ص : ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ثم ص : ٣٥٣ .

وقد غلب أبا الطيب بَيَانُهُ فى هذين البيتين ، فصرَّح فيهما بكل ما يضمر / لخولة ٢٣٤
من الحبِّ . انظر كيف جعل الخبر يَطْوِى الجزيرة كلّها يقْصدُهُ وحدهُ دون غيره ، وقد
خَصَّص ذلك بقوله « حتى جاءنى » ، وفى هذا من غلبة الحبِّ على قلب أبى الطيب
ما جعلهُ يرى أن هذا الخبر بموتها = الذى سمعه وهو بالعراق ، وكان قد علمهُ الناس
ولا شك = لم يقطع أرضَ الجزيرة إلاّ ليبلغهُ هو ، والحبُّ دائماً يخصُّ ويضيِّق بمثل ذلك ،
ولا يرى فيه الشَّركَةَ ، ولو تساوَى الناسُ جميعاً فى المشاركة فيه أو العلم به . ثم إن أبا
الطيب نَسَب الفزَع الذى لحقَه إلى آمالِه ، إذ كانت آماله كلها فى الحياة بعد حبِّه لخولة
متعلّقةً بها وبحياته ، فلما جاءَه الخبر بموتها فزعتْ آمالهُ هذه أملاً أَمَلاً إلى الشكّ فى الأمر
الواقع ، وإلى طلب الحيلة فى رَدِّه وتكذيبه ، عسى أن تجد لها مُتَعَلَّقاً تستمسك به . فلما
أخفقت الآمال أملاً أَمَلاً ، وقطَّعَهَا الخبر الذى سمعه بالصدق واليقين ، سقطت نفسُ
الرجل ولم تستمسك على رجولتها وقوّتها ، وغَرِقتْ فى دمعها حتى شَرِقَت به . وهذه حالة
فى الحبّ القوىِّ العنيف الذى يستولى على القلب ، ولا يجعل للحياة بآمالها معنىً إذا فقد
من يحبُّ ، أو ساءَه من أمره ما يسوءه . فهذا من أبى الطيب دليلٌ على أن كلامه هذا
ليس كلام شاعرٍ يرثى أخت صديقه وأميره ، وإنما هو كلامُ قَلْبٍ محبٍّ مفجوع قد
تقطعت آماله من الدنيا بموت حبيب قد فجعته المنيَّةُ فيه .

ومثلُ ذلك فى الدلالة على ما أَصاب قلب أبى الطيب من الفجيعة التى تخصُّه
بموت « خولة » ، قوله :

« أرَى العِراقَ طَوِيلَ اللَّيْلِ مُذْ نُعِيتْ ، فكيفَ لَيْلُ فَتَى الفِتْيَانِ فِى حَلَبِ ؟ »
« يَظُنُّ أَنَّ فُؤَادِى غَيْرُ مُلْتَهِبٍ ، وأَنَّ دَمْعَ جُفُونِى غيْرُ مُنْسَكِبِ »

/ فليس يطول الليل على شاعر من أجل أخت أميره ، وإنما يطول عليه من أجل ٢٣٥
حبيبته التى فاتَهُ بها الموت . ثم زاد أبو الطيب فى الدلالة بقوله : إن سيف الدولة يظن أن
فؤاده غير ملتهبٍ ، وأن دمعه غير منسكب ، وما لسيف الدولة ولهذا ؟ أيحبُّ سيف

الدولة أن يلتهب قلبُه وينسكب دمعه من أجل أخته ، أو يسوءه إذا لم يكن ذلك كذلك ؟

هذا ، ولا نشكُّ نحن = من قِبَل ما جمعناه عندنا من الدلائل فى هذا الأمر المتعلِّق بحب أبى الطيب و « خولة » أخت سيف الدولة = فى أن سيف الدولة كان على علم بما كان بينهما من المحبة الغالبة على أمرهما ، وأنه كان قد وعد أبا الطيب عِدَةً لم يَفِ له بها فى أن يزوِّجه أخته هذه ، وكان ذلك سرًّا بينهما ، اتّصل بعضُ خبره بأبى فراسٍ الحمدانىّ ، فكان سبباً فى العداوة الباغية بين الرجلين . ولولا علم سيف الدولة بذلك لما استباح أبو الطيب لنفسه أن يكتب هذه القصيدة إلى سيف الدولة ، على كثرة الإشارات فيها إلى أمرِه وأمر « خولة » والحب الذى بينهما .

ومن الشواهِد غير ما ذكرناه مما يدلُّ على الحب الذى بينهما دلالةً واضحةً لا تخفى على مثل سيف الدولة ، قوله :

« وَمَنْ مَضَتْ غيرَ موروثٍ خَلائِقُها ، وَإنْ مَضتْ يَدُها مَوْرُوثَةَ النَّشَبِ » .

الأبيات الثلاثة ، فقد ذكر أبو الطيب أخلاق « خولة » ، ثم ذكر ما كانت عليه من علوّ النفس والهمة منذ نشأتها ، ثم ذكر ثَغْرَها ابتسامتها ، وهذه كافية فى الدلالة على معرفته « خولة » معرفةً صحيحة عن خبرة ولقاءٍ . وأيضاً قوله :

٢٣٦ / « ولاَ ذَكرْتُ جَمِيلاً من صَنَائعها إلاّ بكيتُ ولاَ وُدٌّ بِلاَ سَبَبِ »

وهذا دليلٌ على ما كانت تُسْبغ عليه « خولةُ » من صنائعها وفواضلها مما يستجلب له البكاءَ حين يذكرها ، وما نظنُّ أن صنائع « خولةَ » عنده كانت مِعْشَار صنائع سيف الدولة ، ولكن حُبُّ أبى الطيب هو الذى جعل صنائعها من قلبه بهذه المنزلة . ثم تدبر قوله : « وَلا وُدٌّ بلا سَبَبِ » ، وفى رواية أخرى « بلا ودٍّ ولا سبب » ، وكأن هذه الرواية الثانية يراد بها نَفْىُ أمرٍ بعينه ، كان الوشاة يكثرون القولَ فيه عند سيف الدولة مع علمه بالأمر الذى بينهما ، من أن صنائع « خَوْلة » التى كانت تتَّخِذها عند أبى

الطيب لم تكن من أجل هذا الوُدّ ، وإنما كانت من كرم نفسها وطيب عُنْصُرها . ويكون المقصود بهذه الرواية غَيْرُ سيف الدولة ، ممن كان يتزيَّد فى القول ويتكذّب عليه بما هو منه بَرَاءٌ ، ولينفِىَ التُّهَم بذلك عن هذه التى كان يحبُّها ويمنحها قلبه .

وإذا شئت الزّيادة فاقرأ قولَهُ :

فليتَ طالعةَ الشمسين غَائبةٌ ....

وتدبر البيتين وما فيهما من العاطفة .... وآقرأ :

وهَلْ سَمِعْتَ سلاماً لى ألمَّ بها ....

ثم انظر إلى هذا الالتفات إلى الماضى الذى جعلناه من المذهب فى الكشف عن أسرار أبى الطيب ، إذْ ذكر ما كان منه حين رَثَى أخت سيف الدولة الصغرى – من ذكر « خولة » هذه ، وذلك إذ يقول ، [ص : ٣٣٦] :

« قَاسَمتْك المنونُ شَخْصَيْنِ جَوْراً .... »

/ فعاد يقول فى هذه : ٢٣٧

« قَدْ كان قَاسَمكِ الشَّخْصَينِ دَهْرُهُما ، وعاشَ دُرُّهما المَفْدِىُّ بالذَّهَبِ »
« وَعاد فِى طَلَبِ المتروكِ تَارِكُهُ ، إنَّا لَنَغْفُلُ والأَيام فى الطَّلَبِ »

وتدبر الصّلة بين هذا وذاك ، والحسرة المتميزة فى قوله : « إنا لنغفُل .... » ، و « ما كانَ أقصرَ وقتاً كان بينهما » .

* * *

وندع هذا الآن ، ونتنقّل بك فى مواضع من الديوان على غير ترتيبٍ ، لِترى أثر هذا الحبِّ فى شعر أبى الطيب وفى حياته ، ومأأصابه وهو فى ظلّ سيف الدولة من جرَّاء هذا الحبّ . وكان حق هذا الموضع من هذا الباب أن نَتتَبّع لك حياة أبى الطيب سنةً سنةً ،

ونكشف لك عن تدرُّج هذا الحبّ فى شعره وقصائده حتى تنتهى إلى الغاية ولكن ....

وقف المتنبى فى مجلس سيف الدولة يُنْشده قصيدته التى أولها :

وَاحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّن قَلْبُهُ شَبِمُ وَمَنْ بِجسْمِى وحَالى عِنْدَهُ سَقَمُ (١)

وقد زعموا أن سبب هذه القصيدة كان على ما قالوا .... : « جرى له خطاب مع قوم متشاعرين ، وظنَّ الحَيْف عليه والتحامل » ، إلى غير ذلك . وقد أتى المتنبى فى هذه القصيدة بكل عجيبة من القول فى الكبرياء والحب لسيف الدولة والوعيد له ، كقوله :

سَيَعْلَمُ الجَمْعُ ممَّنْ ضَمَّ مَجْلِسُنا بأنَّنِى خَيْرُ مَنْ تَسْعَى بِهِ قَدَم

....

٢٣٨ / كَمْ تَطْلُبونَ لَنا عَيْباً فَيُعْجِزُ كُمْ ، ويَكْرَهُ اللهُ مَا تَأْتُونَ والكَرَمُ

وقوله فى حُبِّ سيف الدولة :

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أن نُفارِقَهُم ، وُجْدَانُنَا كُلَّ شَىْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ

وقوله فى إنذاره :

لَئِن تَرَكْنَ ضُمَيْراً عن مَيامِنِنَا لَيَحْدُثَنَّ لِمَنْ وَدَّعْتُهِمْ نَدَمُ (٢)

إذَا تَرَحَّلْتَ عن قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا أَنْ لاَ تُفَارِقَهُمْ ، فالرَّاحلونَ هُمُ

قالوا : فلما انصرف أبو الطيب من مجلس سيف الدولة ، وقف له رَجَّالةٌ فى طريقه ليغتالوه ، فلما رآهم أبو الطيب ورأى السلاح تحت ثيابهم ، سلَّ سيفه وجاءهم حتى اخترقهم فلم يُقْدِموا عليه . ونُمِىَ ذلك إلى أبى العشائر ، فأرسل عشرة من خاصَّته فوقفوا بباب سيف الدولة ، وجاء رسوله إلى أبى الطيب ، فسار إليهم حتى قَرُب منهم ، فضرب

---

(١) « الشبم » ، الماء البارد ، ويعنى قلب الغافل الذى لا يجد ما يجده أبو الطيب من الحرارة فى قلبه .

(٢) « ضمير » ، يقال هو جبل أو حصن قريب من دمشق ، يكون على يمين القاصد مصر خارجاً من دمشق . يشير إلى نيته أن يرحل إلى مصر .

أحدهم يدَه إلى عِنَان فرسه ، فسَلَّ أبو الطيب سيفَهُ ، فوثب الرجل أمامه ، وتقدَّمَتْ فرسُه الخيلَ ، وعبرت قَنْطرةً كانت بين يديه ، واجترَّهم إلى الصحراء ، فأصاب أحَدُهم نَحْرَ فرسه بسهمٍ ، فانتزع أبو الطيب السهمَ ورمَى به ، واستقلَّت الفرس ، وتباعد بهم ليقطعهم عن مدَدٍ كان لهم ، ثم كرَّ عليهم ، بعد أن فَنِيَ النُّشّاب .... فلما يَئسوا منه ، قال له أحدهم فى آخر الليلة : نحن غِلْمَانُ أبى العشائر ! فقال قصيدته التى مضت : « ومُنْتَسِبٍ عندى إلى مَنْ أحِبُّه » ، [1] ثم عاد أبو الطيب إلى المدينة / مستخفياً ، فأقام ٢٣٩ عند صديق له والمراسلة بينه وبين سيف الدولة ، وسيف الدولة ينكر أن يكون قد فعل به ذلك أو أمر به .... وكان ذلك فى سنة ٣٤١ ، فلما رَضِى عنه سيفُ الدولة ، قال له قصيدةً أولها :

أجَابَ دَمْعِى وما الدَّاعى سِوَى طَلَلِ ... دَعَا فَلبَّاهُ قَبْلَ الرَّكْبِ وَالإِبِلِ
ظَلِلْتُ بَيْنَ أُصَيْحَابِى أكَفْكِفُهُ ... وظَلَّ يَسْفَحُ بين العُذْرِ والعَذَلِ
أَشْكو النَّوَى ، وَلَهُم مِن عَبْرَتِى عَجَبٌ ، ... كذاك كُنْتُ ، وما أشكُو سِوَى الكِلَلِ

ثم انتقل من هذا المعنى إلى معنى غيره فقال :

وَمَا صَبَابةُ مُشْتَاقٍ على أَمَلٍ ... من اللقاء ، كمشْتَاقٍ بِلاَ أَمَلِ

وكأنه بهذا الانتقال يهوِّن على سيف الدولة الأمْرَ ، ويذكر له أن هذا الحبَّ الذى بينه وبين « خولة » كائن على غير أملٍ ، وأنه لا يطمع فى أن يظفر بإدراك أمله من زواجها . ثم يدلِّلُ على ذلك بما كان من الحادثة التى كاد يُقْتَلُ فيها ، والتى تولى أمرها أبو العشائر (وهو من قوم خَوْلَة) ، ويذكر لسيف الدولة أن أهل « خولة » لن يدعوه أن يكون بينه وبينها صلة كما بَلَّغه الوشاة ، فانتقل من معنى البيت إلى قوله :

---

(١) انظر ما سلف ص : ٣٠٩ ، وخبر هذه الحادثة هو من لفظ أبى الطيب ، كما رواها ابن جنى فى روايته ديوان أبى الطيب ، عن أبى الطيب ، (الديوان : ٣٢٧ ، ٣٢٨) .

« مَتَى تَزُرْ قَوْمَ مَنْ تَهْوَى زِيارَتَها   لاَ يُتْحِفُوكَ بِغَيْرِ البِيضِ والأَسَلِ » [١]

وهذه صفة ما لقى أبو الطيب فى ذلك اليوم الذى رويناه لك . فانظر إلى هذا الانتقال الذى يدلُّ دِلالة واضحة على ما فى ضمير الرجل ، وما كان من سبب تلك الحادثة التى كادت تُودِى بحياته ، ثم انظر الترفق فى قوله : « لا يُتْحِفُوك بغير البيض والأَسَل » ، وذلك لما بينه وبين أبى العشائر من / المودة والحب ، فهو يجعل أداة القتل (تُحْفَة) ، وقد قال لأبى العشائر فى هذه الحادثة نفسها أبياتاً تدل على حبِّه له ، وتقرِّب إليك بيان هذا المعنى ، وقد مضى ذكرها ، [٢] ويقول له فى آخرها :

٢٤٠

« فَإِنْ كانَ يَبْغِى قَتْلَهَا ، يَكُ قاتلاً   بِكَفَّيْهِ ، فَالقَتْلُ الشَّرِيفُ شَرِيفُ »

وفى تلك السنة نفسها ، سنة ٣٤١ ، يقول أبو الطيب ما نقلناه فى رأس هذا الباب :

« لِعَيْنَيْكِ ، مَا يَلْقَى الفُؤَادُ وما لَقِى   وَلِلحُبِّ ، مَا لَمْ يَبْقَ مِنِّى وما بَقِى »

فعلى ما نذهب إليه من شدة تأثير الحوادث فى أبى الطيب ونفسه ، واستخراجِه معانى شعره من تلك الحوادث ، وتهجّمِه دائماً على ذكر الحوادث القريبة ، تَجد فى هذه القصائد ما يشير إلى هذه الواقعة وما لقى فيها من الكيد .

والظاهر أنّ هذه الجفوة التى كانت فى سنة ٣٤١ ، ٱمْتَدَّتْ إلى أوائل سنة ٣٤٢ ، وكان من جَرَّائها أن انقطع أبو الطيب مُدَّة عن مدح سيف الدولة فاستبطأه وتنكَّرَ له ، فركب سَيفُ الدولة يوماً فى رِجاله ، وقَدِم عليه أبو الطيب راكباً مُهْرَه ، فلما سلَّم عليه ازورَّ عنه وأعرض ، فقال أبو الطيب :

أرَى ذَلِكَ القُرْبَ صَارَ آزْوِرَارَا   وصَار طَوِيلُ السَّلامِ آخْتِصَارَا

---

(١) « أتحفه » ، أهدى إليه طُرْفة تعجب المرسل إليه لغرابتها ، « التحفة » ، الطرفة الغريبة المحببة .

(٢) انظر ما سلف ص : ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

تَرَكْتَنِىَ اليَوْمَ فِى خَجْلَةٍ ، أَمُوت مِرَاراً وَأَحْيَا مِرَارَا
أُسَارِقُكَ اللَّحْظَ مُسْتَحْيِياً ، وَأزْجُرُ فى الخيل مُهْرِى سِرَارَا
وَأعْلَمُ أَنِّى إِذَا ما آعْتَذَرْتُ إِليكَ ، أَرَادَ آعْتِذَارِى آعْتِذَارَا
/ كَفَرْتُ مَكَارِمَكَ البَاهِرَا تِ ، إِنْ كَانَ ذَلك مِنِّى آخْتِيَارَا

٢٤١

ثم يذكر له العلّةَ فى ذلك الانقطاع عن مدحه فيقول ، [ثم انظر ص : ٣٥٤] :

(ولكنْ حَمَى الشِّعْرَ ، إلاَّ القليـ ـلَ ، همٌّ حَمَى النَّوْمَ إلاَّ غِرَارَا)
(وَمَا أَنَا أَسْقَمْتُ جِسْمِى بِهِ ، ولا أَنا أَضْرَمْتُ فِى القَلْبِ نارَا)
(فَلاَ تُلْزِمَنِّى ذُنُوبَ الزَّمانِ ، إِلَىَّ أَسَاءَ وَإِيَّاىَ ضَارَا)

وهذا الهمُّ الذى يُسْقِم الجسمَ ويُضْرِم ناراً فى القلب ، ولا يملك له الإنسان رَدًّا ، لا يكون إلاّ هذا الحبَّ العنيفَ الذى تتقطَّع دونه الآمال ، ولا يكون هذا الهمُّ إلاّ ذلك ، فإن أبا الطيب كان ممتَّعاً بكل شىء فى ظلّ سيف الدولة ، فقد كان صاحبَ إقطاع ومالٍ كثيرٍ قد أسبغه عليه سيف الدولة . ثم انظر ما فى قوله فى البيت الأخير ، من الجزع المشوبِ بالعِزَّة والترفُّع ، والرقَّة أيضاً .

* * *

وحسبُك هذا من شعره وهو فى جوار سيف الدولة ، ثم آنظر إلى أثر هذا الحب فى شعره بعد فراق سيف الدولة ، فإنه أدَلُّ وأبلغُ فى الكشف عن سرّ قلبه . ولا بأس فى أن نَسْرُدَ لك ذلك على ما وقع فى ترتيب ديوانه .

فمن آثار هذا الحب فى شعر أبى الطيب ، ما وقع فى القصيدة الأولى التى أنشدَها كافوراً فى جمادى الآخرة سنة ٣٤٦ ، حين قدم عليه بالفسطاط . وقد رأيتَ قبلُ أنّنا لم نتعرض لعاطفة أبى الطيب فى شعره إلى أن اتصل بسيف الدولة ، فإذا أنت عُدْتَ إلى شعره فى ذلك العهد الأول ، لم تجد فيه إلاَّ قسوةً وشدةً وعنفاً ليس لشعر ، وقلَّما لانَ

الرجل أو ترقَّق إلاّ متكلفاً للغزل . وكان قد فارق قبلَ سيف الدولة رجالاً أحبَّهم وصحبهم وبَاذَلهم مكنون صدرِهِ من / الودّ ، ولم يَظْهر فى شئ من شعره بعد فراقهم أثرٌ لهذا الفراق إلاّ قليلاً قليلاً . ولكنه حين فارق سيفَ الدولة ودخل مصر آختلف الأمر اختلافاً بيِّناً ، وظهرت فى شعره رِقَّةٌ لا عهد له بها ، ولا تكون العِلّةُ فى هذه الرِّقة التى ظهرت فيه بعد أن جاوز الأربعين ، واستحكم واستمرَّ مَرِيره ، واستوت طبيعته على طريقة من القوة والتشدد والاستمساك = لا تكون من أجل فراقه سيف الدولة وحَسْب ، فإن ذلك الفراق بين (الرجلين) لا يعمل فى تغيير الطبيعة المتأصّلة كل هذا العمل . وليس لشئٍ من العمل فى تغيير الطبائع وتبديلها مثلُ ما للحبِّ فى القدرة على ذلك . وكان أبو الطيب حين فارق سيف الدولة ، يتلَفَّتُ قلبه إلى تلك التى خَلَّفها من ورائه ، وخلَّف عندها قلبَهُ وعواطفَهُ ، فأثار ذلك فى قلبه ذكرى وآلاماً ، جعلت الدنيا تضيق بها نفسه وتضجَرُ منها .

فكان أوَّل ما لَقِى كافوراً لَقِيه بالبيت الذى عدَّه الأدباء والنُّقاد من سوءِ أدب المتنبى ومن جَفائه وغلظته . وليس الأمر على ذلك ، فإن الرجل لم يكن جافياً ولا غليظاً ولا سيئَ الأدب ، ولا ضعيفَ البيان ، ولكنه كان كما حدَّثناك مُرْهَفَ الحسّ ، تغلبه العاطفة على أمره فلا يملك لبيانه تصريفاً ، بل تُصَرِّف عاطفته هذا البيانَ كما شاءَت ، والعاطفةُ لا تعرف أميراً ولا كبيراً ، ولا تفرِّق بين لقاءِ الملوك ولقاءِ الصعاليك ، فلذلك رَمَى فى وجه كافور بهذا ، فى شهر جمادى الآخرة سنة ٣٤٦ ، [انظر ما سيأتى ص : ٣٦٢] :

كَفَى بِكَ دَاءً أن تَرَى المَوْتَ شافِيَا ... وحَسْبُ المنايَا أن يَكُنَّ أمانِيَا
تَمنَّيْتَها لمَّا تمنَّيْتَ أن تَرَى ... صَدِيقاً فأَعْيَا ، أو عَدُوًّا مُدَاجيَا

ثم يمضى أبو الطيب على طريقته حتى يرقّ رقّةً ، لو أنت قلَّبت ديوانه لم تجد لها شبيهاً ولا مَثيلاً ، وذلك قولُه فى خطاب قلبه ، ذلك القلب الذى حَطَّمَ فيه فراقُ « خولة » وهدَّ بنيان رُجولته وقُوَّته :

٢٤٣

/ حَبَبْتك قَلْبى ، قبْلَ حُبِّك مَن نَأَى ، (١) وقَدْ كان غَدَّاراً ، فكُنْ أنتَ وافِيَا)
(وأَعْلَمُ أن البيْن يُشكِيكَ بَعْدَهُ ، فَلسْتَ فؤَادى إنْ رَأَيْتُك شاكيَا)
(فإنَّ دُموعَ العَيْنِ غُدْرٌ بربِّها إذَا كُنَّ إثْرَ الغَادِرينَ جَوارِيَا)
إذَا الجُودُ لم يُرْزَقْ خَلاصاً مِنَ الأَذَى فلا الحَمْدُ مَكْسُوباً ولا المالُ بَاقيَا
وللنَّفْسِ أخلاقٌ تَدُلُّ على الفَتَى ، أكانَ سَخاءً مَا أَتَى أَمْ تَسَاخِيَا
(أَقِلَّ اشتياقاً أيُّها القَلْبُ ، رُبَّما رأَيْتكَ تُصْفِى الوُدَّ مَن ليس صَافِيَا)
(خُلِقْتُ أَلُوفاً ، لو رَجَعْتُ إلى الصِّبَا لَفارقْتُ شَيْبِى مُوجَعَ القَلْبِ باكيَا)

أيُّ رِقَّة ، وأيُّ توجُّع ، وأيُّ جمال !!

فاقرأ الآنَ الأبياتَ وتدبَّرها ، وأنظر فى خطابه قلبه – على غير عادته – خطاباً رقيقاً متنهداً ذا زَفَرات ، وانظر اضطراب أمره بين قلبه وفكره ، وبين عاطفته ورُجولته ، يقول لقلبه : « لستَ فؤادى إن رأيتك شاكياً » ، ثم يعود فيقول : « خُلِقْتُ أَلُوفاً ... » فليس فى الأبيات حبُّه لسيف الدولة وحسب ، بل فيه نَفَحات من لوعة الحبِّ الذى يستولى على القلب : حُبِّ المرأة التى يهجرها الرجل وهو يعلم يقيناً أنه لا يهجُرها ، وإنما يُهاجِر قلبه الذى بين جنبيه ويعانده ويُرَاغمه .

هذا ، وقد ظهر نفسُ هذا الأثر فى كثير من شعر المتنبى ، وهو فى جوار كافور ، بعد فراقه سيفَ الدولة . ظهر فى حكمته ظهوراً بيِّناً ، وذلك كقوله ، وذلك فى رمضان سنة ٣٤٦ :

لَيْتَ الحَوادِثَ بَاعَتْنِى الَّذى أَخَذَتْ مِنِّى ، بِحِلْمِى الَّذى أَعْطَتْ وتَجرِيبى
فَمَا الحداثَةُ مِنْ حِلْمٍ بمَانِعَةٍ ، قدْ يُوجَدُ الحلْمُ فى الشُّبَّانِ والشِّيبِ

---

(١) يريد بهذه الكناية (سيف الدولة) .

٢٤٤ / وهذا القول ليس من مذهب المتنبى فى كلامه الأوّل إلى فراقه سيف الدولة . ومِثْلُ ذلك قوله ، فى ذى الحجة سنة ٣٤٦ :

أَوَدُّ مِنَ الأَيَّـــامِ ما لاَ تَوَدُّهُ وَأَشْكو إليها (بَيْننا) وَهْىَ جُنْدُهُ
(يُبَاعِدْنَ حِبًّا يَجْتَمِعْنَ وَوَصْلُهُ ، فكَيْفَ بِحِبٍّ يَجْتَمِعْنَ وَصَدُّهُ !؟)
(أَبَى خُلُقُ الدُّنْيَا حَبِيباً تُدِيمُهُ ، فَمَا طَلَبِى مِنها حَبِيباً تَرُدُّهُ)

ثم تلَفَّتَ المتنبى إلى ما كان من فِراقه « خولة » وَمُهاجَرَتِها مراغِماً لقلبه ، متكلِّفاً الصبر والجلد ، فقال فى عَقِب ذلك :

(وأَسْرَعُ مَفْعُولٍ فَعَلْتَ تغيُّراً تَكَلُّفُ شَىْءٍ فِى طِبَاعِكَ ضِدُّهُ)

وكان أبو الطيب يظنُّ أن فى الفراق ما يُنسيه « خولة » ويمحو من قلبه آثارها . وقد فارق ، وعلم أن ذلك لن يكون ، وأنَّ ما كان من اندفاعه ومُرَاغَمَته عند أوّل الفِراق ، إنما كان أمراً يخالف طبيعةَ حبِّه التى وصفها فى شعره قبلُ وهو عند سيف الدولة بقوله :

إلاَمَ طَمَاعِيَـــةُ العَـــاذِلِ وَلاَ رَأْىَ فى الحُبِّ للعَاقِلِ
(يُرادُ مِنَ القَلْبِ نِسْيَانُكُمْ ، وَتأْبَى الطِّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ)

هذا .... وإذا أنت أخذت فى دراسة شعره فى المدح والحكمة فى هذه الفترة ، وجدت آثارَ هذا الحبّ الذى انقطعت منه آمال اللقاء والنظر والابتسامة والتلطُّف ، وما رُمِى فى قلب أبى الطيب من الكَمَد والحسرة والأَسَفِ والحنين ، فأصبح كلامُه وبيانُه ٢٤٥ من تلك العواطف اليائسة التى انطوى / عليها قلبُه ، وآضطرب بها ضميرُه وفكرُه ، [١] وبذلك تميَّز شعره فى هذا العَهْد ، من شعره فيما سبقه ، وتباين عنه تَبايُناً عظيماً .

---

(١) سيكون بيان ذلك تفصيلاً فى بيت بيت وقصيدة قصيدة فى موضعه من كتابنا عن أبى الطيب ، ونعتذر عن ذلك هنا ، لما نرى من تشعب الموضوع وسعته ، وما يقتضى من الوقت .

ويقول أبو الطيب يذكر فِرَاقَه سيفَ الدولة ومَقْدَمَه على كافور ، وذلك فى شهر ربيع الآخر سنة ٣٤٧ :

فِرَاقٌ ... ، وَمَن فَارَقْتُ غَيْرُ مُذَمَّمِ وَأَمٌّ ... ، وَمَنْ يَمَّمْتُ خَيْرُ مُيَمَّمِ
وَمَا مَنْزِلُ اللذَّاتِ عِنْدِى بِمَنْزِلٍ إذا لَمْ أُبَجَّلْ عِنْدَهُ وأُكَرَّمِ
سَجِيَّةُ نَفْسٍ لا تَزال مُلِيحَةً مِنَ الضَّيْمِ ، مَرْمِيًّا بها كُلُّ مَخْرَمِ[1]
(رَحَلْتُ .... فكم بَاكٍ بأَجفانِ شَادِنٍ عليَّ !! وَكَمْ باكٍ بأَجْفَانِ ضَيْغَمِ !!)[2]
(وَمَا رَبَّةُ القُرْطِ المَلِيحِ مكانُهُ ، بأَجْزَعَ من رَبِّ الحُسَامِ المُصَمِّمِ)
(فلوْ كَانَ مَا بِى مِنْ حَبِيبٍ مُقَنَّعٍ عَذَرْتُ ، ولكِنْ من حَبِيبٍ مُعَمَّمِ)
(رَمَى ، وَٱتَّقَى رَمْيِى ، ومِنْ دُونِ مَا ٱتَّقَى ، هَوًى كاسِرٌ كَفِّى ، وقَوْسِى ، وَأَسْهُمِى)

فهو بالبيت الأول قد عيَّن من أراد بهذه القصيدة . فالذى فارقه هو سيف الدولة ، والذى قصدَهُ ويمَّمه هو كافور ، وعلى ذلك اتفق الشراح جميعاً ، فلما أتى البيتُ الرابع قال : « رحلتُ » ، يعنى رِحْلته عن حلب ، ثم ذكر بعده ما كان من جرَّاءِ هذا الفراق ، وأبان عن الذى كان سبباً فيه ، وقابل فى ذلك بين اثنين : رجل وامرأة . فذكر باكية تبكى على فراقه بعينى غزال ، وباكياً يبكى بعينى أسد ، وجازعةً لفراقه زينتها قُرْطُها الذى فى أذنها ، وجازعاً زينته حسامه . وقد اتفق الشراح أيضاً = ولا شك فيما قصده / أبو الطيب = على أنه قصد سيف الدولة بقوله « ضَيْغم » ، وقوله : « رَبِّ الحسام المصمِّم » . والمقابلة بين سيف الدولة وهذه المرأة دليل على صلتها بسيف الدولة وبأبى الطيب ، ومعرفة سيف الدولة بهذه الصلة ، ولا نشك بعدَ ما رأيت أنه عنى بالباكيةِ الجازعةِ لفراقه « خولةَ » أختَ سيف الدولة ، ثم قال بعد : « فلو كان ما بى من حبيب مُقَنَّع عذرتُ »

٢٤٦

(١) « المخرم » ، من مخارم الجبال ، وهو الطريق المفضى إلى أفواه الفجاج .

(٢) الشادن : ولد الغزال ، يريد به المرأة الغريرة الحسناء ، والضيغم : الأسد .

وصبرت على ما يصيبنى منه لحبى إياه ، والأذى من المرأة المحبوبة ينزل من قلب المحب منزلة الرضا ، فهو لا يحمل على فراقٍ ولا بَيْنٍ ، ولكن الذى حملنى على الفراق كَوْنُ هذا الأذى إنما أصابنى « من حبيب مُعَمَّم » ، هو سيف الدولة . ثم صرح فى البيت الأخير مبيناً عن هواه فقال : إن سيف الدولة رماه بسهمه (يريد الأذى الذى أصابه منه) ، واتقى بدرعه أن يرميه أبو الطيب بسَهْمٍ مثله ، وهذا الاتقاء من سيف الدولة عَمَلٌ لا محلّ له ، إذ كان يعلم يقيناً أن أبا الطيب لن يرميه جزاءً له كما رماه ، لما فى قلبه من حُبِّ « خولة » أخته وهواها الذى يحبس يده ، ويكسر كفَّه ، ويحطم قَوْسَه ، ويَدُقّ سهامه .

هذا .... وقد رووا أن أبا الطيب اتّصل به وهو بمصر أنَّ قوماً نَعَوْهُ فى مجلس سيف الدولة بحلَب ، فقال قصيدة يذكر ذلك ولم ينشدها كافوراً ، وكان مما جاء فى أولها قوله : [قالها فى أول سنة ٣٤٨ ، فيما أرجح] .

بِمَ التعلُّلُ .... ؟! لاَ أَهْلٌ ولا وَطَنُ ، ولا نَدِيمٌ ، ولا كَأسٌ ، ولا سَكَنُ
أُرِيدُ مِنْ زَمَنِى ذَا أَنْ يُبَلِّغَنِى ما لَيْسَ يَبْلُغُهُ مِنْ نَفْسِهِ الزَّمَنُ !!
لاَ تَلْقَ دَهْرَكَ إلاَّ غيرَ مُكْتَرِثٍ مادَام يَصْحَبُ فِيهِ رُوحَكَ البَدَنُ
فَمَا يُدِيمُ سُرورٌ مَا سُرِرْتَ به ، ولا يَرُدُّ عَلَيْكَ الفَائِتَ الحَزَنُ
/ (مِمَّا أَضَرَّ (بأَهْلِ العِشْقِ) أَنَّهُمُ هَوُوا وما عَرَفُوا الدُّنيا ، ولاَ فَطِنُوا)
(تَفْنَى عُيُونُهُم دَمْعاً ، وأَنْفُسُهُمْ فى إِثْرِ كُلِّ قَبِيحٍ وَجْهُهُ حَسَنُ)
تَحَمَّلُوا .... حَمَلَتْكُمْ كُلُّ ناجِيةٍ ، فكلُّ بَيْنٍ عَلَىَّ اليَوْمَ مُؤْتَمَنُ
(مَا فِى هَوَادِجِكُمْ مِنْ مُهْجَتِى عِوَضٌ إنْ مِتُّ شَوقاً ، ولا فِيهَا لَهَا ثَمَنُ)
يَا مَنْ نُعِيتُ على بُعْدٍ بمَجْلِسِهِ ، كُلٌّ بما زَعَمَ النَّاعُونَ مُرْتَهَنُ
كَم قَدْ قُتِلْتُ ، وكَمْ قَدْ مِتُّ عِنْدَكُمْ !! ثُمَّ آنتفَضْتُ فزَال القَبْرُ والكَفَنُ

٢٤٧

وفى هذه الأبيات عندنا قول كثير نوجزه ونمدُّ منه أطرافاً نتفادَى بها الإطالة .... ، ففى الأبيات الأولى تأخذ عينك أَثَر الأحزان التى كانت فى قلب الرجل متمثلة مصورةً فى شعره . وتدبّر عبارتَه عن آلامه بقول : « بِمَ التعلُّل » .... !! وتأمَّلْ هذا السكون الذى

يَعْقُبُ استفهامه وتعجبه ، فهو بيانٌ فى غير لفظ ، ثم يعود إلى القول فيقول : « لا أهلٌ ، ولا وَطنٌ ، ولا نديمٌ ، ولا كأسٌ ، ولا سكنٌ » ، فقد كان بمصر وليس بها أحد يسكن إليه إلاّ ولده « محسِّد » ، وهو مهاجرٌ لا وطن له ، وهو بمصر غريبٌ لا صديق له ولا نديم ، وقد سَئِمت نفسه كل شيءٍ حتى الكأس من الخمر لا تسلِّيه ولا تحرّكه . ثم تَمَّم ذلك بلوعة قلبه ، إذ فقد سَكَنَهُ وحبيبه الذى يسكن إليه ويأوى . ثم مضى يتنقل فى المعنى حتى انتقل من تجلُّده تارةً ، ومن أحزانه أخرى ، إلى الداءِ الذى يَسُلُّ قلبه ويُسْقِمُه ، فقال منتقلاً على عَادته التى بيَّناها قبلُ ، [ما سلف ص : ٣٤٠ تعليق : ٢] .

مِمَّا أَضَرَّ (بأَهْلِ العِشْقِ) أَنَّهُمُ هَوُوا ، وما عَرَفوا الدُّنيا ، ولا فَطَنُوا

وهو بيان عن نفسه وما يحزُّ فيها من آلام « خولة » ، وما لقيه بعدها من الاضطراب بين رجولته التى تأبى أن تخضع أو تضعف ، وبين عواطفه التى / تأْبَى إلاّ أن تخشع لخولةَ ، وتتعبد بذكرها وهواها وآلام حبها . وكان من جَرَّاء هذا الاضطراب أن أنكر (الرجل) قلبه ، وقسا عليه وتعنّف به ، وذمَّ له هذه التى قد تولّه بها ، وهى التى أضَرَّتْ به وأشْقَتْه وعذَّبته ، سَفهاً وجهلاً منه ، إذْ أراد ما لا يكون ، وما لا تأتى به الأقدار ، ولا ترضى به التقاليد الاجتماعية فى هذه الدنيا ، كما ذكر فى البيت الماضى ، فقال فى عقب ذلك معانداً ومراغماً لما فى قلبه : ٢٤٨

« تَفْنَى عُيونُهُمُ دَمْعاً ، وأَنْفُسُهُمْ فى إِثْرِ كُلِّ قَبِيحٍ وَجْهُهُ حَسَنُ »

يرحمك الله يا أبا الطيب .... ثم انطلق يعاند قلبه ، ويذمُّ له « خولة » ، ولا ذنب لها إلاَّ ما تَكَلَّفه هو بالفراق وبإرادةِ نسيانها ، « وتأبى الطِّباعُ على الناقل » أن يكون ذلك . ثم انظر خطابَهُ بَعدُ لسيف الدولة بقوله :

يا مَنْ نُعِيتُ ، على بُعْدٍ ، بمَجْلسه ، كُلٌّ بما زَعَمَ النَّاعُونَ مُرْتَهَنُ

فوربّك إنى لإخالُ أبا الطيب قد قال هذا البيت وهو يبكى ، فإن فى الشطر الأخير عبراتٍ من دمعه لا تزال تجول فيه وتترقرق . فكلُّ ذلك آثارٌ بينةٌ على انتقال طبيعة

أبى الطيب من تكبُّرها وعتوِّها وتزمُّتها ، إلى حالة نفسية طارئة قد نفذَت فيه آلامُها وأهوالها ، فهو يعانى منها ما يعانى ، ويضطرب لها ويهتزُّ ويتلذَّعُ ، حتى كان شعرُهُ بعد فراق سيف الدولة كثيرَ الشكوى ، مُخالَطاً بالحزن والحسرة والألم ، وقد تنبه إلى ذلك أبو الطيب نفسه ، فقال فى قصيدة من مدائحه لكافور ، فى شوال سنة ٣٤٧ :

(لَحَى اللهُ ذِى الدُّنيا مُنَاخاً لرَاكِبٍ ! فكُلُّ بَعِيدِ الهمِّ فِيهَا مُعَذَّبُ
/ (ألاَ لَيْتَ شِعْرِى ، هَلْ أقُولُ قصيدةً فَلاَ أشتكى فِيهَا وَلاَ أتَعَتَّبُ ؟!) ٢٤٩
وَبِى مَا يَذُودُ الشِّعْرَ عَنِّى أقلُّهُ ، وَلكنَّ قَلْبى ، (يا آبنَةَ القوم) ، قُلَّبُ

وهذا الذى به مما يذود عنه الشعر ويمنعه من أن يقوله ، هو الذى ذكره أوَّلاً فيما تقدم ، [ص : ٣٤٧] :

وَلكِنْ حَمَى الشِّعْرَ ، إلاَّ القَلِيلَ ، هَمٌّ حَمَـى النَّـوْمَ إلاَّ غِرارَا
وَمَا أَنَا أَسْقَمْتُ جِسْمِى بِه ، ولاَ أَنَا أضْرَمْتُ فى القَلْبِ نارَا

وهو حب « خولة » الذى ملأ قلبَ الرجل وأخذه وتفرَّد به دون فكره وإرادته .

.... فلما ماتت « خولة » رحمها الله فى سنة ٣٥٢ بعد خروجه من مصر ، تغيَّرت طبيعة أبى الطيب واسودَّت الدنيا فى عَينه ، وامتلأ قلبُهُ حُزناً ، وتقطَّعت نَفسُه عليها حسراتٍ ، فكان شِعْرُهُ بعدُ من هذه المادَّة ، وأوَّل ذلك ما كان من شعره فى القصيدة التى رَثَاها بها ، إذ يقول لسيف الدولة :

فَلاَ تَنَلْكَ اللَّيَالى !! إنَّ أَيْدِيَهَا إذَا ضَرَبْنَ كَسَرْنَ النَّبْعَ بالغَرَبِ (١)
وَلاَ يُعِنَّ عدوًّا أنْتَ قاهِرُهُ ، فإنهنَّ يَصِدْنَ الصَّقْرَ بالخَرَبِ (٢)
(وإن سَرَرْنَ بمَحْبُوبٍ فَجَعْنَ بِهِ ، وقد أتَيْنَكَ فى الحالَينِ بِالعَجَبِ)

---

(١) « النبع » ، شجر صلب تصنع منه القسى . و « الغرب » ، شجر ضعيف العيدان .

(٢) و « الخرب » ، طائر لا يصيد ، وهو ذكر الحبارى .

(وَرُبَّمَا ٱحْتَسَبَ الإنسانُ غَايَتَهَا ، وَفَاجَأَتْهُ بِأَمْرٍ غَيْرِ مُحْتَسَبِ)
وَمَا قَضَى أحدٌ مِنْهَا لُبَانَتَهُ وَلاَ ٱنْتَهَى أَرَبٌ إلاَّ إلى أَرَبِ [1]
/ تَخَالَفَ النَاسُ حَتَّى لاَ ٱتِّفَاقَ لَهُمْ إلاَّ عَلَى شَجَبٍ ، والخُلْفُ فى الشَّجَبِ [2] ٢٥٠
فَقِيلَ : تَخْلُصُ نَفْسُ المَرْءِ سَالمةً ، وقِيلَ : تَشْرَكُ جِسْمَ المَرْءِ فى العَطَبِ
وَمَنْ تَفَكَّرَ فِى الدُّنْيَا ومُهْجَتِه أَقَامَهُ الفِكْرُ بَيْنَ العَجْزِ والتَّعَبِ

وأعِدْ قراءةَ الأبيات الثلاثة الأخيرة ، وتدبَّر نفس أبى الطيب فيها ، فهو يكادُ ينقطع ويسقط من العجز والتعب والفكر فى الذى أصابه بموت حبيبته « خولة » . فإذا أردت أن تعرف تمامَ حالة أبى الطيب هذه ، وامتدادَ فكره فيها ، فاقرأ قصيدته التى قالها حين توفِّيتَ عَمَّةُ عَضُد الدولة بن بُويه فى سنة ٣٥٤ ، قُبَيْلَ موت أبى الطيب بقليلٍ ، والتى يقول فيها :

نَحْنُ بَنُو المَوْتَى ، فَمَا بَالُنَا نَعَافُ ما لاَ بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ !!
....
لَوْ فَكَّرَ (العَاشِقِ) فى مُنْتَهَى حُسْنِ الَّذِى يَسْبِيهِ ، لَمْ يَسْبِه

وبقى كثيرٌ من الإشارات إلى هذا الذى فى قلبه ، طَوَيناه حتّى يأتىَ أجلُه ، والله المستعان .

* * *

(١) « اللُّبانة » ، الحاجة .

(٢) « الشجب » ، الهلاك ، يريد الموت .



— ١٤ —

****

يَا رَجَاءَ العُيُونِ فى كُلِّ أَرْضٍ
لَمْ يَكُنْ ، غيرَ أَنْ أَرَاكَ ، رَجَائى
وَلَقَدْ أَفْنَتِ المَفَاوِزُ خَيْلِى ،
قَبْلَ أَنْ نَلْتَقِى ، وزَادِى ، ومَائِى
فَآرْمِ بِى حَيْثُ شِئْتَ مِنِّى ، فَإِنِّى
أَسَدُ القَـلْبِ آدَمِىُّ الـرُّوَاءِ
وَفُؤَادِى مِنَ المُلوكِ ، وَإِنْ كَا
نَ لِسَانِى يُرَى مِنَ الشُّعَرَاءِ

****

٢٥١ / قد ذكر الرُّواةُ فى موضع القول من فراق أبى الطيب حضرةَ سيف الدولة أسباباً مُوجِبةً لهذا الفراق ، كالذى يروُون من أنه كان بحضرة سيف الدولة ، وفى المجلس أبو الطيّب اللغوى ، وابن خَالويه النحوى ، وجرت مسألة فى اللُّغة بين أبى الطيب اللغوى وابن خالويه ، فتكلم أبو الطيب المتنبى ، وضَعَّف قول آبن خالويه ، فأخرج آبن خالويه (من كُمِّه مفتاحاً من حديدٍ) يشير به إلى المتنبى ، فقال له المتنبى : وَيْحك ! اسكت ، فإنك أعجمىٌّ ، وأصْلك خُوزىٌّ ، فمالك والعربية ! فضرب ابن خالويه وَجْهَ المتنبى بذلك المفتاح ، فأسال دمه على وجهه وثيابه . فغضب المتنبى من ذلك ، ولا سيما إذْ لم ينتصرْ له سيف الدولة ، قولاً ولا فعلاً ، فكان ذلك أحدَ أسباب مفارقته لسيف الدولة .

٢٥٢ = وكالذى يروون من كَيْد أبى فراس له عند سيف الدولة بمثل قوله له : « إنَّ / هذا المتشدِّق (يعنى المتنبى) كثيرُ الإِدلال عليك ، وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد ، ويمكن أن تفرِّق مئتى دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره !! فتأثر سيفُ الدولة من هذا الكلام وعمل فيه » ، فأعرض عن أبى الطيب لذلك .

فهذه الروايات وغيرها ، كما حدثناك قبل ، [١] هى من الأحاديث التى تتناقلها مجالس الأدباء ، ولا يراد بها التحقيق ، ولا ينظر فيها إلى صدق الرواية وسياق التاريخ وما إلى ذلك ، ولكنا نستفيد منها على علاتها ، ونأخذ منها ونَدَعُ ، ولا نطيل القول هنا بنقدها وتجريحها ، فلذلك أجله وموضعه إن شاءَ الله .

والرأىُ عندنا أن فراق أبى الطيب لسيف الدولة مشكلةٌ معقَّدةٌ يطول تفسيرها وتِبْيَانها على وجه معقول لا يتناقض ولا يختلف . ومختصره أن هذا الفراق كان لأسباب قد اقتضاها حُبّ أبى الطيب « خولةَ » أختَ سيف الدولة ، وبقى أبو الطيب فى جوار صاحبه وحبيبته يتلذّع بآلام قلبه وفكره تسعة أعوام مُجَرَّمة ، وهو على عِدَة من سيف الدولة أن يحقِّق آمال فكره السياسية ، وأمانىَّ قلبه وعواطفه بزواج « خولة » ، ثم أدركه اليأس ، وظنّ أن فى الفراق راحةً له ونسياناً ، وهو ما أشار إليه فى قوله ، على ما فسرناه به : [٢]

« وأَسْرَعُ مَفْعُولٍ فَعَلْتَ تَغَيُّراً تَكَلُّفُ شىءٍ فى طِبَاعِكَ ضِدُّهُ »

٢٥٣ وقد حمله على ذلك ما كان يلقاه من الكيد والسعاية من قبل (قَوْمِ) / « خَوْلَةَ » كأبى فراسٍ وأبى العشائر وغيرهما ، وما فعلوه من تحريض الأدباء عليه ، كابن خالويه ، وإغراء الشعراء بغيظه ومنافسته والنيل منه حتى ضاق بهم ، فاستعدى عليهم سيف الدولة بمثل قوله له فى عيد الأضحى سنة ٣٤٢ :

أَزِلْ حَسَدَ الحُسَّاد عَنِّى بِكَبْتِهِمْ ، فَأَنْتَ الَّذى صَيَّرْتَهُم لِىَ حُسَّدَا
(إذَا شَدَّ زَنْدِى حُسْنُ رَأْيكَ فِيهِمُ ضَرَبْتُ بسَيْفٍ يَقْطَعُ الهَامَ مُغْمَدَا)
(وَمَا أَنَا إلاَّ سَمْهَرِىٌّ حَمَلْتَهُ ، فَزَيَّنَ مَعْرُوضاً ، ورَاعَ مُسَدَّدَا)

---

(١) ص : ٣٠٧ .

(٢) انظر ما سلف ص : ٣٥٠ .

وَمَا الدهْرُ إلاَّ مِنْ رُوَاةِ قَصائِدِى ، إذَا قُلْتُ شِعْراً أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا
فسارَ بِهِ ، مَنْ لاَ يَسِيرُ ، مشمِّراً ، وغَنَّى بِهِ ، منْ لاَ يُغَنِّى ، مُغَرِّدَا
(أَجِزْنِى إذا أُنْشِدْتَ شِعْراً ، فإنَّمَا بِشعْرِى أتاكَ المَادِحُونَ مُرَدَّدَا)
(ودَعْ كُلَّ صَوْتٍ غيْرَ صَوْتِى ، فإنَّنى أنَا الطائِرُ المَحْكِىُّ والآخَرُ الصَدَى)

وقوله أيضاً فى ذلك ، فى صفر سنة ٣٤٣ :

أَفِى كُلِّ يَوْمٍ تَحْتَ ضِبْنِى شُوَيْعِرٌ ضَعِيفٌ يُقَاوِينى ، قَصِيرٌ يُطَاوِلُ (١)
لِسَانِى بِنُطْقِى صَامتٌ عنْهُ عادلٌ ، وقَلْبِى بصَمْتِى ضاحِكٌ مِنْهُ هازِلُ
وَأَتْعَبُ مَنْ نادَاكَ مَنْ لا تجيبُهُ ، وأغيظُ مَنْ عادَاك مَنْ لا تُشَاكِلُ
ومَا التِيهُ طِبِّى فيهِمُ ، غَيْرَ أنَّنى بغيضٌ إلَىَّ الجَاهِلُ المُتعَاقِلُ (٢)
وأكبَرُ تِيهِى أنَّنى بك واثِقٌ ، وأكثَرُ مَالِى أنّنى لكَ آمِلُ
لعلَّ لسيف الدولة القَرْمِ هَبَّةً يعيشُ بِهَا حقٌّ وَيَهْلِكُ باطِلُ (٣)
رَمَيْتُ عِدَاهُ بالقَوافِى وفَضْلِهِ وهُنَّ الغَوَازِى السَّالماتُ القواتِلُ

فهذه أبيات صارخةُ الدلالة على ما كان يلقاهُ أبو الطيب فى ذَرَى سيف الدولة من الشعراء فى بلاطه . ثم انظُره ، فقد بيَّن فى هذه الأبيات أيضاً عن وِشايات وسعايات كانَ يُكاد بها لدى سيف الدولة من قَبْلُ : من الطعن فى نسبه ، والتشهير به فى خلقه وضميره ، وذلك حيث يقول فى جمادى الآخرة سنة ٣٤٢ :

أنَا السَّابِقُ الهَادِى إلَىَ مَا أقُولُه ، إذِ القَوْلُ قَبْلَ القَائِلِينَ مَقُولُ
(وَمَا لِكَلاَمِ النَّاسِ فِيمَا يَرِيبُنِى أُصُولٌ ، وَلاَ لِلقَائِلِيهِ أُصُولُ)
أُعَادَى عَلَى مَا يُوجِبُ الحُبَّ لِلفَتَى ، وَأَهْدأُ وَالأفكَارُ فِىَّ تَجُولُ

---

(١) « الضبن » ، ما بين الإبط والكشح فى الإنسان .

(٢) « طبّى » ، أى شأنى وعادتى .

(٣) « هَبَّةُ السيف » ، هِزَّته ومضاؤه فى الضريبة .

٢٥٤

/ سِوَى وَجَعِ الحُسَّادِ دَاوِ ، فإنَّهُ إذَا حَلَّ فِي قَلْبٍ فَلَيْسَ يَحُولُ
وَلاَ تَطْمَعَنْ مِنْ حَاسِدٍ فى مَوَدَّةٍ وَإنْ كُنْتَ تُبْدِيهَا لَهُ وتُنِيلُ
وَإنَّا لَنَلْقَى الحَادِثاتِ بِأَنْفُسٍ كَثِيرُ الرَّزَايَا عِنْدَهُنّ قَلِيلُ
يَهُونُ عَلينَا أَنْ تُصَابَ جُسُومُنا وَتَسْلَمَ أَعْرَاضٌ لَنَا وعُقُولُ)

وقد كان يَتَوَلّى أَمْرَ هذا الكيد كُلِّه أبو فِراس الحمدانى ، وعندنا أن المنافسة فى الشعر لم تكن هى السببَ ، وإنما كانت « خولة » السببَ الأكبرَ الذى جلب عليه كيد أبى فراس ، ثم أبى العشائر ، مع أنَّه هو الذى قَدَّمه إلى سيف الدولة وقرَّبه إليه على ما يقولون . وقد بلغ من ذلك أن أَغْرَى أبو العشائر غلمانَه بقتله ، وقد رأيت قَبْلُ أن أبا الطيب على ذلك لم ينقص حُبُّهُ لأبى العشائر ولا ضعُف ، [انظر ما سلف : ٣٠٨ ، ٣٤٤ – ٣٤٦] . وهذا لأنَّ الأمر لم يكن منافسةً فى شعرٍ أو غيره ، وإنما كان غيرةً من أبى العشائر على بعض حُرَمه . وأبو الطيب ، كما حدَّثناك فى مواضع ، كان يضع (الرجولة) وتوابعها فى المنزلة الأولى ، ويحبُّ من عدوِّه أن يستمسك بعُرْوَتِها ، فلذلك لم يَحْقِد على أبى العشائر حين أخذته الغيرة على حُرَمه ، بل ازداد تعطُّفاً عليه وتلطُّفاً له ، على تكبُّره وتعاليه وعُتُوِّه ، حتى قال له ، [انظر ص : ٣٠٨ ، ٣٠٩] :

(ونَفْسِى لَهُ ، نَفْسِى الفِداءُ لنَفْسِه ، ولكنَّ بَعْضَ المَالِكِينَ عَنِيفُ)
فَإنْ كَانَ يَبْغِى قَتْلَهَا ، يَكُ قاتلاً بكَفَّيْه ، فَالْقَتْلُ الشَّرِيفُ شَرِيفُ

وبهذا يصبح لفراق أبى الطيب لسيف الدولة معنىً يُعقل ويعتمد عليه ويُعْتَدُّ به ، ثم تَتَّسق حالته النفسية الظاهرة فى شعره ، وتتساوق معانى ديوانه متدرِّجة على أساس من نفسه وآلامها وآمالها وأشواقها ، وما أصابها من الكيد والعدوان ، وما مُنِيَتْ به من حُرقَةِ الحبّ ، ولوعة الحرمان .

* * *

/ خرج أبو الطيب من حَلَب حيث كان سيف الدولة ، قاصداً دمشق ، وقد آحتال لذلك حتى تمَّ له الفراق قبل أن تدركه مكايد أبي فراس وأصحابه ، وذلك فى أواسط سنة ٣٤٦ ، وكان يَحْمِل بين جنبيه قلباً ممزَّقاً قد اعتورته السّهام ، أو كما قال ، وهو يعزى سيف الدولة حين ماتت والدته ، وذلك فى سنة ٣٣٧ : ٢٥٥

رَمَانى الدَّهْرُ بالأَرْزَاءِ حَتَّى فُؤَادِى فِي غِشاءٍ مِن نِبالِ
فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِى سِهَامٌ تَكَسَّرَتِ النِّصَالُ عَلَى النِّصَالِ
وَهانَ .... فَمَا أُبالِى بالرَّزَايا ، لِأَنِّى مَا آنْتَفعتُ بِأَنْ أُبالِى

فَهُو قد أُصيب فى آماله السياسية ، وأُصيب فى هَوَى قلبه ، وأصيب فى محبة سيف الدولة ، وما كان يضمر له من الإخلاص والتوقير والودّ ، فانطوى على ما به ، محزوناً ضَجِراً مَلُولاً ، يتبرَّم بالدنيا ويَضِيق بها وبأهلها ذَرْعاً . فلما وافى دمشق ودخلَها ، كان بها رجل يهوديٌّ من قِبَلِ كافور ، كَان أبو الطيب يستثقل ظِلَّه على قلبه ، وكان قد لقيه قَبْلُ فى سنة ٣٢٧ ، حين نزل على صاحبه أبى علىّ (هرون بن عبد العزيز الأَوراجىّ) الكاتب ، فسوّلت نَفس هذا اليهودىّ لإرادته ورغبته أنْ يحمل أبا الطيّب على أن يمدحه بعد أن مدح أميرَ الأمراءِ سيف الدولة ، وتقذَّر أبو الطيب هذا اليهودىَّ وغَثِيَتْ به نفسه ، فسكَّنها بالإعراض عنه وازدرائه والتهاون به ، فغضب اليهودى (آبن مَلَكٍ) غضبة يهوديةً ، حتى إذا ما كان من كافور ما كان ، من مكاتبته فى طلب أبى الطيب أن يَقْدَم عليه ، فَعلها آبن ملك ، وكتب إلى كافور أن أبا الطيب قال : « لا أقصِدُ العبد ، وإن دخلت مصر فما قصدى إلاّ آبنُ سيِّده » .[1] ثم ضاقت دمشق بأَبى الطيب ، فخرج منها يريد صاحبه الأميرَ أبا محمد الحسن بن عبيد الله بن طُغْج بالرَّملة الذى مدحه فى سنة ٣٣٦ كما قدمنا ، [ص : ٢٩٠ ، وما بعدها] فاستقبله / وأنزله مُنْزَلاً كريماً ، وحمل إليه الهدايا النفيسة ، وخلع عليه الخِلَعَ الفاخرة ، وحمله على فرس بموكِبٍ ثقيل ، وقلّده سيفاً محلًّى ، جزاءً لما كان ٢٥٦

(١) خبر ابن ملك اليهودى فى رواية ابن جنى لديوان المتنبىّ : ٤٣٥ (طبعة عزام) .

مدحه به أوَّلاً ووفاءً بالصُّحبة . فكان كافور يقول إذ ذاك لأصحابه : « أَتُرَوْنَه يبلغ الرملة ولا يأتينا !! » . وبلغ ذلك أبا الطيب ، وأَنَّ كافوراً يَجِدُ عليه فى نفسه : أن يَقْصِد عُمَّاله (كآبن طُغْجٍ) ولا يقصده ، وأتت آبنَ طُغْج كُتُب كافور فى طلب أبى الطيب ، وكان آبن طغج ، فيما نرى ، رجلاً بصيراً داهية مترفقاً حُلْوَ اللسان مُطاع الرَّغبة ، فأخذ يراود أبا الطيب ، وأبو الطيب يتعسَّر عليه ويضيق بطلبه ، لما تحمِلُ نفسه من الضَّجر والتبرم . وبعد لَأْيٍ ما ظفر به الأمير آبن طُغْجٍ وحمله على المسير إلى كافور . فلما قدم عليه ، أمر له بمنزلٍ ، ووكّل به جَمَاعةً ، وأظهر التُّهَمَة له . وطالبه بمدحه فلم يمدحه ، فخلع عليه الخلع حتّى أحرجه بكرمه ، فلم يجد أبو الطيب الذى يقول :

« وَمَنْ وَجَد الإِحْسَانَ قَيْداً تقيَّدَا »

.... لم يَجد بُدًّا من أن يحمل نفسه على مدح هذا الأسود الخصىّ ، علَّه يصيب عنده ما فاته عند غيره من الفحول البيض . وعزَّى نفسه بذلك ، ولكنها أبت عليه أن تكون خالصة لكافور ، فرَمت فى وجه كافور بأبياتها لا أبيات أبى الطيب ، [فى جُمادَى الأولى سنة ٣٤٦] ، [انظر ما سلف : ٣٤٨] :

كَفَى بِكَ دَاءً أنْ تَرَى الموتَ شَافِيَا وَحَسْبُ المَنايا أنْ يَكُنَّ أَمانِيَا

تَمَنَّيْتَهَـا لَمَّـا تَمنَّيتَ أن تَرَى صَدِيقاً فأَعْيَا ، أو عَدُوًّا مُدَاجِيَا

واستقبال كافور بهذين البيتين هجاء دونه كل هجاء فيه إقذاعٌ وفُحْشٌ وسخرية وتهكّم . وبقى أبو الطيب بعد ذلك بمصر يحتال لأمره ، ولا يزال / يَنْفُثُ فى كل شعرٍ ذات صدره من الآلام والآمال ، وألقى على شعره ظِلاًّ من الحزن والفجيعة والحسرة واليأس ، ولكنه كان مع ذلك يجتهد فى أن يظفر من كافور بولاية من الولايات يقوم عليها ، ليجرِّب نفسه بعد أن أخفق فى عقد آماله على غيره . وكان أبو الطيب حين خرج من حلب ، خرج ومعه الخالديَّان (أبو عثمان سعيد بن هاشم وأخوه محمد) ، وكان يُرِيدانِه على أن يصحبهما إلى العراق ، فيمدح الوزير أبا محمد المهلبىّ ، فأَبَى عليهما وخالفهما ، فذلك حيث يقول أبو الطيب ، يذكر ما كان من أمره وأمرهما ، ويعرّض بحاجة نفسه لكافور ، [فى شعبان سنة : ٣٤٩] :

٢٥٧

وَفى النَّفْس حَاجَاتٌ ، وفيكَ فَطَانَةٌ ، سُكوتى بَيانٌ عِنْدَها وخِطابُ

وَمَا أنَا بالبَاغى عَلَى الحُبِّ رِشْوَةً ، ضَعيفُ هَوًى يُبْغَى عَلَيهِ ثَوابُ

(وَمَا شِئْتُ إلاَّ أن أدُلَّ عَواذِلِى عَلَى أنَّ رأيى فى هَواكَ صَوابُ)

(وأُعْلِمُ قوماً خَالَفُونى ، فَشَرَّقوا وغرَّبتُ ، أنِّى قد ظَفِرْتُ وخَابُوا) (١)

....

(إذَا نِلْتُ مِنْك الوُدَّ فالمَالُ هينٌ وكلُّ الّذى فَوْقَ التُّراب تُرابُ)

(وما كُنْتُ – لَولا أنت – إلاَّ مُهاجِراً لهُ كُلَّ يَومٍ بَلْدةٌ وَصِحَابُ)

ولم يكن أبو الطيب يؤمّل من كافور مَالَهُ أو عطاياه أو هداياه ، فقد كان غنيًّا بما أعطاه سيف الدولة ، أو ما ادّخره من عطائه وإقطاعه الذى كان له بالشام ، (٢) بل كان يريد أن يَلِىَ بعض بلاد الصعيد ، أو صَيْداءَ كما ذكروا ، / وذلك ليحقق ما استطاع آمالَه السياسية التى تترامى إلى غاياتها التى قدمناها قبلُ . وقد زَعموا أن كافوراً قال له حين ذكر حاجته : « أنت فى حال الفقر وسوءِ الحال وعَدَم المعين ، سَمَتْ نفسُك إلى النُّبوة ، فإن أصَبْتَ ولايةً وصار لك أتباعٌ فَمَنْ يُطيقك » ؟ وهذا من كلام الرُّواة وحَسْبُ .... والذى نراه رأياً أن كافوراً كان يعلم يقيناً أن أبا الطيب لا يُضْمِر له حبًّا ولا كرامة ، بل كان يزدريه فى نفسه ، وحَسْبُهُ ما لطمه به فى أول لقاءٍ كما مرَّ بك ، وحسبه ما كان يذكر فى مدحه له من الحنين إلى سيف الدولة وندمه على فراقه كقوله ، (سنة ٣٤٩) :

٢٥٨

أَرَى لِى بقُرْبِى مِنْكَ عَيْناً قَريرةً ، وإنْ كان قُرْباً بالبِعَادِ يُشابُ

---

(١) يعنى بالتشريق ذهاب صاحبيه إلى العراق قاصدين المهلبى ، والتغريب مقدمه هو على مصر ليمدح كافورًا .

(٢) يذكرون أن سيف الدولة تقدم إلى (ديوان البر) بإخراج الحال فيما وصل به أبو الطيب المتنبى فخرجت بخمسة وثلاثين ألف دينار فى مدة (أربع سنين) .

وأبينُ تعريضاً وأبلغ إفصَاحاً عن حقارة هذا الأسود فى نفس أبى الطيب ، ما يقوله له فى أول مديحه ، [فى شوال سنة ٣٤٧] :

أُغالِبُ فيكَ الشَّوقَ ، والشَّوْقُ أغلبُ ، وأَعْجَبُ من ذَا الهجرِ ، والوَصْلُ أعجبُ

والضمير فى قوله (فيك) يرجع إلى سيف الدولة ، ويُريد بالهجر مفارقته سيف الدولة ، وبالوصل مَقْدَمَه على كافور ، ثم يزيد فيقول بعد :

أَمَا (تَغْلَطُ) الأيامُ فىَّ بأنْ أُرَى (بَغِيضاً) تُنائِى ، أو (حبيباً) تُقرِّبُ
ولله سَيْرِى ، مَا أَقَلَّ تَئِيَّةً عشيةَ شَرْقِىَّ الحَدَالَى وغُرَّبُ [(١)]
عَشِيَّةَ أَحْفَى الناس بي (مَن جَفَوْتُهُ) وأَهْدَى (الطَّرِيقَينِ) الّتِى أَتَجَنَّبُ

٢٥٩ / فانظر إلى نفس أبى الطيب فى شعره ، ودقة بيانه بقوله : (أَمَا تَغْلَط الأيّام) ، وهذا التصريح الذى وضعناه بين الأقواس يريد به سيفَ الدولة وكافوراً ، أفتظنُّ أن هذا كان مما يخفى على (الأستاذ) كافور ، وكان من علماء عصره وأدبائهم ؟ وهل كان يخفى على كافور ما سَخِر أبو الطيب به فى شعره من ذكر سَوَاده والتعريض به ، وجعله من مادَّة مدحِه له ، والإتيان فى ذلك بكل غريبة ونادرة ، مما يدلُّ على تمكن الأصول البيانية فى لسان أبى الطيب وقلبه ؟ انظر إلى قوله وهو يهنّىء كافوراً ببناء الدار التى أقامها بإزاء الجامع الأعلى على البركة ، [فى رجب سنة : ٣٤٦] :

نَزَلَتْ ، إذْ نزلْتَها الدَّارُ ، فى أحْسَـ ـنَ منها ، مِنَ السَّنَى والسَّنَاءِ

وهذا لا بأس به ، ولكن تَدبَّر التهكم العجيب فى هذه الأبيات ، وذِكْرَ المستحيلات التى لا تَقع ولا تكون ولا تُتوهَّم ، إذ جَعَله (شمساً منيرة) ولكنها سوداء .... !!

تَفْضَحُ الشَّمسَ – كُلّما ذَرَّتِ الشمـ ـسُ – بشَمْسٍ مُنِيرةٍ (سَوْدَاءِ)
إنَّ فِى ثَوْبِك – الَّذِى المجدُ فِيه – لَضِيـاءً يُزْرِى بكُـلِّ ضِيـاءِ

---

(١) « التئية » التأنى والتوقف ، « الحدالى » ، موضع بالشام . ، « غرب » ، جبل هناك .

وهذا الضياء هو سواده !!

إِنَّما (الجِلْدُ) مَلْبَسٌ ، وَٱبيِضَاضُ الـ ـنَّفْسِ خَيْرٌ مِنَ ٱبيِضَاضِ القَبَاءِ [1]

كرمٌ فى شجاعـــــةٍ ، وذَكَاءٌ فى بَهـاءٍ ، وقُـدْرةٌ فى وفــاءِ

مَنْ لِبيضِ الملوكِ أَنْ تُبْدِلَ اللَّوْ نَ (بلَوْنِ الأُسْتَاذِ ، والسَّحْنَاءِ)

/ ثم يجعله بعد ذلك (رَجاءَ العُيُونِ فى كُلِّ أَرْضٍ) ، [انظر قبله ص : ٣٥٧] وذلك لأنه ٢٦٠ عجيبة عن عجائب الدهر . وتدبر كُلَّ شعر الرجل فى مدح كافور تجد أمثال ذلك بيِّناً دالاًّ على نفسه ، وتنبَّهْ لألفاظ الرجل فإنها هى التى كان يطوى تحتها معانىَ تهكُّمه بكافور كقوله : « يا رجاءَ العيون » ، وتنبَّهْ إلى قلبه المعانى ، وَلَفْتِها عن وجوهها ، كقوله مثلاً ، [انظر ما سلف : ٣٤٨] .

وَمَا كُنْتَ ممَّن أدْرَكَ المُلْكَ بِالمُنَى ، ولكـن بأَيَّـامٍ أَشَبْـنَ النَّواصِيَـــا

(عِدَاكَ تَراهَا فِى البِلاَدِ مَساعياً ، وأنتَ تَراها فِى السَّماءِ مَرَاقِيَا)

وهذا البيت الأخير تعريض بسقوط همة كافور ، وليس بمدح . وكان حقُّ المعنى أن يكون :

(عِدَاكَ تَرَاهَا فى السَّماءِ مَرَاقِياً وأَنْتَ تَراها فى البِلادِ مَساعِيَا)

وذلك أَن الأعداءَ يستعظمون ما كان من تملُّكه البلاد ، ويَعُدُّونه أمراً عظيماً كالرقىِّ إلى السَّماء = وذلك لحسدهم وعداوتهم التى تربو فى صدورهم ، فترمى فى الواقع بالوهم فيتعاظم فى العيون = ولكنّ كافوراً لبُعد همَّته ، لا يراها أمراً عظيماً ، بل هى مساعٍ فى الأَرض لا جهْدَ فيها إلاّ كجهد المشيِ .... فهذا هو المعنى الذى قلبه أبو الطيب ببيانه القوىّ ، ليعرضه مَدْحاً ، وهو ذمٌّ بليغٌ وهجاءٌ نافذٌ .

---

(١) تدبر قوله (الجلد) فهو هناك من أقبح الهجاء باللفظ قبل المعنى ، وكذلك قوله « لون الأستاذ والسحناء » .

فكان كافور يُجيد فَهْمَ ذلك وينفذ إلى أسراره ، ويُبَصَّر به إن لم يكن قد أدركه ، فقد كان أبو الطيب وهو بمصر مُلَقَّى بالرزايا ، مقصوداً بالعداوة من أقوام بعينهم كانوا يمهدون للدعوة الفاطمية ، وكانوا على صلة بكافور وثيقة ، يبدون له المحبة والإخلاص ، وهم يعملون على إهلاكه . وكان كافور / يتّقى ذلك بدهائه وحيلته وخبرته السياسية ، ٢٦١ فكان يهادى المعزَّ لدين الله الفاطمى صاحب المغرب ويظهرُ ميلَه إليه ، وهو مع ذلك يُذْعِن بالطاعة لبنى العباس ، ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء . وأيضاً ما كان من عداوة الوزير أبى الفضل ابن حِنزابَةْ (جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن موسى بن الحسن ابن الفرات) ، وكان عالماً فاضلاً له درْسٌ يلقيه وهو فى وزارته ، وكان المتنبى لم يمدحه ولا عَبَأَ به ، فلذلك عاداه ، وكاد له كيداً بالغاً ، حتى إن المتنبى ذكره بعد خروجه من مصر فقال ، [فى ربيع الأول سنة : ٣٥١] :

وَمَاذا بِمِصْرَ مِنَ المُضْحِكاتِ ، ولكنَّـــه ضَحِكٌ كالبُكَـــا
بِها (نَبَطِىٌّ) مِنَ آهْلِ السَّوادِ يُدَرِّسُ أَنْسَابَ أَهْلِ الفَلاَ !

والنبطى هو هذا الوزير ، وكان عالماً بالأنساب قائماً عليها ، ألَّف كتباً فى أسماء الرجال والأنساب ، وقصدته العلماء لذلك ، كالحافظ المحدث أبى الحسن الدارقطنى ، وقدم عليه من العراق وأقام عنده .

وأقام أبو الطيب بمصر على كُرهٍ ، إلى أن وردَ أبو شجاع فاتك غلامُ الإخشيد (محمد بن طُغْج) من الفيومِ ، فلقيه المتنبى بالميدان على رِقْبةٍ من كافور . وكان فاتك عند مَقْدَمه قد أهدى إليه هدايا قيمتها ألف دينار ، فأنشده قصيدته التى أوّلها ، [فى جمادى الآخرة سنة ٣٤٨] :

لَا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلاَ مالُ ، فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إنْ لم تُسْعِدِ الحالُ

وقال له فيها يذكر ما كان منه :

(وَمَا شكَرْتُ لأن المَال فَرَّحَنى ، سِيَّانِ عِنْدِىَ إكْثارٌ وإقْلالُ)

لَكِنْ رَأَيتُ قبيحاً أن يُجادَ لنا ، وأَنّنا بِقَضَاءِ الحَقِّ بُخَّالُ
/ لَطَّفتَ رأيَكَ فى بِرِّى وتَكْرِمتى ، إنَّ الكَرِيمَ عَلَى العَلْيَاءِ يَحْتَالُ ٢٦٢
وَقَد أطَال ثَنَائِى طُولُ لاَبِسِهِ ، إنَّ الثَّنَاءَ عَلَى التِّنْبَالِ تِنْبَالُ (١)

يشير بالتنبال إلى كافور ، .... ثم يزفر المتنبى زفرته من جوف قَلْبِه :

لَوْلاَ المشَقَّةُ سَادَ الناسُ كُلُّهُم ، الجُودُ يُفْقِر ، والإِقْدَام قَتَّالُ
وَإنَّما يَبْلُغُ الإِنسانُ طَاقَتَهُ ... ، مَا كُلُّ مَاشِيَةٍ بِالرَّحْلِ شِمْلاَلُ (٢)
إنَّا لَفِى زَمَنٍ تَرْكُ القَبيحِ بِهِ مِن أَكْثَرِ الناس إحسَانٌ وإجْمالُ
ذِكْرُ الفَتَى عُمْرُهُ الثَّانى ، وحَاجَتُهُ مَاقَاتَهُ .... ، وفُضُولُ العَيْشِ أَشْغالُ

وكذلك كان أبو الطيب قَد يئس من بقائه فى مصر ، وبَرِم بالمال وأصحاب المال ، وعزم على الرحلة من مصر ، فأعدَّ له العدة ، واعتمد على الهرب بحيلته ودهائه قبل أن يُدْرِكه كافور الذى أرصد له الرُّقباءَ وبثَّ عليه العيون . وانتهز هذا الداهيةُ الخبيرُ البصيرُ الفرصةَ فى العيد يوم عرفة من سنة ٣٥٠ = وكان رَسْمُ كافورٍ أن يستقبل العيدَ بيومٍ ، (هو يوم الوقفة الآن) ، وتُعَدُّ فيه الخِلَع والحُمْلانات والهدايا وأنواع المبارّ لرابطة جُنْده ، وراتبة جيشه ، وصبيحةَ العيد تُفَرَّق ، وثانى اليوم يذكر له من قَبِل ، ومن رَدَّ واستزاد = فاهتبل المتنبى غفلَةَ كافور واشتغاله بالعيد ، ودفن رِماحه بَرًّا ، وسار ليلته ، وحمل بِغاله وجماله ، وهو لا يألو سيراً وسُرًى . وقطع فى هذه الليلة مسافة أيَّام ، حتى وقع فى تِيه بنى إسرائيل ، إلى أن جَازه على الحِلَل والأحياء والمفاوز والمجاهيل والمناهل والأواجن .... فلما بلغ كافوراً الخبرُ ، بذل فى طلبه ذخائر الرغائب ، وكتب إلى عمّاله فى سائر أعماله ولكن .... يقول المتنبى [فى قصيدته لما نالته الحمى بمصر سنة ٣٤٨] :

---

(١) « التنبال » ، القصير اللئيم .

(٢) « الشملال » ، الناقة السريعة الخفيفة المشى .

فَرُبَّتَمَا شَفَيْتُ غَلِيلَ صَدْرِى ٥ بِسَيْرٍ ، أو قَنَاةٍ ، أو حُسامِ
وَضَاقتْ خُطَّةٌ فخلَصْتُ منها خلاَصَ الخَمْرِ مِن نَسْجِ الفِدَامِ [1]

***

(١) « الفِدامُ » ضرب من النَّسيج ، يجعل على فم إبريق الخمر ، ابتغاء تصفيتها وترويقها .

– ١٥ –

****

فَلَمَّا أَنَخْنَا ، رَكَزْنَا الرِّمَا

حَ بَيْنَ مَكَارِمِنَا وَالعُلَى

وَبِتْنَا نُقَبِّلُ أسيافَنَا

ونَمْسَحُها مِنْ دِماءِ العِدَى

لِتَعْلَمَ مِصْرُ ، ومَنْ بِالعِراقِ ،

وَمَنْ بالعَواصِم – أَنِّى الفَتَى

وَأَنِّى وَفَيْتُ ، وأَنِّى أَبَيْتُ ،

وأَنِّى عَتَوْتُ عَلَى مَنْ عَتَا

وَمَا كُلُّ مَنْ قالَ قَوْلاً وَفَى ،

ولاَ كُلُّ مَنْ سِيمَ خَسْفاً أَبَى

****

/ خرج أبو الطيب من مصر ، وقد آجتواها ، وبُغِّضت إليه هذه الحياة الفاسدة ٢٦٣ التى بها وبغيرها من البلاد العربية ، والتى وَصَفها فى قصيدته حين مرض بالحمى وهو بمصر فقال ... ، [من قصيدة الحمى ، فى ذى الحجة سنة ٣٤٨] :

(وَلَمَّا صَارَ وُدُّ النـاسِ خِبًّـا ... جَزَيْتُ عَلَى آبتسامٍ بابتسَامِ)

(وصِرْتُ أَشُكُّ فِيمنْ أَصْطَفِيه ... لِعِلْمـى أَنَّـهُ بَعْضُ الأَنَـامِ)

يُحِبُّ العَاقِلُونَ عَلى التَّصافِى ، ... وَحُبُّ الجَاهِلينَ عَلَى الوَسَامِ

/ (وآنَفُ مِنْ أخِى لأَبى وأُمِّى ... إذَا مَا لم أَجِدْهُ مِنَ الكِرامِ) ٢٦٤

أَرَى الأَجْدَادَ تَغْلِبُهـا كَثِيراً ... على الأَوْلَادِ أَخْـلَاقُ اللِّئَـامِ

وتنازعت قلبَ أبى الطيب كلُّ أسباب همه ويأسه : همُّ الحب ويأسه من اللقاء ، وهمُّ السياسة ويأسه من إدراك المطلب وتحقيق الآمال ، وأثبت كل ذلك فى قصيدته التى

قالها يوم خروجه من مصر ، فتدبرها وفصّلها على ما رسمنا فيما مضى .... يقول ، [فى يوم عرفة ، ذى الحجة سنة ٣٥٠] :

عِيدٌ بأَيَّةِ حَالٍ عُدْتَ يَا عِيدُ ،   بما مَضَى أَمْ لِأَمرٍ فيكَ تَجْدِيدُ ؟
أَمَّا (الأَحِبَّةُ) فالبَيْدَاءُ دُونَهُمُ ،   (فَلَيْتَ دُونَكَ بِيداً دُونَهَا بِيدُ)

....

لَمْ يَتْرُكِ الدَّهْرُ من قَلْبِى ولا كَبِدى   شيئاً تُتَيِّمُهُ عَيْنٌ ولاَ جِيدُ
يَا سَاقِيَيَّ ! أَخَمْرٌ فِى كُؤُوسِكُمَا ،   أَمْ فِى كُؤُوسِكما هَمٌّ وتَسْهِيدُ ؟!
أَصَخْرَةٌ أنا ؟! مَا لِى لاَ تُحَرِّكُنِى   هَذِى المُدامُ ، ولاَ هَذِى الأَغارِيدُ !
إذَا أَرَدْتُ كُمَيْتَ اللَّوْنِ صَافِيَةً   وَجَدْتُها ، و (حَبِيبُ النَّفْسِ) مَفْقُودُ
مَاذا لَقِيتُ مِن الدُّنيا !! .. وأَعْجَبُهُ   أنّى — بما أنا شَاكٍ مِنْهُ — مَحْسُودُ
أَمْسَيتُ أَروَحَ مُثْرٍ خَازناً ويَداً ..   أَنَا الغَنِىُّ ، .. وأَموالِى المَواعِيدُ

ثم يخلُص أبو الطيب إلى ذمّ مصر وأهلها ، ووصفهم بالكذب والمماطلة ، وما كان من ولاية كافور الأسود الخصىّ عليها ، وما كان يجرى من المكر فيها وفى سياستها ، ثم يهجو كافوراً بأفحش الهجاء ، ثم يَذْكُرُ هَمَّ نفسه وفراق سيف الدولة ، وذلك قوله :

٢٦٥ / أَوْلَى اللِّئام كُوَيْفِيرٌ بمَعْذِرَةٍ   فى كُلِّ لُؤْمٍ ، وبَعْضُ العُذْرِ تفنيدُ
وَذَاك ، أنَّ (الفُحولَ البيضَ) عَاجِزةٌ   عن الجميل، فكَيفَ (الخِصْيَةَ السُّودُ !)

ونحن نقدّم العذر لأبى الطيب فيما ذمّ به مصر ، وما ذكر من أخلاقها ، فقد كان الرجل منكوباً فى نفسه وآماله ، وقلبه وهواه ، وزاده القوم كيداً ، وأثبت عليه الأسودُ كافورٌ عداوةً باغية ، وهو الذى أقدمه على مصر بطلبه ، وقد أعذر أبو الطيب بمدحه إياه أيًّا كان ، بعد أن كان فى جوار أمير العرب سيف الدولة . هذا .... وليس يمنعنا من شهادة الحق — ولو على أنْفُسنا — ما يأتى به بعضُ الناس من الغضب الباغى (للقومية) . وقد ذكر أبو الطيب عيوباً لا تزال متأصّلة فى مصر ، ولا خير فى الغضب من ذكرها ، بل

الخير كلُّ الخير فى معرفتها والتنبُّه لها والعمل على إصلاحها . والحقيقة التى لا تُجْحَد أن أبا الطيب قد نفذ ببصيرته إلى ما كان يسلُّ مصر ويقتلها من الخلق الفاسد ، وقد كشف عنه فى قصائده التى قالها فى هجاء كافور ومدح فاتكٍ ورثائه . وليس أبو الطيب وحدَهُ هو الذى عرف ذلك يومئذٍ وأدركه ، بل قد عرف ذلك كثيرٌ من أهل عصره ، وإذا أنت قرأتَ التاريخَ الذى بين أيدينا ، وقفت على ذلك ، وعلمت أن الرجل كان بصيراً نافذاً إلى ضمائر الناس يجلوها ويكشف عنها . ولا بأس هنا من أن نذكُرَ لَكَ أبياتاً قد قالها القاضى التنوخى الكبير ، حين قدم هو أيضاً مصر وخرج منها كارهاً ، يقول :

تَرَكْنَا أَرْضَ مِصْرَ لِكُلِّ فَدْمٍ ... لَه بَاعٌ يُقَصِّرُ عن ذِرَاعِ
نُفُوسٌ لاَ تَلِيقُ بِها المَعَالى ، ... وأَخْلاقٌ تَضِيقُ عَنِ المَسَاعِى
أَقَمْتُ بها .... ومِنْ مِحَنِ الليالى ... مُقَامُ الأُسْدِ فى كَهْفِ الضِّباعِ
/ أَقُول ، وقد نَأَوْا ، بُعْداً وسُحْقاً ... لِشَرِّ الخَلْقِ فى شَرِّ البِقَاعِ
وكَمْ خَلَّفْتُ مِنْ كَرَمٍ مَهِينٍ ... بعَرْصَتِها ، ومن عِرْضٍ مُضَاعِ
وأَجْسامٍ مُسَمَّنَةٍ شِبَاعٍ ، ... وأَحْسَابٍ مُضَمَّرةٍ جِيَاعِ
ونَقْصٍ فى أكَابِرِها حَضِيضٍ ، ... وجَهْلٍ فى أَصَاغِرِها مُشَاعِ
لَقَدْ نامتْ سَرِيرَتُكمْ ، وكانت ... فَضِيحَتُكُمْ قِنَاعاً لِلقِنَاعِ
جَعَلْتُم ذَنْبَنا أَنَّا سَمِعْنَا ... ، وَمَا الآذَانُ إلاَّ لِلسَّمَاعِ

٢٦٦

وهذا ليس مما يُغْضَبُ منه ، فإن فى التاريخ من أمثال ذلك ما لا يُدْفَع ، وقد كانت فى مصر لذلك العهد ، وفى غير مصر ، أخلاقٌ فاسدة هى التى عَصَفَت بالمجد العربىّ وأضاعته بين ذئاب الأعاجم وغيرهم ، حتى صرنا إلى ما نحن فيه الآن . فهذا الغضبُ التاريخىُّ لا محلَّ له ولا وجه ، إلاّ القصور فى معرفة التاريخ . هذا .... وليس بمنكر أن تكون هناك فضائلُ أُخرى تُلَطِّف هذه العيوب وتخفّف منها ، فتُنْسَى فى جانبها ، وتَخْفَى صُورتها فى ظلّها .

* * *

.... سار أبو الطيب يَطْوِى الفلوات بماله ورجاله ورماحه وخيله هارباً من كافورٍ وما أتبعه من الطَّلَبِ ، وقطع فى سيره الفلاةَ ما بين مصر وطور سيناء خائفاً يترقَّب ، وتراءت له أيامه كلها بأهوائها وغفلاتها ، وحسناتها وسيئاتها ، واضطربت نفسه وعَلَت أمواجُها ، وأدركته رجولته وفُتوَّته ، حين لَفَحته هَبَّات الهجير وقد نَصَب لها حُرَّ وجهه ، وتنسَّم من سمائها التى اعتادها فى أوَّل أيامه قبل أن يستنيم إلى بعض الدَّعَة ، ويركن إلى غَفَلاتِ الراحة ، وكذلك غَلَب ما كان به من اليأس والضَّجَر ، ومدَّ ذراعيه يَسْتَمْسك بالحياة ، يَبْغى الظفر وتحقيق الأمل . ومن هنا قال فى قصيدته التى / ذكر فيها رحلته عند وروده إلى الكوفة .... يصف النُّوق التى نجا على ظهرها ، [فى شهر ربيع الأوّل سنة ٣٥١] :

٢٦٧

(ولكِنَّهُنَّ (حِبَالُ الحَيَاةِ) ، و (كَيْدُ العُداةِ) ، و (مَيْطُ الأَذَى)

ضَرَبْتُ بها التّيـه ضَرْبَ القِمـا رِ ، إمَّـا لهذا وإمَّـا لِذَا

إذَا فَزِعَتْ قَدَّمَتْها الجِيـادُ ، وبِيضُ السُّيوفِ ، وسُمْرُ القَنَا

....

وَقُلْنَا لَها : أين أَرْضُ العِرَاق ؟ فقالتْ – ونَحْن بتُرْبَانَ – : هَا

ولم يكن أبو الطيب فى مخرجه هذا يريد مكاناً بعينه يَقْصِده ، بل كان متردِّداً بين أن يقصد المدينة ويقيم بها ، أو يقطع فى رحلته الفلاة إلى نجد ، أو ينحدر إلى العراق . ولعله كان يتلقَّف الأخبار وهو فى طريقه ، حتى يرى رأيه فى قصده ، ويتَّقِى شرَّ الكيد الذى كان يُكَادُ به طول عمره من جراء السياسة ، ومن أجل تَقَحُّمه على أصحاب الدسائس متهاوناً بهم .[1] والظاهر مِن شعر أبى الطيب أنه ، لأمرٍ ما ، اعتمد الرحلة إلى الكوفة

(١) قد حاولنا أن نهتدى فى ظلام التاريخ إلى وجه من الرأى ، فلا نقرر الآن شيئاً ، فإن ذلك يقتضى التنقيب فى تاريخ العلويين خاصة فى ذلك العهد ، وما كان لهم وما كان منهم . والكتب التى بين أيدينا من التاريخ ناقصة ، ومفرقة . فإذا تم لنا شئ من السند التاريخى ، فحينئذ نقدم على القطع برأى من أمر مدخله الكوفة . هذا على أن فى أيدينا أشياء ، ولكنها لا تكفى فى الدلالة على الوجه الصحيح .

ودخولها . وقد رأيت قَبْلُ فى خبر موت جَدَّته أنَّه حين أراد دُخول الكوفة ليراها ، منعه العلويُّون ، فيما ذهبنا إليه ، وحملوه على مفارقة جِوارها إلى بغداد ، [١] فكان من جَرَّاء ذلك ما استعلن فى قصيدته التى يرثى بها جدَّته ، من الحِدَّة والتهوُّر / والثَّورة ، والتعريض بما أريد به من الظلم والضيم ، فكان مما قال : ٢٦٨

لَئِنْ لَذَّ يَوْمُ الشَّامِتِينَ بِيَوْمِهَا ... لَقد وَلَدَتْ مِنّى (لِآنُفِهِمْ رَغْمَا)

تَغَرَّبَ لاَ مُسْتَعْظِماً غَيْرَ نَفْسِه ، ... وَلاَ قَابِلاً إلاَّ لِخَالِقِه حُكْمَا

وَلْكِنَّنى مُسْتَنْصِرٌ بِذُبَابِه ، ... وَمُرْتَكِبٌ فى كُلِّ حالٍ بِه الغَشْمَا

وَجَاعِلُهُ يَوْمَ اللِّقَاءِ تَحِيَّتى ، ... وَإلاَّ فَلَسْتُ (السَّيِّدَ البَطَل القَرْمَا)

(إذَا فَلَّ عَزْمِىَ عَنْ مَدًى خَوْفُ بُعْدِه ، ... فَأَبْعَدُ شَىْءٍ مُمْكِنٌ لَمْ يَجِدْ عَزْمَا)

وَإنّى لَمِنْ قَوْمٍ كَأَنَّ نُفُوسَهُم ... بِهَا أَنَفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ والعَظْمَا

(كَذَا أَنَا يا دُنيا ، إذَا شِئْتِ فَاْذْهَبِى ، ... وَيَا نَفْسُ ، زِيدِى فى كَرَائِهِهَا قُدْمَا)

(فَلاَ عَبَرَتْ بِى سَاعَةٌ لاَ تُعِزُّنِى ، ... ولاَ صَحِبَتْنى مُهْجَةٌ تَقْبَلُ الظُّلْمَا)

وقد قُلْنَا ثَمَّ أنه أراد بالشامتين الذين كان لأنوفهم (رغمًا) - العلويين ، وأنّه أنذر وأوعد وهدَّدَ يريدهُمْ بذلك ، لما أنزلوهُ من الكَيد لهُ حتى خَفِيتْ نِسْبته إلى الشجرة العلوية المباركة . ولم يزل أبو الطيب يُسِرّ ذلك فى نفسه ، وهو فى كل مرة يلقَى من العلويين كيداً كثيراً ، كما رأيتَ من إرصادهم لقتله بكفر عاقب ، [ص : ١٥٤ - ١٥٦ ، والتعليق هناك] .

فالآن ، يتمكن أبو الطيب - بعد استمرار عزيمته ست عشرة سنة (من سنة ٣٣٥ إلى سنة ٣٥١) - من دخول الكوفة ، بعدَ أن حِيلَ بينَهُ وبينها فى موتِ جدَّته ، وقد لَقِىَ فى هذه السنوات من المصائب والأَرْزَاء ما فتَّ حيناً فى عضُده ، وما رَمَى فى قلبه بالعزم والقوة حيناً آخر . يدخُلُ الكوفة وقد رَغِمتْ أنوف من مَنَعوهُ عن دُخولها أوّلاً ، ومن فارَقَ الكوفة وتغرَّب غَيْرَ قابِلٍ لما أرادوهُ عليه من ظلمهم له .... فيقول :

---

(١) انظر ما قلته فى شعره فى رثاء جدته فيما سلف ص : ١٦٠ - ١٦٥ ، ثم ص : ١٧٠ - ١٧٧ ، ثم ص : ٢٤٠ - ٢٤٣ ، ثم ص : ٢٧٧ ، والتعليق : ١ ، ثم ص : ٢٨٠ - ٢٨٢ .

٢٦٩ / فَلَمَّا أَنَخْنَا رَكَزْنَا الرِّما حَ ، بَيْنَ (مَكارِمِنَا والعُلَى)

فانظر إلى قوله : (مكارمنا والعلى) ، أتكونُ (مكارمه والعلى) هذه هى السِّقاءَةُ وما إليها ؟ إذ تكذَّبَ عليه القوم فزعموا أن أباهُ كان (سَقاء بالكوفة يسقى الماء على بعير له) . والعجب أن يذكُرَ أبو الطيب هذه المكارم والعلى وهو مقيم بالكوفة ، التى كان بها من يعرفه من لِداته الذين كان معهم فى المكتب وهو صغير . إن يكن ما زعموا .... فَتَبًّا (لابن السقاء) هذا من شيخ لا يستحى من الله ولا من الناس !! هذا ، وفى الأبيات التى تلى هٰذا البيت نَفْحَةٌ من نفحاتِ الصدْقِ ، وصورةٌ من قوة العزيمة ، وكَرَم العنصر ، وعِزَّةُ نفسٍ تتميّز فى ألفاظها ، لا قِبَل لكذّاب ولا دَعِىّ بأن يَجْعلها تَتراءَى فى كلامه واضحةً بيّنةً سَمْحَةً مُسْتَعْلِنةً .... يقول :

وَبِتْنَا نُقَبِّلُ أَسْيَافَنَا وَنَمْسَحُها مِنْ دِمَاءِ العِدَى
لِتَعْلَمَ مِصْرُ ، ومَنْ بالعِراقِ ، ومَنْ بالعَوَاصِمِ ، أَنِّى الفَتى
(وَأَنِّى وَفيتُ ، وأنّى أَبَيْتُ ، وَأَنّى عَتَوْتُ عَلَى مَنْ عَتَا)
(وَمَا كُلُّ مَنْ قالَ قولاً وَفَى ، ولا كُلُّ مَنْ سِيمَ خَسْفاً أبَى)
(ومَنْ يَكُ قلبٌ كَقَلْبى لَهُ ، يَشُقُّ إلى العِزِّ قَلْبَ التَّوَى)
(وَلاَ بُدَّ لِلقَلْبِ مِنْ آلَةٍ وَرَأْيٍ يُصَدِّع صُمَّ الصَّفَا)
وَكُلُّ طَرِيقٍ أَتَاهُ الفَتَى ، عَلَى قَدَرِ الرِّجْلِ فِيهِ الخُطَى

وفى قوله : « وَأَنِّى وَفَيْتُ » البيتان ، إشارات بينة إلى ما مضى فى كلامنا عن نسبه وغيره ، ولا نُطيل بإعادتها هنا مرّة أخرى . وكذلك أرْغَم / أبو الطيب أنوف أعدائه ٢٧٠ جميعاً ، وأراهم أن عزمه لا يزال ماضياً متقحّماً لا يُرَدُّ على بعد الشقة وتطاوُلِ الأيام ، وأنه قَرَّب إليه ما كانوا يباعدونه عنه بتهكمهم وسخريته به إذ قالوا : « مَا أَنْتَ فى كل بلدة ! وَمَا تَبْتَغِى ؟ » .

وقد صدق إذ قال :

إذا فَلَّ عَزْمِى عَنْ مَدًى خَوْفُ بُعْدِهِ ، فأَبْعَدُ شَىْءٍ ، مُمْكِنٌ لَمْ يَجِدْ عَزْمَا

* * *

لَمْ يَرِدْ فى خبر أبى الطيب ومدخله الكوفة فى شهر ربيع الأول من سنة ٣٥١ شىءٌ يمكن أن يتوجه به التاريخ فى هذه الفترة إلى وجه بعينه . والذى فى رواية الرواة أنه تَوَجَّه بعدها إلى مدينة السلام (بغداد) ، ولكن من قبل رحلته حدث بالكوفة حَدَثٌ حضره المتنبى ، وذلك أنَّ رجلاً خارجيًّا كان قد ثار بالكوفة ، وكان من بنى كلاب ، واجتمعت إليه فئة من المقاتلة الخوارج ، فانْتَهض إليهم أبو الفوارس دِلِّير بن لَشْكَرَوَّزَ ، وانصرف هذا الخارِجىُّ قَبْل وصول دِلِّير إلى الكوفة ، فمدحه أبو الطيب ، وأنشده وهو فى الميدان ، فَحمله على فرسٍ بمركب ذهب . ولسنا نعرف سَبَباً لمدح أبى الطيب هذا الرجل (دِلِّير) ، ولم يرد فى كتب التاريخ التى بأيدينا ذكر هذا الحادث ، ولا ذكر الخارجى الذى ثار بالكوفة فى سنته تلك . وهذا مما يجعلنا نأخذ الحذر فى القطع برأيٍ ، والظاهر أن لهذا الرجل (دلير) علاقة بالمشاكل العلوية التى كانت لذلك العهد بالكوفة ، وأنه كان ممن يميلون إلى الجانب الذى فيه سيف الدولة ، وأبو الطيب ، فإنّ نفْس أبى الطيب ، كما رأيت كانت نفسَ الرجل المنتصر الظافر الذى خرج من هُوجِ العواصف سالماً غالباً ، كما مرّ بك فى قوله :

فَلَمَّا أَنَخْنَا رَكَزْنَا الرِّمَا حَ بَيْنَ مَكارِمِنا والعُلَى

/ أقام أبو الطيب بالكوفة أشهراً ثم خرج من سنته تلك إلى بغداد فنزل على صاحبٍ له هو على بن حمزة البصرىّ ، [1] وأقام عنده فى داره . وبيّنٌ من نُزُول أبى الطيب على هذا الفتى دون سواهُ من رجال الدولة فى ذلك العهد ، أنّه قصد بذلك أن يبدىَ ٢٧١

(١) انظر ص : ١٦٤ ، التعليق : ٣ .

بفعله ازدراءَهُ لهم ، واستهانته بهم . ولعله كان مما أراد أيضاً أن يكون على مقربةٍ من سياسة الدولة ، ليخبُرَ الرجال الذين كانوا يُوقِدُون نار الفتنة إذ ذاك ، وليَزِنَ ما عندهم . وهذا بيّنٌ مما قدمناه قبل ، [1] من المراسلة التى كانت بينه وبين سيف الدولة . وبيّنٌ أيضاً أنه كان متعالَماً عند أهل السياسة فى ذلك العهد أن أبا الطيب كان مَقْدَمهُ من أجل ذلك ، فقد ذكر الحاتمىُّ (صاحب الرسالة الحاتمية) : أن معز الدولة بن بُوَيه الديلمىّ (ساءَهُ أن يَرِدَ على حضرته رجلٌ صَدَر عن حضرة عدوّه) ، يعنى سيف الدولة .

ثم إنَّ أبا الطيب لم يقف أمرُهُ عند ذلك ، بل قد رغب إليه جماعةٌ من أصحاب الوزير المهلبىّ أن يمدح الوزير ، فأبى عليهم أبو الطيب وجَبَهَهم بأسوأ الردّ . وكان السبب فى سوء ردّهم أن أبا الطيب ، كما علمت ، لم يكن يرضى أبداً عن هؤلاء الأعاجم الذين مزّقوا الدولة العربية وتقاسموها بينهم – ونعنى منهم هنا بنى بويه – وكان المهلبىّ وزير مُعِز الدولة البويهىّ ، وكان مشايعاً لهم فى كثيرٍ . وعلى أن مُشَايعة الوزير المهلبى لبنى بويه كانت ، فيما نرى ، ارتفاقاً للرزق ، فإن أبا الطيِّب لم يعبأ به ، بل أغضى عنهُ تهاوناً وازدراءً . فأحفظ ذلك الوزير المهلبى ، فآسد عليه الأدباء والشعراء وأغراهم به ليغيظوهُ ويكيدوا له ، ويغلظوا / له القول فى مجلسه . فكان ما رأيت قَبْلُ من هجائهم إيّاه ، وزعمهم أن أباه كان سقاءً بالكوفة ، كما ورد فى الشعر الذى قدمناه فى أول الأبواب . ٢٧٢

ولا يفوتنّك هُنَا أن تعلم أن التنوخى الذى روى قِصَّة نسبه كان بالعراق لذلك العهد . وأيضاً أنَّ ابن أم شيبان الهاشمى ، وأبا الحسن الزيدى العلوىّ كانا كذلك ببغداد . وقد رأيت فى الباب الأول كلامَنا عن هؤلاءِ وما ادّعوه من أن أباهُ كان سقاءً ، فاجتماع هؤلاء ببغداد ، ومقدم أبى الطيب عليها من أجل السياسة ، وهو عدوّ بنى بويه ، إذْ كان من أصحاب سيف الدولة ، ورجلاً من الذين اتخَذَهم لسره وآرائِه السياسية ، ثم ما كان من امتناعه عن مدح الخليفة العباسى ومعز الدولة الدّيلمى (العلوى الفاطمى)

---

(١) من ص : ٣٢٧ – ٣٣١

المذهب ، وازدرائِه لِوَزير معز الدولة (أبى محمد المهلبى) ، ثم ما كان من عداوة الشعراء والأدباء له بإغراء المهلبى وغيره ، نقول : إن هذا كله ممّا يجعلك تستيقن فسادَ الروايات التى يرويها الرواةُ عن أمر المتنبّى ، وخاصّةً ما كان ظاهرَ التحامل ، بيّن الضَّغينة ... عفا الله عنهم !! لقد رَمَوا الرجل بكلّ نَقِيصة ، ووضعوا لكل ما كان يتمدَّحُ به فى شعره قصّة تخالف ذلك : رأوا المتنبى يتمدحُ بالكرم ويمدحُ عليه ، فوضعوا القصص فى بُخْله وشَرَاهته على المالِ ، ورأوه يمجّد الرجولة والشجاعة ويصف بها نَفْسه ، فوضعوا الأكاذيب فى حكايات جُبْنه وخَوَره .... إلى غير ذلك من الأحاديث التى لا تصلح لتحقيقٍ ولا ترجمة .

* * *

وبقى أبو الطيّب ببغداد مستهيناً بكل كيدٍ وحقدٍ ، وأخذَ يقرأ ديوانه على بعض أصحابه بدار علىٍّ بن حمزة البصرىّ . ثم فرغَ من أمره ورجع إلى الكوفة / فى أواسط سنة ٣٥٢ وبقى بها ، ولم يقل شعراً بلغنا ، إلى أن بدأت سنة ٣٥٤ فارتحل إلى بغداد ، وكان الوزير المهلبىّ قد مات . ٢٧٣

والظّاهر من أمر أبى الطيب أنّه حين بلغه وهو بالكوفة فى سنة ٣٥٢ موتُ « خَوْلة » أخت سيف الدولة ، تمزَّقَتْ أحْلامه ولم يبق له قلب يمدُّه بالقوة والتدافع والثورة ، كالذى كان له من قبلُ ، واستيأسَ من أمره إلاّ قليلاً . فلما جَاءَهُ كتاب سيف الدولة فى ذى الحجة من سنة ٣٥٣ يذكُرُ العوائق التى تمنعه عن فتح العراق ، ويبيِّن له ما هو فيه من الكَرْب والضيق والعُسْر ، على ما قدمنا فى شرح قوله : (١)

« فهمتُ الكتابَ ، أبَرَّ الكُتُبْ فَسَمعاً لأمْرِ أميرِ العَرَبْ »

---

(١) ص : ٣٣٠ .

..... أُحِيط بأبى الطيّب ، وأسلمت نَفْسه قيادَها لأحزان قَلْبه ، فلم يحمِلْ نَفْسه على الرحلة إلى سيف الدولة ، لئلاّ يُذَكِّرُه المكانُ وأهلُهُ ، بمكان قَلْبِهِ والسّاكنيه ، نعنى « خولة » ، فأراد أن يَنْسَى هَمَّهُ بقَصْد أرضٍ غيرِ الشام التى يتلَفَّتُ قلبه إليها فى حنينٍ وأنينٍ وبكاءٍ .

وكان أبو الفضل بن العميد ، [1] وهو بالرىّ ، يخرج كل عام خَرْجَتين إلى أَرَّجان ، فبلغه مقدمُ المتنبى إلى بغداد ، فراسله ، وعزم عليه فى الحضور إليه بأرَّجان . وقد زعموا أنّ ابن العميد « كان يسمع بأخبار أبى الطيب ، وكيفيّة اشتهاره فى الأقطار ، وترفُّعِه عن مدح الوزراء ، فسمع أنهُ خرج من / مدينة السلام متوجهاً إلى بلاد فارس ، وكان يخاف أن لا يمدحه ، ويعامله معاملةَ المهلبىّ = فيتكرَّه من ذكره ، ويعرض عن سماع شعره » . والصحيح من هذا أن ابن العميد كان يخاف أنّ لا يعبأ به المتنبى ، فراسله وأسبغ عليه من فواضله . فمضى أبو الطيب فى سيره من بغداد إلى أرَّجانَ يصحَبُه تلميذه علىُّ بن حمزة البصرى . قال علىٌّ هذا : « فلما أشرف عليها (أبو الطيب) ، وَجَدها (يعنى أرّجان) ضَيّقةَ البُقْعة والدُّور والمساكن ، فضرب بيده على صدره وقال : تركتُ ملوكَ الأرض وهم يتعبَّدُون بى ، وقصدتُ ربَّ هذه المَدَرة .... ؟! فما يكون منه !! ثم وقف بظاهر المدينة وأرسلَ غلاماً له على راحلته إلى ابن العميد ، فدخل عليه وقال : مولاى أبو الطيّب المتنبى خارج البلد – وكان وقت القَيْلُولة ، وهو مضطجع فى دَسْتِه – فثار من مَضْجعه ، واستثبته ، ثم أمر حاجبه باستقباله ، فركب واستركب من لقيه فى الطريق ، ففصل عن البلد بجمعٍ كثير ، فتلَّقوه وقَضَوا حقّه وأدخلوه البلد . فدخل على أبى الفضل فقام له من الدَّسْتِ قياماً مستوياً ، وطُرِح له كرسىٌّ عليهِ مِخَدَّةُ دِيباجٍ ، وقال أبو

٢٧٤

---

(١) هو محمد بن الحسين بن محمد الكاتب وزير ركن الدولة الحسن بن بويه الديلمى ، وكان عالماً أديباً فصيحاً ذا بيان ، وكان من أئمة الترسل ، وقد سمى بالجاحظ الثانى ، وكان من دهاة السياسة وتدبير الممالك .

الفضل : كُنت مشتاقاً إليك يا أبا الطيب ..... » ، وكان دخول أبى الطيب أرَّجان ولِقاؤُه ابنَ العميد فى شهر صفر سنة ٣٥٤ .

كان آبنُ العميد من رجال عصره فى السياسة وتدبير الملك ، ومن شيوخهم فى العلم والفلسفة وما إليهما ، ومن أفذاذ البلغاء والأدباء ، وكان أمةً وحده . فلا عجب أن يحتفل له بيانُ أبى الطيب احتفالاً عظيماً فى أوَّل اللقاء ، فيمدحه بقصيدته المشهورة : « بَادٍ هَوَاك صَبَرْتَ أَمْ تَصبْرَا » ، والتى يقول فيها يصف آبن العميد :

/ مَنْ مُبْلِغُ الأَعْرابِ أَنِّى بَعْدَها جَالَسْتُ رِسْطَالِيس وَالإِسْكَنْدَرَا ٢٧٥
وسَمِعتُ بَطْلَيْمُوس دَارِسَ كُتْبِه مُتَمَلِّكاً مُتَبَدِّياً مُتَحَضِّرَا
وَلَقِيتُ كُلَّ الفَاضِلِين كَأَنَّما رَدَّ الإِلٰهُ نُفُوسَهمْ والأَعْصُرَا

وأكرمه آبن العميد واحتفل له ، فبقى عنده المتنبى شهرين أو أشفَّ قليلاً ، وكان المتنبى ، وهو فى جوار ابن العميد ، لا يزال يُعاوده همُّ قلبه ويغلبُه اضطرابُ نفسه ، فكان ذلك فى شعره ، ولكنه كان يتماسكُ على الضعف ، ولا يعطى المقادة إلاَّ مقهوراً . وقد وقع ذلك فى قصيدته التى مدح بها ابن العميد ، وفطن ابن العميد إلى هذا الاضطراب فى شعر أبى الطيب . رووْا أنه لما أنشده :

بَادٍ هَوَاك ، صَبَرْتَ أمْ لَم تَصْبِرا وبُكاكَ ، إنْ لَم يَجْرِ دَمْعُكَ أو جَرَى
كَم غَرَّ صَبْرُكَ وَآبْتِسامُكَ صَاحِباً لمَّا رآك .... وفِى الحَشا مَا لاَ يُرَى !!

فقال له ابن العميد : يا أبا الطيب ، أتقول : « بادٍ هواك ، ثم تقول بعده : كم غَرَّ صَبْرك » ؟ ما أسرع ما نَقضْت ما ابتدأت به !! فكان جوابُ أبى الطيب : « تلك حالٌ ، وهذه حالٌ » . وهذا هو ما نُقول به .... فإنّ أبا الطيب كان يذكُر « خولة » أحياناً فلا يُخْفِى هَوًى ، ولا يَرُدُّ دمعاً ، وتنطلقُ عواطفه من عِقال رجولته ، فَإذا ما ارتدَّت إليه قُوّتُه وإرادته ، ردَّ ذلك برجولته وأبدى الصَّبر ، وأظهر الابتسامَ والرضى . وهذه حالةٌ من أحوال الحُبّ الطاغى المسيطر ذى السلطان والغَلَبة . وظهورُها فى شعر أبى الطيب فى بيتين

متعاقبين ينقضُ معنى أحدهما معنى الآخر ، كما قال ابن العميد ، دليلٌ على أن الرجل كان أَخِيذاً فى أَسْرِ الهوى لا يملك نفسه ، ولاَ يَجِدُ فى تَنَاقُض مَعانِى البيتين شيئاً . وذلك لأن هذا التناقض الذى نراه فى معانى شعره ، يكون عنده اتساقاً فى معانِى / عواطفه وحبه ، وتعبيراً بليغاً صادقاً عن إحساسِهِ وضميره وحاجة نفسه ، ... فهذا قوله : « تلك حال ، وهذه حال » .

٢٧٦

وَٱنظرْ .... ، فإن الرجُل حينَ ودع ابن العميد قال : [سنة ٣٥٤] :

وَمَنْ لِي بِيَوْمٍ مِثْلِ يَوْمٍ كَرِهْتُهُ ،	قَرُبْتُ بِهِ عِنْدَ الوَدَاعِ مِنَ البُعْدِ
(وَأَلاَّ يَخُصَّ الفقدُ شَيْئاً ، .. لِأَنَّنِى	فَقَدْتُ ، فلم أَفْقِدْ دُمُوعِى ولاَ وَجْدِى)
تَمَنٍّ يَلَذُّ المُسْتَهامُ بِذِكْرِهِ ،	وإن كَانَ لاَ يُغْنِى فَتِيلاً ولاَ يُجْدِى
وَغَيْظٌ على الأيامِ كَالنَّارِ فى الحَشَا ،	ولكنَّهُ غَيْظُ الأَسيرِ عَلَى القِدِّ
فَإِمَّا تَرَيْنِى لا أُقِيمُ بِبَلْدَةٍ	فَآفَةُ غِمْدِى فى دُلُوقِى مِنْ حَدِّى [1]

وهذه الإشارة التى فى البيت الثانى بقوله : (لأنني فقدتُ ....) ، هى إلى صاحبته « خولة » التى ماتت فى سنة ٣٥٢ ، فلم ينسها بل بقى مضطرباً مغلوباً على أمره لا يستطيع الصبر تارةً فتغلبُه دموعُه ، ويتحاملُ أُخرى بصبره فينطوى على وَجْده ولوعته ، .... والنارِ التى فى حَشاهُ .

* * *

---

(١) « الدلوق » ، سرعة انسلالِ السيف وخروجه من غمده . يقول : إن رأيتنى منزعجاً لا أقيم ببلدة ، فإن ذلك لمضائى كالسيف الحادّ ، تخرجه حِدّة حدّه ، فينزلق فيخرج بغتةً من غمده .

– ١٦ –

****

مَغَانى الشِّعْبِ طِيباً فِى المَغَانِى
بِمَنْزِلَةِ الرَّبيعِ مِنَ الزَّمَانِ
وَلٰكِنَّ الفَتَى العَرَبىَّ فِيهَا
غَرِيبُ الوَجْهِ واليَدِ واللِّسَانِ
مَلاَعِبُ جِنَّةٍ ، لو سَار فيهَا
سُلَيمَانٌ لَسَارَ بِتَرْجُمَانِ
إذَا غَنَّى الحَمامُ الوُرْقُ فِيها
أجَابَتْهُ أغانِىُّ القِيَانِ
وَمَنْ بالشِّعْبِ أحْوَجُ من حَمَامٍ
– إذَا غنَّى وناحَ – إلَى البَيَانِ
وَقَدْ يَتَقَارَبُ الوَصْفَانِ جِدًّا
ومَوْصُوفَاهُمَا مُتَبَاعِدَانِ

****

/ ورَد على أبى الطيب – وهو عند ابن العميد – كتابٌ من عَضُد الدولة بشِيرازَ ٢٧٧ يستزيره ويطلب منه المسير إليه ، ولم تكن لأبى الطيب رغبةٌ تحملُهُ ، فلم يخفَّ إلى استدعائه . فكلمه ابن العميد فى ذلك فقال له : ما لى وللدَّيلم ؟ فقال له : عَضُد الدولة أفضل مِنِّى ، ويَصِلك بأضعاف ما وصلتُك به . فقال أبو الطيب : « إنى مُلَقًّى من هؤلاءِ الملوك ، أقصِدُ الواحد بعد الواحد ، وأملِّكهم شيئاً يبقى بقاءَ النَّيِّرَيْن ، ويُعْطُوننى عَرَضاً فانياً .... ولى ضَجَراتٌ / واختيارات ، فيعوقوننى عن مُرادى ، فأحتاج إلى ٢٧٨ مفارقتهم على أقبح الوجوه !! » [١] فكاتب ابنُ العميد عَضُدَ الدولة بهذا الحديث ، فورد

---

(١) أعد قراءة هذا النص . فإنه ملئ بإشارات كثيرة تطابق أكثر الذى قلناه فى هذا الكتاب .

الجواب بأنه مُملَّكٌ مُرادَه فى المُقَامِ والظَّعَن . فسار المتنبى من أرَّجان ، فلمّا كان على أربعة فراسخ من شيراز ، استقبله عَضُد الدولة بأبى عُمَر الصبَّاغ ، فلما تلاقيا وتسايرا ، استنشدهُ ، فقال المتنبى : الناس يَتَناشدون ، فآسمعه . (١) فأخبره أبو عُمَر أنه رُسِم له ذلك من المجلس العالى . ثم دخل البلد ، فأُنزِل داراً مفروشةً ، وأُنشدَ أبا عمر قَصِيدته التى قالها فى الكوفة ، والتى قال فيها ، [انظر ما سلف : ٣٦٩ ، ٣٧٤] .

فَلَمَّا أَنَخْنَا رَكَزْنَاالرِّمَا ... حَ بَيْنَ مَكَارِمِنا والعُلَى
وَبِتْنَا نُقَبِّلُ أَسْيافَنا ، ... ونَمْسَحُها من دِماءِ العِدَى
لِتَعلم مِصْرُ ، وَمَنْ بالعِرَاق ، ... ومَنْ بالعواصِم ، .... أَنِّى الفَتَى
(وأَنِّى وَفَيْتُ ، وأَنِّى أَبَيْتُ ، ... وَأَنِّى عَتَوْتُ عَلَى مَن عَتَا)

فرجع أبو عمر الصباغ إلى عضد الدولة فأخبره بما جرى ، وأنشده هذه الأبيات ، فقال عضد الدولة : « هَوْناً ..... يتهدَّدنا المتنبى !! » .

وبيّنٌ مما روينا لك أن أبا الطيب كان لا يزال يَحقِر الأعاجم ويبغضهم لما أصابوا به قومه من البلاء ، وكان استعصاؤه على ابن العميد وجِدَالُهُ معه فى الرحلة إلى عضد الدولة ، من أجل مذهبه السياسى ، ومن أجل أن هؤلاءِ ، بنى بُوَيْه ، كانوا أعداءَ صاحبه سيف الدولة = ومن أجل أنهم كانوا من / شِيعة العلويين الفاطميين الذين لا يرضى عنهم أبو الطيب ولا سيف الدولة = ومن أجل أنه يعلَمُ أن مدِيحَهُ فيهم سيُبْقى لهم ذكراً خالداً فى شعره ، وهم له أعداءٌ ، ولكن الرجلَ ، كما علمت قبلُ ، كان مضطرباً قد داخَلَه اليأس واستبدَّ به ، فسار وهو يقول : ٢٧٩

وَأَيًّا شِئْتِ يَا طُرُقِى فكونى ، ... أَذَاةً ، أو نَجَاةً ، أو هَلاَكَا

فلما دخل شيراز واستقبله أبو عمر الصبَّاغ ، واستنشدهُ كأنه يختبرُ شعره ، لم يصبر المتنبّى فرماهُ بقوله : « الناس يتناشَدُون ، فاسمعه » ، إذ كان شعرهُ قد سارَ مسير النيّرين الشمس والقمر ، فلما عرف أن ذلك الطلب بأمر من عضد الدولة ، غضِب

(١) أعد قراءة هذه الجملة مرَّاتٍ ، فإنّ فى ضميرها حقيقة أبى الطيب .

لنفسه ولعربيَّته ولشعره ، فاختار من قصائده قصيدةً فيها ذكر ظفره بمراده ، وفَلَجِه على الخصوم من الملوك والأمراء ، وهجاءِ كافورٍ الذى كان عنده قبل أن ينزل على عَضُد الدولة ، لتكون هذه القصيدة تهديداً ووعيداً وإنذاراً ، ومقابلةً لإساءة عضد الدولة بإساءةٍ مثلها . ولذلك لما سمع عضد الدولة :

« وأنى وفَيتُ ، وأنّى أبَيْت ، وأنّى عَتَوْتُ على من عَتَا »

عرفَ مرادَ المتنبى فقال : « هوناً .... يتهددنا المتنبى !! » .

* * *

وبيّنٌ أنّ هذا اللقاءَ الأوّل ، وَضع بين أبى الطيّب وعضد الدولة أسباب الحذرِ والاحتراس ، فكان أَحدهما يتملَّقُ الآخَر خوف البَغْى والعدوان . ولا شكّ أنَّ عضُدَ الدولة كان يعلم من أمر هذا الداهية السياسى ، أبى الطيّب ، كثيراً ، وكان يُرْصِدُ عليه العيون والرقباء .... على أن أمرَ أبى الطيّب ، كان / بيِّناً ، فإنه حين حضر سِماط عضد الدولة بعد أيام من مَقْدَمه عليه ، أنشده قصيدته التى أولها ، [سنة ٣٥٤] : ٢٨٠

مَغَانِي الشِّعبِ طيباً فى المَغَانِى بِمَنْزِلةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ
ولٰكنّ الفَتَى العَربىَّ فِيهَا غَرِيبُ الوَجْهِ ، وَاليَدِ ، واللِّسَانِ
مَلاَعِبُ جِنَّةٍ ، لو سَار فيها سُلَيْمَانٌ لَسَار بتَرْجُمانِ

فهذا هجاءٌ بيّنٌ لأرض فارس وأهلها . فقد زعم أن سُليمان عليه السلام = الذى عُلِّم منطق الجنِّ والطير والحشرات والبهائم = لو دَخل أرْضَهُم لاحتاج إلى ترجمان ، فأخرجَهُمْ بذلك من منزلة من ذكرنا وجعلهم دونهم ! وأنّهُ = من هَوَانهم على الله ، وقِلّتهم فى الأرض = لم يُعَلِّم الله سليمانَ لسانَهم ، وليس يخفَى هذا على مثل عضد الدولة . ولم يكتف أبو الطيب بذلك ، بل أتبع هذا قوله بعدُ :

إِذَا غَنَّى الحَمامُ الوُرْقُ فيها أَجَابَتْــه أَغَانِــىُّ القِيَــان
(وَمَنْ بِالشِّعْب ، أحوجُ مِن حمامٍ — إِذَا غَنَّى وَنَاح — إلى البَيَانِ)

فتمَّم المعنى وأبان مقصده من الأبيات الأولى ، إذ جعلهم أقلَّ منزلةً من الطير فى البيان والإفصاح . ولم يكتف أيضاً بهذا ، بل أراد أن يُعْلِمَ عَضُدَ الدولة ، أن هذه البلاد ليست مكانه الذى يرتاح إليه ، وليست بالأرض التى تحرِصُ عليه أو يَحرصُ عليها ، وَأنه غريبٌ عنهم ، وأن مدحه لهم ليس شيئاً ، وأنه عربىٌّ ليس بأعجمى يميل إليهم أو يكون له شأنٌ بينهم ، فقال :

وَلٰكنَّ (الفَتى العَرَبِىَّ) فِيها (غَرِيبُ الوجْهِ ، واليَدِ ، واللِّسَانِ)

٢٨١ فَكُلّ ما قال أبو الطيب فى مديح هذا الديلمى (عضد الدولة) ليس / من قلبه ولا من نفسه . وشعرهُ بيِّنُ الدلالة على أن الرجل كان يقول مُتَكلِّفاً بعد أن أُحرج بمقدمه عليه . وقد فَطَن عضد الدولة إلى كُلِّ هذا ، فقد كان أديباً شاعراً جيد القَرِيحة ، وقال :

« إن المتنبى كان جَيِّد شِعْره بالغَرْب » (يعنى غرب فارس) ، ويُشير بذلك إلى عدُوِّه سيف الدولة خاصةً . وبلغت المتنبى مقالةُ عضد الدولة فقال : « الشعْرُ على قَدْرِ البقاع » .... وهذا تصريح بليغ ، ولا شك أن عضد الدولة أُخبر بقول المتنبى هذا .

ولم يكن كل ذلك مما يمنَع هذا الملكَ المدبِّر عَضُدَ الدولة الدَّيلمى = الذى وَصَل بدهائه وسياسته وحُسْن تدبيرِه أن كان أوَّلَ من خُوطب بالمَلِك فى الإسلام ، وأوَّلَ مَنْ خُطِب لهُ على المنابر بعدَ الخليفة = من أن يكسوَ أبا الطيب من نِعمته ، ويُغْرِقه بِنَدَاهُ وكرمه . فإنهم يروون أنه حين أنشده : « مغانى الشعب .... » ، حمل إليه من أنواع الطِّيب فى الأَردية والأَمنان ، من بين الكافور والعَنْبر والمِسك والعود ، وقاد إليه فرسه الملقب بالمَجروح = وكان قد اشترِى له بخمسين ألف شاةٍ = وبدرةً دراهمها عَدْلِية ، ورداءً حَشْوُه ديباجٌ رُومىٌّ مفصَّل ، وعمامةً قُوِّمَتْ بخمسمئة دينار ، ونَصْلاً هنديًّا مرصَّعَ النجاد والجَفْن بالذّهب .

هذا ، .... وقد كان الجمال الطبيعى ، الذى مَسَح الله به بلاد فارس ، ممّا أراح نفس أبى الطيب وأزاح همَّها قليلاً ، فكان شعرُه الذى مدح به عَضُدَ الدولة مقارباً ليس فيه اضطرابٌ بينٌ ، أو أثرٌ ظاهرٌ من داءِ قلبه ، إلاَّ فى أبيات قلائل . ولم يظْهر فى شعره ذلك ، لأن مُدَّة إقامته هناك كانت قليلة ، فإنه بقى بشيراز على الأرجح من أواخر ربيع الآخر إلى أول شعبان من سنة ٣٥٤ .

/ ولكن ظهر هَمُّ أبى الطيب واستعلن ، وعادت إليه ذكرى « خولة » وموتها ، وذكرُ آمالِه ومغامرته وجرأته ، حين توفيت عَمَّة عضد الدولة ، فرثاها بقصيدةٍ ليس فيها شيءٌ إلاَّ هٰذِه الأبيات ، [سنة : ٣٥٤] : ٢٨٢

لاَبُدَّ لِلإِنْسَانِ مِنْ ضَجْعَةٍ لا تَقْلِبُ المُضْجَعَ عَن جَنْبِهِ

يَنْسَى بِها مَا كَان مِنْ عُجْبِهِ ، وَمَا أذاقَ المَوْتُ من كَرْبِهِ

نَحنُ بنُو المَوْتَى ... ، فما بالُنا نَعافُ ما لاَبُدَّ مِنْ شُرْبِهِ !!

تَبْخَلُ أيدِينا بأَرْواحِنَا عَلى زَمانٍ هِىَ مِنْ كَسْبِهِ !!

فَهٰذِهِ الأَرْوَاحُ مِنْ جَوِّهِ ، وهٰذِه الأجسامُ مِنْ تُرْبِهِ !!

(لَو فَكَّرَ العَاشِقُ فى مُنْتَهَى حُسْنِ الَّذى يَسْبِيهِ ، لم يَسْبِهِ)

لَم يُرَ قَرْنُ الشَّمس فى شَرْقِه ، فَشَكَّتِ الأَنْفُسُ فى غَرْبِهِ

يَمُوتُ رَاعِى الضَّأْنِ فِى جهْلِهِ ، مِيتَةَ جَالِينُوسَ فى طِبِّهِ

ورُبَّما زَادَ علَى عُمْرِهِ ، وزَاد فى الأَمْنِ علَى سِرْبِه

وغايَةُ المُفْرِطِ فِى سِلْمِهِ ، كغَايَةِ المُفْرِطِ فِى حَرْبِه

فَلاَ قَضَى حَاجَتَهُ طَالبٌ فُؤَادُه يَخْفِقُ مِنْ رُعْبِهِ

ففى هذه أثرٌ بيّن لتفكُّرِ أبى الطيب فى الموت ، بعد الذى لَقِىَ من فقد « خولة » ، كما بيناه فى مواضع .

* * *

- ١٧ -

****

لاَ بُدَّ لِلإِنْسَانِ مِنْ ضَجْعَةٍ
لاَ تَقْلِبُ المُضْجَعَ عَنْ جَنْبِهِ
نَحْنُ بَنُو المَوْتَى ، فَمَا بَالُنَا
نَعافُ مَا لاَ بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ !!
يَمُوتُ راعِى الضَّأْنِ فِى جَهْلِهِ
مِيتَةَ جَالِينُوسَ فى طِبِّهِ
ورُبَّمَا زَادَ علَى عُمْرِهِ
وزَاد فِى الأَمْنِ علَى سِرْبِهِ
وَغَايةُ المُفْرِطِ فى سِلْمِهِ
كَغَايَةِ المُفْرِطِ فى حَرْبِهِ
فَلاَ قَضَى حَاجَتَهُ طَالِبٌ
فُؤَادُهُ يَخْفِقُ مِن رُعْبِهِ

****

/ أشرنا قبلُ إلى أن الرجلين (أبا الطيّب وعَضُدَ الدولة) ، كانا يتخادَعان ، وأنهما ٢٨٣ كانا فى الباطن عدوَّين لا يأمن أحدهما جانب صاحبه ولا غَدْرته ولا سُوءَ المنقلب . ويُبِينُ لك عن هذا أن أبا الطيب مع إكرام عضد الدولة له ، كما رأيت ، لم يستطع القَرار بأرض فارسَ أكثرَ من ثلاثة أشهر ، ولولا ما أشرنا إليه لَاستطابَ أبو الطيب المكانَ الذى وجد فيه غاية الإكرام ، والمالَ الكثير المبذول ، والعَطايا السابغة الكريمة . وهو مع ذلك دليلٌ على أن أبا الطيب ليس من الطمع والحرص على المال بالمنزلة التى يذكرونها بها ، / ويتابعهم ٢٨٤ عليها كثير من الذين نصبوا أنفسهم للكتابة عن الرجل والترجمة له من المحدثين ......

وقَضِيَّة هذه العداوة بين أبى الطيب وبنى بُوَيْه الدَّيْلميِّين قضيةٌ مُعقَّدة طويلةٌ ، ولها فى التاريخ الإسلامى والعربىّ أسباب ممتدة . ونحن نختصرها هنا ونجعلها فى وجهين قريبين :

فالأوَّل منهما : ما عُرِف عن أبى الطيب من بغضاءِ الأعاجم على ما فصلناه فى مواضع .

والآخر : هو المسألة السياسية المتصلة بالخلافة العباسية ، والدعوة العلوية ، والدعوة الفاطمية والدعوة القَرْمَطية ... وهٰذه هى أكبر مشاكل التاريخ الإسلامى ، وخاصة فى هذا العصر الذى كان المتنبّى أحدَ رجاله الأفذاذ .

كان العلويون يريدون إخراج سلطان الخلافة من يد العبَاسيين إلى أيديهم ، وقد تمكنوا بالدعوة التى قام بها الدعاة العلويون أن يحزموا أمرهم ، ويجمعوا إليهم رؤوس الدولة فيكونوا من شيعتهم . وكان من شيعة العلويين ، ممن نذكرهم هنا ، بنوبُوَيه الديلميون ، وبنو حمدان العرب التغلبيون . ثم غلبت على بنى بُوَيْه الدعوة الفاطمية فصاروا من العاملين عليها فى المشرق ، واستعصى على هذه الدعوة بنو حمدان . وكانت سياسة بنى بويه علويةً أعجمية ، وكانت سياسة بنى حمدان علويَّةً عربية . فاشتعلت البغضاء بينهما ، ثم زاد العداوة وضَرَّاها وضرَّمها ما كان من استجابة بنى بُوَيْه للدعوة الفاطمية ، واستعصاء بنى حمدان عليها ومناوأتهم إياها فى الشام والموصل . وكان بنو بُوَيْه يعلمون أن بنى حمدان قد أدركوا خفايا السياسة الدّيلمية الأعجمية المظاهرة للدعوة الفاطمية ، / وأنهم يعملون على نَقْضِها . وكان دليلَ ذلك عندهم مناصرةُ بنى حمدان للخلافة العباسية ، مع أنهم من رؤوس شيعة العلويين مذهباً وعملاً ، وقد علم بنو بُوَيْه أن هذه المناصرة إنما يرادُ بها إزاحة بنى بُوَيْه عن مواضعهم من العراق ، وإبعادِهم عن مَقرِّ الخلافة .

٢٨٥

فلما كان ما كان من أمر سيف الدولة وظهور سلطانه بالشام ، ووقوفهم على نيته فى اتخاذ العُدّة واستجلاب العَدَد ، وتهيئة أمره لفتح العراق ، على ما ذكرناهُ ، استحرَّت العداوة بين هؤلاء وهؤلاء ، وخاصة سيف الدولة ، وهو رأس بنى حمدان ، وأصلبهم عوداً ، وأشدهم مِراساً ، وأقدرهم رأياً ، وأحزمهم دهاءً ، وأبعدهم نظراً ، وأمضاهم عزيمةً وهمًّا . وكان من آثار ذلك ما أشرنا إليه قَبْلُ فى سبب حروب الروم وسيف الدولة .

وكان أبو الطيب ، كما علمت ، من المقرَّبين لدى سيف الدولة ، ولم يكن بنو بويه ليخطئوا معرفة الرجل ومذهَبه فى السياسة ، وأن هذا المذهب هو مذهب سيف الدولة ، فلذلك حَذِره عضد الدولة على ما رأيت ، وبقى له (عدواً مداجياً) . وقد كان أبو الطيب ، فيما ذهبنا إليه ، علوياً منكوباً فى نسبه ، فليس بمستنكرٍ أن يُرادَ به ، من قِبَل العلويين ، ما أريد به من قَبْلُ وهو بطبرية سنة ٣٣٦ ، حين أرصد له العلويون عبيدَهم السُّودان ليقتلوه ، [انظر ما سلف : ١٥٥ ، والتعليق : ١] فيكون من ذلك أن يسعى هؤلاء العلويون لدى عضد الدولة فى إيذاء الرجل والنيل منه . وأيضاً ما كان الدعاةُ الفاطميون يريدونه به لما يعلمون من أمرِهِ أوّلاً ، وإنكاره نسبهم ، وقوله إنهم من « نَسل اليهود » ، كما قدمنا فى خبر نبوته ، إذ قال : [انظر ما سلف : ٢١٥ ، ٢٢٧ - ٢٢٩] :

« فَلا تَسْمَعَنْ مِنَ الكَاشِحِينَ وَلاَ تَعْبَأَنَّ (بِعِجْلِ اليَهُود) »

/ يريدُ (بعجل اليهود) أحد الدعاة الفاطميين . ولَعلَّ الذى جعل الفاطميين يكيدون له ، سعايةُ الأسود الخصى كافور ، فإنه كان قد بذل أموالاً فى طلب المتنبى حين مخرجه من مصر قبل هجائه له ، فلا عجب أن يبذُل أكثر من ذلك بعد أن يبلغه الهجاءُ المفظِع المفزع ، وما فيه من السخرية والتمثيل به كقوله : ٢٨٦

(وأسودُ ، .... مِشْفَرُهُ نِصفُهُ) يُقَال لَهُ : أَنْتَ بَدْرُ الدُّجَى

وأبلغ من ذلك تحريضه أهل مصر على قتله والفتك به ، كقوله ، [سنة ٣٤٩] :

ألاَ فَتىً يُورِدُ الهِنْدِىَّ هَامَتَهُ كَيْمَا تَزُولَ شُكُوكُ النَّاسِ والتُّهَمُ
فإنَّهُ حُجَّةٌ يُؤْذِى القلوبَ بها مَنْ دِينُه الدَّهْرُ والتعطِيلُ والقِدَمُ
ما أَقدَرَ اللهُ أنْ يُخْزِى خَلِيقَتَهُ ولاَ يُصَدِّقَ قَوْماً فى الذى زَعَمُوا

وقد كان كافور ، كما قدمنا ، على صلة بالفاطميين والعباسيين معاً ، يخادعهم ويداجيهم معاً ، فليس بعيداً أن يكون هو الذى حمل الفاطميين الذين بالعراق على الإرصَادِ لأبى الطيّب ، وأن يكون بذل مالاً كثيراً للانتقام منه .

والظَّاهر أن عَضُد الدولة كان قد علم بكل ذلك الذى يُكادُ به أبو الطيب ، ففضّل أن يرفع يده عن دَمِه ، فأغْرَى بعضَ أتباعه بأن يُوقع فى نفس أبى الطيب شَيْئاً من الخوف والرُّعْب ، فيخفَّ أبو الطيب للرحلة عن شِيراز ، ويبتعد عن دياره ليلقى حتفه فى مكانٍ آخر . ولذلك « استأذنه المتنبى فى المسيرِ عن شيراز ليقضِيَ حوائج فى نفسه ثم يعود إليه » . وكان هذا من أبى الطيب ضَرْباً من ضروب دهائه ومخادعته ، فلمّا عزم الرِّحْلة ، كان من دهاء عضد الدولة أن زادهُ كَرامةً ليوقع فى نفسه أنّه مُصدّقُه ، « فأمر أنْ تُخلَع عليه الخلع / الخاصَّة ، وتُعاد صِلَتُهُ بالمال الكثير » ، ويقيننَا أن أبا الطيب حين ٢٨٧ وَجَد ذلك ، من إكرام عضد الدولة له ، وكان قَد بلغه طرفٌ من أخبار الكَيد الذى يُكادُ به ، عَرَفَ ما يريدُهُ عضد الدولة وما يُرَاد به ، ولذلك أشار فى آخر قصيدة مدحه بها = وهو مفارقٌ لَهُ فى أوَّل شعبان سنة ٣٥٤ = إشاراتٍ كثيرةً ، منها قوله :

وَمَنْ يَظُنُّ (نَثْر الحَبِّ جُوداً ، وَيَنْصِبُ تَحْتَ ما نَثَر الشِّبَاكَا)

وهذا المَثَل ، هُو مَثَلٌ لما تراهُ قبلُ من أمر عضد الدولة . ثم انظُرْ إلى يَأْسِ أبى الطيب وقد علم أنّه قد أُحِيطَ به ، وأنه مقتولٌ لا محالة .... إذ يقول :

« وَأَيًّا شِئْتِ يَا طُرُقِى فَكُونِى ، أَذَاةً ، أو نَجاةً ، أو هَلاَكَا »

....

« وَمَا أَنَا غَيْرُ سَهْمٍ فى هَواءٍ ، يَعُودُ ، ولَمْ يَجِدْ فيه آمتِسَاكَا »

فلما فصَل أبو الطيب من شِيراز ووصل إلى دَيْرِ العَاقُول – وهى ضيعة بالعراق – اجتَمَعت عليه بنو أسَدٍ وبنو ضَبَّة ، فقتلوه وقتَلوا غلمانه وقتلوا ولده محسَّداً . وقد قدمنا لك أنّ سيفَ الدولة كان قد أوقع بعمرو بن حابس من بنى أسدٍ ، وبَنِى ضَبَّة ، وبَنِى رياح من بنى تميم ، وذلك فى سنة ٣٢١ ، وقد هجاهم أبو الطيب فى مدحه لسيف الدولة فى تلك السنة . وكان ذلك المدح وهذا الهجاء سبباً فى أن أحْفظ عليه هٰؤلاء القوم من بنى أسدٍ وبنى ضبة .... [1] قال أبو الطيب لسيف الدولة ، وذلك قديماً فى سنة ٣٢١ :

---

(١) انظر ما سلف ص : ٢١٥ – ٢١٨ .

٢٨٨ / مَهْلاً أَلاَ للهِ ما صَنَع القَنَا فِي « عمرو حَابِ » و « ضبة الأَغْتَامِ »

يريد عمرو بن حابس من بني أسد .

لَمَّا تحكَّمت الأسِنَّةُ فيهمُ جارَتْ ، وهُنَّ يَجُرْنَ فى الأحكامِ
فَتركْتَهُمْ خَلَلَ البُيُوتِ كَأَنَّما غَضِبَتْ رُؤُسُهُم على الأَجسامِ
أَحْجارُ نَاسٍ فَوْقَ أرْضٍ من دَمٍ ، ونجومُ بَيْضٍ فى سَمَاء قَتامِ
وذِرَاعُ كلِّ أَبِى فُلاَنٍ كُنْيَةً حالتْ ، فصَاحِبُها أبو الأيتامِ

وآعلم أن بنى أسدٍ وبنى ضبة هؤلاء كانوا من شيعة العلويين ، والظاهرُ أنهم كانوا قد انحازوا إلى الأعاجم مخدوعين ، وصاروا بعدُ من شيعة بنى بُوَيْه الفاطميين . وليس يبعدُ أن يكون كافور هو الذى أمدَّهم بالمال ليقتلوا الرجل ، وتوسَّط له فى ذلك أصحابُهُ من أهل العراق العباسيين أو الفاطميين .

هذا هو مختصر القول فى مقتل أبى الطيب فى ٢٧ رمضان من سنة ٣٥٤ . أما ما يروونه من السخف فى حكاية مقتله بسبب القصيدة التى أولها :

مَا أَنْصَفَ القَوْمُ ضَبَّهْ وأُمَّهُ الطُرْطُبَّهْ
وَإنَّما قُلْتُ مَا قُلْتُ رَحْمةً لاَ مَحَبَّهْ

..... إلى آخر الفحش القبيح الذى ورد بها ، فلنا فى نقده ونقضه وُجوهٌ لا نطيل القول بها هنا ، ولها موضعها إن شاء الله من كتابنا . وأيضاً فقد وَرَد أن سبب قتله : « أنه لمّا وَرَد على عضد الدولة ومدحه ، وصله بثلاثة آلاف دينار وثلاثة أفراسٍ مُسْرَجةٍ مُحَلاَّةٍ بالذهب ، ثم دَسَّ له من يسأله : أين هذا العطاءُ من عطاء سيف الدولة ؟ فقال أبو الطيب : « إن سيف الدولة / كان يُعْطِى طَبْعاً ، وعضد الدولة يُعْطى تطبُّعاً » .... ٢٨٩ فبُلِّغ ذلك إليه فغضب . فلما انصرف من أرضِه ، جهّز إليه قوماً من بنى ضَبّة فقتلوه ، بعد أن قاتل قتالاً شديداً ثم انهزَم ، فقال له غلامه أينَ قولك :

الخَيْلُ واللَّيْلُ والبَيْداءُ تَعْرِفُنى والسَّيفُ والرُّمْحُ والقِرْطاسُ والقَلَمُ

فقال : قَتَلتنى قَتَلك الله ، ثم قاتل حتى قُتِل ..... » ، فمثل هذه الرواية لها تأويل وسياقٌ فيما قدمناه لك .

***

ورَحِم الله أبا الطيب إذ يقول :

سُبِقْنَا إلَى الدُّنْيَا ، فَلَوْ عاشَ أَهْلُها مُنِعْنَا بِها مِنْ جَيْئةٍ وذُهُوبِ
تَملَّكَها الآتِى تَملُّكَ سَالِبٍ ، وفَارَقَها المَاضِى فِرَاقَ سَلِيبِ

وأنت يا أبا الطيب

فَدَتْكَ نُفُوسُ الحاسِدِينَ ، فإنّها مُعذَّبةٌ فى حَضْرَةٍ ومَغِيبِ
وَفِى تَعَبٍ مَنْ يَحْسُدُ الشَّمْسَ ضَوْءَها وَيَجْهَدُ أَنْ يَأْتِى لهَا بِضَرِيبِ

٣ شوال سنة ١٣٥٤
٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٥

أبو فِهْر
محمود محمد شاكر

قَضيَّة المتنبى
وأربع تَراجم لَم تُنشَر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على آلائه ونعمه ، والصلاة والسلام على صَفوته من خلقه محمّدٍ رسول الله ، وعلى أبوينا إبرهيم وإسمٰعيل ، وعلى سائر رُسُله إلى عباده .

وبعدُ ، فهذا ما كنت كتبتُه قديماً فى صحيفة « البلاغ » بعنوان « بينى وبين طه » ، وكان غَرضى أن أكشف الحقيقة التى انطوَى عليها كتاب الدكتور طه حسين « مع المتنبى » . كتبتُها يومئذ والدكتور طه حسين حىٌّ بعدُ ، يستطيع أن يردَّنى إن جُرْت عن الحقِّ ، أمَّا اليوم فأنا أعيدُ نشرها بعد أن فارقنا ، غفر الله لنا وله ، ويستقبلها جيلٌ لم يشهدْ تلك الأيَّامَ ، وهى عندهُ خبرٌ من الأخبار . ولم أنشرها على ما كُتِبت عليه يومئذٍ ، إلاّ لأنها أصبحت تاريخاً يُرْوَى ، ولأنها تتضمَّنَ تفصيلاً كثيراً عن أشياءَ ذكرتُها فى كتابى ، يَبِينُ بها الفرقُ بين منهجى فى دراسة الشعر والشعراء ، وبين منهج غيرى ممَّن كتب سِيَرهم ، أو فسَّر شعرهم ، كما أشرت إليه فى المقدمة الأولى . ثم ضممتُ إليها ما كتبته فى مجلة « الرسالة » يومئذ عن « نبوّة المتنبى » ، وردّ أخى وصديقى الأستاذ الجليل سعيد الأفغَانى إلى أن انقطع القول بينى وبينه ، / لأنه أيضاً روايةُ تاريخ ، وإبانةٌ عن منهج . ثم لم أثبت شيئاً مما كُتِب عن كتابى هذا مما فيه ثناءٌ عليه ، لقلّة انتفاع هذا الجيل به ، إلا كلمةً واحدةً أثبتُّها ، لا لما فيها من ثناءٍ ، بل لأن صاحبها كانَ أستاذى وصديقى ، ولأن وفاتَهُ كانت أحد الأسباب الداعية إلى ترك الاستمرار فى نقد كتاب الدكتور طه ، رحم الله الرافعىّ ، وغفر له ولنا جميعاً . ٨/٢

ثم ألحقت بهذا التاريخ أربعَ تراجم للمتنبى لم تُنْشر ، لأن الكتب التى نُقِلَتْ عنها لم تزل مخطوطة ، ولأن فيها شيئاً جديداً كثيراً عنه ، لم يقع لى ولا لأحدٍ قبلى . وقد بيَّنتُ

أمْرَ أُولاهُنّ فى مقدمة هذه الطبعة الثانية ، وأمّا التراجم الثلاثُ الأُخَر ، فقد بيّنتُ أمْرهُنّ فى مقدمة الطبعة السابقة . وكان الفضلُ كلُّ الفضل فى الوقوف على هذه التراجم الثلاث الأخيرة ، مصروفاً إلى أخى وصديقى الأستاذ الجليل أحمد راتب النفاخ ، عضو مجمع اللغة العربية بدمشق ، نقل بعضها قديماً بخطّه ، وصوَّر لى بعضَها . وشكرى له لا يَفِى بقليل كرمِه ، فكيف بالكثير الذى غمرنى به آسياً ومُواسياً فى كلِّ ضرَّاء لَحِقتنى ، أو آتياً ومُوَاتياً فى كلِّ سَرَّاءَ زَادَهَا بهجةً إسراعُهُ إلىّ وهو أنا ، وأنا هو ؟ أطال الله بقاءَه ونفع به .

مصر الجديدة :
٣ شارع الشيخ حسين المرصفى
السبت : ١٥ رجب ١٣٩٧
٢ يوليه ١٩٧٧

محمود محمد شاكر

بيني وبين طـه

****

إنَّما أنْفُسُ الأنِيسِ سِبَاعٌ
يَتَفَارَسْنَ جَهْرَةً وَٱغْتِيَالاَ
مَنْ أطَاقَ ٱلْتِمَاسَ شَىْءٍ غِلاَباً
وَٱغْتِصَاباً لم يَلْتَمِسْهُ سُؤَالاَ
كُلُّ غَادٍ لحاجَةٍ يَتَمَنَّى
أنْ يَكُونَ الغَضَنْفَرَ الرِّئْبَالاَ

****

/ نشر الأستاذ الجليل ، عميد الأدب العربى بالجامعة المصرية ، الدكتور طه ١١/٢ حسين بك كتاباً سمَّاه « مع المتنبى » ، ولدته المطبعة وفيه سبعمئة صفحة وإحدى عشرة صفحة ، كلها جيد النسق ، جميل الرونق ، لو تمنى عالم عَزَبٌ لأُلْقِىَ فى أمنيته أن يكون له بِعِدادها ولدٌ يحملون عنه العلم من جيل إلى جيل .

وقد عشت مع المتنبى زمناً يطول أو يقصر ، كما عاش معه الدكتور الجليل ، وكتبت عنه كتاباً متواضعاً فى مئة وسبعين صفحة من القطع الكبير ، نشره المقتطف فى أول شهر يناير سنة ١٩٣٦ ، لذكرى ألف سنة مضت على مقتل أبى الطيب ، كما كتب عنه الدكتور الجليل كتاباً فخماً ، نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر فى شهر يناير سنة ١٩٣٧ .

فمن حق المتنبى علىَّ أن أقرأ ما كتب عنه الدكتور طه وغير / الدكتور طه ، كما ١٢/٢ أنه من حقِّ نفسى علىَّ أن أضع التاريخ فى موضعه الذى أرَّختهِ به دورة الفلك ، فإن التاريخ لا يصلح معه الأدب الذى أدَّبنا به الله تعالى فى قوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا إذَا قِيلَ

(*) نشرت فى صحيفة البلاغ ، السبت ٢ من ذى الحجة سنة ١٣٥٥/١٣ من فبراير سنة ١٩٣٧ .

لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِى المَجَالِسِ فَٱفْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنْشُزُوا فَٱنْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ، واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) [سورة المجادلة : ١٢] ، فوالله إنا لنفسح للدكتور الجليل فى مجالسنا حتى يبلغ الغاية التى هو لها أهل ، وعلى وُدِّنا أن نفسح له فى التاريخ أيضاً .... لولا أن التاريخ « يحتج بشدة » .

فبينى وبين الدكتور الجليل أمران جليلان أيضاً : أوّلهما ما يقوله هو عن المتنبى ، وآخر الأمرين ما يقوله كتابى الذى نشر فى يناير سنة ١٩٣٦ ، وكتابه الذى نشر فى يناير سنة ١٩٣٧ . ففى أولهما حديثٌ رويناه : « أن إبرهيم النظَّام المعتزلى قال لرجل : أتعرف فلاناً المجُوسىَّ ؟ قال : أجَلْ ، أعرفه ، ذَاكَ الذى يَحْلق وَسَطَ رأسه مثل اليَهُود . فقال النظام : لا مَجُوسياً عرفتَ ، ولا يهوديًّا وَصَفْتَ » = (والنصارى لا اليهود هم الذين يحلقون وسط رؤوسهم) = وفى آخرهما خبران رويناهما ، أحدهما عن الرِّياشى فيقول : كان الفرزدق مَهِيباً تخافُه الشعراء ، فمرَّ يوماً بِالشَّمَرْدَل وهو ينشد قصيدتَه حتى بلغ إلى قوله :

وَمَا بَيْن مَنْ لَمْ يُعْطِ سَمْعاً وَطَاعَةً وَبَيْنَ تَمِيمٍ ، غَيْرُ حَزِّ الغَلاَصِمِ

١٣/٢ فقال له الفرزدق : والله يا شَمَرْدَلُ ، لتتركنَّ هذا البيت أو لتتركنَّ / عِرْضَكَ ! (يتوعده بالهجاء) . فقال الشمردل : خُذْهُ على كُرْهٍ مِنّى يا أبا فِراس ! فهو اليوم فى قصيدته :

* تَحِنُّ بزوراءِ المَدينَةِ نَاقَتِى *

قال الرياشى : وكان الفرزدق يقول :

« خَيْرُ السَّرقة ما لا يجبُ فيه القَطْع »

يريد سرقة الشعر ، لا يجب فيها قطعُ يد السارق .

= والخبر الآخر عن الضحاك الفُقَيمِىِّ قال : « بينا أنا بكاظمة ، وذو الرُّمَّة ينشد قصيدته التى يقول فيها :

أَحِينَ أعاذَتْ بِى تميمٌ نِسَاءَها وجُرِّدتُ تَجْرِيدَ اليَمانى من الغِمْدِ

إذ راكبان قد تدلَّيَا من نَعْفِ كاظمة ، متقنِّعان ، فوقفا ، فلما وقف ذُو الرُّمَّةِ ، حَسَرَ الفرزدق عن وجهه وقال : يا عُبَيْد (وهو الراكب الآخر ورَاوِيةُ الفرزدق) ، آضمُمْها إليك . فقال ذو الرمّة : نَشَدْتُكَ الله يا أبا فِراس ! فقال الفرزدق : دع ذا عَنْك . فانتحلها الفرزدق فى قصيدته ، وهى أربعة أبيات » .

والفرزدق كان فحْلاً قَطِماً من فحول الشعر ، كان ينفُض الشعراء بلسانه نفض النَّداف ضَرِيبة القطن ، فلا عجب أن يكون مَهيباً تخافه الشعراء ، وتَتَّقى شَبَاة لسانه بالعفو له عن بعض ما يُغِير عليه من جيد شعرهم وبضائع أفكارهم . فهذا أدب الشاعر اللّص أبى فراس ، لم يُرْوَ عنه أنه أغار على / شعر أحد من شعراء عصره فى غيبةِ صاحبه ، ١٤/٢ وإنما كان مذهبُه فى اللصوصية أن ينحطّ على صاحب الشعر كالصَّقر لا يبالى ، أن يستلبه ما شاء اغتصاباً فى مشهده ، على الرضى أو على الغضب ، وعلانيةً غير مستخِفٍ بريبة ، ولا مُهادنٍ بحيلة ، ثم لا يأخذه حين يأخذه إلا كما هو بنصّه لا يغيره ولا يبدِّله ولا يُسْقِط منه ، ولا يأخذ بعض المعنى ويدع سائره . إن الفرزدق شاعر بليغ قد أُوتى حظًّا من الشعر سَجَد له الأخطل حين سمع إنشاده ، وشهد له جرير بالعلوّ ، وتساقط دونه الشعراء تساقُط الجياد دون الغاية ، أتظن الفرزدقَ = هذا اللّصَّ = كان يَزَعُه شىء عن أن يعمد إلى المعنى الذى أراده الشمردل أو ذو الرمة ، فيأخذه فيضعه فى أى اللفظ شاء ؟ أَوَرأيته إن فعل ، كان يعجز عن تجويد المعنى وتحسين اللفظ وإبداع القافية ؟

إن الفرزدق لخليق أن يفعل فيُخْفى مأخذَه وسرقتَه ، فيجوِّد الشعر ، فيزيد فى بيانه ، فلا يعرف النقاد من أين أخذ ولا كيف سرق ، فيبرأ من صعلكة الشعراء وغاراتهم وسرقاتهم . ولكن هذا أدب الفرزدق ، وهو أدب الإغارة والسطو وانتهاب أقوال الشعراء من جيِّد القوافى .

ولكنَّ آثنى عشر قرناً قد دارت على آداب الناس دورةَ الرَّحَى ، فطحنت أدباً كثيراً وذرَّته فى الهواء ، فكان مما طحنت وذرَّت أدب جَمٌّ بعضه « أدب الإغارة والسطو » ، وهو أدب لا يقوم به ولا يعتمد على أصله ، إلا أصلٌ فى النفس قوىٌّ مستحكم متماسك عزيزٌ يأنف الدَّنِيّة ، ويأبى الخَفِيَّة ، ويتهجَّم حين يتهجم مُقدِماً حاسراً متدفِّعاً كأنه قنبلة تنطلق ....

* * *

١٥/٢ / وبعد ، فإن الأوَّل قال : « مَنْ يمدح العروسَ إلا أهلُها » ، فأنا أعوذ بالله من أن أكون كأهل العروس ، ما يعرفون من نعت حسن إلا نعتوها به ، وإن كانت شوهاء مدبرة ، وأعوذ بالله من شر النفس وما تأمر به وتتولَّج فيه وما تنزُو إليه ، وأعوذ بالله من أن أكون ذليلاً ضَرَعاً لا يدفع عن نفسه ولا يحمى حماه .

هذا ما أقدِّمه بين يدى نقد كتاب الأستاذ الجليل (عميد الأدب العربى بالجامعة المصرية) الدكتور طه حسين بك ، الذى سماه فيما يسمى « مع المتنبى » . وعلىَّ للقارئ أن لا أُخِلّ بما أختصره له من أبواب هذا الكتاب وفصوله ، ولى على القارئ أن يتابع النقد ، ويفصل بينى وبين الدكتور الجليل ، فما كان من مالى فهو لى وإن جحده الجاحد ، وما كان للدكتور فأنا أدعه له طيِّب النفس ، وأسأل الله أن تَقَرَّ به عينُ الدكتور .

* * *

قسم الدكتور الجليل عميد الأدب العربى كتابه إلى خمسة كتب ، فالكتاب الأول فى صِبا المتنبى وشبابه ، والفصل الأول من هذا الكتاب كالمقدمة يقول فى ص ٦ : « لا أريد أن أدرْس المتنبى إذن ، فالذين يقرأون هذه الفصول لا ينبغى لهم أن يقرأوها على أنها علم ، ولا على أنها نقد ، ولا ينبغى أن ينتظروا منها ، ما ينتظرون من كتب العلم

والنقد ، وإنما هى خواطر مرسلة تثيرها فى نفسى قراءة المتنبى .... قراءة المتنبى من غير نظام ولا مواظبة ، وعلى غير نسق منسجم ..... » . ثم يقول فى ص ٧ : « وقُل ما تشاء فى هذا الكلام الذى تقرؤه : قل إنه كلام يمليه رجل يفكر فيما يقول ، / وقل إنه كلام يَهْذِى به صاحبه هذياناً ، قل إنه كلام يصدر عن رأى وأناة ، وقل إنه كلام يصدر عن شذوذ وجموح ، فأنت محق فى هذا كله ، لأنى مرسل نفسى على سجيَّتها » . ١٦/٢

هذا مختصر الفصل الأول من ص ٣ إلى ٨ ، ونحن لا نعلق عليه بشئ إلى حين ، ومن شاء فليقرأه كله ، فإنه بيان بليغٌ معجز ، وفن رفيع لا يعرفه ولا يجيده ولا يتأتَّى له وإن ركب إليه كل مَرْكَب ، إلا الدكتور الجليل طه حسين بك !

أما الفصل الثانى والثالث من الكتاب فهما فى نسب المتنبى ، من ص ٩ إلى ص ٣٤ . وقد أراد الدكتور بهذين الفصلين أن يخلُص إلى القول بأن « مولد المتنبى كان شاذًّا ، وأن المتنبى أدرك هذا الشذوذ وتأثر به فى سيرته كلها » ص : ٤٤ . فلذلك زعم الدكتور أنه يشك فى نسب أبى الطيب ، وأنه يتوقف فى القطع برأى فى صحة ما يرويه الرواة من نسبه . وسيجد القارئ من طرافة ما يقول الدكتور طه حسين لذةً لا تَعْدِلها لذة النكتة المصرية البارعة من رجل همُّه أن يكون حاضر البديهة ، سريعاً إلى تصوير فنه العبقرىّ فى ألفاظ تتهكم .... يقول الدكتور :

« قد تعوَّد الناس أن يؤمنوا بأن المتنبى رجل خالص النسب ينتهى من قِبَل أبيه إلى جُعْفِىٍّ ، ومن قِبَل أمه إلى هَمْدان » ، ولكن « ديوانه لا يثبت ذلك ولا يؤكده ، بل لا يسجله ولا يذكره » ، بل « لعل ديوانه ينفيه نفياً هو إلى الصراحة أدنى منه إلى الإشارة والتلميح » ص : ٩ . « فالمتنبى لم يمدح / أباه !! ولم يفخر به !! ولم يَرْثِه !؟ ولم يظهر الحزن عليه حين مات » ص : ٩ أيضاً . ثم إن المتنبى « كان يؤثر أن ينتسب إلى السيف والرمح وإلى الحرب والبأس على أن ينتسب إلى هذا الرجل الطيب !! الذى سماه المؤرخون الحسين » . وأكثر من ذلك ، فقد اختلف المؤرخون فى جده : « ولم يجمعوا على الاسم الذى يلصقونه به » ص : ١٠ : والمؤرخون يزعمون « أنهم كانوا يعرفون عن (والد المتنبى) ١٧/٢

شيئاً يسيراً جدًّا ، كانوا يزعمون أن أبا المتنبى كان سَقَّاء فى الكوفة » ص : ١١ ، ولعلهم لم يقصدوا بذلك إلا أحد أمرين : « الرفع من شأن المتنبى أو الوضع من قدره .... فكأنهم إذن لم يعرفوا من أمر أبى المتنبى إلا مثل ما عرفوا من أمر جدّه ، أى لم يعرفوا شيئاً » ص : ١٢ . إذن ، « أكان المتنبى يعرف أباه ؟ قال المؤرخون نعم ، ولم يقل المتنبى شيئاً » ص : ٩ ، وقد « اتُّهِمَ المتنبى فى نسبه ، وسئل عن أبيه وجده فلم يستطع ، أو لم يرد أن يجيب سائليه ، وآثر أن ينتسب إلى المجد والكرم والبأس » ص : ١٧ ، وقال فى جواب سائليه :

أَنَا ٱبْنُ مَنْ بَعْضُهُ يَفُوقُ أَبَا الـ ـبَاحِثِ وَالنَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجَلَهْ
وإنَّمَا يَذْكُرُ الجُدُودَ لَهُمْ مَنْ نَفَرُوهُ وأَنْفَدُوا حِيَلَهْ
فَخْراً لِعَضْبٍ أَرُوحُ مُشْتَمِلَهْ وَسَمْهَرِيٍّ أَرُوحُ مُعْتَقِلَهْ
وَلْيَفْخَرِ الفَخْرُ إِذْ غَدَوْتُ لَهُ مُرْتَدِياً خَيْرَهُ وَمُنْتَعِلَهْ
أَنَا الَّذِى بَيَّنَ الإِلٰهُ بِهِ الـ أَقْدَارَ ، وَالمَرْءُ حَيْثُمَا جَعَلَهْ
إن الكِذَابَ الَّذِى أُكَادُ بِهِ أَهْوَنُ عِنْدِى مِنَ الَّذِى نَقَلَهْ

١٨/٢ / ويقول فى آخر هذه الأبيات :

وَرُبَّما أُشْهِدُ الطَّعَامَ ، مَعِى مَنْ لاَ يُسَاوِى الخُبْزَ الَّذِى أَكَلَهْ
وَيُظْهِرُ الجَهْلَ بِى وَأَعْرِفُهُ ، وَالدُّرُّ دُرٌّ بِرَغْمِ مَنْ جَهِلَهْ

والدكتور لا يحتاج أن يقف عند شئ من هذه القصيدة إلا شيئاً واحداً « هو هذا الكِذاب الذى كان المتنبى يُكاد به عند أبى العشائر » = « أتراه يمسّ نسبه من قريب أو بعيد ؟ » ص : ١٦ . ثم يقول فى ص : ١٧ : « ليس فى ذلك من شك عندى » ، وهذه الأبيات « تصور ضعف المتنبى من ناحية نسبه أبلغ تصوير وأقواه .... » ص : ١٧ . هذا هو الفصل الثانى من كتاب الدكتور طه من ص : ٩ إلى ص : ١٧ مختصراً بتوسع !!

* * *

إن الدكتور طه حسين رجل عبقرى ليس فى ذلك شك عندى ، فهو من قبل شكه فى نسب أبى الطيب قد استطاع أن يشكَّ فى الشعر الجاهلى وفى أشياء كثيرة !! واستطاع أن يتغلب بتوفيق الله له على خصومه والمناوئين له ، واستطاع أن يقوم كالجبل لا يعمل فيه السيف عملَ السيف ، ويعمل هو فى السيف عمل الجبل فى تثليمه وتحطيمه وتكسيره ، ورجع السيف عَوْدَه على بَدْئه ، حديدةً لا تنفع ولا تقطع !!

ولكن هل يستطيع الدكتور الجليل ، أو كتابه الأجلّ أن يجيبنى : لماذا شكَّ الدكتور طه حسين فى نسب أبى الطيب ؟ وما هى الأسباب التى دفعته إلى هذا الشك ؟ أمّا الدكتور الجليل فأكبر الظن فيه أنه يترفع ، على عادته ، عن الإجابة ، فهو رجل عبقرى ، والعبقرى لا يقال له « لماذا ؟ » . / فإذا قيل له : « لماذا » ؟ زَوَى وجهه وانصرف ، وترك سائله لصخرة الأعشى التى ذكرها فى لاميته المشهورة . وأما كتابه الأجلّ فهو أطوع لسائله وأسرع إلى جوابه . ١٩/٢

سألت كتاب الدكتور : « لماذا شك صاحبك فى نسب أبى الطيب ؟ » فقال : « لا أدرى والله .... » ... كذا !! إذن فما هى الأسباب التى دفعته إلى ما يظهر من الشك ؟ فقال الكتاب : « إن الدكتور يزعم أنك إذا قرأت ديوان أبى الطيب مستأنياً متمهلاً ، لا تجد فيه ذكراً لأبيه ، ص : ٩ ، وأنك تجده لم يمدحه ، ولم يفخر به ، ولم يرثه ، ولم يظهر الحزن عليه حين مات » ، ص : ٩ ، وهذا كافٍ فى تشكيك العلماء فى نسب أبى الطيب ، وهو كافٍ فى اليقين بأن المتنبى لم يعرف أباه » .

هذه هى الأسباب التى دفعت الدكتور الجليل طه حسين بك عميد الأدب العربى بالجامعة المصرية إلى الشك فى نسب المتنبى ، فمن حق المتنبى علينا أن ننظر فيها ، أهى مما يحمل على الشك فى نسب رجل لم يَشُكَّ فى نسبه الذى رواه المؤرخون أحدٌ ، من يوم أن رُوِى ذلك النسبُ إلى اليوم السادس من شهر شوال سنة ١٣٥٤ ، والأول من شهر يناير سنة ١٩٣٦ ، وهو يوم صدر كتابى عن المتنبى !

ألا فليحدثنا الدكتور طه ، أيكون لزاماً على كل شاعر أن يمدح أباه ، وأن يفخر به ، وأن يرثيه ، وأن يظهر الحزن عليه حين يموت ؟ فإن لم يفعل الشاعر ذلك ، فهو شاعر : « لا يعرف أباه » ! إنى أجد من الشعراء من فخر بأبيه ، وقد كان ذلك فى شعر كثير من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام وعصر / بنى أمية أو بنى العباس ، ثم أجد فيهم كثيراً لا يُعَدُّ كثرةً من لا يفخر بأبيه ولا ذكره فى شعره ، أفكل هؤلاء لم يكن يعرف أباه ولا يثبت نسبه لضعفه وخسته ؟ وليحدثنا الدكتور الجليل عن شعراء العرب الذين رَثَوْا آباءهم من الجاهلية إلى يومنا هذا ، وليحدثنا الدكتور الجليل عن هؤلاء الشعراء الذين أظهروا الحزن على آبائهم حين ماتوا ، وليرجع الدكتور إلى ما شاء من كتب الشعر ، وكتب الأدب ، فيجمع لنا أسماء الشعراء الذين رثوا آباءَهم وحزنوا عليهم ، وليثبت أن هؤلاء كانوا من الأشراف ذوى الأنساب = وأن سائر الشعراء الذين لم يفعلوا مثل الذى فعلوا ، هم من السوقة الملطَّمين اللقطاء الذين لا يعرفون آباءهم ولا يثبتون أنسابهم ! ٢٠/٢

إن الدكتور طه رجل ذكى صاحب حيلة ونَفَاذ ، فربما رأى الرأى فأراده ليتخذه رأياً ، فيختلق له الأسباب ، فيرى الأسباب لا تغنى فى الرأى ، وأن الاعتراض يأكلها سبباً سبباً ، فيحتال بجعل الاعتراض فى سياق قوله ، ويأتى به على وجهٍ ليجعله ظهيراً لرأيه . وهذا الذى نقوله ليس بزعم من عند أنفسنا ، بل هو ما ترى ...

رأى الدكتور طه أن إغفال الشاعر ذكر أبيه لا يدلّ على شيء البتة ، وأن الشعراء الذين لم يفخروا بآبائهم ، ليسوا أقلّ نسباً ولا أحطَّ مَغْرِساً من الذين فاخروا ونافروا بآبائهم ، وأن التاريخ يحدثنا « أن أبا جرير الشاعر لم يكن شيئاً ، وأن جريراً أضاف إليه من الخلال والخصال والأخلاق ما لم يكن منه بسبب ، حتى غلب به الشعراء وقهر به الفحول ، ثم لم يمنعه ذلك من أن يظهره للناس كما هو ، ليثبت لهم أن شعره كان أكبر من غروره ، وأن / طبع أبيه قد خذله وأعياه فأنجده شعره ، وأعانه على أن يخلقه خلقاً جديداً » ص : ١٢ . فهذا جرير « كان أبوه يشرب من ضَرْع العنز مخافة أن يُسْمَع صوتُ الحلب فيطلب منه لبن ، ففاخر به ثمانين شاعراً فغلبهم . فاخر جرير بهذا البخيل الكزّ اللئيم ٢١/٢

الفرزدقَ ، وأبوه غالب بن صعصعة ، وكان غالب من أجواد العرب المعروفين ، وكان جدّه كذلك ، وهو الذى مَنَع الوئيد فى الجاهليّة فلم يدع تميماً تَئِد بناتها وسُمِّى : « مُحْيى المَوْؤدات » . وعرف الدكتور ذلك فأراد أن يتأوَّله على الوجه الذى يرضى به ، فزعم أن « شعر جرير غلَبَ غُرورَه » ، ووالله ما أدرى ماذا يريد الدكتور طه بهذا الزعم وما فهمته ولن يفهمه أحد .... لقد عرف الدكتور الجليل أن المتنبى = وهو الشاعر الذى رمى شعراء عصره فأصماهم فغلبهم فذهب بأرزاقهم عند الأمراء = كان يستطيع أن يفعل ما فعل جرير ، وأن يفخر بأبيه السقاء ، على أبى فراس الحمدانى وغيره من أشراف الشعراء فى عصره ، وعرف أن كثيراً من الشعراء غير جرير قد فخروا بآبائهم على من كان أكرم منهم أباً وأمًّا ، فماذا يفعل الدكتور بعد ذلك ؟ إنها لمشكلة تلد مشاكل ! إذن ، فما الذى يضيره أن يقول : « أما المتنبى فلم يستطع شعره أن يغلب غروره (!!) ، ولم يستطع أن يضيف إلى أبيه ما ليس فيه ، ولم يستطع أن يخلق أباه خلقاً ، ومن يدرى ؟ لعل مصدر ذلك أن جريراً كان يعرف أباه فصوَّره كما أراد لا كما كان ، وأن المتنبى لم يكن يعرف أباه فلم يستطع أن يصوِّره لا كما أراد ولا كما كان » ، وانتهى كلام الدكتور ص : ١٣ .

حقًّا إن طه حسين بك رجل صاحب حيلة لا تفرغ ، وحقًّا إن له فنًّا قد / غلب به أهل الفنون ، وحقاً إنه لعبقرى ! هذا الدكتور يقول إن شعر جرير قد أعانه على أن يخلق أباه خلقاً جديداً ، ومعنى ذلك أن جريراً ، قد صوَّر أباه صورة ليس بينها وبين الحقيقة سبب ولا نسب ، ومعنى ذلك أيضاً أن معرفته لأبيه لم تُغْنِ فى هذا الخلق الجديد شيئاً ، لأنه التمس له من فنه الشعرى صورة متخيَّلة زيَّنها له شيطان شعره ، ولم تُعِنْه حقيقةُ أبيه لما فيها من لؤم وخسة وضَعَة . فإذا كان المتنبى لا يعرف أباه كما يزعم ، فإن ذلك لا بأس به ، لأنه إذا أراد أن يصوِّره فلن يرجع إلى حقيقته لينتزع منها الصورة ، كما أن جريراً لم يرجع إليها ، وإنما المرجع هنا إلى شيطان الشعر ، فهو وحده الذى « يخلق أباه خلقاً جديداً » ، كما خلق جرير أباه خلقاً جديداً . وجُهْد المتنبى فى هذا أقل من جهد جرير ، فالمتنبى الذى لا يعرف أباه ولا يعرف حقيقته ، يتخيل ما يشاء من الآباء كأحسن الآباء ، ٢٢/٢

أما جرير « الذى يعرف أباه » ، فمن جُهْدِه أن يغالط نفسه ، وأن يغالط الناس الذين يعرفون أباه ، وأن يَطْمِس صورة أبيه البخيل الكز اللئيم لئلاَّ تتراءى له وهو ينقل الصورة الجديدة ، فتفسد عليه فنه . ثم على جرير أن يتخيل ما لم يكن من صورة الأبوة الكريمة الممدَّحة التى يستطيع أن يغالب بها الشعراء ويفاخرهم ويظهر عليهم بها فى فخره ونِفاره . لعل المسألة إذن أن الأمر فى جرير والمتنبى هو ما قال الشاعر :

إنِّى وكُلَّ شَاعِرٍ مِنَ البَشَرْ شَيْطَانُهُ أُنْثَى وشَيْطَانى ذَكَرْ

٢٣/٢ فشيطان أبى الطيب كان أُنثى ، ضعيف المُنَّة قليل الخير ، يكذب صاحبه / فى طلب الخيال القوى للآباء ، وكان شيطان جرير ذكراً فحلاً قد امتلأ قوة ، لا يطلب خيالاً إلاَّ أدركه وظفر به وغلب به الشعراء !!

إنى أشفق على الدكتور طه حسين بك من بَدَوات عبقريته ، [فهى تصور له الأشياء كما يُريدها هو ، لا كما يجب أن تكون] !! فيتورط فيحتال ، فتكون حيلته كالكِذْبة البَلْقاءِ لا تجدُ ما يسترها . أراد الدكتور أن يثبت فى أثناء هذا الفصل أن أبا الطيب « لا ينتسب إلى الرجال ، لأنه لا يريد أو لا يستطيع أن يجد فى الانتساب إلى الرجال غَنَاءً » ، ص : ٥١ ، وأن المتنبى هو الذى يأتى فى شعره بالدليل على ذلك ، فهو يقول :

أنا آبْنُ مَنْ بَعْضُه يفوقُ أبَا الْـ ـبَاحث ، والنَّجْلُ بعضُ من نَجلَهْ
وإنَّما يذكُرُ الجدودَ لهم مَنْ نَفَرُوه وأنْفَدُوا حِيَلَهْ

« فالمتنبى كما ترى لا ينسب نفسه إلى أب كآباء الناس ، وإنما ينسب نفسه إلى متجزِّئ ، له بعضٌ يمتاز عن كله ، وبَعْضه هذا يفوق آباء الباحثين عن نسبه » ، ص : ١٥ .

لقد مضى علىَّ زمن وأنا أجد اللذة فى تتبع كتب الفكاهة ، فكان أعجب ما يعجبنى منها المُحَالات ، وهو الكلام الذى يأتى به الرجل تحسبه مستقيماً ، وهو محالٌ لا يكون ولا يفهم على وجه من الوجوه . وأُشْهِد أن فنّ الدكتور طه فى شرح هذا

الشعر أعجب إلىَّ الآن من ذلك . كيف لا ؟ وهو عميد الأدب العربى بالجامعة المصرية ، وهو بعد ذلك إمام الأدباء / المجدّدين فى هذا العصر ! أَيُّمَا امرئ فى القراء ٢٤/٢ فَهِم شرح الدكتور الذى نقلناه ، فَلَه عندنا ثلاث نسخ من كتابنا عن المتنبى من طبعته الثانية . أىُّ شئ هذا الذى ينسب نفسه « إلى متجزّئ بعضه يمتاز عن كله » !

وأنا أتولَّى تفهيم الدكتور معنى هذا الشعر ، فالمتنبى يقول : أنا ابن مَنْ وَلَدُهُ يفوق أَبَا الباحث ، ويعنى بذلك نفسه = هذا كل ما أراد المتنبى أن يقوله . [١] والذى أوهم الدكتور فأوقعه فمرَّغ كلامه فى هذا (المتجزئ الذى له بعض يمتاز عن كله) ، هو قول أبى الطيب [بعضه] فى البيت . ولعلّ حيلة الدكتور أو عبقريته تقول : فلماذا لم يقل : « أنا ابن مَنْ نَجْلهُ ... » ؟ فلو قال المتنبى ذلك لما كان قوله : « والنجل بعض من نجله » يعطى من المعنى إلا أقله ، ولا يزيد فى كلام أبى الطيب شيئاً ، لأنها حقيقة معروفة ابتداءً . ولكن المتنبى أراد أن يقول للسائل :

إن الحقيقة المقررة هى أن الولد بعض الوالد (أى جزء منه) ، فإذا كان الولد (وهو جزء) يفوق أَباك (وهو كل) ، فما ظنك (بالكل) الذى يكون (جزؤه) خيراً من (كل أبيك) ؟ ولذلك قال المتنبى (بعضُه) ولم يقل (نَجله) .

هذا هو المعنى على الصورة التى أظن أن الدكتور يفهم بها البيت ! وهذه المعادلة المنطقية لابد وأن يتشابَهَ طرفاها . فإذا كان والد / الباحثِ رجلاً ، فلابدَّ إذن من أن يكون ٢٥/٢ والد المتنبى رجلاً أيضاً . ولكن الدكتور طه يقول : « هو لا ينسب نفسه إلى رجل ، لأنه لا يحفل أو لا يريد أن يحفل بالانتساب إلى الرجال » ، ص : ١٥ . ويقول : « هو إذن لا ينتسب إلى الرجال ، إلخ » ص : ١٥ أيضاً ، « ولكن المتنبى كان يؤثر أن ينتسب إلى

---

(١) قول المتنبى : « أنا ابن من بعضه » مأخوذ من قول رسول الله ﷺ : « فاطمة بضعة منى ، فمن أغضبها أغضبنى » أخرجه البخارى وغيره . و « البضعة » ، بفتح فسكون ، القطعة من كل شئ ، أى بعض الشئ .

الرمح والسيف .... على أن ينتسب إلى هذا الرجل الطيب الذى سماه المؤرخون الحسين » ، ص : ١٠ من هذا الكتاب الجليل !

هذا بعضٌ من خَلْطٍ كثير وقع فى الفصل الثانى فى الكتاب من ص : ٩ إلى ص : ١٧ . وهذا ، غير الأخطاء التى تدل على أن الدكتور صادق فيما يقول فى مقدمة كتابه ، أنَّ هذه الفصول لا ينبغى أن تقرأ « على أنها علم ، ولا أنها نقد ، وإنما هى خواطر مرسلة ، تثيرها قراءة المتنبى فى غير نظام ولا مواظبة وعلى غير نَسَق منسجم » ، ص : ٦ . فإذا كانت القراءة فى غير نظام ولا مواظبة على نَسَقٍ ، فالفهم إذنْ كذلك . وإذن فقد صدق الدكتور أيضاً ، وأدرك حقيقة ما يجب أن يشعر به قارئ كتابه إذ يقول : « قل ما تشاء فى هذا الكلام .... قل إنه كلام يمليه رجل يفكر فيما يقول ، وقل إنه كلام يهذى به صاحبه هذياناً .... فأنت محق فى هذا كله » ، ص : ٧ ، وصدق .

وميعادنا الأسبوع القادم لنظهر الدكتور على أخطائه ، ونَدُلَّهُ على المواضع التى أخذها من كتابنا فى هذا الفصل ، وأفسدها على الناس ، لأنه أراد أن يحاكى ، فخذلته المحاكاة ، وأراد أن يقلِّدَ فخانه التقليد .

* * *

– ٢ –

/ رَغب إلينا بعض بلغاء العربية ، ومَنْ همُّه أن يحق الحق ويبطل الباطل ، وأن يبرأ ٢٦/٢ الأدب من داء اللجلجة ، وزَمَانة الثرثرة ، وعِلَل التلفيق والتمويه التى يُرْتَجى بها التلبيسُ على العقلاء ، واستمالة الدَّهْماء إلى فاسد الآراء = أن نعمد إلى النقد الذى كتبناه فى بلاغ السبت الماضى ، والذى كنا على نية إتباعه بهذه الكلمة وما بعدها ، فنقدم له كلمة فى مجمل ما ننقده من كتاب الدكتور طه حسين الذى سماه فيما يُسَمِّى « مع المتنبى » ، وأن نحدّد أغراض النقد ونميز بينها ، ونفصل أبوابها ، وأن نجتهد فى جمع المؤتلفات من أبواب النقد فى نسق مفصّل ، والمتشابهات من فَعَلات الدكتور فى قَرَنٍ مشترك ، وأن نجعل منا على ذُكْرٍ ما كتبه النقاد والأدباء والمترجمون لأبى الطيب ، وأن نشركهم معنا فى الانتصاف من الدكتور طه ، فإن الذى يأخذ من كتابٍ قد فرغ الناس من قراءته فى فبراير سنة ١٩٣٦ ، يستطيع الوقيعة فى كتاب لم يَفْرُغ الناس من قراءته بعدُ ، فما بالك فيما مضى عليه بعض العام ، وما مضَى عليه أعوام !

ولكنى أعتقد أنْ ليس شئ أشقَّ على القارئ من أن يقدِّم له الناقدُ بين يدى نقده مجملَ ما يتعاطَاهُ من الأغراض والأبواب والفصول والغايات ، وخاصةً إذا كانت أغراض النقد تتناول فيما تتناول كلَّ الأصُول التى بُنِى / عليها الكتاب = وخاصة إذا كان ٢٧/٢ الكتاب من كتب الدكتور طه حسين بك ، فإن ما يكون فيه من اضطراب الآراء وتخالفها وتناقضها ، وما يقع فيه من الذيول اللفظية المكررة المعادة على غير جدوى ولا فائدة ، وما ينزُو به من القَفَزات « الأوليمبية » المحكمة من فكرة إلى فكرة لا تصل بينهما

(*) نشرت فى صحيفة البلاغ ، السبت ٩ من ذى الحجة سنة ١٣٥٥/٢٠ من فبراير سنة ١٩٣٧ .

صلة من المنطق ، ولا تربطها من رابطة إلا الألفاظ الدائرة التى توقع التشابه فى نفس القارىء إذا غفل ولم يتدبّرها = كل ذلك يجعل اختصار الأغراض وتحديدها أمراً عسيراً لا يُثْمر ثمرةً تكون كِفَاءً لما يلقاه فى سبيله من نَصَبِ الفكرة وعِلاج الرأى .

وأيضاً ، فإن جَمْع المؤتلفات ، وضمَّ المتشابهات كُلاًّ إلى كُلٍّ ، هو أشقّ على القارىء ، وأحْرَى أن يحمله على سوء الظنّ فيما نكتب ، فربما وقع أحد المتشابهين فى أول الكتاب والآخرُ فى أدباره ، فإذا عرضنا لنقدهما معاً ، خُيِّل للقارىء أننا لم ننصف الدكتور طه ، إذ أخذنا جزءاً من كلامه فى باب من الأبواب وتركنا سائر الباب ، فلعل فى سائره ما يفسِّر ذلك أو يوجِّهه أو يحدد الرأى فيه ويقرِّبه إلى جهة الصواب ، وينزع بنا إلى جهة الخطأ والتحامل . ولو فعلنا ذلك لكانت المشقة أبلغ ، والجهد فى الحكم على النقد أشدَّ وأصعبَ ، فإن هذا المذهب فى القول يقتضى القارىء أن يُلمَّ ، وهو يقرأ ، بأطراف الكتاب كله على معنى الإحاطة ، مع التنبُّه السابق إلى الخطأ والتلبيس والطَّفرة فى الكلام ، وأن يكون قد عرف مِثلَ الذى عرفنا من وجه التأويل فى الفكرة أو الرأى أو المذهب . فهذا كما ترى لا يستطيعه قارىء النقد على الوجه المرضىّ .

٢٨/٢ / وأما أن نجعل كتب النقاد والكتّاب والأدباء الذين درسوا أبا الطيب ، وكتبوا عنه على ذُكْرٍ منا حين ننقد ، فسنحمل النفس عليه ، مع ما تعرف فيه من العَنَت حتى نبلغ رضا الأدباء والقراء . وفى الانتصاف لمن لم ينتصف لنفسه ، فضيلةُ الصِّدق ، وشِيمة العدل ، وحسن الجزاء عند الله وعند الناس .

* * *

ولا بأس ، فهذه كلمة نُجمل فيها بعض أغراض النقد على سبيل العرض والتقديم ، لا على سبيل التحديد والبسط والإحاطة . فأوَّل ذلك أننا اعتمدنا أن نكشف عن الطريقة التى انتهجها الدكتور طه فى كتابه وهو يترجم حياة أبى الطيب . فهل كان الدكتور مقلِّداً فى نهجه أم مبتدعاً ؟ وهل استطاع أن يسوق القول على النهج الذى

لا يختلف ، أم أعْيَى فاختلف واضطرب ؟ وهل أصاب فيها خيراً أم أخطأه الخير ، ولم يستحقبْ من ذلك إلاَّ مَعَرَّة التقليد والمحاكاة ؟ والقول فى هذا لا يكون مُدْرِكاً غايته من الإصابة والبيان إلا أن نفرُغ من نقد أجزاء الكتاب جزءاً جزءاً ، وبعد أن نميِّز الفاسدَ من الصالح ، ونَفْصِل بين المؤتلف والمختلف ، والسليم وذى الآفة ، وما تسلم نسبته إلى الدكتور طه ، وما يُسْتَلْحَقُ إلى نسبٍ غير نسبه ، إلى آخر هذا الباب .

والثانية : أن نعرض الأخطاء التى ارتطم فيها الدكتور خطأً خطأً فى فصل فصل وكتاب كتاب ، ونبينَ فسادَ المذاهب وبُطْلان الحجج ، ونكشفَ عن ضعف الصلة بين الفكرة والفكرة ، ونُحدِّدَ سوء الانتقال من مقدمة / لا تنتج النتيجة التى استولدها منها ، ونَنْضُوَ عن كلامه الزينة التى سترته ، وما خَوَّض فيه من شعر المتنبى فأفسد معناه وأخطأ فهمه . ٢٩/٢

وثالثة العلل ، أو ما يذهب قوم إلى تسميتها « مآخذ » ، ويذهب آخرون إلى تسميتها « سرقات » ، ونحن لا نرجح أحد الاسمين فى حاقِّ التسمية !! ولكننا تعوَّدنا فى كتب الدكتور طه نَقْلَه معانى الناس إلى معانيه ، وأَنَفَتَه من نسبة الأشياء إلى أصحابها والذين رَمَوْا أنفسهم فى نارِها حتى استخلصوها بعد أن أصابهم البلاء والأذى وجَهَدهم الجُهْد . وما أستطيع هنا أن أحدد كلّ الكتب التى أدركتها يد الدكتور طه ، ولكن أقرب الكتب هى (١) كتابنا عن أبى الطيب المتنبى الذى نشره المقتطف فى يناير سنة ١٩٣٦ (٢) وكتاب « ذكرى أبى الطيب » للدكتور عبد الوهاب عزام (٣) وكتاب « أبى الطيب المتنبى » لمحمد كمال حلمى بك (٤) وكتاب « المتنبى » للأستاذ شفيق جبرى ، وكثير غير ذلك مما فاضت به الصحف فى السنة الماضية حين احتفل الناس بمرور ألف سنة على مقتل أبى الطيب ، ثم آراء طائفة من القوم الأعاجم المستشرقين الذين ترجموا لأبى الطيب أو ذكروه فى بعض كتبهم أو مقالاتهم .

***

وهذا أوان العودة إلى ما كنا فيه من كلمتنا السالفة ، وقد بينا أن الدكتور طه حسين بك إنما يشك فى نسب المتنبى ، ويزعم أنه كان (لا يعرف أباه) ، لأن أبا الطيب لم يذكر والده فى ديوانه !! ولأنه لم يمدحه !! ولأنه لم يفخر به !! ولأنه لم يَرْثِه !! ولأنه لم يظهر الحزن عليه حين مات !! / ولأنه سُئِل عن أبيه وجَدِّه فلم يستطع ، أو لم يُرِدْ ، أن يجيب سائليه ! وآثر أن ينتسب إلى المجد والكرم والبأس ، كما توهّم الأستاذ الجليل !! وذلك حيث يقول :

٣٠/٢

أَنَا ابْنُ مَنْ بَعْضُهُ يَفُوقُ أَبَا الـ ... ـبَاحِثِ ، وَالنَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجَلَهْ
وَإِنَّمَا يَذْكُرُ الجُدُودَ لَهُمْ ... مَنْ نَفَرُوهُ وَأَنْفَدُوا حِيَلَهْ
فَخْرًا لِعَضْبٍ أُرَوحُ مُشْتَمِلَهْ ... وَسَمْهَرِيٍّ أُرُوحُ مُعْتَقِلَهْ

إلى آخر الأبيات التى أخطأ الدكتور فى فهمها ، فزعم أن أبا الطيب « ينتسب إلى متجزئ ، له بعض يمتاز عن كله » !! [انظر ص : ٤١٠ ، ٤١١] .

وقد عرفت أن العلل التى حملت الدكتور على الشك فى نسب المتنبى ، وإنكارِه صِدْقَ الرواة فيما رووه من أن أباه كان جُعْفيًّا صحيح النسب ، وأن أمه كانت هَمْدانية صحيحة النسب ، إنما هى علل واهيةٌ وأسباب واهنة ، المتعلِّق بها كالمتعلق بخيوط من بيت العنكبوت . فإن الشعراء الذين لم يذكروا آباءهم فى دواوينهم ، ثم لم يمدحوهم ، ولم يرثوهم ، ولم يظهروا الحزن عليهم حين ماتوا ، ولم يفخروا بهم فى أشعارهم وقصيدهم ، لا تلزمهم لازمة الشك فى أنسابهم ، ولا تلحق بهم معرَّةُ أن يكونوا (لا يعرفون آباءهم) ، ثم هم ليسوا أقلَّ شأناً ولا أخسَّ نسباً ، ولا أنكد مَغْرِساً من الذين فعلوا ذلك وأتوا به وذكروه فى أشعارهم . وأيضاً فإن التاريخ يشهد أن القليل من الشعراء هم الذين رثوا آباءهم وأمهاتهم ، وأظهروا الحزن عليهم فى أشعارهم ، أو فخروا بهم ومدحوهم فى قصيدهم . ولو أردنا أن نحرج الدكتور الجليل / لقلنا : إن أبا الطيب عاش من سنة ٣٠٣ إلى سنة ٣٥٤ ، وكان فى عصره هذا من الشعراء من لا نحصيهم كثرة ، فهل هو بمستطيع أن يدُلَّنا على عِدَّة الشعراء المعاصرين للمتنبى ، الذين رثوا آباءَهم أو أمهاتهم أو مدحوهم

٣١/٢

وفخروا بهم أو بَكَوْهم وأظهروا الحزن عليهم حين ماتوا ؟ فإذا قرر لنا أنّ أكثر الشعراء المعاصرين قد فعلوا ذلك ، وأن الذين فعلوه هم من أشراف أهليهم ، ومن الذين (يعرفون آباءهم) ، ويعرف التاريخ أنسابهم وأصولهم ، ويعدّد مفاخرهم ومثالبهم ، وأن سائر من لم يفعل ذلك منهم ، هم السفلة والغوغاء وأوشاب الناس الذين (لا يعرفون آباءهم) ولا يثبتون أنسابهم = إذا قرَّر الدكتور الجليل ذلك أخذنا معه المتنبى بالقياس ، وبغير نظر فى دلائل شعره ومخايل كلامه ، ووضعناه معه حيث وضعه فى المنزلة التى يكون الرجل فيها (لا يعرف أباه) .

لا تجد فى الناس من يطيق أن يتابع الدكتور طه فى شكِّه من أجل علل كهذه العلل ، فإن وجدته فلن تجد من يتابعه فى أنها دليل على أن المتنبى لم يكن يعرف أباه . وأكبر الظن أن كل من قرأ كتاب الدكتور طه يشعر أن هذه العللَ عللٌ مفتعلة للشكّ لا أصل لها فى نفس الدكتور ، ولا فى نفس أحدٍ غيره ممن (يريد أن يدرس المتنبى) أو من (لا يريد أن يدرسه) .

أو تدرى لماذا شك الدكتور طه حسين فى نسب أبى الطيب ، وكيف أخذ يجد فى نفسه الحاجة إلى هذا الشك ، وأين وجد هذه الكلمات التى اتخذها ذريعة يتوسَّل بها إلى تعليل شكه ؟ ولماذا لم يستطع إلا أن يتوقَّف فى الشك / ويذهب يزعم لنفسه أو للناس أن المتنبى كان (لا يعرف أباه) ؟ وما المعنى الذى أراده أو صرَّح به فى قوله يصف المتنبى بأنه (لا يعرف أباه) ؟ فخذ خبر ذلك كله بما ترى وتسمع ! ٣٢/٢

ما فى الدنيا أديب عربىٌّ لم يقرأ هذه الكلمة التى قالها ابن رشيق حين أفضى به القول إلى ذكر أبى الطيب ، وذلك إذ يقول : « ثم جاء المتنبى فملأ الدنيا وشغل الناس » . وقد صَدَق وصدَّقت الأيام قولَه ، فقد ذكروا من شروح ديوانه أكثر من أربعين شرحاً ، وما تكاد تجد كتاباً من كتب التراجم أو كتب الأدب لم يذكر المتنبى أو لم يترجم له ، ثم أفرد بعض القدماء كتباً لترجمته ، ثم جاء من بعدهم المحدثون والمعاصرون فكتبوا عن أبى الطيب على طريقة أهل العصر . وما رأيت أحداً من هؤلاء شك فى نسب

أبى الطيب ، أو فى اسم أبيه المتداول ، فكلهم = من ألف سنةٍ إلى أول يناير سنة ١٩٣٦ = إجماعٌ على التسليم بصحة ما رواه الرواة ، من أن والد المتنبى كان سَقَّاء بالكوفة ، وأنه كان جُعْفِيًّا صحيح النسب ، وأن أمه كانت هَمْدانية صحيحة النسب أيضاً .

ثم جاء كاتب هذه الكلمات فقال كلمته عن شاعر العربية ولسانها الحكيم أبى الطيب ، ونشرها المقتطف فى عدد خاص ، احتفالاً بذكرى ألف سنة مرَّت على مقتله ، وتداولها الناس ، ومنهم الدكتور طه حسين بك ، فى السادس من شهر شوال سنة ١٣٥٤ (أول يناير سنة ١٩٣٦) . وقد كانت الفصول الأولى ، أوْ أكثرُ الكتاب ، فى نقد الروايات التى وصلت إلينا فى كتب الأوائل والأواخر عن حياة أبى الطيب ، وقد أثبتُّها بإسنادها فى / أول الكتاب ، وطفقت أنقُدُها من كل وجه معروف للنقاد ، حتى خلصت من ذلك إلى الشك فى صحتها ، أو صِحَّة الأقوال التى تضمنتها ، والأخبار التى أُتِمَّت بها ، وجمعتُ الأدلة التى تهيَّأت لى فى ذلك الوقت ، وجعلتنى أبصر فسادَ النِّيَّة وسوءِ القصد ، فقطعت الرأى فيها بأنها نكايةٌ وكيدٌ وإرادةُ الحطِّ من قدر الرجل = دفع الرواةَ إليه العداوةُ والحسدُ وما هو من بابهما . وهذه الروايات التى كان الأدباء جميعاً ، ولا يزالوان ، يقطعون بصحتها ، كنتُ أوَّلَ من شك فيها وبيَّن فسادَها ، وقذَف بها فى وجوه رواتها . وأدخلنى شكِّى فى هذه الروايات مداخلَ من هنا وأخرجنى من ثَمَّ ، حتى ذهبتُ فى الرأى مذهباً لم أُسْبَقْ إليه ، فزعمت أن أبا الطيب كان عَلَويًّا شريف النسب ينتهى نسبه إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه . وقد أثار هذا الرأى الأدباء ، فمنهم من وافق ، ومنهم من توقَّف ، ومنهم من عارض بالحجَّة ، ودفع بالبرهان كما تبيَّن له ، ومنهم من أخذ بعضَ الرأى وترك بعضه ، ومنهم من كان هذا الشك الذى أتَيْتُ به فى نسب المتنبى أنه جُعْفىُّ الأب هَمْدانىُّ الأم وأن أباه كان سقاءً = حافزاً له على النظر بين اليقين والشكِّ ، ولكنه نَهَج نَهْجَ العلماء المتثبتين فجرى فى نقد الروايات فى هذه الأخبار وغيرها على طريقتنا ، ولم يوافقنا فى النتيجة ، بل ذهب مذهباً آخر وَسَطاً ، فكان قوله إن والد المتنبى « لم يكن رجلاً نَابِهَ الشأن » = أعنى الأستاذ الجليل المتثبت الدكتور عبد الوهاب عزام صاحب (ذكرى أبى الطيب) المطبوع ببغداد فى ربيع الآخر سنة ١٣٥٥ .

/ فهل عرفت الآن لماذا شك الدكتور طه فى نسب المتنبى ؟ شك لأن إنساناً قبله ٣٤/٢ سبقه إلى هذا الشك .... ونسى أن شكَّ هذا الإنسان قد بُنِى على الجهد والنَّصَب وطول العلاج والتمرُّس بالنقد العَضِل الذى لا يسلم عليه أحد = وأنَّ شكَّ الدكتور طه الذى أتى به فى كتابه ، عُرْيانٌ متكشفٌ لا تستره حجة ، لا يُقَنِّعُه برهان .

إذن فكيف بدأ الدكتور طه يجد فى نفسه الحاجة إلى هذا الشك ؟ لقد ألَّف الدكتور أو أمْلى – أو ما يشاء – كتاباً سماه « فى الشعر الجاهلى » ، وتوهَّم أنه قادر على الاضطلاع به ، فوقعت إليه كلمات يشكُّ بها أصحابها فى نسبة الشعر الجاهلى إلى أصحابه ، فأعجبه ذلك وحُبِّب إليه ، فأُغْرِى به ، ودار دورةً فى الأوهام حتى وقع على مذهب فيلسوف عظيم يُسَمَّى ديكارت ، فاستعار مذهبه لكتابه ، فزعم أن ذلك هو المذهبُ الجديدُ المبتدعُ فى نقد الشعر والأدب ، وجعل يرى ذلك مذهباً ، وجعل المطيفون به يردّدون ذلك القول فى عبقرية هذا الرجل التى استعلنت للناس فى هذا المذهب الذى سمَّوه « مذهب الشك » = وكانوا فى ترديدهم كما قالت العرب فى ذلك : « أنت كآبنة الجبل ، مهما يُقَلْ تَقُلْ » ، يريدون كالصَّدَى ، صَدَى الصوت . إذن فالدكتور طه هو صاحب مذهب الشك فى الأدب ، وهو مبتدعُه والقيِّمُ عليه ورائضُه وسائسُه . وقد جاء الزمنُ الذى لجَّ فيه الناس فى ذكر أبى الطيب ، وقام من بينهم رجلٌ غير الدكتور طه حسين بك ، فشكَّ فى نسب المتنبى ، أفيحلُّ لصاحب « مذهب الشك » أن لا يشكَّ فى نسب المتنبى / حين يتكلم عنه ؟ ساء ذلك رأياً !! إذن فلا بُدَّ ٣٥/٢ له من الشك حين يتكلم عنه ، ولا بُدَّ له من أن (يصطنع) مذهبه فى الشك ، ولابُدَّ له من طلب الأسباب التى (تحمله على هذا الشك) !! وإذن فليطلب الأسباب من هنا ومن ثَمَّ ، وليتلقَّفْ أطرافها التى يتعلق بها تلقُّف الغريقِ العُودَ لا يرسلُه من يده ، وإن هَوَى به إلى قرارة اليمِّ .

إذن ، فأين وجد الدكتور طه هذه الكلمات التى اتخذها ذريعة يتوسل بها إلى تعليل شكه أو تسويغه ؟ لقد جهد فلم يستطع أن ينال فيما كان بين يديه علة أو سبباً

ينفعه ، حتى جاء الأستاذ عزام فنشر كتابه فى ربيع الآخر سنة ١٣٥٥ ، أى منذ سبعة أشهر ، فقال فى ص : ٢٩ : « وقد حرص المتنبى على أن لا يذكر نَسَبه فى شعره ، فما ذكر أباه ولا جده ولا أحداً من آبائه ، ولا صرح باسم قبيلة ولا عشيرة » .

ثم عاد الأستاذ عزام يقول فى ص : ٣٦ : « ويخبرنا صاحب اليتيمة (الثعالبى) أن والد المتنبى سافر به إلى الشام .... وسواءٌ أصحَّ ما يقوله الثعالبى أم لم يصحَّ ، فما ذكر المتنبى والده بكلمة ، ولا رَثاه حين مات كما رَثى أبو العلاء المعرى أباه وأمَّه رثاءً بليغاً . وهذا يشهد بما اتفقت عليه الروايات من أن والد أبى الطيب لم يكن رجلاً نَابِهَ الشأن » . وجَزى الله عزاماً خير الجزاء ، بما مهّد للدكتور الجليل من سبيل الحجة والبرهان والدليل للرأى الذى ارتآه فى نسب أبى الطيب !!!

٣٦/٢ أفليس هذا على التحقيق هو قول الدكتور طه حسين بك فى ص : ٩ – ١٠ / من كتابه الجليل : « فأنت تقرأ ديوان (المتنبى) من أوله إلى آخره ، وتقرؤه مستأنياً متمهلاً ، فلا تجد فيه ذكراً لهذا الرجل الطيب الذى أنجب للقرن الرابع شاعره العظيم . لم يمدحه المتنبى ، ولم يفخر به ، ولم يرثِه المتنبى ، ولم يظهِر الحزن عليه حين مات !! أكان ذلك لأن المتنبى لم يعرف أباه ؟ أم كان ذلك لأن المتنبى عرف أباه ولكنه لم ير له خَطَراً ؟ ... كل ذلك ممكن » .

وفى ص : ١٠ : « أكان المتنبى يعرف جدَّه ؟ لا يحدثنا ديوانه بشىء ، ومن أعرض عن ذكر أبيه لم يُستَغرب منه أن يُعْرِض عن ذكر جدّه ، ومن لم يعرف أباه لم يعرف جده .... » ، إلى آخر هذه المقدمات والنتائج .

ولكن أين هذا من ذاك ؟ فكلمة الأستاذ عزام ، على ما فيها من بعض الخطأ ، فهى على ذلك لا تزال كلمة الرجل التَّثَبت العالم الذى لا يريد أن يتهجم بهواه على ما ليس بحقٍّ ولا بصوابٍ . وأما كلمة الدكتور التى نقل إليها كلام عزام ، فسبيلها سبيل ما تقول العرب للذى يأتيهم بالأباطيل والأكاذيب والمُحال ، وما لم يكن وما لا يمكن أن يكون :

« جاءَ بقَرْنَى حمار » ، والحمار لا قرون له . وإن يكن فى كلام الدكتور طه شئ ، فإن هذا الشئ ليس السببَ الذى يحمل على الشك ، ولا العلّة ، ولا البرهان على المذهب ، وإنما هو المعجزة : إذ انقلبت كلمات الأستاذ عزام حين دخلت كتابه « مع المتنبى » من قَرْنَى كبشٍ نطّاح إلى قَرْنَى حمار !!

فهل اكتفى الدكتور طه بما اختلعه من كتاب عزّام ؟ كلاًّ ... ، فإنه أراد أن يأتى بكلمةٍ أخرى تكون كالبَخُور فى جوِّ الساحر ، فقال فى ص / ١٠ : « إذا كان المؤرخون قد اتفقوا على أنهم كانوا يعرفون أبا المتنبى ويسمونه « حُسَيناً » ، فإنهم لم يتفقوا على جدّه ولم يجمعوا على الاسم الذى يُلصقونه به (هكذا) ، فهو الحسين حيناً ، وهو عبد الصمد حيناً آخر » . ٣٧/٢

ومن أخطاء هذا الكلام المموّه فى اختلاف المؤرخين واتفاقهم ، أن يكتب الدكتور أنهم اختلفوا فى اسم جده (فهو الحسين حيناً وهو عبد الصمد حيناً آخر) ، وليس كذلك ، فإن المؤرخين اختلفوا فى اسم جده (والد أبيه) فقالوا هو (الحسين ، أو الحسن ، أو مُرَّة) ، أما جده الأعلى (والد جده) فسموه (عبد الصّمد أو عبد الجبَّار) ، فهذا خَلْط كما ترى .

وهذا ليس شيئاً ، ولكن هل يحسب الدكتور أن اختلاف المؤرخين فى جدِّ رجل من الناس يكون دليلاً ، أو كالدليل ، على شئ من ضَعةٍ فى النسب أو ضعف فى الأُرُومة ؟ إن ظن ذلك فقد وَهِم . فلو رجع إلى كتب التراجم لوجد الخلاف يقع بين المؤرخين فى أسماء الآباء والأجداد ، ولا يكون ذلك عند أحد من النسابين مطعناً يُثْلَب به الرجل فى نسبه ، أو يُغْمَز فى أصله ، أو يتخذ للشكّ فى صحة انتسابه إلى قبيلة من القبائل . وسبب اختلاف المؤرخين والنسابين فى أسماء عمود النسب معروف لكل من مارس علوم العربية ، وعَلم أنّ أَصْل بنائها على الرواية ، والرواية يقع فيها النسيان والخطأ والتحريف والسقط وما إلى ذلك ، وخاصة فيما هو كالأنساب : اسم بعد اسم بعد اسم ، فليس يربط ذلك بعضه ببعض معنى يقيمه ، أو يذكِّر به ، أو يحفظه من

الإسقاط . ولو شئنا لضربنا له الأمثال بمن لا يختلف فى أمره ، ولا يقال فيه ما يقول الدكتور فى أبى الطيب إنه (لا يعرف أباه) .

٣٨/٢ / وليس فى اختلاف الرواة فى نسب المتنبى ، أو خطئهم فى رواية أسماء أجداده ما يسوِّغ القول بأن المتنبى لم يكن يعرف أباه أو يعرف جده ، ولا يدلّ على أنه كان مدخولَ النسب وضيعَ النشأة خسيسَ الأصل . وإنما يكون ذلك أشبهَ وأحقَّ وأثبتَ ، حين يكون هذا الاختلاف قد وقع من المتنبى نفسه ، ويكون هو الذى اضطرب وأخطأ ، ولكن الدكتور طه يعرف ويقول فى كتابه إن المتنبى لم يذكر فى ديوانه أباه ولا جدَّه . وعلى ذلك ليس يدخل هذا الاختلاف فى باب معرفة المتنبى لأبيه وجده أو جهله بهما . وإتيان الدكتور به على مجرى الشبهة والشك والارتياب ، تقحُّمٌ وخَلْطٌ وفساد .

أفتَدرى أين وجد الدكتور طه هذه الكلمات التى اتخذها أيضاً سبباً فى الشك والزعم بأن المتنبى كان يعرف أباه ؟ ههنا وجدها .... !

فقد روينا فى كتابنا [ص : ١٣٨] من حديث التنوخى عن ابن أم شيبان الهاشمى أنه قال ، وقد جرى ذكر المتنبى : « كنت أعرف أباه بالكوفة شيخاً يسمى عِيدَان ، يستقى على بعير له ، وكان جُعْفِيًّا صحيح النسب » . وروينا أيضاً أن التنوخى قال : إن المتنبى كان يكتم نسبه . فقلنا فى [ص : ١٤٨] : « ثم إن التنوخيَّ يروى هذا الخبر (يعنى خبرَ كتمان النسب) ، ويروى أنه كان جُعْفيًّا صحيح النسب . وما تصح نسبة سَقّاء إلى جُعْفيٍّ بن سعد العشيرة إلاَّ أن يذكر نَسَبَهُ متصلاً إلى جُعْفِيٍ . لأن سقاء يدَّعى الانتساب إلى جُعْفيّ ، لابُدَّ له من أن يقيم دعواه بالدليل والبرهان : وهما النسب المتصل المعروف غيرُ المنكر ، ما من ذلك بُدٌّ . ولو كان ذلك ، لوقع إلينا نصٌّ واحدٌ يذكر / فيه نسب المتنبى ٣٩/٢ إلى رجُل من جُعْفىٍّ لا يختلف فى أمر نسبته . فما ظنك بمن اخْتُلِف فى جدّه الأدنى والذى بعده ، ولم يتجاوزوا ذلك إلى متفق عليه فى عمود النسب » .

هذه الجملة الأخيرة من كلامنا هى التى أخذها الدكتور ، فأقحمها فى الأسباب التى حملته على الشك فى نسب المتنبى .... وتوهَّم أنها تَدْخُل فى معنى ما يريده من

الارتياب فى معرفته لأبيه أو جده . ولقد وَهِم ، فلسنا ممن يلقى القولَ على عواهنه حتى ندخلها فى كلامنا ونجعلها من أسباب شكنا (لا شك الدكتور) فى النسب الذى رواه الرواة . ولم نأت بهذه الكلمة فى آخر كلامنا ، إلا لذلك التَّنوخى راوى هذه الأخبار ، من أن أباه كان سَقَّاءً ، ثم كان جعفياً صحيح النسب ، ثم أن المتنبى كان يكتم نسبه . وقد بينا فى كتابنا فساد هذه الأقوال مجتمعة ، فإن بعضها ينقض بعضاً ، فآبن أم شيبان يقول إن أباه كان سَقَّاءً ، وأنه كان جُعْفياً صحيح النسب ، إذن فهو يعرف النسب من لَدُن والد المتنبى إلى جُعْفيٍ ، وإلا فكيف عرف النسب وصحّحه ، ولم يشك فيه ؟ روى ذلك التنوخى وزعم أنه سأل أبا الطيب عن نسبه فكتمه ، فلماذا لم يتحوَّل إلى صاحبه آبن أم شيبان فيعرف منه النسب ؟ ولئن صحّ أنّ التنوخىّ قد صَرَفه ما يصرف الناس عن السؤال ، أفلم يسأله أحدٌ غيره ؟ ثم ، ألم يكن بالكوفة كلِّها من يعرف نسب هذا السَّقاء غير آبن أم شيبان الهاشمى ؟ بلى ! لقد عرفه أيضاً ، كما روى التنوخى ، رجل آخر هو أبو الحسن الزَّيْدىّ العلوى . وعلامَ يكتم المتنبى نسبه عن التنوخى ، وهو يعلم أنه قد صحب آبن أم شيبان وأبا الحسن الزَّيدىّ العلوى ؟

/ وقد زعم التنوخى أنه سأل المتنبِّى عن أحدهما ، فقال له المتنبى عنه : « تِرْبِى وصديقى وجارى بالكوفة » ؟ فإذا كان هذان الرجلان قد صحَّحا نسب المتنبى إلى « جُعْفىّ » ، فقد عرفاه وأثبتاه علماً ، فآعْجَبْ لهؤلاء ، أكانوا أيضاً يَكتمون نسبه ؟ حتى بلغ الأمر مبلغاً عجباً ، إذ لم يقع لأحدٍ ممن كان يتحفَّى بأخبار المتنبى نصٌّ واحد يذكر فيه نسبه إلى « جُعْفِىّ » ، أو إلى رجل قريب ممن لا يختلف فى نسبته إلى « جُعْفى » ، ولكن الأمر وقع بخلاف ذلك ، فقد اختلفوا فى جدّه ووالد جده ، ولم يأتوا بعد ذلك بشئ . ٤٠/٢

فهذا سياق قولنا فى بطلان هذه الروايات التى استَبضَعَها التنوخى ، وهو الذى استدعى قولنا : « فما ظنك بمن اختلف فى جدِّه الأدنى والذى بعده .... » ، فأخذ الدكتور هذه العبارة ولم يهتد إلى موضع (يُلْصقها) به إلا هذا المكان من كتابه ، فأفسدها وأفسد مذهبه بها .

وبعد ، فقد رأيتَ كيف كان كتاب الدكتور طه يتقمَّم الآراء من ههنا ومن هنا ليشكّ ، ويُثْبتَ أنه هو الذى بدأ الشك فى نسب أبى الطيب ، فهو يعلم من أمر الدنيا كثيراً ، ويعلم أو يتوهَّم أن الناس سيذكرونه بذلك وَيَنْسَوْن من أقام المذهبَ على الجادَّة ، وذلك لذيوع اسمه وشهرته ، وخُفُوت آسم غيره وجَهْلِ الناس به . وهذه عادة هو مُغْرىً بها ، وهى محببَّةٌ إليه ... ولكن « سَقَط العَشَاء به على سِرْحَان » ، كما زعموا ، منْ أنَّ رجلاً خرج يلتمس العَشَاء فوقع على ذئب فأكله (وهذا مثل يُضْرَب للرجل يطلبُ الأمر التافه فيقع فى هَلَكةٍ) . والدكتور طه حسين بك ، عميد الأدب العربى بالجامعة / المصرية ، ٤١/٢ حين ألقى محاضرتيه فى أسبوع المتنبى فى السنة الماضية ، كان أحسن رأياً ، وأكرم عَمَلاً ، وأَنْجَى من التلف وسوء المنقلب ، فقد بدأ كلامه ذلك اليوم بهذه العبارة : « ولقد شكَّ بعض الناس فى نسب المتنبى وأنا أوافقه على هذا الشك » ، ويعنينى أنا بذلك . والظاهر أن هذه العبارة قد سقطت من الطبعة الثانية من « أمالى » الدكتور طه حسين عن المتنبى !! هذا على أننا كنا نحبُّ له أن يعلم أن موافقته لرأينا ومخالفته ، وبخاصة فى الأدب ، سواءٌ = وصَدَق أبو الطيب .

ومن جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ ، رَأَى غَيْرُهُ مِنْـهُ مَا لاَ يَرَى

وإلى الأسبوع المقبل تتمة هذا الحديث ، لماذا لم يستطع الدكتور طه إلا أن يتوقَّف فى الشك ، ويذهب يزعم لنفسه أو للناس أن المتنبى كان (لا يعرف أباه) ؟ ثم ما المعنى الذى أراده أو صرح به فى قوله يصف المتنبى بأنه (لا يعرف أباه) ؟

– ٣ –

/ رأيت مما كتبناهُ قبلُ فى الكلمتين السالفتين أن الرواةَ حدثونا أنّ المتنبى هو « أحمد بن الحسين السَّقاء » ، وأنه جُعْفِىُّ الأَب هَمْدانىُّ الأمّ ، وأن شرّاح ديوانه = على كثرتهم وجليل منزلتهم فى العلم = ثم جميع من ترجم له فى مَدْرَج كتاب ، أو فى كتاب مُفْرَد = تناولوا أمر هذا النسب وماله وما عليه بالتسليم واليقين . وتصرَّمت على ذلك ألف سنة وما فوقَها ، حتى نشرت كتابى عن المتنبى فى مقتطف يناير سنة ١٩٣٦ ، وبَنَيْتُهُ على نقد الرّواية وتزييف الخبر ، بما تهيّأ لى إذ ذاك من أسباب وعلل ، فخَرَجْتُ من ذلك بالشك فى صحة هذه الروايات والأخبار التى وصلتنا عن المتنبى ونسبِه ، ثم جمعتُ من طوائف الرأى ما جعلنى أزعُم أن والد المتنبى كان عَلويًّا ينتهى نسبه إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه . وبذلك كنت أوّلَ من شك فى هذا النسب المروىِّ ، وأوّلَ من انتهى به الشك إلى هذا الرأى . ٤٢/٢

ثم جاء الدكتور طه حسين بعدى بعامٍ ، يَعْدُو عَدْوًا ويزعم للناس أنه يشكّ هو أيضاً ، فى نسب المتنبى ، فيبنى شكَّه على عِلل ملفقّة قد بَيَّنْتُ زَيْفها وبُطْلانها ، وأنها ليست مما يحملُ أحداً على الشك أو ما هو دونه . ثم دَلَّلتَ على الموضع الذى نَقَل منه هذه العِلَل فى كتاب الأستاذ عبد الوهاب عزام ، ثم فى كتابى ، وذكرتُ ما دخلها من فساد ، إذْ حُمِلت من مكانٍ هى فيه أولى وبه أليق ، إلى مكان لا تصلح له ولا يصلح هو عليها . وكان / سبب هذه الفَعْلة ، أن الدكتور الجليل ، وهو صاحب « مذهب الشك » الذى كان أول من (اصطنعه) حين ألّف كتابه « فى الشعر الجاهلى » – أَنِفَ لنفسه أن ٤٣/٢

(*) نشرت فى جريدة البلاغ ، السبت ١٦ من ذى الحجة سنة ٢٧/١٣٥٥ من فبراير سنة ١٩٣٧ .

يسبقه أحدٌ إلى الشكّ فى نسب المتنبى الذى أجمعت الروايةُ على التسليم به . وما دُمتُ أنا قد سبقته إليه ، فَعَلَى رَغْمى ورغم التاريخ أن يكون هو أولى به منِّى وأحقّ . وإذن فليؤلف كتاباً ، وليُسَمِّ هذا الكتاب « مع المتنبى » – وليشكَّ فى نسب المتنبى ، وليتقمَّمِ الأدلّة من هنا ومن ثَمَّ ، محتالاً على تلبيسها وتزيينِها بما أوتى من حسن منطقٍ وبلاغة أسلوب وإعجاز بيان !! ولو زعموا أن « المَخِيلَة تَقْتُل نَفْسَ الخائل » ، (المخيلة : الخيلاء والكبر إعجاباً بالنفس) !

ولكن ، لماذا لم يستطع الدكتور الجليل إلا أن يتوقف فى الشك الذى اصطنعه ، فذَهبَ يزعم لنفسه أو للناس أن المتنبى كان (لا يعرف أباه) ؟ هذه هى المسألة التى وقفنا عندها فى الكلمة السالفة ، وإليك خبرها .

قَلِقَ الدكتور حنيناً إلى مذهبه القديم فى الشك ، فحاصَ حَيْصة بين الكُتب ، فوجد فى كتابِ عزام وكتابى من الأسباب الملفقة والعِلَل المزوَّرة ما يُقَوِّم أَوَدَ هذا الشك الذى انتحاه ودبَّ إليه ، فأتمَّ رأيه وقال : « هذه أسباب كافية وعِلَلٌ وافية ، وإذن فَلْنَشُكّ ! » لكن أيشُك فى « وجود » المتنبى نفسه ، كما شك فى وجود بعض شعراء الجاهلية ؟ كلاَّ ، فهذا ليس بشيءٍ ، والعلل التى وقع عليها لا تؤدى إلى هذا الرأى . وثارت به بَدَوات العبقرية = والدكتور طه حسين بك رجل عبقرى بارعٌ ، ليس فى ذلك / شك عندى = فأخذت تُديرُ له الرأى والحجَّة والبرهان وما إلى ذلك ، ويستعصى الأمر ، وتَلجُّ هى فيه ، حتى وضعت المشكلة وضعاً منطقياً خالصاً ، وللمنطق حِيلة ، وفيه غَنَاء ، وبه المُسْتَعان فى توليد الآراء !

٤٤/٢

يقول الرواة : « إن المتنبى جعفيُّ الأب هَمْدانىُّ الأمِّ » ، والدكتور محمولٌ على الشك فى هذا القول ، وإذن فهو ليس بجعفيٍّ ولا هَمْدانيّ ، فأىّ قبيلة ينتسب إليها ؟ ذكر عزام فى كتابه ص : ٢٩ : « أن المتنبى لم يصرح باسم قبيلة ولا عشيرة » ، وعلى ذلك لن يجد الدكتور فى ديوانه قبيلة غير هاتين يستطيع أن ينسبه إليها . وعلى ذلك فالرجل غير منسوب إلى قبيلة من قبائل العرب . أيكون ، إذنْ ، علويَّ النسب كما زعم (محمود

شاكر) فى كتابه ؟ ربّما ، ولكن نفس الدكتور لا تطاوِعه على أن يستلب هذا الإنسان شكَّه وما ولَّد له هذا الشك . إذن فهو ليس بعلويّ أيضاً . وأظلمت الدنيا عليه ، وهى مُظْلمة . فهذا رجلٌ لا ينتسب إلى قبيلة من القبائل ، ولا إلى العلويين ولا غيرهم ، وهو عربيٌّ ولا شك ، فقد صرح الدكتور بذلك كما صرح شعرُه ، والعرب يعتزُّون بالانتساب إلى قبائلهم « ويحرصُون على ذلك أشد الحرص » ، فكيف الرأى ، وقد أدخله الشك مدخلاً لا يستطيع الخروج منه ؟ وهنا أسعفته العبقرية مرةً أخرى ، فالمتنبى لم يذكر أباه ، ولم يمدحه ، ولم يَرْثِه ، ولم يظهر الحزن عليه حين مات !! إذن ، إذن ، إذن ، فالمتنبى لا يعرف أباه . وليس فى هذا شك ، فلو أنه كان قد عَرَفه ، لذكره ، ثم لمدحه ، ثم لرثاه ، ثم لَانتسب إليه ، ثم لَعُرِفَتْ له قبيلة ينتهى إليها نسبُه !!

بهذا المنطق فاز الدكتور ، وولَّد له شكُّه شيئاً يستطيع أن يسمِّيه فى / الآراء رأياً ، ٤٥/٢ وإذن فالكتاب قد حَضَر وفُرِغ منه ، وإذن فلينشر الكتاب على الناس فى أقرب فرصة ، ليطمس به ذكر هذا الواغل الطُّفَيْلى الذى دخل على « مذهب الشك » آثماً ، وخرج منه سارقاً ! هذا الذى نشر له المقتطف كتابه عن المتنبى فى يناير سنة ١٩٣٦ .

أنا أعرف الدكتور طه حسين بك ، وأعرف كيف يفكر ، وأعرف كيف يتهجَّم على غير بصيرة فى الرأى . فأنا أشهد ، والدكتور يشهد معى ، أن هذا هو ما خطر له وهو يفكر فى هذا الأمر . والدكتور الجليل ، وهو الراوية الثبت ، يذكر أنه كلَّمنى فى أسبوع المتنبى من العام الماضى (سنة ١٩٣٧) ويذكر ما دار بينى وبينه من حديث سنروى لك بعضه فيما يلى ، بعد أن نبيِّن ماذا أراد الدكتور بمعْنى قوله فى صفة المتنبى إنه (لا يعرف أباه) .

ولعل القارئ قد عرف ، قبل أن نُعرِّفه ، أن الدكتور الجليل طه حسين بك يعنى بقوله : إن المتنبى كان (لا يعرف أباه) : أن هذا الرجل كان ولداً بين رجل وامرأة (لا يعرفهما أو لا يعرف أحدهما على الأقلّ) ، أو كان منبوذاً لغير رِشْدَة ، أو كان لقيطاً . وطَىُّ هذا معنى أنت تعرفه بعدُ ، وإلاَّ فهذا هو يقول فى أول الكتاب كما

حدثتك ، إن المتنبى (لم يكن يعرف أباه) ثم يقول فى ص : ١٠ : « إن المؤرخين الذين ذكروا جدّه .... لم يجمعوا على الاسم الذى يلصقونه به !! » وفى ص : ١١ : إن المتنبى « لا ينتسب إلى الرجال (هكذا) ، لأنه لا يريد ، أو لا يستطيع ، أن يجد فى الانتساب إلى الرجال غَناء » .

٤٦/٢ / ويقول فى ص : ٢٥ : « ومن حقك أن تسألنى لماذا أطيل الحديث عن نسب المتنبى ، وأظهر الشك فى معرفته لأبيه وأمه ؟ ... فاعلم يا سيدى .... إنما آثرتُها لأنتهى منها إلى حقيقة يظهر أنها لا تقبل الشكّ ، وهى أن المتنبى لم يكن يستطيع أن يفاخر بأسرته ، ولا أن يجهر بذكر أمه وأبيه !! التمس لذلك ما شئت من عِلَّة ، فهذا لا يعنينى ! وإنما الذى يعنينى ، ويجب أن يعنيك ، أن شعور المتنبى الصبىِّ بهذه الضَّعة ، أو بهذا الضعف من ناحية أسرته وأهله الأدْنَيْن ، قد كان العنصرَ الأوّلَ الذى أثَّر فى شخصية المتنبى » .

ثم يقول فى ص : ٢٧ : « ولماذا احتاج المؤرخون أن يتحدثوا عن أبيه ، وعجزوا ، أو لم يريدوا !! أن يتحدثوا عن أمه ، ولم يتحدث هو عن هذه وذاك » ؟

وفى ص : ٣١ : « هذا يدلُّ من غير شك على أنّ سرًّا من الأسرار كان يكتنف حياة أبى الطيب ويحيط بأسرته ، ويستر عنا حقيقةَ الصلة التى كانت بينه وبين هذه الجدة الصالحة ، والتى كانت بين الحسين السقاء وبين هذه الجدة الصالحة أيضاً ، والتى اقتضت أن تُهْمَل أمُّ المتنبى إهمالاً تاماً !! » .

ثم يقول بعد حديث طويل كلُّه شُبَهٌ مثل هذه فى ص : ٣٤ : « هذا كلُّه يكفينى لأقتنع بأن « مولد » المتنبى كان شاذاً !! وبأن المتنبى أدرك هذا الشذوذ وتأثَّر به فى سيرته كلها » . هذا ما نقلناه لك فتدبره ، فإن معناه ظاهر ، وهو أظهر عند مَنْ قرأ كتاب الدكتور من ص : ٩ إلى ص : ٣٤ . / والدكتور على عادته يُجَمْجِم القول ويُديره من هنا وهنا ، « ويصطنع » اللفظ الساحر ليدلّ على غرضِه بغير تصريح ، كما ترى فى قوله فى اسم ٤٧/٢

جدّ المتنبى : « إن المؤرخين لم يجمعوا على الاسم الذى (يلصقونه به) » ، ثم يعقِّب على ذلك بقوله ص : ١٠ : « ومهما يكن من شئ فقد كان للمتنبى أبٌ ، وكان له جدٌّ ، لأننا لا نعرف إنْساناً ليس له أبٌ ولا جدٌّ ، لا نستثنى من ذلك إلا اللَّذَيْن استثناهما الله عز وجل حين قال : (إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كمثل آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ) » . وأنت بعدُ تعرف المعنى الذى أراده الدكتور الجليل .

وفى العام الماضى أُخْبِرتُ أن الدكتور طه يذهب إلى أن المتنبى « لَقيطُ لِغَيَّةٍ » ، فاستعذت بالله ، واستكبرت أن يقول الرجل هذا القول ، حتى كان يوم اجتمعنا فى دار الجمعية الجغرافيَّة لأسبوع المتنبى ، [1] فكان من حديثه لى أن قال : أنت تذهب إلى أن المتنبى عَلوىُّ النسب ، وأنا قد قرأت هذا الفصل ، وأوافقك على الشكِّ فى النسب ، ولكنى لا أوافقك فى أنه علوِىٌّ .... ثم ماذَا ، يا محمود ، لو قلنا إن المتنبى « لقيط » !!؟ وقد والله خُيِّل لى أن الشيطان فَاغِرَ فِيهِ بينى وبين هذا الرجل ، فرجَفْتُ رَجْفَة وعُذْت بالله ثم قلت له : إنّ هذا رأىٌ منقوضٌ من وجوه ، وهو على كلّ حال نتيجة للشك فى نسب المتنبى ، مع التوقف عند مجرَّد هذا الشك ، قبل القول بأنه عَلَوىٌّ أو جُعْفِىٌّ أو هذا أو ذاك » ، وأردت أن أنبهه بهذه الكلمة إلى أن رأيه / مسلوخ من كتابى ، وذلك أنه أخذ الشك فى النسب منِّى ، وعجز عن أن يقول شيئاً فى نسب جديد (يلصقه به) . ٤٨/٢

وهذا الرأى وحده هو سر اهتمام الدكتور طه بالكتابة عن المتنبى ، فلو لم يكن وَقَع عليه لما كتب عنه . فهو يقول فى ص : ٤ : « وليس المتنبى هذا من أحب الشعراء إلىّ ، وآثَرِهم عندى ، ولعله بعيد كلَّ البُعد عن أن يبلغ من نفسى منزلة الحبِّ والإيثار ، ولقد أَتَى علىَّ حينٌ من الدهر لم يكن يخطُرُ لى أنِّى سأُعْنَى بالمتنبى أو أطيل صحبته أو أديم التفكير فيه .... » .

---

(١) أرجو أن يعلم قارئ هذا بعد أربعين سنة من كتابته ، أن هذا الحديث قد نشر سنة ١٩٣٧ ، وقرأه الدكتور طه يومئذ ، ولم ينكره ولم يكذبه . أقول هذا لأنى سمعت أن بعض الناس يزعم أن هذا اللقاء لم يحدث ، وهذا من أعاجيب زماننا !!

وقال فى ص : ٥ : « وقد قلت فى غير هذا الموضع إنى لست من المحبين للمتنبى ولا المشغوفين بشخصه وفنه » .

فلولا أنى شككت فى نسب أبى الطيب ، ولولا أنه أخذ هذا الشك منّى ، وانتهى إلى أنه (لقيط) ، لما كتب عنه حرفاً واحداً ، لأنه لا يحب الرّجُل ولا فنَّه ، وتسألنى لماذا ؟ كما يقول الدكتور ، فجواب ذلك أن الأستاذ المازنى قد شرح فى كتابه « قبض الريح » سرَّ هٰذا بأحسن بيان وأدَقّ فكرٍ ، يقول المازنى ص : ٨٣ : « لقد لفتنى من الدكتور طه فى كتابه « حديث الأربعاء » ، وهو مما وضع ، وفى « قصص تمثيلية » ، وهى ملخصة ، أن له ولعاً بتعقُّب الزُّناة والفُسَّاق والفَجَرة والزنَّادقة » .

ثم ساق الأدلة من الكتابين على ذلك ، إلى أن قال فى ص : ٨٩ : « وللقارىء أن يسأل لماذا لم يؤثر الدكتور « نحواً » آخر من « أَنحاء » الأدب الغربى ، وليس هذا كل ما فيه ولا هو خَيْرُه ؟ لماذا عُنِى على وجه الخصوص بقصص / الزُّناة والزوانى ، وبحكايات الجهاد ، كما يقول هو ، « بين العواطف والشعور من جهة ، وبين العقل من جهة أخرى .... ؟ » . ٤٩/٢

ثم شرع المازنى يقارن بالقسط والحق بين الدكتور طه وبشّار الأعمى وأبى العَلاَء ، وقد استوفى الكلام على الغريزة الجنسية عند بشار وأبى العلاء ، وأثرهما فى شعرهما وآرائهما ونَظَرَاتِهِما إلى الحياة ، وحياة المرأة خاصة ، حتى انتهى إلى هذه الكلمة فى ص : ١٠٩ :

« فلا عجب إذا رأينا الدكتور كَلِفاً بتناوُلِ المُجَّان وأهل الخلاعَة من شعراءِ العرب ، وتلخيص القصص التى تدُور على الخيانات وما إليها ، وتسويغ ذلك والاعتذار له ، حتى لكأنما يحاول أن يقول بلسانه غير ما تلجُّ به الرغبة فى الكشف عنه والإفضاء به من مكنونات نفسه » .

وأنا أنصح من يريد أن يفهم ما تَنْطَوِى عليه كلمات الدكتور طه فى كُتُبه ، أن يرجع إلى هذه الفصول التى كتبها المازنى فى « قبض الريح » فيقرأها ويتدبرها ، فإنها من

أجود ما يُكْتَب ، وأحسن ما يعينك على التغلغل فى أسرار طائفة من النفوس الإنسانية ومنهجها ، وإدراكِ ما ترمى إليه فى أحاديثها وأشعارها وأخبارها وتأليفها واختيارها وما إلى ذلك .

وبعد ،

فهل يستقيم هذا الرأى الذى ذهب إليه الدكتور طه من أن المتنبى (لم يكن يعرف أباه) ، وأنه « لم يكن يستطيع أن يفاخر بأسرته ، ولا أن يجهر بذكر أمه وأبيه .... وأنه كان يشعر بالضَّعة والضعف من ناحية / أسرته ، ص : ٢٦ ، وأنه « لما تقدَّمت به السِّنُّ قليلاً قد عرف من أمر نفسه !! ومن أمر أسرته ما أنكره وما لم يستطع أن يُقيم معه فى الكوفة ، فآثر الرحيل » ، ص : ٣٣ ، وأن « الكِذَابَ الذى كان يُكَاد به عند أبى العشائر ، ويراه أهْوَن عنده من نَاقِلِه ، لم يكن كِذَاباً كُلُّه !! « وإنما كان له أصل » يملأ صدر المتنبى غيظاً وحفيظةً ، ويذودُه عن الكوفة ، بل يبغِّض إليه الحياة فى العراق ، ويحمله على أن يُنْفِق عمره غريباً مُجَوِّلاً فى الآفاق !! » ، ص : ٣٤ ؟؟؟ ٥٠/٢

لم يستطع الدكتور الجليل العبقرى أن يأتى ببيت واحدٍ من ديوان أبى الطيب يؤيِّد به هذا الرأى ، ومع ذلك فهو يقول به ويكرِّره ويعيده !! هذا على أن منشأ الشك فى هذا الأمر لابدَّ أن يكون من ديوان الرجل نفسه . والدكتور يقول إن المتنبى كان يشعر بالضَّعة من ناحية أسرته ، وأنه عرف من أمر نفسه وأمر أسرته ما أنكره ، فأين وجد المتنبى يشعر بالضعة ، أو ينكر أمر نفسه وأمر أسرته ؟ وأين هذا الأثر الذى أتاح له أن يقتنع « بأن مولد المتنبى كان شاذاً ، وبأن المتنبى أدرك هذا الشذوذ وتأثر به فى سيرته (كلها !!) ؟ وتأمل هذه المبالغة فى قوله (سيرته كلها) ، واقرأ الكتاب كله فلا تجد الدكتور طه حسين بك أشار فى موضعٍ واحدٍ إلى (حكاية) هذا النسب ، ولا أدخله فى شئٍ من العلل التى أراد أن يعلل بها ما (يرى من رأى) !! فهو بذلك عاجزٌ من ناحيتين : عاجز من ناحية شعر المتنبى ، وعاجز من ناحية تفسير حياة المتنبى وتحليلها على ضوء هذه الضَّعة ، وهذا « المولد الشاذ » . ولا أدرى بَعْدُ علامَ أجْهَد الدكتور لسانَهُ وكفَّ / مُسْتمليهِ ، بإملاء ٥١/٢

هذه الفصُول عن نسب المتنبى ؟ ففيها الخطأ ، كما بينا ذلك كله ، وفيها سُوء النقل من الكتب ، وفيها ضعف الفهم للشعر ، وفيها فَساد الفكر وتناقضه ، وفيها قَذْفُ المتنبى بأنه (لا يعرف أباه) ، وكَبُرَ ذلك مقتاً عند الله وعند الناس . لقد كنا أقرب الناس إلى الإغضاء عما فى كلام الدكتور طه من الخطأ والنقص والتناقض ، لو أنه ترك هذه الآراء جانباً ومضى على غُلَوائِه يأتى بما يشاء من ذيول كلامه الطويل والتى تختال فيها كتبه ومؤلفاته !

وأستغفر الله مما فَرَط ، فقد نسيت أن أذكر لك أن الدكتور الجليل أراد أن يُلبِّس على قارئ كتابه فيوهمه ، حقًّا ، أن المتنبى كان يشعر بالضعة والضعف من ناحية أسرته ، فاستشهد فى هذا الفصل ص : ١٣ ، بأبيات أبى الطيب التى أولها :

أَنَا ٱبْنُ مَنْ بَعْضُه يَفُوقُ أَبَا الـ ـبَاحِثِ ، وَالنَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجَلَهْ
وإنَّما يَذْكُرُ الجُدُودَ لَهُم مَنْ نَفَرُوهُ وَأَنْفَدُوا حِيَلَهْ

واستخرج من هذين البيتين أن أبا الطيب « لا ينتسب إلى الرجال لأنه لا يريد أو لا يستطيع أن يجد فى الانتساب إليهم غناء » ، ص : ١٥ = وأن هذه الأبيات « تصور ضعف المتنبى من ناحية نسبه أبلغ تصوير وأقواه » .

٥٢/٢ / وقد بينا فيما مضى فساد فَهْم الدكتور لهذين البيتين ، فالمتنبى ينتسب إلى رجل لم يصرح باسمه لا « إلى متجزئ له بعض يمتاز عن كله !! » ، كما فهم الدكتور العبقرى .

إن الدكتور طه حسين بك ، عميد الأدب العربى بالجامعة المصرية ، رجلٌ قد أثبتت التجارب والأيام ، ثُمَّ مؤلفاته ، أنه لا بَصَرَ له بالشعر ولا بمعانيه ، وسيأتى فى مواضع أخرى من كلامنا تأييد هذا الرأى بأدلة كثيرةٍ « تَتَقَصَّى بالضَّاحك ٱسْتِغْرَابَهْ » ، كما يقول البحترى ، وسنسوق إليك هنا « فَصْلاً » من هذا الباب .

وأحب للقارئ أن ينفض عن نفسه غُبَار هذه المعانى التى جاءت فى كلام الدكتور طه ، ويبدأ معنا من حيث يجب أن يبدأ ، ليكون ذلك أنقَى لنفسه ، وأطهرَ لفهمه مما عَلِقَ به .

لو فرضنا أن المتنبى كان ، كما يزعم صاحبنا ، (لا يعرف أباه) ، وأنه كان يشعر بالضَّعة من قبل أبيه وأمه فلا يجهر بذكرهما ، وبالضعف من ناحية نسبه وأسرته ، وأنه قد عرف من ذلك ما أنكره وبغَّض إليه الحياة فى الكوفة = ولو فرضنا أيضاً أن « الكِذَاب الذى كان يكاد به » هو بسبيلٍ من هذا الأمر ، كما زعم الدكتور فى ص : ١٦ ، فهناك أمران لا مناص عن أحدهما : فإما أن يكون هذا « الكِذَاب » مما قالته فيه الشعراء ، تَنْبِزُه فيه بالضعة ، وأنه « لا يعرف أباه وينكر أمره وأمر أمّه » ، وإما أن يكون مما قيل قولاً ، ولم يُقَل شعراً .

/ أما الأوّل : فالدكتور مُطالب بإظهارنا على هذا الشعر إن كان سمع به أو قرئ ٥٣/٢ عليه ، وما هو بمستطيع إن شاء الله !! فإنه إذا صح أن أحداً من الشعراء قد عرَّض بوالد المتنبى أو أبيه على هذه الصورة التى اخترعها الدكتور طه ، فعندئذ يصح أن يجيبَ المتنبى الشعرَ بالشعر ، وأن يكون هذا الشعر مما « يصور ضَعفه من ناحية أبلغ تصوير وأقواه !! » = هذا على أنه كان أولى بالمتنبى عند ذاك أن يسكت ، فذلك خيرٌ له من أن يفضح نفسه فى مجلس أبى العشائر ، ويحمل الناس على اللجاج فى السؤال عن نسبه ، والتقصى لأخبار أمّه وأبيه وجدّه وجدَّته . هذا صريح العقل .

وأما إذا كان هذا التعريض مما تداوله لسانٌ ناطق وأذنٌ سامعة ، وعرَف المتنبى خبر ذلك ، فكان أولى به إذن أن يسكت عنه فى شعره ، وإن شاء تكلم فيه فى مجلس مُقَنَّع يراوغ فيه بالحجة ويدافع بالحيلة ، حتى يقطع عن نفسه شرَّ هذا اللسان ، ولا يتحامَقُ فيتحدَّاه هذا التحدِّىَ المؤذِىَ الدَّاعىَ إلى الشر والمماحكة وطلب الوقيعة بقوله فى ذكر ذلك المفترِى عليه :

وَرُبَّما أُشْهِدُ الطَّعَامَ مَعِى مَنْ لاَ يُسَاوِى الخُبْزَ الَّذِى أَكَلَهْ
وَيُظْهِرُ الجَهْلَ بِى ، وَأَعْرِفُهُ وَالدُّرُّ دُرٌّ بِرَغْمِ مَنْ جَهِلَهْ

ونرجو الدكتور طه أن يتفهَّم = على سبيل الجدِّ ، لا سبيل العَبَث كما يقول عن

٢/٥٤ نفسه = قولَ أبى الطيب : « ويُظْهر الجهلَ بى وأعرفُهُ » ، فإن / هذا لا يقوله من يخشى أن يتطلّع الناس إلى نسبه ، فينكروا منه سوأةً أنكرها هو من قبْلُ .

وأيضاً يا مولانا الدكتور الجليل ، كيف تستطيع أن تقول فى رجُل يشعر بالضَّعة من ناحية أبيه وأمه ونسبهما أو صلتهما ، وهو يَدْأب على الفخر بأنه لا يذكر الجدودَ ولا يُولِيهم اهتمامَه ؟؟ ولو صحَّ أنه مما يجوز أن يفخر به حين يُكاد « بالكِذّاب » ، ويتهم فى نسبه ، فكيف يجوز أن يذكره فى غير مناسبة تقتضيه أو تحمل عليه ؟ أيأتى الرجُل وفيه العَيب والعارُ ليدلَّ الناس على عارِه وعيبه ويقول : هأنذا فانظرونى ؟؟

هذا المتنبى يقول فى صباه لغير مناسبة :

لاَ بِقَوْمِى شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِى ، وَبِنَفْسِى فَخَرْتُ لاَ بِجُدُودِى
وَبِهِمْ فَخْرُ كلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّا دَ وَعَوْذُ الجَانِى وَغَوْثُ الطَّرِيدِ

ويقول وهو بمصر فى قصيدة الحمَّى ، ولغير مناسبة أيضاً :

ولَسْتُ بِقَانِعٍ مِنْ كلِّ فَضْلٍ بأَنْ أُعْزَى إلَى جَدٍّ هُمَامِ

إلى غير ذلك من شعره الذى يدلُّ دِلالة صريحة على أن الرجل لم يكن يشعُر بالضَّعَة ، وإنما كان يكتُم أمراً جليلاً يخافُ منه على نفسه . وإن الرجل إذا كان يشعر بالضعة فى نسبه ، لا يأتى فينبِّه فى شعره لغير سبب ولا علة إلى ذكر هذا النسب . ولو فعل ذلك لكان أحمقَ الحمقى ، وأَشْأَمَهم على نفسه .

٢/٥٥ / وأيضاً يا سيدى العميد ، لو كان الأمر كما زعمتَ حين تقول فى ص : ١٦ : « ما عسى أن يكون هذا الكِذَاب ؟ أتراه يمسُّ نسبه من قريب أو بعيد ؟ » ، ثم تجيب نفسك فى ص : ١٧ : « ليس فى ذلك عندى من شك ، فقد اتهم الرجل فى نسبه .... » ، أليس المعقول بَعْدَ هذا أن يكون الذين تولَّوا هذا « الكِذاب » ونطقوا به ، واتهموا المتنبى فى نسبه ، وسألوه عن أبيه وجده فلم يستطع أن يجيب = أن يكونوا قد عرفوا من خبر هذا النسب الموضوع الدنىء طَرَفاً يلوِّحون به لهذا المتنبى ؛ فيهيج ويضطرب ويختلط عليه

أمره ؟ ولو كان هؤلاء قد اتهموه فى نسبه كما تزعم ، لملأوا على أبى الطيب الدنيا بما يعرفون من عار أمِّه وأبيه ، ولتجاوبت به صدور أعدائه من الشعراء وغير الشعراء ، لَفرْط عداوتهم له وغيظِهم منه ، ولتردَّدت هذه الخِسّة فى نسبه فى كل مكانٍ وعلى كل لسانٍ .

أجَلْ يا سيدى ، فإن مثل الذى جَمْجَمْتَ به من القول فى نسب المتنبى ، لو كان على ذلك العهد (من سنة ٣٠٣ – ٣٥٤ من الهجرة) ، وفى البلاد العربية ، وفى غمرة تلك الفتن والوشايات والأكاذيب ، لما خفى على أهل الكوفة وهم قومه ، ولَانتشر وملأ الأسماع والبِقَاع ، ولَأَخْفت ذِكْرَ المتنبى ودسَّ رأسه فى التراب من الهوان والعار ، ولم يجعل من دأبه أن يفخر بتركِه ذكرَ الآباء والأجداد .

وقد بقى فى هذا الفصل كثير من التناقض ، وسوء النظر ، وقلّةِ التمحيص للآراء وتقليبها على وجوهها ، وضعفِ المنطق ، نتركه ولا نبالى / به ، إذ كان فيما يستقبل من فُصول هذا الكتاب « مع المتنبى » ، ما هو أدلُّ عليه وأعلقُ به . وقد رأيتَ أن الدكتور فى هذا الفصل أراد أن يسلبنا شكًّنا فى نسب المتنبى الذى رواه الرواة ، وأنْ يعارض رأينا فى علوية أبى الطيب برأى لا يستقيم ولا يُسَمَّى رأياً ، إذ يتهدَّم فيقول « إنه رجل لا يعرف أباه » . وقد خرج الدكتور منه ، بعد الذى كتبناه ، بنصيب الرجل الذى سرق قميصاً فبعثه مع ٱبنه ليبيعه ، وكان ٱبنه هذا يعرف أن أباه سرق القميص من رجل بعينه ، فعارضه فى الطريق من سَرَقَه منه ، فأسلمه إليه . فلما رجع قال له أبوه : بعتَ القميص ؟ فقال الولد : نعم ! قال : بكم ؟ قال : برأْس المال !! ٥٦/٢

وأنا والله أشدُّ إشفاقاً على الدكتور طه حسين بك منه على نفسه ، ولكم وددت أنى يأتى الرجل بشئ فى كتابه يقال له عنده : لم تخطئ يا سيدى . ولكن لعن الله الحظوظ ، فإنها ربما وَضَعت الرجلَ منَّا فى غير موضعه الذى هو له أوفقُ ، فيضطر إلى ما لا مَعْدَى عنه من طَلَب الشئ يحسِّن به مكانه ويثبِّته فيه ، فيكون فى طريقه المَزَلَّةُ والعطبُ والهلاكُ ، وما نعوذ بالله منه ، ورحم الله من قال : « العُرْىُ الفادح ، خيرٌ من الزِّىِّ الفاضح » .

وإلى السبت المقبل ، نستقبل الفصل الثانى من كتاب الدكتور حفظه الله .

– ٤ –

٥٧/٢ / يبدأ الفصل الثانى من كتاب الدكتور الجليل الأستاذ طه حسين بك « مع المتنبى » من ص : ١٨ – ص ٣٤ ، وهو عن نسبه أيضاً من قِبَل أمه وجدّته . وهو أيضاً فصل من الشك كالذى مضى ، بدأه الدكتور الجليل بهذه الكلمة الجليلة : « وهل كان المتنبى يعرف أمَّه ؟ مسألة فيها نظر ، كما يقول الأزهريون » ، ص : ١٨ . ونحن بسبيلنا من اختصار هذا الفصل على القاعدة التى جرينا عليها فى الكلمة الأولى من حذف الحواشى ، والإبقاء على مادة الفكر ، وعلى الرأى ، وعلى الأسباب ونتائجها ، ثم نتبع ذلك بالنقد المفصل للفصل كله . يقول الدكتور :

« فديوان المتنبى صامت بالقياس إلى أمّه صمته بالقياس إلى أبيه .... ولكن الخطب فى أم المتنبى أعظم منه فى أبيه .... » ، فالرواة والمؤرخون « ذكروه فسموه الحسين » ، أما هى فلم « يذكروا من أمرها شيئاً » ، « وكلّ ما نعرفه أن أمّها قد عطفت على المتنبى » ، ص : ١٨ ، وهذه الأم (جدة المتنبى) أيضاً « لا نعرف لها آسماً ولا أباً » ، وإنما قال بعض الرواة : « إنها همدانية صحيحة النسب ، وإنها كانت من صوالح نِساء الكوفة .... » ، « هذا وديوان المتنبى لا يذكر نسبها ولا يشير إليه ، ولعله يشكك فيه بعض التشكيك بهذا البيت الذى أملاه الغرور وصاغته الكبرياء ، ووضعه جموح الشاعر فى غير موضعه من الرثاء :

٥٨/٢ / وَلَوْ لَم تَكُونى بِنْتَ أَكْرَمِ وَالِدٍ   لَكَان أَبَاكِ الضَّخْمَ كَوْنُكِ لِى أُمَّا »

(*) نشرت فى جريدة البلاغ ، الثلاثاء ٢٦ من ذى الحجة سنة ٩/١٣٥٥ من مارس سنة ١٩٣٧ .

ص : ١٩ ، وينتهى الدكتور بعد ذلك إلى قرارة الأشياء ! فلا يكاد « يشك فى أن المتنبى قد كان عربياً » ص : ٢١ ، « وقد كان المتنبى يرى أنه عربى ، وسار حياتَه كلها سيرة ملائِمةً لهذا الرأى » ص : ٢٣ . والدكتور الجليل يفهم كلَّ شئ ، ولكن لا يفهم « الشك فى عربية المتنبى ، ما دامت القرائنُ لا تنسبه إلى أمٍّ أعجمية » ص : ٢٤ . ويريد الدكتور أن يقرر بهذه الكلمة أن أمّ المتنبى عربيَّة ، ثم يقول الدكتور إنه يظهر الشك فى معرفة المتنبى لأمه وأبيه ! ، لينتهى من هذه المسألة إلى « حقيقة يظهر أنها لا تقبل الشك ، وهى أن المتنبى لم يكن يستطيع أن يفاخر بأسرته ، ولا أن (يَجْهَر !!) بذكر أمّه وأبيه . التمسْ لذلك ما شئت من عِلَّة ، فهذا لا يعنينى ، وإنما الذى يعنينى ويجب أن يعنيك ، هو أن شعور المتنبىّ الصبىِّ بهذه الضِّعة أو بهذا الضعف من ناحية أسرته وأهله الأدْنَيْن ، قد كان العنصر الأوَّل الذى أثر فى شخصية المتنبى وبغَّض إليه الناس ، وفرض عليه أن يرى أن حياته بينهم لم تكن كحياة أترابه ورِفاقه ، وإنما كانت حياةً يحيط بها كثيرٌ من الغموض ، ويأخذها كثيرٌ من الشذوذ . رأى نفسه شاذًّا لأمرٍ ليس له فى يدٌ ، ففكر تفكير الشاذّ ، وعاش عيشةَ الشاذّ » ، ص : ٢٦ .

ثم يقول : « وتسألنى ، ومن حقك أن تسألنى ، عن مظاهر هذا الغموض الذى أحاط بحياة المتنبى ، وعن مواطن هذا الشذوذ .... فلاحِظْ قبل كل شئ غموضَ الأمر فى نسبه ، ولاحظ بعد ذلك خلوَّ ديوانه من ذكر أمه وأبيه أو / الإشارة إليهما ، ولاحِظْ بعد هذا وذاك هذا الكِذَابَ الذى كان يكادُ به عند أبى العشائر . ثم لاحظْ آخرَ الأمر أنه حين عرف شوقَ جدّته إليه ، ووجد الشوقَ إلى لقائها ، وذهب لتنعم وينعم هو بهذا اللقاء ، لم يستطع أن يدخل الكوفة .... أليس هذا كلّه دليلاً على أن شيئاً كثيراً من الغموض قد أحاط بأسرة المتنبى ؟ » ، ص : ٢٧ . ثم ينطلق يتكلم وينشد قصيدته فى رثاء جدته إلى أن يقول : « هذا يدل من غير شك على أن سراً من الأسرار كان يكتنف حياة أبى الطيب ويحيط بأسرته ، ويستر عنا حقيقةَ الصلة التى كانت بينه وبين هذه الجدة الصالحة ، والتى كانت بين الحسين السَّقاء وهذه الجدة الصالحة أيضاً ، والتى اقتضت أن تُهْمَل أمُّ المتنبى إهمالاً تامًّا .... » ، ص : ٣٢ . والمتنبى يقول عن نفسه :

٥٩/٢

تَغَرَّب لا مُسْتَعْظِماً غيْرَ نَفْسِهِ ولا قابلاً إلا لِخَالِقِه حُكْمَا

« فهو إذن لم يتغرب عن الكوفة حباً فى الغربة » ، وإنما « تغرب منكراً للحياة فى الكوفة » . وما الذى ينكر المتنبى من ذلك ؟ ينكر أمرين : « أحدهما يتصل بالحياة الاجتماعية ، والآخر يتَّصل بالحياة السياسية . وليس من شك عندى ، ولك أن تشكَّ ، فى أن المتنبى لما تقدَّمت به السنّ قليلاً قد عرف من أمر نفسه وأمر أسرته ما أنكره ، وما لم يستطع أن يقيم معه فى الكوفة ، فآثر الرحيل » ، ص : ٣٣ . فهذا هو الأمر الاجتماعى . وأما السياسى فسيأتى ذكره فى فصل آخر ، « وهو عندى أثر من آثار الأمر الأوّل » ، ص : ٣٤ .

٦٠/٢ ثم ينتهى الدكتور بهذا : « ولعل هذا كله لم يقنعك كما أقنعنى بأن طفولة المتنبى / لم تكن طفولة عادية .... وبأن الكِذاب الذى كان يُكَادُ به عند أبى العشائر لم يكن كذَاباً كُلُّه ، وإنما كان له أصل يملأ صدر المتنبى غيظاً وحفيظةً » ، « هذا كله يكفينى لأقتنع بأن « مولد » المتنبى كان شاذًا ، وبأن المتنبى أدرك هذا الشذوذ وتأثر به فى سيرته كلها » ، ص :٣٤ .

فهذه سبع عشرة صفحة اختصرناها فى هذه الأسطر .... ولم نخل بموضع رأى للدكتور الجليل .

***

والدكتور فى هذا الفصل يقرر أن المتنبى « لا يعرف أمه » كما كان لا يعرف « أباه » ، وبيِّنٌ أنه يبنى شكّه فى معرفة المتنبى لأمه على العلل التى اصطنعها فى أمر أبيه ، فالمتنبى لم يرثها ، ولم يظهر الحزن عليها حين ماتت ، ولم يذكرها !! ولم يمدحها أيضاً ، أليس كذلك يا سيدى الدكتور ؟ وقد جمع ذلك فى قوله : « فديوان المتنبى صامت بالقياس إلى أمه صمته بالقياس إلى أبيه » . وقد فرغنا فى الكلمات الماضية من القول فى أن إغفال ذكر الآباء ، وهم مادة فخر الشعراء ، لا يتخذ أصلاً فى تقرير النسب ، ولا يجدى فى الحكم بأن الرجل منهم « كان يعرف أباه » أو كان « لا يعرف أباه » .

وإذا تجاوزنا للدكتور فقلنا إنّ له بعض العذر فى أمر والد المتنبى ، وقلنا إنّ الخطب فى هذا الشك الذى اصطنعه هيّنٌ ، وله وجهٌ ، وفيه مقالٌ ، فإن هذا الفصل من كتابه يجعلنا نقول له مثل الذى قال : من أن « الخَطْب فى أم المتنبى (فى كتابه) أعظم من الخطب فى أبيه » . !!

٦١/٢ / إن الدكتور طه رجل لا يستقيم على رأى ، ولا يُلِمّ به إلمامَ العارف الذى لا يغفل عن موضع التناقض والاختلاف والفساد الذى يركب بعضه بعضاً . فهو يقول : « كان المتنبى يرى أنه عربى ، وسار حياته كلها سيرة ملائمة لهذا الرأى » ، ثم يقرر بعقب ذلك : « ولعل هذا الرأى كان أبلغ المؤثرات فى حياته العملية » ، ثم يزيده تقريراً بقوله : « وهو أبلغ المؤثرات فى حياته الفنية على كل حال » . ويعنى بهذا التقرير الأخير أن (عربيته) كان لها الأثر فى شعره . فإذا كان المتنبى كالذى يقرر وبالغ فى تقريره ، فما الذى ينكر من أن « ديوانه صامت بالقياس إلى أمه ، صمته بالقياس إلى أبيه » ؟ وما الذى كان يريده من المتنبى ؟ أكان يريده أن يمدح أمَّه ؟ والعرب لا يفعلون ذلك = أم كان يريده أن يذكر آسم أمّه فى الشعر ؟ والعرب أيضاً قلَّما يفعلون ذلك إلا لضرورة = أم كان يريده أن يفخر بأمّه ؟ والعرب أيضاً لا يفخرون بأُمَّهاتهم .... وإنما الفخر عندهم بالآباء ، وهم أصل الدم وصلة العصب = أم كان يريده أن يرثى أمَّه ويظهر الحزن على موتها ؟ والعرب أيضاً كانوا قلَّما يَرْثُون أمهاتهم أو يظهرون الجزع على موت النساء عامة ... ولو كان لهذا الدكتور طريقة فى الفكر يتعقَّب بها المعانى ، ويستقصى الأغراض ، ويستوعب الأسباب والروابط ، لما جعل صَمْتَ ديوان المتنبى عن ذكر أمه أو مدحها أو الفخر بها أو الحزن عليها ورثائها موضعاً للنظر ، أو شبهة فى الغموض ، أو علة للشك وهو يقول إنه عربىٌّ ، وأن عربيته كان لها أبلغ الأثر فى حياته الفنية ... التى هى شعره .

٦٢/٢ أَمَا كان أَوْلَى به أن ينظر نظرة العقلاء من العلماء فيقول : إن المتنبى رثى / جدَّته ، ولم يرث أمَّه ، ويسأل نفسه عن سرّ ذلك ؟ وسرُّ ذلك بغير شك أن أمّه ماتت وهو صغير لم يشهدها وهو شاعر يقول ويفصح = أو لعله وجَد لموتها من الغمّ ما صرفه عن قول

الشعر . وهذا ليس بغريب ولا عجيب ، فكم من شاعر يُنْكَبُ النكبة تَرُضُّه رَضَّ القَصَبة ، فما يستطيع أن يثبت آلامه فى بيت واحد من الشعر ؟ أليس أحد هذين هو الأقرب إلى عقل العقلاء ، وتصرُّف أهل البصر ؟ ولكن هذا الرجل ، كما قلنا لك مراراً ، يرى الرأى بادئ الرأى فلا يتبصَّر فيه ولا يقلِّبه ولا يَرُوزه ، ويعزم على القول متهجّماً فيصرفُه هواه عن القصد ، فيُلجئه ذلك إلى الاستعانة ببدوات عبقريته ، فلا تزال به تتقحَّمُ هذا وذاك ، وهو لا يبالى أن يناقض أو يخالف أو يتورَّط أو يغالط عقله ، ويفسد عقول الأشياع والمريدين من أصحابه .

ومن البلاء الذى لا بلاءَ بعده ، أنه حين يتخبَّط فى مثل هذا ، يعمد إلى « اصطناع » الهدوء فى إلقاء القول ، وكأنه على ثقة مما يقول ، ويزيد « فيصطنع » المنطق أيضاً ، وما يريد بذلك إلا إيهام من لا يقف متدبِّراً عند القول وقرينِه ، وما يترافدان به من المعانى والأغراض .

ثم يبالغُ فى التلبيس فيسوق إثر ذلك شبهة أخرى يقول فيها : « ولكن الخطب فى أمِّ المتنبى أعظم من الخطب فى أبيه . فقد سكت المتنبى نفسه عن أبيه ، ولكن الرواة والمؤرخين ذكروه فسموه الحسين ، وعرفوا له أباً اختلفوا فى آسْمِه بعض الاختلاف ، وعرفوا له صناعة هى السِّقاية فى الكوفة . وهذا على قلّته وضآلته كثير بالقياس إلى ما عرفوا عن أم المتنبى ، لأنهم لم يعرفوا من / أمرها شيئاً ، ولم يذكروا من أمرها شيئاً . فنحن لا نعرف اسمها ، ولا نعرف أباها ، ولا نعرف أكانت عربية من قبل أبيها أم أعجمية ، وكل ما نعرفه أن أمَّها قد عطفت على المتنبى وأحبَّته وكَلِفَتْ به ، وعُمِّرَتْ حتى رأته رجلاً .... » ، ص : ١٨ .

٦٣/٢

فتدبَّر هذا الكلام الفضفاض الطويل ، وهو لَغْوٌ يبتدئ ، وثرثرة لا تنتهى .... وكل ذلك لأن المؤرخين لم يعرفوا من أمر أم المتنبى شيئاً ، ولم يذكروا اسمها ولا اسم أبيها !! والدكتور مُغْرىً بهذا الضرب من الإفاضة حتى يصدِّع رأس القارئ بالضجيج اللفظى ، فينام فكرُه ، فيتلقى ما يريده هو من الرأى نائماً أو كالنائم . وإلا فالأمر أهون من ذلك

بكثير أيها الدكتور العبقرى . فلو أنك أمرت مستمليك أن يمد يده فيتناول كتاباً من كتب تراجم الرجال فيقرأ لك طرفاً منها ، لعلمت أن أصحاب هذه الكتب ، وهم المؤرخون ، قلّما يعرضون فى التراجم لذكر أمهات الرجال أو ذكر أسمائهن أو أسماء آبائهن . ومن الإنصاف أن نلاحظ أن المؤرخين لم يكونوا يقدِّرون فى أكبر الظن فى سنة ١٩٣٧ ، أنه سيُتَشَكَّكُ فى نسب المتنبى ، وسيُلْتَمَس وجهُ الحق فيه بعد أن يموت بألف سنة ! ولو أنهم قدّروا شيئاً من ذلك ، « لأمكنهم أن يحتاطوا له بعض الاحتياط » !! أو كما قال الدكتور فى ص : ١٩ .

ما أظن أحداً يستطيع أن يُخْرِج من شعراء العربية وهم ألوف لا تنتهى ، مئةَ شاعرٍ يعرف المؤرخون أسماء آبائهم وصناعةَ هؤلاء الآباء ، وأمَّهاتهم وأسماءهن . ولعل الدكتور يطلب بعد ذلك من المؤرخين أن يصفوا له الآباء / والأمهات ، وحِلْيَتَهُم ، وطولهم ، وعرضهم ، ولونَ عيونهم ، وما إلى ذلك = وإلا زعم أن هؤلاء جميعاً لا يعرفون آباءهم ولا أمهاتهم ! ٦٤/٢

وهذه الأباطيل هى الأصل الذى بنى عليه الدكتور شكَّه فى هذا الفصل ، وهو أصل فاسدٌ كله .

وإنما شأن المتنبى من قِبَلها شأن مَنْ سبقه ومَن عاصره ومن جاء بعده . فلماذا نقذف المتنبى وحده بهذا « المَقْت » الذى طَلَع به الدكتور ، ولا نأخذه بالقياس على أشباهه ونظرائه ، ونجعل الأمرَ فيه أمرَهم ؟

هذا على أن المتنبى لم يذكر له أحدٌ من شعراء عصره شيئاً عن أمه ، يهجوه بها أو يعرِّض أو يَغْمِز ، حتى يكون « صمت ديوانه عن ذكرها » سبباً فى توجيه النظر إلى أمرها . ثم يكون هذا الأمر من القُبْح والمَقْت بحيث ينكره المتنبى = ثم يكون هذا الإنكار داعية للمتنبى أن لا يَجْهَر بذكرها !! = ثم يكون فى سنة ١٩٣٧ ، حافزاً للدكتور العبقرى ليشك فى « معرفة المتنبى لأمه » = ثم يكون هذا الشك سبباً فى اقتناعه غاية

الاقتناع « بأن مولد المتنبى كان شاذًا ! وبأن المتنبى أدرك هذا الشذوذ ، وتأثر به فى سيرته كلها » !!

فإذا كان الأمر كما رأيت الآن ، فأىُّ عجب فى أن لا يذكر المتنبى أمَّه شاباً ومكتهلاً ، وراضياً وساخطاً ، ومسروراً ومحزوناً ، وما إلى ذلك من أوهام الدكتور طه .

وانظر إلى هذه الحقيقة التى يذكرها ، « حقيقة يظهر أنها لا تقبل الشك ، وهى أن المتنبى لم يكن يستطيع أن يفاخر بأسرته ، ولا أن يجهر بذكر أمه / وأبيه ، التمس لذلك ما شئت من عِلة ، فهذا لا يعنينى ، وإنما الذى يعنينى ، ويجب أن يعنيك ، هو أن شعور الصبىّ بهذه الضَّعة أو بهذا الضعف من ناحية أسرته وأهله الأدْنَيْن ، قد كان العنصر الأول الذى أثر فى شخصية المتنبى » = ثم انظر إلى قوله : « لماذا احتاج المؤرخون أن يتحدثوا عن أبيه ، وعجزوا (أو لم يريدوا) أن يتحدثوا عن أمه !! » = ثم انظر إلى هذه الصلة الفاجرة التى يعنيها الدكتور بقوله : إن سراً من الأسرار « يكتنف حياة أبى الطيب ويحيط بأسرته ، ويسْتُرُ عنَّا حقيقة الصلةِ التى كانت بينه وبين هذه الجدة الصالحة ، والتى كانت بين الحسين السَّقاء وهذه الجدة الصالحة أيضاً ، والتى اقتضت أن تُهْمَلَ أمُّ المتنبى إهمالاً تامًّا » .

٦٥/٢

ألاَ إنَّ أم المتنبى لم تُهْمَلْ إهمالاً تامًّا لسرٍّ من الأسرار ، بل شأنها شأن غيرها من أمهات الشعراء والرجال الذين لا نعرف عن أمهاتهم شيئاً وهم السَّواد ، وقلَّ أن يكون قد ذُكِر من أمرهن شىء فى كتب التراجم .

إن عادة الدكتور أن يعمد إلى الأصل الفاسد الذى يبنى عليه كلامه ، فيطيل فى ذكره والتنبيه إليه بشُبَهٍ لا حقيقة لها ، ثم يديرُ الكلام من هنا ومن هنا ، ويحتالُ فى الإكثار والإطالة ، متلبِّساً بالهدوء والوقار ، ملوِّحاً بالمنطق ، مخادعاً بالفكر ، ليتوهَّم من لا يدرك حقيقةَ هذا الأصل الفاسد الذى يعتمد عليه ، أن الرجل قد أتى بشىء ، وأنه قد فكَّر ، وأنه قد علم ...... ثم أخيراً أنه قد أجاد وأحسن ! وما به شىء من ذلك .

وأنت إذا رجعت إلى هذا الفصل بعد الذى بيناه من أن صمت ديوان / أبى الطيب عن أمّه ، وصمت المؤرخين عن ذكرها ، أمرٌ لا غبار عليه = عرفت أن هذا الفصل وَحَلٌ كلُّه ، وليس فيه من جهد الفكر إلا جهد الاحتيال وإرادة التلبيس والتّمويه على البسطاء ، ومن لم يدرُسْ على أصل حكيم مقرَّرٍ ، ومن لا يقفُ على المعانى والأغراض وقوف المتثبت . ٦٦/٢

ولا نحبُّ أن نقف طويلاً عند إبطال هذه الأباطيل ، فإن أمرها بيّنٌ ظاهر . وقد تكلمنا فى الكلمة السالفة عن المعنى الذى أراده الدكتور طه فجمع له كل هذا الغُثاء من الألفاظ والمعانى والآراء والأفكار ، ليقول إن المتنبى « لا يعرف أباه » و « لا يعرف أمه » ، وليقول إن « مولد » المتنبى كان شاذًّا ، ثم يفعل ذلك ليُوقع فى نفس القارئ أن هذا الرجل كان ولداً لغير رِشْدَةٍ بين رجل وامرأة من الناس لا يعرفهما ، وينكر من أمرهما ما كان . واللَّهمَّ إنا نعوذ بك من فضوح الدنيا وفُضُوح الآخرة ! فهذه فضيحة عقلية « كبرى » ، لا يرضاها لنفسه إلا من تبع هواه ، وانقاد لغرائزه ، وأعطى السَّلَم لصاحب الأمر والنهى فى شهوات متَّبعيه .

ثم يريد الدكتور تغطية هذا الفصل النَّغِل المعيُون برأى جديد !! (النَّغَل : تَنَقُّب الجلد من سوء الدِّباغ . ومَعْيُون : ظاهر الفساد تراهُ العين) ، وهو أن المتنبى « عربىٌّ » ! فمن الذى شك ، يا سيدى ، فى عربية المتنبى ، وهل فى الأرض أحدٌ تكلم فى هذا ، أو خاض فيه ، أو عَرَض له ؟ وأىُّ شئ يحمل مؤلِّفاً على أن يملأ ستَّ صفحات من كتابه (من ص : ١٩ – ٢٥) بكلام لا وزن له ، ولا غَناء فيه ، ولا معنًى يُراد له ؟ ويتعالم على الناس فيقول : / « ونحن إذا انتهينا إلى (قرارة الأشياء) لا نكاد نشك فى أن المتنبى قد كان (عربيًّا) » !! وقد أنصف الدكتور إذ وقع له لفظ (القَرَارة) فى هذا الرأى ، فإنه شئ ساقط حقاً لا يأتى إلاَّ من القَرَار . ولماذا يدور لسانه بما يملأ صفحتين على هذا النمط : « إنما أفهم الشك فى عربيَّة المتنبى ، لو أن المؤرخين روَوْا له نسباً معروفاً أو قريباً من المعروف فى أمة غير عربية ، وأنه قد جَحد هذا النسب وتبرَّأ منه ، واصطنع لنفسه نسباً ٦٧/٢

عربيا .... » ، ص : ٢٤ ، « ولكنى لا أفهم الشك فى عربية المتنبى ما دامت القرائن لا تنسبه إلى أمّة أعجمية .... » ، ص : ٢٥ ؟؟

ولكن ، أيدرى القراء من أين أخذ الدكتور العبقرى هذا المعنى فأفاض فيه للَّجاجة لا للغرض ؟ فاعلم يا سيدى أن الأستاذ الجليل المفكر العاقل عبد الوهاب عزام حين تكلَّم عن نسب أبى الطيب الذى يذكره الرواة قال فى ص : ٣٤ : « ولكنا إذا رجعنا إلى الحقائق ، وتطلبنا الأدلة القاطعة ، لم نجد فى شعر أبى الطيب ما يدلنا دلالة صريحة على أن الرجل يَمَانٍ أو مُضَرِىٌّ ، أو ما ينبىء بعشيرة أو قبيلة » ، ثم ذكر ثلاثة أدلة على خُمُول نسب أبى الطيب ، ثم قال بعدها فى ص : ٣٥ : « ومهما يكن ، فلا ريب أن شاعرنا كان (عربيًّا قُحًّا) ، فلا يعيبه أنْ كان من بيت فقير ، وكفاه أنْ كان كما قال القائل :

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامَا وعَلَّمته الكَـرَّ والإقدَامَـا
وصَيَّرتْهُ مَلِكاً هُمامَا »

٦٨/٢ / « فالرجوع إلى الحقائق » ، فى كلام عزام انحط فى كلام الدكتور إلى « قرارة الأشياء » ، وكلام عزام فى أن الفقر لا يحطُّ من قيمة الرجُل العربىِّ ، اقتُطع منه أن المتنبى « عربى » . وتوهَّم الدكتور أن ثمة مَنْ شَكَّ فى نسب المتنبى ، أو من سَيَشك فيه لقول عزام : « فلا ريب أن شاعرنا كان عربياً قُحًّا » ، ثم نفخ الدكتور فى الكلمة الواحدة من روحه حتى بلغت ست صفحات من فصل هو ست عشرة صفحة .... فهل يملك القارىء بعد ذلك شيئاً إلا العجبَ ، ثم الضحك ، ثم إسنَادِ كَفِّه إلى حَشاه من الإفراط فى هذا الضحك ؟

ومن عجيب أمر الدكتور طه ، وهو الرجل العبقرىّ الحاذق ، أنه إذا كتب أراد أن يتظرَّف فى كلامه ، فيأتى من ظرفه كلام كقِطَع الليل المظلم . يقول فى ص : ١٩ : « ومن الإنصاف أن نلاحظ أن المتنبى لم يكن يقدِّر فى أكبر الظن ، أننا سنتشكك فى نسبه ، وسنلتمس (وَجْهَ الحق) بعد أن يموت بألف سنة . ولو أنه قدَّر شيئاً من ذلك ، لأمكن

أن يحتاط له بعضَ الاحتياط ! ومن يَدْرى ؟ لعله كان يزدرى شكّنا ، كما كان يزدرى كَيْد المعاصرين ، ولعله كان يُجيبنا بكل ما أجابهم به حين قال :

أنَا ابنُ مَنْ بَعْضُه يفوقُ أبا الـ ـباحث ، والنَّجْلُ بعضُ منْ نَجَلَهْ
وإنَّما يذكرُ الجدودَ لهُمْ مَنْ نَفَروه وأَنفَدُوا حِيَلَهْ

وأنت ظريفٌ ، ظريفٌ جدًّا يا سيدى الدكتور ، حين تتوهم أن المتنبى لو عرف أنك ستلتمس (قَفَا الباطل) الذى تسميه (وجه الحق) ، وقدَّر / موقفه منك (لأمكن أن يحتاط له بعض الاحتياط) !! آلمُتَنَبِّى يحتاط لك !! وهو الذى وقف لهؤلاء المعاصرين الكائدين له فى حضرة سيف الدولة ، ويخاطب سيف الدولة فيقول : ٦٩/٢

كم تَطْلُبون لَنَا (عَيباً) فَيُعْجِزُكُمْ ويَكْرَهُ اللهُ ما تأْتُونَ والكَرَمُ
مَا أَبْعدَ العَيْبَ والنُّقْصَانَ مِنْ شَرَفى ، أَنا الثُّرَيَّا ، وذَانِ الشَّيْبُ والهَرَمُ

آلمُتَنَبِّى الذى استعْلَى على الملوك والسلاطين والخلفاء فى عهده !! ورمى فى وجوههم بهذا القول :

وجنَّبنى قُرْبَ السَّلاطِينِ (مَقْتُها) وَمَا يَقْتَضِينِى مِنْ جَماجِمِهَا النَّسْرُ
وأنِّى رأيتُ الضُّرَّ أحْسَنَ مَنظراً وأجملَ من مَرْأَى صَغِيرٍ به كِبْرُ

يحتاط من أجلك أنت خوفاً وفَرَقاً ؟

آه لو علم الدكتور أسرار الألفاظ التى يستعملها الرجل فى شعره ، إذن لتوصَّل إلى فقه نفسية المتنبى ودراستها ، ولأخلد بكلامه هذا إلى الأرض ، ودسَّه فى التراب ، وغيَّبه وستره عن الناس .

وآلمُتَنَبِّى يقول لك : « أنا ابنُ من بعضه يفوق أبا الباحث » !

كلاَّ يا سيدى ، فثمَّةَ أن المتنبى قال لكبير كُتَّاب سيف الدولة أبى الفرج السامَرِّىّ :

أسَامَــرِّىُّ ضُحْكَــةَ كلِّ رَاءٍ   فَطِنْتَ ، وكنتَ أغْبَى الأغبياء
صَغُرْتَ عن المديح فقُلتَ : أُهْجَى !   كأنك مَا صَغُرتَ عن الهِجَاء !
/ ومَا فَكَّرْتَ قَبْلَك فى مُحالٍ ،   ولا جَرَّبْتُ سَيفى فى هَبَاءِ

٧٠/٢

هذه نفس المتنبى تطلُّ علينا من شعره ، لا من خفة روح الدكتور طه .

وأنا قد أثبت هذه الكلمات وأثبت كلام المتنبى ، ليعرف القارئ أن الدكتور الذى يدَّعى أنه يؤلف عن المتنبى ، ويقول فى آخر كتابه ص : ٧٠٦ : « فما أكثر ما بقى فى نفسى من المتنبى » ، يجهل كلَّ الجهل نفسيَّة المتنبى ! وإنَّ كلمة واحدةً فى كلام مؤلف ، لتدلُّ أكبر الدلالة على صدقه أو كَذِبه فيما يدَّعى . وليس كذلك الخطأ ، فإن الخطأ بسبيل أخرى غير التغلغل فى نفس الشاعر الذى تكتب عنه ، والإحاطة بآرائه وعواطفه ، وما يحتمل أن يصدر منه وما لا يحتمل . فهذه الكلمات التى قالها الدكتور ، هى الدليل على أنه « لم يعرف المتنبى » كما لم « يعرف المتنبى أباه وأمه » ! ولشدَّ ما عجبتُ من هذا « الاحتياط » الذى أراده الدكتور من المتنبى . وكلما قرأت ذلك أو مثله فى كتاب « مع المتنبى » تمثل لى أبو الطيب وهو يُنْشد :

ومَنْ جَهِلتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ   رَأَى غَيْرُهُ مِنه ما لا يَرَى

وللسبت المقبل تتمة نقد هذا الفصل ، وإظهار شئ من سائر عيوبه ومآخذه ، والله المستعان !!

* * *

— ٥ —

/ رأيت فى الكلمة السالفة وما قبلها أن الدكتور الجليل الأستاذ طه حسين بك ٧١/٢ = عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية ، ومؤلف كتاب « مع المتنبى » حالاً ، ومؤلف كتاب « فى الشعر الجاهلى » سابقاً = أراد أن يشك فى نسب المتنبى الذى رواه الرواة ، فشك على غير بينةٍ أتى بها ، ولا لنقدٍ « اصطنعه » ، ولا لعلّة توقَّف فيها ونظر إليها ، ولا لأصْلٍ من علم الرواية أحاط به ، ولا لضرورة ملجئة لهذا الشك تحمله على تفسير شعر المتنبى وتحليله على حقيقةٍ يهتدى إليها ، أو فَرْضٍ يَنْصِب نفسه للجدال فيه بالحجة والبيان والتصريف .

ثم انطلق يهيم فى خياله إذ يزعم أن المتنبى « كان لا يعرف أباه ولا أمه » ، لأنه لم يذكرهما فى شعره ، وأنه كان لا يستطيع أن يفاخر بأسرته ، ولا أن يجهر بذكر أمه وأبيه ، لأن « مولده » كان شاذاً . ونعوذ بالله من خَطَرات السُّوء ، ومن قَذف أعراض الناس بالأباطيل والأوهام ، فما فى الدنيا شرٌّ من حديث الإفْك وتعاطى « التظرُّف » بإسقاط المروءات .

/ وأما هذه الكلمة فهى فى إظهار سائر فساد هذا الفصل الثانى من كتاب ٧٢/٢ الدكتور ، وبيان مغالطاته وتناقُضِه ، وسوء ما يكون فيه من الرأى والتأويل والتخيُّل الفاسد .

وأوَّل ذلك أنه كان بمصرَ شريفٌ من ولد العباس يعرف بأبى جعفر الشِّقِّ ، فدخل عليه يوماً كاتبه أبو الحسين ، فوجده يبكى بكاءً شديداً ويقول : وآنقصامَ

(*) نشرت فى جريدة البلاغ ، السبت ٣٠ من ذى الحجة سنة ١٣٥٥/١٣ من مارس سنة ١٩٣٧ .

ظهراه ، واهلاكاه ! فقال له : ما للشريف ، لا أبكى الله عينيه ؟ فقال : ماتت الكبيرة = يريد أمَّه ، وكان بها بارًّا . فقال الكاتب : ماتت ؟ قال : نعم ! فشقَّ الكاتب جيبه ، وأظهر من الجَزَع ما يجب لمثله . ثم ما لبث أن أنكر الأمرَ إذ لم يجد دليلاً : لا أحَدَ يعزِّيه ، ولا فى الدار حركة ، فما هو إلا أنْ أتت الخادمة فقالت للشريف : الكبيرة = تعنى أمَّه = تقرئك السلام وتقول : إيش تأكل اليوم ؟ قال : قولى لها : ومتى أكلت قطُّ بغير شهوتك ! فابتدر الكاتب يقول له : يا سيدى ، الكبيرة فى الحياة !! فقال : وإيش تَظُنُّ أنها ماتت من حقٍ ، إنما رأيت البارحة فى المنام كأنها راكبة على حمارٍ مصريٍّ تسقيه من النيل ، فذكرت قول الشاعر :

إذا ذَهَبَ الحمارُ بأمِّ عمرٍو   فَلاَ رَجَعت ولاَ رَجَع الحِمارُ

وكذلك الدكتور طه حسين بك ، توهَّم بغير بينة أن المتنبى (لا يعرف أباه) ، ثم توهم أيضاً (أنه لا يعرف أمه) ، وجعل كلام أحلامه-حقيقة يستنبط منها حقائق فى الفصلين الأوّلين من كتابه ، ثم يُفيق فى سائر الكتاب / من تفسير هذه الأحلام ويَنْزِع عنها . ولكن قبل ذلك يَحْلُم مرة أخرى فى شأن جدته فيقول : « وكل ما نعرفه نحن أن جدته قد عطفت عليه ، وهذه السيدة التى قتلها حب حفيدها فيما يقال وكما سنرى (لا نعرفُ لها اسماً ولا أباً) ، وإنَّما نعرف أن بعض الرواة كانوا يقولُون إنها هَمْدانية صحيحة النسب ، وأنها كانت من صوالح نساء الكوفة ، وهذا كل ما يعرفه عنها التاريخ . وهو كذلك كلُّ ما يعرفه عنها ديوان المتنبى . أستغفر الله ، فديوان المتنبى لا يذكر نسبَها ولا يشير إليه ، ولعله يشكك فيه بعض التشكيك بهذا البيت الذى أملاه الغرور ، وصَاغته الكبرياء ، ووضعه جموحُ الشاعر فى غير موضعه من الرثاء وهو قوله :

ولو لم تكُونى بنتَ أكْرَمِ وَالِدٍ   لكان أباك الضَّخْمَ كونُكِ لى أمَّا

فأقل ما فى هذا البيت أن المتنبى يذكر لنا أن جدَّته قد كانت بنت أكرم والد ، ولكنها لم تكن محتاجة إلى هذا النسب لأنه حفيدُها ، ولكن المتنبى لم يذكر لنا شيئاً عن

٧٣/٢

هذا الوالد الذى كان أكرم الناس » ، انتهى بنصه من ص : ١٨ ، ١٩ . ورحم الله من قال : « عِيُّ الصَّمت خيرٌ من عِيِّ المنطق » !

* * *

وما أدرى والله من أىِّ أمور هذا الرجل أعجَبُ ؟ أمن أوهامه ؟ أم / من استخراجه (الحقائق) من أوهامه ؟ أم من توهمه أن هذا البيت من كلام المتنبى يشكك فى نسب جدته ؟ أم من هذا الشرح العجيب الذى علق به على البيت ؟ وقد بينا فى الكلمات السالفة هذه الأوهامَ العجيبة التى طافت برأس الدكتور الجليل ، وكشفت عن فُضُوح الرأى التى استخرجها من هذه الأوهام ، ووصفها بأنها (حقيقة لا تقبل الشك) . وبقى هذا البَلاءُ العريض الذى ابْتُلِينَا به فى فهم الشعر ممن لا يُحْسِن فهمه ، ولا يُبْصر مواقع الألفاظ من المعانى . فالنحاة (يزعمون) أن « لو » حرف امتناع لوجود ، فيقولون فى التمثيل : (لو لم تكن جاهلاً لفهمت) أى (وجود) الجهل (منع) الفهم ، فهذا تقرير للجهل لا تشكيك فيه . وهذه مسألة بينة واضحة وضوح الصُّبح لذى عينين . فكذلك المتنبى ، يقرر أن جدته بنت أكرم والد ، فوجود هذا الوالد الكريم هو الذى منع أن يكون (والدها الضخم كونها أمه) ، فهذا تقرير لكرم عنصرها من جهة ، وفخرٌ بنفسه من الجهة الأخرى ، فلذلك قال فى البيت الذى يليه : ٧٤/٢

لَئِنْ لَذَّ يَوْمُ الشَّامِتِينَ بِيَوْمِهـا ... لَقَدْ وَلَدَتْ مِنِّى لِآنُفِهِمْ رَغْمَا

ثم انساق بعد ذلك يفخر بنفسه ويصفها بالجلال والحرية والشجاعة والمكارم .... فأين (بعض التشكيك) الذى خوَّض فيه هذا الرجل الحاذق الفَطِن المتكلِّم ؟! ... وليس هذا فحسب ، فَثَمَّ السَّوْأة الأخرى فى شرحه حيث يقول الدكتور الجليل : « فأقلُّ ما فى هذا البيت أن المتنبى يذكر لنا أن جدَّته قد كانت بنت أكرم والد » ، فهل فى القراء من يستطيع أن يفهم / معنى قوله (فأقل ما فى هذا البيت ...) ؟ ٧٥/٢ وأين الباق الأكثر يا سيدى الدكتور وما هو ؟ لقد كان أولى بك أن تقول : « فكل ما فى

هذا البيت .... » لأن المتنبى يقرر أنها بنت أكرم والد ، وأن هذا قد منع ما وراء ذلك من قوله : « لكان أباك الضخم كونك لى أما » . وهذا من حيل الدكتور طه فى التعبير للإيهام والتلبيس ، وخلط الباطل بالحق حتى يفسد فى نظر من لا يتدبر .

ثم يقول الدكتور بِعَقِب ذلك : « ولكنها ، يعنى جدة المتنبى ، لم تكن محتاجة إلى هذا النسب لأنَّه حفيدها » .

فهل يفهم أحد من الناس = ولو كان من الجهال = هذا الذى قاله الدكتور ؟ وهل يستطيع أن يستخرج المعنى الذى ذكره الدكتور العبقرى من ألفاظ هذا الشعر ؟ هل قال المتنبى لجدته : إنك غير محتاجة إلى هذا الوالد الكريم لأنى حفيدك ؟ يا سيدى الدكتور طه ، هل تتكرم فتسمحَ لى أن أقول لك مرة أخرى ، وما بين الأولى والآخرة إلا (فَرْكَةُ كَعْب) : إن النحاة يزعمون أن (لو) هذه التى استعملها المتنبى فى أول البيت هى حرف امتناع لوجود ، وأن (وجود) الأب الكريم (منع) أن يكون حفيدها المتنبى هو أباها الضخم ؟ فأين هذا يا سيدى من الخلط الذى تقوله من أنها (لم تكن محتاجة إلى النسب لأنه حفيدها) ؟

***

٧٦/٢ / ثم ما هذا التعسف يا مولانا الجليل ؟ وما هذا التحكم فى ألسنة من مات من الشعراء ؟ ثم ما هذه السيطرة التى حَبَاك الله بها على عباده ؟ ثم ما هذا السلطان الذى مُلِّكْتَه على ما يجب أن يُقال وما لا يجبُ ؟ ومن الذى خوَّلك الحقَّ فى أن تقول بعقب هذا الغُثاء : « ولكن المتنبى لم يذكر لنا شيئاً عن هذا الوالد الذى كان أكرم الناس » ؟ لماذا يذكر المتنبى ذلك ؟ وأىُّ ضرورةٍ فى الشعر تقتضيه أن يثبت لك فيه اسم هذا الوالد ونسبه وصفته وطوله وعرضه ؟ وهل كان جميلاً أو دميماً ؟ وهل هو أزرق الحدقة أم أسودها ؟ وهل هو أعمى أم مبصر ؟ وهل كان أقنى الأنف أم أفطس ؟ أئذا لم يذكر لك المتنبى شيئاً عن والد جدَّته ، نصبتَ له نفسك فى مكان مُنْكَر ونَكِيرٍ تحاسبه على

الصغيرة والكبيرةِ حتى تبلغ ما تريد من الشك فى نسبه وقَذْفه فى أمه وأبيه ، وأنه لا يعرفهما ولا يستطيع أن يجهر بذكرهما !! وأن ثمة صلة بين الحسين السقاء وهذه الجدة (آقتضت أن تُهْمَل أم المتنبى إهمالاً تامًّا) ؟ ومن الإنصاف ، كما يقول الدكتور ، أن نلاحظ أنَّ المتنبى لو كُشِف له غَيْبُ الأيام وعرف أن مثلك سيتشكك فى أمره ، ويبلغ هذا المبلغ الذى بلغتَ ، متعسفاً متحكما متهجِّماً ، وأن مثل هذا القول سيجد أُذُناً تصغى إليه وتسمع له ، لجمع شعره فأحرقه ، ولضرب الناس على روايته وهو يقول : « اتّقِ الصِّبْيَان لا تُصِبْك بأعقائها » ، أو كما قال المثل . (الأَعْقَاء جمع عِقْى : وهو ما يخرجُ من بطن الصبى حين يولد قبل أن يطعم ، والعِقْى أسود لزجٌ كالغراء) .

فهذا كما ترى آستنطاقٌ للشاعر بما لم يقل به ، وتلفيقٌ على فَهْم القراء / بالمقدمات الفاسدة ، وهوًى غالب على فكرٍ مضطرب ، وسوءُ فهم للشعر ليس بعدهُ سُوء ولا فساد ، وتعسُّفٌ بغيض ، وتحكُّم غليظ ثقيلٌ ، بغير ضرورة موجِبَة ، ولا معنى مستور يُرَاد له التوضيحُ والبيان .... وهذا كما ترى أدب الدكتور الجليل طه حسين بك وفقهه فى العربية ومعانى ألفاظها ، وكرسىُّ الجامعةِ من وراءِ ذلك كله يُعينه ، فكأنه رُوحُ القُدُس !! ٧٧/٢

* * *

وأعجبُ العجب ، والصيامُ فى رَجَب ، ما سنذكره لك من المثال المنصوب فى كتاب الدكتور طه للتناقض أوّلاً ، ولسوءِ الفهم ثانياً ، وللتعسف البغيضِ الغليظ ثالثاً ، إذ يتخيل الدكتور أنه وحده الذى له حَقُّ النظر والاستنباط والحكم ووضع النتائج من شِعْرِ المتنبى ، وأنه ليس لغيره مِثْلُ الذى له من ذلك . يقول : « وإذا كان الكائدون للمتنبى من معاصريه قد عجزوا عن أن ينفرُوه ويُنفدوا حِيَله ، ويضطروه إلى أن يذكر لهم آباءه وأجداده ، فإن الباحثين المعاصرين لنا أعجز من أولئك الكائدين . فليس بين هؤلاء المعاصرين الباحثين وبين المتنبى منافسةٌ ولا خصومةٌ ، وليس هؤلاء الباحثون

المعاصرون من العلم بأمر المتنبى ودَخِيلته بحيث كان خصومه ومنافسوه فى القرن الرابع . فليس هناك شكٌ فى أن الذين عاصروا المتنبى وخاصموه ، كانوا يعرفون من سيرته ومن أمره جملةً أكثر جدّاً مما نعرف ، لأننا لا نعرف شيئاً ، أو لا نكاد نعرف شيئاً ... » ، ص : ٢٠ .

٧٨/٢ وأوَّل ما فى هذه العبارة أنه قد أراد بها الردَّ على رجل واحدٍ ، لا على / (هؤلاء المعاصرين الباحثين) ، وهذا الرجل الواحد هو (محمود شاكر) الذى شكَّ فى النسب الذى رواه الرواة ، وزعم أن المتنبى كان عَلَويًّا . فما من أحد غيره حاول أن يعرف حقيقة الأمر فى نسب المتنبى . وكتمان هذا الرجلِ المؤلِّف آسمى وذكرى لا يجدى عليه شيئاً ، ولا يَنْقُصُنى . بل إنّ جَعْلَهُ المعاصر الواحد والباحث الواحد « معاصرين وباحثين جملة » ، دليلٌ على أنه متخلفٌ عاجز عن الفكر فى القول الذى يريد أن يردّه بهذه الكلمات . وأنا أشهد ، والدكتور الجليل يشهد معى ، أنه أعجزُ الناس عن النَّقد ، ثم أبلغهم عجزاً عن نَقْدِى أنا خاصة .... وسيرى القارىء أمثلةً كثيرة من هذا العجز ، حين أراد أن يتعرض لذكرى فى كتابه بالتلميح لا بالتصريح ، حتى بلغ من عجزه أنه كان يَعْمِد إلى النصّ الذى اعتمد عليه فى استنباط رأيى ، فيهمل النص ويرويه فى ألفاظ من عنده ملفَّقة ، حتى يفسد معناه الذى هو له . ومع ذلك فلا يتحرَّج ولا يتذمَّم من أن يشير فى أسفل الصحيفة إلى الكتاب الذى نَقَلَ عنه بالجزء والصحيفة !!

ودع هذا ، فإذا كان هؤلاء المعاصرون الباحثون عاجزين عن إدراك حقيقة القول فى نسب المتنبى للعِلَل التى ذكرها ، فلماذا لم يكن هو من جملة هؤلاء الباحثين المعاصرين ؟ ولماذا يكتب إذن عن نسب الرجل حتى يرميه بالداء القبيح فى عِرْضِ أمِّه وأبيه ؟ وكيف يبيح لنفسه أن يقول أنه اقتنع بأن (مَوْلِدَ) المتنبى كان شاذًّا ؟ إلى آخر هذا السخف الذى عرضناه ! أترى هذا الدكتور ليس من المعاصرين ؟ أتراه يملى على غلامه هذه الفصول وهو / مِنْ وَرَاءِ حدود الدنيا فى بحبوحة الآخرة ؟ ٧٩/٢

وإذا كان هذا الرجل يعترف بأنه لا يعرف عن المتنبى شيئاً أو لا يكاد يعرف شيئاً !! فما غَناءُ هذا الكتاب الذى كتبه ؟ وعلى أى شئ اعتمد ؟ وممن أخذ ؟ وكيف استوحى ؟ ألا إن فى الكلام ما يسمى (فاسداً) كما قالوا — وعندى أنا أنّ فى الكلام ما لا يستحق أن يسمى (فاسداً) ، لأن هذا اللفظ لا يستغرق كل معانى الفساد الذى يكون فيه . ألا ترى ذلك يا سيدى الدكتور ؟ فإن لم تكن تراه ، أفلا تراه أنت يا سيدى القارئ ؟ بلى وَربِّ الذى قال (ﷺ) : « الحياء من الإيمان ، والإيمان فى الجنة ، والبَذاء من الجَفَاء ، والجَفاء فى النار » .

* * *

ومن أعجب السخف وأغربه وأعرقِه نسباً فى الأباطيل ، ما عرض له الدكتور فى ص : ٢٣ ، ٢٤ إذ يقول : « وقد أنبأنا المتنبى برأيه هذا (يعنى عربيته !!) فى نفسه حين قال :

لا بِقَوْمِى شَرُفْتُ بل شَرُفُوا بِى ، وبِنَفْسى فَخَرْتُ لا بجُدودِى
وبهم فَخْرُ كلِّ من نَطَقَ الضَّا دَ ، وعَوْذُ الجَانِى ، وغَوْثُ الطَّرِيد

فهذا البيت الثانى صريح فى أن المتنبى كان يعلن إلى الناس أنه لا يَشْرُف بقومه وإنما يَشْرُف به قومه ، وأنه يفخر بنفسه لا بأجداده ، وإن كان قومه فخرَ العرب ومجتمعَ خِلالهم وخِصالهم » . ولا يفوتنَّك أن تسمع / لهذا العبقرىّ حين يقول إن البيت الثانى ٨٠/٢ صريح « فى كذا وكذا » — وعَلِم الله أنّ هذا الصريح الذى أتى به فى كلامه هو البيتان جميعاً ، وليس بيتاً واحداً !! ثم يقول فى إثر ذلك : « فما الذى يمنعنا أن نصدق المتنبى ، ونرى معه أنه كان عربياً قحطانيًّا ، لا شئ إلا أنه لم يَحْفَظ نسبه ، ولم يحفظه له المؤرخون ، فأمره فى ذلك أمر الكثرة التى لا تحصى من العرب القدماء والمحدثين الذين أضاعوا أنسابهم (تأمل هذا جيداً) ، أفنجحد عربيَّتهم لأنهم قد أضاعوا هذه الأنساب ؟ وما يمنعنا إذن أن نجحد إنسانيَّة الناس ، لأنهم لم يحفظوا أنسابهم إلى الإنسان الأوّل ، أو إلى الأناسىِّ الأوَّلين » ، ووقفت العبقرية فى ص : ٢٤ .

فأنت ترى أن هذا الرجل يزعم لك أن المتنبى فى هذين البيتين يرى (أنه عربىٌّ قحطانىٌّ) ، ولم يقل المتنبى ذلك كما ترى ، بل قال : « وبهم فخر كل من نطق الضاد » ، والقحطانيون والعدنانيون كلاهما ينطق الضاد ، والإجماعُ على أن « فخر من نطق الضّاد » ، وهم العرب ، هم قريش من عدنان ، فأين المرجِّح الذى جعل الدكتور يستخرج من كلام المتنبى أنه كان يرى (أنه عربى قحطانىٌّ) فى هذا البيت ؟ وأين الدليل على أن « فَخْرَ من نطق الضاد » هم قحطانيون لا عدنانيون يا سيدى الدكتور ؟ أفتدرى لماذا أتى هذا الرجل بهذه الكلمات ، وبهذا التأويل الفاسد ، وبهذا التعسُّف الغليظ ، وبتحميل البيت ما لا يتحمل من المعانى والأغراض ؟ إذن فاعلم أنه ما أتى بذلك إلا ليعارض هذا المسمَّى (محمود شاكر) ، لأنه هو الذى قال / فى كتابه أن « فخر من نطق الضاد » ، هم - ولا شك - أبناء على رضى الله عنه وفاطمة بنتِ محمد رسول الله ﷺ . وجعل ذلك من الأدلة على (علوية) أبى الطيب فى باب النسب . ٨١/٢

وأكثر من ذلك أن الرجل حين غَلَى صدره بهذا الغُثاء الذى يَقْذِف الناس به ليردَّ علىَّ قولى فى (علويّة) أبى الطيب ، ناقض نفسه ، وأتى بالدليل على اضطراب فكره ، وقلة تبصُّره ، وسرعة تهجُّمه على الحق والباطل ، برأيٍ ضعيف وإدراك واهن . فهو حين شك فى نسب أم المتنبى وأبيه ، وقذفهما بالكبيرة الفاجرة ، حصل من الأدلة على ذلك أن المتنبى لم يذكر لنا نسبه ولا نسبَ أمِّه ولا جدَّته ، ولا ذكر المؤرخون شيئاً من ذلك ، فانتهى إلى الرأى الذى قال به : من أن المتنبى (لا يعرف أباه ولا أمه) ، أو أنه لقيط لغير رِشْدَة . ولكنه فى هذا المكان لا يرى أن هذا الإغفال للنسب مما يمنعنا من القول بأن المتنبى (عربى قحطانىٌّ) ، وجعل أمرَه فى ذلك أمرَ « الكثرة التى لا تحصى من العرب القدماء والمحدثين الذين أضاعوا أنسابهم » . فلماذا ، أيُّهذا العبقرى ، لم تجعل أمره فى معرفة (أبيه وأُمه) ، أمرَ هذه الكثرة التى لا تحصى من العرب القدماء والمحدثين الذين أضاعوا أنسابهم وأضاعها المؤرخون ؟ بل عمدت إلى القذف فى عِرْض الرجل ، ولم تتَّق الله ، ولم تحفظ على نفسك شمائلَ أصحاب المروءة والحياء والسَّتْرِ ؟ أم تُراك تزعم أيضاً فى

إحدى بَدَوَاتك أن هذه (الكثرة التى لا تحصى من العرب القدماء والمحدثين الذين أضاعوا أنسابهم) ، هى كثرةٌ من الناس لا تعرف آباءها ولا أمهاتها ، وأنها ولدت لِغَيَّة من غرور الشيطان وتسويله وتزيينه !!

٨٢/٢ / وليس هذا فحسب ، بل آنظر إلى هذا الرجل إذ يأتى للتدليل على هذا الذى قال بقوله : « وما يمنعنا إذن أن نجحد إنسانية الناس ، لأنهم لم يحفظوا أنسابهم إلى الإنسان الأوَّل ، أو إلى الأناسىِّ الأوَّلين ؟ » .

أين هذا من ذاك أيها الرجل ؟ أتجعل الانتساب إلى قبيلة بعينها أو إلى رجل بعينه ، كالانتساب إلى جنس الإنسان ؟

اسمع ، يا سيدى الدكتور ، إنك لرجُل كثير المغالطة ، شديدُ اللَّدَد ، غير مستقيم الرأى ، مضطرب الفكر ، متخلف النَّظَر ، فإن الشرط فى أن تكون عربياً هو أن تكون متحدراً من سلالات عربية رجلاً رجلاً . هذا هو الأصل . وأما أنْ تكون إنساناً ، فقد قال المناطقة فى تعريفه أنه « هو الحيوان الناطق » الذى يمشى على آثنين لا على أربع ، وبذلك يمتاز الإنسان ، وليس يُشْتَرَط فى إثبات إنسانيته أن يكون حافظاً لنسبه إلى الإنسان الأوَّل أو الأناسىِّ الأوَّلين !! فإذا تكلمت بكلام المنطق فلتنظر نَظَر المنطق ، وإلا فالعِىُّ والسكوت خير كلُّه ، وقد قالوا ، أو رحم الله من قالوا : « عِىُّ الصمت خير من عِىِّ النُّطْق » ، فوالله إن هذه الأقوال التى تأتينا بها لتفضح أمَّة بأسرها ، لا رجلاً واحداً .

ومن ظريف تخليط الدكتور الجليل أنه يقول فى معرض حديثه عن اللَّغو الجميل فى عربية المتنبى : « ولكنى لا أفهم الشك فى عربية المتنبى ، ما دامت القرائن لا تنسبه إلى أمَّة أعجمية ، وما دام خصومه على كثرتهم وشدة بأسهم لم يفعلوا ذلك ، وما دام هو ينبئنا أنه عربىٌّ صريح » ، ص : ٥٢ . فالقرائن وصمت الخصوم = فى منطق الدكتور ، وفى هذا الموضع خاصة = / هو مما لا يجعله يشك أو يقارِفُ الشك على الأصح ، ولكنه حين ٨٣/٢ دفعته طبيعته وغريزتُه إلى ذكر السَّوْءات فى صلة والد المتنبى بأمه ، وصلته بجدّته ، وصلة المتنبى بهم جميعاً ، لم يقم للقرائن ولا لصَمْت الخصوم وزناً ، ولم يَحْفِل بهم ، بل جعل

هذه القرائنَ نفسَها ، وهذا الصمتَ نفسَهُ ، دافعاً من دوافع الشك ، وسبباً من أسبابه ، ودليلاً على الرأى الفاجر الذى اعتمده وامتدَّ فيه وَاستطال ، فأطلق لسانه فى عِرض الرجل وأمه وأبيه وجدته .

* * *

وقد أردنا الإطالة والتكرار فى هذا الفصل من كلامنا خاصة ، لنكشف للقراء عن هذه الفوضى العقلية ، وهذا الاضطراب الفاسد المفسد ، وعن التعسُّف القبيح والسيطرة الباغية ، وعن ثِقَل النفس التى يَعُدُّها من يجهَلُ ظَرْفاً وتظرُّفاً ، وعن البَذاء الذى لا ينتهى أبداً إلى غاية يقف عندها وقفة المتحرّج ، وعن سوء الفهم للشعر وقلّة البَصَر به ، وعن تحميل الألفاظ العربية ما لا تحتمل من المعانى ، وعن فساد الاستنباط الذى « يصطنع » صاحبُه الهوَى ، والتهجم على غير هدى ولا بيان = وما نفعل ذلك إلا لنؤدِّيَ أمانة الله التى حُمِّلناها بقول رسول الله ﷺ : « يَحملُ هذا العلمَ من كل خَلَفٍ عُدُولهُ ، يَنْفون عنه تحريفَ الغالين ، وانتحالَ المبطلين ، وتأويلَ الجاهلين » . وقد رأينا من شباب هذا الجيل مَنْ أخذ يقول فى العلم عن هذه الأصول الفاسدة من التعسف والتهجم والانطلاق إثر الغرائز الدنيا ، وهؤلاء هم الذين يتعبَّدون بذكر الدكتور الجليل طه حسين بك ومَنْ لفَّ لَفَّه ، فتقاذفتهم هذه العبادة بتزكيةٍ من الدكتور طه حسين إلى الصحف والمجلات والمطابع ، فَرَمَوْا فى / وجوه الناس بالغَثّ البارد الغليظ من الفهم والظَّرْف والأدب ، حتى اختلط على الناس الأمر ، فكرهوا الأدب واستنقصوا أهله ، واستسقطوهم واسترذلوهم ، وبادَروا إليهم بالمهانة والمذمّة ، ثم انتهوا إلى الإعراض عنهم وإغفالهم ، فضاع المُجيدُ وهو قليل ، فى هذا الغُبار الثقيل الذى ثار فملأ الجوَّ ، وأعمى الأعين ، وتحوَّلَ فى الأنوف إلى مثل السِّدَادة من الجِيفة المتعفنة . ٨٤/٢

* * *

– ٦ –

/ لا يَهُولنَّك ، أيها القارئ الكريم ، ما ترى من ضَخامة بعض هؤلاء الفلاسفة ٨٥/٢ الذين يملأون الأوراق والمجالس وقاعات المحاضرة بالثرثرة والإفاضة والتطويل ، فكثيرُ ذلك لَغْوٌ وعَبَث وعُدْوان على جهود الوادعين المتواضعين الساكنين ، وإنما هم قوم حَشْوُهُم ألقابٌ لها رَنينٌ وصوتٌ وصَدًى تتجاوب فيه الأصداء ، وإنما هم قوم يتصدَّقون على القراء بالذى يستلبونه من قول الناسِ وآرائهم وفنونهم .... كالذى زعموا من أن ابن أبى ليلى كان يساير رجلاً من وجوه أهل الشام ، [1] فمرَّا بحمال معه رُمَّان ، فتناول هذا الشاميّ رمَّانةً فأخفاها فى كُمّه ، فعجب ابن أبى ليلى من ذلك واستكبرَه ، ثم رجع إلى نفسه وكذَّب عينيه ، حتى مرَّ بهما سائلٌ فقيرٌ ، فأخرج الشامى الرُّمانة من كُمّه فناوله إياها ، فقال له ابن أبى ليلى : قد فعلت عَجَباً ! قال الشامى : وما هو ؟ قال : رأيتك أخذت رُمَّانة من حمَّال وأعطيتها سائلاً . قال الشامى : وإنك ممن يقول هذا القول ؟! أمَا علمت أنى أخذتها سَيِّئة ، وأعطيتها فكانت عَشْرَ حسنات ! فقال ابن أبى ليلى : أما علمتَ أنك أخذتَها فكانت سيئة ، وأعطيتها فلم تُقْبَل منك ؟

وكثير من هؤلاء الأدعياء من الفلاسفة يذهبون مذهبَ هذا الشاميّ الكبير الوجيه ، فيعتقدون فى أنفسهم أنَّ لهم حقَّ السَّطو على مجهود الناس ، / وأنهم حين ٨٦/٢ يُعطون الناسَ ما أخذوه ، يزيدونه من أسمائهم سُمُوًّا ، ويمنحونه من جاههم جاهًا ،

(*) نشرت فى جريدة البلاغ ، السبت ٧ من المحرم سنة ١٣٥٦/٢٠ من مارس سنة ١٩٣٧ .

(١) ابن أبى ليلى : هو عبد الرحمن بن أبى ليلى قاضى الكوفة ، كان فقيهاً عالماً نبيلاً . توفى سنة ١٤٨ هـ .

ويضعون فيه سرَّهم وسرَّ عظمتهم ، وتراهم يجترئون على الناس ، ولا يتذمَّمون من العدوان والإغارة والتبجُّح بادِّعاء المِلْك فيما لا يملكون .... ويُغْرِيهم بذلك أن أكثر المنكوبين بهم هم من المستضعفين الذين يتهيَّبون أن يقاضوهم ، أو أنْ يُغِيروا عليهم فيستردُّوا أقوالهم ، وآراءهم على الرغم والممارسة والتشبث .

وقد شاء الدكتور الجليل الأستاذ طه حسين بك ، عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية ، أن يؤلف كتاباً يسميه (مع المتنبى) ، ويشاء هذا الكتاب أن يسير بين صَفَحات الكتب ، فيتناول ما يشاء منها بغير إذن ولا نسبة ، غيرَ متذمِّم من إثم ، ولا متحرِّج من عدوان .

وقد كشفنا فى الكلمات السابقة السالفة عن الأنحاء والآراء والأصول التى استلبها أو « اصطنعها » كتاب الدكتور طه حسين من كتابى عن المتنبى ، ومن كتاب العالم الجليل الأستاذ عبد الوهاب عزام . على أن للدكتور فى ذلك فضيلةً ليست لغيره ، فإنه كان يُبدِّل ويغيِّر ، ويضع هذه الأشياء فى غير مواضعها ، متحرّياً إخفاءها بالحيلة والجرأة ، متوخِّياً أسلوب الإفاضة والثرثرة الذى لزمه وانطلق فيه وامتدَّ عليه .

***

وهذا حينُ القول فى سائر ما أخذه من كتابنا فى الفصلين الثانى والثالث من كتابه من ص : ٩ إلى ص : ٣٤ ، وسنترك أشياءَ مما كان لنا / الفضلُ فى تنبيه الدكتور إلى النظر فيها ، والوقوف عندها ، لندع لقارئ كتابنا وكتاب الدكتور موضعاً يُعْمل فيه فكره ، ويصرِّف فيه رأيه ، و « يصطنع » أسلوب (شرلوك هولمز) فى استجلاء الغوامض ، وحُسْن البصر ، وتتبع الدقائق التى تُفْضِى به إلى جمع الأدلة لتكوين الرأى ، ثم وضع الجانى بحيث لا يجدُ مساغاً للتخلُّص من الاعتراف بجنايته . ٨٧/٢

١ – يقول الدكتور الجليل فى ص : ٢٧ : « وتسألنى ، ومن حقك أن تسألنى ، عن مظاهر هذا الغموض الذى أحاط بحياة المتنبى وعن مواطن هذا الشذوذ .... فلاحظْ

قبل كل شيء غموضَ الأمر فى نسبه ، ولاحظ خُلُوَّ ديوانه من ذكر أمه وأبيه ، أو الإشارة إليهما ، ولاحظ بعد هذا وذاك ، هذا الكِذابَ الذى كان يُكاد به عند أبى العشائر ، ثم لاحظْ آخر الأمر أنه حين عرف شوق جدَّته إليه ووَجد الشوق إلى لقائها ، وذهب لتنعم وينعم هو بهذا اللقاء ، لم يستطع أن يدخل الكوفة ، فذهب إلى بغداد ، وكتب إلى جدته لِتَشْخَص إليه » .

٢ — ثم قال فى ص : ٢٨ : « لماذا كاد الكائدون للمتنبى فى نسبه ؟ لماذا تعمَّد الغُرْبة عن الكوفة وألحّ فيها ، وتجنَّب الحياة فى العراق ما وَسِعَهُ هذا التجنُّب ؟ لماذا « عجز » عن دخول الكوفة حين خفَّ للقاء جدَّته ، فمضى إلى بغداد وطلب إلى جدَّته أن تشخص إليه ؟ كل هذه حقائق واقعةٌ لا نستطيع أن نشكَّ فيها (هكذا) ، ولكننا لا نستطيع أن نعللها تعليلاً قاطعاً » .

٣ — / ثم يثبت الدكتور أبياتاً من رثاء المتنبى لجدته من ص : ٢٨ — ٣١ ، ٨٨/٢ ويقف عند أبيات من هذه القصيدة فيستخرج منها مواضع للقول والسؤال والشبهة ، فيقول تعقيباً على هذا البيت :

طَلَبتُ لها حظًّا فَفَاتَتْ ، وفَاتَنِى   وقَدْ رَضِيَتْ بى ، لَوْ رَضِيتُ بها ، قِسْمَا

« فهو قد طلب لجدته حظاً لم تدركه لأنها أسرعت إلى الموت ، ولأن هذا الحَظَّ أبطأ على صاحبه » ، ص : ٣١ . وأرجو أن يقف القارئ عند هذا الكلام العربى المبين من أستاذ الأدب العربى بالجامعة المصرية . فظاهرُ كلام هذا الفَطِن الفهّامة البليغ ، يُفْصح عن أن المتنبى « لم يدرك هذا الحظ » ، والسبب فى هذا الإخفاق أن جدَّته ماتت ، وأن الحظّ أبطأ عليه . فليقرأ القارئ بَيْتَ المتنبى وشرحَ الدكتور الجليل ، ليعلم صدق الذى نقول به : من أن الرجل متخلِّف الفهم فى العربية ، مُضْطرب الفكر فى المنطق ، لا بَصَر له بالشعر ، ولا طاقة له على استيعاب معانيه . وما دام الأمر كذلك ، فهو لا قُدرة له على استنباط المعانى من الشعر . ودعواه فى التوقُّف عند الأبيات لرَبْطها بحوادث حياة الرجل ، دعوى باطلةٌ يبطلها هذا التخلُّف فى الفهم وسوء العلم بمعانى الكلام العربى ؟!

٤ — ويقف أيضاً عند قول المتنبى :

هَبِينِى أَخَذْتُ الثَّأْرَ فِيكِ مِنَ العِدَى   فَكَيْفَ بِأَخْذِ الثَّأْرِ فِيكِ مِنَ الحُمَّى

٨٩/٢ / فيقول معلقاً عليه : « فمن حقنا أن نسأل عن هؤلاء الأعداء من هم ، ومن عسى أن يكونوا ؟ » ، ص : ٣١ .

٥ — ويقف أيضاً ، وما أكثر وقوفه ، عند قول المتنبى :

لَئِنْ لَذَّ يَوْمُ الشَّامتينَ بِيَوْمِها ،   لَقَدْ وَلَدَتْ مِنِّى لآنُفِهِمْ رَغْمَا

فيقول فى ص : ٣٢ : « فهو يحدثنا بأن قوماً قد يسرُّون بموت جدته ، ويشمتون بموتها ، ولكنه يعلن إلى هؤلاء الناس أنها إن مضت ، وأعجزها الموت عن أن تَكْبِتهم وتردَّ كيدهم فى نحورهم ، فقد ولدتْهُ رَغْماً لأنوفهم ، وكَبْتًا لما فى صدورهم من الحقد والشَّنَآن » .

٦ — ثم يقف أخيراً ويقول : « ولكنك تقف من هذا الوصف المألوف فى شعر المتنبى عند هذا البيت الذى لا يخلو من غرابة تدعو إلى التفكر :

تَغَرَّبَ ، لا مُسْتَعْظِماً غَيْرَ نفسِه ،   ولا قَابِلاً إلا لخالِقِه حُكْمَا

فهو إذن لم يتغرب عن الكوفة حُبًّا فى الغربة ، ولكن إيثاراً لها ولمشقّاتها وأخطارِها على العافية فى الكوفة . وهو لأمرٍ ما قد آثر هذه الغربة ، وتعرَّض لما قد تنكشف عنه من الأخطار والأهوال » ، ص : ٣٢ — ٣٣ .

فهذه ستة مواضع من كلام هذا الدكتور الجليل من ص : ٢٧ إلى ص : ٣٣ ، كلها مأخوذة من كتابنا كما سنرى .

* * *

٩٠/٢ / ففى الفقرة الأولى يقول إن المتنبى « لم يستطع أن يدخل الكوفة » ، وفى الثانية يسأل : « لماذا عجز المتنبى عن دخولها » ؟ ونص هذا من ديوان أبى الطيب :

« وردَ على أبى الطيب كتاب من جدَّته لأمه ، تشكو شوقها إليه ، وطولَ غيبته عنها ، فتوجَّه نحو العراق ، ولم يمكنه دخول الكوفة (على حالته تلك) ، فانحدر إلى بغداد » .

وقد جعل الدكتور الجليل (انظر ص : ٢٧) هذا النصّ ، على تأويله واختصاره ، دليلاً على أن « شيئاً كثيراً من الغموض قد أحاط بأسرة المتنبى » ، فليسأل القارئ ، أيَّةُ صلةٍ بين هذا وبين أسرة المتنبى ؟ وأىُّ سببٍ يصل قولهم بأن المتنبى (لم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك) بقَوْلِ الدكتور : إن المتنبى كان (لا يعرف أباه ولا أمه) ، وأن الغموض والشذوذ كان يحيط به وبأسرته ؟ والدكتور قد ألغى ، كما ترى ، قولهم (على حالته تلك) ، وهى تقيِّد معنى (لم يمكنه) . وفعل الدكتور ذلك لغير سبب ولا علةٍ ولا فَرْضٍ ، وهو لم يعرض هذا النص على القارئ ولم يتكلم فيه ، فهل من أمانة العلماء أن يفعل أحدُهم هذا الفعل ؟ ولكن الدكتور معذور معذور .

فقد سقت هذا النص فى كتابى [ص : ١٧٠] وقلت : « وهو نص غريب كما ترى ، وليت شعرى وشعرك ما الذى أرادوا بقولهم : (لم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك) ، وهو قد أتاها قاصداً دخولَها ، ورؤيةَ جَدَّته التى تحبه ويحبها ؟ ... ويقطع صاحبُنا الأرضَ من أقصى / الشام إلى أسفل العراق ، ودخولُ الكوفة همُّه ، ثم يمتنع لغير سببٍ مذكور أو معقول !! إذن فلا مناص من القول بأنه (قد مُنِع من دخول الكوفة) » . ٩١/٢

وهذا هو التأويل الصحيح ، كما ترى . وقلنا بهذا ، لأننا ذهبنا إلى وجود مشكلة بين أبى الطيب والعلويين فى الكوفة ، وأن هذه المشكلة اقتضت أن يُصِرَّ العلويون على مَنْع أبى الطيب من دخول الكوفة ، وبيَّنَّا ذلك فى [ص: ١٧٢] من كتابنا هذا ، .... ولكن ما الذى يحمل الدكتور طه على الأخذ بهذا التأويل الذى أوَّلنا به النص ، فيقول (لم يستطع) ، ويقول تارة (عَجَز) ؟ فالعداوة بين أبى الطيب والعلويين فى الكوفة – كما فرضنا – كانت هى العلةَ فى أن أبا الطيب (لم يستطع) وعجز عن أن يدخلها . ولكن الدكتور فرض أن المتنبى (لم يعرف أباه ولا أمه) ، فهل فى هذه علة تجعل المتنبى (لا يستطيع) أو (يعجز)

عن أن يدخل الكوفة ؟ وإذا فرضنا أنه يستطيع أن يُجْرِى هذا الفرضَ مُجْرَى العِلّة للعجز عن دخولها ، فلماذا جاء هذا الأحمقُ المتنبى من الشام إلى الكوفة يقطع الفلوات ؟ ألم يعرف أنَّه (لا يعرف أباه ولا أمّه) إلاّ حين دَخل فى حدود هذه البلدة ؟ فعند ذلك (عجز) عن دخولها = أم تُرَى أنَّ جهل المتنبى بأبيه وأمه قد يكون سبباً فى أن يمنعه أهل الكوفة من دخول بلدتهم ؟ ... هذه مشكلة عجيبة نرجو أن يتولاَّها الدكتور الجليل بما عهدنا فيه من قوة المنطق والفلسفة والإفاضة والثرثرة والتعسُّف الغليظ . وهذا الاضطراب القبيح هو الدليل على أن / الدكتور لم (يُعْطِ) رأياً ، وإنما (أَخذ) رأياً لم يحسن فَهْمَه ولا عَرَف موقعه من الكلام . ٩٢/٢

***

والدكتور الجليل يقول فى الفقرة الثانية : « كل هذه حقائق واقعة ، لا نستطيع أن نشكَّ فيها ، ولكنا لا نستطيع أن نعللها تعليلاً قاطعاً » . ومع أنه لا يستطيع أن يعلِّلها ، أى أن يُجرِيَها من فَرْضِهِ الذى فَرَضَهُ مُجْرًى منطقيًّا ، فهو برغم ذلك يجعلها من أسباب الشكّ فى نسب الرجل وصلة أبيه بأمه وجدته ، ومن الأدلة على أن الرجل لم يكن (يعرف أباه ولا أمه) ، .... هذا أعجب العجب !!

***

وأما الفقرات الأربع الباقية التى وقف عندها فى أبيات من قصيدة المتنبى ، فهى مع الأسف العظيم ، بعضُ مما وَقَفْنا نحن قراءَ كتابنا عليه ، وشرحناهُ لهم ، ووصلناهُ بحياة المتنبى صلةً لا تنقطع ، ولا يدخلها الضّعف والتناقض ، ولا تختلُّ معانيها بالفرض الذى زعمناه من أن المتنبى كان علويَّ النسبِ ، وأن بينه وبين العلويين مُشكلةً سبَّبت شيئاً من العداوة ، بل تكاد تكون من السُبُل المفضية إلى القول به وتحقيقه تحقيقاً صحيحاً . أما الدكتور الجليل فقد وقف عندها على آثارنا ، ولم يستطع أن يوفِّق بينها وبين الفرض الذى زعمه ، فلذلك لم يستطع أن يعلِّلها تعليلاً قاطعاً أو شبيهاً بالقاطع ، وعمد إلى الحِيلة

فجعلها من أسباب الغموض ومن أسباب الشّك ، ثم / زادها سُقوطاً فجعلها من الأدلةِ ٩٣/٢ على هذا الفرض ، بعد هذا العجز كلِّهِ ، وبعد هذا التخلفِ العقلىِّ البيِّن .

فقد وقفنا عند قول المتنبى :

طلَبْتُ لها (حظًّا) ففَاتَتْ ، وفَاتَنِى ، وقد رَضِيتْ بى ، لَو رَضِيتُ بِها ، قِسْمَا

فى كتابنا (ص : ١٧٣ ، ١٧٤) ، وشرحنا البيت شرحاً وافياً ، وصححنا أقوال شراح الديوان فيه ، ثم ضممنا إلى البيت قوله :

سَأَطْلُبُ (حَقِّى) بِالقَنَا وَمَشَايِخٍ كَأَنَّهُمُ مِنْ طُول مَا آلتَثَمُوا مُرْدُ

وقلنا فى (ص : ١٧٦ ، ١٧٧) إن (الحظَّ) الذى طلبه ، و (الحقَّ) الذى سيطلبه ، أَمْرٌ واحدٌ ، هو حل المشكلة التى بينه وبين العلويين فى مسألة نسبه إلى علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه ، هذا فى الفقرة الثالثة .

* * *

أما الرابعة التى وقف عندها الدكتور فى قوله :

هَبينى أَخَذْت الثَّأْرَ فِيكِ مِن العِدى ، فكَيْف بأَخْذِ الثَّأْرِ فِيكِ مِن الحُمَّى

فقد وقفنا عنده فى مواضع (ص : ١٧٠ ، ١٧٤ ، ٢٤١ — ٢٤٣) ، فقلنا فى ص : ١٧٠ « فقد أثبت أبو الطيب أنَّ لجدته ثُمَّ له أعداءً ، كان همُّه كله أو / أكثره أن يأخذ ٩٤/٢ منهم ثأرَها وثأرَهُ » ، ثم دلَّلنا على أن هؤلاء الأعداء هم العلويُّون على مذهبنا .. أما الدكتور الجليل فهو لم يَزِد على أن سأل ! وما سؤالٌ لا جواب له !!

إن الرجل يريد أن يُعَرِّفَ قارئَ كتابهِ أنه قد تدبَّر شعر المتنبى ونظر فيه ، ولكن ... أين يذهب عن القارئ الفَطِن أن الدكتور طه قليلُ البصَر بالشعر ، سيِّئُ الفهم له ، بعيدَ كل البعد عن القدرة على الاستنباط منه ؟ خاصة وأن الدكتور الجليل

لا يفتأ يَرْمى فى كلامه بالدليل إِثْر الدليل على صِدْق ذلك ... كما بيناه فى مواضع من الكلمات السابقة وفى هذه الكلمة .

* * *

وأمّا الخامسة التى وقف عندها فى قول أبى الطيب :

لَئِن لَذَّ يَوْمُ الشَّامتين بِيَوْمِهَا ، لَقَد وَلَدَتْ مِنّى لآنُفِهِمْ رَغْمَا

فهى فى كتابنا (ص : ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢٤١) وقلنا فى ص : ١٧٤ :

« إنّ هؤلاء الأعداءَ والشامتين كانوا من أشراف الكوفة ، إذ لا يُعقل أن يكونوا غير ذلك ، لا يُعقل مثلاً أن يكونَ أولئك الأعداءُ والشامتون من طبقة السَّقائين والنساجين ومن إليهم . فلو كان ذلك / كذلك ، لما حفل المتنبى بذكرهم ولا التعريض بهم ، وأن يجعل نفسه رَغْماً لأنوفهم ، وهو مَنْ هو فى الكبرياء والتسامى والغلوّ فى الترفع والعظمة » . ٩٥/٢

* * *

وأما السَّادسة التى وقف فيها الدكتور الجليل عند قول أبى الطيب :

تَغَرَّبَ لاَ مُستَعْظِماً غيرَ نَفْسه ولاَ قابلاً إلاّ لِخَالِقِهِ حُكْمَا

فقد وقفنا عندها أيضاً من قبله وقلنا (فى ص : ٢٤٢ ، ٢٤٣) فى سبب تغرُّبه :

إن العلويين ، وهم هؤلاء الأعداء والشامتون بموت جدته ، كانوا فى سنة ٣٢٦ هـ حين ترك الكوفة فى غُبار راحلته : « قد أرادوه على خُطَّةِ خَسْفٍ ، فأبى أبو الطيب أن يركبها ، وشمخ بأنفه أن يذلَّ لأحدٍ من الناس ، أو أن يقبل له حكماً يُريد أن يُجْريَه عليه ، وفيه المذلة والهوان وإهدار الكرامة ، وإسقاطُ الفتوة والمروءة وآثَرَ أن يخرج عن الكوفة مراغماً لهم ، مفضِّلاً آلامَ الغربة على الهوان فى الوطن » .

ولْيَعُدْ القارئ إلى تعليق الدكتور فى هذه الفقرة ليرى مشابه القول ، وظَرْفَ هذا الدكتور العظيم ، إذ كان كل همّه أن يغيِّر قولَنا « على الهوان فى الوطن » إلى « على العافية فى الكوفة » ، وهو تغيير يدلُّ أصدق الدلالة على عقل صاحبه وحسن فهمه للمعانى التى ينمو إليها فى كلامه !!

* * *

/ وبَعْدُ : ٩٦/٢

فإن قارئ كتابنا يعلم أننا وقفنا عند أبيات كثيرة من هذه القصيدة غير التى ارتطم فيها الدكتور الجليل ، وقد تجاوَزْنا عنها ، إذ لم يبق فيه موضعٌ لتناول شيءٍ أكثر من ذلك . فهذه الأربعة الأخيرة وحدها ثقيلة الحمل ، قد نَاءَ بها كتابه الجليل ، فاضطرب وتخاذَلَ واسترخت مفاصله ، فكيف ، بالله ، يطيق بعدها تناوُلَ شيءٍ هو عليه أثقلُ وله أقتل ؟

هذا مع أننا بعد كتابة هذا الكتاب الذى نشره المقتطف فى يناير سنة ١٩٣٦ ، قد وقفنا على أشياء من معانى هذه القصيدة لها شأن وفيها مَقال ، لا أظن الدكتور طه يتنبه لها ، ولو طفق يقرأ هذه القصيدة وحدها سنوات .

وتسألنى ، ومن حقك أن تسألنى ، لم هذا التبجُّح ؟ وفيم هذا التعسُّف ؟ وعلامَ تدّعى حق الوقوف عند هذا الشعر ؟ أكان شعر المتنبى (تَرِكَةً) لا يدخل فى ميراثها غيرُك ؟ أم هو (وَقْفٌ) قد حَبَسه المتنبى عليك ؟ فأُجيبك ، ومن حقّى أن أجيبك ، أنَّ هذا الذى وقفت عنده ونبَّهت إليه ، ودعوت إلى النظر فيه ، وسُقته فى كتابى على سبيلٍ من التدبُّر والتأمُّل والتبصُّر ، إنما هو من شعر المتنبىّ ، وليس من شعرٍ غيره ، وقد زعموا أن أكثر من ستّين شارحاً شرحُوا هذا الديوان ، وأنَّ أكثر القدماء قد ترجموا لأبى الطيب ، وأن عشراتٍ من المؤلفين فى هذا العصر قد ترجموا لهذا الرجل ، وتناولوا شعره على طريقة أهل العصر من التحليل والتشريح . / وقد انقضى على ذلك ألفُ سنة ، ومع كل هذا فأنا ٩٧/٢

أجزِم لك ، وأصرُّ على هذا الجزم ، أنّ أحداً من هؤلاء جميعاً لم يقف عند بيت واحدٍ مما وقفتُ عنده ، وتكلّمت فيه ، وتأوّلت معناه ، ووصلته بتاريخ الرجل = وأنَّ أحداً من هؤلاء لم يَستْنبط من هذا الشعر الذى تدبَّرته شيئاً من الذى استنبطته أنا من الحالات النفسية والعقلية التى كانت تعتلج فى صدر المتنبِّى وفكره . ثم أنا أزعم لك فوق ذلك أن الدكتور طه فى مثل قوله فى ص : ٢٨ ، حين قدَّم للأبيات التى أثبتُّها من رثاء المتنبى لجدته فقال :

« فاقرأ معى هذه الأبيات ، ولكن قراءةَ المستأنى المتمَهِّل الذى لا يمرُّ بالشعر مرّاً ، والذى لا يشغله الجمال الفنّى عن التماس نفس الشاعر ، وما يُكِنُّ فى ضميره من العواطف المكظومة ، والأهواء المكتومة ، والخواطر التى لا يعرب عنها إلا بالإشارة والتلميح » = أقول بلا مَثْنَوِيَّة : إنما أخذ الدكتور طه ذلك كلَّه من فُضُول كلامنا عن هذه القصيدة ، وهداه إلى هذا التنبيه منهجُنَا فى الكلام عنها ، وتنبيهُنَا نحن على مثل ذلك فى ذيل (ص : ٢٤١ ، تعليق : ٣) ، عند ذِكْرِ هذه القصيدة ، وفى أكثر من عشرة مواضع فى أثناء كلامنا فى الكتاب كله .

وقد قلتُ إن هذا إنّما هو أصل من أصول العلم والاستنباط ، وقارىء كتابى يعرف ذلك حق المعرفة ، والدكتور طه أحد هؤلاء ، ولكنه مؤلِّف أيضاً !! ولَه فى التأليف مذهبٌ لم يخرج عنه فى أكثر ما أَلَّف ، مذهَبٌ قد استخرجه من مذهب الأُحَيْمِرِ السعدىّ اللصِّ الذى يقول :

٩٨/٢ / وَإِنّى لَأَستَحْيِى مِنَ اللهِ أَن أُرَى   أُجَـرِّرُ حَبْـلاً لَيْسَ فِيـهِ بعيـرُ
وَأَنْ أَسْأَلَ النِّكْسَ الدَّنِىءَ بَعِيرَهُ ،   وبُعْرَانُ رَبّى فِى البلادِ كَثِيرُ !!

= بُعْرانٌ كثيرة ، يأخذ منها ما يشاء كما يشاء ، ويذهب بها أين شاء ! وللسبت المقبل البِدء فى نقد الفصل الخامس من كتاب الدكتور الجليل .

* * *

– ٧ –

/ لقد كان من عملنا فى الكلمات الماضية أن كشفنا عن عَوارِ الفصل الثانى ٩٩/٢ والثالث من كتاب الدكتور طه الذى سماه « مع المتنبى » ، وأبَنَّا عن الأصل الذى بناه عليه ، ومن أين أخذه ، وكيف أحاله عن وجهه ، وأخرجه عن طريقته ، وتعهّده بطبيعته الجبارة !! فأفسده أيَّما إفساد ، وأراد أن يجعله فنًّا جديداً فى نسب أبى الطيب ، فكان قَذْفاً جريئاً فى عِرْضِ الرجل . ثم زدنا فرددنا مواضع القول = الذى أفاض فيه الدكتور حين اطمأن له ، واتكأ عليه ، واسترخى فيه ، وتوخَّى به الراحة والدعة = إلى أصله وشبيهه من كتابى عن المتنبى ، ومن كتاب الأستاذ العالم الجليل عبد الوهاب عزام . ثم ختمنا القول فى الكلمة السادسة بالجمع بين ما وقف عنده الدكتور فى كتابه من شعر المتنبى ، والذى وقفتُ عليه أنا من قَبْلُ من هذا الشعر نفسه ، ولم يسبقنى إليه سابقٌ على امتداد ألف سنة تَحَطَّم عامٌ منها على عامٍ .

ومن رجع إلى ما كتبته جملةً واحدة ، ولم يَدَعْ طَرْفَ عينه من كتاب الدكتور طه ، استيقن يقيناً لا يخامره الشك أنَّ الدكتور طه إنما كان فى هذين الفصلين كالناقل المسيء ، وكالمترجم المتخلِّف الذى لا يعرف معنى الكلام ، ولا يبصر عُنْصُرَ القول من أين أتى ، وكيف تدرَّج ، وإلى أين انتهى !!

وما ذلك إلا لما قلنا به من أن الدكتور الجليل رجل هو فى فهم الشعر وإدراك معانيه ، ثم فى العربيَّة وحدود ألفاظها ، ومقاطع جُمَلها ، ومطالع / تراكيبها وفصولها ١٠٠/٢ وغاياتها ، كالذى زعموا من أن خالدَ بن صفوان الخطيب البليغ ، دخل يوماً إلى

(*) نشرت فى جريدة البلاغ ، السبت ١٤ من المحرم سنة ١٣٥٦/٢٧ من مارس سنة ١٩٣٧ .

الحمام ، وفيه رجلٌ ومعه ابنه ، فأراد الرجل أن يعرِّف خالداً ما عنده من البيان والفصاحة فقال لابنه : يا بني آبدأْ بيداك ورجلاك !! ثم التفت إلى خالدٍ كالمتباهِي فقال : يا أبا صفوان ، هذا كلامٌ قد ذهب أهله ! فقال خالد : هذا كلامٌ لم يخلق الله له أهلاً قط ! وإنما الدكتور رجل يتعالم فى الشعر العربى والأدب العربى بما سُوِّغ من شهرة وصِيتٍ ، وما استوطأ من سكوت الناس عنه ، وما آستعلَى به من كرسىّ الجامعة = وإلا فهو أديب من الأدباء ، إذا أردت أن تصف أدبه بما تصفه به كُتُبه قلت : ليس بذاك ! ولَوَيْتَ عنقك ، وانصرفت إلى شأنك ، وشغلت نَفسك بما هو أجدى عليها وأليقَ بها من أدبِ غيره ، ممن طَمَسَتْ أسماءَهم هذه الطبول ذَوَاتُ الدوىّ والطنين والعَجِيج الذى لا ينتهى من الدكتور فُلان إلى الأستاذ عِلاَّن .

هذا خلاصة ما تخرج به من مَعْناةِ كلامنا فى الفصول الماضية التى نقدنا بها الفصل الثانى والثالث من كتاب الدكتور الجليل .

وأما الفصل الرابع الواقع فى الكتاب من ص : ٣٥ – ٤٨ ، وقد سماه الدكتور : (الحياة الإسلامية حين ولد المتنبى) ، فقد كنتُ على نية الكلام فيه ، ولكنى وجدته مما لا يتعلَّق بشئ مما نحن بسبيله ، وما رأيت فى نقده غناءً للقارئ ، ولا فى الفصل نفسه موطناً يستحق أن يتكلف له القلم مَؤُونة التسطير ، فلذلك أغفلناه . ونبدأ بعون الله فى الفصل الخامس وقد سماه : (صِبَى المتنبى فى العراق) وموقعه من (جغرافية) هذا الكتاب بين ص : ٤٩ ، ٩٢ . /وما أظن القارئ بالذى يكلفنى أن أختصر له هذا الفصل ١٠١/٢ قبل البدء فى النقد ، على ما تعوَّدناه فى الكلمات السالفة ، ولكنى له زعيم بأن أجعله على حالة يكون فيها كالذى قرأ الفصل كُلَّه لم يَفُتْه منه شئ ، مضمّناً قولى ما لا بد من ذكره من كلام الدكتور طه ، بعد إسقاط لَغْوه ، وقصِّ ذيوله ، واطِّراح فُضُوله .

هكذا يبدأ الفصل الخامس فى ص : ٤٩ : « وطفولة المتنبى مجهولة بالطبع كطفولة غيره من الشعراء الذين عاصروه أو سبقوه » ، ثم يقول بعد لَغْوٍ : « والذى نعرفه عن صِبَى المتنبى ينقسم قسمين : أحدهما ينبئنا به الرواة ، وأنا أقف منه موقف التحفُّظ والاحتياط ،

ولكننى لا أهمله ولا أُلْغِيه = والثانى ينبئنا به المتنبى نَفْسُه فيما حُفِظ لنا من ديوان شِعْر الصبى ، وأنا أطمئن إليه اطمئناناً تامًّا ، وآخذه أخذ الناقد الذى لا يصدِّق كل ما يُلْقَى إليه فى غير تفكير » .

وليقرأ القارىء هذا الكلام مرة وأخرى ، وليتدبَّره ، وليعرف أوَّله من آخره قبل أن يقرأ كلامنا ، وما نريد له ذلك إلا ليخْبُرَ بنفسه ، ويقيس ما عنده ، فإن جودة العلم لا تتكوَّن إلا بجودة النقد . ولولا النَّقْدُ لبطل كثيرُ عِلْمٍ ، ولاختلط الجهل بالعلم اختلاطاً لا خلاص منه ولا حيلة فيه ...

ثم إن هذا الكلام الذى نقلناه ، لنا فيه وجهان من القول : أمَّا أحدهما ، فالدِّلالة على موضع النقل من كتابنا نقلا بيِّناً لا خفاء فيه ولا لَبْس = وأمَّا الآخر ففساد الكلام فيه فساداً لا صلاح له .

يقول الدكتور إنّ صبى المتنبى ينقسم إلى قسمين : « أحدهما ينبئنا به / الرواة ، و(أنا) أقف منه موقف التحفظ والاحتياط ، ولكننى لا أهمله ولا ألغيه » ص : ٤٩ . ١٠٢/٢
والقارىء يعلم كما قدمنا أننا أوَّل من شكَّ فى الروايات التى رُويت فى ترجمة أبى الطيب جميعِها ، من مبدأ القول فى نسبه إلى غاية القول فى مقْتله ، ولم نجعل شكَّنا كما جعله الدكتور حين سُوِّل له أن يشكَّ ، لغير علة حاضرة أو سبب مذكور .

كلاَّ ، فقد تتبعنا نقد سَنَد الرواية ونصَّها على طريقتنا حتى زيَّفنا زَيْفَها وأبطلنا باطلها ، وميَّزنا المدخول من الأصيل ، والصَّحيح من السليم ، فقول الدكتور هذا هو وصفٌ لما فعلناه نحن ، وكان من حقّنا عليه أن يضع مكان قوله : « (وأنا) أقف منه موقف التحفظ والاحتياط فلا أهمله ولا ألغيه » ، ما نَصَّه : « ومحمود شاكر) يقف منه موقف التحفظ .... » إلى آخر العبارة ، وذلك للسبب الذى ذكرناه ، من أن تحفظنا واحتياطنا وشكَّنا ، إنما بُنِى على أَسبابٍ وعلل . وأما الدكتور فلم يفعل من ذلك فى كتابه شيئاً .

وثَمَّ شىء آخر أحبّ أن يعلمه الدكتور طه ، وهو أنى أعرف من الأسباب التى يترفَّق بها فى استجلاب الأدَب إلى نفسه ، ما لا قِبَلَ له بإنكاره ولا المكابرة فيه ، ثم ليقرأ القارىء قولى فى [ص : ٣٠٧ ، ٣٠٨] من كتابى هذا ما نصه :

« وٱعلم أن أكثر ما يروى فى ترجمة هذا الرجل وغيره من الرجال ، إنما كان من الأحاديث التى تتناقلها مجالس الأدباء ، ولا يُراد بها التحقيق ، ولا يُنْظَر فيها إلى صدق الرواية وسياق التاريخ وما إلى ذلك ، بل إن كثيراً / مما يُرْوَى فى تراجم رجالنا ، كان مما يراد به مَضْغُ الكلام فى مجالس الأمراء أو فى سامر الأدباء . هذا على أنها ربما حَمَلت فيما تحمل أشياءَ لولا ورودها فى هذه النصوص ، لافتقدنا من حلقات التاريخ حلقاتٍ لا ينتظم أمرُه إلا بها ، ولا يستمرُّ إلا عليها ، فلمثل هذا كان لابُدَّ لنا من النظر فى النصوص وتمييزها ، وردّ بعضها والأخذ ببعض ، حتى لا تنقطع بنا السبل فى الترجمة لهؤلاء الأعلام . فلا يَفُوتَنَّك هذا إذا قرأت ما نكتب ، أو أردتَ أن تقرأ أو تكتب » . انتهى من كلامنا .

١٠٣/٢

* * *

والدكتور فى هذا الباب « يصطنع » التحفظ والاحتياط فى الشك ، ويقول إنه (لا يهمل النص ولا يلغيه) تقليدًا لقولنا : (فلمثل هذا كان لابُدَّ من النظر فى هذه النصوص ، ورد بعضها والأخذ ببعض ....) ، فإن لم يكن هذا تقليداً قبيحاً ، واعتداءً مُفْرِطاً فى العدوان ، وتأثراً لخطواتنا على غير بصيرة من النفس والرأى والفكر والتدبير ، فما يكون ؟

أرأيت أيها القارىء الكريم أنه فى هذا الموضع يقلِّدنا ، ويدلُّ بالدليل القاطع على أنه مقلِّد ، وأنه مع ذلك لا يحسن أن يقلِّد ؟ أمَا رأيت قبلُ فى الفصول الماضية أنه حين تكلم فى نسب المتنبى ، والرواية عنه منقولة عن هؤلاء الذين نقلوا هذه الأخبار نفسها ، لم يستطع أن يقول إنه (يتحفظ أو يحتاط) ، أو (لا يهمل النص أو يلغيه) ، بل تَغْلُو به

الجرأة ، ويتقاذفه الوهم ، « فيشك فى غير تحفُّظ ولا احتياط » ويُهمل النصوص ويُلْغيها جملةً ، ليذهب إلى رأيٍ فاسد ، يقذف به عِرْض الرجل حيث جعله (لا يعرف أباه ولا أمه) ، / وأن مولده كان (شاذاً) . فما الذى حمله بَدْءًا على نبذ الاحتياط ، واطِّراح التحفظ ، وإسقاط الرواية جملةً واحدة ؟ ثم ما الذى حمله على (اصطناع) الاحتياط والأخذ بالتحفظ والتعلق بالرواية ، فيأخذ بعضها ويردُّ بعضها أو (أن لا يهملها ولا يلغيها) ؟ هل تجد عندك أيها الدكتور علة تنبذها للناس ، علَّها تستر هذا العَوار الذى فى كلامك ؟ وما أصدق ما قاله مبذول العُذْرىُّ : ١٠٤/٢

وما كُلُّ مَنْ مدَّدتَ ثَوْبَكَ دُونه ، لِتَسْتُرُهُ فِيما أَتَى ، أنتَ سَاتِرُهْ

وما الذى جعل الرواة فى قولهم : إن والد المتنبى هو الحسين السَّقّاء ، وأن جدته كانت همدانية صحيحة النسب ، وأن نسب أبيه ينتهى إلى جُعْفِىّ = أَكْذَبَ منهم حين يقولون : إن المتنبى فى صباه فعل كذا ، وكان من أمره كذا ؟ وما العلة فى أن الرواة حين ذكروا جدَّه لم يتفقوا عليه ولا على الاسم (يلصقونه) به كما قلت فى ص : ١٠ ، أو حين ذكروا صباه أثبتوا شيئاً صحيحاً (وألصقوا) معه شيئاً كذباً موضوعاً ؟ أفى المنطق أن يكون ذلك كذلك ؟ أم المنطق أن يكونوا فى ذكر صباه ، أكذبَ منهم فى ذكر أبيه وأمه وجده وجدَّته ! « نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » !

* * *

وأما القسم الثانى ، وهو الذى « يُنبئنا به المتنبى نفسه ، فيما حفظ لنا ديوانه من شعر المتنبى » = يقول الدكتور الجليل المفكر العبقرى أنه « يطمئن إليه اطمئناناً ما ، ويأخذُه أخذ الناقد الذى لا يصدِّق كل ما يُلْقَى إليه فى غير تفكير » . فهذا كلام لا أدرى ، والله ، كيف أصفه ؟ وإنما أَدَعُ للدكتور طه / نفسه أمر هذا الوصف إذ يقول فى ص : ٧ من كتابه وعن كلامه هذا وأمثاله : « قل ما تشاء فى هذا الكلام الذى تقرؤه ، قل إنه كلام يمليه رجل يفكِّر فيما يقول ، قل إنه كلام يَهْذِى به صاحبه هذياناً ، قل إنه ١٠٥/٢

كلام يصدُر عن رأى وأناة ، وقل إنه كلام يصدُر عن شذوذ وجموح ، فأنت مُحق فى هذا كله » ، وليختر القارئ بعد هذا أحقَّ القولين بالإثبات ، وأليقَهُما بالصفة ، وأدَلَّهما على الغرض الذى يوحيه كلام الدكتور .

فمن قرأ شعر المتنبى فى زمان صباه لم يجد فيه خبراً واحداً يكون كالرواية عن أمر هذا العهد من عمره ، وإنما هو شعر لا خَبر فيه ولا حديث . والدكتور قد جعل هذا الشعر – كما هو بيّنٌ من كلامه – قريناً لأخبار الرواة ، فلذلك يقول : « فأنا أطمئن إليه اطمئناناً ما » ، وجعله أحد قسمين مما نعرفه عن صِبىَ المتنبى . وإذا ظن ظانٌّ أنّ الدكتور يريد بهذا القول ما يستنبطه من هذا الشعر من حالته النفسية وتعليقها ببعض الأخبار التى رويت ليتمِّم النقص ، ويزيد فى تصوير هذا العهد من حياته ، فالدكتور نفسه قد سدَّ عليه هذا الباب بقوله : « فأنا أطمئن اطمئناناً ما ، وآخذه أخذ الناقد الذى (لا يصدِّق) كل ما يلقى إليه فى غير تفكير » ، فإنّ الاطمئنان لا موضع له هنا ، إلا أن يكون فى صحَّة نِسْبَة هذا الشعر إلى أبى الطيب ، وهو مما لا يشك فيه الدكتور ، ولا يدعى فيه أنه موضوع على لسانه ثم يقول : إنه يأخذه أخذ الناقد الذى (لا يصدِّق) كل ما يلقى إليه فى غير تفكير . وليس فى هذا الشعر ولا فى استنباط الدكتور منه ، ما يصحّ أن يكون / موضوعاً (للتصديق أو التكذيب) ، حتى يستطيع هذا الظانّ أن يذهب بكلام هذا الرجل الدكتور العبقرى هذا المذهبَ الجميل . ١٠٦/٢

وإذا أردت أن تَتَحقَّق من أن هذه العبارة لا معنى لها البتة ، فارجع إلى الفصل كلِّه من ص : ٤٩ – ٩٢ فاقرأه ، فلا تجد الدكتور أتى ببيت واحد من شعر المتنبى فى صباه يكون فيه ذكر حادثة فى هذا العهد . وإذا كان الأمر كذلك ، وصحَّ عندك ، وتحقَّقت منه ، علمت أن هذا القسم الثانى الذى زعم أنه يعرفه عن (صبى المتنبى) ، إنما هو من اللَّغو والفضول ، وأن الدكتور لم يَعْمِد إلى هذا التقسيم إلا ابتغاءَ الحِيلة ، وطلباً لإيهام قارئ كلامه بحُسْن الوصف وجمال الترتيب والتقسيم = وأن الرجل قد تعوَّد الكلام ، فصار عنده شهوةً تطلب لَذَّةً ، فلا يغلبها عقله ، وإنما لها عليه الغَلَبة . وقد قالوا فى مثل

ذلك : إن الحجاج بن يوسف نَابَتْهُ فى صديق له مصيبة الموت ، وكان رسولُ عبد الملك ابن مروان عنده ، فقال الحجاج : ليت إنساناً يعزِّينى بأبيات . فقال رسول عبد الملك : أقول ؟ قال : قل . فقال : « وكلُّ خليل سوف يفارق خليله ، يموت أو يُصْلَبُ ، أو يقع من فوق البيت ، أو يقع البيت فوقه ، أو يقع فى بئر ، أو يكون شيئاً لا نعرفه » . فقال الحجاج : قد ، والله ، سلَّيتنى عن مصيبتى بأعظم منها فى أمير المؤمنين ، إذ وَجَّه مثلَك رسولاً = فانظر إلى شهوة الكلام ما تفعل .

ثم يقول الدكتور : « فأمَّا الرواة فيحدثوننا أن المتنبى دفع إلى مدرسة / من مدارس ١٠٧/٢ العلويين ، أو إلى مكتب من مكاتب العلويين ، فبدأ فى هذا المكتب تعليمه ، ولا يزيد الرواة على هذا الخبر شيئاً يفصله أو يوضحه » ص ٤٩ – ٥٠ ، ويقول فى ذيل هذا الكلام (خزانة الأدب ج ١ ص : ٣٨٢ طبع القاهرة) ، ثم يعقب فى ص : ٥٠ : « ولكن المتأخرين ، والمُحْدثين منهم خاصة ، يذهبون فى فَهْم هذا الخبر مذهباً ، أقلُّ ما يوصف به أنه لا يخلو من مبالغة . فهم يظنون أن هذه المدرسة العلوية كانت مدرسة أرستقراطية ممتازة ، وهم بعد ذلك يرسلون لأنفسهم العِنَان (هكذا هكذا يا دكتور طه) فى تفسير اختلاف الصبى إلى هذه المدرسة العلوية الأرستقراطية ، ويفسرونه تفسيرات مختلفة .

« أما أنا فلست أدرى ، أكانت المدرسة العلوية هذه ممتازة أرستقراطية حقاً ، أم كانت مدرسة كغيرها من المدارس ، ولكنها تعلِّم على مذهب الشيعة العلويين . فلفظ « العلويين » فى هذا الخبر عندى ، يوشك أن يكون مرادفاً للفظ الشيعة . وواضحٌ جداً أن المدارس فى مدينة كمدينة الكوفة كانت تختلف باختلاف السكان لهذه المدينة . فللشيعة من هؤلاء السكان مدارسهم ، وللسنيين منهم مدارسهم أيضاً . وجائز أن تسمى مدارس الشيعة مدارس علوية ، كما تسمى أهل السنة مدارس عباسية .

« وأكبر الظن عندى أيضاً أن الأرستقراطيين الممتازين من الشيعة العلوية ومن أهل السنة ، لم يكونوا يرسلون أبناءَهم فى طور الصبا إلى المدارس العامّة ، وإنما كانوا يتخذون لهم الأساتذة والمؤدبين .... إنما كان أوساط الناس وعامتهم هم الذين يرسلون أبناءهم إلى هذه المكاتب .

١٠٨/٢ / « ..... فاختلاف المتنبى إلى هذه المدرسة العلوية لا يدلُّ على امتياز ولا على استثناء ، وإنما يدلُّ على الاتجاه الدينيّ الذى وُجِّهَ إليه الصبى » ، انتهى كلام الدكتور ص : ٥٠ – ٥١ .

* * *

وفى هذا الكلام أعاجيب ! فالدكتور ينقل عن كتاب مطبوع متداول هو خزانة الأدب للبغدادى ، ويحدد الجزء ١ والصفحة ٣٨٢ ويقول : « إن المتنبى دفع إلى مدرسة من مدارس العلويين ، أو إلى مكتب من مكاتب العلويين » . والنص هناك أن المتنبى : « اختَلَف إلى كُتَّاب فيه (أولاد أشراف الكوفة) ، فكان يتعلم دروس العلوية شعراً ولغة وإعراباً » . وفى هذا النص من كتاب البغدادى سقط أو خطأ لا شك فيه ، فما فى العلم شئ يمكن أن يسمى « دروس العلوية شعراً ولغة وإعراباً » ، وصواب العبارة « فكان يتعلم دروس العلوية ، وحذق العربية شعراً ولغة وإعراباً » ، كما روينا النص بتمامه وصححناه فى هامش ص : ١٦٧ من كتابنا هذا عن المتنبى . وليس العجبُ فى أن لا يدقق الدكتور طه فى نصٍّ ما يقرأ ، فهذا شئ ليس فى طبيعته ولا مما يتأتّى له إن أراده وعَمَد إليه ، واجتهد فيه وبالغ فى الاجتهاد = ولكن العجب فى أن هذا الذى يقوله الدكتور طه ليس نصًّا حتى يشير عنده إلى كتاب البغدادى ، فإن الدكتور يزعم أن المتنبى « دفع إلى مدرسة من مدارس العلويين أو مكتب من مكاتبهم » ، والبغدادى يروى أنه « اختلف إلى كُتَّاب فيه (أولاد أشراف الكوفة) » ، (فالكُتَّاب) صار فى كلام الدكتور طه مدرسة أو مكتباً (وأشراف الكوفة) ، صار فى كتاب الدكتور هذا (العلويون) ، فلماذا فعل ذلك ؟ فعل

١٠٩/٢ الدكتور هذه الفعلة / المستهجنة ، لأنه أراد أن يتأوّل كلمة (العلويين) إلى (الشيعة) ، وهو الاسم الذى يجمع (العلويين نسباً) ، ومن يتشيّع للعلويين ممن لا ينتهى نسبه إلى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، ولذلك قال : « فلفظ العلويين فى هذا الخبر عندى يوشك أن يكون مرادفاً للفظ الشيعة » ، وليس فى الخبر هذا اللفظ (العلويون) كما نقلناه لك ، بل فيه (أولاد أشراف الكوفة) ، وهى كلمة لا يمكن تأويلها ولا تحويلها عن معناها

إلى معنى (الشيعة) ، كما أراد الدكتور طه . وخبر البغدادى نصٌّ لا يقبل المكابرة ولا اللجاج ، فلذلك أزاله الدكتور ورواه بألفاظٍ من عنده تمهيداً للمذهب الذى أراد أن يذهبه . فكيف يرى القارئ تصرُّف الدكتور فى نقل العلم وهو قد خشى أن ينقل النصَّ ، وتجنَّبَ ذكره لما يعلم من فساد رأيه ، وفُسُولة مذهبه ، ولما هو عليه من قبح التهجم ، وسوء الاستنباط .

وإذا قيل إن المتنبى اختلف إلى (كتَّاب فيه أولاد أشراف الكوفة) فمعنى ذلك بغير شك أنه (كتاب فيه أبناء العلويين نسباً من أهل الكوفة) ، وإلا فما معنى ورود هذا اللفظ فى الخبر ؟ أَوَ لَمْ يكن راوى الخبر ، وهو الأصفهانى المعاصر للمتنبى ، على علم كعلم الدكتور طه بأن للشيعة عامةً مكاتب ، سواء منهم العلويون نسباً أو غيرهم من شيعة أهل البيت ، كما كان لأهل السنة مكاتب ؟ أوَ لم يكن يستطيع الأصفهانى أن يقول إن المتنبى (اختلف إلى كُتَّاب للشيعة) ؟ لو أنه أراد هذا المعنى الذى تطلَّبه الدكتور طه ، فحرَّف ، وبدّل ، وأفسد ، وتهجَّم بغير علم ولا بينة ولا تثبت .

* * *

/ ومسكين هذا الدكتور طه ، أفتدرى لم رَكب هذا المركب ؟ ولم حرَّف وعَمَد إلى التلبيس والتمويه ابتغاء استمالة الدهماء من قُرَّاء كتبه ؟ أتدرى لم تورَّط فى هذا كله ؟ ألا فاعلم أنه أراد أن يخالفنى (أنا) وحدى . فإنى جعلت اختلاف المتنبى إلى (كتَّاب فيه أولاد أشراف الكوفة) موضعَ النظر ، وأخذت أعلِّل ذلك ، وقلت : « فدخول (أحمد ابن عيدان السَّقَّاءِ ، كما زعم الرواة فى نسبه) ، والذى هو المتنبى ، بين أبناء العلويين (نسباً) فى كُتَّاب لهم ، غريبٌ عجيبٌ ، فيجب هنا أن نفهم من هذا الشاهد أن بين جدة المتنبى وبين العلويين سبباً موصولاً قويًّا ، هو الذى شَرَح صدورهم وأرضاهم أن يدخلوا بين أبنائهم غلاماً (كان أبوه سقّاء فى بلدهم !!) » ص : ١٦٨ من كتابنا هذا . ثم قلت : « هذه واحدة من علاقة أبى الطيب وجدته بالعلويين » ، ثم انطلقت أجمع الدلائل من الروايات ومن شعر المتنبى على وُجود هذه الصلة ، لأنتهى إلى القول بأنه كان ١١٠/٢

علوىّ النسب . والدكتور طه خالفنا فى أوّل كتابه ، فجعل المتنبى (لا يعرف أباه ولا أمه) ، وزعم أن (مولده كان شاذاً !!) ، فخشى أن ينتقض عليه قوله إن هو نقل هذا النص وذهب يتكلم فيه ليزيده إيضاحاً وبياناً ، فما وجد محيصاً من أن يَطْمِسه ليزيده عمىً وخَفاءً ، فترجمه إلى لُغته الضعيفة المستهجنة ، ثم تكلم فيه بعد ذلك على الهوى لا على التثبت ، وعلى التلبيس لا على التوضيح .

ثم أعجب من ذلك أن يقول : « ولكن (المتأخرين والمحدثين منهم خاصة) يذهبون فى فهم هذا الخبر مذهباً أقلّ ما يوصف به أنه لا يخلو من مبالغة ، فهم يظنون أن هذه المدرسة العلوية كانت مدرسة أرستقراطية / ممتازة ، وهم بعد ذلك يرسلون لأنفسهم العنان (!!) فى تفسير اختلاف الصبى إلى هذه المدرسة العلوية الارستقراطية ، ويفسرونه تفسيرات مختلفة » . ١١١/٢

(فالمتأخرون والمحدثون) ، فى كلام هذا الرجل ، جميعاً قد تقمَّصوا فى فرد واحد هو « محمود شاكر » . ويدلُّك على اضطراب الرجل حين ذكرنى وعَرَض لى أنه قال بعد ذلك أنهم يذهبون (مذهباً) ، ولم يقل (مذاهب) ، وإلا لكان ذلك المذهب منهم جميعاً حجة على من هو مثل الدكتور طه . ونحن لم نقل إنها كانت (مدرسة أرستقراطية ممتازة) ، بل قلنا إن العلويين نسباً (كانت لهم مكاتب خاصة يتلقى فيها أولادهم مبادئ العلوم) ص : ١٦٧ = ثم يزعم بعد هذا وذاك وذلك أن هؤلاء (المتأخرين المحدثين) الذين هم (محمود شاكر وَحده) ، يرسلون لأنفسهم العنان !! فى تفسير اختلاف الصبى إلى هذه المدرسة العلوية الأرستقراطية ، ويفسرونه « تفسيرات مختلفة » . ويشهدُ الله أننا لم نفسره إلا (تفسيراً واحداً) لا ثانى له فى كلامنا الذى قيدناه فى كتابنا ، ولا نعلم أحداً فسَّره تفسيراً آخر .

ومن قبلُ ما فعل الدكتور هذه الفعلة فى ص : ٢٠ من كتابه حيث زعم أن شيئاً يسمى (الباحثين المعاصرين) قد تكلموا فى نَسَب المتنبى وحاولوا أن يعرفوا حقيقة الأمر فيه ، ثم طفق يُزْرِى بهم . وقد مضى أن بينا فى الكلمة الخامسة : أن هؤلاء (الباحثين

المعاصرين) هم جميعاً جملةً واحدةً (محمود شاكر وحده) ، ثم نقضنا هذا اللَّغْوَ والفُضول الذى أتى به ، وقلنا إن علة ذلك الفعل أن هذا الرجل عاجزٌ عن النقد ، ثم هو أبلغ عجزاً حين ينقدنى أنا خاصة . [انظر ما سلف ص : ٤٤٩ ، ٤٥٠] أفرأيت الآن أيها القارىء الكريم كيف يضطرب الرجل ، وكيف / يختلط رأيُه ، وأين يذهب بفكره حين يعرض لنقدى أو الحديث عن كتابى ، فتراه لا يكتفى بإضمار آسمى وتجاهله وإغفاله ، حتى يزيد ذلك بأن يجعل (الباحث الواحد) و (المعاصر الواحد) : باحثين ومعاصرين = وأن يجعلنى (أنا وحدى) : المتأخرين ، والمحدثين ، جميعاً ؟ أرأيت كيف يُدَلِّس فى كلامه ؟ إنَّهُ لا يدع هذا الداءِ الذى يلجئه إلى مثل الذى يُقال فيه : « شرٌّ من الموتِ ما يُتَمَنَّى معه الموتُ » !

١١٢/٢

وللأسبوع المقبل تتمة القول فى هذا الفصل العجيب .

* * *

– ٨ –

١١٣/٢ / فرغ الدكتور طه من الكلام عن النص الذى حرفه وبدّله وأفسد معناه ، ابتغاءَ الرد علىّ فيما ذهبت إليه من دخول المتنبى كتاباً بالكوفة فيه « أولاد أشرافها » من العلويين نسباً . فكان من جراء ذلك أن استظهر بالعلم ، واستعان بالعبقرية ، ولجأ إلى التحقيق الفذ الذى هو فيه نسيج وحده وإمام أهله ، فخلص إلى نتيجة عجيبة لم تكن من قبل فى هذا النص . وتأويلُ ذلك أن الدكتور الجليل زعم – فيما يُسَوِّل له أن يزعم – أن البغدادى صاحبَ خزانة الأدب روى فى الجزء ١ ص : ٣٨٢ : « أن المتنبى دُفع إلى مدرسة من مدارس العلويين ، أو إلى مكتب من مكاتب العلويين ، فبدأ فى هذه المدرسة أو هذا المكتب تعليمَه ، ولا يزيد الرواة على هذا الخبر شيئاً يفصله أو يوضحه » ص : ٤٩ – ٥٠ .

وأظن القارىء يعلم أن هذا الباطل كله الذى نسبه الدكتور طه إلى (خزانة الأدب) ليس فيها ، وإنما هو نص محرَّف مبدَّل ليس بينه وبين نص البغدادى فى الخزانة سبب ولا نسب ، كما بينا فى الكلمة السالفة . ويتمخض الدكتور الجليل عن النتيجة العبقرية التى احتفل لها فى ص : ٥١ فيقول :

« ولسنا فى حاجة إلى أن نطيل البحث لنعرف ماذا كان يتلقى المتنبى فى هذه المدرسة التى اختلف إليها فى صباه ، فالراجح بل المحقق أنه تعلم فيها الكتابة والقراءة ، ١١٤/٢ وقرأ فيها القرآن كلَّه أو بعضَه ، وتلقى فيها أصول / الدين وفروعه على مذهب الشيعة العلويين (!!) ، وسمع الشعر وروى منه أطرافاً ، وتعلم فيها شيئاً من علوم اللغة والأدب بوجه عام » .

ولست تشك أيها القارىء أن هذه فائدة جليلة ، وعلم ضَخم قد استخرجه

(*) نشرت فى جريدة البلاغ السبت ٢١ من المحرم سنة ١٣٥٦/٣ من إبريل سنة ١٩٣٧ .

الدكتور واستنبطه واحتفره من صخرة جافية نابية هى هذا النص : « أن المتنبى دُفع إلى مدرسة من مدارس العلويين » ، فأنت تعلم كما علمك الدكتور الأمين الوثيق الرواية المتثبِّت ، أن الرواة « لم يزيدوا على هذا الخبر شيئاً يفصله أو يوضحه » ، فأتى هو ففصله ووضَّحه بعد (بَحْثٍ لم يَطُل) ، ثم رجح ما فصله ووضحه ، أو حققه على الأصح ، ولكن .... ما يقوله الدكتور طه شئ ، والواقع شئ آخر ، فإن نص البغدادى فى خزانة الأدب ج ١ ص : ٣٨٢ هو هذا :

« اختلف المتنبى إلى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة فكان يتعلم دروس العلوية شعراً ولغة وإعراباً » . وقد قلنا إن فى هذا النص خطأ ، وصوابه : « فكان يتعلم دروس العلوية ، وحذق العربية شعراً ولغة وإعراباً » . فهل تجد ، أيها القارئ الكريم ، بعد هذا النص فى كلام الدكتور طه معنى جديداً لم يكن فيه ؟ وكيف تحب أيها القارئ أن تصف الدكتور طه حين يقول لك : « إن الرواة لم يزيدوا على هذا الخبر شيئاً يفصله أو يوضحه » ؟ وماذا تقول له حين ترى أن الذى أتاك به من التفصيل والتوضيح ، وما استخرجه من الفوائد الجليلة ، هو شئ مكتوب مسطور قد رواه الرواةُ فى هذا الخبر الذى أسقط الدكتور منه وحرَّفه وبدَّله ؟

/ صِفْهُ كما تشاء ، وقل ما يبدو لك ، أما أنا فأحبُّ إلىَّ أن أقول إن الدكتور رجل طيب القلب ، سليم الصدر ، ظريف مسكين ، قد خُدِع ، والكريم مخدوع ! وأن شهوة الكلام هى سبب البلاء الذى ٱبتُلِىَ به فى هذا المكان وأمثاله ، وهى شئ فى أصل طبيعته ، ومغْرُوزِ سَجيته ، وهو قال لك فى مقدمة كتابه ص : ٧ : « قل ما تشاء فى هذا الكلام الذى تقرؤه ، قل إنه كلام يمليه رجل يفكر فيما يقول ، وقل إنه كلام يهذى به صاحبه هذياناً ؛ فأنت محق فى هذا كله ، لأنى مرسل نفسى على سجيتها » = وشهوة الكلام هى أغلب سَجِيَّاته عليه ، فما لك بعدها مقال تقولُهُ ، وما هو إلا ما وصفه لك الدكتور . ١١٥/٢

ثم يقول الدكتور بعقب هذا فى ص : ٥٢ : « وقد كان لهذه المدرسة (تأثيرٌ ظاهرٌ)

فى عقل هذا الصبى وقلبه ينبئنا به الديوان » = وقد حقق الدكتور طه العبقرى الأوحد الفذُّ أن هذا (التأثير الظاهر) قد ظهر فى ثلاث خصال فى هذا الشعر الذى قاله فى صباه ، فهو يقول :

« الخصلة الأولى : أن الصبى مقلد فى الفن الشعرى ، يتأثر بما كان يحفظ فى المدرسة .... ، والخصلة الثانية ، أن هذا الشعر ، شعر صبى متشيع للعلويين ، متأثر بآراء الشيعة ، وبآراء الغُلاة منهم خاصة ... والخصلة الثالثة : أن هذا الشعر شعرُ صبى لم يكن بعيداً كل البعد عن أمور القرامطة وأخبارهم .... وقد يجوز أن نضيف خصلة رابعة : وهى أن هذا الصبى كان طويل اللسان شيئاً ما ، مستعداً استعداداً حسناً للسخرية ثم الهجاء » .

١١٦/٢ / ولا أدرى ما نصيب القراء ، أو شعور القرّاء ، حين يقرأون هذا الكلام ؟ أيكون نصيبهم الضحك ، أم البكاء ، أم الحزن ، أم غير ذلك ؟ أما أنا فمن طبيعتى حين أقرأ كلام الدكتور طه فى أكثر ما يكتب أن أضحك ما واتانى الضحك وأوسع لى المجلس .

فهذا هو يزعم لك أن هذه (المدرسة العلوية) كان لها (تأثير ظاهر فى عقل هذا الصبى وقلبه ينبئنا به الديوان) ، وأول هذا التأثير الذى كان لهذه المدرسة أن (فن المتنبى فى صباه كان فنا تقليدياً ليست له قيمة خاصة ، ص : ٥٢) ، وأن الصبى (مقلد فى الفن الشعرى ، يتأثر بما كان يحفظ فى المدرسة) . فهل هذه المدرسة على الخصوص هى التى أثرت فى المتنبى الصغير (تأثيراً ظاهراً) حتى جعلته مقلداً فى الفن الشعرى ؟ أم أن كل متعلم شادٍ مبتدئ مقلد بالضرورة الملجئة إلى التقليد ؟ ثم الخصلة الثالثة ، وهى أن المتنبى لم يكن بعيداً كل البعد عن أمور القرامطة ، هى أيضاً مما يصح أن يكون من التأثير الظاهر الذى كان لهذه المدرسة ؟ فكيف يكون ذلك يا سيدى الدكتور العبقرى ؟ وكيف يصح لك أن تقذف به ، والمدرسة شئ لا صلة بينه وبين أخبار القرامطة وأمورهم ؟ ثم الخصلة الرابعة التى أضافها الدكتور على أثافيه الثلاث ، وهى « أن الصبى كان طويل اللسان شيئاً ما ، مستعداً استعداداً حسناً للسخرية ثم للهجاء » ، فمن أين

يأتى تأثير المدرسة فى (طول لسانه واستعداده للسخرية ثم الهجاء) ؟ وهل فيما نزل به الوحى على الدكتور العبقرى أن كل من تعلم فى هذه المدرسة كان طويل اللسان ، مستعداً / للسخرية ، ثم مقلداً فى الفن الشعرى ، ثم على صلة بأخبار القرامطة وأمورهم ؟! ١١٧/٢

وإن يكن فى كلام الدكتور طه شئ من الصواب فهو فى الخصلة الثانية حيث قال : « إن هذا الشعر شِعْرُ صبِيٍّ متشيع للعلويين ، متأثر بآراء الشيعة ، وبآراء الغلاة منهم خاصة » ، ص : ٥٢ . ومعنى الصواب هنا على الاتساع والبَحْبَحة ، وتأويل ذلك : أن المتنبى قد تأثر بمذهب الشيعة ، وذلك ضرورة اقتضاها اختلافه إلى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة ، كما نص البغدادى ، وأما سائر كلام الدكتور فليس فيه بعد ذلك صواب ، فشعر المتنبى فى صباه ليس فيه الأثر ولا الدليل عليه ، وليس فيه شئ من مذهب الغلاة من الشيعة ، كما سنبين ذلك بعد فى الكلمات المقبلة ، عند تعرض الدكتور فى كتابه للتعلق بهذا الوهم ، فى كثير من أوهامه التى لا تنتهى .

وبعد ، فالدكتور طه يقف فى ص : ٥٣ عند المقطوعات الأولى من شعر المتنبى فى صباه ، ليرى — أراه الله الخيرَ — أنها تصور حقاً كل هذه الخصال التى أحصاها ! وعدَّها عدًّا ، وهى أربع . يقف الدكتور عند قول المتنبى الذى زعموه أوَّلَ شعرٍ نظمه ، وهو :

بِأَبِى مَنْ وَدِدْتُه فافترقْنَا ... وقَضَى اللهُ بَعْدَ ذاكَ آجتماعَا

فافترقنا حَوْلاً ، فلمَّا الْتَقَيْنَا ... كانَ تَسْلِيمُه علىَّ وَداعَا

وقد أراد الدكتور طه أن يبين لقارئ كتابه مقدار العَنَت الذى / تكلفه المتنبى الصبى وحمل نفسه عليه فى صناعة هذين البيتين ، فشرح البيتين بما لا غَناء فى ذكره ولا فائدة فى ص : ٥٤ . ثم قال : « وأكبر الظن أن الفكرة التى حملت الصبى على أن ينظم هذين البيتين هى هذه التى توجد فى الشطر الأخير من البيت الثانى وهى : « كان تسليمه علىَّ وداعاً » ، أُعْجِبَ الفتى بهذا المعنى ، فأراد أن ينظمه ، وأن يصل إليه ، فتكلف لذلك بيتاً ونصف بيت » . ١١٨/٢

ونحن لا نرى بأساً بهذا الكلام على ضعفه وقلة غنائه ، ولو وقف عنده الدكتور طه لكان مستوراً ، ولكان هذا القول شبيهاً بأن نجعله ممن قد سُوِّغ البَصَر بالشعر والفهمَ له والنقدَ فيه ، ولكن الدكتور طه لا يُبْقى على نفسه ، ولا يحفظ عليها ما يحفظ عليها الستر ، فيتخبَّط ويرتطم ، فيقول مبيناً عن الأسباب التى حملته على هذا الرأى .. يقول : « وأنت ترى مظهر التكلف فى قوله :

« بأبى من وَدِدْته فافترقنا »

« فكلمة (وددته) هنا نابية قلقة ، مُكْرَهَة على الاستقرار فى مكانها الذى هى فيه . أراد أن يقول (أحببته) ، فلم يستقم له الوزن ، فالتمس كلمة تؤدى له هذا المعنى وتلائم هذا الوزن ، فلم يجد إلا (وددته) هذه » ، ص : ٥٤ — ٥٥ .

وبهذا الضرب من الكلام كشف الدكتور ما أسبغ عليه الكلام الأوّل من حجاب ، ودَلَّ على الذى هو مطبوع عليه من التخلُّف فى النقد وسوء الفهم للشعر ، وقلة البصر به وبنقده . وقد تولى الأستاذ الجليل / والكاتب المفكر عباس محمود العقاد ، ١١٩/٢ فى عدد شهر مارس سنة ١٩٣٧ من مجلة الهلال ، تهجينَ هذا الضرب من النقد واستسقاطه ، وأبان عن فساده ، بما أبان عن فساد مذهب الدكتور طه فى نقد الشعر وفهمه ، فقال : « والخلاف بيننا وبين الدكتور فى طريقة النقد هنا جدٌّ بعيد . فنحن نرى من جهة أن أبا الطيب لو أراد أن يقول « أحببته » بدلاً من « وددته » لاستقام له الوزن مع بعض التجوز الكثير المقبول فى العروض ، ونرى من جهة ثانية أن أبا الطيب كان مستطيعاً أن يستخدم هنا « حَبَبْتُهُ » الثلاثية بدلاً من « أحببته » الرباعية ، كما استخدمها هو نفسُه فى قوله وهو شاعر كبير :

حَبَبْتُكَ قَلْبى قَبْلَ حُبِّكَ مَنْ نَأَى ... وقد كان غدَّاراً فكنْ أنتَ وافيَا

فلا ضرورة فى الوزن ولا استكراه . وفضلاً عن هذا لا نظن كثيرين يحسبون مع الدكتور أن « وددته » فى موضعها من البيتين لا تعبر عن معناها الصحيح التى لا تعبر

عنه كلمة غيرها ... فالمودة هى ذلك الحب الرقيق الذى فيه حُنُوٌّ وشوق ، (١) وليس فيه عنف ولا اعتلاج ، وليست فى العربية كلمة هى أصلح لهذا المعنى من « وددته » التى اختارها الشاعر ، وليجرب الدكتور طه أن يغيِّرها فى كلام منثور ، فسيعلم أن هذه الكلمة فى نظم المتنبى الصبى هى أشبه الكلام بنظم المتنبى الكبير .

« ومن المحقق أن « المودة » ومشتقاتها ليست من الكلمات التى يلجأ إليها شاعرنا اضطراراً ، أو لعجز فى الوزن والصياغة ، فهى مألوفة فى قصائده / العديدة ، وتكاد تكون ١٢٠/٢ لازمةً له فى التعبير عن الحب بشتى معانيه ، ونذكر أمثلة على ذلك منها قوله :

ما الخِلُّ إلا مَنْ أوَدُّ بقلبه وأرى بِطَرْفٍ لا يرى بسوائه

وقوله :

وكُلُّ وِدَادٍ لا يدُومُ عَلَى الأذَى دَوامَ وِدَادِى للحُسين ضَعِيفُ »

ثم سرد الأستاذ العقاد بعد ذلك كثيراً من شعر المتنبى الذى وردت فيه هذه الكلمة ومشتقاتها ، وعقب على ذلك بقوله : « ومثل هذا التكرار لهذه الكلمة جدير بالتسجيل ، لأنه ذو دلالة نفسية ، فوق دلالته الصناعية أو اللغوية ، لأنه يدلُّ على افتقار الشاعر طول حياته إلى الود والأوِدَّاءِ ، حتى قنع بالتزييف والطلاء ، كما قال :

كفَى بِكَ دَاءً أن تَرى الموتَ شافيَا وحَسْبُ المَنايَا أن يكُنَّ أَمانِيَا

تمَنَّيتَها ، لما تمنَّيتَ أن تَرَى صَدِيقاً فأعْيَى ، أو عدوًّا مُدَاجِيَا

وهى ظاهرة لا نظير لها فى عامة الشعراء » ، انتهى كلام الأستاذ العقاد ، وليس لنا بعده شئ نقوله إلا كان مما يسوء الدكتور طه ولا يُبْقِى عليه ، إذ لم يُبْق هو على نفسه .

* * *

(١) يقول أبو فهر : انظر قول المجنون ، وهو يؤيد مقالة الأستاذ العقاد :

الحُبُّ والوُدُّ نِيطَا بالفُؤادِ مَعاً فأصْبَحَا فى فُؤادِى ثَابتَينِ مَعَا

١٢١/٢ / ثم قال الدكتور بعد الذى نقلناه آنفا : « ثم انظر إلى الشطر الثانى من هذا البيت :

بأبى من وَدِدْتُــه فافترقنــا وقَضَى اللّهُ بعدَ ذَاك اجتماعَا

« فتراه فى نفسه حسناً مستقيماً ، ولكنه مع الشطر الأول قلقٌ ، يظهر عليه التكلف الشديد ، لا لشىء فيما أظن ، إلا لأن الشاعر الصبى قد أُعْجِل ولم يملك ما ينبغى له من الأناة ، ولم يتمَّ معناه الذى ضمنه الشطر الأول ، وإنما وثب منه وُثوباً إلى هذا المعنى الثانى ، لأنه عَجِل يريد أن يصل إلى الشطر الذى ألقى إليه ، والذى حمله على نظم البيتين » ، ويريد الدكتور قول المتنبى « كان تسليمه علىَّ وداعا » .

وأنت يا سيدى الدكتور الجليل رجل عبقرى ، شاعرُ الطبيعة ! فنان النفس ! ملهم الحس ! فهلا خبَّرت قارىء كلامك ، ما هو تمام معنى الشطر الأول ؟ فإنّك تزعم أن المتنبى « لم يتم معناه ، وإنما وثب وثوباً إلى المعنى الثانى » – الذى هو « وقضى الله بعد ذاك اجتماعا » . وهذه القضية التى تريد قارىء كلامك أن يسلم لك بها لا تصحُّ عند أحد ، حتى تقرر ما تسميه (تمام معنى الشطر الأول) ، فبذلك يُعْرَف أن المتنبى لم يصبر على إتمام المعنى ، فقلق وتحير واستبدَّت به شهوة الكلام ، كما تستبد ببعض مَنْ خلق الله من خلقه ، (فوثب وثوباً) إلى المعنى الثانى ، فكان الشطر الثانى قلقاً مع الشطر الأول لمكان هذه الطفرة ، وموضع هذه الوثبة . أمَّا عندنا وعند سائر من رزقه الله الفهمَ وحُسْنَ البصر بالكلام العربى ، فليس فى الشطرين قلق ، وإنما فيهما فُسولة المعنى وضعفه وقلّته .

١٢٢/٢ / وإذا أردنا بيان فساد هذين البيتين قلنا فيهما قولاً على مذهبٍ غير هذا المذهب الضعيف الذى اختاره الدكتور طه وانجذب إليه بطبيعة ضعفه فى فهم الشعر ، ولكن ليس هذا موضع ذلك ، لأننا بسبيل نقد كلام الدكتور وإظهار فساده ، والكشف عن حيله التى يتعالم بها حين يكتب فى مثل ذلك من الأدب .

والدكتور طه هو أبداً الدكتور طه حين ينقد الشعر ، فهو لا يملك إلا أن يقول : (انظر وتأمل ، ولا تنس هذا ، وآعرف ذاك) وما إلى ذلك مما ليس فيه تفصيل ولا بيان ، فإذا أراد التفصيل والبيان ، وعَمَد إلى الدلالة على موضع النقد ، اختلط واضطرب ووقع أوّله فى آخِرِه ، وأعلاه فى أدناه ، ولم يأت إلا بمثل الذى يقال فيه : « اختلَطَ المَرْعِىُّ بالهَمَل » ! [المَرْعِىُّ : من الإبل الذى له راعٍ ، والهَمَل : الذى لا راعى له] . وإذ شئت أن تستيقن هذا فاقرأ تتمة هذا الكلام فى ص : ٥٥ إذ يقول : « فانظر إلى قوله : « فافترقنا حولاً » بعد قوله : « وقضى الله بعد ذاك اجتماعا » ، وانظر بعد ذلك إلى البيتين جميعاً ، فستظهر لك الصنعة والمحاولة ظهوراً لا يدع سبيلاً إلى الشك فى أن الصبى قد أنفق جهداً ثقيلاً ووقتاً طويلاً ، حتى استخرج من نفسه هذين البيتن » ، انتهى . وهو كلام كما ترى : « أَيْنَما تُوَجِّهْهُ لاَ يأْتِ بِخَيْرٍ » ، وليس فيه إلا التظاهر والتكثير بالكلام الذى لا ضابط له ولا حدَّ ، (كالصنعة ، والمحاولة وإنفاق الجهد الثقيل ، والوقت الطويل) ، وإنما هو يا سيدى ثرثرة ولَغْوٌ وغُثَاءٌ كما ترى .

* * *

ثم يقول الدكتور الوقّاف على « هذه الأبيات الثلاثة الأخرى التى قالها صبيُّنا فى حداثته .... كما ينبئنا الديوان ، وكما تنبئنا هى أيضاً » ، ص : ٥٦ :

/ أَبْلَى الهَوَى أَسَفًا يَوْمَ النَّوَى بَدَنى ... وفَرَّقَ الهَجْرُ بَيْنَ الجَفْنِ والوَسَنِ ١٢٣/٢

رُوحٌ تَرَدَّدُ فِى مِثْلِ الخِلاَلِ ، إذَا ... أَطَارَتِ الرِّيحُ عَنْهُ الثَّوْبَ لَم يَبِنِ

كَفَى بِجِسْمِى نُحُولاً أَنَّنِى رَجُلٌ ... لَوْلاَ مُخَاطَبَتِى إيَّـاكَ لم تَرَنِـى

« فواضح جداً أن بيت المقطوعة هو البيت الأخير ، وأن الفكرة التى يريد الصبى تصويرها هى الإغراق فى وصف النحول » ، ص : ٥٧ ، وفى ص : ٥٦ – ٥٧ : « وكان حظ هذا البيت الأخير كحظ ذلك الشطر الأخير من البيتين السابقين ، حفظه الناس وأحبُّوه ، وتمثَّلوا به ، لأنه وحى الطبيعة البرىء ، وأهملوا ما قبله ، لأنه متكلف مصنوع » ، انتهى .

ولو وقف الدكتور عند هذا القول لوفَّر على نفسه حسن الظن به ، ولأبقى على رضى القارئ عنه ، ولاجتنب أن ينصِبَ فكره وعقله غَرَضاً للرُّماة ممن يحسنون الفهم . ولكن الدكتور ليس يفعل ذلك ، لأنه مسلَّط على نفسه ، فعاد مرة أخر للنقد ، ولتعليل ما أحسَّ به من التكلُّف البيِّن فى هذا الشعر ، فأخذ يتلمس العِلل ويتحسَّسها فى حروف الشعر ، فلم يأت بشئ بل قال : « انظر كيف تكلف الوصول إلى هذا البيت الأخير :

« أبْلَى الهوَى ، أسفاً يَوْمَ النَّوَى بَدَنِى »

١٢٤/٢ / فأسفاً هنا ، كلمة لم تأت إلا لتقيم الوزن ، ونبوُّها عن موضعها أظهر من أن يُدَلَّ عليه » .

وأيضاً ، يعود الأستاذ العقاد إلى ضغط الدكتور طه وحَزْقِه بأخطائه فى فهم الشعر أو البصر بمعانيه ، وحدود ألفاظه ، فيقول فى عدد الهلال المذكور آنفاً – بعد أن نقل كلام هذا الدكتور : « وعندنا أن الطريقة المثلى لتحقيق الكلام الذى تجيُ به ضرورة الوزن ، أن نحذف الكلمة ، وننثر البيت ، وننظر بعد ذلك إلى قوة المعنى وقوة الأثر ، فإن بقيت للمعنى قوته ، وبقى له أثره ، فالكلمة المحذوفة حشو لا موجب له غير إقامة العروض ، فهل « أسفاً » فى الشطرة التى عابها الدكتور من الكلمات التى يصدق عليها هذا القياس ؟ لا نظن ، بل هى كلمة تتعلق بها كل قوة البيت ، كما تتعلق بها نغمته الموسيقية ، ودلالته فى الشعور بسبب البلى يوم النوى ، وهو الأسف والحسرة » ، انتهى كلام العقاد ، وهو كلام جيد يقصِّر عن مثله الدكتور طه تقصيراً كبيراً .

ثم يقول الدكتور : « ولكننا مع ذلك نلاحظ شيئاً من الموسيقى قد (وُفِّق) الشاعر إليه بين (الهوى والنوى) وهو يدل على شئ من (الرقى فى صناعة النظم) ، وعلى أن الصبى قد (استطاع أن يتصرف) شيئاً ما فى الألفاظ » .

* * *

وإذَا أردت أن تعرف فساد هذا الكلام كل المعرفة ، فلا تكن كالدكتور طه يجعل عاميَّةَ هذا الزمن الذى نعيش فيه ، وما هى فيه من البعد / عن ألفاظ العربية الفصيحة ، ١٢٥/٢ لمكان النشأة الأولى فى بُيوتنا بين الجاهلات من عجائز الخَدَم وما فوقهن – هى الأصلَ الذى تقيم عليه كلامك وفهمك ونقدك . بل اعلم أن هذا (الصبى) قد نشأ فى الكوفة ، أى فى بلد عربى ، وهذه النشأة كانت فى القرن الثالث من الهجرة أو أوائل القرن الرابع ، والعربية لا تزال بَعْدُ فى هذه البلاد على حالة من الخير ، لم يصبها إلا الدخيل من الفارسية وغيرها ، وبعض ما فشا من اللحن والخطأ . ولم تكن الكلمات العربية قد أهملت بَعْدُ كما أهملت فى هذا العصر ، فكان مثل قولك : (النوى والهوى) من الألفاظ الدائرة على ألسنة القوم ، يتلقَّنها الولد الصغير من لسان أمه وأبيه وجاريته ودَادَته ، وقد كان الأمّهات والخَدَم والجوارى لذلك العهد يحفظن الشعر ويتمثلن به ، وإن لم يُقِمْنَه على الأصل . وكان الشعر العامىّ وهو أشبه بهنّ وأعلق بنفوسهن – مما يكثر فيه هذا الضرب من الألفاظ ، وهذا الصنف من المقابلة بين اللفظ وزنته أو شبيهه ، وكنَّ يتغنين بكثير من ذلك . فالصبىّ بنشأته يتلقَّن هذا الكلام ، ويعرفه ويستعمله فى حديثه ، فظهوره فى شعر المتنبى الصبى ليس يدلُّ على شئ من الموسيقى (وُفِّق) إليه الشاعر بين (الهوى والنوى) ، أو على شئ من (الرقى فى صناعة النظم) » وإنما يدلُّ – إذا أراد الدكتور أن يذهب هذا المذهب من الكلام – على الاستعداد الطبيعى فى هذا الصبى لنظم الشعر ، ومعاناة القريض . وأنت بعدُ تَرَى مقدار النقص فى مثل قول الدكتور أنه يدل أيضاً – (على أن الصبى قد استطاع أن يتصرف شيئاً ما فى الألفاظ) ، فما يكون ذلك إلا فى / مثل زماننا هذا ، إذ ينشأ ناشئُنا فى العامية الدانية ، وإنما يحفظ اللغة حين يتعلَّم ، ثم ١٢٦/٢ يكون له أن يتصرَّف فيها ، فإن سوَّغ القدرة استطاع ، وإلاَّ لم يستطع هذا التصرف .

ولعل الدكتور يعرف أن فيمن عاصر المتنبى من الشعراء ، جماعةً منهم كانوا لا يحسنون القراءة ولا الكتابة ، وإنما كانوا أصحاب صناعة أو أهل خدمة ، لم يأخذوا

الشعر عن أحد من أهل العلم به ، ومع ذلك قد رَوَى الرواة لهم شعراً حسناً لا بأس به ، وكانت فيه موسيقا ، وكان فيه رُقِيٌّ فى النظم ، وكان فيه تصرف فى الألفاظ !!

وللسبت المقبل طرَفٌ من القول فى نقد هذا الفصل .

* * *

— ٩ —

/ يقول الدكتور طه فى كتابه ص :٥٩ : « قيل للمتنبى وهو فى المكتب : ١٢٧/٢
ما أحسن هذه الوفرةَ ! فقال :

لا تَحْسُنُ الوفْرَة حَتَّى تُرَى مَنْشُورَةَ الضَّفْرَيْن يَوْمَ القِتَالْ
عَلَى فَتًى مُعْتَقِلٍ صَعْدَةً يُعِلُّهَا مِنْ كُلّ وَافِى السِّبَالْ(١)

ثم يزعم أنه لم يرو هذين البيتين إلا « لما يصوران من نزاع هذا الصبى الحَدَث إلى الحرب والقتال ورؤية الدم المسفوك ، وما ينمّان به من حفيظة تضطرب فى نفس الصبى ، وضغينة تضطرم فى قلبه الغض ، وتطلق لسانه بهذا الكلام الملتهب » . وهذا كلام لا بأس به ، على أنه مختصر من كلامنا عن هذين البيتين فى [ص : ١٨٣ — ١٨٥] من كتابنا هذا عن المتنبى ، ولم يكن للدكتور من فضل إلا تبديل الألفاظ . ولا نطيل بذكر كلامنا فى هذا المكان طلباً للمقارنة ، ولكنّى أدلّ القارىء على أنى حين تكلمت عن / هذين البيتين ، ١٢٨/٢
حاولت أن أستخرج منهما الأصول التى بُنِيَتْ عليها نفس أبى الطيب ، وحللت معانيهما فى ستة أصول ، لعلها هى أظهر ما استوت عليه نفسه حتى بلغ الغاية فى أعقاب عمره . وكلام الدكتور طه الذى نصفه بقولنا (لا بأس به) ، هو أبداً من (عند غيره) ، حتى ولو كان هذا الكلام مما يصح أن يقع عليه المبتدئون من طلاب الأدب ، فإذا تجاوزه الدكتور إلى

(*) نشرت فى جريدة البلاغ ، السبت ٢٨ من المحرم سنة ١٣٥٦/١٠ من إبريل سنة ١٩٣٧ .

(١) الوفرة : الشعر المجتمع على الرأس ، وسال حتى بلغ آخر شحمة الأذنين . و « الضفر » ، خصلة الشعر المضفورة كالغديرة ، وقوله : « معتقل صعدة » ، أى حامل رمحه إلى الحرب . و « يعلها » ، يسقيها من الدم مرة بعد مرة . و « الوافى السبال » ، الطويل اللحية .

ما يأتى به من (عند نفسه) ، تهالك وتهدَّل ، وجاء كلامه متخلِّعاً متحرّفاً لا يدلُّ إلا على القدرة العبقرية فى مادة الإطالة والتهويل والثرثرة .

ودليل ذلك ما يقوله بعَقِب ما نقلناه لك . « ولك فى فهم هذين البيتين وجهان فيما يظهر : فهل كانت الوفرة التى استُحْسِنَتْ له وَفْرته هو ؟ وإذن فهو غير راضٍ عن نفسه ، ولا مطمئن إلى حاله ، وإنما هو متحرِّق إلى الشباب الذى يمنحه القوة والحرية ، وإلى الظروف التى تتيح له خوض غمار الحرب ، وعَلِّ صعدته من دماء الأعداء = أو هل كانت الوَفرة وفرةَ تِرْب من أترابه فى المكتب ؟ فالصبى إذن يهجو ، ولا يرضى عن هؤلاء الصبية المنعمين الذين يُعْنَون بوفراتهم ، وتنسيق شعورهم أكثر مما يعنون بحياة الخشونة » .

والوجه الثانى ، مع الأسف ، سخيف جداً ، وفاسد جداً ، وهو إلزامٌ للماضين من العرب ، بما يألفه بعض العرب المحدثين . فعادة العرب فى الجاهلية والإسلام توفير الشَّعر ، والعناية به ، فى الرجال والنساء والصبيان جميعاً !؟

١٢٩/٢ ومع ذلك فهذان الوجهان تقسيمٌ باطلٌ لا معنى له ، وثرثرة فارغة / لا خير فيها . هذا على أن المعنى فيهما واحد لا يختلف ، وما يدلأّن عليه لا يتناقض ولا يتباعد . فعلام ذكر الوجهين إذن ، ما دام نص الكلام يدلُّ على أن المقصود هى وفرة المتنبى نفسُها لا غيرها ؟ وعَقْل العقلاء يدل أيضاً على أنهم يعنون تلك لا غيرها ، والعادة المعروفة لأهل ذلك الزمان هى الإبقاء على الوفرة المسترسلة فى الصغار والكبار ، وعادة أهل الكوفة والبلاد التى يكثر فيها (العلويُّون) على الخصوص هى ما ذكرنا ؟

ثم لو أن الدكتور طه كان قد تتبع خبر المتنبى ، لعرف أن مُعاذاً اللاذقى قال فى حديثه : « قدم أبو الطيب اللاذقية فى سنة نيف وعشرين وثلثمئة وهو لا عِذار له ، (وله وَفْرَة إلى شحمتى أذنيه) ، فأكرمته وعظَّمته لما رأيتُ من فصاحته وحُسْن سَمْته » .

وهذا دليل على أن الوفرة المقصودة هى وفرة المتنبى نفسه . وقد أردنا بهذه الكلمة أن ندلّك ، أيها القارئ ، على طبيعة الدكتور طه التى لا تفارقه أبداً ، لتجعلها منك على

ذُكْرٍ أنّى قرأت كلامه ، ولو شئنا أن نتعقب فعلات الدكتور فى كلِّ وجه من كتابه ، وعند كل سطر ، وبين كل لفظٍ لفعلنا ، ولأنشأنا كتباً عدة فى بيان المذهب العقلى الذى يتمرَّغ فيه كلامه !!

ومع أن الفائدة منه محققة لقراء كتب الدكتور ، فإن الوقت لا يمدنا بمؤونته من الساعات ، وعندنا من العمل الذى يشغلنا بالاستفادة من العلم ، ما يقطعنا دون ذلك . فاعلم أننا سنتجاوز لك عن أشياء من هذا الكتاب ، / لا للصواب الذى فيها ، بل للبلاء ١٣٠/٢ الذى نحن فيه مما يؤذِى ويُمِضّ ويقلق .

* * *

وقد شاء الدكتور طه ، ولا رَدَّ لمشيئته ، أن يجعل البيتين السالفين أول حجر يُلْقِى به فى البناء الخَرِع الذى أراد بناءه ، من أن المتنبى كان من القرامطة ، فقال فى ص : ٦٠ : « ومهما يكن من شئ ، ففى هذين البيتين ريح البيئة الدامية التى كان يعيش فيها الصِّبية من أتراب المتنبى ، بين تلك الغارات التى كانت تنتهى بالقرامطة إلى الكوفة وسَوادها من حين إلى حين » .

ولو تدبَّر القارئ لعلم أن الدكتور لم يفعل ذلك إلا لغرض فى نفسه قدَّم له ، وأراد هنا أن يدلَّ عليه ، ثم يشاء بعدُ أن ينسحب عليه فى مواضع من كتابه .

وهذا عمل غير صالح ، وإلا فلم خَصَّ (البيئة الدامية) بالقرامطة ؟ والكوفة وغير الكوفة من بلاد العربية كانت ميداناً ومَجالاً ووَغىً دائرة ، ونزاعاً مستمراً قائماً بين الطوائف كلها لذلك العهد ، ولم يكن القرامطة وحدهم هم (حملة السلاح) .

وقد أشرنا إلى ذلك فى كتابنا هذا ص : ١٩١ ، ١٩٢ وهو الفصل الذى فيه هذا البيتان فقلنا :

« وكانت الكوفة ، التى نشأ بها أبو الطيب وشبَّ وترعرع وتفَتَّى ، / لذلك ١٣١/٢

العهد ، بلداً من بلاد الإسلام قد رمتها القرامطة بجيوشها مرَّات ، وفعلت بأهلها الأفاعيل ، وكانت الدولة العربية فى شغل عن الكوفة بانقسامها شِيَعاً يأكل بعضها بعضاً ، وظهرت شوكة الأعاجم ، وكانوا أصحاب حيلة ودهاء ، فأوقعوا بين المسلمين وبين عرب البادية ، حتى صارت الدولة العربية المترامية الأطراف فى ثورة دائمة لا تفتر ، ولا تنقطع الحروب فى ناحية إلا اتَّقَدَتْ نيرانها فى ناحية أخرى .

« ولا شك أن إحساس أبى الطيب قد ألَمَّ بذلك كله وفصَّله ونقده ، وعرف الداء الذى كمن فى بدن العربية ، واستلَّ قوتها وقتل روحها ، فازداد إلى ثورته ثورة ، وإلى حقده حقداً » .

فاختصاص القرامطة وحدهم بذلك لا مسوِّغ له كما ترى ، وهذا ما قلناه فى ص : ١٩٤ و ص : ١٩٥ ، قلنا : « كان الذكاء والثورة والنظر والتجربة والاختلاط بالناس واختبار أخلاقهم ، وتعجُّبه من فساد أقيستهم ، وبُطلان مذاهبهم ، ثم اعتماده فى نفسه على الثقة بها ، واعتداده بمقدرته ، واستسقاطه لمن يحيط به من رجال الدولة الذين لم يصلوا إلى الحكم أو السلطان أو القضاء إلا بالسوء والقبيح ، ثم طبيعته الشاعرة المرهفة التى تلتقط صور الأشياء ، ثم تنتزع منهما الأخيلة الشعرية = كل ذلك أسرع (بالفتى) إلى ضرب من القول الساحر الذى لم تر العربية مثله فى شعر شاعر .

١٣٢/٢ « إلاَّ أن سخريته التى انفرد بها لم تكن بعدُ فى كِبرَه إلا ضرباً من الحكمة / والعبرة لا يفطن لها إلا أفذاذ العقول ، ثم يدلُّون عليها بالإيجاز العجيب ، فلا يبالغون فى تصويرها ، بل يضعون لها (اللفظ) الذى يخرجها مخرج الحكمة ، ويزيدها رَوْعةً فى السِّحْر .

« وقد حفظ لنا المتنبى ضرباً من سُخريته فى (صغره) تدلُّ على ما استحكم فى شعره بَعْدُ ، وصار فى شاعريته طبيعة متأصلة مستحكمة .

« مَرَّ المتنبى برجلين قد قتلا جُرَذاً ، وأبرزاه يُعَجِّبان الناس من كبره ، فقال :

لقد أصبح الجُرَذُ المُسْتَغِيرُ أَسِيرَ المنايا صَرِيعَ العَطَبْ
رَمَاهُ الكِنَانِىُّ والعَامِرِىُّ وتَلاَّهُ لِلوَجْهِ فِعْلَ العَربْ
كِلاَ الرَّجُلين ٱتَّلَى قَتْلَهُ .. فأَيُّكُما غَلَّ حُرَّ السَّلَبْ ؟
وأَيُّكُما كانَ مِنْ خَلْفِهِ ؟ فإنَّ بِه عَضَّةً فِى الذَّنَبْ

« قتل الرجلان الكنانىُّ والعامرىُّ هذا الفأر الكبير ، فأخرجاه ليعجِّبا الناس من كِبَره ، وهذا سُخْف منهما إذ شغلا أنفسهما بعبَثٍ لا معنى لمثله عند المتنبى الذى يريد فى نفسه قَتْلَ الملوك ، فمن هنا قال : (الجُرَذُ المُسْتَغِيرُ) الذى أغار عليهما كما تغير الجيوش ! ثم لما فرغ من جَعْلِه كذلك ، ذكر أن الفأر وقع فى (أسر المنايا) كما يقع العدوّ فى الأسر حين رماه الكنانى والعامرى بالسهم كما يرمى العدوّ . وبذلك يسخر من رجلين يجمعان قلوبهما على قتلٍ ، ثم لا يكون المقتول إلا فأراً !! ثم لا يكتفى صاحبنا بهذا ، / بل ١٣٣/٢ يقول : إنهما أخذا يصارعانه ، كما يصارع العربىُّ خصمه ، مستعيناً عليه بالقوة حتى يَكُبَّهُ على وجهه مقتولاً ، وذلك قوله : (وتَلاَّهُ للوجه فعل العرب) . ثم يقول بَعْدُ : كِلا كما تولَّى قتله — وذلك لكبر الفأر وشدته !! — ولكن مَنْ منكما الذى سرق حُرَّ ثيابه وجَيِّد سلاحه ؟ كما يسرق السارق فى الحرب أسلاب القتلى ويخفيها عن أصحابه من المقاتلة . ثم يعود فيقول : إنكما كنتما تصارعانه بعد أن رميتماه بسهميكما ، وكان أحدكما من خلفه ، فمن منكما الذى كان من ورائه ليحتال على صَرْعه ؟ وقد عَرَفْتُ حيلته فى صراع هذا الفأر العظيم !! فإنَّه عضَّه فى ذنبه ، وهذه العضة بَيِّنة ثَمَّ = وأنت إذا عدت فقرأت الأبيات على ما تكلَّفنا شرحَهُ ، رأيت بلاغة الرجل فى السخرية ، ودقَّته فى اختيار الألفاظ ، وإيجاز الصورة التى يريد أن يتفكَّه لك بها » ، إلى آخر هذا الفصل الذى أطلنا بنقله .

فجاء الدكتور طه أيضاً وذكر هذه الأبيات فى ص : ٦٠ ثم قال :

« فظاهرٌ أن هذا الشعر ليس شعر صبى يُقَرْزِم ، [1] وإنما هو شعر شاعر قد

---

(١) القرزام (بكسر القاف وسكون الراء) الشاعر الدون . يقال : « هو يقرزم الشعر » ، أى يقول شعراً دوناً رديئاً .

راض نفسه على نظم الكلام ، وتعلم كيف يصرِّف هذا الكلام كما يحبّ من وجوه القول ، بل تجاوز رياضة النفس على إجادة النظم ، إلى التماس الهجاء المحض والسخرية اللاَّذعة ، وإلى ترتيب المعنى وتأليفه وحمايته من الاختلاط والاضطراب » .

١٣٤/٢ / وهذه العبارة كما ترى ، هى جزء نفخ فيه الدكتور من كلامنا ، ثم طفق بعد ذلك يشرح هذه الأبيات بما لا يخرج عن المعنى الذى قلنا ، وقطع فى ذلك من ص : ٦١ - ٦٢ . وأنا على يقين من أن الدكتور لم يتعب نفسه فى هذا الكلام إلا لِمَا وجد فى كلامنا عن سخرية المتنبى .

وقد كنت أوَّل من وقف عند هذه الأبيات ، وبيَّن أنها سخرية .

والحقيقة أنه بعد هذه الأبيات لم يوفَّق فى الكتاب كله إلى الكشف عن موضع واحدٍ من سخرية المتنبى ، التي قال عنها فى ص : ٥٣ : « وخصلة رابعة : وهى أن هذا الصبى كان طويل اللسان شيئاً ما ، مستعداً استعداداً حَسَناً (للسخرية) ثم الهجاء » . فالدكتور على عادته يأخذ أصل الرأى من غيره ، ثم ينساه نسياناً تاماً ، ولا يستطيع تطبيقه على شىء مما يقع تحت يده ، إلا أن يجد تحت يده أيضاً شيئاً يأخذه يكون بسبيلٍ من هذا !!

***

ثم لا يكاد الدكتور ينتهى من الكلام عن سخرية المتنبى فى ص : ٦٤ ، حتى يقفز (القفزة الأوليمبية) المشهورة ، فيقول فى إثر ذلك : « قال الرواة : وقد خرج المتنبى من الكوفة مع أبيه إلى البادية فأقام فيها حيناً ، ثم عاد منها وقد نما جسمه وعقله ، وفَصُح لسانه ، وأصبح فتًى يملأ العين والأذن » . وهذا الذى (ألصقه) الدكتور طه بالرواة ليس يصحُّ على عِلاَّته ، وهو قد جعل خروج المتنبى إلى (البادية) دون أن يعيِّن أيَّةَ بادية ، لحاجةٍ فى نفسه . / والحقيقة التى رواها الرواة : « أن المتنبى حين خرج من الكوفة صَعَّد إلى بادية السَّماوة فى مشارف الشام » ، وهذه هى إحدى الروايات = والرواية الثانية « أنه ١٣٥/٢

سافر مع أبيه إلى الشام فلم يزل ينتقل من حاضرة إلى بادية » = والرواية الأخرى : « أنه خرج إلى البادية فعاد عربياً قُحًّا » ، وظاهر أن المراد بالبادية فى هذا النص الأخير بادية الشام ، لأن الروايتين السالفتين تدلاَّن على ذلك ، ويؤيده قول الواحدى فى أول شرح ديوانه : « وُلد أبو الطيب بالكوفة .... ونشأ بالشام والبادية » .

هذا على أن الدكتور طه قال إن المتنبى خرج مع (أبيه) ، ولا ذكر فى الروايات (لأبيه) إلا رواية من قال : « إنه خرج مع أبيه إلى الشام » ، فكيف يُحرِّف الدكتور النص ، ويأخذ بعضاً ويدَع بعضاً ؟ أوَ تدرى لماذا فعل الدكتور طه هذه الفعلة المستنكرة ؟ فعلها لأنه يريد أن يوقع نفسه فى إشكال ، [1] وأن يحلّ هذا الإشكال على رأى مبيَّتٍ ، فيقول لك فى ص : ٦٤ : « إن مَن العسير أن نقطع بالسبب أو الأسباب التى حملت الصبى على أن يرتحل إلى البادية .... فهل ارتحل إليها كما كان يرتحل إليها المتعلمون التماساً للصحة ورياضة اللسان ؟ أم ارتحل إليها التماساً لهذه البيئة (القرمطية) التى كانت متصلة أشد الاتصال بحياة الشعب الكوفى فى ذلك الوقت ؟ » .... ثم يقول فى ص : ٦٥ : « ليس من اليسير أن نقطع بشىء من / هذا ، ولكن الذى نستطيع أن ١٣٦/٢ نقطع به ونحن مطمئنون (تأمل هذا !) هو أن رحلة المتنبى إلى البادية قد نفعته من الناحيتين جميعاً ، فقد ربا جسمه ونما عقله وفَصُح لسانه ، وتعلَّم أصول القرامطة ، وعرف مذاهبهم النظرية والعملية . وشعر المتنبى فى صباه بعد عودته من البادية إلى الكوفة ، يبيّن لنا هذا أوضحَ تبيينٍ وأجلاه » . وظاهر من هذين الكلامين أنه فى أولهما قال إنه من (العسير) أن يقطع بأحد السببين ، ولكنه فى آخرهما كان من (اليسير) عليه أن يقطع بنتيجة السببين جميعاً ! وهذا كلام ضعيف هالك ، فإذا قطع الدكتور بهذه النتائج ، فالأسباب أيضاً فى حكم المقطوع بها بغير شك .

---

(١) تبين لى بعد كتابة هذه المقالة أن الدكتور طه ، أخذ هذا الرأى على عادته ، من الأعجمى المستشرق ، بلاشير ، ولذلك فالدكتور معذور فى هذه الأخطاء ، التى وقع فيها !

والدكتور يقطع بأن المتنبى تعلم أصول القرامطة وعرف مذاهبهم النظرية والعملية معا ، قبل إيراد الحجة أو شبهها على هذا الذى قطع به !! وليس ذلك فحسب ، بل إنه كما قلنا تعمد أن يذكر (البادية) بغير تعريف ليقول بهذا القول . وهذا فعلٌ غير حميد ، إذ كان يجب عليه أن يعين البادية التى رحل إليها المتنبى ، لأنه إذا صحَّ أن الرحلة كانت إلى بادية السماوة (وهذا صحيح ولا شك) ، فمن التهجم أن نقول إنه تعلم أصول القرامطة هناك ، فلم تكن بادية الشام موطناً من مواطن الدعوة القرمطية ، بل كانت من أعداء القرامطة ، وكثرت عليها غاراتهم ، واشتدت فيها حروبهم . وأما موطن الدعوة القرمطية ، فكان فى جنوبى الكوفة إلى البحرين ، من أواخر القرن الثالث ، إلى أن خفَتت وذهبت ريحها . فشأن هذه البادية التى رحل إليها وكثرت عليها غارات القرامطة ، شأنُ الكوفة التى رحل منها وكانت عليها غارةُ القرامطة . وإذا كان وجوده فى الكوفة لا ينتج القول بأنه كان قَرمطياً ، كما ذهب الدكتور إليه فيما بعد ، فكذلك رحلته فى بادية الشام لا تأتى / ١٣٧/٢ بشيء يعضد هذا القول .

* * *

وكما رأيت قبلُ أن الدكتور أقحم القرمطية فى الأبيات المذكورة فى أول هذا الكلام ، تراه يعود فى ص : ٦٥ فينقل هذه الأبيات ويجعلها : « كافية كل الكفاية !! (تعجب) لإثبات أن هذا الغلام قد عاد من (البادية القرمطية) وهو قَرْمَطىٌّ الرأى ، متحفز ليكون قرمطى السيرة أيضاً » . فانظر أيها القارئ كيف يفعل هذا الدكتور : ففى المرة الأولى قال (البادية) بغير تعريف وعلى غير تحقيق ، ثم عاد بعد صفحة واحدة يقول (البادية القرمطية) معرَّفة موصوفة ، فهل يستطيع هذا الدكتور أن يحقق ما هذه (البادية القرمطية) ، وأين تقع ؟ وأين كان مكانها من الدنيا ؟ وكيف يجمع بين الروايات ويعدّل بينها ، ويأخذ منها ما يصح ؟

وانظر الآن إلى هذه (القرمطية) التى يزعمها فى هذه الأبيات :

إلَى أيِّ حِينٍ أنْتَ فِي زِيِّ مُحْرِمٍ وَحَتَّى مَتَى فِي شِقْوَةٍ وَإلَى كَمِ ؟
وإلاَّ تَمُتْ تَحْتَ السُّيوفِ مُكَرَّماً ، تَمُتْ وتُقَاسِ الذُّلَّ غَيْرَ مُكَرَّمِ
فَثِبْ واثقاً باللهِ وَثْبَةَ مَاجِدٍ ، يَرَى الموتَ فى الهيجَا جَنَى النَّحْلِ فى الفَمِ

١٣٨/٢ / يقول الدكتور : « فانظر إلى هذا التحرُّق الذى يظهره الغلام إلى تغيير حاله ... » ، ثم يقول فى ص : ٦٧ : « ليس عندى من شك فى أن هذه الأبيات تصوِّر ما عاد به من البادية بعد أن عاش فى بيئتها الخشنة المقتنعة بالمذهب الجديد (يعنى القرمطية) » .

وقد زاد فى هذه المرة فى صفة البادية التى لا يعرفها : أنها (مقتنعة بالمذهب الجديد) !؟

وهذه من عجائب الدكتور الكثيرة ، وهل يرى أحدٌ من الناس فى هذه الأبيات دليلاً على (قرمطته) ؟ ليكن القرامطة من دعاة الخروج على الملوك والسلاطين ، أفكُلُّ خارجٍ على الملوك وعلى الدولة هو قرمطىّ بالضرورة ؟

لقد كان من الأصول المقررة عند العلويين الخروج على الخلفاء ، أفكان العلويون أيضاً قرامطة ؟ أَوَ كُلُّ من تكلم بمثل هذه الروح الثائرة ، فهى دليل على أنه (قرمطىّ) ؟ اسمح لى أنْ أقول لك يا سيدى الدكتور أن هذه الأوهام التى تتخيَّلها ليست تصلح للكلام فى تاريخ الشعر ، ولا بيان معانيه ومراميه وأغراضه .

ثم اسمح لى يا سيدى الدكتور أن أسأَلك من أين عرفتَ أن هذه الأبيات قد قالها المتنبى بعد أن رجع من البادية ؟ وما الدليل على ذلك ؟ والذى فى الديوان المطبوع أنه قال (فى صباه) وفى بعض المخطوطات : (قالَ وهو فى / المكتب) أى بالكوفة ، فكيف لك بالقطع بأنها مما قاله بعد أن رجع من البادية !! ١٣٩/٢

وأكثر من ذلك أن ترتيبها فى الديوان لا يدلُّ على شىء من ذلك – إن كنت قد اعتمدت على ترتيب الديوان . وإذا كانت (الرصانة اللفظية التى ترفع اللفظ عن

الابتذال ، وتكسبه عذوبة تحس فيها ريح الصحراء) كما تقول فى ص : ٦٧ ، هى الدليل على أنه قالها بعد عودته من البادية ، فلماذا جعلت القصيدة ، التى ذُكِرتْ فى الديوان قبلها ، وذَكرتها أنت بعدها ، من شعره بعد عَوْدَته من البادية ، والقصيدة كلها (رطانة) لا رصانة فيها ، وهى مبتذلة اللفظ ، مِلْحَةٌ تتذوَّق منها مرارة بغيضة مستكرهة ؟ هذا على أنها مما ذكرها الرواة فى شعره الذى قاله وهو فى (المكتب) بالكوفة ؟ هذا طرفٌ من القول فى القرمطية ، وسنعود إليه فى الكلمة المقبلة ، بالتوضيع والبيان .

* * *

ولا بأس من أن نذكر للقارىء فكاهة طريفة من حيل الدكتور طه ، فإننا حين ذكرنا هذه الأبيات فى (ص : ١٨٥ ، ١٨٦ من كتابنا هذا) ، قلنا بعد شرح البيتين اللذين ذكرناهما فى أول المقالة :

« وهى وإن كانت مما قال فى صغره (نعنى هذه الأبيات الثلاثة) ، إلا أنها أمثل من الأبيات الأُولى فى الدلالة على المعانى التى ذكرناها ، والأصول / التى استنبطناها ، فتدبَّرها على ما قدمنا لك ، تجد الشاعر الكبير فى الشاعر الصغير ، إلاّ فى موضع واحد قَلَّ فى شعره بعد الكبر ، وذلك هو تقديم الثقة بالله على الثقة بسيفه ونفسه » : ١٤٠/٢

وقد سمع الدكتور لنا ، فتدبَّر البيت الأَخير على طريقتنا فى شرح البيتين الأُولين ، فقال فى ص : ٦٧ : « وانظر إلى هذا البيت الأخير :

فَثِبْ وَاثِقـاً بِاللهِ وِثْبَـةَ ماجِـدٍ يَرَى المَوْتَ فى الهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فى الفَمِ

فهو لا يريد بهذا (الوثُوب) إلا الخروج على السلطان ، وشقّ عصا الطاعة ، والمخالفة عمّا يأمر به النظام المألوف » .

وقد أقر الدكتور كلامنا عن الأبيات الأُولى ، وعرف كيف نقف عند الألفاظ لنستخرج منها المعانى ، فوقف عند قوله (ثِبْ وثبة ماجد) فجعله الخروج على السلطان .

ولكن الدكتور لم يستنبط هذا المعنى ، ولا كان مما يتأتَّى له أن يعرفه ، لولا أننا نبَّهنا إليه فى أبيات أخرى لم يذكرها الدكتور فى كتابه البَتَّة !! مع أنها أدلُّ على هذه (القرمطية) العملية التى يزعمها ، وهى الأبيات التى أوَّلُها :

/ مُحِبِّى قِيامِى ، ما لِذٰلِكُمُ النَّصْلِ بريئاً مِنَ الجَرْحَى سَلِيماً مِنَ القَتْلِ ١٤١/٢

فقلنا نحن فى ص : ١٩٨ : « وقوله (مُحبِّى قيامى) يعنى ثورته وظهوره وخروجه » ، فنقل الدكتور هذا إلى الموضع الذى نصحنا فيه القراء بتدبر الأبيات الميمية ، ثم توكَّلَ على الله وتَرَكَ هذه اللامية خشية هذه الفضيحة ، مع أنها أصلٌ له فى الدلالة على مذهبه !!

وللأسبوع المقبل .

***

– ١٠ –

١٤٢/٢ / والآن ننشر القول فى مشكلة (القرامطة) التى أراد الدكتور طه أن « يستحدثها » فى المتنبى .

وقد كنا فى الكلمة السالفة قد طوينا القول طيًّا لأسباب غلبتنا على الإرادة ، حتى هجم علينا بعضُ كبارِ أصحابنا باللَّوم والتعنيف – وقد استحققناهما – فلهم العُتْبَى حتى يَرْضَوْا . فهذه كلمة نستدرك بها ما فات ، ونستأنف القول من مبدئه حتى لا يتفلَّت من الرأى ما يجب له الحفظ والإمساك .

ومن الظلم البيِّن للدكتور طه أن نقول إنه (استحدث) مشكلة القرامطة ، فليس هو بذاك الذى (يستحدث) شيئاً لم يكن !! ولكنى أنسب استحداثها إليه ، لأنه رجل عبقرى نابغة فذٌّ ، وللعبقرى علينا أن ننسب إليه كل ما يقوله ، وإن لم يكن هو صاحبَه ولا مبتدِعَهُ ولا البادئَ به .

وأوَّل من أحدث هذه الخرافة ، فيما نعلم ، أحد الفئة المستشرقة الأستاذ (بلاشير) ، وقيَّد قوله هذا فى دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة ج ١ ص : ٣٦٤) فقال :

١٤٣/٢ / « ولقد هذَّب دعاة القرامطة من شأن بنى كَلْب الذين كانوا يعيشون عيشة البدو فى سُهوب تلك الصحراء ، ومن المحتمل (تأمل هذا) أن يكون هذا الشاعر الشاب قد اتَّصل فى ذلك الوقت ببعض هؤلاء (الزنادقة) ، إلا أنه من المرجح (تأمل) أيضاً أن هذا الاتصال لم يترك أثراً واضحاً فى حياته لحداثة سنه (تأمل هذا واذكره) ،

(*) نشرت فى البلاغ ، السبت ٦ من صفر الخير سنة ١٣٥٦/١٧ من إبريل سنة ١٩٣٧ .

ومن المحقق من جهة أخرى أن إقامة أبى الطيب بين هؤلاء البدو ، قد أكسبته معرفة واسعة باللغة العربية كثيراً ما فاخر بها فيما بعد » .

واستطرد هذا المستشرق على ضرب من الرأى ليست له سِنادةٌ تحمله ، أو عُكّازَةٌ تُقيم أَوَدَه . ولسنا فى سبيل الكلام عنه ، ولكن لو أعدنا على القارئ كلام الدكتور طه بترتيبه فى كتابه ، لما خرج من هذا إلا هذا ، ولكان كل فضل الدكتور هو فيما استبدَّ به من القدرة على الحشو واللَّغْوِ والغُلُوِّ فيهما .

وسيرى القارئ ذلك فى مكانه من كلامنا هذا ، ومن كتابنا فى نقد هذا الكتاب (مع المتنبى) . ومأْثُرَةٌ أخرى للمستشرقين ، فقد زعموا أن المستشرق الأعجمى الأستاذ (مسنيون) ألقى فى مؤتمر المستشرقين الأخير فى رومية بحثاً ادَّعى فيه أن أبا الطيب كان (قرمطياً) ، ذكر ذلك الأستاذ عزام فى كتابه ص : ٣٢٩ ، ثم عقب عليه بقوله : (ورأيت بعض أدبائنا يميل إلى هذا الرأى !!) .

* * *

١ – / وترتيب حجة الدكتور طه فى أمر القرمطية التى يزعمها على المتنبى هو ما نحكيه لك ، فحين ذكر بيتى المتنبى حين قيل له وهو بالمكتب : (ما أحسن هذه الوفرة !) ، فقال : ١٤٤/٢

لا تَحْسُنُ الوَفْرَةُ حَتَّى تُرَى مَنْشُورةَ الضَّفْرَيْنِ يَوْم القِتَالْ
عَلَى فَتًى مُعْتَقِلٍ صَعْدَةً يُعِلُّهَا مِنْ كلِّ وافِى السِّبَالْ

فقال ، بَعْدَ حَشْوٍ ، فى ص : ٦٠ : « ففى هذين البيتين ريح البيئة الدامية التى كان يعيش فيها الصبية من أتراب المتنبى ، بين تلك الغارات التى كانت تنتهى (بالقرامطة) إلى الكوفة وسوادها من حين إلى حين » .

٢ – ثم زعم الدكتور العبقرى فى ص : ٦٤ أن الرواة قالوا : « خرج المتنبى من

الكوفة مع أبيه إلى البادية فأقام فيها حيناً ، ثم عاد منها ..... « فهل ارتحل الفتى إلى البادية .... التماساً للصحة ورياضة اللسان ؟ أم ارتحل إليها التماساً لهذه (البيئة القرمطية) التى كانت متصلة أشد الاتصال بحياة الشعب الكوفى فى ذلك الوقت ، تبعث الرعب فى قلوب فريق منهم ، وتبعث الحب فى قلوب فريق آخر .... » .

ثم فى ص : ٦٥ : « ليس من اليسير أن نقطع بشىء من هذا ، ولكن الذى نستطيع أن نقطع به ونحن مطمئنون ، هو أن رحلة المتنبى إلى البادية قد نفعته من الناحيتين جميعاً ، فقد ربا جسمه ، ونما عقله ، وفَصُح لسانه ، (وتعلم أصول القرامطة ، وعرف مذاهبهم النظرية والعملية معاً) ، وشعر المتنبى / فى صباه بعد عودته من البادية إلى الكوفة ، يبين لنا هذا أوضح تبيين وأجلاه » . وانظر ما نقلناه لك من كلام بلاشير فى أول هذه الكلمات ، وفرِّق ما بين الكلامين .

١٤٥/٢

٣ — ثم حين ذكر الأبيات التى قالها المتنبى فى صباه ، وهى قوله :

إلى أىِّ حينٍ أنْتَ فى زِىِّ مُحْرِمٍ ؟ وحَتَّى متى فِى شِقْوَةٍ ؟ وإلى كم ؟
وإلا تَمُتْ تَحْتَ السُّيُوفِ مُكَرَّماً ، تمُتْ وَتُقَاس الذُّلَّ غيرَ مُكرَّمِ
فِثِبْ وَاثِقاً باللهِ وَثْبَة مَاجِدٍ يَرَى المَوْتَ فى الهيجا جَنَى النَّحْلِ فى الفَمِ

يقول الدكتور طه فى ص : ٦٥ : « وهذه الأبيات الثلاثة ... كافية كلَّ الكفاية !! لإثبات أن هذا الغلام قد عاد من (البادية القرمطية !!) وهو قرمطى الرأى ، متحفز ليكون قرمطى السيرة أيضاً » .... ثم فى ص : ٦٧ : « وهو لا يريد بهذا (الوثوب) إلا الخروج على السلطان ، وشق عصا الطاعة ، والمخالفة عما يأمر به النظام المألوف » ، « ليس عندى من شك أن هذه الأبيات تصور ما عاد به الغلام من البادية بعد أن عاش فى بيئتها الخشنة المقتنعة بالمذهب الجديد (يعنى القرمطية) » . ثم يقول : إن هذه الأبيات فيها : « الرصانة اللفظية التى تدفع اللَّفظ عن الابتذال ، وتَكْسِبه عذوبة تُحِسّ فيها ريح الصحراء » انتهى ! فكأن هذه الكلمة هى التدليل على أن الأبيات الثلاثة من شعر المتنبى بعد عودته من البادية .

٤ - / ثم فى ص : ٦٨ ذكر من قصيدته التى أولها : ١٤٦/٢

كُفِّى ، أَرَانِى ، وَيْكِ ، لَوْمَكِ أَلْوَمَا هَمٌّ أَقَامَ عَلَى فُؤَادٍ أَنْجَما

أبياتاً هى :

يا أيها المَلَكُ المُصَفَّى جَوْهَراً من ذاتِ ذى الملكوتِ أَسْمَى مَنْ سَمَا
نُورٌ تَظَاهَر فيك لَاهُوتِيُّهُ فتكَادُ تَعْلَمُ عِلْمَ مَا لَنْ يُعْلَمَا
ويَهُمُّ فِيكَ ، إذَا نطقتَ فَصَاحةً من كل عُضْوٍ مِنْكَ ، أن يَتَكَلَّمَا
أَنَا مُبْصِرٌ ، وأظنُّ أَنِّى نائمٌ ! مَنْ كان يَحْلُمُ بالإله فأَحْلُمَا
كَبُرَ العيانُ علىَّ حتَّى إنه صَارَ اليقين من العِيانِ تَوَهُّمَا

وقد قدم الدكتور لهذه الخمسة الأبيات فى ص : ٦٧ بقوله : « وإذا كانت هذه الأبيات (يعنى الثلاثة الماضية) تصور تأثُّر المتنبى بالبيئة العملية القرمطية ، فإن (هذه) تصور تأثر المتنبى بالمذهب النظرى للقرامطة وغلاة الشيعة . وهذه القصيدة التى مدح بها المتنبى - فيما يقول الديوان - رجلاً يعرف بأبى الفضل ، وأراد أن يستكشفه عن مذهبه ، فيما يقول الديوان أيضاً ، وفيما / يقول الرواة كذلك ، وعندى أن المتنبى لم يُرِد أن يمتحن أبا الفضل .... وإنما أراد أن يمدحه لا أكثر ولا أقل » . ثم فى ص : ٦٩ : « فنحن هنا بإزاء رَأْىٍ صريح فى الحُلُول ..... وهذا الكلام صريحٌ فى انحراف المتنبى عن الجادة الدينية ، واندفاعه إلى هذا اللون من ألوان الفلسفة التى هى إلى (الإلحاد) أقربُ منها إلى أى شىء آخر . ومن هنا نفهم أنه حين أراد أن يثبت هذه القصيدة فى الديوان ، زعم للرواة ، أو زعم الرواة له ، أنه إنما يمتحن بهذه الأبيات أبا الفضل ، وأراد أن يعرف مذهبه = كلامٌ يقصد به إلى الاعتذار وإلى التقيَّة أكثر من أى شىء آخر . وعندى أن المتنبى حين ارتحل إلى البادية إنما اتصل فيها ، لا بالبيئة القرمطية العادية ، بل بداعٍ من دعاة القرامطة الذين كانوا يجولون فى البادية . ومن يدرى ؟ لعل هذا الداعى كان أبا الفضل نفسه هذا الذى يمدحه . ومن يدرى ؟ لعل المتنبى لم يعد إلى الكوفة مصطحباً أباه وجده ، وإنما عاد مصطحباً رجلاً آخر أو قوماً آخرين ، يريدون أن ١٤٧/٢

يستقرُّوا فى الكوفة ، وأن يدعُوا فيها لمذهب القرامطة . ومهما يكن من شئ ، وسواء واتتنا النصوص أم لم تواتنا ، فإنى أجد فى نفسى شعوراً قوياً جداً بأن المتنبى قد نشأ نشأة شيعية غالية ، لم تلبث أن استحالت إلى قرمطية خالصة » .

* * *

هذا هو ترتيب حجة الدكتور العبقرى فيما زعمه من أن المتنبى كان من القرامطة = بل داعياً من دعاتهم كما ذكر فى ص : ٧٣ من كتابه . ونحن لا نحب أن نقول إن هذا الرأى ، وهذا الفرض ، وهذا (الشعور القوى جداً) فى نفس / الدكتور طه ، إنما هو من كلام هؤلاء المستشرقين الأعاجم ، إذ لم نطلع على كثير مما كتبوه ، إلا ما نُقِلَ إلينا من موجز كلام الأستاذ (بلاشير) ، وما رُوِىَ لنا عن الأعجمى المتغالى فى إفساد التاريخ العربى والإسلامى خاصة الأستاذ (مسنيون) . فنحن ندعه لمن تحقَّقه واطلع عليه ، فإن نُقِلَ إلينا بتمامه قلنا فيه ونقدناه بما علمناه إن شاء الله . أما الآن فأمامنا بلاءٌ هو أضرُّ على العربية من بلاء الأعاجم ، فلنقصد قصدَه ، ولننصرف إليه . ١٤٨/٢

فأنت ترى ، كما قلنا ، أن هذا الدكتور العبقرى قد أراد أن يتدرَّج إلى خديعة قارئ كتابه فى القول بقرمطية المتنبى ، فأقحم ذكر القرامطة فى الفقرة الأولى من كلامه إقحاماً ليس فى الشعر ما يحمل عليه أو يقتضيه ، بل ليس فى التاريخ ما يُعَيِّنه تعييناً يوجب القول به ، ويلزمنا نسبة هذا الأثر إليه دون غيره من المؤثرات .

فلما فرغ من ذلك التقديم ، وخَلَص بهذا التطريق لرأيه ، زعم لك أن الرواة قالوا : إن المتنبى خرج مع أبيه إلى البادية ، مع أن رواية الرواة كلهم تعيِّن أنه خرج إلى (بادية الشام) ، وهى بادية معادية للقرامطة ، كثرت بينها وبينهم الحروب ، فلم تكن ، كما يوهم كلام الدكتور طه فى سياق حديثه ، موطناً من مواطن الدعاة من القرامطة . ولو قد قال الرواة إنه خرج إلى (البادية) على غير تعيين ، لكان ثمة قولٌ لقائلٍ أن يزعم أن المتنبى انحدر إلى بادية البحرين ، حيث تحتفل الدعوة القرمطية ، ولكان قول الدكتور إنه / تعلم ١٤٩/٢

أصول القرامطة فى جانب من الصواب ! فما دام الرواة كلهم إجماع على أنه خرج إلى بادية الشام ، فليس يصحّ أن يقال إن أبا الطيب قد تعلم أصول القرامطة هناك .... ، إلا أن يكون فى تأويل الشعر ، أو فى نصوص الرواية ، أو فى مادة التاريخ ، ما يسوق الفكر إلى هذا الرأى أو يحمل عليه أو يقرِّبه أَدْنَى تقريب إلى جهة الترجيح . ولو قد كان فى هذا كله شئ من ذلك ، لكان لزاماً على الدكتور أن يبينه ويأتى به على وجه الحجة لمذهبه ... ولكن الدكتور لم يفعل من ذلك شيئاً ، إلا أن يتهجم فيقول فى أدبار هذه الفقرة : إن « شعر المتنبى فى صباه (بعد عودته من البادية إلى الكوفة) يبين هذا أوضح تبيين وأجلاه » .

ثم يستجمع الدكتور أداة عبقريته ، ويحتفل بأسباب نبوغه الغريب ، فيستدل على الذى زعمه من الشعر الذى قاله المتنبى فى صباه بعد عودته من البادية إلى الكوفة ، فيذكر فى الفقرة الثالثة أبيات المتنبى التى أولها :

« إلى أىِّ حينٍ أنتَ فى زِىِّ مُحْرِمِ ؟ »

فيزعم أنها كافية كل الكفاية !! لإثبات أن هذا الغلام قد عاد من (البادية القرمطية !!) التى يتوهمها توهُّماً ، « وهو قرمطى الرأى متحفز أن يكون قرمطى السيرة أيضاً » .

وقد قلنا آنفاً إن هذه الأبيات بعينها هى المذكورة فى الديوان بما ترجمته : « وقال فى صباه » ، بغير توقيت لأوان قولها ، ثم إن القصيدة التى / قبلها فى الديوان مما نُصَّ ٢/١٥٠ على أنها مما قاله وهو (فى المكتب) بالكوفة . ثم إن بعض النسخ المخطوطة من الديوان تقول فى رأس هذه الأبيات : « وقال وهو (بالمكتب) » ، فمن أين أتى الدكتور بهذا البيان عن وقت مَقَالها بعد عودته من البادية ؟ وما الذى رجَّح عنده أن تكون مما قاله بعد أن تعلم أصول القرامطة ، وعرف مذاهبهم النظرية والعملية ؟

ولكن الدكتور يزعم بعد هذا الرجم بالغيب فى توقيت الشعر ، أن هذه الأبيات

الثلاثة كافية كل الكفاية لإثبات قرمطية أبى الطيب ، وذلك لما فيها من ذكر القتال ، ومن التحرُّق الذى يظهره فيها إلى تَغَيُّر حاله ، والخروج عما هو فيه من الدعة والأمن والطمأنينة ، إلى حال أخرى فيها خوف وقلق واضطراب ومخاطرة ، ص : ٦٦ من كتابه .

أَفَكُلُّ شعر فيه مثل ذلك يا سيدى الدكتور العبقرى هو مما يقال فيه إنه كاف كل الكفاية !! لإثبات قرمطية صاحبه ؟ ألأن المتنبى الصغير يقول ، ويشتد فى قوله ، ويتطلب الموت تحت ظلال السيوف ، ولا يرضى بعيش الذل والمهانة = يوجب ذلك عليك القول بأنه قرمطى ؟ أفليس فى أهل ذلك الزمان من الشعراء من قال مثل ذلك القول وذهب هذا المذهب ، إلا القرامطة وحدهم هم المبتدعة له ، والداعون إليه ؟

* * *

إنك تنسى ما تقول يا سيدى الدكتور العبقرى ، فقد بدأت فى ص : ٥٢ تقول إن المدرسة العلوية التى زعمتَ ، كان لها تأثير « ظاهر » فى عقل هذا الصبى / وقلبه ينبئنا به الديوان = فقد حفظ الديوان للمتنبى مقطوعات من الشعر قالها الصبى وهو يختلف إلى المكتب . ثم ذكرت أن الخصلة الأولى من خصال هذه المقطوعات هى « أن الصبى مقلّد فى الفن الشعرى ، يتأثر بما كان يحفظ فى المدرسة ، أو ما كان يسمع من شعر القدماء ، ومن شعر المعاصرين الذين سبقوه بوقت قصير . وهذا طبيعى ، فالأصل فى الابتداء الفنى التقليد .... يلتمس الفتى نفسه فى هذا التقليد ، حتى إذا وجدها استغل قواها وعواطفها ، واستثمر كنوزها ودخائلها ، واستخرج منها شخصيته التى تنمو على مر الزمن وطول المران » . حقاً يقيناً ، يا سيدى الدكتور ، إنك قلت هذا ، فما الذى جعل عندك هذه الأبيات الثلاثة التى قالها فى صباه وهو فى المكتب مما قاله بعد عودته من البادية ، مخالفاً بذلك رواية النسخ المختلفة من ديوان أبى الطيب ؟ ثم لماذا لا يكون فى هذه الأبيات بعينها مقلِّداً يتأثر بالذى حفظه فى المدرسة ، أو ما كان يسمعه من شعر القدماء والمعاصرين الذين سبقوه بوقت قصير ؟ وقد كثرت هذه المعانى فى أشعار القدماء والمعاصرين الذين سبقوا أبا الطيب كثرة بينةً ، لسنا فى حاجة إلى الدلالة عليها برواية أشعارٍ فى هذا المعنى ، وهو معنى مبتذل مطروق قلَّ أن يخلو منه شعر شاعر ؟

١٥١/٢

لماذا لا يكون هذا الشعر ، بعد الذى رأيتَ وعلمتَ ، مما يدلُّ دِلالةً قاطعةً تنفى عنك كل شك فى « أن هذه الأبيات (تصوِّر) ما عاد به الغلام من البادية المقتنعة بالمذهب الجديد من دعوة القرامطة » ؟ ما هذا التحكم الباغى ، والتعسف الغليظ الذى تحمل عليه معانى الشعر حملاً ، لتقول برأى ضعيف / قد سبقك إلى التدلّى إليه بعض الأعاجم من المستشرقين ؟ ١٥٢/٢

وليتك يا سيدى الدكتور وقفت عند هذا الضرب من التعسف ، وهذا الخلط فى الرأى وسوء التدبير فى الفكر ، بل احتفل لك المنطق ، وأعانك الذوق العبقرى ، حتى جعلت تترقى إلى التلبيس على القارىء ، ليجعل لرأيك هذا وزناً يُعْتَدُّ به ، فزعمت أن فى هذه الأبيات الثلاثة جزالةً بدوية لا تخفى [ص : ٦٥ من كتابه] ، وأنها تصور ما عاد به الغلام من البادية من الرصانة اللفظية التى ترفع اللفظ عن الابتذال ، وتَكْسِبُه عذوبةً تحسُّ فيها ريح الصحراء [ص : ٦٧ من كتابه] = وذلك ليتوهم القارىء حقاً أن هذا الشعر مما قيل بعد عودته من (البادية القرمطية) التى زعمت !!

وليكن هذا حقًّا لا يختلف عليه أحد من الناس ، ولا يمارى فيه ذو بيان أو فنّ أو ذوقٍ ، ليكن كلُّ ذلك صواباً ... ولكن كيف - بالذى خَلقَك فسوَّاك فَعَدَلك - تقول فى القصيدة التى ذكرتَ بعضها فى الفقرة الرابعة التى نقلناها ، إنها مما قاله بعد عودته من البادية القرمطية ، إذا أنت أردت أن تزنها بها الميزان من الذوق الفنى ؟ فهذه الأبيات التى زعمت أنه (مدح) بها أبا الفضل ليست فيها جزالة ، ولا هى مما يكون فيها رصانة لفظية ترفع اللفظ عن الابتذال ، فتكسبه عذوبة تُحس فيها ريح الصحراء .... !! بل هى كلام ساقط مرذول أشبه بالرُّقْية منه بالشعر . وليقرأ القارىء هذه الأبيات من أولها :

كُفِّى ، أَرانى ، وَيْكِ ، لَوْمَكِ أَلْوَمَا ... همٌّ أقـامَ على فُؤَادٍ أَنْجَمَـا

وخَيالُ جِسْمٍ لم يُخَلِّ له الهوَى ... لحماً فَيُنْحِلَـهُ السَّقـامُ وَلاَ دَمـا

/ وخُفوقُ قَلْبٍ لو رَأَيْتِ لَهِيبَهُ ، ... يا جَنَّتى ، لظننتِ فِيهِ جَهَنَّما ١٥٣/٢

وإذا سحابةُ صَدِّ حُبٍّ أبْرَقت ... تَركت حَلاَوة كُلِّ حُبٍّ عَلْقَمَا

يا وجْهَ دَاهِيَةَ الذى لَوْلاَكَ ما أَكَلَ الضَّنى جَسَدى وَرَضَّ الأَعْظُمَا
إِنْ كان أَغْنَاها السُّلُوُّ ، فإنَّنِى أَمْسَيْتُ من كَبِدِى ومِنْهَا مُعْدِمَا
غُصْنٌ عَلَى نَقَوَىْ فَلاَةٍ نابتٌ ، شَمْسُ النَّهَارِ تُقِلُّ لَيْلاً مُظْلِمَا
لم تُجْمَعِ الأَضْدَادُ فى مُتَشَابِهٍ إِلاَّ لِتَجْعَلنى لِغُرْمِى مَغْنَما

إلى آخر هذه القصيدة الغثة الساقطة المرذولة اللفظ والمعنى . فهل يجد القارىء فيها إلا رطانة قبيحة ، وألفاظاً مبتذلة ، ومُلوحة تَكْسِبُه ريح البئر فى الأرض السَّبِخَة ، لا ريح الصحراء !! وكيف يقول المتنبى هذا القول القبيح ، وقد زعم الدكتور أنه عاد من البادية ، وقد فَصُح لسانه ، وجاد بيانه !!

وقد ذكرت هذه القصيدة فى كتابى هذا (ص : ١٨٧) وقلت : « ومن قرأ القصيدة كلها ألقاها كلها ، فما فيها بيت واحد من (الشعر) ، ولفظها وكلامها ومعانيها غثٌّ كله ... » ، وقلنا إنه لم يقلها إلا تندُّراً وعبثاً بهذا الجاهل الدعىِّ فى الفلسفة المسمى بأبى الفضل ، وأن أبا الطيب إنما أثبتها فى ديوانه لِيَذْكُر بها شخصية كانت تستخرج من قلبه الحزين أقصى الضحك وغاية الاستغراب ، ولذلك بناها على المبالغة فى المدح ، بما ينقل الكلام عن معنى المدح إلى معنى الهجاء والسخرية ، فأَعْجَم القصيدة وأتى فيها بكل ساقطة من الفلسفة وما إليها ، وأخلَّ بعربيتها إخلالاً بيناً لم يقع مثله فى ساقط شعر / أبى الطيب وسَفْسَافه ورديئه » .... فهذا هو الوجه فى تأويل هذه القصيدة ومعانيها عندنا ، أما الدكتور طه فهو لحاجته إليها فى القول بأن المتنبى كان قرمطياً ، نقلها من هذا المعنى إلى معنى الجد ، ثم الإلحاد والزندقة ، على عادته من الولوع بأخبار الملحدين والزنادقة وأهل الزيغ والفسوق ، كما بيناه فى بعض كلامنا الأوّل ، [انظر هذا ص : ٤٣٠] .

١٠٤/٢

وليت ذلك فحسب أن يكون كل ما يفعله الدكتور طه ليقول بهذا الرأى المرقوع المتخرِّق الضعيف المسلوخ من كلام مَنْ لا يجيد فهم العربية من الأعاجم المستشرقين = كَلاَّ ، بل يعمد إلى النصوص فيلغيها جملة واحدةً لغير عِلَّة بيِّنة ، أو شبهة قائمة ، أو دليل مقنع . فالرواة الذين رووا ديوان أبى الطيب إجماعٌ كلهم على التقديم لهذه القصيدة بهذه الكلمات :

« وقال وهو (بالمكتب) يمدح إنساناً ، وأراد أن يستكشفه عن مذهبه »

فالدكتور يسخر من الديوان والرواة ، كما رأيت فى الفقرة الرابعة ، فالمتنبى لم يرد أن يمتحن أبا الفضل هذا ولا أن يستكشفه عن مذهبه ، وإنما أراد أن يمدحه لا أكثر ولا أقل !! وذلك ليقول بأن أبا الفضل هذا كان من دعاة القرامطة ، وأن مديحه جاء على وَفْقِ مذهبه ، وفسَّر الشعر على ذلك ! وتفسيره = على ما فيه من الخطأ فى فهم الشعر ، وفى توجيهه إلى هذا الرأى من نِحْلَة القرامطة = لا يصحُّ أن يثبت أمر قرمطية المتنبى ثبوتاً لا مجال للشك فيه ! وذلك لأنه تأويل وليس بتفسير ، وليس فى الشعر نفسه دليلٌ عليه . هذا على أن الرواة الذين ذكروا (أبا الفضل) هذا قالوا : إن المتنبى « وقع فى صغره / إلى واحدٍ يُكْنَى أبا الفضل (بالكوفة) من المتفلسفة فهوَّسه وأضلَّه كما ضلَّ » . فهذا نصٌّ صريحٌ فى أن أبا الفضل هذا كان بالكوفة لا بالبادية ، وأنه كان من المتفلسفة لا من القرامطة . ولو أنه كان من القَرَامطة لذكروا ذلك ، ولبالغوا فيه ، لِعِظَم عداوتهم لأبى الطيب ، فإن المتفلسفة إن يكونوا ضلاَّلاً ، فإن الحرج فى وَصْفِهم بالكفر والإلحاد كثير ، وأما القرامطة ، فأهل العلم جميعاً ، حتى الفاطميون (وقد كانوا لهم أتباعاً) ، يرمونهم بالكفر والزندقة والإلحاد فى غير تحرُّج .

١٥٥/٢

فلو كان ما ذهب إليه الدكتور مما يمكن أن يصحّ ، لكان لتاريخ أبى الطيب شأنٌ آخر غير هذا الشأن ، ولكان للكلام فى عقيدته ودينه منهجٌ غير هذا المنهج الذى جرى عليه الرواة والمؤلفون من أعدائه ، ومن المُجْلِبين عليه ، والمتحلِّين ببغضه والكره له والحطِّ منه .

فهذا كما ترى (عَمَلٌ غَيرُ صَالِحٍ) من الدكتور طه النابغة العبقرى = وبيان كافٍ كل الكفاية لما قلنا به مراراً ، من أنه يتجنب فيما يكتب إثبات النصوص كما رُويت ، ويأبى إلا أن يطمس معانيها ، ويُحَرِّف كَلِمَها عن مواضعه ، وهو يعلم أنه لا حجة له فيه ، ولا دليل عليه . وإذا لم يرض القارئ بذلك ، وظننا نَتَحَيَّف الدكتور ونظلمه ونميل

عليه ، فليقرأ نص مقدمة القصيدة وهو : « وقال وهو بالمكتب » ، ومع كل هذا الوضوح وكل هذا البيان ، وكل هذا التصريح ، يزعم الدكتور أن أبا الطيب قالها بعد عودته من البادية فهل فى التحكم البغيض والتعسف الغليظ ما هو أبغض من هذا وأغلظ ؟

١٥٦/٢ / أستغفر الله بل ثمة ما هو أغلظ من ذلك ، إذ يزعم الدكتور أن المتنبى « حين أراد أن يثبت هذه القصيدة فى الديوان زعم للرُّواة ، أو زعم الرواة له ، أنه إنما امتحن بها أبا الفضل ، وأراد أن يعرف مذهبه . وهو كلام (تأمل ما يأتى) يُقْصَد به إلى الاعتذار ، وإلى التقيَّة أكثر من أى شئ آخر » ، [ص : ٦٩ من كتابه] . فلماذا الاعتذار ، وعلام التَّقِيَّة ؟ لا ندرى ، فجواب هذا اللغو كلّه عند صاحبه العبقرىِّ الذى لا تنفد حِيَله ، ولا تنقضى عجائبه !!

وللأسبوع المقبل تتمة القول فى هذا الفُضُول .

* * *

– ١١ –

/ رأيتَ – أراك الله الخير ، وبَصَّرك به ، وسدَّدك إليه – من فَعَلات الدكتور طه ١٥٧/٢ وأخطائه وما تورَّط فيه ، وما تهجَّم عليه بغير علم ، وما قطع به بغير بينة ، وما حرَّف من الكلام عن مواضعه ، وما أسقط من نصوص الروايات ، وما تأوَّل به على سُوء الفهم وفِقْدان البصر بالعربية = رأيت ما يحمِلُك ولا شك على العجب ، ويغريك بإسقاط الثقة بما يقول هذا الدكتور النابغة العبقرى ... هذا إذا تورَّعت فى الصفة الواجبة الثبوت عليه ، وأخذت نفسك بالوَقار ، وتجمَّلت بحسن الأدب فى (حضرة) أديب هو عند أصحابه وأشياعه من كبار الأدباء ، غُفْرانك اللهم ، بل كبير الأدباء ، فلم تُرِدْ لذلك أن تجرحهم بالأذى ، أو تُؤْذِنَهم بالعداوة .... وخيراً إن شاء الله فعلتَ .

ورأيت فى كلمتنا الأخيرة خاصة – عن خرافة (القرمطية) التى صبَّها الدكتور على المتنبى – أشياءَ ، منها أن الدكتور إنما استلب هذه الفكرة من الأستاذ (بلاشير) المستشرق ، ولكن (بلاشير) يقول إنه من (المحتمل) أن يكون المتنبى قد اتصل ببعض القرامطة ، ثم (يرجح) أن هذا الاتصال لم يترك أثراً فى حياته وشعره لحداثة سنه . فلما استولى عليها الدكتور طه ، واستبدَّ بها ، وتملكها تملك المالك لما يملك ، تصرف فيها بحقّه وحَقِّ المِلْك ، فجعل (المحتمل) يقيناً لا شك فيه !! وجعل هذا الاتصال الذى لم يترك أثراً فى حياته أو شعره عند (بلاشير) ، اتصالاً كان له أكبر الأثر وأبينُه وأوضحُه / فى ١٥٨/٢ حياة المتنبى !! واستدلَّ على ذلك بأبيات وصفها بأنها (كافية كُلَّ الكفاية لإثبات قرمطية المتنبى) ، على عادته فى سوء فهم الشعر ، وفى التحكُّم والتكَلُّف والتعسُّف والغِلَظ المُفْضِى إلى البغض . ثم استدلّ فى موضع آخر بأبيات لم يحسن فهمها على

(*) نشرت فى جريدة البلاغ ٢٣ من صفر الخير سنة ٤/١٣٥٦ من مايو سنة ١٩٣٧ .

الوجه الذى تقتضيه ألفاظها ، ولا أدرك معانيها على الضرب الذى يجعل الحجة فيها كالقلعة المحصَّنة ، لا يجد النقد فيها عورة ينفذ منها .

ومنها : ما رأيت من تعمُّده أن لا يروى أحاديث الرواة (بنصها) وتمامها ، بل يسقط منها ما يشاء ويبقى ما يشاء ، هذا على أنه يأتى بها بألفاظٍ من عند نفسه ، ليوافق بها الرأى الذى بيَّنه وعَمَد إليه ، ويفعل ذلك علماً منه بأن فى (نصوص الرواة) ما يفسد عليه مذهبه ويُسْقِط قولَه ، وأن فيها من وجوه القول والتأويل ما هو أرجحُ من قوله ، وأهدى وأسدُّ من تأويله .

ومنها : ما فعل فى توقيت القصيدة التى مدح بها المتنبى الرجل المسمى بأبى الفضل . فالرواة مجمعون على أنها قيلت بالكوفة وهو يومئذ فى المكتب ، والدكتور يخالفهم بغير بيّنة من علم مروىّ ، ولا استنباط مرضىّ ، ولا نقد ضعيفٍ أو قوىّ ، ثم يزعم على ذلك أنها مما قاله المتنبى بعد عودته من البادية (القرمطية) المتوهمة ، ثم يُؤَوِّل ألفاظها ويفسّرها على هذا الذى ذهب إليه ، فدلّ بذلك على اللجاجة فى الخطأ والحرص عليه ، وقلَّة البصر بالشعر ، وجهل الأصول المقررة فى تاريخ القرامطة ونشأتهم وأصولِ معتقدهم .

١٥٩/٢ ومنها : أنه لم يذكر نصَّ الرواة فى صفة (أبى الفَضل) هذا ، من إنه / كان من (المتفلسفة) ، ومن أنه كان فى الكوفة ، بل زعم بغير برهان ولا دليل ولا نقد أنه كان من (القرامطة) ، بل من دُعَاتهم ، وأن المتنبى لقيه بالبادية ورجع معه إلى الكوفة !!

هذا بعض ما فعله ، ثم تخَيَّلَ وتَوَهَّمَ واتسع فى الخيال والوهم حتى زعم أن المتنبى (اشتغل) فى الكوفة بنشر الدعوة القرمطية [ص : ٧٣ من كتابه] ، بل زاد على ذلك أن زعم أنه لا يستبعد (بل يرجّح جدًّا !) أن يكون فى بغداد مركز قوىٌّ للدعوة القرمطية ، ذهب إليه المتنبى ، فأدَّى إليه شيئاً ، وتَلَقَّى منه شيئاً ! وترك بغداد قاصداً الجزيرة والشام [ص : ٧٣ من كتابه] ، وأنه حين ذهب إلى الشام ذهب داعيةً من دعاة القرامطة !! [ص :٧٣ من كتابه أيضاً] .

وليس بنا ولا بك حاجةٌ إلى نقدِ هذا الكلام ، فأنت قد رأيت أن (القرمطية) التى يقذف بها المتنبى ، إنما هى كما بينا آنفاً قد بُنِيَتْ على التلفيق والتدليس ، وأقيمت على إفساد النصوص وإسقاطها وتجاهلها ، والتزيُّد فيها بالوهم الكاذب ، أو بإثبات بعضها على وجه غير صحيح ولا أمين ولا ثقة . فإذْ كان أمرها كذلك ، فكل ما يأتى منها وما يخرج وما يتفرع وما يتشعَّب ، فهو تلفيق ولغوٌ وعَبَث وباطلٌ لا أصل له ، لأن الأصل الذى خرجت منه هو ذاك الأصل ... !

والآن ... يزعم هذا الدكتور (أن الرواة حدثوه !!) أنّ المتنبى ارتحل عن الكوفة إلى بغداد فى الخامسة عشرة من عمره ، بعد جلاء القرامطة عن الكوفة ، « وارتحل معه أبوه ! » [ص : ٧١ من كتابه] .

/ ونحن نقطع من قِبَلِنا ، « وعلى مسئوليتنا » ، بأن ليس أحدٌ من الرواة زعم أو قال ١٦٠/٢ إن المتنبى ارتحل إلى بغداد فى الخامسة عشرة من عمره أوّلاً = ولا أنه ارتحل عن الكوفة ثانياً ، ولا أنه حين ارتحل إلى بغداد ارتحل معه أبوه ثالثاً .

فإذا كان الدكتور طه صادقاً فى هذا الذى أتى به ليدلِّس على مذهبه فى (قرمطية) المتنبى ، فهو الصادق !!

ولابُدَّ من القول بأن (الرواة الذين حدَّثوه) إمَّا أن يكونوا قد حدَّثوه عن طريق الوَحْيِ الخَفِيّ ، أو فى حُلُمٍ أو رؤيا رآها بعد ثَقْلةٍ أخذته من طعام شهىّ !!

* * *

ومن هذا الباب ، وعلى هذا الصراط ، وفى مثل هذا الحُلُم ، يزعم الدكتور طه أن المتنبى قال قصيدته التى أولها :

أَهْلاً بِدَارٍ سَبَاكَ أَغْيَدُهَا أَبْعَدُ مَا بَانَ عَنْكَ خُرَّدُهَا

« يمدح رجلاً (رسمياً !) هو محمد بن عبد الله (هكذا فى الأصل) العلوى » ، وأنه قالها (فى بغداد) » ، انتهى ، [ص : ٧٤ من كتابه] .

وقبل أن نتجاوز إلى النقد ، يجب علينا أن نصحح اسم الرجل الذى مدحه فهو : « محمد بن عبيد الله « بالتصغير » العلوى الكوفىّ المعروف بالمشطَّب » ، [1] وقد ذكر المتنبى اسم أبيه على التصغير فقال :

مُرْتَمِيَاتٍ بِنَا إلى آبن عُبَيْـ ـدِ الله غِيطَانُها وفَدْفَدُهَا

١٦١/٢ / وأول ما فى كلام هذا الرجل المعروف الدكتور طه حسين بك أنه زعم أن (محمد ابن عبيد الله العلوى) هذا كان رجلاً (رسمياً !!) ، أى من رجال الحكم وأعوان الدولة وأهل السلطان .... هذا ، على أن الرواة لم يذكروا له فى ديوان أبى الطيب شيئاً يدلُّ على عمل (رسمى أو غير رسمى) ، وقصيدة أبى الطيب نفسُها ليس فيها إشارة إلى ذلك . إذن ، فمن أين أتى الدكتور بهذه (الرتبة) التى خلعها على (محمد بن عبيد الله) ؟؟ أَوَجَد ذلك فى شئ من كتب التراجم أو كتب التاريخ ؟ فإن كان وجده فليظهرنا عليه ، وما هو بفاعل . ونحن على يقين من أن الدكتور إنما وصف هذا الرجل بهذه الصفة اجتراء وتزيُّداً على غير بصرٍ ولا بينة ، ولا أُثارة من علم ، بل للهوى والتدليس على مذهبه ورأيه .

والثانى : أنه زعم أن القصيدة قيلت فى (بغداد) !! وليس أحدٌ من الرواة قال هذا ، ولا فى القصيدة ما يدل عليه ، بل الدليل على نقيضه كما سترى ، ولا فى المكان الذى ذكر فيه (محمد بن عبيد الله العلوى) ، ما يُوجِّه الرأى إلى ذلك كما سترى . [2]

قال العكبرى فى شرحه ج ١ ص : ١٩٠ عند قول أبى الطيب :

يَالَيْتَ بِى ضَرْبَةً أُتِيحَ لَهَا كما أُتِيحَتْ لَهُ مُحَمَّدُهَا

---

(١) انظر ما سلف من كتابنا هذا ص : ١٥٢ ، والتعليق : ١ ، ففيه بيان كافٍ ، ثم ص ١٦٨ ، والتعليق رقم : ٢ .

(٢) تبين أن الذى قاله الدكتور طه من أنَّ « محمد بن عبيد الله » رجل رسميٌّ ببغداد ليس من اجتهاده ، بل هو مأخوذ كُلُّه من تخاليط الأستاذ بلاشير ، وقد بينت ذلك فيما سلف ص : ١٦٨ ، تعليق : ٢ .

« كان محمد بن عبيد الله هذا الممدوح قد واقع قوماً من العرب بظاهر الكوفة ، وهو شاب دون العشرين سنة ، فقتل منهم جماعة ، وجُرِح فى وجهه ، فكسته الضربة حُسْناً ، فتمنى أبو الطيب مثل ضربته ، فهذا ما سمعته من جماعة من مشيخة بلدنا » ، انتهى .

/ فلو جاءنا الدكتور ببعض تُرَّهاته ، (١) فزعم أن قتال هذا العلوى دليلٌ على أنه كان رجلاً (رسمياً) ، وما نظنه إلا أُتِىَ من هذا الفهم السيء ، فالمتنبى نفسه قد قاتل فى آخر عمره قوماً من العرب بظاهر الكوفة أيضاً ، فهل كان المتنبى إذ ذاك رجلاً (رسمياً !!) ؟ هذه واحدة . والثانية أن هذه الرواية تدلّ دلالةً واضحة بينة لكل ذى عينين ، أن الوقعة كانت بظاهر الكوفة ، فهل يكون المعقول مدح المتنبى ببغداد أم بالكوفة ؟ وهل يتوهم أحدٌ أن يترك المتنبى الكوفة ، ويقطع الأرضين إلى بغداد ، ليمدح بعد غدٍ من كان قريباً منه بالأمس ؟ والرواية تقول إن (محمداً) هذا كان فتى دون العشرين سنة ، فما نظن أن هذا الفتى كان قد بلغ أن يكون رجلاً (رسميًّا) ، كما ادعى الدكتور طه !! ثم ما هو العمل (الرسمىّ) الذى كان عليه محمد بن عبيد الله هذا ببغداد ؟ فإن الرجل العالم لا يحلُّ له أن يقول ما لم تأت به رواية صريحة ، إلا بدليل مستنبط ظاهر الحجة قريب البرهان ، وإلا كان ما يقوله اجتراءً على التاريخ .

١٦٢/٢

هذا على أنه ليس فى الرواة من روى أن المتنبى قد فارق الكوفة ورحل عنها على إثْر حرب من حروب القرامطة ، ولا على إثْر قتال كهذا القتال الذى كان من (محمد بن عبيد الله العلوى) ، حتى يحل لكاتب مؤرخ أن يتّجه بالرأى إلى هذا الوجه خلافاً للرواية ، ومناقضة للاستنباط الصحيح من ألفاظ القصيدة كما سيأتى ، وحتى يتسع فى أمره فيكون للرأى موضعٌ وللحجة مجَالٌ . والمسألة كلها فى رحلة المتنبى إلى بغداد ، هى أن البديعىّ قد روى فى كتابه أن / المتنبى قال : « أذكر وقد وردت فى صباى من الكوفة إلى بغداد .... » ، وذكر حديثاً لا يمتُّ إلى الحرب بصلة . أفيحل أن يكون ذلك الذى

١٦٣/٢

(١) أستغفر الله ، إنما هى ترهات المستشرق بلاشير ، ادّعى ملكيتها الدكتور طه ، كما سلف قريباً .

قاله الدكتور طه تأويلاً لهذه الكلمة ، أو أن يكون استنباطاً صحيحاً يربط تاريخ أبى الطيب على هذا الوجه ؟ هذا كثير ، بل قبيح ، بل غليظٌ جدًا يا سيدى الدكتور .

ونتعجل فنضمُّ الشكل إلى شكله . فالدكتور يقول ويعترف فى [ص : ٨٦ ، من كتابه] أنه لا يرى فى هذه القصيدة = التى يزعم أن المتنبى قد قالها بعد عودته من البادية (القرمطية) ورحلته إلى بغداد = « مذهبَ القرامطة ، ولا إشارة إلى مذهب الحلول » . وهذا صحيح فليس فى القصيدة إشارة إلى ذلك ، بل إنها عندنا دليل على فساد مذهب الدكتور فى (قرمطية) المتنبى . فالأشبهُ والأقربُ والأجدرُ بالاستنباط أن يكون هؤلاء القوم الذين حاربهم (محمد بن عبيد الله العلوى) هم جماعة من القرامطة . فأنت تعلم — كما قال الدكتور طه — أن القرامطة كانوا قد أكثروا الغارة على الكوفة ، والرواة والمؤرخون قد أكثروا من رواية غاراتهم عليها ، فليس ببعيد ولا مستنكر أن يكون هؤلاء من القرامطة ، وأن يكون المتنبى قد مدح (محمداً) لأنّه ردَّ القرامطة عن الكوفة ، وطنِه ووطنِ أهله . وعلى ذلك يكون المتنبى من أعداء القرامطة والناقمين على أفاعيلهم . وصلة المتنبى بالحمدانيين تقرِّب هذا الرأى ، فقد كانوا من أعداء القرامطة ، وقد قاتلهم أبو الهيجاء بن حمدان عم سيف الدولة فى سنة ٣١٥ مع يوسف بن أبى الساج . ثم إنهم رووا أنه قد جرى حديثُ / وَقْعَةِ ابن أبى السَّاج هذا مع أبى طاهر القرمطىّ صاحب الأَحْسَاء فى مجلس أبى محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج ، فذكر المتنبى ما كان فيها من القتل = وكان القرمطىّ قد قتل من جيش ابن أبى الساج وجيش ابن حمدان مقتلة عظيمة = فهالَ ذلك بعض الجلساء ، فقال المتنبى : ١٦٤/٢

أَبَاعِثَ كلِّ مَكْرُمَةٍ طَمُوحِ ... وفَارِسَ كلِّ سَلْهَبةٍ سَبُوحِ
وطَاعِنَ كُلِّ نَجْلاَءٍ غَمُوسٍ ... وعَاصِىَ كُلِّ عَذَّالٍ نَصِيحِ
سَقَانِى اللهُ قَبْلَ المَوْتِ يَوْماً ... دَمَ (الأَعْدَاءِ) مِنْ جَوْفِ الجُرُوحِ

و (الأعداء) هنا هم القرامطة ، وقد كان بنو طغج من الذين قاتلوا القرامطة وردُّوهم وكرهوا أمرهم أشد الكره . وقد أخطأ الدكتور طه فى الفصل السادس من

الكتاب الثانى [ص : ٢٨٠] ، ففهم أن هذه الأبيات « تدلُّ على أنه لم يَصْدِفْ عن (القرمطية) إلا كارهاً » ، مع أن أمرها على العكس ، فهى دليل على بغض المتنبى للقرامطة .

* * *

وندع هذا ، ففى حديث الدكتور طه عن هذه القصيدة ، التى مدح بها المتنبى (محمد بن عبيد الله العلوى) ، عجائب من الكلام الذى يدلك على أنه ليس ذا بَصَرٍ بالشعر ، ولا صاحبَ قوة فى الفهم ، ولا ربَّ طريقة فى الاستنباط . وقد استأنف القول فيها من [ص : ٨٠ من كتابه] ، وجعل يخلط بكلامٍ محمومٍ حتى بلغ [ص : ٨٣] ، إذ يقول عن بيتى المتنبى :

/ لاَ نَاقَتِى تَقْبَلُ الرَّدِيفَ ، وَلاَ بالسَّوْطِ يَوْمَ الرِّهَانِ أُجْهِدُهَا ١٦٥/٢

شِرَاكُها كُورُها ، ومِشْفَرُهَا زِمَامُها ، والشُّسُوع مِقْوَدُهَا

« هذه المحاولة التى أراد بها الشاعر أن يظهر شيئاً من الجهد حين وصف نعله ... ليست مبتكرة ، وإنما هى إطناب وتفصيل ، حيث آثر أبو نُوَاس الإجمالَ والإيجاز فى قوله :

إليكَ أَبَا العبَّاسِ مِنْ دُونِ مَنْ مَشَى عَلَيها ، امْتَطَيْنَا الحَضْرَمِىَّ المُلَسَّنَا

ويقول الدكتور تعقيباً على هذا فى ص : ٨٤ : « وإذا كانت هذه المحاولة تقليداً صرفاً من الجهة الفنية الخالصة ، فإن لها دلالتها القيمة من الجهة التاريخية ، لأنها على الأقلِّ تنبئنا بأن الشاعر الفتى لم يسافر من الكوفة إلى (بغداد) راكباً ، وإنما ذهب إليها راجلاً » .

وهذا الاستنباط الذى يَتَعالَمُ به الدكتور طه ليس بشىء ، وإنما هو استنباط (موضعىّ) لا غَناءَ فيه ، ولعله اختلسه من قول ابن رشيق فى العمدة [١ ص : ٢٠٠ – ٢٠١] ، إذْ ذكر بيت أبى نواس وبيتى أبى الطيب ثم قال : « ولو شاء قائل أن يقول إن أبا

نواس لم يردْ ما ذهب إليه أبو الطيب ، لكن أراد أنه معه فى بلدة واحدة فقصده فى حاجته محتذياً نَعْلَه ، لكان ذلك أظهر وجهاً ، ما لم يكن الحضرمىُّ من الجلود مخصوصاً به المسافر دون الحاضر ، وظاهر الكلام أن مقصد الشاعرين واحد » .

١٦٦/٢ / ولو اتبعنا طريقة الدكتور فى هذا الاستنباط (الموضعىّ) من بيتين فحسب ، لكان كلام ابنُ رشيق عن توجيه بيت أبى نواس هو هو فى توجيه بيتَىْ أبى الطيب ، فليس ثمة ما يمنع أن يكون أبو الطيب قد قال ذلك القول (تقليداً صرفاً) من جهة ، أو أن يكون قاله فى الكوفة نفسها ، وتكذُّب تكذُّب الشعراء ليستجدى كفَّ ممدوحه ، إذ يزعم له أنه قاسى هَوْلاً ولَقِى عظيماً ، تعظيماً لأمر الذى يمدحه = أو على عادة بعض الشعراء فى التمدح بالصَّعلكة والرِّحلة ، كما قال ابن رشيق فى هذا الباب نفسه .

أما إذا حملنا قول أبى الطيب على الصدق ، وأنه قد خرج حقاً من الكوفة راجلاً قاصداً (محمد بن عبيد الله العلوى) ، فالاستنباط على غير ما ذهب إليه الدكتور الذى لا بَصَر له بالشعر ، ولا قدرة له على الاستنباط . يقول المتنبى :

لا نَاقَتِى تَقْبَلُ الرَّدِيفَ ، ولا بالسَّوْطِ يَوْمَ الرِّهَانِ أُجْهِدُهَا [١]

شِرَاكُهَا كُورُها ، ومِشْفَرُهَا زِمَامُها ، والشُّسُوعُ مِقْوَدُهَا [٢]

أَشَدُّ عَصْفِ الرِّيَاحِ يَسْبِقُه تَحْتِىَ مِنْ خَطْوِها ، تأيُّدُهَا [٣]

---

(١) « الرديف » ، هو الرجل يركب خلف راكب الناقة .

(٢) « الشراك » ، أحد سيور النعل تكون على وجهها . و « الكور » ، هو رَحْلُ الناقة بأدواته ، مثل السرج للفرس . و « المشفر » ما يقع على ظهر الرجل من مقدَّم الشراك ، جعله بمنزلة الزمام للناقة تُزمُّ به . و « الشسعُ » أحد سيور النعل ، يُدْخَل بين الإصبعين ، ويدخل طرفهُ فى النَّقْب الذى فى صدر النعل المشدود فى زمام النعل . و « مقود الناقة » ، الحبل الذى يشد فى الزمام أو اللجام تقاد به ، و « زمام الناقة يكون فى الأنف ، و « زمام النعل » الذى يشد به الشسع .

(٣) « التأيُّد » ، اختلف الشراح فى تصريفه وتوجيهه ، والمراد هنا تأنِّيها أسرع من عصف الرياح .

فى مِثْلِ ظَهْرِ المِجَنِّ مُتَّصِلٌ بمثل بَطْنِ المِجَنِّ قَرْدَدُهَا (١)

مُرْتَمِيَاتٍ بِنَا إلى ابن عُبَيْـ ـدِ الله غِيطَانُهـا وَفَدْفَدُهَا

فالمتنبى يذكر أنه قد (ركب) نعله ماشياً فقطع أرضاً وصفها بالبيتين الأخيرين ، إذ يقول إنها (كظهر المِجَنِّ) ، منبترة مرتفعة غليظة ، ويعنى بها / التلال ، وهى متصلة بأرض (كبطنِ المجَن) ، منخفضة كثيرة الحصا والحجارة ، و « القَرْدَدُ » مُرْتَفَعٌ من الأرض إلى جانب وَهْدَةٍ منخفضة ، وهى وهْدَةٌ غليظة ، كلفظها . ١٦٧/٢

وقد قال الرواة إن (القَراديد) قلما تكون إلا فى بَسْطَةٍ من الأرض ، وفيما اتسع منها ، فترى لها مَتْناً مُشْرِفاً عليها (غليظاً) ، لا يُنْبِت إلا قليلاً ، وبه شبهوا (قُرْدُودة) الظهر ، وهى ما نسميه (سلسلة الفقار) ، لغلظها وارتفاعها وانخفاضها . ثم ذكر من صفة هذه الأرض فى البيت الأخير ، أنها (غِيطَان وفَدْفَدٌ) ، و « الغيطان » هو جمع « غائط » ، وهو المتّسع المطمئن المنخفض من الأرض فى البوادى ، لا فى السواد والأرض المزروعة .

يقول الشاعر يصف « خَرْقاً » ، وهى الفلاة الواسعة :

وَخَـرْقٍ تَحَـدَّثُ غِيطَانُـه حَديثَ العَذَارَى بِأَسْرَارِهَا

ثم ذكر (الفَدْفَد) ، وهى الفلاة التى لا شئ بها ولا نبات ، وأرضها غليظة ذاتُ حصًى وفيها صَلابة .

فما الذى يستنبطه القارئ من صفة هذه الأرض التى قطعها المتنبى بعد شرح هذه الألفاظ ؟ أليس أن الأرض التى قطعها المتنبى ماشياً هى بادية قاسية جافية وعرة المسالك ، قليلة النبت ؟ فهذه صفة الأرض التى تحيط بالكوفة ، فإن الكوفة يدور عليها

---

(١) « المجنّ » ، التُّرس الذى يستتر به المحارب ، وهو أملس مرتفع الوسط ، ويأتى فى الكلام شرح بقية الألفاظ .

جَبَلُ (ساتِيدَما) ، وظاهرها أرض صَلبة فى غربها ، إذ تقع الكوفة على شاطىء الفراتِ من ناحية الشرق ، وأما غربها وهو / (ظاهرها) ففى قلب بادية الغرب التى تفضى إلى نجد . ١٦٨/٢ فَمِنْ هذا لا يجد من يفهم أو يعقل مَحِيصاً من القول بأن المتنبى قد خرج من الكوفة قاصداً محمد بن عبيد الله العلوى فى البادية حيث (واقع قوماً من العرب بظاهر الكوفة) ، كما قالت الرواية فيما قدمنا آنفاً .

أما الطريق إلى بغداد فهو ما ترى . فالكوفة واقعة على الشاطىء الغربى من الفرات ، وبغداد واقعة على الشاطىء الشرقى من دجلة ، فالمتنبى لو كان قد ذهب إلى بغداد لركب البحر أوَّلاً حتى يصل إلى شاطىء الفرات الشرقى ، ثم يقطع أرضاً سهلةً كثيرة النبت هى الواقعة بين النهرين (دجلة والفرات) ، ثم يركب البحر مرَّة أخرى من شاطىء دجلة الغربى حتى يبلغ الشاطىء الشرقى الذى عليه بغداد . فهل ترى أن ذكر رُكوب البحر مرَّتين قد ورد فى شعر المتنبى ؟ وهل رأيت الفرق بين أرض سَهْلة ، فى حِضْن نهرين ، كثيرة النبات ، وبَيْن فلاةٍ قاسية كثيرة الحصا ذات (قَرْدَدٍ وغيطانٍ وفَدَافِد) لا نبات فيها ، هى التى وصفها المتنبى فى شعره ؟ وهل يصح بعد هذا لقائلٍ أن يقول : إن المتنبى ارتحل إلى بغداد راجلاً !؟ (١)

إن الدكتور طه ، كما نقول ونكرِّرُ ونُبْدِىءُ ونُعِيد ، رجل لا بَصَر له بالشعر ، ولا قُدْرة له على الاستنباط ، وليس الأدب من عمله ، ولا الكتابة فيه مما يحسن . فإن أخذتك بعد هذا عدوى الشكّ الذى لا أصل له من الدكتور طه ، فٱعلم أن الدكتور قد ترك من هذه القصيدة كثيراً لم يتعرض / له ، لأنَّه مما يهدِمُ رأيه هَدْماً . خذ إليك ما يقوله ١٦٩/٢ المتنبى على إثر الأبيات التى ذكرناها :

---

(١) الذى أوقع الدكتور طه فى هذا كله ، هو الأعجمى الألكن ، الأستاذ بلاشير ، كما أشرت إليه آنفاً . وهذا عيب الاستسلام إلى هؤلاء الأعاجم ، لا فضلَ لهم إلا قبح التوريط فى الخطأ .

إلى فَتَى يُصْدِرُ الرِّمَاحَ وَقَدْ أَنْهَلَهَا فى القُلُوبِ مُورِدُهَا
له أيادٍ إلىَّ (سَالِفَةٌ) ، أُعُدُّ مِنْهـا وَلاَ أُعَدِّدُهَـا

ثم يقول فى آخر القصيدة :

وَكَمْ وَكَمْ نِعْمَةٍ مُجَلِّلةٍ ، رَبَّيْتُها ، كَانَ مِنْكَ مَوْلِدُهَا
وَكَمْ وَكَمْ حَاجَةٍ سَمَحْتَ بِهَا ، أقربُ مِنِّى إلىَّ مَوْعِدُهَـا
وَمَكْرُمَاتٍ مَشَتْ على قَدَمِ الـ ـبِرِّ ، إلى مَنْزِلِى تَرَدُّدُهَـا
أَقَرَّ جِلْدِى بها علىَّ ، فَلاَ أَقْدِرُ ، حتَّى المَمَاتِ ، أَجحدُهَا
فعُدْ بِهَا ، لاَ عَدِمْتُهَا أبداً ، خيرُ صِلاتِ الكَرِيمِ أَعْوَدُهَا

فتأمل قوله : « له أياد إلى سالفة » ، أى أنه كان يكرمه قبلُ بعطاياه ، ثم تأمل قوله : « وكم وكم .... » إلخ ، فكل ذلك دليل على الذى سبق إلى المتنبى من كرم (محمد بن عبيد الله العلوى الكوفى) ، وليس يكون شئ من ذلك إلا أن يكون هذا الرجل من أهل الكوفة الذين عاشرهم المتنبى ، ونال من فواضلهم ، كما بينا ذلك فى كتابنا هذا [ص : ١٥٢ ، ١٥٣] .

***

كفى هذا ، بل لابُدَّ من إظهارك على ضَرْب من فقدان الدكتور طه البَصَر بالشعر إذ يقول : إن فى هذه القصيدة ما يدل على أن المتنبى كان لا يزال فى حاجة إلى ممارسة قولِ الشعر وتصريفِ الكلام : « وذلك حين أراد أن / يذكر الضَّربة التى تلقَّاها ممدوحه فى وقعة من الوقعات !! (تأمل هذا ، وعُدْ إلى ما مضى) ، فزعم أن هذه الضربة شرَّفت ممدوحه ولم تلحق به ضَرَراً ولا أذًى » ، [ص : ٨٥ ، من كتابه] . ١٧٠/٢

والدكتور يعنى قول المتنبى :

يَا لَيْت بِى ضَرْبَةً أُتِيح لها كما أُتِيحَتْ لَهُ مُحَمَّدُهـا

أَثَّرَ فيهَا وفى الحَدِيدِ ، وما أَثَّـرَ فى وجْهِـه مُهَنَّدُهـا

(فاغتَبطَتْ إذْ رَأَتْ تَزَيُّنَهَا بمثله ، والجراحُ تَحْمَدُهَا)

فالمتنبى يقول فى البيت الأخير أن الجراحَ هى التى شَرُفت وعظمت وتزينت بحدوثها لممدوحه ، والدكتور يزعم لك أن المتنبى يقول : إن الممدوح هو الذى شرَّف ... إلى آخر ما أتى به من كلام الأحلام .

وبهذا الضرب من الفهم ، وهذا النوع من البصر بالشعر ، وبهذه الأمانة التى ثقلت فى السموات والأرض ، نختم نقد الفصل الخامس من كتاب الدكتور طه . وما بقَى فى هذا الفصل مما لم نعرض له ، فالقارىء بعد الذى كتبناه أَمْلَكُ له وأهدى فيه .

وللسبت المقبل نَقْدُ ما يلى ذلك من كلام مولانا العالم البصير المتثبِّت .

* * *

– ١٢ –

/ أما الفصل السادس من كتاب الدكتور طه ، فهو الذى يسوِّد صفحات كتابه ١٧١/٢
من ص : ٩٢ إلى ص : ٩٨ ، يقول فى فاتحته : « وأول مسألة تعرض لنا فى هذا الطريق ، مسألة « تاريخية » بالطبع ، أو مسألتان تاريخيتان ، فمتى ارتحل المتنبى عن بغداد قاصداً إلى الشام ؟ وهل من سبيل إلى توقيت القصائد التى قالها فى الشام ، قبل أن تنتهى به الحوادث إلى السجن ؟ » [ص : ٩٢ من كتابه] .

***

وأمَّا أول ما يتساءل عنه الدكتور ، وهو : متى ارتحل المتنبى عن بغداد قاصداً إلى الشام ؟ فهو سؤال من الباطل بحيث علمت ، مما قدمناه فى الكلمة السالفة ، إذ قلنا إن وَضْع رحلة المتنبى إلى بغداد على مذهب الدكتور ، إنما أتاه من قِبَلِ أنه لم يفهم الشعر الذى استنبط منه حقيقة هذا الرأى ، وقد رحل المتنبى إلى بغداد ولا شك فى بعض أيامه ، [1] ولكنه لم يرحل إليها مادحاً (محمد بن عبيد الله العلوى الكوفى) = بل كانت رحلته لمدحه من الكوفة إلى ظاهر الكوفة فى البادية ، حيث كان محمد يقاتِلُ جماعة من العرب أو من القرامطة ، على ما ذهبنا إليه .

وإذا أنت انطلقت مع الدكتور فى قراءة كلامه عن هذه المسألة ، رأيت / فيها ١٧٢/٢
من الرأى ما تعرف وما تنكر ، من مثل قوله : إنه يخالف الأستاذ (بلاشير) فى إقامة

(*) نشرت فى جريدة البلاغ غرّة ربيع الأول سنة ١١/١٣٥٦ من مايو سنة ١٩٣٧ .

(١) انظر ما سلف : ٦٥ ، ٦٦ ، ثم ص : ١٩٢ ، والفهارس (بغداد) .

المتنبى ببغداد ، وأنه – أعنى الدكتور – يرجح أن إقامته بها لم تطل ، وأنه لم يكن آمناً فى بغداد ، كما لم يكن آمناً فى الكوفة ، وأنه لم يختلف إلى مجالس العلماء ، ولا إلى أندية الأدب ، ولم يتصل بأحد من الأشخاص الظاهرين إلا محمد بن عبد الله (هكذا) العلوى ، (١) الذى مدحه بالقصيدة التى فرغ من تحليلها (كما يتوهم) آنفاً ، [ص : ٩٢ ، ٩٣ ، من كتابه] .

ولقد تعلم أن هذا كلّه باطل ، لأن الأصل الذى بُنِىَ عليه باطل . وقد قدَّمنا فى كلامنا الدليلَ على بطلان الأصل ، فلا نصدّع أنفسنا بالعودة إليه والإفاضة فيه ، فإن ذلك تعب فى غير طائل ، كما كان رأى الدكتور نفسه تعباً فى غير طائل .

ومن أعجب الأباطيل التى يتردَّى فى مهاويها الدكتور طه ، فيأتى بالدعوى الموضوعة المتكذَّبة مجترئاً متهجماً غير متهيّب من نقد ، ولا متحرِّج من إثم ، ما يقول فى ص : ٩٣ : « وأكبر الظن أن خوف المتنبى واحتياطَه هما اللذان حملاه على أن يخفى (اسمه ونسبه) ، إن كان له نسب ، على القبائل التى كان ينتقل بينها أثناء رحلته » ، انتهى . وحقًّا قالت الرواة إن المتنبى كان (يكتم نسبه) ، فما فى ذلك شك ، ولكن من أين أتى الدكتور طه بقوله إن المتنبى كان يخفى (آسمه) ؟ وأى امرئ من الرواة زعم له ذلك أو حدَّثه به وأوحى إليه : أن المتنبى فى هذه الرحلة بعينها ، كان قد خرج خائفاً يترقَّب ، [ص : ٩٣ من كتابه] ، حتى يلجأ إلى مثل هذا الفعل ؟ إنه ليس أهونَ على الدكتور / طه من أن يقول القول يدَّعيه مُسْتَأْنَفاً غير مسبوق إليه ، ثم يضمُّه إلى هذه الفقرات التى يتقمَّمُها من هنا ومن ثَمَّ ، لينشئ فى كلامه معنى التاريخ ، وإن كان التاريخ ليتبرّأُ منه براءَة الذئب من دم آبن يعقوب .. !! ١٧٣/٢

* * *

(١) انظر ما سلف ص : ٦٥ ، ٦٦ ، ودخوله على إمام اللغة « ابن دريد » ، وانظر اجتراء الدكتور طه على ما لا يعلم بالنفى والإثبات . فهذا يضاف أيضاً إلى وجوه بطلان قول الدكتور طه .

أمّا المسألة الثانية ، وهى : هل من سبيل إلى توقيت القصائد التى قالها المتنبى فى الشام قبل أن تنتهى به الحوادث إلى السجن ؟ ، فهى المسألة على الحقيقة . وليس بفخرٍ أن نقول إننا كنّا أوّل من تنبّه إلى توقيتها ، وجعلها من مادة التاريخ . وقد قلنا فى ذيل [ص : ١٥٢ من كتابنا هذا] : « آعلم أننا نجتهد فى تاريخ ما لم يؤرَّخ من قصائد المتنبى = وقد وجدنا فى ذلك المشقَّةَ وما فوقها = لنترجم للرجل على بينة وهُدًى ، وستجد فائدة ذلك فى كثير مما يمرُّ بك إن شاء الله » .

وكل من قرأ كتابنا عرف الذى أتينا به من ذلك ، لا بل إن الدكتور طه حسين بك نفسه فى أول لقاء لى معه فى يوم من أيام أسبوع المتنبى بالجمعية الجغرافية وَقَف إلىَّ يثنى على كتابى بما أستحى أن أردِّده فى هذا المكان من كلامى ، ثم اعترَف بأن أحدًا لم يسبقنى إلى توقيت قصائد المتنبى هذه ، وأنه قد رَضِى كل الرضا ، أو كما قال ، عن الذى تدرَّجت فيه من بيان رحلته حين مخرجه إلى الشام ، وأن هذا الترتيب الذى اهتديتُ إليه هو الترتيبُ .. إلى آخر كلامه الذى أذكره ولا أنساه له . (١) وسترى فيما يلى أن الدكتور طه هذا العبقرى ، لم يزد فى كلامه الذى أفضى به إلى الناس عن رحلة المتنبى — شيئاً ليس فى كلامنا الذى لم نُسْبَقْ إليه .

/ ومع ذلك يزعم الدكتور طه فى [ص : ٩٤ من كتابه] : « أنّ توقيت هذه القصائد إن لم يكن ممكناً كله ، فليس مستحيلاً كله » = وهذه العبارة هى ترجمة عملنا ، بعد أن فرغنا من سَرْدِ رحلة المتنبى = : « هذا موجز رحلته الأُولى بالشأم ، وتفصيلها غير مُيَسَّر بعد لغُموضها ونقصها ، ولهذه الرحلة تفسير آخر سنعرضه بعدُ » ، انتهى . [انظر ما سلف من كتابنا هذا ص : ١٩٨] . ١٧٤/٢

ثم زعم الدكتور بعقب ذلك أن له (هو !!) « إلى ذلك التوقيت طريقتين : فأمّا أُولاهما فتتصل بنفس الشاعر ، وأما ثانيتهما فتتصل بطريق الشاعر حين اضطرابه فى بلاد الشام . فأما الطريقة الأولى ، وهى الطريقة النفسية ، إنْ صحَّ هذا التعبير ، فإنّى أَستنبطها

(١) انظر ما سلف من كتابنا هذا ص : ١٠٣ ، والتعليق : ١ .

من طبيعة الحياة العقلية والشعورية التى كان يحياها المتنبى قبل أن تُلِمَّ به الكارثة ، فقد رأيناه قرمطىَّ الهَوى فى الكوفة لا يتحفظ ولا يحتاط ، ورأيناه شيعياً فى بغداد ومتحرِّجاً يصطنع الحذر ، ورأينا أنه فى أكبر الظن إنّما سافر بقرمطيَّته إلى الشام ليدعو إليها هناك . وإذن فلابد أن يمتاز شعر المتنبى فى هذا الطَّور من حياته بشيئين : أحدهما آراء قرمطية تظهر فى هذا الشعر ... والثانى تحفظ واحتياط يدفع الشاعر إلى أن يخفى آراءه ما استطاع إذا خاف أو شَكَّ .. فإذا استطعنا أن نتبين هاتين الخَلَّتين فى طائفة من قصائد المتنبى ، فأكبر الظن أن هذه القصائد قد قيلت فى هذا الطور » ، انتهى ، والحمد لله كثيراً !

وهذا ضرب من الخَطَل فى الرأى لا ينتصب للمدافعة عنه والمنابذة دونه ، أو لا يَقِفُ جهده على العمل به والتصرف فيه ، إلاَّ مَنْ كان فى مثل بادرة الدكتور / العبقرى وتدفعه واندلاقه ، مجترئاً على الحق ، وإن أَلْغَى باب المنطق أو أغلقه = ومُتهجِّماً على الحكم ، وإن أبطل عمل العقل . وإلاّ فأىُّ امرىء فى هذه الدنيا التى ابتلينا بممارستها والتصرف فيها ، يستبيح لنفسه أن يستنبط شيئاً من كلام ، ويستخرج من هذا الاستنباط معنى يقيمه صِفَةً على صاحبه ، ثم يجعل هذا هو السبيل إلى تحديد معانى الكلام نفسه أو توقيته أو تاريخه ؟!

١٧٥/٢

وبيان ذلك أن الاستنباط الذى يكون من القوة بحيث يُثْبِت صفةً أو يقرّر رأياً ، أو يستحدث معنًى لم يكن ، ليس إليه سبيل إلاّ بعد الفراغ من الترتيب ، والترتيب يقتضى التعاقب ، والتعاقب هو توقيت الكلام فى مواقيته وتحديده فى حدوده . فالدكتور قد استنبط من شعر المتنبى - على ما فيه من الخطأ - أنه كان قرمطىَّ الهوى فى صباه من سنة كذا إلى سنة كذا ، فكيف يجعل هذا الرأى نفسه هو السبيلَ إلى التوقيت ؟ وكيف يتم له العمل به فى تفصيل هذا التاريخ ؟ هذا ما لا نعلمه . والدكتور لعلمه بفساد هذا المذهب ، لم يستطع أن يطبِّقه فى شىء مما أَتَى به البتّة ، بل لقد شهد أنه « أكثر اعتماداً على الطريقة الثانية الجغرافية ، منه على هذه الطريقة الأولى النفسية » ، وما ذلك إلاّ لأنه

تكلم فى قضية قديمة جادلتُهُ عليها ، ولم يعرف يومئذٍ ما وراءها ، وإنما هو كلام يقال (والسَّلام) !!

أما الطريقة الثانية التى (يصطنعها) الدكتور طه ، وهى الطريقة الجغرافية ، فيقول فى بيانها فى [ص : ٩٥ من كتابه] : « فالظاهر أن المتنبى قد خرج من / بغداد متابعاً ١٧٦/٢ طريق الجزيرة ، حتى انتهى إليها فأقام فيها وفى شمال الشام دَهْراً ، ينتقل بين القبائل البادية ، وبين المتحضرين فى المدن ، يمدح الرؤساء وسَراةَ الناس ، كما يمدح أوساطهم وفقراءهم أيضاً » = ثم يدعى هذه الدعوى الباطلة : « وهو فى أثناء هذا كله يمتحن أولئك وهؤلاء ليتبيَّن استعدادهم للقرمطية ، وتهيؤهم للخروج على السلطان العباسى » إلى آخر كلامه = ثم يقول : إنك إذا قرأت القسم الأول من ديوان المتنبى رأيته ينقسم إلى ثلاثة أقسام جغرافية :

« القسم الأول : قيل فى الجزيرة وشمال الشام = والقسم الثانى قيل فى اللاذقية ، وهو موقوفٌ على التنوخيين = والقسم الثالث فى طرابلس » ، [ص : ٩٦ من كتابه] . ويخيل إلى الدكتور أن المتنبى قد جاء سوريّة من شَمالها ، ثم مضى فأقام فى طرابلس حيناً (قصيراً) = تأمل هذا = ثم انحرف إلى اللاذقية فأطال فيها المقام ، ثم انصرف عنها إلى طبرية ، فأقام قليلاً ، ثم عاد إلى اللاذقية ، ثم تركها إلى البادية غير بعيد من حمص ، فلم يكد يعلن الدعوة إلى الثورة حتى أُخِذَ وأُلقى فى السجن » ، [ص : ٩٧ من كتابه] . ومهما يكن من شئ !! فهو يفترض أن المتنبى قد سلك هذه الطريق التى رسمها ، وإذن فسيسلك هذه الطريق نفسها فى درس شعره فى هذا الطور على النحو الآتى : (١) شعره فى سورية الشمالية (٢) شعره فى طرابلس (٣) شعره فى اللاذقية (٤) شعرهُ حين كان يستعد للثورة فى البادية (٥) وأخيراً شعره فى السجن » ، [ص : ٩٨ من كتابه] ، انتهى كلامه حفظه الله .

* * *

١٧٧/٢ / هذا ما قاله الدكتور طه . وانظر الآن ما قلناه فى [ص : ١٩٨] من كتابنا هذا ، ثم قارن بينهما واحكم بما شئت :

« خرج الفتى من الكوفة واتخذ طريقه = على ما وقع عندنا من الرأى = من الكوفة إلى بغداد ، ثم (خرج لوقته !!) متَّخذًا طريقه فى ديار ربيعة بين النهرين ، إلى نَصيبين ، ورأس عين ، وحَرَّان ، ومَنْبِج ، وطفق ينتقل بين القبائل فى جوف البَوادى حتى انقضى به المسير إلى الشام فى سنة ٣٢١ ، فنزل بدمشق وأعمالها وما يدانيها (أعنى بعلبك وطرابلس وحمص) ، ثم كره الأرض التى نزلها ، ثم صَعَّد سَنَنَهُ إلى منبج ، وحلب ، واللاذقية ، وأنطاكية ، ومدح بها من مدح ، ثم اعتقل بحمص ، لِمَا قالوا به من آدِّعائه العلوية ، ثم النبوة ، ثم العلوية ، ثمّ استُتِيب وأشْهِد عليه بالكذب فيما ادَّعى ، ثم تابَ وأُطلِقَ . هذا موجز رحلته الأُولى بالشام ، وتفصيلها غير ميسَّر بعد لغموضها ونقصها . ولهذه الرحلة عندنا تفسير آخر سنعرضه بعد » .

هذا ما قلناه : ولعلك رأيت ما فيه مما (يشبه) كلام الدكتور طه ، هذا العبقرى ، ولعلك فَطَنْتَ إلى أن الدكتور طه كما قدمنا يزعم أنه يخالف الأستاذ (بلاشير) فى إقامة المتنبى ببغداد ، وأنه (أى الدكتور) يرجح أن المتنبى لم يطل الإقامة ببغداد = ونحن نقول ، كما رأيت ، أن المتنبى خرج من بغداد (لوقته) . ونحن لا نحب أن نحرج الدكتور طه فنلجئه إلى مأزق ضَنْكٍ يلتزمه لا يتقلقل فيه إلاّ على أذًى يدركه ، أو جائحة تناله ، إذ نطلب إليه أن / يعرض علينا شعر المتنبى ليستخرج منه كل هذا الذى قال به فى التقسيم الجغرافى ، وهو نفسه قد تجنَّب ذلك فى كتابه . ولو قد كان يطيقه ، أو يصبرُ عليه ، أو يُسَوَّغ القدرة على التصرف فيه ، لما كان أحجم على القول فى ذلك استكثاراً وتضخيماً وتفخيماً لكتابه ، وتلبُّساً بالفهم ، وتظاهراً بأداة العلم ... ولكنه قد وَسِعه أن يَدَعَ ذلك ، لأنه لا يسعه أن يقول فيه بمثل الذى قاله فى نسب المتنبى أو قرمطيَّته من الحشو اللفظى الرائق المعجب الذى استكثر به وتجمَّل . والمسألة كلها أن الدكتور أخذ الذى كتبناه فى ترتيب رحلة المتنبى ، فقدَّم له بهذه المقدمة المنطقية ، ليُرِىَ قارئ كلامه ١٧٨/٢

أنه قرأ أو تدبَّر وفكَّر وأجهد تلافيف دماغه ، فاستخرج هذا الترتيب (الجديد) لهذه الرحلة ! وما به شيء من ذلك ، وقد عافاه الله منه وعصمه دونه ، ومتَّعه بالعافية من وَبَلَتِهِ وعَقَابيله .

* * *

وثَمَّةَ فى هذا الفصل من القول المعترض فى مدارج الكلام ، ما هو خطأ وتحكم وتشدُّق بغير علم ، وتلبيسٌ بالهوى ولجاجةٌ ، ننصرف عنه ولا نعرض له ، إذ كان فى الذى قدَّمنا من الرأى فى الكلمات السالفة ما يبطلها ويدلُّ على فسادها ، ويظهر عَوَارها ، وينكشف عن قلتها وفُسولتها .

* * *

وأمَّا وقد فرغنا من هذه الأبواب الأولى التى هى مظنة العلم والفهم فى كتاب الدكتور طه ، والتى يُشَبَّهُ للقارئ أن فيها من الرأى ما هو مستحدث غير قديم ، ومن العلم ما هو محقّق غير مضعوف ، ومن الاستنباط ما هو مبتدع / غير مرويّ ولا متّبع = ١٧٩/٢ فما نجد بُدًّا من الضرب عليها بكلمة تبين عن غَرَض الدكتور من الإتيان بها ووضعها ، أو تأليفها ، أو جمعها ، أو إملائها ، أَىَّ ذلك شئتَ .

وخلاصة ما أراد أن يقول به الدكتور طه فى جميع هذه الفُصول من أول كتابه ، إلى آخر ص : ٩٨ منه : أنَّ نسب المتنبى عنده موضع شك ، ولكن شك الدكتور هذا فى نسبه ليس يعتمد على دليل ولا شبهة . ثم إن هذا الشك قد يدفعه إلى القول بأن المتنبى لم يكن يعرف أباه ، ولم يكن يعرف أمه ، ولم يكن يعرف لنفسه قبيلة ينتمى إليها ، وأن مولده كان شاذاً ليس كمولد غيره من أبناء (الآباء) ، ثم أفضى من ذلك إلى صفة المتنبى فى طفولته ، ثم فى صباه ، ثم اختلع الرأى اختلاعاً ، فزعم أن المتنبى كان قرمطياً ، لا بل كان من دعاة القرامطة ، وأن رحلته إلى الشام كانت لذلك ، وأنه كان قد خرج

إليها « ليمتحن الرؤساء والسراة وأوْساط الناس وفقراءهم ليتبين استعدادهم للقرمطية وتهيؤهم للخروج على السلطان العباسى ، الذى كانوا يخضعون له فى ذلك الوقت خضوعاً فيه غير قليل من التلوُّن والاضطراب » ، ص : ٩٦ .

وقد قدَّمنا فى أوّل كلماتنا أن الدكتور طه إنما شك فى نسب المتنبى تقليداً لنا ، وقَصًّا على آثارنا ، لأننا أوَّل من فَطَن إلى الشك فى رواية الرواة ، وأوّل من صرَّح بذلك ، وأجلب على كلامهم الشبهة وأدخل عليها التضعيف . ثم جمعنا الأسباب ، وأخرجنا منها مسبباتها ، حتى انتهينا إلى القول بأن / المتنبى كان علوىَّ النسب ، وأتينا بما يحملنا على ذلك من شعر المتنبى نفسه ، وما كان فى نفسه من اجتناب العلويين من أهل زمانه فى مدح أو ذم ، مع أنه قد نشأ فى بلدتهم (الكوفة) ، وتخرَّج من كتاب كان فيه (أولاد أشراف الكوفة) ، وقد استقصينا بعض ذلك فيما مضى . ١٨٠/٢

وأما الدكتور طه فحين قلدنا فى الشك ، أحرجه الأمر أوّلاً ، فلم يستطع مناصاً من قذف المتنبى بأنه كان (لا يعرف أباه ولا أمه ، وأن مولده كان شاذاً) . فلما بلغ ذلك لم يجد فى رأيه غَنَاء ، ولا وجد له وزناً ، ولا اهتدى إلى طريق يتعسَّفها من هذا الرأى حتى يبلغ القول فى حياة المتنبى والترجمة له مبلغاً يُحْمد عليه = فأبلس وانتشر عليه الرأى ، فلم يجد له مخرجاً إلا أن يضع يده على رأى الأستاذ (بلاشير) فى أن المتنبى حين خرج من الكوفة اتصل بالقرامطة ، فاصطنع هذا الرأى ، ثم تملَّكه ، ثم تَصرَّف فيه تصرف المالك على ما بيناه آنفاً ، وتعسَّف وأخطأ ، وعَمِىَ عن وجه الصواب فى فهم الشعر الذى استدلَّ به لرأيه واستجلبه لمذهبه . ولماذا ، لماذا ؟ لأنه أراد أن يقلِّدنا وأن يجعل قرمطية المتنبى هى سببَ رحلته عن الكوفة ، وهى سببَ تقلقله فى البلاد واضطرابه ، وهى الغرضَ الذى كان ينشده فى حياته ، وهى الرأىَ الذى كان يمتحن عليه الرجال ، وهى التى كانت أخيراً سبباً فى مقتله ... وأن يكون كتابه تقليداً لكتابنا ، إذ جعلنا مشكلة نسبه العلوىِّ هى التى كانت سبب مخرجه من الكوفة ، وهى كانت سببَ تقلقله فى البلاد واضطرابه ، وهى الغرضَ الذى كان ينشده فى أول حياته ، وهى التى أدَّت به إلى السجن

فى الذى زعموه من أمر (نبوّته) ، ثم هى التى كانت أخيراً فى ختام أيامه سبباً فى مقتله = ، ولأننا / جعلنا المتنبى فَتىً عربيًّا قد أنكر أمر الدولة وما وقعت فيه من سلطان الأعجمية ، وكان بهذه العربية يمتحن الناس ، فيأنس إليهم ، ويستوحشهم ويفرُّ من أرضهم = ولأننا جعلنا المتنبى داعية سياسيًّا من دعاة العربية فى أقطارها = فلم يجد الدكتور بُدًّا من أن يفعل مثل الذى فعلناه ، فيجعل القرمطية فى كتابه بإزاء العلوية فى كتابنا . ١٨١/٢

* * *

ونحن هنا لا نفخر بأننا أوّل من كتب تاريخ المتنبى على هذا الوضع الذى تراه فى كتابنا ، ولكنا نقرّر ذلك إقراراً للحق ، وبياناً للذى فعله معنا الدكتور طه ، حين أخذ آراءنا فأفسدها ، ووضعها فى غير موضعها ، واستعملها بغير حقه ، وأخرج كتابه على غِرَار كتابنا غير متهيب ولا متورِّع من مَذَمَّة أو إثم . وأغراه بذلك ما يعلم من عظيم شهرته وبعيد صيته ، وما يعلم مما نحن فيه من الخفاء والصمت وقلة الاكتراث بالدعاية الملفَّقة لأنفسنا = وما يعلم من أن الأصل فى كثير من قراء زماننا أن يتعبدوا للأسماء الرنانة المعروفة ، والألقاب العظيمة المشهورة ، وأن خطأهم الكبير هو الصوابُ الكبير ، لأنهم هم قَالَتُهُ والناطقون به .... ونحن لا نبالى بشئ من هذا كله ، ولو جاءنا الدكتور طه فالتمس هذا الكتاب منَّا لنزلنا له عنه ، ما كان نزولنا عنه مما يردُّ عن العلم هذا الفساد الذى أظهره بكتابه كما بيَّنا ، وما كان هذا النزول سبباً فى ستر عُيوب رجل قد نَصَب نفسه ، أو قد نَصَّبه سواه ، صدراً فى الأدب العربى فى مصر ، وفى معهد من أكبر معاهدها ، هو كلية الآداب بالجامعة المصرية ، ولكن ....

/ وننتهى من هذه الكلمة حيث انتهى بنا هذا الفصل من كتابه فى ص : ٩٨ ، فإن فى الذى يستقبل من كتاب الدكتور طُولاً قد امتدَّ وسمق وتسامى !! (١) وإن فى ١٨٢/٢

---

(١) انظر سبب بتر هذه السلسلة من نقد كتاب الدكتور ، موضَّحا فى أول كتابنا هذا ص : ١٠٧ .

حاجة النفس لَمَا يشغلنا عن الدكتور طه وما يأتى به أو يَقعُ فيه أو يَعْرِضُ دونه :

لَيْتَ الحَوَادِثَ بَاعَتْنِى الَّذِى أَخَذَتْ مِنّى ، بِحِلْمِى الَّذِى أَعْطَتْ وَتَجْرِيبِى

•••

نبوة المتنبى

نبوة المتنبى

محمود محمد شاكر

/ كتب الأخ سعيد الأفغانى كلمة عن (دين المتنبّى) فى العددين من الرسالة ١٨٥/٢ (١٦١ و ١٦٢) سنة ١٩٣٦ ، وقد عرض فيها لنبوّة أبى الطيّب التى يزعمونها وقعت . وكانت منه مندوحةً عن القول (أو كما قال) ، (بأن تنبوُه فى الأعراب أمر وقع حقيقة ولا سبيل إلى الشكّ فيه ، تضافرت على ذلك كل المصادر الموثوقة حتى التى كانت تميل إليه كل الميل ، فإنها لم تنف الأمر ، وإنما التمست له المعاذير) . ثم علق على هذا فقال :

« قرأت أخيراً عدد المقتطف الذى كتبه الأستاذ شاكر عن المتنبّى خاصّةً ، فإذا به يذهبُ إلى نفى تنبُّؤ أبى الطيب الذى اتفقت عليه كل المصادر تقريباً . وقد أنعمت فى تدبُّر الأسباب الحادية على النَّفْى فلم أجد مَقْنَعاً ، به من القوّةِ ما يقف لهذه الروايات الصحيحة !!

« والتاريخُ لا يثبت خبراً أو ينفيه تبعاً لميل مؤلّف أو رأيه ، ولابدَّ فيه حالَ النفى من التعرُّض لجميع الأخبار المثبة خبراً خبراً ، وهذا لم يصنعه الأستاذ شاكر !!

« وأمر آدِّعاء المتنبى العلوية ليس فيه ما يَهِيج عليه كل هذا ، على رغم ذلك الخيال الجميل الذى لبس ادِّعاءه إياها فى الكتاب المذكور !!

« وإذا كان ما ذهب إليه الأستاذ صحيحاً ، ففيم خجَلُ أبى الطيب / وحياؤه ١٨٦/٢

(*) نشرت فى مجلة الرسالة (العدد : ١٦٧) ، الاثنين ٢٨ من جمادى الآخرة سنة ١٤/١٣٥٥ من سبتمبر سنة ١٩٣٦ .

كلما سئل عن أمر لقبه المتنبى ؟ ولم كان يعمدُ إلى اشتقاقه من « النَّبْوَة » تارةً ، ويعتذر بأنه شئ كان فى الحداثة تارة ، ويقول إنه يكره التلقّب به ، وأنه (يناديه) به من يريدُ الغضّ منه ؟ وعلى أى شئ تقع كلمةُ كافور : « من ادعى النبوة بعد محمد ، أما يدَّعى الملك مع كافور » ، وكافور ليسَ من الذين يختلقون على شاعر ، ولا ممن يروّج الاختلاق !!

« وقد روى المعرّى – وهو الحجّة الثبت – أمر التنبُّؤ ، وما حفَّ به من حادثٍ ومعجزاتٍ فى رسالة الغفران . وأبو العلاء كان أحْرى أن يشكَّ أو يكذب الخبر ، لو أن فى الأمر مجالاً للشكّ واحتمالاً للتكذيب ، لأنه أشدُّ حباً للمتنبِّى ، وعصبيّة له ، وهو أنفذ بصيرة فيما يقال وأحكم نقداً للأخبار ، مع قرب زمان ، وصفاء ذهن ، وقوة حجة ، ومواتاة وسائل التحقُّق إذ ذاك ! » انتهى .. الرسالة ١٩٣٦ (العدد ١٦١ – ص : ١٢٥٥) .

وأنا قد قرأتُ هذا الكلام فى موعده حين صدرت الرسالة وأردتُ أن أردّه ، ثم بدا لى أن أدَعه حيث هُوَ ، فإن الذى قرأ ما كتبت يعلمُ مقدار ما فى هذا الكلام من الجودة وحُسن الأداءِ ، وقوّة الحجة وجلاء البيان ، وسعة الاضطلاع وبلاغة الفهم ، ولكن بعض أصحابنا لم يزل بى حتى أخذ منى موثقاً أنْ أقول كلمتى فيه .

وهذا النقْد الذى رمانى به أخى الأستاذ سعيد ليسَ ممّا يثيرنى ويُغرينى بحمل السلاح والاستعداد للمعركة . ولستُ أقول هذا استصغاراً لما يقول / أخى ، أو استكباراً لما قلتُ ، بل هو حكمى عليه مجرَّداً من كلّ ما يجعل الحكم قاصراً أو باغياً . ١٨٧/٢

وهذا الذى كتبه الأخ سعيد ليس مما أعدّه عندى نقداً ، وإنما هو اعتراضٌ ، والاعتراض شبهة ، والشبهةُ يزيلها البيانُ . أما النقد فأمر آخرٌ لم يسوّغ للأخ أن يظفَرَ بالقدرة عليه فيما كتب .

وقد أُتى الأخ سعيد فى كلامه من قِبَل أنه عدَّ الأخبار المروية عن نبوّة المتنبّى

وغيرها أخباراً صحيحةً ابتداء ، وهذا أوّلُ الزلل فى نقد الناقِدِ . ولابد لمن يريدُ أن ينقد ناقداً أو يكتب فيما يتناول الروايات والأخبار ، أن يتحقق بدءاً بمعرفة الأصول فى علم الرواية ، وأن يستيقن من قدرتِهِ على ضَبْطِ الفكرة حتى لا تنتشر عليه وتتفرق ، ويقع فيها الاختلاف والتضاربُ والمناقضة . فلابُدَّ لى هنا من أن أدلّ الأخ على الأصل فى الأخبار حتى يعرف فرقَ ما بين الذى انتهينا إليه ، والذى وقف عنده غيرنا ، ثم نكشِفَ لَهُ عن الشبهة التى جعلته يعترض الذى كتبناه بالذى رفضناهُ ورددناه وأسقطْنا الثقة به والاعتماد عليه .

فالأخبار جميعاً تحتمل الصدقَ والكذبَ كما يقولون . ومعنى ذلك أنها على حالة من البراءة الأولى لا توصفُ بصِدْقٍ ولا بكذبٍ . ولا يستحقُّ الخبرُ صفة الصدق إلاَّ بالدليل الذى يدلُّ على صدقِهِ ، فإذا لم تجد الدَّليلَ على صدقِهِ ذهبت عَنْهُ صِفَةُ الصدقِ وبقى موقوفاً . فإذا اعترضَتْهُ الشبهات من قِبَل / روايته أو من قِبَل درايته ، مالت ١٨٨/٢ به الشبهة إلى ترجيح الكذب فيه ، فلا يؤخذ به ولا يعتمدُ عليه ، ويكونُ عملُ الناقِدِ بعد ذلك أن ينظرَ فى هذا الخبر نظرة التدبر ، ليستخرج الحقيقة التى من أجلها تكذَّبَهُ راويه ، وبذلك يقَع على حقائق مدفونة قد سترها الراوى بما كَذَب . وقد أشرنا إلى ذلك فى كتابنا [انظر ص : ٣٠٦ ، ٣٠٧] ، وإليك ما قلناه :

« آعلم أن أكثر ما يُرْوى فى ترجمة هذا الرجل وغيره من الرجال ، إنما كان من الأحاديث التى تتناقلها مجالسُ الأدباء ، ولا يرادُ بها التحقيق ، ولا ينظر فيها إلى صدق الرواية وسياق التاريخ وما إلى ذلك ، بل إن كثيراً مما يروى فى تراجم رجالنا ، كان مما يُراد به مَضْغُ الكلام فى مجالس الأمراء أو فى سامر الأدباء . هذا على أنها ربما حملت فيما تحمل أشياء لولا ورودها فى هذه النصوص لافتقدنا من حلقات التاريخ حلقات لا ينتظم أمره إلاّ بها ، ولا يستمر إلا عليها . فلمثل هذا كان لابُدَّ لنا من النظر فى النصوص وتمييزها ، وردِّ بعضها والأخذ ببعض ، حتى لا تنقطع بنا السبل فى الترجمة لهؤلاء الأعلام . فلا يفوتنك هذا إذا قرأت ما نكتب ، أو أردت أن تقرأ أو تكتب » .

وأنا حين أردت أن أكتب عن المتنبى نظرت فى هذه الأخبار خبراً خبراً ، فلم أجد دليلاً واحداً يجعلها تستحق عندى صفةَ الصدقِ ، فأبقيتها موقوفة . ثم عدت فنظرتُ ، فتناوشَتْها الشبهات واعتورتها الطعون ، فلم أجد بُداً من وَسْمِها بالكذب . ثم عدت إليها فعارضتها بالعقل وشعر الرجل وحوادث التاريخ ، لأستخرج منها الحقائق التى يستُرها الرواة والمتكذِّبون ، فوقعت لى / أشياء هى التى جعلتُها أصلاً فيما كتبت . وأنا على يقين من أن الأستاذ سعيدًا لم يتنبَّهْ إلى هذا الذى فعلناه ، مع أنه هو الأصل فى الكتابة والتحقيق . أما التسليمُ فليسَ يجدى شيئاً ، إلا التكرار والمتابعة ، ثم الزلل والتورُّط فيما أراد الكذابون أن يحملوا الناس عليه ويوقعوهم فيه . ١٨٩/٢

ويقينى أن الأخ سعيدًا لا يجد دليلاً على صحة هذه الروايات فيما يزعم إلا أنه قد رواها فلانٌ وفلانٌ ، ورواها المعرى – وهو الحجة الثبت – « وهو أشد منا حباً للمتنبى ، وعصبية له ، وهو أنفذ بصيرة وأحكم نقداً للأخبار ، مع قرب زمان وصفاء ذهنٍ وقوة حجَّة ومواتاة وسائل التحقيق إذ ذاك » ، ونحن لا ننكر على المعرى شيئاً من ذلك ، ولكن الذى ننكره أن الذى كتبناه كان عصبيةً لأبى الطيب ، أو حُباً له أو فيه . ليكن المعرى صاحب عصبية ، فذلك لا يجعلنا نحن من أهل العصبية حتى نعبث بالحقيقة ، ونلعب بفنّ النقد من أجل أبى الطيب أو غيره من الرجال .

أما أن رواية المعرى – وهو صاحب عصبية لأبى الطيب – مما يصحح هذه الأخبار أو يرجح الصدق فيها ، فهو حكم خطأ لا يصح لأحد أن يتابع عليه ، فإن أبا العلاء لم يُشْهِدْ كُتُبَه أنه لا يروى إلا الصحيح من الأخبار ، وتَرْكُ المعرّى الشك فيها أو تكذيبها ليس يقوم أيضاً دليلاً على صحتها ، وليس المعرى بمنزهٍ عن الخطأ والغفلة ، وهو من هو ، فذهاب وجه النقد عن المعرى ليس يكون طعناً فيه ، ولا يوجب نسبة الكذب إليه ، ولا نفى صفة الصدق عنه .

١٩٠/٢ / وأحبُّ أن أقرّب إلى الأخ حقيقة هذه الروايات .... فهو يعلم أن الرواة قد رووا للرسول ﷺ معجزاتٍ كثيرة ، وكثيرٌ من الذى رَوَوْه لم يثبته أهل العلم بالحديث على

طريقتهم ، وقد رواها قومٌ على عهد الصحابة والتابعين ، وهى كذبٌ مخترعٌ بشهادة أئمة هذا العلم ، وقد بقيت هذه الآثارُ مرويَّةً إلى يوم الناس هذا ، وهى عند المتأخرين شائعة معروفة متداولة مصدَّقة ، وقد وردت فى كتب كثير من الأئمة العلماء ، أفيكون تداوُلُها وذيوعُها وتصديقُ العامة لها ، وورودُها فى بعض كتب العلماء ، هو الدليلَ الذى لا دليلَ غيره على صحة هذه الأخبار ؟! وأكثر من ذلك ، أيكون ظهورها على عهد الصحابة والتابعين – على قرب زمن كما يقول الأستاذ – وتصديق بعض العامة لها فى ذلك العصر ، وسكوت بعض العلماء عن الكلام فيها ، مما يدلُّ على صدقها ؟!

ونحن قد أتينا فى الذى كتبناه عن المتنبى بالشبهات التى ترجح الكذب فى هذه الروايات التى يراد بها الوضع من قدر الرجل والتحقير له ، والطعن فى نسبه أو عقله أو خلقه أو أدبه . لا ، بل بيَّنّا أن ألفاظ هذه الروايات وحدها تحمل أكبر شبهة ، كالذى روى عن هذا اللاذقى المسمى معاذ بن إسمعيل ، وقد رُوِى الخبر بطوله فى كتب كثيرة ، وأوردناه بتمامه فى كتابنا [انظر ما سلف ص : ٢٠٠ – ٢٠٤] ، واختصره الأخ سعيد فى كلامه فى العدد (١٦١) من الرسالة . ولا أدرى لم اختصره ، فإن الذى يقرؤه يجد فيه سمة الوضع والكذب مستعلنة بما لم تستعلن به فى حديث غيره . وقد بينا بعض وجوه نقده فى كتابنا [انظر ما سلف ص : ٢٠٩ – ٢١٢] . فكانت حجة الأستاذ سعيد فى ردٍّ قولنا / وإسقاطه أنَّه (لم يجد فيه مقنعاً به من القوة ما يقف لهذه الروايات الصحيحة) . ١٩١/٢ وكان حقاً على الأستاذ أن يعلّمنى وجوه الضعف فى قولى حتى أستبرىء منه ، أما هذه الكلمة المجرّدة ، فليست بالتى تسقط كلامنا جملة واحدةً ، حتى ولو كان هذا الكلام سَقَطاً محضاً .

أمَّا ما اعترض به علينا ، فنحن نبين له وَجْهَ بُطْلانِه . يقول : « وإذا كان ما ذهب إليه الأستاذ صحيحاً ، ففيم كان خجل أبى الطيب كلما سئل عن أمر لقبه المتنبى ... ؟ » إلى آخر قوله ، فإن هذا الخجل الذى يزعمونه إنما هو من أباطيل الرواية ، وقد أتى به القومُ لِيَعْضُدُوا قولهم فى خرافة النبوَّةِ . وإذا كان أمر نبوَّته مشهوراً متعالماً ، أو كما يقول اللاذقى

إن دعوته (قد عمت كل مدينة بالشام) ، وقد بلغ من شهرتها أنه قبض عليه من أجلها بالشام أيضاً وحبس (دهراً طويلاً) ، وأن له قرآناً أنزل عليه .. ويزعُم أبو على بن أبى حامد أن أهل الشام كانوا يحكون له سوراً منه كثيرة وأبو الطيب إذ ذاك بحلب ، فكيف يُعقَل بعد هذه الشهرة أن يبتدر إليه هؤلاء فيسألونه عن حقيقة هذا اللَّقَبِ ؟ إن السؤال عن (حقيقة اللقب) ، بعد هذه الشهرة التى يزعمونها لَيَدلُّ دلالة قاطعة على وضع هذه الأحاديث المرويَّة والأخبار المتداولة التى تهوَّر كثير من الأدبَاء فى التسليم بصحتها ، كما فعل الأخ سعيد . ولقد كان هؤلاء الذين يزعمون أنهم سألوا أبا الطيب عن حقيقة اللقب (المتنبى) يسألونه وهو بالشام ، وفى الشام أظهر نبوته ، وفى الشام آشْتُهِر أمره ، وأكبر من ذلك أنهم يزعمون أنهم كتبوا عليه / وثيقةً أشهدوا عليه فيها ببطلان ما آدَّعاه ورجوعه إلى الإسلام ، وأنه تائب منه ولا يعاود مثله . فهلاَّ كان الأَوْلَى بهم أن يظهروا هذه الوثيقة ، ولمَّا يمض عليها كثير دهر ، وقد أخذها عليه والٍ من الولاة ، فهى ، ولا بُدَّ ، محفوظة فى ولايته ؟ وكان أبو الطيب شَجاً فى حلوق الأدباء والشعراء وكثيرٍ من أصحاب السلطان وهو فى جوار سيف الدولة ، وقد أوقعوا بينه وبين أميره بكل ما مَلَكوا من أسباب للوقيعة ، أفتظن أنهم كانوا يحجمون عن إظهار هذه الوثيقة ، وإحراجه بها ، والعمل بها على تحقيره ، ثم على المنافرة بينه وبين سيف الدولة !! كانت كل هذه النقائض بالشام ، ومع ذلك لم يكن من أثرها إلا هذه الروايات الضعيفة التى تحمل ألفاظها الشكوك والريب . ‏(١٩٢/٢)

وأسخفُ من هذه الرواية ، روايةُ مَنْ يروى أنه كان يَعْمِدُ إلى التمويه على الناس بقوله : إن هذا اللقب (المتنبّى) مشتقٌّ من « النَّبْوَة » ، فليس يُعقل أن أبا الطيب — وهو يعلم أن نُبُوَّته كانت مشهورة كما ذكر الرواة — يَعْمِدُ إلى هذا التوجيه الضعيف الميِّت ، وهو يعلمُ أنه كاذبٌ ، وأن الناسَ مكذِّبوه ، لأنهم يعلمون حقيقة أمره .

واعتذارهُ بأنه يكرهُ التلقُّب به ، وأنه يدعوه به من يريد الغَضَّ منه ، فهو بسبيل من ذلك فى الضعف والسخف . على أنه مع ذلك لا يدلُّ دِلالةً مَّا على حدوث النبوة التى يزعمونها ، بل على العكس من ذلك ، إنه ليَدلُّ على أن هذا اللقب مفتعل موضوع

للكيد له والغضّ منه ، وأنهم كانوا قد وضعوه لَهُ لِيَغيظُوه به . ومثلُ ذلك كثيرٌ فى كل عصر ومكان . ولعل الأخ سعيداً / لا يعدم رجلاً فى بلدهِ قد نَبَزَه الناس بنَبْزٍ يغيظونه به ، ١٩٣/٢ ولا نشكّ أن هذا الرجل (يكره التلقُّبَ به ، وإنما يدعوه به من يريد الغضّ منه) .

وأما كلمة كافورٍ فهى كلمة مفتعلة موضوعة تافهة ، وإلاَّ تكن كذلكَ ، فليس فيها أيضاً ما يدلُّ على شىءٍ محقَّقٍ كان قد حدث من أبى الطيب . وكافورُ كان قد سمع هذه الدَّعْوَى التى يزعمونها عن نبوة أبى الطيب وسلَّم بها ، ثم تكلم ، وليس تسليمُ كافور بها سنداً لها يحقِّق تاريخها ، ويثبتُ وُقُوعَها بعدَ الذى ذكرنا لكَ من ضعف الروايات .

هذا ، وقد أراد الأستاذ سعيدٌ أن يعلمنا سُبل التحقيق فى التاريخ فقال : « والتاريخُ لا يثبت خبراً أو ينفيه تبعاً لميل مؤلف أو رأيه .... » إلى آخر قوله ، وهو قد فعل أكثر من ذلك وأكبر ، وذلك أنه بعد اعتراضه قال : « وكافور ليس من الذين يختلقون على شاعر ، ولا ممن يروِّج الاختلاق » ، ولم يرد فى كلامنا ذكر كافور واختلاقه حتى يعقب الأستاذ هذا التعقيب . هذه واحدة ، والأخرى أن الأستاذ قد حكم على كافور حكماً لم يَرِدْ له ذكر فى كتاب ، فهل يستطيع أن يؤيد هذا الحكم بالدليل التاريخى والبرهان العقلى : أن كافوراً لم يكن يختلق على الناس ، ولا يروِّج الاختلاق ... ؟ لقد أتينا نحن بالروايات ونقضناها بالدليل – ضعيفاً كان أو قوياً – أما أستاذنا فقد حكم على رجل بغير دليلٍ ولا بينةٍ من التاريخ أو غيره .

ثم بقى اعتراض الأستاذ الذى يقول فيه : « وأمر ادعاء المتنبى العلوية ليس فيه ما يهيجُ عليه الناس كل هذا » . وأنا لا أعلم ماذا يريد الأستاذ سعيد / بقوله (كلّ ١٩٤/٢ هذا) ، وإذا أرادنى على أن أجيبه على ذلك ، فليبين لى صورة المبالغة فى قوله (كل هذا) ، فأنا لا أعلم من أمر هذه المسألة أكثر من أن الرجُل قبض عليه بالشام وحبس . أما هِيَاجُ الناس ، فلم يَرِدْ لَهُ ذكرٌ فى كلامنا ولا فى كلام الرُّواة . وأما حبسهُ أو قتالُه من أجل العلوية ، فليس بِبِدْعٍ فى التاريخ ، وكان لزاماً على الأستاذ قبل أن يكتب هذه الجملة ويصوغ هذا الاعتراض ، أن يرجع إلى كتب التاريخ ليعلم أن الذين قاتلوا أبا الطيب

وحبسوه ، كانوا قد قاتلوا من قبله قوماً أو حبسوهم من أجل ادّعاء العلوية ، وكذلك فعلوا مع العلويين الذين خرجوا عليهم فى أرضهم وديارهم . فقتاله وحبسه ليسا يُثْبِتَانِ أن هذا الذى كان من أبى الطيب ، إنما كان إظهارُه النبوة لا ادعاءَه العلوية .

وبعد ، فلو حمل الأخ سعيد نفسه على تدبُّر الذى كتبناه فى المقتطف عن المتنبى ، لما وقع هذا الاعتراض الذى حاك فى صدره . وقد أشرنا مرات فى كتابنا إلى وجوب ذلك ، فقد كنا نترجم للرجل ترجمة صحيحة يقرؤها القارىء ليتمثل صورة هذا الشاعر العبقرى ، وفاءً له وتقديراً ، بعد مرور ألف سنة على وفاته ، فلم يكن سبيلنا أن نتعرض لأصول النقد وشرحها وتفصيلها ، ولم نأخذ الروايات جميعها بالنقد مرَّة واحدة ، فإن ذلك كان يقتضى منا وقتاً كثيراً وكتاباً كبيراً ، ولكن من يطلع على الذى كتبناه منصفاً متدبراً عارفاً بطَرَف من أصول نقد الرواية ، يعلم يقيناً أننا لم نكتب حرفاً واحداً إلاَّ بَعْدَ أن استوفينا عِنْدنا نَقْدَ الأخبار (خبراً خبراً) كما يريد / الأستاذ سعيد . وليس ١٩٥/٢ عسيراً على المتدبر أن يستخرج من الذى كتبناه الأصولَ التى نقدنا بها هذه الأخبار . ولعل الأستاذ قد قرأ كثيراً مما فاضت به الصحف والمجلات عن المتنبى ، وقرأ فى خلال ذلك كثيراً من نقد الأخبار التى رُوِيَتْ ، ولعله رأى أيضاً أن هؤلاء قد اتَّخذوا كتابنا مصدراً استنبطوا منه أصولَ النقد التى وضعناها ، وقاسوا عليها فأخطأوا وأصابوا ، وليس هو بأقل منهم حتى يَفُوتَه ما أصابَ غيرُهُ .

* * *

حول « نبوة المتنبى »

سعيد الأفغانى

/ كنت عائداً من جولة فى قرى (البقاع) حين قرأت كلمة الأستاذ الفاضل ١٩٦/٢ محمود محمد شاكر فى العدد (١٦٧) من الرسالة الغراء ، التى كتبها رداً على حاشية بحثنا فى دين المتنبى المنشور فى العددين (١٦١ ، ١٦٢) من المجلة المذكورة .

وكانت قراءتى لردِّه ، بعد عشرة أيام من صدوره . فإذا تأخرت فى التعليق عليه ، فهذا عذرى أبسطه للقراء الكرام ، وأنا أعوذ بالله من الغرور والذهاب بالنفس ، ومن الجهل بمقدارها ، والمكابرة فى العلم ، والعصبية للرأى والهوى ، فما يزال الناس – ولله الحمد – يقيسون فضل المرء بخضوعه للحق وإتقانه لعمله ، لا بدعواه وتبجُّحه . وقد ولَّى زمن كان فيه الولوع بالإغراب والإتيان بالجديد – ولو تافهاً – سبيلاً إلى الشهرة وذيوع الصيت ، وأقبل زمان فيه للتفكير حُرْمة وللعقل وزن ، وكُفِى فيه المؤلفون مَؤُونة الثناءِ على النفس ، والتحدُّث إلى القراء بمزايا آثارهم وما تفردت به من معجزات .

وهؤلاء ذوو البصيرة من القراء يقلّبون ما يطالعون كل مُقلَّب ، يقع إليهم الكتاب فيمحصونه ويُفَلُّونه ويتدبَّرون ما فيه ، حتى تتكشف لهم منه / مواطن الحسن والقبح ، ١٩٧/٢ ويلمسون فيه آثار العجلة ، كما يلمسون مواضع التؤدة والروية .

وفى هذا ما كاد يصرفنى عن الرد ، سيراً على قاعدتى فى ألاَّ أحفلَ نقداً ولا ردّاً إلا إذا كان حقاً . وسبيلى حينئذ أن آخذ نفسى به وأشكر لصاحبه ، وإلاّ فإنّ الزبد

(*) نشرت فى الرسالة (العدد : ١٧٠) ، الاثنين ١٩ من رجب سنة ١٣٥٥هـ/٥ من أكتوبر سنة ١٩٣٦ .

يذهب جُفاء وما ينفع الناس فيمكث فى الأرض . وخروجى اليوم على قاعدتى ، إنما كان لمنزلة الكاتب الفاضل ، لا لِمَا فى الردِّ نفسه . وليس فى الأمر كُلّ ما ظنه الأستاذ شاكر : فلا إثارة ولا إغراء ولا سلاح ولا استعداد لمعارك ، إنما هى حاشية على كلام له المحل الثانى من بحثى ، لم أرد بها نقد كتاب ولا التعرُّض لمؤلف ، وشتان بين أسطر عُلِّقت عرضاً فى حاشية ، وبين كلام مطوَّل أنشئ للنقد خاصة .

أنا أدرى - والإنصاف شريعة - أن الكلام على كتاب الأستاذ شاكر لا يكفيه فصل كبير ، ففى الكتاب إحسان ، وفيه إصابة واجتهاد ، وفيه أماكن جديرة بالثناء حظيت بجهود حالفها التوفيق مرة وأخطأها مرة .

* * *

وبعد ، فإنى أشكر الأستاذ على نقله كلامى بحروفه ، لأن عمله هذا سمح للقراء أن ينظروا : هل بلغ الأستاذ فى الجواب على أسئلتى ما يريد من إزالة الشبهات الواردة عليه ، أم قصَّر دون هذه الغاية ؟ أمّا أنا فقد عدت إلى / كتاب الأستاذ كما طلب إلىّ ، ٢/١٩٨ « وأنعمت - ثانية - فى تدبر الأسباب الحادية على نفى تنبؤ أبى الطيب فلم أجد فيها مقنعاً » ، كما لم أعثر فى رده الذى تفضل به على شئ من الحجة . وإليك البيان :

١ - وهَّن الأستاذ رواية التنوخى لأنه صاحب الوزير المهلبى ، ولأن المهلبى عدوّ المتنبى ، فلا يبعد أن يكون التنوخىّ تحامل على أبى الطيب إرضاء للمهلبى .[1] فنحن نسأله : هل يكفى هذا الاحتمال فى تبرير ردِّ رواية التنوخى ، وهى كما يراها المنصف تحمل فى مطاويها دليل الصدق والأمانة فى نقل الحديث ، لا دليل الوضع والكذب ؟ سأل التنوخى أبا الطيب عن معنى (المتنبى) فأجابه : « إن هذا شئ كان فى الحداثة » ، وظاهر أنه يعنى التلقيب لا التنبؤ ، فجوابه غير صريح ، وهو كما قال الراوى جواب مغالط ،

---

(١) انظر ما سلف ص : ١٤٥ ، ١٤٦ .

وكان فى وسع التنوخى أن يحمّل المتنبى – لو أراد وضعاً وتحاملاً – جواباً صريحاً فى ادّعائه النبوة . ولو استقام هذا الأصل الذى بنى عليه الأستاذ رواية التنوخى ، لجاز لكل من أراد نَفْىَ خبر أن يورد عليه مثل هذه الاحتمالات الخيالية فيسقطه . وما أحسب أن خبراً – مهما كان صحيحاً – يستعصى إسقاطه على هذا الأصل !

إنما السبيل أن ينقّب الأستاذ عن نص صحيح صريح فى تجريح الراوى التنوخى ، وأنه عُهِدَ منه وضع الأخبار ودسّ الروايات ، أو أن يلجأ إلى حجةٍ – لا إلى احتمال – قوية يرضاها العقل والمنطق السليم .

٢ – / استهل الأستاذ كتابه بفرض فرضه ، وخلاصته أن المتنبى علوىٌّ ١٩٩/٢ صحيح النسب ، وأنه أخذ بكتمان هذا النسب لعداوة بينه وبين العلويين ، زعمها الأستاذ ولم يعرفها التاريخ . ثم ذهل حضرته عن أن هذا كان منه فرضاً ودعوى ، فراح يعدّه بعد صفحات حقيقةً واقعةً يبنى عليها ، ويشرح بموجبها أبيات الديوان ويكذب ، مستنداً إليها ، الروايات ، ويتهم الراوين . وهو بذلك يخرج على أصول سنها هو لنفسه ، وأخبر عنها فى رده علينا حين قال : « ولابد لمن يريد أن ينقد ناقداً أو يكتب فيما يتناول الروايات والأخبار ، أن يتحقق بدءاً بمعرفة الأصول فى علم الرواية ، وأن يستيقن من قدرته على ضبط الفكرة حتى لا تنتشر عليه وتتفرق ، ويقع فيها الاختلاف والتضارب والمناقضة » . ونحن ننقل للقارئ أدلة على هذا الذهول من مواضع متفرقة من كتابه ، ليستبين أن الكاتب لم يتمكن من ضبط فكرته ، فانتشرت عليه وتفرقت . قال فى ص : ٨٥ : « بينا لك فيما مرَّ ما بين أبى الطيب وبين العلويين ، وأن صاحبنا كان له عندهم ثأر قديم .... » ، يقصد بما مرَّ احتماله الذى لخصناه آنفاً . وقال فى ص : ٩٢ : « وبينّ على مذهبنا فى نسب المتنبى أن الرجل حبس من أجل دعوى العلوية » ، وقال فى ص : ١٠٢ : « وكأنى بالمتنبى فى طريقه يظهر فى القبائل والمدن أمر نسبه ويذيع بينهم أنه علوى الأصل شريف النسب ، محتالاً لذلك بالدهاء ... ! » . فأنت ترى أن هذا النسب العلوى وعداء العلويين كان فرضاً أول الكتاب ، ثم صارا حقيقة مقررة فى وسطه .

٢/٢٠٠ / وماذا فى أن يكون المتنبى علوياً حتى يهتم به العلويون هذا الاهتمام ، وحتى يحتال هو لإذاعته فى القبائل والمدن بالدهاء ، والبلاد تعج عجيجاً بالعلويين والأشراف ؟

والغريب أن يتخذ الأستاذ من نظريته هذه التى افترضها برهاناً يضرب به كل الروايات والأخبار التى تحمل أمر تنبئه ، ويشغل الأمراء والناس والعلويين ودعاتهم بأمر فتى دون العشرين يدعى العلوية فقط ، فيقول فى رد رواية اللاذقى ص : ٨٥ : « أما اللاذقى فمجهول ، ولا يتيسر نقد سنده ، ولكن مما لا شك فيه أن اللاذقية التى نسب إليها كانت لوقت أبى الطيب موطناً لفئة من العلويين ، ومحطاً لكثير من كبار الدعاة العلويين الذين أحدثوا أحداثاً عظيمة فى التاريخ العربى كله » ، هل اهتمامهم بفتى دون العشرين من عمره من الأحداث العظيمة التى أحدثوها فى التاريخ العربى كله أيها الأستاذ ؟! ولم لا يغتالونه مرة واحدة ، ويريحون أنفسهم من وضع الأخبار والدسّ عند الحكام ؟ إن فى الأمر مطامح لنفس هذا الفتى جعل سُلَّمه إليها شيئاً آخر مع العلوية هو أكبر منها وأخطر .

وقد رددت أنا قسماً كبيراً من رواية اللاذقى هذا ، ولكن لشئ غير ما ذهب إليه الأستاذ الكريم ، وسأبينه قريباً . وما أكثر ما يبين الإنسان لنفسه الخطة فى البحث ، ثم « تنتشر عليه الفكرة » فيبنى على غير أساس . ولست أجد كلاماً فى تصوير عمل الأستاذ وأصوله فى بحوثه ، أصدق من قول الجاحظ فى إبرٰهيم النظام وهو هذا : « وكان ٢/٢٠١ عيبه الذى لا يفارقه سوء ظنه / وجودة قياسه على العارض والخاطر السابق الذى لا يوثق بمثله ، فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الأصل الذى قاس عليه ، لكان أمره على الخلاص ، ولكنه يظن الظن ، ثم يقيس عليه ، وينسى أن بدء أمره كان ظناً » .(١)

٣ — يورد الأستاذ على حديث أبى على بن أبى حامد شبهة واحدة ، بعد أن يقرّ بإحكامه ، ويقول عنه ص : ٨٦ : « فهو حديث محكم لا يأتيه التوهين إلا من قِبَلِ غرابته

---

(١) الحيوان ج ٢ ص : ٨٣ .

عما جرت عليه الأحكام فى شأن من يدعون النبوة .... إلخ » ، وقد أطال فى بيان وجه الغرابة بما لا فائدة بنقله هنا . والذى فى كلام أبى على هو هذا : « فاستتابه وكتب عليه وثيقة ، وأشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه إلى الإسلام » ، وجلىٌّ أنهم استتابوه من دعوى النبوة ، فرجع بذلك إلى الإسلام . أما الوثيقة فهى ببطلان علويته ، وبهذا تزول شبهة الأستاذ ، فإن من المألوف أن تكتب الوثائق فى إثبات الأنساب ونفيها .

٤ — عرض الأستاذ لرواية الهاشمى التى فيها : « كان أبو الطيب لما خرج إلى كلب وأقام فيهم ادَّعى أنه علوى ، ثم ادّعى النبوَّة ، ثم عاد يدعى أنه علوىّ ، إلى أن أشهد عليه فى الشام بالتوبة وأطلق » . وهذه الرواية تعنى أنه ما تخلى عن دعوى العلوية ، وحين ترك ادعاء النبوة بقى على دعواه الأولى . / ومنها ومن الرواية التى قبلها ، نفهم أنه لما ٢٠٢/٢ أطلق ترك الدعويين معاً ، فتاب من تنبئه ، وكتب وثيقة ببطلان انتسابه للعلويين . وليس فى الأمر مشكلة ولا تناقض ، ولا داع لأن يرجح الأستاذ [ص : ٢٠٧ ، ٢٠٨] ، إقحام لفظ النبوة بين العلويتين فى حديث الهاشمى ، وليقول : « إن المراد بالنبوة فى حديث أبى على بن أبى حامد العلوية » ، فعلوية أبى الطيب التى أراد أن يفسر بها النبوة الواردة فى الروايات على اختلاف مصادرها ، لم تسلم له من الأصل ، وبقى المتنبى جعفياً يمنياً . وإذا كان لابد من إيراد احتمال ، فالأولى أن تجعل العلوية الثانية من زيادات النساخ وإقحامهم . على أن الرواية فى غِنًى عن هذا الفرض أيضاً ، وليس فيها داع إلى شك أو تأويل . فمن الغريب جداً أن ينكر أبو الطيب دعوى النبوة من ساعة القبض عليه ، وأن يظل على العلوية طول أيام سجنه حتى كتابة الوثيقة .

٥ — بقيت رواية الناشئ القائلة : « كنت بالكوفة سنة ٣٢٥ وأنا أملى شعرى فى المسجد الجامع بها والناس يكتبونه عنى ، وكان المتنبى إذ ذاك يحضر معهم وهو بَعْدُ لم يعرف ولم يلقب بالمتنبى » . هذا الخبر هو مظنة أن يكون فيه بعض الحجة ، فلنفرضه صحيحاً ، ولننظر ماذا تحته : إن فيه نصاً على أن أبا الطيب لم يلقب بَعْدُ بالمتنبى ولم يعرف فى الكوفة ، وإذا شئنا الدقة فى التعبير قلنا : إنه لم يبلغ أهل الكوفة أمر هذا

اللقب ، فيجوز أن يكون لقب به فى الشام ، ويجوز ألا يكون . وليس فى خبر الناشئ شئ آخر غير هذا . وبيان ذلك أن أبا الطيب ادعى النبوة للأعراب ، ثمّ سجن ثم أطلق / وانتهى أمره ونسيه الناس ، ثم حصل فى الكوفة سنة ٣٢٥ ، وحضر مجلس الناشئ فتى فى الثانية والعشرين ، ولما عاد إلى الشعر واتصل بالأمراء وبسيف الدولة وناوش الناس وناوشوه ، وصاول الشعراء وصاولوه ، وتفاقم الشر بينه وبين الناس ، نبشوا تاريخه – وهو هناك معروف – فأذاعوا منه هذه الزلة التى كانت فى حداثته ، وتعلقوا بها ، وسار له فى الناس هذا اللقب : (المتنبى) . ٢٠٣/٢

* * *

لهذه الأسباب – وهى للقارئ معروضة – لم أجد فى كلام الأستاذ شاكر « مقنعاً به من القوة ما يقف لهذه الروايات الصحيحة » . وأظن أنى أبنت له – كما أحب هو – وجوه الضعف فى قوله ، وسواء علىّ وعلى الحق : أستبرأ الأستاذ من قوله أم لا . ولابد أن يكون القارئ شعر بحرصى على وزن كلامى حرفاً حرفاً ، وأنى لم أسرف ولم أرسل القول على عواهنه . وقد عجبت كل العجب من الأستاذ – وهو الناقد الأصولى الفنان – حين لم يدر لم اختصرت حديث اللاذقى ؟ إذ أن الأمر ظاهر ، فإن الزيادات التى أهملتها يرفضها العقل ويكذبها الواقع ، ولم تكن ثمة حاجة لأدلّ القراء على سبب إهمالها ، لأن تهافتها بين ، وكثير أن تُجَرَّد عليها حملة كالتى نزل بها الأستاذ الميدان ، فخصص لها صفحتين من كتابه القيم . وهو يعلم – حفظه الله – أن من أدلة الوضع عند المحدثين مخالفة الواقع ، والمعقول ، كما هو مستوفى بكتب مصطلح الحديث . وأنا أستحيى من شرح هذا فى مجلة (الرسالة) ، على رغم أن الأستاذ لم يجد بأساً فى أن يعرفنا أن الخبر / ما يحتمل الصدق والكذب ، وأن وأن .... إلخ إلخ ، مما يدرسه الطلاب المبتدئون . وأنا قد عملت بما أعرف من أصول البحث والتمحيص من دون أن أمُنَّ على قرائى . أما أستاذنا الفاضل فقد ملأ رده من مثل هذه الألفاظ : رواية ، دراية ، أصول نقد ... إلخ ، وكلامى وكلامه أمام القارئ ، وله وحده أن يحكم أين الرواية والدراية والأصول حقيقة لا ادعاء ، وما التهويل بمغنٍ عن أحدنا فتيلاً . ٢٠٤/٢

كنت أتوقع أن يتحفنا الأستاذ بالبراهين التى سوَّغت له رد الروايات فلم يفعل .
أقول لم يفعل ، لأن أقواله : « رفضناه ورددناه وأسقطنا الثقة به والاعتماد عليه » ، « إن هذا الخجل الذى يزعمونه إنما هو من أباطيل الرواة » ، « أخبار متداولة تهوَّر كثير من الأدباء فى التسليم بصحتها » ، « أما كلمة كافور فمفتعلة » « وأسخف من هذه الرواية رواية من يروى .... » = إن أقواله هذه ، ولو أتبع كل كلمة منها بجميع مرادفاتها ومؤكداتها اللفظية والمعنوية ، هى أليق بمظاهرة هتافية ينادى فيها بسقوط فلان وفلان ، منها ببحث علمى ، العمدة فيه الحجة والبرهان . وأى شىء فى أن ينبز كاتب روايات التاريخ بالبطلان والكذب ، ثم لا يكون دليله عليها إلا أنها كذب وبطلان !!

هذا وقد حمل الأستاذ أقوالى ما ليس تحمل ، فأنا لم أدَّع للمعرى تنزهاً عن الخطأ ، ولم أقل بأن « ورود خبر فى كتب العلماء هو الدليل الذى لا دليل غيره » ، وما جعلت قرب الزمن دليلاً على الصحة ، بل هو مما ييسر للمحقق / وسائله . كما أنى لم أسلم بكل ٢٠٥/٢ الروايات ولم أعدها صحيحة ابتداء ، فقد رددت منها ما وجدت فيه إلى الرد سبيلاً ، ونقدت حكماً أدرج فى مصدر من أمهات المصادر وأجلها ، وهو خزانة الأدب ، حين وجدت للنقد مجالاً ، ولكل من النقد والرد والتسليم مواطن . وكيف تريدنى أن أقنع قرائى بأمر لم أقتنع به ، وإلى أشياء أخرى يتحقق من رجع إلى مقالى أنى لم أذهب إليها ؟

ونحن لم نتهم الأستاذ بالعصبية للمتنبى ، ولكنه هو قدَّم لنا فى رده دليلاً على عصبيته لرأيه ، وليس لنا فى هذا الأمر يدان . ولما قلت عن كافور : « وكافور ليس من الذين يختلقون على شاعر ، ولا ممن يروِّج الاختلاق » ، خُيِّل للأستاذ أن ثمة نصراً مؤزراً فقال : « إن الأستاذ قد حكم على كافور حكماً لم يرد له ذكر فى كتاب ، فهل يستطيع أن يؤيد هذا الحكم بالدليل التاريخى والبرهان العقلى : أن كافوراً لم يختلق على الناس ولا يروج الاختلاق ؟ لقد أتينا نحن (بارك الله) بالروايات ونقضناها بالدليل – ضعيفاً أو قوياً – أما أستاذنا فقد حكم على رجل بغير دليل ولا بينة من التاريخ أو غيره » اهـ .

وعلى رغم أن الدليل على المثبت لا على النافى – كما لا يخفى على الأستاذ الأصولى – وأن على من يدعى على كافور الاختلاق وترويجه أن يقيم البينة ، على رغم هذا نحيل الأستاذ على الذهبى الذى وصف دينه وتواضعه فقال : / « وكان يداوم الجلوس غدوة ٢٠٦/٢ وعشية لقضاء حوائج الناس ، وكان يتهجد ويمرِّغ وجهه ساجداً ويقول : « اللهم لا تسلط على مخلوقاً » ، وكان يرسل كل ليلة عيدٍ وَقْرَ بغلٍ دراهم فى صُرَرٍ بأسماء من أرسلت إليهم من العلماء والزهاد والفقراء ..... » .

ونحيله أيضاً على الذهبى وغيره من المؤرخين الذين أجمعوا على وفور عقله وحسن تدبيره وصلاحه . ويرى الأستاذ معنا أن فقه هذه الروايات – وهو الخَبير بالرواية والدراية – يجعل كافوراً بمنجاة من النزول إلى هذا الدرك ، وإن فى أمور ملكه وبعد غوره ، ما يشغله على الاختلاق على شاعر تكفى إشارة منه لتذهب برأسه . إن ما يسبغه المؤرخون على كافور من الصفات ، يكفى لنقول ببعده عن جميع السفاسف جملة واحدة . ففى التاريخ بينة وفيه دليل ، ولكن للعجلة فى الحكم آفات .

هذا وفى نفسى مما أورده الأستاذ المحقق شئ ، فهل يسمح لى أن أطالبه بالدليل العلمى على قوله الجازم : « أعلم أن أكثر ما يروى فى ترجمة هذا الرجل (المتنبى) وغيره من الرجال ، إنما كان من الأحاديث التى تتناقلها مجالس الأدباء ولا يراد بها التحقيق ، ولا ينظر فيها إلى صدق الرواية وسياق التاريخ وما إلى ذلك ، بل إن كثيراً مما يروى فى تراجم رجالنا كان مما يراد به مضغ الكلام فى مجالس الأمراء أو فى سامر الأدباء ... إلخ » . وهل يتفضل فيبين لنا البرهان القاطع فى قوله جواباً على سؤالى : « إن هذا الخجل الذى يزعمونه إنما هو من أباطيل الرواة إلخ » ، فمن هم هؤلاء الرواة الذين لفقوا / الأباطيل ؟ إنى ٢٠٧/٢ متى أعرفهم ، يسهل علىَّ من دون شك أن أسأل عن الأسباب الحادية لهم على التلفيق .

وأنا غير مطمئن إلى قول ابن جنى فى سبب تلقيب أبى الطيب بالمتنبى ، فابن جنى مفرط فى حبه لصاحبه والدفاع عنه ، وهو متهم فيه . فهل لأستاذنا أن يعزز قوله بروايات أخرى سبيلها على غير ابن جنى وعلى غير ما حوله ؟ فإن تعذر هذا ، فلا عليه أن

يؤيدها بأدلة لا اعتراض للفكر السليم عليها . ولا بأس أن نقول له ، وقد قرأنا ختام رده الذى أثنى فيه على نفسه وعلى كتابه بما هو له أهل : أنت كما أثنيت على نفسك ، ولكن إذا كان كتابك قد اتخذه – كما زعمت – بعض الكتاب « مصدراً استنبطوا به أصول النقد » ، فلسنا بالذين نسمى الطعن المجرد للروايات أصولاً فى النقد ، وما لهذا أيضاً علاقة بالبحث . وهلاَّ إذ ذكرت ذلك دللتنا على أسماء هؤلاء الكتاب والمجلات التى نشروا بها ، والمواطن التى قلدوك فيها ، لنهنئك على شيوع مذهبك وكثرة المؤمنين به ؟ ولعلك فاعل عن قريب إن شاء الله .

أما أنا فما كنت أظن قط أن أسطراً تذكر عرضاً فى رد فكرة ، تثير مثل هذا الفاضل فيحمل منها هماً يجد وَقْرَه وعَنَتَه اثنين وأربعين يوماً ، ثم ينفثه فى ردّه الذى تكرم به على مثل هذا الشكل .

لقد وددت والله لو أن الأستاذ شاكراً نقب عن الحجة وتحرى الحق لأعترف له به وأرجع إلى قوله . وصحف (الرسالة) أحوج إلى أن تملأ / بالحقائق والبرهان ، منها إلى الدعوى والانتقاض . وأتمنى للأستاذ أن يهجر هذا الأسلوب فى الجدال ، فما هو بمغنيه عن الحق شيئاً ، كما لم يغن طنين الأستاذ صروف بالإشادة بمزايا الكتاب فى مقدمته . والمأمول من الله أن يأخذ بيد الأستاذ شاكر فيتمم لنا كتابه الضخم عن المتنبى الذى قُدِّرَ بأربعة مجلدات ، وأتمنى أن أراه قريباً ، وأن أرى فيه حقائق الرواية والدراية وأصول النقد ، لا ألفاظها فقط . وليس بمهم بعد ذلك أن تكون هذه الأصول حديثة يخترعها الأستاذ ، أو قديمة على غرار ما تألف عقول هذا الناس ، إنما المهم أن تكون صحيحة سوية . ٢٠٨/٢

وسأكون سعيداً حقاً يوم ينقد الأستاذ الأخبار خبراً خبراً ، فيعارض بينها ويقابل ، ويمحِّصُها تمحيصاً يرضيه هو ويستفيد منه القراء الذين لا يخفى عليهم وجه الحق فى كلام اثنين ، ولا يصرفهم عنه نيلٌ من صاحبه ومراوغةٌ فى الحط منه ، فإن هذا هو الأشكل بالأستاذ الكريم والأليق بفضله والأولى بسجاياه ، وله – فى الختام – شكرى وخالص تقديرى ، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته .

(دمشق) سعيد الأفغانى

نبوة المتنبى أيضاً

محمود محمد شاكر

٢٠٩/٢ / أخى سعيد الأفغانى

وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، وبعد ، فإنى أشكر لأخى حُسن ظنّه بى فى بعض كلامه ، ومسارعته فى الرد على كلمتى التى نشرتها الرسالة (العدد ١٦٧) . هذا على أنه ليس يجمُل بالأستاذ أن يحمّل نفسه تكاليف الرد على مثلى ، فإن الذى بيننا من التخالُف فى الطبيعة ، والتباين فى الجِبِلَّة ليقوم فى هذا الأمر مقامَ الردّ . وأيضاً ، فليس مما يحسُنُ به أن يبسُطَ عذره للقراءِ عن تأخر الردِّ بجولته فى قرى (البقاع) ، وأن قراءته للذى أتيت به من الكلام كانت بعد عشرة أيام من صدوره . وليعلم الأستاذُ الجليلُ أنى أحب أن يحملنى على طبيعتى ، وأن يتقبلنى على علتى ، وأن يعرفنى رجلاً شيمتُه العجزُ ودأبُه التخلُّف ، فلا قِبَل له بمثل قدرة الأستاذ وقوته على مدِّ الشوْط ، هذا على ما ركِّب فى أصل خلقتى من الحدة والثورة وضيق الصدْر . وليس أدلّ على ما بيننا من تباين الجبلة — من الذى استيقنه الأستاذ وأثبته فىَّ من التخلُّفِ والعجز ، والذى رأيته فيه من القدرة والمسارعة ، فهو لم يضيق ذرعاً بكل الذى كتبناه ، ولا تخلّف فى ردِّ كلامنا وإسقاطه بالحجة والبيان والبرهان ، فى أوجز لفظ ، وأوزن فكر ، وأدق فهم ... ثم فى أقل وقت .

٢١٠/٢ وأنا — على / نقيضه ، فأنا كما وصفنى الأستاذ حين يقول : « أما أنا فما كنت أظنُّ !! أسطراً تذكر عرضاً فى ردّ فكرة تثير (مثل هذا) الفاضل ، فيحمل هماً يجد وَقْرَهُ وعَنَتَه اثنين وأربعين يوماً ، ثم ينفثه فى ردّه الذى تكرم به على مثل هذا الشكل » . ولا أدرى لم

(*) نشرت فى مجلة الرسالة (العدد : ١٧١) ، الاثنين ٢٦ من رجب سنة ١٢/١٣٥٥ من أكتوبر سنة ١٩٣٦ .

لا يظنُّ الأستاذُ ذلك ؟ ألا فليعلم أخى سعيد أن اثنين وأربعين يوماً ليس كثيرَ دَهْرٍ على عاجزٍ وَجِلٍ هيَّابٍ متخلِّف ، وأن كلمته الصغيرة – التى أثارتنى فحملت همًّا أجد وَقْرَه وعَنَتَهُ اثنين وأربعين يوماً – كانت مما يقتضينى عامين على الأقلّ فى تقليبها وفهمها ودراستها أواصل ليلها بالنهار ، ثم فى الاستعداد للردّ ، ثم فى جمع شتات الذهن ، ثم فى نفض الذهول عن العقل والفكر ، ثم فى كتابة ما يُسوِّل لى قليلُ علمى تحريرَه والنظر فى صدوره وأعقابه .

وبعدُ أيضاً ، فإن أخى سعيدًا قد رمانى بقارصاتٍ ، وهو الذى يقول عن كلمتى فى الرسالة : « وصحف الرسالة أحوجُ إلى أن تملأ بالحقائق والبرهان منها إلى الدعوى والانتقاض ، وأتمنى للأستاذ أن يهجُر هذا الأسلوب فى الجدال ، فما هو بمغنيه عن الحق شيئاً ، كما لم يغن (طنينُ) الأستاذ صروف بالإشادة بمزايا الكتاب فى مقدمته » اهـ .

ولست أدرى ! فلعلَّ صُحف الرسالة قد غنيت بأساليب البيان العبقرى ، والسخرية النابغة من مثل قوله عن كلمات فؤاد صروف (طنين الأستاذ صروف) ، فالطنين فى هذه العبارة كلمة بيانية مبتدعة ، فيها من الفنّ والموسيقى ما يتضاءَلُ معه إبداع جلَّة الكُتَّاب والشعراء والموسيقيين . ومثلُ / الذى يقول : « وأنا أعوذُ بالله من الغرور ، والذهاب بالنفس ، ومن الجهل بمقدارها ، والمكابرة فى العلم ، والعصبية للرأى والهوى ، فما يزال الناس – ولله الحمد – يقيسون فضل المرء بخضوعه للحق ، وإتقانه لعمله ، لا بدعواه و (تبجُّحه) » ، إلى آخر هذا الكلام البليغ الذى لو أراده الجاحظ وجهد فيه واحتَفَل له ، لما تعلّق بذيلِه ، ولا جرى فى غباره . وأنا أعوذ بالأخ أن يعودَ إلى مثل هذا القولِ ، فإنى أكره أن أجزى أخاً لى بالذى أعلم أنَّه يؤذيه ويُرْمِضُه ، فيذهله عن منازل الصَّبر ، ويستفزّهُ عن مواطن الحلم . ٢١١/٢

وليسَ أحبّ إلى نفسى من أن أهتدىَ إلى الحق على علم وبصيرة ، وأن أخضَعَ له على الرضى والغضب ، وأن أعمل على إقراره ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً . فلا يتَّبعنّ – أخى الأستاذ سعيد – ظنه أنَّا من أهل الغرور ، والذهاب بالنفس ، والجهل بمقدارها ، والمكابرة

فى العلم ، والجدال فيما لا جدوى منه ولا منفعة . وسأنتهى – إن شاء الله – مع الأخ إلى النهاية التى يرضاها غير باغٍ ولا ظالم . فأوّلُ ما أبدأ به بيانُ ما ورد فى كلمته (الرسالة ١٧٠) ، من التهافُت فى بعض القولِ ، ثم أعقِّبُ على ذلك بذكر نبوّة أبى الطيب ، وتقرير القول فى نفيها على وجه يبلغ بنا رضاه ، ثم أجيبه عن كل ما سألنيه من شئ . فإن اعترض فى خلال ذلك ، نظرت فى الذى يأتى به ، فإن غلبنا على الحق ، أسلمنا وبذلنا له الطاعة ، وإن رضى ، قولنا فهو عند قاعدته التى ذكرها « ألا يحفِلَ نَقْداً أو رداً إلا إذا كان حقاً ، وسبيله أن يأخذ نفسه به ، ويشكر لصاحبه » .

٢١٢/٢ ١ – / قال الأستاذ سعيد حين ذكر خبر التنوخى ورأينا فى ردِّه : « سأل التنوخى أبا الطيب عن معنى (المتنبى) فأجابه : « إن هذا شئ كان فى الحداثة » ، وظاهر أنه يعنى التلقيب لا التنبؤ ، فجوابه غير صريح ، وهو ، كما قال الراوى ، جواب مغالط » اهـ .

والأصل الذى اعتمد عليه الأستاذ فيما ينقل هو (طبقات الأدباء) لابن الأنبارى ، ونص الخبر ثَمَّ : « قال التنوخى ، قال لى أبى : فأما أنا فسألته بالأهواز عن معنى المتنبى ، لأنى أردتَ أن أسمع منه هل تنبأ أَوْلا ، فجاوبنى بجواب مغالط ، وقال : إن هذا شئ كان فى الحداثة ، فاستحييت أن أستقصى عليه وأمسكت » . وهذا نَصٌّ قد اختصره ابن الأنبارى على عادته ، وجاء الأستاذ سعيد فأراد أن يبين وجه المغالطة فى الجواب ، فزعم أن أبا الطيب يعنى التلقيب لا التنبؤ فى جوابه . وكان أولى بالأستاذ قبل أن يؤوِّل الكلام على هذا الوجه ، أن يتدبر القول وينظر فيه على الصورة التى يؤوِّله بها ، ثم يبين وجه المغالطة بياناً لا يُسْقِطُه العقل .

يقول التنوخى : إنه سأل أبا الطيب عن معنى (المتنبى) ليسمَعَ منه هل تنبأ أو لا – أى هل كان اللقب لحادث عن نُبُوَّة كانت منه أم هو نَبْزٌ نُبزَ به ولُقِّب – فيجيبه أبو الطيب : « إن هذا التلقيب كان فى الحداثة » ، فأين المغالطة فى هذا الجواب ! وفى المسألة وجهان : إمَّا أن يكون التنوخى قد سأل أبا الطيب مصرِّحاً بالذى أراده فقال

له : هل ادَّعيت فسُمِّيتَ المتنبىِّ ؟ فيقول أبو الطيب : « هذا شىء كان فى الحداثة » ، فيكون المراد « النبوّة » ولا شك ، / وإمَّا أن يكون قد سأله عن عِلَّة تلقيبه بالمتنبى ، ٢١٣/٢ فيقول : « هذا شىء كان فى الحداثة » ، فيكون جواب رجلٍ لا يحب أن يمتد فى الحديث فهو يقطعه على سائله ، فهو يقول له : إن هذا اللقب وسببه كانا فى الحداثة ، ولست براضٍ عن سؤالك . فليس فى هذا مغالطة . ثم إن امتناعهُ عن ذكر علةٍ غير النبوة فى سبب التسمية ، دليلٌ على أن « النبوة » هى العلة فى التلقيب ، لأن اللفظ صريح فى الدلالة على المعنى . وليس يغفُلُ أبو الطيب عن معنى هذا اللقب ، ولا يظن أن الناس غافلون عنه ، فيكون امتناعه عن ذكر العلة مما يوقعهم فى حيرة من تأويل معناه .

ثم ما الذى يَضُرُّ أبا الطيب لو كان هذا التلقيب فى الكبر ولم يكن فى الحداثة ؟ فحرصه على تخصيص ما أراد من المعنى بالحداثة ، ينفى إرادة (التلقيب) ألبتة . وأَوْلَى حين يكون التخصيص بالحداثة أن يراد بذلك « النبوة » ، فإن قوة التدفع ، وسموّ الطموح ، وإشراف النفس ، وتهاويل الأمل ، هى بالحداثة ألزم ، وهى التى تؤرِّث نيران الشباب فتدفعه إلى المغامرة والتهور والمخاطرة على غير هدى ولا بصيرة ، حتى يركب بها صاحبها الحدَثُ الغِرُّ كلّ مركب من الحماقة ، ويَرِد بها كل مورد من الغرور ، فلا يرعوى عن أن يدّعى ما لا مطمَع له فيه ، ولو كانَ النبوَّةَ .

وقول التنوخى بعد جواب أبى الطيب : « فاستحييت أن أستقصى عليه فأمسكت » ، دليل على أن الرجل اكتفى بإشارة أبى الطيب إلى حادث « النبوة » ، وأمسك عن الذى كان يريده أوَّلاً من التصريح فى إثبات ما كان من أمره فى ادعاء « النبوة » .

/ واختصار ابن الأنبارى خبر التنوخى ، هو الذى دفع الأستاذ إلى هذا التأويل . ٢١٤/٢ وأصل خبر التنوخى أنه قال : « حدثنى أبى قال : أمّا أنا فإنّى سألته بالأهواز سنة أربع وخمسين وثلثمئة – عند اجتيازه بها إلى فارس فى حديث طويل جرى بيننا – عن معنى « المتنبى » ، لأنى أردت أن أسمع منه هل تنبأ أم لا ، فأجابنى بجواب مخالط لى ، وهو أنْ

قال : هذا شيء كان فى الحداثة أوجبته الصورة ! فاستحييت أن أستقصى عليه وأمسكت » . فالمغالطة فى قوله « أوجبته الصورة » ، والصورة ههنا الصفة ، على اصطلاح أهل الكلام ، وصفة الحداثة لا توجب ادعاء « النبوّة » ، فهذا هو وجه المغالطة . فلما رأى التنوخى – وهو شاب لم يَعْدُ السابعة والعشرين من عمره ، وأبو الطيب إذ ذاك شيخٌ قد نيَّف على الخمسين – ما أصاب هذا الشيخ من الحرج وضيق الصدر حتى لجأ إلى المغالطة فى التعليل ، وتسويغ فعلته على السفسطة ، آستحيا أن يستقصىَ على هذا الشيخ ، فأمسك عن الذى يؤلمه ويغيظه ، ويضع من كبريائه ، ويحط من شيخوخته ، ويلجئه إلى ركوب الإحالة فى المنطق ، والفساد فى التعليل .

٢ – ويقول الأستاذ سعيد : « يورد الأستاذ على حديث أبى علىّ بن أبى حامد شبهة واحدة ، بعد أن يقرّ بإحكامه ، ويقول عنه فى ص : ٨٦ : « فهو حديث محكم لا يأتيه التوهين إلا من قِبَلَ غرابته عما جرت عليه الأحكامُ فى شأن من يدعون النبوة .... إلخ » . وقد أطال فى بيان وجه الغرابة بما لا فائدة بنقله هنا : (سبحان الله يا سعيد !!) ، والذى فى كلام أبى علىّ / هو هذا : « فاستتابه وكتب عليه وثيقة ، وأشهد عليه فيها ببطلان ما ادّعاه ورجوعه إلى الإسلام » ، وجلىٌّ أنهم استتابوه من دعوى النبوّة فرجع بذلك إلى الإسلام ، أما الوثيقة فهى ببطلان علويته ، وبهذا تزول شبهة الأستاذ (!!) ، فإن من المألوف أن تكتب الوثائق فى إثبات الأنسان ونفيها » اهـ .

٢١٥/٢

* * *

وعجبٌ أمر الأستاذ سعيد فى حرصه على تأويل الكلام بما لا وجه له ولا أصل . وهو فى نقله هذا النص قد اعتمد على كتاب ابن الأنبارى ، وهو مُولعٌ باختصار الأخبار (واختزالها) ، وهذا تمام خبر أبى على بن أبى حامد :

« أخبرنا التنوخى ، حدثنى أبى ، قال حدثنى أبو علىّ بن أبى حامد ، قال : سمعت خلقاً بحلب يحكون -- وأبو الطيب بها إذ ذاك – أنه تنبأ ببادية السماوة ونواحيها ،

إلى أن خرج إليه لؤلؤ أمير حمص من قِبَل الإخشيدية ، فقاتله وأنفره ، وشرَّد من كان اجتمع إليه من كلب وكلاب وغيرهما من قبائل العرب . وحبسه فى السجن حبساً طويلاً ، فاعتلَّ وكاد أن يتلف ، حتى سئل فى أمره فاستتابه ، وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه : ورجوعه إلى الإسلام ، وأن تائبٌ منه ، ولا يعاودُ مثلَهُ ، وأطلقه » .

فأنت ترى أن لا ذكر للعلوية فى هذا الخبر ، ولا فى غيره مما رُوى عن أبى علىّ بن أبى حامد هذا ، فكيف يتأتى لك أن تقحم العلوية فيه ، / وهو لم يذكرها فيه ولم تَرِدْ عنه فى خبرٍ غيرِه ، ثم تَعْمِد إلى الكلام فتؤوِّل بعضُه على النبوَّة وبعضُه على العلوية ، فتجعل التوبة للأولى والوثيقة للآخرة ؟ ورحم الله أبا عثمان الجاحظ ، فلو أنه أدرك عصرنا هذا لقال فى ذلك أمثل مما قال فى إبراهيم النظام ، [1] فنص الخبر مبينٌ عن أن أمير حمص كتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها (١) بأن ما ادَّعاه باطلٌ – وهو النبوّة – (٢) وأنه رجع إلى الإسلام (٣) وأنه تائبٌ منه (٤) وأنه لا يعاود مثله . فهذه أربعة فى قَرَن كانت فى هذه الوثيقة ، فكيف تسوِّغُ عربية الكلام للأستاذ سعيد تأويله وبيانه ؟ فلو سلمنا للأستاذ سعيد بالذى ذهب إليه لكان سياقُ الكلام هكذا : « حتى سئل فى أمره فاستتابه ، وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها ببطلان ادعائه العلوية ، وأنه رجع إلى الإسلام ، وأنه تائب (منه) ، وأنه لا يعاود مثله » ، فعلى أيِّ الكلام عطفت جملة قوله « وأنه رجع إلى الإسلام » ، وإلى أى مذكور يرجع الضمير فى قوله « وأنه تائب (منه) » ؟ وكيف تردّ أوائل هذا الكلام على أواخره ليستقيم على عربيته ؟!

إن أخى الأستاذ سعيدًا ليأخذ من الكلام ما يشاء ويدع ما يشاء ، وبذلك (تزول شبهة الأستاذ) ، أو كما قال .

٣ – ثم يقول : « عرض الأستاذ لرواية الهاشمى التى قال فيها : (كان أبو الطيب لما خرج إلى كلب وأقام فيها ادعى أنّه علوىٌّ ، ثم ادَّعَى النبوة ، ثم عاد يدعى أنه علوى ،

(١) وصفنا الأستاذ سعيد بمقالة أبى عثمان فى إبراهيم النظام ، فراجعه ص : ٥٤٦ .

إلى أن أشهد عليه فى الشأم بالتوبة وأطلق) . وهذه الرواية تعنى أنه ما تخلى عن دعوى العلوية ، وحين ترك ادعاء النبوة بقى على دعواه الأولى . / ومنها ومن الرواية التى قبلها نفهم أنه لما أطلق ترك الدعويين معاً ، فتاب من تنبئه ، وكتب وثيقة ببطلان انتسابه للعلويين ، وليس فى الأمر مشكلة ولا تناقض .... » اهـ .

٢١٧/٢

يقول الأستاذ سعيد إن هذا الخبر الذى رواه يعنى (أنه ما تخلى عن دعوى العلوية ، وحين ترك ادعاء النبوَّة بقى على دعواهُ الأولى) ، والخبر يقول إنه « ادَّعى العلوية ، ثم ادّعى النبوَّة ، ثم عاد يدعى أنه علوى » ، والعربية تقول إن هذا النص لا يمكن تأويله على الوجه الذى أراده الأستاذ ، فإن لها ألفاظاً ، وإن لألفاظِها معانِىَ ، وإن لمعانيها حدوداً ، فإخراج المعنى عن حدِّه إخراجٌ للفظ عن معناه ، وإخراج اللفظ عن معناه إخراج له عن العربية . يقول الخبر : « ثم عاد يدّعى أنه علوىّ » فيقول الأستاذ مؤوِّله ، ومعنى ذلك « ثم بقى على دعوى العلوية » !! ثم يقول الأستاذ : « ومنها ومن الرواية التى قبلها نفهم ، (أو لا نفهم ، فالأمر بعد هذا سواء) ، أنه لما أطلق ترك الدعويين معاً ، فتاب من تنبئه ، وكتب وثيقة ببطلان انتسابه للعلويين » . ففى الخبر الذى قبل هذا أقحم الأستاذ العلوية ولا ذكر لها فيه ، وجعل الوثيقة المذكورة فيه يراد بها دعوى العلوية . وفى هذا الخبر الذى رواهُ ولا ذِكْرَ للوثيقة فيه ، أقحم الوثيقة التى يراد بها الإشهاد عليه فيها ببطلان انتسابه للعلوية التى ادَّعاها ، وذكرها الخبر مرتين . فهذا أروعُ ما وقع لى من القدرة على الجمع بين الروايات (كما هو مستوفىً بكتب مصطلح الحديث ، وأنا أستحى / أن أشرح هذا فى مجلة (الرسالة) ... مما يدرسه الطلاب المبتدئون) . [1]

٢١٨/٢

وهذا الخبر أيضاً اعتمد الأستاذ فى نقله على (اختزال) أبى البركات (ابن الأنبارى) فى طبقات الأدباء . وسياقُ الرواية هكذا : « وقد كان المتنبى لما خرج إلى كلبٍ وأقام فيهم ، ادَّعى أنه علوىٌّ حسنٌّى ، ثم ادّعى بعد ذلك النبوّة ، ثم عاد يدعى أنه

(١) انظر ص : ٥٤٨ ، من كلام الأستاذ سعيد .

علوىٌّ ، إلى أن أشهد عليه بالشام بالكذب فى الدعويين ، وحبس دهراً طويلاً وأشرف على القتل ، ثم استتيب وأشهد عليه بالتوبة وأطلق » . وقد كان هذا النصُّ أمثل من (مختزل) ابن الأنبارى للذى يعتمده الأستاذ من التأويل ، وهو أحفل له فى استخراج مادة الجدل فى التفسير والتوجيه . على أن هذا الخبر هو كما وصفناهُ فى كتابنا هذا ص : ٢٠٧ ، « عجيبٌ لا يُفْرَغُ من العجب من اختصاره وتداخله » . فمن ذلك أنه صريحٌ بيّنٌ فى الدلالة على أنه قد أُشْهِدَ على أبى الطيب مرتين : (الأولى) إشهادٌ عليه بأنه قد كذب فى (الدعويين) ، و (الآخرة) استتابةٌ وإشهادٌ عليه بالتوبة .

ففى المرة الأولى ذكر ابن أم شيبان الهاشمى (دعويين) أُشْهِد أبو الطيب على نفسه بالكذب فيهما ، فإن أراد (بالدعويين) دعوى العلوية ودعوى النبوّة جميعاً ، كان كلامُهُ كلُّهُ خَلْطاً مُتداخلاً ، فإنه ليس يكفى فيمن ادعى النبوَّة أن يشهد على نفسه بالكذب ، بل لابُدَّ مَعهُ من الاستتابة والرجوع إلى الإسلام والإقرار به ، فإن لم يُعْطِ ذلك قُتِل ، فإن كان فُعِلَ معه ذلك / وتاب وأقرّ ، فما قوله بعد ذلك : « وحُبس دهراً طويلاً (سنتين) وأشرف على القتل ، (ثم) اسْتُتِيب ، وأشهد عليه بالتوبة وأطلق » ، ولم أعيدت استتابته ؟ أيكون هذا كله لغواً باطلاً من القول !! ٢١٩/٢

فإن أراد (بالدعويين) ادعاء العلوية فى المرة الأولى والمرة الآخرة ، فالأمر فى ذلك على خلاف المعقول . أيقدِّم الوالى الإشهاد بالكذب فى دعوى العلوية ، وهى لا تُخْرِجُ من الإسلام ، ولا يكفر بها مُدَّعيها ، ولا يقتل من أجلها إن أصرَّ عليها = ويَدَعُ ٱدعاءه النبوة فلا يقتله أو يستتيبه إلا بعد أن يحبسه دهراً طويلاً حتى يشرف على القتل ، فيومئذ يستتيبه ويُشْهِد عليه بالتوبة !!

ولفساد هذا الخبر وجوهٌ أخرى ، ولكنه على أى وجهيه أدرته ، لا يسوِّغ للأستاذ أن يقول فيه « وهذه الرواية تعنى أنه ما تخلى عن دعوى العلوية ، وحين ترك النبوة بقى على ادعائه العلوية » ، إلا أن يلغى معانى الكلمات التى وردت فيه ، أو يحيلها عن وجهها ، فتكون « ثم » ، « وعاد » كلمات مغسولة من المعانى ، ثم يزيد على ذلك أن يزيد فى الكلام

معانى ألفاظ لم تكن فيه كقوله : « وحين ترك النبوّة بقى على ادعائه العلوية » . ولو أراد الأستاذ أن يتأوّل هذا الخبر على وجه مُقَارِبٍ ، لما خرج له إلا أن يقول فيه : « إن أبا الطيب تخلى عن دعوى العلوية ، وحين تركها بقى على ادعاء النبوة حتى استتيب فأطلق » ، وهذا محال .

٢٢٠/٢ وليعلم الأستاذ أنى تركت له أبواباً من القول توطِّىء له أن ينفذ إلى / الاعتراض ، فليعترض قولى بما شاء ، ولكنى أسأله أن ينظر فى اعتراضه أوّلاً ، ثم فى الخبر بَعْدُ ، ثم فى كلامى آخراً ، فلعله يجد فى ذلك ما يمنعه من الاعتراض ويقنعه بالصواب . وأسأله أيضاً أن يتحرَّى فى فهم الأخبار ما تقتضيه عربية الكلام حتى تستقيم له المعانى ، وتَتَّجِهَ به الآراء إلى الحق والهدى إن شاء الله .

* * *

/ نبوة المتنبى أيضاً

محمود محمد شاكر

/ اللهم إنا نعوذ بك من فتنة الرأى والهوى ، كما نعوذ بك من سوء الاقتداء ٢٢١/٢ والتقليد .

٤ – يقول الأستاذ سعيد الأفغانى فى العدد (١٧٠) من (الرسالة) بعقِب حديثه عن رأينا فى ردّ رواية اللاذقىّ – الذى كان قد آمَن بنبوّة المتنبى أبى الطيب ، وأسلم له ، وبايعه بيعة الإقرار بصدق نبوّته ، وزاد أن أخذ البيعة لأهله كذلك : « وقد رددتُ أنا قسماً كبيراً من رواية اللاذقىّ هذا لشيءٍ غير ما ذهب إليه الأستاذ الكريم ، وسأبينه قريباً » . وقد وَفَى الأستاذ بعِدَته فأبان خير الإبانة عن (الشيء) الذى من أجله (ردّ قسماً كبيراً) من رواية (اللاذقىّ هذا) . وهذا بيانه بعد كلام كثير ، يقول : « وقد عجبتُ كل العجب من الأستاذ – وهو الناقد الأصولىّ الفنّان (أستغفر الله يا سعيد) – حين لم يَدْرِ لم اختصرت حديث اللاذقى ؟ إذ أن الأمر ظاهر ، فإن الزيادات التى أهملتها يرفضها العقل ويكذبها الواقع ، ولم تكن ثَمَّتَ حاجةٌ لأدُلّ القراء على سبب إهمالها لأن تهافُتها بيِّنٌ . وكثيرٌ أن تُجَرَّدَ عليها حملةٌ كالتى نزل بها الأستاذُ الميدان !! فخصَّص لها صفحتين من كتابه القيم ، وهو يعلمُ حفظه الله أن من أدِلّة الوضع عند المحدّثين مخالفة الواقع والمعقول ، كما هو مستوفىً بكتب مصطلح الحديث » اهـ .

/ عونَكَ اللهمّ ! فلستُ أدرى من أين أبدأ فى بيانِ تهافُتِ هذا القول وتناقضه ! ٢٢٢/٢

(*) نشرت فى مجلة الرسالة (العدد : ١٧٢) ، الاثنين ٣ من شعبان سنة ١٩/١٣٥٥ من أكتوبر سنة ١٩٣٦ .

هذا رجُلٌ سمَّاه أبوهُ مُعَاذاً ، فكان عند الذين قرأوا حديثه « أبا عبد الله مُعَاذ بن إسمعيل اللاذقىّ » ، وهو فى الرواة مجهول غيرُ معروف بصدقٍ ولا بكذبٍ ، وقد جاءَنا هذا الرَّجُل ينبئنا عن أبى الطيب خبرَ قدومه اللاذقية سنة نيفٍ وعشرين وثلثمئة ، فيأتى بحديثٍ طويل ممتدٍّ .

١ – يذكر فيه حلية أبى الطيب وصفته وسمته وحسن أدبه .

٢ – ثم يذكر حديثاً جرى بينه وبين أبى الطيب ، فيقول له اللاذقىّ : « والله إنك لشابٌّ خطير ، تصلح لمنادمة ملكٍ كبير ! » ، فيكون جواب أبى الطيب : « ويحك ! أتدرى ما تقول ؟ أنا نبىٌّ مرسل » .

٣ – ثم يذكر رسالة أبى الطيب إلى أمته الضالة المُضِلّة ! وغرض رسالته .

٤ – ثم ما سمع من قرآن أبى الطيب الذى وصفه بقوله : « فأتانى بكلامٍ ما مرّ بمسمعىّ أحسنُ منه » .

٥ – ثم يذكُرُ عدد آيات هذا القرآن .

٦ – ثم يخرجُ إلى ذكر معجزة هذا المتنبى فى حبس المدرار (المطر) ، لقطع أرزاق العصاةِ والفجّار .

٢/٢٢٣ ٧ – ثم يقولُ إنه خرج مع غلام أبى الطيب ليرى المعجزة ، فلمّا / استيقنها واطمأن بها قلبُه ، انفلتَ إلى أبى الطيب وهو يقولُ : « ابسُط يدك ... أشهدُ أنك رسولُ الله » ، فبسط يدهُ فبايعه بيعة الإقرار بنبوّته .

٨ – ثم لم يَنِ هذا اللاذقىّ حتى أخذ بيعته لأهله .

٩ – ثم يقول بعد : « ثم (صَحَّ) أن البيعة عمّت كل مدينة بالشام » (يا سبحان الله) .

١٠ – ثم يعقِّبُ على ذلك أن معجزة أبى الطيب كانت « بأصغر حيلةٍ تعلمها من بعضِ العرب وهى (صَدْحَةُ المطر) » .

١١ – ثم يزعمُ أبو عبد الله مُعاذ بن إسمعيل اللاذقىّ رضى الله عنه ! « أنه رأى أهلَ السَّكون وحضرموت والسكاسك من اليمن يفعلون ذلك ولا يتعاظمونه ، حتى إن أحدهم لَيَصْدَحُ عن غنمه وإبله وعن القرية التى هو فيها ، فلا يصيبها شئ من المطر .

١٢ – ثم يقول إنه سأل أبا الطيب هل دخلت السَّكُون ؟ فيقول له : نعم ! أما سمعت قولى :

مُلِثَّ القطْرِ ، أعْطِشَها رُبُوعاَ ... وإلاَّ فاسْقِهَا السَّمَّ النَّقيعَا
أَمُنْسِيَّ السَّكُون وحَضْرَمَوْتاً ... ووالدتى وكِنْدَةَ والسَّبِيعَا

ثم يقول هذا اللاذقى بعقب ذلك : « فمن ثَمَّ استفاد (أبو الطيب ماجوَّزه على طغام أهل الشام » .

١٣ – / ثم يختم حديثه بما كان يمخرق به أبو الطيب على أهل البادية بإيهامهم أن الأرض تُطْوَى له ، وكيف كان ذلك . ٢٢٤/٢

١٤ – ثم يزعمُ أن أبا الطيب سُئِلَ فى تلك الأيام عن النبى ﷺ ، فقال : « أخبرَ بنبوّتى حيث قال : « لا نبىّ بعدى » ، وأنا اسمى فى السماء (لا) » .

هذا مختصر حديث هذا اللاذقىّ ، وأنت إذا قرأته بتمامه رأيته أحمق قولٍ يعجزُ عن الإتيان بمثله أحمقُ معتوهٍ ، لما فيه من الاضطرابِ والسخف والتلفيق والكذب ، وقلّةِ مبالاة هذا الرجل بنسبة الكفر إلى نفسه ، حين زعم أنه قال لأبى الطيب : « ابسط يدك ، أشهد أنك رسول الله » ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *

فهذه أغراضٌ فى كلام اللاذقى قد بينا لك عددها (١٤) ، تناول منها الأخ سعيد ثلاثة أغراض هى الثلاثة المتتابعة فى تَعْدَادنا ، وقذف بالباقيات وردها وأهملها ، لأنها مما (يرفضه العقل ، ويكذبه الواقع) ، كما قال فى كلمته الأخيرة ، ومن قَبْلُ ما قال فى كلمته

التى نشرها فى (الرسالة – العدد ١٦١) : « وسأعفى نفسى من أشياء كثيرة ، وردت فى (الصبح المنبى) لا يقبلها عقلٌ ولا تؤيدُها قرائن » ، ويعنى هذه الرواية عن اللاذقى .

وأنا أسأل الأستاذ سعيد أن ينصف نفسه وينصفنا ، وأن يعفينا من التأويل وطلب الحجة فيما لا تأتى منه الحجة إلا متكلَّفَةً على أبعدِ وجه وأضلِّ سبيل .

فانظر ، أيها الأستاذ سعيد : إمَّا جاءك رجلٌ بحديث قد استيقنت أن نصفه كذب قد مُزِج بقول غير معقول ، أفأنت مصدِّقُهُ فى سائر الحديث الذى جاءك به ؟ فإن قلت : لا أصدقه فى سائر حديثه ، فقد بطل ما جاء به هذا / اللاذقى كله ، لأن أربعة أخماسٍ من حديثه مما (يرفضها العقل ويكذبها الواقع) كما قلت أخيراً ، ومما لا يقبلها عقل ، ولا تؤيدها قرائن ، كما قلت أولاً .

٢٢٥/٢

وإن شئت أن تتطلب الجدَل فقلت : أصدق بعضه ، وأكذب بعضه . فإنك غير قادر على أن تنشئ لهذا الرأى حجة يلجأ إليها ، أو دِعامة يعتمد عليها ، فإن هذا اللاذقى رجلٌ مجهول فى الرواة لا يُعْلَم حالُه فى صدق أو كذب ، ومن كان كذلك نُظر فى قوله ، فإن كان الذى يأتى به من الرواية صدقاً ، كان ذلك مانعاً من اتهامه بالكذب إلا ببينة أخرى ، وإن كان كذباً لم تجد بُدًّا من وسمه بالكذب وإسقاط روايته كلها ، وجملةً واحدةً ، ويصبح ما أتى به كله كأن لم يُرْوَ ولم يعرفْ ، فلا ينظرُ إليه فى رواية أو تاريخ .

فإن قلت : أقبل المعقول وأردُّ غير المعقول . فلابُدَّ من أن نقول لك إنك قد اعتمدت فى بعض قولك على مذهب أهل الحديث فى علم الرواية ، فقلت : « إن من أدلة الوضع عند المحدثين مخالفة الواقع والمعقول » ، ونعم ، فإن رواية ما يستحيل أن يقع ، وما لا يأتى على وجه يرتضيه العقل ، ساقط عند المحدثين ، وهم يتَّهمون صاحبه بالكذب والوضع فلا نقبل له روايةً أبداً ، ولو كانت صادقة ، ولو كان فى قولِ غيرِه من الصادقين ما يقع عليها حرفاً حرفاً ، وكلمةً كلمةً . فهذا مذهب القوم بتمامه ، ومذهب عقلاء الناسِ فى أمر دينهم ودنياهم .

واعلم أيها الأستاذ سعيد أن القول يُرَدُّ ويُرْفَض ويُكَذَّب صاحبه ، لأنه غير معقول ويستحيل وقوعه ، ولا يمكن فى العقل أن يطَّرد عكسُ هذه القضية . فليس يُقْبَل القولُ ويُرْتَضَى ويُصَدَّق صاحبه لأنه معقول وجائز وقوعه وحدوثه . ولست أشك فى موافقتك لى على هذا ، إذَنْ فليس من / الحكمة ولا من الصواب ولا من العدل ولا من العلم أن تختصر حديث اللاذقىّ ، فتأخذ منه المعقول الجائز الحدوث ، وأنت تردّ سائر حديثه بل أكثره ، ثم تقول عنه فى عدد الرسالة (١٦١) : « وقد حفظ لنا (التاريخُ) مشهداً من مشاهد هذه الدعوة (النبوّة) فى اللاذقية » . فليس شئ من كلام الوضاعين والكذابين مما يصحُّ أن يعتمد عليه فى تاريخ أو غيره . ٢٢٦/٢

ثم لو نظر الأستاذ سعيد إلى هذا الحديث الذى عدّه (مما حفظ التاريخ من مشاهد دعوة أبى الطيب إلى نبوته) ، لوجدَ يقيناً أن هذا المختصر من حديث اللاذقىّ هو أيضاً (مما يرفضُه العقل ويكذبه الواقع) و (مما لا يقبله عقل ، ولا تؤيده قرائن) ، فإن فيه من الوهن والضعف والتخالف والتناقض ما لو تدبّره الأستاذُ – وهو يدرس شعر أبى الطيب ، ويصوِّر منه نفسه وطبائعها وغرائزها – لعلم أنه موضوعٌ متكلفٌ ليس فيه من الصدق شئ . ولم أُرِدْكَ بسوءٍ ، أيها الأخ ، إذ قلت فى كلمتى السابقة : إنك تأخذ من الكلام ما تشاءُ ، وتدع ما تشاء ، فتزول بذلك شبهاتك .

إن للرواية أصولاً لا يتأتّى لأحد أن يخرج عنها إلا بحجة لا تسقط عند النقد والنفض ، ومن أصول الرواية ألاَّ تُقبل روايةُ من كذَب فى أحاديث أو وضعها ، وإن كان سائر الذى يرويه مما تَعْضُدُه فيه رواية غيره من الصادقين ، فكيف بمن يكون أمرُه فى الحديث الواحد : أربعةُ أخماسٍ كَذِبٌ غير معقول ، والخُمْسُ الباقى تختلفُ عليه الآراء فى وصفه بأنه صدق أو كذبٌ ، أو معقول أو غير معقول ، أو تؤيده قرينة أو لا تؤيده قرينة ؟ ألاَ إن هذا أولى بالإسقاط والرفض والنَّبْذِ حيثما ثُقِف ، وكذلك هو حديث هذا اللاذقىّ المجهول .

* * *

٢٢٧/٢ ٥ - / وقد أراد أستاذنا سعيد أن يوهم قارئ كلامه أننا اتخذنا رأينا - فى نسبةأبى الطيب إلى الشجرة العلوية المباركة - (برهاناً) على ردِّ رواية هذا اللاذقىّ المجهول لقولنا فى ص : ٢٠٧ : « أما اللاذقى فمجهولٌ ولا يتيسر لنا نقد سنده ، ولكن مما لا شك فيه أن اللاذقية التى نسب إليها ، كانت لوقت أبى الطيب موطناً لفئة من العلويين ، ومَحَطًّا لكثير من كبار الدعاة العلويين الذين أحدثوا أحداثاً عظيمة فى التاريخ العربى كلّه » . فلذلك لم يتورَّع عن بَتْرِ بقية كلامنا ، فقد قلنا بعقب هذا وبغير فصل : « فلا بأس من أن تجعل هذا ذكراً مذكوراً وأنت تتبصَّر فى أصل الرواية على وَهَنِها وتضاربها ، وتَهَالُك معانيها التى يفسد بعضها بعضاً كما سترى » . فلو كنا قد اتخذنا هذا (برهاناً) لقلنا مكان (فلا بأس) (فلابد) ، ليستقيم المعنى الذى أراده لنا الأستاذ الجليل . ويخيل إلىّ أن الأستاذ سعيدًا سيحاول أن يقع فى هذا الكلام بالتأويل . فأنا أضرب له المثل على الفرق بين هذا وذاك ، ليدع هذا الذى يعمد إليه من أفانين الكلام . فإنك لو أردت أن تعلم جاهلاً دين الإسلام بعد إيمانه بصدق القرآن ، وأنه وَحْىٌ من العزيز الحكيم ، ثم أخذت تفهمه أنَّ الصلاة عمود الدين ، وأن الله أمرَ بها عباده ، والبرهان والدليل على ذلك قوله تعالى : « وأقيموا الصلاة » ، فلست تقول له بِعَقِبِ ذلك : « (فلا بأس) من الصلاة » ، وإنما تقول : « فلابد من الصلاة » .

ولو تدبر الأستاذ قليلاً ، كما سألناه فى كلمتنا الأولى (عدد الرسالة ١٦٧) ، لعلم ٢٢٨/٢ أن الإشارة فى هذا الموضع هى إلى الذى قلناهُ فى كتابنا ص ١٥٠ - ١٥٦ ، / من أنه كان بينه وبين العلويين عداء وحفيظة ، [1] بلغ من أمرها أنهم أرصدوا لَهُ قومًا من السودان عبيدِهم فى طريقه بكفر عاقب ليقتلوه - وذلك مُنْصَرَفَهُ من طبرية سنة ٣٣٦ - حتى إن

---

(١) قد صرفنا القول فى كتابنا ونحن نذكر العلويين ، ونريد بذلك العلويين نسباً ، والعلويين مذهبًا (الشيعة) ، إذ لم نجد ضرورة للتفريق بين هؤلاء وهؤلاء . وليس يخفى على القارىء موضع هذا وذاك .

أبا الطيب لم يحجم عن التعريض بهم ، وهو يمدح كبيراً من أولاد على رضى الله عنه بالرملة ، وهو أبو القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوى فقال فى مديحه :

أَتَانِى وَعِيدُ (الأَدْعِياءِ) وأَنَّهم   أَعَدُّوا لِىَ السُّودَانَ فى كَفْرِ عَاقِبِ
وَلَوْ صَدَقُوا فِي جَدِّهِمْ لَحَذِرْتُهُمْ   فَهَلْ فِىّ وَحْدِى قَوْلُهُمْ غَيرُ كاذِبِ

وقال فى مدح الأمير آبن طغج ، وقد صحبه أبو القاسم العلوى وأقام معه فى الرملة يحضر مجالسه :

وَفَارَقتُ شَرَّ الأَرض أَهْلاً وَتُرْبَةً   بِهَا (عَلَوِىٌّ) جَدُّه غَيرُ هَاشِمِ

فلهذا ولغيره من آثار العداوة والبغضاء بين أبى الطيب والعلويين (مذهباً أو نسباً) قلنا فى ص : ١٥٠ : « إن عندنا فى أقوال العلويين المعاصرين عن أبى الطيب سبباً للتوقف دون التسليم » .

هذا ، على أن عندنا من الأسباب ما يحملنا على ردّ رواية العلويين فى أخبار أبى الطيب ، وقد ذكرنا بعضها متفرقاً فى كتابنا ، وبعض آخر لم نذكره لضيق الوقت ، ورغبة فى اختصار القول ، واعتماداً على فطنة القارئ ، / إذ كان فى وضع كلامنا ما يُشِيرُ إلى أطرافه . ٢٢٩/٢

***

٦ — قلت فى كلمتى التى نشرتها الرسالة (العدد ١٦٧) إن الأخ سعيدًا قد لا يجد دليلاً على صحة هذه الروايات التى رُويتْ فى نبوّة أبى الطيب ، فيما يزعم ، إلاَّ أنه قد رواها فلانٌ وفلان ، ورواها المعرّى — وهو الحجة والثبت ، وقلنا : إن الحكم = بأن رواية المعرى — أو غيره من العلماء ، هذه الأخبار ، مما يصححها أو يرجح الصدق فيها = حكم خطأ لا يصحُّ لأحد أن يتابع عليه ، ولم أقل ذلك إلا لقول الأستاذ فى عدد الرسالة (١٦١) : « وسأعتمد فى قص الحادث (يعنى النبوة) على أبى العلاء خاصة ، لفضله

وتحرِّيه وقرب زمانه » ، وهذه الكلمة الأخيرة وحدها تدلُّ على أن الأستاذ يَعُدُّ ما يرويه أبو العلاء عن أبى الطيب مما ترجح فيه كفة الصدق على كفة الكذب . ولكن الأستاذ لم يرض قولنا هذا ، فعاد يقول فى كلمته الأخيرة : « هذا وقد حمل الأستاذ أقوالى ما ليس تحمل : فأنا لم أدع للمعرى تنزهاً عن الخطأ ، ولم أقل بأن « ورود خبر فى كتب العلماء هو الدليل الذى لا دليل غيره ، وما جعلت قرب الزمن دليلاً على الصحة ، بل هو مما ييسر للمحقق وسائله » اهـ . وأنا لا أحب أن أكثر القول على أستاذنا فى نقد كلامه هذا ، بل أقول : إن كان فى يدك دليل على صحة هذه الروايات والأخبار فأظهره ولا تكتمه ، فمن قبلُ ما قلنا لك فى مقالنا بعدد الرسالة (١٦٧) إن « الخبر لا يستحق صفة الصدق إلا بالدليل الذى يدل على صدقه ، فإذا لم تجد الدليل على صدقه ، ذهبت عنه صفة الصدق وبقى موقوفاً ، فإذا اعترضت الشبهات من قبل روايته أو درايته ، مالت به الشبهة إلى ترجيح الكذب فيه .... » . ولكن أستاذنا لم يُرِدْ أن يقف عند هذا القول ، / وزعمه ٢٣٠/٢ من (التهويل) ويقول : « وما التهويل بمُغْنٍ عن أحدنا فتيلاً » ، وزعم أنى « لم أجد بأساً فى أن أعرفه أن الخبر ما يحتمل الصدق والكذب ، وأن وأن ... إلخ إلخ مما يدرسه الطلاب المبتدئون » . وظن أن فى هذا القول مذهباً له عن الإتيان بدليله على صدق الروايات التى يزعم أنها من التاريخ وأنها صحيحة . ويخرج من هذا ويدعه ليقول : « إننا نبزنا روايات التاريخ بالبطلان والكذب ، ثم لا يكون دليلنا عليها إلا أنها كذب وبطلان » . وليس الأستاذ ببالغ من كلامنا مبلغاً يسقطه أو يحزُّ فيه ، إلا أن يثبت لنا أوّلاً صحة هذه الروايات ، ومن أين لأحدٍ أن يسلم بصحتها ، ويقتنع بأنها خالية من الكذب والوضع وسوء القصد فى الإساءة والتشهير والتسميع بأبى الطيب ؟ فإذا فعل ذلك فقد بلغ أوّل الحق ، وكان له أن يَجْبَهَنا بما شاء من القول مصرحاً ومعرضاً . فالدليلَ الدليلَ أيها الأستاذ سعيد .

* * *

٧ – ومن أعجب أمر الأستاذ سعيد أنه ينشيء من الكلمة الواحدة تَرِدُ فى الكلام جملةً لها معنى يُوَجِّهه هو كيف أراد على ما خَيَّلت ، ويضعها حيث شاء من الحديث غير متهيب ولا متلفتٍ عن يمين وشمال ، ولو خرج بالكلام الذى أمامه من العربية ... كما مرّ بك فى كلمتنا السابقة . فمن ذلك أنه وقف عند قولنا فى الكلمة الأولى (الرسالة عدد ١٦٧) : « وتَرْكُ المعرى الشك (فى تلك الأخبار) أو تكذيبها ليس يقوم أيضاً دليلاً على صحتها ، وليس المعرى بمنزَّهٍ عن الخطأ والغفلة ، وهو من هو ، فذهاب وجه النقد عن المعرى ليس يكون طعناً فيه ، ولا يوجب نسبة الكذب إليه ، ولا ينفى صفة الصدق عنه » . وليس يذهب عن أحد من القراء أننا أردنا بهذا الكلام أن ندفع ظنَّ / مَنْ ٢٣١/٢ يظن – أيَّ الناس كان – أنَّ توقُّفنا دون التسلم بما رواه المعرِّى فى خبر نبوة أبى الطيب أو نقدنا له ، أو تكذيبنا أو إسقاطنا لما روى – يكون طعناً فيه ، أو يعدّ مما يوجب نسبة الكذب إلى أبى العلاء . ولكن الأستاذ سعيداً ترك هذا ، وأراد أن يبالغ وينشيء حول كلامه (خَطًّا من النار) ، فأخذ كلمتنا : « وليس المعرى بمنزه عن الخطأ والغفلة » ، وردَّها بقوله : « وأنا لم أدَّعِ للمعرى تنزُّهًا عن الخطأ » ، فكيف – أيها الأستاذ سعيد – تزعم أننا قلنا إنك ادعيت للمعرى تنزهاً عن الخطأ ، وكيف تخرج هذا الذى ذهبت إليه من كلامنا ؟

ليعلم الأستاذ أنى لا أحفل بمثل هذا ، ولا أنظر إليه ، ولا أقف عنده ، ولكنى أبينه له ولغيره ، ليعلم أن كل أحد يستطيع أن يقول ما يشاء ، فيما يشاء ، على أى وجه يشاء ... ولكن ذلك لا يجوز على أحدٍ ، ولا يغفل عنه من قرأ الأوّل والآخر ، ونَظَر وفَهِم وجَمَع وعَرَف معانِىَ الكلام ، وكيف خرج ، وإلى أين ينتهى . وليعلم أيضاً أن كل أحد يستطيع أن يفهم من الكلام ما يشاء على غير قاعدة من منطق أو عربية ، ولكن فهمه لا يكون حجة يأتى بها الناس ويَظْهَرُ بها عليهم ، ويحاول أن يسقط أقوالهم بها . لابُدَّ للكلام من منطقِ عقلٍ وفقهِ عربيةٍ حتى يُفْهَم ، وإلا أصبحت المعانى فَوْضَى لا ضابط لها ولا وكيل عليها ولا حفيظ .

وللقارىء أن ينظر إلى فَعَلات الأخ سعيد هذه ، فقد قلنا فى كلمتنا الأولى (الرسالة عدد ١٦٧) عند ردِّ اعتراضه : « إن هذا الخجل الذى يزعمونه / إنما هو من أباطيل (الرواية) ، وقد أتى به القوم ليعضُدُوا قولهم فى خرافة النبوة .... إلخ » ، فجاء ينقل هذا فى كلامه مرتين هكذا : ٢٣٢/٢

« إن هذا الخجل الذى يزعمونه إنما هو من أباطيل (الرواة) » ، فنحن نقول : « الرواية » ، وهو يقول على لساننا « الرواة » ، وبين اللفظين فرق « كبير » فى عربيتهما ، وفى موقعهما من الكلام . ولو أردنا الذى أراده الأخ سعيد لكلامنا لقلنا : « من أكاذيب الرواة » . ولو رجع الأخ إلى كلامنا الذى أعقب هذه الكلمة ، لعلم لِمَ قلنا (أباطيل الرواية) ، ولم نقل (أكاذيب الرواة) . هذا على أنى أقول أيضاً إن الذى زعموه من خجل أبى الطيب حين كان يسأل عن أمر لقب « المتنبى » — هو من أكاذيب الرواة : فإذا أراد الأستاذ أن يعرف من هم هؤلاء الرواة ، فليرجع إلى الكتاب الذى نقل عنه هذا الكلام ، فينظر مَنْ هم ، ومع ذلك فليس تغنى معرفة الرواة شيئاً فى هذا الأمر . وتعبٌ أن أمضى على هذا الوجه فى تعريف الأستاذ سعيد بوجوه بطلان كلام هؤلاء الناس الذين نقل كلامهم ، فعليه أن يريحنا قليلاً بتدبُّره فى كلام هؤلاء الناس ، والنظر فى معانى رواياتهم بالذى توجبه العربية ، مع المقارنة بين هذه المعانى المختلفة المتباينة ، فعند ذلك يعرف كيف كان التناقض فى الرواية ، وكيف هدمت الروايات بعضَها بعضاً فى خبر نبوة أبى الطيب .

***

وبعد ... فإن فى كلام الأستاذ من وجوه التهافت ما لا تطيعنى (الرسالة) على الإفاضة فيه ، ولا يواتينى الزمن على إزهاقه من أجله ، ولكنى أنصح / للأخ أن لا يلجأ إلى ضروب القول التى يخرج بها الكلام عن حدِّه إلى مجاهل من المغالطة والاعتراض ، وإرادة الغلبة واتباع الظن ، وفتنة الرأى ، والإصرار على خطرات النفس . وليعلم الأستاذ أنى ٢٣٣/٢

لست ممن يغفل عن مواضع التحريف فى القول ، أو الإحالة فى الحجة ، أو الفساد فى التأويل . فإن أراد أن يعود إلى الحديث والكتابة ، فليعد على مذهب مرضيٍّ متبع معروف غير منكر . فإن فعل ، فما أنا بالذى يسوءه أو يغضبه ، وما أريد من شئ إلا أن أهتدى إلى الحق على يدى مَنْ كان له فضل السبق ، وحسن الحديث ، وكمال الغلبة بالحق ....

هذا وقد أعفينا الأستاذ من كثيرِ قولٍ فى الذى جاء فى مقاله الأخير – لو أردنا أن نكيل له من جرّائه بمثل كَيْلِه لفعلنا فأشْوَيْنَا .... ولكن :

عَبَأْتُ لَهُ حِلْمِى لِأُكْرِمَ غيرَهُ وَأَعْرَضْتُ عنه ، وهُو بادٍ مَقَاتِلُهْ

***

حول « نبوة المتنبى أيضاً »

سعيد الأفغانى

٢٣٤/٢ / قرأت للأخ شاكر مقاليه الأخيرين المطولين جداً فى الرسالة (١٧١ ، ١٧٢) ، فإذا ما أريد أن قوله قد قلته سابقاً فى الرسالة (١٧٠) ، فليرجع إليه فهو رد على مقاليه هذين أيضاً .

لما عرف الأستاذ شاكر أنا « لا نحفل رداً ولا نقداً إلا إذا كان حقاً ، وسبيلنا حينئذ أن نأخذ به أنفسنا ونشكر لصاحبه » ، عاذ بذلك ، فراغ رَوْغةً عدل فيها بالكلام عن وجهه الذى يجب أن يكون فيه ، فلم تظفر اعتراضاتنا – لسوء حظها – منه بجواب . وقد كنا طلبنا إليه التعرض لهذه الأخبار التى رماها جملة بالكذب ، فيبين وجوه بطلانها ، والسبب الحادى لرواتها على وضعها ، ببيان يزيل اللبس ويرضى الأمانة والعقل ، فأبى وطفق يتعلق بتوافه الأمور . فهذا كلام شغل أربعة أعمدة من (الرسالة) فى تزييف رواية اللاذقى ، وقد عرف القراء قيمتها عندنا ، وذاك كلام يعرض لبسطى عذرى فى التأخر بالرد ، وذلك كلام آخر طويل يدور حول ياء سقطت من كلام له نقلناه .... إلخ .

٢٣٥/٢ / استوفى الأخ ستة عشر عموداً زَوَى عنا فيهن حججه المزعومة ونافِعَ بيانه ، وأطلق قلمه فسطر من القول النبيل ما نمر به مرَّ الكرام . ولما أشرف على الختام قال : « وتعبٌ أن أمضى على هذا الوجه فى تعريف الأستاذ سعيد بوجوه بطلان كلام هؤلاء الناس الذين نقل كلامهم » . وقد علم أصلحه الله وعلم القراء أن البحث والحوار كله

(*) نشرت فى مجلة الرسالة (العدد : ١٧٤) ، الاثنين ١٧ من شعبان سنة ١٣٥٥/٢ من نوفمبر سنة ١٩٣٦ .

يدور حول هذا فقط ، ففيم الهرب منه والاشتغال بغيره ؟ ولست أنا الذى أدعى بطلان الروايات فأحتاج لمعرفة وجوه البطلان ، وإنما نفع ذلك وغناؤه - إن تم - عائدان عليه وحده ، فهو الذى ألف واستهدف ، وهو الذى ادعى وأعوزه البرهان .

وقد كنت ظننت أنى مع أستاذ يعيننى فى إزالة ما حول هذا البحث من شُبَهٍ بالعلم الواسع والحجة البالغة ولطف التأتِّى وحسن القصد ، فإذا بى أمام امرئ يريدها جدلاً ومراءً ، أو استطالةَ قولٍ وحب غلبة ، مع معرفته من نفسه الحدة وضيق الصدر .

فما أنا - وقد عرض الأستاذ لنا أدبه عرضاً صحيحاً - بالذى يجاريه فى أسلوبه . وكل ما تفضل به من غمز آحتل من مكانه محل الحجة ، لا يحدونى على مقابلته أو مشاكلته ، ولا على الخروج على قاعدتى التى أطمعته فورَّطته ، وكانت خليقة منه بغير ما فعل .

ليت الأستاذ شاكراً كان تريَّث فلم يحرص على صدور رده عقب كلمتى بلا تأخر ، ولم يخرج عما أخبرنا من طبعه فى الإبطاء والتخلف ، فإن الناس / لا يقدرون ٢٣٦/٢ الكلام بسرعة صدوره ، وإنما يقدرونه بما يحمل من الحق والصواب .

ليته تريَّث وتدبر وأنعم فى كلامه وكلام غيره ، إذن لما أعجله حب الرد للرد ، فجعله ينقض فكرة هى له على أنها لغيره ، ويستنجد لدفعها بالعربية والمنطق والأصول ، وبيان ذلك باختصار أنه :

كان أشكل عليه فى كلام أبى على بن أبى حامد أمر الوثيقة التى كتبوها على المتنبى بعد أن استتابوه من دعوى النبوة ، فذهبنا نحن إلى أنها فى إبطال علويته لا تنبئه ، وأمرُ علويته ورد فى روايات ثانية ، فكان من الأستاذ أن أورد رواية أبى على ثم علق على كلامنا فيها بقوله : (الرسالة ص : ١٦٦٥) .

« فأنت ترى أن لا ذكر للعلوية فى هذا الخبر ولا فى غيره مما روى عن على بن أبى حامد هذا ، فكيف يتأتى لك أن تقحم العلوية فيه ، وهو لم يذكرها فيه ، ولم ترد عنه فى خبر

غيره ، ثم تعمد إلى الكلام فتؤوِّل بعضه على النبوة وبعضه على العلوية فتجعل التوبة للأولى والوثيقة للآخرة ؟ » .

والذى قلناه نحن هو هذا (الرسالة ١٧٠) : « وليس فى الأمر مشكلة ولا تناقض ولا داع لأن يرجح الأستاذ (ص : ٢٠٧ ، ٢٠٨) من كتابه إقحام لفظ النبوة بين العلويتين فى حديث الهاشمى ، وليقول : (إن المراد بالنبوة (تأمل) فى حديث أبى على بن أبى حامد : العلوية) ، فمن المقحم ومن المؤوِّل أيها البحاثة / المحقق الذى لا ينسى اليوم ما قاله أمس ؟! ثم قلنا : « فعلوية أبى الطيب التى أراد أن يفسر بها النبوة الواردة فى الروايات على اختلاف مصادرها لم تسلم له من الأصل ، وبقى المتنبى جعفياً يمنياً . وإذا كان لابد (تدبر) من إيراد احتمال ، فالأولى أن تجعل العلوية الثانية من زيادات النساخ وإقحامهم . على أن الروايات فى غنًى عن هذا الفرض أيضاً (تأمل وتدبر) وليس فيها داع إلى شك أو تأويل . فمن الغريب جداً أن ينكر أبو الطيب دعوى النبوة من ساعة القبض عليه ، وأن يظل على العلوية طول أيام سجنه حتى كتابه الوثيقة » .

٢٣٧/٢

فنظرية الإقحام أنت قلت بها أيها الأستاذ الجليل لا نحن ، وكلمتنا بدئت بقولنا : (إذا كان لابد من احتمال) ، أما كلمتك فبدئت : (إن المراد بالنبوة فى حديث أبى على .... العلوية) (ص : ٢٠٨) من كتابك القيم ، [١] وأياً كان صاحب اكتشاف الإقحام ومؤوِّل النبوة بالعلوية ، فهو ونظريته خليقان بما تفضل به الأستاذ من استنكار واستبشاع .

لقد رمانى الأستاذ بدائه : عدم التدبر والتحريف ، وأراد أن يتناول فكرة لى كيفما اتفق له لينقدها ، فوقعت يده على فكرته هو منقولة فى كلامى ! وقاتل الله العجلة ،

(١) نص كلامى فى هذه الصفحة مختلف جدًا ، لأنى قلت : « وترى أن نصّ أبى على بن أبى حامد يرجح دَعْوى العلوية لا دعوى النبوة » ، والكلام قبله من أول ص ٢٠٨ ، يوضح مقصدى كل التوضيح ، لأن استتابة مدعى النبوة ، لا تحتاج إلى وثيقة تكتب ، لأن الذى يكتب فى وثيقة هو فى الأمر يُخْشَى فيه معاودة الدعوى ، كالعلوية مثلاً .

فقديماً ذكروا أن تاجراً أضمر أخذ عِدْل من أعدال شريكه ، فوضع رداءه عليه ليعرفه فى الظلمة ، ثم ذهب وجاء رفيقه ليصلح أعداله ، فوجد رداء رفيقه على عدله ، وظن أنه نسيه ، فرفعه ووضعه على عدل شريكه . ولما كان الليل أتى الشريك بحمَّال واطأهُ ، ففتح الحانوت / واحتمل العدل الذى عليه الرداء وأخرجه هو والرجل ، وجعلا يترواحان على حَمْلِه حتى أتى منزله ورمى نفسه تعباً ، فلما أصبح افتقده فإذا هو بعض أعداله !! ٢٣٨/٢.

فعلى القارئ المتتبع أن يرجع حيثما وجد نقلاً لكلامى إلى الأصل المنقول عنه ، فلست أفرغ دائماً لبيان ما حُرِّف ، ولا أحتمل إلا تبعة ما قلته بحروفه ، غير مرويٍّ بكلام من غيرى . ومَنْ أوَّل كلامى بجُمَلٍ من عنده ثم شرع فى ردِّها ، فإنما ردُّه على تأويله فحسب .

كان رغب إلينا الأخ شاكر ألا نتبع ظننا فى أنه من أهل الغرور والذهاب بالنفس والجهل بمقدارها ، والمكابرة فى العلم والجدال فيما لا جدوى منه ولا منفعة . وقبل كلمته هذه كان ادعى لنفسه تدبراً وإمعاناً وأصولاً ودراية ، ثم فى الأخير حِلْماً عند المقاتل البادية ، حين لمزنا بالحاجة إلى هذه الصفات ، وكلام كلينا معروض لمن أراد تثبتاً ، وسبحان الذى قال : « كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولوا مَا لاَ تَفْعلون » .

فهل أجد حرجاً فى أن أقول ثانية : « صحف الرسالة أحوج إلى أن تملأ بالحقائق والبرهان منها إلى الدعوى والانتقاص » .

وإن القراء « لا يخفى عليهم وجه الحق فى كلام اثنين ، ولا يصرفهم عنه نيل من صاحبه ومراوغة فى الحط منه » ، وحرام أن أقتل الوقت فى تتبع المزالق التى زلَّ فيها صاحبنا فى مقاليه هذين ، فما هى بنافعتنا فيما ظهر ، / لتباين أسلوبينا فى البحث و (اختلاف فى الجبلة) ، على ما قال الأخ شاكر . ٢٣٩/٢

وما أنا بعائد إليه ، لأن الحقيقة لم تفد شيئاً بخوض هذا البحث معه ، ولن أجارى

أخى فى طريقه التى سلكها فما هى لى بطريق ، ولا أَرَبَ لى بتعسف المتاهات . ولولا أن يظن العجول من القراء أن نظرية الإقحام وتأويل النبوة بالعلوية التى رمانى بها الأستاذ على عجلة وخطأ ، هى نظريتى وفكرتى ، لما خططت حرفاً من كلمتى هذه .

وبعد ، فليس عندى لأخى الأستاذ على أقواله فىَّ غير السلام .

* * *

كلمة الرافعى



المقتطف والمتنبى

٢٤٣/٢ / المقتطف شيخ مجلاتنا ، كلُّهن أولادُه وأحفادُه ، وهو كالجدِّ الأكبر : زَمنٌ يجتمع ، وتاريخ يتراكم ، وانفرادٌ لا يُلْحَق ، وعلم يزيد على العلم ، بأنه فى الذات التى تفرض إجلالها فرضاً ، وتجب لها الحرمة وجوباً ، ويتضاعف منها الاستحقاق ، فيضاعف لها الحق .

وهل الجدُّ إلا أبوَّة فيها أُبُوَّةٌ أخرى ؟ وهل هو إلا عَرْشٌ حيٌّ درجاته الجيل تحت الجيل ؟ وهل هو إلا امتدادٌ مسافاته العصر فوق العصر ؟

والمقتطف يكبر ولا يهرَم ، ويتقدم فى الزمن تقدم المخترعات ماضية بالنواميس إلى النواميس ، مقيدةً بالمبدأ إلى الغاية ، وهو كالعقل المنفرد بعبقريته ، واجبُه الأوَّل أن يكون دائماً الأول . فقد أنشىء هذا المقتطف وما فى المجلات العربية ما يغنى عنه ، ثم طَوَى فى الدهر سبعة وثمانين مجلداً أقامها سبعة وثمانين دليلاً على أن ليس ما يغنى عنه . ثم أسَفَّت الدنيا حوله بأخلاقها وطباعها ، وتحولت مجلات كثيرة إلى مثل الراقصات والمغنيات والممثلات ، وبقى هو على الوفاء لمبدئه العلمى والسموِّ فيه والسموِّ به ، كأنما أُخِذَ عليه فى العلم والأدب ميثاق كميثاق النبيين فى الدين والفضيلة ، فبين يديه الواجب لا الغرض ، وهمه الإبداع بقوى العقل لا الاحتيال بها ، وهَدْيُه الحقيقة الثابتة فى الدنيا لا الأحلام المتقلبة بهذه الدنيا ، وطريقه فى كل ذلك طريق الفيلسوف ، / من هدوء نفسه ٢٤٤/٢ لا من أحوال الدهر ، فهو ماض على اليقين ، نافذٌ إلى الثقة ، متنقل فى منزلةٍ منزلةٍ من يقينه إلى ثقته ، ومن ثقته إلى يقينه .

(*) نشرت فى مجلة الرسالة (العدد : ١٣٢) ، الاثنين ١٨ من شوال سنة ١٣٥٤/١٣ من يناير سنة ١٩٣٦ .

وقد بدأ المقتطف مجلده الثامن والثمانين بعدد ضخم أفرده للمتنبى ، ولئن كانت الأندية والمجلات قد احتفلت بهذا الشاعر العظيم ، فما أحسب إلا أن روح الشاعر العظيم قد احتفلت بهذا العدد من المقتطف .

ولست أغلُو إذا قلت : إن هذه الروحَ المتكبرة قد أظهرت كبرياءها مرة أخرى ، فاعتزلت المشهورين من الكتاب والأدباء ، ولزمت صديقنا المتواضع الأستاذ محمود محمد شاكر مدةَ كتابته هذا البحث النفيس الذى أخرجه المقتطف فى زهاء ستين ومئة صفحة ، تدُلُّه فى تفكيره ، وتوحى إليه فى استنباطه ، وتنبهه فى شعوره ، وتُبَصِّره أشياءَ كانت خافيةً وكان الصدقُ فيها ، ليردَّ بها على أشياء كانت معروفةً وكان فيها الكذبُ . ثم تعينه بكل ذلك على أن يكتب الحياةَ التى جاءت من تلك النفس ذاتها ، لا الأشياء التى جاءت من نُفوس أعدائها وحسَّادها .

ولقد كان أوّل ما خَطَر لى بعد أن مضيت فى قراءة هذا العدد = أن المؤلف جاء بما يصحُّ القول فيه : إنه كَتب تاريخ المتنبى ولم ينقله . ثم لم أكد أُمْعِن فى القراءة ، حتى خُيِّل إلىَّ أنه قد وضع لشعر المتنبى ، بعد تفسير الشراح المتقدمين والمتأخرين ، تفسيراً جديداً عن المتنبى نفسه . وما الكلمة الجديدة فى تاريخ هذا الشاعر الغامض ، إلا الكلمة التى نشرها المقتطف اليوم .

٢٤٥/٢ / إن هذا المتنبى لا يَفْرُغ ولا ينتهى ، فإن الإعجاب بشعره لا ينتهى ولا يفرُغ . وقد كان نفساً عظيمة خلقها الله كما أراد ، وخلق لها مادتها العظيمة على غير ما أرادت ، فكأنما جعلها بذلك زمناً يمتدُّ فى الزمن . وكان الرجل مطويًّا على سِرٍّ أُلْقِى الغموض فيه من أوّل تاريخه ، وهو سِرُّ نفسه ، وسِرُّ شِعْرِه ، وسرُّ قوته . وبهذا السرِّ كان المتنبى كالملك المغصوبِ ، الذى يرى التاج والسيف ينتظران رأسَه جميعاً ، فهو يَتَّقى السيف بالحذَر والتلَفُّفِ والغموض ، ويطلب التاج بالكتمان والحيلة والأمل .

ومن هذا السرِّ بدأ كاتب المقتطف ، فجاء بحثه يتحدَّرُ فى نَسَقٍ عجيب ،

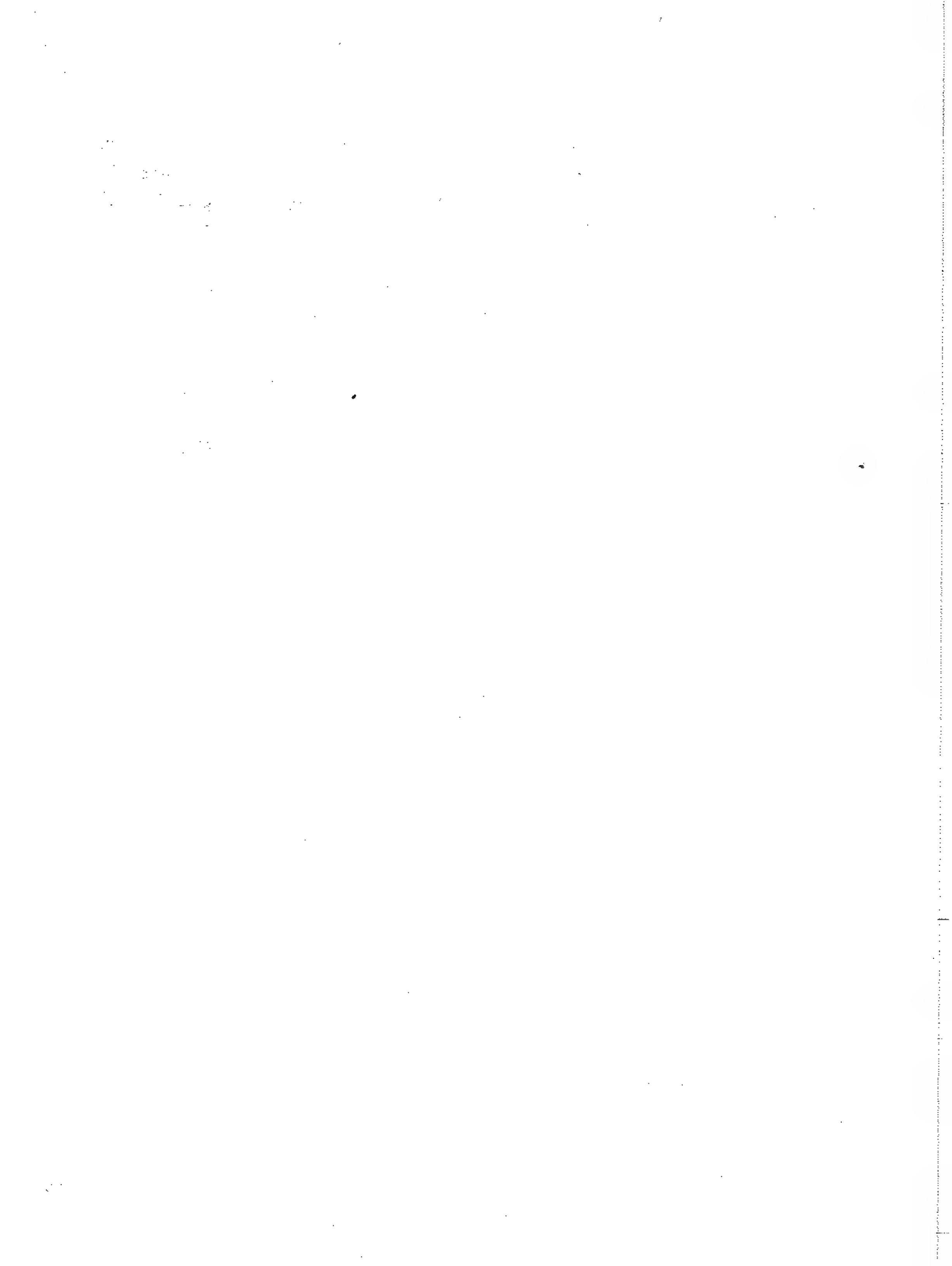
متسلسلاً بالتاريخ كأنه وِلَادةٌ ونموٌّ وشبابٌ ، وعرض بين ذلك شعر أبى الطيب عرضاً حتَّى خُيِّل إلَيَّ أن هذا الشعر قد قيل مرة أخرى من فم شاعره على حوادث نفسه وأحوالها . وبذلك انكشف السرُّ الذى كان مادَّةَ التهويل فى ذلك الشعر الفخم ، إذْ كانت فى واعية الرجل دولةٌ أضخمُ دولةٍ عجز عن خلقها وإيجادها ، فخلقَها شعراً أضخمَ شعرٍ ، وجاءت مبالغاته كأنها أكاذيب آماله البعيدة ، متحقِّقةً فى صورة من صُوَر الإمكان اللُّغَوىّ .

ومن أعجب ما كشفه من أسرار المتنبى : سِرُّ حُبِّه ، فقال إنه كان يحب خَوْلَة أخت سيف الدولة ، وكتب فى ذلك خمس عشرة صفحة كبيرة ، وكأنها لم ترضه ، فقال إنه كان يؤمِّل أن يكتب هذا الفصل فى خمسين وجهاً من المقتطف . وهذا الباب من غرائب هذا البحث ، فليس أحد فى الدنيا المكتوبة (أى التاريخ) يعلم هذا السرَّ أو يظنُّه . والأدلَّة التى جاء بها المؤلف تقف / الباحثَ المدقِّق بين الإثبات والنفى . ومتى لم يستطع المرء نفياً ولا إثباتاً فى خبرٍ جديد يكشفه الباحث ، ولم يهتدِ إليه غيره ، فهذا حَسْبُك إعجاباً يذكر ، وهذا حَسْبُه فوزاً يُعَدُّ . ٢٤٦/٢

ولعمرى لو كنت أنا فى مكان المتنبِّى من سيف الدولة ، لقلت إن المؤلف قد صَدَق .... فهناك موضع لابدَّ أن يُبْحَثَ فى القلبِ الشاعرِ الذى وَضَعَتْ فيه الدنيا حكمتها ، وطَوَتْ فيه القوة سرَّها ، وبَثَّ فيها الجمال وَحْيَهُ = وأصغرُ هذه الثلاث ، أكبرُ من الملوك والممالك ، ولكن الحبيبةَ أكبرُ منها كلِّها ...

مصطفى صادق الرافعى

* * *



أربع تراجم للمتنبى

١ – ترجمة على بن عيسى الرَّبعيّ (٣٢٨ – ٤٢٠ هـ)

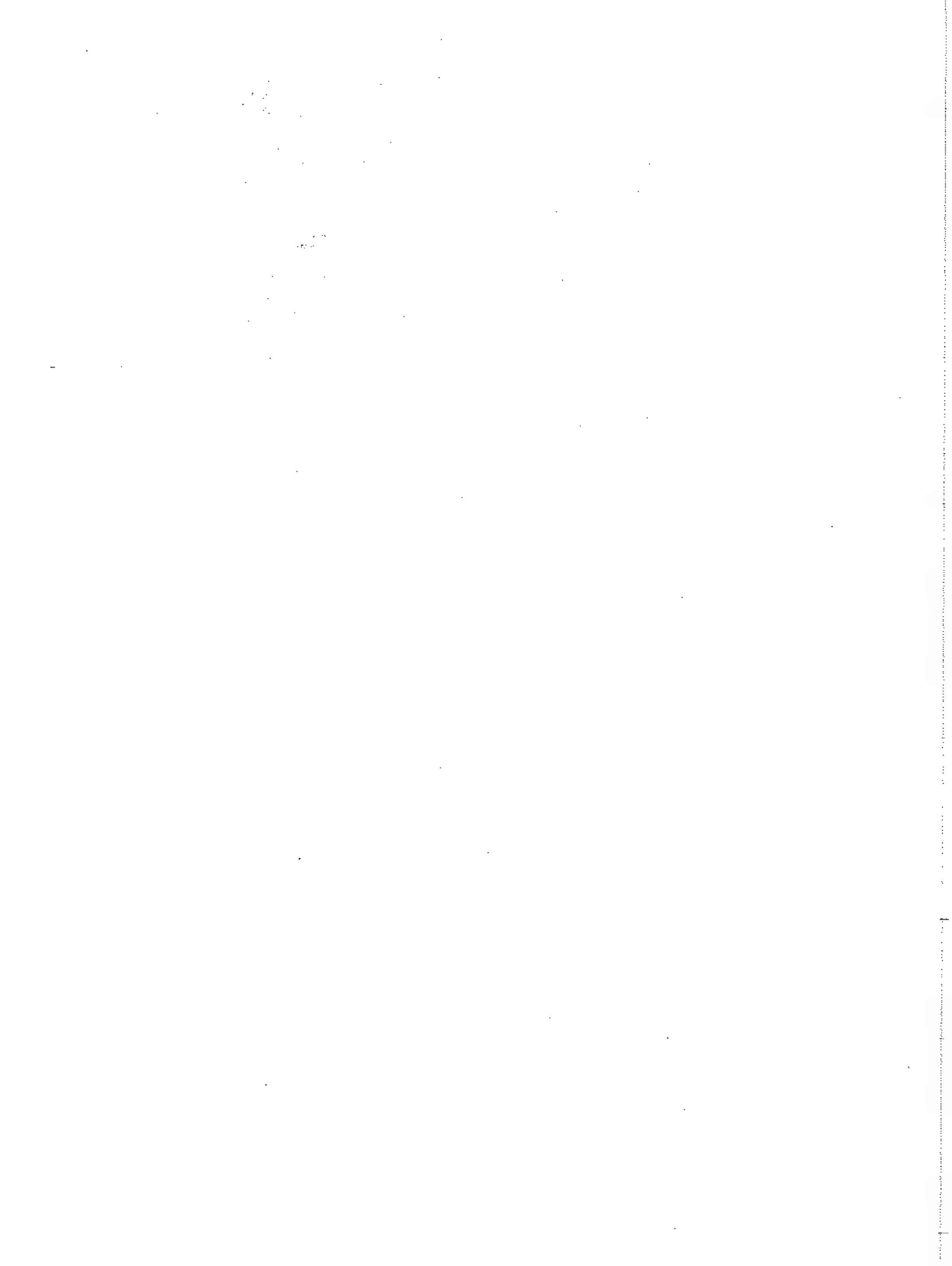
٢ – من كتاب « بغية الطلب » لابن العَديم (٥٥٨ – ٦٦٠ هـ)

٣ – « « « تاريخ دمشق » لابن عساكر (٤٩٩ – ٥٧١ هـ)

٤ – « « « المُقَفَّى » للمقريزىّ (٧٧٦ – ٨٤٥ هـ)



١ – ترجمة المتنبِّي للربعي



ترجمة المتنبّي للرَّبَعِي

« ترجمة الرَّبَعِيّ لأبي الطيب » ، هي أقدمُ ترجمة له وقعت في أيدينَا ، وهي أهمُّهُنّ جميعاً ، لأن الربعيّ كان آخر من لقي أبا الطيب بشيراز ، في شعبان سنة ٣٥٤ قبل مقتله في رمضان سنة ٣٥٤ ، وعنها نقل ابن العديم وابن عساكر والمقريزي ، مع التصرُّف في النقل . وقد وقفت عليها في آخر شرح الواحدي لديوان أبي الطيب ، نقلها كاتبها بخطّه ، وألحقها بآخر الشرح . وهذه النسخة مخطوطة نفيسة محفوظة بمكتبة فيض الله بالآستانة تحت رقم : ١٦٤٩ ، وقد ذكرت خبرها في مقدمة هذه الطبعة من كتابي « المتنبي » .

* * *

ترجمة الرَّبَعيّ

هو أبو الحسن ، علي بن عيسى بن الفرج بن صالح الرَّبَعِيُّ الزُّهَيْرِيُّ ، [1] النحويّ ، ولد ببغداد سنة ٣٢٨ هـ ، فأخذ النحو والأدب عن أبي سعيد السِّيرافيِّ ، [الحسن بن عبد الله بن المَرْزُبان / ٢٨٨ – ٣٦٨ هـ] ، ثم هاجر إلى شيراز ، لما نزلها أبو علي الفارسي ، [الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان الفارسي / ... – ٣٧٧ هـ] ، ولازمه عشرين سنة يأخذ عنه النحو ، ولقي أبا علي الفارسيّ أيضاً حين عاد الفارسي إلى بغداد واستوطنها في سنة ٣٧٥ ، [تاريخ بغداد ٧ : ٢٧٥] ، إلى أن مات أبو

---

(١) انظر التعقيب في آخر الترجمة ، وقوله « الربعي الزهيري » هو على عادة القدماء في النسبة إلى القبيلة ، ثم إلى البطن من القبيلة .

على الفارسى . وقد رجع الربعىُّ من شيراز إلى بغداد ، فأقام بها إلى أن مات فى ليلة السبت لعشرٍ بقين من المحرم سنة ٤٢٠ هـ ، وعمره يومئذ اثنتان وتسعون سنة ، ودفن بمقبرة باب الدير فى بغداد ، ولم يتبع جنازتَهُ إلاّ ثلاثةُ أنفُسٍ ، [المنتظم لابن الجوزى ٨ : ٤٦ / البداية والنهاية لابن كثير ١٢ : ٢٧] .

وقد حدثنا الربعىُّ نفسه أنه سمع من أبى الطيب شعره ببغداد وشيراز ، فى الخبرين ، رقم : ١٤ ، ورقم : ١٧ ، وأنه سمع من المتنبىّ بعض شعره أكثر من عشرين مرة ، فى الخبر رقم : ١٦ ، وأنه رأى مع المتنبىّ ديوانه بخط ابن أبى الجوع الوراق المصرى ، على ورق منصوريٍّ ، وكتبه هو عن هذا المخطوط من إملاء المتنبىّ حرفاً حرفاً ، ونقل عنه بغير الإملاء .

* * *

تعقيب

● « الرَّبَعِىّ » ، قال ابن خلكان فى كتابه « وفيات الأعيان » ، [٣ : ٣٣٦ ، طبعة إحسان عباس] :

« الرَّبَعِىّ ، بفتح الراء ، والباء الموحدة ، بعدها عين مهملة ، هذه النسبة إلى « ربيعة » ، ولا أعلمُ أهو ربيعة بن نزار ، أم غيره » .

● « الزُّهَيْرِىّ » ، وزاد ياقوت فى نسبته فقال « الربعى الزهيرى » ، فى « معجم الأدباء » [٥ : ٢٨٣ ، طبعة جب] ، وكتبها السيوطى فى « بغية الوعاة » ، [٢ : ١٨١ ، طبعة أبى الفضل إبرهيم] : « الزُّهْرى » ، [١] وكتبها فى « الفلاكة والمفلوكون »

---

(١) « الزُّهرىّ » ، نسبة إلى بنى « زُهْرة بن كلاب بن مرة » فقط ، وهم من قريش ، ومحال أن يكون الربعىُّ من قريش .

[ص : ١١٣ ، مطبعة الشعب سنة ١٣٣٢ هـ] : « الزيدىّ » ، [1] وكلتا النسبتين تصحيف ، والصواب ما عند ياقوت ، فيما أرجِّح ، وذلك لأنى رأيتُ القفطىّ فى كتابه « إنباه الرواة » [١ : ٣٧٤] فى ترجمة أبى على الفارسى قال : « وذكر الرَّبَعىّ فى صدر شرحه « الإيضاح » نسبَ أبى على فقال : أبو على الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان الفارسى ، وأُمُّه من ربيعة الفَرَسِ ، سَدُوسية ، من سَدُوس (بن) شيبان » .

و « ربيعة الفرس » هو « ربيعة بن نزار بن مَعَدّ بن عدنان » .

فولد « ربيعة بن نزار » : « أسد بن ربيعة » و « ضُبَيْعة بن ربيعة » .

وولد « أسد بن ربيعة » : « جَدِيلة ، وعَنَزَة ، وعَمِيرة » .

وولد « جَدِيلة بن أسَد بن ربيعة » : « دُعْمىّ » ، وفيه البيت والعدد ، و « جُدَىّ » دخل بنوه فى بنى شيبان ، و « جُدَّان » دخل بنوه فى بنى زُهَيْر بن جُشم ، من بنى النمر بن قاسط » [جمهرة ابن حزم : ٢٩٥] .

و « سَدُوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة » ، ينتهى نسبهم إلى « دُعْمِىّ ابن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار » [ابن حزم : ٣٠٧ - ٣١١] .

ثم « النمر بن قاسط بن أفْصى بن دُعْمّى بن جَدِيلة بن أسد بن ربيعة بن نزار » [ابن حزم : ٣٠٠] ، الذين دخل « جُدّان بن جديلة بن أسد بن رَبيعة بن نزار » فى « بَنى زُهَير بن جُشم » ، هم من بنى « النمر بن قاسط » ، فيكون « الزُّهَيْرىّ » فى نسبة « الرَّبَعى » إليهم ، ويكون قول ياقوت فى نسب « على بن عيسى » : « الرَّبَعِىُّ الزُّهَيْرىّ » ، دلالة على أنَّه من « بنى جُدَّان بن جديلة بن أسد بن ربيعة » ، وأن بنى « جُدَّان بن

---

(١) « الزيدى » ، نسبة إلى المذهب الزيدى الشيعىّ ، والربعىّ ليس من الشيعة فى شئ ، وكتاب « الفلاكة » نشرة سيئة كثيرة التصحيف والتحريف لا يعتَدُّ بها .

جديلة » دخل نسبهم فى نسب أبناء أخيه « دُعْمىّ بن جديلة » ، الذى ينتهى إليه نسب أمُّ أبى على الفارسى ، التى هى من بنى « سدُوس بن شيبان بن ذُهل » ، الذين ينتهى نسبهم إلى « دُعْمىّ بن جديلة بن أسد بن ربيعة » .

فكأن هذه العلاقة بين « على بن عيسى الربعىّ » ، وأبى على الفارسى هى التى دعتْه أن يذكُر لنا « أم أبى على الفارسى » ، وأنها من « ربيعة الفَرَس ، سَدُوسيّة من بنى سَدُوس بن شيبان » ، وهى أيضاً التى دعته إلى أن يفارق وطنه بغدادَ إلى شيراز ليقيم بها مع أبى علىّ الفارسىّ عشرين سنةً .

هذا اجتهادٌ منِّى فى نسبة « الربعىّ » التى توقَّف فى أمرها ابن خلكان ، فلعلِّى أصبتُ الصواب ، فإن أكن أصبت فبحمد الله وتوفيقه ، وإن أكُ أخطأت فأستغفر الله ، ولا حولَ ولا قوة إلاّ بالله .

* * *

(١)

ترجمة المتنبى للربعى

من مخطوطة « شرح ديوان المتنبى للواحدى »

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

قال علىّ بن عيسى النحوى رحمة الله عليه .

١ - قال لى أبو الطيِّب أحمد بن الحسين بن الحسَن : (١) « كان يَثْقُل علىَّ أن أُدْعَى المتنبى دهراً ، إلى أن أَنِسْتُ بِه ، (٢) وقَبح اللهُ أهلَ الكوفة ، يُضَيِّقُون فى الأسماء على أنفسهم ، فلا يُفَرَّق بين بعضِهم وبعضٍ إلا بألقابٍ . (٣)

«وقال لى : مولدى الكوفةُ ، ورَضَعْت بِلِبَانِ علويَّة من بنات عُبَيْد الله بن يَحْيى . (٤)

---

(١) هذا نصٌّ عظيم الخطر ، لأنه من كلام المتنبىّ نفسه ، وهو نص قاطع فى الصلة الحميمة بين أبى الطيب والعلويين ، كما ذهبتُ إليه فى أمر نسبه ، وفى أمر ما زعموه من نبوّته . والعجب لابن العديم وابن عساكر ، كيف لم يذكرا الخبر بنصّه عن المتنبى ، أو الأصح ، كيف لم يذكره ياقوت الحموى الذى رأى ديوان المتنبىّ بخط أبى الحسن على بن عيسى الربعى ، ونقل عنه أنه أرضعته امرأة علوية من آل عبيد الله ، ، دون أن ينسب ذلك إلى المتنبىّ نفسه (ترجمة ابن العديم رقم : ٨) .

(٢) فى المخطوطة : « أنسبُ به » ، وهو تصحيف ، صوابه ما أثبت ، وفى ترجمة ابن العديم : « ثم أَلِفْتُه » .

(٣) ما سلف رواه ابن العديم فى ترجمته رقم : ٨ .

(٤) خبر رضاع المتنبى ، رواه ابن العديم فى ترجمته فى آخر رقم : ٨ ، واقتصر على قوله : « آل عبيد الله » ، وقد بيّن المتنبىّ نفسه أنهم « آل عبيد الله بن يحيى » ، وأنا أخشى أن يكون قوله « يحيى » تصحيفاً . والنساخ كثيرًا ما يصحفون ، فيكتبون « يحيى » مكان « على » . فإذا صحّ هذا ، فهم « آل عبيد الله بن على » ، الذين منهم « المشطّب » : « محمد بن عبيد الله بن على بن عبيد الله بن على بن عبيد الله بن الحسين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب » ، الذى مدحه المتنبىّ ، وذكرت أمره فيما سلف : ١٥١ ، تعليق : ٣ وما بعد ذلك ، وقد رجحتُ أن المتنبى أخوه من الرضّاع . انظر ص : ١٥٣ ، تعليق : ١ .

« ونشأتُ بالبادية ، وكنت أحبُّ البَطالةَ والجَوَلانَ وصُحْبةَ ذوى الغاراتِ والحروبِ والتِّيهِ عن الدنيَّاتِ من الأخلاق ، وقلتُ الشعر صبيًّا » . (١)

٢ - وزَعم آبْنُ عمٍّ له فى الكوفة : أنّه أحمد بن الحسين بن الحسن بن مُرَّة بن عبد الجبّار ، من جُعْفيٍّ . وقال : « لا أعرف باقِى نَسَبِنَا ، هو مُنْقَطع » . (٢)

٣ - وقال : أبو أحمد عبد العزيز بن الفضل ، أخبرنى الشيخُ أبو الحسين على ابن أحمد بن أبى سَعْدَةَ بمدينة السَّلام قال : لمَّا دخل المتنبى مدينة السلام خارجاً إلى فارسَ ، أراد أن يَضْمَن الطريقَ من مدينة السلام إلى باب واسِطٍ من معزِّ الدولة ، وكان الواسطةُ الشريفُ أبو عبد الله بنُ الدَّاعى ، وكنتُ أنا كاتِبَهُ ورسولَ المتنبى إليه فى هذه الوَساطة ، فلم يُجِبْهُ إلى ذلك ، وذكر : إنّ هذا الرجلَ شاعرٌ ، إن طالبتُهُ بما يَلْزَمُه من مالى هَجانِى . (٣)

---

(١) هذا الجزء من الخبر ، يتضمنه خبر ابن العديم رقم : ٨ .

(٢) هذا خبر ظاهرُ الخطر ، لأنه يدلنا لأوّل مَرّةٍ ، على أن أبا الطيب ، كان له « ابن عمٍّ » ، عرفه الربعى فى الكوفة ، ومعنى الخبر شبيه بخبر رواه الربعىّ أيضاً ، وذكر فيه أنّ لأبى الطيب أخاً مكفوفاً كان يسأل الناس بجسر بغداد ، وسأله أيضاً عن نسبه ، [ابن العديم رقم : ٨] .

(٣) هذا الخبر رقم : ٣ ، من أهم الأخبار ، لأن له علاقة وثيقة بحال المتنبىّ مع العلويين ، ولذلك أعلق عليه ببعض التطويل :

● « معزُّ الدولة » البويهى ، أحد ملوك الديلم ، وعم عضد الدولة الذى مدحه المتنبى فى آخر عمره ، كان صاحب العراق . وكان علوىّ الهوى ، وغالَى فى ذلك ، حتى إذا كانت سنة ٣٥٢ ، قبل وفاته بأربع سنوات ، وجاء عاشر المحرم ، فأمر بتغليق أسواق بغداد ، وأن يلبس النساءُ المسوحَ من الشعر ، وأن يخرجن فى الأسواق حاسراتٍ عن وجوههن ، ناشراتٍ شعورهنّ ، يَلْطِمنَ وجوههن ، يَنُحْنَ على الحسين بن على بن أبى طالب (ابن الأثير ٨ : ١٩٧ / البداية والنهاية ١١ : ٢٤٣) .

● « أبو عبد الله بن الداعى » ، هو العلوى الزيدى : « محمد بن الحسن (وهو الداعى الصغير) بن القاسم بن على بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد البُطْحانىّ ، بن القاسم بن الحسن بن زيد بن علىّ بن أبى طالب (جمهرة ابن حزم : ٤٠) ، كان معزّ الدولة يعظمه تعظيماً شديداً ، وأجْبَره على أن يتولَّى نقابة الطالبيِّين سنة ٣٤٩ ، وغاب =

قال أبو الحسين : فدخل إلىَّ المتنبى ، وأنا أسكن « دَرْبَ الزَّعْفرانىّ » ، وكنت رَمِداً قَلِقاً من الوجَع ، فأنشدنى :

أَيَا أُنْسَ القُلوبِ ، وَقَدْ تَعَالَتْ أَمَانِيهَا ، وَضَوْءَ النَّاظِرَيْنِ
لَئِنْ جَرَحَتْ شَكَاتُكَ كُلَّ قَلْبٍ بِأَنْفَذَ فى الفُؤَادِ من الرُّدَيْنى

= معز الدولة فى سَفْرةٍ إلى نصيبين ، واستخلف ابنه عز الدولة بختيار ببغداد ، فخوطب فى حضرته بشئ عن العلوية فلم يرض ذلك ، وامتعض ، وخرج مغضباً ، ودبَّر أمره وخرج مختفياً ، ومعه ولده الأكبر ، وخلَّف أولاده وعياله ونعمته وكُلّ ما تحويه داره ببغداد ، ولم يستصحب غير جُبّة صوف بيضاء وسيفاً ومصحفاً ، وسار إلى بلاد الديلم ، ولبس الصوف وأظهر النسك والعبادة ، وحارب بعد ذلك وشمكير فهزمه ، وعزم على المسير إلى طبرستان ، وكتب إلى العراق كتاباً يدعوهم إلى الجهاد (ابن الأثير حوادث سنة ٣٥٣ ، وسنة ٣٥٥ / تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى : ١٨٩ ، وتجارب الأمم لمسكويه ٢ : ٢٠٧) .

● « درب الزعفرانى » ، قال ياقوت : « هو بكرخ بغداد ، كان يسكنه التجار وأرباب الأموال ، وربّما يسكنه بعض الفقهاء » ، وهو منسوب إلى « الحسن بن محمد بن الصباح الزعفرانى » ، كان ثقة من أجل العلماء ، وروى عنه البخارى فى صحيحه ، وهو الذى قرأ على الشافعىّ كتبه القديمة ، وكان يومئذ شابًّا ، وتوفّى سنة ٢٦٠ ، وقد وصف الخطيب البغدادى هذا الدرب فى ترجمة الزعفرانى (٧ : ٤٠٧) فقال : « ودرب الزعفرانى المسلوك فيه من باب الشعير إلى الكرخ ، إليه ينسب » ، وأكثر المحدثين ببغداد منسوبون إلى هذا الدرب .

هذا ، وقد ذكر الخطيب البغدادى فى تاريخه (٧ : ٣٠٣ ، ٣٠٤) ترجمة : « أبى محمد الحسن بن حامد بن الحسن بن حامد بن الحسن بن حامد بن الحسن بن حامد ، الأديب ، كان تاجراً مموَّلاً وإليه ينسبُ « خان ابن حامد » الذى بدرب الزعفرانى ببغداد » ، قال الخطيب البغدادى :

« حدثنى الصورى قال : ذكر لى الحسن بن حامد أن المتنبىّ لمّا قدِم بغداد نزل عليه ، وكان القَيِّمَ بأموره ، وأن المتنبىّ قال له : لو كنت مادحاً تاجراً لمدحتك » .

قال البغدادى : « مات بمصر فى يوم الأحد ، مستهلّ شوال سنة سبع وأربعمئة » ، ولكن العجب لابن الجوزى فى المنتظم ، فإنه نقل ما قاله عنه الخطيب البغدادى ، ولكنه وضعه فى وفيات سنة ٣٨٥ (المنتظم ٧ : ١٨١) .

فهذا خبر دخول أبى الطيب بغداد ونزوله فى دار الحسن بن حامد بدرب الزعفرانى ، وسيأتى فى رقم : ١٣ أن المتنبى فى دَخْلته الثانية إلى بغداد نزل فى دار أبى الحسن العروضى ، فى « رَبَضِ حُمَيْد » . فهذا موضع تحقيق لدخلته الأولى ودخلته الثانية ، متى كانت الأولى ومتى كانت الثانية .

وأوهَنَ ما وَهَنْتَ لهُ المَعالِى ، وأقْذَى ما بِعَيْنِك كُلَّ عَيْنِ
لَحَظُّك فى الثَّوابِ أَجَلُّ مِنْ أَنْ يُطِيفَ بِهِ كِتابُ الكاتِبَيْنِ
إساءَاتُ الزَّمانِ أَجَلُّ نُعْمَى إذَا سَلِمَتْ حَياةُ أَبِى الحُسَيْنِ
فكَمْ مِنْ مِحْنَةٍ طَرَقَتْ فكانَتْ لِمُحْتَقِبِ الذُّنوبِ قَضاءَ دَيْنِ

وما نعلَمُ أنه قال بِبَغْداذَ شِعْراً غيرَ هذا . (١)

٤ — وممَّا ذُكِرَ أنّ المتنبى رحمه الله قاله وهو بواسِط فى خروجه إلى فارسَ ، ولم يقع فى النُّسَخ ، ولم يَرْوِهِ الناسُ ، وذَكَرَ رَاوِيَتُهُ المعروف بأبى الحُسَيْن محمد بن محمد بن سَلْمان الكُوفىّ ، ويُعْرَف أيضاً بأبى السَوْدَانىّ ، (٢) بيانَ هذه القصيدة ودفعها إليه أبو جعفر محمد بن الحسين بن حَمْزة العلوىّ ، وذَكَر أنّه وجدها فى بعض نُسَخ شعره ، وذكر أبو الحسن أنَّها منحولة (٣) : —

أَفِيقَا ، خُمَارُ الهَمّ نَغَّصَنِى الخَمْرَا وَسُكْرِى مِنَ الأَيَّام جَنَّبَنى السُّكْرا
تَسُرُّ خَليلَىَّ المُدَامَةُ ، والَّذى بِقَلْبِىَ يَأْبَى أَنْ أُسَرَّكُمَا سُرَّا
لَبِسْتُ صُرُوفَ الدَّهْرِ أَحسنَ مَلْبَسٍ ، فَعَرَّقْنَنِى نَابًا وفَرَيْنَنى ظُفْرَا(٤)

---

(١) هذا الخبر ، والشعر الذى فيه ، انفردت به ترجمة الربعىّ هذه ، ولم يذكره الراجكوتى فى « زيادات ديوان شعر المتنبى » .

(٢) هذا خبر طريف آخر فيه ذكر راويةٍ للمتنبىّ . أما « السَّوْدانى » فهكذا ضبط فى المخطوطة ، ولا أعرف هذا الضبط . والنسب التى تشبهه هى « السُّودَانى » بالضم وبالدال المهملة ، و « السُّوذَانى » بالضم وبالذال المعجمة ، و « السُّورابى » بالضم وراء وباء ، و « السورانى » ، بضم وراء ونون .

(٣) القصيدة الآتية ، ذكرها البديعى فى « الصبح المنبى » : ١٠٤ — ١٠٧ (طبعة دار المعارف) ، والراجكوتى فى « زيادات ديوان شعر المتنبى » عن البديعى ، وعن نسخ مخطوطة لديوان المتنبى ، وانظر تعليقاته على الأبيات .

(٤) فى الصبح ، وفى الراجكوتى « أخشن ملبَسٍ » ، وهي أجود مما فى المخطوطة . وفى الصبح المنبى : « فعرَّقنى ... ومزقنى » ، وفى الراجكوتى : « فعرَّقتنى .... ومزَّقتنى » ، والذى هنا أجود . يقال : « عَرَق العَظْم وتَعرَّقه » أخذ اللحم عنه بأسنانه نهشاً . و « فَرَى الجلدَ يَفْريه فَرْياً » ، شَقّه ومزَّقه بظُفرٍ أو بحديدة .

وَفِى كُلِّ لَحْظٍ لِى وَمَسْمَعِ نَغْمَةٍ ، تُلاَحِظُنى شَزْراً ، وتُسْمعنى هُجْرا(١)
سَدِكْتُ بِصَرْفِ الدَّهْرِ طِفْلاً ويَافِعاً ، فَأَفْنَيْتُهُ حَزْماً وَلَمْ يُفْنِنِى صَبْرَا(٢)
أُرِيدُ مِنَ الأَيَّامِ مَا لاَ يُرِيدُهُ سِوايَ ، وَلاَ يَجْرى بِخَاطِرِهِ فِكْرَا
وَأَسْأَلُها مَا أَسْتَحِقُّ قَضَاءَهُ ، وَمَا كُنْتُ مِمَّنْ يَطَّبِى حَاجَةً قَسْرَا(٣)
وَلِى كَبِدٌ مِنْ رَأْىِ هِمَّتِها النَّوى ، فَتَرْكَبُنِى مِنْ عَزْمِها المَرْكَبَ الوَعْرَا(٤)
تَرُوقُ بَنى الدُّنيا عَجَائِبُها ، وَلِى فُؤَادٌ بِبِيضِ الهِنْدِ لا بِيضِها يُغْرَى
أَخُو هِمَمٍ رَحَّالَةٌ لا تَزَالُ لِى نَوىً تَقْطَعُ البَيْدَاءَ أَوْ أَقْطَعُ العُمْرَا
وَمَنْ كَانَ عَزْمِى بَيْنَ جَنْبَيهِ حَثَّهُ ، وَصَيَّرَ طُولَ الأَرْضِ فى عَيْنِهِ شِبْرَا
صَحِبْتُ مُلوكَ الأَرْضِ مُغْتَبِطاً بِهِمْ ، وَفَارَقْتُهُمْ مَلآنَ مِنْ حَنَقٍ صَدْرَا
وَلَمَّا رَأَيْتُ العَبْدَ لِلحُرِّ مَالِكاً أَبَيْتُ إِبَاءَ الحُرِّ مُسْتَرْفِداً حُرَّا(٥)
وَمِصْرٌ لَعَمْرى أَهْلُ كُلِّ عَجِيبَةٍ وَلا مِثْلَ ذَا المَخْصِىِّ أُعْجُوبَةً نُكْرَا
يُعَدُّ إِذَا عُدَّ العَجَائِبُ أَوَّلاً كَمَا يُبْتَدَا فى العَدِّ بِالإِصْبَعِ الصُّغْرَى
فَيا عَجَبَ الدُّنْيا ، وَيَا عِبْرَةَ الوَرى ، وَيَا أَيُّها المَخْصِىُّ مَنْ أَمَّكَ البَظْرَا(٦)
لُوَيْبِيَّةٌ لَمْ تَدْرِ أَنَّ بُنَيَّهَا الـ لُوَيْبِىَّ دُونَ اللهِ يُعْبَدُ فى مِصْرَا(٧)

---

(١) فى المخطوطة : « ومنسمع نعمة » ، وهو تصحيف صوابه فى الصبح ، والزيادات ، وفى سائر البيت بعد ذلك خلافٌ .

(٢) فى الصبح ، والزيادات : « فأفنيتُهُ عزماً » ، وهى جيدة . و « سَدِك بالشئ » ، لزمه ولصق به .

(٣) فى الصبح ، والزيادات ، خلاف فى رواية العجز : « وما أنا مِمَّن رام حاجته بَسْرًا » ، والراجكوتى « قَسْرًا » . و « اطَّبى الحاجة » ، دَعَاها وطلبها .

(٤) فى الصبح : « ولى همَّة » ، كأنها سبق قلم .

(٥) فى الصبح والزيادات : « مسترزقاً » ، وهذه أجود .

(٦) فى الصبح والزيادات : « فيا هرم الدنيا » .

(٧) فى الزيادات : « نوبيبة ... النُّوبِىّ » ، وهما أجود مما فى المخطوطة ، فانّ « لوبية » ، هى التى بين الإسكندرية وبرقة ، وكافور ليس منها بلا ريب ، بل هو من « النوبة » ، جنوب من مصر ، من السودان .

وَيَسْتَخْدِمُ البِيضَ الكَوَاعِبَ كالدُّمَى ورُومَ العِبِدَّى والغَطَارِفَةَ الغُرَّا(١)
قَضَاءٌ مِنَ اللهِ الكَرِيمِ أَرَادَهُ ، أَلاَ رُبَّمَا كَانَتْ إِرَادَتُهُ شَرَّا
وللهِ آيَاتٌ وَلَيْسَتْ كَهَذه ، أَظُنُّكَ يَا كَافُورُ آيَتَهُ الكُبْرى
لَعَمْرُكَ مَا دَهْرٌ بِه أَنْتَ طَيِّبٌ ، أَيَحْسِبُنِى ذَا الدَّهْرُ أَحْسِبُهُ دَهْرَا
وَأَكْفَرُ يَا كَافُورُ حِينَ تَلُوحُ لى ، فَفَارَقْتُ مُذْ فَارَقْتُكَ الشِّرْكَ وَالكُفْرَا
عَثَرْتُ بِسَيْرِى نَحْوَ مِصْرَ فلا لَعاً بِهِ ، ولَعاً بِالسَّيْرِ عَنْها ولاَ عَثْرَا(٢)
وفَارَقْتُ خَيْرَ الخَلْقِ قَاصِدَ شَرِّهِمْ ، وَأَكْرَمَهُمْ طُرًّا لِأَنْذَلِهِمْ طُرَّا
فَعاقَبَنِى المَخْصِىُّ بِالغَدْرِ جَازِيًا ، لِأَنَّ رَحِيلِى كَانَ عَنْ حَلَبٍ غَدْرَا
وَمَا كُنْتُ إلاَّ فَائِلَ الرَّأْىِ لَمْ أُعَنْ بِحَزْمٍ ولَا آسْتَصْحَبْتُ فى وِجْهَتِى حِجْرَا(٣)
وَقَدَّرَنِى الخِنْزِيرُ أَنِّى هَجَوْتُهُ وَلَوْ عَلِمُوا قَدْ كَانَ يُهْجَى بِمَا يُطْرَا(٤)
جَسَرْتُ على بَيْداءِ مِصْرَ فَفُتُّها وَلَمْ يَفُتِ البَيْداءَ إلاَّ مَنِ اسْتَجْرا(٥)
سَأَجْلِبُها شُعْثَ النَّوَاصِى مُشِيحَةً تَحُولُ غَداةَ النَّقْعِ عَنْ لَوْنِها غُبْرا(٦)
وَأُطْلِعُ بِيضاً كالشُّمُوسِ مُطِلَّةً ، إِذَا طَلَعَتْ بِيضاً وإِنْ غَرَبَتْ حُمْرَا
فإِنْ بَلَغَتْ نَفْسى المُنَى فَبِعَزْمِها وإلاَّ فَقَدْ أَبْلَغْتُ فى حِرْصِها العُذْرَا

---

(١) « العِبِدّى » ، من الجموع الكثيرة للفظ « العبد » .

(٢) فى الصبح والزيادات : « فلا لعاً بها » ، وهو خطأ .

(٣) « الحِجْر » ، العقلُ وحسن الرأى .

(٤) فى الصبح : « وقد أرِى الخنزير » .

(٥) فى الصبح والزيادات : « على دهياء ... ولم يفت الدهياء » ، ولا شك أنّ صوابها « دهناء مصر ... والدهناء » ، و « الدهناء » الفلاة ، وبه سميت « دهناء بنى تميم » .

(٦) البيت فى الصبح :

سأجلبُها أشْباهَ ما حَملتْهُ من أسنَّتِها جُرْدًا مُقسْطَلةً غُبْرا

٥ – ووُجِد فى بعض النُّسَخ أنه كَتبَ من رَامَهُرْمُزَ إلى كاتب كانت له عليه مِنَّةٌ ، هذه الأبياتَ ، = الشِّيرازىُّ : هذا الرجل هو أبو الفضل عبد الرحمن بن الحُسَيْن الغَنْدُجانى ، وكان عامل رَامَهُرْمُزَ من قِبَل مُعِزِّ الدولة ، وكان خَدَم أبا الطيب وقتَ آجتيازه برَامَهُرْمُزَ خارجاً إلى آبن العَميد ، وادَّعى أنه كتب إليه هذه القطعةَ = وحدَّثنى جماعة أنَّ هذه الأبياتَ هو قالها عن المتنبى إلى نفسه ونَحَلها إيّاه :

لَئِن حُمَّ بَعْدَ القُرْبِ نَأْىٌ ولَمْ أَحُزْ ... مِنَ الوَصْلِ مَا يَشْفِى الفُؤادَ مِنَ الوَجْدِ
وَلَمْ تَكْتَحِلْ عَيْنَاىَ مِنْكَ بِنَظْرَةٍ ... يَعودُ بها نَحْسُ الفِرَاقِ إلى السَّعْدِ
فَلِى لَحَظاتٌ فى الفُؤادِ بِمُقْلَةٍ ... مِنَ الذِّكْرِ تُدْنِيكُمْ كَأَنَّكُمُ عِنْدِى
إذا هَاجَ مَا فى القَلْبِ لِلقَلْبِ وَحْشَةً ... فَزِعْتُ إلى أُنْسِ التَّذَكُّرِ مِن بَعْد[١]

٦ – وقيل : إنه لمّا رأى « فاتكاً » من بعيدٍ وعَلِم أنّه يريد قِتَالَهُ قال :

أَفْرِغَ الدِّرْعَ يَاسِرَاجُ عَلَىَّ ... وآنْظُرِ اليَوْمَ مَا تَرَى مِنْ قِتَالى
فَلِئِنْ رُحْتُ فى المَكَرِّ صَرِيعاً ... فَآنْعَ للعَالَمينَ كُلَّ الرِّجَالِ[٢]

* * *

ذِكْرُ مقتل أبى الطيِّبِ المتنبى رحمةُ الله عليه

٧ – قال أبو أحمد رحمه الله : [٣] وجدتُ فى آخر نسخةِ محمّد بن هاشمٍ الخالدىّ التى بخطِّه لشعر المتنبى رحمه الله . [٤]

« كُنَّا كتبنا كتاباً إلى أبى نصر محمد بن المبارك الجُبُّلِى نسأله شرح ذلك =

---

(١) هذا خبرٌ لم أره فى شئ من الكتب . هكذا ضبطت فى المخطوطة ، والأجود : « منْ بُعْدِ » .

(٢) فى ديوان المتنبىّ (عزام) ص : ٥٨٨ ،هذا الشعر ، وأن المتنبىَّ كان معه عبدٌ يقال له « سراج » ، فقال له : يا سراج ، أخرج إلىّ الدرع . فلبسها وتهيّأ للقتال ، ثم قال ...

(٣) « أبو أحمد » هو « عبد العزيز بن الفضل » ، الذى مضى فى إسناد الخبر : ٣ .

(٤) هو بنصّه أيضاً منقولاً من خط الخالدى ، فى ترجمة المتنبى لابن العديم رقم : ٨١ .

وهذا الرجل من وجوه التُّنَّاء بهذه الناحية ، (١) وله أدبٌ وحُرْمَةٌ = فأجابنا عن كتابنا جواباً طويلاً يقول فيه :

« وأمَّا ما سألتما عنه من خبر مقتلِ أبي الطيب رحمه الله ، فأنا أَنْسُقُهُ لكما وأشرحه شرحاً بيِّناً . آعلما أنّ مَسيره كان من واسطٍ في يوم السبت لثلاث عَشْرةَ ليلةً بقيت من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلثمئة ، قُتِلَ ببَيْزَع ، (٢) ضَيْعةٍ تَقْرُبُ من دير العاقولِ ، في يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنةِ أربع وخمسين وثلاثمئة . والذى تولَّى قتلَه وقتلَ ابنه وغلامِه رجلٌ من بنى أسَد يقال له « فاتك بن أبي الجهل بن فِراس بن بَداد » . وكان من قوله لمَّا قتله وهو مُنْعَفِرٌ : « قُبْحاً لهذه اللحية يا سَبَّاب ! » ، وذلك أنّ فاتكاً هذا قَرَابةٌ لوالدة « ضَبَّة بن يَزِيد العَيْنى » الذى هجاه المتنبى بقوله : (٣)

---

(١) « التُّنَّاء » ، جمع « تانئ » ، وهم المقيمون بالبلدة فى أرض العجم ، وأصلهم منها .

(٢) فى المخطوطة « بنيزع » ، بالنون ، وهو كذلك فى ديوان المتنبىّ (عزام) هامش ص : ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، غير أن ياقوتًا الحموى اقتصر على ذكرها فى حرف الباء ، نقلاً من خط أبى بكر محمد بن هاشم الخالدى صاحب هذا الخبر .

(٣) هكذا هنا وفى خبر ابن العديم وغيرهما ، والذى فى ابن الأثير ٨ : ٢٣٣ (سنة ٣٦٤) ، و ٨ : ٢٥٧ (سنة ٣٦٩) : « ضبة بن محمد الأسدى » . قال فى الموضع الأول :

« ...... وذلك أنّ بختيار كتب إلى ضبة بن محمد الأسدى ، وهو من أهل عين التمر ، وهو الذى هجاه المتنبىّ ، فأمره بالإغارة على أطراف بغداد وقطع الميرة عنهم ، وكتب بمثل ذلك إلى بنى شيبان .... » .

وقال فى الموضع الثانى ، (سنة ٣٦٩) :

« وفيها أرسل عضد الدولة سَرِية إلى عين التمر ، وبها ضَبّة بن محمد الأسدى ، وكان يسلُك سبيل اللصوص وقطاع الطرق ، فلم يشعر إلاّ والعساكر معه ، فترك أهله وماله ونجا بنفسه فريداً ، وأُخِذَ مالُه وأهلُه ، ومُلِكَتْ عين التمر ، وكان قبل ذلك قد نهبَ مشهد الحُسَيْن رضى الله عنه ، فعوقب بهذا » .

وهما خبران مهمَّان فى شأن مقتل المتنبىّ وتفسيره . ثم انظر « ديوان المتنبى » (طبعة عزام) ص : ٥٨٧ ، وفيها سماه أيضاً « ضبة بن محمد العينىّ » ، فهذا موضع للبحث والتحقيق . هذا وقد جاء فى ديوان المتنبى (عزام) ، هامش ص : ٥٨٨ ، عن على بن حمزة البصرى أن المتنبى كتب هذه القصيدة فى « ضبة » بواسطٍ ، يوم السبت لثلاث عشرة بقيت من رمضان سنة أربع وخمسين وثلثمئة .

مَا أَنْصَفَ القَوْمُ ضَبَّهْ وَأُمَّهُ الطُّـــرْطُبَّهْ

ويقال إن « فاتكاً » خالُ « ضَبَّةَ » ، وأن الحميَّة داخلته لما سمع ذِكْرَها بالقبيح فى الشعر ، وما للمتنبى شعرٌ أسخفَ من هذا الشعر ولا أَوْهَى كلاماً ، فكان على سخافته وركاكته سببَ قتْله وقتلِ ابنه وذَهابِ ماله .

• وأمَّا شرحُ الخبرِ ، فإن « فاتكاً » كان صديقاً لِى ، وكان كما سُمِّى فاتكاً لسفكه الدماء وإقدامه على الأهوال ، فلما سمع الشعرَ الذى هُجِىَ به « ضَبَّةُ » أحفظه ذلك واشتدَّ عليه ، ورَجَعَ على « ضَبَّة » باللوم ، وقال له : قد كان يجبُ أن لا تجعلَ لشاعرٍ عليك سبيلاً ! وأَضْمر غيرَ ما أظهر ، واتَّصل به خَبَرُ انصرافِ المتنبى من بلد فارسَ إلى العراق ، وأنّ اجتيازه بجُبَّل ودير العاقول ، فلم يكن ينزل عن فرسِه وجماعة من بنى عَمِّهِ ، رأيُهم فى المتنبى مثل رأيه ، فى طَلَبِهِ واستعلام خبره من كل صادرٍ ووارِدٍ ، وكان « فاتك » يتحرَّى خوفاً أن يفوته . وكان كثيراً ما يجيئنى وينزل عندى ، فقلت له يوماً وقد جاءنى وهو يسأل قوماً مُجْتازين عنه : قد أكثرت المَسْألَةَ عن هذا الرجل ، فأىُّ شىء عزمك أن تفعله متى لقيتَهُ ؟ قال : ما عزمى إلا للجميل ، وأنْ أعذُلَه على ما أفحش فيه من الهجاء . فقلت له : هذا الأليقُ بأخلاقك والأشبهُ بأفعالك . فتضاحك ثم قال : والله يا أبا نصر ، لئن آكتحلت عينى به أَوْ جمعتنى وإيّاه بقعةٌ لأَسفكَنَّ دمه ولأَمْحَقَنَّ حياته ، إلا أن يُحال بينى وبينه . فقلت له : كُفَّ ، عافاكَ الله ، عن هذا القول ، وآرجع إلى الله ، وأَزِلْ هذا الرأى من قلبك ، فإن الرجل شهير الاسمِ بعيدُ الصوت ، وقَتْلُكَ إيَّاه فى شعرٍ قاله لا يحسُن ، وقد هجت الشعراءُ الملوكَ فى الجاهلية والخلفاءَ فى الإسلام ، فما علمنا أن شاعراً قُتِلَ بهجاءٍ [وقد قال الشاعر] :

هَجَوْتُ زُهَيْراً ثُمَّ إِنِّى مَدَحْتُهُ وَمَا زَالَتِ الأَشْرافُ تُهْجى وتُمْدَحُ

« ولم يبلغ جُرْمُهُ ما يوجِب قَتْلَه ! فقال : يفعلُ الله ما يشاء ! وانصرف ، فلم يمض لهذا القول إلاّ ثلاثة [أيَّام حتى وَافَى] المتنبى ومعه بِغَالٌ مُوقَرَةٌ كُلَّ شىءٍ من الذهب

والفضة والثياب والطِّيب والجوهر والآلة ، لأنه إذا [كان مسافراً لم يُخَلِّفْ] فى منزله درهماً ولا ديناراً ولا ثوباً ولا شيئاً يُساوِى درهماً واحداً فما فوقه ، وكان أكثرُ إشْفاقه على دفاتره ، [لأنه كان قد انتخبها] وأحكمها قراءةً وتصحيحاً . قال : فتلقَّيْتُهُ وأنزلْتُه دارى وساءَلْتُه عن أخباره ؟ وعمَّن لقى ؟ وكيف وجد مَنْ قَصَدَه ؟ [فعرَّفنى] من ذلك ما سُرِرت به ، وأقبل يصف لِىَ آبن العميد وفضلَه وأدبَه وعِلْمَه وكرمَه ، وسَماحة المَلِك أبى شجاع فَنَّاخُسْرَوْ ، ورغبَتَهُ فى الأدب ومَيْلَه إلى أهله . فلما أمسينا قلت له : على أى شيءٍ أنت مُجْمِع ؟ قال : على أن أتَّخذ الليل جملاً ، فإن السير يخفُّ فيه علىَّ . قلت : هذا هو الصواب = رَجَاءَ أن يُخْفِيَهُ الليلُ ، ولا يصبحُ إلا وقد قطع بلداً بعيداً = والوَجْهُ أن يكون معك من رَجَّالَةِ هذه المدينة الذى يَخْبُرونَ الطريقَ ويعرفون المواضع المَخُوفة فيه ، جَماعَةٌ يمشون بين يديك إلى بَغْداذ . فقطَّب وقال : ولم قلتَ هذا القول ؟ قلت : تستأنس بهم . قال : أمَّا والجُرازُ فى عنقى فما بى حاجة إلى مُؤنسٍ غيرِهِ . قلت : الأمر كما تقول ، والرأى فيما أشرتُ به عليك . فقال : تلويحك هذا يُنْبِى عن تعريض ، وتعريضك يُخْبر عن تصريح ، فعرِّفنى الأمرَ وبيِّن لى الخَطْب . قلت : إن هذا الجاهل « فاتكاً الأسدىّ » كان عندى منذ ثلاثة أيام ، وهو مُحْفَظٌ عليك لأنك هجوت ابنَ أُخْتِه ، وقد تكلَّم بأشياءَ توجب الاحتراس والتيقُّظ ، ومعه أيضاً نحو العشرين فارساً من بنى عمّه قَوْلُهُمْ مِثْلُ قَوْلِه = قال : وغلامه كان عاقلاً لبيباً فارساً يسمع كلامنا = فقال : الصوابُ ما رآه أبو نصر ، خُذْ معك عشرين راجلاً يسيرون بين يديك إلى بغداذَ . فاغتاظ غيظاً شديداً وشتم الغلامَ شتماً قبيحاً ، وقال : واللهِ لا تُحُدِّثَ عنى أنى سِرْتُ فى خُفارةِ غيرِ سيفى . فقلت له : يا هذا ، فأنا أُوَجِّهُ قوماً من قِبَلِى فى حاجة يسيرون بمسيرك ويكونون فى خُفارتك . قال : واللهِ لا فعلتَ شيئاً من هذا . وقال لى : يا أبا نصر ، أَبِخُرُوءِ الطير تُخَشِّينى ، ومن عَبِيد العصا تخاف عَلَىّ ! واللهِ لو أن مِخْصَرَتى ملقاةٌ على شاطئ الفرات وبنو أسَدٍ مُعْطِشون لخَمسٍ ، وقد نظروا إلى الماء كبطون الحيَّات ، ما جَسَر لهم خُفٌّ ولا ظِلْفٌ أن يَرِدَهُ ! حاشَ للهِ من فكر أَشْغَلُه بِهِمْ لحظةَ العَيْن . فقلت له : قل إن شاء الله . فقال : كلمة مَقُولةٌ لا تَدْفع مقضيًّا ولا تستجلب آتياً ! ثم ركب فكان آخر العهد به .

« قال : ولما صحّ عندى خبر قتله ، وَجَّهت مَنْ دفنه وٱبنَه وغلامَه ، وذَهَبَتْ دماؤهم هَدَراً » .

* * *

« أمَّا قوله : « أبِخُروءِ الطير تُخَشِّينى ، ومن عبيد العصا تخاف علىَّ » ، فإن بنى أسدٍ يُلَقّبون « خُروءَ الطير » ، قال امرؤ القيس : [1]

فَرّتْ بنــو أَسَدٍ خُروءُ الطَّيْــرِ عن أَرْبَابِهَــا

ويُلَقَّبون أيضًا « عبيدَ العصا » ، قال الشاعر ، ونظُنُّه امرؤ القيس أيضاً :

* قُولاَ لِدُودَانَ عَبيدِ العصا * » [2]

* * *

٨ — قال أبو أحمد رحمه الله : [3] حدثنى الشريف علىُّ بن عُمر أنَّ المتنبىّ كان له أبٌ سقاءٌ بالكوفة يعرف بعبدان السَّقَّاء ، [4] وأنه كان يعرف بٱبن عبدان

(١) هذا ليس لامرئ القيس ، بل لدختنوس بنت لقيط بن زُرارَة ، ترثى أباها ، وقُتِل يوم شِعْب جَبَلة . وخبر ذلك فى الأغانى (١١ : ١٣١ — ١٦٣ ، الدار) ، وهذا البيت فى الأغانى (١١ : ١٤٦) فى أربعة أبيات ، وهو فى ثلاثة عشر بيتاً فى « بلاغات النساء » لطيفور ص : ١٨٥ ، وأول الأبيات عند أبى الفرج فى الأغانى :

بَكَرَ النَّعِىُّ بِخَيْرِ خِنْدِفَ ، كَهْلِهَا وشَبَابِها

وهو من مجزوء الكامل : « متفاعلن متفاعلن » ، ابن العديم رقم : ٨١ ، فى آخرها .

(٢) هذا لامرئ القيس ، وتمامه :

* ما غرَّكُمْ بالأَسَدِ الباسِلِ *

(٣) هو الذى يروى عنه الربعى ، كما سلف رقم : ٣ ، ورقم : ٧ .

(٤) هكذا هى هنا « عبدان » بالباء الموحدة ، وانظر ما كتبته آنفاً ص : ١٣٧ تعليق : ١ .

السقاء ، وأنه خرج من الكوفة سنة عشرين وثلاثمئة ، ثم دخل بغداذ ، ورحل إلى فارسَ سنة أربع وخمسين وثلاثمئة ، ثم إنه أراد الرجوعَ فقُتِلَ فى الطريق .

* * *

٩ – ومما قاله فى صِبَاهُ وشَذَّ عنه بَعْضُه ، قوله : (١)

سَيْفُ الصُّدُودِ على أَعْلى مُقَلَّدِهِ	يَفْرِى طُلَى وَامِقِيه فى تَجَرُّدِهِ
مَا اهْتَزَّ مِنْه على عُضْوٍ لِيَبْتُرَهُ	إلاَّ اتَّقَاهُ بِتُرْسٍ مِنْ تَجَلُّدِهِ
ذَمَّ الزَّمَانُ إِلَيْهِ مِنْ أُحِبَّتِهِ	مَا ذَمَّ مِنْ بَدْرِهِ فى حَمْدِ أَحْمَدِهِ
شَمْسٌ إذا الشَّمْسُ لاَقَتْهُ على فَرَسٍ	تَرَدَّد النُّورُ فيها مِنْ تَرَدُّدِهِ
إنْ يَقْبُحِ الحُسْنُ إلاّ عِنْدَ طَلْعَتِهِ	فالعَبْدُ يَقْبُحُ إلاَّ عِنْد سَيِّدِهِ
قَالتْ عَنِ الرِّفْدِ طِبْ نَفساً فَقُلْتُ لها	لاَ يَصْدُرُ الحُرُّ إلاَّ بَعْدَ مَوْرِدِهِ
لَمْ أَعْرِفِ الخَيْرَ إلاَّ مُذْ عَرَفْتُ فَتىً	لَمْ يُولَدِ الجُودُ إلاَّ مُنْذُ مَوْلِدِهِ
نَفْسٌ تُصَغِّرُ نَفسَ الدَّهْرِ مِنْ كِبَرٍ	لها نُهَى كَهْلِهِ فى سِنِّ أَمْرَدِهِ

* * *

١٠ – وقال أيضا فى صباه يهجو الذهبىَّ : (٢)

لمَّا انْتَسَبْتَ فَكنْتَ ابْناً لِغَيرِ أَبٍ	ثُمَّ اخْتُبِرْتَ فَلَمْ تَرْجِعْ إلى أَدَبِ
سُمِّيتَ بِالذَّهَبِىّ اليَوْمَ تَسْمِيَةً	مُشْتَقَّةً مِنْ ذَهابِ العَقْلِ لا الذَّهَبِ
مُلَقَّبٌ بِكَ مَا لُقِّبْتَ وَيْكَ به	يَأَيُّها اللَّقَبُ المُلْقَى على اللَّقَبِ

* * *

(١) انظر هذه الأبيات فى ديوان المتنبىّ (طبعة عزام) ص : ٥٣٥ ، ٥٣٦ .

(٢) انظر هذه الأبيات فى ديوان المتنبى (طبعة عزام) ص : ٥٣٤ .

١١ – ووجدت هذين البيتين فى نسخةٍ منسوبين إلى أبى الطيب :[(١)]

أَتانى عَنْكَ قَوْلٌ فَازْدَهانى ... ومِثْلُكَ يُتَّقى أَبَداً وَيُرْجى
ولَوْلا ظِنَّةٌ لَحِقَتْ فُؤادِى ... وَجَدْتُ إِلَيْكَ طُرْقاً مِنْكَ نَهْجا

***

١٢ – ووجدت فى نسخة من شعره ، قال علىُّ بن مُرٍّ : رأيتُ أبا الطيِّب ينشد بعض أهل سوقِ البَزِّ فكتبت إليه :[(٢)]

يَا حَاضِراً عِنْدى إذا لَمْ يَحْضُرِ ... عَيْنُ الضَّمِيرِ يَراكَ أَحْسَنَ مَنْظَرِ
أَكْثَرْتَ مِنْ نَثْرِ اللآلى آنِفاً ... فَتَرَكْتَ سُوقَ البَزِّ سُوقَ الجَوْهَرِ
إِنِّى لأَسْمَعُ مِنْ قَرِيضِكَ مُعْجِزاً ... نَحْتُ الصُّخُورِ لَهُ وغَرْفُ الأَبْحُرِ
عَجَباً لآذانٍ لَبِسْنَ حُلِيَّهُ ... فَصَغَيْنَ للطَّائِىِّ أَوْ لِلْبُحْتُرى

فلم يجبنى ، فكتبتُ إليه :

يَا وَاحِدَ الإِنْشَاءِ والإِنْشَادِ ... ومُهَذَّبَ الآبَاءِ والأَجْدَادِ
لَكَ سَيْفُ شِعْرٍ لا يُبارَى ، واسْمُهُ ... فَارِى الدُّرُوعِ وآكِلُ الأَغْمَادِ
وَصَلَتْ هَدِيَّتُنَا فَمَا كَافَأْتَنَا ... أَيًّا يَسُدُّ عَلَيْكَ بَابَ سَدادِ
لا تُفْسِدَ الأَدَبَ المُشَهَّى بالجَفَا ، ... يا ذا البَرَاعَةِ ، أَيُّما إِفْسَادِ
لَوْ كُنْتَ بَحْراً لَمْ يُشَبْ بِمُلوحَةٍ ، ... أَوْ كُنْتَ بَدْراً لَمْ يُشَنْ بِسَوادِ

***

١٣ – ووجدت فى نسخة أخرى من شعره ، حدَّثَ أبو جَعْفر محمد بن

---

(١) ليسا فى زيادات شعر المتنبىِّ للراجكوتى .

(٢) لم أقف على هذا الخبر والشعر الذى فيه فى شئ من الكتب .

الحسن ، قال : حضرت مجلس المتنبى فى دَخْلته الثانية إلى بغداذ ، فى دار أبى الحسن العَروضىّ فى رَبَضِ حُمَيْد ، وعنده جماعة من الأدباء ، ودخل عليه هرون بن المُنَجِّم فطاوَلَهُ الحديثَ ، وكان ينشده مما قاله فى وصف الحروب والخيل ، فقال له هرون : أقول ما قال الشاعر :

أَخافُ عَلَيْكَ مِنْ سَيْفٍ ورُمْحٍ ، طَوِيلُ العُمْـرِ بَيْنَهُمـا قَصِيـرُ

فأُعجبَ الخلقُ بهذا البيت ، فأطرق المتنبى ساعة فأنشده لنفسه :

فَإِنْ أَغْمَدتُ ذا وَكَسَرْتُ هذا فَإِنَّ كَثِيـرَ مَا أَبْقَـى يَسِيـرُ

فأُعْجِبَ من حضر بخاطره وسرعةِ اقتضائه هذا البيت وإجازتِه ما تقدَّم . (١)

* * *

١٤ – ووجدتُ فى ديوان بخطّ على بن عيسى النحوىّ ، فى أوّل ديوانه :

وكان رجلٌ من أهل مصر يعرف بأبى عبد الله الخَرْشِىّ ، ادَّعَى إلى الحسن بن على رضى الله عنهما ، وكان ورَّاقاً لَقِىَ أبا الطيِّب بمصر ، فكتب على ديوانه « السُّلَمى » ، فقال لى أبو الطيّب بفارسَ لما رأى هذا النسب : أما رضِىَ هذا الرجل أن عمل لنفسه نَسَباً حتى نسبنى إلى من لستُ منه ! (٢)

١٥ – قال : ورأيته مرةً يكرهُ أن ينتسب ، قال : لأننى كنت أَطْرَأُ على قومٍ بعد قوم من البادية ، فلا أختار أن يعرفَ أحدٌ نسبى ، لئلا أكون ممن يُعاديه . ورأيته مرة أخرى يتشكك ويقول : أكثر الناس لا يعرف جميع آبائه ، وأكثرُ العرب = زَعَمَ = على

---

(١) لم أقف على هذا الخبر فى شئ من الكتب .

(٢) هذا الخبر رواه ابن العديم رقم : ١٠ مختصراً ، وفيه فائدة ليست هنا ، وهى قول الربعى : « رأيتُ عنده (أى عند المتنبى) جزءًا من شعره بخطّ ابن أبى الجوع المصرى ، وعليه بخط آخر : المتنبى السُّلَمِىّ البغدادى » .

ذلك ، إنما يكون فى الحَىِّ واحد يَنْسُبُهُمْ . وقال لى مرة أخرى : الإنسان بأفعاله لا بنِسْبته ، وقد يوجد فى كل الناس الفاضل والناقص ، وأَيْشٍ ينفع النسب ؟ (١)

١٦ – قال : (٢) وكان على ظهر كتابةٍ خارجاً من الديوان بخطّ ابن أبى الجُوع الأبياتُ ، وهى (٣) :

* لَقَدْ أَصْبَحَ الجُرَذُ المُسْتَغِيرُ * (٤)

ووجدتُ أيضاً خارجاً من ديوانه : « وقال فى صباه يهجو الذهبى : « لمّا نُسبت » ، الأبيات . (٥)

هذا ما كان خارجاً من ديوانه ، وقُرِئ عليه وسمعتُه أكثر من عشرين مرةً . (٦)

١٧ – ثم وجدتُ ببغداذ شيئاً منسوباً إليه لم أسمعه منه ولا أَرْوِيه ، لأنه قال لى بعد السماع الكثير : لا تَرْوِ عنّي إلاّ ما صحّ من الديوان مِمّا كُتِبَ لى أو رأيته منّى ، (٧) وكان معه ببغداذ جزآن فى أرباع وَرَقٍ مَنْصُورِىٍ بخطّ ابن أبى الجُوع ، وصار معه إلى فارسَ الأوّلُ منهما وضاع الآخر ، وقد كنت كتَبْتُه من هذا الجزء فى دار المتنبى حرفاً حرفاً من إملائه علىَّ من هذا الجزء ، ومن نقلى أنا بغير الإملاء . وكان يُقْرَأُ عليه هذا الديوانُ فأسمعه بقراءة الناس ببغداذ وشِيراز ، وكنت إذ ذاك لا أرى القراءة عليه بنفسى ، لأنه رُبَّما كان

---

(١) هذه أخبار عن المتنبىِّ مهمة جدًّا فى شأن كتمان نسبه ، وكيف كان المتنبىِّ يتكلم فى شأن النسب ، ودلالة ذلك .

(٢) « قال » هو الربعى نفسه الذى يقول ، وقوله : « على ظهر كتابةٍ » ، هكذا هو ، ولعله « على ظهر كتابه » ، بالهاء المضافة .

(٣) « ابن أبى الجوع » ، سيأتى تمام اسمه ونسبه فى ترجمة ابن العديم رقم : ٦ ، والمقريزى رقم : ٢٣ .

(٤) هو فى شعره فى شرح الواحدى وغيره ، وتمامه :

أَسِيرَ المَنَايَا صَرِيعَ العَطَبْ *

(٥) هى السالفة فى رقم : ١٠ .

(٦) قائل هذا هو الربعى .

(٧) فى المخطوطة : « مما كتب له » ، ولعل صواب ما بعده « أو رويته عنى » .

أخذ منِّى ما يتعلق بنَحْوٍ أرويه له عن أبى على الفارسىّ رحمة الله عليه ، فكنت أكرهُ مع ذلك القراءةَ عليه . [١]

١٨ – وسألنى بعض أصدقائى أن أقرأ له عليه الفارسيّات ليحملها إلى خُراسان ، [٢] فَقَرأْتُهُنَّ تَكْرِمةً لمن قِيلت فيهما حسبُ . ولا أعلم أحداً يَصْدُق [فى رواية] هذا الديوان ممن اتَّصَلَتْ مخالطته ومجالسته به .... كصِدْقى فيه » . [٣]

١٩ – ثم إنه = يعنى المتنبى = سار عن حضرة الأمير عضُد الدولة ، ومعه خيل مختارة ومَطَايَا منتخبة ، مُوقَرَةٌ بالعبيد والسلاح والعَيْنِ والوَرِقِ ، وفاخر الكُسَى ، وطرائف التُّحَف ، وغرائب الألطاف ، يُغِذُّ السير بنَفْسه وعبيده لا غيرُ ، وأعينُ أعدائه تَرْمُقُهُ ، وأخباره إلى كل بلد يَحُلُّه تسبقه ، حتى إذا كان حيال « الصَّافيَةِ » من الجانب الغربى من سواد بغداذ ، أَسْفَلَ منها بنحو عشرةِ فراسخَ ، عرض له فاتكُ بن أبى الجهل الأسَدىّ فى عدة من أصحابه ذوى عُدَّةٍ ونَجْدَةٍ فاغتاله هناك ، فقتله وابْنَهُ مُحَسَّداً وغلاماً له يقال له « مُفْلِحٌ » وأخذ جميع ما كان معه مما ذكرناه ، بعد أن أَبْلَى فيهم ، وذلك فى يوم الاثنين لست ليالٍ بقين من شهر رمضان . [٤]

° ° °

(١) هذا خبرٌ مهمٌّ جدًّا ، فى قراءة المتنبىّ شعره ببغداذ شيراز .

(٢) قوله « الفارسيات » يعنى ما قاله المتنبى فى آبن العميد وعضد الدولة .

(٣) هذا الخبر رقم : ١٨ ، رواه ابن العديم فى ترجمته رقم : ١١ مع اختلاف فى اللفظ واضح . ومكان النقط بياض فى المخطوطة قدر كلمتين ممحوّتين .

(٤) الخبر رقم : ١٩ ، لم أجده بهذا اللفظ . وانظر ديوان المتنبىّ (عزام) ص : ٥٨٧ ، وفيه ذكر غلامه « مفلح » .

٢ – ترجمة المتنبِّي لابنِ العديم



(٢)

/ ترجمة المتنبى من « بغية الطلب » لابن العديم ٢٤٩/٢

* * *

١ – / أحمدُ بن الحُسين بن الحَسَن بن عبد الصمد ، أبو الطَّيِّب الجُعْفِىُّ الكوفىُّ الشاعر المعروف بالمتنبِّى . ٢٦

٢ – وقيل : هو أحمد بن الحسين بن مُرّة بن عبد الجبَّار ، وكان والده الحسين يعرف بِعِيدان السَّقَّاء .

٣ – وكان أبو الطيب شاعراً مشهوراً مذكوراً محظوظاً من الملوك والكبراء الذين عاصرهم ، والجيِّدُ من شعره لا يُجارَى فيه ولا يُلْحَق ، والردىء منه فى نهاية الرداءة والسقوط ، وكان يتعظَّم فى نفسه ويترفَّع ، وقيل : إنه ادَّعى « النبوة » فى حداثته فلقب المتنبى لذلك ، وكان عارفاً باللغة قيِّماً بها .

٤ – قدم الشام فى صباه وجال فى أقطارها ، وصعَّد بعد ذلك إلى الديار المصرية ، وكان بها فى سنة خمس وثلاثين وثلاثمئة .(١) ثم قدم حلب وافداً على الأمير سيف الدولة أبى الحسن على بن عبد الله بن حَمدان مادحاً له ،(٢) فأكرمه ونَفَق عليه ، وصار خصيصاً به ، ملازماً له حَضَراً وسَفَراً ، / إلى أن خرج من حلب غضبانَ بسبب ٢٥٠/٢

---

(١) دخوله مصر وكونه بها فى سنة ٣٣٥ هـ ، خبر جديد لم أجد من ذكره ، انظر الآتى رقم : ٦٦ : وترجمة المقريزى رقم : ١٧ وهو يوجب إعادة النظر فى ترتيب رحلة المتنبى منذ صباه ، إلى أن لقى سيف الدولة سنة ٣٣٧ هـ ، واقرأ تتمة الخبر وقوله : « الدفعة الثانية » .

(٢) فى الأصل : « ومادحاً له » ، كأنه أراد أن يكتب « ومدحه » .

كلامٍ وقع بينه وبين أبى عبد الله بن خالويه فى مجلس سيف الدولة ، فضر به ابن خالويه بمفتاح . وكان دخوله إلى حلب سنة سبع وثلاثين وثلاثمئة ، وخروجه منها إلى مصر الدفعة الثانية فى سنة ست وأربعين وثلاثمئة ، [1] وكان نزوله بحلب فى محلتنا المعروفة بآدرنى كسْرَى [هكذا فى الأصل] . قال لى والدى : وكانت داره داراً هى الآن خانكاه سعد الدين كُمشْتُكين ملاصقة لدارى .

٥ - وكان ابن خالويه مُؤَدِّبَ وَلَدَىْ الأمير سيف الدولة : أبى المكارم ، وأبى المعالى . فظفرتِ بجزء بخط ابن خالويه ذكر فيه ما يحفظه الأميران المذكوران ، فذكر أنواعاً من الفقه والأدب وأشعار العرب ، وقال فى جملتها : « ويحفظان من شعر الشاعر المعروف بالمتنبى كذا وكذا قصيدة » ، وعيّنها ، ولم يذكر أنهما يحفظان لغيره من العصريين شيئاً . وهذا يدُل على عِظَم قدره وجلالة أمره فى ذلك الزمان .

٦ - رَوَى عن أبى الطيب : القاضى أبو الحُسَيْن محمدُ بن أحمدَ بنِ القاسم المحاملىّ ، وأبو الفتح عثمان بن جِنِّى النَّحْوِىُّ ، وأبو محمد الحسن بن على بن الصَّقر الكاتب ، وأبو الحسن علىُّ بن أَيُّوبَ بن الحُسَيْن بن السَّاربان الكاتب ، [2] والأستاذ أبو على أحمد بن محمد بن مَسْكَوَيْه ، وأبو عبد الله / بن بَاكُوَيه الشيرازى ، [3] وأبو الحسن على بن عيسى الرَّبَعِىُّ ، وأبو القاسم بن حسن الحِمْصِىُّ ، وعبد الصمد بن زهير بن

٢٥١/٢

---

(١) انظر ص : ٥٨٣ ، والتعليق السالف رقم : ١ .

(٢) « الساربان » يقال لمن يحفظ الجمال فى مرعاها . قال الخطيب فى تاريخه (١١ : ٣٥١) « على بن أيوب ابن الحسين بن أيوب بن أستاذ ، أبو الحسن ، القمى الكاتب المعروف بابن الساربان سكن بغداد .... وذكر لنا أنه سمع من المتنبى ديوان شعره ، سوى القصائد الشيرازيات . فقرأت عليه جميع الديوان ، وكان رافضيًّا ، وكان يذكر أن مولده بشيراز فى سنة سبع وأربعين وثلاثمئة ، ومات ببغداد فى سنة ثلاثين وأربعمئة » . عجيبة !! إذا كان ما قاله هذا الرافضى صحيحاً ، فمتى سمع من المتنّبى ديوانه ، وهو قتل سنة ٣٥٤ ؟

(٣) ترجمته فى الأنساب للسمعانى ٢ : ٥٥ ، والإكمال لابن ماكولا ١ : ١٦٦ ، والمشتبه للذهبى : ٤٤ ، وتبصير المنتبه لابن حجر : ٥٧ ، وتاج العروس (باك) ، ولباب الأنساب للسيوطى ١ : ٩١ ، وهو فى أكثرها : « أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد بن باكويه » ، وانفراد ابن حجر فى لسان الميزان (٥ : ٢٣٠) فقال : « محمد بن عبد الله بن عبيد الله بن باكويه » ، توفى بعد عشرين وأربعمئة .

هارون بن أبى جَرَادة ، ومحمدُ بن عبد الله بن سَعْدٍ النحويُّ الحلبيَّان ، وعبد الله بن عبيد الله الصُّفْرى الشاعر الحلبى ، وعبيد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبى الجُوع الورَّاق المِصْرىّ ، [١] وأبو إسحاق إبرٰهيم بن عبد الله بن المَغْرِبِىّ ، وأبو بكر الطائى ، وأبو القاسم النَّيْلَبُخْتِىُّ ، وأبو محمد الحسن بن عمر بن إبرٰهيم ، وأبو العباس ابن الحَوْت ، [٢] وجماعة سواهم . [انظر ترجمة المقريزى رقم : ٣٢] .

٧ — أنبأنا تاج الأمناء أحمد بن محمد بن الحسن ، قال ، أخبرنا الحافظُ أبو القاسم على بن الحسن عمّى قال ، قال لنا هبةُ الله بن عبد الله بن أحمد الواسطى ، قال لنا أبو بكر الخطيبُ : « عِيدَان » بكسر العين ، والياء المعجمة باثنتين من تحتها ، هو والدُ أبى الطيب أحمد بن الحسين المتنبّى ، كان يُعْرَفُ بعِيدان السَّقّاء .

* * *

أخبار الربعى ٨ — أخبرنى صديقنا أبو الدُّر ياقوت بن عبد الله الرومى ، مولى الحَموى / البغدادِىُّ قال : رأيت / ديوان أبى الطيب المتنبّى بخط أبى الحسن على بن عيسى الرَّبَعِىِّ ، قال فى أوَّله : « الذى أعرفه من نسب أبى الطيب أنه : أحمد بن الحسين بن مُرَّة بن عبد الجبار الجُعفِىّ ، وكان يكتم نسبه ، وسألته عن سبب طَيِّهِ ذلك فقال : إنى أنزل دائماً بعشائر وقبائل من العرب ، ولا أحبُّ أن يعرفونى ، خِيفَة أن يكون لهم فى قومى تِرَة . وهذا الذى صح عندى من نسبه . قال : واجتزت أنا وأبو الحسن محمد بن عُبيد الله السَّلامى الشاعر على الجسر ببغداد ، وعليه من جملة السُّؤَّال رجل مكفوفٌ . فقال لى السَّلامى : هذا المكفوف أخو المتنبى ، [٣] فدنوت منه فسألته عن ذلك فصدَّقه ،

٢٧
٢٥٢/٢

---

(١) انظر ترجمة الربعى رقم : ١٦ ، ١٧ ، وفيه صفة الديوان وصفة ورقه .

(٢) هكذا ضبط فى الأصل .

(٣) هذه أيضاً فائدة لم نجدها من قبل عند أحد . هكذا قلت فى الطبعة السالفة ، ثم وجدت فى تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى (١ : ١٩٥) خبراً يذكره عن أبى الحسن محمد بن يحيى الزيدى العلوى ، وذكر المتنبى فقال فى آخر الخبر : « وكان أخوه ضريراً يتصدَّق ببغداد ، وادَّعى أنّه حُسَينىّ ، ثم ادعى بكلب أنه نبىّ ، فأشرف على القتل فاستتابوه » . [انظر ما سيأتى ص ٦١١ ، تعليق : ٣] ، ثم انظر شبيهًا بهذا الخبر ، عن ابن عم للمتنبىّ فى شأن نسبه ، فى ترجمة الربعى رقم : ٢ .

وانتسب هذا النسب وقال : « من ها هنا ٱنقطع نسبنا » . وكان مولده بالكوفة فى كندة سنة ثلاث وثلاثمئة ، وأرضعته امرأة عَلَوِيَّة من آل عُبَيْد الله . (١) [الربعى رقم : ١ ، ٢ / وابن عساكر رقم : ٣ / المقريزى رقم : ٥] .

٩ — « قال الرَّبَعِيُّ : وقال لى المتنبى : « كنت أحبُّ البطالة وصُحْبَةَ البادية ، / = (٢) وكان يذمُّ أهل الكوفة ، لأنهم يضيِّقون على أنفسهم فى كل شىء ، حتى فى الأسماء فَيَتَدَاعَوْنَ بالألقاب (٢) = ولما لُقِّبْتُ ثَقُل ذلك علىَّ زماناً ، ثم أَلِفْتُهُ » . (٣) ٢٥٣/٢

١٠ — « وقال الربَعِيُّ : رأيت عنده بشيراز جزءاً من شعره بخط ابن أبى الجُوعِ الورَّاق المصرىّ ، (٤) وعليه بخط آخر : « المتنبى السُّلمى البغدادِىُّ » فقال : ما كفاه أن عزانى إلى غير بلدى ، حتى نسبنى إلى غير أبى ! (٥)

١١ — « قال : وما أظن أنَّ أحداً صدق فى رواية هذا الديوان صِدْقى ؛ فإننى كُنْتُ أُكاثره ونحن / بشيرازَ ، وربما أخذ عنى من كلام أبى على النحوىّ ، وسمعت شعره

---

(١) هذا خبر الربعى صاحب المتنبى ، الذى جاء فأيد قولى فى « علوية » أبى الطيب ، وكنت استخرجت هذا القول استخراجاً من دراسة ديوانه ، بلا دليل قاطع فى الرواية إلا ما رواه البغدادى فى الخزانة عن الأصفهانى (انظر ما سلف : ١٦٧) من أن المتنبى ، « اختلف إلى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة » . فالمتنبى إلا يكُنْ علويا كل العلوى ، فإنه أخوهم من الرضاع . و « آل عبيد الله » هم بنو : « عبيد الله بن على بن عبد الله بن الحسين بن على ابن الحسين بن على بن أبى طالب ، ومنهم العلوى الذى مدحه المتنبى صغيراً ، وهو الأشتر ، أو المشطب « أبو الحسين محمد بن عبيد الله بن عبد الله بن على بن عبد الله بن الحسين ..... » ، انظر ما سلف ص : ١٥١ تعليق : ١٥٣/٣ تعليق : ١٦٤/١ ، تعليق : ١٦٧/١ ، تعليق : ١٦٨/١ ، تعليق : ١ . هذا ، وانظر الخبر مختصراً فى ترجمة المقريزى الآتية رقم : ٢ ، وٱنظر أصله فى ترجمة الربعى رقم : ١ .

(٢) ما بين الخطين (=) من كلام الربعى معترضاً فى كلام أبى الطيب .

(٣) وهذا أيضاً خبر جديد مهم جداً ، فى سبب تلقيبه « المتنبى » ، وهو فى ترجمة الربعى رقم : ١ ، وكل أخبار الربعى مهمة .

(٤) انظر ما سلف . رقم : ٦ ، ص : ٥٨٥ .

(٥) ترجمة الربعى رقم : ١٤ ، ثم رقم : ١٧ ، فيه ذكر ديوان المتنبى بخط ابن أبى الجوْع .

يُقْرَأ عليه دَفَعاتٍ ، ولم أقرأ عليه إلا العضديات والعميديات ، فإنى قرأتها تكرمة لمن قيلت فيه ، ونقلتها بخطى من مُدْرَج بخطه كان معه . [١] هذا آخر كلام الرَّبَعىِّ » .

* * *

أخبار الخطيب البغدادى ٢٥٤/٢

١٢ – أخبرنا أبو اليُمْنِ زيد بن الحسن بن زَيْد الكندىّ ، فيما أذن لنا فيه ، قال ، أخبرنا أبو منصور بن زُريق قال : قال لنا أبو بكر الخطيب : [٢] / أحمد بن الحسين بن عبد الصَّمد أبو الطيب الجُعفى – المعروف بالمتنبى ، بلغنى أنه ولد بالكوفة فى سنة ثلاث وثلاثمئة ، ونشأ بالشام ، وأكثر المُقَام بالبادية ، وطلب الأدب وعلم العربية ، ونظر فى أيام الناس ، وتعاطى قولَ الشعر من حداثته ، حتى بلغ فيه الغاية التى فاق [بها] أهلَ عصره ، وعلا شعراء وقته . واتصل بالأمير أبى الحسن بن حَمْدان المعروف بسيف الدولة ، وانقطع إليه وأكثر القول فى مديحه . ثم مضى إلى مصر فمدح بها كافور الخادم ، وأقام هناك مدة ، ثم خرج من مصر وورد العراق ، ودخل بغداد وجالس بها أهل الأدب ، وقرئ عليه ديوانه .

١٣ – فحدثنى أحمد بن أبى جعفر القَطِيعى ، عن أبى أحمد عُبيد الله بن محمد بن أبى مسلم الفَرَضِىّ قال : لما ورد المتنبى بغداد سكن فى رَبَض حُمَيْد ، فمضيت إلى الموضع الذى نزل فيه لأسمع منه شيئاً من شعره ، فلم أصادفه ، فجلست أنتظره ، وأبطأ علىَّ ، فانصرفتُ من غير أن ألقاه ، ولم أعد إليه / بعد ذلك . وقد كان القاضى أبو الحسين محمد بن أحمد بن القاسم المحاملى يسمع منه ديوانه ورواه عنه .

٢٨

١٤ – قال الخطيب : أخبرنا على بن المُحَسِّن التنوخِىّ ، عن أبيه قال ، حدثنى أبو الحسن محمد بن يحيى العلوىّ الزيدىُّ قال : [٣] كان المتنبى وهو صبىٌّ ينزل

---

(١) انظر ترجمة الربعى رقم : ١٨ .

(٢) هذه الأخبار من رقم : ١٢ – إلى آخر رقم : ١٧ ، فى كتاب تاريخ بغداد ، ٤ : ١٠٢ – ١٠٤ ، ثم انظر تمامها هنا منذ رقم : ٢٣ .

(٣) خبر أبى الحسن محمد بن يحيى الزيدى العلوى ، مذكور أيضاً فى تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى الجزء الأول : ١٤٩ [بيروت ١٩٦١] ، وفيه بعد قوله : « فجاءنا بعد سنين بدويًّا قحا » ما يلى بنصه : « وكان لا يعترف بنسبه ، ويقول : متى انتسبت لم آمن أن يأخذنى بعض العرب بطائلة بينه وبين قبيلة ، وكان أخوه =

فى جوارى بالكوفة ، وكان يُعْرَف أبوه بعِيدَان السَّقَّاء ، يستقى لنا ولأهل المحلّة ، ونشأ هو محباً للعلم والأدب ، فطلبه ، وصحبَ الأعراب فى البادية ، فجاءنا بعد سنين بدويًّا قُحًّا ، وقد كان تعلم الكتابة والقراءة ، فلزم أهل العلم والأدب ، وأكثر من ملازمة الوراقين ، فكان علمه من دفاترهم . فأخبرنى / ورَّاق كان يجلس إليه يوماً قال لى : ما رأيت أحفظ من هذا الفتى ابن عِيدان قطُّ ! فقلت له : كيف ؟ فقال : كان اليوم عندى وقد أحضر رجل كتاباً من كتب الأصمعىّ ، سمَّاه الوراق ، وَأُنْسِيَه أبو الحسن ، يكون نحو ثلاثين ورقة ليبيعه ، قال : فأخذ ينظر فيه طويلاً ، فقال له الرجل : يا هذا أريد بيعه ، وقد قطعتنى عن ذلك ، فإن كنت تريد حفظه ، فهذا إن شاء الله يكون بعد شهر . [1] قال : فقال له ابن عِيدَان : فإن كنت قد حفظته فى هذه المدة فما لى عليك ؟ قال : أهَبُ لك الكتاب . قال : فأخذت الدفتر من يده ، فأقبل يتلوه علىَّ إلى آخره ، ثم استلبه فجعله فى كُمِّه وقام ، فَعَلِقَ به صاحبه وطالبه بالثمن ، فقال : ما إلى ذلك سبيل ، قد وهبتَه لى ! قال : فمنعناه منه وقلنا له : أنت شَرَطْت على نفسك هذا للغلام ! فتركه عليه . [2]

(٢٥٥/٢)

١٥ — وقال أبو الحسن : كان عِيدان والد المتنبى يذكر أنه من جُعْفِىّ ، وكانت جَدَّة المتنبى هَمْدَانِيَّةً صحيحة النَّسبِ لا أشك فيها ، وكان جارتَنا ، وكانت من صُلَحاء الكوفيات . [المقريزى رقم : ٤] .

١٦ — قال التنوخِىّ ، قال أبى : فاتفق مجىء المتنبِّى بعد سنين إلى الأهواز منصرفاً من فارس ، فذاكرته بأبى الحسن ، فقال : تِرْبِى وصديقى وجارِى بالكوفة ! وأطْرَاه ووصفه . وسألت المتنبى عن نسبه ، فما اعترف لى به ، وقال : أنا رجل أَخْبِطُ

= ضريراً يتصدَّق ببغداد ، وادَّعىَ أنه حُسَينى ، ثم ادعى بكلبٍ أنه نبىٌّ ، فأشرف على القتل . ثم استتابوه » ، ومن أول قوله : « كان أخوه ضريراً يتصدق » إلى آخر الكلام ، ليس من كلام أبى الحسن الزيدى العلوى بلا شك ، وهو زيادة من أخبار أخرى زادها الهمدانى . وانظر ما سلف : ٦٠٩ ، تعليق : ٣ .

(١) فى التاريخ : « فإن كنت تريد حفظه من هذه المدة [فبعيد ! فقال : إن كنت حفظته] فمالى عليك » .

(٢) انظر ترجمة المقريزى الآتية رقم : ٣ .

القبائل وأطْوِى البوادى وَحْدِى ، ومتى انتسبت / لم آمن أن يأخذنى بعض العرب ٢٥٦/٢
بطائلة بينها وبين القبيلة التى أنتسب إليها ، وما دُمْتُ غير منتسبٍ إلى أحدٍ ، فأنا
أَسْلَم على جميعهم ويخافون لسانى . (١)

١٧ — قال : واجتمعت بعد موت المتنبى بسنين مع القاضى أبى الحسن
ابن أمِّ شَيْبان الهاشمىِّ الكوفىِّ ، وجرى ذكر المتنبّى فقال : كنت أعرف أباه بالكوفة
شيخاً يسمى « عِيدَان » يَسْقِى على بعير له ، وكان « جُعْفيًّا » صحيح النسب . (٢)
قال : وقد كان المتنبى لما خرج إلى كَلْب وأقام فيهم ، ادعى أنه عَلَوِىّ حَسَنىٌّ ، (٣) ثم
ٱدَّعى بعد ذلك النُّبوَّةَ ، ثم عاد يَدَّعى أنه علوىٌّ ، إلى أن أُشْهِد عليه بالشام بالكذب
فى الدعويين ، وحُبس دهراً طويلاً وأشرف على القتل ، ثم اسْتُتِيبَ ، وأُشهد عليه بالتوبة
وأُطلق . (٤)

* * *

أخبار ابن أبى الجوع الوراق

١٨ — قرأت بخط عبيد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبى الجوع
الورَّاق المصرى : سألت أبا الطيّب المتنبى أحمد بن الحسين بن الحسن / عن مولده ٢٩
ومنشئه ، فقال : ولدتُ بالكوفة سنة ثلاث وثلاثمئة فى كِنْدة ، ونشأت بها ، ودخلتُ
مدينة السلام ، ودرتُ الشام كلَّه سَهْله وَجَبَله .

* * *

---

(١) الخبران : ١٥ ، ١٦ سيأتيان فى ترجمة المقريزى رقم : ٤ .
(٢) إلى هنا من الخبر فى ترجمة المقريزى الآتية برقم : ٥ .
(٣) انظر رقم : ١٤ ، والتعليق عليه ، وفيه عن أبى الحسن محمد بن يحيى الزيدى ، أنّه ادعى أنه « حُسَيْنىٌّ » ، وهذا هو الصواب المحض .
(٤) سيأتى هذا الجزء من الخبر مختصراً فى ترجمة المقريزى برقم : ٨ .

١٩ — أخبرنا أبو محمد عبد العزيز بن محمود بن الأخضر البغدادىّ فى كتابه قال ، أخبرنا الرئيس أبو الحسن على بن على بن نصر بن سعيد البصرى قال ، أخبرنا أبو البركات محمد بن عبد الله بن يحيى الوكيل قال ، أخبرنا على بن أيوب بن الحسين بن الساربان قال : [١] ولد أبو الطيب أحمد / بن الحسين بن الحسن المتنبِّى بالكوفة فى محلة كندة ، سنة ثلاث وثلاثمئة ، وقال الشعر وهو صبى فى المكتب .

٢٥٧/٢

٢٠ — وقرأت فى بعض النُّسخ من شعره أن مولده قيل على التقريب لا على التحقيق . [٢]

٢١ — وقرأت فى تاريخ أبى عبد الله محمد بن على العَظِيمىّ الحلبى ، [٣] وأخبرنا به المؤيد بن محمد الطوسىُّ إجازةً عنه : قيل إنه ولد — يعنى المتنبى — سنة إحدى وثلاثمئة ، والأول أصح والله أعلم .

٢٢ — أخبرنا أبو الدر ياقوت بن عبد الله الحَموى ، قال : ذكر أبو الرَّيحان محمد بن أحمد البَيْرُونىّ ، ونقلته من خطه : أن المتنبى لما ذكر فى القصيدة التى أولها :

« كُفِّى أَرَانى وَيْكِ لَوْمَكَ أَلْوَمَا »

.... النورَ الذى تظاهر لاهُوتِيُّه فى ممدوحه ، وقال :

« أنا مُبْصِرٌ وأظنُّ أَنِّىَ حَالِمٌ »

ودار على الألسن ، قالوا : قد تجلَّى لأبى الطيب ربُّه ! وبهذا وقع فى السجن = و« الوثاق » الذى ذكره فى شعره :

---

(١) انظر ما سلف رقم : ٦ ، ص : ٥٨٤ .

(٢) الذى يقول : « قرأت » هو ابن العديم نفسه .

(٣) فى المخطوطة « العطيمى » ، غير منقوطة الطاء ، وهو « محمد بن على بن محمد بن أحمد ، أبو عبد الله التنوخى الحلبىّ ، المعروف بالعظيمىّ » ، وانظر ترجمته فى الأعلام للزركلى ، والتعليق عليه ، وذكره ابن العديم فى « تاريخ القدماء ، لأبى العلاء » ص : ٥١٢ وحدث عنه .

« أيَا خَدَّدَ اللّٰهُ وَرْدَ الخُدُودِ »

/ ولم يذكر سبب لقبه – على صدقه ، وإنما وَجَّه له وَجْهاً ما ، كما حكى عنه أبو الفتح عثمان بن جنى أن سببه هو قوله : ٢٥٨/٢

أَنَا فى أُمَّةٍ تَدَارَكَهَا اللّٰهُ غريبٌ كصالِحٍ فى ثمُودِ

وإنما هو أن الخيوط فى رأسه كانت تُدِيره وتزعجه ، فتحيَّن غَيْبَة سيف الدولة فى بعض غزواته ، وقصد أعراب الشام ، واستغوى مقدار ألف رجل منهم ، واتصل خبره بسيف الدولة ، فكَرَّ راجعاً وعاجله ، فتفرق عنه أصحابه ، وجئ به أسيراً ، فقال له : أنت النبىُّ ؟ قال : بل أنا المتنبِّى ، حتى تطعمونى وتسقونى ، فإذا فعلتم ذلك فأنا أحمد بن الحسين ! فأُعْجِب بثبات جأشه وجرأته فى جوابه ، وحقن دمه ، وألقاه فى السجن بحمص ، إلى أن قرِّر عنده فضله ، فأطلقه واستخصّه . ولما أكثروا ذكره بالتَّنَبِّى تلقب به كيلا يصير ذمًّا إذا احتشم أُخْفِىَ عنه ، وشتماً لا يُشَافَهُ به ، واستمر الأمر على ما تولى التلَقُّب به . (١)

• قلت (٢) : قول أبى الريحان إنه تحين غيبة سيف الدولة فى بعض غزواته ، إلى آخر ما ذكره ، ليس بصحيح ، فإن أهل الشام وغيرهم من الرواة لم ينقلوا أن المتنبى ظهر منه شئ من ذلك فى أيام سيف الدولة ومملكته بحلب والشام ، ولا أنه حبسه منذ اتصل به ، وإنما كان ذلك فى أيام لُؤلؤٍ الإخشيدى أمير حمص . ٢٥٩/٢

٢٣ – / (٣) أخبرنا أبو اليُمْن زيد بن الحسن البَغْدادىّ كتابةً قال ، أخبرنا أبو مَنصور بن زُرَيق قال ، أخبرنا أبو بكر الخطيب قال ، وأخبرنا على بن المحسِّن

تابع أخبار الخطيب البغدادى

---

(١) فى الأصل « التقلب به .

(٢) القائل هو ابن العديم ، فى نقد هذا الخبر الغريب !!

(٣) هذه الأخبار من رقم : ٢٣ إلى آخر رقم : ٢٦ ، من تمام أخبار الخطيب فى تاريخ بغداد ، والتى ذكرها من رقم : ١٢ ، إلى رقم : ١٧ .

٣٠ التنوخى قال ، حدثنا أبى / قال ، حدثنى أبو على بن أبى حامد قال : سمعت خلقاً بحلب يحكون ، وأبو الطيب المتنبى بها إذ ذاك ، أنه تنبأ فى بادية السَّماوة ونواحيها إلى أن خرج إليه لُؤلُؤٌ أمير حمص من قِبَل الإخشيدية ، فقاتله وأسره وشرَّد من كان اجتمع إليه من كلب وكلاب وغيرهما من قبائل العرب ، وحبسه فى السجن دهراً طويلاً ، فاعتلَّ وكاد أن يتلف ، حتى سئل فى أمره فاستتابه ، وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها ببطلان ما ادَّعاه ورجوعه إلى الإسلام ، وأنه تائب منه ، ولا يعاود مثله ، وأطلقه .

قال : وكان قد تلا على البوادى كلاماً ذكر أنه قرآن أُنزل عليه ، وكانوا يحكون له سُوَراً كثيرة ، نسخت منها سورة ضاعت وبقى أوَّلها فى حفظى وهو : « والنجم السيار ، والفلك الدَّوَّار ، والليل والنهار ، إن الكافر لفى أخطار ، آمض على سَنَنِك ، واقْفُ أثر من كان قبلك من المرسلين ، فإن الله قامعٌ بك زيغ من أَلْحَدَ فى دينه ، وضلَّ عن سبيله » . قال : وهى طويلة لم يبقَ فى حفظى منها غير هذا .[1]

قال : وكان المتنبى إذا شُوغِب فى مجلس سيف الدولة ، ونحن إذ ذاك بحلب يُذْكَر له هذا القرآن وأمثاله مما كان يحكى عنه ، فينكره ويجحده .

٢٦٠/٢ / قال : وقال له ابن خَالَوَيْه النحوى يوماً فى مجلس سيف الدولة : لولا أنَّ الآخَرَ جاهلٌ ، لما رضى أن يدعى بالمتنبى ، لأن « متنبِّى » معناه كاذب ، ومن رضى أن يدعى بالكذب فهو جاهل . فقال له : أنا لست أرضى أن أُدْعَى بهذا ، وإنما يدعونى به من يريد الغضّ منى ، ولست أقدر على الامتناع .[2]

٢٤ — قال الخطيب ، قال لنا التنوخى ، قال لى أبى : فأمَّا أنا فإنى سألته بالأهواز فى سنة أربع وخمسين وثلاثمئة عند اجتيازه بها إلى فارس ، وفى حديث طويل جرى

---

(١) هذا من الخبر ذكره المقريزى فى ترجمته الآتية برقم : ١٠ ، مختصراً .

(٢) هذا الجزء من الخبر ، فى ترجمة المقريزىّ الآتية برقم : ١١ .

بيننا عن معنى « المُتَنَبِّى » ، لأنى أردت أن أسمع منه هل تَنَبَّى أم لا ؟ فأجابنى بجوابٍ مُغَالِطٍ لى ، وهو أن قال : هذا شيء كان فى الحداثة أوجبته الصورة : فَٱسْتَحْيَيْتُ أن أَسْتَقْصِيَ عليهِ ، وأَمْسَكْتُ .(١)

٢٥ – وقال لى أبو على بن أبى حامد ، قال لى أبى ونحن بحلب ، وقد سمع قوماً يحكون عن أبى الطيب المتَنَبِّى هذه السورة التى قدّمنا ذِكرها : لولا جَهْلُهُ ، أين قولُه : « امْضِ على سَنَنِكَ » إلى آخر الكلام من قول الله تعالى : (فَٱصْدَعْ بِما تُؤْمَرْ وَأَعْرِضْ عَنِ المُشْرِكِين . إنَّا كَفَيْنَاكَ المُسْتَهْزِئِينَ) ، [سورة الحجر : ٩٣ ، ٩٤] إلى آخر القِصَّة ، وهل تتقاربُ الفصاحةُ فيهما أو يشتبه الكلامان .(٢)

* * *

٢٦ – قرأت فى نسخة وقعتْ إلىّ من شعر أبى الطيّب المتنبى ذُكر فيها عند قوله :

/ أَبَا عَبْدِ الإِلَهِ مُعاذُ ، إنّى خَفِىٌّ عَنْكَ فِى الهَيْجَا مَقامى ٢٦١/٢
ذَكَرْتَ جَسِيمَ ما طَلَبِى وأَنَّا نُخاطِرُ فِيه بالمُهَجِ الجِسَامِ
أَمِثْلِى تأْخُذُ النَّكَبَاتُ مِنْهُ ويَجْزَعُ من مُلاقَاةِ الحِمَامِ
ولو بَرَزَ الزَّمَانُ إلىَّ شَخْصًا لَخَضَّبَ شَعْرَ مَفْرِقِهِ حُسَامى
وَمَا بَلَغَتْ مَشِيئَتَهَا اللَّيَالِى ، ولا سَارَتْ وفى يدها زِمامى
/ إذا ٱمْتَلأَتْ عيونُ الخَيْلِ منّى ، فَوَيْلٌ لِلتَّيَقُّظِ والمنامِ ٣١

وقال ، قال أبو عبد الله مُعَاذُ بنُ إسمعيل اللاذقِىُّ : قدِم المتنبى اللاَّذقيَّةَ فى سنة

---

(١) سيأتى هذا الخبر فى ترجمة المقريزى الآتية فى رقم : ٨ بغير هذه الألفاظ والتعليق عليه هناك ، ثم انظر تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى ، الأول : ١٤٩ [بيروت : ١٩٦١] .

(٢) هذا الخبر فى ترجمة المقريزى الآتية برقم : ١٢ .

نيّف وعشرين وثلاثمئة ، وهو كما عذّرَ ، [١] وله وفْرَةٌ إلى شحمتي أُذُنِهِ ، وَضَوَى إلىّ فأكرمْتُه وعظَّمْتُه ، لِمَا رأيتُ مِنْ فصَاحَتِهِ وحُسْنِ سَمْتِهِ . فلما تمكَّنَ الأنسُ بينى وبينه وخَلَوْتُ مَعَهُ فى المنزل اغتناماً لمشاهَدَتِهِ واقتباساً من أَدَبِهِ ، وأعجبنى ما رأيتُ ، قلتُ : واللهِ إنَّكَ لشابٌّ خَطِيرٌ ، تَصلُح لمُنَادَمةِ ملكٍ كبيرٍ . فقال لى : ويْحَك ! أتدرى ما تَقُول ؟ أنا نبيٌّ مُرْسَل ! فظننتُ أنه يَهْزِلُ ، ثم ذكرتُ أنى لم أَحَصِّلْ عليه كلمة هَزْلٍ منذ عرفْتُهُ ، فقلت له : ما تقولُ ؟ فقال : أنا نبيٌّ مرسلٌ . قلتُ له : مرسلٌ إلى مَنْ ؟ قال : إلى هذه الأمةِ الضالةِ المضلّة . قلتُ : تفعل ماذا ؟ / قال : أمْلأُها عَدْلاً كما مُلِئَتْ جَوْراً . قلت : بماذا ؟ قال : بإدْرار الأرزاق والثوابِ العاجِل والآجِلِ لمن أطاعَ وأتَى ، وضَرْبِ الأعْناق وقطع الأرزاق لمن عصى وأبَى . فقلتُ له : إن هذا أَمرٌ عظيمٌ أخاف منه عليك أنْ يَظْهَر ! وعَذَلْتُه على قوله ذلك ، قال بَدِيهاً :

٢٦٢/٢

أبا عبْدِ الإلٰه مُعاذُ ، إنّى   خفىٌّ عنك فى الهَيْجا مَقامى

الأبيات ، فقلت له [٢] : قد ذكرتَ أنك نبىٌّ مرسلٌ إلى هذه الأمة ؟ أفَيُوحَى إليك ؟ قال : نعم . قلت : فَاتْلُ علىَّ شيئاً من الوحى إليك ! فأتانى بكلام ما مرَّ بسَمعى أحْسَنُ منه ، فقُلْتُ : وكم أُوحِىَ إليك من هذا ؟ فقال : مئة عِبْرَةٍ وأَرْبَعَ عَشْرَةَ عِبْرَةً . قلت : وكم العِبرةُ ؟ فأتَى بمقدارِ أكْبَرِ الآى من كتاب الله . قلت : فأسْمَعُ فى هذه العِبرَ أنَّ لك طاعةً فى السماءِ ، فما هى ؟ قال : أحْبِسُ المِدْرَارَ ، لقَطْعِ أرْزَاقِ العُصَاةِ والفُجَّار . قلت : أتَحْبِسُ من السماءِ مَطَرَها ؟ قال : إى ، وَالذِى فَطَرها ، أفما هى مُعْجزة ؟ قلت : بَلَى واللهِ . قال : فإن حَبَسْتُ عن مكانٍ تنظر إليه ولا تشك فيه ، هل تُؤْمِنُ بِي وتُصَدِّقُنى على ما أتَيْتُ به من ربى ؟ قلت : إى والله . قال : سأفعل ،

---

(١) هكذا وردت هنا ، وفى المقريزى رقم : ١٣ ، ولعل صوابها : « ولما يعذر » ، أى لم ينبت شعر عذاره ، وهو شعر خده ولحيته . وانظر الخبر فيما سلف ص : ٢٠٠ ، وفيه ، « وهو لا عذار له » .

(٢) فى الأصل : « لم ذكرت » ، وعلى « لم » علامة (ص) ليدل على الخطأ .

ولا تسألنى عن شئ بعدها حتى آتيك بهذه المعجزة ، ولا تُظْهِرْ شيئاً من هذا الأمر حتى يَظْهَرَ ، وٱنتظرْ مَا وُعِدْتَهُ من غير أن تسألَهُ . فقال لى بَعْد أيامٍ : أتحبُّ أن تنظرَ إلى المعجزةِ التى جرى ذكرها ؟ قلت : / بَلَى واللهِ . فقال لى : إذا أرسلتُ إليك أحدَ العبيد ٢٦٣/٢ فاركبْ مَعَه ولا تَأَخَّرْ ، ولا يَخْرُج معك أحدٌ . قلت : نعم . فلما كان بعد أيامٍ تَغَيَّمَتِ السماءُ فى يوم من أَيَّامِ الشتاءِ ، وإذا عَبْدُهُ قد أقبل فقال : يقول لك مولاىَ ، ٱرْكَبْ للوعدِ . فبادرتُ بالرُّكُوبِ معه ، وقلت : أين رَكِب مولاك ؟ فقال : إلى الصحراءِ ، ولم يخرجْ معه أَحَدٌ غيرِى = واشتدَّ وَقْع المَطر ، فقال : بادِرْ بنا حتى نَسْتَكِنَّ معه من هذا المَطَرِ ، فإنَّه ينتظرنا بأعْلَى تَلٍّ لا يُصيبُهُ فيه المطرُ . قلت : وكيف عَمِل ؟ قال : أقْبَلَ ينظُرُ إلى السماءِ / أوّل ما بَدَا السحاب الأسْود وهو يتكلم بما لا أَفْهَم ، ثم أخَذَ السَّوْطَ ٣٢ فأدار بِه فى موضِعٍ سَتَنْظُر إليه من التَّلِّ وَهُوَ يُهَمْهِم ، والمطر ممّا يَلِيه ، ولا قطرةَ منْهُ عليه ! فبادرت معه حتى نظرتُ إليه ، وإذا هو على تلّ على نصف فرسخٍ من البلدِ ، فأتَيْتُه وإذا هو عليه قائمٌ ، ما عليه من ذلك المطر قطرةٌ واحدةٌ ، وقد خُضْتُ فى الماء إلى رُكْبَتَى الفرس ، والمطر فى أشَدِّ ما يكونُ . ونظرتُ إلى نحو مئتى ذراع فى مثلها من ذلك التلّ يابسٌ ما فيه ندًى ولا قطرةُ مطر . فسلَّمتُ عليه ، فردَّ علىَّ وقال لى : ما ترى ؟ فقلت : ٱبْسُطْ يدك ، فإنى أشْهَدُ أنك رسولُ الله ! فبسط يده فبايعتُه بَيْعَةَ الإقرار بنبوّته ، ثم قال لى : ما قال هذا الخبيثُ لما دَعَا بِكَ ؟ – يعنى عبدَه – فشرحت له ما قال لى فى الطريق لما استخبرته ، فقتَل العبدَ ، وقال :

أىَّ مَحَلٍّ أرْتَقى ، أىَّ عظيمٍ أتَّقى
وكُلُّ مَا خَلَق اللهُ ومَا لَم يَخْلُقِ
مُحْتَقَرٌ فى هِمَّتِى ، كشَعْرةٍ فى مَفْرِقِ

/ وأخذتُ بيْعَتَه لأهلى ، ثم صحَّ بعد ذلك أن البيعة عَمَّتْ كلَّ مدينةٍ بالشام ، ٢٦٤/٢ وذلك بأصغر حيلة تَعَلَّمَها من بعض العرب ، وهى « صَدْحَةُ المطر » يَصْرِفُه بها عن أىّ مكان أحبَّ بعد أن يَحْوِى عليهِ بعصاً ، وينفُثُ بالصّدحة التى لهم ، وقد رأيتُ كثيراً

منهم بالسَّكُون ، وحَضْرَموت ، والسكاسك من اليمن يفعلون هذا ولا يتعاظمونه ، حتى إن أحَدَهُم يَصدَح عَن غَنَمه وإبله وبَقَره ، وعن القَريةِ من القُرى فلا يصيبها من المطر قطْرة ، ويكون المطر مما يلى (الصَّدْحة) = وهُوَ ضربٌ من السِّحْر ، ورأيت لهم من السِّحر ما هو أعظم من هذا . وسألتُ المتنبى بعد ذلك : هل دخلتَ السَّكُونَ ؟ قال : نعم ، ووَالدى منها ، أما سمعت قولى :

أُمُنْسِيَّ السَّكُونَ وحَضْرَمَوْتاً ⁂ وَوَالِدَتِى وكِنْدَةَ والسَّبِيعَا

فقلت : مِنْ ثَمَّ استفاد ماجَوَّزَه على طَغَامِ أهلِ الشامِ ! [1] وجَرَتْ له أشياءُ بعد ذلك من الحروب والحبس ، والانتقال من موضع إلى موضعٍ ، حتى حصل عندَ سيفِ الدولةِ وعَلاَ شَأْنُهُ .

• قلت : و « الصدحَة » التى أشار إلى أنها تمنع المطر معروفةٌ إلى زماننا هذا . وأخبرنى غير واحد ممن أثق به من أهل اليمن أنهم يصرفون المطرَ عن الإبل والغنم ، وعن زَرْعِ عدُوّه ، وإن رِعاءَ الإبل والغنم ببلادهم يستعملون ذلك ، وهو نوع من السحر .

* * *

٢٧ – وذكر أبو الحسن على بن محمد بن على بن فُورَجَةَ فى كتاب / « التجنّى على ابن جِنّى » قال : أخبرنى أبو العلاءِ أحمدُ بنُ سليمانَ المعرىُّ ، عَمَّن أخبره من الكُتَّابِ قال : كنتُ بالديوانِ فى بعض بلادِ الشام ، فأسرعتِ المُدْيَةُ فى إصبع بعض الكتاب وهو يَبْرِى قَلَمَهُ ، وأبو الطيب حاضرٌ ، فقام إليه وتَفَل عليه وأمْسَكها سَاعةً بيده ، ثم أرسلها وقد آندَمَلَتِ بدمها ، فجعل يُعَجِّبُ من ذلك ، ويُرِى مَنْ حَضَرَ أنَّ ذلك من مُعْجِزاتِه . [2]

٢٦٥/٢

---

(١) هذا الخبر رقم : ٢٦ ، إلى هنا فى ترجمة المقريزى الآتية برقم : ١٣ .

(٢) هذا الخبر فى ترجمة المقريزى الآتية برقم : ١٤ ، وقد رواه المعرى فى رسالة الغفران : ٣٥٥ ، بغير هذا اللفظ .

قال : ومما كان يُمَخْرِقُ به على أبياتِ البادِيَةِ ، أنه كان مَشَّاءً قَوِيًّا على السير سَيْراً لا غَايَةَ بَعْدَه ، وكان عارفاً / بالفَلَواتِ ومواقعِ المياه ومحالِّ العَرَبِ بها ، فكان يسيرُ من حِلَّةٍ ٣٣ إلى حِلَّةٍ بالبادية فى ليلةٍ ، وبينهما مسيرةُ ثلاثٍ ، فيأتى ماءً ويغسِلُ يديه ووجْهَه ورجْلَهُ ، ثم يأتى أهل تلك الحِلَّة فيخبرها عن الحلَّةِ التى فارقها ، ويُريهم أن الأرضَ طُوِيَتْ له . فلمّا عَلَتْ سِنُّهُ رَغِبَ عن ذلك وزَهِدَ فيه ، وأقبَلَ على الشِّعر وقد وُسِمَ بتلك السِّمَةِ .

***

٢٨ – أنبأنا أبو محمد عبد العزيز بن محمود بن الأخضر قال ، أخبرنا الرئيس أبو الحسن على بن على بن نصر بن سعيد قال ، أخبرنا أبو البركات محمد بن عبد الله بن يحيى قال ، أخبرنا على بن أيوبَ بن الحُسَيْن قال : أنشدنا أبو الطيب المتنبى لنفسه ، وكان قوم فى صباه وَشَوْا به إلى السلطان / وتكذَّبوا عليه ، وقالوا له : قد آنقاد له خَلْقٌ من ٢/٢٦٦ العَرَبِ ، وقد عزم على أخذ بَلَدِك ! حتى أَوْحَشُوهُ منه ، فاعتقله وضيَّق عليه ، فكتب إليه يمدحُهُ :

أَيَا خَدَّدَ اللهُ وَرْدَ الخُدُودِ ... وقَدَّ قُدُودَ الحِسَانِ القُدُودِ
فهُنَّ أَسَلْنَ دَماً مُقْلَتِى ، ... وعَذَّبنَ قَلْبِى بطُولِ الصُّدُودِ

قال فيها فى ذكر الممدوح :

رَمَى حلَباً بنَواصِى الخُيُول ... وسُمْرٍ يُرِقْن دَماً فِي الصَّعِيد
وبِيضٍ مُسَافِرَةٍ ما يُقِمْنَ ، ... لاَ فِي الرِّقاب ولا فِي الغُمودِ
يَقُدْنَ الفَنَـاءَ غَداة اللِّقَـاءِ ... إلى كُلِّ جَيْشٍ كثير العدِيدِ
فَوَلَّى بأشياعِهِ الخَرْشَنِىُّ ، ... كَشَاءٍ أَحَسَّ بِزَأْرِ الأسُودِ
يُرَوْنَ من الذُّعْرِ صوتَ الرِّياح ... صَهِيلَ الجِيَادِ وخَفْقَ البُنُودِ
فَمَنْ كالأمير آبن بِنْتِ الأمير ، ... أَمْ مَنْ كآبائِـه وَالجُـدُودِ
سَعَوْا للمَعَالِى وهُمْ صِبْيَةٌ ، ... وَسادُوا وجَادُوا وَهُمْ فى المُهُودِ

أَمَالِكَ رِقّى ، وَمَنْ شأْنُـهُ هِبَاتُ اللُّجَيْنِ وَعِتْقُ العَبيدِ
دَعَوْتُكَ عند ٱنْقِطاعِ الرَّجاءِ ، والموتُ مِنّى كَحَبْلِ الوَرِيدِ
دَعَوتُك لمّا بَرَانِى البِلَى ، وَأَوْهَنَ رِجْلَىَّ ثِقْلُ الحَدِيدِ
وقد كان مَشْيُهما فى النِّعَالِ ، فقد صار مَشْيُهُمَا فى القُيودِ
٢٦٧/٢ / وكنتُ مِنَ النّاسِ فى مَحْفِلٍ ، فَهَا أَنَا فى مَحْفِلٍ من قُرودِ
تُعُجِّلَ فِىَّ وُجُوبُ الحُدُود ، وحَدِّىَ قبلَ وُجُوبِ السجُودِ
وقيل عَدَوْتُ عَلَى العَالمين ، بين وِلَادِى وبَيْنَ القُعودِ !
فمالَكَ تَقْبَلُ زُورَ الكَلَامِ ؟ وقَدْرُ الشهادةِ قَدْرُ الشُّهودِ
فَلا تَسْمَعنَّ من الكَاذِبينَ ، ولا تَعْبَأَنَّ بِمَحْلِ اليَهُودِ
وكُنْ فارقاً بين دعْوَى « أردْتَ » وَدَعْوَى « فعَلْتَ » بشأْوٍ بعَيدِ
وفى جُودِ كَفِّكَ مَا جُدْتَ لِى بِنَفْسِى ، وَلَوْ كُنْتُ أَشْقَى ثَمُودِ

* * *

٢٩ – وذكر أبو منصور الثعالبى فى اليتيمة عن ابن جنى أنه قال : سمعت أبا الطيب يقول : إنما لُقِّبْتُ بالمتنبى لقولى :

٣٤ / أنا فِى أمةٍ ، تداركها اللهُ ، غريبٌ كصالحٍ فى ثَمُودِ
مَا مُقامِى بِدَارِ نَخْلَة إلاَّ كمُقَام المَسِيح بَيْنَ اليَهُودِ

٣٠ – أخبرنا أبو هاشم عبد المطّلب بن الفضل بن عبد المطلب الهاشمىّ قال ، أخبرنا أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السَّمْعَانىّ قال ، أنشدنا عمر بن محمد السَّرَخسِىُّ قال ، أنشدنا الحسنُ بن على الحافظ قال ، أنشدنا الأستاذ أبو على أحمد بن محمد المعروف بمِسْكَوَيْه قال ، أنشدنا المتنبى :

٢٦٨/٢ / ومِنْ نَكَدِ الدُّنْيا على الحُرِّ أَنْ يَرَى عَدُوًّا له ما مِن صَدَاقَتِهِ بُدُّ

٣١ – قال ، قيل للمتنبى : على مَنْ تَنَبَّأْت ؟ قال : على الشعراءِ . فقيل : لكل نبى معجزةٌ ، فما معجزتك ؟ قال : هذا البيت . [المقريزى رقم : ١٥] .

* * *

٣٢ – وقرأت فى رسالة علىّ بن منصور الحلبى المعروف بِدَوْخَلةَ ، [١] وهى التى كتبها إلى أبى العلاء بن سُليمان ، وأجابه عنها برسالة الغفران ، وذَمَّ فيها أبا الطيب المتنبى ، وقال : وذكر آبن أبى الأزهر والقُطْرُ بَّلىُّ فى التاريخ الذى اجتمعا على تصنيفه : أن الوزير على بن عيسى أحضره إلى مجلسه فقال له : أنت أحمدُ المتنبّى ؟ فقال : أنا أحمدُ النّبى ، ولى علامَةٌ فى بطنى ، خاتم النبوة . وأراهم شبيهاً بالسَّلْعة على بطنه ، فأمر الوزير بصفعه فَصُفِعَ وقيِّد ، وأمر بحبسه فى المطبق . [٢]

• ثم طالعت التاريخ المشار إليه فقرأت فيه فى حوادث سنة اثنتين وثلاثمئة قال : وفيها جلس الوزير على بن عيسى للنظر فى المظالم ، وأحضر مجلسه المتنبِّى ، وكان محبوساً ليخلى سبيله ، فناظره بحضرة القضاة والفقهاء فقال : أنا أحمد النبى ، ولى علامة فى بطنى خاتَم النبوة ، وكشف عن بطنه وأراهم شبيهاً بالسلعة على بطنه ، فأمر الوزير بصفعه فصفع مئة صفعة ، وضربه وقيده وأمر بحبسه فى المطبق .

• فبان لى أن أبا الحسن علىّ بن منصور الحلبى ، رأى / فى تاريخ ابن أبى ٢٦٩/٢ الأزهر والقُطْرُبّلىّ ذِكْر أحمد المتنبى فظنَّه أبا الطيب أحمد بن الحسين ، فوقع فى الغلط الفاحش لجهله بالتاريخ ، فإن هذه الواقعة مذكورة فى هذا التاريخ فى سنة اثنتين وثلاثمئة ، ولم يكن المتنبى وُلد بَعْدُ ، فإن مولده على الصحيح فى سنة ثلاثٍ وثلاثمئة ، وقيل إن مولده

---

(١) نشرت هذه الرسالة الدكتورة بنت الشاطئ فى أول الطبعة الثانية من رسالة الغفران ، وهذا الجزء الآتى هو فى ص : ٢٥ ، ٢٦ ، ولكن بغير هذا اللفظ الذى هنا .

(٢) سيأتى هذا الخبر فى ترجمة المقريزىّ رقم : ٩ .

سنة إحدى وثلاثمئة ، فيكون له من العمر سنة واحدة = وأبو محمد عبد الله بن الحسين الكاتب القُطْرُبلّى ، ومحمد بن أبى الأزهر ماتا جميعاً قبل أن يترعرع المتنبى ويعرف .

[المقريزى رقم : ٩] .

وهذا المتنبى الذى أحضره علىُّ بن عيسى هو رجل من أهل أَصبهان تنبّأ فى أيام المقتدر يقال له : أحمد بن عبد الرحيم الأصبهانى ، ووجدتُ ذكره هكذا منسوباً فى كتاب عُبَيْد الله بن أحمد بن طاهر الذى ذيّل به كتاب أبيه فى تاريخ بغداد .

* * *

٣٣ - أخبرنى ياقوتُ بن عبد الله الحمويّ قال : وقع لى كتابٌ مصنَّفٌ فى أخبار أبى الطيب صغير الحجم تصنيف الأستاذ / أبى القاسم عبيد الله بن عبد الرحيم الأصبهانيّ ، [1] وذكَر فيه ادعاءه النبوة وقال فيه : وقد هجاه الشعراء بذلك ، فقال الضبُّ الضريرُ الشاميّ فيه : ٣٥

/ أَطْلَلْتَ ، يا أيُّها الشقىُّ ، دَمَكْ   لا رَحِمَ الله رُوحَ من رَحِمَكْ ٢٧٠/٢

أَقْسَمْتُ لَوْ أَقْسَمَ الأميرُ عَلَى   قَتْلِكَ قتلَ العِشَارِ ما ظَلَمكْ

ويُرْوَى « قَبْلَ العشاء » ، فأجابه المتنبّى فقال :

إيهاً أتاكَ الحِمَامُ فَٱخْتَرَمَكْ   غَيْرُ سَفِيهٍ عَلَيْك مَنْ شَتَمَكْ

هَمُّكَ فى أمردٍ تُقلِّبُ فى   عَيْنِ دواةٍ منْ صُلْبه قَلَمكْ

وهِمَّتِى فى ٱنْتِضَاءِ ذِى شُطَبٍ   أَقُدُّ يوماً بحدِّه أدَمَكْ

فَٱخْسأْ كُلَيباً وٱقْعُدْ على ذَنَبٍ ،   وٱطْلِ بما بين أَلْيَتَيْكَ فَمَكْ

---

(١) هكذا جاء اسمه هنا وفى ترجمته عند ابن عساكر الآتية برقم : ٣ ، أما فى خزانة الأدب فقال : « أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهانى » ، وكذلك أيضاً فى كتابه الذى نشر فى تونس سنة ١٩٥٥ باسم « الواضح فى مشكلات شعر المتنبى » . ورواية ابن العديم من كتاب الأصفهانى أتم وأوضح من الموجود فى كتابه المطبوع باسم « الواضح .... » فى هذ الخبر ، والذى بعده . وهذا دال على أن المطبوع مختصر اختصاراً مخلاً فى بعض الأحيان ، وهو فى المطبوع ص : ٧ ، مع اختلافٍ .

قال : وهجاه شاعر آخر فقال ، وقيل هو الضَّبُّ أيضاً :

قد صَحَّ شِعْرُك والنُّبُوَّةُ لم تصِحّْ والقولُ بالصِّدْقِ المبيِّن يَتَّضِحْ
الْزم مَقَالَ الشِّعْرِ تَحْظَ بِرُتْبَةٍ وعن التنَبِّى لا أبالَكَ فَانتزِحْ
تَرْبَحْ دَماً قد كنت تُوجِبُ سَفْكَهُ ، إن الممتَّع بالحياة لَمَنْ رَبِحْ

فأجابه بأبيات وهى :

نارُ الدِّرَايَة من لِسانى تُقْتَدَحْ يَغْدُو علىَّ مِنْ النُّهى ما لَمْ تُرِحْ
بَحْرٌ لو اغْتُرِفَتْ لُطَامة مَوْجِهِ بالأرض والسَّبع الطِّباق لما نُزِح
أمْرى إلىَّ ، فإنْ سَمَحْتُ بمهجَةٍ كَرُمَتْ علىَّ ، فإن مِثْلِى من سَمَحْ

* * *

٣٤ – / أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن رَوَاحة ٢٧١/٢ الحمويّ ، وأبو يَعْقُوب يوسف بن محمود السَّاوى الصُّوفى ، قالا ، أخبرنا أبو طاهر أحمد ابن محمد بن أحمد السِّلَفِى إجازةً ، إن لم يكن سماعاً ، قال ، سمعت أبا عبد الله الحسين ابن على بن همام الحُسينى الطالقانى ببغداد يقول : هجا أبو عبد الله بن الحجَّاج أبا الطيب المتنبى لما دخل بغدادَ بمقطَّعاتٍ ، منها :

يا دِيمَةَ الصَّفع هُبِّى ، عَلَى قَفَا المتنبِّى
ويا قَفَاهُ تقدَّمْ ، تعالَ وٱجْلِسْ بِجَنْبِى
ويا يَدِى فٱصْفَعِيهِ بالنَّعْلِ حتَّى تَدِبِّى
إن كان هذا نبىٌّ ، فالقِرْدُ لا شك رَبِّى[1]

---

(١) « نبىّ » ، هكذا فى الأصل .

فلما بلغ أبا الطيب قال :

عارَضَنى كلبُ بنى دَارِمٍ ، فصُنْتُ منه الوَجْهَ والعِرْضَا
ولم أُكلِّمه احتقاراً به ، مَن ذا يَعَضُّ الكَلْبَ إن عضَّا

كذا رواه السلفى « هُبِّى » ، والمحفوظ « صُبِّى » .

* * *

٣٥ — وقال لى ياقوتُ الحموىّ : وذكر الأستاذُ أبو القاسم عُبَيْد الله بن عبد الرحيم الأصبهانى فى أخبار أبى الطيب ، (١) قال : وقد تعلّق قوم / ممن يتعصَّبُ على المتنبى ، فانتزع من شِعْره أبياتاً زعم أنها تدلُّ على فساد اعتقاد ، وقد جعل لها من يتعصب له وجهاً ، منها : ٢٧٢/٢

هَوِّنْ على بَصرٍ ما شقَّ مَنْظَرُه ، فإنَّما يَقَظاتُ العَيْنِ كالحُلُمِ

٣٦ / قالوا : هذا البيت من اعتقاد السُّوفسطائية ، وقوله فى أخرى :

تمتَّع من سُهادٍ أو رُقادٍ ولا تأْمُلْ كَرًى تحتَ الرِّجامِ
فإنَّ لِثَالِثِ الْحَالَيْنِ معنًى سوَىٰ معنى انْتباهك والمَنَامِ

قالوا : فهذا ينبىء عن اعتقاد الحشيشية ، وقوله فى أخرى :

تَخَالفَ الناسُ حتى لا اتِّفاق لهم إلاَّ على شَجَبٍ ، وَالخُلْفُ فى الشَّجَب
فقيل : تَسْلَمُ نَفْسُ المرءِ باقِيَةً ، وقيل : تَشْرَكُ جِسْمَ المرءِ فى العَطَبِ

قالوا : فهذا مذهب من يقول بالنفس الناطقة ، وقوله فى عَضُد الدولة :

نَحْنُ بَنُو الدُّنيا ، فما بَالُنا نعافُ ما لابُدَّ من شُرْبِهِ
تَبْخَلُ أَيْدِينَا بأرواحِنَا على زمانٍ هى مِنْ كَسْبِهِ
فهذه الأرواحُ من جَوِّه ، وهذه الأجسادُ من تُربِهِ

---

(١) انظر التعليق السلف ص : ٦٠٠ : تعليق : ١ وهو فى المطبوع ص : ٧ ، ٨ مع اختلاف ، والاختصار فى المطبوع واضح جدا .

فهذا مذهب الهوائية وأصحاب الفضاء ، وقوله فى ابن العميد :

يُعَلِّلنَا هٰذا الزَّمـانُ بِذَا الوَعْـدِ ويَخْدَع عمّا فى يَدَيْهِ من النَّقْدِ
فَإِنْ يَكنِ المهدىُّ مَنْ بَان هَدْيُهُ فهذا ، وإلاّ فالهُدَى ذَا فما المَهْدِى !

/ قالوا فهذا مذهب أهل النجوم . ٢٧٣/٢

* * *

٣٦ – وقال لى ياقوت الحموى : نقلت من خط أبى الرَّيحان محمد بن أحمد البَيْرونىّ فى رسالة له سماها « التعلُّل بإجابة الوهم ، فى معانى نظوم أولى الفضل » ، قال فى أثناء كلامٍ ذكره : ثم إن لى من أخلاقهم – يعنى الشعراء – أُسْوَة حسنةٌ ومَسْلاة أكيدةٌ ، بإمام الشعراء الذى طرَّق لهم ولمن بعده إلى طريقته المخترعة فى الشعر ، وخلَّفهم من معانى كلامه فى بروق تخطف أبصارهم وبصائرهم « كُلَّما أضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فيه وَإِذَا أَظْلَم عَلَيْهِمْ قَامُوا » ، أبى الطيب المتنبى ، حتى إن أفاضل أهل زماننا كأحمد بن فارسٍ يَحْسُده على ما آتاه الله من فضله ويقول : إنه مبخوتٌ ، وإلاَّ (قال لى ياقوت : كذا رأيته مبيضاً بخطه) ويقول : سألت أبا الفضل بن العميد عن معنى قوله :

وَفَاؤُكُما كالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهْ

فأجابنى بأن المتنبى خرج من الدنيا بعد ستِّين سنة عاشَها ، ولم يكن وقف على معناه !

وكان أبو الطيب ، على ضيق عَطَنه ، رفيعَ الهمة فى صناعته ، فاقتصر لها فى رحلته بمدح عَضُد الدولة ووزيره ابن العميد ، وراوده الصاحبُ إسمعيلُ بن عبَّاد على التَّزاوُرِ رغبةً فى مديحه ، فأبى الانحطاط إلى الكَتَبةِ ، وهذا ما حمله على الخوض فى مَساوِى شِعْره ، وليس يترفع عن حَلِّه ونثره فى أثناء / كتابته ، ومشاركة الحاتمى فى إدامة حَلِّ نظمه فى رسائله ، بعد مقالته التى عملها فيه محرِّضاً عليه ومُتَنادِراً به كنوادر المخنَّثين = كما حمل ٢٧٤/٢

مثله أبا محمد المُهَلّبى مُسْتَوْزَرَ بختيار بن معزّ الدولة على إغراء سفهاء بغداد عليه ،
٣٧ ومعاملته بالسخف الذى أعرض بوجهه عنه وعنهم ، ولم يزد / فى الجواب على الخَسْأ ،
ترفعاً وتنزُّهاً واكتفاءً من مهاجاتهم ، على ما فى خلال شعره من مثله قوله :

أَفَاضِلُ النَّاسِ أَغْرَاضٌ لِذَا الزَّمَنِ   يَخْلُو من الهَمِّ أَخْلاَهُم مِنَ الفِطَنِ

وذكر أبياتاً مثلَهُ ، وقال : ثُم ما يُدْرِينى هل كان فى سبب الفتك به من الأعرابىّ نُبَذٌ من ذلك الإغراء ، [1] فالقائل بالشرِّ غير مبالٍ أيضاً بفعله ، وخاصةً عند استماع ما كان حَظِىَ به لدى المقصودين من القَبُول والإقبال ، حتى إنه قال عند دخوله إلى شيراز : أنا لا أُنشد ماثلاً ! فأمر عَضُدُ الدولة بكرسىّ له ، فلما دَخَل ورآه ، أنشده قائماً ، فأمره بالجلوس فأبى وقال : هَيْبَتُك تمنع عن ذلك ! فوقع قولُه وفعلُه منه أحسن المواقع . [2] وكان المهلّبى مع بختياره ينكران أنَّ عَضُدَ الدَّولة فعل ذلك ، [3] حَنَقاً وجهلاً بالقدر .

قال : ومما يغيظنى حقًّا ، قوم مُتَّسِمُون بالفضل يكابرون عقولهم فى أمره ،
٢٧٥/٢ / ويرتكبون فى إطفاء نوره ، [4] كشمس المعالى قابُوس ، فقد كان يقول : ليس للمتنبى فى ديوانه ما يَسْوَى استماعاً إلا أربعة أبيات ، ثم لم يكن يبتدئ من ذات نفسه بالإشارة إليها ، وكان سوء خلقه يمنعنى من سؤاله عنها = وكأبى الفتح البُسْتى فى قوله :

سُئِلْتُ عن المُتَنَبِّى فَقُــلْتُ   مَقَالَ آمرِئٍ [مُنْصِفٍ] لَيْسَ يَغْلُو [5]
لهُ فى مَواضِعَ فَصْلُ الخِطَابِ ،   وسَائِرُ مَا قَالَهُ فَهُــوَ فَسْلُ

---

(١) هذا هو نفس ما ذهبت إليه فى مقتل أبى الطيب استظهاراً من الشعر والأخبار ، لا من نص منقول . انظر ما سلف ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

(٢) سيأتى خبر عضد الدولة ، عند المقريزى فى ترجمته برقم : ١٩ .

(٣) فى الأصل : « يناكر أن عضد الدولة .... » .

(٤) كذا فى الأصل ، ولعله « ويرتكبون الإثم فى إطفاء نوره » ، كما يدل عليه آخر الخبر .

(٥) ما بين القوسين : زيادة منى ، ليقوم وزن البيت ، والشعر ليس فى ديوان البستى المطبوع قديماً ، ولا فى طبعة د . محمد مرسى الخولى .

قال : ولو كان قَلَبَهُ فقال : إن مواضِعَ منه فَسْلٌ ، وسائر ما قَالَه فَصْلُ خطابٍ ، لكان أبعدَ عن الإثم ، وأقرب إلى الصِّدق والصواب .

****

٣٧ – وذكر ابن الصَّابى فى كتاب الوزراء : أن ابن العميد كان يُجْلِسُ المتنبى فى دَسْته ، ويقعُد بين يديه فيقرأ عليه الجمهرة لابن دُرَيْدٍ ، لأن المتنبى كان يحفظها عن ظهر قلب .

٣٨ – وقرأت فى بعض مطالعاتى أن المتنبّى لما اجتاز بالرملة ومَدَحَ طاهر بن الحسن بن طاهر بن يحيى العَلَوِىَّ ، أجلسه طاهر فى الدَّسْت ، وجلس بين يديه حتى فرغ من مِدحته .

٣٩ – / وقرأت فى كتاب « نزهة عيون المشتاقين » لأبى الغنايم الرَّنْدِى ، قال : ٢٧٦/٢
حدثنى جماعةٌ أن المتنبى لما مدح طاهر بن الحسن بن طاهر أجازه ألف دينارٍ .

• قلت : والقصيدة التى مدحه بها هى القصيدة البائية التى أولها :

أَعِيدُوا صَبَاحِى فَهْوَ عِنْدَ الكَوَاعِبِ ، وَرُدُّوا رُقَادِى فَهْوَ لَحْظُ الحَبائِبِ

***

٤٠ – وقال ابن فُورَجَة فى كتاب « التجنى على ابن جنّى » : حدثنى الشيخ أبو علىّ أحمد بن محمد بن يعقوب مَسْكَوَيْهِ بأصبهان ، وكان تربيةَ ابن العميد ونديمَهُ ، قال : حضرت مجلس ابن العَميد بأَرَّجان وقد دخل عليه أبو الطيب ، وكان يستعرض سيوفاً ، فلما بَصُر بأبى الطيب نَهَض من مجلسه وأجلسه فى دَسْتِه ، ثم قال لأبى الطيب : اختر سيفاً من هذه السيوف . فاختار منها واحداً ثقيلَ الحَلْيِ ، واختار ابن العميد آخر غيره ، فقال كلٌّ منهما : سيفى الذى اخترته أجود ! ثم اصطلحا على أن يجرِّباهما ، فقال ابن العميد : فبماذا / نجرِّبهما ؟ فقال أبو الطيب : فى الدنانير ، فيؤتَى بها فيُنْضَد بعضها ٣٨

على بعض ، ثم تُضْرَب به ، فإن قدَّها فهو قاطع . فاستدعى ابن العميد بعشرين ديناراً ، فنُضِدت ، ثم ضربها أبو الطيب فقدَّها وتفرقت فى المجلس ، فقام من مجلسه المفخَّم يلتقط الدنانير المتبدِّدة فى كُمِّه ، فقال ابن / العميد : ليلزم الشيخُ مجلسه ، فإنّ أحدَ الخدَّام يلتقطها ويأتيه بها . فقال : بل صاحبُ الحاجة أولى بها ! ٢٧٧/٢

قال ابن فُورَجَة : وكان رجلاً ذا هيئة ، مُرَّ النفس ، شجاعاً ، حُفَظَة للآداب ، عفيفاً ، وكان يشين ذلك كُلَّه ببُخْله .

٤١ - قرأت على ظهر نسخة قديمة من شعر المتنبى ما صورته : وحكى أبو بكر الخُوارزمىّ أن المتنبى كان قاعداً تحت قول الشاعر :

وإنَّ أحَقَّ النَّاسِ باللَّومِ شَاعِرٌ يَلُومُ عَلَى البُخْلِ الرِّجَالَ ويَبْخَلُ

وإنما أعرب عن طريقته وعادته بقوله :

وُقُوفَ شَحِيحٍ ضَاعَ فى التُّرْبِ خَاتَمُهْ

قال : فحضرت عنده يوماً وقد أُحِضر مالٌ ، فصُبَّ بين يديه من صلات سيف الدولة على حصيرٍ قد افترشه ، فَوُزِن وأعيد فى الكيس ، وتخلَّلَتْ قطعة كأصغر ما تكون خِلال الحصير ، فأكبَّ عليه بمجامعه يعالج لاستنقاذها منه ، ويشتغل عن جلسائه ، حتى توصَّل إلى إظهارِ بعضها ، وأنشد قول قيس بن الخطيم :

تبدَّتْ لَنَا كالشَّمْسِ بَيْنَ غَمَامَةٍ ، بَدَا حَاجِبٌ منها وضَنَّتْ بِحاجِبِ [١]

/ ثم استخرجها وأمر بإعادتها إلى مكانها ، وقال : إنها تُخَضِّرُ المائدة . [٢] ٢٧٨/٢

* * *

(١) فى هامش الأصل : « المعروف : تحت غمامة » .

(٢) انظر هذا الخبر فى ترجمة ابن عساكر الآتية رقم : ٢٤ .

٤٢ – أنبأنا أحمد بن زاهر بن عبد الوهَّاب البغدادى فى كتابه ، عن أبى بكر محمد بن عبد الباقى الأنصارى قال ، أخبرنا أبو غالب بن بشْرَان إجازةً قال ، أخبرنا محمد بن نصر الكاتب = قلت : ونقلته من خطه ببغداد = قال ، حدثنى أبو الفَرج عبدُ الواحد بن نصر الببَّغاء ، قال : كان أبو الطيب المتنبى يأنَسُ بى ويشكو عندى سيفَ الدولة ، ويأمَنُنى على غِيبته له ، وكانت الحالُ بينى وبينه صافيةً عامرةً دون باقى الشُّعراء ، وكان سيفُ الدولة يغتاظ من عظمته وتعاطيه ، [١] ويجفو عليه إذا كلمه ، والمتنبى يجيبه فى أكثر الأوقات ويتغاضى فى بعضها .

قال : وأذكر ليلةً ، وقد استَدْعَى سيفُ الدَّولة بَدْرة فشقَّها بسكين الدواة ، فمدَّ أبو عبد الله بن خَالَوَيْه النَّحويُّ جانب طَيْلَسانه ، وكان صُوفاً أزرق ، فحثا فيه سيفُ الدَّولة صالحاً ، ومددتُ ذيلَ دُرَّاعتى ، وكانت دِيباجاً ، فحشى لى فيها ، [٢] وأبو الطيب حاضر ، وسيف الدولة ينتظر منه أن يفعل مثل فعلنا أو يطلب شيئاً منها ، فما فعل ، فغاظه ذلك ، فنثرها كلها ، فلما رأى أنها قد فاتَتْه ، زاحم الغلمان يلتقط معهم ، فغمزهم عليه سيفُ الدولة ، فداسوه وركبوه ، وصارت عمامته وطُرْطُوره فى حلقه ، واستحيى ، ومضت به ليلةٌ عظيمة ، / وانصرف ، فخاطب أبو عبد الله بن خَالَوَيْه ٢٧٩/٢ / سيفَ الدولة فى ذلك ، فقال : من يتعاظم تلك العظمة ، يَتَّضِعُ إلى مثل هذ المنزلة ، ٣٩ لولا حماقته !

***

٤٣ – ومما يحكى من بخله وشُحِّه ما قرأته فى تاريخ أبى غالب همام بن الفضل ابن المهَذَّب المعرِّى – سَيَّرَه إلى بعض الشِّراف بحلب – قال : وكان سيفُ الدولةِ قد أقطعه – يعنى المتنبّى – ضيعةً تعرف بِبَصَّف ، من ضياع معرّة النعمان القبلية ، فكان

---

(١) هكذا فى الأصل ، ولعلها « تعاليه » أو « تعاظمه » .

(٢) هكذا هنا ، ولعله « فحثا لى » كالأولى .

يتردَّدُ إليها ، وكان يوصف بالبخل ، فَمِماً ذَكَرَ عنه ما حدّثوه جماعةُ من أهل بَصَّف أن كلباً من كلاب الضيعة المعروفة بِصَهْيان ، كان يطرُق تِينَ بَصَّف ، فذكر ذلك لأبى الطيب المتنبى ، فقال للناطور : إذا جاء الكلب فعرِّفنى به . فلما جاء عرَّفه ، فقال : شُدُّوا على الحصان . وخرج إليه فطرده أميالاً ، ثم عاد لا يَعْقلُ من التعب ، وقد عَرِق فرسه ، فقال له أهل بصَّف : يا أستاذ ، كيف جرى أمرُ الكلب ؟ فقال : كأنه كان فارساً مرَّةً ! إن جئته بالطعنة عن اليمين عاد إلى الشمال ، وإن جئته من الشمال عاد إلى اليمين .

٤٤ – قال أبو [غالب] همام المعرّىّ : وحدثوا عنه أن أبا البهاءِ بن عديّ ، شيخ رَفَنِيَّة ، كان صديقاً له ، فنزل عنده بِبَصَّف ، فسمعوه وهو يقول له : يا أبا البهاء ، أَوجز فى أكلك ، فإن الشمعة تَتْوَى . [1]

وسمعوه يحاسب وكيلاً له وهو يقول : والحبَّتان ما فعلتا ؟ – يعنى فِضَّةً .

* * *

٢٨٠/٢ ٤٥ – / أخبرنى ياقوت بن عبد الله مولى الحموىّ قال : قرأت فى أخبار المتنبى تصنيف أبى القاسم عُبيد الله بن عبد الرحيم الأصبهانىّ قال ، وأخبرنى أبو الحسن الطرائفى ببغداد أنه قال : [2] رأيت المتنبى وقد مدح رجلاً بقوله :

انْصُر بجُودِكَ أَلْفَاظاً تَرَكْتُ بِهَا فى الشَّرْقِ والغَربِ مَنْ عَادَاكَ مَكْبُوتَا
فقد نَظَرْتُكَ حتى حَانَ مُرْتَحَلٌ وذَا الوداعُ ، فكُنْ أَهْلاً لما شِيتَا

فأعطى دون الخمسة دراهم وقبلها . [3]

(١) توى (من باب سمع) يتوى : أى هلك وذهب ضياعاً ، والزيادة بين القوسين استظهار من الخبر السالف .

(٢) انظر هذا الخبر وما بعده فى كتاب « الواضح .... » للأصفهانى ، ص : ٩ ، ١٠ .

(٣) هذا الخبر سيأتى مبتوراً فى ترجمة المقريزى برقم : ١٩ .

٤٦ — قال : وأخبرنى الطرائفى ، قال ، حدثنى المتنبى قال : أول يوم وصلتُ بالشِّعر إلى ما أَرَدته ، أنى كنت بدمشق ، فمدحت أحد بنى طُغْج بقصيدتى التى أولها :

أيا لائِمِى إنْ كُنْتَ وَقْتَ اللَّوَائِمِ عَلِمْتَ بما بى بَيْنَ تِلْكَ المَعَالِمِ

فأثابنى الممدوح بمئة دينار ، ثم آبيضَّت أيامى بَعْدها .

٤٧ — قال أبو القاسم بن عبد الرَّحيم [(١)] : واتصل بعد هذا بأبى العشائر الحسين بن على بن الحسين بن حَمْدَان ، ونَفَق عليه نفاقاً تاماً ، فأجرى ذكره / عند سيف الدولة أبى الحسن على بن حَمْدان ، فأمر بإحضاره عنده ، فاشتطَّ المتنبى عليه ، واشترط أن ينشده جالساً ، وأن لا يُكَلَّف تقبيلَ الأرض بين يديه ، فأجابه إلى ذلك ، وأنشده ، فصادف من سيف الدولة رجلاً قد غُذِىَ بالعلم وحُشِىَ بالفهم ، فأعجبه شعره ، واستخلصه لنفسه ، وأجزل عطاءه ، وأكرم مثواه ، ووصله بصلات كثيرة ، وسلمه إلى الرُّوَّاض فعلموه الفروسية ، وصحب سيف الدولة فى عدة غزوات إلى بلد الرُّوم ، منها « غزوة الفناء » / التى لم ينج منها إلا سيف الدولة بنفسه ، وأخذت عليه الروم الطرقَ ، فجرَّد السيف وحمل على العسكر وخرق الصفوف ونجا بنفسه .

٢٨١/٢ — ٤٠

***

٤٨ — قرأت بخط محمد بن على بن نصر الكاتب من كتابه الموسوم بالمفاوضة ، وأخبرنا به أبو حَفص عُمَر بن محمد بن معمّر بن طرزد وغيره ، إجازةً عن أبى بكر محمد بن عبد الباقى الأنصارى ، قال ، أنبأنا أبو غالب بن بشران قال ، أخبرنا ابن نصر قال ، حدثنى أبو القاسم الرَّقِّى المُنَجِّم عن سيف الدولة : أنه انهزم فى بعض السنين ، وقد حُلِّلَت الصناديق عن بغاله فى بعض دروب الروم ، وأنها ملأت الدروب ، وكان على فرس له يعرف بالثُّرَيَّا ، وأنه حرَّك عليها نحو الفرسخ حتى نزل ، ولم يعثُر ولم

(١) هذا الخبر غير موجود فى كتاب « الواضح » للأصفهانى ، فالمطبوع مختصر .

يتلعثم ، وأخبرنى أنه بقى فى هذه السفرة فى تسعة أنفس أحدهم المتنبى ، وأنه كان يحدث أبا عبد الله بن خَالَوَيْهِ النحوىّ حديث الهزيمة ، وأن المتنبِّى كان يجرى بفرسه ، فاْعتَلَقَتْ بعمامته طاقةٌ من الشجر المعروف بأمِّ غَيْلان ، فكلما جرى الفرس انتشرت / العمامة ، وتخيَّل المتنبى أنه قد ظُفِر به ، فكان يصيح : الأمانَ يا عِلْج ! قال : فهتفتُ به وقلت : أيُّما عِلْج ؟! هذه شجرة قد عَلِقَتْ بعمامتك ! فودَّ أن الأرض ساخت به وما سمعته يقول ذلك . فقال ابن خَالَوَيْهِ : أيها الأمير ، أفليس قام معك حتى بقى فى تسعة أنفس ! تكفيه هذه الفضيلة !

٢٨٢/٢

٤٩ – وقرأت فى مجموع بخطّ بعض الفضلاء : أنه لما فعل ذلك ، لحقه سيفُ الدولة وضحك منه وقال له : يا أبا الطيب ، أين قولك :

الخَيْلُ والليْـلُ والبَيْـدَاءُ تَعْرِفُنـى والطَّعْنُ والضَّرْبُ والقِرْطَاسُ والقَلَمُ

ولم يزل يضحك منه بقية يومه فى مُنْهَزَمِه .

* * *

٥٠ – أنبأنا أبو الحسن على بن أبى عبد الله بن المقَيّر ، عن أبى على الحسن بن جعفر بن المتوكّل البغدادىّ ، ونقلتُهُ من خطه ، قال ، حدثنى الشيخ الإمام الفَصِيحىُّ وقت قراءتى عليه ديوان أبى الطيِّب أحمد بن الحسين المتنبى ، وهو ابن عِيدَان السَّقَّاء ، قال : قدم بعض الأشراف من الكوفة فدخل إلى مجلسٍ فيه المتنبى ، فنهض الناس كلهم له سوى المتنبى ، فجعل كل واحد من الحاضرين يسأله عن الأحوال بالكوفة وما تجدَّد هناك ، فقال له المتنبى : يا شريف ، كيف خَلَّفْت الأسعار بالكوفة ؟ فقال : كل رَاوِيةٍ برطلين خبز . [1] / فأخجله . وقصد الشريف أن يعرِّض بأن أباه كان سَقَّاءً . [2]

٢٨٣/٢

* * *

---

(١) « الراوية » : قربة السقَّاء .

(٢) الخبر فى ترجمة المقريزى برقم : ٢٤ ، ثم انظر ما سيأتى رقم : ٦٨ ، ٨١ .

٥١ — ذكر ابن فُورَجة فى « التجنّى على ابن جنّى » وقال : وأمَّا محله — يعنى المتنبى — فى العلم فقال الحسن بن على بن الحلاَّب : سمعته يقول : من أراد أن يُغْرِب علىَّ بيتاً لا أعرفه فليفعل . قال : وهذه دعوى عظيمة ، ولا رَيْبَ أنه صادق فيها .

٥١ م — وأخبرت عن أبى العَلاء بن سُليمان المعرىّ أنه كان يسمِّى المتنبى : « الشاعر » ، ويسمِّى غيره من الشعراء باسمه ، / وكان يقول : ليس فى شعره لفظة يمكن أن يقوم عنها ما هو فى معناها . (١) ٤١

٥٢ — وقرأت فى بعض كلام أبى العلاء : قد عُلِمَ أن أحمد بن الحسين كان شديد التفقُّد لما ينطق به من الكلام ، يغيِّر الكلمة بعد أن تُرْوَى عنه ، ويفرُّ من الضرورة وإن جلب إليها الوزن .

٥٣ — سمعت شيخنا ضياء الدّين الحسن بن عَمْرو الموصلّى المعروف بابن دُهْن الحَصَا ، يقول : كان أبو العلاء المعرّى يعظم المتنبى ويقول : إياى عنى بقوله :

أَنَا الَّذِى نَظَرَ الأَعْمَى إِلَى أَدَبِى   وأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِى مَنْ بِهِ صَمَمُ

٥٤ — أنبأنا أحمد بن أزهر بن عبد الوهاب السَّبَّاكُ قال ، أخبرنا / أبو بكر محمد بن عبد الباقى الأنصارىّ إجازةً ، عن أبى على التنوخى قال ، حدثنى أبو عبد الله الحسين بن محمد بن الصقر الكاتب = رجُلٌ من أهل مَعَلْثَايَا ، (٢) ومِمَّن نشأ بالموصل ، وكان أبوه عاملاً لسيف الدولة على أنطاكية ، وهو من أهل الأدب = قال : جرى ذكر أبى الطيب المتنبّى بين يدى أبى العباس النَّامى المَصّيصى ، فقال لى النامى : كان قد بقى من الشعر زاوية دخلها المتنبى ! قال ، وقال لى فى هذا المجلس : كنت أشتهى أن أكون قد ٢٨٤/٢

---

(١) فى الأصل : « أن يغرم عنها » .

(٢) هكذا ضبطت فى أصل ابن العديم ، وضبطها ياقوت بفتح الميم وسكون العين وفتح اللام .

سبقته إلى معنيين قالهما ، ما سُبق إليهما ، ولا أعلم أن أحداً (اخترعهما) قبله .[١]
فقلت : ما هما ؟ قال : أما أحدهما فقوله :

رَمَانِى الدَّهْرُ بالأَرْزَاءِ حَتَّى   فُؤَادِى فِى غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ

والآخر قوله :

فى جَحْفَلٍ سَتَرَ العُيُونَ غُبَارُهُ   فكأنما يُبْصِرْنَ بالآذَانِ[٢]

٥٥ – أخبرنى ياقوتُ بن عبد الله الحمويّ قال ،[٣] حكى لى بعضُ الفضلاء فى المذاكرة ، قال : لما ورد المتنبى إلى شيراز مادحاً لعَضُد الدَّولةِ ، كان يجتاز على مجلس أبى عَلِىٍّ ، وقد اجتمع إليه أعيان أهل العلم ، وكان زِىّ المتنبىّ زِيًّا عجيباً ، يلبس طُرْطُوراً طويلاً وقَباءً ، ويعمل له عَذَبَة طويلة تشبُّهاً بالأعراب ، فكان أبو على يستثقله ويكره زِيَّه ، ويجد فى نفسه نفوراً منه ، وكان إذا / اجتاز عليهم يقول أبو علىٍّ لتلاميذه : إذا سلم عليكم فأوجزوا فى الردِّ ، لئلاَّ يستأنس فيجلس إلينا . وكان أبو الفتح عُثمان بن جنّى يُعْجَب بشعره ويحبّ سماعه ، ولا يقدِرُ على مراجعة شيخه فيه ، فقال أبو على يوماً : هاتوا بيتاً تعربونه . فابتدر أبو الفتح فأنشد للمتنبى : ٢٨٥/٢

حُلْتِ دُونَ المَزَارِ ، فاليومَ لَوْ زُرْ   تِ لَحَال النُّحُولُ دُونَ العِنَاقِ

فقال أبو على : أعِدْ أعِدْ ! فأعاده ، فقال : ويحك ، لمن هذا الشعر ، فإنه غريب المعنى ؟ قال : هو للذى يقول :

أمْضَى إرادَتَه فَسوفَ له قَدْ   واسْتَقْرَبَ الأَقْصَى فَثَمَّ لَهُ هُنَا

---

(١) فى الأصل : « أخبر عنهما قبله » .

(٢) الخبر مختصراً فى ترجمة المقريزى برقم : ٢٥ .

(٣) انظر ترجمة ابن عساكر التالية رقم : ٢١ .

قال : فازداد أبو علىّ عجباً وقال : ما أعجب هذه المعانى وأغربها ! مَنْ / قائلها ؟ ٤٢
قال : الذى يقول :

وَوَضْعُ النَّدَى في مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالعُلَى مُضِرٌّ ، كَوَضْعِ السَّيْفِ فى مَوْضِعِ النَّدَى

قال : فاستخفَّ أبا علىّ الطربُ ، وقال : ويحك ! من قائل هذا ؟ قال : الذى يقول . قال : = ونسى البيت الذى أنشده = قال : فقال أبو على : أحسن والله ، وأطلتَ أنت ، من يكون هذا ؟ قال : هو صاحب الطُّرطور الذى يمرُّ بك فتستثقله ولا تحبُّ محاضرته . قال : ويحك ! أهذاك يقول هذا ؟! فقال : نعم . قال أبو على : والله ما ظننت أن ذلك يأتى بخير أبداً ، إذا كان / فى الغد ومرَّ بنا فاسألوه أن يجلس إلينا لنسمع منه ، ٢٨٦/٢ فلما كان فى الغد ومرَّ بهم ، كلموه وسألوه النزول عندهم ، ففعل ، واستنشده أبو على ، فملأ صدره وأحبَّه ، وعجب منه ومن فصاحته وسَعَةِ علمه ، فكلَّم عَضُدَ الدَّولة فيه حتى أحسن إليه وضاعف جائزته .

• قلت : وهذه الحكاية لا يقبلها القلب ولا تكاد تثبت ، فإن أبا على الفارسىّ كان يعرف المتنبى قبل أن يصيرَ بشيراز حين كانا بحلب ، وقد حكى أبو الفتح عثمان بن جنِّى ، عن أبى على الفارسى فى كتاب « الفَسْرِ » ، ما يشهد بخلاف ما تضمنته الحكاية = قال أبو على : خرجت بحلب أريد دار سيف الدولة ، فلما برزتُ من السُّور إذا أنا بفارس متلثِّم قد أهْوَى نحوى برمح طويل ، فكدتُ أطرحُ نفسى من الدابة فَرَقاً ، فلمَّا قَرُب منى ثَنَى السنانَ وحَسَرَ لِثامه ، فإذا المتنبى ، وأنشدنى :

نَثَرْتَ رُؤُوساً بالأُحَيْدِبِ مِنْهُمُ كما نُثِرَتْ فَوْقَ العَرُوسِ الدَّرَاهِمُ

ثم قال : كيف ترى هذا القول ؟ أحسنٌ هو ؟ فقلت : ويحك قتلتنى يا رجل ! قال ابن جنّى : فحكيت هذه الحكاية بمدينة السلام لأبى الطيب ، فعرفها وضحك لها ، وذكر أبا علىٍّ بالثناء والتقريظ بما يقال فى مثله .

٥٦ – وجرى للمتنبى مع ابن خَالَوَيْهِ مثل هذه الواقعة التى حكاها أبو على ،

٢/٢٨٧ فإننى نقلت من خطّ أبى الحسن على بن مُرْشِد بن على بن مقلد بن / نصر بن منقذ الكنانى المالكىّ ، من كتابه الموسوم « بالبداية والنهاية » فى التاريخ قال فيه : حدثنى أبى قال ، حدثنى = وبَيَّضَ ، ولم يذكر من حدَّث أباه = قال ، حدثنى ابن خالويه ، وكان نديماً ومجالساً لسيف الدولة ، قال : خرجت فى بعض الأيام إلى ظاهر حلب ، فقعدت أطالع فى كتاب وأَنظر إلى قُوَيْقٍ ، فما رفعت رأسى إلا مِنْ وَقْعِ فرس ، فنظرت فإذا بفارس مسدِّد نحوى رمحه ، فقلت : والله ما أعرف بينى وبين أحد من الناس ما يوجب هذا ! ورأيت الفارس متلثِّماً ، فلما دنا حطَّ لِثَامَهُ ، فإذا بأحمدَ بن الحسين المتنبى ، فسلَّم علىَّ ، فرددت السلام وجاريته الحديث ، فقال : كيف رأيت قصيدتى التى أنشدتها أوّل أمسِ الأميرَ سيف الدولة ؟ فقلت : والله إنها لمليحةٌ ، وإنّ أوّلها لا يحتاج إلى تمام فى قولك :

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تَأْتِى العَزَائِم

وفيها كذا وكذا . فقال : ما رأيت إلا مليحاً ؟ والذى فيه ما سبقنى إليه مَنْ

٤٣ أحسنَ فيه من ذكر « الدراهم » ، فإنها / لا تأتى فى شعرٍ إلا بَرَّدَته وضعَّفته ، إلا ما جاءنى :

نَثَرْتَهُمُ فَوْقَ الأُحَيْدِبِ نَثْرَةً ... كما نُثِرَتْ فَوْقَ العَرُوسِ الدَّرَاهِمُ

* * *

٥٧ – أخبرنى أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن علىّ إذْناً ، عن أبى الفتح محمد بن عبد الباقى البطِّىّ ، عن أبى نصر الحُمَيدى قال ، أخبرنا غَرْسُ النِّعْمَةِ محمد بن

٢/٢٨٨ هلال بن المُحَسِّنِ بن أبى إسحق الصَّابى قال ، وحدثنى ، / رضى الله عنه = يعنى أباه هِلال بن المحسِّن = قال ، حدثنى أبو إسحق جدِّى ، تجاوز الله عنه ، قال : لما ورد أبو

الطيب أحمدُ بن الحسين المتنبى إلى بغداد متوجِّهاً إلى حضرة الملك عَضُد الدَّولة بفارس ، أعدَّ له أبو محمد عشرة آلاف درهم وثياباً كثيرة ، مقطوعة وصِحاحاً ، وفرساً بمَرْكَبٍ ، ليعطيه ذلك عند مَديحه له ، فأخَّر المتنبى من ذاك ما كان متوقَّعاً منه ، وحضر مجلس أبى محمد للسلام عليه الذى لم يخلط به غيره ، فغاظ أبا محمد فِعْلُه ، وخاطبتُ المتنبى على استعماله ما استعمل ، وتأخيره من خدمة الوزير ما أخَّر ، فقال : لم تَجْرِ عادتى بمدح مَنْ لم يتقدَّم له إلىّ جميلٌ . فقلت : إن الوزير شديد الشَّعَف بموردك ، معتقدٌ فيك الزيادة بك على أَمَلِكَ ، والامتناعُ من خدمته إلا بعد الاستسلاف لصلته غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ منك ، بل مستقْبَحٌ لك ! فقال : ليس إلى مخالفة عادتى سبيل ! واتَّصل ذلك بأبى محمد من غير جهتى ، فأكَّد غيظَه وأظهر الإقلالَ به والاطّراحَ له ، وفرَّق ما كان أعدَّه على الشعراء ، وزادهم مُدَّةَ مُقام أبى الطيب من الإحسان والعَطاء . وتوجَّه أبو الطيب إلى شيراز ، ثم عاد منها ، فكانت وفاته فى الطريق بين دير العاقول ومدينة السلام ، على ما شُرِح فى أخباره . وقد كان أبو محمَّد اعتقد أن يَقْطَعه بالفَعال الجميل والحِبَاء الجزيل عن قصد شيراز ، فلما جرى أمره على ما جرى تغيَّرت نِيَّته ، واستحالت تلك العزيمة منه .

• قلت : وهذا الوزير أبو محمد ، هو المُهَلَّبىّ .

٥٨ - قال ، وحدثنى قال ، حدثنى أبو علىّ والِدى قال ، حدثنى / أبو إسحاق جَدِّى قال : راسلت أبا الطيب المتنبى فى أن يمدحنى بقصيدتين ، وأعطيته خمسة آلاف درهم ، ووسَّطت بينى وبينه صديقاً له ولى ، فأعاد الجواب بأننى ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ، ولا من أوجب علىَّ حقاً سواك ، وإن أنا مدحتك تنكَّر لك الوزير أبو محمّد المهلبىّ ، لأننى لم أمدحه ، وجرى بيننا فى ذلك ٢٨٩/٢

ما قد عرفتَهُ ، فإن كنت لا تُراعى هذه الحال ولا تباليها فعلتُ ، ولم أُرِدْ منك عِوَضاً من مالٍ . قال : فنبهنى والله إلى ما كان ذهب عنى ، وعلمت أنه نصحنى ، فلم أعاوده .[١]

* * *

....

....

....

....

---

(١) فى هامش المخطوطة عند آخر هذا الخبر ما نصه : « بلغ ، بدر الدين عبد الواحد » ، أى بلغت من مراجعة النسخة عند هذا الموضع . وفى المخطوطة بعد هذا خرم مقداره ورقة واحدة ، هى الورقة : ٤٤ ، أشرنا إليه بهذه النقط .

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه توفيقى

/ ٥٩ – وذكر على بن عيسى الرَّبَعِيُّ فى كتاب « التنبيه » الذى ردَّ فيه على ابن جنى فى كتاب « الفَسْر » ، قال : كنت يوماً عند المتنبى بشيراز ، فقيل له : أبو علىّ الفارسىّ بالباب ، وكانت بينهما مودة ، فقال : بادروا إليه فأنزلوه ! فدخل عليه أبو على وأنا جالس عنده فقال : يا أبا الحسن ، خذ هذا الجزء = وأعطانى جزءاً من كتاب « التذكرة » ، وقال : اكتب عن الشيخ البيتين اللذين ذاكرتُك بهما ، وهما : ٢٩٠/٢

سأطْلُب حَقِّى بالقَنَا ومَشَايخٍ كأنَّهُم من طُولِ ما التَثَمُوا مُرْدُ
ثِقالٌ إذَا لاَقَوْا ، خِفَافٌ إذا دُعُوا ، كثيرٌ إذا شَدُّوا ، قليلٌ إذا عُدُّوا

فهما مثبتان فى التذكرة بخطِّى . قال : وهذا من فعل الشيخ أبى علىّ الفارسىّ عظيم .(١)

قال الرَّبعى : وكان قَصْدُ أبى علىّ الفارسىّ نَفْعَهُ ، لا التأدُّب والتَكثُّر ، وأيًّا قصد فهو كثير .

٦٠ – قرأتُ بخط يحيى بن سَلاَمَة بن الحسين بن محمد الْحَصْكَفِيّ فى تعليقٍ / له : حكى أن السَّرِيَّ الرفَّاءَ حين قصد سيفَ الدولة بن حمدَان ، رحمه الله ، أنشده بديهاً بيتين ، هما : ٢٩١/٢

---

(١) انظر هذا الخبر فى ترجمة ابن عساكر الآتية رقم : ٢١ .

إنّى رأيتُكَ جَالِساً فى مَجْلِسٍ قَعَد المُلُوكُ به لَدَيْكَ وقَامُوا
فكأنكَ الدَّهرُ المُحيطُ عَلَيْهِمُ وكأنَّهُـمْ من حَوْلِكَ الأيَّـامُ

ثم أنشده بعد ذلك ما كان قال فيه من الشعر ، وبعد يومين أو ثلاثةٍ أنشده أبو الطيب المتنبى :

أيَدْرِى الدَّمْعُ أىَّ دَمٍ أراقَا

إلى أن انتهى إلى قوله :

وخَصْرٍ تثبُتُ الأبْصَارُ فيـهِ كأنَّ عليه من حَدَقٍ نِطَاقَا

قال : فقال السرىّ : هذا واللّٰه معنىً ما قدر عليه المتقدمون ! ثم إنه حُمَّ فى الحال وتحامل إلى منزله ، فمات بعد ثلاثة أيام .

● قلت : هكذا وجدته بخط الحَصْكَفِى ، والمتنبى فارق سيفَ الدولة فى سنة ست وأربعين وثلاثمئة ، والسرىُّ توفى بعد سنة ستين وثلاثمئة ببغداد – على ما نقله الخطيب فى تاريخه – وقيل سنة اثنتين وستين وثلاثمئة ، فعلى هذا لا يكون لهذه الحكاية صحة . وقد نقل أبو إسحاق إبرٰهيمُ بن حبيب السقطى فى تاريخه المسمى « بلَوَامِع الأمور » : أن السّرىَّ توفى سنة أربع وأربعين وثلاثمئة ، فعلى هذا تكون هذه الحكاية محتملة الصحة ، بشرط / أن يكون موت السَّرى بالشام ، ولم ينقل ذلك ، كيف ؟ وهو أن هذه القصيدة من أوّل شعر أبى الطيب المتنبى فى سيف الدولة ، واللّٰه أعلم . ٢٩٢/٢

٦١ – أخبرنا ياقوت بن عَبْد اللّٰه الحموى قال : وحدَّث أبو العباس أحمد بن إبرٰهيم الضَّبِّىُّ أن الصاحبَ إسمعيلَ بن عبَّادٍ قال بأصبهان ، وهو يومئذ على الإنشاء : بلغنى أن هذا الرجل ، يعنى المتنبى ، قد نزل بأرَّجَانَ متوجِّهاً إلى آبن العميد ، ولكن إن جاءنى خرجت إليه من جميع / ما أملكه ! وكان جميع ما يملكه لا يبلغ ثلاثمئة دينار ، فكنا نعجب من بُعْد همته وسموِّ نفسه . وبلغ ذلك المتنبى ، فلم يعرِّج عليه ولا التفت إليه ، فحقدها الصاحبُ حتى حمله على إظهار عيوبه فى كتاب ألَّفه لم يصنع فيه شيئاً ، لأنه أخذ عليه مواضع تحمَّل فيها عليه . ٤٦

٦٢ — أخبرنى بعض أهل الأدب قال : وجدت فى كتاب بعض الفضلاء ، عن أبى القاسم عبد الصَّمد بن بابك قال ، قال أبو الفتح بنُ جنّى : كنت أقرأ ديوان أبى الطيب عليه ، فقرأت قوله فى كافور :

أُغَالِبُ فِيكَ الشَّوقَ ، والشَّوْقُ أَغْلَبُ ‏ ‏ ‏ وأَعْجَبُ مِنْ ذا الهَجْرِ ، والوصلُ أَعْجَبُ

حتى بلغتُ إلى قوله :

ألا ليتَ شِعْرى هل أَقُولُ قَصِيدةً ‏ ‏ ‏ ولا أَشْتَكِى فيها وَلا أَتَعَتَّبُ

/ وبِى ما يَذُودُ الشِّعْرَ عنِّى أَقَلُّهُ ‏ ‏ ‏ ولكنَّ قلبى يا ٱبْنَةَ القَومِ قُلَّبُ ٢٩٣/٢

فقلت له : يعزُّ علىَّ ، كيف يكون هذا الشعر فى ممدوحٍ غير سيف الدولة ؟! فقال : حذَّرناه وأنذرناه فما نفع ، ألستُ القائل فيه :

أَخَا الجُودِ ، أَعْطِ النَّاسَ مَا أَنْتَ مَالِكٌ ، ‏ ‏ ‏ ولا تُعْطِيَنَّ الناسَ مَا أَنَا قَائِلُ

فهو الذى أعطانى لكافور ، بسوء تدبيره وقلة تمييزه . (١)

٦٣ — وأحضر إلىّ عمادُ الدين أبو القاسم على بن القاسم بن على بن الحسن الدِّمشقى ، وقد قدم علينا حَلَب فى رحلته إلى خراسانَ ، جزءاً فيه أخبارُ سيفِ الدولة بن حمدان ، تأليف أبى الحسن على بن الحسين الدَّيْلَمِىِّ الزَّرّاد فنقلت منه : « وكان لسيف الدولة مجلس يحضره العلماء كل ليلة فيتكلّمون بحضرته ، وكان يحضُره أبو إبرٰهيم ، وابن ماثِل القاضى ، وأبو طالب البغدادىّ وغيرُهم ، فوقع بين المتنبى وبين أبى عبد الله الحُسَين ابن خالَوَيْه كلامٌ ، فوثب ابن خالويه على المتنبى فضرب وجهه بمفتاح كان معه ففتحه ، وخرج دَمُه يسيل على ثيابه ، وغضب فمضى إلى مصر ، فامتدح كافوراً الإخشيدىّ » .

٦٤ — أنبأنا أبو القاسم عبد الصمد بن محمد القاضى ، عن أبى الحسن على

---

(١) الخبر فى ترجمة ابن عساكر رقم : ١٤ ، وفى ترجمة المقريزى الآتية برقم : ٢٦ .

٢٩٤/٢ ابن أحمد بن منصور الغسَّانى ، وأبى الحسن على بن المسلم السُّلَمى قالا ، / أخبرنا أبو نصر بن طلاب قال ، أملى علينا أبو عبد الله المحسِّن بن على بن كوجك ، وأخبرنا أن أباه حدثه قال : كنت بحضرة سيف الدولة ، وأبو الطيب اللغوِىّ ، والمتنبِّى ، وأبو عبد الله بن خالويه ، وقد جرت مسألة فى اللغة تكلَّم فيها ابن خالويه مع أبى الطَّيِّب اللُّغوىّ ، والمتنبى ساكت ، فقال له الأمير سيف الدولة : ألا تتكلم يا أبا الطيِّب ! فتكلم فيها بما قوَّى حجة أبى الطيب اللغوىّ ، وأضعف قول آبن خالويه ، فَحَرِدَ منه ، وأخرج من كُمِّه مفتاحَ حديدٍ لبيته ، ليلكُم به المتنبى ، فقال له المتنبى : اسكت ويحك ! فإنك عَجَمىٌّ ، وأصلك خُوزىٌّ ، وصنعتك الحِياكة ، فما لك وللعربية !

٦٥ — ودَفَعَ إلَىَّ بعضُ الشُّرَاف من أهل حلب كتاباً فيه تاريخٌ جمعه أبو غالب همَّامُ بن الفضل بن جعفر بن على بن المهذب المعَرىُّ ، قال فى حوادث سنة سبع وثلاثين وثلاثمئة : وفيها وصل أبو الطيب المتنبى الشاعر إلى سيف الدولة ، ومدحه بالقصيدة الميميَّة :

وَفَاؤُكُمَا كالرَّبْعِ أشْجَاهُ طَاسِمُهْ

بعد انصرافه من حصن بَرْزَوَيْهِ . وقال فى حوادث سنة ست وأربعين وثلاثمئة : فيها سار المتنبىّ من الشام إلى مصر .

٦٦ — ووقع إلَىَّ أجزاء من تاريخ مختار الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد ٢٩٥/٢ المُسَبِّحى ، فقرأت فيه قصيدة لأبى الطيب يرثى بها أبا بكر آبن طُغج / الإخشيذ ، ويعزِّى ابنه أونوجورَ بمصر ، فى سنة خمس وثلاثين وثلاثمئة .[١] والقصيدة ليست فى ٤٧ / ديوان شعره ، فقد كان أبو الطيب صعد إلى مصر مرة أخرى قبل هذه المرة التى ذكرناها ،[٢] وأوّل القصيدة :

---

(١) هذا خبر مهم لما فيه من تحديد التاريخ . وانظر ما سلف رقم : ٤ ، والمقريزى رقم : ١٧ .

(٢) انظر ما سلف رقم : ٤ ، ص : ٥٨٣ .

هُوَ الزَّمَانُ مُشِتٌّ بالّذِى جَمَعا ... فى كُلِّ يَوْمٍ تَرَى مِنْ صَرْفِهِ بِدَعَا
إن شِئْتَ مُتْ أسفاً ، أو فَٱبْقَ مُصْطَبِراً ، ... قد حَلَّ ما كُنْتَ تَخْشَاهُ وقد وَقَعَا
لَوْ كانَ مُمْتَنِعٌ تُغْنِيـهِ مَنْعَتُـه ... لم يَصْنَعِ الدَّهْرُ بالإِخْشِيدِ ما صَنَعَا

وهى طويلة .

***

٦٧ — وقرأت فى كتاب أبى القاسم يحيى بن على الحضرمىّ الذى ذَيَّل به تاريخ أبى سعيد بن يونس ، [١] وذكر فيه من دخل مصر من الغرباء فقال : أحمدُ بن الحُسَين بن الحسن الكُوفىُّ الشاعرُ ، أبو الطيِّب ، يعرف بالمتنبى ، رحل من مصر سرًّا من السلطان ليلة النَّحر سنة خمسين وثلاثمئة ، ووجَّه الأستاذُ كافور خلفه رواحلَ إلى جهات شتى فلم يُلْحَقْ .

٦٨ — أنشدنا على بنُ أحمد الماذرائىّ قال : كتب إلىَّ أبو الطيب أحمدُ بن الحُسَين المتنبى فى حاجة كانت له إلىَّ بالرَّمْلة :

/ إنىِّ سَأَلْتُكَ بالّذِى ... زَانَ الإِمَامَةَ بالوَصِى ٢٩٦/٢
وأبانَ فى يَوْمِ الغَدِيـ ... ـرِ لِكُلِّ جَبَّارٍ غَوِى
فَضْلَ الإمام عَلَيْهِمُو ... بولاَية الـرَّبِّ العَلِـى
إلاَّ قَصَدْتَ لِحَاجتى ... وأَعَنْتَ عَبْدَكَ يَا عَلِى

قال : وكان يتشيَّع ، وقيل : كان ملحدًا ، والله أعلم . [٢]

● قلت : وسنذكر فى ترجمة طاهر بن الحسن بن طاهر حكاية عن الخَالِدِيَّيْنِ ، تدلُّ على أن المتنبى كان مخالفاً للشيعة . [٣]

***

---

(١) هو المؤرخ الحافظ عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصَّدَفى المصرى ، صاحب تاريخ مصر ، وتوفى سنة ٣٤٧ هـ .

(٢) هذه حكاية غريبةٌ ، وشعرها أغربُ منها !!

(٣) وانظر ما سيأتى رقم : ٨١ ، وما سلف رقم : ٥٠ .

٦٩ – أنبأنا أبو اليُمْن الكندىّ ، عن الشيخ أبى منصور مَوْهُوب بن أحمد بن الجواليقى قال ، قال علىُّ بنُ حمزة البصرىُّ صاحبُ أبى الطيب المتنبى ، أو غيره ممن صحب المتنبى – شك فيه أبو منصور – قال : بلوت من أبى الطيب ثلاثَ خِلالٍ محمودة ، وتلك أنّه ما كذب ولا زَنَى ولا لاَطَ ، وبلوْتُ منه ثلاثَ خِلالٍ ذميمةٍ كلَّ الذّم ، وتلك أنه ما صام ولا صلَّى ولا قرأ القرآن ، عفا الله عنا وعنه آمين .

٧٠ – وذكر ابنُ فورجَةَ فى كتاب « التجنّى على ابن جنى » ، عن أبى العلاءِ أحمد بن عبد الله بن سُلَيْمان المعرى ، عن رجل من أهل الشام كان / يتوكل لأبى الطيب فى داره ، يعرف بأبى سعد = قال : وبقى إلى عهدنا = قال : دعانى أبو الطيب يوماً ونحن بحلب ، أظُنّه قال : ولم أكن عرفت منه الميلَ إلى اللّهو مع النساء ولا الغِلمان ، فقال لى : أرأيت الغلام ذا الأصداغ الجالسَ إلى حانوت كذا من السُّوق ؟ = وكان غلاماً وسيماً فَحَّاشاً فيما هو بسبيله = فقلت : نعم ، وأعرفه . فقال : آمض فأتنى به ، واتخذ دعوة وأَنْفِق وأَكْثِرْ . فقلت : وكم قدر ما أنفقه ؟ فلم يزدنى على قوله : « أنفق وأكثر » ، وكنت أستطلع رأيه فى جميع ما أنفق ، فمضيت واتخذت له ثلاثة ألوان من الأطعمة ، وصحفاتٍ من الحلوى ، واستدعيت الغلام فأجاب ، وأنا متعجب من جميع ما أسمع منه ، إذ لم تَجْرِ له عادة بمثله ، فعاد من / دار سيف الدولة آخر النهار وقد حضر الغلام ، وفُرِغ من اتخاذ الطعام ، فقال : قدِّم ما يؤكل ، ووَاكِلْ ضيفَك ! فقدَّمتُ الطعام فأكلا وأنا ثالثهما ، ثم أجنّ الليل ، فقدَّمت شمعة ومِرْفَع دفاتره ، وكانت تلك عادته كل ليلة ، فقال : أحضِرْ لضيفك شراباً واقعد إلى جانبه فنادمه . ففعلت ما أمرنى به ، كلُّ ذلك وعينه إلى الدفتر يدرُسُ ولا يلتفت إلينا إلا فى الحين بعد الحين ، فما شربنا إلا قليلاً حتى قال : افرش لضيفك وافرش لنفسك وبِتْ ثالثنا . ولم أكن قبل ذلك أُبايته فى بيته ، ففعلت ، وهو يدرس حتى مضى من الليل أكثره ، ثم أوى إلى فراشه ونام . فلما أصبحنا قلت له : ما يصنع الضيف ؟ فقال : آحْبُهُ وآصْرِفْهُ . فقلت له : وكم أعطيه ؟ فأطرق ساعة ثم قال : أَنْطِه ثلاثمئة درهم . فتعجبت من ذلك ، ثم جَسَّرت نفسى فدنوت إليه وقلت :

٢٩٧/٢ ٤٨

إنه / ممن يُجيب بالشئ اليسير ! وأنت ، فلم تنل منه حظًّا ! فقطَّب ثم قال : أتظنني من ٢٩٨/٢ هؤلاءِ الفَسَقَةِ ؟ أنطه ثلاثمئة درهم ولينصرف راشداً . قال : ففعلت ما أمرنى به وصرفته .

قال : وهذا من بديع أخباره ، ولولا قوة إسناده لما صدَّقت به .

٧١ – أنبأنا أبو الحسن بن المقيَّر ، عن أبى الفتح بن البطّى ، عن أبى نصر الْحُمَيْدى قال ، أخبرنى غرسُ النعمة أبو الحسن محمد بن هلال بن المحسِّن بن أبى إسحاق الصّابى قال ، وحدثنى رضى الله عنه = يعنى والده هلال بن المحسِّن = قال ، حدَّث الرضيُّ أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوىُّ قال ، حدثنى أبو القاسم عبدُ العزيز ابن يوسف حكار قال : لما وصل أبو الطيب المتنبى إلى حضرة عضد الدولة فى أول مجلس شاهده فيه ، قال لى عضد الدولة : آخرج واستوقفه واسأله : كيف شاهد مجلسنا ؟ وأين الأمراء الذين لقيهم فى نَفْسِهِ مِنَّا ؟ قال : فآمتثلت ما أمرنى به ، ولحقته وجلست معه وحادثته وطاولته ، وأطلت معه فى المعنى الذى ذكرته ، فكان جوابه عن جميع ما سمعه منى أن قال : ما خَدَمَتْ عيناىَ قَلْبى كَاليوم ! فجاء بالجواب موزوناً ، واستوفى القول فى اختصار من اللفظ . [١]

٧٢ – قرأت فى مجموع صالح بن إبْرهيم بن رِشْدِينَ بخطِّه : قال لى أبو نصر ابن غِياثٍ النّصرانىُّ الكاتب : اعتلّ أبو الطيب المتنبى بمصر العلَّة التى وَصَفَ الحمى فى أبياته من القصيدة الميمية ، فكنت أواصل عيادته / وقضاءَ حقه فيها ، فلما توجَّه إلى ٢٩٩/٢ الصلاح وأبلَّ ، أغببت زيارته ثقة بصلاحه ، ولِشُغلٍ قطعنى عنه ، فكتب إلىَّ : « وَصَلْتَنى ، وصَلَكَ الله ، مُعْتَلاًّ ، وقَطَعْتَنِى مُبلاًّ ، فإن رأيت أن لا تحبِّب العِلَّة إلىَّ ، ولا تكدِّر الصحةَ علىَّ ، فعلتَ إن شاء الله » . [٢]

---

(١) الخبر فى ترجمة ابن عساكر الآتية برقم : ٢٠ ، وفى ترجمة المقريزى الآتية برقم : ١٨ .

(٢) هذا الخبر فى ترجمة المقريزى الآتية برقم : ٢٧ .

٧٣ – ونقلت من هذا المجموع بخطِّه : ذكر لى أبو العباس بن الحَوْت الوَرَّاق – رحمه الله [١] : أن أبا الطيب المتنبى أنشده لنفسه هذين البيتين :

تَضَاحَكَ منَّا دَهْرُنَا لَعِبًا بِنَا وعلَّمنَا التَّمْوِيهَ لَوْ نَتَعَلَّمُ
شريفٌ زُغَاوِيٌّ ، وزَانٍ مُذَكِّرٌ ، وأعْمَشُ كَحَّالٌ ، وأعْمَى مُنَجِّمُ [٢]

٧٤ – أنشدنا أبو حفصٍ عمر بن على بن قَشَام الحلبىّ قراءة عليه بها ، قال ، أنشدنا الحافظ أبو بكر محمد بن على بن ياسر الجيّانىّ الحافظ قال ، أنشدنى أبو القاسم زاهر بن طاهر قال ، أخبرنا أبو الحُسين البَحِيرىّ ، قال أنشدنا محمد بن الحُسَين بن موسى السُّلمى قال ، أنشدنى محمد بن الحسين البغدادىّ قال ، أنشدنى المتنبى :

هنيئاً لكَ العِيدُ الَّذِى أنْتَ عِيدُه وَعِيدٌ لِمَنْ سَمَّى وضَحَّى وَعَيَّدَا
فذَا اليَوْمُ فى الأيَّام مِثْلُك فى الوَرَى كما كنتَ فيهم أوحَداً كان أوْحَدَا

٢/٣٠٠ ٧٥ – / أخبرنى الشيخ الصالح أبو محمد عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان الأسدىُّ قال ، أخبرنا محمد بن محمد بن عبد الرحمن أبو عبد الرحمن الخطيبُ قال ، أخبرنا أبو بكر محمد بن منصور بن محمد السَّمْعانى قال ، سمعتُ الشيخ أبا الحسن على ابن أحمد المدينىّ قال ، سمعتُ أبا عبد الرحمن السُّلَمِى قال ، سمعت السيد أبا الحسين محمدَ بن أبى / إسمعيلَ العلوىَّ يقول : دخل المتنبى على الأستاذ الرئيس أبى الفَضْل محمد ٤٩ ابن الحُسَيْن وبين يديه مَجَامِرُ من آسٍ ونَرْجس ، قد أخفى فيها مواضع النار ، لا تُرَى النار وتُشَمُّ رائحة النَّدِّ ، فقال : يا أبا الطيب ، قل فيه شيئاً ! فأنشأ يقول :

---

(١) انظر ما سلف رقم : ٦ ، ص : ٥٨٥ ، تعليق : ١ .

(٢) هذا الخبر فى ترجمة المقريزى الآتية برقم : ٢٩ . « زغاوى (بفتح الزاى وضمها) منسوب إلى « زغاوة » ، وهى قبيلة من السودان ، فلذلك تعجب المتنبى . وانظر ما سيأتى فى المقريزى : ٢٩ .

أحبُّ الذى حَبَّتِ الأنْفُس وأَطْيَبُ ما شَمَّهُ المَعْطِسُ
ونَشْرٌ من النَّدِّ ، لَكِنَّهُ مَجَامِرُه الآسُ والنَّرْجَسُ
ولسْتُ أرَى وَهَجاً هَاجَهُ ، فَهَلْ هَاجَهُ عِزُّك الأَقْعَسُ
وإنَّ الفِئَامَ التى حَوْلَه لَتَحْسدُ أَقْدَامَهَا الأَرْؤُسُ (١)

٧٦ – أخبرنا أبو محمد عبد العزيز بن محمود بن الأخضر البغدادى فى كتابه قال ، أخبرنا الرئيسُ أبو الحسن على بن على بن نصر بن سعيدٍ البصرىُّ قال ، أخبرنا أبو البركات محمد بن عبد الله بن يحيى الوكيل قال ، أخبرنا على بن أيوب بن الحُسَين بن السَّاريان قال : وخرج ، يعنى المتنبى ، من شيراز / لثمان خلونَ من شعبان قاصداً إلى بغداد ثم الكوفة ، حتى إذا بلغ دَيْر العاقول وخرج منه قَدْرَ ميلين ، خرج عليه فرسانٌ ورجَّالة من بنى أسد وشيبان ، فقاتلهم مع غلامين من غلمانه ساعةً وقتلوه ، وقُتِل معه أحد الغلامين وهرب الآخر ، وأخذوا جميع ما كان معه ، وتبعهم ابنه المحسَّد طلباً لكُتُبِ أبيه ، فقتلوه أيضاً . وذلك كله يوم الاثنين لثمانٍ بقين من رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمئة . ٣٠١/٢

٧٧ – أنبأنا زيد بن الحسن الكندى قال ، أخبرنا أبو منصور بن زُرَيق قال ، أخبرنا أبو بكر أحمدُ بن علىّ بن ثابت الخطيب قال : خرج المتنبى إلى فارس من بغداد فمدح عَضُدَ الدولةِ ، وأقام عنده مدةً مديدة ، ثم رجع يريد بغداد ، فقتل فى الطريق بالقرب من النعمانية ، فى شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمئة . (٢)

٧٨ – وقرأت فى تاريخ أبى محمد عبد الله بن أحمد الفَرْغَانىّ : لما هرب المتنبى

(١) فى الأصل : « الذى حوله » ، والفئام : الجماعات .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب ٤ : ١٠٥ .

الشاعر من مصرَ وصار إلى الكوفة فأقام بها ، وصار إلى ابن العميد فمدحه ، فقيل إنه صار إليه منه ثلاثون ألف دينار ، وقال له : تمضى إلى عضد الدولة ! فمضى من عنده إليه فمدحه ووصله بثلاثين ألف دينار ، وفارقه على أن يمضى إلى الكوفة ، يحملُ عِيَاله ويجىء معهم إليه ، وسار حتى وصل إلى النعمانية ، بإزاء قرية تقرب منها يقول لها « بَنُورَى » ، [1] فوجد أثر خَيلٍ هناك ، فَتَنَسَّم خبرها ، فإذا خيل قد كمنت له فصادفته لأنه قصدها ، فطُعِنَ طَعْنَةً نُكِّسَ عن / فرسه ، فلما سقط إلى الأرض نزلوا فاحتزُّوا رأسه ذبحاً ، وأخذوا ما كان معه من المال وغيره ، وكان مذهبه أن يحمل ماله معه أين توجَّه ، وقُتِل ابنه معه ، وغلامٌ من جملة خمسة غِلْمَةٍ كانوا معه ، وأن الغلام المقتول قاتل حتى قتل ، وكان قَتْلُ المتنبى يوم الاثنين لخمس بقين من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمئة . ٣٠٢/٢

● قال الفرغانى : وحُدِّثت أنه لما نزل المنزل الذى رحل منه فقتل ، جاءه قوم خفراء فطلبوا منه / درهماً ليسيروا معه ، فمنعه الشُّحّ والكِبْر ، فأنذروا به ، فكان من أمره ما كان . ٥٠

وقيل بأنهم لما طلبوا منه الخِفَارَةَ اعتذر فى ذلك ، إذ قال لهم : لا أُكذِّب نفسى فى قولى :

يُذِمُّ لمُهجَتِى سَيْفِى وَرُمْحِى

ففارقوه على سخطٍ وأنذروا به ، وكان من أمره ما كان .

٧٩ – وقرأت فى جُذاذةِ طِرْسٍ مطروحٍ فى النسخة التى وقعت إلىّ سماعَ جَدِّ

---

(١) انظر ما سيأتى فى المقريزى رقم : ٢١ ، والتعليق عليه ، وما سيأتى هنا رقم : ٨١ .

جَدِّ أبى ، القاضى أبى الحسن أحمد بن يحيى بن زُهير بن أبى جَرَادَةَ من شعر المتنبى ، [١] على محمد بن عبد الله بن سَعْد النحوى الحلبىّ ، وفيها مكتوب بغير خطّ النسخة : « المتنبى أبو الطيِّب ، أحمد بن الحُسَين ، عاد من / شيراز من عند فَنَّاخُسرو وابن ٢/٣٣ العميد وزيره بأموال جزيلة ، فلما صار بالصَّافية من أرض واسط ، وقع به جماعة من بنى أسد وغيرهم ، فقتلوه وخمس غلمان (كذا) كانوا معه وولده ، وسلبوا المال ، وذلك فى شوال من سنة أربع وخمسين وثلاثمئة ، وكان المتولِّى لقتله رجل منهم يقال له فاتكُ بن أبى جهل ، وهو ابن خالةِ ضَبَّة الذى هجاه المتنبى . وكان على شاطىء دجلة . [٢]

٨٠ — وسمعت والدى رحمه الله يقول لى : بلغنى أن المتنبى لما خرج عليه قُطَّاع الطريق ومع ابنه وغلمانه ، أراد أن ينهزم ، فقال له ابنه : يا أَبَهْ : وأين قولك ؟ :

الخَيْلُ والليلُ والبَيْداءُ تَعْرِفُنى ... والطَّعْنُ والضَّرْبُ والقِرطاسُ والقَلَمُ

فقال له : قتلتنى يا ابن اللَّخْنَاء ، ثم ثبت وقاتل حتى قُتِل .

٨١ — سَيَّر إلَىَّ الشريف الأجلُّ العالم تاجُ الشرف ، شرفُ الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن على الحُسَيْنى ، جزءًا بخطه فى مقتل أبى الطيب كتب فيه ما نقلته ، وصورته : « نقلت من خط أبى بَكْرٍ محمد بن هاشم الخالِدىّ أحد الخالديَّيْنِ فى آخر النسخة التى بخطه من شعر أبى الطيب المتنبى ما هذه صورته :

---

(١) ابن العديم ، كاتب هذه الترجمة هو : « عمر بن أبى الحسن أحمد بن أبى غانم هبة الله بن محمد بن هبة الله ابن القاضى أبى الحسن أحمد بن يحيى بن زهير بن أبى جرادة » .

(٢) هذا الخبر مذكورٌ فى ترجمة المقريزى الآتية برقم : ٢٠ .

« ذكر مقتله »

٣٠٤/٢ / « كنا كتبنا إلى أبى نصر محمد بن المبارك الجَبُّلى نسأله شرح ذلك ، وهذا الرجل من وجوه التُنَّاءِ بهذه الناحية ، [١] وله أدب وحرمة ، فأجابنا عن كتابنا جواباً طويلاً يقول فيه : [٢]

« وأمَّا ما سألتما عنه من خبر مقتل أبى الطيب المتنبى رحمه الله ، فأنا أَنْسُقُه لكما وأشرحه شرحا بيِّناً :

آعلما أنّ مَسيرَه كان من واسط فى يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمئة وقُتِل بِبَيْزَ عَ ، [٣] ضيعة بقربٍ من دير العاقول ، فى يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمئة . والذى تولى قتله وقتل ابنه وغلامه رجلٌ من بنى أسد يقال له : « فاتك بن أبى الجَهْل بن فراس بن بَدَاد » ، وكان من قوله لما قتله وهو مُنْعَفِر : قبحاً لهذ اللِّحْية يا سبَّاب ! وذلك أن فاتكاً هذا قرابة لوالدة ضَبَّة بن يزيد العينىّ الذى هجاه المتنبى بقوله :

ما أنْصَفَ القَوْمُ ضَبَّهْ وأُمَّـهُ الطُرْطُبَّـهْ

٣٠٥/٢ ويقال : إن فاتكاً خالُ ضَبَّة ، وأن الحميَّة داخلته لما سمع ذكرَها بالقبيح / فى الشعر ، وما للمتنبى شعر أسخف من هذا الشعر ولا أوهى كلاماً ، فكان على سخافته ٥١ وركاكته / سبب قتله وقتل ابنه ، وذهاب ماله .

---

(١) « التناء » جمع « تانىء » وهم المقيمون بالبلدة فى أرض العجم ، وأصلهم منها .

(٢) سيأتى خبر مقتل المتنبى عن الخالديين مختصراً فى ترجمة المقريزى برقم : ٢١ .

(٣) انظر « بنورى » و « بنوزى » فيما سلف رقم : ٧٨ ، وما سيأتى فى المقريزى رقم : ٢١ ، وقد نقل هذا ياقوت فى معجمه « بيزع » .

• وأما شرح الخبر ، فإن فاتكاً كان صديقاً لى ، وكان كاسْمِّيَ « فاتكاً » ، لسفكه الدماء وإقدامه على الأهوال ، فلما سمع الشعر الذى هُجِى به ضَبَّة أحفظه ذلك واشتد عليه ، ورجع على ضَبَّة باللَّوم وقال له : قد كان يجب أن لا تجعل لشاعرٍ عليك سبيلاً ! وأضمرَ غير ما أظهر ، واتَّصل به انصرافُ المتنبى من بلاد فارس إلى العراق ، وأنَّ اجتيازه بِجَبُّلَ ودير العاقُول . فلم يكن ينزل عن فرسه ، وجماعة معه من بنى عمه رأيهم فى المتنبى مثل رأيه ، فى طلبه واستعلام خبره من كل صادر ووارد . وكان فاتك يتحرَّق خوفاً أن يفوته ، وكان كثيراً ما يجيئُنى وينزل عندى ، فقلت له يوماً وقد جاءنى ، وهو يسأل قوماً مجتازين عنه : قد أكثرت المسألة عن هذا الرجل ، فأىُّ شئ عَزْمُك أن تفعله به متى لقيته ؟ قال : ما عزمى إلا الجميل ، وأن أعذله على ما أفحش فيه من الهجاء . فقلت : هذا الأليق بأخلاقك والأشبه بأفعالك . فتضاحك ثم قال : يا أبا نصر ، والله لئن اكتحلت عينى به ، أو جمعتنى وإيَّاه بقعة ، لأسفكن دمه ، ولأُمْحَقَنَّ حياته ، إلاَّ أن يُحال بينى وبينه . فقلت له : كُفَّ ، عافاك الله ، عن هذا القول ، وارجع إلى الله ، وأَزِلْ هذا الرأى عن قلبك ، فإن الرجل شهير الاسم بعيدُ الصوت ، وقتلك إيَّاه فى شعر قاله لا يَحْسُن ، وقد هَجَت الشعراء الملوكَ فى الجاهلية والخلفاءَ فى الإسلام ، فما علمنا أن شاعراً قُتِل بهجاء ، وقد قال الشاعر :

/ هَجَوْتُ زُهَيراً ثم إنى مَدَحتُهُ   وما زالتِ الأشرافُ تُهْجَى وتُمْدَحُ   ٣٠٦/٢

ولم يبلغ جُرْمُه ما يوجب قتلَه ! فقال : يفعل الله ما يشاء ! وانصرف ، فلم يمض لهذا القول إلا ثلاثة أيام حتى وافى المتنبى ومعه بغال مُوقَرةٌ بكلِّ شئ من الذهب والفضة والثياب والطيب والجوهر والآلة ، لأنه كان إذا سافر لم يخلِّف فى منزله درهماً ولا ديناراً ولا ثوباً ولا شيئاً يساوى درهماً واحداً فما فوقه ، وكان أكثر إشفاقه على دفاتره ، لأنه كان قد انتخبها وأحكمها قراءة وتصحيحاً . قال : فتلقَّيته وأنزلته دارى وساءلته عن أخباره ؟ وعمن لقى ؟ وكيف وَجَد من قَصَدَهُ ؟ فعرَّفنى من ذاك ما سُرِرْت به ، وأقبل يصف لى ابنَ العميد وفضلَه وأدبَهُ وعلمَهُ وكرَمَهُ ، وسماحةَ الملك فَنَّاخُسْرو ورغبته فى الأدب وميله

إلى أهله . فلما أمسينا قلت له : على أيِّ شيء أنت مُجْمِعٌ ؟ قال : على أن أتَّخذَ الليل جَملاً ، فإن السير فيه يخفُّ عليّ . قلت : هذا هو الصواب ! = رَجاءَ أن يُخْفِيه الليل ، ولا يصبح إلاّ وقد قطع بلداً بعيداً = والوَجْهُ أن يكون معك من رَجَّالة هذه المدينة الذين يَخْبُرون الطريق ويعرفون المواضع المخوفةَ فيه ، جماعةٌ يمشون بين يديك إلى بغداد . فقطَّب وقال : ولِمَ قلت هذا القول ؟ قلت : تستأنس بهم ! قال : أمَّا والجُرَازُ فى عُنُقى ، فما بى حاجة إلى مُؤْنِسٍ غيره . قلت : الأمرُ كما تقول ، والرأىُ فى الذى أشرتُ به عليك . فقال : تلويحك هذا يُنْبِئ عن تعريضٍ ، وتعريضُك يخبر عن تصريحٍ ، فعرِّفنى الأمرَ وبيِّن لى الخَطْب . قلت : إنّ هذا الجاهلَ فاتكًا الأسديّ ، كان عندى منذ ثلاثة أيام ، وهو مُحْفَظٌ عليك لأنّك هجوتَ ابن أخته ، وقد تكلَّمَ بأشياء / توجب الاحتراس والتيقُّظ ، ومعه أيضاً نحو العشرين فارساً من بنى عمِّه ، قولُهم مثلُ قوله . قال غلامه ، وكان عاقلاً لبيباً فارساً يسمع كلامنا = فقال : الصواب ما رآه أبو نصر ، خُذْ معك / عشرين رجلاً يسيرون بين يديك إلى بغداد . فاغتاظ غيظاً شديداً وشَتَم الغلام شتماً قبيحاً ، وقال : والله لا تُحُدِّثَ عنّى أنِّى سرت فى خفارة أحد غير سيفى . قلت : يا هذا ، فأنا أوجِّه قوماً من قِبَلى فى حاجة يسيرون بمسيرك ويكونون فى خفارتك . قال : والله لا فعلت شيئاً من هذا . ثم قال لى : يا أبا نصر ، أبِخُرُوِّ الطير تُخَشِّينى ، ومِنْ عبيد العصا تخاف علىّ ، ووالله لو أنَّ مِخْصَرتِى هذه ملقاة على شاطئ الفرات وبنو أسد مُعْطِشُون لخمسٍ ، وقد نظروا إلى الماء كبطون الحيَّات ، ما جَسَر لهم خفٌّ ولا ظِلْفٌ أن يَرِدَه ! حاش لله من فكر أشغله بهم لحظة العين ! فقلت له : قل إن شاء الله . فقال : كلمةٌ مَقُولَةٌ لا تدفع مَقْضِيًّا ، ولا تستجلب آتيًا ! ثم ركب فكان آخرَ العهد به .

٣٠٧/٢ ٥٢

قال : ولما صح عندى خبر قتله ، وجَّهت مَنْ دفنه وابنه وغلامه ، وذهبت دماؤهم هدراً .[1]

---

(١) خبر مقتل المتنبىّ هذا عن الخالدى رواه الربعى فى ترجمته رقم : ٧ .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد النبى وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً .

وكتب محمد بنُ هاشم الخالدى بالموصل فى سنة خمس وخمسين وثلاثمئة ، وهو يستغفر الله ويستقيله من كل ذنب وخطيئة عن عمد أو خطأ » .

* * *

/ أما قوله : « أبِخُرُوٍّ الطير تخشينى ، ومن عبيد العصا تخاف على » ، فإن بنى أسد يلقبون « خُرُوءَ الطير » ، قال امرؤ القيس : ٢/٣٠٨

* فَرَّتْ بنو أَسَدٍ خُرُوءُ الطَّيْرِ عن أربَابِهَا * (١)

ويلقبون أيضاً « عَبِيدَ العصا » ، قال الشاعر – ونظنُّهُ امرأ القيس أيضاً – :

* قُولاَ لِدُودَانَ عَبِيدِ العَصَا * (٢)

آخر ما كان بخط أبى بكر الخالدى .

* ما غَرَّكُم بالأسَدِ البَاسِلِ *

* * *

كذا فى الأصل قد أتم هذا البيت ، وأظنُّ أنه بخط أخيه أبى عثمان ، ولا أحقِّقه .

٨٢ – أخبرنا تاجُ الأُمناء أحمدُ بن محمد بن الحسن كتابَةً قال ، أخبرنا عمى أبو القاسم ، عن أبى غالب شُجاع بن فارس بن الحُسَين الذُّهْلِى قال ، أنشدنى الحكيم أَبُو على الحسين بن عبد الرحمن الثَّقفى النيسابُوريّ ، لأبى القاسم المظفر الزَّوْزَنىّ الكاتب ، (٣) يرثى المتنبى :

---

(١) الشعر لدختنوس بنت لقيط بن زُرارةَ ، وقد مضى التعليق عليه فى ترجمة الربعىّ ، فى آخر الخبر رقم : ٧ .

(٢) مضى فى آخر الخبر رقم : ٧ فى ترجمة الربعىّ .

(٣) فى الهامش : (قلت : هو المظفر بن على) .

لا رَعَى اللهُ سِرْبَ هذا الزَّمان إذْ دَهَانَا فِي مِثْل ذَاكَ اللِّسَانِ
مَا رأى النَّاسُ ثانىَ المُتَنَبِّى أىُّ ثانٍ يُرَى لِبِكْرِ الزَّمانِ
/ كان مِنْ نَفسِهِ الكبيرَةِ فى جَيْشٍ ، وفى كِبْرِياءِ ذِى سُلطانِ
كانَ فى لَفْظِهِ نبيًّا ، ولكنْ ظَهَرَتْ مُعْجِزاتُهُ فى المَعانِى[1]

٣٠٩/٢

٨٣ – أنشدنى نجيب الدين داود بن أحمد بن سعيد بن خلف بن داود الطِّيبى التَّاجر ، إملاءً من لفظه بحلب قال ، أنشدنى شمس الدين بن الوالى بالموصل ، لأخت المتنبى ترثى أخاها المتنبى لما قُتِل : [٢]

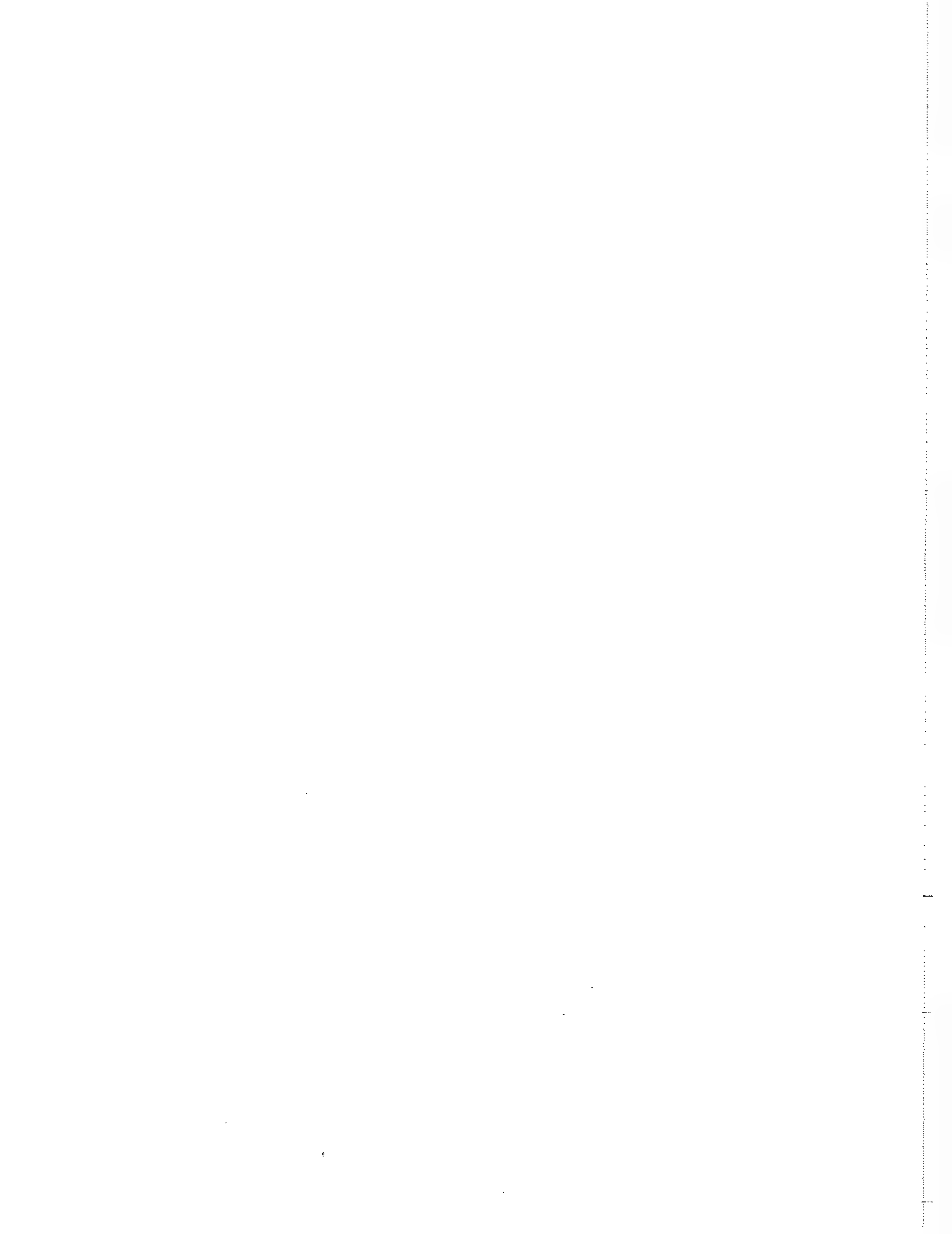
يا حَازِمَ الرأْيِ إلاَّ فى تَهَجُّمِهِ على المكارهِ غَابَ البَدْرُ فى الطَّفَلِ
لَنِعْمَ ما عَامَلَتْك المُرْهَفَاتُ بِهِ ونِعْم ما كُنْتَ تُولِيهَا من العَمَلِ
الأَرْضُ أُمٌّ أصَبْنَاهَا بواحِدِهَا فاسْتَرْجَعَتْهُ وردَّتْهُ إلى الحَبَلِ

* * *

(١) هو فى ترجمة المقريزى الآتية برقم : ٣٣ .

(٢) خبر أخته هذا ، لم أجده إلاّ هنا ، وسيأتى فى ترجمة المقريزى أيضاً رقم : ٣٤ .

٢ - ترجمة المتنبى لابن عساكر



(٣)

ترجمة المتنبي لابن عساكر
عن مخطوطة لكتاب « الإبانة » للعميديّ

بِسْمِ اللهِ الرحمٰنِ الرَّحيم

/ « هذه نبذة من أخبار أبي الطيب المتنبي رحمه الله تعالى مما أورده ابن عساكر في ترجمته » . ٣١٣/٢

* * *

قال الشيخ الإمام الحافظ الثقة [ثِقَةُ] الدين أبو القاسم على بن الحسن بن الحسين الدمشقيّ ، ابن عساكر ، في حرف الألف .

١ – أحمد : هو ابن الحسين بن الحسن بن عبد الصَّمد ، أبو الطيِّب الجُعفيُّ الشاعر المشهور بالمتنبي ، قدم دمشق ومدح بها . روى عنه القاضي أبو الحسين محمد بن أحمد بن القاسم المحامِلىّ الفقيه .

٢ – وقال أبو بكر الخطيب في تاريخ بغداد [٤ : ١٠٢] : أحمد بن الحُسين بن عبد الصَّمد الشاعر المعروف بالمتنبي .

٣ – وقال الحسن المتطبّب : وظفرت بمختار صغير في أخبار المتنبي قد اختاره ياقوت بن عبد الله العربي ، من مختار ألفه [ياقوتُ] بن عبد الله الروميّ الأصل ، البغداديّ المنشأ ، الحَمويّ المَوْلِد ، رحمه الله تعالى ، فنقلت منه ما يأتي ذكره : وهو أنه ذكر في نسب المتنبي فقال : « وقال قوم : هو أحمد بن الحسين بن عبد الصَّمد الجعفيّ . وقال أبو الحسن على بن عيسى الرَّبَعِيُّ النحوي : الذى أعرفه من نَسبِ أبي الطيب أنه أحمد بن الحسين بن مُرَّة بن عبد الجبّار الجعفيّ ، / وكان مولده بالكوفة سنة ثلاث ٣١٤/٢ وثلاثمئة ، وأرضعته امرأة علوية من آل عُبَيْد [الله] . [1]

(١) ما بين القوسين زيادة من ابن العديم ، انظر ترجمته الماضية رقم : ٨ .

٤ – وكان محظوظاً فى حال حياته ، مازال معظماً عند الملوك ، وفى حال وفاته . قد انتدب العلماء لديوانه وشرحوه شروحا كثيرة ، وهما [كذا] ضربان ، منهم من تكلم على ديوانه أجمع ، ومنهم من تكلم على بعضه .

٥ – فمن تكلم على شعره أجْمَع ، فهو أول من شرحه : « ابن جنى » ، له كتاب فى شرح ديوانه وقد سماه « الفَسْر » = وكتاب « اللامع العزيزى » و « معجز أحمد » أيضاً ، لأبى العلاء المعرى = وكتاب لأبى الحسن على بن أحمد الواحدىّ = وكتاب « الموضح » لأبى زكريا يحيى بن على التَّبريزىّ = وكتاب عبد القاهر الجرجانى = وكتاب أبى منصور محمد بن عبد الجبار السَّمعانىّ = وكتاب أبى القاسم إبرٰهيم بن محمد الإفليلى = وكتاب أبى الحجاج يوسف بن سليمان الأعلم = وكتاب الكمال عبد الرحمن ابن محمد الأنْبارِىّ = وكتاب فى سرقات المتنبى للحسن بن محمد بن وكيع وسماه « المنصف » = وكتاب لأبى البقاء عبد الله بن الحسين العُكْبَرِىّ = وكتاب لأبى اليُمْن زيد بن الحسن الكِنْدِىّ = وكتاب لعبد الواحد بن محمد بن على بن زكريا = وكتاب محمد ابن على بن إبرٰهيم الهراسى الكافىّ = وكتاب أبى الحسن محمد بن عبد الله الدُّلَفىّ،عشر مجلدات = وكتاب كمال الدين القاسم بن القاسم الواسطىّ = فهذه سبعة عشر شرحاً مستوفاة لسائر ديوان المتنبى .

• وأما من تكلم عن أبيات منه مشكلة ، أو صنَّف فيه مأخذاً ، فمنه : ٢/٣١٥ / كتاب « الوساطة » للقاضى [على] بن عبد العزيز الجرجانىّ = وكتاب أبى بكر محمد ابن العباس الخُوَارَزْمِىّ = وكتاب عبد الرحمن بن دُوسْت النَّيسابورىّ = وكتاب أبى الفضل أحمد بن محمد العروضىّ = وكتاب « التجنى ، على ابن جنى » لابن فُورَجَة = وكتاب « الفتح على أبى الفتح » لابن فُورَجَةَ أيضاً = وكتاب معانى أبياته لابن جنى = وكتاب « التنبيه » لأبى الحسن على بن عيسى الرَّبَعِىّ ، وقد ردَّ فيه على ابن جنى = وكتاب سعد بن محمد الوحيد ، وقد ردَّ فيه على ابن جنى أيضاً = وكتاب لأبى القاسم عُبَيْد الله ابن عبد الرحيم الأصفهانى = وكتاب الحسين بن محمد بن طاهر الشاعر = وكتاب لأبى

عبد الله محمد بن جعفر القَزَّاز القَيْرَاونىّ = وكتاب أبى القاسم على بن جعفر بن القطاع = وكتاب الصاحب أبى القاسم إسمعيل بن عباد = وكتاب لأبى الحسن على بن عبد الرحمن الصِّقِلىّ = وكتاب « قصائد المتنبى » للأعلم الشنتمرى = وكتاب « نزهة الأديب ، فى سرقات المتنبى من حبيب » ، لِحَسْنُون المصرى = وكتاب « الانتصار المُنْبِى ، عن شعر المتنبى » ، لأبى الحسن بن محمد المغربى = وكتاب « التنبيه المنبى عن رذائل المتنبى » ، لأحمد المغربى أيضاً = كتاب « بقية الانتصار ، المكثر من الاختصار » ، للمغربى أيضاً = وكتاب « الرسالة الحاتمية » ، لأبى الحسن محمد بن المظفر الحاتمى = وكتاب « جبهة الأدب » للحاتمى أيضاً = وكتاب « المآخذ الكِنْديّة ، من المعانى الطائيَّة » = وكتابُ « الاستدراك على ابن الدهان » ، للوزير ضياء الدين بن الأثير الجزرى = وكتاب « الإبانة » للصاحب العَمِيدىّ ، [الموجودةُ فيه هذه النسخة] .

٦ - / قال أبو عبد الله ياقوت الرُّومى الحموىّ : ولم نسمع بديوان شعر فى الجاهلية ولا فى الإسلام شرح هكذا بهذه الشروح الكثيرة سوى هذا الديوان ، ولا بتداوُل شعرٍ فى أمثال أو طُرَف أو غرائب على ألسنة الأدباء فى نظم أو نثرٍ أكثر من شعرِ المتنبى . ٣١٦/٢

٧ - قال : وكان أبو العلاء المعرى إذا ذكر الشعراء يقول : قال أبو نواس كذا ، قال البحترى كذا ، قال أبو تمام كذا . فإذا ذكر المتنبى قال : قال الشاعر كذا . فقيل له يوماً : لقد أسرفت فى وصفك المتنبى ، أليس هو القائل :

بَلِيتُ بِلَى الأَطْلاَلِ إنْ لم أَقِفْ بها وُقُوفَ شَحِيحٍ ضاعَ فى التُّرْبِ خَاتَمُهْ

كم قدر ما يقف الشحيح على الخاتم ؟ قال : أربعين يوماً . فقيل له : ومن أين علمت ذلك ؟ فقال : سليمان بن داود عليه السلام وقف على طلب الخاتم أربعين يوماً . فقيل له : ومن أين تعلم أنه بخيل ؟ قال : من قوله تعالى : (هَبْ لِى مُلْكاً لاَ يَنْبَغِى لأَحَدٍ من بَعْدِى) ، وما عليه أن يهب الله لعباده أضعاف ملكه ؟

٨ – قال أبو عبد الله ياقوت الروميّ : قيل : كان المتنبى يوماً جالساً بواسط وعنده ابنه المحسَّدُ قائماً ، وجماعة يقرؤون عليه ، فدخل عليه بعض الناس فقال : أريد أن تُجيز لنا هذا البيت ، وهو :

٣١٧/٢ / زَارَنَا فى الظَّلاَمِ يَطْلُبُ سَتْراً فافْتضحْنا بِنُورِهِ فى الظَّلاَمِ

فرفع رأسه وقال : يا محسَّد ، قد جاءك بالشِّمال فأْته باليمين . فقال محسَّد ارتجالاً ، وهو :

فالتَجأْنَا إلى حَنَادِسِ شَعْرٍ سَتَرتْنَا عن أعْيُنِ اللُّوَّامِ

معنى قول المتنبى لولده : « جاءَكَ بالشِّمال فأْته باليمين » ، أى إن اليسرى لا يتمُّ بها عمل ، وباليمنى تتمُّ الأعمال ، ومُراده أن المعنى يحتمل الزيادة فأوْرِدْها ، وقد ألطف المتنبى فى الإشارة ، وأحسن ولَدُه فى الأخذ . قال وأنشده المتنبى مما ليس فى ديوانه قوله :

وحبيبٍ أخْفَوْهُ منِّى نَهاراً فتخَفَّى وزارَنِى فى اكتِتَامِ
زَارنى فى الظَّلاَمِ يَطْلُبُ سَتْراً فافتضَحْنا بِنُورِهِ فى الظَّلاَمِ

٩ – قال ياقوت الروميّ : وقرأت فى رسالة أبى الحسين على بن منصور الحلبىّ المعروف بابن القارح ، ويعرف بِدَوْخَلَةَ ، قال : كان أبو محمد بن وكيع التِّنِّيسىّ سمساراً فى بلده ، وكان متأدباً ظريفاً ويقول الشعرَ ، وعمل كتاباً فى سرقات المتنبى وحَاف عليه كثيراً ، وسألنى يوماً أن أخرج معه إلى تُوَنَةَ لنشرب ، (١) فخرجت معه ، واستصحب مغنياً يعرف بابن دَيَّار ، فلما غَنَّى طرب ، فأمره ألاَّ يغنيه إلا بشعره ، فغنَّى :

لَو كان كُلُّ عَليلٍ يزْدَادُ مِثْلَكَ حُسْنَا
٣١٨/٢ / لكان كُلُّ صَحِيحٍ يَوَدُّ لو كان مُضْنَى
يا أكمل النَّاسِ حُسْناً صِلْ أكْمَلَ النَّاسِ حُزْنَا
غَنِيتَ عنِّى ، ومالِى وَجْهٌ به عَنْكَ أغْنَى

(١) « تونة » ، جزيرة قرب تنيس ودمياط .

فقلت له : هل تثقل عليك المؤاخذة ؟ قال : [لا] . قلت : أبياتك مسروقةٌ ، الأوَّل من قوله :

فلو كانَ المَرِيضُ يزيدُ حُسْناً كما تَزْداد أَنْتَ على السَّقَامِ
لمَا عِيدَ المريضُ إذَنْ وعُدَّت شِكايتُه من النِّعَم الجِسَامِ

والثانى من قول رؤبة :

مَسْلَمَ ما أَنْسَاكَ ما حَيِيتُ لو أَشْرَبُ السُّلْوَانَ مَا سَلِيتُ
ما بي غِنًى عَنكَ ، وإن غَنيتُ

فقال : والله ما سمعت بهذا ! فقلت : إذا كان الأمر على هذا ، فاْعذِرِ المتنبى على مثله ، ولا تبادرْ إلى الحطِّ عليه ولا المؤاخذة له .

١٠ – قال المصنف : وقرأت فى بعض الكتب أنه لما خرج المتنبى بأرض سَلَمْيَةَ من عمل حِمْص فى بنى عدى الكلبيّين ، قبض عليه ابن على الهاشمى فى ضيعة له يقال لها « كُوتَكِينَ » ، وأمر النجار فجعل فى رجله قُرْمَةً وفى عنقه ، من خشب الصفصاف ، فقال المتنبى :

زعم المُقِيمُ بكُوتَكِين بأنَّه مِنْ آل هاشِمٍ بنِ عَبْدِ مَنَافِ
فأَجَبْتُه : مُذْ صِرْتَ مِنْ أبْنَائِهم صَارَتْ قُيُودُهُمُ من الصَّفْصَافِ

/ ولما أن صار معتقلاً فى الحبس ، كتب إلى الوالى رحمه الله تعالى : ٢/٣١٩

بِيَدِى أيُّها الأميرُ الأرِيبُ لا لِشَيْءٍ إلا لأنِّى غَرِيبُ
أو لِأُمٍّ لها إذَا ذَكَرَتْنِــــى دَمُ قَلْبٍ بدمعِ عَيْنٍ سَكُوبُ
إن أكُنْ قَبْلَ أَنْ رأيْتُك أَخْطأْ تُ ، فإنّى على يدَيْكَ أتُوبُ
عائِبٌ عَابَنِى لَدَيْك ، ومنه خُلِقَتْ فى ذَوى العُيوبِ العُيُوبُ

وقد تقدَّم شعره الذى قاله فى السجن للضبِّ الضرير (؟؟)

١١ – قال أبو عبد الله ياقوت الرومى : ولم يزل المتنبى بعد أن خرج من الاعتقال فى خمولٍ بالشام وضَعْفِ حالٍ ، يمدح الناس بعشرة دراهم فما دونها . واتفق أنه آتصل بأبى العشائر ، فأكرمه وعرف منزلته ، وكان أبو العشائر يومئذ وَالى أنطاكية من جهة سيف الدولة بن حمدان . ولما قدم سيف الدولة إلى أنطاكية قدَّم المتنبى إليه وأثنى عليه عنده ، وعرَّفه منزلته من الشعر والأدب . وكان سيف الدولة كثير الميل إلى الشعراء والشعر ، فاشترط عليه المتنبى – وذلك فى أوّل اتصالٍ له به – أنه إذا أنشده مديحه لا ينشده إلا وهو قاعد ، وأنه لا يُكَلَّف تقبيل الأرض بين يديه ، فنسبوه إلى الجنون ، ودخل سيفُ الدولة تحت هذه الشروط وتطلَّع إلى ما يَرِدُ منه ، فلما أنشده حَسُن موقعه عنده وقرَّبه وأجازه الجوائز السنيَّة ، وأقرَّه على هذه الشروط مُدَّةَ بَقائه عنده ، ومالت نفسه إليه وأحبّه ، فسلَّمه إلى الرُّوَّاض فعلموه شيئاً من الفروسية والطِّراد والمثاقفة . وحضر مع سيف الدولة غزواته إلى بلاد الروم ، / فكان مما شهده « غزوة الفَنَاء » ، و « غزوة المصيبة » . أما « غزوة المصيبة » ، فدخل سيف الدولة بلاد الروم فى أربعين ألفاً فلم ينجُ معه إلا نفر يسير = وأما « غزوة الفناء » ، فهلك كل من معه ، وأخذت الروم عليه الطريق فى الجبل ، وكان سيف الدولة مقداماً مجرَّباً ، فجرّد السيف وحمل على العسكر ، فخرق الصفوف ونجا بنفسه فى ستة أنفار ، المتنبى أحدهم ، فكانت منزلة المتنبى عند سيف الدولة مَكِينَةً ، بحيث أنه كان لا يصبر عنه سفراً ولا حضراً . ٣٢٠/٢

١٢ – وحدث أبو الحسن على بن الحسين الزَّرّاد الدَّيلمى فى كتاب ألفه فى أخبار سيف الدولة بن حمدان : إنما كان سبب انصراف أبى الطيب عن سيف الدولة إلى مصر ، أنه كان لسيف الدولة مجلس يحضره أهل العلم عامة كل ليلة ، فيتكلمون بحضرته ويبحثون ويتناظرون ، فتمارَى فى بعض الليالى المتنبى وآبنُ خالويه النحوى فى شىء جرى بينهما بحضرة سيف الدولة ، فقام ابن خالويه وضرب وجه المتنبى بمفتاحٍ كان فى يده ، فأسال دمه على وجهه وثيابه ، فغضب المتنبى من ذلك ، إذ لم ينتصر له سيف الدولة قولاً ولا فعلاً ، فخرج من فوره إلى دمشق ، وقصد كافور بمصر .

١٣ – قال أبو منصور ، وحدثنى جماعة من أهل الأدب : أن المتنبى عوتب فى آخر أيامه على تراجع شعره ، فقال : قد تجوَّزت فى قولى ، وأعْفَيْتُ طبعى ، واغتنمتُ الراحة منذ فارقت بنى حمدان ، وفيهم من يقول :

وقَدْ عَلِمت بما لاَقَتْه منَّا قَبائِلُ يَعْـرُبٍ وبَنِى نِزَارِ
/ لَقِينَاهم بأرْمَـاحٍ طِوَالٍ تُبشِّرهـم بأعمــارٍ قِصَارِ ٣٢١/٢

يعنى أبا زُهَيْر بن مهلهل بن نصر بن حَمْدان ، وفيهم من يقول :

أأخا الفوارسِ لَوْ رأيتَ مواقِفِى والخَيْلُ من تحتِ الفوارس تَنْحَطُ
لقرأتَ منها ما تَخُطُّ يَدُ الوَغَى والبِيضُ تَشْكُلُ والأسِنَّةُ تَنْقُطُ

يعنى أبا العشائر .

١٤ – وقال أبو الفتح بن جنى : كنت قرأت ديوان المتنبى عليه ، فلما وصلت إلى قوله :

أُغَالبُ فيك الشَّوقَ ، والشوقُ أغلبُ وأعْجَبُ من ذا الهجرِ ، والوصلُ أعجَبُ

فلما انتهيت إلى قوله منها :

لَحَى اللهُ ذِى الدُّنيا مُنَاخاً لراكبٍ ! فكلُّ بَعِيد الهَمِّ فيها مُعَذَّبُ
ألا ليتَ شِعْرِى هل أقولُ قصيدةً فلا أشْتَكى فيها ولا أتعتَّبُ
وبِى ما يَذُودُ الشِّعرَ عنِّى أقَلُّهُ ولكنَّ قلبى يا ابْنَةَ القَوْم قُلَّبُ
وأخلاقُ كافورٍ ، إذا شئْتُ مَدْحَهُ وإن لم أشَأْ ، تُمْلِى علىَّ وأكتُبُ
إذا تَرَكَ الإنْسانُ شيئــاً وراءَهُ ويَمَّـم كافُـوراً فمـا يَتَغَـرَّبُ

فقلت له : يعزُّ علىَّ كيف يكون هذا الشعر فى ممدوح غير سيف الدولة ! فقال : حذَّرناه وأنذرناه فما نفع فيه الحَذَر ، ألست فيه القائل :

/ أخا الجُود أعْطِ الناسَ ما أنْتَ مالكٌ ولا تُعْطِيَنَّ الناسَ ما أنا قَائِلُ ٣٢٢/٢

فهو الذى أعطانى لكافور بسوء تدبيره وقلة تمييزه .

١٥ — قال أبو عبد الله الرومى : وقرأت فى كتاب « المفاوضة » : حدثنى الحلبيُّ المؤدِّب قال : كان سيف الدولة يميلُ إلى أبى العباس النَّامى الشاعر المشهور ميلاً شديداً ، إلى أن جاءه المتنبى فمال عنه إليه ، فغاظ ذلك أبا العباس ، فلما كان ذات يوم ، خَلاَ به وعاتبه ، وقال : كم تُفضِّل علىَّ ٱبن عِيدان السَّقَّاء !! فأمسك سيف الدولة ولم يجبه ، فلجَّ وألحَّ عليه وطالبه بالجواب ، فقال له : لأنك لا تحسن أن تقول :

يَعُودُ من كُلِّ فَتْحٍ غَيْرَ مُفْتَخِرٍ   وقد أغَذَّ إليه غَيْرَ مُحْتَفِلِ

قال : فنهض من بين يديه مغضباً ، واعتقد أن لا يمدحه أبداً .

١٦ — قال : وذكر الشيخ ابن الدَّهان سعيد بن المبارك فى كتابه الذى سماه « المآخذ الكندية ، فى المعانى الطائية » : أنه قال أبو فراس لسيف الدولة : إن هذا المتشدِّق كثير الإدلال عليك ، وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد ، ويمكن أن تفرِّق مئتى دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خيرٌ من شعره !! فتأثَّر سيف الدولة من هذا الكلام وعمل فيه . وكان المتنبى غائباً ، وبلغته القصَّة ، فدخل على سيف الدولة وأنشده :

٢/٣٢٣ / ألاَ ما لِسَيْفِ الدولةِ اليوم عَاتِبَا   فَدَاه الوَرَى أمْضَى السُّيوفِ مَضَارِبَا

فأطرق سيف الدولة ولم ينظر إليه كعادته ، فخرج من عنده متغيِّراً . وحضر أبو فراس وجماعة من الشعراء فبالغُوا فى الوقيعة فى حق المتنبى ، وانقطع المتنبِّى يعمل فى القصيدة الميمية التى أوَّلها :

وَاحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قلبُه شَبِمُ

فأنشدها ، وجعل يتظلم فيها من التقصير فى حقه ، فهمَّ جماعة بقتله بحضرة سيف الدولة ، مما وجدوا من شدة إدلالِهِ وإعراضِ سيف الدولة عنه ، فلما وصل فى إنشاده إلى قوله :

يا أَعْدلَ النّاس إلاَّ فى مُعَامَلَتِى ، فيكَ الخِصَامُ ، وأنْتَ الخَصْمُ والحَكَمُ
أُعِيذُها نَظَراتٍ مِنْك صَادِقَةً أنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فيمن شَحْمُهُ وَرَمُ

علم أبو فراس أنه يعنيه ، فقال : ومن أنت يا دَعِيَّ كندة ، حتى تأخذ أعراض أهل الأمير فى مجلسه !! فاستمرَّ المتنبى فى إنشاده ولم يردَّ عليه ، إلى أن قال :

أنَا الَّذِى نَظَر الأعْمَى إلى أَدَبى وأسْمَعَتْ كلماتِى مَنْ بِهِ صَمَمُ

فزاد ذلك غيظاً فى أبى فراس ، فلما وصل إلى قوله :

الخَيْل واللَّيل والبيداءُ تَعْرِفُنى والطَّعنُ والضربُ والقِرطاسُ والقَلَم

/ قال أبو فراس : وما أبقيت للأمير ، إذا وصفت نفسك بالشجاعة والفصاحة ٣٢٤/٢ والرياسة والسماحة ؟ أتمدح نفسك وتأخذ جوائز الأمير ؟ فقال المتنبى :

وَمَا انتفاع أخِى الدُّنْيَا بِنَاظِرِهِ ، إذا اسْتَوَتْ عِندهُ الأنوارُ والظُّلَمُ

فغضب سيف الدولة من كثرة مناقشته فى هذه القصيدة ، وكثرة دَعاوِيه فيها ، وضربه بالدواة التى بين يديه ، فقال المتنبى فى الحال :

إنْ كَان سَرَّكُمُ ما قالَ حَاسِدُنَا ، فما لِجُرْحٍ إذا أرْضَاكُمُ أَلَمُ

فأعجب سيفَ الدولة هذا البيت ، ورضى عنه فى الحال ، وأدناه إليه ، وقبَّل رأسه ، وأجازه بألف دينار ، ثم أردفه بألف دينار أخرى ، فقال المتنبى :

جاءتْ دنانيرُكَ مختومَةً عاجلةً ألفاً على أَلْفِ
أشْبَهَهَا فِعْلُكَ فى فَيْلَقٍ قَلَبْتَهُ صَفًّا على صَفِّ

١٦ – وحدّث عبد الصمد بن بابك قال : حضر المتنبى مجلس أبى أحمد بن نصر البازِيَار ، وزير سيف الدولة ، وهناك أبو عبد الله بن خالويه النحوىّ ، فتماريَا فى أشجع السُّلَمىّ وأبى نواس البصرىّ ، فقال ابن خالويه : أشجعُ أشعرُ إذْ قال فى هارون الرشيد :

وعَلَى عَدُوِّكَ يابنَ عَمِّ مُحَمدٍ رَصَدانِ ، ضوءُ الصُّبح والإظلامُ
فإذا تَنَبَّهَ رُعْتَهُ ، وإذا غَفَا سَلَّتْ عليهِ سُيُوفَكَ الأحلامُ

٣٢٥/٢ / فقال المتنبى : لأبى نواس ما هو أحسن من هذا فى [بنى] بَرْمَك حيث يقول :

لَمْ يَظْلِمِ الدَّهرُ إذْ تَوالتْ فِيهِمْ مُصِيبَاتُـهُ دِرَاكا
كانوا يُجِيرُون مَنْ يُعَادِى منهُ ، فَعَادَاهُمُ لِذَاكا

١٧ – قال أبو عبد الله : وقرأت فى سيرة بعض أهل الأدب أن أبا الطيب سأل كافوراً أن يُوَلِّيه صَيْداء من بلاد الساحل ، أو غيرها من نواحى الصعيد ، فقال له كافور : أنت فى حال الفقر وسوء الحال وعدم القُوت والمعين ، سَمَتْ نفسك إلى النبوَّة ، فضلاً عن الملك والإمارة ، فإن أصبتَ ولايةً وصار لك أتباعٌ ، فمن يطيقُك ؟ ثم وقعت الوحشة بين المتنبى وكافورٍ ، حتى إن كافوراً وضع عليه العيونَ والأرصادَ خوفاً منه ، وأحسَّ المتنبى بالشرِّ ، فكتم أمورَه عنه ، ولم يزل فى تستُّرٍ من أموره ، وطال تحفُّظه على كافور ، واشتغل عنه ، فهرب المتنبى من مصر ، ولما أحس كافور بهَرَبه ، بذلَ فى طلبه الأموال وسرَّح الطُّيورَ والخيولَ فلم يظفر به .. ولما خلص المتنبى إلى العراق هجَا كافوراً بقصائد كثيرة ، منها ما هو مثبوت (؟؟) فى ديوانه ، ومنها ما هو فى الرواية التى هى مثبوتة فى ديوانه (؟؟) ، فمن ذلك قوله فى قصيدة له :

أَبَا النَّتْنِ ، كَمْ قَيَّدتَنِى بمَوَاعِدٍ مَخَافَةَ نَظْمٍ للفُؤادِ مُروِّعِ
وقدَّرتَ من فَرْط الجهالة أنَّنى أُقِيمُ على كِذْبٍ رَصِيفٍ مُصَنَّعِ
٣٢٦/٢ / أُقيم على عَبْدٍ خصِيٍّ مُنَافِقٍ لَئِيمٍ رَدِىءِ الفِعلِ للجُودِ مُدَّعى
وأترك سيفَ الدولة الملِكَ الرِّضَى كريمَ المحيَّا أروعاً وابن أرْوَعِ
فتىً بحرُه عَذْبٌ ، ومقصِدُه غِنًى ، ومَرْتَعُ مَرْعَى جُودِهِ خَيْر مَرْتَعِ
تَظَلُّ إذا ما جئتَه الدهرَ آمناً بخيرِ مكانٍ بل بأشرفِ مَوْضِعِ

١٨ – قال أبو عبد الله : وتنازع نُدَمَاءُ أبى الفضل بن العميد فى بيت المتنبى :

وتَرَى الفَضِيلَة لا تُرَدُّ فضيلةً ، الشَّمسُ تُشْرِقُ والسَّحَابُ كَنَهْورَا

فقال أبو الفضل : أثبتوه حتى أتأمله ، فأُثبت البيت ووُضِع بين يديه ، فأطرق مليًّا يفكر فيه ، ثم قال : هذا يعطِّلنا عن المهمّ ، وما كان الرجل يدرى ما يقول !

قال أبو عبد الله : وكان ابن العميد كثير الانتقاد لشعر المتنبى ، لما أنشده القصيدة الأولى قال له : يا أبا الطيب أتقول :

بادٍ هَوَاكَ ، صَبَرْتَ أم لَمْ تَصْبِرَا وبُكاكَ ، إن لم يَجْرِ دَمْعُكَ أو جَرَى

ثم تقول بعده :

كَمْ غَرَّ صَبْرُكِ وابتسامُكِ صاحباً لمَّا رآهُ ، وفى الحشَا ما لا يُرَى

فسرعان ما نقضتَ ما ابتدأت به ! فقال : تلك حالٌ وهذه حالٌ ، وقد تختلف المقاصد .

/ وقال المتنبى من قصيدة مدح بها ابن العميد المذكور : ٢/٣٢٧

مَا كَفَانِى تقصيرُ مَا قلتُ فيهِ فِى عُلاَه حتى ثَنَاهُ آنْتِقَادُهْ

١٩ - وحدث محمد بن الحسن الخوارزمىّ قال : مررت بمحمد بن موسى الملقب بسيبويه المُوَسْوِس ، وهو على مسجد عَفَّان وهو يقول : مدح الناس المتنبى حيث قال :

ومِنْ نكَدِ الدُّنيا على الحُرِّ أَن يَرَى عَدُوًّا لهُ ما مِن صَداقَتِـهِ بُدُّ

ولو قال : « ما من مُداراته بُدٌّ » ، لكان أحسن وأجود .

قال : واجتاز المتنبى بمسجد ابن عمر ، وبسيبويه الموسوس ، فوقف عليه وقال : أيها الشيخ ، كنت أحبُّ أن أراك ! فقال له : رعاك الله وحيَّاك . فقال له : بلغنى أنك أنكرتَ علىَّ قولى :

ومِنْ نَكَدِ الدنيا عَلَى الحُرِّ أن يَرَى عدوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِـهِ بُدُّ

فما كان الصواب عندك ، فقال له : إن الصَّداقة مشتقة من الصدق فى المودَّة ، ولا يسمى الصديق صديقاً وهو كاذب فى مَودَّته ، فالصداقة إذن ضد العداوة ، ولا موقع لها فى هذا الموضع ، ولو قلت : (ما من مُداراته بُدٌّ) ، أو (مُداجاته) أو (مُحَاباته) ، لأصبتَ ! وهذا رجل منَّا ، وكنى عن نفسه ، قد قال :

أَتَانِى فى قَميصِ اللاَّذِ يَسْعَى عَدوٌّ لى يُلَقَّبُ بالحبيبِ

٣٢٨/٢ / فقال المتنبى : مع هذا غيره ؟ قال : نعم .

فقلْتُ له : متى استعملتَ هذا ؟ لقد أقبلتَ فى زِيٍّ عجيبِ !
فقالَ : الشَّمْسُ أهدتْ لِى قميصاً مَلِيحَ اللَّوْنِ من نَسْجِ المغِيبِ

فتبسم المتنبى وانصرف ، وسيبويه يصيح : أَنَبَكَمَ الرجلُ وجلالِ الله !!

٢٠ - وحدث أبو القاسم عبد العزيز المعروف بالحكار = وكان كاتب الإنشاء بحضرة عضد الدولة عظيم المنزلة منه ، ثم وَزَرَ لابنه صمصام الدولة = قال : لما دخل المتنبى مجلس عضد الدولة وانصرف عنه ، أتبعه بعض جلسائه وقال له : سَلْه كيف شاهد مجلسنا ؟ وأين الأمراء الذين لقيهم فى نفسه منا ؟ قال : فامتثلت أمره ، وجاريت المتنبى فى هذا الميدان ، وأطلت معه عنان القول ، فكان جوابه عن جميع ما سمعه منى أنه قال : « ما خَدَمَتْ عَيْنَايَ قلبى كاليوم » ، فجاء الجواب موزوناً ، وهو من مشطور السريع ، ولقد اختصر اللفظ وأطال المعنى وأجاد فيه . وكان ذلك من آكد الأسباب التى حَظِيَ بها عنده ، [ابن العديم رقم : ٧١ / المقريزى رقم : ١٨] .

٢١ - قال أبو عبد الله : وحُدِّثت أن المتنبى لما ورد على عضد الدولة بشيراز اتَّفق أن أبا على الفارسيَّ بها ، وكان ممرُّ المتنبى على دار أبى على إلى دار عضد الدولة ، فكان إذا مرَّ به يستثقله أبو على ويذمُّه على قبح زِيِّه ، وما يأخذ به نفسه من الكبرياء والحمق . وكان لابن جنى هوى فى أبى الطيب ، كثير الإعجابَ بشعره لا يبالى بأحد

يذمه أو يحط منه ، وكان يسوءه إطناب / أبى على فى ذمِّه ، فقال أبو على يوماً : اذكروا بيتاً ٣٢٩/٢ من الشعر نبحث فيه ، فبدأ ابن جنى وأنشد للمتنبى :

حُلْتَ دُون المزارِ ، فاليوم لوزُرْ   تَ لَحَالَ النُّحولُ دُونَ العِنَاق

فاستحسنه أبو على واستعاده ، وقال : لمن هذا البيت فإنه غريب المعنى ؟ فقال ابن جنى : للذى يقول :

أَزُورُكُمْ وسَوادُ اللَّيْل يَشْفَعُ لى   وأَنْثَنِى وبيَاضُ الصُّبحِ يُغْرِى بي

فقال : هذا والله حسن بديع جداً ، فلمن هما ؟ قال : للذى يقول :

أَمْضَى إرادَتَهُ ، فسوفَ لَهُ قَدْ ،   واسْتقرب الأَقْصَى فَثَمَّ له هُنَا

فكثر إعجاب أبى على واستغرب معناه وقال : لمن هذا ؟ فقال ابن جنى : للذى يقول :

وَوَضْعُ النَّدَى فى مَوْضِعِ السيَّفِ بِالعُلَى   مُضرٌّ ، كوَضْعِ السَّيفِ فى مَوْضع النَّدَى

فقال : حسن والله ، وقد أطلت يا أبا الفتح ، فأخبرنا مَنِ القائل ؟ قال : هو الذى لا يزال الشيخ أَيَّده الله يستثقله ويستقبح زِيَّه وفِعْلَه ، وما علينا من القُشُور إذا استقام اللبُّ ؟ قال أبو على : ومن تَعْنى ؟ أَلمتنبى ؟ قلت : نعم . قال : والله لقد حبَّبته إلىَّ وعرفتنى قدره ! وقام ودخل على عضد الدولة فأطال فى الثناء عليه ، ولما اجتاز به استنزله واستنشده وكتب عنه أبياتاً من شعره .[١]

٢١ – / وحكى الشيخ أبو الحسن على بن عيسى الرَّبَعى فى كتاب « التنبيه » ٣٣٠/٢ الذى ردَّ فيه على ابن جنى فى كتاب « الفَسْر » قال : كنت يوماً عند المتنبى بشيراز ، فقيل له : أبو على الفارسىّ بالباب ، وكانت بينهما مودة ، فقال بادروا إليه فأنزلوه ، فدخل

(١) انظر ترجمة ابن العديم السالفة رقم : ٥٥ ، وانتقاده هذه الرواية ورفْضَها .

إليه أبو على وأنا جالس عنده فقال : يا أبا الحسن خذ هذا الجزء = وأعطانى جزءاً من كتاب « التذكرة » وقال : اكتب عن الشيخ البيتين اللذين ذَكَّرتك بهما وهما :

سأَطْلُبُ حَقِّى بالقَنَا ومَشَايِخٍ كَأَنَّهُمُ من طُول ما آلْتَثَمُوا مُرْدُ
ثِقالٌ إذا لاَقَوْا ، خِفَافٌ إذا دُعُوا ، كثيرٌ إذا شَدُّوا ، قليلٌ إذا عُدُّوا

فهما مثبتان فى التذكرة بخطى ، وهذا من فعل الشيخ أبى علىٍّ عظيم . (١)

٢٢ – قال الرَّبَعى : وحُكِىَ عن بعض من كان يأنس إليه الصاحب بن العميد (كذا) قال : دخلت يوماً إليه فوجدته واجماً ، وكانت قد ماتت أخته عن قريب ، فظننته حزيناً لأجلها ، فأخذت أعزّيه وأسلّيه ، فقال : ويحك ، ما وُجُومى لأجل ما ظننتَ ! قلت : فلا يُحزِنِ الله الوزيرَ ، فما الخبرُ ؟ قال : إنه ليغيظنى أمرُ هذا المتنبى ، واجتهادى فى أن أُخمِلَ ذكره ، وقد ورد على نيف وستون كتاباً فى التعزية ما منها كتاب إلاَّ وقد صُدِّر بقول المتنبى :

طَوَى الجزيرةَ حتَّى جاءَنى خَبَرٌ فَزِعْتُ فِيهِ بآمَالِى إلى الكَذِبِ
/ حَتَّى إذا لم يَدَعْ لى صِدْقُهُ أَمَلاً شَرِقْتُ بالدَّمْعِ حتَّى كاد يَشْرَقُ بى ٣٣١/٢

فكيف السبيل إلى ما اعتمدنا عليه فى إخماد ذكره ؟ فقلت : القَدَرُ لا يُغالَبُ ، والرجل ذو حظٍّ من إشاعة الذكر وشَياع الاسم ، فالأولى ألا يُشْتَغَلَ بما هذا سبيله .

٢٣ – قال أبو عبد الله : وجدت ديوان أبى الطيب بخط أبى بكر محمد بن هاشم أحد الخالديَّين ، وقد كتبه بيده فى سنة خمس وخمسين وثلاثمئة بالموصل ، قال فيه ، عند فراغه من مدائح سيف الدولة ، ما حكيته على وجهه حرفاً حرفاً :

« هذا آخر ما عمله المتنبى فى مولانا الأمير أطال الله تعالى بقاءَه وكَبتَ أعداءَه ، وكنا شاهدناه فى سنة ثمان وثلاثين وثلاثمئة بميَّا فارقين ، ومولانا أدام الله عزَّه ، فعمل عدة أشعار وهو مقيمٌ بها ، أنشدنا منها :

---

(١) انظر ترجمة ابن العديم السالفة رقم : ٥٩ .

* إذا كان مَدْحٌ فالنَّسِيبُ المُقَدَّمُ *

ومنها :

* أَيَقْدَحُ فى الخَيْمَةِ العُذَّلُ *[١]

وغير ذلك ، وأنشدنا أيضاً مما عمله فى مولانا أيده الله تعالى فى غير مَيّافارقين قصائد كثيرةً فى مجالس متفرقة ، وكل ذلك بحضرة مولانا أدام الله عزه . فممَّا أنشدنا قوله :

* وَفَاؤُكُمَا كالرَّبْعِ أشْجَاهُ طَاسِمُهْ *

/ ومنه : ٣٣٢/٢

* رُوَيْدَكَ أَيُّهَا المَلِكُ الجَلِيلُ *

ومنه :

....

ومنه : مرثية فى والدة مولانا أطال الله بقاءه ورضى عنها ونضَّر وجهها ، التى أولها :

* نُعِدّ المَشْرَفِيَّةَ والعَوَالِي *

ومنه :

* غَيْرِى بأكثرِ هَذَا النَّاس يَنْخَدِعُ *

ومنه :

* عَوَاذِلُ ذَاتِ الخَالِ فِىَّ حَوَاسِدُ *

ومنه :

* لِعَيْنَيْكِ ما يَلْقَى الفُؤَادُ ومَا لَقِى *

ومنه :

* لَيَالِىَّ بعدَ الظَّاعِنِين شُكُولُ *

---

(١) فى الأصل : « أينفع » والصواب ما فى الديوان .

ومنه :

* دُرُوعٌ لِمَلْكِ الرُّومِ هَذِى الرَّسَائِلُ *

ومنه :

* تَذَكَّرْتُ ما بَيْن العُذَيْب وبَارِقِ *

٣٣٣/٢ / ومنه :

* طِوالُ قِنـــاً تُطَاعِنُهـــا قِصَارُ *

« وغير ذلك مما كان ينشده سيِّدنا أيّده الله ونحن حضورٌ . وأمَّا غير هذا من شعره ، فإنه أنشدناه فى مواضعَ كنا نجتمع فيها للمذاكرة عندنا وعنده . وكان ، رضى الله عنه وقَتَل قاتله ، محبًّا لنا ، مائلاً إلينا ، يكثر وصفنا وتقريظنا فى مجلس مولانا سيف الدولة ، أدام الله تعالى تأييده ، وفى غيره . ولما افترقنا كان يكاتبنا بأخباره وحاجاته من مصر والكوفة وبغداد . وكان رحمه الله تعالى مُفْتَنًّا فى علم اللغة والمعرفة بالشعر ، وما يشكل من معانيه ويَدِقُّ من معرفته ، كثير الرواية ، جيد النقد .

« ولقد حكى بعض من كان يحسده أنه كان يضع من الشعراء المحدثين ، ويَغُضُّ منهم . وربما قال : أنشدونى لأبى تمامكم شيئاً حتى أعرف منزلته فى الشعر . فتذاكرنا ليلة فى مجلس مولانا أدام الله عزه بميَّافارقين وهو معنا ، فأنشد أحدُنا لمولانا أيده الله شعراً له فيه ، قد ألَّم فيه بمعنى لأبى تمام ، فاستحسنه مولانا أدام الله تعالى تأييده ، واستجاده واستعادَه . فقال المتنبى ، وكان ذلك فى أوّل ليلة التقينا به : نعم هذا يشبه قول أبى تمام ، وأتى بالبيت المأخوذ منه المعنى ، فقلنا : قد سُرِرْنا يا أبا الطيب لأبى تمام إذ عرفت شعره ! فقال : يا إخوتى ، أَوَ يجوز للأديب أن لا يعرف أبا تمام ويروى شعره ، وهو أستاذ كُلِّ مَنْ قال الشعر بعده ؟! فقلنا : إن إنساناً ذَكَر أنك تقول كيت وكيت ، فأنكر ذلك وحَلَف مجتهداً أن هذا شىء ما نَطق به قطُّ ، وما زال بعد ذلك / إذا التقينا ينشدنا بدائع أبى تمام ٣٣٤/٢ ويتعجب منها ، وكان يروى شعره بأسره أو أكثره » .

• وهذا الخبر نقلته من خطّ الخالدىّ حرفاً حرفاً ؟ وهو ردٌّ على أبى الحسن المغربى والحاتمى وغيرهما ، فإنهم ادّعوا أن المتنبى كان [ينتقص أبا تمام] ، ويرى نفسه فوقه بكثير .

٢٤ – قال أبو على محمد بن أحمد بن فُورَجَة : كان المتنبى رجلاً داهية ، مُرَّ النَّفس شجاعاً عالِىَ الهمَّة ، حُفَظَةً للآداب ، عارفاً بأخلاق الملوك ، ولم يكن فيه ما يشِينه ويُسْقطه إلا بخله وشَرَهه على المال ، فحدثنى المؤيد أبو البركات بن أبى الفرج المعروف بابن زَيد التكريتى الشاعر قال :

بلغنى أنه قيل للمتنبى : قد شاع عنك من البخل ما قد صار سَمَراً للرِّفاق ، وأنت تمدح فى شعرك الكرم وأهله ، وتذمُّ البخل وأهله ! ومعلوم أن البخل قبيحٌ ، ومنك أقبحُ ، لأنك تتعاطى كِبَر النفس وعلوَّ الهمة وطلبَ الملك ، والبُخْل ينافى سائر ذلك ! فقال : إنّ لبُخْلى سبباً ، وذلك أننى أذكُر وقد وردتُ فى صباى من الكوفة إلى بغداد ، فأخذت خمسةَ دراهم فى جانب منديلى ، وخرجت أمشى فى أسواق بغداد ، فمررت بصاحب دُكّانٍ يبيع الفاكهة ، [(١)] فرأيت عنده خمسة من البطيخ باكورة ، فاستحسنتها ونويتُ أن أشتريها بالخمسة دراهم التى معى ، فتقدَّمت إليه وقلت : بكم تبيع الخمسة بطاطيخ ؟ فقال بغير اكتراث : اذهب ، فليس هذا من أكلك ! فتماسكت معه وقلت : أيها الرجل : دع ما يغيظ واقصد الثمن ! فقال : ثمنها عشرة دراهم . فلشدة ما جَبَهنى به ما استطعت أن / أخاطبه فى المحاططة ، فوقفت حائراً ، وإذا بشيخٍ من التُّجَار قد خرج من الخان ذاهباً إلى داره ، فوثب إليه صاحب البطّيخ من دُكّانه ودعا له وقال له : يا مولاىَ ، هنا بطيخ باكُور ، بدُسْتورك أحمله إلى منزل مولانا ! فقال الشيخ : ويحك بكَم هذا ؟ قال بخمسة دراهم . قال الشيخ التاجر : بدرهمين . فقال : بدرهمين . فباعه الخمسة بطاطيخ بدرهمين وحملها إلى داره ، ودعا له ، وعاد إلى دُكّانه مسروراً بما فعل ،

٢٣٥/٢

---

(١) فى المخطوطة « وكان يبيع .... » .

فقلت له : يا هذا ما رأيت أعجب من جهلك ! آسْتَمْتَ عليَّ فى هذا البطيخ وفعلت كيت وكيت ، وكنت قد أعطيتك فى ثمنه خمسة دراهم ، فبعته بدرهمين محمولاً ! فقال : آسكت هذا يملك مئة ألف دينار ! فقلت : وإذا كان معه أضعاف ذلك ، هل يدفع لك إلا الدرهمين !؟ فلم يزدنى على أن قال : دع ذا عنك ، فإنه يملك مئة ألف دينار ! فعلمت يومئذ أن الناس لا يكرمون أحداً إكرامهم من يعتقدون أنَّه يملك مئة ألف دينار ، وأنا فلا أزال على ما تراه حتى أسمع الناس يقولون : إن أبا الطيب قد ملك مئة ألف دينار .

• وقد وقع فى شعر المتنبى الوصية بالحزم فى ضبط الأموال لا البخل بها . وذلك فى قوله فى مدائح كافور ، وهو :

ولا يَنْحَلِلْ فى المجدِ مالُكَ كُلُّه ... فينْحَلَّ مجدٌ كان بْالمالِ عَقْدُهُ
ودبِّرْهُ تَدْبيرَ الذى المجدُ كَفُّهُ ... إذا حارَبَ الأَعْداءَ والمالُ زَنْدُهُ
فلا مَجْدَ فى الدُّنيَا لمنْ قلَّ مَالهُ ، ... ولا مالَ فى الدنيا لمنْ قَلَّ مَجْدُهُ

٣٣٦/٢ • / قال بعضهم : قد أمر المتنبى كافوراً بالبخل حيث حرمه ، وسلك فى ذلك مسلك كُثَيِّرٍ ، فإن كثيِّراً يحكى عنه أنه دَخل على هشام بن عبد الملك ، وكان هشامٌ بخيلاً ، فمدحه ، فلم يُثِبْه وجَبَهَهُ بما يكره ، فقال يخاطبه :

إِذَا المَالُ لم تُوجِبْ عَليكَ عَطَاءَهُ ... صَنِيعةُ تَقْوَى ، أو خَليلاً تُوَامِقُهْ
مَنَعْتَ ، وبعضُ المَنْع حَزْمٌ وقُوَّةٌ ، ... ولم يَفْتَلِذْكَ المالَ إلا حَقَائِقُـهْ

فقيل لكثيِّر : ما حملك على أن تُعَلِّم أمير المؤمنين البخلَ ؟ فقال : إنه منعنى من رِفْدِه ، وآمنى بردِّه ، فأردت أن أُحبِّب إليه المال فيمنع غيرى كما منعنى ، فنتَّفق على ذمِّه .

• وقال أبو عبد الله : لكنى وجدتُ القصيدة التى منها هذان البيتان فى أبى بكر ابن عبد العزيز بن مروان .

٢٤ — وقال أبو بكر الخُوارَزْمى : كانت أدواتُ المتنبى كلُّها جيدة ، نظمه ونثره ، وعربيَّته ولُغته ، وكان شجاعاً حسنَ العقل حسنَ المداراة للملوك ، عارفاً بطريق

انتزاع الأموالِ منهم ، ولم يكن فيه ما يُعاب به سوى بُخْلِهِ ، ولقد حضرتُ عنده يوماً بحلب ، وقد أُحضِر مالاً من صلاتِ سيف الدولة / بن حمدان ، فصُبَّ بين يديه ، ٣٣٧/٢ فوزَنَه وأعاده إلى الأكياس ، وإذا بقطعة من تلك الدراهم قد تخلَّلت خَلل الحصير وآنسابت فيه ، فأكبَّ المتنبى عليها بسائره ، وجعل يُنَقِّب عنها بإصبعه ، ويعالج استنقاذَها من الحصير إلى أن ظهرت بعض الظهور ، فسُرَّ بذلك ، ورفع إلينا رأسه وهو يتمثل ببيت ابن الخطيم :

تَبَدَّت لنا كالشَّمْسِ تحت غَمامَةٍ   بَدَا حاجبٌ منهَا وضَنَّتْ بِحَاجِبِ

فلم يزل يبحث عنها حتى استخرجها من الحصير وأودعها الكيس ، فعذله بعض جلسائه على هذا الفعلَ فقال : أما كان يكفيك ما فى هذه الأكياس ، حتى أدْمَيْتَ إصبعك لأجل هذه القطعة ؟ فقال : مَهْ ، فإنها تحضُرِّ المائدة . (١)

٢٥ - قال أبو عبد الله : وجدت أبا الفتح عثمان بن جنى قال ، حدثنى المتنبى وقت القراءة عليه قال : قال أبو الفضل جعفر بن أبى الفضل بن جعفر بن حِنْزابة ، وكان وزير كافور : أعَلِمْتَ أنى أحضرت كتبى كلها ، وجماعة من الأدباء يطلبون لى من أين أخذت معنى قولك :

أَزُورُهم وسوادُ اللَّيْل يَشْفَعُ لي   وأنثنِي وبياضُ الصُّبْحِ يُغْرِي بِي

فلم يظفروا به ؟ وكان آبنُ حنزابة أكثرَ من رأيتُ كتباً . قال ابن جنى ثم إنى عثرت بالموضع الذى أخذ منه معنى بيته ، أخذه من قول ابن المعتز :

فالصُّبْحُ نَمَّامةٌ واللَّيْل قَوَّادُ

---

(١) انظر ترجمة ابن العديم السالفة رقم : ٤١ .

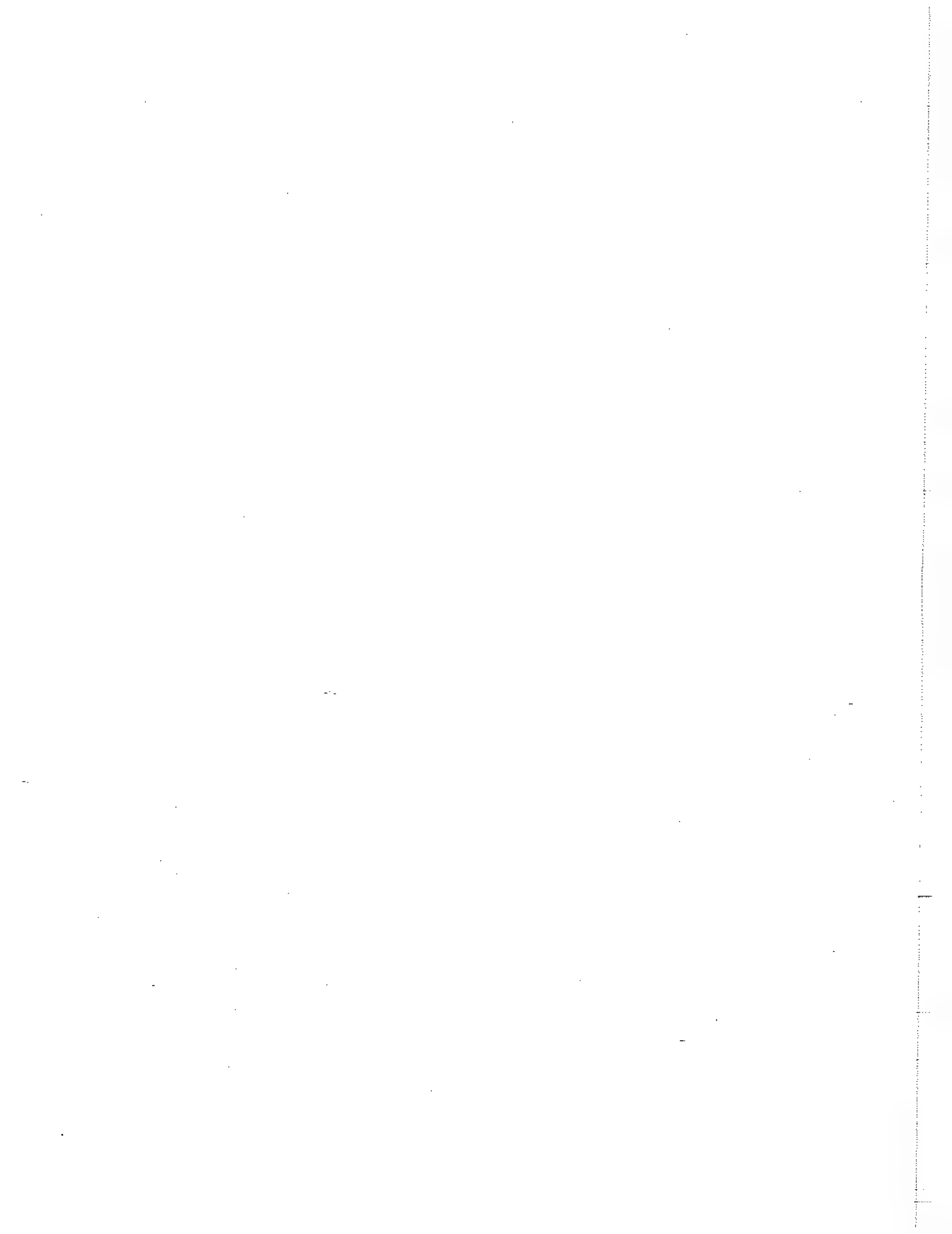
٢/٣٣٨ ● / قال أبو عبد الله : وكان ابنُ حنزابة هذا وابنُ العميد وأبو محمد المهلبى ، ثلاثَتُهُمْ ، يحطُّون على المتنبى وينتقصون منه ، وينقدون عليه معانى شعره ويؤاخذونه بها ، وثلاثَتُهُمْ كانوا وزراءَ فُضلاء .

* * *

والحمد لله وَحْده ، والصلاة على أكمل خلقه محمدٍ وعِتْرته الطاهرين وصحبه أجمعين ، صلاةً دائمةً إلى يوم الدين .

* * *

٣ – ترجمة المتنبى للمقريزىّ



(٤)

ترجمة المتنبى للمقريزى
من كتابه « المقفى »

بسم الله الرحمن الرحيم

/ ١ – أحمد بن الحُسين بن الحسن بن عبد الصمد أبو الطيب الكُوفيّ ، ٣٤١/٢ الشاعر المعروف بالمتنبى . وقيل : بل هو أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار . وكان أبوه الحسين يعرف بعِيدَان السَّقَّاء ، و « عِيدَان » بكسر العين المهملة ، وسكون الياء آخر الحروف ، قاله الخطيب البغدادى .

٢ – وقال ياقوت الحموى : رأيت ديوان أبى الطيب المتنبى بخط أبى الحسن على بن عيسى الرَّبَعيّ ، قال فى أوله : الذى أعرفه من نسب أبى الطيب أنه : أحمد بن الحسين بن مُرة بن عبد الجبَّار الجُعْفيّ ، وكان يكتم نسبَه ، وقد سألته عن سبب طيِّه ذلك ، فقال : إنِّى أنْزِل دائماً بعشائر وبقبائل [من] العرب ، ولا أحب أن يعرفونى ، خِيفة أن يكون لهم فى قومى تِرَةٌ . وهذا الذى صحّ لى من نسبه . (١)

٣ – وقال القاضى أبو على المحسِّن بن على التَّنُوخيّ ، حدثنى أبو الحسين [أبو الحسن] محمد بن يحيى الزيديُّ العلوى ، قال : كان المتنبى وهو صبى ينزل فى جوارى بالكوفة ، وكان أبوه يعرف بِعِيدَان السَّقَّاء ، يستقى لنا ولأهل المحلة ، ونشأ وهو محبٌّ للعلم والأدب وطلبه ، وصحب الأعراب فى البادية ، فجاءنا بعد سنين بدويًّا . وقد كان تعلم الكتابة والقراءة ، فلزم أهل العلم والأدب ، وأكثر من ملازمة الورَّاقين ، فكان علمه من دفاترهم . فأخبرنى ورَّاق كان / يجلس إليه يوماً قال لى : ما رأيت أحفظ من ٣٤٢/٢ هذا الفتى ابن عِيدَان قطُّ ! فقلت له : كيف ؟ فقال : كان عندى اليوم وقد أحضر رجلٌ كتاباً من كتب الأصمعىّ يكون نحو ثلاثين ورقة ليبيعه ، فأخذ ينظر فيه طويلاً ، فقال له

---

(١) انظر ترجمة ابن العديم السالفة رقم : ٨ .

الرجل : يا هذا أريد بَيْعه ، وقد قطعتنى عن ذلك ، فإن كنت تريد حفظه ، فهذا إن شاءَ الله يكون بعد شهر ! فقال له ابن عِيدَان : فإن كنتُ قد حفظتُه فى هذه المدة ، فما لى عليك ؟ قال : أَهَبُ لك هذا الكتاب . قال : فأخذت الدفتر من يده ، وقلت : هيَّا ! فأقبل يتلوه علىّ إلى آخره ، ثم استلبه فجعله فى كمه ، فعَلِقَ به صاحبه يطالبه بالثمن ، فقال : ما إلى ذلك من سبيل ، وقد وهبتَهُ لى ! قال : فمنعناه منه وقلنا له : أليس شرطت على نفسك هذا للغلام ؟ فتركه . (١)

٤ — وقال لى أبو الحسين [أبو الحسن] : كان عِيدَان والد المتنبى يذكُر أنه من جُعْفِىّ ، وكانت جدة المتنبى هَمْدَانية صحيحة النسب لا أشك فيها ، وكانت جارتنا ، [وكانت] من صلحاء النساء الكُوفيَّات .

● قال التنوخى : فاتفق مجيءُ المتنبى بعد سنين إلى الأهواز مُنصرفاً من فارس ، فذاكرته بأبى الحسين [بأبى الحسن] فقال : تِرْبى وصديقى وجارى بالكوفة . وسألت المتنبِّى عن نسبه فما اعترف به ، وقال : أنا رجل أَخْبِط القبائل ، وأطأ البلاد والبوادى ، وخفت أننى متى انتسبت لم آمن أن يأخذنى بعض العرب بطلبة = [بطائلة] = بينها وبين القبيلة التى أنتسب إليها ، وما دمت غير منتسب إلى أحد ، فأنا أسلم من جميعهم ، ويخافون لسانى . فذكرت له / ما أخبرنى به أبو الحسين من انتسابه إلى جُعْفِىّ ، وأن جَدَّته هَمْدَانِيَّة ، فما أنكر ذلك ولا اعترف به . (٢) ٣٤٣/٢

وقال : ومحلُّ أبى الحسين [أبى الحسن] فوق أن يحكى إلا صدقاً . (٣)

---

(١) انظر ترجمة ابن العديم السالفة رقم : ١٤ .

(٢) هذا الخبر مضى فى ترجمة ابن العديم السالفة رقم : ١٥ ، ١٦ .

(٣) هذه الجملة التى انفرد بها هذا الخبر هنا ، والتى أراد بها التنوخى تصحيح خبره عن أبى الحسن محمد بن يحيى العلوى ، تزيدنى شكا فى رواية التنوخى وفى صدقه ، راجع ما سلف ص : ١٤٣ — ١٥٣ .

٥ — قال : واجتمعت بعد موت المتنبى بسنين مع القاضى أبى الحسين [أبى الحسن] [ابن أم] شيبان الهاشمىّ الكُوفىّ ، وجرى ذكر المتنبى فقال : أعرف أباه بالكوفة شيخاً ينضح على بعيرٍ له ، يُسَمَّى عِيدَان ، وكان جُعْفِيًّا صحيح النسب . (١)

• ثم رأيت رجلاً كوفيًّا ضريراً ببغداد ، ويذكر أنه أخُو المتنبى من أبيه وأمه ، وسألته عن نسبه ، فقال : كان أبونا يقول إنه من جُعْفِيٍ . (٢) انتهى .

٦ — وكان مولد أبى الطيب فى كِنْدة من الكوفة سنة ثلاث ، وقيل إحدَى وثلاثمئة ، والأول أصح .

٧ — وقد اختلف فى تسميته بالمتنبى ، فقيل إنه ادَّعى النبوَّة فى حداثته ، وقيل غير ذلك .

٨ — قال القاضى التنوخىّ : وقد كان المتنبى لما خرج إلى كلب وأقام فيها ، / ادّعى أنه علوىٌّ حَسَنِىٌّ ، ثم ادعى بعد ذلك النبوة ، ثم عاد يدعى أنه علوىٌّ ، إلى أن أُشهد عليه بالشام والكوفة [أنه نبى !!] ، (٣) وأشرف على القتل ، ثم استُتيب . (٤) ٣٤٤/٢

• وقال (٥) : وكان يتردد فى نفسى أن أسأل أبا الطيب المتنبّى عن تنبّيه والسبب فيه ، وهل ذلك اسم وقع عليه على سبيل اللقب ، أو أنه كما كان يبلغنا ؟ فكنت أستحيى منه لكثرة من يحضر مجلسه ببغداد ، وأكره أن أفتح عليه باباً يكره مثله . فلما جاء إلى الأهواز ، ماضياً إلى فارس ، خلوتُ به ، وطاولته الأحاديث وجررتها إلى أن قلت له : أريد أن أسألك عن شئ فى نفسى منذ سنين ، وكنت أستحيى خطابك فيه من كثرة من كان

---

(١) هذا الخبر مضى فى ترجمة ابن العديم برقم : ١٧ .

(٢) هذا الجزء من الخبر غريب جداً فى نسبته إلى التنوخى ، فإنه لم يذكر فى مكان آخر منسوباً إليه ، انظر ابن العديم رقم : ٨ ، والتعليق عليه .

(٣) هكذا فى الأصل ، وانظر ما سلف ص : ١٩٩ ، ٢٠٠ ، وانظر ص : ٥٨٥ ، تعليق : ٢ ، وأنّه « حُسَيْنِى » ، لا « حسنى » .

(٤) ابن العديم رقم : ١٧ .

(٥) القائل هو التنوخى .

يحضرك ببغداد ، وقد خلونا الآن ، ولابدَّ أن أسألك عنه . وكان بين يدىّ جزء من شعره عليه مكتوبٌ « شعر أبى الطيب المتنبى » ، فقال : تريد تسألنى عن سبب هذا ؟ وجعل يده فوق الكتابة التى هى « المتنبى » ، فقلت : نعم . فقال : هذا شئ كان فى الحداثة أو جبته صُورة . [1] فما رأيت رَهْسَمَةً ألطفَ منها ، [2] لأنه يحتمل المعنيين فى أنه كان تنبَّأ واعتمدَ الكذب ، أو أن عنده أنه كان صادقاً ، إلاَّ أنَّه اعترف بالمتنبى على كل حال .

٢٤٥/٢ ● / قال : ورأيت ذلك قد صعُب عليه ، فاستقبحت أن أستقصى وألزمه الإفصاح بالقصة ، فأمسكت عنه .

٩ – وحكى القُطْرُبُّلِىُّ وابن أبى الأزهر ، فى تاريخ اجتمعا على تصنيفه ، أن المتنبى أُخرج ببغداد من الحبس إلى مجلس الوزير أبى الحسن على بن عيسى فقال له : أنت أحمد المتنبى ؟ فقال أنا أحمد النبى ، وكشف عن بطنه فأراه سَلْعَةً فيه ، وقال : هذا طابع نبوّتى وعلامةُ رسالتى ! فأمر بقلْع شُمْشُكِهِ وصَفْعه به خمسين ، وأعاده إلى محبسه . ذكر ذلك على بن منصور القارح فى رسالته إلى أبى العلاء المعرى . [3]

١٠ – وقال أبو على بن أبى حامد : سمعت بحلب يحكون ، وأبو الطيب المتنبى بها إذ ذاك ، أنه تنبأ فى بادية السَّماوة ونواحيها ، إلى أن خرج إليه لؤلؤ أمير حمص من قبل

---

(١) هذا الخبر إلى هنا ، مذكور فى ترجمة ابن العديم برقم : ٢٤ ، مع اختلاف كبير فى اللفظ ، ثم انظر ما سلف من الكلام فى هذا الخبر ص : ٥٥٢ – ٥٥٤ وما بعدها .

(٢) فى الأصل « دهثمة » وكذلك فى تكملة تاريخ الطبرى للهمدانى الجزء الأول : ١٩٥ [بيروت ١٩٦١] ، على تحريف فيه وتصحيف . ولا معنى للدهثمة ، و « رهسم فى كلامه أو فى الخبر رهسمة » ، إذا أتى منه بطرف ولم يفصح بجميعه . وهذا الخبر هنا أتم مما رواه الخطيب فى تاريخ بغداد ، فى ترجمة أبى الطيب .

(٣) مضى هذا الخبر فى ترجمة ابن العديم برقم : ٣٢ ، وقد ردَّ الخبر وأظهر ما فيه من الخطأ الفاحش ، ثم انظر رسالة ابن القارح (الطبعة الثانية من رسالة الغفران ، للدكتورة بنت الشاطئ) ص : ٢٥ ، ٢٦ . و « الجمشك » : ضرب من النعال ، يقال بالجيم والشين .

الإخشيدية ، وقاتله وأسره وشرَّد من كان اجتمع إليه من كلب وكلاب وغيرهما ، وحبسه فى السجن دهراً طويلاً ، ثم استتابه مما نقل عنه وأخرجه .

• قال : ومن قرآنه قوله من سورة : « والنَّجْمِ السَّيَّار ، والفَلَكِ الدَّوَّار ، واللَّيْلِ والنَّهار ، إن الكافر لفِى أخطار ، آمْضِ على سَنَنِك ، وٱقْفُ أثر مَنْ / كَانَ قَبْلك من المرسلين ، فإن الله قامعٌ بك زيْغَ مَنْ ألحد فى دينه وضَلَّ سبيله » ، وهى طويلة .[1] ٣٤٦/٢

١١ — وقال له ٱبن خالويه النحوىّ ، فى مجلس سيف الدولة : لولا أنك جاهلٌ لما رضيت أن تُدْعى بالمتنبى ، لأن « متنبِّى » معناه كاذب ، ومن رضى أن يدعى بالكذب فهو جاهل . فقال له : أنا لست أرضى أن أُدعى بهذا ، وإنما يدعونى به من يريد الغضَّ منِّى ، ولست أقدر على الامتناع .[2]

١٢ — وقال أبو على بن أبى حامد : قال لى أبى ، وقد سمع قوماً يحكون عن أبى الطيب المتنبى هذه السورة التى قدمنا ذكرَها : لولا جهلُه ، أين قوله : « آمض على سنَنِك » .... إلى آخر الكلام ، من قول الله تعالى : (فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرْ وأعْرِضْ عَنِ المُشْرِكِينَ . إنَّا كَفَيْنَاكَ المُسْتَهْزِئِينَ) .... إلى آخر القصة ، فهل تتقارب الفصاحة فيهما ؟ أو يشتبه الكلامان ؟[3]

١٣ — وقال أبو عبد الله معاذ بن إسمعيل اللاذقىّ : قدم المتنبى اللاذقية فى سنة نيف وعشرين وثلاثمئة ، وهو كما عذَّر ،[4] وله وَفْرةٌ إلى شَحْمتى أذنيه ، وضَوَى إلىَّ فأكرمته لما رأيت من فصاحته وحُسن سَمْتِه ، وقلت له يوماً : والله إنك لشاب خطير ،

---

(١) هذا الخبر ، ذكره ابن العديم فى ترجمته برقم : ٢٣ مطولاً .

(٢) هذا الخبر أيضاً جزء من الخبر رقم : ٢٣ ، فى ترجمة ابن العديم السالفة .

(٣) هذا الخبر فى ترجمة ابن العديم السالفة برقم : ٢٥ .

(٤) هكذا هنا وفى ابن العديم رقم : ٢٦ .

تصلح لمنادمة ملك كبير ! فقال لى : ويحك ! أتدرى ما تقول ؟! أنا نبيٌّ مرسل . قلت له : مرسلٌ إلى مَنْ ؟ قال : إلى هذه الأمة الضالَّة المضلَّة . قلت : تفعل ماذا ؟ قال : ٣٤٧/٢ أملؤُها عدلاً كما مُلِئت جَوْراً . قلت : / بماذا ؟ قال : بإدْرار الأرزاق ، والثَّواب العاجل والآجل لمن أطاع وأتى ، وضربِ الأعناق وقطع الأرزاق لمن عصى وأبى . فقلت له : إن هذا أمرٌ عظيم ، أخاف منه عليك أن يظهر ! وعَذَلته على قوله ذلك ، فقال بديهاً :

أبا عَبْدِ الإلٰهِ مُعاذُ إنِّى ... خَفِىٌّ عنك فى الهَيْجا مَقَامِى
ذكَرْتَ جَسِيمَ ما طَلَبِى ، وأنَّا ... نُخَاطِرُ فيه بالمُهَجِ الجِسَامِ
أمِثْلى تأخذُ النَّكَباتُ مِنْهُ ... فَيَجْزَعَ من مُلاقاةِ الحِمَامِ
ولَوْ بَرَزَ الزمانُ إلىَّ شَخْصاً ... لخضَّبَ شَعْرَ مَفْرِقِهِ حُسَامِى
وما بَلَغَتْ مَشيئَتَها اللَّيالِى ... ولا سَارَتْ وفى يَدِها زِمَامِى
إذا آمتلأَتْ عُيُونُ الخيل مِنِّى ، ... فويْلٌ للتيَقُّظِ والمَنَامِ

فقلت له : ألم تكن ذكرتَ أنَّك نبى مرسَلٌ إلى هذه الأمة ؟ أفيوحى إليك ؟ قال : نعم . قلت : فآتْلُ علىَّ شيئاً من الوحى إليك . فأتانى بكلام ما مرَّ على سمعى أحسن منه . فقلت : وكم أوحى إليك من هذا ؟ فقال : مئة وأربع عشرة عِبْرَة . قلت : وكم العِبْرة ؟ فأتى بمقدار أكبر من الآى من كتاب الله . قلت : ففى كم مُدَّة أُوحِىَ إليك ؟ قال : جملةً واحدة . قلت : فأسْمَعُ فى هذه العِبَر أن لك طاعةً فى السماء ، فما هى ؟ قال : أحبس المِدْرَارَ ، لقطع أرزاق العُصاة والفُجَّار . قلت : أتحبس من السماء قَطْرها ؟ قال : إى ، والذى فَطَرها ، أفما هى معجزة ؟ قلت : بلى . قال : فإن حبستُه عن مكانٍ تنظر إليه ٣٤٨/٢ ولا تشكّ فيه ، هل تؤمن بى وتصدِّقنى على ما أَتيتُ به من ربّى ؟ / قلت : إى والله . قال : سأفعل ، ولا تسألنى عن شئ بعدها حتى آتيك بهذه المعجزة ، ولا تظهر شيئاً من هذا الأمر حتى يظهر ، وانتظر ما وُعِدْتَهُ من غير أن تسأله . فقال لى بعد أيام : أتحبُّ أن تنظر إلى المعجزة التى جرى ذكرها ؟ قلت : بلى والله . قال لى : إذا أرسلت إليك أحدَ العبيد فآركب معه ولا يخرج معك أحدٌ . قلت : نعم . فلما كان بعد أيام تغيَّمت السماء

فى يوم من أيام الشتاء ، وإذا عَبْدُهُ قد أقبل فقال : يقول لك مولاى ، آركب للوعد . فبادرت بالركوب معه ، وقلت : أين ركب مولاك ؟ فقال : إلى الصحراء ، ولم يخرج معه أحدٌ غيرى . واشتد وَقْعُ المطر ، فقال : بادِرْ بنا حتى نستكنَّ معه من هذا المطر ، فإنه ينتظرنا بأعلى تلٍّ لا يصيبه فيه المطر . قلت : وكيف عمل ؟ قال : أقبل ينظر إلى السماء أوَّلَ ما بدا السحاب الأسود ، وهو يتكلّم بما لا أفهم ، ثم أخذ السَّوط فأدار به فى موضع ستنظر إليه من التلِّ ، وهو يُهَمْهِم والمطر مما يليه ، ولا قطرة منه عليه . فبادرت معه حتى نظرتُ إليه ، وإذا هو على تلٍّ على نصف فرسخ من البلد ، فأتيته ، وإذا هو عليه قائم ما عليه من ذلك المطر قطرة واحدة ، وقد خُضْتُ فى الماء إلى رُكْبتى الفرس ، والمطر فى أشدِّ ما يكون ! فنظرت إلى نحو مئتى ذِراعٍ فى مثلها فى ذلك التلّ يابسٌ مافيه ندًى ولا قطرةُ مطر ، فسلَّمت عليه ، فردَّ علىَّ وقال لى : ما ترى ؟ فقلت : آبسط يدك ، فإنى أشهد أنك رسول الله ! فبسط يده فبايعتُه بيعة الإقرار بنبوَّته ، ثم قال لى : ما قال لك هذا الخبيث لما دعاك ؟ – يعنى عبدَه ، فشرحت له ما قال لى فى الطريق لمّا استخبرته ، فقَتَل العبدَ وقال :

/ أىَّ مَحَلّ أَرْتَقِى ... أىَّ عَظِيم أَتَّقِى ٣٤٩/٢
وكُلُّ ما خَلَقَ اللـ ... ـهُ وَمَا لَمْ يَخْلُق
مُحْتَقَرٌ فى هِمَّتى ... كَشَعْرَةٍ فى مَفْرِقِى

وأخذت بيعته لأهلى ، ثم صحَّ بعد ذلك أن البيعة عمَّت كل مدينة بالشام ، وذلك بأصغر حيلة تعلّمها من بعض العرب ، وهى « صَدْحَةُ المطر » يَصْرِفه بها عن أىّ مكان أحبَّ بعد أن يَحْوِىَ عليه بعصاً وينفث بالصَّدْحَة التى لهم . وقد رأيت كثيراً منهم بالسَّكُون وحضرموت والسَّكاسك من اليمن ، يفعلون هذا ولا يتعاظمونه ، حتى إن أحدهم يصدح عن غنمه وإبله وبقره ، وعن القرية من القُرَى فلا يصيبها من المطر قطرةٌ ، ويكون المطر مما يَلِى « الصَّدْحة » ، وهو ضرب من السحر . ورأيت لهم من السّحر ما هو أعظم من هذا ، وسألت المتنبى بعد ذلك : هل دخلت السَّكُون ؟ قال نعم ، ووالدى منها ، أما سمعت قولى :

أَمُنْسِيَّ السَّكُونَ وحَضْرَمَوْتاً وَوَالِدَتِى وكِنْدَةَ والسَّبِيعَا

فقلت : من ثَمَّ استفاد ما جوَّزه على طغام أهل الشام . (١)

١٤ – وقال أبو العلاء أحمد بن سليمان المعرّىّ : أخبرنى بعض الكتاب ، قال : كنت بالدِّيوان فى بعض بلاد الشام ، فأسرعت المُدْية فى إصبع بعض الكتاب وهو يَبْرِى قلمه ، وأبو الطيب حاضرٌ ، فقام إليه وتَفَل عليه ، وأمسكها ساعة بيده ثم أرسلها وقد اندملت بدمها ، فجعل يُعَجِّبُ من ذلك ، ويُرِى / من حضر أن ذلك من معجزاته . (٢) ٢/٣٥٠

١٥ – وقال أبو الفتح عثمان بن جنّى النحوىّ : سمعت أبا الطيب يقول : إنما لُقِّبت بالمتنبى لقولى :

أَنَا فِى أُمَّة ، تَدَارَكَها اللهُ ، غريبٌ كَصَالِحٍ فى ثَمُودِ

ما مُقَامِى بِدَارِ نَخْلَة إلاَّ كمُقَامِ المَسيحِ بين اليَهُودِ

١٦ – وقيل له : على من تنبأت ؟ قال : على الشعراء . فقيل : لكل نبى معجزة ، فما معجزتك ؟ قال قولى :

ومِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الحُرِّ أنْ يَرَى عَدُوًّا لهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِـه بُدُّ

١٧ – ودخل أبو الطيب فى صباه إلى الشام وجال فى أقطارها ، وصعد بعد ذلك إلى مصر ، وكان بها فى سنة خمس وثلاثين وثلاثمئة ، (٣) وقدم وافداً على سيف الدولة ابن حمدان بحلب فى سنة سبع وثلاثين وثلاثمئة ، فأكرمه ونفق عليه ، إلى أن خرج من حلب غضبان بسبب كلام وقع بينه وبين أبى عبد الله ابن خالويه فى مجلس سيف الدولة ،

---

(١) هذا الخبر كله فى ترجمة ابن العديم السالفة برقم : ٢٦ .

(٢) الخبر ذكره ابن العديم فى ترجمته السالفة برقم : ٢٧ ، انظر رسالة الغفران ص : ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

(٣) هذا تاريخ جديد مهم فى ترتيب رحلة المتنبى يحتاج إلى تفصيل ، وانظر ابن العديم رقم : ٦٦ .

فضربه ابن خالويه بمفتاح فى سنة ست وأربعين وثلاثمئة ، وصار إلى مصر مرة ثانية ، ومدح بها الأستاذ أبا المسك كافور الإخشيدى ، ولم يمدح بمصر غيرَه سِوَى فاتك الإخشيدى المعروف بالمجنون ، عندما بعث إليه من الفيُّوم = وكان مقيماً بها / لأن له مالاً بها كثيراً = ٣٥١/٢ كُسوةً وجمالاً ، [(١)] جاء مبلغ ذلك ستمئة دينار ، وذلك أنَّه بلغه تقصير كافور به ، فمدحه بقصيدة أولها .... [(٢)] وكان المتنبى يقف بين يَدَىْ كافور وهو متكئ على سيفه فى عشية كلِّ عيد ، والشعراء تنشد مدائحها فى كافور . فكلما فرغ شاعرٌ من إنشاده رفع كافور رأسه إلى المتنبى وقال : إيش تقول يا أبا الطيب فى هذا الشاعر ؟ فيقول له ما يمكنه . ومازال مع كافور كذلك إلى أن هَرَب ليلة عيد النحر سنة خمسين وثلاثمئة . وسبب هربه تقصير كافور فى حقِّه ، فإنه طلب منه أن يولِّيه عملاً من أعمال مصر ، فلم يجبه إلى ذلك فسَخِطَ . وعندما عزم على الهَرب من مصر أرسل إلى أبى بكر الفَرْغَانىّ ، أحد جلساء كافور ، يقول له : إنى أجدُ وَجَعاً ، وللأستاذ عندى رُقْعة فيها مُهِمٌّ ، فتدفعها إليه عشيَّة العيد عند العتَمةِ إذا خَلاَ ، فقد هنَّيْتُه بالعيد ، وذكرت عُذْرى فى التأخر . فأخذ الفرغانىّ الرقعة ، وهرب المتنبى من ساعته ، وأصبح الناس بشُغْلِ العيد ، وجلس كافور عَشِيّة العيد للشعراء ، فسأل عن المتنبى وقال : سلوا عنه ! فتوانَى مَنْ قِيلَ له ، وتوانى الفرغانى أيضاً تلك الليلة فى إيصالِ الرُّقعة إلى كافور ، فلم يُوَصِّلها إليه إلا من الغد ، فجاء بها كافوراً مع العَتَمة ، وقال له ، والشمع بين يديه : دَفَع لى عبدُك أبو الطيب المتنبى رقعةً وهو ضعيفٌ من شئ يَجِدُه ، وعرَّفنى أنّ فيها مُهِمًّا ! فأفهمه كافور أنه قد هجاه فى الرقعة ، [(٣)] فأخذها بيده وقال : أرسلوا إلى أبى الطيب سَلُوا عنه . فمضى

---

(١) كان فى المخطوطة : « لأن له بها مالاً كثيراً وكسوةً وجمالاً » ، والكلام غير مستقيم ، ولا يستقيم إلا بحذف الواو ، وسياقه : « عندما بعث إليه من الفيوم : .... كسوةً وجمالاً .... » .

(٢) الكلام فى المخطوطة متصل ، وهو سهو . والقصيدة التى يعنيها هى قوله :

* لاَ خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا ولاَ مَالُ *

(٣) فى المخطوطة : « فاتهمه كافور » ، والصواب ما أثبتّ .

٣٥٢/٢ عدة من / الرسل فى طلبه ، فانكشف الأمر أنه هرب . فوضع كافور الرُّقْعَة فى الشمعة وأحرقَها بيده وعُلِم أنه هجاه ، وأخَذ يَسُبُّ من حسَّن له التقصير فى أمره ، وتأسَّف عليه ، وقَلِق بذهابه .

١٨ – وقَدِم المتنبى على عَضُد الدولة بشيراز ، فلما وصل إلى حضرته فى أوَّل مجلس شاهده فيه ، قال لأبى القاسم عبد العزيز بن يوسف : آخرج ، واستوقفه واسأله كيف شاهد مجلسنا ؟ وأين الأمراء الذين لقيهم فى نفسه منا ؟ قال : فامتثلتُ ما أُمِرْتُ به ولحقته ، وجلست معه وحادثته وطاولته ، وأطلت معه فى المعنى الذى ذكرته ، فكان جوابه عن جميع ما سمعه منى أن قال : « ما خَدَمتْ عيناىَ قَلْبِى كاليَوْم » ، فجاء الجواب موزوناً ، واستوفَى القول فى اختصار من اللفظ . (١)

١٩ – ويقال إنه لما دخل على عضد الدولة بشيراز قال : أنا لا أنشد ماثلاً . فأمر له عضد الدولة بكرسى ، فلما دخل ورآه ، أنشده قائماً ، فأمره بالجلوس فأبى ، وقال : هيبتُك تمنع من ذلك ! فوقع قوله وفعله منه أحسن موقع . (٢)

***

• ومن شعره :

أَنْصُرْ بجُودِكَ ألفاظاً تركتُ بها ... فى الشرق والغَرْب من عَادَاك مكْبُوتَا

فقد نَظَرْتُك حتَّى حان مرتحَلٌ ... وذَا الوداعُ ، فكن أهلاً لما شِيتَا

٣٥٣/٢ / فأعطاه دون الخمسة دراهم وقبلها . (٣)

---

(١) فى ترجمة ابن العديم السالفة برقم : ٧١ ، ثم ترجمة ابن عساكر برقم : ٢٠ .

(٢) مضى هذا الخبر فى ترجمة ابن العديم السالفة ، فى خلال الخبر رقم : ٣٦ .

(٣) هذا موضع سقط لا شك فيه ، فلذلك فصلتُه ولم أجعل له رقماً ، وألحقته بالخبر رقم : ١٩ ، وانظر الخبر تاماً فى ترجمة ابن العديم السالفة برقم : ٤٥ .

٢٠ - وخرج من شيراز لثمانٍ خلون من شعبان قاصداً بغداد ، ثم سار منها إلى الكوفة ، حتى إذا بلغ دير العاقول وخرج منه قدر ميلين ، خرج عليه فرسانٌ ورَجَّالة من بنى أَسدٍ وشَيْبان ، فقاتلهم مع غُلامين من غلمانه ساعة ، وقتلوه وقتلوا معه أحد الغلامين وهرب الآخر ، وأخذوا جميع ما كان معه ، وقتلوا ابنَهُ المحسَّد ، وذلك يوم الاثنين لثمان بقين من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمئة بالقرب من النُّعْمَانية = وقيل : لخمسٍ بقين من رمضان المذكور = وقيل : فى شوَّال بالصَّافية من أرض واسط ، والذى قتلهُ فاتكُ بن أبى جهل ، ابن خالة « ضبَّة » الذى هجاهُ المتنبى ، وكان على شاطىء دجلة .[1]

٢١ - وذكر الخالديَّان ، عن أبى نصر محمد بن المبارك الجُبَّلىّ قال : خرج المتنبى من واسط يوم السبت لثلاث عشرة بقيت من رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمئة ، وقُتِل بِبَنُوزَى = بفتح أوّله ، وضمّ ثانيه ، وبعده زاىٌ معجمة ، مقصورٌ على وزن « فَعُولَى »[2] = بشطّ الفرات ، ضيعةٌ بقرب دير العاقول ، فى يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من رمضان ، وكان معه يومَ قُتِل سبعون ألف دينار . وأُخْرِجَ من الماء مقتولاً ، ودفن بالصائفة ، / والذى قتله فاتك بن أبى جهل بن فراس بن بداد ، وهو قرابةٌ لوالدة ضبَّة بن يزيد العَيْنِىّ الذى هجاه المتنبى بقوله : ٣٥٤/٢

مَا أنْصفَ القَوْم ضَبَّهْ   وأُمَّهُ الطرْطُبَّهْ

ويقال : إنّ فاتكاً خالُ ضَبّة .[3]

***

---

(١) هذا الخبر مذكور فى ترجمة ابن العديم السالفة برقم : ٧٩ .

(٢) أما ياقوت فذكرها « بالراء » ولم يقل « راء مهملة » ، فأخشى أن يكون تصحيفاً فى معجم البلدان . وفى معجم ياقوت فوائد ، فراجعها هناك . وانظر ما سلف فى ابن العديم رقم : ٧٨ ، ثم رقم : ٨١ « بيزع » .

(٣) انظر رواية الخالديين لمقتل المتنبى مطولة فى ترجمة ابن العديم السالفة برقم : ٨١ .

٢٢ - وديوان شعر المتنبى مشهورٌ ، والجيّد من شعره لا يجارَى فيه ولا يُلْحَق ، والردىء منه فى غاية الرداءة والسقوط ، هذا هو الإنصافُ فى حقّه . والناس فيه مذهبان ، وقد تعصَّبتْ له وعليه طوائفُ ما بين غالٍ ومقصِّرٍ .

٢٣ - وقد روى عنه القاضى أبو الحسين محمد بن أحمد بن القاسم المحاملىّ ، وأبو الفتح عثمان بن جنّى ، وأبو محمد الحسن بن على بن الصَّقْر الكاتب ، وأبو الحسن على ابن أيوب بن الحُسين بن السَّاربان الكاتب ، والأستاذ أبو على أحمد بن مسكويه ، وأبو عبد الله بن باكوَيْهِ الشيرازىّ ، وأبو الحسن على بن عيسى الربعىّ ، وأبو القاسم بن حسن الحمصىّ ، وعبد الصَّمد بن زهير بن هرون بن أبى جرادة ، ومحمد بن عبد الله بن سعد النحوىّ الحلبيّان ، وعبد الله بن عبيد الله الصُّفرىّ الشاعر الحلبىّ ، وعبيد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبى الجوع الورّاق المصرىّ ، وأبو إسحق إبرٰهيم بن عبد الله المغربى ، وأبو بكر الطائى ، وأبو القاسم النيلبُختّى ، وأبو محمد الحسين بن عمر / بن إبرٰهيم ، وأبو العباس بن الحَوْت ، وجماعةٌ سواهُمْ .(١) ٢/٣٥٥

٢٤ - ويقالُ إنّ بعض الأشراف قدم من الكوفة فدخل إلى مجلسٍ فيه المتنبى ، فنهض الناس كلهم له سوى المتنبى ، فجعل كل واحد من الحاضرين يسأله عن الأحوال فى الكوفة وما تجدّد هناك ، فقال المتنبى : يا شريف ، كيف خَلَّفتَ الأسعارَ بالكوفة ؟ فقال له : راويةٌ برطلين خبز ! فأخجله . وذلك أنه قصد أن أباه عِيدَان كان سَقَّاءً .(٢)

٢٥ - وقال أبو العباس النامى المِصّيصىّ : كان قد بقى من الشعر زاويةٌ دخلها المتنبى ، وله معنيان ما سُبِق إليهما ، قولهُ :

رَمَانى الدّهرُ بالأَرْزَاءِ حتّى ... فُؤَادِى فى غِشاءٍ من نِبَالِ

---

(١) انظر ترجمة ابن العديم فيما سلف رقم : ٦ .

(٢) هذا الخبر فى ترجمة ابن العديم السالفة برقم : ٥٠ .

والآخر :

فى جَحْفَلٍ سَتَر العيونَ غُبارُه فكأنَّما يُبْصِرْنَ بالآذانِ [(١)]

٢٦ – وقال أبو الفتح بن جنّى : كنت أقرأ ديوان أبى الطيّب عليه ، فقرأتُ قوله فى كافور :

أغالبُ فيكَ الشوقَ ، والشوقُ أغلبُ وأعجبُ من ذا الهَجْرِ ، والوصلُ أعجبُ

/ حتى بلغتُ إلى قوله : ٢/٣٥٦

ألا ليتَ شِعْرِى ، هل أقولُ قصيدةً فلا أشْتكى فيها ولا أتعتَّبُ

وبى ما يذُودُ الشعرَ عَنّى أقَلُّهُ ولكنَّ قلبى ، يا آبنَةَ القوم ، قُلَّبُ

فقلت : يعزُّ علىّ ، كيف يكونُ هذا الشعر فى ممدوح غير سيف الدولة ؟ فقال : حذّرناه ، وأنذرناه ما نفع ، ألستُ القائل :

أخا الجُودِ أعطِ الناسَ ما أنتَ مالِكٌ ولا تُعْطِيَنَّ الناسَ ما أنا قائِلُ

فهو الذى أعطانى لكافورٍ بسوءِ تدبيره وقلة تمييزه . [(٢)]

٢٧ – وذكر صالح بن إبرٰهيم بن رِشْدين قال ، قال لى أبو نصر بن غِياث النصرانىّ الكاتب : اعتلَّ أبو الطيّب بمصر العلّةَ التى وصف الحُمَّى فى أبياته من القصيدة الميمية ، فكنتُ أواصل عيادته وقضاءَ حقوقها ، فلمَّا توجّه إلى الصلاح وأَبَلَّ ، أغْبَبتُ زيارته ، ثِقةً بصلاحه ، ولشُغْل قطعنى عنه ، فكتبَ إلىّ :

« وَصَلْتنى ، وَصَلَك الله ، مُعْتلاً ، وقطعتنى مُبلاً ، فإنْ رأيتَ أن لا تحبِّبَ العلّة إلىّ ، ولا تكدّر الصّحةَ علىَّ ، فعلتَ إن شاء الله » . [(٣)]

(١) هذا الخبر فى ترجمة ابن العديم السالفة برقم : ٥٤ .

(٢) الخبر فى ترجمة ابن العديم السالفة برقم : ٦٢ .

(٣) هذا الخبر فى ترجمة ابن العديم السالفة برقم : ٧٢ .

٣٥٧/٢ ٢٨ – / وقال علىّ بن حمزة البصرىّ : بلوتُ من المتنبىّ ثلاثَ خِصَال ذميمةً كُلَّ الذمّ ، وهى أنه ما صَامَ ولا صَلَّى ولا قرأ القرآن = وبلوتُ منه ثلاثَ خصالٍ محمودة : ما كذبَ ولا زنَى ولا لَاطَ .

٢٩ – وقال أبو العباس بن الحَوْت الورّاق : أنشدنى أبو الطيّب المتنبى لنفسه :

تَضَاحكَ منَّا دَهْرُنَا لَعِباً بِنَا وعلّمَنــا التمويـــهَ لو نتعلَّـــمُ
شَرِيفٌ زُغَاوِىٌّ ، وزانٍ مذكِّرٌ ، وأعمشُ كَحَّالٌ ، وأعمَى منجِّمُ (١)

٣٠ – وما أحسن قوله :

هنيئاً لكَ العِيدُ الذى أنْتَ عِيدُهُ ، وَعِيدٌ لمن سَمَّى وضَحَّى وعَيَّدَا
فذا اليومُ فى الأيَّامِ مِثْلُكَ فى الوَرَى كما أنتَ فيهم أوحدٌ كَان أوحدَا (٢)

٣١ – وقال ، وقد نُعِى فى مجلس سيف الدولة ، وهو يومئذٍ عند كافور بمصر :

يَا مَنْ نُعيتُ على بُعْدٍ بمَجْلسِهِ كُلٌّ بما زَعَـم الناعُـونَ مُرْتَهَـنُ
٣٥٨/٢ / كم قد قُتِلْتُ ، وكَمْ قَدْ مِتُّ عندكُمُ ، ثم آنتفضْتُ فزالَ القبرُ والكَفَنُ
قد كان شاهِدَ دَفْنى ، قبلَ قولِهِمُ ، جَمَاعةٌ ، ثم مَاتُوا قَبْلَ من دَفَنُوا
ما كُلُّ ما يَتمنَّى المرْءُ يُدْرِكُـهُ تَجْرِى الرِّياحَ بما لا تَشْتَهِى السُّفُنُ

٣٢ – وقال ، وقد مرضَ بمصر ، وهى أحسنُ ما وُصِفت به الحُمَّى :

ولمَّـا صَارَ وُدُّ النَّـاسِ خِبًّـا جَزَيتُ على آبتسامٍ بابتسامِ
وصِرْتُ أشُكُّ فِيمَنْ أَصْطَفيه لِعِلْمِـى أنَّـهُ بعضُ الأنَـــامِ
ولم أرَ فى عُيوبِ النَّاسِ عَيْباً كَنَقْصِ القادِرينَ على التَّمامِ

---

(١) الخبر فى ترجمة ابن العديم السالفة برقم : ٧٣ ، وشرح المعنى هناك .

(٢) انظر ترجمة ابن العديم السالفة رقم : ٧٤ .

أقمتُ بأرضِ مِصْرَ ، فلاَ وَرَائِى تَخُبُّ بِىَ الرِّكابُ ولا أَمَامِى
ومَلَّنِىَ الفِراشُ ، وكانَ جَنْبى يَمَــلُّ لِقــاءَهُ فى كُلِّ عَامِ
قليلٌ عائِدِى ، سَقِمٌ فُؤادِى ، كثيرٌ حَاسِدِى ، صَعْبٌ مَرَامِى
عَلِيلُ الجِسْمِ مُمْتَنِعُ القِيامِ ، شديدُ السُّكْر من غير المُدَامِ
وزَائرتِـــى كأَنَّ بها حَيَـــاءً فليسَ تَزُورُ إلاّ فى الظَّلامِ
بَذَلْتُ لَهَا المَطَارِفَ والحَشايَا ، فَعافَتْهـا وباتَتْ فى عِظامِـى
يَضيقُ الجِلْدُ عن نَفَسِى وعنها ، فتُوسِعُــهُ بأنــواعِ السَّقَــامِ
إذا ما فَارَقَتْنِى غَسَّلَتْنِــى ، كأَنَّــا عَاكِفــانِ على حَرَامِ
كأَنَّ الصُّبْحَ يَطْرُدُها ، فتَجْرِى مَدَامِعُهــا بأَربَعَــةٍ سِجَــامِ
/ أراقِبُ وَقْتِها من غير شَوْقٍ مُرَاقَبَةَ المَشُوقِ الــمُسْتهامِ ٣٥٩/٢
ويصدُقُ وَعْدُها ، والصِّدْقُ شرٌّ إذَا أَلْقاكَ فى الكُرَبِ العِظامِ
أَبِنْتَ الدَّهْر ، عِنْد كُلِّ بِنْتٍ ، فكيفَ خَلَصْتِ أنْتِ من الزِّحَام ؟
جَرَحْتِ مُجَرَّحاً لم يَبْقَ فِيه مَكَـانٌ للسُّيُوفِ ولِلسِّهَـــامِ
يقولُ لِىَ الطبيبُ : أَكَلْتَ شيئاً ! ودَاؤُكَ فى شَرَابِكَ والطَّعَـــامِ
ومـا فِى طِبِّــه أَنِّـــى جَوادٌ أَضَرَّ بجسْمِه طُولُ الجِمَامِ
فإن أُمْرضْ فَمَا مَرِضَ اصطِبارِى ، وإنْ أُحْمَمْ فمَا حُمَّ اعتِزَامِى
وإنْ أَسْلَمْ فما أَبْقَى ، ولكنْ سَلِمْتُ من الحِمَام إلى الحِمَامِ

° ° °

٣٣ – ورثاهُ أبو القاسم المظفَّر بن على الزَّوْزَنِىُّ الكاتب بقوله :

لا رَعَى اللّٰهُ سِرْبَ هٰذا الزَّمانِ إذْ دَهَانا فى مِثْل ذاكَ اللسانِ
كان من نَفْسه الكبيرةِ فى جَيْـ ـشٍ وفى كِبْرِياء ذِى سُلْطانِ
كانَ فى لفظِه نبيًّا ، ولكنْ ظهرَتْ مُعْجزاتُه فى المعانِـى

٣٤ — وقالت أختُ المتنبِّى لما قُتِل : (١)

يا حَازمَ الرَّأْى إلاّ فى تَهَجُّمِه على المكارِهِ ، غابَ البَدْرُ فى الطَّفَلِ
لَنِعْمَ ما عامَلَتْك المُرْهَفَاتُ بِه ! ونِعْمَ ما كُنْتَ تُولِيهَا من العَمَل !
/ الأرضُ أُمٌّ أصبْنَاهَا بواحِدِها فاسترجَعَتْهُ ، وردَّتْهُ إلى الحَبَل

٣٦٠/٢

° ° °

٣٥ — ومن عجيب نقد الشعر : أن المتنبِّى لما أنشد سيفَ الدولة بن حمدانَ قصيدته التى أوّلها :

* على قَدْرِ أهلِ العَزْمِ تأتى العزائمُ *

[فلما بلغ المتنبى إلى قوله :

وقفتَ ، وما فى المَوْتِ شَكٌّ لواقِفٍ] ، (٢) كأنك فى جَفْنِ الرَّدَى ، وهو نائمٌ
تَمُرُّ بِكَ الأبطالُ كَلْمَى هَزِيمَةً ، ووجْهُك وَضَّاحٌ وثغرُك باسِمُ

[قال سيف الدولة : قد انتقدتُهما عليك] ، (٣) كما انتُقِد على آمرىء القيس قوله :

كأنِّىَ لم أركَبْ جَواداً لِلَذَّةٍ ولم أَتَبَطَّنْ كاعبًا ذاتَ خَلْخَالِ
ولم أَسْبَإِ الزِّقَّ الرَّوِىَّ ولم أَقُلْ لَخيلِى : كُرِّى كَرَّةً ، بعد إجْفالِ

فكما كان ينبغى لامرىء القيس أن يركِّبَ القسم الأخير من بيته الأول ، على القسم الأول من بيته الثانى ، فيقول :

---

(١) شعرها فى ترجمة ابن العديم السالفة برقم : ٨٣ .
(٢) الكلام متصل فى المخطوطة ، وما بين القوسين هو حق الكلام .
(٣) الكلام متصل فيها ، وحق الكلام ما أثبت .

٣٦١/٢

/ كأنى لَمْ أركَبْ جَوَاداً ، ولم أقل لخيلَىْ كُرِّى كَرَّةً ، بعدَ إجفالِ
ولم أَسْبَأ الـزِّقَ الـرَّوِىَّ للـذةٍ ولم أتبطَّنْ كاعباً ذات خلخالِ

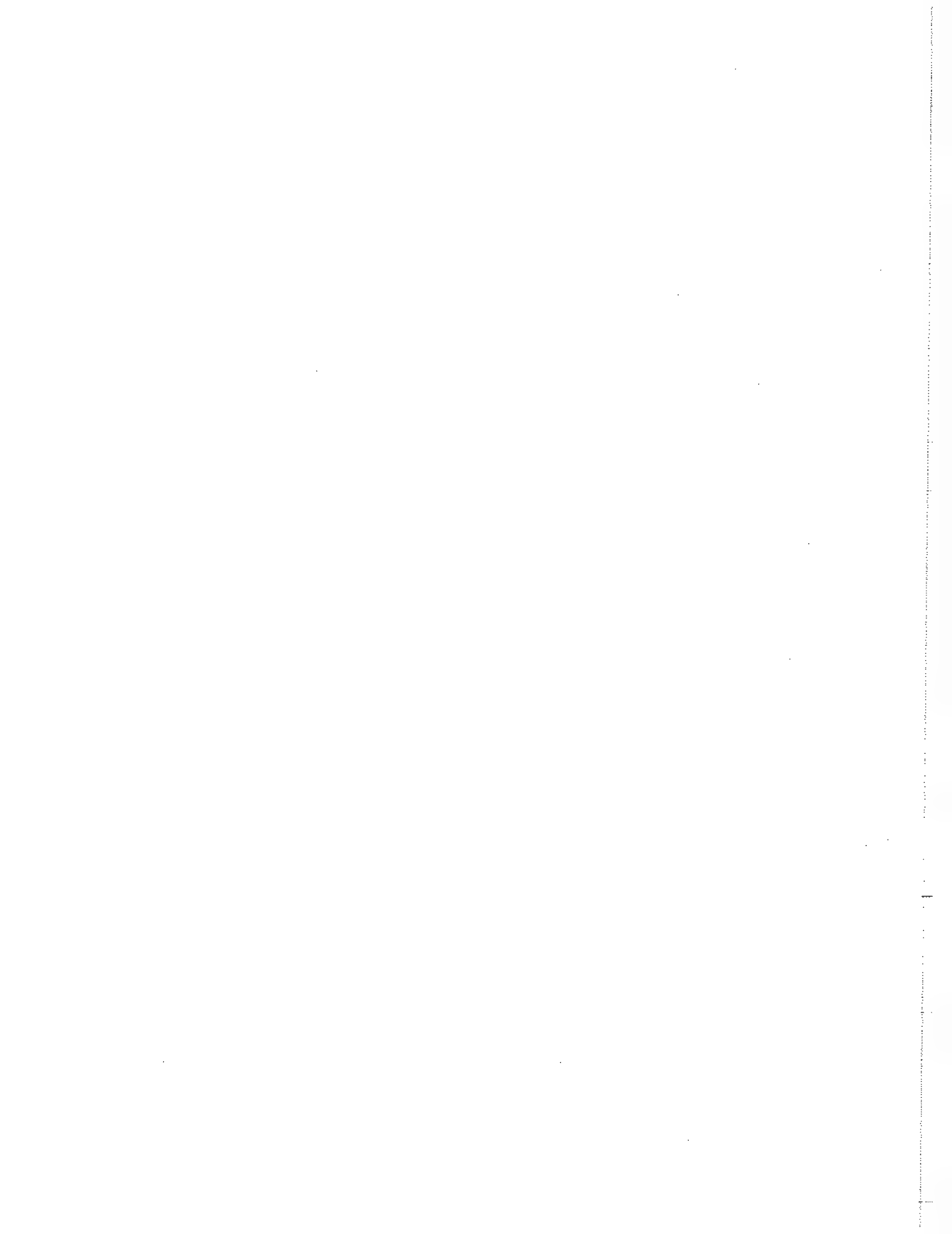
فيقرن لذة الشرب بلذة النكاح ، وركوبَه الجواد بأمرِهِ خيلَهُ بالكرِّ = فكذلك كان ينبغى أن تركب هذين البيتين فتقول :

وَقَفْتَ وما فى الموتِ شَكٌّ لواقِفٍ ووجْهُك وضاحٌ وثَغْرُك باسِمُ
تمُرُّ بكَ الأبطالُ كَلْمَى هزيمَةً كأنَّكَ فى جَفْنِ الرَّدَى وهو نائِمُ

حتى يأتلف المَدْحُ بتيقُّن الموت ، مع توضُّح الوجه وتبسُّم الثَّغر ، ويأتلف .... (١)

* * *

(١) الكلام غير تام فى المخطوطة . والقصة معروفة ، انظر نسخة ديوان المتنبى ص : ٢٧٧ طبعة الدكتور عبد الوهاب عزام . الصبح المنبى (دار المعارف) ص : ٨٤ ، ٨٥ .



الفهارس

هذا الكتاب أربعة أقسامٍ :

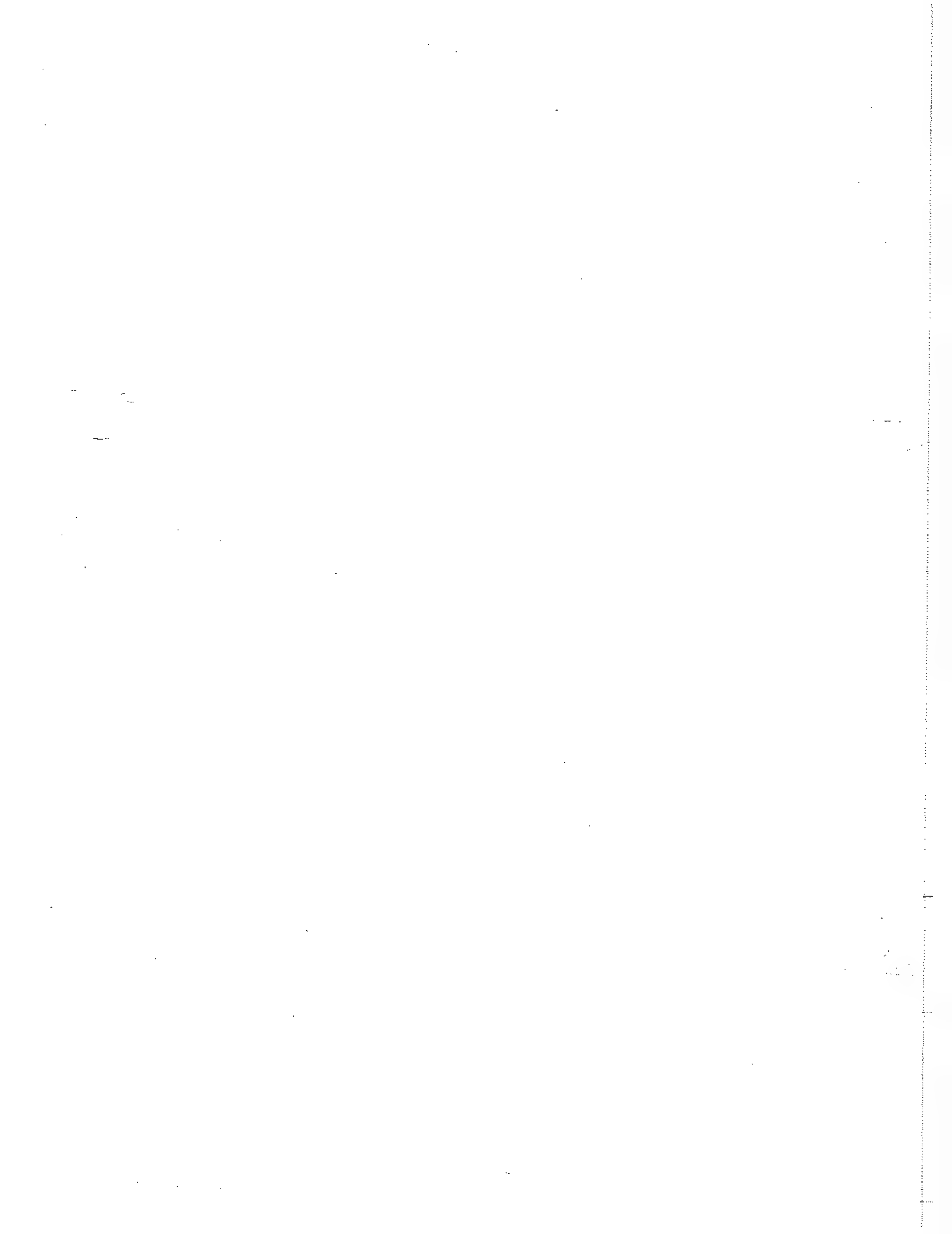
الأوّل : « قصة هذا الكتاب ، وفساد حياتنا الأدبية » . ورمزت لهذا القسم فى الفهارس بالعدد المغربى (1)

الثانى : « كتاب المتنبى » ، ورمزت لهذا القسم فى الفهارس بالعدد المغربى (2)

الثالث : « قضية المتنبِّى » ، ورمزت لهذا القسم فى الفهارس بالعدد المغربى (3)

الرابع : « أربع تراجم للمتنبِّى ، لم تُنْشَر » ، ورمزت لهذا القسم فى الفهارس بالعدد المغربى (4)

فوضعت هذا الرمز قبل أرقام الصفحات التى تليه ، تيسيراً وتوضيحاً لما تطلبه فى الفهارس ، فى أى الأقسام الأربعة يقع ما تطلبه .



فهـرس شعـر أبي الطيب

أبيات لغير المتنبى

* * *

* * *

فهرس الحديث والأمثال

* * *

أمثال

* * *

أمثالٌ عاميّة

سيرة أبى الطيب المتنبى
(أفردتها بالذِّكْر ، ولم أدخلْ بعضَها فى فهارس الأعلام)

- صاحب المتنبي (الحسن بن حامد التاجر) : 4 . ٥٩١
- صاحب المتنبي (الحسن بن علي بن الخلاب) : 4 . ٦٣٥
- دارُ المتنبِّي بحلب : 4 . ٦٠٨ ، وانظر أيضاً « زبدة الحلب » لابن العديم ٣ : ١٧
- ضيْعَة المتنبي بمعرة النعمان (بَصَّف) : 4 . ٦٣١

* * *

- عمود صورة المتنبي ، كما رأيتُها : I ٤٩ — ٧٥ ، ٧٧ ، ثم الكتاب كُلُّه .

* * *

- هذا موجز سيرة المتنبِّي . ثُم إذا ما تصَفَّحْت « فهرس الأعلام » ، وجدت كثيراً مما يمكن أن يُضَمّ إليه ، من ذكر من روى عن المتنبي ، أو من رآهُ أو سمعه أو صحبه ، أو كَتب شعره أو ديوانه ، أو طارحه الحديث . وبعض ذلك مُبَيَّن أمام بعض الأعلام المذكورة في الفهرس الذي يلي هذا .

* * *

فهرس الأعلام

* * *

* * *

فهـرس المواضـع

أماكن أخرى

فهرس الكتب

كتب عن المتنبى

* * *

سائر الكتب

* * *

* * *

صحف ومجلات

مكاتب

* * *

الفرق وأشباهها

* * *

فهـرس
رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا

* * *

(٣٩) محاولتى قراءة شعر الجاهلية وما بعدها ، لكى أؤرخها « بالتذوّق » (٤٠) قراءة شعره وأخباره ، « متذوِّقاً » ، وبفائدة ذلك . (٤١) كيف تَمَّ تأليف هذا الكتاب (٤٣) خبر أمين المعلوف واستدلاله على حُبّ المتنبّى « خولةَ » أخت سيف الدولة ، وهو نفس ما انتهيتُ إليه فى هذه القضية (٤٦) كيف بدأتُ كتابة « المتنبّى » بعد طول تردّدٍ وخوفٍ ، وقد استقرَّ مَذْهبى فى « تذوّق » الشعر والأخبار .

(٤٩) « عَمُود صورة المتنبّى » فى كتابى هذا ، منذ مولده إلى يوم مقتله . (١) فى الكوفة من سنة ٣٠٣ – ٣٢٠ غلامٌ علوىُّ النسب (ب) خروجه بالشام لإعلان علويّته ، وإبطال خبر ما زعموه من ادعاء « النبوة » من سنة ٣٢١ – ٣٢٣ (ج) من سنة ٣٢٣ – ٣٣٦ ، رحلته فى الشام ، يتخللُّها دخوله الكوفة سنة ٣٢٥ (د) من سنة ٣٣٦ – ٣٤٦ ، لقاؤه أبا العشائر ثم مصاحبة سيف الدولة (هـ) حبه « خولة » أخت سيف الدولة ، ثم مفارقة الشام إلى مصر من سنة ٣٤٦ وإقامته بها إلى سنة ٣٥٠ (و) ثم رحيله عنها إلى العراق ، ثم مقتله سنة ٣٥٤ (ز) شخصيته أبى الطيب العامة فى الكتاب عن طريق « التذوّق » (ح) حبّ أبى الطيب لجدته وزوجه وعياله ، وحبّ « خولة » ، واستخرجت هذا كله عن طريق « تذوّق الشعر والأخبار » = ثم شرح هذه الفقرات الثمانية .

(٥٤) ادّعاء « علوية المتنبى » ، كان فرضاً محضاً فى سنة ١٩٣٦ ، ثم فى سنة ١٩٥٨ وقفت على أول نصٍّ يؤيّد ما ذهبت إليه (٥٥) فى سنة ١٩٦٢ ظهر نصٌّ ثانٍ يؤيّد ما ذهبت إليه فى علوية المتنبّى ، ويؤيد أيضاً ما استنبطته بالتذوّق أنه كان لا يحبُّ الشيعة (٦١) علوية أبى الطيب ، ومسألة كتمان النسب ، وشرحُ هذه القضية (٦٥) دخوله على ابن دريد فى نحو سنة ٣٢٠ ، خبر جديد أيضاً (٦٦) مع سيف الدولة فى السياسة (٦٨) شرح عواطف أبى الطيب (٧٠) شرح قضية أبى الطيب فى مصر عند كافور ، وأثر فراقه سيف الدولة فى نفسه . ونظرةٌ فيما يتضمنه شعره فى مدح كافور من السخرية والازدراء .

(٧٥) « الغمراتُ ثم يَنْجَلينُ » ، بعد ظهور كتابى « المتنبى » ، ذكر خبر الرافعىّ ، وخبر العقاد

(٧٩) « كتابان فى علم السطو » . و « السطو » هو السنة التى سنّها أدباؤنا الكبار فى الحياة الأدبية . كتابان أُلِّفا بعد ظهور كتابى ، وهما من الأدلة على فساد حياتنا الأدبية بسنة « السطو » الباقية إلى يومنا هذا ، بل لعلها اليوم أشد بشاعة . الكتاب الأول : « ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام » للدكتور عبد الوهاب عزام ، وبعضُ دلائل السطو والفساد = (٩٩) الكتاب الثانى : « مع المتنبىّ » للدكتور طه حسين ، وفى الكتاب ما فيه ! (١٢٢) خاتمة فساد حياتنا الأدبية بالسنن الفاسدة التى سنها شيوخُنا وأدباؤنا الكبار

* * *

« المتنبِّى » (2)

* * *

* * *

* * *

* * *

* * *

(٣٥٧) أسباب فراقه سيف الدولة وتفنيد الروايات التى ذَكَرَتْ أسباباً لا يُعْتَدُّ بها ، لتناقضها وضعفها (٣٥٨) الوشايات التى كان يُكاد بها عند سيف الدولة منذ سنة ٣٤٢ وما كان من عداوة أبى فراس وأبى العشائر له ، لحبه « خولة » (٣٦١) خروج أبى الطيب إلى كافور ، و « ابن مَلَك » اليهودى الذى أراد أن يُغْرِىَ كافوراً بأبى الطيب ، ونزوله بالرملة حيث مدح ابن طغج وأبا طاهر العلوى ؛ وحرص كافور على أن يقصده أبو الطيب (٣٦٢) ودلالة أول قصيدة مدح بها كافوراً على ازدرائه له وسخريته به ، وعلى ما فى قلبه من الشجنِ لفراق سيف الدولة وأخته « خولة » (٣٦٣) بطلان قصده كافوراً لطلب عطائه وماله . دلالة سائر قصائده فى مدح كافور من هجاءٍ خفىّ لكافور (٣٦٦) فهم كافور لتعريض أبى الطيب به وبسواده ، وتضييقه من أجل ذلك على المتنبى ، حتى فرَّ منه المتنبِّى وفارقه ، وعداوته لابن حنزابة ، وإعجاب المتنبى بأبى شجاع فاتك « المجنون » (٣٦٧) خروجه من الفسطاط خفيةً ، ونجاته من أسْر كافور

* * *

* * *

* * *

نُبوةُ المتنبى

* * *

كلمة الرافعى

* * *

أربع تراجم للمتنَبِّى لم تُنْشَرْ (4)

* * *

***